علي مولا

أعمال خالدة

ثربانتس

دون كيخوته

ترجمة

عبد الرحمن بدوي



دون كيخوتـه

أعمال خالدة
١

دون كيخوته

ثربانتس

(الجزء الأول)



ترجمه عن الاسبانية

د. عبد الرحمن بدوي



١

أعمال خالدة



اسم المؤلف : ثربانتس
عنوان الكتاب : دون كيخوته/١
ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨

Author : Miguel de Cervantes
Title : Don Quijote de la Mancha
Translator: Dr. Abdel-Rahman Badawi
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي
ص.ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

تصدير عام

ثربانتس ودون كيخوته

روائع الأدب العالمي أربع : «الإلياذة» لهوميروس ، و«الكوميديا الإلهية» لدانته ، و«دون كيخوته» لثربانتس ، و«فاوست» لجيته .

وها نحن أولاء نقدم الى القارئ العربي الثالثة من هذه الروائع .

والصفة السائدة في الأولى هي البطولة ، وفي الثانية القداسة ، وفي الثالثة التهكم ، وفي الرابعة الإنسانية .

ودون كيخوته تجسُّد للمثال ، وللقيم المجرّدة ؛ إنه الجانب المثالي من الوجود ، الذي يصرعه الجانب الواقعي ، ويظل الصراع بين كلا الجانبين متصلاً ، لا يفتُّ في عضده انتصار الواقع على المثال باستمرار . ومن هنا كان هذا الديالكتيك الحي الذي يمثل طرفيه كل من الفارس دون كيخوته وحامل السلاح سنشو پنثا . ولهذا كانت قصة «دون كيخوته» هي قصة الوجود نفسه بقطبيه المتنافرين المتصارعين المتنازعين ، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك الوجود ؛ وكانت شخصية دون كيخوته من النماذج الإنسانية العليا ، الى جانب پروميثيوس ، وفاوست ، وهاملت ، ودون جوان . إن دون كيخوته يمثل روح الإنسان ، أما رفيقه سنشو پنثا فيمثل بدن الإنسان ، هذا الرفيق الأصيل للروح .

- ١ -

حياة ثربانتس

أما المؤلف فهو ميجيل دي ثربانتس سابدرا Miguel De Cervantes Saavedra الذي ولد في قلعة هنارس ، وعمِّد في كنيسة القديسة مريم الكبرى في التاسع من شهر أكتوبر سنة ١٥٤٧ . وكان أبوه ، رودريجو دي ثربانتس ، جرّاحاً ، وأمه ، ليونور دي كورتيناس .

وأمضى طفولته في مدينة بلد الوليد حيث كان أبوه يمارس مهنته . ويقال إنه درس عند اليسوعيين في «مدرسة الجماعة» في إشبيلية . وربما يكون قد درس أيضاً في شلمنقة لأن في مؤلفاته إشارات غريبة إلى هذه المدينة المشهورة بجامعتها الدينية «والتي تسمى في كل العالم أم العلوم ، ويدرس فيها في العادة من عشرة إلى اثني عشر ألفاً من الطلاب ، وهم زمرة فتية ، يغلبها الهوى ، وفيها اندفاع ، وحرية ، وتصنع ، وإسراف ، وظرف ، وشيطنة ومزاج »[1] . كما أنه درس في مدريد لمدة قصيرة .

وسافر إلى إيطاليا لأسباب اختُلِف فيها : فزعم البعض أنه هرب الى إيطاليا خوفاً من توقيع العقاب عليه بسبب مبارزة بينه وبين شخص يدعى أنطونيو دي سيجورا ، ويقال إنه حكم على من يدعى «ميجيل دي ثربانتس» Zerbantes بسبب ذلك بالنفي عشر سنوات وقطع يده اليمنى . ولكن هذه الدعوى لاتزال بمعزل عن كل تأكيد[2] . ـ وفي إيطاليا عمل في حاشية الكردينال جولو أكواڤيڤا Acquaviva . وتعلم اللغة الإيطالية ، واستطاع أن يقرأ كبار الكتاب الإيطاليين في الأصول ، وأعجبه منهم خاصة أريوستو ، وسيتأثر بملحمته «أورلندو الغاضب» في قصته هذه «دون كيخوته» . ولذّت له الحياة الحرة في إيطاليا في ذلك العصر ، عصر النهضة بروحه الطلقة ، وحساسيته المرهفة المتفتحة للجمال والآداب والفنون ، وتأثره بروائع الفن والأدب اليونانيين . وقد قدّم لنا ثربانتس في قصة «المجاز ڤدريبرا» صورة جميلة لفيرنتسه (فلورانس) «ذات الموقع البديع... النظيفة ، ذات الأبنية الفخمة ، والنهر العذب والطرقات الهادئة» . ونعت روما بأنها «سيدة الدنيا» ، وقد أعجبه فيها مرمرها المتداعي ، وتماثيلها الكاملة والنصفية ، وأقواسها المقطوعة ، وحمّاماتها المتهدمة ، وبواباتها الرائعة ، ومدرجاتها الواسعة . وطالما تردد ذكر روما في قصصه وأشعاره ، وكأنها رؤيا ساحرة .

وانخرط في الجندية سنة ١٥٦٨ فتبدى عن جندي صعب المراس . واشترك في معركة الليپانتو Lepanto البحرية (٧ أكتوبر سنة ١٥٧١) ، وهي المعركة التي وقعت بين الأتراك من ناحية ، والبنادقة والإسبان وبعض الأوروبيين من ناحية أخرى ، وكان الأسطول التركي

---

(١) راجع عن دراسات ثربانتس :

a) Rodriguez Marin: Cervantes estudio en Sevilla (1905);

b) Rodriguez Marin: Cervantes y la Universidad de Osuna, in, Homenaje a Menandez y Pelayo, 1899;

c) Narciso A. Cortes. Cervantes en valladolid, Madrid, 1918;

d) Blanca de los Rios: "Estudio Cervantes an Salamanca"? in Espana Moderna, 1899.

(٢) Jeronimo Moran: Vida de Cervantes, Madrid 1867.

مؤلفاً من ٢٠٠ جاليره تتلوها سفن صغيرة أخرى ؛ بينما كان الأسطول المسيحي مؤلفاً من ٢٠٠ جاليره تتلوها سفن صغيرة عديدة ، عقد لواؤها لدون خوان النمساوي ، وانتهت بهزيمة الأتراك ، مما أوقف التوسع العثماني في البحر الأبيض المتوسط . وفي هذه المعركة فقد ثربانتس يده اليسرى كما قال ؛ ولكن ذراعه لم تُقطع ، بل فقد القدرة على استعمالها فقط .

وهذا الحادث ظل ثربانتس يتباهى به طوال حياته ، وينشد فيه القصائد .

كذلك اشترك في حملة كورفو (جزيرة يونانية) ، وفي مغامرات القرصان وغاراتهم على نوراين وتونس . واشتهر جندياً ممتازاً ، وهو في پالرمو مع فرقته .

وفي طريق عودته الى اسبانيا هاجمت سفينة الجاليرات التركية ، وأخذته أسيراً الى مدينة الجزائر . وهنا في الجزائر قضى خمس سنوات أسيراً سجيناً . وكانت الجزائر ، كما وصفها ، آنذاك مركزاً لأعمال البحرية التركية والإسلامية بعامة ؛ يأوي إليها القراصنة من كل أنحاء الدنيا . وحاول في أثناء أسره أن يهرب ، ودبّر خطة لذلك مع بعض الأسرى الاسبان ، ولكن الخطة فسدت ، وكاد أن يقتل . ولما لم تُجد خطة الهرب لم يجد غير الفدية بالمال وسيلة لإطلاق سراحه . وكتب الى كاتب الملك فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، يتوسل إليه أن يحث الملك على تحرير هؤلاء الأسرى النصارى في رسالة طويلة تفيض شكوى وأسى . ولكن فيليب لم يستطع إنقاذ هؤلاء . فلم يكن أمام ثربانتس من وسيلة غير الفدية بالمال . وقد تم ذلك في سنة ١٥٨٠ بتوسط من الأخ التثليثي خوان خيل .

وفترة الأسر هذه التي قضاها ثربانتس في مدينة الجزائر كان لها أعمق الأثر في نفسه وفي إنتاجه . وقصة «دون كيخوته» خير شاهد على هذا الأثر البالغ . ففيها فصول طوال تصف أحداثه في الجزائر ، واتخذ من هذه المدينة إطاراً لأحداث جميلة رواها ؛ كما أن معرفته بالقليل من العربية قد ظفر بها في أثناء هذا الأسر .

* * *

عاد ميجيل دي ثربانتس إذن الى وطنه في سنة ١٥٨٠ . ولكنه عاد ليلقى هنا العذاب والشقاء والإنكار والفقر والحرمان .

عاش في مدريد ، وبلد الوليد . وتزوج من السيدة كتالينا دي پلاثيوس ، وهي من اسكيياس Esquivias ، وكان زواجاً غير موفق .

وعاش في إشبيلية ، «ويا لها من مدينة! كم فيها من حياة وحركة ، وغدو ورواح ، وتنوع في الأزياء ، واختلاط في اللهجات كأنها برج بابل ، وتدافع العربات المحملة

بالثروات! ويا لنشاط التجارة في بيت العقود الخاصة بأمريكا ، ويا لضجة الميناء! وما أجمل وأرق حواشي شطآن الوادي الكبير! وما أفتن النساء الغاديات في الطرقات أو المتطلعات من النوافذ! أي وسط لذيذ! أي شمس رائعة! وأي سماء رافلة في الحبور...! » ـ كما قال رود ريجث مارين في مقدمة نشرته النقدية لقصة « رنكونيته وكورتاديو »[1] . ويلوح أنه شارك في هذه الحياة الشهوانية العَرِمة الحاملة بالأحاسيس . وربما ترجع الى هذه الفترة حادثة غرامه مع أنا فرنكا دي روخاس Ana Franca de Rojas التي كانت ثمرتها بنتاً غير شرعية سميت إيزابلّ دي سابورا ، وقد تزوجت زواجاً عجيباً ، أثار الشائعات الغريبة حولها وحول أبيها غير الشرعي[2]!

وكان يغشى الأوساط الأدبية ، ولكنه لم يلق فيها غير الإنكار . وكان أشد الأدباء حملة عليه ـ غيرة منه وحسداً ـ لوپه دي بيجا المؤلف المسرحي الغزير وزعيم المسرح الإسباني .

وعلى الرغم من أن «دون كيخوته» طبعت عشر طبعات منذ ظهورها في مدريد سنة ١٦٠٥ فإنها لم تدر على صاحبها ما يكفل له الكفاف!

فعاش ثربانتس بائساً ، يتردد بين السجن وبين حياة أقرب ما تكون الى حياة السجن ، ويتعيش من الكتابة للفتيات اللواتي لا يستطعن الكتابة! بعد أن فقد وظيفته محصلاً للضرائب ، الى أن توفي في الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٦١٦ .

ـ ٢ ـ
مؤلفاته

كان ثربانتس شاعراً ، ومؤلفاً مسرحياً ، وقصصياً يكتب الأقاصيص القصيرة والقصة الطويلة .

ولكن شعره ليس في مرتبة عالية ؛ بل هو أضعف جوانبه ، حتى لقد قال عنه لوپه دي بيجا : إنه أسوأ الشعراء الجُدد . ومعظم قصصه ومسرحياته يتخللها الشعر المتفاوت الجودة والطول . وأطول قصائده تلك التي بعنوان «رحلة البرناسو» (مدريد ، سنة ١٦١٤) ، وقد استلهم فيها الشاعر الإيطالي اتشزري كابورالي دي پروجيا (١٥٣١ ـ ١٦٠١) . وفيها عقد

---

(١) Rinconete y Cortadilla, novela de Migual de Cervantes Saavedra. Edicion critica de Francisco Rodriguez Marin, Sevilla, 1905.

(٢) راجع في هذا الموضوع Fitzmaurice-Kelly: Migual de Cervantes, 1917 صفحات ١٤٤–١٨٠ .

اجتماعاً بين الشعراء في حضرة أبولو ، لم يجد ثربانتس فيه مكاناً لنفسه فاضطر الى الجلوس على معطفه في هذا الحفل العالي ؛ ورمز بذلك الى السخرية من نفسه ، والى مكانته الفعلية في عالم الشعر .

ومسرحه لا يفضل كثيراً شعره . ومن أهم مسرحياته : «نومانثيا» ، «حمامات الجزائر» ، «الجلف السعيد» ، «أوردمالس» . وهي مسرحيات تمثل الإنفعالات والشخصيات ، ولا يهتم فيها بالعقد والحبكات ؛ وأحياناً تكون الشخصيات رمزية ، تعبر عن أحوال نفسيه معقدة أو مبادئ أخلاقية .

أما ميدانه الحقيقي فهو القصص : القصيرة والطويلة .

وقد بدأ بقصة رعوية هي «جالطيه» Galatea التي نشرها في سنة ١٥٨٥ ، وكان قد فرغ منها في سنة ١٥٨٣ وهو في سن السادسة والثلاثين . وهذا النوع من القصص قد انتشر في اسبانيا منذ منتصف القرن السادس عشر بعد أن استُورِد من إيطاليا ، وإن كان قد ظهر قبل ذلك ما يشبه النوع الرعوي عند غالسيا ورئيس الكهنة في هينا (المتوفي حوالي سنة ١٣٥٠م) ، والمركيز دي سنتيّانا وجرثيلاسو . ولكن القصة الرعوية بالمعنى الدقيق لم تظهر قبل سنة ١٥٤٩ حين نشرت أول ترجمة اسبانية «الأركاديا» تأليف يعقوب سنثارو (١٤٥٨ - ١٥٣٠) وهو من نابلي ولكن أصله من اسبانيا ، وقصة «أركاديا» هي النموذج لكل القصص الرعوية من بعد . ومن ثم انتشر هذا النوع في إسبانيا انتشاراً هائلاً في العصر الذهبي (القرن السادس عشر) . ويتميز هذا النوع بالخصائص التالية : الرعاة ليسوا غير فرصة للتمويه عن شخص حقيقي ، ليس من أفراد الشعب ، بل هو من رجال البلاط ، ولغته رفيعة ؛ والطبيعة التي يصفها هؤلاء القصاص طبيعة زائفة ؛ تعوزها الطراوة والنضرة ؛ وليس فيها أحداث ذات بال ، بل أمور عارضة أغلبها غير قابل للتصديق ؛ والأسلوب فيها يجمع بين النثر والشعر . ومن أبرع من كتبوا في هذا النوع في ذلك العصر من الاسبان : مونتمايور ، وخيل پولو ، ثم صاحبنا ثربانتس . وفي دون كيخوته آثار واضحة لهذا النوع ، كما يتبين للقارئ .

ولكن الفن القصصي تجلى أكثر في أقاصيصه التي دعاها باسم «أقاصيص نموذجية» Novelas ejemplares ، وهي : «النَّوَرية» ؛ «العاشق الحر» ؛ «رنكونيته وكورتاديّو» ؛ «الاسبانية الانجليزية» ؛ «المُجاز ڤدرييرا» ؛ «قوة الدم» ؛ «الغيور الاستريمادوراوي» ؛ «الغسالة الشهيرة» ؛ «الفتاتان» ؛ «السيدة كورنليا» ؛ «الزواج الخدّاع» ؛ «حديث الكلاب» . ويمكن تقسيمها الى طوائف : (١) الطائفة الأولى تسود فيها النبرة المثالية ،

والتأثير الإيطالي ، مثل «العاشق الحر» ؛ «الفتاتان» ؛ «السيدة كورنليا» ؛ «الإسبانية الإنجليزية» ؛ «قوة الدم» . (٢) والطائفة الثانية تجمع بين النزعة المثالية والنزعة الواقعية ، وتشمل : «النوّرية» ؛ «الغسالة الشهيرة» ؛ «الغيور الاستريمادوراوي» . (٣) والطائفة الثالثة تسودها النزعة الواقعية ، وتدخل فيها : «رنكونيته» ؛ «الزواج الخداع» ؛ «حديث الكلاب» ؛ «المُجاز ڤدرييرا» . والى الطائفة الأولى تنتسب حكاية «الأسير» في «دون كيخوته» ؛ والى الطائفة الثانية تنتسب حكاية «الوقح العجيب» في «دون كيخوته» .

ولما كان في عزمنا أن نترجم هذه «الأقاصيص النموذجية» فإننا نمسك هنا عن الخوض في تحديد خصائصها ، مرجئين الحديث عنها الى التصدير الذي سنستهل به هذه الترجمة . ولنمض الى القصة الطويلة ، الى رائعته الكبرى ، «دون كيخوته» .

ـ ٣ ـ
«دون كيخوته»

نشر ثربانتس الجزء الأول من هذه الرائعة تحت عنوان «النبيل البارع دون كيخوته دلامنتشا» El ingenioso hidalgo don Quijote de la Mancha ، في مدريد سنة ١٦٠٥ عند الطابع خوان دلاكوِستا . لكن بعض المعاصرين يشير الى أن هذا الكتاب قد تداولته المحافل الأدبية في القصر الملكي وهو مخطوط قبل أن يطبع . كذلك ذهب البعض الى الزعم بأن الكتاب هو توسع لأقصوصة قصيرة ، ولكن هذا الزعم على غير أساس .

وطريقة تأليف الكتاب تثير الكثير من المشاكل . فالجزء الأول قسّمه المؤلف نفسه الى أربعة أقسام ، ولكن المؤلف عند نهاية القسم الأول من هذا التقسيم الرباعي يذكر أن ختام حادثة دون كيخوته مع الفتوة البشكونشي لم يوجد ، ولكن ثربانتس «لم ييأس أبداً من أن يعثر على خاتمة هذه الحادثة الشائقة» . ثم عدل ثربانتس عن هذا التقسيم حين نشر الجزء الثاني . وصار يتألف من جزئين .

ومشكلة أخرى هي عدم الإحكام في التأليف ، إذ تخلله الكثير من الحكايات العارضة التي تقطع تسلسل الرواية .

وهنا نصل الى مشكلة التأثرات .

لقد رأى منندّث پيدال Menendez Pidal أن الفصول الأولى من «دون كيخوته» متأثرة بمسرحية قصيرة entremes صاحبها مجهول ؛ والدليل على ذلك أن البطل يرى نفسه في أبطال الأغاني الملحمية الشعبية ، بينما في سائر الكتاب لا يفقد الشعور بشخصيته . ومن

ناحية أخرى ذهب بعض النقاد الى الظن بأنه وجد في الواقع مجنون ، استوحى منه ثربانتس شخصية دون كيخوته . والواقع أنه منذ القرن السادس عشر وحوادث جنون من هذا النوع يذكر وقوعها ، جنون سببته قراءة كتب الفروسية . فقد ذكر ثاپاتا (١٥٢٦ ـ ١٥٩٥) Luis Zapata في كتابه «الأمشاج» Miscelanea ـ وهو كشكول جامع لحوادث ، وأقوال ومنازعات ـ حادثاً من هذا النوع فقال : «ولا شيء أعجب بين حوادث عصرنا العجيبة من فارس هادئ جداً ، عاقل جداً ، محترم جداً . ولكنه خرج مجنوناً من القصر بغير سبب ، وبدأ في ارتكاب حماقات أورلندو ، فانتزع ملابسه ، وصار عارياً ، وقتل حماراً بطعنات سكين ، وطارد العمال بالعصا ؛ ولما لم يعرفوا السبب في ذلك قالوا إنه ورث ذلك عن إحدى عماته ، وهكذا من المؤكد أن ثمة أحوالاً وصفات وراثية» .

ويقول مينندث پلايو Menendez Pelayo إن في «دون كيخوته» كل نماذج القصة السابقة على قصته . فالنوع الرعَوي يظهر في حكاية مرثيلا وخريستمو ؛ والنوع العاطفي يتجلى في أخبار كردنيو ولوسنده ودوروتيه . وثمة تشابه في بعض الحكايات مع قصة «ديانا» تأليف مونتمايور . والآثار الإيطالية ظاهرة في ثنايا الحكايات التي يحفل بها «دون كيخوته» .

وهناك أشباه ونظائر خصوصاً بين هذا وبين «أورلندو الغاضب» لأريوستو ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان معجباً بهذا الكتاب أثناء مقامه في إيطاليا .

كذلك رأى أولڤر أسين[1] أن ثمة ما يدل على تأثير خوان دي ڤالدس (المتوفي سنة ١٥٤١) في ثربانتس ، وكان ڤالدس مصلحاً دينياً وناقداً أدبياً ، وعالماً باللغة الإسبانية .

وبالجملة فقد خضع ثربانتس في «دون كيخوته» لجملة تأثيرات أدبية : من حيث النوع الأدبي ، والتصوير للأشخاص ، حتى لكأن هذه القصة جماع لكل الفن القصصي كما عُرف حتى ذلك الحين .

(أ) الدوافع إلى تأليفه:

والدافع الظاهري الأول الى تأليف هذه القصة هو السخرية من قصص الفروسية التي انتشرت انتشاراً هائلاً في اسبانيا في ذلك العصر ـ القرن السادس عشر ـ وكان لها ضحاياها . إذ يصرح في «الاستهلال» بأن القصد من كتابه «ليس إلا كبح بل تحطيم ما

---

(١) Oliver Asin: Iniciacion al estudio de la Historia de la lengua Española, 1939, p. 120.

لكتب الفروسية من تأثير وسلطان عند عامة الناس » ، وصديقه المزعوم يقول له : « ولتتطلع ببصرك الى تحطيم هذه الآلة الفاسدة المؤلفة من كتب الفروسية ، مما يعافه الناس ، ويثني عليه أكثرهم » . كذلك يقول في ختام الكتاب : « وكان هدفي هو أن أجعل الناس يكرهون القصص المفتعلة الخيالية التي ترويها كتب الفروسية ، والتي بدأت ـ بفضل قصص « دون كيخوته » الحقيقي ـ تنهار ولابد أن تسقط في النهاية » .

ولو تساءلنا عن الأسباب التي من أجلها يهاجم ثربانتس كتب الفروسية ، لوجدناها ترجع الى الأسلوب ، والى المادة .

فالأسلوب مفتعل ، كله صناعة وتعقيد . وثربانتس يرى أن يكون الأسلوب بسيطاً ، وخالياً من الصنعة .

وأما من حيث المادة فهو يأخذ عليها الكذب الذي تحفل به . إنها كاذبة ، زائفة . ولهذا يقول شماس طليطلة إن هذه الكتب شديدة الضرر على المجتمع ، وكلها يشبه بعضها بعضاً ، وهي تشبه الخرافات التي لا يراد منها غير الإمتاع ، لا تلك التي يراد منها ضرب الأمثال والإمتاع معاً .

وعلى هذا فإن فساد كتب الفروسية يقوم أولاً على أساس أنها تخلو من الاحتمال ، فهي بالتالي يعوزها الصدق الأدبي . وثربانتس يهاجم الأدب القائم على الخيال الجامح ، الذي يتفنن في خلق مواقف غير معقولة ، وفي إيراد مخارج منها أشد إيغالاً في عدم المعقولية . أعني أن ثربانتس كان يشترط في الأدب أن يكون صادقاً معقولاً ، بعيداً عن الخوارق والتهاويل ، واقعياً قدر الإمكان ، يحسب حساباً للطبيعة الإنسانية بعيوبها ونقائصها ومحدود قدرتها .

والنقد الثاني يقوم على أساس نظرة كلاسيكية في تقدير الأعمال الأدبية ، نظرة تقول بالاعتدال والتوازن والتناسب ، وتنفر من التهويل والمبالغة .

والنقد الثالث يقوم على أساس افتقار كتب الفروسية الى الحقيقة التاريخية .

ولكن إذا كان ثربانتس قد هاجم كتب الفروسية من ناحية النقد الأدبي ، فإنه في الواقع تأثر بها ، كما كان عصره متأثراً بها .

وكما لاحظ سلفادور دي مدرياجا[١] في بحثه العميق عن « دون كيخوته » بأن كتب الفروسية كانت واسعة الانتشار في كل أوروبا الغربية ، وليس في اسبانيا وحدها . وهناك ثلاث حقائق ينبغي أن نحسب حسابها :

---

(١) Salvador de Madariaga: Don Quixote: an introductory essay in Psychology. Oxford, 1948, pp. 31 sqq.

الأولى : أن كل الناس كانوا يقرأون كتب الفروسية ، ولم يكن دون كيخوته هو الوحيد في معرفتها ، بدليل أن القسيس ، والحلاق ، وابنة أخي دون كيخوته ، وصاحب الفندق ، والخادمة ، والناس الذين لقيهم في الطريق ، والتلاميذ ، والدوق والدوقة ، والشماس ، كل أولئك كانوا على علم بكتب الفروسية ومغامرات أماديس وذريته . هذا كله يرد في «دون كيخوته» نفسه ؛ وفضلاً عن ذلك فإنه خلال المائة عام التي تلت نشر قصة «أماديس الغالي» ظهر حوالي خمسين قصة شعبية في اسبانيا والبرتغال ، وكانت تطبع بمعدل قصة كل عام بين سنة ١٥٠٨ وسنة ١٥٥٠ ؛ وأضيف إليها ٩ بين سنة ١٥٥٠ وسنة الأرمادا ؛ وثلاث أخرى قبل ظهور دون كيخوته[١] . ومثل هذا الرواج حدث في ايطاليا وفرنسا وألمانيا وهولنده وانجلتره ؛ وفي كل الأوساط ، وخصوصاً بين النساء وعامة الشعب .

والحقيقة الثانية : هي أن أصحاب الامتياز العقلي يعلنون استنكارهم لكتب الفروسية ، معترضين عليها من حيث الذوق الكلاسيكي . والذين يمثلون هذا الاتجاه في «دون كيخوته» نفسها : فارس المعطف الأخضر ، والقسيس ، وشماس طليطلة ، وثربانتس نفسه . وقام بالحملة عليها في إسبانيا من هذه الناحية لويس ڤيڤس (١٤٩٢ ــ ١٥٤٠) المفكر والمربي الكبير في عصر النهضة الاسبانية ؛ وفي إيطاليا هاجمها چيرولمو موتسيو ، وفي فرنسا مونتاني ، وفي ألمانيا يوستوس لپسيوس ، وفي هولنده ديرك كورنهرت ، وفي انجلتره بن جونسون .

والحقيقة الثالثة : أن كتب الفروسية قد شجعها أمراء وبلاطاتهم ، وبعض رجال الدين القلائل ؛ فنحن نعلم أن كارسول الخامس ، وفرنسوا الأول ، ولويس الرابع عشر ، ووليم الصامت كانوا مولعين بها ؛ وبفضل رعاية هؤلاء انتشرت في فرنسا وإيطاليا وهولنده وألمانيا . والقديسة تريزه الآبلية كانت تدمن قراءتها في شبابها ، وكان القديس أغناطيوس دي لوايولا ، مؤسس الطريقة اليسوعية ، من المغرمين بها حتى في سنّه الناضجة . وكذلك أعجب بها كبار الكتاب والأدباء ، وعلى رأسهم لوپه دي ڤيجا الذي قال : «كثيرون يسخرون من كتب الفروسية... وهم على حق في ذلك إذا كانوا ينظرون فقط الى السطح الخارجي لها... ؛ لكن لو نفذوا الى الأعماق لوجدوا فيها كل أجزاء الفلسفة ، أي الطبيعية ، والعقلية ، والأخلاقية» . كذلك أعجب بها من بين كبار الأدباء في أوروبا : توركواتو تسّو ، وكورنيّ ،

---

(١) Henry Thomas: Spanish and Portuguese Romances of chirvalry. Cambridge University Press, 1920, pp. 147-148

ومدام دي سفنييه ، وجيته ، ووالتر اسكوت ، والدكتور جونسون ، وبيرك ، وكيتس - كل هؤلاء قرأوا كتب الفروسية وأعجبوا بها ، وأقرّوا بجمالها وفائدتها .

«وثمة شك ضئيل في أن من الواجب أن نضع ثربانتس بين هؤلاء ، من حيث هو عبقرية مبدعة . ولا نفتقر لتأييد ذلك الى برهان مباشر وغير مباشر . فالذين يمثلونه في القصة - القسيس وشماس طليطلة - يتكشفون لنا في الواقع أقل كراهية لكتب الفروسية مما جعلونا نتوقع . فالقسيس ، في فحصه ، يستثني ما لا يقل عن أربعة من التحطيم («أماديس الغالي» ، «بليانس» ، «پلمارين من انجلتره» ، «تيرانته الأبيض») ، ويشيد باثنين منها ، بتحفظ في حالة («تيرانته») وبمبالغة في حالة أخرى («پلمارين من انجلتره») . وفضلاً عن ذلك فإن هذا الفصل يبرهن بكل قوة على أن ثربانتس كان من المدمنين على قراءة كتب الفروسية على نحو عجيب ، وأنه كان يعزفها كلها تقريباً معرفة وثيقة ثابتة ، وهو أمر أقل ما يقال فيه أنه لا يوحي بأنه كان يكرهها كراهية لا يمكن التغلب عليها . ولهذا فنحن لا نعجب حين نجد ثربانتس ، في شخص شماس طليطلة ، بعد أن يعرض كل اعتراضاته ضد كتب الفروسية ، يمضي للإشادة بها في موضع ، وإن كان مختلطاً في معاييره الأدبية ، فإنه مع ذلك مدح واضح لها على أساس ما تهيؤه للعقل المبدع من مادة»[1] .

* * *

ولهذا فإن من الواجب أن نبحث عن سبب آخر أكثر وجاهة وعمقاً ، مع بقاء السبب الأول عاملاً من العوامل الدافعة الى تأليف «دون كيخوته» .

لقد رأينا أي حياة حيّها بعد عودته من الأسر : فقر ، ومآس أسرية ، وسجن . اشترك في حملة فيليب الثاني على الأثورس (جزر الخالدات) ، وكان في مايو سنة ١٥٨٢ في تومار في البرتغال ، وكلف بمهمة صغيرة في وفادة الى وهران ؛ ثم عاد الى قرطاجنة في اسبانيا في شهر يونيو ، ومنها الى مدريد . ولم يكن له عمل ثابت . فاشتغل بالكتابة ، وغشى محافل الأدباء ، ونظم الشعر للنشر في المختارات ، وكتب سونتات باسم الغير ، وألّف حتى سنة ١٥٨٧ من عشرين الى ثلاثين مسرحية . ولكنه ظل مع ذلك فقيراً . ووقعت أخته مجدلينا في مغامرات غرامية مع عكسريين ومدنيين ، خرجت منها مثلومة العرض مخدوعة ؛ فعاشت مع ابنة غير شرعية ، فقيرة تكسب قوتها من الخياطة . وكان أبواه في فقر مدقع كذلك . وأخوه

(١) سلفادور دي مدرياجا ، الكتاب المذكور ، ص٣٤ . وانظر هذا الفصل كله بعنوان : ثربانتس وكتب الفروسية .

فقط ، رودريجو ، هو الذي كان ميسور الحال شيئاً ما ، إذ كوفئ على شجاعته في حملة الأثورس سنة ١٥٨٣ . وثربانتس وقع في غرام مع أنا فرنكا دي روخاس ، أنتج بنتاً غير شرعية كما قلت من قبل ، وتزوج في ١٤ ديسمبر سنة ١٥٨٤ من كتلينا دي بلاثيوس زواجاً غير موفق . وعيّن في سنة ١٥٨٨ موظفاً في حملات التفتيش والاستيلاء على البضائع ، ومحصلاً للمكوس والضرائب . ووقع في نزاع مع أصحاب البضائع أدت الى إصدار قرار بحرمانه دينياً ، إذ استولى على مخازن حبوب يملكها رجال الدين في اشبيلية . ونقل بعدها الى استجه Ecija للقيام بحملات الاستيلاء ، فوقع في مشاكل من جديد . وحاول الخلاص من هذه الوظيفة التي جلبت عليه السخط والمشاكل فتوجه بالتماس الى الملك يرجو تعيينه في إحدى الوظائف الخالية في أمريكا . ولكن التماسه قوبل بالرفض سنة ١٥٩٠ . وعاد الى وظيفة محصل الضرائب يمارسها في مدن كثيرة ومقاطعات عديدة : في صيف سنة ١٥٩٣ في استجه ومرشانه وأتريره ؛ وفي خلال سنة ١٥٩٤ في مقاطعة غرناطة ، وحتى نهاية السنة عمل أيضاً في قادس ، ورنده ، والمنكر ، وخموتريل ولوشه . ولكن كانت عليه متأخرات في التحصيل ، وكان دائماً يطالَب بها .

وتوفي أخوه في سنة ١٦٠٠ في معركة نيوپورت Nieuport حيث انتصر موريس دي نساو على ألبرت ابن أخي فيليب الثاني . وانهالت مطالبات الخزانة على ثربانتس بالمتأخرات التي عليه . وفي سنة ١٦٠٢ سجن في أشبيلية بسبب مخالفة بسيطة .

وهكذا أمضى حياته هذه بين قضايا ، وعمليات حسابية ، وعمليات استيلاء ، ومضايقات من كل الأنواع ، وسجن بين الحين والحين .

وانتقل ثربانتس الى بلد الوليد في سنة ١٦٠٤ . وفي يوم الاثنين ، السابع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٦٠٥ ، استيقظ أهل مسكنه على صوت نداء استغاثة . فاستيقظ لويس واستيبان دي جاريباي ومعهما الشموع ليشاهدا ماذا جرى ، فوجدا عند مدخل البيت رجلاً نبيلاً ، مسلول السيف ، والدماء تتدفق من جروحه العديدة . فناديا على ثربانتس ، وقام الثلاثة بمساعدة الجريح ، ونودي على قسيس وجرّاح وشرطي . وهذا الجريح هو جسپار دي اثپليتا ، من بمپلونه في مقاطعة نبرّه ، وفارس من فرسان طريقة شنت يعقوب (سنتياجو) . ولكنه كان بائساً ، في بلد الوليد ؛ غير أنه كان صديقاً للمركيز دي فالثس de Falces ، وهو قائد فرقة البنادق الملكية . وتوفي اثپليتا في يوم ٢٩ دون أن يفصح عن اسم القاتل . ولكن التحقيق دل على أنه كان ثم مبارزة بينه وبين القاتل ، انتهت الى إصابته بجراحات بالغة . كما تبين أنه كان على صلات غرامية بإحدى السيدات المتزوجات اللواتي

تسكنّ في بيت ثربانتس . ولهذا لا يستبعد أن يكون زوجها هو الذي جرح اثپليتا بعد تبادل عبارات . ودارت الظنون حول ايزابلا بنت ثربانتس . ولهذا دارت الشكوك حول ثربانتس نفسه وأنه هو القاتل أو المتعارك مع اثپليتا ، فأمر القاضي باعتقال ثربانتس وبنته ، وأشخاص آخرين . وبعد تحقيق طويل تبين أنه لا شأن لثربانتس وسيدات بيته بمقتل اثپليتا ، وأن هذا إنما كان على علاقة مع زوجة أحد القضاة واسمه جلڤان ، وأن المعركة دارت بينه وبين جلڤان هذا . لكن على الرغم من إعلان براءة ثربانتس فقد جرّ هذا الحادث عليه الويلات ، ودارت الشائعات حول بنته .

ومثل هذه الحياة الحافلة بالشقاء والمشاكل والاتهامات الباطلة والدعاوى الظالمة كان من شأنها أن تملأ نفسه مرارة وأسى : جاهد فلم يلق جزاء عن جهاده ؛ وبرّز في الأدب ، فلم يكافأ المكافأة اللائقة ؛ واضطر الى العمل في وظائف هي بطبعها مصدر مصادمات ودعاوى كاذبة ومتاعب لا تنتهي ، وتوالت عليه المصائب في أهله وبيته وشرف ابنته ، واتهم كذباً بالقتل . كل هذا جعله ييأس من الإنسان والدنيا ، ويتجرع طعم الرماد في كل شيء .

لهذا لم يجد خيراً من السخرية والتهكم يستعين بهما على احتمال الحياة ، ولم يجد خيراً من عالم الفن القصصي ينتقم فيه لنفسه مما يلقاه من ظلم الناس ودنيا الناس .

ولهذا هاجم الناس جميعاً بسخرية لاذعة وتهكم قاتل في هذه الرائعة الكبرى : «دون كيخوته» . هاجم البلديات ، وعقليتها الضيقة ، وهاجم الأديرة وأنظمتها الزائفة الكاذبة ، وهاجم «التفتيش» Inquisicion بجبروته وطغيانه واستبداده ومظالمه التي لم تشهد لها الإنسانية مثيلاً في تاريخها الحافل مع ذلك بالمظالم ، وسخر من أدعياء الشجاعة ، وأدعياء الحكمة ، وأدعياء التقوى ، وتهكم على النقابات بسلوكها النفعي وسخر من الجماعات الأدبية وما يسودها من حسد ونفاسة ووضاعة ، وما يصدر عن الشعراء والكتاب الوضعاء من مهازل أدبية وتملّق ورياء وما يلجأون إليه من كسب وضيع عند أقدام الأقوياء ؛ وتغامز على رجال العدالة ، ورجال الدين ، ونبلاء الأقاليم . وبالجملة فإنه لم يدع طبقة ولا طائفة ولا جماعة إلا وسلقها بألسنة حداد من التهكم النافذ والسخرية الجارحة .

وهكذا جاء «دون كيخوته» سخرية من البطولة الزائفة ، والعدالة المموهة ، والحقارة الاجتماعية ، والنفاق الذي ساد في ذلك العصر فرفع أقدار العاجزين ، وأعطى المراتب الرفيعة للدساسين والغشاشين والمتملقين والزاحفين والوضعاء . ويكفي أن يعلم المرء أن أقوى شخصية في ذلك العصر ، عهد فيليب الثالث ، كان راهباً يتلقى الاعتراف من الملك ، ويدعى الأخ لويث ألياجا Luiz Aliaga ، الذي ولد حوالي سنة ١٥٦٠ وتوفي سنة ١٦٣٠ .

ولد من أسرة فقيرة ثم انخرط في الرهبنة الدومينيكية ، وصحب القديس فرنشسكو اكساڤيير مدة من الزمن . ثم عين متلقي اعتراف الملك حوالي سنة ١٦٠٠ ، ومنذ ذلك الوقت وتأثيره في الدولة في تزايد مستمر حتى صار بعد قليل الحاكم الحقيقي غير المتوج في كل اسبانيا ، وعُيّن القائم الأكبر على «التفتيش» في اسبانيا ، فأصدر قراراً بإرغام المسلمين على التنصر أو مغادرة اسبانيا ، ونفذ هذا القرار الإجرامي أبشع تنفيذ . وفي الوقت نفسه كان هذا الراهب الهزيل النحيل المعروق العظام مرتشياً فاحش الارتشاء : يرتشي بالجواهر والمذابح الذهبية والبقايا المقدسة ، والمبالغ النقدية الطائلة ، وبكل ما يعرض عليه «من أجل تسيير ضمير الملك» كما قال . ودبّر قتل كبار القوم ، فاتهم بتدبير مقتل الكونت دي ڤلامديانا الذي كان يقف في وجه أطماعه ، وذلك بأن سلط عليه مجهولاً صرعه .

والى هذا الراهب السفاح الجامع لكل صفات الخساسة والحقارة ينسب تأليف الجزء الثاني الزائف من دون كيخوته الذي نُشِر سنة ١٦١٤ . ونمسك عن مزيد من الكلام في هذا الباب لأننا نتناول هذه المشكلة في مقدمة الجزء الثاني من «دون كيخوته» .

* * *

قصد إذن ثربانتس من «دون كيخوته» أن يكون مرآة للعصر : بكل مخازيه الاجتماعية والسياسية والادارية ، وما يعج به من رذائل ونفاق ودعاوى زائفة في الآداب والأخلاق . وقد تناول هذا كله بسخرية ليس حزينة ، بل بَهِجة ، تنظر الى العيوب بأفق ، وتتردد بين البسمات والعبرات .

(ب) بناء «دون كيخوته»:

قلنا إن الجزء الأول من «دون كيخوته» حين ظهر سنة ١٦٠٥ كان مقسماً الى أربعة أقسام واستمر هذا التقسيم حتى ظهر الجزء الثاني من «دون كيخوته» سنة ١٦١٥ . وكانت الأقسام على النحو التالي :

١ـ القسم الأول : الفصول ١ ـ ٨ : ٨ فصول
٢ـ القسم الثاني : الفصول ٩ ـ ١٤ : ٦ فصول
٣ـ القسم الثالث : الفصول ١٥ ـ ٢٧ : ١٣ فصلاً
٤ـ القسم الرابع : الفصول ٢٨ ـ ٥٢ : ٢٥ فصلاً

والقسم الأول يروي الخرجة الأولى لدون كيخوته وبداية الخرجة الثانية ، وفيها مغامرة الطواحين ، وبداية مغامرة البشكوني .

والقسم الثاني يبدأ بختام مغامرة البشكوني ، ويحكي قصة مرثيلا وخريستمو .

والقسم الثالث يحكي لقاءه مع الينجواسيين الأشرار ، وما وقع له في الفندق الذي حسبه قصراً هو وحامل سلاحه ، والمغامرة مع قطعان الغنم ، ومع جثة الميّت ، ومع الطواحين ، وخوذة ممبرينو ، والمحكوم عليهم بالإعدام ، ومقامه في جبل الشارات (سيرّا مورينا) وقصة كردنيو . ـ وفي الفصلين الأخيرين من هذا القسم ـ ٢٦ ، ٢٧ ـ يعود القسيس والحلاق للظهور بقصد إعادة دون كيخوته الى قريته . وهذا الفصلان ٢٦ ، ٢٧ يعدان المحور الذي تدور من حوله القصة في جزئها الأول ، فهما معقدا الصلة بين الخمسة وعشرين فصلاً الأولى ، والخمسة وعشرين فصلاً الأخيرة . وفي هذه تبلغ أوجهاً وكمال تحقيقها لفكرتها الأساسية . ومن هذا المحور المركزي يمكن إدراك الجزء الأول من دون كيخوته بوضوح ، إنه قلب القصة .

والقسم الرابع يروي أحاديث دوروتيه ، وقصة المستطلع الأخرق ، ومعركة دون كيخوته مع قِرَب النبيذ الأحمر ، وقصة ولية العهد ميكوميكونا ، ثم حكاية الأسير (ثربانتس) نفسه ، وما وقع من غرائب الحوادث في فندق ، ومغامرة دون كيخوته مع جنود الأخوة المقدسة ، وكيف سُحِر ، وحديث الشماس عن كتب الفروسية ، وما جرى من جدل بينه وبين دون كيخوته ، ونزاع دون كيخوته مع المعّاز ، ثم عودة دون كيخوته وسنشو پنثا الى قريتهما .

ومسار الحركة في القصة يتلخص في خروج دون كيخوته ، وهو نبيل من إقليم المنتشا ، من الطبقة المتوسطة بين النبالة الحقيقية وبين عامة الناس ، خروجه من بيته في قرية لم يشأ ثربانتس ذكر اسمها ، بحثاً عن المغامرات ، ثم عودته الى قريته بعد ما وقعت له عدة مغامرات تثير الضحك والإشفاق معاً . وقد خرج مرتين ، الأولى تتألف من ١ـ الخروج من بيته ، ٢ـ فندق ومغامرة ، ٣ـ عودة ومغامرتان . والخرجة الثانية تتألف من : ١ـ خرجة ، ومغامرات وأحداث عارضة ؛ ٢ـ فندق ؛ ٣ـ مغامرات وأحداث عارضة ؛ ٤ـ فندق ؛ ٥ـ عودة ، ومغامرة وحادث عارض . والخرجة الأولى مرتبطة بالثانية ؛ فالأولى تمثل الفكرة الأساسية العامة ؛ والثانية تعطي التفاصيل ؛ الأولى توضح المعنى العام ، والثانية تتعقد فيها الأحداث العارضة والمغامرات .

والموضوع الأساسي في القصة هو التعارض بين أحوال وأعمال الوسط الاجتماعي النبيل

من المنتشا ، وبين فكرة غريبة جداً هي أن يصبح فارساً جوالاً ، وأن يبعث بذلك العصر الوسيط . ومهمة الفارس الجوال هي حماية المستضعفين ، ومعاقبة المجرمين ، وتصحيح الأخطاء ، والقضاء على الجرائم ، والفصل بين المنازعات لصالح العدالة ، والانتصاف للمظلومين . وغلطته الوحيدة هي أنه ولد متأخراً عن العصر الذي كان يجب أن يولد فيه ، متأخراً بثلاثة قرون .

وهذه الفكرة الغريبة إنما تولدت في ذهنه من قراءة كتب الفروسية وتشبع نفسه كلها بها ، حتى تسلطت على عقله تسلطاً جنونياً .

ـ ٤ ـ
شخصية دون كيخوته

قلنا إن دون كيخوته من النماذج الإنسانية الكبرى .

وقد قال سلفادور دي مَدّرياجا «إن دون كيخوته ، وسنشو ، ودون خوان ، وهاملت ، وفاوست هم أعظم شخصيات أبدعها الإنسان ، وقد تدثرت صورهم ـ وهم في هذا يشبهون الرجال العظام الذين خلقهم الله مباشرة ـ في كل جيل بدثار متزايد من الأساطير والآراء والتفسيرات ، والرموز . وهذه ميزة للكائنات الحية التي أبدعها الفن والتي بحيويتها تفرض شخصيتها على العقل الكلي للإنسانية .

«في فاوست يتجلى الميل الى إبداع الأفكار جزءاً من خُلُق الشخصية كما انبثقت من عقل جيته (وربما حتى من عقل مارلو) . إن جيته شاعر من نوع خاص ، ألماني جداً في نزعته العقلية ، وفي اهتمامه بالثقافة والفلسفة على نحو من شأنه أن يضعه في جو نبيل سامٍ من التصورات والرموز حتى حين يعبّر عن نفسه بوصفه فناناً مبدعاً . ومن هذه التصورات والرموز صنعت شخصية فاوست . فلا عجب إذن أن يضيف كل جيل من القراء جواً فكرياً جديداً الى الجو العقلي الفني الذي تُصُوِّرت فيه شخصيته .

«ولا شيء من هذا في شكسبير ، فهذا شاعر خالص ، يشعر أكثر مما يفكر ، كما كان يلذ لأونامونو أن يقول ، وفكره ، في حيويته ، يجري مثل العصارة أو الدم ، خلال البنية القوية لشعره . لكن هاملت يبعث نشاطنا العقلي بواسطة شعور السكون والخواء الذي يحملهما سرُّ شخصيته . إبداع عظيم! غامض ولا يمكن تفسيره للعقل ، حقيقي عينيٌّ بالنسبة الى الغريزة ، معروف قبل أن يفهم كالأشخاص وشؤونها في الحياة ، هاملت هو هذا كله! إنه تقعُّر ، وخواء إنساني يحاول العقل أن يملأه بأفكاره وتفسيراته . ومن هنا جاء

ذلك المحصول الوافر من الأفكار حول هاملت ، المحصول الذي يلقي به كل جيل في هوة شخصيته المتسلطة .

«ودون خوان يجذب النقاد لعدة أسباب ، من بينها تنوع نموذجه وتطوره من الصورة التي قدمها ترسو دي مولينا في ملهاته العظيمة غير المستوية ، حتى الصورة غير المعقولة ، ولكنها طريفة التي قدمها ثورياً ؛ وصفته البارزة بوصفه بطل الحب الطاغي ، والتنوع الحديث لشخصية أفروديت التي لا ترحم ؛ وثالثها ، وإن لم يكن أقلها ، الميل الطبيعي عند كل كاتب الى إغناء نفسانية دون خوان بتجاربه هو الدون خوانية .

«أما فيما يتصل بدون كيخوته وسنشو ، فإن محصول الأفكار والتفسيرات ، والرموز التي تنمو وتتجمع حولهما ـ إنما يرجع فقط الى عمق روحيهما ، وثراء التربة الإنسانية التي نقّب فيها دون كيخوته من خلالهما ، والى ذلك الإيقاع الدقيق للمغامرة المزدوجة التي تأسر الخيال وتطبعه منذ البداية ببساطتها الظاهرية ، ثم تغزو العقل بتعقُّدها المُذهِل .

«وعلى هذا النحو دُفِنَتْ شخصيتا دون كيخوته وسنشو تحت نماء من الأفكار والرموز ، وبعضها غير معقول ، وبعضها الآخر عميق نفّاد ، ومعظمها صادر عن تواز وتقابل لا يوجد في الكتاب ، وما هو إلا نتيجة لتعارض زائف سطحي بين الفارس وحامل سلاحه . فالزوج دون كيخوته ـ سنشو يفسران على أساس التضاد ، وخصائصهما تحولت الى سلسلتين من القيم المتعارضة . فإلى دون كيخوته تعزى سلسلة من : «الشجاعة ـ الإيمان ـ المثالية ـ اليوتوبيا ـ الحرية ـ التقدم» ، بينما تعزى الى سنشو سلسلة مضادة تماماً تتألف من : «الجبن ـ التردد ـ الواقعية ـ النزعة العملية ـ الإدراك الواقعي ـ الرجعية»[1] .

ويريد سلفادور دي مدرياجا أن يعدّل من هذه النظرة التقليدية الى كلا البطلين :

فيقول إن حالة دون كيخوته هي حال خداع ذاتي . إنه حالم ، خجول في أمور الحب ، يقضي معظم أيامه في فراغ من العمل ؛ وكان مولعاً بكتب الفروسية ، ولكن لا عجب في هذا من أجل إزجاء أوقات فراغه وما أطولها! وكان يحب المسرح . وسخاؤه وأدبه كانا مضربا الأمثال . وعقله سليم في كل ما لا يتعلق بشؤون الفروسية الجوالة . وروحه تنم عن الرحمة والإخاء ، وتشيع فيها روح دينية متحفظة في مظاهرها الخارجة .

وكان خداعه لنفسه في البدء خفياً ؛ ولكنه زاد كلما اصطدم بالوقائع في مغامراته ؛ فلم يكن على شعور واضح بشخصيته ، وبمدى قدرته .

---

(١) سلفادور دي مدرياجا : «دون كيخوته» ص٨١-ص٨٢ .

أما سنشو ، فهو في نظر سلڤادور دي مدرياجا «نغمة أخرى من دون كيخوته في مقام موسيقى آخر» (ص٩٦) . وكلاهما أخوان ، وصانعهما (ثربانتس) قصد أن يرسمهما وفقاً للنموذج نفسه . ويسعى دي مدرياجا جهده في بيان رأيه الغريب هذا ، بأن يبين أنه لم يكن جباناً ، بل كان شجاعاً عند الحاجة ، وأن الأساس في أخلاقه هو التعارض بين ثقته وسلامة رأيه حين يواجه الواقع العيني ، وبين عجزه وسذاجته حين يواجه الأمور المجردة ، «إن سنشو يعالج الأفكار المتجسدة في أجسام مادية بثقة ؛ ولكن عقله يصيبه الشلل حين يدخل عالم الأفكار المجردة والأشباح والتهاويل ، وهي أمور يضعها كلها عقلُه المختلط في باب واحد» (ص١٠٥) .

وعلى الرغم من طرافة رأي مدرياجا ومهارته في تحليل كلتا الشخصيتين ، فمن العسير أن نوافقه على هذه المفارقة ، أولاً لأنها تضرّ إضراراً بالغاً بشخصية دون كيخوته لصالح سنشو ، دون أن يفيد هذا التقريب بين كليهما في شيء ، لا من الناحية الإنسانية ، ولا من ناحية الفن . ولولا هذا التعارض المستمرّ بين كلتا الشخصيتين في رد فعلهما بإزاء المواقف التي تتبدى لهما ، لما سارت القصة على النحو الذي سارت عليه . ثم إن الهدف الأول ، وهو بيان ضرر كتب الفروسية ، سيضيع تماماً لو قرّبنا بين كليهما ؛ لأن سنشو لم يقرأ ، ولم يكن في وسعه أن يقرأ ، حرفاً واحداً من كتب الفروسية ؛ بينما لوثة دون كيخوته مردها - في بادي الرأي على الأقل - إلى إدمانه على قراءة كتب الفروسية . ثم إن سنشو لم يصدر في أعماله كلها عن أية نبالة أو سخاوة في الأخلاق ؛ بل كان دافعه الوحيد دائماً هو النهم المادي والجشع والرغبة في الامتلاك .

ألا إن هذا التقريب بين الشخصيتين ليفقد القصة أروع ما فيها ؛ إنه محاولة زائفة من أجل التباهي بالتجديد المنطوي على إثارة المفارقات ، مما برع فيه - مع الأسف الشديد - بعض الطامعين في الطرافة بأي ثمن ، على حساب الذوق الفني ، والحقائق التاريخية ، والتمييز العقلي السليم! ولا شيء أشد إفساداً لحكم الباحث أو الناقد من مثل هذه النزعة الضالّة المضلّلة ، بل هذه اللعبة السخيفة .

إن دون كيخوته رمز النبالة الساعية في خير الإنسانية ، ولكن وسائلها العاجزة لا تستطيع تحقيق أمانيها ؛ رمز للمثل الأعلى الإنساني ، الذي دائماً يصطدم بالواقع الكالح فينتهي بالإخفاق ، ولكنه إخفاق هو عندي أعظم من كل نجاح عملي مادي واقعي لاصق بالطين ؛ إنه القطب الهادي دائماً الى مزيد من السموّ الإنساني ، الداعي الى مزيد من العدالة والإنصاف وتقرير الحقوق ؛ إنه صوت العدالة العليا تصرخ في عالم حافل بالمظالم ،

ولا عليه إن ظل صوتاً «يصرخ في البرية» فإن هذا النداء ـ حتى لو كان خافتاً جداً تطغى عليه كل أصوات الظلم والنفاق والخديعة والوضاعة والمَلَق والدسّ والوصولية والإمعية ـ سيظل دائماً العلامة على نبل جوهر الإنسان ، رغم خساسة أفعاله ودناءة أطماعه . والإنسانية لم تتقدم على مدى الزمان إلا بفضل نماذج قليلة من دون كيخوته تألقت في سمائها الملبّدة بالغيوم في لحظات صحو وصفوٍ نادرة . وإذا كان النجاح في واقع الحياة من حظ من يسلكون مسلك سنشو پنثا ، فتبّاً لهذا النجاح الوضيع الدنيء ، بل تباً للإنسانية كلها إن صارت كلها من نوع سنشو پنثا وعدمت كل دون كيخوته!

مدريد ـ برن (سويسرة)

١٩٥٥ ـ ١٩٥٦

عبد الرحمن بدوي

النبيل البارع

دون كيخوته دلامَنْتشا

تأليف

ميجيل دي ثربنتس سابدرا

استهلال

أيها القارئ الخليء!

تستطيع أن تصدقني دون أن تستحلفني إذا قلتُ لك إني كنت أودّ لهذا الكتاب ، لأنه وليد عقلي ، أن يكون أجمل وأروع وأظرف ما يمكن تخيُّله . بيد أني لم أقوَ على مخالفة نظام الطبيعة الذي يقضي أن يلد الشيء شبهه . وماذا عسى إذاً أن تلد قريحة عقيم فاسدة التهذيب مثل قريحتي ، اللهمّ إلا تاريخ ولَدٍ جافّ هزيلٍ شاذّ مليء بالأفكار المتفاوتة لم يتخيّل مثله أحدٌ من قبل ، وكأنه إنما ولِد في سجنٍ فيه لكل المضايقات مقاعدها ، ولكل نأمة حزينة منزلها ؟ إن الراحة وسكون المقام وطيب المروج وسجُوَّ السموات وخرير الينابيع ودَعة الروح ـ كل أولئك تردُّ عقْم ربات الوَحْي خصباً بالغاً ، وتهب الدنيا ثماراً تملؤه رضى وإعجاباً . لكن لو حدث لوالد أن كان له ولدٌ دميم خلا من كل ملاحة ، إذاً لألقى حبُّه إياه على بصره غشاوةً فلا يرى معايبه ؛ كلا بل يراها آيات ذكاء ومفاتن يرويها لأصدقائه على أنها مخايل لطفٍ وحلاوة شمائل . وإني وإن لم أكن غير أبٍ زنيم لدون كيخوته ـ وإن بدا أني أبوه حقاً ـ فلستُ أريد أن أساير العُرْف الجاري ، ولا أن أضرع إليك ، أي قارئي العزيز جداً ، كما يفعل غيري فألتمس منك ، وكأن في عيني عَبْرة ، أن تغتفر أو تغضى عما عسى أن ترى في ابني هذا من أخطاء ، فما أنت له بقريب ولا صديق ، ونفسُك معه بين جنبيك حرّة مختارة كأنك أجمل من تحلّى بزينة ، وتقيم في بيتك سيداً مطاعاً سيادة السلطان على ما يُجبى من خَراج ، وتعلم المثَل المشهور : «تحت ردائي أقتل السلطان» . وكل هذا يعفيك من كل التزام قِبَلي واحترام ، وهكذا تستطيع أن تقول عن (هذا) التاريخ كل ما يحلو لك ، دون أن تخشى عقاباً عما تقول من سوء ، أو ترجو ثواباً لما نناله به من خير .

بيد أني كنت أود أن أقدّمه إليك مجرداً عارياً ، لا أزيّنه باستهلال ولا بثَبَتٍ لا ينتهي ؛ من الأناشيد والأهاجي والمدائح المعتادة التي ألِفها الناسُ في مطالع الكتب . لأني أستطيع أن أقول إنه على الرغم مما كلفني تأليفه ، فإن أشقّ ما صادفته هو كتابة المقدمة التي تقرؤها الآن . فكأين من مرة أمسكت بالقلم ثم ألقيت به لأني لم أكن أدري ماذا أكتب . وكنتُ على حيرتي هذه ذات يوم ؛ الورق أمامي والقلم على أذُني ومرفقي يستند الى المنضدة ، وكفيّ على خدي أفكر فيماذا أقول ، وإذا بصديق ذكيّ لطيف يدخل عليّ ، فلما رآني حالماً مفكراً سألني عن السبب . ولم أشأ إخفاءه عنه ، فأجبته أني إنما أفكر في الاستهلال الذي عليّ أن أدبّجه لتاريخ دون كيخوته ، وأن اليأس بلغ مني مبلغاً جعلني أقرر العدول عنه فلا ترى النور هذه الأعمالُ المجيدة التي قام بها ذلك الفارس النبيل .

قلتُ له : «كيف تريد مني ألاّ أحفل بما عسى أن يقوله ذلك المشرّع القديم المسمّى بـ«الجمهور» ، حينما يراني بعد أعوام طوال رقدت خلالها في صمت النسيان وقد جئتُ اليوم حاملاً أعوامي على عاتقي ، ومعي أسطورة جافة جفاف عود الغاب ، فقيرة من الإبداع ، هزيلة الأسلوب ، عارية من الأفكار ، يعوزها التحصيل العلمي والمذهب ، خالية من الحواشي على الهوامش ومن الشروح في الآخر ـ . بينا أرى كتباً أخرى ، وبعضها أيضاً خرافيّ قصد به العامة ، أراها حافلة بكلمات أرسطو وأفلاطون وزمرتهما من الفلاسفة على نحو يجعلها مصدر إعجاب القراء فيرون في مؤلّفيها علماء محققين وفُصَحاءَ مُحصّلين ؟ ولله درُّهم حينما يقتبسون من آيات الكتاب المقدس ؟! إذن لرأيتهم أنداداً للقديس توما وأضرابه من علماء الكنيسة الفحول! انظر الى مهارتهم الفائقة حينما يصوّرون في سطر عاشقاً فاسقاً ، إذا بهم في السطر التالي يدبّجون موعظة قصيرة مسيحية ما أمتع سماعها وقراءتها! ومن هذا كله خلا كتابي ؛ إذ ليس لديّ ما أحشّي به في الهامش أو أشرحه في الآخر ، ولا أدري أي مؤلّفين اتبعت حتى أذكر أسماءهم في مطلع كتابي ، كما فعل غيري ، في ترتيب أبجدي يبدأ بـ«أرسطو» وينتهي بـ«كسينوفون» أو «زويلوس» و«زيوكسيس» ، وإن كان أحدهما ناقداً حاسداً والثاني رساماً . وينقص كتابي أيضاً الاستهلال بالأناشيد ، أو على الأقل بأناشيد مؤلفوها دوقات أو مركيزات أو كوندات أو أساقفة أو سيدات أو شعراء مفلقون ؛ وإن كنت واثقاً أني إذا طلبت بعضها من صديقين محترفين أو ثلاثة لأعطوني منها ما لا يضارعه أناشيد أشهرهم في بلادنا أسبانيا .» ـ وأردفت قائلاً : «وأخيراً ، أيْ سيدي وصديقي ، قد عقدتُ العزمَ على أن يبقى السيد دون كيخوته مقبوراً في أضابير محفوظات إقليم المانتشا ، حتى تأذن السماء فترسل من يزيّنه

بكل هذه الأشياء التي تنقصه ، لأني أشعر بعجزي عن تجهيزه بها ، نظراً الى قلة بضاعتي وضآلة تحصيلي ، ولأني بطبعي متكاسل عن السعي وراء مؤلفين يقولون لي ما أجيد قوله دونهم . وذلك مصدرُ ما وجدتّني فيه من حيرة وحُلْم ، وهو سبب كاف كما سمعت لإغراقي في كليهما » .

وما سمع صديقي هذا الكلام حتى ضرب جبينه بكفّه واستغرب عليه الضحكُ وقال :

« أخي! بربك لقد انتشلتني من وهم كنت فيه منذ أن عرفتك! فلقد كنت أحسبك رجلاً عاقلاً ، حكيماً في كل أعمالك ؛ لكني أراك الآن بعيداً عن أن تكون كذلك بُعْد الأرض عن السماء . وأنى لمثل هذه التفاهات اليسيرة العلاج أن تعوق عقلاً ناضجاً مثل عقلك وأن تحيّره ، وهو الذي اعتاد أن يهاجم ويذلّل ما هو أشد وأصعب ؟ الحق أن هذا ليس منشؤه قلة المهارة ، بل إفراطاً في الكسل وفقراً في التفكير . أتريد مني إثبات صحة ما أقول ؟ إذن انتبه وسترى كيف أقضي ، ما بين غمضة عين وانتباهتها ، على كل هذه الصعوبات وأعالج كل هذه العيوب التي تقول عنها إنها تضايقك وتخيفك إلى حد يجعلك تعدل عن إذاعة تاريخ رجلك الشهير دون كيخوته ، نور الفروسية الجوالة كلها ومرآتها » .

فأجبته وقد سمعت كلامه : « على أي نحو ترى إذن أن تملأ فراغ خوفي وتكشف الغُمّة عن اضطرابي ؟ » .

فقال مجيباً : « أما عن أول شيء يضايقك ، وهو ما يتصل بالأناشيد والأهاجي والمدائح التي تنقص استهلال الكتاب ، فالعلاج عندي أن تبذل شيئاً من المجهود في نظمها بنفسك ثم تنسبها الى ما تشاء من أسماء ، وما عليك إذا نسبتها الى النجاشي إمبراطور الحبشة أو إمبراطور طرابزون ، فقد شاع عنهما أنهما شاعران فحلان ؛ فحتى لو لم يكونا كذلك ورأيت بعض المتحذلقين و« العلماء المدققين » يعضون ذيلك لمثل هذا القول ، فلا تحفل بهم مقدار مُرابطَيْن[1] ، إذ لو انكشف كذبك ، لن تقطع اليدُ التي كتبته .

« أما عن ذكر الكتب والمؤلفين في الهامش ممن نقلت عنهم الكلمات والأقوال التي وضعتها في تاريخك هذا ، فما عليك إلا أن تتصرف بحيث ترد بعض الجمل اللاتينية في موضعها المناسب ، من محفوظك أو مما لا يكلّفك البحث عنه جهداً كبيراً . فمثلاً حينما تتكلم عن الرق والحرية تستطيع أن تكتب :

---

(١) مرابطي Maravedi ، عملة اسبانية اختلفت قيمتها بحسب الأزمنة ، أشهرها كانت من النحاس وتساوي ١/ ٣٤ من الريال real ، (أي ٣/ ٤ سنتيم من البسيطة) .

«الحرية أغلى من أن تباع بكل الذهب»[١]

ثم تذكر في الهامش اسم هوراس أو مَن قال ذلك . فإن اتصل الأمر بقدرة الموت ، فعليك بقول القائل[٢] :

«يركلُ الموتُ صرح من أوتَى المُلْـ
لكَ ، برجليه رَكْلَ كوخ الفقير»

وإذا عرض الحديث للحب الذي يأمر به الله نحو الأعداء ، فادخل من فورك الكتاب المقدس وهو أمرٌ لا يحتاج إلا الى قليل من الاهتمام ، واذكر على الأقل قوله تعالى : «أما أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم» . وإذا تطرّقت الى الأفكار السيئة ، فاذكر ما ورد في «الإنجيل» : «ولتطرد من قلبك خواطر السوء»[٣] ؛ أو إلى تغيّر الخلان ، فاستعن بمثنوي كاتو[٤] :

إن نِلْتَ سَعْدا ازددت وُدّا
فإن أغامَتْ أصبحت فَرْدا

فبمثل هذه الفتات من اللاتيني وأشباهها ، سيقولون عنك إنك نحويٌّ ، وهذا أمرٌ ليس بالهيّن ولا الزهيد في هذه الأيام .

«أما عن وضع حواشٍ وشروح في نهاية الكتاب ، ففي وسعك أن تفعله بكل اطمئنان على النحو التالي : فإن كان عليك أن تذكر اسم مارد في كتابك ، فاجعله المارد جالوت[٥] ، تظفر بحاشية طويلة متهيئة لا تكلّفك شيئاً ، إذ تستطيع أن تقول : «وكان المارد جالوت من بني فلسطين ، قتله الراعي داود بحجر من مِقلاعه في وادي البُطْم ، كما رُوي في «سفر الملوك» في الإصحاح الذي يقصّ هذه الحكاية»[٦] . ولكي تبدو عالماً راسخاً في الآداب

---

(١) هذه العبارة ليست لهوراس ، بل وردت في «خرافات ايسوبوس» (خرافة الذئب والكلب ، الكتاب الثالث ، خرافة رقم ١٤) . وقد اعتذر كورتيخون Cortejon عن ثربانتس هنا فقال : «حينما تلقى ثربانتس زيارة الوحي ، لم يكن له أن يقطعها ويغلق الباب من أجل أن يذهب للبحث عن صاحب هذه الجملة التي انتزعتها ذكرى قراءة قديمة غامضة من ذاكرته» . ويرى رودريجث مارين أن يعتذر عن ثربانتس بأن يراعى أمران (الأول) أن ثربانتس ليس المتكلم هنا بل أحد أصدقائه ، و(الثاني) أن هذا الصديق لا يؤكد أن هذا القول لهوراس بل يقول : «ثم تذكر في الهامش اسم هوراس أو من قال ذلك» (راجع نشرة مارين ص٣١ تعليق ٥) .

(٢) هوراس ، الكتاب الأول ، اللحن الرابع Carmina, (, od. IV .

(٣) «إنجيل متى» ، الفصول ٥ ، ١٥ .

(٤) أوفيديوس : «الأحزان» Tristes ، المرثية رقم ٦ .

(٥) مارد من بني فلسطين طوله ستة أذرع ، ولد في جيث ، وتحدى جميع العبرانيين . ولكن (النبي) داوود برز له في مبارزة منفردة ولم يكن معه غير مقلاع ، فجندله بحصاة واحدة ، وانتزع منه سيفه ، واحتز به رأسه . قال الطبري : «فلما عاين جالوت قذفه بحجارة فصكه في رأسه ومات ، وانهزم بنو فلسطين وحصل النصر» .

(٦) «سفر الملوك ١» فصل ١٧ (= «صمويل» الأول ، إصحاح ١٧) .

الإنسانية والكونيات ، فاجعل نهر التاجُه مذكوراً في ثنايا كتابك ، تظفرْ بشرح آخر رائع ، وذلك بأن تكتب : «نهر التاجه : سُمّي بهذا الاسم لأنه مأخوذ من اسم ملك إسباني قديم ؛ ينبع من المكان الفلاني ، ويصب في الأوقيانوس بعد أن يغسل جدران مدينة لشبونه المشهورة . ويقال إنه يحمل في جريانه رمالاً من الذهب الخ[1]» . وإذا عرض لك الحديث عن اللصوص ، فسأمُدك بقصة كاكوس[2] التي أحفظها عن ظهر قلب ؛ أو عن غوانٍ ساقطات ، فها هو ذا أسقف موندونييدو[3] يُعيرك لميا ولَيْدا وفلورا ، ومادة لحاشية حافلة بالثقة ؛ أو عن نسوة قاسيات ، فسيقدم لك أوڤيديوس نموذج ميديا ؛ أو عن ساحرات ، فعند هوميروس تجد كالُفسو ، وعند فرجيليوس تجد كركيه ؛ أو عن قوّاد شجعان ، فسيعيدك يوليوس قيصر نفسه في «شروحه» ، وفلوطرخس يعطيك آلافاً من أضراب الإسكندر . وإن عنّ لك أن تتحدث عن الحب فببضع كلمات من اللغة الإيطالية ستجد عند ليون العبري ما يملأ جعبتك ويفيض عنها ؛ وإذا لم يلذ لك السياحة في بلاد الغربة (بحثاً عن كلمات الحب) ، فعندك في بلادك فونسيكا وكتابه «في الحب الإلهي» ، وهو يتضمن كل ما تصبو إليه أنت وأبرع الناس في الموضوع . وبالجملة ، فليس عليك إلا أن تذكر الأسماء التي أشرتُ إليها ، أو تذكر هذه القصص في ثنايا قصتك . وكِلْ إليَّ أن أضيف حواشي في الهامش وفي الختام : وهأنذا أعطيك عهداً وثيقاً أن أملأ هوامش كتابك وأربع ورقات في آخره .

«ولنصِلْ الآن الى النقل عن المؤلفين ، مما يرد في سائر الكتب ، وينقص كتابك . والعلاج لهذا بسيط جداً ، فما عليك إلا أن تبحث عن كتاب اقتبس عنهم جميعاً منذ الألف حتى الياء ، كما نقول ؛ وهذا الثَّبَت الأبجدي تضعه كما هو في كتابك . فإن انكشف هذا التزييف ، بالنظر الى قلة جدوى هؤلاء المؤلفين عندك ، فماذا يهمّك ؟ ومن يدري! لعل من المغفّلين من يحسب أنك انتفعت بهم جميعاً في قصتك الساذجة البسيطة . وحتى لو لم يفد هذا الثّبت في شيء آخر ، فإن هذا الثبت الطويل لابد أن يضفي على الكتاب شيئاً من المهابة والتأثير . وفضلاً عن هذا ، فمن هو الذي سيحفل ـ إذ لا مصلحة له في هذا ـ بالتحقق مما إذا

(١) يسخر ثربانتس هنا من لوپه دي بيجا الذي قال كلاماً كهذا في الشروح التي أوردها في ختام مسرحيته «أركاديا» .

(٢) الإشارة الى فرجيليوس : «الإنياذة» ، الكتاب الثامن ، البيت رقم ١٨٥ .

(٣) هو أنطونيو دي جباره (١٤٨٠ ؟ ـ ١٥٤٥) الذي اشتهر بتآليفه ، خصوصاً كتابه «رسائل شخصية» Episto as familiares ، وفي إحدى هذه الرسائل («مكتبة ريبادنيرا» ج١٣ ، ص١٧٧) يتحدث عن لميا وكيدا وفلورا وفي مطلعها ورد : «هذه رسالة لذيذة جداً في القراءة ، خصوصاً بالنسبة الى العشاق» . وثربانتس يتهكم ها هنا طبعاً على هذا «الأسقف» الذي يكتب عن بنات الهوى الساقطات! .

كنت قفوت إثر هؤلاء المؤلفين أو لم تفعل ؟ وإن لم يخطئ ظني فإني أعتقد أن كتابك هذا ليس في حاجة مطلقاً الى شيء من هذه الأشياء التي تقول إنها تنقصه ، لأنه من أوله الى آخره ليس إلا هجاءً لكتب الفروسية ، وهي كتب لم يسمع بها أرسطوطاليس ، ولم يكن عند شيشرون أدنى فكرة عنها ، ولم يتناولها القديس باسيليوس بكلمة واحدة . ومن ناحية أخرى ما شأن ما فيه من غرائب وشواذ بمقتضيات الحقيقة أو أرصاد علم الفلك ؟ وماذا يهمه من الأقيسة الهندسية أو مراعاة قواعد الخطابة وبراهينها ؟ وهل من شأنه أن يعظ الناس ، فيخلط الأمور الإنسانية بالأمور الإلهية ، خلطاً يأباه عقل كل مسيحي ؟ ـ ليس لكتابك أن يفيد إلا من المحاكاة من أجل الأسلوب ، فكلما كانت المحاكاة أكمل اقترب الأسلوب من الكمال . وإذن ، فمادام القصد من كتابك ليس إلا كبح بل تحطيم ما لكتب الفروسية من تأثير وسلطان عند عامة الناس ، فهل أنت في حاجة الى استجداء أقوال الفلاسفة ومواعظ الكتب المقدسة وأخيلة الشعراء وخُطَب الخطباء وكرامات الأولياء ؟ لكن اجتهد أن تكون ألفاظك بسيطة صافية أمينة حسنة السّبْك ، وأن تكون فواصلك رنّانةً وحكايتك مُسليّة موشّاة وأن تكون معانيك مفهومة لا غامضة ولا مضطربة . واجعل قراءة قصتك تثير الضحك في الحزين ، وتزيد من بهجة الضاحك ، وتطرد الملل عن البُسطاء ، وتدعو الى إعجاب الحاذقين بإبداعها ؛ ولتكن بحيث لا تقتحمها عين أهل الجدّ ولا يرى الحكيم مندوحة من إطرائها . وتتطلّع ببصرك إلى تحطيم هذه الآلة الفاسدة المؤلفة من كتب الفروسية ، مما يعافه بعض الناس ويثني عليه أكثرهم . فإن وُفّقت لمرادك ، لم تكن قد نِلت قليلاً » .

وكنت أستمع الى ما يقوله صديقي في صمت بالغ ، وانطبعت كلماته في نفسي على نحو جعلني لا أماري فيها بل أراها سديدة تستوجب الثناء ، حتى رغبتُ في أن أؤلّف منها هذا الاستهلال الذي ترى فيه أيها القارئ الرقيق الحاشية ، فطنةَ صديقي ومهارته ، وحسن الحظ الذي قيّض لي أن أجد في الوقت المناسب مثل هذا الناصح الأمين ، وأخيراً ستستنشي نسيم الراحة حينما تجد قصة دون كيخوته دلامانتشا الشهير بكل بساطتها وبغير خلط ولا التواء . وإن جميع سكان إقليم سهل مونتيل ليعتقدون أنه كان أعف عاشق وأشجع فارس شوهد في هذه المنطقة طوال عدة سنوات . لا أودّ أن أبالغ في تمجيد الخدمة التي أصطنعها عندك بتعريفي إياك بفارس نبيل شريف كهذا ؛ غير أني أود أن تحمد لي تعريفي إياك بسنتشو پنثا ، حامل سلاحه ، وفيه سترى فيما أعتقد ، كل مناقب المهنة مجتمعة بعد أن كانت مشتتة في هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية .

قرّن الله عُمرَك بالعافية ، ولم ينسّني . والسلام!

القسم الأول

الفصل الأول

في احوال واعمال النبيل الشهير دون كيخوته دلامَنْتشا

في ناحية من نواحي إقليم المَنْتشا ، لا أريد أن أذكر لها اسماً[١] ، ومن زمن غير بعيد كان يعيش نبيل ممّن في مَسْلَحتهم رمح ، ولهم تُرسٌ عتيق وبِرْذَونٌ ضامر وكلبٌ سَلوقي . وكان ينفق ثلاثة أرباع دخله في قِدْرٍ يطهو فيه من لحم الضأن أكثر من لحم الثور ، وشرائح لحم مخللة كل عشاء تقريباً ، ومزيج من البيض والوَدَك[٢] ، وعدس في يوم الجمعة ، وزغلول حمام فوق الطعام المعتاد أيام الآحاد . وكان ينفق ما تبقى في شراء صدرية من الجوخ الرقيق ، وتُبّان من المخمل وخُفّين من نفس القماش ، من أجل أيام الأعياد ، وحُلة من أفخر العِهْن[٣] كان يتباهى بها خلال أيام الأسبوع . وكانت تقيم معه جارية تجاوزت سن الأربعين ، وبنت أخ لم تبلغ العشرين ، وصبي للحقل والمدينة كان يُسرج البرذون ويستعمل المِنجل . وكان صاحبنا النبيل يشارف الخمسين ؛ مجدول الخَلْق ، ضامر البدن ، أعجف الوجه ، شديد البُكور ، مولعاً بالصيد . وكان يقال إنه يلقب « كيخادا » أو

(١) إما أن يكون هذا مجرد تعبير أدبي ، أو هو لا يريد فعلاً أن يذكر اسمها . فإن كان الأخير فيقال إنه يقصد أرجمسيا -Argamasilla . راجع مبحث مارين في الجزء ٩ من ص٧٦ ـ ص٨٤ من نشرته الكبرى ، مدريد سنة ١٩٤٩ .

(٢) ترجمة للعبارة duelos y quebrantos التي حار الشراح في فهم معناها وهم يتتبعون دقائق أطعمة هذا النبيل الشهير! فمنهم من قال إن المقصود بها هو : « البيض والودك » (ترجمة أودان الفرنسية سنة ١٦١٤) ، ومن قال : « هي الجامبون المقلي مع البيض » (الترجمة الايطالية عمل فرنتشيو زيني سنة ١٦٢٢) ، ومن قال : « يسمى بهذا الاسم في إقليم المنتشا عجة من البيض والمخ » (الطبعة الأولى من « معجم » الأكاديمية الاسبانية سنة ١٧٢٦ ـ ١٧٣٩) ، أو « قدر من لحم الطير والخنزير كان أكلها حلالا في مقاطعات قشتالة في أيام السبت إبان الأيام التي فيها صيام عن اللحم » (الطبعة الرابعة عشرة من نفس المعجم سنة ١٩١٤) ، وأخيراً « هي شيء مقلي يتألف من البيض وودك الحيوان ، خصوصاً المخ ؛ وكانت أكلة يحل تناولها في أيام الامتناع عن اللحوم حسبما تقضي به أوامر الكنيسة في أيام السبت في مقاطعات قشتالة » (الطبعة الخامسة عشرة من نفس « المعجم » سنة ١٩٢٥) . راجع في هذا بحث مارين في نشرته (جـ٩ ص٨٥ ـ ص١١٤) .

(٣) تبان : calzas سروال يغطي الجسم من الخاصرة حتى القدمين . صدرية sayo لباس يغطي من الرقبة حتى الخاصرة . عهن : نوع من الصوف serpe jerga . في النص ورد velluri وهو نوع من الجوخ الرمادي متوسط الجودة .

« كيسادا » ، ففي هذه المسألة خلافٌ بين المؤلفين الذين تناولوه ، وإن كان أرجح الآراء يومئ الى أن لقبه هو « كيخانا » . بيد أن هذا أمر ليس بذي بال في قصتنا هذه ؛ والمهم هو ألا نحيد في رواية الوقائع عن الحقيقة قيد أنملة .

ويجب أن تعلم إذن أن هذا النبيل كان يقضي الأوقات التي لا عمل فيها ، أعني طوال العام تقريباً ، في الإنكباب على قراءة كتب الفروسية ، بلذة ونهم يبلغان حداً يجعله يكاد ينسى الخروج للصيد وإدارة أمواله . وقد حمله حبّ الاستطلاع والإفراط في هذه القراءة على بيع فنائق[1] كثيرة من أجود أراضي القمح من أجل شراء كتب في الفروسية يقرأها . ولهذا اقتنى في منزله منها كل ما استطاع اقتناءه . وكان يرى أن أروعها جميعاً تلك التي وضعها فلثيانو دي سلڤا الشهير[2] . ذلك أنه كان مأخوذاً بوضوح نثره ، وبدت كلماته المعقودة كأنها عقود اللؤلؤ ، خصوصاً حينما يبلغ من قراءته الى قوله في مواضع عدة من رسائل الغزل والتحدي : « إن علة علة العقل التي أصابت عقلي أضعفت عقلي حتى شكوت لعلة من جمالك »[3] ؛ أو قوله : « إن السموات العُلى التي تقوّي إلهيتك إلهياً بعون النجوم ، وتجعلك مستحقة للحقوق التي تستحقها عظمتك » .

بهذه العبارات وأمثالها فَقَد هذا السيدُ المسكين صوابه . فكان يقضي الليالي يعذب نفسه في فهمها وتعمقها واستخلاص المعنى من أحشائها ، على نحو ما كان أرسطوطاليس نفسه يفعله لو بعث حياً لهذا الغرض وحده . ولم يقنع بالجروح التي كان دون بليانيس يصيب بها أو يتلقاها ، لأنه تخيل أنه مهما يكن من مهارة الطبيب الذي يضمدها فلن يخلو الأمر من تغطية الجسم بالندوب والوجه بالأثور . ولكنه حمد للمؤلف طريقته الرشيقة في ختم كتابه بالوعد بهذه المغامرات التي لا تنتهي ؛ بل كثيراً ما راودته نفسه أن يمسك بالقلم وينجزه بالحرف الواحد ، كما وعد . وما من شك في أنه كان سيفعل هذا ويتمّه على خير وجه يشرّفه ، لولا أن صرفته عن

---

(١) الفنيقة : مكيال يسع ٥٥,٥ لتر ؛ والكلمة الاسبانية fanega عربية (راجع المقدسي ٢٤٠ : ٥ ؛ وراجع دوزي : تكملة المعاجم العربية جـ ص٢٨٥) ؛ وكانوا يقولون أيضاً « فنقة » ومنها الكلمة البرتغالية القديمة fonga (راجع البكري ١١٣ : ١٠) .

(٢) فلثيانو دي سلڤا (سنة ١٤٩٢ ؟ ـ سنة ١٥٥٨ ؟) ولد في ثيودا ردريجو وعشق ابنة يهودي متنصر هي جرائيالي واقترن بها رغم معارضة أهله ؛ واتخذ من ذلك موضوعاً لكتابه « حلم فلثيانو دي سلڤا ، وفيه تصوير مزايا الحب » . واشتهر خصوصاً بتأليف كتب في الأنواع التي يتذوقها الجمهور ، وبخاصة القصص . وخير مؤلفاته « ثلستينا الغانية » وإن كانت خليطاً من الأشخاص المتفاوتين كل التفاوت ومن الأشعار المندسة في ثنايا الحديث . ويهمنا منها هنا قصته : « السفر التاسع من أسفار أماديس دي جولا (أماديس الغالي) ، وهو تاريخ أشجع أمير وفارس ذي سيف مسلول ، ألا وهو أماديس اليوناني ، ابن لسورتي اليوناني ، امبراطور القسطنطينية وطرابزون ، وملك رودس ، ويبحث في أعماله الحربية العظيمة ومغامراته العالية الجريئة في الحب » .

(٣) هنا يستخدم المؤلف جناساً وتورية بناهما على المعنى المشترك لكلمة razon التي تدل على « العلة أو السبب » وعلى « العقل » فأمكنه التلاعب هنا ببراعة لم نتمكن من أدائها في العربية حرصاً على المحافظة على الأصل .

ذلك شواغل أجلّ وأشدّ إلحاحاً . وكأين من مرة اختصم مع قسّ القرية ـ وكان عالماً ظفر بإجازته في شيغونسه[١] ـ حول مسألة من كان أفضل في الفروسية : پالمرين الانجليزي ، أو أماديس الغالي . وكان يؤكد للأسطى نقولاس ، حلاق القرية ، أن فارس فيبوس[٢] لم يكن يدانيه أحد ، وإذا كان لأحد أن يقرن به فليس إلا دون جلاور ، أخا أماديس الغاليّ ، لأنه كان مستعداً لكل شيء ، ولم يكن متدلّلاً ، ولا هَرِعاً[٣] كأخيه ، وفي الشجاعة لم يكن ليقل عنه في شيء .

وبالجملة ، لقد كان غارقاً في قراءاته الى حد أنه كان في الليل يقرأ من المساء الى الصباح ، وفي النهار من الصباح الى المساء . ولقلة نومه وكثرة قراءته جفّ دماغه حتى مسّه طيفُ جِنّة . وامتلأ خياله بكل ما قرأه في هذه الكتب ، عن ألوان السحر والخصومات والتحدي والمعارك والجروح ولفتات المجاملة ، والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة ؛ وامتلأ وهمه يقيناً بأن هذا المخزن الهائل من التهاويل والأحلام هو الحقيقة بعينها ، ولم يكن ثمّ في الدنيا أصدق من هذا التاريخ . وكان يقول إن السيد روي دياث كان من غير شك فارساً حقاً ، ولكنه لم يكن أبداً من أنداد فارس السيف المسلول الذي فلق ـ بضربة واحدة بظهر سيفه ـ ماردين وحشيين هائلين فشطرهما شطرين . وكان يفضل برنردو دل كارپيو لأنه قتل رولند المسحور في رونصسڤالس ، مستعيناً بحيلة هرقل لما أن خنق أنطايوس[٤] ، ابن الأرض ، بين ذراعيه . وكان يثني كثيراً على المارد مورجانته لأنه وإن انحدر من أصلاب أولئك المردة العتاة المتوعّري الأخلاق ، فإنه كان وحده من بينهم دمِث الطبع محمود الشمائل . وكان آثرهم عنده غير مدافَع : رينالدوس دي مونتالبان ، خصوصاً حين يراه يخرج من قصره ويسلب كل من يلقى في طريقه من السابلة أو حين ذهب ليسرق تمثال محمد[٥] ، في الناحية الأخرى ، وكان هذا التمثال من خالص الذهب ، فيما يقولون . وكان على استعداد للتنازل عن جاريته ، بل وعن بنت أخيه في سبيل أن يركل الخائن جلالون بضع ركْلات .

وأخيراً ، وقد فقد صوابه ، استبدّت به فكرة هي أغرب ما يتخيله مجنون في هذه

---

(١) شغونسه Siguenza بليدة صغيرة وجامعتها هزيلة ـ ولهذا فالمؤلف إنما يتهكم هنا بهذه الدرجة الدراسية .

(٢) فيبوس ، وفي الاسبانية Febo الاسم الخرافي للشمس

(٣) الهرع : السريع البكاء .

(٤) أنطايوس : مارد من ليبيا ، ابن إلهة الأرض وإله البحر وكان من القوة في المصارعة بحيث كان يباهي بأنه يستطيع أن يبني معبداً لأبيه من جماجم خصومه بعد أن يصرعهم . وكان يستمد قوته طالما كان مستنداً بأقدامه الى الأرض . فاحتال هرقل حينما بارزه بأن رفعه في الهواء ثم عصره بين ذراعيه حتى مات .

(٥) كان هذا مدى إدراك القوم في ذلك العهد العامر بالحروب بين المسلمين والنصارى في اسبانيا ، للإسلام وللنبي محمد . وسترى شواهد هذه العقلية في ثنايا الكتاب كله مما يصور مشاعر التعصب المسيحي ضد الإسلام وما انطوى عليه من جهل وافتراء واختراع للأكاذيب .

الدنيا ؛ فقد رأى من اللائق بل من الضروري ، سواء لتألُّق مجده ولخدمة وطنه ، أن يصبح فارساً جوالاً ، فيسعى في مناكبها ، ببرذونه وسلاحه ، وراء المغامرات ، وأن يمارس جميع ما قرأ أن الفرسان الجوالين يمارسونه ؛ فيُصلح الأخطاء ، ويتعرض للأخطار في كل المناسبات حتى ينال بمجابهتها والتغلب عليها ذكرى لا تمحي أبداً . وكان يُخيّل إليه ، هذا المسكين ، أن قوة ساعده ستتوّج بتاج امبراطورية طرابزون على أقل تقدير . وراح ، نشوان بهذه الأفكار الحلوة وما فيها من إغراء لا يقاوَم ، راح يبادر الى وضع هذه الأمنية موضع التنفيذ . فكان أول شيء عمله هو أن ينظّف مِشكّاً[1] كان ملكاً لأجداده ثم ظل قابعاً في ركن من الأركان منذ قرون فريسة للصدأ والرطوبة ؛ فغسله وحكّه وأصلحه بقدر ما تهيأ له . لكن تبيّن له أنه ينقص هذا المشكّ شيء مهم وهو أنه لم يكن فيه خوذة[2] كاملة بل بصلة فحسب . فعالج الأمر بمهارته ؛ فأتى بورق مقوّى وصنع منه شبه نصف خوذة عشّقها مع البصلة فبدت على هيئة خوذة كاملة . صحيح أنه حين جرّب ليرى إن كانت تصمد لحد السيف ونصل السكين فجرّد سيفه وأهوى عليها بضربتين من حدّه كانت الأولى كافية لأن تحطم في برهة واحدة عمل أسبوع . فتضايق من سهولة تمزيقها ، ولكي يطمئن على هذا الخطر شرع في عملها من جديد ، وبطّنها بقضبان حديدية خفيفة ، حتى اطمأن الى صلابتها ؛ واعتقد أنها خوذة من أدق الأنواع ، دون أن يحاول تجربتها مرة أخرى .

ثم راح يفتّش عن برذونه ؛ وعلى الرغم من أنه كان فيه من الأوجاع أكثر مما فيه من الأعضاء[3] ومن العيوب أكثر مما كان في فرس جونيلا[4] ، فكان «جلداً على عظام»[5] ،

---

(١) مشك unas armas : مجموعة من الأسلحة .

(٢) الخوذة Celada غطاء حديدي للرأس يلبسه المحارب مستدير نصف كروي ؛ أما البصلة morrion فكانت بيضاً مرتفع الجوانب .

(٣) هنا يتلاعب ثربانتس باللفظ Cuarto ؛ فهو يدل على نوع من العملة يساوي ٣ سنتيم ، بينما الريال يساوي ٢٥ سنتيم . وهو يقول حرفياً : «وبالرغم من أنه كان فيه من الأرباع Cuartos أكثر مما في الريال real» . وكلمة Cuarto تدل أيضاً على الجرذ في الفرس ، «أي ما يحدث في عرض عرقوبيه ظاهراً وباطناً من تزيد وانتفاخ عصب ويكون مع المفصلي طولاً كالموزة» (مبادئ اللغة للخطيب الإسكافي ، ص١٣٩ ، القاهرة سنة ١٣٢٥هـ) . ولم نستطع أن نأتي بالعبارة بحروفها ، فأثبتنا معناها كما فعل كارليزي في ترجمته الإيطالية وڤياردو في ترجمته الفرنسية .

(٤) كان بيترو جونيلا مهرجاً في قصر الدوق بورسو في فرارا بإيطاليا في القرن الخامس عشر ، وكان فرسه مصدراً لكثير من النوادر الأدبية والطرائف المضحكة . ومما يروى أن الدوق بورسو الفراري لما شاهد فرسه وكانت ملأى بالأوجاع عجوزاً سأل كانيلا ماذا هو فاعل ببرذونه . فراح كانيلا يمدح خصال فرسه وراهن الدوق على مائة دينار في مقابل زكيبة من القمح على أساس أن فرسه يقفز قفزة أكبر من أجود خيول الدوق . ثم أصعد برذونه على سلم القصر ووضعه عند نافذة ثم دفعه منها فوقع في الميدان . فضحك الدوق واعترف بأنه خسر الرهان!

(٥) باللاتينية في النص ، وهي مأخوذة ، مع شيء من التعديل من عبارة وردت في مسرحية هزلية تأليف پلوتوس الشاعر اللاتيني بعنوان «جرة ملأى بالذهب» Aulularia (٣ : ٦) .

فإنه تراءى له أنه لا فرس الإسكندر المدعو بوقفالس ولا فرس «السِّيد» المدعو بابييكا بقادر على أن يجاري برذونه هذا : وظل أربعة أيام يتخيل أي اسم يعطيه لهذا البرذون ، إذ رأى (بحسب ما قاله لنفسه) أنه ليس ثمة من سبب لأن يظل فرس مثل هذا الفارس الشهير ، وهو في ذاته فرس جواد ، بغير اسم يشتهر به . ولهذا حاول أن يجد له اسماً يتفق مع ما كان عليه من قبل أن ينخرط في سلك الفرسان الجوالين ، ومع ما صار إليه حينئذ . وكان العقل يقضي بأنه مادام سيده قد غيّر من أحواله ، فيجب أن يتغير اسمه فيصبح اسماً فخماً رناناً حسبما يقتضيه الوضع الجديد والمهنة الجديدة التي اتخذها . وهكذا ، وبعد أن استعرض أسماءً ألفها ثم محاها ، وقضمها ثم زادها ، وركبها وحلّها في ذاكرته وخياله ، توصل أخيراً الى تسميته باسم : «روثينانته»[1] ، وهو اسم بدا له فخماً رناناً يدل على ما كان عليه وما صار إليه ، إذ كان «فرساً سابقاً» فصار «سابق الأفراس» .

ولما أن أعطى فرسه هذا الاسم الذي وافق مزاجه ، ودّ أن يعطي لنفسه اسماً ، فأنفق ثمانية أيام أخرى في هذا الأمر ، في نهايتها توصل الى أن يسمي نفسه باسم : «دون كيخوته» ؛ ومن هنا وقع لبعض الناس الذين ألّفوا هذا التاريخ الحقيقي أن يقولوا إن اسمه الحقيقي يجب من غير شك أن يكون «كيخادا» ؛ لا «كيسادا»[2] كما حلا لآخرين أن يلقبوه . وهنالك تذكّر أن الشجاع أماديس لم يقنع بأن يُلَقّب باسم «أماديس» فحسب ، بل أضاف الى اسمه اسم بلده ليشتهر ، ولهذا تلقب بلقب : أماديس الغاليّ ؛ فشاء أيضاً ، شأنه شأن كل فارس حقيقي ، أن يضيف اسم بلده الى اسمه ، ولهذا تسمى «دون كيخوته دلامَنْتشا» وخُيّل إليه بهذا أنه دلّ بوضوح على جنسه ووطنه ، وأنه شرف وطنه بأن اتخذ نسبة إليه .

فلما نظف سلاحه ، وصنع من البصلة خوذة ، وأعطى لبرذونه اسماً ، ولنفسه التأييد[3] ، اقتنع بأنه لم يعد ينقصه شيء اللهم إلا البحث عن سيدة ليعشقها ، إذ كان يحسب أن الفارس الجوال بغير عشق مَثَله مَثَل الشجرة بغير أوراق ولا ثمار ، أو الجسم بلا

---

(١) هنا يتلاعب المؤلف أيضاً بهذا اللفظ ؛ إذ كلمة rocinante مؤلفة من rocin (= برذون) وante (= سابقاً) ـ أي الفرس الذي كان سابقاً برذوناً ؛ كما يمكن أن تركب هكذا ante (= أول) ثم rocin (=برذون ـ أي أول فرس بين أفراس الدنيا!) .

(٢) «كيخادا» معناه في الاسبانية : فك (في الحنك) ، و«كيسادا» معناها كعك بالجبن . و«كيخوته» معناها درع الفخذ . ويرى كلمنثين أن ثربانتس اختار هذا الاسم لبطل قصته لأن النهاية ote ـ في اللغة القشتالية تدل عادة على أشياء مضحكة حقيرة .

(٣) التأييد Confirmation : شعيرة من شعائر الكنيسة الكاثوليكية لتأييد المسيحي في إيمانه ، وهي من خواص عمل الأسقف ، ومن المعتاد في مثل هذه الأحوال أن يلقب المؤمن بلقب جديد . وهنا يقصد بالتأييد أنه أعطى نفسه هذا اللقب الجديد : «دون كيخوته دلامنتشا» .

روح . وقال في نفسه : «لو قدر لي بسبب خطاياي ، أو بالأحرى لحسن حظي ـ أن أصادف في تجوالي مارداً من المردة كما يقع عادة للفرسان الجوالين وأن أجندله من أول لقاء أو أشقه نصفين ، أو أنتصر عليه أخيراً واضطرّه الى التسليم ، أفلا يكون من الخير أن يكون لدي من أرسله إليه ليدخل ويركع أمام سيدتي الحلوة ويقول لها بصوت ضارع خفيض : «أنا المارد كَرَكوليمبرو ، سيد جزيرة مالندرانيا ، الذي انتصر عليه في مبارزة منفردة الفارس الذي لا يحيط بمعاني مدحه وصف : دون كيخوته دلامنتشا ، الذي أمرني بالمثول أمام حضرتك ، لكي تتصرف عظمتك فيّ كما يحلو لها ؟ » أوه! كم غلبت على صاحبنا الفارس نشوة الطرب لما أن ألقى هذا الخطاب ، وخصوصاً لما وجد من سيعطيها اسم سيدته . إذ يقال إن هذه كانت فتاة فلاحة مليحة الوجه تسكن في قرية مجاورة لقريته ، وكان يتعشقها حيناً من الزمان ، وإن كانت هي لم تعرف عن هذا الأمر شيئاً ولم يكن يعنيها في قليل أو كثير . وكانت تدعى ألدونثا لورنثو ، فاستحسن أن يطلق عليها اسم السيدة التي سيطرت على أفكاره . فبحث لها عن اسم لا يبعُد كثيراً عن اسمها ، اسم يشتم منه ويمثل السيدة العظيمة والأميرة ، فلقبها بلقب : دُلثِنْيا دل توبوسو ، لأنها كانت من قرية توبوسو ؛ وقد بدا له اسماً موسيقياً نادراً ممتازاً ، لا يقل عمقاً في التعبير عن سائر الأسماء التي أطلقها على نفسه وعلى أشيائه .

الفصل الثاني

في اول خرْجة للماهر دون كيخوته خرجها من وطنه

فلما تجهّز بجهازه ، لم يشأ أن ينتظر أكثر مما انتظر لتنفيذ ما انتواه . وحثه على الإسراع اعتقاده أن العالم سيفقد الكثير إذا تأخر ، فكم كان يرجو أن ينتقم من مظالم ، وأن يصلح من أخطاء وأن يعالج من إهانات ، وأن يصحح من إساءات ، وأن يسدد من ديون! ولهذا ، ودون أن يخبر أحداً بما طوى عليه كَشْحه ، ودون أن يراه أحد أفاق ذات يوم ملتهب القيظ من أيام تموز قبل أن يبزغ النهار وتسلح بكل سلاحه وركب متن روثينانته ، ولبس خوذته الغريبة واستلأم لامته البيضاوية ، وأمسك برمحه ، وخرج الى الحقول من باب خلفي ناحية حوش الدواجن وقد استطاره الفرح إذ شعر بالسهولة التي تم بها البدء في تنفيذ غرضه النبيل . لكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى هاجمته فكرة مخيفة كانت على وشك أن تصرفه عن المضيّ في مشروعه . إذ تذكر أنه لم يسلح فارساً ، وقوانين الفروسية لا تخوّل له إذن أن يدخل في مبارزة مع أي فارس ؛ وحتى لو سُلّح فارساً فليس له أن يحمل إلا أسلحة بيضاء ، بوصفه فارساً مبتدئاً ، دون شارة على لامته حتى يستطيع أن يظفر بها بشجاعته . هذه الخواطر أوقعته في حيرة ؛ لكن جنونه أزرى بكل عقل فقرر أن يقوم بتسليحه فارساً أول من يلقاه ، وهو في هذا إنما يحاكي كثيراً غيره مما فعلوا فعلته كما تدل عليه قراءاته في الكتب التي أدت به الى هذه الحال . أما عن الأسلحة البيض فقد رأى أن يحك أسلحته ، في أول مناسبة تعرض له ، على نحو يجعلها أبيض من السَمّور . وهكذا اطمأنت نفسه ومضى لطِيّته يسلك سبيلاً لم تكن إلا تلك التي اختارها فرسه ، إذ رأى في ذلك سر المغامرات .

وبينا يسير كان صاحبنا المغامر الجديد يتحدث الى نفسه قائلاً ؛ من ذا الذي سيشك ، في الأجيال المقبلة حينما تذاع قصةُ مغامراتي الحقيقية ، ، أن الحكيم الذي

سيكتبها لن يصف خرجتي الأولى هذه بقوله : «لم يكد أپولو الأشقر ينشر ذوائبه الذهبية من شعره الجميل على وجه البسيطة الفسيح ، ولم تكد الطيور الصغار ذوات الأصباغ الرائعة تحيي ، بقيثارات ألسنتها وبأنغام أعذب من الشهد ، مقدم الفجر الوردي وقد غادر فراشه الوثير حيث ترقد عروسه الغيور وتبدى للأحياء من أطناف الأفق المنتشاوي ـ حتى غادر الفارس الشهير دون كيخوته دلامنتشا حشايا الكسل ، وامتطى صهوة فرسه الشهير روثينانته وسلك سبيله خلال سهل مونتييل القديم الذائع الصيت» ؟ . وهو كان يتجول فعلاً في هذا المكان . ثم أضاف قائلاً : «طوبى للعهد الذي ستذاع فيه أفعالي الجريئة الرائعة الخليقة بأن تنقش على البرنز ، وتحفر على المرمر ، وترسم على الخشب ، لتحيا أبداً في ذاكرة الأجيال المقبلة! وأنت أيها الحكيم الساحر ، أياً مَن كنت ، يا من قُدِّر لك أن تكون مؤرخاً لهذه الأحداث الرائعة ، أتوسل إليك ألا تنسى فرسي الطيب روثينانته ، رفيقي الدائم في جميع أسفاري» . ثم استأنف بلهجة العاشق الوامق حقاً : «أي أميرتي دُلثنيا ، سيدة هذا القلب الأسير! لقد أهنتِني إهانة بالغة بوداعي ، وبما أمرت به من حرماني القاسي من المثول في حضرة جمالك . فتفضلي يا سيدتي بتذكر هذا القلب ، قلب عبدك الذي برّحتْ به الآلام حباً فيك» . ثم أضاف الى هذه الترهات مئات أخرى كلها على غرار ما لقنته كتبه ، محاكياً لغتها قدر المستطاع .

وفي خلال ذلك كان يسلك سبيله رويداً رويداً ، بينما الشمس تصّاعد وتتقد أشعتها حتى كانت تكفي وحدها لصهر مُخّه لو كانت في مخه بعدُ بقية .

وسار اليوم كله دون أن يقع له ما يستحق أن يذكر . ولكم ساءه هذا ، لأنه كان يود لو التقى في التو بمن يبلو وإياه صلابة عضلاته . على أن من المؤلفين من يذكر أن أولى مغامراته كانت مغامرة ميناء لپثه ، وآخرون يقولون إنها كانت مغامرة طواحين الهواء . ولكن تحقيقي لهذا الموضوع وما وجدته مسجلاً في أخبار المنتشا دلاّ على أنه ظل سائراً اليوم كله ، حتى إذا ما وافى المغيب كان هو وبرذونه يتساقطان إعياء ويموتان ظمأ . فراح ينفض المكان من كل ناحية عساه أن يبصر قصراً أو كوخاً للرعاة فيه يجد المأوى والعلاج لحاجته الملحّة ـ فلمح غير بعيد من الطريق الذي كان يسير فيه فندقاً ، فخُيِّل إليه كأنما رأى النجم الذي سيهديه الى أعتاب ، إن لم يكن الى قصر خلاصه . فحث الخطى حتى بلغه مسقطَ الليل .

وتصادف أن كان عند الباب امرأتان من اللواتي يطلق عليهن اسم «بنات الهوى» وكانتا في الطريق الى أشبيلية مع بعض البغّالين الذين قرروا النزول بهذا الفندق تلك الليلة .

ولما كان صاحبنا المغامر يظن أن كل ما يقع له وما يراه أو يفكر فيه إنما يقع على غرار ما قرأ ، فإنه لم يكد يبصر الفندق حتى خاله قصراً له أربعة أبراج وتيجان فضية لامعة ، ولا ينقصه الجسر المتحرك ولا الخنادق ولا أية تفصيلة من التفاصيل التي توصف بها أمثال تلك القصور . فاقترب من الفندق الذي خاله قصراً وتلبّث غير بعيد ممسكاً بعنان روثينانته ، في انتظار طلوع عفريت بين الأفاريز العليا المسننة ليعلن في بوقه عن وصول فارس الى القصر . لكنه لما استبطأ الأمر ورأى روثينانته تستعجل الوصول الى الاصطبل ، اقترب من الباب ، وشاهد البنتين الفاسقتين اللتين كانتا هناك ، فتبدتا له أنستين جميلتين أو سيدتين رشيقتين تسترفهان . ومن عجائب الصدف في هذه اللحظة أن راعي خنازير كان يجمع شمل قطيع من الخنازير (واعذرني ، فهذا هو اسمها) على أكوام التّبن ، فكان ينفخ في قرن فتتجمع على صوته هذه السوائم . هنالك خُيّل إلى دون كيخوته أن عفريتاً أعطى إشارة الوصول ، فكان له ما رام . وهزته النشوة فاقترب من الفندق والسيدتين ، اللتين لم تكادا تبصران هذا القادم المسلح على هذا النحو ومعه رمحه وترسه ، حتى عادتا مرتاعتين الى داخل الفندق . وفهم دون كيخوته أن السر في فرارهما هو الرهبة . فرفع حافة الخوذة الكرتونية ، وكشف عن وجهه الجاف الأغبر ، وقال لهما برقة ورزانة صوت : «لا تُراعا يا صاحبتي العصمة ، ولا تهربا ؛ فإن نظام الفروسية الذي أنتسب إليه يقضي بعدم إهانة أحد ، خصوصاً إن كان مثلكما آنستين من معدن الحسب الصميم كما تدل عليه سيما حضرتيكما » .

فحملقتا إليه بمجامع عيونهما بحثاً عن وجهه تحت حافة الخوذة الرديئة التي غطّته . لكنهما حينما سمعتاه يدعوهما باسم « آنستين » ، وهذا أمر بعيد جداً عن مهنتهما ، لم يتمالكا من الضحك على نحو جعل دون كيخوته يغضب . فقال لهما بلهجة جادة :

ـ الأدب من شيمة الجمال ، والضحك لسبب تافه حماقة ؛ غير أني لا أقول لكما هذا لأضايقكما أو أعكّر صفو سروركما ، فسروري إنما هو بخدمتكما » .

فزادت هذه اللهجة التي لم يفهماها وعبوس وجه صاحبنا الفارس من ضحكاتهما ومن غضبه حتى أوشك الأمر أن ينقلب سوءاً ، لولا أن ظهر صاحب الفندق في هذه اللحظة ، وكان رجلاً بديناً أحالته سمانته وديعاً ، ولما رأى هذا الوجه الغريب ، المسلح بهذه الأسلحة المتفاوتة : بعنانه ورمحه وترسه ودروعه أوشك أن يشارك الفتاتين في إظهار حبوره . لكنه تدارك نفسه وقد فزع من هذا الشبح الشاكي السلاح وعزم على مخاطبته بأدب فقال :

ـ أي سيدي الفارس! إن كنت تبحث عن مأوى ، دون فراش (إذ ليس في هذا الفندق كله سرير واحد) ، فستجد سائر ما تبغي موفوراً جداً .

فلما رأى دون كيخوته تواضع قائد الحصن ـ إذ هكذا بدا له صاحب الفندق والفندق ـ أجاب :

ـ أي شيء يكفيني يا صاحب القصر ، إذ :

السيفُ كلُّ عتادي   وراحتي في جهادي[1]

فلما سمعه يدعوه castellano[2] (= صاحب القصر) حسبه إنما فعل ذلك لأنه بدا له شبه لصوص قشتاله (Castilla) ـ وهو في الحقيقة كان أندلسياً من أهل ساحل سان لوقار ، لا يقل شأناً في اللصوصية عن قاقوس[3] ، ولا في الهُزء عن تلميذ أو خادم ـ فردّ عليه قائلاً :

ـ وعلى هذا فإن الصخر الصيخود هو كل سرير جنابك ، ونومك دائماً سهاد ؛ فإذا كان الأمر هكذا ، فتستطيع أن تترجل ، وأنت واثق أنك ستجد في هذا الكوخ كل فرصة وفرصة لاكتحال السهاد طوال العام كله ، لا ليلة واحدة فحسب .

وأمسك الركاب لدون كيخوته ، فنزل عن صهوة فرسه بكل عناء ومشقة ، ومثله مثل صائم يومه كله .

وقال لصاحب الفندق أن يعنى عناية خاصة بفرسه ، لأنه خير دابة في الدنيا . فرمقه صاحب الفندق ولم يجده فرساً جواداً كما زعم دون كيخوته ، بل ولا نصف جواد . بيد أنه ساقه الى الاصطبل وعاد يسأل الضيف عما يريد ، وكانت الفتاتان مشغولتين بخلع سلاحه من عليه ، بعد أن جنحتا للسلم معه . فجردتاه من دروع الصدر والأكتاف ؛ لكنهما لم تستطيعا أبداً تخليصه من بنيقة رقبته ، ولا من خوذته الغريبة التي ربطت بأشرطة خُضْر . وكان لا مندوحة عن قطع هذه الأشرطة التي استعصى حل عُقَدها ؛ غير أن دون كيخوته لم يوافق على هذا أبداً ، وفضل أن يظل الليل طوله وخوذته مثبتة على رأسه ، فكان أغرب

---

(١) اعتادت الطبعات (الرئيسية وغيرها) أن توردها على أنها نثر ، وهي في الحقيقة بيتان مأخوذان من قصيدة رومانثية قديمة أوردها أمبيريس (دون ذكر السنة ، ولكن يظهر أنها بين سنة ١٥٤٥ و١٥٤٩) في «مجموع القصائد الرومانثية» (ورقة ٢٥٢) ، وتقول :

السيف كل عتادي   وراحتي في جهادي
والصخر كل سريري   ورقدتي في سهادي

(٢) هنا يتلاعب المؤلف باللفظ ، إذ يمكن أن يفهم بمعنى صاحب القصر ، وبمعنى قشتالي ، نسبة الى إقليم قشتالة في قلب اسبانيا ، وفي الحالة الأولى يكون مأخوذاً من castillo (= قصر) وفي الثانية من النسبة الى castillo (= قشتالة) . وترجمة هذا التلاعب في اللغات اللاتينية سهل ، وفي العربية غير ميسور .

(٣) قاقوس Cacus : في الأساطير الرومانية ، كان مارداً وقاطع طريق يعيش في كهف على تل الأفنتين (التل الجنوبي وأحد تلال روما السبعة) . ولما كان هرقل يسوق قطعان جريون توقف للراحة في المكان الذي سيصبح روما . فسرق قاقوس بعض الماشية منه وساقها الى كهفه وأخفاها . وارتحل دون أن يكتشف السرقة ؛ لكن خوار ثيرانه جاوبته الثيران المساقة في الكهف . هنالك هاجم الكهف وذبح قاقوس واستعاد ثيرانه .

وأظرف منظر يمكن أن يتخيله إنسان . وخلال هذه المراسم ، وقد اعتقد تماماً أن العاهرتين اللتين قامتا بخلع سلاحه كانتا سيدتين عظيمتين في هذا القصر ، أنشدهما برشاقة جمّة هذه الأبيات[1] :

خَــبّـــروني هل رأيتم	فــارســاً بالغِيـد يُخـدَم
مــثل كـيـخـوتة لمــا	من حِمى الضيـعة أقـدم ؟!
فــالأنيــســات على الفـا	رس يغــدقن العـنايه
والأمــيــرات على البــزْ	ذون يغــدقن الرعــايه

على البرذون أو على روثينانته ، لأن هذا ، يا سيداتي ، هو اسم فرسي كما أن دون كيخوته دلامنتشا هو اسمي . وعلى الرغم من كوني لم أشأ أن أكشف عن نفسي قبل أن يكشف عنها ما سأبذله في خدمتكما من أعمال ، فإن الحاجة الى جعل هذه القصيدة الرومانثية العتيقة ، التي تحمل اسم لانثاروته ، مراعية لمقتضى الحال قد كانت سبباً في أن تعرفا اسمي قبل الوقت المناسب . لكن سيأتي الزمن الذي تأمران سيادتكما فيه وأنا أطيع ، ويشهد ساعدي على رغبتي في خدمتكما .

فلم تُحر الفتاتان جواباً ، وهما لم تتعودا على سماع أمثال هذه البلاغات . ثم سألتاه هل يريد أن يأكل شيئاً . فأجاب دون كيخوته :

ـ أي شيء يكفيني ؛ إذ لو صدق ظني لجاء كل شيء على ما يرام .

ولحسن الحظ كان اليوم يوم جمعة ، ولم يكن في الفندق كله إلا شطائر من سمك يسمى في قشتالة باسم أباديخو ، وفي الأندلس : بكلاه ، وفي مناطق أخرى : كوراديو ، وفي غيرها : تروتشويله . فسُئل هل يريد سعادته أن يأكل تروتشويله ، إذ لم يكن ثم غيره حاضراً للأكل . فأجاب :

ـ إن وجدت تروتشويلات كثيرة فيمكن أن تكون بمثابة تروتشه ، إذ يستوي عندي أن أعطى ثمانية ريالات فردية أو قطعة من ذوات الثمانية ريالات . ومن يدري! فلعل هذه التروتشويلات أن يكون لحمها كلحم العجل ، وهو أرق من لحم الثور ، أو كلحم الماعز وهو أرق من لحم التيس . وأيا ما كان ، فعليّ به حالاً ؛ لأن التعب وعبء السلاح لا يحتملان دون معاونة الكرش .

---

(١) عدل كيخوته في هذه القصيدة لتطابق مقتضى اسمه وحاله . فإنها في الأصل باسم لنثاروته ، وبلده . وصيغتها الأصلية هكذا : «لم تخدم سيدات فارساً كما خدم لنثاروته ، حينما قدم من بريطانيا . كم من سيدات اعتنين به ، وكم من فتيات اعتنين بفرسه!» .

فأُعدّت له مائدة عند باب الفندق حيث الطقس أبرد ، وأحضر له صاحب الفندق قطعة من هذه البكلاه رديئة الطهي مسيخة مليخة وخبزاً أسود عفناً مثل سلاحه . وكما كان مثاراً للضحك الشديد أن يُرى وهو يأكل ، لأنه كان مغطى بالخوذة وحافتها مرفوعة فلم يكن ليتمكن من أن يحمل الى فمه شيئاً بيده ، بل كان لابد أن يناوله شخص آخر ، فقامت بذلك إحدى الفتاتين . ولم يكن ممكناً كذلك سقيه ، لولا أن صاحب الفندق اهتدى الى حيلة هي أنه خرق عوداً من الغاب وضع أحد طرفيه في فمه وصب في الطرف الآخر خمراً وإبان هذا كله كان الفارس المسكين متذرعاً بالصبر حتى لا يقطع أشرطة بصلته . وفي هذه الأثناء تصادف أن قدِم الفندق خاصي خنازير ، وشرع حين وصوله في النفخ خمس أو ست مرات في صفارة من غاب . وكان هذا كافياً ليلقي في روع دون كيخوته أنه كان في قصر شهير ، وأنه يتناول طعامه بمصاحبة موسيقى ، وأن الأباديخو كان تروتشه ، والخبز الأسود خبزاً من الحُوّارى ، والعاهرتين سيدتين جليلتين ، وصاحب الفندق أمين قصر . فحمد الله على فراره وخروجه . لكن الأمر الذي أقلقه هو أنه لم يُسلَّح فارساً ، إذ خُيّل إليه أنه لا حق له شرعاً في المغامرة قبل أن يتلقى مرسم الدخول في نظام الفروسية .

الفصل الثالث

في الطريقة الظريفة التي بها سُلِّح دون كيخوته فارساً

وما أن أقلقه هذا الخاطر حتى عجّل بالفراغ من هذا العشاء الفندقي الهزيل . وما أتمه حتى دعا صاحب الخان واقتاده الى الاصطبل وأغلق الباب وجثا على ركبتيه أمامه قائلاً :

ـ لن أنهض من حيث أجثو ، أيها الفارس الشجاع ، إلا إذا تفضل أدبُك فتعطف عليّ بنعمة أريدها منك ، ستُعلي من مجدك ، وتخدم الإنسانية .

فلما رأى صاحب الفندق ضيفه جاثياً عند قدميه وسمع منه هذه العبارات ، حدق فيه حائراً لا يعرف ما يفعل ولا ما يقول ، وألحّ عليه أن ينهض . فلم يشأ النهوض إلا بعد أن وعده بإجابته الى النعمة التي التمسها . فأجاب دون كيخوته :

ـ لم أكن أتوقع من كرمك غير هذا . وهأنذا أقول لك إن هذه النعمة التي أرجوها وكرمُك سيمنحنيها ، هي أن تسلحَني فارساً غداً صباحاً . وأنا من ناحيتي سأسهر هذه الليلة في هيكل قصرك سهرة السلاح ، وغداً تتحقق أقصى أمانيّ ، حتى أقدر ، حسبما يقتضيه الواجب ، أن أذرع أركان الدنيا الأربعة ، باحثاً عن المغامرات ابتغاء مرضاة المحتاجين ، مما هو واجب الفروسية والفرسان الجوّالين أمثالي الذين تدفعهم طباعهم الى أمثال هذه الأفعال الجليلة .

وكان صاحب الفندق خبيثاً الى حد ما ، كما كان يقال ؛ بدأ يغتمزه في عقله ، واقتنع تماماً بهوسه حينما سمعه يقول هذه العبارات . لكنه لكي يهيئ زاداً من الضحك تلك الليلة ، قرر أن يتابعه على هواه ، فأجابه بأنه على حق تام في هذه الأمنية ، وأن هذا القرار طبيعي ومن شأن ذوي الحسب اللُّباب الذين يتطاولون الى أعراف المجد ، كما يدل عليه سيماه . وأردف قائلاً : «وأنا أيضاً كنت في سني شبابي أزاول هذه المهمة الشريفة ،

فطوّفت بأرجاء الدنيا سعياً وراء المغامرات . لم أقعد عن زيارة رَبَض الأعواد[١] في مالقة ، وجزائر ريارانِ[٢] ، وفرجار أشبيلية[٣] ، وسويقة[٤] شقوبية ، وميدان[٥] الزيتون في بلنسية ، ودورية غرناطة[٦] ، وشاطئ سان لوقار[٧] ، وفرس قرطبة[٨] ، وفنادق طليطلة[٩] ، وأماكن أخرى كثيرة بلوت فيها سرعة أقدامي كما بلوتُ خفة يديّ ، وأوقعت آلاف ألوان الأذى ، وغازلت الأرامل وروّعت الكواعب وغررت باليتامى ، حتى ذاع صيتي في كل المحاكم الاسبانية تقريباً . وفي النهاية جئتُ الى قصري هذا أعيش معتزلاً ، آكل من مالي ومال غيري ، وأستقبل فيه سائر الفرسان الجوالين ، من أية طبقة ومنزلة كانوا ، لا لشيء إلا لأني أحبهم حباً جماً ، بشرط أن يشركوني في أموالهم لقاء نواياي الطيبة » . ثم قال له أيضاً إنه لا يوجد في القصر هيكل يقضي فيه سهرة السلاح ، إذ هدم القديم لبناء آخر

---

(١) كان هذا الربض حياً خارج المدينة ، سمي بهذا الاسم لما نصب فيه من أعواد تستخدم لتجفيف السمك وتعريضه للهواء بعد تمليحه ، وكان عددها قرابة الثلاثين عوداً تشغل المسافة من وادي المدينة (وهو نهر) حتى الجانب الآخر ناحية أبراج فونسيقه ، بين الطريق وساحل البحر . وكان يغشاه أهل الحظ واللهو يلعبون بالرماح ويملأون بطونهم .

(٢) كانت مجموعة من المنازل المنعزلة في مدينة مالقة أيضاً ، يملكها غرسي لوبث الأرياراني ، وفيها حانات وحوانيت يغشاها أهل البطالة والمرح . وسميت «جزائر» لأن كلمة «جزائر» تطلق على مجموعات المنازل المنعزلة . وكان غرسي لوبث هذا قبطاناً في أسطول فرديناند وإيزابيلا الملكين الكاثوليكيين كما يسميان .

(٣) فرجار أشبيلية : حي على طول الأسوار ، عن شمال الداخل من باب ارنال حيث شارع اللاهونة . وفي هذا الحي كانت بيوت الدعارة العمومية ، وكانت في السور بوابة خلفية تفضي الى الحقول . وفي ثنايا بيوت الدعارة كانت توجد بيوت صغيرة بائسة تملكها مع ذلك الكنائس والأديرة والمستشفيات وبعضها لأفراد من الناس . وكان بيت الدعارة يسمى في لغة القوادين بعدة أسماء : «الجمرك ، الكمبيو ، حقل الصنوبر ، القفار ، الخ» . وكذلك كانت لنزيلاته أسماء لا تقل عدداً عن ذلك!

(٤) سويقة شقوبية : تصغير «سوق» azoguejo العربية . وكان يطلق على ميدان صغير في ربض مدينة شقوبية ، تمر عليه القناه المرتفعة الرومانية Acueducto . وفي القرن السابع عشر كان يقال : «هو من شقوبية : كان في شقوبية ، أو خبيث من شقوبية» للدلالة على شخص ماكر داهية خبيث . وكان يتردد على هذه السويقة المحتالون والسحرة والمشعوذون .

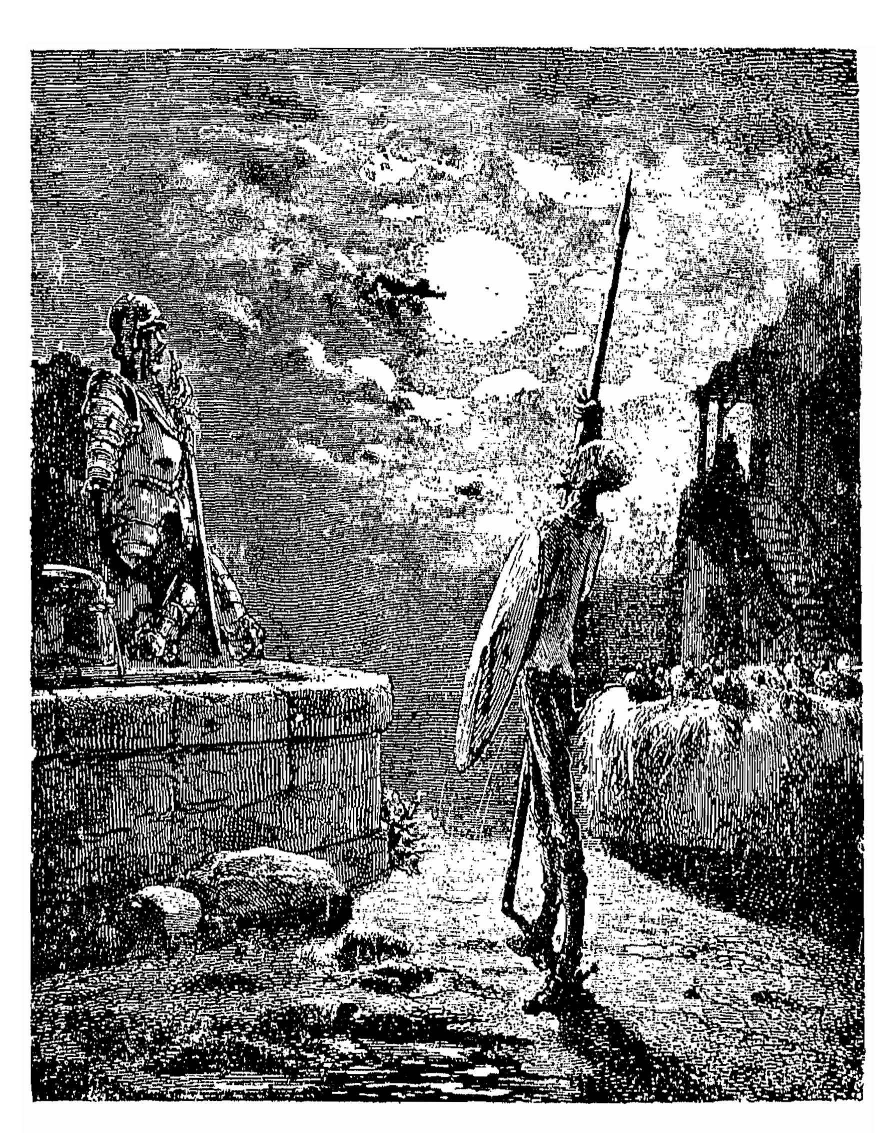
(٥) هذا الميدان كان يقوم ناحية ميدان Olivereta الحالي ، وكان يغشاه المهرجون والمومسات والقوادون وأشباههم ، وكان مركزاً للدعارة .

(٦) تقع هذه الدورية (مكان دائري) حوالي باب التوابين Bibataubin ، والميدان الذي تشغله فيه أشجار رائعة . وكان يجتمع فيها الصعاليك والمتشردون .

(٧) يطلق على «مضربة» الزهراء و«مضربة» قونل وكستلنولو ، وكلها متقاربة تقع على شاطئ فخر Vejer . و«المضربة» معناها «مصائد سمك التونة» (راجع ميجل اسين بالاثيوس : «بحث في الأسماء العربية لبعض الأماكن في اسبانيا» ص٦٦ ، مدريد سنة ١٩٤٤) . وكانت مرتاد الصعاليك الذين يأتون الى «المضارب» لسرقة سمك التونة .

(٨) ميدان وحي في جنوب مدينة قرطبة سمي ـ هو والشارع الذي يمر فيه والنافورة التي به ـ بهذا الاسم لفرس من الحجر كان في أعلى النافورة . وكان هذا الميدان مرتاد الظرفاء والخبثاء والماجنين . وكثيراً ما يرد ذكره في الأناشيد الرومانثية .

(٩) هذه الفنادق الصغيرة الشهيرة كانت تقع على نواحي مدينة طليطلة ، خصوصاً على الطريق الى مدريد . وكان يرتادها طلاب الطعام الشهي والشراب الفاخر والقمار . ولهذا ردد ذكرها ثربانتس في بعض قصصه ، خصوصاً في قصتي : «النسالة الشهيرة» و«القواد المحظوظ» .



الفصل الثالث : دون كيخوته يُرْسَم فارساً

جديد ؛ ولكنه يعلم أن هذه السهرة يمكن أن تمضي في أي مكان يشاؤه المرء ، وأن دون كيخوته يستطيع أن يسهر هذه الليلة في فناء القصر ؛ فإذا ما تنفس الصبحُ أقيمت كل المراسم والطقوس المطلوبة بمشيئة الله ، فيصبح فارساً مسلحاً ، فارساً لا كالفرسان .

ثم سأله هل يحمل معه نقوداً . فأجاب دون كيخوته قائلاً إنه لا يحمل مليماً واحداً ، لأنه لم يقرأ أبداً في قصص الفرسان الجوالين أن أحداً منهم كان يحمل نقداً معه . فرد عليه صاحب الفندق بأن هذا غير صحيح ؛ لأنه وإن لم تذكر القصص هذا الأمر ، فإن مؤلفيها لم يروا من الضروري ذكر هذا الأمر البسيط الطبيعي ، ألا وهو حمل النقود وارتداء القمصان البيض ، فليس معنى عدم ذكرها إذن أن الفرسان الجوالين لايحملون معهم منها ، وهو واثق ومتأكد أن أولئك الذين امتلأت بذكر أفعالهم الكتب كانوا يحملون دائماً وفي كل ظرف كيساً مليئاً بالنقود ، وقمصاناً وصندوقاً صغيراً مملوءاً بالمراهم لنث الجراح التي يصابون بها ، إذ لايصادف دائماً أن يوجد في الحقول والقفار التي تجري فيها المعارك وتتلقى فيها الجراحات من يقوم بتضميدها ، اللهم إلا إذا كان لهم صديق حكيم ساحر يهب لمعاونتهم ، فيرسل لهم على متن السحاب والهواء فتاة أو عفريتاً معه قنينة فيها شراب إذا ما شربوا منه بضع قطرات شفوا من جراحهم في الحال وكأنهم لم يصابوا أبداً . فإذا لم يتيسر هذا النوع من الاسعاف ، رأى الفرسان القدامى أن من سداد الرأي ـ في مثل هذه الأحوال ـ أن يتزود حاملو أسلحتهم بالنقود وبعض ألوان العتاد الأخرى الضرورية ، مثل الفتل والمراهم لدسم الجروح وتضميدها ، فلو حدث أن لم يكن لهم حاملو سلاح (وهذا أمر نادر جداً أن يكون) ، تولوا هم حملها كلها في خرج لطيف جداً حتى لا تبدو للناس ويضعونها على غرابى الفرس وكأنها شيء آخر أكبر أهمية ، ذلك أن عادة حمل الخرج ، اللهم إلا في مثل هذه الحالة الخاصة ، لم تكن متبعة عند الفرسان الجوالين . ثم نصحه بل أمره ، وكأنه إنما يأمر ابنه في السلاح ، أو من سيكون كذلك عما قليل ، ألا يسافر مرة أخرى بغير نقود ولا زاد من نوع ما ذكرناه ، وسيرى كم سيفيده هذا الاحتياط في اللحظات التي يكون أبعد عن أن يفكر فيه . فوعده دون كيخوته أن ينجز ما نصحه به بكل دقة .

ثم رتب كل شيء من أجل إجراء سهرة السلاح في فناء فسيح بجوار الفندق . فجمع دون كيخوته سلاحه ووضعه على حوض إلى جوار بئر ، ثم احتضن ترسه وأمسك برمحه ، وبحركة رشيقة أنشأ يغدو ويروح أمام الحوض ، ولما بدأ هذه العملية ، كان الليل قد عسعس . وكان صاحب الفندق قد قص على النزلاء جنون ضيفه هذا وسهرة السلاح التي

يقوم بها والاحتفال الذي سيقام لتسليحه فارساً . فتعجبوا من هذا الطائف الجنوني ، ومضوا يراقبونه من بعيد . وكان هو يتجول بخطوات بطيئة موزونة ، أحياناً ، وأحياناً أخرى كان يستند إلى رمحه ويتعهد بنظره أسلحته دون أن يتحول عنها طول ساعة كاملة . ثم أرخى الليل سدوله كلها ، بيد أن القمر كان يلقي ضوءاً وضاحاً ينافس من أعارته إياه (أي الشمس) ، حتى كان كل ما يفعله الفارس المريد تأخذه عيون الجميع .

وفي هذه اللحظة تراءى لأحد البغالين الذين نزلوا في الفندق أن يسقي دابته ، وكان لا بد لهذا من رفع أسلحة دون كيخوته عن الحوض . فلما رآه هذا مقبلاً صاح فيه بصوت عال :

ـ أنت ، أياً من كنت ، أيها الفارس الجسور الذي أتيت لتمس سلاح أشجع الفرسان الجوالين الذين تقلدوا السيوف ، حذار مما أنت فاعل ، ولا تمسسها إذا شئت ألا تدفع حياتك ثمناً لتهورك .

فلم يحفل البغّال بما قال ، ويالسوء ما فعل ، ولو حفل به لأبقى على صحته . بل أمسك بالسيور وألقى بالحزمة بعيداً . فما أن أبصر دون كيخوته ما فعل حتى ارتفع ببصره إلى السماء واتجه بأفكاره (فيما بدا) إلى سيدته دلثنيا وقال :

ـ أعينيني ، يا سيدتي ، في هذه الاهانة الأولى التي يعانيها هذا القلب الأسير لك ، ولا عدمت مساعدتك وفضلك في هذا الخطر الأول .

وبينا كان يتفوه بهذه الكلمات وأخرى تشبهها ، ألقى بترسه ورفع رمحه بيديه وأهوى بضربة محكمة على رأس البغّال ، جندلته على الأرض في أسوأ حال ، وكانت تكفي ضربة أخرى لاستدعاء جرّاح ، ولمّا تمّ له هذا ، جمع سلاحه واستأنف التجوال ذاهباً جائياً بنفس الهدوء الذي كان فيه قبل .

وبعد قليل اقترب أحد رفاق البغّال ودون أن يعلم ماحصل ـ لأن الآخر كان لا يزال مجندلاً فاقد الوعي ـ ابتغاء سقي بغاله . لكن في اللحظة التي رفع فيها السلاح عن الحوض ألقى دون كيخوته بترسه ورفع رمحه من جديد ، دون أن يقول كلمة أو يلتمس شيئاً من أحد ، ثم شج رأسه ، دون أن يفتّتها ، شجها الى أربع قطع . فهرع جميع من في الفندق على هذه الضجة ومعهم صاحب الفندق . فلما رآهم دون كيخوته احتضن ترسه وأمسك بسيفه وصاح :

ـ يا سيدة الجمال ، يامعوان قلبي الضعيف ، آن لك أن تلحظي بعيون عظمتك هذا الفارس ، عبدك ، الذي تنتظره هذه المغامرة المروعة!

وبهذه الكلمات أحس أن القوة كلها تجمعت فيه ، فلو هاجمه جميع البغالين في الدنيا لما تقهقر خطوة واحدة . وكان إخوان الجريحين لما شاهدوهما في هذا الحال قد بدأوا

يحصبون دون كيخوته بالأحجار التي انهالت عليه كالأمطار ، وراح هو يدرؤها عن نفسه بترسه ، ولم يجرؤ على الابتعاد عن الحوض لئلا يترك سلاحه . فصاح صاحب الفندق فيهم أن يدعوا الفارس وشأنه ، لأنه كما قال لهم من قبل رجل مجنون وما دام مجنوناً فسيخرج سليماً حتى لو قتلهم عن آخرهم ، وكان دون كيخوته من جانبه يصيح بأعلى صوته ناعتاً إياهم بأنهم خونة كفرة ، قائلاً إن سيد القصر فارس جبان دنيء ، إذ سمح بمعاملة الفرسان الجوالين على هذا النحو ، ولو كان هو تلقى رتبة الفروسية لكشف عن خيانته ، ثم وجه الخطاب الى الجمع قائلاً : أما أنتم أيها الأوغاد الأنجاس الأدنياء ، فلست أحفل بكم في شيء . ألقوا حجارتكم عليّ ، وأقبلوا وهلموا ، هاجموني بكل ماأوتيتم من قوة ، وسترون جزاء وقاحتكم المجنونة .

وكان يلقي هذه الكلمات برباطة جأش واستكبار ، أثارا الرعب فيمن هاجموه ، حتى إنهم توقفوا عن قذفه بالأحجار كما نصحهم صاحب الفندق . هنالك تركهم دون كيخوته يحملون الجريحين ، واستأنف سهرة السلاح بنفس الجد والهدوء .

لكن هذه المساخر لم تعد ترضى صاحب الفندق ، فقرر أن يقفها عند حد وأن يسرع فيمنحه رتبةفارس ، قبل أن يقع مكروه آخر ، فتقدم إليه بكل خضوع واستماحه العذر عما أبداه هؤلاء السفلة من وقاحة دون أن يعلم عنها شيئاً ، وهم قد لقوا عن استخفافهم هذا أبشع عقاب . وأعاد عليه ماقاله من قبل وهو أنه لا يوجد هيكل في هذا القصر ، على أن هذا الأمر غير ضروري فيما تبقى عمله ، فإن الأمر الجوهري لتسليح المرء فارساً هو الضرب ضربتين على القفا والكتف ، حسبما يعرف عن مراسم نظام الفروسية ، وأن هذا يمكن أن يتم في الخلاء . أما فيما يتصل بسهرة السلاح ، فالشرط قد توافر ، لأن ساعتين من السهرة كافيتان ، وهو قد أمضى أكثر من أربع . وصدّق دون كيخوته كل ماسمع وقال إنه على استعداد لطاعته ورجاه أن ينجز الأمر على أسرع وجه . لأنه لو هوجم مرة أخرى بعد أن يكون قد سلح فارساً ، فلن يدع شخصاً حيّاً في القصر ، اللهم إلا من يريده صاحبه فإنه سيبقى عليه احتراماً له .

وكان هذا إنذاراً أقلق صاحب القصر فراح يبحث عن دفتر سجّل فيه ماأعطاه من تبن وشعير للبغالين . ثم عاد مصحوباً بصبي يحمل شمعة صغيرة وبالفتاتين المذكورتين ، الى حيث ينتظره دون كيخوته ، وأمر هذا الأخير بأن يجثو على ركبتيه ، ثم أنشأ يتلو من دفتره كأنما يتلو صلوات ، وفي أثناء القراءة رفع يده وصفعه على قفاه صفعة قوية ، ثم ضربه بسيفه هو ضربة أخرى على كتفه ، كل هذا وهو يتمتم بكلمات كأنها صلوات . فلما تمّ هذا أمر إحدى السيدتين بأن تنطّقه بالسيف ففعلت ماأمرت به برشاقة وحشمة

بالغتين ، إذ كان لا غنى عن الحشمة للتمالك من الضحك في كل نقطة من نقط هذه المراسم ، بيد أن الشجاعة التي أبداها هذا الفارس المريد كانت كافية لأن تفرض الاحترام على الجميع .

وقالت له السيدة الطيبة وهي تنطّقه :

ـ جعل الله سيادتك فارساً سعيداً جداً ، وافر الحظ في المعارك .

فسألها دون كيخوته عن اسمها ليعرف من يدين لها بهذا الفضل ، لأنه فكر أن يشركها في الشرف الذي سيناله بقوة ساعده . فأجابته بكل تواضع قائلة إن اسمها « لاطولوسه » وإنها ابنة مرقع ثياب في طليطلة يسكن في حوانيت سانشو ـ بيينايا ، وإنها أينما كانت ستكون على أتم استعداد لخدمته وتعدّه سيّدها فرجاها دون كيخوته ـ حباً فيه ـ أن تضيف الى اسمها لقب « دونيا » ، وأن تسمى «دونيا طولوسه» ، فوعدته بأن تفعل مابه أمر ، أما الأخرى فوضعت في رجليه المهماز ، وكان بينها وبينه نفس الحوار تقريباً الذي كان بينه وبين من نطّقته بالسيف . فلما سألها عن اسمها ، قالت إن اسمها «لامولينيرا » وإنها ابنة طحان نبيل في أنتقيرة ، ورجاها دون كيخوته أيضاً أن تضيف لقب « دونيا » فتسمّى «دونيا مولينيرا » ، وعرض عليها خدماته وأفضاله .

فلما انتهت هذه المراسم بسرعة وركضٍ لم يشاهد نظيرهما من قبل ، كان دون كيخوته يتحرق شوقاً الى امتطاء صهوة جواده والارتحال بحثاً عن المغامرات . فشد السّرج على روثينانته بكل عجلة ووثب عليها وحضن صاحب القصر (الفندق) ، وقال له عبارات في غاية الغرابة يشكر له بها فضله عليه بأن سلّحه فارساً ، عبارات يستحيل إيرادها بحروفها . ولكي يراه خارج الفندق بأسرع مايمكن ، رد عليه صاحب الفندق بكلمات لا تقل بلاغة وإن كانت أوجز ، وتركه يرحل الى حيث ألقت ، دون أن يتقاضى منه أجراً .

الفصل الرابع

فيما جرى لصاحبنا الفارس حينما غادر الفندق

بدأت أسارير الفجر في الانبلاج حينما خرج دون كيخوته من الفندق راضياً جذلان ، نشوان إذ رأى نفسه قدسُلح فارساً ، حتى اهتزت من فرحه سيور السرج ، لكنه تذكر النصائح التي أسداها إليه مضيفه فيما يتصل بالزاد الضروري الذي يجب أن يتزود به ، خصوصاً النقود والقمصان ، فقرر أن يعود أدراجه الى بلده لكي يتزود بكل مايستطيع ، وليكون له أيضاً حامل سلاح ، على أن يكون فلاحاً جاره ، وكان فقيراً ذا عيال ، لكنه كان صالحاً تماماً لوظيفة حامل السلاح في الفروسية الجوالة ، فلما عقد نيته على إمضاء هذا الأمر ، حول روثينانته ناحية قريته ، فركض الفرس بنشاط ، وكأنه تعرف طريق مأواه ، وراح يركض وكأن أقدامه لا تمس الأرض .

ولم يكن دون كيخوته قد قطع مسافة طويلة حين خُيل إليه أنه تنبعث من أعماق الغابة التي كانت عن يمينه أنات كأنات الشاكي ، ولم يكد يسمعها حتى صاح :

ـ الحمد لله على ما حباني من نعمة ، إذ أرسل إليّ بهذه السرعة فرصة لأداء واجبي في مهنتي هذه ، واقتطاف ثمار نواياي الطيبة . فهذه الأصوات هي من غير شك أصوات محتاج أو محتاجة يحتاج الى مساعدتي وحمايتي .

ثم أدار العنان ووجه روثينانته في اتجاه المكان الذي خُيل إليه أن الصرخات كانت تنبعث منه . ولم يكد يخطو بضع خطوات في الغابة حتى شاهد فرساً مربوطة الى سنديانة ، وفتى صغيراً لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعاً مربوطاً الى سنديانة أخرى ، عارياً من رأسه حتى خصره ، ومنه كانت تنبعث الصرخات ، ولسبب حقاً ، إذ كان ثمة فلاح غليظ الألواح يؤدبه بضربات قوية من حزام جلدي ، ويصاحب كل ضربة بزجرة ونصيحة . إذ كان يقول له :

ـ لسانك ، يخرس ، وعيونك تفتح .

والصبي يجيبه :

ـ لن أفعل هذا مرة أخرى ، ياسيدي ، بحق الله لن أفعله مرة أخرى ، وأعدك من الآن فصاعداً أن أعنى بالقطيع كل العناية .

فلما رأى دون كيخوته هذا المنظر ، قال بصوت مغضب :

ـ أيها الفارس القليل الأدب ، لا يليق بك أن تهاجم من لا يستطيع الدفاع عن نفسه . اركب فرسك وخذ رمحك (ـ إذ كان ثمة رمح أسند الى الشجرة التي ربطت إليها الفرس) ، وسأريك أن من الجبن أن يفعل المرء ماتفعل الآن .

فلما رأى الفلاح هذا الشبح المغطى بالسلاح ينقض عليه فجأة شاهراً رمحه في وجهه ، سرت فيه رعدة الموت وأجابه بكلمات رقيقة :

ـ سيدي الفارس! هذا الصبي الذي تراني أعاقبه إنما هو خادمي الذي يحرس قطيعاً من الغنم في هذه النواحي ، لكنه مهمل إلى حد أنه في كل يوم تفقد واحدة ، ولأني أعاقبه على كسله ، بل لعلي أعاقبه على لؤمه ، يدعي أني أفعل هذا عن بخل وخسة ولكيلا أدفع إليه ماعليّ له من أجر ، ويعلم الله وبشرفي إنه لكاذب .

ـ كاذب أمامي أيها الوغد الدانىء ؟ ـ هكذا قال دون كيخوته ـ بحق الشمس التي تضيء لنا ، لاأدري ماذا يمنعني من أن أولج رمحي في جسمك ليخترقه من الجانبين . إدفع له أجره في الحال ودون أن تنبس ببنت شفة ، وإلا أقسم بالله أن أقضي عليك قضاءً مبرماً في التو . حُل وثاقه .

فأنغض الفلاح رأسه ودون أن يجيب بكلمة واحدة حل وثاق خادمه ، وسأله دون كيخوته بكم يدين له سيده . فأجاب الغلام : تسعة أشهر ، وفي كل شهر سبعة ريالات . فحسب دون كيخوته الحساب ووجده ثلاثة وستين ريالاً ، فأمر الفلاح بدفعها في الحال ، إذا أراد النجاة بحياته . فأجاب الوغد الهيّابة قائلاً : بحق الجد العاثر الذي وقع فيه ، وبما أقسم به من قبل (وهو لم يكن قد أقسم بشيء في الحقيقة) ، إنه يؤكد أن المبلغ ليس كبيراً هكذا ، بل يجب أن يخصم منه ويدخل الحساب مقدار ثلاثة أزواج من الأحذية أعطاها لخادمه ، ومبلغ ريال دفع من أجل حجامتين أجريتا له حين كان مريضاً .

ـ هذا حسن كله ، هكذا أجاب دون كيخوته . ولكن لتكن الأحذية والحجامة في مقابل الضرب الذي نلته به بغير سبب ولا داع . لأنه إذا كان قد مزق جلد الأحذية التي دفعت أجرها له ، فأنت مزقت جلد بدنه ، وإذا كان الحلاق قد أخذ منه دماً وهو مريض ،

فقد أسلت أنت دمه وهو سليم معافى . وإذن فهو لايدين لك بشيء .

ـ المصيبة ، ياسيدي الفارس ، هي أني لا أملك الآن نقوداً هنا ، ألا فليأت أندريس معي الى المنزل ، وأنا أدفع له ريالاً فوق ريال .

ـ أنا أذهب معه مرة أخرى ؟ هكذا قال الصبي . كلا ، وألف مرة . كلا ، ياسيدي! أعوذ بالله من مجرد التفكير في هذا ، إنه لو انفرد بي لسلخني حياً مثلما وقع للقديس برثلميوس[1] .

ـ كلا ، كلا ، هكذا أجاب دون كيخوته . إنه لن يفعل شيئاً . يكفي أن آمره حتى يطيع ويحترم ، فإن أقسم على هذا بناموس الفروسية الذي تلقاه تركته حراً ، وأضمن الدفع .

فقال الصبي : انظر سيادتك فيما تقول . إن سيدي هذا ليس فارساً ولم يتلق أبداً رتبة الفروسية ،إنه خوان هلدودو الغنيّ ، من أهل قنطنار[2] .

فأجاب دون كيخوته : وماذا يهم ؟ ليس مايمنع من أن يكون أحد بني هلدودو فارساً ، وفضلاً عن هذا ، فكل امرئ ابن أعماله .

فقال أندريس : هذا حق . لكن : ابن أية أعمال يكون سيدي هذا الذي يرفض أن يدفع أجرتي ، ثمن عرقي وعملي ؟

فأجاب الفلاح : أنا لست ممتنعاً عن الدفع ، ياأندريس ، أي صديقي . أسعدني بأن تأتي معي ، وأنا أقسم لك بكل أنظمة الفروسية الموجودة في الدنيا أن أدفع لك ، كما قلت ، ريالاً فوق ريال ، بل ومع الأرباح والفوائد .

فقال دون كيخوته : إني أعفيك من الفوائد ، بل ادفع له عداً ونقداً ، فهذا كل ماأطالبك به . وحاذر ألا تنجز ماأقسمت عليه ، وإلا ، وبالقسم نفسه ، أقسم بأن أعود للبحث عنك وعقابك ، وسأعرف كيف أجدك ، حتى لو كنت أخفى من عظاية الحائط . وإذا أردت أن تعرف من ذا الذي يأمرك بهذا الأمر ، لكيما تكون ملزماً أكثر بإنجازه ، فاعلم أنني الشجاع دون كيخوته المنتشاوي ، مصلح الأخطاء ومنصف المظلومين . والآن ، فليباركك الله! لكن لاتنس ماوعدت به وأقسمت عليه ، وإلا فالويل لك .

قال هذا وشد بيديه عنان روثينانته واختفى في الحال .

---

(١) أحد الحواريين ، يقال إنه راح يبشر بالنصرانية حتى آخر حدود الهند ، وفي أثناء عودته كان يبشر بها في افريجيا ولوقاؤنيا . واستشهد في أرمينية ، حيث سلخ حياً حوالي سنة ٧١ م . وقد نسب اليه إنجيل زائف .

(٢) قنطنار دلا أوردن ، مدينة في مقاطعة طليطلة ، وقضائياً ملحقة بناحية توبوسو ، مسقط رأس دلثنيا ، حبيبة دون كيخوته المزعومة .

وتتبعه الفلاح بنظراته . ولمارأى دون كيخوته قد إخترق الغابة واختفى عن الأنظار ، عاد الى خادمه أندريس ، وقال :

تعال يابني ، لأني أريد أن أدفع ماعليّ لك ، كما أمرني مصلح الأخطاء هذا . فقال أندريس :

ـ قسماً بالله! ومن الحكمة أن تفعل سيادتك ما أمر به هذا الفارس الطيب ، عمّره الله دهراً طويلاً جزاء شجاعته وعدالته ، وسيعود ، قسماً بحياة القديس روك ، إذا لم تدفع ، كي ينفذ ماقال . فعاد الفلاح يقول :

ـ وأنا أيضاً أقسم ، ولكن حبي الشديد لك يحملني على زيادة الدين لزيادة الدفع .

ثم أمسك بذراعه ، وعاد يوثقه الى نفس السنديانة ، ثم أهوى عليه بضربات تركه بعدها كالميت . ثم قال له :

ـ ناد الآن ، ياسيد أندريس ، ناد مصلح الأخطاء ، وسترى ماإذا كان في وسعه أن يصلح هذا ، وإن كنت لا أعتقد أنني ضربتك بمافيه الكفاية ، لأني أود أن أسلخك حياً ، وهو ما كنت تخاف منه .

وأخيراً حل وثاقه وأطلق سراحه ليبحث عن قاضيه لينفذ الحكم الذي أصدره . فمضى أندريس يرعف أنفه غضباً ، وهو يقسم أنه سيبحث عن الشهم دون كيخوته دلامنتشا ويقص عليه كل شيء مما جرى ، وسيضطر سيده للدفع أضعافاً مضاعفة . بيد أن هذا المسكين مضى لطريقه باكياً ، بينما ظل سيده يضحك . وهكذا أصلح الشهم دون كيخوته الضرر الذي وقع!

وارتحل هذا النشوان بمغامرته التي بدت له بداية سعيدة رائعة لأفعاله في الفروسية ، ميمماً قصد قريته ، هامساً :

ـ تستطيعين أن تعدي نفسك أسعد نساء الدنيا اليوم ، أيتها الحسناء . فوق ستائر الحسناوات ، دلثنيا دل توبوسو ، إذ شاء لك حسن الطالع أن يكون عبدك المستسلم لإرادتك فارساً شجاعاً شهيراًهو دون كيخوته دلامنتشا ، هكذا هو وهكذا سيكون أبداً ، وقد تلقى بالأمس ، والدنيا كلها تعلم ، رتبة الفروسية ، وها هو ذا منذ اليوم قد أصلح أكبر فساد أنشأه الظلم وارتكبته القساوة ، إذ انتزع السوط من كف هذا الجلاد القاسي الذي مزّق ، لسبب تافه ، جسم الفتى الرفيع .

وهنا وصل إلى طريق يتقاطع في أربعة اتجاهات ، فخطرت بباله ذكرى مفترقات الطرق التي عندها تلبث الفرسان الجوالة ليفكروا : أي طريق يختارون . وتقليداً لهم ، ظل برهة

ساكناً ، ولما أفكر وقدّر أرخى العنان لروثينانته ، مسلماً أمره لهوى برذونه الذي اتبع فكرته الأصلية وهي أن يسير في الطريق الى اسطبله . وبعد أن سار مسافة ميلين تقريباً ، اكتشف دون كيخوته حشداً كبيراً ، عرف الناس فيما بعد أنهم تجار من طليطلة كانوا في طريقهم الى مرسية لشراء حرير . وكانوا ستة يحملون مظلاتهم ، ،ومعهم أربعة خدم على خيول ، وثلاثة صبيان بغال يسيرون على أقدامهم . ولم يكد دون كيخوته يلمحهم حتى خيل إليه أنه بإزاء مغامرة جديدة ، ولكي يقلد ، ماوسعه ، كيفية الهجوم التي قرأ عنها في كتب الفروسية ، خيل إليه أن هذه هي الفرصة الفريدة للقيام بنوع منه طالما أفكر فيه . فاستوى على فرسه وامتطى ظهر التيه ومط حاجبيه وأمسك برمحه والتأم ووقف في وسط الطريق وانتظر مقدم هؤلاء الفرسان الجوالين ، إذ هكذا حسبهم . فلما وصلوا على مرمى السمع والبصر رفع دون كيخوته صوته ، وصاح بلهجة ملؤها العجرفة :

ـ فليقف كل في مكانه ، إذا لم يعترف بأنه لا يوجد في الدنيا بأسرها فتاة أجمل من إمبراطورة المنتشا العديمة النظير دلثنيا دل توبوسو!

فتوقف التجار عند سماع هذه الكلمات ليتأملوا الوجه الغريب الذي تفوه بها ، وسرعان ماتبينوا من وجهه وكلماته جنون صاحبه . لكنهم أرادوا أن يعرفوا الى أي مدى يذهب هذا الاعتراف الذي طالبهم به ، ولهذا أجابه أحدهم ، وكان ولوعاً بالهزل والتّنز :

ـ سيدي الفارس! نحن لا نعرف هذه السيدة الحسناء التي تتحدث عنها ، أرنا إياها ، فإذا كانت على حظ من الجمال بالقدر الذي تشير إليه ، فسنعترف ، عن طيب خاطر وبلا أدنى خوف ، بالحقيقة التي تطالب جنابكم بها .

فأجاب دون كيخوته :

ـ لو أنني أريتكم إياها ، فأي فضل لكم في الاعتراف بحقيقة جلية كل الجلاء ؟ المهم أن تعتقدوا بها ، دون أن تروها : وتعترفوا تؤكدوا وتقسموا ، بل وتدافعوا عنها بحد السلاح ، وإلا ، فهيا استعدوا للمنازلة والمعركة ، أيها الأدعياء المتغطرسون! وسواء عليّ أبرزتم للقتال واحداً في إثر الآخر كما يقتضيه نظام الفروسية ، أم أقبلتم جماعة ، كما هو شأن الأوغاد الذين على شاكلتكم ، فأنا في انتظاركم هاهنا ، وأتحداكم ، وثقتي في الحق الذي بجانبي .

فرد عليه التاجر قائلاً :

ـ ياسيدي الفارس! باسمنا جميعاً نحن الأمراء الحاضرين هنا ، نلتمس من جانبكم ، حرصاً على ألا نحمّل ضمائرنا ما لا طاقة لها به بالاعتراف بشيء لم نره أبداً ولم نسمع

به ، ومن شأنه أيضاً أن تضار به إمبراطورات وملكات «القرية»[1] واستريميدورا ـ نقول إننا نلتمس أن تتفضلوا فترونا صورة لها ، حتى لو لم تكن أكبر من حبة الشعير ، فإننا نستطيع أن نحكم بالنموذج على الأصل ، فتستريح ضمائرنا ، ويرضى جنابكم . بل أعتقد أننا في صفها مقدماً ، فلو أظهرتها الصورة عوراء العين ، وأن العين الأخرى تقطر كبريتاً وزنجفراً ، فإننا رغم ذلك وحرصاً على إرضاء جنابكم سنقول في إطرائها كل ما تودون .

فصاح دون كيخوته مغضباً يتلظى :

ـ إنها لا تقطر شيئاً إنها لا تقطر شيئاً مما ذكرتم ، بل تقطر عنبراً ومسكاً بين أقطان ، وليست ملتوية ولا حدباء ، بل أشد استقامة من مغزل جواد راما (جبل الشارات)! وستدفعون ثمن الكفر الشديد الذي نطقتم به ضد هذا الجمال ، جمال سيدتي! .

واندفع وهو يقول هذه الكلمات ، مرخياً رمحه في وجه من تفوه بهذه العبارات ، اندفع بحماسة وجنون بلغا حداً لولا أن حسن الطالع قد جعل روثينانته قد هوت على الأرض وألقت بسيدها يدور بعيداً على التراب ، وحاول أن ينهض ، لكنه لم يستطع أبداً لأنه كان مثقلاً بالرمح والترس والمهمازين والبصلة وسلاحه العتيق . وفي خلال محاولاته الهائلة للنهوض سدىً ، كان يقول :

ـ لاتهربوا أيها الجبناء ، أيها العبيد الأنجاس ، انتظروا . فما بسببي ولكن بسبب فرسي وقعت .

لكن أحد خدم البغال من أتباع التجار لم يكن سمح النفس فلم يستطع سماع هذه الكلمات المليئة بالتحدي والغطرسة دون أن يقدم إليه الجواب عنها في جنبيه . فاقترب منه وانتزع رمحه وكسره ثلاث أو أربع قطع ، بإحداها هوى على صاحبنا دون كيخوته بشدة وقسوة حتى طحنه طحناً رغم سلاحه . وعبثاً صاح فيه أسياده ألا يسرف في الضرب وأن يدعه وشأنه ، فإن البغّال أخذته حُمّى الضرب فلم يشأ أن يخلّي عنه قبل أن يفرغ جام غضبه كله . ثم جمع سائر قطع الرمح . وكسرها الواحدة بعد الأخرى على جسم هذا الراقد

---

(١) القرية : ناحية من نواحي قشتالة الجديدة . ـ استريميدوا : منطقة شاسعة قسم منها يتبع أسبانيا ، والآخر يتبع البرتغال ، وهذا الاسم أطلق عليها في العصور الوسطى ، وهو مأخوذ من externa durii (أقصى الدويرو) . وفي العهد الروماني كان اسمها : ثتونيا . استولى عليها الآلانيون سنة ٤١١م ، والسواب سنة ٤٢٠ والقوط سنة ٤٢٧ ، والعرب سنة ٧١٢ ، وفي القرن الثاني عشر غزا ألفونس هنريكث ملك البرتغال القسم الذي استقر من بعد في حوزة البرتغال ، وغزا ألفونس الحادي عشر ، ملك ليون ، ثم فرديناند الثالث ملك قشتالة القسم الآخر الذي أصبح اسبانياً ، وذلك في القرن الثالث عشر . والمنطقة الاسبانية عاصمتها بطليوس ، وأشهر مدنها : ماردة ، والقنطرة ، وقورية ، وبلاسنثيه ، وترجاله .

المسكين الذي ظل طوال هذه العاصفة من الضرب المتهاوي عليه فاغراً فاه يهدد السماء والأرض وقطاع الطرق ،إذ خالهم كذلك .

وأخيراً تعب البغال من الضرب ، وتابع التجار مسيرهم ، وهم يحملون في جعبتهم مايصلح للتندر به طوال الرحلة عن حادث هذا المجنون المسكين الذي شبع ضرباً . ولما رأى هذا نفسه وحده حاول النهوض من جديد ؛ لكن إذا كان لم يستطع القيام حينما كان سليما معافى ، فكيف يستطيعه بعد أن طُحن ومُزق ؟ ورغم هذا كله كان جذلان راضياً ، إذ رأى هذه المحنة أمراً شائعاً لدى الفرسان الجوالة ، ونسب الخطأ كلّه الى فرسه . أما النهوض فلم يكن ثم إليه سبيل ، لأن بدنه كله كان مفككاً مخروطاً .

الفصل الخامس

في تتمة حكاية محنة فارسنا هذا

وجد دون كيخوته إذن نفسه غير قادر على الحركة ، فقرر اللجوء الى دوائه المعتاد ، وأعني به التفكير في فقرة من فقرات كتبه ، فأدى به جنونه الى تذكر حادثة ڤالدوڤينوس ومركيز منتوا ، حينما ترك كارلوتو أولهما جريحاً في الجبل ، وهي حكاية يعرفها الأطفال ، ولا يجهلها الشباب ، ويثنى عليها بل ويصدقها الشيوخ ، وفوق هذا وذاك ليست أصدق من بعض المعجزات[1] . فبدت له هذه الحكاية ملائمة كل الملاءمة لموقفه هذا . وهكذا أنشأ يتقلب على التراب بانفعال شديد ، ويقول بصوت فيه أنين ماقاله ذلك الفارس الجريح في الغابة ، حسبما يروون :

أين أنت الآن يا صاحبتي ؟ أفلا يضنيك ما يلقى الجريح ؟
أنت لا تدرين ما ألقاه أو أنت زيفٌ مالها عهد صحيح ؟

واستمر يتلو الرومانثية على هذا النحو ، إلى أن بلغ الأبيات التي تقول :

أيها المركيز مولى منتوا أنت عمي اللحْ والمولي معا

وشاء القدر في هذه اللحظة أن يمر فلاح من أبناء ضيعته وكان جارا له ، أقبل يحمل حملا من القمح الى الطاحونة . فلما شاهد هذا الرجل المنبطح اقترب منه وسأله من يكون وماذا دهاه حتى يتوجع ويئن هذا الأنين الحزين . ولم يشك دون كيخوته في أن هذا القادم هو عمه المركيز مولى منتوا ، لهذا لم يكن عنده من جواب غير أن يسترسل في تلاوة

---

(١) عدلنا في النص بحذف كلمة نابية .



٣ ـ الفصل الخامس : محنة دون كيخوته

قصيدته الرومانثية ، فقص عليه محنته وغرام ابن الامبراطور بزوجه ، على النحو الذي وردت عليه في الرومانثية .

وأصغى الفلاح مشدوهاً الى هذه الغرائب ، ثم خلع عنه حافة الخوذة وقد مزقتها ضربات العصا ، ومسح وجهه وقد علاه القتام . ولم يكد يتعرفه بعد أن نفض عنه الغبار حتى صاح :

ـ يا سيد كيخانا! ـ ولابد أن اسمه كان هكذا حينما كان لا يزال بعقله ولم يكن قد تحول من نبيل هادىء الى فارس جوال ـ من فعل بك هذا ؟

لكن دون كيخوته استمر يتلو رومانثيته رداً على كل سؤال ألقي عليه . فلما شاهد ذلك الرجل الطيب هذه الحال ، بذل وسعه في خلع صدريته وما على كتفيه ليرى ما إذا كان فيه جراح ، بيد أنه لم يشاهد للدم أثراً . هنالك حاول أن يرفعه من الأرض ، ثم استطاع بمشقة بالغة أن يركبه على حماره إذ بدا له ركوبه أكثر وداعة . وبعد ذلك جمع أسلحته حتى شظايا رمحه ، وحزمها ووضعها على روثينانته ، وأمسك هذه من عنانها وحماره من مقوده ، وسار في اتجاه قريته ، مشغولاً بالتفكير في الغرائب التي تفوه بها دون كيخوته ، كذلك سار دون كيخوته مفكراً هو الاخر ، محطماً مطحوناً لا يقوى على الاعتدال على الأتان ، وهو يزفر بين الحين والحين زفرات تصاعد الى عنان السماء ، حتى اضطر الفلاح أن يسأله عما يشعر به من وجع . لكن يبدو أن الشيطان ـ فيما يلوح ـ قد أصر على أن يذكره بكل الحكايات التي تلائم حاله تلك ؛ فسرعان مانسي ڤالدوڤينوس وتذكر ابن إدريس المراكشي لما أن أسره رودريجو دي نرڤانث حاكم أنطقيره واقتاده الى صومعته ، حتى إنه لما سأله الفلاح مرة أخرى عن حاله وما يشعر به أجاب بنفس العبارات والكلمات التي قالها الأسير الذي من بني سراج لرودريجو دي نرڤانث ، حسبما قرأ قصته في كتاب «ديانا» تصنيف خورخه دي مونتمايور ، وطبقه على حاله تماماً حتى جن جنون الفلاح وهو يسمع هذا الخليط الهائل من الغرائب . فاستيقن من هذا أن جاره لابد مجنون ، وحث الخطى الى القرية ليتخلص مما أثاره دون كيخوته في نفسه من الحفيظة بخطبته المسترسلة ، التي ختمها بقوله :

ـ اعلموا جنابكم ، ياسيدي الدون رودريجو دي نرڤانث ، أن شريفة الجميلة هذه التي ذكرتها هي الان دلثنيا دل توبوسو الحسناء ، التي من أجلها فعلت وأفعل وسأفعل أشهر أفعال الفروسية التي شاهدها الناس في الدنيا ويشهدونها وسيشهدونها .

فأجاب الفلاح :

ـ يا لي أنا الخاطىء! انظر ياسيدي! فلست أنا دون رودريجو دي نرڤانث ، ولا مركيز منتوا ،

بل بدور ألونسو ، جارك ، ولست أنت ڤالدوڤينوس ولا ابن إدريس بل السيد النبيل كيخانا .

فرد عليه دون كيخوته قائلاً :

ـ أنا أعرف من أنا ، وأعرف أني أستطيع أن أكون ليس فقط من ذكرت ، بل أيضاً « أكفاء »[١] فرنسا الاثنى عشر ، وكذلك أبطال الشهرة[٢] التسعة كلهم ، لأن أعمالهم جميعاً فرادى ومجتمعين ، لاتدانى أبداً أعمالي .

وظلوا في هذه الأحاديث وأشباهها حتى بلغوا الناحية ساعة المغيب ، لكن الفلاح انتظر حتى يكتمل الظلام ، حتى لا يرى الناس هذا السيد المحطم على هذه الحال البائسة ، فلما أرخى الليل سدوله دخل القرية ووصل منزل دون كيخوته فوجداه مضطرباً أيما اضطراب ، وكان فيه القسيس وحلاق الناحية ، وكانا صديقين حميمين لدون كيخوته ، ولهما كانت الخادمة تقول شاكية :

ـ ماذا ترى أيها السيد المجاز بيرو بيرث (وكان هذا اسم القسيس) ، ومارأيك في محنة سيدي ؟ لم يظهر منذ ستة أيام ، لاهو ولا برذونه ولا ترسه ولا رمحه وسلاحه . ياشقاوتي! أراهن برأسي ، وهذاحق كما أن الموت حق ، أن كتب الفروسية الملعونة هذه التي جمعها وكان يقرؤها أثناء الليل وأطراف النهار قد أحدثت في عقله اختلالاً . وإني لأذكر الآن أني سمعته مرات عديدة يتحدث الى نفسه قائلاً إنه يريد أن يصبح فارساً جوالاً ، وإنه سيسعى في مناكبها بحثاً عن المغامرات . ألا فليسحق إبليس والزبانية هذه الكتب التي أفسدت أذكى عقل في إقليم المنتشا كله!

وقالت ابنة أخيه الشيء نفسه ، وأضافت :

ـ اعلم يا أسطى نقولا (وكان هذا اسم الحلاق) أنه قد وقع مراراً لعمّي أن يقضي في قراءة هذه الكتب المنحوسة الرهيبة يومين متتاليين بلياليهما ، وعند نهايتهما يقذف بالكتاب فجأة ، ويمسك بسيفه ويبدأ في منازلة الجدران . فإذا غلبه التعب قال إنه قتل أربعة من المردة الكبار كأبراج أربعة ، وإن العرق الذي كان يتصبب منه تعباً إنما كان الدم المراق من الجراح التي أصيب بها في المعركة . ثم يشرب جرة كبيرة من الماء

---

(١) كان هذا الاسم يطلق على أكابر النبلاء في فرنسا ، ويسمون هكذا pares (=أكفاء) لأنهم كانو متساوين في الشجاعة والعنصر والقيمة . وكان ملوك فرنسا هم الذين يختارونهم . ومن أشهرهم الأكفاء الاثنا عشر الذين اختارهم شارلمان ، ومنهم : أوليفييه ، ورولان ، ورينو دي مونتالبان ، وصيغت حول بطولتهم وسيدهم شرلمان أساطير عديدة .

(٢) هؤلاء يقصد بهم الأبطال التسعة الكبار المشهورون : ثلاثة يهود هم يوشع ، وداود ، ويوداس المكابي ، وثلاثة وثنيون هم الاسكندر المقدوني ، والطور البطل الطروادي ، ويوليوس قيصر ، وثلاثة نصارى هم : الملك ارثر ، وشارلمان ، وجودفروا دي بويون .

الفصل السابع والعشرون

في كيف أفلح القسيس والحلاق في خطتهما، وأمور أخرى خليقة بالذكر في هذه القصة العظيمة

لم ير الحلاّق بأساً فيما دبّره القسيس بل وجداه صالحاً حتّى إنهما قاما بالتنفيذ في الحال . فسألا صاحبة الفندق أن تعيرهما تنورة ونقاباً ، ورهنا في مقابل ذلك لديها كسوة القسّيس الجديدة . واصطنع الحلاّق لنفسه لحية طويلة عملها من ذنب ثور ، لحية شقراء أو حمراء ، علّق فيها صاحب الفندق مشطه[1] . وقد سألهما عن السبب في طلب هذه الأزياء التنكّرية فقصّ عليه القسّيس باختصار قصة جنون دون كيخوته وكيف أنهما في حاجة الى هذه الأزياء التنكّرية لإنقاذه من الجبل الذي اعتزل فيه . فأدرك صاحب الفندق وزوجته في الحال أن هذا المجنون إنّما هو نزيلهم منذ أيّام ، صانع البلسم ، ومولى حامل السلاح الذي عانى تقليبه على الغطاء ، ولهذا راحا يقصّان على القسّيس كل ماحدث في الفندق دون أن يخفيا ماأخفاه سنشو . وأخيراً ألبست صاحبة الفندق القسيس على أغرب نحو ؛ فألبسته تنورة من القماش المفوّف بأشرطة من القطيفة السوداء سعتها شبر مفصلة قطعاً ، وصدرية من الفضّة الخضراء مزوّدة بإطار من الساتان الأبيض ، وكلتا التنورة والصدرية لابد أن تكون قد صنعت في زمان الملك ومبا[2] . ولم يشأ القسيس أن يضع نقاباً ، وإنّما غطّى رأسه بطاقية صغيرة من التل المنقوط كان يلبسها في الليل أثناء النوم . ثم عصب جبهته بعصابة واسعة من التفتة السوداء ، واتخذ من عصابة أخرى نوعاً من النقاب يغطّي لحيته ووجهه كلّه . ووضع على رأسه قبعته الدينية وكانت كبيرة بحيث كانت بمثابة مظلّة ، وغطّى كتفيه بمعطفه ، وركب بغلته على نحو ماتركب النساء ، بينما ركب الحلاّق بغلته ولحيته نازلة

---

(١) كان من عادة الفقراء أن يضعوا مشطاً في ثنايا شعر ذنب الثور لتنظيفه .

(٢) ومبا Wamba ملك القوط الغربيين (في القرن السابع الميلادي) . وهذا الاصطلاح : « زمان الملك ومبا » يعبّر به الاسبان عن عصر بعيد جداً .

ففعلوا ماأمر به . وراح القسيس يسأل الفلاح تفصيلاً عن الكيفية التي وجد بها دون كيخوته . فقص عليه الفلاح القصة كلها دون أن يغفل ذكر الغرائب التي سمعها منه حين وجده وحين أتى به ، فزاد هذا من رغبة صاحب الإجازة (الليسانسييه) في أن يفعل مافعله في الغد ، أعني : أن يستدعي صديقه الحلاق الأسطى نقولا ويغدوا معاً الى منزل دون كيخوته .

الفصل السادس

في التفتيش الكبير الشائق الذي قام به القسيس والحلاّق في مكتبة صاحبنا النبيل العبقري

كان لايزال يغط في نومه . وطلب القسيس من ابنة الأخ مفاتيح الغرفة التي بها الكتب سبب النكبة ، فأعطتها عن طيب خاطر . ودخلوا جميعاً ، والخادمة من خلفهم ، فوجدوا أكثر من مائة كتاب أنيقة التجليد وطائفة أخرى لطيفة الحجم . ولم تكد الخادمة تراها حتى أسرعت بالخروج من الغرفة ثم عادت تحمل طاساً من الماء ومِرَشّة وقالت :

ـ تفضل يا سيدي المجاز ،ورشّ هذه الغرفة ، خوفاً من أن يكون بهاساحر من نوع أولئك الذين تغص بهم هذه الكتب ، فيسحرنا عقاباً لنا على إيذائنا لهم بطردهم من هذا العالم .

فتبسم الكاهن من قولها ضاحكاً من سذاجتها ، وطلب من الحلاق أن يناوله هذه الكتب واحداً بعد الآخر حتى يرى مافيها ، إذ من يدري لعل فيها من لا يستحق عذاب النار .

فقالت ابنة الأخ :

ـ كلا! لاترحموا أحداً منها ، لأنها جميعاً اشتركت في الجريمة . والأفضل أن نلقي بها من النافذة في الفناء ثم نكومها ونضرم النار فيها ، أو نحملها الى الحوش وهناك نوقد النار ، فلا يضايق الدخان .

وكانت الخادمة من نفس الرأي ، لشدة شوق كلتهما الى القضاء على هؤلاء الأبرياء . بيد أن الكاهن لم يوافقهما على هذا الرأي ،قبل أن يقرأ على الأقل العنوانات . وكان أول كتاب ناوله إياه الأسطى نقولا هو : رابوع أماديس الغالي ، فقال القسيس :

ـ يظهر أن في هذا سراً ، فكما سمعت ، هذا أول كتاب في الفروسية . طبع في اسبانيا ، وسائرها منه نشأ وعنه صدر . لهذا أرى من الواجب الحكم عليه بالإحراق دون شفقة ، بوصفه مؤسس هذه الفرقة اللعينة .

فقال الحلاق :

من يمنع المجد ؟

الحظ

من رضي لي الشقاء ؟

السماء

إخال أنّي أموت

من دائي الممقوت

اتفقت على عذابي

الحظ والغرام ـ والسماء

من يصلح بختي ؟

موتي

ونعيم الحب ـ من ينال ؟

القلّب الأحوال

من شقاء الحب ـ من يعين ؟

الجنون

ليس ثمّ فطنة

في علاج محنة

دواؤها المضمون

الموت والجنون ـ وتقلّب الأحوال

وكان الوقت والزمان والوحدة وجمال الصوت وبراعة الغناء ـ كان لهذا كله أثره في إشاعة الدهشة واللذة معاً في نفوس السامعين . فأرعيا سمعيهما ساكنين على رجاء أن يزدادا سماعاً . فلمّا رأيا أن صمت المغنّي قد طال واستطال ، قرّرا السعي للبحث عنه ولمعرفة من صاحب هذا الصوت الرخيم . ومانهضا حتّى أمسك بهما الصوت نفسه في مكانيهما فراحا يستمعان فيه الى هذه المقطوعة :

أيّتها الصداقة المقدّسة ، يامن طرت بأجنحة رقيقة

تاركة مظهرك على الأرض

وصرت بين الأبرار في علّيين

تقيمين ناعمةً في منازل الخالدين

ومن هناك تبدين لنا ـ إن شئت ـ

وجهك الجميل منقّباً بنقاب
تشع من خلاله أحياناً
حميّة الفعال النبيلة التي تُضحي في النهاية دميمة
غادري السماء أيتها الصداقة ، ولا تسمحي
للخداع أن يرتدي ثيابك
ليقضي على النوايا الصادقة
فإنك إن لم تنتزعي منه مظاهره
فسرعان مايقع العالم في معركة
خليط الكراهية الأولى

وانتهت المقطوعة بزفرة عميقة وأصغى السامعان بانتباه عساهما أن يسمعا مقطوعات أخرى .فلمّا رأيا الموسيقى قد استحالت شكايات وزفرات ، بادرا لمعرفة مَنْ المغنّي الحزين ذو الزفرات الأليمة والصوت البغوم . ولم يبحثا طويلاً ؛ إذ أبصرا عند منعطف سن صخرة رجلاً قامته ووجهه كما وصف سنشو حينما قصّ عليهما قصة كردنيو . فلمّا راهما هذا الرجل لم يضطرب ولم تستول عليه الدهشة ، بل توقف وألقى برأسه على صدره في وضع من يحلم حلماً عميقاً دون أن يرفع نظره اليهما اللهم إلا في اللحظة الأولى التي ظهرا له فيها . وتعرّفه القسّيس حسب الوصف الذي قام به سنشو ، وكان القسّيس مهذّب اللفظ أنيقه فاقترب منه ورجاه رجاءً ضارعاً حاراً بعبارات موجزة ملحفة أن يترك الحياة البائسة التي يحياها في هذه القفار وإلاّ فقد عمره وتلك مصيبة المصائب . وكان كردنيو حينئذ في تمام رشده بمعزل عن تلك النوبات العنيفة التي كانت تخرجه عن طوره . فلمّا رأى هذين الرجلين في لباس غير مألوف لدى من يردون هذه القفار انتابه نوع من الدهشة ، خصوصاً حين سمعهما يتحدّثان عن قصته حديث العارف العليم بها ، فإن كلمات القسّيس أكّدت له هذا المعنى بما لا مجال بعده لأي ارتياب . فأجابهما بهذه الكلمات :

ـ « إنّي أرى أي سيداي ـ أيّاً من كنتما ـ أنّ السماء ـ عناية منها بإغاثة الأخيار ، والأشرار أحياناً أيضاً ـ قد أرسلت اليّ في هذه الأماكن النائية عن البشر أشخاصاً يرسمون أمام عيني ويجلى صورة جنوني في قضاء عمري بهذه النواحي ويحاولون انتزاعي من هذه الخلوة الحزينة وإعادتي الى مقام أحسن ، وهي نعمة لاأستحقها . ولكن لأنهم لايعرفون ماأعرف ؛ وهو أنّي إذا خرجت من محنتي الحاضرة فسأقع فيما هو أشدّ منها ـ فسيعتقدون أنني رجل ضعيف العقل بل لعلهم يحسبون أيضاً أنّي فقدت عقلي تماماً . ولن يكون هذا

وأخذ الحلاق كتاباً آخر وقال : هذه « مرآة الفروسية[١] » .

فقال الكاهن : آه! إني أعرف سيادته . ففيه نلقى السيد رينالدوس دي مونتالبان وأصدقاءه ورفاقه ، وكلهم أشد لصوصية من كاكوس وأكفاءه فرنسا الأثنى عشر والمؤرخ الحقيقي توربين ، والحق أني أرى ألا تحكم عليهم إلا بالنفي المؤبد ، وهذا لأنه كان لهم بعض الفضل في اختراع ماتيو بويردو[٢] الشهير ، ومنه نسج الشاعر المسيحي لدوفيكو أريوستو بردته . وهذا الأخير لو وجد هنا وتحدث بلغة غير لغته المعهودة فلن أقيم له وزناً ، أما إذا تكلم بلهجته المألوفة ، فسأضعه فوق رأسي احتراماً .

فقال الحلاق : إنه عندي بالإيطالية ، بيد أني لا أفهمه .

فأجاب القسيس : ولن يكون من الخير أن تفهمه . وكان الأولى أيضاً ألا يفهمه القائد وألاّ يأتي به الى اسبانيا ليترجم الى اللغة الاسبانية ، إذ فقد بهذا كثيراً من قيمته الأصلية[٣] . على أن هذا سيكون شأن جميع الذين يريدون أن يترجموا كتب الشعر من لغة أصيلة الى أخرى ، فمهما أوتوا من مهارة ومهما بذلوا من عناية ، فلن يستطيعوا أبداً أن يردوها الى أصلها . وعندي أن هذا الكتاب وكل ماسنجده متعلقاً بشؤون فرنسا يجب أن ننزله ونودعه في بئر جافة حتى نقرر ، بعد تفكير أعمق ، ماذا يجب أن نفعل به . على أني مع ذلك أستثني كتاب « برنردو دي كريبو[٤] » ، ولا بد أنه هنا ، كما استثنى كتاباً آخر هو « رونثفالس[٥] » : فهذه لو وقعت في يدي ، لناولتها القهرمانة ، ومنها الى النار بلا رحمة .

---

(١) يتألف من ثلاثة أجزاء : الأول : يبحث في مغامرات الكونت رولدان ورينالدوس . ونشر في أشبيلية سنة ١٥٣٣ ، والثاني نشر سنة ١٥٣٦ ويتحدث عن « غراميات رولدان وانجليكا الجميلة » ، والثالث نشر سنة ١٥٥٠ ويروي « الوقائع الشهيرة التي جرت للأمير روسرين وخاتمة حبه للأميرة فلوريمينا » .

(٢) ألف ماتيو بويردو ، كونت اسكنديانو ، ملحمة شعرية بعنوان « أورلندو العاشق » ، نشرت في سنة ١٤٨٦ وسنة ١٤٩٥ . ثم تابع الموضوع نفسه في « أورلندو الغاضب » ـ هو ملحمة شبه هزلية تقع في ٤٦ نشيداً ـ الشاعر الايطالي الشهير لودفكو أريوستو الذي ولد في ١٤٧٤/٩/٨ في رجيوموديننا ، وقد أمضى في تأليفها عشر سنوات ونشرها ، ماعدا الأناشيد الستة الأخيرة ، سنة ١٥١٦ . أما الباقي فنشره سنة ١٥٣٢ ، وتتضمن حوادث ثلاثاً رئيسية هي : الحرب التي تخيل وقوعها بين شارلمان والمسلمين ، وجنون أورلندو ، وغراميات وزواج روجيه وبرادامنته ، وقد حشى هذا كله بنوادر حزينة أو سارة ، خفيفة أو جادة ، بهجة أو مروعة . وما أكثر اختلاف ما في القصيدة من أشخاص ومواقف وأوصاف! وقد مزج فيها كذلك بين الخرافات الشرقية والأساطير الأوربية .

(٣) الاشارة هنا الى القائد دون خيرونيمو دي أوريا الذي ترجم كتاب « أورلندو الغاضب » الى الاسبانية ونشره سنة ١٥٥٦ . وكانت ترجمته غير جيدة نظراً لركاكتها وإهمالها ومأأغفلته وما أضافته من عندها حسبما شاء هوى المترجم .

(٤) عنوانه الكامل هو : « قصة مغامرات وأعمال الفارس الذي لا يقهر برنردودل كريبو » ألفها على هيئة مثمنات أجوستين ألونسو ، ونشر في طليطلة سنة ١٥٨٥ .

(٥) عنوانه الكامل هو : « الرواية الصحيحة عن معركة رونثفالس المشهورة ، وموت أكفاء فرنسا الاثنى عشر » ـ قصيدة ألفها فرنشكو جريدو دي فلينا ، ونشرت في بلنسية سنة ١٥٥٥ .

وأمن الحلاق على كل ماقاله القسيس ، ووجد حكمه عادلاً تماماً ، لأنه كان يعتقد في القسيس أنه مسيحي فاضل بنصر الحق فلايقول غيره ولو عرضت عليه الدنيا بأسرها . فلما فتح كتاباً آخر وجده « بلمارين دي أوليفا » ، والى جواره « بلمارين دي إنجلترا » . هنالك صاح صاحب الإجازة :

ـ أوليفا هذا اسحقوه واحرقوه ، ولا تبقوا منه حتى الرماد ، أما هذه البلما الانجليزية فاحتفظوا بها لأنها شيء فريد ، ولتصنعوا صندوقاً ثميناً مثل الصندوق الذي وجده الاسكندر فيما غنمه من دارا ، وخصصه لايداع مؤلفات الشاعر هوميروس فيه . إن الكتاب ، ياصديقي ، مهم لسببين : الأول أنه ممتاز في نفسه ، وثانياً لأنه يقال إنه من تأليف ملك برتغالي لوذعي عالم ، فكل مغامرات قصر ميراجواردا رائعة مليئة بالحيل ، والأقوال واضحة معقولة سليمة الذوق ، متفقة دائماً مع خلق من يتفوه بها ، مع فطنة واستقامة رأي ، لهذا أقول ، بعد استئذان رأيك السديد يا أسطى نقولا ، إن هذا الكتاب وكتاب « أماديس الغالي » ينقذان من حكم النار ، وما عداهما فيعدم دون أخذ ورد .

فأجاب الحلاق : لا يا سيدي الصديق ، فإن مامعي الآن هو « دون بليانيس[1] » الشهير .

فقال القسيس : أما هذا فالأجزاء الثاني والثالث والرابع منه في حاجة الى قليل من الراوند لاستفراغ مرارتها الغزيرة جداً ، ويجب أيضاً أن تحذف منه قصة قصر الشهرة وبعض السفاهات المشابهة . ومن أجل هذا يمكن أن نعطيها مهلة[2] ماوراء البحار ، ووفقاً لما تفعله تجازى : فإن صلحت جوزي بالاحسان ، وإلا جرى عليها حكم العدالة . والى أن يحين الوقت احتفظ بها عندك ، ياأخي ، ولاتدع أحداً يقرأها .

ـ موافق ، هكذا أجاب الحلاق .

ولم يشأ القسيس أن يتعب نفسه أكثر من هذا في تصفح كتب الفروسية ، فقال للقهرمانة : تناولي جميع المجلدات الكبيرة وألقي بها في الحوش . وما كان خطابه لمغفل أو أصم ، بل كان الى من كان أكثر شوقاً الى إحراقها منه الى أن يعطي النساج ماينسج به قماشاً مهما يكن دقيقاً وعظيماً . لهذا تناولت القهرمانة سبعة أو ثمانية من المجلدات كتلة

---

(١) عنوانه الكامل : « قصة الأمير دون بلبانيس الشجاع الذي لا يقهر . ابن الامبراطور دون بلانيو والامبراطورة كلارنده ، منقول عن اليونانية بتأليف الحكيم فرسون . وقام بنقله ابن البارون الفاضل توريبيو فرننديث » . والطبعة الأولى منه ظهرت في برغش سنة ١٥٤٧ .

(٢) أي المهلة الكافية لاعلان القاطنين في المستعمرات إعلاناً قضائياً . وهي ستة أشهر على الأقل .

أنّها لم تتم هذه الكلمات حتّى امتلأت عيناها بالدموع واختنق صوتها ، ولاح كأنّ عقدة قد ربطت حلقها فلم تدعها تنطق بالكلمات التي حاولت أن تفصح عنها . فاعتراني ذهول لهذا الحادث الذي لم يقع لها من قبل أبداً . ففي كل مرة كانت الصدفة السعيدة أو مهارتي تجمعنا لنتحدّث معاً ، كان يسود حديثنا البهجة والرضا ، دون أن يداخله بكاء أو زفرات أو حسد أو شكوك . وأنا من جانبي كنت في نعمة تامة وشكر دائم على أن وهبني إياها الله حبيبة ، وكنت دائم الإطراء لمفاتنها ومحاسنها . وكانت هي بدورها تبادلني إطراءً بإطراء ، مثنية على ما أظهره حبّها من شمائل عندي خليقة بالثناء . كما كنّا نتبادل آلاف الأحاديث الصبيانية ونروي مغامرات الجيران والمعارف ، ولم تتجاوز بي الجرأة حدّاً أبعد من تناول إحدى يديها البيضاوين ، في شيء من العنف ، وتقريبها من فمي بقدر ماكانت تسمح بذلك قضبان نافذة واطئة كانت تفصلنا عن بعضنا بعضاً . أمّا في الليلة السابقة على اليوم المشؤوم لرحيلي ، فقد كانت تبكي وتنوح ، ثمّ تركتني في اضطراب شديد ومخاوف . فقد أفزعني ما رأيته على لوسنده من شواهد جديدة حزينة من الأسف والتعاسة . وحتّى لا أقضي بنفسي على آمالي ، أرجعت كل شيء الى قوة الغرام الذي تشعر به نحوي والى الأمل الذي يسببه دائماً غرام أولئك المتحابين المولّهين . وأخيراً رحلت ، حزيناً مطرقاً ، ونفسي تساورها الشكوك والمخاوف ، دون أن أعلم على وجه التحقيق أسباب الشكوك والمخاوف : وهي علامات بينات على الضربة الأليمة التي كانت تنتظرني .

بلغت الى حيث أرسل بي وسلّمت الرسائل لأخي دون فرنندو فأحسن استقبالي ولكنّ لم يعجّل إنجاز مهمّتي بل تركني أنتظر ـ على مضض بالغ ـ ثمانية أيام في مكان لم يكن الدوق يستطيع أن يراني فيه ، لأنّ دون فرنندو كتب طالباً أن يرسل اليه المال دون أن يعلم ذلك أبوه . وماكان ذلك إلا من حيل الغدر ، فإنّ المال لم يكن ليعوز أخاه فكان في وسعه أن ينجز مهمّتي في الحال . وكان هذا الوضع غير المنتظر يخوّل لي أن أعصاه ، إذ بدا لي من المستحيل أن أحتمل العيش هذه المدة الطويلة بعيداً عن لوسنده ، خصوصاً وقد تركتها على حال من الحزن وصفتها لك من قبل . ورغم ذلك فقد رضخت وأطعت ، شأن الخادم المخلص ، وإن كنت قد شاهدت أن ذلك سيكون على حساب راحتي وصحّتي . وبعد مضي أربعة أيّام وصل رجل بحث عنّي ليوصّل اليّ رسالة عرفت أنها من لوسنده حينما شاهدت خط العنوان ، ففضضتها وفي نفسي فزع بالغ إذ توقّعت أن يكون ثمة سبب هام قد حملها الى الكتابة اليّ خلال البعاد ، لأنّها نادراً ماكانت تكتب لي وأنا حاضر . لكن قبل أن أتلو الرسالة ، سألت الرجل عمّن أعطاه إيّاها وكم من الوقت استغرقت رحلته . فأجابني أنه كان

يمر صدفة في أحد شوارع المدينة عند الظهيرة وإذا بسيدة رائعة الجمال تدعوه الى النافذة ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وقالت له بلهجة وسرعة : «أخي! إن كنت مسيحياً مؤمناً كما يبدو لي ، فإنّي أرجوك ، لله ، أن تحمل هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة جداً ، الى المكان والشخص المذكورين على الرسالة ، جزاك الله خير الجزاء ، وحتّى أسهّل عليك هذه المهمّة ، خذ مايحتويه هذا المنديل» . وماقالت حتّى القت من النافذة منديل يحتوي على مائة ريال ، وهذا الخاتم الذهبي الذي أحمله ، وهذه الرسالة التي تمسك بها في يديك ، ودون أن تنتظر جوابي ، تركت النافذة بعد أن شاهدت أنّي التقطت المنديل والرسالة وبعد أن أخبرتها بالإشارات أنّي سأنفّذ ماأمرت به . فلمّا رأيت أنّي سأكافأ هذه المكافأة على المهمة التي سأقوم بها ورأيت من عنوان الرسالة أنني موفد اليك يامولاي ، وأنا أعرفك جيداً والحمد لله ، ولما كنت خصوصاً قد تأثّرت بدموع هذه الحسناء ، فقد قرّرت ألاّ أوكل هذه المهمة لأحد غيري فحضرت بنفسي لتوصيل الرسالة إليك ، فأخذت سبيلي منذ أن أعطتني الرسالة فقطعت المسافة في ست عشر ساعة ، إذ طولها كما تعرف ١٨ فرسخاً» .

«وبينما كان هذا الرسول الشاكر للجميل يقص عليّ هذه التفصيلات كنت كأنّي معلق على كلماته ، وكانت فرانصي ترتعد بقوة لم أكد أحتمل معها الوقوف . وأخيراً فتحت الرسالة فوجدتها تتضمن هذه العبارات القليلة :

«إنّ ما تعهّد به دون فرنندو من التحدّث الى أبيك ليفاتح أبي ، قد وفى به لصالحه لا لصالحك . فلتعلم ياسيّدي أنّه التمس الزواج منّي ، وأبي ، وقد أعماه ماظن لفضل دون فرنندو عليك ، قد قبل . والأمر من الجدّ بحيث ستتم الخطبة في خلال يومين ، ولكن في الخفاء بحيث لايكون ثم شهود عليها سوى السماء وبعض أهل البيت . في أي حال أنا ، هذا ماأترك لك تصوّره ، فإن كان يهمّك التعجّل فالحكم لك ، وإذا كنت أحبّك أو لاأحبك ، فالحوادث ستشهد . وإنّي أسأل الله أن تصل رسالتي هذه الى يدك قبل أن تضطر يدي الى الإنضمام الى يد رجل لا يفي بعهده!» .

تلك كانت خلاصة كلماتها في رسالتها هذه . لم أكد أتم قراءتها حتّى رحلت من فوري دون انتظار لمال أو جواب عن مهمّتي ، إذ تبيّن لي حينئذ أن دون فرنندو لم يبعث بي الى أخيه من أجل شراء أفراس ، بل ليخلو الجو لتدبيره وأهوائه . واندفعت بقوة الحفيظة ضد هذا الصديق الغادر وبقوة الخوف من إضاعة قلب كسبته بعد سنوات من الغرام والخضوع ، فوصلت الغداة الى المدينة في الساعة المناسبة للتحدّث الى لوسنده . دخلت بيتها سرّاً ، وتركت البغلة التي ركبتها عند ذلك الرجل الفاضل الذي أتى إليّ برسالتها . وشاء الحظ

فقال القسيس : ليس هذا راعياً ، بل داهية ماهر حكيم . فلنحتفظ به لأنه كالجوهر النفيس .

وقال الحلاق : وهذا المجلد الذي يتلوه هو « كنز الأشعار[١] » .

فقال القسيس : لوكانت أقل ، لكانت أفضل . يجب أن نقتلع منهابعض الخساسات التي تضر بروعتها ونهذبها ونشذبها . وليحتفظ به مع ذلك ، لأن مؤلفه صديقي واحتراماً أيضاً لمؤلفاته الأخرى[٢] : ففيها سمو وبطولة .

واستمر الحلاق قائلاً : وهذا هو «ديوان أغاني لوپث مالدونادو[٣]» .

فقال القسيس : ومؤلف هذا الكتاب صديقي أيضاً ومن أعز الأصدقاء . وأشعاره إذا أنشدها بنفسه تسحر سامعيها ، ولصوته عذوبة تحيل إنشاده سحراً . إنه يطنب أحياناً في أشعاره الرعاة ، لكن الجيد لا يستكثر أبداً . فليوضع إذن مع التي احتفظنا بها . لكن ماهذا الكتاب الذي الى جواره ؟

فقال الحلاق : إنه «غلاطيه[٤]» تأليف ميجيل دي ثرفانتس .

فقال القسيس : منذ عدة سنوات وثرفانتس هذا من أصدقائي ، وأنا أعلمك أنه أعرف بالمصائب منه بالشعر . وكتابه لا يخلو من حسن الاختراع ، ولكنه يقترح ولا يستنتج شيئاً . لننتظر الجزء الثاني الذي وعدنا به ، فلعله لو أصلح من شأن نفسه لظفر بالشفقة التي يحرمونه منها اليوم . وإلى أن يتم هذا ، ياسيدي الصديق ، احتفظ به قابعاً في بيتك .

فأجاب الأسطى نقولا : بكل ارتياح . وها هي ذي ثلاثة أخرى تأتي معاً ، وهي : «الأوركانا» لألونسوا دي ارثيا ، و «الأوستريادا» لخوان روفو ، محلف قرطبة ، و« مونسرات» لكرستوبال دي فرويس ، الشاعر البلنسي[٥] .

---

(١) تأليف بدور دي باديا ، مدريد سنة ١٥٨٠ .

(٢) يشير ثرفانتس هنا الى «قصائد الرعاة» (اشبيلية سنة ١٥٨٢) و «الرومانثيرو» (مدريد ، سنة ١٥٨٣) ، و «فردوس الأرواح» (مدريد ، سنة ١٥٨٥) ، «مناقب وعظمة سيدتنا العذراء» في وزن الثماني ، وكان مؤلفها راهباً كرملياً (مدريد سنة ١٥٨٧) .

(٣) نشر في مدريد سنة ١٥٨٦ .

(٤) نشر ثرفانتس القسم الأول من «غلاطية» في القلعة سنة ١٥٨٥ ، ومات قبل أن يخرج القسم الثاني .

(٥) «الأوركانا» ملحمة شعرية فيها وصف غزو الأسبان لمقاطعة أوركانا في شيلي ، وقد ظهرت في مدريد سنة ١٥٦٩ وسنة ١٥٩٠ . و «الأوستريادا» تقص تاريخ أمجاد دون خوان النمساوي منذ ثورة العرب المتنصرة في غرناطة حتى معركة لپانته التي اشترك فيها ثرفانتس نفسه ، وظهرت في مدريد سنة ١٥٨٤ . ـ «المونسرات» تمجد إنشاء هذا الدير المشهور في قطالونيا في القرن التاسع ، وقد ظهرت سنة ١٥٨٨ .

فقال القسيس ؛ هذه الكتب الثلاثة هي خير ماكتب من شعر ملحمي في اللغة الأسبانية ويمكن أن تنافس أشهر ما أبدعت إيطاليا . فليحتفظ بها أثمن قلائد شعر تملكها أسبانيا .

وأخيراً تعب القسيس من كثرة ما نظر فيه من كتب وأراد أن يلقى بالباقي كله في النار ، دون أن يسأله أحد عن شيء ، بيد أن الحلاق كان قد تناول كتاباً فتحه ووجد عنوانه «دموع أنجليكا»[١] .

فقال القسيس ؛ سأذرف دموعي أنا إذا كنت أحرقت هذا الكتاب ، لأن مؤلفه كان من أشهر الشعراء لا في اسبانيا وحدها بل وفي العالم كله ، وقد وفق أيما توفيق في ترجمة بعض خرافات أوفيديوس .

(٢) قصيدة طويلة في أثنى عشر نشيداً ، تأليف لويس برهونا دي سوتو ، ظهرت في غرناطة سنة ١٥٨٦ ، وكان برهونا هذا صديقاً حميماً لثرفانتس ، ولد سنة ١٥٤٨ وتوفي سنة ١٥٩٥ وشعره الغنائي جيد ، وكان إرهاصاً بشعر جونجورا المغالي في الصنعة الشعرية ، ومن أشهره ترجمة خرافات أوفيديوس ، ثم رثاء الملك سباستيان ، ورثاء لجرثلاسو .

نفس العبارة ووضع في إصبعها خاتم الزواج ، وهكذا ارتبطا برباط لاإنفصام له . وتقدّم الزوج لتقبيل زوجته ، ولكنها وضعت كفّها على قلبها وسقطت بين ذراعي أمها مغشياً عليها .

« بقي أن أقص عليكم وصف حالتي حينما شاهدت في هذا « القبول » منها ضياع آمالي وزيف وعودها واستحالة رد مافقدته تلك اللحظة . فقدت وعي وشعرت أنّ السماء تخلّت عنّي وأنا على الأرض موضوع كراهية ، لأن الهواء لم يعد يمدّ زفراتي بالأنفاس ، والماء لم يعد يمدّني بالدموع ، إنّما تلظّت النار ، واحترق قلبي بالحسد والغضب . وكان إغماء لوسنده قد أثار الانفعال في كل الحاضرين ، وأبعدتها أمها عن ذراعيها لتستطيع استنشاق الهواء ، فوجد على صدرها ورقة مختومة سرعان ماالتقفها دون فرنندو وأنشأ يقرأها على ضوء أحد المشاعل . فلمّا فرغ من القراءة ، ارتمى على كرسي وأسند رأسه الى يده ، في وضع من يفكّر ، دون أن يسهم في مظاهر العناية التي وفّرت لزوجته لجعلها تفيق من إغمائها . أمّا أنا ، فحينما رأيت البيت كلّه على هذا الحال من الاضطراب ، تجاسرت على الخروج دون أن أهتم بأن يكتشفوا أمري ، وفي عزمي في هذه الحالة أن أثور ثورة دامية ليعرف الناس جميعاً غضبتي العادلة التي تدفعني الى عقاب الخائن ، بل وعقاب تلك التي تغيّرت عن عهدها وإن كانت لاتزال في حالة إغماء . ولكن شاء طالعي أن يحتفظ بي لشقاء أعظم ، إن كان ثمّ أعظم من شقائي ، فأمرني بالتعقّل ، ثمّ حرمني بعد هذا الحدث من كلّ تعقّل . فبدلاً من أن أنتقم من أعدائي الألدّاء ، وهو أمر كان حينئذ سهلاً ، لأنهم لم يكونوا منتبهين لي ، تخيّلت أن أنتقم من نفسي فأعاقبها بالعقاب الذي استحقّوه هم ، وبقسوة أشد مما كان عليّ أن أفعله ضدّهم لو أنّي قتلتهم ، لأن العقاب المفاجىء ينهي العذاب سريعاً ، أمّا العقاب الذي يطول أمده في ألوان من العذاب لاتنتهي فيقتل بموت بطيء . ــ وأخيراً غادرت البيت وذهبت الى الرجل الذي تركت عنده بغلتي . وسرعان ماأسرجتها وغادرت المدينة دون أن أودّع الرجل ، ولم أجرؤ على إدارة رأسي لرؤية المدينة شأني شأن لوط . فلمّا كنت وحدي وسط الحقول التي أرخى الليل عليها سدوله ، يدعوني هدوئها الساجي الى إطلاق العنان لنواحي دون خوف من أن يسمعني أو يتعرفني أحد ، أطلقت لساني وصرخت بلعناتي ضد لوسنده وفرنندو ، كما لو أنّي بهذا أنتقم لنفسي مما لحقني منها من إهانة . واتجهت لعناتي خصوصاً اليها ، ناعتاً إيّاها بالقاسية ، الجاحدة ، الزآئفة ، الحانثة باليمين ، وبالمستغلة الشرهة ، لأن ثروة عدوّي هي التي بهرت عينيها وجعلتها تفكّر بمن حباه الحظ بمالٍ أوفر ، وفي هذه الغضبة وتلك اللعنات كنت أحاول تلمّس عذر لها فأقول : « إنّ فتاة

نشأت في عزلة بين أهلها واعتادت دائماً الإذعان لأبويها ـ لاعجب في أن تنزل عند رغبتهما إذا زوجاها من سيّد نبيل غني وسيم ، فلو أنها رفضته لاتهمت بالجنون أو بحب شخص آخر ، وكلاهما يسيء الى سمعتها أبلغ إساءة »! ثمّ أعود بعد ذلك الى أفكاري الأولى فأقول : « ولماذا لم تقل أنني زوجها ؟ لقد كانوا سيرون حينئذ أنها لم تختر اختياراً سيئاً غير جدير بها لا تستطيع تبريره ، لأنه قبل أن يتقدّم دون فرنندو لخطبتها ، لما كانا أبواها قد طمعا في خير منّي لوأنهما قاسا رغبتهما بمقياس العقل . أفلم يكن في وسعها إذن ـ قبل أن تخطو هذه الخطوة المروعة الأخيرة ، وقبل أن تقبل ، أن تقول أنها وعدت من قبل بالزواج مني ، ففي هذه الحالة كنت سأعمل على الاستجابة لكل ماكانت ستتظاهر هنالك به ؟ » وأخيراً أقنعت نفسي بأن قليلاً من الحب ومن العقل ، وكثيراً من الطمع والشهوة للعظمة ، قد جعلاها تنسى الوعود التي ناغتني بها وخدعتني وغزّت أمالي النزيهة الشريفة . وكنت خلال هذه المناجيات والاضطرابات أسلك طريقي الليل كلّه ، حتّى وصلت عند مطلع النهار الى مدخل من مداخل هذه الجبال . فدخلت منه ومضيت قدماً ثلاثة أيّام كاملة دون أن أسلك طريقاً بعينه ، الى أن وصلت الى مرج لاأعرف مكانه بالدقة ، وسألت الرعاة الذين كانوا يرعون دوابهم فيه عن أوحش مكان في هذه الجبال وأشدّها وعورة ، فأشاروا عليّ بهذا المكان ، فغدوت اليه توّاً وأنا موطّن العزم على أن أنهي حياتي فيه . ولمّا دخلت هذه الوحشة الموحشة كبت بغلتي وماتت من الجوع والاضطهاد ، أو بالأحرى ـ فيما يخيّل إلي ـ للتخلّص من حمل لافائدة فيه هو شخصي أنا . فوقفت على الأرض ثمّ انطرحت عليها وقد بلغ منّي الإعياء والشقاء ، دون أن أريد من أحد ـ ولم يكن ثمّ أحد ! ـ أن يهبّ لمساعدتي . وبعد أن بقيت مطروحاً على هذا النحو وقتاً لا أدري مداه ، نهضت ولم أعد أشعر بعد بالجوع ، فرأيت الى القرب منّى بعض رعاة الماعز وهم بلا شك أولئك الذين سدّوا حاجتي الملحّة العاجلة . فقد قصّوا عليّ بعد ذلك كيف عثروا عليّ ، وكيف أنّي رويت لهم من الخزعبلات والترّهات ما جعلهم يوقنون أنّي مذهوب العقل . ولقد أحسست بنفسي منذ تلك اللحظة أن عقلي لم يعد سليماً حرّاً دائماً ، بل بالعكس ، صار من الضعف والاختلال بحيث صرت أرتكب آلاف الحماقات وأمزّق ثيابي ، وأصرخ في هذه القفار ، لاعناً حظّي العاثر ، مكرّراً باستمرار اسم عدوّتي الحبيب ، دون أن يكون ثمّ غرض إلاّ أن أدع حياتي تنطلق مع صرخاتي . وحينما أعود لنفسي وأثوب لرشدي أراني على نحو من الإعياء والاستسلام بحيث لاأقوى على القيام بنفسي . وأغلب مسكني في تجويف شجرة فلّين تستر هذا البدن الناحل البائس . ورعاة الضأن والماعز اللذين يجوبون هذه الجبال بقطعانهم تأخذهم الشفقة

بها ، غير أنه رحل بعد لحظة طائراً على السقف ، وترك البيت كله مليئاً بالدخان ، ولما أردنا أن نشاهد ماخلف وراءه ، لم نجد كتباً ولا مكتبة . اللهم إلا أننا نذكر جيداً ، القهرمانة وأنا ، أنه في اللحظة التي طار فيها ، صاح هذا اليفن الشرير قائلاً : إنه فعل ما فعل بهذا البيت مما سيشاهد بعد بسبب عداوة مستترة يحملها ضد صاحب الكتب والمكتبة . وأضاف أن اسمه منياتون الحكيم .

ـ بل قال : فرستون ، بهذا أجاب دون كيخوته .

فقالت القهرمانة : لا أدري ما إذا كان اسمه فرستون أو فريتون ، لكنه على كل حال ينتهي بالمقطع : « تون » .

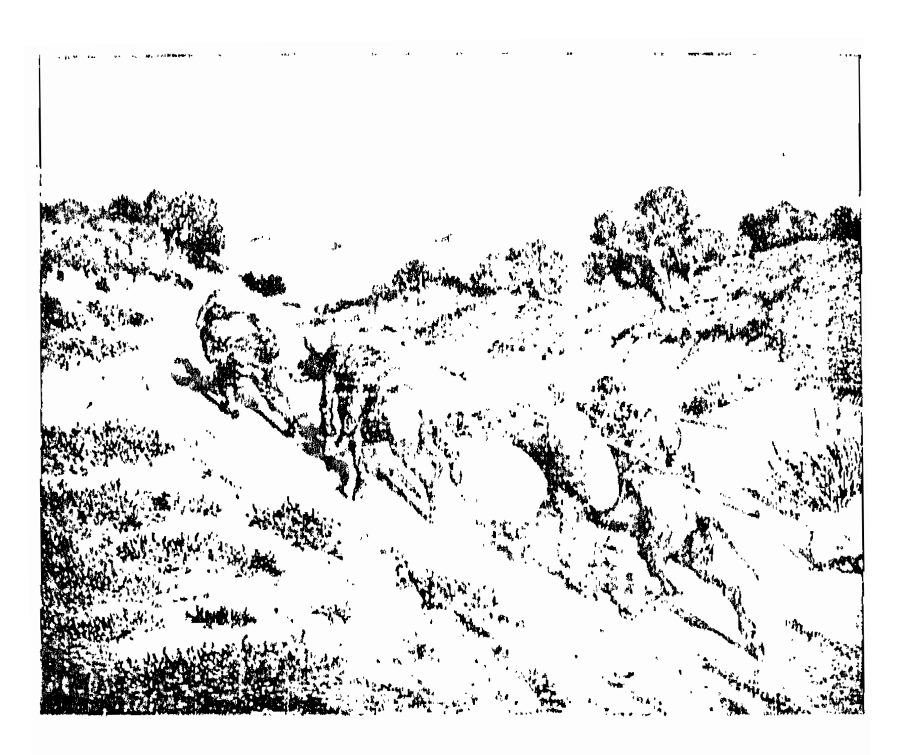
فقال دون كيخوته : هو كذلك ، وإنه لساحر حكيم وعدوي اللدود ، وهو يعاديني لأنه يعلم ، بفنونه وحروفه ، أني لا بد أن أنازل ذات يوم فارساً يعطف هوعليه ، وأني لابد ظافر به دون أن يتمكن علمه من أن يحول بيني وبين ذلك . ولهذا السبب يسعى جهده ليوقع بي كل ما يستطيع من أضرار ، لكني أخبره أنه لن يستطيع أن يعترض ولا أن يتجنب ما قضت به السماء .

فقالت ابنة الأخ : ومن يشك في هذا ؟ لكن ياعمي لماذا تشغل نفسك بكل هذه المنازعات ؟ أفليس الأفضل أن تبقى هادئاًفي بيتك بدلاً من أن تذرع الدنيا بحثاً عن خبز أحسن من خبز البر ، مع العلم بأن كثيراً من الناس يذهبون للبحث عن الصوف فيعودون مجزورين ؟

فأجاب دون كيخوته : ياابنة أخ ، كم أنت جاهلة بمجرى الأمور! قبل أن أجز أنا أكون قد حلقت وانتزعت لحى كل أولئك الذين قد يتخيلون أنهم يقدرون على مس طرف شعرة مني .

فلزمت كلتاهما الصمت ولم تشأ الإجابة ، إذ وجدتا الغضب قد علت نزوته إلى رأسه .

والواقع أنه ظل ملازماً بيته خمسة عشر يوماً ساكن الجأش ، دون أن تبدر منه بادرة تدل على أنه يريد أن يستأنف هروبه الأول . وفي خلال هذه الفترة كانت له أحاديث طلية وأسمار رقيقة مع صاحبيه : القسيس والحلاق ، تدور حول دعواه أن أحوج ما يحتاجه العالم هو الفرسان الجوالة وأنه لا بد من بعث الفروسية الجوالة . وكان القسيس يعارضه حيناً ، ويسلم له حيناً آخر ، إذ بدون هذه الحيلة كان من المستحيل رده إلى الصواب .



الفصل السابع : دون كيخوته وسنشو پنثا في خرجة دون كيخوته الثانية
(عن جوستاف دوريه)

لم تخلقا لتطأ الطين خلف المحراث والثيران كما دلّت على ذلك ملابسه . فلمّا رأوا أنه لم يحس بهم ، أشار القس وكان في مقدّمتهم الى زميله بأن يستترا خلف الصخور القائمة هناك . واستتر ثلاثتهم هناك ليراقبوا ما يفعله الفتى . وكان الفتى يلبس معطفاً صغيراً شدّه الى وسطه بحزام غليظ أبيض ، وجوارب طويلة من الصوف الأسمر ، وعلى رأسه قلنسوة من القماش نفسه . فلمّا فرغ من غسل قدميه ، ورفع قلنسوته ورفع رأسه ، هنالك شاهد الذين يراقبونه جمالاً منقطع النظير ، حتّى قال كردينو بصوت خفيض للقسّ : «مادام هذا ليس لوسنده ، فليس أيضاً بشراً!» وخلع الفتى قلنسوته وهزّ رأسه يمنة ويسرة فانتشر من تحتها شعر يحسده عليه شعاع الشمس نفسه . هناك أدرك الثلاثة الطلعة أن هذا الذي حسبوه فلاّحاً كان فتاة شابة رقيقة ، أجمل ماوقعت عليه أعين صديقيّ دون كيخوته بل وعينا كردنيو نفسه لو لم يعرف لوسنده لأنّه أكد بعد ذلك أن جمال لوسنده هو وحده الذي يمكن أن يقارن بهذا الجمال . وكان هذا الشعر الأشقر الطويل يغطي كتفيها ، بل يغطّيها كلها تحت غدائره الكثيفة ، حتّى لم يكن المرء يرى منها غير قدميها . والتسريحة لم يكن لها من مشط غير أناملها التي بدت في الشعر كأنّها كرات من الثلج ، كما بدا القدمان في الجدول كأنهما قطعتان من البلّور . كل هذا زاد من إعجاب المشاهدين الثلاثة ومن شوقهم لمعرفة حقيقة أمرها ، فقرّروا الخروج من مختبأهم . لكنّ حركة نهوضهم جعلت الشابة الحسناء تدير رأسها وتفصل بيديها شعرها الذي يغطّي وجهها ، ثمّ نظرت من أين جاءت الضوضاء . ولم تكد ترى هؤلاء الرجال الثلاثة حتّى نهضت بلهفة ودون أن تتمهّل للبس حذائها وضم شعرها ، ثمّ أمسكت بحزمة صغيرة من الخرق المهلهلة كانت بالقرب منها ، ثمّ هربت في ذعر واضطراب . بيد أنّها لم تكد تخطو بضع خطوات حتّى عجزت قدماها الرقيقتان عن احتمال وعورة الصخور فارتمت على الأرض . هنالك أسرع اليها الأصدقاء الثلاثة ، وبدأ القس في الكلام فقال : «قفي يا سيدّتي! أيّاً من كنت فاعلمي أننا لا نبغي إلاّ خدمتك . فلا تحاولي الفرار ، فقدماك لن تتحمّلان ، ونحن أيضاً لن نسمح لك بذلك» .

فلم تحر جواباً وغلبتها الدهشة والاضطراب . فاقتربوا منها ، وأخذ القس بيدها واستمر يقول :

«إن ماأخفته ثيابك ياسيّدتي قد نمّ عنه شعرك ، وهي دلائل واضحة على أن الدوافع التي حملتك على تمويه جمالك تحت هذا القناع غير اللائق به ودفعتك الى اللجوء الى أعماق هذه القفارالتي يسعدنا أن نلقاك فيها لا نجد دواء لإدوائك ولكن على الأقل لنبذل لك محض النصيحة - نقول هي دلائل واضحة على أنّ هذه الدوافع ليست هيّنة . وأيّة مصيبة لا يمكن ،

وفي تلك الأثناء استدعى دون كيخوته سراً أحد جيرانه ، وكان فلاحاً طيباً (إن جاز أن نصف فقيراً بهذا الوصف) ، لكنه كان قليل الملح في المخ[1] . وراح يقص عليه ويحاول إقناعه ويبذل له الوعود المعسولة حتى قرر الرجل المسكين أخيراً أن يرحل معه وأن يعمل حاملاً لسلاحه .

ومن بين ما قاله له أن يستعد لمصاحبته بقلب سليم ، إذ قد تقع له مغامرة فيستولي في لحظة على جزيرة ، يعينه حاكماً لها مدة حياته . فأغرت هذه الوعود وأمثالها سنشو پنثا (وهذا هو اسم الفلاح) فترك زوجه وأولاده وعمل حامل سلاح لجاره . هنالك احتال دون كيخوته في الحصول على المال فباع أشياء ورهن أخرى وبدد كل ما يملك حتى جمع من هذا كله مبلغاً معقولاً . وتجهز بترس من حديد اقترضه من أحد أصدقائه ، وأصلح ما استطاع خوذته المحطمة . ثم أخبر حامل سلاحه سنشو باليوم والساعة اللذين قرر فيهما الرحيل حتى يتزود هذا بما يراه ضرورياً . وأوصاه خصوصاً أن يحمل معه خرجاً ، فوعد سنشو بذلك وأضاف أنه يفكر في أن يأخذ معه حماراً فارهاً يملكه ، لأنه لا يأنس في نفسه القدرة على المشي طويلاً على قدميه . وبمناسبة الحمار راح دون كيخوته يفكر ليتذكر ما إذا كان أحد الفرسان الجوالة قد اصطحب معه حامل سلاح يركب حماراً . لكن ذاكرته لم تستطع أن تقدم له مثلاً واحداً على هذا . ورغم ذلك وافق على السماح له بأن يأخذ معه الحمار ، مقترحاً في نفسه أن يزوده بركوبة أشرف متى واتت الفرصة ، وذلك بأن ينتزع الفرس من أول فارس قليل الأدب يعترض طريقه . وتزود أيضاً بقمصان وأشياء أخرى قدر الحصول عليها ، عملاً بالنصيحة التي أسداها إليه صاحب الفندق . وتم كل هذا ونجز ، ولم يودع پنثا أهله وأولاده ، ولا دون كيخوته قهرمانته وابنة أخيه بل خرجا فجأة ذات مساء من القرية دون أن يراهما أحد ، وحثوا المسير طوال الليل حتى إذا ما تنفس الصبح كانا على يقين من أن أحداً لن يكتشف أمرهما ويلحق بهما حتى لو عدا في إثرهما .

سار سنشو پنثا ممتطياً حماره كأنه بطريرك ، ومعه خرجه وراويته ، ومعه أيضاً رغبة حارة في أن يرى نفسه حاكماً على الجزيرة التي وعده بها سيده . واتخذ دون كيخوته نفس الطريق ونفس الاتجاه اللذين اتخذهما في خروجه الأول ، أعني خلال سهل مونتيل ، وكان سيره هذه المرة أقل متاعب منه في المرة الأولى لأن الوقت كان في متوع الصبح ولم تكن أشعة الشمس لتضايقه بعد لأنها لم تكن إلاّ عن ميل . هنالك قال سنشو پنثا لسيده :

(١) أي طائش ، خفيف ، نزق .

ـ لاحظ جنابك ، أي سيدي الفارس الجوال ، ألا تنسى أبداً ما وعدتني به من جزيرة ، إذ مهما تكن كبيرة فإن في وسعي إدارة شؤونها جيداً .

فأجابه دون كيخوته قائلاً :

ـ يجب أن تعلم ، أي صديقي سنشو پنثا ، أن العرف الجاري لدى الفرسان الجوالة القدماء أن ينصبوا حملة أسلحتهم حكاماً على الجزر أو الممالك التي يستولون عليها ، وإني لذو عزم وطيد على ألاّ يذهب هذا العرف الحميد بخطأي . بل على العكس من هذا أفكر في أن أفوق غيري في هذا المضمار ، إذ كثيراً ، بل غالباً ماينتظر أولئك الفرسان أن يصير حملة أسلحتهم طاعنين في السن ، فإذا صاروا شباعى من الخدمة متعبين من قضاء الأيام المضنية والليالي الكئيبة ، أعطوا لقب كونت ، أو مركيز على الأكثر ، مع واد أو مقاطعة صغرت أو كبرت ، لكن إذا عشت وعشت أنا فيمكن أن أستولي على مملكة قبل ستة أيام ، مملكةتتبعها ممالك أخرى توابع لها ، تناسب تماماً لتتويجك ملكاً على إحداها . ولا يأخذك العجب لهذا ، إذ تقع لهؤلاء الفرسان مغامرات عجيبة لم ير مثلها ولم يتوقعها أحد ، إلى درجة أني قد أستطيع بسهولة أن أعطيك أكثر مما به وعدتك .

فأجاب سنشو پنثا قائلاً : على هذا لوأصبحت ملكاً بمعجزة من تلك المعجزات التي رواها سيادتك فإن حُرمتي ، خوانا جوتيرث ، ستصير على الأقل ملكة وأولادي أمراء .

فقال دون كيخوته : وهل ثمّ من يشك في هذا ؟

فأجاب سنشو پنثا : أنا أشك في هذا ، لأني أتصور أنه لو قدر وأنزل الله على الأرض ممالك كالأمطار الغزيرة ، فليس من بينها ما يناسب رأس ماري جوتيرث . إذ يجب أن تعلم ياسيدي أنها لا تساوي كملكة فلسين اثنين . وأنسب من هذا أن تصبح كونتيسة ، على أن هذا أيضاً لن يكون إلا إذا أعانها الله .

فأجاب دون كيخوته : سلّم الأمر لله ياسنشو ، فسيعطيها مايناسبها ، لكن لا تحقّر من شأن نفسك الي حد أن تقنع بأقل من حاكم مقاطعة .

فقال سنشو : لا ، أبداً يا سيدي ، خصوصاً ولي في جنابك سيد جواد يعرف كيف يعطيني مايناسبني وما يستطيع عاتقي حمله .

الفصل الثامن

في النجاح الرائع الذي ناله الشجاع دون كيخوته
في المغامرة المروّعة العجيبة
مغامرة الطواحين الهوائية وحوادث أخرى خليقة بأجمل الذكر

وفي هذه اللحظة اكتشفوا ثلاثين أو أربعين طاحونة هوائية في هذا السهل ، فلم يكد دون كيخوته يراها حتى قال لحامل سلاحه :

ـ إن الحظ يسوق أمورنا خيراً مما تستطيعه رغبتنا ، أنظر ياصديقي سنشو پنثا : أمامنا على الأقل ثلاثون من المردة العتاة أو يزيدون ، أرى أن أنازلهم وأسلبهم الحياة جميعاً بلا استثناء . وبأسلابهم نبدأ ثروتنا ، لأن هذا جهاد نبيل ، وفي سبيل الله إبادة هذه العصابة الشريرة من وجه الأرض .

فسأله سنشو پنثا : أي مردة ؟

فأجابه سيده : أولئك الذين تبصرهم هناك بأذرعتهم الطوال ، إذ منهم من يبلغ طول ذراعه قرابة فرسخين[١] .

فقال سنشو : إنتبه جانبك ، فتلك التي ترى هناك ليست مردة ، بل طواحين هوائية ، وما يبدو أنه أذرع ليس إلاّ أجنحتها التي تديرها الريح فتدير بدورها حجر الطاحونة .

فأجابه دون كيخوته : هذا يدل تماماً على أنك لست خبيراً بشؤون المغامرات ، هذه مردة ، أقول لك . وإذا كنت خائفاً فاذهب عني وأقيم الصلاة بينا أنازلها في معركة رهيبة غير متكافئة .

وضرب فرسه روثينانته وهو يقول هذه العبارة ، دون أن يحفل بأقوال حامل سلاحه سنشو الذي صرخ يؤكد أن هذه طواحين هوائية وليست مردة تلك التي راح يهاجمها . أما هو فقد رسخ في ذهنه أنها مردة الى حد جعله لا يسمع صرخات حامل سلاحه سنشو ، بل

---

(١) الفرسخ legun (وباللاتيني leuca) يساوي ٥٧٧٢ متراً . أما فرسخ البريد فيساوي ٤ كم والفرسخ البحري يساوي ٥٥٥٥ متراً ، أي ثلاثة أميال .

ولا أن يتعرف الحقيقة حينما اقترب منها كل القرب . على عكس هذا راح يعدو وهو بصوت مدو :

ـ لا تهربي ، أيتها المخلوقات الجبانة الخسيسة ، فإن من يهاجمك ليس إلا فارساً واحداً .

وتصادف في تلك الأثناء أن هبت ريح خفيفة فابتدأت الأجنحة الكبيرة في التحرك . فلم يكد دون كيخوته يبصر هذا الأمر حتى صاح :

ـ حتى لو حركتم من الأذرع أكثر مما فعل المارد بriاريو ، فستدفعون الثمن غالياً .

وكان وهو يتفوه بهذه الكلمات يتوجه من أعماق قلبه الى سيدته دلثنيا ، داعياً إياها أن تعينه في هذا الخطر ، ثم اندفع ، مغطى بترسه ومشرعاً رمحه ، يركض بأقصى ماتستطيعه روثينانته في وجه أول طاحونة صادفته ، لكن في اللحظة التي خرق فيها الجناح بضربة قاصمة من رمحه ، دفعته الريح بعنف حطم الرمح وساقت معه الفرس والفارس فراح هذا يتدحرج على التراب في أسوأ حال ، فأسرع سنشو پنثا لنجدته بأسرع مايستطيعه حماره ، فلما بلغه وجده لا يستطيع حراكاً ، لأن السقطة كانت شديدة : فصاح سنشو :

ـ يا لله! ألم أقل لجنابك خذ حذرك مما أنت فاعل ، فما هي إلا طواحين هوائية ، ولا يجهل هذا إلا من امتلأت رأسه بأمثالها ؟!

ـ صه يا صديقي سنشو ، بهذا أجابه دون كيخوته : إن أمور الحرب أشد من غيرها تأثراً بالتقلبات ، خصوصاً وأنا أحسب ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، أن ذلك الحكيم فرستون ، الذي سرق مني الكتب والمكتبة ، قد حول هؤلاء المردة الى طواحين ليحرمني شرف الانتصار عليها ، ؛ذلك لشدة حقده عليّ . لكن صنعته اللعينة لن تقهر في نهاية الأمر طيبة سيفي .

فأجابه سنشو پنثا : ليفعل الله ما يريد!

ثم أعان سيده على إمتطاء صهوة روثينانته وكان كتفاها شبه متكسرين . وظلا يتحدثان عن هذه الحادثة وهما يسلكان طريق پورتو لاپثه ، لأن هذا الطريق كثير الحركة فلن يخلو الأمر من لقاء كل أنواع المغامرات ، كما قال دون كيخوته ، بيد أنه كان حزيناً ساهماً لأنه فقد رمحه ، وصرح لحامل سلاحه بأسفه هذا قائلاً :

ـ أذكر أني قرأت أن فارساً أسبانياً يدعى دييجو پيرث دي فرجاس كسر سيفه في معركة فانتزع من سنديانة غصناً متيناً ، أو لعله الجذع ، وبهذا السلاح قام بمغامرات

وخنق من المسلمين قدراً جعل الناس يطلقون عليه اسم «الختّاق» («متشوكا»)، فأضيف الى اسم فرجاس في لقبه ولقب نسله. وقد قلت لك هذا لأني أفكر في أن أنتزع من أول سنديانة أصادفها غصناً متيناً كذلك الغصن، به أحسب أني سأقوم بأعمال مجيدة تجعلك تشعر بالسعادة إذ حزت شرف مشاهدتها وكنت شاهداً على عجائب لا يكاد يصدقها أحد.

ـ على بركة الله، هكذا قال سنشو، أعتقد أن الأمر هو كما تقول تماماً. لكن يحسن بجنابك أن تعتدل قليلاً، إذ يلوح لي أنك مائل الجنب، ولابد أن يكون ذلك من أثر طحن السقطة.

ـ هذا صحيح، بهذا أجاب دون كيخوته، وإذا كنت لا أشكو الآلام التي أعانيها، فذلك لأنه ممنوع على الفرسان الجوالة أن يشكوا من أي جراح، حتى لوخرجت منها أحشاؤهم.

ـ إذا كان الأمر كذلك، هكذا قال سنشو، فليس عندي ماأجيب به. لكن الله يعلم ما إذا كنت أسر من سماعك تشكو، إذا آلمك شيء. أما عن نفسي فأستطيع أن أقول إنني سأصرخ من أقل ألم يصيبني، اللهم إلا إذا كان منع التشكي هذا ينسحب أيضاً الى حملة أسلحة الفرسان الجوالة.

فلم يتمالك دون كيخوته من الضحك من سذاجة حامل سلاحه، وقال له إنه يستطيع أن يشكو ماوسعته الشكوى متى شاء وعلى أي نحو شاء، برغبة أو دون رغبة، لأنه لم يقرأ حتى ذلك التاريخ مايدل على عكس هذا في قوانين الفروسية.

وهنا لفت سنشو نظره الى أن الوقت قد حان للطعام. فأجاب دون كيخوته إنه لا يشتهي شيئاً الآن، أما هو فيستطيع أن يأكل كما يشاء. وبهذه الرخصة تمكن ما استطاع على حماره وسحب من الخرج ما وضع فيه من زاد، ومضى يأكل ويسير الهوينى خلف سيده. وبين الفينة والفينة كان يرفع الراوية الى فمه بلطف يحسده عليه أظرف خَمّارٍ في مالقة. وبينما سار على هذا النحو، يلتهم لقمة إثر لقمة، لم يذكر شيئاً مما وعده به سيده، ونظر الى أمر الذهاب سعياً وراء المغامرات مهما يكن خطرها، نظر إليه لا على أنه مهنة قاسية، بل تسلية حقيقية.

وأخيراً أمضوا تلك الليلة تحت أيكة، انتزع منها دون كيخوته غصناً جاسياً يمكن استخدامه رمحاً عند الحاجة، وزوّده بحديد الرمح المكسور. لم ينم دون كيخوته ليلته، مفكراً في سيدته دلثنيا، ليعمل حسبما قرأ في كتبه، وهو أن الفرسان الجوالة كانوا

يمضون الليالي الطوال في الغابات والقفار دون أن يغمض لهم جفن ، وهم يتسلون بذكريات سيداتهم . أما سنشو پنثا فلم يقض ليلته على هذا النحو ، لأن معدته كانت ملأى ، وليست ملأى بماء الهندبا ، فقضى الليلة في حلم واحد ، وفي الصباح كان لا بد من صوت سيده لإيقاظه وهو أمر لم تستطعه أشعة الشمس التي تسلطت على وجهه ولا غناء آلاف الأطيار وهي تحيي مطلع النهار بصوتها الطروب . وراح سنشو يلاطف راويته وهو يفرك عينيه ، فلما وجدها أنحف من الليلة السابقة امتلأ قلبه غماً ، إذ لاح له أنهما لا يسلكان السبيل التي يمكن فيها سد هذا النقص في الحال . أما دون كيخوته فلم يحفل أبداً بالفطور ، مفضلاً كما قال أن يتغذى بذكرياته الشهية .

واستأنفا السير في طريق پورتو لاپثه ، وقرب الثالثة بعد الظهر اكتشفوه . فلما رآه دون كيخوته قال :

ـ هنا يا أخي سنشو پنثا نستطيع أن نغوص بأيدينا حتى المرافق فيما يسمى باسم المغامرات ، لكن حذار أن تتناول السيف للدفاع عني حتى لوشاهدتني في أشد المخاطر ، اللهم إلا إذا وجدت المهاجمين من السفلة الرعاع ، ففي هذه الحالة تستطيع معاونتي ، أما لوكانوا فرساناً فلا تسمح لك مطلقاً ولا تعترف قوانين الفروسية بأن تهب لنجدتي ، طالما لم تُسلَّح فارساً .

ـ قطعاً يا سيدي ، هكذا قال سنشو ، إن جنابك ستطاع في هذا كل الطاعة ، خصوصاً وأنا بطبعي أميل الى المسالمة ، وأعدى أعدائي الزجّ بنفسي في الغلبة والمنازعات . لكن إذا اتصل الأمر بالدفاع عن شخصي ، فالحق أني لن أحفل آنئذ بهذه القوانين ، لأن قوانين الله والناس تبيح لكل امرىء أن يدافع عن نفسه ضد كل من تسول له نفسه الاعتداء عليه .

ـ لا أقول عكس هذا ، بهذا أجاب دون كيخوته . لكن فيما يتعلق بنجدتي ضد الفرسان ، اكبح جماح حركاتك الطبيعية .

ـ أعود فأقول ، بهذا أجاب سنشو ، إنني سأعمل بما تقول ، وسأحرص على هذا الأمر حرصي على التعييد أيام الآحاد .

وكانا يتقارضان هذا الحديث وإذا بهما يبصران راهبين من طريقة القديس بندكتوس وهما يركبان هجينين ، لأن البغلين اللذين ركباهما كانا في حجم الهجين ، ويحملان مناظير السفر والمظلات . وخلفهما سارت عربة يحيط بها أربعة أو خمسة من الخيالة ، يتبعهم بغّالان مترجلان . وكان في هذه العربة ـ كما عرف فيما بعد ـ

سيدة من البشكونش[1] في طريقها الى إشبيلية حيث كان زوجها على أهبة الرحيل الى الهند (الغربية) ليتولى منصباً رفيعاً . ولم يكن الراهبان في رفقتها ، ولكنهما كانا يسلكان نفس الطريق . فلم يكد دون كيخوته يلمح هذا الركب حتى قال لحامل سلاحه :

ـ إما أن أكون مخدوعاً ، أو نكون بصدد أروع مغامرة شهدها إنسان . لأن تلك الكتل السوداء هناك يجب أن تكون ، وهي فعلاً من غير شك ، سحرة يسوقون في هذه العربة أميرة من الأميرات سبوها ، ويجب على أن أرد هذا الاعتداء بكل قوتي ، مهما يكن في ذلك من خطر .

فأجاب سنشو : يبدو لي أن هذا أسوأ من الطواحين الهوائية . خذ حذرك ياسيدي . أولئك رهبان من طريقة القديس بندكتس ، والعربة لا بد أن تكون لناس في رحلة . أعود فأحذرك مما أنت فاعل ، ولا يغرنك الشيطان .

فقال دون كيخوته : لقد قلت لك من قبل ياسنشو إنك لاتدري فتيلاً في أمور المغامرات . وما أقوله هو عين الحق ، وسترى مصداق قولي في الحال .

وكان ، وهو يقول هذا ، يتقدم ويقف في وسط الطريق الذي منه جاء الراهبان . فلما وصلا الى مسافة اعتقد أنهما يسمعانه منها ، صاح فيهما بأعلى صوته :

ـ أيها العفاريت الجبابرة ، هيا أطلقوا في الحال سراح الأميرات الجليلات اللواتي سبيتموهن وحملتموهن بقسوة في هذه العربة . وإلا فاستعدوا لموت سريع جزاءً وفاقاً بما اقترفتم من شر الاعمال! .

فأمسك الراهبان بالعنان وتوقفا ، مدهوشين من منظر دون كيخوته ومن أقواله ، ثم أجاباه :

ـ سيدنا الفارس! لسنا عفاريت ولا جبابرة ، بل راهبان بندكتيّان نسلك سبيلنا ، ولا ندري ماإذا كان في هذه العربة أميرات سبايا أو ليس فيها .

فقال دون كيخوته : أنا لا آكل من هذه الكلمات المعسولة ، وأنا أعرفكم من قبل ، أيها الغدرة اللئام!

ودون أن ينتظر جوباً آخر همز روثينانته واندفع خفيض الرمح في وجه الراهب الأول

---

(١) إقليم البشكونش vizcaya ، مقاطعة في شمال اسبانيا ، عاصمتها بلباو ، مساحتها ٢١٠٦ كم٢ ، منطاة بجبال البرانس ، مشهورة بالحديد . وظلت مدة طويلة يستقل بها أمراؤها عن ملوك اشتوريا وقشتالة ، حتى تولى خون ابن هنري الثاني دي ترنستماره ملك قشتالة سنة ١٣٧٩ باسم خوان الاول ، انضمت نهائياً الى مملكة قشتالة .

بجنون حتى أنه لولا أن ترك الراهب نفسه يسقط من فوق بغله لجندله دون كيخوته على الأرض إما جريحاً بالغ الجراح أو ميتاً . أما الراهب الثاني فإنه لما رأى رفيقه وما وقع له ، وضع ركبته في قصر بغله الفاره[١] ، وولى هارباً في السهل المنبسط ، خفيفاً بل أخف من الريح ، أما سنشو پنثا فإنه لما شاهد الراهب الآخر طريح التراب قفز من على ظهر دابته وانقض عليه وأنشأ في انتزاع برنسه وطرطوره . هنالك هرع الخادمان اللذان كانا يرافقان الراهبين وسألا سنشو لماذا يجرد سيدهما من ثيابه . فأجابهما سنشو قائلاً إن ملابس الراهب من حقه شرعاً ، لأنها أسلاب المعركة التي انتصر فيها سيده دون كيخوته ، فانقضا على سنشو ، وكانا لا يسمحان بمزاح ولا يفهمان شيئاً في مسألة هذه الأسلاب والمعركة ، وقد شاهدا دون كيخوت قد مضى بعيداً ليحادث من في العربة ، انقضا عليه وطرحاه على بطنه ولم يدعا شعرة في لحيته وانهالا عليه بضرب مبرح حتى تركاه طريحاً على الأرض لا يتنفس ولا يعي شيئاً . أما الراهب فلم يضيع لحظة بل ركب بغله ، خائفاً مرتجفاً ووجهه شاحب فرقاً . ولم يكد يركب حتى عدا صوب رفيقه الذي كان ينتظره بعيداً ، وهو يشاهد كيف ينتهي هذا الذعر . وقبل أن ينتظرا نهاية هذه المغامرة تابعا المسير بسرعة وهما يرسمان من علامات الصليب أكثر مما لوكان الشيطان نفسه في أثرهما .

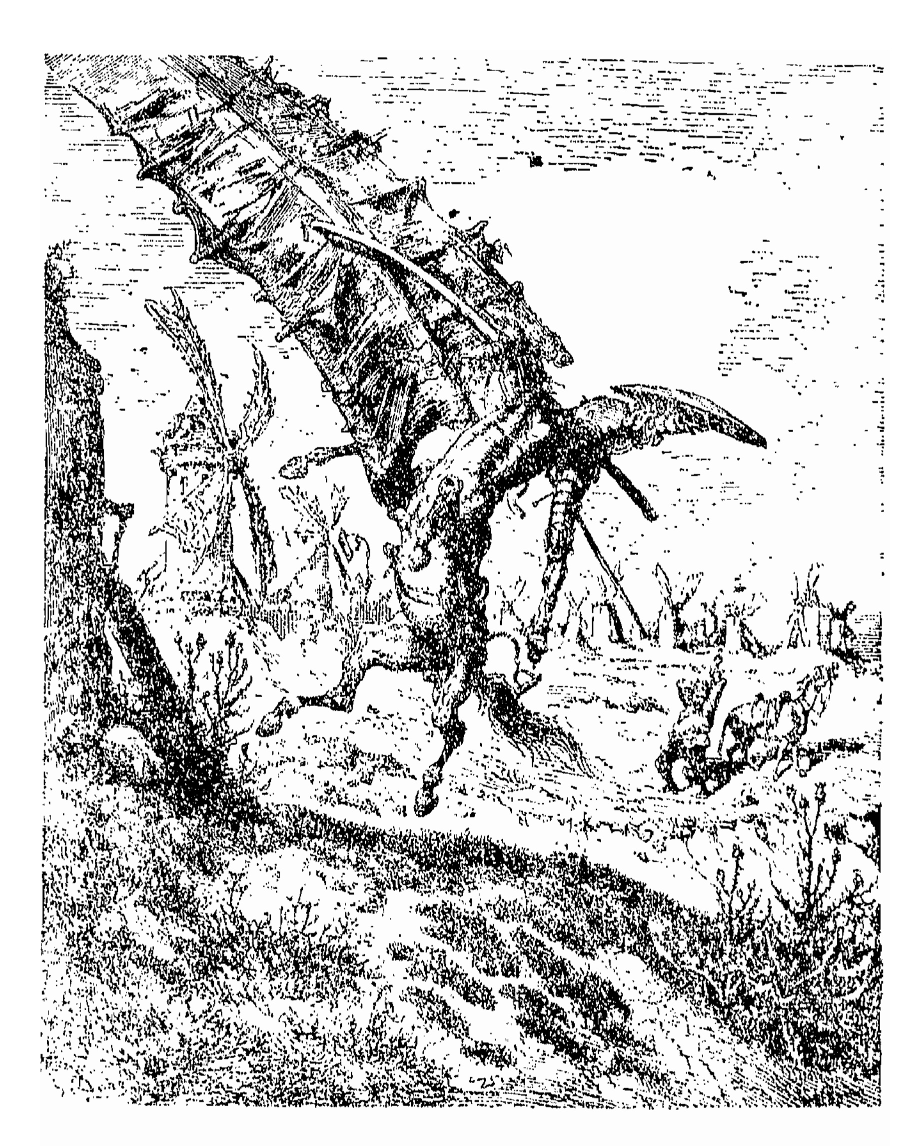
أما دون كيخوته فقد ذهب ، كما رأينا ، للتحدث مع سيدة العربة ، فقال لها :

ـ إن جمالك ، يا سيدتي ، يستطيع أن يعمل في نفسه مايهواه ، لأن وقاحة من سبوك ترقد الآن طريحة الأرض ، وقد جندلته هذه الذراع المخيفة . وحتى لا تتعبي نفسك بالاستفهام عن اسم من أنقذك ، أقول إن اسمي دون كيخوته دلامنتشا ، الفارس الجوال ، وأسير جمال العديمة النظير السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وثمناً للنعمة التي تلقيتها مني لا أطلب منك غير شيء واحد : هو أن تعودي الى توبوسو وتمثلي باسمي أمام تلك السيدة ، وتروي لها ما فعلته من أجل رد الحرية إليك .

وكل ما قاله دون كيخوته كان يسمعه أحد حملة السلاح المرافقين للعربة ، وكان بشكونشياً ، فلما رأى دون كيخوته يحول بين العربة وبين السير زاعماً أن يجعلها تعود الى توبوسو ، اقترب من دون كيخوته وأمسك برمحه وتحدث إليه قائلاً بلهجة لم تكن اسبانية ولا بشكونشية :

---

(١) عبارة بمعنى همز بغله بركبتيه (لأنه بوصفه راهباً لم يكن في رجليه مهماز) ليسرع في الركض .



الفصل الثامن : دون كيخوته يصارع مراوح الطواحين
لما تخيلها مرّدة

ـ اذهب أيها الفارس ، قبح الله سيرك ، قسماً بالله الذي خلقني اذا لم تدع العربة لكان موتك مؤكداً تأكيداً أني من البشكونش!

ففهم دون كيخوته جيداً ماقال ، وأجابه بهدوء عجيب :

ـ لو كنت فارساً ، وأنت لست كذلك ، لكنت عاقبت وقاحتك وتبجحك ، أيها المخلوق الحقير!

فأجابه البشكونشي قائلاً :

ـ أنا لست فارساً ، أنا ؟ قسماً بالله أنك كاذب برىء من المسيحية! لو مددت الرمح واستللت السيف لرأيت الى الماء قطك سريعاً يذهب . بشكونشي على الأرض ، نبيل في البحر ، نبيل عند الشيطان ، وسترى كذبك إذا نطقت بكلمة أخرى .

فأجاب دون كيخوته قائلاً : سنرى! ثم ألقى برمحه على الأرض واستل سيفه واتخذ لأمته ووثب بجنون على البشكونشي وهو مصمم على أن يقضي على حياته .

ولما رآه قادماً كان البشكونشي يود لو نزل من فوق بغله لأنه دابة مأجورة لم يكن في وسعه الاعتماد عليها ، لكن لم يكن لديه من وقت إلا أن يستل سيفه ، وتصادف أن كان آنذاك بالقرب من العربة فانتزع منها وسادة جعل منها ترساً . وسرعان ماانقض كل منهما على الآخر وكأنهما كانا خصمين لدودين . وود الحاضرون لو فصلوا بينهما ، لكنهم لم يستطيعوا شيئاً ، لأن البشكونشي أقسم بلهجته الخسيسة إن لم يتركوا المعركة تأخذ مجراها لقتل بنفسه سيدته وكل من يعترض سبيله في ذلك ، فأشارت سيدة العربة ، مدهوشة فزعة مما ترى ، الى السائق بأن يميل قليلاً ، ومن مسافة أنشأت تراقب هذا المشهد الرهيب ، وقد ضرب البشكونشي في اندفاعه كتف دون كيخوته أعلى الترس ضربة لولا الترس لشجه السيف حتى الخاصرة . فلما أحس دون كيخوته بوطء هذه الضربة الخارقة صاح بأعلى صوته قائلاً :

ـ أي سيدة نفسي ، دلثنيا ، زهرة الجمال ، أعيني فارسك الذي وقع في هذا المأزق الحرج وهو بسبيل إرضاء كرم قبلك!

قال هذه الكلمات وسل سيفه والتأم وهاجم البشكونشي ـ كل هذا في لحظة واحدة ، ثم وثب وهو عازم على المخاطرة بكل شيء في سبيل ضربة واحدة قاضية . فلما شاهده البشكونشي قادماً للالتحام به وأدرك من ملامحه عنف هجمته ، قرر أن يفعل مافعل دون كيخوته . فانتظره بثبات متدرعاً بوسادته ، لكن دون أن يستطيع تحريك بغله ولا توجيهه ، وكان البغل قد أنهكه التعب ولم يتعود على مثل هذه الألاعيب الصبيانية فلم يرد أن يتقدم

خطوة أو يتأخر . وكما قلنا ، وثب دون كيخوته شاهراً سيفه على البشكونشي الحذر ، طمعاً في أن يشقه الى نصفين ، وانتظره البشكونشي كذلك شاهراً سيفه محتمياً بالوسادة . وانتظر النظارة المروعون بجزع لهيف نتائج الضربات الرهيبة التي هدد كل بها . وراحت سيدة العربة والنسوة اللواتي كن معها ينذرن آلاف النذور لسائر القديسين في الجنة وآلاف الشموع لكل هياكل الكنائس في اسبانيا ، من أجل أن ينقذ الله حامل سلاحهم وينقذهن من الخطر الداهم الذي حاق بالجميع . لكن آفة هذا كله هي أن المؤلف عند هذا الموضع ترك المعركة غامضة معلقة ، معتذراً بأنه لم يجد شيئاً مكتوباً يتصل بأعمال دون كيخوته المجيدة أكثر مما رواه ، صحيح أن المؤلف الثاني لهذا الكتاب لم يشأ اعتقاد أن تاريخاً عجيباً كهذا قد طواه النسيان ، وأن أذكياء المنتشا كانوا من قلة الرغبة في الاستطلاع بحيث لم يحتفظوا في دور محفوظاتهم أو مكتباتهم ببعض المخطوطات التي تتناول هذا الفارس الذي سار ذكره في الآفاق . ولهذا ، ووفقاً لهذا الافتراض ، لم ييأس أبداً من أن يعثر على خاتمة هذه الحادثة الشائقة . وها هوذا بفضل من رب السماء وجدها على هذا النحو الذي سيرويه في القسم الثاني من هذا الكتاب[1] .

---

(١) ليفهم القارئ هذه الكلمات الأخيرة ، والكلمات الأولى في الفصل التالي ، عليه أن يذكر أن عند هذا الموضع ينتهي القسم الأول من الأقسام الأربعة التي قسم اليها ثرفانتس ما نسميه اليوم باسم «القسم الأول من دون كيخوته» الذي ظهر سنة ١٦٠٥ . لكن هذا التقسيم الرباعي للقسم الأول قد عدل عنه المؤلف حينما نشر القسم الثاني من الكتاب كله في سنة ١٦١٥ ، وأصبح الكتاب مقسماً الى فصول على النحو الذي تراه الآن .

الفصل التاسع

في خاتمة المعركة الرهيبة التي نشبت بين الفُتُوَّة[1] البشكونشي وبين الشجاع المَنْتشاوي

تركنا ، في القسم الأول من هذه القصة ، الشجاع البشكونشي والشهير دون كيخوته وسيفاهما مسلولان مشهوران ، على أهبة الضرب ضربتين غاضبتين بحد السيف ، بحيث لو طعن كل منهما في الصميم لشق الآخر من أعلى الى أسفل الى نصفين كالرمانة . لكنا رأينا ، في اللحظة الحرجة ، أن هذه القصة اللذيذة قد بترت عند هذا الموضع وصارت معلقة في الهواء ، دون أن يدلنا المؤلف أين يمكن أن نجد ختامها . فاستوقد هذا الأمر غضبي ، لأن اللذة التي ظفرت بها من قراءة هذه القطعة اليسيرة تحولت الى مضايقة ، حينما فكرت في قلة الأمل في العثور على مابدا لي ناقصاً في هذه القصة الشائقة . لكن بدا لي من المستحيل حقاً ، ومن غير المألوف أبداً ، ألا يظفر مثل هذا الفارس الطيب بحكيم يحتسب لنفسه العناية بكتابة أفعاله المجيدة التي لم يسمع بمثلها في البلاد ، فهذا أمر لم يقع أبداً لواحدٍ من أولئك الفرسان الجوالة « الذين يقول عنهم الناس إنهم يذهبون سعياً وراء المغامرات[2] » ، لأن كل واحد منهم قد عين خصيصاً لهذا الغرض حكيماً أو حكيمين لا يكتفيان بكتابة أعمالهم وفعالهم ، بل يسجلان أيضاً أدق دقائق أفكارهم حتى الصبيانية منها ، مهما خبأتها الضمائر ، وهذا الفارس الكريم لا يستحق الشقاء الى هذا الحد فيحرم مما لم يحرم منه پلاتير وأمثاله ، لهذا لم أقوَ أبداً على اعتقاد أن تاريخاً ظريفاً كهذا قد ظل ناقصاً مبتوراً ، وأرجعت الذنب في هذا الى خبث الزمان الذي يلتهم كل شيء ، مفترضاً أنه خبأه إن صحّ أنه لم يقض عليه . وكذلك قلت لنفسي ، مادام يوجد بين الكتب التي اقتناها بطلنا هذا كتب حديثة مثل « دواء الغيرة » و« حوريات هينارس » ، فإن تاريخه لا يمكن أن يكون قديماً ، وإذا لم يكن كتب

---

(١) مصدر بمعنى الصفة .

(٢) مابين الهلالين بيتان من الشعر في الأصل ، من التفاهة بحيث لا يحتاجان الى أن يترجما نظماً .

فهو لابد موجود في ذاكرة أهل قريته والنواحي المجاورة . وهذا التصور بلبلني وملأني رغبة حارة في أن أعرف كل حياة وكرامات مواطننا الاسباني الشهير دون كيخوته دلامنتشا ، نور الفروسية المنتشاوية ومرآتها ، وأول من امتهن حرفة الأسلحة الجوالة في أيام عصرنا العصيبة ، وأول من أخذ على عاتقه مهمة رد الاهانات وإغاثة الأيامي وحماية الآنسات ، أولئك اللواتي يغدن بسياطهن على أفراسهنّ المزركشة عبر الجبال والأدوية حاملات عبء بكارتهن بغير اكتراث ، فلو أن فارساً خسيساً أو شريراً مسلحاً أو مارداً جباراً لم يكرههن على البغاء ، لوجد من هؤلاء الآنسات ، في الأزمنة الخالية ، من تذهب بعد ثمانين عاماً الى القبر لم تنم خلالها ليلة واحدة تحت سقف بيتها ، تذهب الى القبر وهي عذراء كأمها التي ولدتها! ولهذا أقول إن صاحبنا دون كيخوته ، من هذه الناحية ومن نواح أخرى ، خليق باطراء دائم يبقى ذكره أبداً وأنا أيضاً خليق بألا أحرم من هذا الإطراء نفسه ، من أجل ماتحملته من مشقة وبذلته من جهد مثابر للعثور على خاتمة هذه القصة . بيد أني أعلم جيداً أنه لولا معاونة السماء والحظ والبخت لي في هذا ، لبقي العالم محروماً من المتعة التي يمكن أن يتذوقها خلال ساعتين تقريباً من يحرص على قراءتها . وها أنذا كيف اكتشفتها :

كنت ذات يوم في درب القناة في طليطلة ، فشاهدت صبياً أتى تاجر أقمشة حريرية ليبيعه كراسات قديمة . وأنا شديد الولع بالقراءة ، وحتى بقراءة قصاصات الورق التي يقذف بها في الشارع ، فدفعني هذا الميل الطبيعي الى تناول احدى الكراسات التي كان الصبي يعرضها للبيع ، فوجدتها مكتوبة بحروف عربية ، ولما كنت لا أعرف قراءتها وإن استطعت تمييز ما هي ، ففكرت فيما إذا كنت أستطيع العثور على عربي[١] متنصر أصبح من الأعاجم[٢] (= الأسبان) يمكن أن يقرأها لي ولم أجد مشقة في العثور على هذا الترجمان ، لأني لو بحثت عن مترجم من لغة أقدس وأقدم لأمكنني العثور عليه أيضاً ، وأخيراً ساق لي القدر مترجماً أعربت له عن رغبتي وناولته الكراسة بين يديه ، ففتحها في الوسط ، ولم يكد يقرأ منها بضعة أسطر حتى استغرق في الضحك . فسألته السبب في هذا الضحك فقال إنه يضحك من حاشية وضعت على هامش هذا الكتاب ، فالتمست منه أن يقول لي مافيها ، فقال وهو لا يزال يضحك :

---

(١) عربي متنصر ، morisco ، وهو المسلم الذي بقي في دار الحرب بعد جلاء المسلمين ، ثم تنصر بالقوة القاهرة للسلطان المسيحي .

(٢) أصبح من الأعاجم = aljamisdo ، وهي من الكلمة aljamin = الأعجمية ، وكان العرب في اسبانيا يطلقون ذلك على اللغة الاسبانية ، والكلمة اليوم تطلق على كتب المتنصرة الذين ألفوا كتبهم باللغة الاسبانية ، ولكن كتبوها بحروف عربية .

ـ هذا هو المكتوب في الهامش : «دلثنيا دل توبوسو هذه ، التي يرد ذكرها كثيراً في هذه القصة ، يقال إنها تملك ، لتمليح الخنازير ، أحسن يد في إقليم المنتشا كلّه»

فلما سمعته يقول «دلثنيا دل توبوسو» بقيت حيران مدهوشاً ، إذ تصورت في التو أن هذه الأوراق تتضمن تاريخ دون كيخوته . وتحت تأثير هذه الفكرة حثثته على قراءة العنوان ، فقام هذا العربي المتنصر يترجم من العربية الى الاسبانية قائلاً إن العنوان معناه هكذا : «تاريخ دون كيخوته دلامنتشا ، تأليف سيدي حامد بن الأيلي[1] ، المؤرخ العربي» . فتذرعت بالكثير من الحذر حتى أخفي ماأحسست به من غبطة لما أن قرع سمعي عنوان الكتاب . فانتزعته من بين يدي بائع الحرير ، واشتريت من الغلام كل هذه الكراسات القديمة بنصف ريال . ولوكان من الفطنة بحيث يحزر رغبتي فيها ، لكان في وسعه أن يرجو منها ثمناً أكثر من ستة ريالات .

وسرعان ما ابتعدت ومعي العربي المتنصر ، واقتدته الى رواق الكاتدرائية ودعوته الى أن يترجم هذه الكراسات كلها الى الاسبانية ، أو على الأقل ما يتعلق منها بدون كيخوته دون أن يضيف أو ينقص شيئاً ، ونقدته مقدماً الثمن الذي اقتضاه ، وكان هذا الثمن عبارة عن خمسين رطلاً من الزبيب وأربع كيلات من الدقيق ، ووعدني بترجمتها بأسرع وآمن ما يستطيع . لكن لهفتي لاستنجاز العمل وحرصي ألا تفلت هذه اللقطة النفسية من يدي ، جعلتاني أقتاد هذا العربي المنتصر الى بيتي ، فأتم ترجمة هذا التاريخ كله على النحو الذي أوردناه هنا ، واستغرق في هذه الترجمة ستة أسابيع أو يزيد قليلاً .

في الكراسة الأولى صورت معركة دون كيخوته مع البشكونشي تصويراً طبيعياً ، وكلاهما في الموقف الذي تركتهما عليه القصة : السيفان مشهوران . وأحدهما مغطى بلأمته المروعة ، والآخر بوسادته . وكان بغل البشكوتشي يلفت النظر فيدرك في الحال أنه دابة للكراء من مسافة[2] واسعة . وعند قدمي البشكونشي بطاقة ورد فيها : «دون سنشودي أثبيتيا» ، ولا

(١) في النص cide hnmete benengeli ولا صعوبة في الكلمتين الأوليين : «سيدي حامد» وإنما في الكلمة الأخير benengeli وخير تفسير لها ماقاله المستشرق خوسيه أنطونيو كونده وأورده كلمتين في شرحه وهو أن الكلمة معناها «ابن الأيل» وهي ترجمة عربية لاسم ثرفانتس نفسه إذ cervantes من ciervo = أيل ، وعل ، ولابد أن يكون ثرفانتس قد تعلم بضع كلمات عربية أثناء إقامته في مدينة الجزائر أسيراً طوال خمس سنوات . أما تفسير ليوبولدو أجيلات أي ينجواس (في «السفر التذكاري لميننديث اي بلايو» ، ج٢ ص٢١) وهو أن هذا الاسم إنما أخذ من «برنجاني» نسبة الى الباذنجاني ، وأصله العربي إذن هو «باذنجاني» ، وأن هذا يتصل بالنكتة التي تقال بتلقيب أهل طليطلة بـ«البرنجانيين» كما ذكر ثرفانتس نفسه ذلك في الفصل ٢٧ من القسم الثاني من «دون كيخوته» ـ نقول إن هذا تفسير متكلف مبتذل لا مبرر له .

(٢) في النص حرفياً : من مسافة مرمى القوس .

شك أن هذا هو اسمه ، وعند حوافر روثينانته بطاقة أخرى فيها : «دون كيخوته» ، وقد رسم روثينانته رسماً رائعاً : طويلاً مشدوداً ، ضامراًنحيلاً ، ذا قردودة بارزة وجسم مسلول ، وكل هذا شاهد صادق على مناسبة اسم روثينانة له وانطباقه عليه كل الانطباق . وبالقرب منه وقف سنشو پنثا ممسكاً حماره بخطامه ، وعند قدمه ورد في بطاقة أخرى : «سنشو ثنكاس[١]» . وقد جاءه هذا الاسم ، كما يدل الرسم ، من كونه عظيم البطن قصير القامة دقيق الساقين منفرج القدمين . ولابد أن يكون هذا هو الأصل يسمى بالواحد ، والأخرى بالآخر .

وثمة تفاصيل أخرى يمكن ملاحظتها ، لكنها ليست ذات شأن يذكر ولا تضيف شيئاً الى صدق هذه القصة ، ولا قصة رديئة مادامت صادقة . والاعتراض الذي يمكن أن يوجه من حيث صدق قصتنا هذه هو أن مؤلفها من العرب ، والكذب شائع جداً بينهم . لكن عداوتهم الشديدة لنا تجعلنا بالأحرى نتهمه بأنه قصر في قول الحق ، لأنه بالغ وتجاوز الحد . هذا رأيي : لأنه حين يستطيع بل يجب عليه أن يطنب في الثناء على هذا الفارس الجواد ، نراه يكاد يخفيه عمداً وهذا أمر ينطوي على سوء عمل وسوء نية معاً ، لأن المؤرخ يجب أن يكون أميناً صادقاً لا يلتفت لفت هوى أو عصبية ولا يحيد به الغرض أو الخوف ، الحقد أو الرضا عن طريق الحق ، والحق أمه التاريخ ، والتاريخ منافس الزمان ومستودع الأعمال الانسانية وشاهد الماضي ، ومثال الحاضر ، والمنذر بالمستقبل . وفي تاريخنا هذا سيجد القارىء كل ما يمكن أن يقدمه أشوق التواريخ ، وإذا كان ينقصه شيء حسن ، فاعتقادي أنا أن الغلطة في ذلك ليست غلطة الموضوع ، بل غلطة هذا المؤلف الكلب[٢] وبالجملة ، فإن القسم الثاني ، وفقاً للترجمة ، يبدأ هكذا :

كان منظر السيفين المسلولين المشهورين في أيدي المحاربين البطلين الغاضبين منظر من يهدد السماء والأرض والهاوية ، يشهد بهذا تصميمها وسيماؤهما . وأول من بادر بالنزال كان البشكونشي الغضبي المزاج ، فضرب ضربة غاضبة عنيفة كانت كافية وحدها لإنهاء هذه المعركة الرهيبة وسائر مغامرات صاحبنا الفارس ، لولا أن السيف التوى في يده وهو يهوي به عليه . لكن طالعه السعيد الذي ادخره لأعمال أعظم شاء أن يلوي سيف خصمه . فعلى الرغم من أنه ضربه على كتفه الأيسر ، فإنه لم يكن له من أثر إلا أن ينزع سلاحه في هذا الجانب حاملاً مع ما انتزعه نصف البصلة ونصف الأذن ، ووقع كل هذا على الأرض محدثاً ضجة مروعة .

---

(١) المعنى الحرفي لكلمة zancas هو : قوائم بنات الماء (أرجل أبي قردان وما أشبهه) .

(٢) يشير ثرفانتس هنا الى الشتيمة التي كان يتبادلها المسلمون والنصارى في أسبانيا في تلك العهود .

يالله! من ذا يستطيع الآن أن يصف بهدوء ماستولي على قلب صاحبنا المنتشاوي من غضب شديد ، وقد شاهد ما جرى له! لا نستطيع أن نقول أكثر من أنه اعتدل من جديد في ركابه وأمسك سيفه بيديه وانقض على البشكونشي وأهوى على وسادته وأم رأسه ، حتى إن البشكونشي بدأ ينزف من أنفه وفمه وأذنيه ، على الرغم مما تدرع به وكأن جبلاً انقض عليه ، وبدأ يتهاوى من البغل الى أسفله ، وكاد أن يسقط على الأرض لولا أنه أمسك بذراعيه عنق البغل . ولكن قدميه زلاّ عن الركاب وسرعان ماانبسط ذراعه ، وروع البغل من هذه الضربة المخيفة فانطلق يركض في السهل وبعد وثبات ثلاث أو أربع ألقى براكبه على الأرض .

ووقف دون كيخوته يتأمله رابط الجأش ، ولم يكد يراه يسقط حتى نزل من فرسه وعدا قليلاً ووضع سن السيف بين عينيه وصاح فيه أن يستسلم وإلا حزّ بالسيف رأسه ، وكان البشكونشي من الذهول بحيث لم يقو على النطق بكلمة واحدة ، وكان أمره مقضياً ، لأن الغضب أعمى دون كيخوته ، لولا أن هرعت سيدات العربة وكن قد شاهدن المعركة حتى ذلك الوقت دون اهتمام ، ورحن يستعطفن دون كيخوته ليتفضل بالإبقاء على حياة حامل سلاحهن . فأجابهن دون كيخوته بجد واستعلاء قائلاً :

ـ بكل تأكيد ياسيداتي الجميلات ، أود أن ألبي رجاءكن ، ولكن بشرط الترتيب التالي : وهو أن يعدني هذا الفارس بالذهاب الى قرية توبوسو وأن يمثل بالنيابة عني أمام دلثنيا العديمة النظير ، لتتصرف في أمره كما تشاء .

فوعدنه ما طلب وهن مرتجفات جازعات ، دون أن يستفهمن عن معنى طلبه ، بل دون أن يستَنْبِئْنَهُ من تكون دلثنيا هذه ، أعني وعدنه أن ينفذ حامل سلاحهن بالدقة والتمام كل ما أمر به دون كيخوته .

فقال دون كيخوته : « بحق هذه الكلمات ، لن أمسه بأذى بعد ، وإن كان في الواقع يستحق الكثير » .

الفصل العاشر

في الحوار الشائق الذي جرى بين دون كيخوته وسنشو پنثا حاملِ سلاحه

كان سنشو پنثا قد نهض بعد أن ساء إليه خدم الراهبين ، ووقف يشهد المعركة الناشبة بين سيده دون كيخوته والآخر ، وهو يدعو الله أن يتم النصر لسيده حتى يكسب من ورائه جزيرة من الجزر ينصبه حاكماً عليها حسبما وعده عدة صادقة صريحة . فلما رأى المعركة قد انتهت ورأى سيده يهم بالركوب على روثينانته ، هرع ليمسك له الركاب ، لكن قبل أن يدعه يركب جثا على ركبته أمامه وتناول يده وقبلها وقال :

ـ فليتفضل سيدي ومولاي دون كيخوته ويهبني حكم الجزيرة التي كسبها في هذه المعركة الهائلة . فمهما يكن من اتساع هذه الجزيرة فإني آنس في نفسي القدرة على حكمها ولا أقل في هذا أبداً عن أي شخص مارس حكم الجزائر في هذا العالم .

فأجابه دون كيخوته قائلاً :

ـ انتبه ياأخي سنشو ، فهذه المغامرة ومايشبهها ليست مغامرة جزائر ، بل حملات في الطرق العامة ، لا يكسب المرء من ورائها إلا أن يخرج منها مكسور الرأس أو مقطوع الأذن ، لكن صبراً! فستعترضنا مغامرات أخرى أستطيع عن طريقها أن أنصبك لا حاكماً فحسب ، بل خيراً من هذا .

فنهض سنشو وقضاه حق الشكر على إنعامه ، وبعد أن عاد قبل دون كيخوته وزرده ، أعانه على ركوب روثينانته ، ثم قفز على حماره ، وراح يتبع سيده وهو يركض بسرعة ، دون أن يودع سيدات العربة ، حتى دخل غابة كانت قريبة من هناك .

وتبعه سنشو على دابته وهي تُكدف ، ولكن روثينانته كانت وافرة النشاط حتى إنه رأى نفسه في المؤخرة فصاح يدعو سيده للإنتظار والتمهل . فجذب دون كيخوته عنان فرسه وتوقف الى أن لحق به حامل سلاحه البطيء . فقال له هذا :

ـ سيدي! يبدو لي من الصواب أن نلجأ الى إحدى الكنائس ، لأن أولئك الذين قاتلتهم قد أصابهم من سوء الحال ماقد يجعل أمرهم يرفع الى «الأخوة المقدسة»[1] فتمسك بمخنقينا ، ولو حدث هذا ، لنزفنا العرق والدماء قبل أن يقدر لنا الخروج من السجن .

ـ اخرس! ، بهذا أجابه دون كيخوته . قل لي إذن أين رأيت أو قرأت أن فارساً جوالاً قد قدم للمحاكمة ، مهما ارتكب من جرائم قتل ؟

فأجاب سنشو قائلاً : أنا لا أدري شيئاً في مسائل «الختل»[2] ، ولم أحاوله في أحد من الناس طول عمري . لكنني أعلم حق العلم أن الذين يتقاتلون في وسط البراري يوكل أمرهم إلى «الأخوة المقدسة» ، ولا شأن لي بهذا أبداً .

فقال دون كيخوته : يا صديقي لا تهتم! وسأخلصك ، لو اقتضى الأمر ، من بين أيدي بني فلسطين ، بالأحرى من بين أيدي «الأخوة المقدسة» . لكن قل لي بربك هل شاهدت على وجه الأرض فارساً أشجع وأقوى مني ؟ وهل قرأت في التواريخ أنه يوجد من هو أجرأ مني في الهجوم ، وأشد عزماً مني في الدفاع ، وأمهر في تسديد الضربات ، وأسرع في جندلة الخصم ؟

ـ الحق أني لم أقرأ أي تاريخ ، بهذا أجاب سنشو ، لأني لا أعرف القراءة ولا الكتابة . لكني أستطيع أن أراهن أني لم أخدم في حياتي سيداً أشد جسارة من جنابكم ، وأسأل الله ألا يجعل جزاء هذه الجسارة ماقلت . أما ماألتمسه من مولاي الآن فهو أن يضمد جرحه لأن الدم يسيل غزيراً من هذه الأذن . وعندي في الخرج بعض الشاش والمرهم الأبيض .

فأجاب دون كيخوته قائلاً :

ـ كل هذا كان سيكون بغير فائدة ، لو أنني كنت تذكرت أن أحضر زجاجة من بلسم فييرابراس ، إذ كانت تكفي قطرة منه لتوفر علينا الوقت والأدوية . فسأله سنشو : أية زجاجة وأي بلسم هذا ؟

فأجابه دون كيخوته : هذابلسم أعرف طريقة تحضيره عن ظهر قلب ، بفضله لا يخاف المرء الموت من أي جرح . ولهذا فإذا حضرته وأعطيته لك لتحتفظ به ، فخير شيء تفعله إذا

---

(١) الأخوة المقدسة santa hermandad سلطة لها محاكمها وشرطتها ، وتختص باقتفاء آثار المجرمين ومعاقبتهم . وكان في اسبانيا نوعان منها : «الأخوة القديمة» في طليطلة ، «والأخوة الجديدة العامة» وقد أنشأها الملوك الكاثوليك (فرديناند وايزابلا) سنة ١٤٧٦ لتعقب ومعاقبة الجرائم التي ترتكب في الأماكن القفرة .

(٢) كذا سمع سنشو كلمة «قتل» ، وفي الأصل : التبس عليه اللفظhomicidio باللفظ omecillo ، والأول بمعنى قتل إنسان ، والثاني اختلف الشراح في تأويله : فإن كلمنثين يقول أن كليهما بمعنى واحد ، بينما كالدرون يرى أنها بمعنى : حقد ، بغض ، فاستعملنا نحن كلمة «ختل» للدلالة على المعنى العام المقصود ولتكون قريبة من أحداث الالتباس بينها وبين «قتل» .

وجدتهم قد شقوني الى نصفين في معركة من المعارك ـ وهو أمر كثيراً جداً مايقع لنا ـ هو أن تلتقط بعناية الجزء من جسمي الذي وقع على الأرض ، ثم بكل احتياط ، وقبل أن يتجمد الدم ، على النصف الآخر الذي بقي على السرج ، على أن تحرص كل الحرص على أن تُحكم وضعه وتعشيقه في النصف الآخر ، ثم تعطيني جرعتين فقط من البلسم ، هنالك تراني أصح وأنضر من التفاحة .

فقال سنشو : إذا كان الأمر كذلك ، فإني متنازل منذ الآن عن حكومة الجزيرة الموعودة ولاأريد ثمناً لخدماتي الجليلة العديدة إلا أن يتفضل مولاي فيعطيني طريقة تحضير هذا الشراب العجيب . لأني أتخيل أن الأوقية منه في أي مكان تساوي على الأقل ريالين ، وهذا كل ماأحتاج إليه لأقضي حياتي هذه في راحة ورفاهية . لكن بقي أن أعرف ماإذا كانت طريقة تحضيره تكلف كثيراً .

فأجابه دون كيخوته : بأقل من ثلاثة ريالات يمكن عمل ثلاثة أكيال[1] .

فصاح سنشو : يا لله! وماذا ينتظر مولاي لتحضيره وتعليمي كيفية ذلك ؟!

فأجاب دون كيخوته : صبراً ياعزيزي! فسأعلمك أسراراً مدهشة أكبر من ذلك ، وأتحفك بنعم سوابغ ، لكن لنضمد الآن أذني ، لأنها تؤلمني أكثر مماأود .

فأخرج سنشو من الخرج شاشاً ومرهماً . لكن حين تبيّن لدون كيخوته أن خوذته قد كسرت كاد أن يفقد صوابه . فوضع يده على سيفه ورفع عينيه للسماء وصاح :

ـ أقسم بخالق الأشياء كلها ، وبحق الأناجيل الأربعة المقدسة ، بنصها الكامل[2] ، أن أعيش عيشة شبيهة بعيشة مركيز منتوا الكبير ، لما أن أقسم بالانتقام لموت ابن أخيه ڤالدوڤينوس : وذلك بألا يأكل خبزاً على مائدة ، ولا يقرب إمرأته[3] ، ويمتنع من الأشياء الأخرى ، التي وإن كنت لا أذكرها الآن فإني أضمنها قسمي هذا ، حتى أنتقم انتقاماً كاملاً ممن أهانني هذه الاهانة .

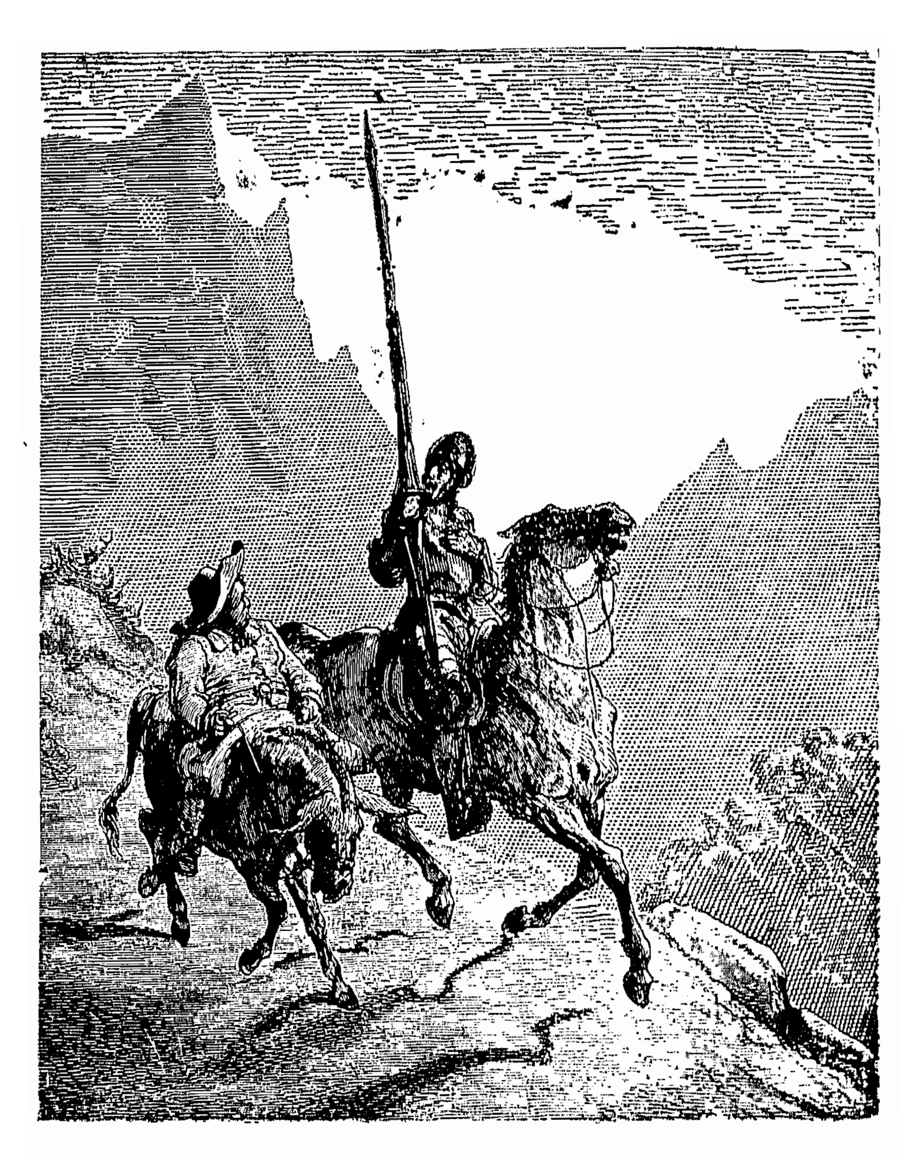
فلما سمعه سنشو ، قال : لينتبه مولاى السيد دون كيخوته الى أنه إذا كان الفارس المقهور قد نفذ الأمر الذي تلقاه بالمثول أمام السيدة دلثنيا دل توبوسو ، فإنه يكون أوفى

---

(١) كيل azumbre : مكيال للسوائل يسع ٢ لتر و١٦ ميليلتر .

(٢) بنصها الكامل : كان القسم على الأناجيل يتم بوضع اليد عليها . لكن حينما لا تكون في متناول اليد جرت العادة بأن يتم القسم شفاهاً مع الاشارة الى نصها الكامل ، فتضاف تلك العبارة : « حيث توجد مكتوبة بنصها الأوسع » . الأصل في هذه العبارة هو أن القسم كان يجري في المجامع الدينية والجامعات الخ على ورقتين أو أربع إطارها مزوق تزويقاً جميلاً ، وكل منها تتضمن الأربع أو الخمس آيات الأولى من أحد الأناجيل .

(٣) يرى مارين أن هذه الجزئية غير مأخوذة من رومانثة مركيز منتوا ، بل من « رومانثة السيد » (رقم ٦) .



الفصل العاشر : دون كيخوته مع رفيقه سنشو پنثا
يتحاوران في الطريق

بعهده وصار بريء الساحة ، ولا يستحق أدنى عقاب إلا إذا ارتكب جرماً آخر .

فقال دون كيخوته : تكلمت فأصبت شاكلة الحق! لهذا أفسخ يميني فيما يتصل بالانتقام من الجاني ، لكني أستأنفه وأكرره وأوكده من جديد فيما يتصل بالعيشة التي ذكرتها ، حتى أستولي بالقوة من أحد الفرسان على خوذة جيدة جميلة كهذه . ولا تحسبن ياسنشو أن أتكلم دون أن أعني ماأقول ، لأني في هذا لست بغير قرين ، إذ هذا ما وقع تماماً فيما يتعلق بخوذة ممبرينو التي كلفت سكريبنته[1] ثمناً فادحاً .

فأجابه سنشو : إقذف بها الى الشيطان ، يامولاي ، هذه الأيمان التي تضر بالصحة بقدر ما يضطرب لها الضمير . وإلا فقل لي بربك ماذا نحن فاعلون لوتصادف أن تمضي عدة أيام دون أن نلتقي برجل مسلح على رأسه خوذة ؟ هل تنفذ هذا القسم رغم ما يجر إليه من متاعب ومضايقات مثل النوم بكامل الملبس وعدم المبيت في مكان آهل وآلاف من ألوان الزهد والتقشف الأخرى حسبما ورد في قسم هذا العجوز المجنون ، مركيز منتوا الذي يريد مولاي الآن أن يؤيده وينفذه ؟ وليكن في علمك أنه لا يمر في هذه الدروب رجال مسلحون ، بل بغّالون وسائقو عربات ، وهؤلاء لا يلبسون خوذات ، بل ولم يسمعوا باسمها طوال حياتهم .

فقال دون كيخوته : أنت في هذا مخدوع ، فلن تمضي ساعتان على السير في هذه الدروب المتقاطعة حتى تجد من الرجال المسلحين أكثر ممن قدموا الى قلعة البراق[2] لسبي أنجليكا الجميلة .

فأجابه سنشو : على رسلك ، وليكن الأمر هكذا . ولعل الله يجري الأمور على ما نهوى ، ويأتي الوقت الذي أظفر فيه بهذه الجزيرة التي كلفتني غالياً ، ولو مُتُّ من الفرح!

فقال دون كيخوته : قلت لك ياسنشو لا تعذب نفسك بالتفكير في هذا الأمر . فحتى لو لم نجد جزراً ، فعندنا مملكة الدينمارك أو مملكة سوبراديا[3] وكلتاهما تناسبك مناسبة الخاتم للإصبع ، خصوصاً وهي على أرض صلبة ثابتة فتكون لك أنسب . لكن لندع كل شيء لأوانه ، وانظر في هذا الخرج لعل فيه طعاماً ، حتى نستطيع بعد ذلك أن نتابع السير سعياً وراء قصر يمكن أن ننام فيه هذه الليلة ونحضر البلسم الذي حدثتك عنه ، لأني أقسم بالله أن أذني تؤلمني كثيراً .

---

(١) راجع « أورلندو الغاضب » ف ١٨ . ولكن دون كيخوته يغلط هنا ، فليس سكريبنته هو الذي أخذ خوذة ممبرينو ، بل دردنيل دي إلمونتته .

(٢) البراق albraca ، قصر صخري ورد ذكره في « أورلندو العاشق » تأليف بويردو ، وقد احتشد عليه أكثر من مليوني من الجنود في مساحة قدرها أربعمائة فرسخ ، وذلك لسبي أنجليكا الجميلة .

(٣) مملكة خيالية ورد ذكرها في قصة « أماديس الغالي » .

فقال سنشو : عندي هنا بصلة وقليل من الجبن ، وشوايا خبز قديمة ، وهذا ليس طعاماً يليق بفارس شجاع مثل مولاي .

فأجابه دون كيخوته : كم تسيء فهم الأمور! اعلم إذن ياسنشو أن مجد الفرسان الجوالة في كونهم لا يأكلون طوال شهر كامل ، وإذا أكلوا طعموا من أي شيء في متناول أيديهم . ولن يساورك في هذا أدنى شك لوأنك كنت قرأت من القصص بقدر ما قرأت . فبرغم وفرة ماقرأت منها لم أجد فيها أدنى ذكر لأكل الفرسان الجوالة ، اللهم إلا عرضاً وفي مآدب حافلة تقام لهم ، أما سائر الوقت فيعيشون من الهواء على الطّوى . لكن يجب ألا تفهم من هذا أنهم كانوا يقضون عمرهم دون طعام ولا إشباع لسائر الحاجيات الضرورية ، لأنهم كانوا بشراً مثلنا ، بل لأنهم كانوا يمضون معظم حياتهم في القفار والغابات ، وبغير طباخ طبعاً ، فإن وجباتهم العادية كانت تتألف من طعام خشن مثل الذي تقدمه لي الآن . ولهذا لا تحزن ياصديقي سنشو ، من أمر فيه مايجلب لي السرور ، ولا تحاول أن تجدد العالم ولا أن تحول الفروسية الجوالة عن طباعها .

فقال سنشو : أستميحك عذراً ، إذ لا أعرف القراءة ولا الكتابة ، كما قلت لمولاي ، ولهذا لاأعرف قواعد مهنة الفروسية . ولكن من الآن فصاعداً سأزود الخرج بكل أنواع الثمار الجافة من أجل سيدي الفارس ، أمّا لي أنا ، ولست فارساً ، فسأزوده بأشياء من ذوات الأجنحة أكثر دسماً .

فعاد دون كيخوته يقول : لاأقول إنه يتحتم على الفرسان الجوالة ألا يأكلوا إلا الثمار التي تحدثت عنها ، وإنماأقول إن مآكلهم المعتادة من هذه الثمار وبعض الأعشاب التي يصادفونها في طريقهم وسط الحقول والبراري ، وهذه الأعشاب يعرفونها ، وأناأيضاًأعرفها وأميزها مثلهم تماماً .

فأجاب سنشو : هذه ميزة كبيرة أن يستطيع المرء تمييز هذه الأعشاب ، لأني أتخيل أننا سنحتاج ذات يوم الى الانتفاع بهذا التمييز!

ثم أخرج من الخرج ماقال عنه إن فيه ، وراحا يأكلان معاً بهدوء وجميل صحبة . لكنهم سرعان ما أتموا أكلتهم هذه الجافة الهزيلة ، لرغبتهم في أن يجدوا مكاناً للمبيت تلك الليلة . وركبا دابتهما وأسرعا للوصول الى مكان مأهول قبل أن يوافي المساء . لكن غابت الشمس وغاب معها أملهما في أن يجدا ما يطلبان ، قرب بعض أكواخ رعاة الماعز ، فقررا قضاء الليل هناك . وبقدر ما تحزّن سنشو على عدم المبيت في منزل ، اغتبط سيده للنوم في الهواء الطلق إذ في كل مرة يقع له شيء من هذا كان يبدو له أنه ظفر بوثيقة تثبّت مقامه في طريقة الفروسية الجوالة .

الفصل الحادي عشر

في المغامرة التي جرت بين دون كيخوته ورعاة الماعز

استقبل بطلنا من رعاة الماعز بالترحاب . ولما أن هيأ سنشو لروثينانته وحماره مبيتهما قدر المستطاع ، استروح واكتشف ، بواسطة الدخان الذي انبعث ، شرائح من لحم الماعز تُسلق في قدر على النار . فود لو استطاع أن يعرف في الحال ما إذا كانت ناضجة حتى يصبها من القدر في كرشه ، غير أن الرعاة أعفوه من مؤونة ذلك ، بأن استخرجوها هم من النار ثم فرشوا على الأرض أنطاعاً من جلد الضأن وهيأوا مائدتهم الريفية بنشاط واهتمام ، ودعوا الضيفين الغريبين الى مشاركتهم في الطعام وسط مظاهر الحفاوة وطيب الخاطر . وأقعى ستة منهم ، كانوا في الزريبة ، حول الانطاع بعد أن التمسوا من دون كيخوته ، بتحيات فطرية ، أن يتفضل بالجلوس على مدود من الخشب قلبوه ليستخدمه كرسياً . وجلس دون كيخوته ، وبقي سنشو واقفاً ليصب له الشراب في كأس لم تكن من البلور ، بل من القرن . فلما رآه سيده واقفاً قال له :

ـ لكي ترى ، يا سنشو ، ما تنطوي عليه الفروسية الجوالة من خير ، وأن أولئك الذين يشاركون فيها على أي نحو هم دائماً موضع التجلة والتكريم في كل الدنيا ، أريد أن تجلس هنا الى جانبي بصحبة هذه الزمرة الطيبة ، وتصبح أنت وأنا سواء ، مع أني سيدك ومولاك الطبيعي ، وأن تأكل من صَحْفتي وتشرب من كأسي ، وإذ يمكن أن يقال عن الفروسية الجوالة مايقال عن الحب من أنه يسوي بين الناس جميعاً .

ـ أستغفر الله! بهذا أجاب سنشو . لكني أستطيع أن أقول لمولاي إنه مادمت أظفر بأكلة جيدة ، فأنا قانع ، واقفاً وحدي ، كأني جالس مع إمبراطور جلوس الند للند ، بل هذا عندي أفضل . بل إذا كان لي أن أصارح بالحقيقة كلها لقلت إني أفضل أن آكل زاويتي ، بغير ضغط ولا مراسم ، حتى لوكان بصلة على كسرة خبز ، على أن آكل ديوكاً رومية سمينة

على موائد الآخرين حيث اضطر الى المضغ بهدوء والشرب جرعة صغيرة بجرعة والمسح في كل لحظة ، وحيث لا أستطيع أن أسعل ولا أن أعطس حينما أريد ، ولا أستبيح لنفسي أي شيء مما تبيحه الوحدة والحرية . وإذن فهذه اللفتات التكريمية التي يريد مولاي أن يغدقها عليّ بوصفي عضواً في الفروسية الجوالة ، أستعطفه من فضله ومنّه أن يحيلها الى أشياء أخرى أجدى لي وأنفع ، فهذا التكريم ، وإن شرفني قبوله ، أنا متنازل عنه من هذه الساعة حتى قيام الساعة .

فقال دون كيخوته : ورغم هذا كله يجب أن تجلس ، لأن من تواضع رفعه الله .

ثم أمسك به من ذراعه وأجلسه بالقوة الى جواره .

ولم يفهم رعاة الماعز شيئاً من هذه الرطانة التي تبادلها الفارس الجوال مع حامل سلاحه ، ولم يفعلوا أكثر من أنهم صمتوا وأكلوا ونظروا الى ضيفهم وهما يلتهمان بشهية ولطف قطعاً كبيرة بقدر قبضات اليد . ولماانتهى أكل اللحم ، بسطوا على مفارش من الجلد كمية وافرة من ثمار البلوط الحلوة ، ووضعوا في الوسط قطعة من الجبن قاسية كأنها صنعت من الملاط ، وطوال هذا الوقت لم يكن القرن متبطلاً ، بل كان يدور عليهم بسرعة ،مرة مليئاً وأخرى فارغاً كأنه قادوس في ترس ساقية ذات قواديس ، حتى فرغت إحدى الخابيتين اللتين كانتا ظاهرتين هناك .

وبعد أن أشبع دون كيخوته بطنه حتى الامتلاء ، أخذ قبضة من ثمار البلوط في كفه وراح يتأملها بعناية وأنشأ يقول :

ـ ما أسعد العصر وما أهنأ القرون التي أطلق عليها الأوائل اسم العصر الذهبي ، لا لأن هذا المعدن ، الغالي القيمة في عصرنا الحديدي هذا ، كان من السهل الحصول عليه في ذلك العهد المحظوظ ، بل لأن الذين عاشوا فيه كانوا يجهلون هذين اللفظين : «لك»و «لي »! ففي ذلك العصر المقدس كانت الأشياء كلها مِلكاً مشاعاً للجميع . ولم يكن الذين يريدون الحصول على قوتهم العادي بحاجة الى جهد أكثر من أن يمدوا أكفهم ويقتطفوا غذاءهم من أغصان أشجار البلوط السامقة وهي تدعوهم بكل ترحاب الى مأدبة ثمارها العذبةالناضجة . وكانت العيون الصافية والأنهار السريعة تقدم لهم مياهاً دافقة رائقة حلوة ، وفي شقوق الصخور وأجواف الأشجار ، كان النحل المثابر يقيم جمهورياته ، ويقدم لليد التي تمتد إليه المحصول الوفير الذي جمعه من مجهوده اللذيذ ، دون أن ينتظر جزاءً ولا شكورا . وأشجار الفلين الضخمة كانت تتعرى بنفسها ، فضلاً وكرماً منها ، عن لحاءاتها التي راح الناس يغطون بها أكواخهم المرفوعة على أعمدة خشنة ليتحصنوا بها من قسوة

الإقليم فحسب . وحديدة المحراث الحادة لم تكن قد جرؤت بعد على أن تشق وتمزق أو أحد ، وفي كل ناحية من نواحي صدرها الخصب الفسيح ، كل ما يغذي ويشبع ويلذ أولادها الذين كانت تحملهم آنذاك . وكانت الراعيات البسيطات المرحات يغدُنّ من واد الى واد ومن رابية الى رابية ، عاريات الرؤوس معقوصات الشعور ، لايستر أجسامهن إلا ما يكفي لستر ماشاء الحياء ويشاء أبداً أن يستره ، ولم تكن زيناتهن من نوع ما يستخدم اليوم ، حيث يزوّق الحريري المعذّب ، بكل أنواع العذاب ، وينمّق بواسطة أرجوان صُور ، بل كانت أوراقاً معشقة من الأرقطيون واللبلاب ، كانت تبديهن على نحوٍ من الفخامة والزينة لعلّه لا يقل عما عليه سيدات القصور اليوم ببدائعهم الغربية المغرية التي أوحى بها إليهن حب استطلاعهن الفارغ . هنالك كانت خلجات النفس العاشقة تتبدى بلطافة وبساطة كما أحسسن بها ، دون أن يلجأن في سبيل إظهارها الى الحيل الكلامية والمداورات اللفظية المعسولة . ولم يكن ثم خداع ولا رياء ولا مداهنة تمتزج بالصراحة ونقاء الضمير . وكانت العدالة وحدها صاحبة الكلمة دون أن يأتي لتعكير صفائها صوت المحسوبية أو المنفعة الذي يخنقها اليوم ويعذبها . ولم يكن ناموس الهوى قد سيطر على نفوس القضاة ، إذ لم يكن ثمَّ أشخاص أو أشياء للتقاضي عليها أو بينها . وكانت الفتيات يغدنّ في صحبة البراءة والعفاف ، كما قلت آنفاً ، دون مرشد أو حارس ، ودون خوفٍ من أن تذلهن ألسنة وقحة أو نوايا خبيثة ، فإن سقطن سقطن بمحض إرادتهن . أما الآن في هذه العصور اللعينة فليس منهن واحدة بمأمن ومنجاة ، حتى لو حبست وأخفيت في تيه شبيه بتيه[1] أقريطش إذ من أضيق الشقوق يدخل الإغراء والغزل ، ومع الهواء يدخل طاعون الحب ، فتولى مبادىء الخير كلها فراراً . فلدرء هذه الآفة التي ازداد شرها على تطاول الأيام أنشئت طريقة الفرسان الجوالة لحماية الفتيات ووقاية الأيامى ومساعدة اليتامى وإغاثة الملهوفين . وأنا من أعضاء هذه الطريقة ، يأخوتي الرعاة ، وإني لأشكر لكم جميل لقائكم لي ولحامل سلاحي ، فلئن كان القانون الطبيعي يقضي على جميع ساكني المعمورة بمعاونة الفرسان الجوالة ، فإنه واجب عليّ وقد رأيت حسن ضيافتكم وكريم معاملتكم دون أن تكونوا عالمين بهذا القانون ، أن أرد جميلكم بمثله قدر المستطاع .

وهذه الخطبة الطويلة (التي كان يستطيع إعفاءهم منها) قد ألقاها فارسنا هذا لأن ثمار

---

(١) تيه أقريطش : أقامه ديدالوس ، كما تقول الاساطير اليونانية ، لحبس مينوتورس وكان مارداً نصفه بشر ونصفه ثور .

البلوط التي قدمت إليه قد أعادت في نفسه ذكرى العصر الذهبي وحركت قريحته لتوجيه هذا الخطاب الجميل الى رعاة الماعز الذين استمعوا اليه مدهوشين دون أن ينبسوا بكلمة . وبقي سنشو صامتاً هو الآخر ، لكنه كان يلتهم ثماراً طيبة من ثمار البلوط ويكثر التردد على خابية أخرى كانت معلقة بشجرة فلين ليظل النبيذ بارداً .

وكانت خطبة دون كيخوته أطول من العشاء ، فلما فرغ منها قال له أحد الرعاة :

ـ لكي يستطيع مولاي الفارس الجوال أن يقول عن حق أوفى إننا أكرمناه قدر ماستطعنا ، نود أن نزيده لذة وحبورا ، بأن نجعل أحد رفاقنا يغني ، ولن يتأخر حضوره إلينا . إنه فتى مفرط الذكاء ولهان الفؤاد ، ،وهو فوق هذا كله يعرف القراءة والكتابة ، ويتقن العزف على الربابة[1] ، بما لا زيادة بعده لمستزيد .

ولم يكد الراعي يتم عبارته حتى سمع صوت الربابة ، ثم ظهر من كان يعزف عليها ، وكان فتى في الثانية والعشرين وضيء الطلعة سبط القوام . سأله رفاقه هل تعشى ؟ فأجاب : نعم . فقال له من دلّ عليه :

ـ تستطيع إذن يا أنطونيو أن تشنّف آذاننا بالغناء حتى يرى هذا السيد ، ضيفنا الليلة ، إن في الجبال والغابات قوماً يحسنون الموسيقى . لقد ذكرنا له مهارتك ، ونود أن تظهرها أمامه حتى لايظن بنا الكذب . فاجلس اذن ، من فضلك ، وغننا أنشودة غرامك التي نظمها عمك المستفيد[2] وقد سرّ بها أهل القرية .

فأجاب الفتى : بكل سرورا

ودون أن ينتظر مزيداً من الالتماس ، جلس على جذع سنديانية وهيأ الربابة ، ثم راح يغني بلطف زائد ، هذه الأغنية :

يااليآ! أناأعلم أنك تعبديني وإن لم تفصحي ، ولا بعينيك ، لساني الحب الصامتين . ولأني أعلم أنك فهمتني ، أيقنت أن : تعشقيني ، لأن الحب الذائع لا يمكن أن يظل شقياً ، كم من مرة يااليآ جعلتني أعتقد حقاً أن روحك من البرنز وأن صدرك الناصع يضم قلباً من الصخر .

لكن من خلال صدق رفضك وعذلك أطلعني الرجاء على جانب من غلالته .

فإن كان الحب أدباً ، فما أبديته منه يجعلني أعتقد أن خاتمة آمالي ستكون كما أتخيلها . ولو كانت الوساطة قادرة على أن تجعل القلب يرقّ ، فما بذلته من أجلك يقوي

---

(١) الكلمة الاسبانية rabel أصلها عربي هو : رباب ، ربابة .

(٢) المستفيد : صاحب الفائدة في الأمور الدينية ، وهو لقب ديني .

عندي الأمل . فلو انتهيت قليلاً لشاهدت أكثر من مرة ، أني تزينت يوم الاثنين بما شرفني يوم الأحد ، ولما كان الحب والزينة يسلكان نفس السبيل ، أردت دائماً أن أبدو في عينيك لطيفاً .

هجرت الرقص من أجلك ، وما بي حاجة الى تذكيرك بالموسيقى التي سمعتها ، عندما المساء يأتي أو يصيح الديك .

ولست أحصي مدائحي في جمالك ، تلك المدائح التي برغم صدقها قد أوقعت بيني وبين بعض صواحبك .

قالت لي تريزا دل بروكال ذات يوم إني بالغت في إطرائك : « يحسب أنه يعشق حورية الجنة وهي شبيهة أبي زنّة[1] فبفضل الحلي العديدة والشعور المستعارة والتجميلات الزائفة تخدع حتى الحب نفسه » ـ فكذبتها ، فغضبت ، فتطوع ابن عمها للدفاع ، وتحداني وكان ما كان مما تعرفينه .

لست أحبك حتى الجنون ، ولا أتمسح على أعتابك ؛ لتصبحي خليلتي ، لأن نيتي أنزه .

للكنيسة حبائل هي خيوط من حرير ، فضعي رقبتك في معنقة النِّير ، وسترين كيف أضع أنا رقبتي كذلك .

فإن رفضت ، فإني أقسم هنا بحق القديسين ، ألا أخرج من هذه الجبال إلا لأسلك طريق الرهبنة الكبوشية » .

* * *

وهنا أمسك الراعي عن الغناء . وعلى الرغم من أن دون كيخوته توسل إليه أن يواصل الغناء ، لم يشأ سنشو پنثا بذلك ، لأنه كان يفضل النوم على سماع الأغاني . ولهذا قال لسيده :

ـ يمكن مولاي أن يهيئ لنفسه مرقده هذه الليلة ، لأن العمل الذي يمارسه هؤلاء القوم الأخيار لا يسمح لهم بقضاء الليل وهم ساهرون يغنون .

فأجابه دون كيخوته قائلاً : إني أفهم حالك ياسنشو ، وأدرك جيداً أن زياراتك لخابية النبيذ تقتضي بعدها مزيداً من النوم لا من الموسيقى .

فقال سنشو : الحمد لله! لم يتأفّف أحد من هذا!

---

(١) أبو زنة : كنية القرد .

فقال دون كيخوته : لا أنكر هذا ، ولك أن تهيء نفسك كما تهوى ، لكن الأنسب لأهل صناعتي أن يسهروا لا أن يناموا . غير أنه يحسن بك ياسنشو أن تضمد أذني مرة أخرى ، لأنها تؤلمني أكثر مما يجب .

فامتثل سنشو للأمر : غير أن أحد الرعاة قال لدون كيخوته حينما رأى الجرح ألا يهتم ، وسيستخدم له علاجاً يشفى في الحال . ثم قطف بعض أوراق إكليل الجبل وكان وفيراً في هذه المنطقة ، ومضغها ومزجها بقليل من الملح ولصق هذه اللصقة على أذنه وربطها جيداً ، وأكد له أنه لم يعد في حاجة الى طبيب آخر . وكان حقاً ما قال .

الفصل الثاني عشر

فيما رواه أحد الرعاة لمن كانوا مع دون كيخوته

وفي هذه الأثناء أقبل فتى آخر من أولئك الذين كانوا يحضرون الزاد من الضيعة ، وقال :

ـ اخواني ، هل تعلمون مايجري في القرية ؟

ـ وكيف نستطيع أن نعرف ذلك ؟ ـ هكذا أجابه أحدهم .

فأردف الفتى يقول :

ـ إذن اعلموا أنه قد مات هذا الصباح ذلك التلميذ الراعي خريسوستمو ، ويتهامس القوم أنه مات من فرط حبه لتلك الشيطانة التي تدعى مرثيلا بنت جيرمو الغني التي تتجول في السهول المعشبة مرتدية ثياب الرعاة .

فقاطعه أحد الرعاة قائلاً : من أجل مرثيلا ، هكذا تقول ؟

ـ نعم من أجلها ، هكذا أقول لك ، وأعجب من هذا أنه أمر في وصيته أن يدفن وسط البراري ، كأنه مراكشي ، وفي موضع عند الصخرة التي يفيض منها ينبوع الفلين ، إذ يروى أنه رآها لأول مرة في ذلك المكان . كما أوصى بعدة أشياء أخرى ينصح القسس بعدم تنفيذها وإلا كانت شراً مستطيراً لأنها تنم عن وثنية . لكن صديقه الحميم أمبروزيو ، وهو تلميذ آخر تزياً بزي الرعاة مثله ، رد عليهم قائلاً بوجوب تنفيذ كل ماأوصى به خريسوستمو دون نقص شيء ، فأثار هذا الخلاف ضجة في القرية . ولكن يجب على كل حال ، هكذا قيل ، أن ينفذ ماأراده أمبروزيو وسائر الرعاة أصدقاؤه . وغداً سيحضر الناس في احتفال مهيب لدفنه في الموضع الذي أخبرتكم به . ورأيي أن ذلك سيكون خليقاً بالمشاهدة ، وأنا عن نفسي ما كنت أتخلف عن الذهاب للتمتع بهذا المشهد ، لولا أنّي في حاجة الى العودة الى بلدي غداً .

ـ وسنفعل نحن أيضاً كذلك ، بهذا أجاب الرعاة ، وسنقترع على من يبقى لحراسة الماعز .

ـ لك الحق يا پدرو ، قال أحدهم ، لكن لا حاجة الى هذا الجهد ، لأني سأبقى هنا من أجلكم جميعاً ، ولا أعتقد هذا فضلاً مني أو خلواً من حب الاستطلاع ، وكل ما في الأمر أن الشوكة التي غرزت في قدمي منذ أيام لا تدعني أخطو خطوة .

ـ ولا يقلل هذا من فضلك علينا فيه ، بهذا أجاب پدرو .

هنالك التمس دون كيخوته من پدرو أن يقصّ عليه نبأ هذا الميت وتلك الراعية . فأجابه پدرو إن كل مايعرفه هو أن هذا الميت كان ابن نبيل غني جداً يسكن قرية من قرى هذا الجبل ، وأنه قضى عدة سنوات يدرس في سلمنقة ، عاد بعدها الى بلده ، وذاع عنه أنه عالم راسخ كثير القراءة في الكتب . وكان يقال إنه كان يتقن خصوصاً العلم بالنجوم وكل مايجري هناك في السماء من فعل الشمس والقمر ، لأنه كان يتنبأ لنا بـ« خصوف » الشمس والقمر .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : « خسوف » يا صديقي لا « خصوف » ، هكذا يسمي الاستتار الوقتي الذي يقع لهذين النيرين العظيمين . ـ ولكن پدرو الذي لم يحفل بهذه الهنّات واصل قصته قائلاً :

ـ وكان يتنبأ أيضاً فيخبر هل يكون العام عام خصبٍ أو « كحت » .

فقاطعه دون كيخوته مرة أخرى : تريد أن تقول « قحط » يا عزيزي .

فاستأنف پدرو حديثه قائلاً : كحت أو قحط كله واحد . وأقول إذن إن أهله وأصدقائه أثروا مما كان يقوله ، على الأقل أولئك الذين كانوا يثقون به ويتبعون نصائحه . فكان يقول لهم : « هذه السنة ابذروا شعيراً لا قمحاً ، هذه السنة الأخرى يمكن أن تبذروا حمصاً ، لا شعيراً ، في السنة القادمة يكثر الزيت ، وفي السنوات الثلاث التالية عليها لن تحصّل قطرة منه » .

ـ هذا العلم يسمى علم النجوم (« اسطرولوخيا ») ، قال دون كيخوته .

ـ لست أعرف ما اسمه ، أجاب پدرو ، لكنني أعرف أنه كان يعرف هذا كله وأشياء أخرى كثيرة . وبالجملة ، لم يكن قد مضى على عودته من شلمنقة أشهر عديدة حينما استيقظ ذات صباح مرتدياً ثوب راعٍ معه عصاه وعليه صدريته الجلدية ، تاركاً ثيابه الفضفاضة التي كان يلبسها بوصفه عالماً . وشاركه في هذه الفعلة في الوقت نفسه صديقه الحميم أمبروزيو الذي كان رفيقه في الدراسة ، فلبس ثوب الراعي . وقد فاتني أن أذكر أن خريسوستمو الراحل كان مشهوراً في نظم الأغاني ، حتى إنه كان يؤلف الأناشيد التي ترتل

في ليالي عيد ميلاد السيد (المسيح) ، والمسرحيات[1] التي يمثلها في «عيد الله» الفتيان في قريتنا ، وكان الناس جميعاً يقولون إنها رائعة الجمال . وفجأة رأى أهل القرية هذين الطالبين في زي الرعاة فاستولت عليهم الدهشة ولم يقدر أحد منهم أن يحزر لماذا تحوّلا هذا التحول العجيب . وفي ذلك الحين توفي والد خريسوستمو ، فصار وارثاً لتركة عظيمة منها العقار ومنها المنقول ، فضلاً عن رؤوس من الماشية السمينة والدقيقة كثيرة العدد وكمية وافرة من الفضة نقداً ، وكان هذا الشاب هو الوارث الوحيد لهذا المال كله ، والحق أنه كان يستحق ذلك ، لأنه كان رفيقاً جواداً محسناً يصاحب الكرام ، وتفيض من وجهه علائم الخير والبركة . وأخيراً تبين أن هذا التحول في الملبس لم يكن إلا ليجري في قفار هذه الجبال وراء تلك الراعية مارثيلا التي ذكرها رفيقنا منذ قليل ، وكان قد عشقها المرحوم خريسوستمو المسكين . وأود أن أقص عليكم الآن نبأ هذه المخلوقة ، لتعرفوا أمرها ، ولعلكم ، أو بغير لعلكم ، لم تسمعوا بمثل هذا في عمركم كله ، حتى لو طال ليبلغ عمر «متّى صالح» .

ـ قل : «متوشالح» ، هكذا قاطعه دون كيخوته بعد أن لم يقو على احتمال تحريفات الراعي .

ـ صالح أو شالح ، المسافة ليست كبيرة ، هكذا أجابه پدرو . وإذا استمر مولاي في سلخ كل ألفاظي فلن ننتهي قبل عام!

ـ عفواً ياسيدي ، هكذا قال دون كيخوته ، إن المسافة أكبر مما تظن ، لكن استمر في روايتك ، ولن أقاطعك بعد .

فقال الراعي : قلت إذن ياسيد نفسي ، إنه كان في قريتنا مزارع أغنى من والد خريسوستمو ، يدعى جيرمو ، أعطاه الله فوق ثروته العريضة ، بنتاً ماتت أمها وهي تلدها . وكانت الأم أخلق النسوة بالاحترام في كل الناحية . ويخيل الي أني أراها الآن بمحياها الذي كان نصفه من الشمس والآخر من القمر ، وامتازت برعايتها لشئون بيتها وصداقتها للفقراء ، حتى إني أعتقد أنها اليوم بروحها تنعم بالحضرة الالهية . ومات زوجها جيرمو كمداً وحزناً على موت المرأة الكريمة ، تاركاً ابنته ، مرثيلا ، في طراوة السن وفي وفرة من

---

(١) في النص autos ، ويطلق على أنواع مختلفة من التمثيل المسرحي منذ فجر الأدب الاسباني ، وكان بعضها ذا طابع ديني ، والآخر دنيوي . وكانت تسمى في العصور الوسطى أيضاً باسم «الأسرار» misterios أو «الأخلاقيات» morialdades ، خصوصاً إذ كان الموضوع دينياً . وفي القرن ١٧ كانت «المسرحيات المقدسة» autos sacramentales ، ومن أبرز من كتبوا في هذا النوع كالدورن ، الشاعر المسرحي العظيم ، إذ ألف روايات ذوات فصل واحد ، فيها أشخاص رمزيون ، تتركز موضوعاتها حول عقيدة الأفخارستيا (ذكرى العشاء الرباني ، وهو مرسم تحول الخمر الى دم المسيح والخبز الى جسده) .

الغني لكفالة أحد أعمامها (أو أخوالها) وكان قسيساً مستفيداً في الاقليم . ونمت سن الفتاة ونما جمالها الذي ذكّرنا كثيراً بأمها لأنها ورثت عنها منه الكثير ، حتى حسب الناس أن البنت ستفوق أمها ذات يوم . وكان الأمر كذلك حقاً ، إذ لم تناهز الرابعة عشرة الى الخامسة عشرة حتى كان كل من يراها لا يستطيع إلا أن يحمد الله على أن خلقها جميلة كل هذا الجمال ، وكم أولع بها بعض من رأوها ، حتى جنوا بها جنوناً . وصانها عمها عن العيون في خلوة واعتكاف ، ولكن صيت جمالها ذاع حتى إن شباب الناحية بل وشباب الأصقاع النائية من ذوي الحسب الناصع قد ألحوا والحفوا في سؤال العم للاقتران بها . ولكن العم كان رجلاً مستقيماً ديناً طيباً ، لم يشأ أن يرغمها على قبول أحدٍ وإن كان يود أن يعجل بزواجها بمجرد بلوغها سن الزواج ، دون أن يحفل بالمنفعة التي تعود عليه من الوصاية عليها وعلى أموالها طالما لم تتزوج . وقسماً بالله هذا ما كان يتردد في ندوات القرية إطراء للقسيس الصالح . وأود أن تعلم يا سيدي الجوال أن الناس في هذه القرى الصغيرة يتحدثون عن كل شيء ويتعرضون الى كل شيء ، وتستطيع أن تستيقن تماماً ، كما أيقنت أنا ، أنه لابد أن يكون القسيس صالحاً الى درجة خارقة للعادة حتى يضطر أهل رعيته الى التحدث عنه بخير ، خصوصاً في القرى .

فصاح دون كيخوته : هذا حق فعلاً ، لكن استرسل ، أرجوك لأن القصة جميلة ، وأنت ترويها يا پدرو أيها الرجل الطيب ، بلطف زائد .

فأجابه پدرو : لطف مولاي هو الذي يهمني فلا يحرمني منه! ـ وأنت تعلم كذلك أن العم أفضى الى ابنة أخيه بكل العروض التي تقدمت للاقتران بها ، مشيداً بمناقب كل متقدم ، داعياً إياها الى التعجيل باختيار زوج على هواها . ولم يكن لها من جواب إلا أن تقول إنها لا تريد الزواج ، وإنها من فتاء السن بحيث لا تقوى على احتمال أعباء البيت .

وكانت هذه الأعذار ، المقبولة في نظر العم ، كافية ليكف عن اللحاح عليها ، منتظراً أن ترتفع عن سن الحداثة وأن تعرف كيف تختار رفيق العمر حسب ذوقها . وكان يقول ، وحقاً ماكان يقول : « يجب ألا يلزم الآباء أبناءهم رغماً عنهم » ، ـ لكن مرثيلا المستهزئة بالخطاب تبدو ذات يوم في زي الرعاة ، دون أن يتوقع أحد ، وها هي ذى ، رغم محاولات عمها وأهل بلدها إقناعها بالعدول عن خطتها ، ترحل الى المراعي بصحبة فتيات القرية ، ترعى قطيعها بنفسها ، ولم تكد تظهر للناس ويسطع نور جمالها على الملأ حتى هرع ما لا يحصى من الشباب الأغنياء النبلاء أو المزارعين ، يلبسون ملابس الرعاة ويسعون لنيل مرضاتها خلال البراري ، ومن بين هؤلاء كان المرحوم الذي كان يقال إنه لم يكن يعشقها ،

بل كان يعبدها ، ولا يحسبن أحد أن اتخاذها هذه الحياة الحرة المنطلقة قد أحدث ، ولو في الظاهر ، أمراً يتنافى مع عفافها ، بل على العكس ، صانت شرفها بكل حرص وعناية حتى إن أحداً ممن راح يخدمها ويسعى لنيل رضاها لم يستطع ولن يستطيع أن يباهي بأنها تركت له أدنى أمل في إرضاء أمانيه ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تتحاشى صحبة الرعاة ولا أحاديثهم وتعاملهم خير معاملة ، فإن من يعزم منهم على الكشف عن نواياه لها ، وإن كانت نوايا عادلة طاهرة طهر الزواج ، تطرده بعيداً عنها كما يقذف اللهب من بارودة ذات فتيل . حتى إنها بهذا المزاج وهذا النحو من السلوك قد أحدثت من الضرر في الاقليم أكثر مما يحدثه طاعون ينتشر ، لأن جمالها وعذوبتها يجذبان قلوب من يرونها : فيحتفلون بخدمتها وحبها ، وعما قليل يجرهم عدم اكتراثها وقسوة فؤادها الى اليأس ، فلا يملكون إلا أن ينعتوها بالقسوة ونكران الجميل ، ويلقبوها بألقاب مشابهة تصور جيداً طباعها . ولو بقيت هنا بضعة أيام أخرى ، لسمعت يا سيدي هذه الجبال وهذه الأودية تردد شكوى المحبين المطرودين الذين يقتفون آثارها وبالقرب من هذه الأكواخ مكان يضم قرابة أربعة وعشرين من شجر الفيقس ، ليس منها إلا وعلى لحائه الأملس قد نقش اسم مرثيلا ، وأحياناً ينقش تاج فوق الاسم ، وكأن عاشقها يريد أن يقول إنها تستحق بل تحمل تاج الجمال . هنا يزفر راعٍ ، وهناك ينوح آخر ، في هذه الناحية تسمع أناشيد الغرام ، وفي تلك مقطوعات الحزن واليأس . وهذا عاشق يمضي الليل طوله جالساً تحت سنديانة أو عند صخرة ، والشمس تلقاه في الصباح غارقاً في أفكاره ، دون أن يكون قد غمض له جفن بليل بالدموع . وهذا عاشق آخر يظل ، في وهج الهاجرة ، ممدوداً على التراب الممتد يبث شكواه للسماء الرحيمة . ومن هذا وذاك ومنهم جميعاً تسخر مرثيلا الجميلة وعليهم تتعالى ، ونحن الذين نعرفها ، نود أن نرى الى أين ستفضي بها كبرياؤها ومن هو الخاطب السعيد الذي سيقدر له أن يظفر بهذا المزاج الوحشي وينال هذا الجمال المنقطع النظير . ولما كان كل ماقلته هو الحق عين الحق ، فيخيل إليّ أن ما رواه رفيقنا ذاك عن موت خريسوستمو يجب أن يكون حقاً كذلك . لهذا أنصحك ياسيدي ألا تتخلف عن حضور دفنه ، فهذا أمر يستحق أن يشاهد ، لأن لخريسوستمو أصدقاء ، وليس بيننا وبين المكان الذي أمر بأن يدفن فيه إلا مسافة نصف فرسخ .

فأجابه دون كيخوته : سأنظر في الأمر بعناية ، وأشكر لك ماأتحته لي من متعة بحكايتك هذه القصة الشائقة .

فقال الراعي : أوه! إني أجهل أكثر من نصف المغامرات التي وقعت لعشاق مرثيلا .

لكن قد يتصادف أن نلقي في طريقنا غداً راعياً يقص علينا باقي القصة . أما الآن فيحسن بك أن تذهب للنوم في مكان مسقوف ، لأن الهواء الطلق يمكن أن يضر بجرحك ، وإن كان الدواء الذي وضع من شأنه ألا يثير مخاوف من هذه الناحية .

أما سنشو پنثا ، الذي جعل ثرثرة الراعي دبر أذنه ، فقد حث سيده على الذهاب للنوم في كوخ پدرو . ففعل ، لكن ليقضي بقية الليل في ذكر حبيبته السيدة دلثنيا ، اقتداء بما فعله عشاق مرثيلا . أما سنشو فهيأ لنفسه مرقداً على القش ، بين روثينانته وحماره ، ونام ، لا كعاشق مهجور ، ولكن كرجل امتلأ كرشه واحمر ظهره من الضرب .

الفصل الثالث عشر

في تتمة قصة الراعية مرثيلا، وحوادث أخرى

ولم يكد الفجر يبدأ في الظهور في طنف المشرق ، كما يقول الشعراء ، حتى استيقظ خمسة من رعاة الماعز ونادوا دون كيخوته وسألوه هل لا يزال عاقد النية على الذهاب لمشاهدة دفن خريسوستمو ، وقالوا إنهم على استعداد لمرافقته . ولم يكن دون كيخوته ليود غير هذا ، فنهض وأمر سنشو بوضع السرج والبرذعة على دابتهما ، فامتثل سنشو بكل نشاطٍ ، وسرعان مابدأت القافلة المسير .

وما سارت ربع فرسخ حتى رأوا عند تقاطع الطريق ستة أو سبعة من الرعاة قادمين ناحيتهم ولا بسين سترات من الجلد الأسود ، وعلى رؤوسهم أكاليل من السرو والدفلى ، وفي يد كل منهم عصا قوية من شرابة الراعي . وفي إثرهم سيدان فاضلان راكبان على فرسين ، مزودان أفضل الزاد ، يصحبهما ثلاثة من الخدم مترجلون . فلما التقى الجمعان تبادلا التحية بكل أدب وتساءلا عن قصدهما ، فعرف كلاهما أنهم ذاهبون جميعاً لتشييع الجنازة . وقال أحد الراكبين لصاحبه :

ـ يخيل إلي ، يا سيد ڤيڤلدو ، أننا لن نأسف أبداً على التأخير الذي سيحدثه لنا منظر هذا الاحتفال الذي سيكون رائعاً ، إن صح مايقوله هؤلاء الناس الأخيار من أخبار غريبة سواء عن الراعي الراحل وعن الراعية القاتلة .

فأجاب ڤيڤلدو : وهذا ما أحسبه أيضاً ، وأنا على استعداد لتأخير رحلتي أربعة أيام لا يوماً واحداً ، حتى أشهده .

هنالك سأل دون كيخوته عما لديهما من أنباء مرثيلا وخريسوستمو ، فقال أحد هذين المسافرين إنهما التقيا هذا الصباح بأولئك الرعاة ، فلما رأياهم في هذا الزي الحزين سألاهم السبب في ذهابهم بهذا الزي . فقص عليهما أحدهم نبأ جمال راعية تدعى مرثيلا وغريب أطوارها ، وكثرة

عشاقها الذين خطبوها وسعوا الى كسب رضاها ، وموت خريسوستمو هذا الذي الى شهود جنازته هم ذاهبون . وبالجملة ، فقد أعاد على مسامعه ما سبق أن رواه پدرو لدون كيخوته .

ولما فرغ هذا الحديث بدأ حديث آخر ، ذلك أن الراكب المدعو ڤيڤلدو سأل دون كيخوته عن الدافع له الى السفر مسلحاً على هذا النحو ، والدنيا في سلام والهدوء يخيم على البلاد . فأجابه دون كيخوته قائلاً :

ـ إن المهنة التي أمارسها والنذور التي عاهدت عليها لا تسمح لي بالسير على نحو آخر . إذ الراحة والطعام الفاخر والملاهي إنما اخترعت للمخنثين من رجال القصور ، أما المتاعب والسهر والسلاح فلأولئك الذين يسميهم الناس «الفرسان الجوالة» ، وأنا واحد من هؤلاء وإن كنت أدناهم منزلة وأقلهم استحقاقاً .

وما سمعوا جوابه هذا حتى ظنوا جميعاً أنه مجنون . لكن ليتأكدوا من الأمر وليروا الى أي مدى يذهب جنونه ، عاد ڤيڤلدو الهجوم ، فسأله مامعنى الفرسان الجوالة .

فأجاب دون كيخوته :

ـ أولم تقرأوا يا سادة أخبار إنجلترا وتاريخها ، حيث تروى مغامرات الملك آرثر الشهيرة الذي نسميه في لغتنا الاسبانية باسم أرتوس ، وما يقال عنه في السنّة القديمة المروية في مملكة بريطانيا العظمى كلها من أنه لم يمت أبداً ، وإنما تحول بفعل السحر ، الى غراب ، وأنه سيأتي ذات يوم بعد مرور أزمان فيسترد تاجه وصولجانه . وهذا هو السبب في أنه منذ ذلك العهد حتى اليوم لا يستطيع أحد أن يثبت أن إنجليزياً واحداً قتل غراباً[١] ؟ نعم! في عهد هذا الملك الطيب أنشئت طريقة الفرسان الشهيرة هذه المسماة «المائدة المستديرة[٢]» ، وجرت الوقائع الغرامية بين دون لانصلوت صاحب البحيرة وبين الملكة جينڤيرا[٣] ، وهي غراميات لعبت فيها كنتانيونا السيدة الجليلة دور كاتمة السر

---

(١) ليس هذا الكلام من اختراع خيال ثرفانتس ، بل كان اعتقاداً شائعاً في ذلك العصر كما يدل على ذلك ماروا تيخادا وجريجوريو مدريو في قصائد نشرت في «أزهار الأشعار» flores de poetas ilustres التي جمعها پدرو اسبينورا ونشرها سنة ١٦٠٥ ، وقد أشار إليها ثرفانتس في موضع آخر في قصة «پرسيلس وسجموندا» (جـ١ ف ١٨) . ومن ناحية أخرى يلاحظ أنه توجد أوامر قديمة في اقليم ويلز تحرم قتل الغربان ، نظراً لفائدتها في قتل الحشرات المؤذية .

(٢) طريقة فروسية «المائدة المستديرة» أنشأها الملك آرثر . وكان أعضاؤها أربعة وعشرين فارساً يرأسهم الملك آرثر . وكان يسمح للأجانب بالإنخراط فيها . فانخرط فيها بعض أكفاء فرنسا مثل رولان .

(٣) جنيڤيرا Guinevere وفي الاسبانية Ginebra ، زوجة الملك آرثر في الأساطير التي تدور حوله . وتسمى على أنحاء عدة في الرومانثات القديمة ، فعند جوفروا من مونموث تدعى جوانهمارا Guanhamara ، وكانت من أسرة رومانية نبيلة ، ونشأت في بيت كادور ، دون كورنوول . وفي Brut تأليف ليامون تدعى ونهاڤر Wenhaver وقريبة لكادور الكورنوولي . وفي «آرثر ومرلان» (القرن ١٣) تدعى جڤنر Gvenour إبنة ليودجران ، ملك كاروهيز . وتغنى بها الشاعر تنيسون في قصيدته «جنيڤيرا» (سنة ١٨٥٩) .

والرسولة ، ولها نظمت هذه الرومانثة المشهورة التي تتردد كثيراً في وطننا أسبانيا :

ليس في الكون فارس حيط بالغيد والحشم
مثل لنصل حينما من بريتاني قد قدم

مع التطور الرقيق العذب في غرامياته ومغامراته العنيفة . ومنذ ذلك التاريخ وهذه الطريقة للفروسية تنتقل من يد الى يد ، وتنمو وتنتشر في شتى أصقاع الدنيا . ففي أحضانها نشأ وترعرع وذاع صيت الشجاع أماديس الغالي بفضل مغامراته ، هو وأبناؤه جميعاً وأحفاده حتى الجيل الخامس ، ثم الشجاع فليكسمارته الهركاني ، وذلك الآخر الذي لن يبالغ المرء مهما أطنب في مديحه ونعني به تيرانته الأبيض ، وأخيراً وفي عصرنا هذا تقريباً ، رأينا وسمعنا وعرفنا الفارس الذي لا يقهر دون بليناس الرومي . هذا ياسيدي معنى أن يكون المرء فارساً جوالاً ، وتلك هي طريقة الفرسان التي حدثتك عنها ، وإليها انتسبت وإن كنت محملاً بالخطايا ، مؤمناً بكل ماآمن به أولئك الفرسان الذين أتيت على ذكرهم ، ومن أجل هذا أسعى في هذه القفار الموحشة ، باحثاً عن المغامرات ، عاقداً العزم على المخاطرة بذراعي وحياتي في أخطر ما عسى أن يلقيني فيه المصير ، مادام في سبيل إغاثة الملهوفين وإسعاف المحتاجين .

ولم يكونوا في حاجة الى المزيد ليوقنوا أن دون كيخوته مختلط العقل مألوس ، أو ليعرفوا نوع الجنون الذي استولى عليه ، فغلبهم من الدهشة مايغلب على كل من يلتقي به لأول مرة ، وكان ڤيڤلدو حاد الذكاء لطيف المزاج ، وقد شاء أن ينفي عن نفسه وصاحبه الملل خلال ماتبقى من الطريق المؤدي الى الرابية التي سيتم فيها الدفن ، فراح يهيئ له الفرصة ليتابع خواطره الشاذة ، فقال :

ـ يبدو لي يامولاي أنك انتسبت الى طريقة الفروسية من أقسى الطرق في الدنيا وإذا صدق ظني يخيل اليّ أن قاعدة السلوك عند الإخوان الكرتوزيين[1] ليست ضيّقة الى هذا الحد .

ـ أن تكون هذه الطريقة شبيهة بها في القسوة والتضييق ، هذا ممكن ـ بهذا أجاب دون كيخوته ، أما أن تكون لها نفس الأهمية للعالم ، فهذا ماأكاد أقطع بأنه مشكوك فيه فإن

(١) الإخوان الكرتوزيون cartujos ، طريقة رهبانية أسسها القديس برونو سنة ١٠٨٤ في إقليم الدوفينيه في الجنوب الشرقي لفرنسا . وكان القديس هوج ، أسقف جرينوبل ، هو الذي أقام القديس برونو في مكان موحش بالقرب من قرية سان بيير دي شارتريز ، ومن هنا اسم الطريقة ، نسبة الى شارتريز (كرتوزيا) ، إذ فيها يقيم المرشد العام للطريقة ، وتقع على ٢٢ كم شمال جرينوبل ، وفيها دير وسط البرية في داخل واد ضيق مغطى بالغابات والمراعي والصخور المستعصية . وهي طريقة رهبانية شديدة القسوة عنيفة المجاهدات ، إذ تأمر بالصوم والصمت المتواصلين والزهد الكامل في اللحوم ، والانحباس في الدير باستمرار . والرهبان ينامون على القش ويحلقون رؤوسهم حلقاً كاملاً ، ولباسهم رداء من الصوف الأبيض وزنار من الجلد الأبيض أو من الكتان .

أردت الحق ، فإن الجندي الذي ينفذ ما يأمر به القائد لا يقل فعله عن فعل القائدالذي أمر . أعني أن الرهبان يطلبون من السماء خير الأرض ، وهم هادئون وادعون مستريحون ، أما نحن الجنود والفرسان فإننا نضع موضع التنفيذ الفعلي مايضعونه هم موضع الدعاء والصلاة ، فنحقق هذا الخير بقوة سواعدنا وحدّ سيوفنا ، لافي مأمن من إهانات الدنيا ، بل مكشوفين معرضين لقيظ الشمس الشديد في الصيف ، والثلج القارس في الشتاء . فنحن إذن وزراء الله على الأرض والأدوات التي يمارس بواسطتها عدالته . ولما كانت شئون الحرب وما يتصل بها لا تنجز إلا بالعمل المتواصل والعرق والدم ، فإن أولئك الذين يمارسونها يقومون بعمل أعظم ـ هذا لا ريب فيه ـ من أولئك الذين يقتصرون على دعوة الله في هدوء وأمان ـ كي يغيث المحتاجين . ولا أعني بهذا (فما أبعد هذا عن فكري!) أن حال الفارس الجوال لها من القداسة ما لحال الراهب الديراني ، وإنما أريد أن أستنتج من المتاعب وألوان التقشف التي أحتملها أنها أقسى وأشق وأبأس وأكثر تعرضاً للجوع والعطش والتعري والهوام . ولا شك في أن الفرسان الجوالة في العصور الماضية قد احتملوا كثيراً من الآلام في مجرى حياتهم ، وإذا كان البعض منهم قد وصلوا ، بفضل قوة سواعدهم ، الى مراتب الأباطرة ، فأيم الله لقد كلفهم هذا ثمناً غالياً دفعوه عرقاً ودماءً ، ولو أن الذين بلغوا هذه المراتب العليا كانوا بغير سحرة وحكماء يقومون على حمايتهم ، لبقوا في يأسٍ من آمالهم وقنوطٍ من أمانيهم .

فأجاب المسافر : وهذا أيضاً رأيي بلا ريب . لكن الأمر الذي يزعجني ـ الى جانب أمور أخرى عديدة لست أذكرها ـ من ناحية الفرسان الجوالة هو أنهم إذا سنحت لهم الفرصة لمواجهة مغامرة عظيمة حافلة بالمخاطر على حياتهم ، لايتذكرون أبداً في هذه اللحظة الحرجة أن يسلموا أمرهم إلى الله كما هو واجب كل مسيحي ورع في مثل هذا الخطر . على العكس ، هم يسلمون أمرهم إلى سيداتهم المعشوقات بحرارة وعبادة كأنهن عندهم الله . وهذا فيما يبدو لي ضرب من الوثنية .

فقال دون كيخوته : ليس ثم من سبيل آخر ، والفارس الذي يفعل غير هذا يقع في أسوأ حال . فقد جرى العرف والعادة في الفروسية الجوالة أن الفارس الجوال ـ وهو في حضرة السيدة في اللحظة التي يغامر فيها مغامرة حربية كبرى ـ يتجه إليها بعينه في عشق ، وكأنه يطلب منها بنظرته أن تكون في عونه إبان الخطر المحدق به ، وحتى لولم يسمعه أحد فإنه ملزم بأن يهمس بضع كلمات بين أسنانه حتى يسلم إليها أمره من كل قلبه . وعندنا في قصص الفروسية شواهد عديدة على ما أقول . لكن يجب ألا نعتقد رغم ذلك أن الفرسان يمتنعون من إسلام نفوسهم لله ، إذ سيجدون الوقت والفرصة لذلك أثناء العمل .

فأجابه المسافر : بقي عندي مع هذا كله شك يساورني . فكثيراً ما قرأت أنه يقع أن يتبادل فارسان جوالان الشتائم ، ومن كلمة إلى كلمة من الطرفين يستطير الغضب ويدور كلاهما بفرسه ليتخذ مسافة كافية ، وفي الحال يصطدمان دون سابق إنذار والعنان مرخى ويسلم كلاهما أمره إلى سيدته في وسط الحلبة . وما يحدث عادة في مثل هذه الالتحامات هو أن يسقط أحدهما من على ظهر فرسه وقد نفذ رمح عدوه في بدنه من الجنبين ، بينما الآخر ينزل إلى الأرض ، اللهم إلا إذا استمسك بالعرف . فكيف يتسنى للميت أن يكون له من الوقت ما يسمح له بإسلام أمره إلى الله ، في خلال عملية تتم بهذه السرعة ؟ أوليس من الأفضل ، بدلاً من الكلمات التي ينطق بها في الحلبة وهو يهب نفسه لسيدته ، أن يعمل ما يجب عليه بوصفه مسيحياً تقياً ؟ خصوصاً ويخيل اليّ ـ عن نفسي ـ أنه ليس لدى الفرسان الجوالين سيدات لهن يهبون أنفسهم ، إذ ليسوا جميعاً عشاقاً .

فصاح دون كيخوته : هذا غير ممكن ، فمن المستحيل وجود فارس جوال بغير سيدة : فمن طبيعتهم جميعاً أن يكونوا عشاقاً كما أن من طبيعة السماء أن يكون فيها نجوم ، ومن المؤكد أنك لم تر أبداً تواريخ فيها فارس جوال بغير غراميات ، إذ مجرد كونه بغير غراميات يجعله غير أهلٍ لأن يعد فارساً بالمعنى القانوني ، بل سيعد نغلاً ، وسيقال إنه دخل في قلعة النظام ، لا من بابها الواسع الكبير ، بل متسلقاً الأسوار ، شأنه شأن اللص والصعلوك .

فاستأنف المسافر حديثه قائلاً : لكن يبدو لي ، إن صدقت ذاكرتي ، أني قرأت أن دون جَلاوَر ، أخا الشجاع أماديس الغالي ، لم تكن له سيدة معروفة ، يمكنه أن يستصرخها إبان المخاطر ، ورغم ذلك كان يعد فارساً شجاعاً نابه الذكر .

فأجابه دون كيخوته : إن السنونو لا يصنع الربيع ، على أني أعلم من مصدر وثيق أن هذا الفارس كان عاشقاً في السر . فضلاً عن أن ولعه الشديد بالاعجاب بكل من يستلطفها كان مزاجاً طبيعياً فيه ولا سبيل له الى دفعه وكبحه ، لكن من المحقق تماماً أنه لم يكن يملك عليه أفكاره ويأسر لبه غير سيدة واحدة ، كان يسلم نفسه إليها مرات ومرات ، لكن في خبايا صدره ، لأنه كان يباهي بأنه عاشق شديد التكتم .

فعاد المسافر يقول : إذا كان من طبيعة الفارس الجوال أن يكون عاشقاً ، فيمكن الظن أن سيادتك لم تخالف عن هذه القاعدة اللازمة لمهنتك . فإن كان سيادتك لا يباهي بأن يكون من التكتم كما كان دون جلاور ، فإني أرجو رجاءً حاراً ، باسم زملائي هؤلاء وباسمي ، أن تخبرنا باسم سيدتك وبلدها ولقبها ومفاتنها . ومما يسعدها من غير شك أن يعرف الناس جميعاً أنه يحبها ويخدمها فارس من طراز سيادتك .

فزفر دون كيخوته لدى سماعه هذا زفرة حارة وقال :

ـ لا أستطيع أن أؤكد ما إذا كانت عدوتي الحلوة تريد أو تخشى أن يعلم الناس أني خادمها ، لكني أستطيع أن أقول ، استجابة للالتماس الموجه الي بكل هذا الأدب ، إن اسمها « دُلثنيا » ، وبلدها : « توبوسو » ، إحدى قرى سهل المنتشا ، ولقبها : « أميرة » على الأقل ، لأنها ملكتي وسيدتي ، ومفاتنها : فوق مفاتن البشر ، إذ فيها تتحقق وتجتمع كل الصفات السحرية للجمال كما يصفها الشعراء في معشوقاتهم . شعرها جدائل من الذهب ، وجبينها جناتٍ عليين ، وحواجبها أقواس قزح ، وعيونها شموس ، وخدودها ورود ، وشفاهها من المرجان ، وأسنانها لؤلؤ منضود ، وجيدها من الالبستر ، وصدرها من المرمر ، وأكفها من العاج ، وبياضها كالثلوج ، وما يحجبه الحياء عن عيون الناس أتخيله شيئاً لا يدرك قدره إلا الفحص العادل الدقيق ، لكنه يتجاوز كل تشبيه .

فقال ڤيڤلدو : ونريد أيضاً أن نعرف أصلها وفصلها ونسبها .

فأجاب دون كيخوته : إنها ليست من سلالة كورتيوس أو كايوس أو شپيون في روما القديمة ، ولا من سلالة كولونا وأورسيني في روما الحديثة ، ولا مونكادا وريكسين في قطالونية ، أو ربيا وڤيانوڤا في بلنسة ، أو پالافوكس ونثا وروكابرتي وكوريا ولونا وألاغون وأوربا وفوث وجوريه في أرغون ، ولاثردا ومنريكه ومندوثا وقزمان في قشتالة ، أو ألنكاسترو وباليا ومنيسيس في البرتغال ، وإنما هي من أن تكون توبوسو دلامنتشا ، وهي أسرة إن تكن حديثة فإن في وسعها أن تكون مبدءاً خصباً لأشهر الأسر في القرون المقبلة . ولا يعترض على هذا أحد اللهم إلا إذا استوفى في الشروط التي سجلها ثرفينو في أسفل المسلحة التذكارية لأسلحة رولان[1] :

لا يجرؤنْ متهور فيمسَّها　　　　كيلا يواجه غاضباً رولانا

فقال المسافر : أسرتي وإن كانت من سلالة كاتشوبين في لاريدو[2] ، لا أجرؤ على مقارنتها بأسرة توبوسو دلامنتشا . بيد أني ، والحق يقال ، لم يبلغ مسامعي هذا الاسم ولاهذا اللقب حتى الآن .

---

(١) نذكره باسمه في صورته الفرنسية ، بدلاً من الاسبانية أورلندو ، لأنه فرنسي الأصل ، وثوفينو هو ابن ملك اسكتلندة ، أطلق سراحه رولان ، فوفاءً له واعترافاً بجميله صنع منها مسلحة (مجموعة أسلحة) تذكارية (راجع « أورلند الغاضب » ، النشيد رقم ٢٤) .

(٢) لاريدو : مدينة في اسبانيا ومقاطعة ، تقع على مسافة ٣٧ كم في الجنوب الشرقي من سانتندو ، لها مرفأ على المحيط الأطلسي . ولفظ « كاتشوبين » لقب كان يطلقه الشعب على الاسباني الذي يهاجر الى أمريكا ، وأصبح التعبير : « كاتشوبين من لاريدو » مثلا أطلقه الناس ، قبل ثرفانتس ، على أولئك المهاجرين الأغنياء .

فأجاب دون كيخوته : واعجباً! كيف لم يبلغ مسامعك!

وكان سائر الجماعة يصغي الى حديثهما باهتمام شديد ، حتى إن الرعاة أدركوا مافي عقل صاحبنا دون كيخوته من اختلاط وخبال وسنشو بنثا وحده الذي تخيل أن كل ماقاله مولاه هو الحق كل الحق ، وذلك لأنه كان يعرف من هو ، وقد عرفه منذ نعومة أظفاره . فإن حاك في صدره شيء من الشك وبدا له الأمر عسير الاعتقاد ، فلم يكن ذلك إلا اختراع دلثنيا دل توبوسو الفاتنة ، لأنه ، وقد كان يقيم قريباً من هذه القرية ، قرية توبوسو ، لم يسمع أبداً بهذا الاسم ولا بتلك الأميرة .

وكانت القافلة في سيرها حينما أبصروا قرابة عشرين راعياً يلبسون جميعاً سترات طويلة من الصوف الأسود وعليهم أكاليل وهم ينحدرون في أخدود مشقوق بين جبلين عاليين . وقد تبينوا هذه الأكاليل : بعضها من الزرنب (شجر الموت) ، والآخر من السرو الحزين . وكان ستة منهم يحملون محفة غطيت بآلاف الأزهار والأغصان الخضر . فلما شاهدهم أحد رعاة الماعز صاح :

ـ هؤلاء القادمون يحملون جثمان خروسستمو ، وعند حضيض هذا الجبل أوصى بأن يدفن .

لهذا أسرعوا في المسير ، ووصلت القافلة كلها في اللحظة التي وضع فيها الآخرون المحفة على الأرض ، وأقبل أربعة منهم يحفرون القبر بخوازيق حادة عند أصل صخرة صيخودة .

ورحب كلا الفريقين بالآخر . وبعد تبادل التحيات أنشأ دون كيخوته ومن معه يتأملون المحفة وقد رقد عليها جثمان في زي راعٍ ، وعليه أزهار غطته كله ، وهو يبدو في سن الثلاثين . ورغم الموت بدا عليه أنه كان إبان الحياة ذا قوام ممشوق ووجه وسيم . ومن حوله وعلى المحفة وضعت بعض الكتب وأوراق عديدة مفتوحة أو مطوية . واعتصم الجميع بالصمت : أولئك الذين كانوا يتأملون ، والذين كانوا يحفرون وسائر الحاضرين . وأخيراً قال أحد الذين حملوه لصاحبه :

ـ انظر يا أمبروزيو ماإذا كان هذا هو الموضع الذي أشار به خروسستمو ، مادمت تريد أن تنفذ ماأمر به في وصيته بحذافيره .

فأجاب أمبروزيو : نعم هناك ، لأن صديقي المسكين طالما قص عليّ هناك قصته الحزينة . فهناك . كما قال لي ، أبصر للمرة الأولى هذه العدوة اللدود للجنس البشري ، وهناك صرّح لها للمرة الأولى بحبه العفيف بقدر ماهو عفيف ، حتى اضطرته أن ينهي مأساة

حياته البائسة هذه النهاية المروعة ، وهناك أراد أن يوضع في حضن نسيان دائم ، تذكاراً لهذه الأحزان كلها .

ثم اتجه صوب دون كيخوته والمسافرين واستمر يقول :

أيها السادة! هذا الجثمان الذي تنظرون اليه بعيون حانية كان مستودعاً لروحٍ أودعت فيها السماء شطراً عظيماً من أثمن مواهبها . هذا جثمان خروسستمو : نسيج وحده في الذكاء والأدب ، بعيد المدى في اللطف والنبل ، منقطع النظير في الصداقة ، جواد جم الإفضال بغير حساب ، جاد في غير كلفة ، طلق المحيا في غير تفاهة ولا خساسة ، ، وبالجملة هو الأول في كل مايسمى باسم الخير ، وليس له ثان في كل ما يسمى باسم الشقاء . كان محباً وكان مكروهاً ، وكان يعبد وكان يلاقى بالازدراء . لقد شاء أن يروض دابة متوحشة وأن يستنضّ الحنان من مرمر صلب ، وأن يسبق وفد الريح ، وأن يسمع في الصحراء ، وقد خدم نكران الجميل ، وماكان جزاؤه إلا أن يكون فريسة للموت وهو في منتصف طريق الحياة التي قضت عليها راعية أراد أن يجعلها تحيا أبداً في ذكرى الناس . ولو احتاج الأمر الى دليل فهذه أوراق تشهد بصدق ماأقول ، لولا أنه أمرني أن أسلمها للنار بمجرد أن أسلم جثمانه للتراب .

فقال ڤيڤلدو : لكنك بهذا يا سيدي تعاملها معاملة أسوأ وأقسى من صاحبها نفسه . وليس من العدل ولا مما يقتضيه العقل أن تنفذ حرفياً إرادة من يأمر بأشياء خارجة عن كل عقل . وماذا كان سيفعل أوغسطس لوأنه وافق على تنفيذ ماأمر به شاعر منتوا[1] الإلهي في وصيته ؟ وإذن ياسيد أمبروزيو ، يكفيك أن تسلم جثمان صديقك الى التراب ، ولكن لا تسلم أعماله الى النسيان . وما أمر به وهو محنق لإهانته ، لا تنفذه كأنك أداة عمياء . بل بالعكس ، بردّك الحياة الى مؤلفاته ، تردها أيضاً الى قسوة مرثيلا حتى تكون في المستقبل عظة للناس ، فيتجنبوا الوقوع في هوى كهذه . ونحن نعلم جميعاً ، نحن المحيطين بك الآن ، قصة غراميات صاحبك ويأسه ، ونعلم مدى إعزازك له ، وسبب موته وماأوصى به وهو ينهي حياته ، ومن هذه القصة الأليمة نستطيع أن نستنتج كم كان عظيماً حب خروسستمو وقسوة مرثيلا وإيمان صداقتك ، وما هي النهاية المحتومة التي تنتظر أولئك الذين يسحرهم الحب فيندفعون بغير وازع في طريق الضلال والهلاك . ومساء أمس حينما سمعنا بموت خروسستمو علمنا أن دفنه لابد أن يتم في هذا المكان فقررنا بدافع الرحمة وحب

(١) شاعر منتوا هو فرجيليوس (فرجيل) . ومن المعلوم أن فرجيليوس أوصى ، وهو على فراش الموت ، بإحراق أثره الخالد «الاينياذة» بحجة أنه لم يفرغ من تنقيحها ، بيد أن وصيه وصديقيه توكا وفاريو لم ينفذا وصيته ، وأيدهما القيصر أوغسطس في هذا .

الاستطلاع أن ندع خط سيرنا المستقيم لنشاهد بأعيننا ماأثر فينا أشد التأثير مجرد سماعه . وجزاءً وفاقاًلهذه الرحمة وللرغبة التي تحدونا الى علاج هذه المأساة ماأمكننا ، فإننا نرجوك ، يا أمبرواز الكيّس ، أو أنا على الأقل أرجوك أن تعدل عن إحراق هذه الأوراق وتعطيني بعضاً منها .

ودون أن ينتظر جواب الراعي ، مد ڤيڤلدو يده وأخذ بضع أوراق كانت أقرب إليه . فلما رآه أمبروزيو يفعل هكذا ، قال :

ـ يحملني الأدب على الرضا ، ياسيدي ، بأن تحتفظ بما أخذت . لكن رجاءك أن أعدل عن إلقاء الباقي في النار ، رجاء في غير مطمع .

وكان ڤيڤلدو متحرقاً الى استطلاع أمر هذه الأوراق ، فأسرع بفتح واحدة منها وقرأ عنوانها فوجده : «نشيد اليأس» . فلما سمعه أمبروزيو قال :

ـ هذه هي الورقة الأخيرة التي خطتها براعة الفقيد التعس . وحتى ترى ياسيدي فداحة مصابه ، اقرأها بصوت مسموع ، وفي الوقت متسع حتى نفرغ من حفر قبره .

فقال ڤيڤلدو : سأفعل ما أمرت ، عن طيب خاطر .

ولما كانت هذه أيضاً رغبة المحيطين به فقد تحلقوا حوله ، وراح يقرأ بصوت رنان :

الفصل الرابع عشر

في أشعار الراعي الفقيد اليائسة، وحوادث أخرى مفاجئة

نشيد خروسستمو

أردتِ لظُلْمك يا قاسية
ذيوعاً يُردد للغاشية
سأجعل وحيي من الهاوية
ليملأ صدري لظىً حامية
ويصبح صوتي صدى الداهيه
يمزق قلبي وأحشائيه
يقاسي فِعالك ياجانيه

* * *

أعيري إذن أذنا واعيه
لنقمة نفس بها راضية
من العمق تصدر كاللاغية
وإن أسخطتك ، فما شانيه!

أين زئير الأسد وعواء الذئب الضاري
وفحيح الأفعى الرهيبة وصراخ الوحش
ونعيب الغراب نذير الشوم وضوضاء الريح
وهي تهز الأمواج ، وخوار الثور المغلوب

ونواح اليمامة المترملة ونعيب البوم المشئوم
وعويل زبانية الجحيم ـ لتصحب شكاة نفسي
وتؤلف نغماً يهز المشاعر كلها ، لأن العذاب
الذي يمزّقني في حاجة الى آلات جديدة ليُروى
« لا رمال أبينا التاجه ولا زيتون
بيتيس الشهير بسامعة أصداء هذه الضوضاء العجيبة
بل على ذروة الصخر وفي أعماق الهاوية
وبلسان ميت وكلمات حية
ستنتشر آلامي القاتلة
أو في الأودية المظلمة وعلى الشطئان القاحلة
أو الأماكن التي لم يبلغها قط ضوء الشمس
أو بين الهوام السامة التي تتغذى بطمى النيل .
وبينما تتردد في القفار الموحشة أصداء خرساء
لشرها وقسوتها العديمة النظير ،
ميزني القدر البائس فجعلها تذيع في أنحاء المعمورة
« الاحتقار يقتل ، والاتهام الزائف أو الصادق
يقضي على الصبر ، والغيرة تقتل بقسوة أشد
والفراق الطويل يعكر صفو الحياة
والفزع من النسيان لا يقاومه رجاء في حظ أسعد :
ففي كل هذا يتبدى الموت لا مفر منه
لكني أنا ــ وتلك أعجوبة الأعاجيب ـ أحيا
غيران ، غائباً ، مزدري ، واثقاً من الشكوك التي تقتلني
وفي النسيان الذي يتقد فيه نار وجده وبين ألوان العذاب
لا يبلغ نظري ظل الرجاء ، ومن فرط يأسي لا أهفو إليها
بل على العكس : لأظل غارقاً في شكاتي
أقسمت بهجرها أبداً
« هل من سبيل لرجاء وخوفٍ معاً ؟
وهل هذا من الخير ، بينما أسباب الخوف أبرز وأشد يقينا ؟

وهل لو تبدت الغيرة يجب عليّ إغماض عيني
بينما لا أملك إلا أن أراها
من خلال آلاف الجروح النافذة في أعماق روحي ؟
ومن ذا الذي لا يفتح الأبواب واسعة أمام سوء الظن والخوف
حينما يُرى عدم الاكتراث ماثلاً ، وظنونه استحالت حقائق ملموسة
يدركها بيقين مرير ، والحقيقة المجردة مقنعة بنقاب الأكاذيب ؟
إيه أيتها الغيرة ، أي طاغية مملكة الحب
هلمي قيدي هاتين اليدين بالأغلال الحديدية!
وأنت أيها الاحتقار ، هات حبل العذاب!
لكن الألم ، واحسرتاه ، يخنق ذكراك بانتصار غليظ .
« وأخيراً أموت ، ولا رجاء لي في التوفيق ،
إن في الحياة أو الممات ، وسأظل ثابتاً على رأيي
سأقول إن دواعي الحب حميدة ، وإن أكثر النفوس حرية
أشدها لسلطان الحب عبودية
وسأقول إن من كانت دائماً عدوتي روحها جميلة جمال جسمها
وعدم اكتراثها ناشيء عن خطأي ، والحب
يحافظ على السلام في دولته بالآلام التي يصيبنا بها
وهذه الفكرة وأحبولة قاسية كلتاها تسرع بالخاتمة المحتومة
التي يقتادني إليها احتقارك ، لهذا أقدم للرياح جسمي وروحي
دون إكليل غار أو سعف للأمجاد المقبلة
« وأنت يامن تظهرين بأفعالك التي لا مبرر لها
ما يحملني على أن أسلك نفس المسلك مع الحياة التعبة التي أبغضها ،
مادام الجرح العميق في قلبي يقدم إليك براهين ساطعة
على السرور الذي يشعر به وهو يستقبل ضربات ظلمك
إذا شاء الحظ السعيد أن تعترفي بأني جدير أن يعكّر موتي
صفو سماء عينيك ، فلا تفعلي من هذا شيئاً
بالعكس ، ليكن ضحكك في الساعة الأليمة دليلاً
على أن نهايتي عيد عندك . لكن من السذاجة أن أقدم إليك

هذه النصيحة ، وأنا أعلم أنك تفخرين بأن تبلغ حياتي
نهايتها بهذه السرعة .
«ليأت إذن ، مادام الوقت أزف ، طنطالس بعطش
وسيسفوس بثقل صخرته الهائل ، ليأت بروميثيوس
بحدأته ، ولا يقفن أكسيون عجلته ، ولا الأخوات
عملهن الدائم . لينقلوا جميعاً الى قلبي
عذابهم القاتل ، وليرتلوا بصوت خفيض مراثي حزينة
(إن كان يجب لمثله شيء منها) لهذا البدن الذي سيحرم
من كفنٍ ، وليجاوبهم حارس النار ذو الثلاثة رؤوس
وأشباح ومردة آخرون لا يحصون بألحان أليمة ؛
إذ يخيل الى أنه ليس ثمة احتفال أوفق من هذا
في جنازة رجل مات شهيد الغرام
«أي نشيد اليأس! لا تنفجر نوحاً وأنت تغادر
صحبتي الحزينة . بل حذار ، حتى في القبر ، أن تظهر حزنك
لأن السبب في تأليفك يزيد سعادته بشقائي» .

والذين استمعوا الى إنشاد هذا الشعر وجدوه رائعاً . بيد أن ڤيڤلدو لاحظ أنه لا يتفق مع ماروا‌ه الناس من تواضع مرثيلا وفضائلها . وذلك أن خروسستمو شكا الغيرة وسوء الظن والسهو ، وهذه أمور تضع من قدر صاحبته وشهرتها الناصعة . لكن أمبرزيو ، وهو الذي سبر أغوار أفكار صاحبه ، أجابه في الحال :

ـ اعلم يا سيدي ، حتى يتضح لك هذا الشك ، أنه في الوقت الذي كتب فيه هذا البائس ذلك الشعر الذي قرأته لنا ، كان بعيداً عن مرثيلا ، إذ هجرها قصداً حتى يجرب عسى أن يؤثر فيه البعد والفراق أثرهما المعتاد . ولما كان العاشق النائي لا يدعه شك إلا طارده ولا خوف إلا حاصره ، فكذلك خروسستمو : احتمل عذاباً حقيقياً من غيره موهومة . وهكذا تظل شهرة فضيلة مرثيلا سليمة من كل أذى ، ولن يستطيع الجسد ، رغم اتصافها بالقسوة والصلف والاستكبار ، أن يأخذ عليها أو يكتشف فيها أدنى شائبة .

ـ هذا حق ، بهذا أجاب ڤيڤلدو .

ولما أراد قراءة صفحة أخرى من بين الأوراق التي أنقذها من النار ، منعه من ذلك منظر

عجيب تبدى لناظريه فجأة ، أو هكذا خيل إليه . فعلى الصخرة التي حفر قبر خروسستمو أسفلها تبدت الراعية مرثيلا جميلة جمالاً يفوق شهرتها . والذين لم يكونوا قد أبصروها بعد تطلعوا إليها في صمت الإعجاب ، وأولئك الذين اعتادوا رؤيتها لم يكونوا أقل دهشة . ولم يكد أمبروزيو يبصرها حتى صاح بنفس مغيظة :

ـ هل أتيت صدفة ، أيتها الباسليق[1] الشاردة في هذه الجبال؟ ،لترى ماإذا كان حضورك سيسيل الدماء من جراح البائس الذي حرمته قسوتك من الحياة ؟ هل أتيت لتغتبطي وتفخري بما اجترحه مزاجك الغريب من مظالم ؟ أو لترى من علياء هذه الرابية وكأنك نيرون قاسٍ آخر ، حريق عاصمته روما ، أو لتركلي بقدميك هذه الجيفة البائسة ، كما ركلت ابنة طرقوينيوس العاقة جثة أبيها ؟ أنبئينا سريعاً ماذا أتى بك وما تريدين منا ، لأنك تعلمين أن إرادة خروسستمو كانت دائماً طوع أمرك إبان حياته ، لهذا سأعمل بعد مماته بحيث تكون إرادات من يسمون أصدقاءه مطواعة درج يديك .

فأجابت مرثيلا :

ـ لم آت ، يا أمبروزيو ، لشيء مما ذكرت . بل أتيت لأدافع عن نفسي ولأبين خطأ أولئك الذين يتهمونني بآلامهم وبموت خروسستمو . لذا أتوسل إليكم جميعاً معشر الحاضرين أن تعيروني أسماعكم . والحقيقة لا تحتاج في إثباتها للأذكياء إلى وقت طويل أو كلام كثير .

« تقولون إن السماء خلقتني جميلة جمالاً يحملكم على حبي ولا تملكون له دفعاً . وفي مقابل حبكم لي تقولون وتزعمون أني ملزمة بأن أبادلكم حباً بحب . وإني لأعترف حقاً ، بما أودع الله في من عقل طبيعي ، أن كل جميل محبوب . لكنني لاأفهم أن يكون المحبوب لأنه جميل ملزماً ، بسبب أنه محبوب ، أن يحب من يحبه ، خصوصاً وقد يقع أن يكون من أحب الجميل امرءاً قبيحاً . ولما كان القبيح خليقاً بالكراهية ، فليس من حقه أن يقول : إني أحبك لأنك جميلة ، إذن يجب عليك أن تحبيني وإن كنت دميماً . لكن لنفترض أن الجمال متساوٍ لدى الطرفين : بيد أن هذا ليس سبباً يوجب أن تكون الرغبات متساوية ، إذ لا ينشأ الحب من كل جمال أياً كان : فمن الجمال مايلذ الأعين دون أن تنقاد له الإرادة . ولو كان كل جمال يؤثر ويستحوذ على القلوب لاختلطت الإرادات في العالم وتصادمت دون أن تعلم ما تأخذ وما تدع ، إذ لما كانت الأشخاص الجميلة لا متناهية ،

---

(١) حية ورد ذكرها في الأساطير يقال إنها تقتل بنظرتها . ومن أسمائها العربية الملكة والمكللة والأصلة والناظر .

فستكون الرغبات أيضاً لامتناهية . والحب الصادق ، كما سمعت ، لايتجزأ : وهو بالرضا ، لا بالقهر . فإن كان الأمر هكذا ، فيما أعتقد ، فلماذا تريد أن يستسلم قلبي للقهر ، لا لشيء إلا لأنك تقول إنك تحبيني ؟ لكن أنبئني : لو أن السماء خلقتني دميمة لا جميلة ، هل يكون من العدل أن أشكو منك إذا لم تحبني ؟ كذلك يجب عليك أن تلحظ أن جمالي لا يدلي في اختياره ، بل وهبتني السماء إياه بفضل منها دون رجاء مني ولا اختيار . وكما أن الحية لا تستحق أن تلام على السم الذي تحمله في فيها ، وإن كان يقتل ، لأن الطبيعة هي التي زودتها به ، كذلك أنا لا أستحق الملامة لأني خُلقت جميلة فالجمال في المرأة الشريفة كالنار البعيدة ، وكالسيف غير المتحرك : لا الأولى تحرق ، ولا الثاني يجرح من لا يقترب منهما . والشرف والفضيلة زينة النفس ، بغيرها يمكن ، لكن لا يجب ، أن يبدو الجسم جميلاً . فإذا كان الشرف من المزايا التي تزين النفس والجسم ، فلماذا يجب على المرأة التي تعشق لمفاتنها أن تفقد الشرف لتستجيب لرغبات الرجل الذي يحاول ، ابتغاء اللذة وحدها ، أن يسلبها إياه بكل الوسائل ؟ لقد ولدت حرة ، ولكي أستطيع أن أحيا حرة اخترت وحدة البراري : فأشجار هذه الجبال صحابتي الأدنون ، والمياه الصافية في هذه الجداول هي مراياي ، وإلى الأشجار والجداول أفضي بخواطري وجمالي . أنا نار بعيدة ، وسيف ليس في متناول أحد . وأولئك الذين جعلهم منظري عشاقاً ، بددت أوهامهم بكلماتي ، وإذا كانت الرغبات لا تتغذى الا بالأمل ، وأنا لم أبث الأمل أبداً في نفس خروسستمو أو نفس غيره ، لهذا يمكن أن يقال إن عناده لا قساوتي هو الذي سبب موته . ولو اعترض أحد وقال إن رغباته كانت شريفة ، ولهذا كان يجب عليّ أن ألبّيها ، فإني أجيب قائلة إنه حين كشف لي ، في هذا الموضع الذي تحفرون عنده اليوم قبره ، عن شرف نواياه ، قلت له إن نيّتي أنا أن أعيش في وحدة دائمة وأن تكون الأرض وحدها هي التي تملك رفات جمالي سليماً ، وإنه لو أراد ، رغم هذه النصيحة التي يجب أن تبدد أوهامه ، أن يصر على تحدي اليأس والإبحار ضد الريح ، فهل من عجب أن يغرق في لجة خليج الحماقة ؟ لو كنت خدعته ، لكنت كذبت نفسي ، ولو أرضيته لخُنت قراري ونقضت عزمي . لكنه أصر ، رغم تبديد وهمه ، واستيأس دون أن يكون مكروهاً . فانظر الآن هل من العدل أن أتهم بتعذيبه ؟ لوكنت خدعته ، فليشكني ، ولو كنت أخلفت وعداً ، لكان عليه أن ييأس ، ولو كنت دعوته ، لكان له أن يثق ، ولوكنت تلقيته بالقبول ، لكان له أن يزهو ، لكن هل يحق له أن يدعوني قاسية وقاتلة وأنا لم أخدعه ولم أدعه ولم أختره ؟ إن السماءلم تشأ حتى الآن أن أحب قضاء وقدراً ، ومن الخطأ اعتقاد أني سأحب طوعاً واختياراً . وليكن هذا إنذاراً عاماً

لكل أولئك الذين يسعون للظفر بحبي تحقيقاً لأهوائهم ، وليعلموا منذ الآن أنه إذا مات أحد من أجلي ، فلن يكون موته بسبب الغيرة أو الاحتقار ، لأن من لا تحب أحداً لا يمكن أن تثير الغيرة في أحد ، وتبديد الأوهام في أذهان الناس ليس معناه احتقارهم . إن من يدعني باسليقاً ووحشاً ، ليبتعد عني كشيء كريه خطر ، ومن يسمني جاحدة ، فلا يخدمني ، أو غريبة شاذة ، فلا يحاول أبداً أن يتعرف الي ، أو قاسية ، فليكف عن ملاحقتي . فهذه الباسليق ، وهذا الوحش ، وهذه الجاحدة ، القاسية ، الغريبة الشاذة ، لا تريد أن تعرف هؤلاء ولاأن تتبعهم أو تخدمهم بأية حال . وإذا كان الجزع وشدة الشهوة قد أفضيا بخروسستمو الى الهلاك ، فهل الذنب في هذا ذنب شرف سلوكي واحتياطي ؟ وإذا كنت أحافظ على فضيلتي بين هذه الأشجار في البراري الموحشة ، فلماذا يريد مني أن أفقدها ، ذلك الذي يريد مني الاحتفاظ بها بين الناس ؟ عندي كما تعلمون مال ، ولا أطمع في مال الآخرين ؛ ومركزي يجعلني حرة ، ولا أود أن أصبح عبدة . أنا لا أحب ولا أكره أحداً ، ولا يستطيع أحد أن يقول إني أخدع هذا أو أتملق ذاك ، أو إني أسخر من الواحد وألاطف الآخر . ويكفي لإرضاء لذاتي صحبة شريفة للراعيات في هذه القرى وعنايتي بعنزاتي . إن هذه الجبال تؤلف وحدها ملكوت آمالي ، وإذا تجاوزتها فلكي تتأمل جمال السماء تحدوها الروح في هذا المقام الأول والأخير » .

وما أتمت هذه الكلمات حتى عادت « الراعية » أدراجها دون أن تنتظر جواباً واختفت في أعماق غابة تغطي الجبل مخلفة في جميع سامعيها إعجاباً بذكائها وجمالها معاً . وبدا على بعض من رمتهم بسهام أشعة عينيها الجميلتين أنهم يرغبون في اقتفاء إثرها ، دون أن يحفلوا بما أنذرت أضرابهم به . لكن لم يكد دون كيخوته يتوجس نيتهم هذه حتى بدت له الفرصة سانحة لإبراز فروسيته ، بأن يهبّ لنجدة الأوانس اللواتي يستصرخن . فأمسك مقبض مهنده بيمينه وصاح بصوت جهوري مفهوم :

ـ لا يفكرنّ أحد ، مهما يكن شأنه ، في ملاحقة مرثيلا الجميلة ، حتى لا يثير ثائرتي ويلحقه غضبي ، لقد أثبتت ، ببراهين ناصعة قاصعة ، أنها بريئة تقريباً أو تماماً من موت خروسستمو ، وبينت كيف أنها بعيدة عن النزول عند أماني عشاقها . فبدلاً من ملاحقتها ومطاردتها ، من العدل احترامها وتقديرها من جانب النفوس الشريفة التي تعمر هذا العالم ، إذ هي من غير شك المرأة الوحيدة التي تقضي حياتها بنية طيبة .

وسواء أكان لتهديد دون كيخوته أثره ، أم أنهم استجابوا لدعوة أمبروزيو إياهم أن يؤدوا واجبهم كاملاً نحو صديقه ، لم يخط واحد من الرعاة خطوة حتى كان القبر قد حفر

وأحرقت أوراق خروسستمو ووسدوا جثمانه في التراب : وتم هذا كله والدموع تنهمر من عيون جميع الحاضرين . وغطى القبر بصخرة عاتية انتظار الفراغ من نحت شاهد قال أمبروزيو إنه يريد أن ينقش عليه هذه الأبيات :

هنا عاشق راقد في الثرى   رعى المَعْزَ حتى رماه الهوى
فأصمى ، لقسوة معشوقة   بها الحب سيطر ثم استوى

ثم نثروا على القبر آلاف الأزهار والرياحين والأغصان ، وودع الرعاة جميعاً صديقهم أمبروزيو بعد أن واسوه في هذه الفاجعة . وفعل ڤيڤلدو ورفيقه مثلما فعلوا ، واستأذن دون كيخوته من ضيوفه والمسافرين اللذين دعواه للسفر معهما الى إشبيلية حيث تكثر المغامرات ، كما قالا ، إذ يوجد في كل زاوية من كل درب أكثر مما في سائر الدنيا . فشكر لهما دون كيخوته نصيحتهما وفضلهما واستعدادهما لإسداء الخدمة إليه ، قبل أن يطهر جميع هذه الجبال من قطاع الطريق الذين يقال إنهم يملأونها .

فلما رأى منه المسافران هذا العزم الوطيد لم يشاءا أن يزيداه إلحاحاً ، بل ودعاه ثم تابعا المسير ولديهما من الحديث زاد لا ينفذ ، الحديث عن قصة مرثيلا وخروسستمو ، وعن جنون دون كيخوته . أما هذا فقد قرر أن يمضي سعياً وراء الراعية مرثيلا وأن يعرض عليها خدماته . لكن الأمور لم تسر على ما تخيل ، كما سيرى القارئ فيما يتلو من هذه القصة الحقيقية التي ينتهي قسمها الثاني هنا .

الفصل الخامس عشر

في المغامرة الأليمة التي غامرها دون كيخوته حينما لقي بعض الينجواسيّين الأشرار

روى الحكيم سيدي حامد بن الأيلي أن دون كيخوته لم يكد يودع ضيوفه والحاضرين دفن خروسستمو حتى دخل الغابة ، يتبعه حامل سلاحه ، حيث رأى الراعية مرثيلا تغيب عن الأنظار . وبعد أن جاس خلالها هنا وهناك خلال ساعتين باحثاً عنها في كل مكان دون أن يعثر عليها ، وصل وصاحبه الى مرج مغطى بالعشب النضير ، في خلاله ينساب جدول عذب رقيق . فأغراهما جمال المكان على قضاء ساعة القيلولة هناك ، لأن وهج القيظ في الظهيرة بدأ ينتشر وبعنف . فترجّلا وتركا روثينانته والحمار يرعيان على هواهما العشب الغزير في المرج النضير ، ثم هجما على الخرج ، ودون تكليف ، وفي هدوء وطيب صحبة أخذ المولى وخادمه في أكل ماوجداه .

ولم يحفل سنشو بوضع الشّكال في روثينانته ، لأنه عرفه فرساً هادئاً طيباً قليل الميل إلى الخطيئة الجنسية ، فلو قدمت إليه كل أفراس مراعي قرطبة لما أثرن في نفسه إغراء . لكن شاء الحظ ، والشيطان أيضاًوهو لا ينام باستمرار ،أنه كانت ترعى في هذا الوادي ساعتئذ رعلة من الأفراس الإناث الجليقيات يسرح بهن بغالون ينجواسيون[1] كان من عاداتهم القيلولة مع دوابهم في الأماكن التي يوجد فيها العشب والماء ، فكان الموضع الذي تلبث فيه دون كيخوته مناسباً لهم كل المناسبة . هنالك أحس روثينانته فجأة بالرغبة في مغازلة الأفراس السيدات ، فلم يكد يستروح وجودهم حتى خرج عن سيره المعتاد ومألوفه وراح يخب بدل دون أن يستأذن أصحابه ابتغاء أن يبلغ منهن مايريد . لكن الأفراس الإناث كن في حاجة الى الرعي أكثر من أي شيء آخر ، فاستقبلنه بالرفس والعض حتى مزقن أحزمة

---

(١)جليقية : مقاطعة في شمال غرب أسبانيا تحد غرباً وشمالاً بالمحيط الأطلسي ، وجنوباً بالبرتغال ، وشرقاًبمقاطعة قشتالة القديمة (سموره وليون واشتوريا) عاصمتها شنت يعقوب ، ومساحتها ٢,٩٣٧,٨٧٠ هكتار . ـ ينجواس : قرية في مقاطعة شقوبية .

السرج وتركنه عارياً فوق العشب . ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل كان ماهو أدهى : فإن البغّالين وقد رأوا روثينانته يريد أن يهاجم أفراسهم ، أسرعوا بهراويهم وانهالواعليه ضرباً حتى تركوه مرضوض العظام فوق الجدالة .

وفي تلك الأثناء شاهد دون كيخوته وسنشو ماحل بروثينانته فأسرعا إليه يلهثان ، وقال دون كيخوته لحامل سلاحه :

ـ يخيّل إلي ، يا صاحبي سنشو ، أن هؤلاء القوم ليسوا فرساناً ، بل رعاعاً سفلة أخساء . لهذا تستطيع ، وأنت مطمئن الضمير ، أن تساعدني على الانتقام العادل للإهانة التي ألحقوها بروثينانته أمام أعيننا .

فأجاب سنشو : أي إنتقام تريد منا أن نقوم به ، وهم أكثر من عشرين ، ونحن اثنان فحسب ، أو بالأحرى واحد ونصف ؟

فرد عليه دون كيخوته قائلاً : أنا بمائة!

ودون أن يطيل الكلام ، أمسك بسيفه وانقض على الينجواسيين . وفعل سنشو مثلما فعل مقتدياً بمولاه .

وفي الهجمة الأولى ضرب دون كيخوته أحد البغّالين بسيفه ضربة شقت صدريته الجلدية وقطعة كبيرة من الكتف . ولما كان الينجواسيون عديدين وقد شاهدوا مهاجميهم اثنين فقط لجأوا إلى هراويهم فحاصروا كليهما في داخلهم وأهووا عليهما بعصيّهم فوق بطونهم بهمة هائلة . وفي الجولة الثانية جندلوا سنشو على التراب ، ولم يكن دون كيخوته أسعد حظاً من صاحبه ، ورغم شجاعته ومهارته ، وشاء الحظ أن يسقط عند أقدام روثينانته الذي لم يكن قد نهض من كبوته بعد . فكان منظراً يدل أوضح دلالة على الدور الذي يمكن أن تؤديه الهراوة في أيد غاضبة خشنة . ولما شاهد الينجواسيون آثار فعلتهم السيئة أسرعوا وحمّلوا دوابهم وارتحلوا عجلين ، تاركين المغامرين الاثنين في أسوأ حالٍ .

وكان أول من أفاق منهما سنشو ، فوجد نفسه الى جوار مولاه فقال له بصوت شاك حزين :

ـ مولاي دون كيخوته! أواه ، مولاي دون كيخوته!

فأجابه دون كيخوته بلهجة شاكية حزينة مثل لهجة سنشو : ماذا تريد يا أخي سنشو ؟

فأجاب سنشو بنثا : أود ، إن أمكن ، أن تتفضل عليّ بجرعة من شراب « الشرير بلاس »[1] إن كان معك منه ، فلعله مفيد في علاج الكسر في العظام كما هو ناجع في علاج الجراح .

---

(١) هنا تلاعب لفظي ، ورد في النص feo blas (= الشرير بلاس) ، وكان الصواب أن يقول : fiernbras (= فيرابراس) ، ولكن سنشو الجاهل لم يحسن النطق به!

فأجاب دون كيخوته : آه لو كان معي ها هنا! نحن في أمس الحاجة إليه! لكنني أقسم لك يا سنشو بنثا ، بشرف الفروسية الجوالة ، أنه لن يمضي يومان ـ اللهم إلا إذا قرر القدر أمراً آخر ـ قبل أن أحصل على هذا البلسم في يدي ، وإلا شلت يداي!

فقال سنشو : يومان! إذن ماذا يظن مولاي بكم يوم نستعيد استعمال أقدامنا ؟

فأجاب الفارس المحطم دون كيخوته : أما عن نفسي ، فلا أدري كم من الأيام يستغرق هذا الأمر! لكنني أعلم أن الذنب في هذه المصيبة ذنبي أنا وحدي : إذ يجب علي ألا أشهر سيفي في وجه ناس لم يُسلَّحوا فرساناً . وقد سمح إله المعارك بأن أجازى هذا الجزاء القاسي لأني خالفت قوانين الفروسية . ولهذا ، يا سنشو بنثا ، يحسن بي أن أنبهك إلى أمر يهمنا جميعاً : وهو أنك إذا رأيت أمثال هؤلاء الرعاع يهينوننا ، فلا تنتظر حتى أشهر سيفي لعقابهم ، فهذا أمر لن أفعله عوض . ، بل أمسك أنت بالسيف وعاقبهم كما يحلو لك ، فإن هب لنجدتهم والدفاع عنهم فرسان ، هنالك أعرف كيف أدافع عنك وأطردهم شر طردة ، لأنك قد رأيت من قبل ، بآلاف من التجارب والشواهد ، إلى أي مدى تمتد قوة وشجاعة هذا الساعد الذي لا يقهر .

ذلك أن هذا النبيل المسكين قد احتفظ بكثير من الكبرياء والمباهاة منذ انتصاره على البشكوني الشجاع! لكن سنشو لم يستصوب رأي مولاه ، حتى إنه لم يستطع إلا أن يجيبه على هذا النحو :

ـ مولاي ! أنا رجل مسالم هادئ رقيق ، وأستطيع احتمال كل أنواع الإهانات ، لأن لدي امرأة وأولاداً علي إطعامهم وتربيتهم . ولهذا ليتلق مولاي مني هذه النصيحة ، ولا أقول الأمر ، وهي أني لن أمسك بالسيف أبداً ، لا في وجه أحد الرعاع ولا أحد الفرسان ، وأني من الآن حتى يوم الحساب سأغتفر جميع الإهانات التي لحقتني أو ستلحق بي في المستقبل ، سواء أتت أو تأتي أو يجب أن تأتي من أشخاص علية أو سفلة ، أغنياء أو فقراء ، نبلاء أو نغلة ، دون استثناء أية طبقة أو جنس .

فما سمع سيده قوله حتى أجاب :

ـ وددت لو كان نَفَسي يسمح لي بالكلام بهدوء ، ووددت أن يهدأ قليلاً الألم الذي أشعر به من هذا الضلع المكسور ، حتى أجعلك تفهم ، يا بنثا ، كم أنت مخطئ فيما تقول . أيها الخاطئ الذي لا يرجع عن غيه! لو أن رياح الحظ ـ وهي معاكسة حتى الآن ـ استدارت وواتت وملأت أشرعة أمانينا حتى نلقى مراسينا دون عواصف في مرفأ واحدة من الجزر التي وعدتك بها ، ماذا يحدث لك لو أردت أن أوليك حاكماً عليها بعد أن أغزوها ؟ ستحول بيني

وبين ذلك ، لأنك لن تكون فارساً ولا تريد أن تكونه ، وليست لديك شجاعة ولا كرامة لتنتقم من الإهانات وتدافع عن ولايتك : إذ يجب أن تعرف أن نفوس السكان الأصليين ، في المقاطعات أو الممالك التي تفتتح حديثاً ، ليست من الهدوء والطاعة للسيد الجديد بحيث لا يخشى المرء تألبهم عليه والمغامرة بأمر الحكم . لهذا يجب على المالك الجديد أن يكون له رجاحة عقل ليحسن سياسة الأمور ، وشجاعة ليتخذ في كل حال أهبته للهجوم أو الدفاع .

فأجاب سنشو : في الحالة الأخيرة التي وقعت لنا كنت أود أن يكون لدى ذلك العقل وتلك الشجاعة اللذان تتحدث عنهما . لكني أقسم لك قسم رجل فقير أني في هذه الساعة أحوج إلى المراهم مني إلى المواعظ . فليحاول مولاي أن ينهض ، ولنساعد بعد هذا روثينانته على النهوض وإن كان لا يستحقه لأنه هو السبب الأصلي في هذا المطر المنهمر من الضربات . وأنا لم أعتقد أبداً أن روثينانته يفعل شيئاً كهذا ، لأني كنت أظنه عفيفاً مسالماً مثلي أنا . وعلى كل حال فقد صدق من قال : لا بد من الزمن لمعرفة الناس على حقيقتهم ، ولا شيء مؤكد في هذه الدنيا . ومن كان يصدق أنه بعد الضربات القوية التي كالها مولاي بسيفه لهذا الشارد البائس ، ستأتي وراءها بسرعة تلك العاصفة الهائلة من ضربات الهراوي التي انقضت على أكتافنا ؟

فقال دون كيخوته : على أن أكتافك ياسنشو صنعت لمثل هذه الأمطار ، فما بالك بأكتافي أنا التي ربيت في لفائف من التيل الهولندي الرقيق! إنها ستتألم وتستشعر أوجاع هذه المغامرة البائسة زماناً أطول . ولولا أني أتخيل ، ماذا أقول! بل أوقن أن أمثال هذه المضايقات من لوازم مهنة السلاح الضرورية ، لكنت تركت نفسي أموت في هذا المكان حنقاً وعاراً .

فأجابه حامل السلاح :

ـ مولاي! مادامت هذه المحن من ثمار الفروسية ، فهل تستطيع أن تقول لي هل تأتي طوال العام ، أو في مواسم معلومات ، مثل المحاصيل ؟ إذ يلوح لي أننا إذا جنينا محصولين من هذا النوع ، فلن يكون في مقدورنا أبداً أن نجني المحصول الثالث ، اللهم إلا إذا أعاننا الله برحمته الواسعة .

فقال دون كيخوته :

ـ اعلم إذن ياصديقي سنشو أن حياة الفرسان الجوالة عُرضة لآلاف الأخطار والمصائب ، وأعلم أيضاً أنهم معرضون كذلك أن يصبحوا ملوكاً وأباطرة ، كما دلت التجربة عند كثير من الفرسان الذين أعرف تواريخهم بالدقة ، ولو سمحت لي أوجاعي لاستطعت الآن أن أقص

عليك طرفاً منها عن فرسان ارتفعوا بقوة سواعدهم إلى عروش الملك . وهؤلاء الفرسان أنفسهم قد بلوا النكبات وغرقوا في المصائب . فالشجاع أماديس الغالي وقع في قبضة عدوه اللدود ألا وهو الساحرأرخلاوس ، ومن المسلم به أن أرخلاوس بعد أن أخذ أماديس أسيراً ، ضربه أكثر من مائتي ضربة بالسوط ، أعني بسيور لجام فرسه بعد أن صلبه على عمود قائم في بهو قصره[1] . بل هناك مؤلّف سري ، ولكنه ثقة ، يروي أن فارس فيبوس ، لما أن أمسك به في مصيدة نشبت في رجليه بأحد القصور ، وقع في سرداب عميق وقدماه ويداه موثقتان ، وهنالك جرّعوه دواءً من ماء الثلج والرمل أشرف به على الهلاك .ولولا أن أنقذه حكيم صديق حميم له لقضي على هذا الفارس المسكين . كذلك أنا : لا ضير عليّ من معاناة أمثال هذه المحن التي مر بها هؤلاء الأشخاص النبلاء ، إذ قدّر عليهم أن يحتملوا من المهانات ماهو أشد نكالاً مما عانيناه منذ قليل . وأريد أن تعلم ، ياسنشو ، أن الجراح التي تحدثها الآلات التي توجد صدفة في اليد ، لا تُلحق بالمرء إهانة ، فهذا مكتوب صراحة في قانون المبارزة ، حيث ورد : « لو أن إسكافياً ضرب آخر بما في يده ، وإن كان ما في يده من خشب ، فلن يقال إن من أصابته الضربة قد نُسيئ بالعصا » . وإنّما قلت لك هذا حتّى لاتظن أننا وقد شبعنا ضرباً قد أصابتنا إهانة ، لأن الأسلحة التي كانت مع هؤلاء الناس وخنقونا بها ، لم تكن إلا أوتادهم ، ولاأذكر أبداً أن أحداً منهم كان يحمل سيفاً أو خنجراً أو نصلاً .

فأجاب سنشو : لم يتركوا لي من الوقت مايسمح بالتطلّع اليهم ، لأنّي لم أكد أمسك بسيفي[2] حتّى نغزوا كتفي بعصيّهم على نحوٍ جعلني لاأرى شيئاً ولا أقدر على المشي ، ثمّ جندلوني في هذا الموضع الذي لاأزال راقداً فيه . وما يؤلمني حقّاً ليس هو التفكير فيما إذا كانت ضربات الأوتاد جرت على إهانة أو لم تجر ، وإنّما هو الوجع الذي خلّفته هذه الضربات التي ستظل منقوشة في ذاكرتي كما هي في أكتافي .

فقال دون كيخوته : ورغم هذا فعليّ أن أذكّرك ، يا أخي پنثا ، أنه لاحقد إلا ويمحوه الزمان ، ولا وجع إلا ويشفيه الموت .

فأجاب پنثا : ماهذا ؟ أي شرّ أعظم من ذلك الذي ينتظر الزمان لمحوه والموت لشفائه! لو أن مصابنا اليوم كان مما يشفيه زوج من المراهم ، لهان الخطب ، لكني بدأت أعتقد أنّ جميع اللبخات الموجودة في مستشفى لا تكفي لمجرّد أن نستطيع النهوض على أقدامنا .

---

(١) وقع أماديس مرتين في قبضة أرخلاوس : في الأولى سحره ، وفي الثانية سجنه في سرداب وتركه فريسه للجوع والعطش . لكن ليس في القصة ما يدل على أنه ضربه بالسوط .

(٢) في النص : mi tizona « وتيثونا » هو في الأصل أحد سيفي السيد القمبيطور ، والآخر كان يسمّى colada .

فقال دون كيخوته : دع هذا ياسنشو ، واستخرج من الشدة قوة ، وسأفعل أنا كذلك ولننظر كيف حال روثينانته ، اذ يلوح لي أن هذا الحيوان المسكين قد أصابه من هذه المحنة شرٌ غير قليل .

فأجاب سنشو : ليس في هذا ما يدعو للدهشة ،لأنّه هو الآخر فارسٌ جوّال! بل الذي يدهشني هو أنّ حماري خرج منها سليماً معافى لم يُمَسّ له ضلع بينما خرجنا نحن بغير ضلوع!

فقال دون كيخوته : في الشدائد يترك البخت دائماً باباً مفتوحاً للخروج منها . أنا أقول هذا لأن هذه الدابة الطيبة يمكن أن تحل محل روثينانته فتحملني من هنا الى قصر من القصور تضمّد فيه جراحي . خصوصاً وأنا لاأرى هذه الركوبة مما يشين ، لأنّي أذكر مما قرأت أن ذلك العجوز الطيب سلينو ، الذي تولّى تربية إله السرور ، لذّ له أن يركب حماراً جميلاً داخل المدينة ذات الأبواب المائة[1] .

فأجاب سنشو : كان لابد راكباً كالخيّال كما يقول مولاي . لكن فارق كبير بين أن يغدو راكباً هكذا ، ساقاً هنا وساقاً في الناحية الأخرى ، وبين أن يحزم حزماً على الدابة كزكيبة الدقيق .

فردّ عليه دون كيخوته وعليه سيماء الجد : إن الجراح التي يتلقّاها المرء في المعارك تزيده شرفاً ولاتسلبه . فلا ترد على بعد هذا يا صديقي پنثا ، بل انهض مااستطعت كما قلت لك ، واركب حمارك على النحو الذي يحلو لك ، ولنرحل من هنا قبل أن يفاجئنا الليل في هذه القفار الموحشة .

فأجابه سنشو : لكنّي سمعت من مولاي مرّات كثيرة أنه كثيراً مايقع للفرسان الجوّالة أن يبيتوا في القفار يلتحفون السماء والنجوم ، بل يلذ لهم ذلك .

فقال دون كيخوته : هذا يحدث اذا لم يكن لهم مندوحة عنه ، أو إذا كانوا عشّاقاً . ولقد أصبت فيما قلت ، لأن من الفرسان من يلزمون صخرة ، معرضين للشمس والظل وتقلّبات الجو خلال سنتين كاملتين دون علم عشيقته . ومن هؤلاء أماديس حينما تسمّى باسم «نور الظلام» ، وأقام على «الصخرة الجرداء» ، وبقي هناك لاأدري كم من الزمان : ثماني سنين أو ثمانية أشهر ،لاأذكر العدد بالضبط ، لكن يكفي أن تعرف أنه قضى مدة

---

(١) لاحظ كلمنثين أن ثرڤانتس خلط هنا بين مدينة طيبة اليونانية ، وطن باخوس إله الخمر والسرور ، وبين طيبة المصرية التي كانت ذات مائة باب . والذي أوقعه في هذا الغلط هو خوّان دي مينا في كتابه «الثلثمائة أغنية» (أشبيلية سنة ١٤٩٦) ، وهو قصيدة رمزية خيالية تدور حول الحياة الانسانية ، مؤلفة من مثان عدتها ٢٩٧ يضاف اليها ثلاثة أخرى . وقد أتمه سنة ١٤٤٤ .

يستغفر فيها ذنبه بسبب سوء استقبال عاشقته أوريانة له . لكن لندع هذا ياسنشو ، ولنفرغ قبل أن تقع محنة للحمار كما وقع لروثينانته .

فقال سنشو : أي شيطان مريد إذن!

ثمّ زفر ثلاثين زفرة وستين آهة ، ولعن مائة وعشرين لعنة الحظ الذي أتى به الى هناك ، وأخيراً نهض واقفاً ، لكنه وقف قبل أن تستقيم قامته ، وبقي منحنياً كالقوس دون أن يقدر على الإعتدال . وكان عليه وهو في هذا الوضع الأليم أن يلحق بالحمار ويضع عليه البرذعة ، بعد أن انطلق شيئاً من الإنطلاق لما ظفر به من حرية في ذلك اليوم .

ثمّ أنهض روثينانته ، ولو كان لهذا الفرس لسان يشكو به لقاوم السيد والخادم معاً . وأخيراً هيأ مركباً لدون كيخوته على الحمار ، وربط روثينانته بمؤخرته ، واقتاد دابته بالرسن ، وسار في الطريق من الناحية التي ظنّ أنها تفضي الى الطريق الرئيسي . وبالفعل شاء القدر المواتي أن يبلغ الطريق العام بعد وقت قصير ، وأبصر فيه فندقاً كان بالرغم منه قصراً كما شاء دون كيخوته : كان من رأي سنشو أنه فندق ، ومن رأى دون كيخوته أنه قصر ، واحتدم النزاع طويلاً ، ولمّا ينته حينما بلغا باب هذا المنزل ، ودخل سنشو بكل قافلته دون مزيد من الاستفهام عن حقيقة أمره .

الفصل السادس عشر

فيما وقع للنبيل العبقري (دون كيخوته)
في الفندق الذي حسبه قصراً

رأى صاحب الفندق دون كيخوته مطروحاً على الحمار فسأل سنشو ماذا وقع لهذا الرجل . فأجاب سنشو أن الأمر هين : ذلك أنه انحدر من أعلى صخرة الى أسفل فحدثت في ضلوعه رضوض . وكان لصاحب الفندق زوجة ـ على عكس زوجات أصحاب هذه المهنة ـ تميل بطبعها الى إسداء الإحسان وتعطف على مصائب الجيران . لهذا هرعت لتضميد دون كيخوته واستعانت بهذا بابنة لها فتاة وضيئة الطلعة . ـ وكان في الفندق خادمة أشتورية[1] ، عريضة الوجه ، سطيحة القفا ، فطساء الأنف ، عوراء في عين ، غير سليمة العين الأخرى . ولكن حسن قوامها عوّض عن معايب وجهها : لم يزد طولها من قدميها حتى رأسها عن سبعة أشبار ، وكانت أكتافها ، التي أبهظت كاهلها وأحنت ظهرها شيئاً ما ، تحملها على أن تخفض عيونها الى الأرض أكثر مما كانت تود . ـ أقبلت هذه الخادمة الطيبة تساعد ابنة صاحب الفندق في تهيئة فراش خشن لدون كيخوته في غرفة حقيرة يبدو من ظواهر الحال أنها كانت تستعمل مخزناً للتبن سنين طويلة . وكان يسكن في الغرفة نفسها بغّال لم يكن سريره يبعد كثيراً عن سرير صاحبنا دون كيخوته ، وعلى الرغم من أن سرير هذا الجلف كان مؤلّفاً من براذع بغاله وأغطيتها ، فقد كان أفضل مائه مرة من سرير صاحبنا الفارس : إذا لم يكن هذا إلا أربعة ألواح خشنة موضوعة على دكتين غير مستويتين ، ثمّ مرتبة رقيقة جداً حتى كانت أشبه بملاءة سرير ، مملوءة ببروزات خشنة لو مسّها المرء لحسبها حصىً إذ لم يبصر ، من بعض ثقوبها ، أنها عمائت[2] من الصوف ، ثمّ غطاءين من جلد

---

(١) اشتورش ، حوز ، وإمارة قديمة في شمال اسبانيا ، تشمل اليوم مقاطعة أوفييدو ، وتحد بالمحيط الأطلسي شمالاً وبمقاطعات لوجو وليون وبلنثيا وسانتندر ، مساحتها ٧٦٦٨كم٢ ، وأشهرها بلادها أوفييدو ، عاصمة الاقليم ، ثم خيخون .

(٢) جمع عميتة ، وهي القطعة من الصوف الملفوف مستديراً ليجعل في اليد فيغزل .

الجاموس ، وملاءة كان من الممكن أن يعد المرء خيوطها واحداً واحداً دون أن يترك منها خيطاً . وعلى هذه المنبذة الغليظة انطرح دون كيخوته ، وسرعان ماجاءت صاحبة المنزل وبنتها ومسحاه بالمرهم من رأسه حتّى أخمص قدميه ، على ضوء مصباح حملته ماريتورنس ، الخادمة الأشتورية . وفي هذه العملية شاهدت صاحبة النُزل مواضع سوداء زرقاء مرضوضة فقالت إن ماوقع له يبدو أنه ضربات وليس سقوطاً .

فقال سنشو : لا لم تكن ضربات ، ولكن الصخرة التي سقط منها كانت ذات نتوءات حادة كثيرة تركت هذه الآثار .

ثمّ أردف قائلاً : إذا تفضّلت ابق على بعض المشق ، فقد يحتاجها أحد الناس لتضميد جراحه ، إذ الواقع أن في ضلوعي وجعاً .

فسألته صاحبة الفندق : وأنت أيضاً وقعت ؟

فأجاب سنشو پنثا : كلا! ولكن الخوف والرعدة اللذين استوليا عليّ حينما رأيت سيدي يقع جعلا جسمي يتألم ألماً يبدو منه كأني ضربت مائة ضربة بالعصا .

فقالت البنت : هذا جائز ، فلقد حصل لي مرّات عدة أن حلمت أنّي وقعت من أعلى برج ولم أصل الى الأرض أبداً ، وحينما استيقظت ، كنت منهوكة القوى محطمة كأنّي وقعت فعلاً! .

فقال سنشو پنثا : هذا ماحدث بالضبط ياآنسة! ودون أن أكون حالماً ، وأكثر يقظة مما أنا الآن ، وجدت على جسمي من الكدح والجحش[1] مثلما على بدن مولاي دون كيخوته .

فقالت ماريتورنس الأشتورية : مااسم هذا الفارس ؟

فأجاب سنشو : اسمه دون كيخوته دلامنتشا ، وهو فارس جوّال ، ومن أشجع وأعظم من شوهد على ظهر الأرض منذ زمان طويل .

فسألت الخادمة اللطيفة : ومن هو الفارس الجوّال ؟

فأجاب سنشو : ماذا ؟ هل أنت جديدة على الدنيا بحيث لا تعرفين من الفارس الجوّال ؟ اذن فلتعلمي ، يا أختي ، أن الفارس الجوال شيء يمكن في لحظة واحدة أن يُضرب أو يصبح امبراطوراً : فاليوم يكون أبأس الناس وأشدّهم جوعاً ، وغداً يملك ثلاثة أو أربعة تيجان يتعطّف بها على حامل سلاحه .

---

(١) الكدح والجحش : أثر السقطة والانسحاج .

فقالت صاحبة الفندق : إذا كان الأمر كذلك ، وأنت حامل سلاح هذا الفارس النبيل ، فلماذا لا تملك إمارة[١] على الأقل ؟

فأجاب سنشو : لم يأن الأوان بعد! لأننا لم نخرج للبحث عن مغامرات إلا منذ شهر[٢] ، وحتى الآن لم نصادف مغامرة جديرة بهذا الاسم . وقد يقع للمرء أحياناً أن يبحث عن شيء فيجد شيئاً آخر . لكن ليشف مولاي دون كيخوته من هذا الجرح ، أو السقوط ولتزل عنّي أوجاعي ، وأنا لا أبادل بآمالي أعظم لقب في اسبانيا!

وكان دون كيخوته ينصت لهذا الحديث كله باهتمام بالغ وهو راقد على فراشه . وهنالك نهض ما استطاع وأخذ بيد صاحبة الفندق وقال :

ـ أيتها السيدة! صدقيني أنك تستطيعين أن تعدي نفسك سعيدة لأنك استقبلت شخصي في قصرك ، شخصي الذي لا أودّ إطراءه ، لأن مادح نفسه واضع لها ، لكن حامل سلاحي سينبئك عن حقيقتي . إنما أود أن أقول لك إنّي سأنقش الى الأبد في ذاكرتي الخدمة التي أسديتها إليّ ، وسأعترف لك بجميلها مدى الحياة وبودّي لو لم أكن أسيراً لقوانين الحب ، وعبداً لعيون هذه الجاحدة الجميلة التي أذكرها بين أسناني! إذن لكانت عيون هذه الآنسة الفاتنة مطلقة التصرّف في حرّيتي .

فأطرقت صاحبة الفندق وابنتها وماريتورنس الطيبة خجلاً من كلمات الفارس الجوّال . ولم يفهمن منها شيئاً وكأنّه يتكلّم اليونانية . ولكنهن قدّرن أنه إنّما أراد شكرهن وتدليلهن ، ولكنهن لم يتعوّدن مثل هذه اللهجة فنظرن اليه ونظرت كل منهن الى الأخرى ، وبدا لهن دون كيخوته رجلاً بخلاف سائر الناس . ولمّا أن شكرنّ له كلماته اللطيفة عن الفندق ، تركنّه ، وراحت ماريتورنس لتضميد سنشو ، ولم يكن أقلّ حاجة الى العلاج من مولاه .

وكان البغّال قد اتفق مع ماريتورنس على أن يقضيا ليلة مرحة معاً . إذ وعدته أن تأتي اليه بعد أن يأوى النزلاء إلى فرشهم وينام أصحاب الفندق ، وتحقق له كل مايطلب إليها من ملذّات . ويقال عن هذه الخادمة أنها لم تعد أبداً وعداً من هذا النوع دون إنجازه ، حتى لو كان الوعد في قاع غابة ودون شهود! لأنّها كانت تتباهى بأن في عروقها يجري دم نبلاء ، ولم تر مما يحط من شأنها أن تكون خادمة في فندق ، وتقول أن تقلّبات الحدثان وبلايا الزمان هي التي ألقت بها في هذا الحال . وكان سرير دون كيخوته ، ذلك السرير الخشن الضيق الهزيل الغادر ، هو أوّل الأسرّة في وسط هذا العنبر الذي تنحدر من ثقوب سقفه أضواء النجوم . بالقرب منه هيأ سنشو

(١) في النص : كونتية ـ أي مقاطعة كونت .

(٢) هذا تمويه عليها : لأنهما لم يخرجا إلا منذ ثلاثة أيام فحسب .

فراشه ، ولم يكن فراشه إلاّ حصيرة من القش وغطاءً أشبه بالوبر[١] منه بالصوف . وتلا هذين السريرين سرير البغّال ، وكان مؤلفاً من البراذع والسروج التي كانت على خير بغلين عنده ، وكان معه إثنا عشر بغلاً كلها سمينة شديدة الألواح ذات رونق ، لأنه كان من أصحاب البغال الأغنياء أريبلو[٢] ، كما يقول مؤلف هذه القصة الذي يشير الى هذا البغّال إشاره خاصة لأنّه كان يعرفه معرفه معرفة وثيقة ، بل يؤكّد البعض أنه كان يمت إليه بصلة القرابة[٣] . وقد كان سيدي حامد بن الأيلي مؤرخاً واسع الإطلاع شديد الاستقصاء والتدقيق في كل شيء ، والشاهد على هذا ما رواه حتّى الآن ، فإنه على الرغم من تفاهته وضآلته لم يشأ أن يغفل منه شيئاً . وعلى المؤرخين الجادين الذين يرون أعمال أبطالهم على نحوٍ موجز قصير أن يضربوا على قالبه لأن إيجازهم لايكاد ذوقه يبلغ شفاهنا ، ويتركون في المحبرة ـ إهمالاً أو جهلاً أو خبثاً ـ خير ما في الأمر . وحيّا الله ألف مرة مؤلف « تابلانة دي ريكاموتته »[٤] ، ومؤلف الكتاب الذي يروي أعمال كوندي توميياس! فقد وصفا كل شيء بمنتهى الدقة[٥] .

وأقول أنّ البغّال بعد أن تفقد حال دوابّه وأعطاها العلوفة الثانية من الشعير ، تمدّد على براذعه وسروجه ، وأنشأ ينتظر مقدم ماريتورنس ذات المواعيد الدقيقة . أمّا سنشو پنثا فقد دُهن جيداً واستعدّ للنوم ، ولكنه لم يستطع ، رغم ما بذل ، أن ينام لأن آلام ضلوعه حالت بينه وبين ذلك . أمّا دون كيخوته فقد جعلته أوجاعه مفتوح العينين كالأرانب . وكان النزل كلّه غارقاً في الصمت ، ولم يكن فيه من النور إلاّ نور مصباح يتّقد معلّقاً تحت عقد الباب الخارجي . وهذا الهدوء الشامل ، والخواطر التي تغذّيها في نفس فارسنا هذا ذكرى الحوادث التي تجري في كل صفحة من صفحات الكتب التي كانت السبب في بلائه ، قد بعثت في خياله جنوناً من أغرب أنواع الجنون التي يمكن الانسان أن يتخيّلها وهو في تمام وعيه . إذ قد خيّل اليه أنه أتى قصراً شهيراً ، لأن جميع الفنادق التي أوى اليها كانت في نظره قصوراً شامخة ، وأنّ ابنة صاحب الفندق هي إبنة صاحب القصر وقد قهرها لطفه فاشتعلت غراماً به ، وأنّها قرّرت أن تزوره هذه الليلة بنفسها دون أن يعلم أهلها ، تزوره

(١) في النص : « أشبه بخز أنجو (مقاطعة في فرنسا ، وبلد) منه بالصوف » . وكان أنجو تنتج خزاً غليظاً .

(٢) arevalo مدينة في مقاطعة آبلة على بعد ٧٥ كم شمال شرقي آبلة ، عند تلاقي نهري أريبليو وأداخا ، وفيها كنائس جميلة ، يقال أن إحداها من عهد الامبراطور قسطنطين .

(٣) كان معظم البغّالين في اسبانيا إمّا من الينجوشيين أومن العرب المتنصرة ، ولمّا كان المؤلّف عربيّاً متنصّراً وهو سيدي حامد بن الأيلي ، بحسب مايزعم ثرڤانتس ، فليس بمستبعد إذن أن تكون ثمة قرابة .

(٤) يشير ثرڤانتس هنا الى « أخبار الفرسان النبلاء ، تابلانه دي ريكاموتته وخوفره ، ابن الكونت أسون » ، طليطلة سنة١٥١٣ (راجع مينندث بلايو ، « أصول القصة » ج١ صCL XXXIV) ـ أمّا كوندي توميياس فشخص ثانوي في « تاريخ أنريكه بن أوليفا ، ملك أورشليم وامبراطور القسطنطينية » (اشبيلية سنة ١٤٩٨) .

(٥) كل هذا تهكّم من ثرڤانتس .

في مخدعه . وقد اعتقد أن هذه الأوهام التي ابتدعها ، حقائق واقعية ، فأنشأ يضطرب ويحزن وهو يفكّر في الخطر الداهم الذي يتهدّد بكارثة . لكنّه عزم في قرارة نفسه ألا يخون سيدته دلثنيا دل توبوسو ، حتّى لو كانت الزائرة هي الملكة جنيڤاڤ نفسها تصحبها وصيفتها كنتنيونا .

وكان يهيم في بيداء هذه التهاويل لما أن حانت الساعة (المشئومة بالنسبة إليه) التي تأتي فيها الأشتورية . وها هي ذي قد أقبلت بقميصها عارية القدمين معقودة الشعر بشبكة من قماش القطن ، وهي تتسلّل على أطراف قدميها في العنبر الذي كان النزلاء الثلاثة يرقدون فيه ، تريد أن تبلغ صاحبها البغّال . ولم تكد تجتاز وصيد الباب حتّى أحس بها دون كيخوته ، فنهض جالساً على سريره ، رغم تضميداته وأوجاع ضلوعه ، ومدّ ذراعيه لاستقبال فتاة أحلامه الرائعة . وأقبلت الأشتورية جامعة أطرافها حابسة أنفاسها ويداها الى أمام تتلمّسان حبيبها ، فوقعت بين ذراعي دون كيخوته فأمسك بها بقبضة قوية وجذبها إليه دون أن تجرؤ على التفوّه بكلمة ، ثمّ أجلسها على سريره . وتحسّس قميصها ـ وكان من الخيش ـ فبدا له من أفخر الديباج ، وكانت في ذراعيها أسورة مؤلفة من خرز زجاجي فبدت له كاللؤلؤ الشرقي المنضود ، وكان شعرها يضرب الى لون الوبر وطبيعته فحسبه غدائر من أنفس ذهب بلاد العرب ، يفوق بريقه لمعان الشمس ، أمّا أنفاسها ـ ولم تكن رائحتها إلا من رائحة سلطة الثوم ذات التوابل والخل المصنّة من الأمس ـ فقد حسبها تنشر شذى طيب الريح عبهريّ النسيم . وبالجملة فقد رسمها في خياله بالمحاسن والمفاتن التي كانت لتلك الأميرة التي قرأ في كتبه أنها جاءت لزيارة الفارس الجريح إبان الليل ، وقد غلبها الوجد واستولى عليها الغرام . لكن هكذا كان ضلال هذا النبيل المسكين الذي لم يستطع أن يبدّد أوهامه شيء : لا ملمسها ولا نفسها ولا تلك الأمور الأخرى التي تميّز هذه الفتاة البائسة ، مما كان من شأنه أن يثير استفراغ أحشاء أي إنسان غير هذا البغّال . بل بالعكس ، حسب دون كيخوته أن يحضن بين ذراعيه إلهة حبّه ، فضمّها بحرارة وهو يقول لها بصوت يفيض عذوبةً وحناناً .

ـ بودّي لو استطعت ، أيتها السيدة الجليلة الفاتنة ، أن أجازي هذه النعمة السابغة التي أنعمت بها عليّ برؤية جمالك الفائق . لكنّ الحظ ، الذي مافتئ يضطهد الأخيار ، قد شاء أن يقذف بي في هذا السرير حيث أرقد الآن محطّماً منهوكاً ، فلو شاءت إرادتي أن تكون كفاء إرادتك لما استطاعت . يضاف الى هذه الإستحالة أخرى أشد منها ألا وهي العهد الذي قطعته على نفسي قبل المنقطعة النظير دُلْثنيا دل توبوسو ، فهي وحدها سيدة أفكاري وفتاة أحلامي . ولو لم تقم هذه العقبات ، لما كنت من الغفلة والبلاهة بحيث أدع هذه الفرصة السعيدة تمرّ وقد أتاحها فضلك العميم!

وكانت ماريتورنس في أشد الجزع من ضمّ دون كيخوته لها بهذه الشدّة ، وبذلت كل جهد مستطاع للتخلّص منه ، دون أن تعير كلماته أدنى اهتمام وانتباه . وكان البغّال الساذج ـ وقد أبقته شهواته الخبيثة ساهراً ـ قد سمع هو الآخر وقع دخول حوريته[1] لمّا أن اجتازت عتبة الباب . فأرهف اذنه لاستماع كل ماقاله دون كيخوته . ودبّ في نفسه دبيب الغيرة لأن الأشتورية لم تف بوعدها واستبدلت به رجلاً آخر ، فنهض واقترب من سرير دون كيخوته ، وراقب هادئ الجأش ليرى الى أي شيء تفضي هذه الكلمات التي لم يفهمها . لكنه حينما رأى الفتاة المسكينة تجاهد للتخلّص ، بينما دون كيخوته يحاول الاحتفاظ بها ، تضايق من الأمر ، ورفع ذراعه على كل طوله وأهوى على الفارس الهائم بضربة عنيفة بجمع يده فأصابت فكّيه حتّى جرى الدم مدراراً من فمه . ولم يكتف بهذا ، بل وثب على صدره وضربه بقدميه ضرباً أسرع من الركض شمله من أعلى الى أسفل . ولم يحتمل السرير ثقل البغّال لأن السرير كان ضعيفاً في تركيبه خرعاً في قوائمه ، فاندكّ وهوى على الأرض . فاستيقظ صاحب الفندق على قرقعة السرير ، وخيّل اليه أن ماريتورنس تتعارك ، لأنّها لم تجب حين دعاها بأعلى صوته . وتحت تأثير هذا الظن نهض وأشعل قنديلاً[2] ، وتقدّم الى الناحية التي صدرت عنها الضوضاء . وأحسّت الخادمة بسيدها قادماً ، وهي تعرف شراسة خلقه ، فاضطربت وارتعدت فرائصها وراحت تلوذ بسرير سنشو پنثا وكان لايزال يغطّ في نومه ، ورقدت عليه وتكوّرت مثل كبّة الغزل . ودخل صاحب الفندق وهو يصيح :

ـ أين أنت يا عاهرة ؟ فليس من شك أن هذه ألاعيبك .

وفي هذه اللحظة استيقظ سنشو ، ولمّا أحس بهذه الكتلة على بطنه حسب أنه في كابوس ، فراح يكيل اللكمات يمنة ويسرى ، وكان أكثرها من نصيب ماريتورنس ، فلم تطق هذه آلامها وفقدت مع صبرها حياءها فجازت سنشو بمثل ما أعطاها ، بقسوة أيقظته من رقاده . فلمّا تنبه سنشو الى ماوقع له ، دون أن يعرف ممن ولمّ نهض مااستطاع واشتبك مع ماريتورنس في معركة من ألطف ماشهده الناس . وفي تلك الأثناء شاهد البغّال على ضوء القنديل ماأصاب سيدته ، فتخلّى عن دون كيخوته وراح ينجدها . وفعل صاحب الفندق فعلته ، لكن لغرض آخر ، لأنه أراد أن يعاقب الأشتورية ، معتقداً أنها السبب الوحيد في قيام هذه الملحمة الشيطانية . وكما اعتاد الناس أن يقولوا : «الكلب[3] للقط ، والقط للفأر ، والفأر

---

(١) في النص Coima وهي كلمة جرمانية الأصل معناها الحرفي : خليلة ، فاجرة ، يسيرة الوصال .

(٢) في الاسباني Candil العربية .

(٣) الكلب للقط : أضفناها لزيادة الإيضاح .

للحبل ، والحبل للعصا » ـ كذلك راح البغّال يضرب سنشو ، وسنشو يضرب البنت ، والبنت تضرب سنشو ، وصاحب الفندق يضرب البنت ؛ وكان كل من الأربعة يزاول عمله هذا بكل ارتياح ونشاط حتّى أنهم لم يفرغوا منه لحظة . وألطف مافي الأمر أن قنديل صاحب الفندق انطفأ فشملهم الظلام فجأة ، فانطلقت الضربات واللكمات خبط عشواء في الظلمات بلا رحمة هنا وهناك ، حتّى لم تدع أيديهم حينما امتدّت لحماً سليماً ولاقطعة من قميص .

وتصادف أن كان يبيت في هذه الليلة في الفندق قوّاس من أولئك الذين يطلق عليهم اسم «الأخوة المقدّسة القديمة في طليطلة»[1] ، لم يكد يسمع جلبة المعركة حتّى أمسك بسوطه الأسود وصندوقه الصفيح الذي يحتوي على ألقابه . ثمّ دخل متحسّساً في العنبر الذي كانت المعركة تجري فيه وصاح :

ـ قفوا باسم العدالة! قفوا باسم «الأخوة المقدّسة»!

وكان أوّل من لقيه هو دون كيخوته المسكين ، وكان لايزال راقداً على حطام سريره ، متمدّداً وفمه في الهواء وهو في حالة إغماء . فأمسك القوّاس بلحيته وظلّ يصيح : «الحكم للعدالة! » لكنّه أحسّ أن من أمسك به لم يبدِ حراكاً أبداً ، فظنّ أنه قُتل ، وأنّ الآخرين هم القتلة . وبتأثير هذا الاعتقاد ، علا صراخه وهو يقول :

ـ أغلقوا باب الفندق ، وحاذروا أن يهرب أحدٌ!

فأحدثت هذه الصرخة فزعاً في المحاربين ، فتركوا المعركة وهي لاتزال سجالاً في اللحظة التي صاح فيهم القوّاس صيحته . وانسحب صاحب الفندق الى غرفته ، والخادمة الى مغاراتها ، والبغّال الى براذعه المكدّسة . أمّا المسكينان دون كيخوته وسنشو فهما وحدهما اللذان لم يستطيعا التحرّك من مكانيهما . وأخيراً خلّى القوّاس عن لحية دون كيخوته ، وخرج لإحضار نور ثمّ يعود للقبض على المجرمين ، لكنّه لم يجد شرارة واحدة ، لأن صاحب الفندق أطفأ مصباح البوابة عمداً حين عاد أدراجه . فاضطر القوّاس أن يستعين بالمدخنة ، حتّى وجد الوسيلة لإشعال ذبالة أخرى بعد عناء شديد ووقت ضائع طويل .

---

(١) كانت هذه الشرطة في طليطلة وطلبيرة وثيوداريال . وكانت تتألف من فرسان ونبلاء . ومهمتها مطاردة اللصوص والعيارين الذي يقطعون الطرق على المسافرين في الجبال والدروب العامة ، وينهبون الأموال والعقار ، وكان لهذه الشرطة امتيازات كثيرة صدّق عليها سان فرنندو سنة ١٢٢٠ . وكانوا يحكمون في الخلافات والجرائم ، ولهم الحق بالحكم بالإعدام رمياً بالقوس . وكانت جماعات اللصوص والعيارين قد انتشرت في جبال طليطلة ، وفلاريال (ثيودا ريال فيما بعد) وطلبيرة ، ويسمّون golbines . فلحماية الأرواح والأموال من جرائمهم واغتيالاتهم ألف أصحاب المصالح إخوة فيما بينهم أفلحت في القضاء على أولئك المجرمين ، فصدّق على قيامها الملك ، وسمّيت بالمقدّسة لقداسة الأغراض التي يسعون لتحقيقها .

الفصل السابع عشر

في تلاوة أخبار الأمور التي وقعت للشجاع دون كيخوته وحامل سلاحه الطيب سنشو پنثا، في الفندق الذي حسبه - لسوء حظه - قصراً

وفي تلك الأثناء كان دون كيخوته قد أفاق من إغمائه ، فراح يدعو حامل سلاحه بلهجة حزينة شاكية شبيهة بتلك التي دعاه بها في اليوم السابق حينما كان مطروحاً في وادي الأوتاد[1] :

- صديقي سنشو ، هل أنت نائم ؟ هل أنت نائم ؟ ياسنشو الصديق ؟

فأجاب سنشو ، وهو ممتلىء يأساً وغيظاً :

أي نوم تريد منّي أن أنامه ، إذا كانت زبانية الجحيم كلّها قد انقضّت عليّ هذه الليلة ؟

فقال دون كيخوته :

- في وسعك أن تظن الأمر كذلك لأنّه إمّا أني لاأعرف إلا قليلاً ، أو هذا القصر مسحور . ويجب أن تعلم... لكن قبل أن أتكلّم أريد منك أن تُقسم لي بأن ماسأقوله سيظل سراً الى مابعد وفاتي .

فأجاب سنشو :

نعم أقسم .

فقال دون كيخوته : إني أطلب منك هذا القسم لأني أكره الإساءة إلى شرف أي شخص .

فعاد سنشو يقول : مادمت أقول لك إني أقسم ، وإنّي سأكتم السر حتّى نهاية عمرك! على أني أرجو من الله أن يهيئ لي البوح به غداً!

فقال دون كيخوته : هل أسأت اليك يا سنشو إلى حد أن تتمنّى موتي سريعاً هكذا ؟

---

(١) هي الأوتاد التي ضرب بها دون كيخوته وسنشو حينما اشتبكا مع الينجواسيين . على أن هناك رومانثة قديمة تبدأ بهذا المطلع : « خلال وادي الأوتاد مر « السيد » الكريم ، وعن شماله ترك قرية قسطنطينية » .

فأجاب سنشو : لا ، ليس من أجل هذا ، بل لأني لاأحب كتمان الأسرار كثيراً ، لأني أخاف عليها إن طال كتمانها أن تتعفّن في أحشائي!

فقال دون كيخوته : لسبب أو لآخر ، سأثق بلطفك وأدبك! فلتعلم إذن أنه وقعت لي في هذه الليلة مغامرة من أغرب المغامرات التي أفخر بها ، ولأقصّ عليك الأمر بأوجز ما يمكن ، أقول أنه منذ لحظات شاهدت ابنة سيد هذا القصر قادمة نحوي ، وهي أفتن وألطف فتاة توجد على شطر عظيم من الأرض . وماذا أقول عن مفاتنها ومحاسن ذكائها ، وغير ذلك من سحر خفي لا أريد أن أفصح عنه بل أدعه يمر دون مساس به حتّى أصون عهدي لسيدتي دلثنيا دل توبوسو! وإنما أود أن أقول لك فقط أن السماء حسدتني على النعيم الغامر الذي أرسله الحظ إليّ ، أو ـ وهذا أقرب الى اليقين ـ لعل هذا القصر كما قلت لك مسحور ، لهذا فإنه في اللحظة التي كنت أجاذبها أعذب وأرق وأحرّ حديث ، انقضّت عليّ كفّ لم أرها ، كف مارد رهيب ، فضربني بقبضته على فكّي ضربة قاضية لايزالان ينزفان الدم بسببها . ثمّ نسأ وأوهطني[1] حتّى جعلني في حال أسوأ من حال الأمس لما أن أهاننا البغّالون الإهانة التي تعرفها جيداً ، بسبب نزاء روثينانته . ومن هذا أستنتج أن كنز جمال هذه الفتاة يقوم على حراسته عربيٌّ مسحور ، وأنه ليس لي .

ـ ولا لي أيضاً ـ بهذا أجاب سنشو ـ ، لأن أكثر من أربعمائة عربي قد دبغوا جلدي على نحو جعل طحن الأمس بالعصيّ والأوتاد يبدو بالنسبة إليه(٢) تدليلاً عذباً رقيقاً! لكن قل لي ياسيدي كيف نسمّيها جميلة ونادرة تلك المغامرة التي تركتنا على هذه الحال ؟ على أن الأذى الذي أصاب سيادتك لم يكن كبيراً ، لأنّك قد حملت بين ذراعيك تلك الفاتنة المنقطعة النظير . أمّا أنا ، فماذا لقيت ياإلهي غير أبشع اللكمات التي تلقيتها طوال حياتي ؟ يالشقائي وشقاء أمي التي ولدتني! لست فارساً جوّالاً ولاأحسب أنّي سأكونه ، ورغم ذلك فإن النصيب الأوفر من المصائب يكون نصيبي!

فسأله دون كيخوته : وأنت أيضاً ضُربتْ ؟

فقال سنشو : ماذا قلت لك إذن! إن الضرب أوجع أيضاً أهلي!

فقال دون كيخوته : لابأس يا صديقي ، فسأعدّ لك حالاً البلسم الثمين الذي سيشفينا في غمضة عين!

وفي تلك الأثناء كان قوّاس الأخوه المقدّسة قد أشعل القنديل وجاء لرؤية من حسبه

---

(١) نساه : ضربه بالعصا . أوهطه : صرعه صرعة لايقوم منها .

(٢) في النص tortas y pan pintado : « كعكاً وخبزاً ملوناً » ، وهذا كناية عن أنه لطيف رقيق .

ميتاً . فلمّا رآه سنشو داخلاً لابساً قميصاً وعاصباً رأسه بمنديل وفي يده قنديل ، ووجهه مكفهر كريه ، سأل مولاه :

ـ مولاي! أولا يكون هذا القادم هو العربي المسحور وقد أقبل ليتم تعذيبنا ، إن كان لايزال فينا بعد بقية ؟

فقال دون كيخوته : كلا! إنّه لا يمكن أن يكون العربي ، لأنّ المسحورين لا يدعون أحداً يراهم .

فقال سنشو : إذا لم يدعوا أحداً يراهم ، فهم يدعونه يشعر بهم ، وإلاّ فليسألوا أكتافي!

فقال دون كيخوته : وأكتافي أيضاً تشهد بذلك ، لكن هذا ليس دليلاً كافياً للاعتقاد أن من نراه الآن هو العربي المسحور .

فاقترب القوّاس ، ولمّا شاهدهما في حديث هادئ ، وقف مشدوهاً . نعم ، إن دون كيخوته كان لايزال فاغراً فاه ، لايستطيع حراكاً من شدّة الضربات وبسبب الضمادات . وجاءه القوّاس وقال له :

ـ إيه ، كيف حالك يارجل ؟

فقال دون كيخوته : لو كنت مكانك ، لتكلّمت بلهجة أكثر أدباً . أو هل من عادة أهل هذه البلاد مخاطبة الفرسان الجوّالة بهذه اللهجة ، أيها الجلف الأرعن ؟

فلمّا رأى القوّاس أن هذا الرجل البائس قد أهانه على هذا النحو ، لم يطق غطرسته ، فرفع القنديل ثمّ رمى به وبكل مافيه من زيت على رأس دون كيخوته فشجّه ، وهرب مخلفاً وراءه ظلاماً دامساً .

فقال سنشو پنثا : لا شك يا مولاي في أنّه هو العربي المسحور : إنه يحتفظ بالكنز لغيرنا ، أمّا نحن فيحتفظ لنا باللكمات والضرب بالقنديل .

فقال دون كيخوته : لابد أن الأمر هكذا . لكن يجب ألاّ نحفل بشيء من هذا السحر ، ولاأن نغضب له ونغتاظ : لأن هذه الكائنات خفيّة خيالية ، فمن العبث التفكير في الإنتقام منها . انهض يا سنشو ، إذا استطعت ، واستدع قائد هذه القلعة واطلب إليه أن يحضر إليّ شيئاً من الزيت والنبيذ والملح وحصا اللبّان ، لتركيب البلسم الشافي . والحق أنّي في مسيس الحاجة اليه الآن ، لأنّي أنزف دماً غزيراً من جراء الجرح الذي أصابني به هذا الشبح .

فنهض سنشو وهو يتألّم من عظامه المرضوضة ، وتحسّس طريقه الى صاحب الفندق

فالتقى بالقوّاس في الطريق وكان واقفاً بالباب ، قلقاً يود لو يعرف ماجرى لعدوّه الجريح وقال له :

ـ سيّدي ، أيّاً من كنت ، تفضّل وأحسن علينا واعطنا شيئاً من حصا اللبّان والزيت والنبيذ والملح ، لأننا في حاجة إليها لتضميد فارس من أفضل الفرسان الجوّالة على هذه الأرض ، وهو راقد الآن في هذا السرير طريح جرح بالغ أصابه به العربيّ المسحور الساكن في هذا الفندق .

فلمّا سمع القوّاس هذه الكلمات الغريبة ، ظنّ سنشو رجلاً خولط في عقله . لكن الفجر كان قد انبلج ، فراح يفتح باب الفندق ، ونادى صاحب الفندق ليخبره بما يريده هذا الأبله . فزوّد صاحب الفندق سنشو بكل مااحتاج إليه ، وحمله سنشو بسرعة الى دون كيخوته ، وكان هذا مطرقاً يحمل رأسه بين كفّيه ، متألّماً من الوجع الذي أصابته به الضربة بالقنديل ، إذ أحدثت في جبهته ورمين كبيرين ، وهذا كل مافعلته ، لأن ماظنّه دماً لم يكن إلا زيت القنديل ممزوجاً بالعرق الذي أراقته على جبينه مخاوف العاصفة الماضية .

وأخيراً أخذ عقاقيره وخلطها وأنضجها على النار زمناً كافياً إلى أن بدا له أنها بلغت درجة النضج . ثمّ طلب قارورة يصب فيها هذا الشراب ، فلمّا لم يجدوا في الفندق كله ، قرر أن يضعها في كوز[1] من الصفيح ، تكرّم به عليه صاحب الفندق . ثمّ قرأ على الكوز أكثر من ثمانين مرة آيات « أبانا الذي... » ومثلها من صلاة « سلامٌ لك يا مريم! » وصلاة « سلام لك أيتها الملكة ، ياأمّ الرحمة » . وكان يتلو كل كلمة برسم علامة الصليب ابتغاء التبريك . وحضر هذه الطقوس سنشو وصاحب الفندق والقوّاس ، لأنّ البغّال قد عاد إلى بغاله ، يُعنى بها في هدوء . ولمّا تمّ هذا أراد دون كيخوته أن يجرّب مفعول هذا البلسم الذي حسبه ناجعاً رائعاً . فشرب مما بقي في آنية الطبخ بعد أن ملىء الكوز ، وكان أكثر من نصف الثُمن[2] . ولم يكد يفرغ من شرابه حتّى بدأ يتقايأ على نحو أفرغ كلّ مافي جوفه[3] ، وأجرت آلام القيء عرقاً غزيراً ، فطلب أن يغطّى في فراشه جيداً ويترك وحيداً . فأجابوه الى سؤله ، ونام نوماً هادئاً أكثر من ثلاث ساعات شعر بعدها حين استيقظ أن بدنه استراح وأنه شفي من كسوره حتّى ظن أنه أصبح سليماً معافى ، مما جعله يظن في الحال أنه وجد طريقة تحضير بلسم فيربراس ، وأنه يستطيع بمثل هذا الدواء أن يواجه أية مغامرة أو معركة أو خصومة مهما تكن خطورتها ، دون خوف ولا وجل . ووجد سنشو أن راحة مولاه معجزة أتى بها هذا

---

(١) الكلمة الاسبانية Aicuzu عربية الأصل ، على أنها خصصت في الاسبانية للإناء الذي يوضع فيه الزيت للاستعمال اليومي .

(٢) azumbre ، مكيال سعته ٢ ليتر و١٦ مليلتر .

(٣) سبب القيء هو الملح المغلي ، فهو كاف وحده لإحداث هذا القيء خصوصاً إذا كان شديد التركيز .

الدواء العجيب ، فتوسّل إليه أن يسمح له بتناول مابقي في انية الطبخ ، ولم يكن جرعةً قليلة . فسمح له دون كيخوته ، وإذا بسنشو يمسك الإناء من عروتيه بكل سذاجة وغبطة وصبّ منه في حلقه كميه تعادل ماتجرّعه منه مولاه . لكن معدة سنشو المسكين لم تكن من الرقة كمعدة سيده ، ولهذا فإنه قبل أن يتقايأ انتابته نوبة من العرق البارد والغثيان والضيق واحتباس الأنفاس حتّى ظن فعلاً أن ساعته الأخيرة قد حانت . وفي هذه الشدّة لعن الشراب والوغد الذي جعله يتناوله . فلمّا شاهده دون كيخوته على هذه الحال قال :

ـ أنا أعتقد ياسنشو أن هذا البلاء جاءك من كونك لم تُسلّح فارساً ، لأني أحسب أن هذا الشراب لايفيد من ليسوا فرساناً .

فأجابه سنشو قائلاً : ألا لعنة الله عليّ وعلى آلي! ومادام سيادتك تعلم ذلك من قبل ، فلماذا إذن سمحت لي بتناوله ؟

وفي تلك الأثناء كان الشراب قد أحدث مفعوله ، وبدأ حامل السلاح المسكين يستفرغ من كلا طرفيه بسرعة واستمرار جعلا الحصيرة التي رقد عليها وغطاء الخيش الذي غطّى به نفسه غير صالحين للاستعمال أبداً . ولكنّه بذل من الجهود وتحمّل من التقلّصات ما جعله يعتقد هو وسائر الحاضرين أنّه سيقضى فيها نحبه . وظلت هذه العاصفة وبقي هذا الخطر طوال ساعتين ، بعدهما لم يشعر بالراحة التي أحسّ بها مولاه ، بل أصبح منهوك القوى محطّماً لايكاد يمسك نفسه . أمّا دون كيخوته فقد أحس أنّه برأ وتعافى كما قلنا ، فأراد أن ينهض في الحال سعياً وراء مغامرات جديدة إذ بدا له أن كل الوقت الذي أضاعه في هذا المكان إنما أضاعه على العالم وعلى البائسين الملهوفين الذين ينتظرون نجدته ، خصوصاً وقد انضاف الى هذه الفكرة الملازمة اعتقاده من الآن فصاعداً في قوه بلسمه . فاندفع يُسرج بنفسه فرسه روثينانته ، ويضع البرذعة على حمار سنشو ، ثمّ أعان سنشو على ركوب حماره ، بعد أن أعانه على اللبس . ثمّ امتطى صهوة جواده وتقدّم ناحية فناء الفندق والتقط حربة كانت هناك يستخدمها رمحاً .

وأنشأ جميع من في الفندق ، وقد جاوز عددهم العشرين ، يتطلّعون اليه ، كذلك رنت إليه صاحبة الفندق ، وظلّ هو يحدّق فيها ، وهو يزفر بين الحين والحين زفرة تخرج من أعماق أحشائه ، لكنّهم كانوا يعتقدون أن الوجع هو مصدر هذه الزفرات ، خصوصاً أولئك الذين شاهدوه بالأمس يدهن بالمراهم .

فلمّا استقرّا على ظهري دابتيهما توقّف دون كيخوته لدى الباب ونادى صاحب الفندق وقال له بصوت حادّ جدّاً :

ـ سيّدي صاحب القصر! ماأعظم النعم التي نلتها في هذا القصر وأكثرها! وإنّي لمدين لك ديناً سأذكره بالإمتنان طوال أيام حياتي . وإذا كنت أعترف بها وأريد أن أجازيك عنها بالإنتقام لك من متعجرف أهانك أية إهانة ، فلتعلم أنّ مهنتي ليست إلا إغاثة الضعفاء ، والإنتصاف لمن أهينوا ، وعقاب الأشرار . فتصفح ذاكرتك ، وإن وجدت فيها شيئاً من هذا النوع توصيني به ، فما عليك إلا أن تخبرني ، وأنا أعدك ، بحقّ نظام الفروسية الذي تلقيته ، أن تكون راضياً خالصاً .

فأجابه صاحب الفندق بنفس اللهجة الحادة الجادة :

ـ سيدي الفارس! لست في حاجة الى أن تنتقم لي سيادتك من أية إهانة ، لأنه إذا أهانني أحد عرفت تماماً كيف أنتقم لنفسي بنفسي . وكل ماأنا في حاجة إليه هو أن تتفضّل سيادتك فتدفع أجر نفقاتك الليلة الماضية في الفندق ، وكذلك ثمن التبن والشعير اللذين قدّما للدابتين وثمن السريرين والعشاء .

فصاح دون كيخوته : ما هذا ؟... أهذا فندق ؟

فأجاب صاحب الفندق : نعم ، وفندق طيب السمعة جدّاً .

فقال دون كيخوته :إذن كنت على ضلال! فالواقع أنّي كنت أحسب أنه قصر ، قصر من نوع غير رديء . لكن مادام هذا فندقاً وليس قصراً ، فخير ماتفعله الآن هو أن تتنازل عن دفع الأجرة ، ذلك أنّي لا استطيع أن أخالف عن قاعدة الفرسان الجوّالة التي تقضي ـ وهذا أمر أعلمه تمام العلم ، ولم أقرأ مايخالفه حتى الآن ـ بأن الفارس الجوّال لا يدفع أبداً ثمناً لمبيته وطعامه ولا أية نفقة في الفندق ، لأن الناس مُلزمون ـ عن حق وامتياز خاص بالفرسان ـ أن يحسنوا استقبالهم ويستضيفونهم أينما حلّوا وحيثما نزلوا ، جزاءاً وفاقاً عن المشقّة البالغة التي يبذلونها بحثاً عن المغامرات في الليل والنهار ، في الشتاء والصيف ، راكبين أو مترجّلين ، عطشى جائعين ، في القيظ والقرّ ، معرّضين لكل شدائد السماء ومتاعب الأرض .

فأجاب صاحب الفندق : وما شأني أنا بهذا كلّه! ادفع ما عليك ، قُضي الأمر ، ودع القصص والفروسية ، فلا شأن لي إلاّ بعملي وقبض أجرتي .

فقال دون كيخوته : أنت فندقي حمار!

ثمّ همز روثينانته بشدّة وشهر حربته وخرج من الفندق دون أن يتعقّبه أحد ، ودون أن ينظر ماإذا كان حامل سلاحه يتبعه ، ومضى مسافة في الخلاء . فلمّا شاهده صاحب الفندق راحلاً دون أن يدفع ، راح يطالب سنشو پنثا بما عليه ، فأجابه بأنّه مادام مولاه لم يُردْ أن

يدفع فهو أيضاً لايريد أن يدفع ، ومادام حامل سلاح فارس جوّال فيجب أن يتمتّع بنفس الإمتياز الذي لمولاه فلا يدفع أجراً عن أية نفقة الفنادق والخانات . وعبثاً زمجر صاحب الفندق وأرعد وأبرق وهدّده إذا لم يدفع أن يلقى منه مايوجعه . فقد أقسم سنشو بقانون الفروسية الذي تلقّاه سيّده أنّه لن يدفع مرابطيّاً واحداً حتّى لو كلّفه ذلك فقدان حياته ، لأنّه لا يريد أن يكون سبّباً في ضياع هذا العرف القديم الممتاز السائد بين الفرسان الجوّالة ، ولايريد أبداً أن يشكوه حملة سلاح الفرسان في المستقبل ويلوموه على انتهاك هذا الامتياز العادل .

وشاء سوء طالع سنشو المسكين أن يكون من بين نزلاء الفندق أربعة تجّار صوف من شقوبية ، وثلاثة خردواتية[1] من قرطبة ، وتاجران جوّالان من سوق اشبيلية وكلهم من أهل المرح والملح والمجون. . أقبل هؤلاء ، كأنّهم مدفوعون بروح واحدة ، أقبلوا على سنشو وأنزلوه من حماره ، وأسرع أحدهم فأتى بملاءة سرير صاحب الفندق وغطّوه بها . لكنّهم حين رفعوا أبصارهم تبيّنوا أن السقف قليل الارتفاع فلا يصلح لفعلتهم ، فقرّروا الخروج إلى الفناء الذي لم يكن له من سقف غير السماء ، وهناك مدّدوا سنشو على الملاءة ، وبدأوا يطيرونه في الهواء ، ويلعبون به كما يُلعب بالكلب في الأعياد[2] .

وكانت صرخات هذا المرتجع المسكين شديدة شدّة ، بلغت مسامع سيّده ، فتوقّف ينصت ، واعتقد لأوّل وهلة أنّه بإزاء مغامرة جديدة ، لكنّه سرعان ماتبيّن أنها صرخات حامل سلاحه ، فعاد أدراجه راكضاً بأسرع مايستطيع فرسه ، فوجد الفندق مغلقاً فاستدار من حوله عساه يجد مدخلاً . لكنّه لم يكد يبلغ جدران الفناء ــ ولم تكن عالية ــ حتّى رأى العملية الأليمة التي تجري لحامل سلاحه : رآه يصعد وينزل في الهواء ، بخفة ولطف لولا الغضب لجعلاه ينطلق ضاحكاً . فحاول أن يتسلّق السور بفرسه ، لكنّه كان محطّماً مرتهك المفاصل إلى حد أنه لم يستطيع حتّى النزول من فرسه . فلم يكن أمامه إلا أن يسب ويلعن ــ من أعلى

---

(١) في النص الحرفي : « باعة إبر من يوترو قوطبة » ــ وإن كان رودريجث مارين يفهم من agujeros صنّاع الأبر ومن يشتغل عندهم ، اعتماداً على ماقاله يدرو دي مدينه في كلامه عن قرطبة (في كتابة « عظمة اسبانيا وأهم مافيها » ، جـ٢ ف٢٤ ، طبع في قلعة هنارس سنة ١٥٩٠) إن أجود الأبر المصنوعة في اسبانيا وأوفرها إنتاجاً هي تلك المصنوعة في قرطبة . ــ أمّا سوق اشبيلية فكان ينصّ بأنواع العروض ، وكانت لأهلها سمعه عالية بالفتوة والشجاعة . وكان باعة الإبر في قرطبة مشهورين أيضاً بأنّهم من أسفل وأحط العناصر في اسبانيا .

(٢) كان من عادة العابثين في المرافع (الكرنفالات) أن يلعبوا بالكلاب ، وكانت منتشرة عند الرومان في أيّام سويتون . ونجد ذكر تلك العادة لدى الكتّاب الاسبان قبل كالدرون : عند ماتيو أليمان (« قزمان الفاراقي » ج ١ ك٢ ف ١) وعند بيثنته اسبينيل (« ماركوس دي أوبريجون » ، الرواية ١ ، الراحة ٥ ، ثمّ النهاية ٣ ، الراحة ١٠) .

دائماً جاحدين ، وكانت الضرورة فرصة تخلق من المرء لصّاً ، والحاضر ينسي المستقبل ، فإن خينس وقد خلا من عرفان الجميل بقدر ما خلا من النوايا الطيبة ، قرّر أن يسرق حمار سنشو پنثا ، غير مكترث لروثينانته إذ بدا له غير صالح للبيع ولا للرهن . كان سنشو نائماً ، وسرق خينس منه حماره ، وقبل بزوغ النهار كان قد ابتعد الى حيث لايُدركْ .

وانبلج الفجر باعثاً في الأرض الحبور وفي نفس سنشو پنثا الحزن . فإنه لمّا لم يجد حماره أنشأ في العويل على نحوٍ لم يُرَ أشدّ منه إيلاماً وحزناً ، حتّى أنّ دون كيخوته استيقظ على دويّ عويله وسمعه وهو يقول :

ــ أي ولد أحشائي ، يا من ولدّت في بيتي وكنت لعبة أولادي ، ومصدر السرور لزوجتي ، والحسد لدى جيراني ، يامن كنت تخفيفاً لأعبائي ، وأخيراً كنت مورد غذاء لنصف شخصي ، فبستة وعشرين مرابطيّاً تكسبها في اليوم كنت تكفل نصف نفقاتي!

فلمّا شاهد دون كيخوته سنشو يشكو وعرف السبب ، واساه بخير مالديه من أسباب المواساة ووعده بصك تحويل لإعطائه ثلاثة حمير من خمسة خلفها وراءه في زريبته . وبهذا الوعد سرّي عن سنشو ، وجفّت دموعه ، وهدأت زفراته ، وشكر لمولاه ما أولاه من نعمة .

وكان دون كيخوته قد انتعشت الآمال في قلبه لمّا أن نفذ في هذه الجبال فبدت له مواطن صالحة للمغامرات التي ينشدها ، فراح يستعيد في ذاكرته تلك الأحداث الرائعة التي وقعت في مثل هذه الأماكن الموحشة الوعرة للفرسان الجوّالة ، واستغرقته هذه الخواطر وملأت نفسه حتّى نسي كل ماعداها . أمّا سنشو فمنذ أن اعتقد أنّه يسير في مكان أمين لم يكن يشغل باله غير شيء واحد هو أن يرضي معدته ببقايا ماغنمه من قساوسة الجنازة . فمضى خلف سيده ، حاملاً كل ماأمكن البرذون[1] حمله ، منتزعاً الطعام من الكيس ليضع منه في كرشه ولذّ له هذا النوع من السير بحيث لم يكن ليدفع فلساً من أجل أية مغامرة أخرى . وفي هذه اللحظة رفع عينيه فشاهد مولاه وقد توقّف محاولاً أن يرفع بطرف رمحه حزمة على الأرض ، فأسرع لمساعدته ووصل في اللحظة التي رفع فيها دون كيخوته على طرف رمحه وسادة وحقيبة مربوطتين معاً ، وكلتاهما ممزقة متعفنة . وكانت من الثقل بحيث اضطر سنشو لأخذهما بيديه ، وأمره مولاه بأن ينظر ما في الحقيبة . فهرع سنشو لتنفيذ

---

(١) في هذا الفصل أضاف ثربنتس حادث سرقة الحمار ، وكذلك في الفصلين التاليين . ولكنّه ظل في الطبعة الأولى يتحدّث بعد هذا الحادث عن الحمار وكأنه لايزال في حوزة سنشو . وفي الطبعة الثانية أصلح هذا الإهمال . لكنه لم يصلحه بدقّة فبقي في كثير من المواضع ـ كما في هذا الموضع الآن ـ مما تولّد عنه خلط كان ثربانتس أوّل من سخر منه ، كما سنرى في القسم الثاني من دون كيخوته (الفصل الرابع) .

صهوة فرسه ـ ويطلق الشتائم في وجه أولئك الذين يعبثون بسنشو ، على نحو لا نستطيع ايراده هنا . وعلى الرغم من كل هذه الشتائم واللعنات فإن هؤلاء العابثين لم يتوقفوا عن عملهم ولا ضحكاتهم ، كما أن سنشو المتطاير لم يكفّ عن عويله وصراخه ، مهدّداً حيناً متوسّلاً حيناً آخر .

لكن عبثاً فلم يقفهم شيء عن عملهم هذا العابث ، حتّى بلغ التعب بهم مبلغه فتركوه من فرط الجهد والملل . ثمّ أتوه بحماره وأركبوه عليه وغطّوه بمعطفه . ولمّا رأته ماريتورنس منهوكاً على هذه الحال ، رقت له وحسبت أنها تعينه بجرّه من الماء فراحت لملء جرّة ماء من البئر حتّى يكون الماء بارداً . فأخذ سنشو الجرّة وقرّبها من شفتيه ، لكنّه توقف عند صيحات مولاه وهو يقول له :

ـ سنشو يابني ، لاتشرب من هذا الماء ، يابني ، لاتشرب منه ، وإلا قتلك . انظر! هذا البلسم المقدّس معي ـ وأراه كوز الشراب ـ ، بقطرتين منه تشربهما تصبح سليماً معافى من غير شك .

فأدار سنشو عينيه بانزواء لدى سماعه هذه الكلمات وقال بصوت عالٍ :

ـ هل نسي مولاي أنّي لست فارساً ، ويريد منّي أن أتقايأ القليل من الأحشاء الذي بقي لي من مساء أمس ؟ احتفظ بشرابك وبكل العفاريت ، واتركني وشأني!

قال هذه الكلمات وبدأ يشرب من الجرّة ، لكنّه لمّا أدرك من الجرعة الأولى أنّه ماء ، لم يشأ الاستمرار ، والتمس من ماريتورس أن تحضر له خمراً ، فأجابته الى سؤاله بارتياح بالغ ، ودفعت ثمن الخمر من مالها الخاص ، إذ يقال عنها أنها على الرغم من الحال التي انحدرت اليها فقد كانت لاتزال تحتفظ بظل بعيد من الفضيلة .

فلمّا فرغ سنشو من شرابه نخس حماره وفُتح له باب الفندق على مصراعيه ، فخرج يطفر من الفرح لأنه لم يدفع شيئاً وأفلح في تنفيذ نيّته وقراره ، وإن كان ذلك قد تمّ على حساب رهنه المعهود ، أعني على حساب أكتافه . صحيح أن صاحب الفندق احتفظ بخرجه في مقابل دفع حقّه ، لكن سنشو قد هرب في حال من الاضطراب جعلته لا يتبين أنه فقد شيئاً ولم يكد صاحب الفندق يراه خارجاً حتّى أراد أن يسدّ عليه الباب ، ولكن العابثين (الذين عبثوا بسنشو) منعوه من ذلك ، ذلك أن هؤلاء كانوا جماعة لاتقيم وزن لدون كيخوته حتّى لوكان ـ فعلاً ـ واحداً من فرسان المائدة المستديرة الجوّالة .



الفصل السابع عشر : سنشو پنثا يُطَيَّر في الهواء ، ودون كيخوته
يشاهده في هذه المحنة من فوق سور الفندق الذي حسبه قصراً

الفصل الثامن عشر

وفيه تروى المحادثة التي جرت بين سنشو پنثا ومولاه دون كيخوته، وحوادث أخرى جديرة بالذكر

لحق سنشو بمولاه ، محطّماً منهوك القوى على نحو لايكاد يقدر معه على رفس دابته . فلمّا شاهده دون كيخوته على هذه الحال قال له :

ـ الآن أعتقد ، يا سنشو ، يا طيب ، أن هذا القصر ، أو هذا الفندق إن شئت ، مسحور من غير شك . وإلاّ فهؤلاء الذين عبثوا بك كل هذا العبث المنكر ماذا يمكن أن يكونوا ، إلاّ أشباحاً وجنّاً من العالم الآخر ؟ والذي يؤكّد لي هذا المعنى هو أنّي بينما كنت أشاهد فصول مأساتك الحزينة هذه من فوق الجدران ، استحال عليّ أن أتسلّق الأسوارأو اقتحمها أو حتّى أن أنزل من فرسي . فلا شكّ أنهم وثقوني بسحرهم ، لأنّي أقسم لك بشرف رجل مثلي ، أنّي لو استطعت تسلّق السور أو النزول من الفرس لكنت انتقمت لك من أولئك الأشرار الأوغاد انتقاماً ما كان لهم أن ينسوه أبداً وينسوا سوء مافعلوا ، حتّى لو كان الأمر اضطرّني ـ من أجل عقابهم ـ أن أخالف قوانين الفروسية التي لا تسمح ، كما قلت لك من قبل مراراً وتكراراً ، بأن يعتدي فارس على من ليس بفارس ، اللهم إلا في حالة الدفاع عن النفس وحالة الضرورة القصوى .

فأجاب سنشو :

ـ سواء عليّ أكنت فارساً أم غير فارس ، فإنّي لو استطعت لكنت انتقمت لنفسي بنفسي ، لكن المصيبة أني لم أستطع . ورغم ذلك فإنّي أقسم يميناً مغلظة أن هؤلاء الناس الذين تسلّوا على حسابي لم يكونوا أشباحاً ولا أناساً مسحورين ، كما تقول سيادتك ، بل كانوا أناساً حقيقيين من لحم ودم مثلنا تماماً . وأنا أوقن بهذا جيداً لأنّي سمعتهم ينادي بعضهم بعضاً حينما كانوا يطيرونني ، ولكل منهم اسمه : فأحدهما يدعى پدرو مرتينث ، والآخر تينوريو فرننذث ، وسمعت أن صاحب الفندق يدعى خوان بالوميكه الأعسر . وإذن

يا مولاي إذا كنت لم تستطع قفز السور ولا حتّى وضع قدمك على الأرض ، فمردّ هذا الى شيء آخر غير السحر ، أمّا عن نفسي ، فإن ما أتبيّنه من كل هذا هو أن هذه المغامرات ستفضي بنا في ختام المطاف الى نكبات لن نميّز بعدها أين قدمنا اليمنى .

وخيراً من هذا كله وأعقل ، بحسب مايراه عقلي الضعيف ، أن نعود الى بلدنا الآن والوقت وقت الحصاد ، وأن نعنى بشؤوننا ، بدلاً من أن ننتقل من « سكة لمكّة »[1] ومن الشرق للغرب ، كما يقولون .

فقال دون كيخوته : ما أجهلك بشؤون الفروسية الجوّالة ياسنشو! صه واصبر وسيأتي يوم ترى فيه بعينيك مافي ممارسة هذه المهنة من نبل وعظمة! وإلا فقل أي سرور وأية نشوة أعظم في الدنيا من نشوة الإنتصار وقهر العدو ؟ لاشيء من غير شك .

فأجاب سنشو : هذا جائز ، وإن كنت لا أعلم عنه شيئاً ، لكن كل ماأعرفه هو أنّه منذ أصبحنا فرساناً جائلين ، أو مولاي على الأقل (لأني لا استحقّ أن أحسب في عداد هؤلاء الأشراف) ، لم نظفر بأي انتصار ، اللهم إلا ضد البشكوني ، وحتّى هذه المغامرة لم تخرج منها سيادتك إلا بعد أن فقدت نصف أذن ونصف خوذة . ومنذ ذلك الحين لم نلق إلا لكمات وضرباً بالأوتاد ولكمات ، وفوق هذا كلّه تلقّيت فضل التطويح بي في الهواء من جانب أناس مسحورين لاأستطيع الانتقام منهم حتّى أعرف إلى أي مدى تذهب ، كما تقول سيادتك ، لذة قهر الأعداء .

فقال دون كيخوته : هذا ما يؤلمني ، وما أحسبه يؤلمك أيضاً . لكن على رسلك! فسأعمل على أن يكون في يدي سيف مصنوع بحيلة تجعل من يحمله في مأمن من كل أنواع السحر . ومن يدري! لعلى أن يهبني الحظ السيف الذي كان يحمله أماديس حينما كان يسمّى « فارس السيف المتّقد »[2] ، وكان من أحسن الشفار التي حملها فارس في هذا العالم ، فإلى جانب المزية التي ذكرتها ، كان يقطع كالموس ولا تقاومه أية درع أو سلاح .

فعاد حامل السيف يقول : من حسن حظّي أنّه حتّى لوظفرت بهذه النعمة فوقع في يديك مثل هذا السيف ، فإنه لا يمكن أن يفيد إلاّ الفرسان المسلحين فرساناً ، مثله مثل البلسم ، أمّا حملة السلاح ، فليموتوا[3] كمداً .

---

(١) هكذا أيضاً في النص الاسباني de Ceca en meca ، « وسكة » اسم اطلق على مسجد قرطبة ، وكان المسلمون الذين ينتوون الحج يذهبون أولاً الى سكة ومن ثمّ يتوجهون الى مكّة فأصبح مثلاً في اللغة الاسبانية بمعنى : يذهب من هنا الى هناك .

(٢) هنا يشير دون كيخوته الى أماديس الرمي ، الملقّب « فارس السيف المتّقد » ، كما أشرنا الى هذا من قبل في حواشي الفصل الأول .

(٣) العبارة الاسبانية هناque se los papen duelos تناظر في العامية عندنا : يشربوها ، يروحوا في داهية .

فقال دون كيخوته : لا تخشَ هذا ياسنشو : وربنا يسلّم!

هكذا كان يجري الحديث بين كيخوته وحامل سلاحه حينما أبصر دون كيخوته على الدرب الذي يسلكانه سحابة تراب كثيفة تتجه صوبهم . فلمّا أبصرها اتجه الى سنشو وقال :

ـ هذا ياسنشو هو اليوم الذي ادّخره الحظ لي لأبلغ مناي ، أقول هذا هو اليوم الذي لابد أن تظهر فيه قوّة ساعدي أعظم منها في أي يوم آخر ، وأن أنجز فيه من الأفعال الجريئة ماسيظل مسجّلاً في سجل الشهرة وموضوعاً لإعجاب الجميع فيما يستقبل من القرون . أو لا ترى ياسنشو هذه الزوبعة من التراب ؟ اعلم إذن أن الذي أثارها جحفل لجبٌ يزحف من هذه الناحية ، ويتألّف من أمم شتّى لا تحصى ولا تعد .

فقال سنشو : على هذا الحساب ، لابد أن يكون ثمة جحفلان ، إذ في الناحية الأخرى ترتفع زوبعة أخرى .

فالتفت دون كيخوته بلهفة ، ولمّا شاهد صدق ماقال سنشو شعر بلذّة بالغة ، لأنّه توهّم في الحال أنّ ثمة جيشين سيلتحمان في معركة وسط هذا السهل الممتد . ذلك أن خيّاله كان في كل ساعة وكل لحظة مليئاً بالمعارك وأطياف السحر والمغامرات والغراميّات وألوان التحدّي والمنازلات التي ترويها كتب الفروسيّة الجوّالة ، ولم يكن يفعل أو يقول أو يفكّر في شيء دون أن يتّجه إلى أمثال هذه التهاويل والأوهام .

وكان الذي أثار هاتين الزوبعتين من التراب قطيعان هائلان من الضأن يسيران على نفس الدرب من موضعين مختلفين ، لكنّهما كانا محجوبين بحيث لايمكن تمييزهما إلا حين اقترابهما . وكان دون كيخوته يؤكّد ويلح في توكيد أنهما جيشان على نحو جعل سنشو يعتقد أنهما كذلك حتّى قال :

ـ وماذا نحن فاعلون إذن يامولاي!

فقال دون كيخوته : ماذا نحن فاعلون ؟! سنعين المحتاجين ونغيث المُستضعفين . ويجب أن تعلم ياسنشو أن هذا الجيش المواجه لنا بقيادة علي الفيّاش[1] حاكم جزيرة سرنديب ، والجيش الآخر القادم وراءنا هو جيش عدوّه ملك القرمانتيين[2] المدعو پنتاپولين المشمّر الذراع ، وكان يطلق عليه هذا الاسم لأنّه يدخل المعارك وهو مشمّر ذراعه حتّى كتفه .

---

(١) في الاسپاني All fanfaron : أي على المدعي المتفاخر كذباً وزهواً . وقد ركّب ثرڤانتس هذا الاسم المضحك من الكلمتين علي + faninron (فياش جخاف) . وفي ـ هذا ذكرى للحروب بين الاتراك المسلمين وبين النصارى ، خصوصاً المعارك البحرية التي اشترك في إحداها ـ وهي اللپانتة ـ مؤلف دون كيخوته ، أي ثرڤانتس نفسه .

(٢) garamentes وهم شعب في وسط افريقيا ، فيما يذكر بعض الشراح!

فسأله سنشو : ولماذا يحترب هذان السيدان هكذا ؟

فأجابه دون كيخوته : هما يحتربان لأن على الفيّاش هذا رجل كافر غضوب وقع في غرام بنت پنتاپولين وهي فتاة رائعة الجمال راقية الآداب . هي نصرانية ، وأبوها لايريد أن يزفّها الى ملك كافر ، إلا إذا تخلّى عن شريعة نبيّه واعتنق شريعة حبيبته(١) .

فقال سنشو : وحقّ لحيتي أقسم أنّ پنتاپولين على حق وسأهب لنصرته بقدر ما أستطيع .

فقال دون كيخوته :لن تفعل إلا الواجب ، لأنه ليس من الضروري ولا المطلوب أن تكون مسلّحاً فارساً كيما تشارك في مثل هذه المعارك .

فقال سنشو : أفهم هذا جيداً . ولكن أين نضع هذا الحمار ، حتّى نضمن الحصول عليه بعد انتهاء المعركة ؟ لأن الدخول في حومة الوغى على ظهر هذه الدابة أمر أعتقد أنه لم يُرَ من قبل .

فأجاب دون كيخوته : هذا صحيح ، لكن كل ما تستطيع أن تفعله به هو أن تتركه يسرح كما يشاء ، وسواء ضاع أو وجدناه ، إذ بعد النصر سيكون أمامنا العديد من الخيول نختار منها مانشاء ، حتّى إن روثينانته نفسه في خطر أن يستبدل به آخر . لكن اسكت وانظر وأعرني كل سمعك . فسأذكر لك وأصف أشهر الفرسان القادمين في كلا الجيشين ، ولكي تراهم وتميّزهم بسهولة لنذهب الى تلك الربوة فمنها نستطيع أن تتبيّن كلاً منهم جيداً .

وتركا الطريق وصعدا مرتفعاً صغيراً منه كان يمكن رؤية القطيعين ، اللذين ظنّهما دون كيخوته جيشين ، بكل وضوح ، لولا أن غيوم الغبار التي ثارت تحت أقدامهما حجبت المنظر عنهما حجباً تاماً . ولكن دون كيخوته كان يرى بخياله ما لا يستطيع أن يراه بعينيه وليس بموجود ، فبدأ يقول بصوتٍ عال :

هذا الفارس الذي تراه هناك بأسلحته الذهبية ، ويحمل على ترسه البيضاوي أسداً متوّجاً يجثو عند قدمي فتاة ، هو الشجاع لوركلكو ، سيد جسر الفضة . وذلك الآخر صاحب الأسلحة ذات الأزهار الذهبية ، ويحمل على ترسه البيضاوي ثلاثة تيجان من الفضّة على مسطّح ذي لون أزرق سماوي ، هو الرهيب ميكوكولمبو ، الدوق العظيم في كيروسيه . والثالث ذو الأطراف الهائلة الذي عن يمينه هو الجسور دائماً برندبربرانْ دي بولنشه السيد

---

(١) في النص الاسپاني عبارة أملاها التعصّب الإجرامي! والقارىء سيضرب قطعاً صفحاً عن هذه الروح الوضيعة التي سيطرت على الكتّاب الاسپان ، خصوصاً في ذلك العصر .

المطلق على البلاد العربية الثلاثة[١] ، وقد تدرّع بجلد الأفعى ، واتخذ باباً ترساً له ، ويقال أن هذا الباب من بين أبواب المعبد الذي حطّمه شمشون حينما انتقم من بني فلسطين أعدائه فقتلهم وقتل نفسه . لكن أدرْ عينيك من هذه الناحية ، ترَ على رأس الجيش الآخر ، الظافر دائماً غير المقهور أبداً تيمونل القرقشوني ، أمير بشكايا الجديدة ، وقد غُطّي بأسلحة موشّاة بالأزرق السماوي والأخضر والأبيض والأصفر ، ويحمل على ترسه رسم قط ذهبي على مسطّح أسدي ، وهذه الأحرف الأربعة مواء[٢] ، وبها تبدأ اسم سيدته ، ابنة دوق «الفينيقيين في الغرب» . وذلك الآخر الذي يثقل كاهل تلك الفرس الجواد ، وأسلحته بيض كالثلج ، وليس على ترسه شارة ، هو فارس ناشيء ، فرنسي الأهل ، يدعى پيير پاپان[٣] سيّد بارونيّات أوتريقة . وذلك الثالث الذي يهمز بمهمازيه بطن ذلك الحمار الوحشي السريع المخطّط ويحمل أسلحة موشّاة بكؤوس زرقاء ، هو دوق نربيا القويّ ، اسبرطفيلردودلي بوسكه (صاحب الخميلة) ، وشارته المرسومه على ترسه حقل من الهليون مع هذه العبارة بالاسپانية Rastrea mi Suerte (اتبع مصيري) .

وعلى هذا النحو استمر دون كيخوته يسرد أسماء كثير من الفرسان تخيّل أنّه يراهم في عداد الجيشين ، وهو يهب ، بغير تردّد ، لكل منهم ماشاء له خياله الخصب من أسلحة وألوان وشارات . ودون أن يتوقّف لحظة قال متابعاً :

ـ وهذه الأسراب التي تراها في مواجهتنا تتألف من أمم شتّى لا تحصى : منهم قوم يشربون من ماء النهر العذب الذائع الصيت : اكسنثوس[٤] ، وقوم من أهل الجبل يطأون حقول مسيليه[٥] ، وقوم يغربلون ذهب بلاد العرب السعيدة الدقيق ، وقوم ينعمون بالشواطئ المونقة لنهر ثرمودون الصافي ، وقوم يستنزفون ، بشتّى الطرق ، نهر پكتولس[٦] الذهبي ، وهناك النوميديّون ذوو الإيمان المزعزع ، ـ والفرس المشهورون بمهارتهم في رمي القوس ، ـ والپارثيون والميديّون الذين يحاربون وهم يولون الأدبار ، ـ والعرب ، أصحاب

---

(١) وهي : البلاد العربية السعيدة (اليمن) ، والبلاد العربية القاحلة (نجد) والبلاد العربية المتحجرة (بادية الحجاز) .

(٢) تقليد صوت القط : ميو ، تهكّماً بالسيدة والفارس .

(٣) كان يسمّى بهذا الاسم شخص أحدب يبيع أوراق اللعب في اشبيلية ، بشارع الثعبان .

(٤) نهر في طروادة بآسيا الصغرى ، ويرى هوميروس أنه هو بعينه نهر اسكامندر ولكن الناس سموه اسكامندر ، والآلهة سموه اسكنثوس .

(٥) مسيله Massyla : القسم الداخلي من مراكش قرب جبل الأطلس ، ويقول كليمنثين إن المسيليين كانوا شعباً من أفريقية أطلق اسمهم على هذه الحقول .

(٦) نهر شير في لوديا ينبع على جبل طمولس ويصب في هرمس ، وكان ميداس يستحم في هذا النهر ، لما أن كان يحيل كل ما يمسته الى ذهب ، ولهذا تحول النهر الى نهر يقذف رمالاً ذهبية ، ولهذا سمّي باسم خروسرواس (نهر الذهب) .

الخيام المتنقّلة ، ـ والأشقوزيون وهم قساة القلوب بيض البشرة ، والأحباش وهم يعلّقون حلقاً في شفاههم ، وأخيراً ثمة مائة أمة أخرى أرى وجوههم وأتعرّفها لكن أسماءهم ندت عن ذاكرتي . وفي الجيش الآخر هاهم ولاء الذين يروون من الفيض البلّوري لنهر بتيس[1] ، وعليهم تيجان من أغصان الزيتون ـ ، والذين يغسلون ويصقلون وجوههم بمياه التاجه الذهبية الدائمة الجريان ، ـ والذين ينعمون بالمياه ذات الخصب في نهر خنيل المقدّس ، ـ والذين يطأون الحقول الطريفية[2] ذات المراعي الخصبة ، ـ والذين يمرحون في مروج شريش الناعمة كعلّيين ، ـ وأهل المنتشا المتوّجون بالسنابل الشقراء ، ـ والذين يلبسون الحديد وهم من سلالة قديمة يجري في عروقها دم القوط ، ـ والذين يستحمّون في نهر البسورجا الشهير برقّة تيّاره ، والذين يرعون قطعاناً كثيرة في المراعي الفسيحة التي يضمّها نهر جواديانا الكثير التعاريج ، المشهور بنبعه المجهول ، ـ والذين يقشعرّون من البرد في الرياح الصافرة في أودية البرانش ، أو تحت الثلوج التي تغطّي قمة الأبنين ، وأخيراً هناك سائر الأمم المتعدّدة التي تضمّها أوربا بين جوانحها[3] .

يا لله! كم من مقاطعات وأمم ذكرها وأعطى كلاً منها ـ بمهارة تثير الاعجاب ـ خصائصها ، وهو مستغرق بكليته في الأمور التي قرأها في كتبه الكاذبة! وخلال هذا كله ظل سنشو پنثا معلّقاً بكلماته دون أن ينبس بحرف واحد ، وكان بين الحين والحين يدير رأسه ليبصر ما إذا كان يرى فعلاً هؤلاء الفرسان والمردة الذين يسردهم مولاه . فلمّا لم ير أحداً قال :

ـ مولاي! وهبت نفسي للشيطان إن كان هناك إنسان أو مارد أو فارس من أولئك الذين ذكرتهم ، وعلى الأقل لاأبصر أنا واحداً منهم ؛ فلعل هذا أن يكون مجرّد سحر ، مثل أشباح ليلة أمس .

فأجابه دون كيخوته : كيف تقول هذا ؟ أولا تسمع صهيل الخيول ونفخ الأبواق وقرع الطبول ؟

---

(١) نهر في اسبانيا قديماً سمّي بهذا الاسم ، واسمه الآن جوادا الكبير .

(٢) الحقول الطريفية : اسم أطلقه أهل بتيقا القديمة على حقول طريف ، وطريف ، كما ورد في «الروض المعطار» : اسم بلد جزيرة طريف ، على البحر الشامي (البحر الأبيض المتوسط) في أوّل المجاز المسمّى بالزقاق(= مضيق جبل طارق) ، ويتصل غربها ببحر الظلمة (= المحيط الأطلسي) ، وسميت طريف نسبة الى مولى موسى بن نصير الذي بعثه سنة ٩١هـ ليبدأ فتح الأندلس ، ومعه أربعمائة رجل ومائة فارس في أربعة مراكب فنزل بالخضراء التي هي معبر السفن ، وتسمّى في العصر الاسلامي جزيرة طريف .

(٣) لعل هذا السرد الغريب لعدد من الأمم بعضها وجد فعلاً وبعضها خيالي ، إنّما قصد به ثرفانتس الى السخرية من لوبه دي فيجا الذي أورد ثبتا طنّاناً شبيهاً بهذا في الكتاب الثالث من كتابه «أركاديا» ، هذا فضلاً عن إثارته للضحك من دعوى دون كيخوته أنه يشاهد هؤلاء مجتمعين معاً في معركة واحدة يراها بعينه في تلك اللحظة!

فقال سنشو : لا أسمع مطلقاً غير ثُغاء خراف ونعاج متواصل!

وكان هذا حقاً كما قال سنشو ، لأن القطيعين كانا قد اقتربا بحيث يمكن سماع أصواتها .

فقال دون كيخوته : إنه الخوف الذي استولى عليك هو الذي يجعلك ، ياسنشو ، ترى وتسمع بعكس الواقع ، لأن من أثار هذا الانفعال البائس ، انفعال الخوف ، اضطراب الحواس ، وإظهار الأشياء على غير حقيقتها . فإن كنت جزعاً كل الجزع ، فانسحب الى ناحية ودعني وحدي : وسأهب بمفردي النصر للفريق الذي أنجده بساعدي!

وماقال هذه الكلمات حتى همز روثينانته وأشرع رمحه وانقضّ كالصاعقة من أعلى الرابية .

فصاح فيه سنشو بصوت جَهْوري :

ـ على رسلك ياسيّد دون كيخوته! أقسم بالله إنها أغنام وخراف تلك التي ستهاجمها . ياله من جنون! ارجع اذن بحق أبي الذي ولدني . انظر اذن! ليس ثمة مارد ولا فارس ولا قط ولا سلاح ولا تروس أنصاف أو كوامل ولا فراء مخطّط بالأزرق ولا عفاريت . ماذا أنت فاعل ، قل لي بحقِ ذنوبي عند الله!

ولم يكترث دون كيخوته لهذا كلّه ، بل راح يصيح بصوت عالٍ :

ـ هيّا أيها الفرسان المحاربون تحت لواء الامبراطور الشجاع پنثاپولين المشمّر الذراع . اتبعوني جميعاً ، وسترون كيف أنتقم له بسهوله من خصمه علي الفياش صاحب سرنديب .

وما نطق بهذه الكلمات حتّى انقضّ بين النعاج وبدأ يطعنها بالرمح غاضباً هائجاً متحمّساً كأنّه يضرب في ألد أعدائه . فصاح فيه رعاة القطيع أن أمسك عن هذه الدواب المسكينة . فلمّا رأوه لم يستمع لنصحهم حلّوا مقاليعهم وراحوا يقذفونه على أذنيه بحصى كبير في حجم قبضة اليد . لكن دون كيخوته لم يحفل بالحجارة التي انهالت عليه كالمطر ، وظل يجري هنا وهناك وهو يقول :

ـ أين أنت إذن ياعلي الفيّاش المتعجرف ؟ احضر إليّ فها هو ذا فارس واحد يريد أن يمتحن قوتك ، على انفراد ، وأن ينتزع منك حياتك عقاباً لك على ما تسبّبه للشجاع پنثاپولين غَرَمَنْته .

وفي هذه اللحظة أصابته حصاة نهرية في جنبه مباشرة فدكّت ضلعين من أضلاعه في معدته . هنالك أحسّ بأنّه مات أو جرح جرحاً بالغاً . وفي الحال تذكّر بلسمه فأخذ الكوز

ورفعه الى شفتيه وبدأ يصب هذا الشراب الثمين في جوفه . ولكن قبل أن يتم تجرّع ماحسبه ضروريّاً كافياً ، جاءته رمية أخرى أصابت يده وكوزه حتّى أطارت الكوز ودفعت إصبعين بشكل مروّع ، وفي مرورها اقتلعت ثلاث أو أربع أسنان من فمه . وكانت الضربتان الأولى والثانية من الإحكام والقسوة بحيث اضطر الفارس المسكين أن يسقط من على فرسه . فأقبل عليه الرعاة ، وظنّوه مقتولاً ، فأسرعوا بجمع قطعانهم وحملوا النعاج المقتولة على أكتافهم ، وكانت عدتها من ستة الى ثمانية ، وهرعوا هاربين .

وفي خلال هذا كلّه كان سنشو فوق الأعالي يتأمّل حماقات سيده وينتزع شعر لحيته بجمع يديه وهو يلعن اللحظة التي أتاحت له أن يتعرّف اليه . فلمّا رأه مجندلاً على التراب والرعاة يرحلون ، نزل من الرابية واقترب منه ووجده على أسوأ حال ، وإن لم يكن قد فقد الشعور . وقال له :

ـ ماذا إذن ياسيد دون كيخوته! ألم أطلب إليك أن تعود ؟ ألم أقل لك أنك إنما تهاجم قطعاناً من الضأن لا جيوشاً ؟

فأجابه دون كيخوته : آه! ويل لهذا اللص الساحر الحكيم عدوّي ، الذي استطاع تبديل الأمور واخفاءها! اعلم يا سنشو أن من السهل جداً على هؤلاء أن يخفوا مايريدون ، وهذا اللعين الذي يطاردني ، لأنه رآني على وشك الظفر بإكليل المجد في هذه المعركة فدبّت في قلبه عقارب الحسد منّي ، قد حوّل كتائب الجنود الى قطعان ضأن . وإلاّ فاعمل شيئاً يا سنشو ، أستحلفك بحياتي ، حتّى يزول عنك الوهم وترى مصداق مأأقول : وذلك أن تركب حمارك وتتبعهم دون أن تتظاهر بشيء ، وسترى أنهم حينما يبتعدون سيستعيدون شكلهم الطبيعي فلا يعودون نعاجاً بل أناساً تامّين كاملين كما وصفتهم لك من قبل . لكن لاتذهب الآن ، فأنا في أمس الحاجة الى معونتك ، وخدماتك .اقترب وانظر كم ينقصني من اسنان ، إذ يخيّل إلي أنه لم يبق في فمي منها شيء .

فاقترب سنشو من سيده كل القرب حتى كاد أن يضع عينه في حلقه . وفي تلك اللحظة كان البلسم قد بدأ مفعوله في معدة دون كيخوته ، ففي البرهة التي راح فيها سنشو ينظر في حال فكيه أصاب دون كيخوته غثيان فقذف كل مافي جوفه في لحية حامل سلاحه الحاني عليه بشدّه تضارع قذيفة البندقية .

فصاح سنشو : يا قدّيسة مريم! ماذا وقع لي ؟ لاشكّ في أن هذا الخاطئ جرح جرحاً مميتاً لأنّه يقيء دماً من فمه .

لكنّه لمّا أمعن النظر عرف من اللون والطعم والرائحة أنه لم يكن دمّاً ، بل كان بلسم

الكوز الذي حمله على الشرب منه . هنالك أصابته رغبة في القيء شديدة فاستفرغ كل أحشائه في وجه مولاه نفسه ، فأضحى كلاهما ذا منظر عجب!

وأسرع سنشو الى حماره ليأخذ من الخرج مابه يجفف سيده ويضمّده ، لكنّه لم يجد الخرج ، فكاد يفقد صوابه . وراح يلعن نفسه آلاف اللعنات ، وقرّر في أعماق قلبه أن يهجر سيده ويعود الى بلده ، ولو أدى به ذلك الى فقد أجرته وآماله في حكم جزيرة ، وطالما وعد بها .

ونهض دون كيخوته ممسكاً فكيه بيده اليسرى ليمنع ماتبقّى من أسنانه من السقوط ، وباليد الأخرى أخذ بعنان روثينانته ولم يكن هذا قد تحرّك عن جانب سيّده ، لأنه كان فرساً خادماً مطيعاً مخلصاً . ثمّ مضى يفتّش عن حامل سلاحه ، وكان هذا مطرقاً إطراقة رجل حزين ، صدره يستند الى حماره وخدّه في كفّه . فلمّا شاهده على هذه الحال وعليه علائم الأسف العميق قال :

ـ اعلم يا سنشو أن المرء لا يفضّل المرء إلا إذا فعل أكثر منه . وهذه العواصف التي اجتاحتنا إنّما هي علامات على أن الزمان سيستأنف بآخرةٍ صفاءه ، وأمورنا ستتحسّن ، فمن المحال دوام سوء الحال أو حسن الحال ، ومن هنا فلمّا كان سوء الحال مآل . فلا تحزن لما يصيبني من مصائب ، لأنك لاتشارك في شيء منها .

فأجاب سنشو : كيف لا أشارك ؟! وهل كان الذي يرنّح على الملاءة بالأمس شخصاً آخر غير ابن أبي ؟ والخرج الذي فقدته اليوم وكان فيه كل حاجياتي هل كان لشخص آخر غيره ؟

فقال دون كيخوته : ماذا يا سنشو ، هل فقدت الخرج ؟

فأجاب سنشو : نعم فقدته .

فقال دون كيخوته : إذن ليس عندنا اليوم ما نأكله!

فأجاب سنشو : سيكون الأمر كذلك إذا لم توجد في هذه المروج النباتات التي تزعم سيادتك أنك تعرفها جيداً ، والتي يستعيض بها عند الحاجة أمثالك من الفرسان الجوّالة المنكودي الطالع .

فقال دون كيخوته : ومع هذا فقد كنت أفضّل ، في الساعة التي نحن فيها الآن ، أن أظفر بربع من الخبز ورأسين من الرنجة ـ أفضّلها على كل الحشائش التي وصفها ذيوسقوريدس ولو كانت بشرح الدكتور لاجونا[1] . ورغم هذا ،اركب حمارك يا سنشو

---

(١) ترجم الدكتور أندريس دي لاجونا كتاب «الحشائش » لديوسقوريدس (العقاقير المفردة) من اليونانية الى الاسبانية وشرحه بحواش واضحة وافية وزوّده برسوم لكثير من النباتات النادرة والغريبة . وقد طبع عدة مرّات قبل ظهور « دون كيخوته » .والطبعة الأولى في أنفرس سنة ١٥٥٥ . وقد درس الكتاب دراسة ممتازة وافية جداً صديقنا سيزار دوبلر ، ونشر في دراسته حتى الآن مجلّدان ضخمان .

وامش خلفي ، فالله الذي أنعم بكل شيء لن ينسانا ، خصوصاً ونحن نعمل في سبيله : وهو لاينسى البعوض في الهواء ولا الدود في التراب ، ولا الضفادع الناشئة في الماء ، إنه رحيم يرسل نور الشمس لتضيء للأبرار والأشرار ، ويرسل الغيث فيهطل على العادل والظالم .

فأجابه سنشو : إن شئت الحق ، أنت أصلح للوعظ والإرشاد منك لأن تكون فارساً جوّالاً .

فقال دون كيخوته : ياسنشو! الفرسان الجوّالة يعرفون ـ ويجب أن يعرفوا ـ كل شيء ، ومنهم في العصور الماضيةمن كان يقف ليلقي موعظة أو خطبة في الطريق العام وكأنّه إنّما تخرّج من جامعة باريس ، ومن هنا يقال إنّ السيف[1] لايثلم القلم والقلم لايثلم السيف .

فأجاب سنشو : ليكن الأمر كما يشاء مولاي . ولكن هيّا بنا نبحث عن مبيت لنا هذه الليلة ، وأرجو الله أن يكون في مكان ليس فيه تطيير ولا مطيّرون ، ولاأشباح ولاأعراب مسحورون ، وإلاّ فالويل لنا كل الويل[2] .

فقال دون كيخوته : أطلب من الله ياولدي ، واقتدنا الى حيث أردت ، وأنا أريد هذه المرّة أن أترك لك أمر اختيار بيتنا . لكن قبل هذا هات يدك وتعال تحسّس بإصبعك كم فقدت من أضراس في هذه الناحية اليمنى من الفك الأعلى ، إذ هنا أشعر بالوجع الأشد .

فوضع سنشو يده في فمه وتحسّس ، ثمّ قال :

ـ اعتدت أن يكون لك كم ضرس في هذه الناحية ؟

ـ أربعة ، بخلاف ضرس العقل ، وكلّها كاملة سليمة .

ـ انتبه جيداً لما تقوله يامولاي!

ـ أقول إنه كان لي أربعة ، إن لم تكن خمسة ، فلم يُخلع لي ضرس واحد في حياتي ، وأنا لم أخلع منها عن مرض ولاشبهه .

ـ إذن ، من هذه الناحية في الفك الأسفل لم يبق لدى مولاي غير سنّين ونصف سن ، وفي الفك الأعلى لم يبق لا نصف ولا شيء ، فكلّه مجلوح كراحة اليد في الاستواء .

ـ واحسرتاه إذن ، هكذا صاح دون كيخوته وهو يسمع الأنباء السيئة التي يفضي بها اليه حامل سلاحه ، ليتهم كانوا قد اقتلعوا ذراعي بدلاً من هذا ، بشرط ألا تكون الذراع التي تحمل السيف . إذ يجب أن تعلم ياسنشو أن الفم بلا أسنان كالطاحون بلا حجر ، وعلى الإنسان أن يقدّر السن أفضل بألف مرّة من الماسة . ولكن هذه النكبات التي أصابتنا

---

(١) في النص : الرمح ـ ولكننا أثرنا السيف لأنه أنسب في العربية . وهذا القول مثل سائر .

(٢) هنا مثل بالاسباني هذا معناه . وسيلاحظ القارىء أن سنشو سيكثر من ضرب الأمثال .

هي مما نتعرّض له جميعاً معشر المنخرطين في هذا النظام القاسي ، نظام الفروسية الجوّالة . فاركب إذن ، ياصديقي ، وتقدّمنا ، وسأتبعك بالسرعة التي تريدها .

ففعل سنشو ما أمره به مولاه ، وسار في الناحية التي خيّل اليه منها أنّه يضمن العثور على مبيت ، دون أن يبتعد عن الطريق العام ، وهو كثير الطروق عند هذا الموضع . وسارا هكذا الواحد في إثر الآخر ، خطوة بخطوة ، لأنّ وجع الفكّين لم يدعا لدون كيخوته راحةً ولا رغبة في الإسراع . وأراد سنشو أن يسكّن ألمه ويرفّه عنه برواية نوادر ، فروى له مانورده في الفصل التالي .

الفصل التاسع عشر

في الأسمار اللطيفة التي سامر بها سنشو مولاه
وما جرى لهذا مع جثة ميت وحوادث أخرى مثيرة

يخيّل إلي يامولاي أن النوائب التي أحاقت بنا منذ أيام هي لابد عقاب عن الخطيئة التي ارتكبها سيادتك ضد نظام الفروسية بتخلّفك عن الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسك وهو : ألاّ تأكل خبزاً على مائدة ، ولا تمزح مع الملكة وما يترتّب على ذلك ، ثمّ قسمك أن تعمل على الاستيلاء على خوذة مالاندرينو ، أو كما يسمّى هذا العربي ، لأنّي لا أذكر اسمه تماماً .

فأجاب دون كيخوته : أنت على حق كل الحق يا سنشو ، لكن الصدق يقتضيني أن أقول أن هذا الأمر قد ندّ تماماً عن ذاكرتي . وتستطيع أن تتأكّد أن ماوقع لك من حادثة التطبير إنما كان عقاباً لك على غلطتك في عدم تذكيري بذلك في الوقت المناسب . لكنّي سأصلح خطيئتي ، إذ في نظام الفروسية يوجد ترتيب لكل شيء .

ـ ولكن ، هل أقسمت أنا على شيء ؟ بهذا أجاب سنشو .

ـ لا يهم أن تكون قد أقسمت على شيء ، هكذا قال دون كيخوته ، بل يكفي ألا تكون بمأمن تام من تهمة الاشتراك (في الإثم) .وأيّاً ماكان الأمر ـ نعم أو لا ـ فالأحسن أن نتزوّد بالرخصة .

ـ إذا كان الأمر كذلك ، هكذا قال سنشو ، فليأخذ مولاي حذره حتّى لاينسى هذا القسم الجديد كما نسي الآخر ، لأن الاشباح يمكن أن تعاودها الرغبة في العبث بي مرة أخرى ، بل وبمولاي أيضاً إن رأوه سارداً في غيه .

وخلال هذه الأحاديث وأمثالها ، فاجأهم الليل في وسط الطريق دون أن يعرفوا أين وكيف يجدون المأوى . وشر مافي الأمر أنهما كانا يتضوران جوعاً ، إذ بضياع الخرج ضاع الزاد . ولتوكيد هذه المصيبة جرت لهما مغامرة يمكن أن تسمّى ، حقّاً وبغير احتيال ،

مغامرةً . كان الليل قد وافى والظلام الدامس خيّم ، ورغم ذلك تابعا المسير ، إذ اعتقد سنشو أنهما لن يسيرا فرسخاً أو فرسخين على الطريق العام حتّى يجدا فندقاً . وبينما يسيران هكذا في الليل البهيم ؛ وحامل السلاح يتضوّر جوعاً ودون كيخوته قد أخذه نهمٌ شديد ،شاهدا على الطريق الذي يسلكانه موكباً من الأنوار قادماً ، شبيهاً بالنجوم المتحرّكة . فأغمي على سنشو حينما شاهده ، وأحس مولاه بالفزع ، فسحب أحدهما حماره بخطامه ، وسحب الآخر فرسه بلجامه ، وظلاّ هادئين ينظران باهتمام بالغ ماذا عسى هذا أن يكون . فأبصرا الأنوار مقبلة مباشرة ناحيتهم ، وكلّما اقتربت بدت أكبر . فارتعدت فرائص سنشو لهذا المنظر ، وانتفض شعر دون كيخوته ، لكنّه تشجّع قليلاً وقال :

- هذه من غير شك مغامرة كبيرة خطرة ، لا بد لي فيها ياسنشو أن أكشف عن كل شجاعتي وقوّتي .

فأجاب سنشو : يا لشقائي! إن كانت هذه أيضاً مغامرة أشباح ، كما يبدو من مظهرها ، فأين أجد الأضلاع التي تكفيها ؟

فقال دون كيخوته : أيا كانت أشباحاً ، فلن أسمح لها أن تمسّ شعرة بل فتلة من ثيابك . وإذا كانت عبثت بك في المرة السالفة ، فالسبب في ذلك أنّي لم أقوْ على تسلّق جدران الفناء ،لكنّنا الآن في أرض سهلة منبسطة ، فيها أستطيع أن أعمل سيفي كما أشاء .

فأجاب سنشو : وإذا سحروك ونفخوك كما فعلوا في المرة السالفة ، فما يفيدك أن تكون في أرض سهلة أو غير سهلة ؟

فقال دون كيخوته : على كل حال أتوسّل إليك ياسنشو أن تلملمْ شجاعتك ، وستريك التجربة شجاعتي .

فأجاب سنشو : نعم! سأتشجّع إن شاء الله .

وانحرفا عن الطريق قليلاً وأنشآ يتأملان باهتمام ماذا عسى هذه الأنوار السائرة أن تكون . وسرعان ماشاهدا جمعاً من الناس يلبسون قمصاناً بيضاً . وكان منظر قضى على مابقي عند سنشو ينتا من شجاعة فراحت أسنانه تصطك كمن أصيب بحمّى الربع . وزاد الفزع والاصطكاك لمّا أن أبصرا بوضوح ماهنالك . لقد شاهدا عشرين رجلاً على الأقل متقمّصين راكبين أفراساً ، ويحملون في أيديهم مشاعل ، وراءها نعش مجلل بالسواد والحداد ، يتلوه ستّة فرسان يلبسون السواد حتّى حوافر بغالهم ، إذ كان يبدو من هدوء سير هذه الدواب أنها ليست خيولاً . وكانت هذه الأشباح البيض تسير وهي ترطن بكلمات غير مفهومة بصوت شاكٍ خفيض .

هذه الرؤية الغريبة ، في مثل هذه الساعة وفي هذا الموضع القفر الموحش ، كانت كافية لإشاعة الرعب في قلب سنشو ، بل وفي قلب مولاه ، لكن بينما تبددت شجاعة سنشو ، وقع العكس لدون كيخوته إذ زوّر له خياله الجامح أنه بإزاء مغامرة من المغامرات التي وصفتها كتبه .

فقد خيّل إليه بأن النعش محفّة حُمل عليها فارس ميّت أو جريح جراحاً بالغة ، وأن الإنتقام له احتفظ به لدون كيخوته وحده . ودون أن يواصل التفكير تمكّن من متن فرسه وأشرع رمحه وبكل ثقة راح يقف في منتصف الطريق حيث لابد أن يمرّ ذوو القمصان . ولم يكد يراهم قريبين حتّى صاح بأعلى صوته :

ـ قفوا أيها الفرسان أو من تكونون ، وأخبروني من أنتم ومن أين أتيتم ، والى أين تذهبون ، وماذا تحملون على هذه المحفّة . إذ يبدو من مظاهر الأحوال أن تكونوا ارتكبتم أو أصابتكم جناية . فمن المناسب إذن ومن الواجب أن أعرف جليّة الأمر ، إمّا لعقابكم على ما اجترحتم من إثم ، أو للإنتصاف لكم من إثم وقع عليكم .

فأجاب أحد المتقمّصين : نحن على حدّ عجلة ، والفندق بعيد ، فليس لدينا وقت لتقديم حساب عمّا تطلب ، ثمّ همز بغله وتقدّم . فغضب دون كيخوته لهذا الجواب أيما غضب ، فأمسك بالبغل من شكيمته وقال :

ـ قفوا وكونوا أكثر تأدّباً . وأجيبوا عمّا سألت عنه ، وإلاّ أعلنتها عليكم جميعاً حرباً شعواء .

وكان البغل هياباً ، فلمّا أحس بشدّة الشكيمة شبّ وانقلب على الأرض براكبه . وكان ثمة خادم راجل ، لمّا شاهد سيّده يقع راح يسبّ دون كيخوته . وكان هذا قد اتقّد غيظاً ، فخفض رمحه ودون أن ينتظر حملّ على أحد اللابسين السواد فقذف به بعيداً يتدحرج على التراب صريع ضربة شديدة . ثمّ انقلب الى سائر الجماعة فهاجمهم بسرعة ومهارة وطرحهم الواحد تلو الآخر ، وكأنّما نبتت أجنحة في روثيناته هذه اللحظة ، إذ بدأ الفرس نشيطاً فخوراً .

وكان ذوو القمصان جميعاً قوماً عزّلاً مسالمين ، لم يتلقّوا الضربة الأولى حتّى أطلقوا لسيقانهم الريح ومضوا يعدون هاربين بمشاعلهم خلال السهل الفسيح ، حتّى كان منظرهم كمنظر مواكب المساخر وهي تجري في ليالي الكرنفال . أمّا المجلّلون بالسواد فقد كانوا مغلّفين في سراويلهم الطويلة بحيث لم يقدروا على الحركة . فاستطاع دون كيخوته إذن أن ينسأهم ويطردهم جميعاً أمامه ، حتّى صار فارس الميدان وحده بأرخص الأثمان ، ذلك أنهم

جميعاً حسبوه لارجلاً بل الشيطان نفسه جاء من الجحيم لينتظرهم في عرض الطريق ، لينتزع منهم الميت الذي حملوه على النعش .

وكان سنشو يتأمّل هذا كلّه معجباً بجسارة مولاه ، وقال في نفسه : «لاشكّ في أنّ مولاي شجاع وقوي كما يقول» . والى جوار من أسقطه البغل أول الأمركان ثمة مشعل متّقداً على الأرض . وعلى ضوئه أبصره دون كيخوته ، وتقدّم إليه ووضع طرف حربته على حلقه وطلب منه أن يستسلم وإلاّ قتله . فأجابه الطريح :

ـ لقد استسلمت ، لأنّي لا أستطيع الحركة ، وأظن إحدى ساقي مكسورة . لكن إن كنت نبيلاً ومسيحيّاً فإنّي أتضرّع الى سيادتك ألا تقتلني ، وإلا ارتكبت دنساً عظيماً ، لأنّي حامل إجازة (ليسانسييه) وتلقّيت الأوامر الدينية الأولى .

فقال دون كيخوته : وأي شيطان جاء بك الى هنا ، وأنت من رجال الكنيسة ؟

فأجاب الطريح : من ، يا سيّدي ؟ ـ إنه سوء البخت .

فقال دون كيخوته : يهدّدك من هو أعظم ، إذا لم تجب في الحال على كل الأسئلة التي ألقيتها عليك .

فأجاب حامل الإجازة : ستنال سؤلك . وسيعمل مولاي أنّي لست بعد إلا حامل بكالوريا وإن كنت قد قلت منذ قليل أنّي ليسانسييه . اسمي ألونثو لوپث ، من ألقو بندس . وأنا قادم من مدينة بيّاسة[1] ، بصحبة أحد عشر قسّيساً هم أولئك الذين هربوا بالمشاعل . ونحن ذاهبون الى أشقوبية نشيّع ميّتاً يرقد مسجّى في هذا النعش ، وهذا الميّت هو نبيل توفّي في بيّاسة ووضع مدة في المقبرة ، لكنّنا كما قلت لك نحمل عظامه الى أشقوبية حيث مقابر أسرته .

فسأله دون كيخوته : ومن قتله ؟

فأجاب حامل البكالوريا : الله ، بواسطة حمّى خبيثة أرسلها إليه .

فقال دون كيخوته : في هذه الحالة قد أعفاني الله من مؤونة القيام بالإنتقام له لو أنّ أحداً آخر هو الذي قتله . ولكن مادامت يد الله هي التي صرعته ، فليس أمامي إلا السكوت وثني الأكتاف ، ولو أن الله هو الذي صرعني لما فعلت غير هذا ، لكنّي أود أن أخبر فضيلتك أنّي فارس

---

(١) بياسة : قال عنها صاحب «الروض المعطار» : «بالأندلس . بينها وبين جيان عشرون ميلاً وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى . وبياسة على كدية من تراب ، معلّة على النهر الكبير المنحدر الى قرطبة ، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر ، وحولها زراعات ، ومستغلات الزعفران بها كثيرة» (ص ٥٧) . واسمها القديم Beatia ، على مسافة ٤٠ كم شمال شرقي جيّان ، وبها كاتدرائية رائعة ، وكان بها جامعة ألغيت سنة ١٥٢٢ وبقيت في أيدي المسلمين حتّى سنة ١٢٢٧م .

من المانتشا أدعى دون كيخوته ، ووظيفتي أن أذرع الدنيا لإصلاح الأضرار وردّ المظالم .

فقال حامل البكالوريا : لستُ أدري ماذا تعني بإصلاح الأضرار ، لأنّي كنت مستقيماً فجعلتني معوجّاً ، وتركتني بساق مكسورة لن تستقيم أبداً مدى الحياة ، والظلم الذي رددته فيّ هو أنك أوقعت بي ظلماً لن يُردّ أبداً ، وأعظم نائبة يمكن أن تحلّ بي هي أن ألقاك ساعياً وراء المغامرات .

فأجابه دون كيخوته : لاتجري الأمور كلها على وتيرة واحدة ، المصيبة أتت ، ياسيّدي يا حامل البكالوريا يا ألونثو لوپث من كونكم كنتم تسيرون ليلاً مرتدين « كتّونات »[1] بيضاء وفي أيديكم مشاعل وترطنون بكلمات بين شفاهكم وتتدثرون بالحداد ، فكان مظهركم مظهرأشباح وأناس من عالم آخر . ولهذا لم أقو عن التخلّي عن القيام بواجبي في مهاجمتكم ، وما كان لي أبداً أن أتخلّى عنه حتّى لو كنتم فعلاً ـ كما كنت أعتقد ولا زلت ـ جيلاً من الجن فرّوا من الجحيم .

فقال حامل البكالوريا : مادام سوء طالعي قد أراد هذا ، فإنّي أتوسّل اليك ، ياسيدي الفارس الجوّال ، يا من ستحرمني طويلاً من الجولان ، أن تساعدني على التخلّص من هذا البغل فإن ساقي تحته وقعت بين السرج والركاب .

فقال دون كيخوته : يبدو إذن أنّك كنت تتكلّم للغد ؟ وأي شيطان جعلك تنتظر حتّى تقصّ عليّ همومك ؟

ثمّ نادى سنشو پنثا ليحضر . لكن هذا لم يحفل بالاسراع لأنّه كان مشغولاً بسلب ماعلى دابة حمل من زادٍ ثمين لهؤلاء القساوسة . لقد صنع سنشو من ثيابه كيساً حشاه بكل ماستطاع حشوه به ، وحمله على حماره ، ثم عدا على نداء سيده ، وعاونه على استخراج حامل البكالوريا من تحت بغله . واستطاعا أن يركباه على البغل ، وأعادا اليه المشعل وطلب إليه دون كيخوته أن يسلك السبيل التي اتخذها رفاقه ، وكلّفه أن يسألهم بإسمه الصفح عن إهانة لم يكن في وسعه الإمتناع عن إرتكابها . وقال له سنشو أيضاً :

ـ وربّما أراد هؤلاء السادة أن يعرفوا من الشجاع الذي بدّد شملهم ، فأخبرهم أنّه دون كيخوته دلامنتشا الشهير ، الملقّب بالفارس الحزين الطلعة .

ومضى حامل البكالوريا لطيّة . وهنالك سأل دون كيخوته صاحبه سنشو لماذا لقّبه بلقب « الفارس الحزين الطلعة » في هذه اللحظة لا في غيرها .

---

(١) قميص يلبسه الكاهن أثناء خدمة القدّاس ، والكلمة نصرانية دخيلة . وهي بالاسبانية soprobellicss وبالفرنسية surplis .

فأجاب سنشو : سأقول لك : ذلك أنّي تأمّلتك على ضوء هذا المشعل الذي يحمله ذلك الأعرج المسكين ، فبدا لي سيادتك فعلاً على أقبح صورة رأيتها منذ عدّة سنوات ، ولاشكّ أنّ هذا مرجعه إمّا الى متاعب النضال والعراك ، أو الى فقدان أسنانك .

فقال دون كيخوته : لا ، ليس الأمر كذلك . لكن الحكيم الموكّل بكتابة تاريخ مغامراتي سيستحسن أن أتخذ لقباً ذا دلالة خاصة ، كما فعل سائر الفرسان في العصور الماضية . فمنهم من كان لقبه : «فارس السيف المشبوب» ، ومن كان لقبه «فارس الفونقس» (العنقاء) ، أو «فارس العُقاب» ، أو «فارس الموت» ، وبهذه الألقاب والشارات عُرِفوا في الدنيا كلّها . ولهذا فإنّ الحكيم الذي ذكرته لك قد أودع في فكرك ولسانك هذا الاسم : «الفارس[1] الحزين الطلعة» وهو الذي أرى أن أسمّى به منذ الآن ، وحتّى ينسجم عليّ هذا الاسم ، قرّرت أن يُرسم على ترسي ـ بمجرّد أن تسنح الفرصة ـ صورة وجه حزين كئيب .

فقال سنشو : لا داعي لإضاعة الوقت والمال في هذه الصورة . إذ يكفي مولاي أن يبرز طلعته وأن يحملق في وجوه من يتطلّعون إليه ، وأنا زعيم بأنهم سيطلقون عليك في التوّ اسم «الفارس الحزين الطلعة» ، دونما حاجة الى صورة أو ترس . وصدّقني أن ما أقوله الحق . وعلى سبيل المزاح أؤكّد لك أنّ الجوع وانعدام الأسنان قد جعلا لك طلعة بائسة تغني بسهولة عن كل تصوير .

فتبسّم دون كيخوته ضاحكاً من قول حامل سلاحه ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه على اتخاذ هذا الاسم ، وأن يرسم على ترسه هذا الاسم الذي أراد . ثمّ قال لسنشو :

ـ ألا تعلم أنني قد دمغت بالطرد والحرمان لأني تطاولت بيدي على شيء مقدّس ، بمقتضى هذا النص[2] : «من أغراه الشيطان... ألخ» وإن كنت أعلم جيداً أنّي لم أتطاول بيدي ، بل بهذا الرمح . على أنّي لم أقصد أبداً إهانة رجال دين أو أمور كنيسة ، لأنّي

---

(١) هذا الاسم قد استعاره ثربنتس من كتب الفروسية أيضاً . فقد كان لقب الأميرديوكليانو الذي أصبح فيما بعد ملكاً ، وكان ابناً للملك غرثون دلا لوبا والملكة ديوكليثياالتي كانت من أمهر السحرة ، وقد تزوّج ديوكليانو من حبيبته ليونيا ، ومن هذا الزواج ولد لهما ولد اسمه فلوريمان دي جرثيا ، وكان شاباً عاشقاً شجاعاً كأبيه . وقد نبّه الى هذا رودريجث مارين في مقال نشره في «مضبطة الأكاديمية الملكية الاسبانية» ، السنة الثانية (سنة ١٩١٥) الكراسة٢ ، وعاد وفصله في مقال له يكون الفصل ١٦ من تعليقاته في المجلّد التاسع من نشرته الكبرى لدون كيخوته (ج٩ ص٢٣١ ـ ص ٢٣٥) . ومن القصة التي ترد فيها أخبار هذا الفارس توجد نسخة في المكتبة الأهلية بمدريد ، وأخرى في المتحف البريطاني بلندن .

(٢) هذا النص في قرار أصدره مجمع ترنت ، وتمامه : «من ضرب أحد رجال الدين يحرم ، ولا يغفر له إلا بأمر البابا . ومن أغراه الشيطان فارتكب جريمة أو انتهك حرمة بأن تطاول بيده على كاهن أو راهب ، فقد حلّت عليه اللعنة» .

احترمهم وأعبدهم شأن المسيحي الكاثوليكي المُخلص ، بل قصدت أشباحاً من العالم الأخر . ولو كان الأمر كذلك ، لما كنت نسيت ما وقع للسيّد روي دياث حينما حطّم كرسي أحد الملوك ، أمام قداسة البابا ، فحرمه في التو لهذا السبب ، وهو أمر لم يمنع ردريجو دي فيفار العليب من أن يتصرّف في ذلك اليوم تصرّف الفارس المخلص الشجاع[1] .

وكان حامل الإجازة في تلك الأثناء قد ابتعد ، فرغب دون كيخوته في أن يعرف ماإذا كانت الجثة الموضوعة في النعش من لحم أو عظام . لكنّ سنشو لم يوافق على ذلك أبداً وقال له :

ـ مولاي! لقد نهضت بهذه المغامرة الخطيرة بتكاليف أقل مما أنفقت في أيّة مغامرة سابقة رأيتك تقوم بها . وهؤلاء القوم ـ وإن هزموا ومزق شملهم ـ فيمكن أن يدركوا ويتنبّهوا الى أن شخصاً واحداًقد جندلهم ، فيحملهم العار والحفيظة على أن يعودوا ليأخذوا بثأرهم وينالوا منّا ما يوجعنا . والحمار على استعداد ، والجبل قريب ، والجوع يُلهبنا : فليس أمامنا إلا أن ننسحب بأقدام خفاف ، وكما يقولون : فليذهب الميت الى القبر ، والحي الى الخمر .

ثمّ أخذ حماره من مقوده ، ورجا مولاه أن يتبعه ، ورأى هذا مافي كلام سنشو من عقل وحكمة ، فتبعه ولم يرد له جواباً .

وبعد أن سارا زمناً بين رابيتين ، وصلا وادياً فسيحاً نضراً ، فحطّا الركاب . وأراح سنشو حماره . ثمّ تمدّد الخادم ومولاه على العشب الأخضر ، تحدوهما شهية عارمة ، فأفطرا وتناولا الغداء والعشاء كلها جملة واحدة ، وملآ بطنيهما كلها من اللحوم المقدّدة التي حرص السادة رجال الدين كهنة المرحوم أن يزوّدوا بها أكتاف البغل ، وهم قومٌ نادراً ماينسون شؤون هذه الحياة الدنيا! لكن وقع لهما شرٌّ آخر ، وجداه شرّ الشرور : ذلك أنهم لم يكن لديهم نبيذ يشربونه ، بل ولا قطرة ماء يرويان بها الظمأ . فالتهبت أحشاؤهما من العطش . ولمّا رأى سنشو أن المرج الذي يرقدان عليه فيه عشب نضير وفير صغير ، قال مانرويه في الفصل التالي .

---

(١) يشير دون كيخوته في هذا المقام الى تلك الأشعار الواردة في « رومانثيرو السيد » والتي ورد فيها :

« في كنيسة القديس بطرس ، دخل دون رودريجو ، فشاهد سبع كراسٍ لسبعة ملوك نصارى ، وأبصر كرسي ملك فرنسا بجانب كرسي الأب الأقدس (البابا) بينما كرسي سيّده الملك أبعد منه . فأهوى على كرسي ملك فرنسا وقذفه بقدميه وكان الكرسي من العاج ، فانكسر أربع قطع . ثمّ أخذ كرسي ملكه ورفعه الى أعلى مكان... وما علم البابا في الأمر حتى أمر بحرمان السيد » .

الفصل العشرون

في المغامرة العجيبة التي قام بها الشجاع دون كيخوته
بأقل خطر تعرّض له فارس شهير في أية مغامرة

« إن نضرة هذا العشب لشاهد لايردّ على وجود نهر أو ينبوع في هذه النواحي منه يرتوي . فمن الخير لنا إذن أن نتقدّم قليلاً ، فسنجد قطعاً ما يطفئ الغليل المخيف الذي يلحّ علينا ، وعذابه أشدّ نكراً من عذاب الجوع » .

ورافأه دون كيخوته على هذا الرأي ، فأمسك بعنان روثينانته واقتاد سنشو حماره من خطامه بعد أن وضع على ظهره بقايا العشاء . ثمّ استأنفا المسير صاعدين في المروج خبط عشواء ، لأن ظلام الليل قد حال دون رؤية الأشياء . وماسارا مائتي خطوة حتّى قرع أسماعهما خرير صاخب كأنه خرير شلال يسقط من أعلى الصخر . فأحسّا لدى هذا الضجيج بغبطة لاتوصف ، وتوقّفا ليصغيا الى مصدره ، فسمعا في الحال ضجيجاً آخر سكّن غبطتهما وعطشهما معاً ، خصوصاً سنشو وهو الجبان بطبعه . ذلك أنهما سمعا ضربات خرساء شديدة ، تنهال على إيقاع وتصحبها قرقعة قيود وسلاسل حديدية ، كانت بالإضافة الى ضجيج السيل كافية لإشاعة الرعب في أي قلب آخر غير قلب دون كيخوته . وكان الليل ، كما قلنا ، دامس الظلام ، وقادتهما الصدفة الى أيكة من الأشجار السامقة تحرّك أوراقها الريح فتصدر عنها ضوضاء عذبة ومخيفة معاً ـ حتّى إن الوحدة والمكان والظلام وخرير الماء وحفيف الأوراق ـ كل ذلك نشر الرعب والفزع . وازداد الأمر سوءً لمّا أحسّا أن الضربات لا تزال تتوالى ، والريح تعصف ، والفجر تأخّر في البزوغ حتّى يعرفا على الأقل أين مكانهما .

لكن دون كيخوته بقلبه الجسور وثب على روثينانته والتأم ترسه وأشرع رمحه وصاح :

ـ يا صاحبي سنشو! اعلم أن إرادة السماء شاءت لي أن أولد في العصر الحديدي هذا لكي أبعث فيه العصر الذهبي . من أجلى الأخطار الرهيبة ، والأفعال المجيدة والمغامرات

الرائعة . نعم! أنا الذي عليه أن يبعث أبطال المائدة المستديرة الخمسة والعشرين ، وأكفاء فرنسا الاثني عشر وفرسان «الشهرة» التسعة ، أنا الذي سأجر ذيول النسيان ـ بأعمالي الخارقة ـ على بلاتير وفيبوس وبليانيس وتابلان وأوليفان وتيران وأضرابهم وهذا الحشد الهائل من الفرسان الجوّالة المشهورين في القرون الماضية ، وسآتي في هذا القرن الذي أعيش فيه من الأعمال الحربية العظيمة الرائعة مايغطّي على أروع ماتباهى به الآخرون . تأمّل جيداً ، أي حامل سلاحي المخلص الأمين ، تأمّل ظلمات هذه الليلة وسكونها العميق ، وحفيف هذه الأشجار المختلط الأخرس ، وجلبة هذا الماء الذي جئنا من أجله ويلوح وكأنّه يتدافع من أعلى جبال القمر ، وأخيراً ذلك الضجيج المتواصل لضربات متوالية تمزّق الأسماع . وكلّها أمور يكفي واحد منها لأن يشيع الدهشة والخوف والهلع في روح إله الحرب ، المشتري ، نفسه ، فما بالك بمن لم يتعوّد هذه الأحداث! إن هذه الأشياء التي وصفتها لك كلّها دوافع تحفزني وتبعث شجاعتي ، وهذا قلبي يتواثب في صدري لشدّة رغبتي في مواجهة هذه المغامرة ، وإن لاح من تباشيرها أنها عامرة بالأخطار . وإذن شدّ ياسنشو أحزمة روثينانته ، وابق في حفظ الله . وستنتظرني أنت هنا طوال ثلاثة أيّام ، إن لم أعد بعدها إليك تستطيع أنت أن تعود الى قريتنا ، ومن هناك ـ حتّى تعمل عملاً صالحاً وتخدمني ـ تذهب الى توبوسو وتقول لدلثنيا ، سيدتي المنقطعة النظير ، أن أسيرها الفارس قد مات وهو يؤدّي أعمالاً خالدة تجعله أهلاً لها .

فلمّا سمع سنشو سيده يتحدّث على هذا النحو ، أنشأ يذرف أحرّ العبرات بحنان عميق ، وقال له :

ـ لست أدري ، يا مولاي ، لماذا تريد أن تلقي بنفسك في مثل هذه المغامرة الحافلة بالأخطار . نحن الآن في الليل ولايرانا أحد ، ففي وسعنا إذن أن نغيّر طريقنا ونخلص من الخطر ، ولو أدّى بنا ذلك الى عدم الشرب ثلاثة أيّام متواليات . ومادام لايرانا أحد ، فلن يكون ثمّة من ينعتنا بالجبن . هذا الى أنّي كثيراً ماسمعت قسيس الناحية يعظ ويقول ـ ومولاي يعرف هذا القسيس جيداً ـ إن من يسع الى الخطر يهلك به . ولهذا فليس من صواب الرأي تحدّي الله بإلقاء النفس في هذه التهلكة التي لاخلاص منها إلا بمعجزة . وكفاكَ معجزة بما حبته لك السماء أنك لم تطيّر كما طُيّرت أنا ، وأنّك ظفرت بنصر مؤزّر ـ لم يصبك من وراءه أقل خدش ـ على كل هؤلاء الأعداء الذين كانوا يشيعون جثمان الفقيد . فإذا لم يستطع هذا كلّه أن يؤثّر في هذا القلب الذي قدّ من صخر ، فليرّق على الأقل وهو يفكّر في هذه الواقعة وهي أن مولاي لن يبتعد من هنا خطوة حتّى أسلّم روحي فزعاً لمن يطلبها . لقد

هجرت بلدي وتركت أهلي وأولادي لأتبع مولاي وأكون خادمه ، وأنا أعتقد أنّي سأصبح خيراً مما كنت . لكن الطمع ـ كما يقولون ـ يمزّق الجوالق[1] ؛ فقد حطّم أمالي ، إذ في الوقت الذي حسبت فيه أنّي على وشك الظفر بتلك الجزيرة المنحوسة التي طالما وعدني بها مولاي ، هاأنت ذا مقابل خدماتي تريد أن تتركني وحيداً في مكان ناء عن بني الإنسان . أواه! بحق الواحد الذي لاشريك له لا تكن قاسياً عليّ يا مولاي كل هذه القسوة . وإذا كان مولاي لايريد أبداً العدول عن الخوض في هذه المغامرة ، فلينتظر على الأقل حتّى الصباح ، إذ بحسب العلم الذي لُقّنته حينما كنت راعياً لم يبق على بزوغ الفجر غير ثلاث ساعات ؛ ذلك أنّ فم الدب الأكبر فوق رأس الصليب ، بينما منتصف الليل يرتسم على خط الذراع اليسرى .

فأجاب دون كيخوته : لكن ياسنشو كيف قدرت أن تبصر هذا الخط أو تدرك أين الفم والرأس ، مع أنّ الليل مدلهمّ بحيث لايستطيع المرء أن يميّز نجماً واحداً .

فقال سنشو : هذا صحيح ، لكن للخوف عيوناً نافذة ، ومادام يقال إنه يبصر ما تحت الأرض ، فكيف لايبصر ما في السماء! على أنّه من السهل أن يحزر المرء أن الصبح ليس ببعيد .

فقال دون كيخوت : ليأت عمّا قليل أو عمّا أكثر ، ولكن لن يقال ، في هذه الساعة ولافي أي وقت ، أن دموعاً أو توسّلات قد حالت بيني وبين القيام بواجبي بوصفي فارساً . فأرجوك إذن ياسنشو أن تلتزم الصمت . والله الذي ألهم قلبي الرغبة في مجابهة هذه المغامرة الهائلة الرهيبة ، سيعنى بحفظي وبعزائك في أحزانك . وماعليك إلا أن تشد أحزمة روثينانته وأن تنتظر هاهنا ، وأعدك أن أعود بعد قليل : ميّتاً أو حيّاً .

فلمّا رأى سنشو رسوخ عزم مولاه وقلة تأثير النصح فيه والدموع والتوسلات ، قرّر أن يستخدم الحيلة ويحمله مااستطاع على انتظار طلوع النهار طوعاً أو كرهاً . ومن أجل هذا ، بينما كان يشد أحزمة روثينانته ، ودون أن يرى أو يظهر عليه شيء ، ربط حافري الفرس بخطام الحمار ، حتّى إنه حينما أراد دون كيخوته المسير لم يستطع ، لأن الفرس لم يقدرعلى الحركة ، اللهم إلا وثباً وقفزاً . فلمّا شاهد سنشو ينثا أن حيلته أفلحت قال :

ـ مولاي! ها أنت ذا ترى أن السماء تأثرت بدموعي وتضرّعاتي فأمرت ألا يستطيع روثينانته الحركة من هنا ، وإذا لجّ بك العناد وعذّبت هذه الدابة المسكينة ، فمعنى ذلك أنّك تريد أن تعاند القدر وتشك الإبرة!

---

(١) أي أن الجشع والرغبة في ملء الجوالق (الشوال) بأكبر مقدار ممكن يجعل الجوالق تتمزّق . وهو مثل سيرد ذكره كثيراً .

فاستولى اليأس على دون كيخوته ، وكلّما همّ بفرسه ازداد عسر تحريكه . لهذا قرّر أن ينتظر حتّى يطلع النهار أو يوافق روثينانته على المسير ، ولم يداخله أي ظن أن هذه المقاومة إنّما أتت من حيلة سنشو . وقال :

ـ مادام الأمر هكذا وروثينانته لايشاء التحرّك ، فلأقنع بانتظار أول بسمات الفجر وإلاّ كنت بالأحرى راغباً في البكاء على طول تأخّره في البزوغ .

فقال سنشو : ليس مايدعو للبكاء : فسأروي لك قصصاً حتّى يدركنا الصباح ، اللهم إلا إذا كنت تودّ النزول والنعاس قليلاً على العشب النضير ، كما هي عادة الفرسان الجوّالة حتّى تكون أوفر استعداداً ونشاطاً وأنت تقوم بهذه المغامرة التي لا يشبهها شيء .

ـ ماذا تقول ؟ أنام ؟ أنزل من فرسي ؟ هل أنا إذن واحد من أولئك الفرسان الذين ينامون في ساعة الخطر ؟ نم أنت يا من خلقت للنوم ، أو إفعل ما شئت ، أمّا أنا فسأعمل ما أراه الأفضل .

ـ لا تغضب ، يا مولاي ، فلم أقل هذا لإثارة حفيظتك .

ثمّ اقترب منه وأمسك بإحدى يديه مقدم السرج وبالأخرى مؤخرته حتّى التصق بفخذ سيده اليسرى دون أن يجرؤ على الابتعاد عنه قيد أنملة ، لأن خوفاً عظيماً استولى عليه من صدى وقع الضربات وهي تتوالى على التبادل .

هنالك طلب دون كيخوته من سنشو أن يقصّ عليه حكاية كما وعده .

فأجاب سنشو : عن طيب خاطر ، لوسمح لي الخوف بالكلام . على أنّي سأبذل جهدي لأروي قصة ، لو استطعت أن أتمّها دون أن أنسى منها شيئاً لكانت خير قصة . فلينتبه مولاي إذن ، فسأبدأ :

« كان يا مكان... الخير لكل الناس والشرّ للذي يسعى فيه... وأرجوك أن تلاحظ يامولاي ، مااعتاد الأقدمون أن يبدأوا به أسمارهم ، فلم يكونوا يبدأون بأي شيء ، بل بحكمة لكاتو ، الوالي الروماني ، تقول : «الشرّ لمن يسعى فيه» ، وهي كلمة تطابق مقتضى الحال هنا ، إذ تدلّ مولاي على وجوب التزام الجانب الأمين ، دون البحث عن الشرّ في أيّة ناحية كان ، وتدعونا الى سلوك سبيل أخرى ، إذ لاشيء يرغمنا على متابعة السير في هذه الطريق التي تزخر بالمخاوف » .

فقال دون كيخوته : تابع قصّتك يا سنشو ، أمّا الطريق التي نسلكها فدع أمرها لي وحدي » .

فاستأنف سنشو قائلاً : « أقول إذن أنّه في ناحية من نواحي استرامدورا عاش راعي ماعز ، أي يحرس الماعز ، وهذا الراعي للضأن أوالماعز ، كما تروي قصّتنا هذه ، كان يدعى

لوپ رويث ، ولوپ رويث هذا كان يحب راعية تدعى تورلّبا ، وهذه الراعية المدعوّه تورلّبا كانت بنت صاحب قطعان غني ، وصاحب القطعان الغني هذا...» .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : إذا كنت ستروي قصّتك على هذا النحو ياسنشو ، فتكرّر ما تريد أن تقوله مرّتين ، فلن تنتهي في يومين . اروِها ببساطة ومباشرة كرجل ذكي ، وإلاّ فاسكت ولا تُضف شيئاً .

فأجاب سنشو : كل القصص التي للأسمار تروى في قريتنا على النحو الذي أبديته ، ولا أستطيع أن أرويها بطريقة أخرى ، وليس من العدل أن يطالبني مولاي بابتكار طرق جديدة .

فقال دون كيخوته : اروِ إذن كما يحلو لك ، ومادام الحظ يضطرّني الى الاستماع إليك ، فاستمر .

فقال سنشو : يا سيّد نفسي! تعرف إذن ، كما قلت من قبل ، أنّ هذا الراعي كان عاشقاً للراعية تورلّبا التي كانت فتاة بدينة منتفخة ، شرسة بل عليها سيما الرجال لأنّه كان لها شارب ، حتّى لأكاد أراها وأنا في موضعي هذا .

فسأله دون كيخوته : هل عرفتها إذن ؟

فقال سنشو : كلاّ لم أعرفها ، لكنّ الذي حكى لي الحكاية قال لي أنّها صحيحة ومؤكّدة الى درجة أنّني لو حكيتها الى شخص آخر ، ففي وسعي أن أحلف وأؤكّد أنّي شاهدت بعيني كل ما وقع فيها من أحداث . والشاهد إذن أنّه مع مرور الأيّام ، كما يقال ، جاء الشيطان وهو لا يغفل أبداً ، ودائماً يدس أنفه في كل شيء لإفساده ، فدخل بينهما حتّى أنّ حب الراعي للراعية إنقلب الى كراهية وحقد ، وألسنة السوء تقول أنّ السبب فيما وقع هو قدر من ألوان الغيرة التي سبّبتها له شيئاً بعد شيء ، حتّى تجاوزت المزاح ، ومنذ ذلك الوقت اشتدّت كراهية الراعي ولم يطق رؤية الراعية حتّى أنّه صمّم على هجرة الأوطان والذهاب الى حيث لاتقع عليه عينها أبداً . فلمّا شاهدت تورلّبا انصراف لوب عنها اشتدّ غرامها أكثر من غرامه السابق بها .

فقال دون كيخوته : هذه طبيعة النساء : ينصرفن عمّن يحبّهن ، ويحببن من ينصرف عنهنّ . استمر .

فاستأنف سنشو : حدث إذن أن الراعي نفّذ تصميمه ، فدفع ماعزه أمامه متجهاً في سهول استرمدورا للعبور الى مملكة البرتغال . فلمّا بلغ تورلّبا نبأ هروبه ، سارت في إثره ، وتابعته من بعيد ، سائرة على قدميها وحذاؤها في يد ، وعكّازة في اليد الأخرى ، وقد علّقت في عنقها خرجاً صغيراً يقال إنّه يحتوي على قطعة من مرآة ونصف مشط وعلبة صغيرة فيها مسحوق

لتزيين الوجه . ولكن سواء أكانت تحمل هذه الأشياء أو لا تحملها ـ فهذا أمر لاأودّ تحقيقه الآن ـ فالذي حدث هو أنّ الراعي قدم ومعه قطيعه ليعبر نهر الوادي الكبير في الوقت الذي زاد فيه فيضانه إلى حد أن أوشك على الخروج عن مجراه . ولم يكن في الناحية التي أتى منها لازورق ولا سفينة ولا ملاّح ليعبر به وقطيعه من الماعز ، فأثار ذلك حفيظته لأنه أبصر تورلبا في إثره وهي بسبيل أن تضايقه بعبراتها وصرخاتها . فتلفّت ذات اليمين وذات الشمال ، وفي النهاية أبصر صيّاداً بالقرب منه زورق صغير لا يتّسع إلا عنزة واحدة ورجلاً . ورغم ذلك ناداه وقاوله ليعبر به الى الشاطىء الآخر هو والثلاثمائة عنزة التي معه . فاستقلّ الصيّاد زورقه وأخذ عنزة وعبر بها ، ثمّ عاد وعبر بثانية ، ثمّ عاد وعبر بثالثة ، ثمّ عاد وعبر برابعة... ولينتبه مولاي وليعدّ الماعز التي يعبر بها الصيّاد ، إذ لونسيت واحدة ، لأنتهت القصة دون أن يمكن إضافة كلمة واحدة ، واستأنف القصة : وأقول أنّ الشاطىء في الجانب الآخر كان وعراً طينياً لزجاً ، حتّى أن الصيّاد تأخّر كثيراً في الذهاب والعودة . ورغم ذلك عاد يأخذ عنزة أخرى ، ثمّ أخرى أيضاً .

وهنا صاح دون كيخوته : افترض إذن أنّه عبر بها كلّها ، ودع الذهاب والعودة على هذا النحو ، وإلاّ فلن تنتهي من العبور بها في أقل من عام .

فسأله سنشو : كم واحدة عبرت حتّى الآن ؟

فأجابه دون كيخوته : ومن يدري!

فقال سنشو : لقد قلت لك انتبه واحسب جيداً! وإلاّ فقد انتهت القصّة وقضي الأمر ولا سبيل الى إتمامها .

فقال دون كيخوته : وكيف كان ذلك ؟ هل من الضروري في قصّتك أن نعرف بالدقّة عدد العنزات التي عبرت ، فلو أخطأنا في واحدة لا تستطيع أن تقص شيئاً بعد ؟

فأجاب سنشو : كلاّ ، أبداً يا مولاي! إذ في اللحظة التي سألت فيها مولاي عن عدد الماعز التي عبرت فأجبت بأنّك لاتدري ، كل مابقي لي أن أقول ذهب من ذاكرتي . وكان هذا الجزء أحسن وألذ ما في القصّة .

فقال دون كيخوته : إذن القصّة انتهت ؟

فأجاب سنشو : نعم كما انتهت حياة أمّي .

فقال دون كيخوته : أؤكّد لك أنّك حكيت أعجب حكاية أو قصّة أو أقصوصة تمكن أحد أن يؤلّفها في الدنيا كلّها ، وأنّ طريقتك هذه في روايتها وختمها لم ولن يرى لها نظيراً أبداً . على أنّه لم يكن لي أن انتظر من ذكائك الخارق أمراً آخر . ولم تأخذني الدهشة ؟ لعل هذه الضربات ، التي لم يهدأ لها صليل ، قد عصفت بمخّك ؟

فأجاب سنشو : كل هذا ممكن ، لكن فيما يتّصل بقصّتي ، أعرف أنها تنتهي عند هذا الحد ، أي حيث بدأ الخطأ في عدّ العنزات التي عبرت .

فقال دون كيخوته : حسناً ، فلتنته حيث شئت . لكن لنرى الآن ماإذا كان روثينانته يستطيع النهوض .

وضربه بمهمازه وهو يقول هذه الكلمات ، وأخذ الفرس يتواثب دون أن يتحرّك من مكانه إذ كان محكم الوثاق .

وفي هذه اللحظة حدث ـ إمّا بسبب طراوة الصباح وقد تنفّس ، وإمّا لأن سنشو كان قد أكل في العشيّة السابقة شيئاً مسهّلاً ، وإمّا ، وهو الأكثر احتمالاً ، لأن الطبيعة فعلت مفعولها فيه ، ـ نقول حدث أن سنشو أحسّ بالرغبة في إنزال ثقل لاحيلة لأحد في رفعه عنه . لكن الخوف كان قد استولى على نفسه الى حدّ أنّه لم يجرؤ على الإبتعاد عن مولاه قيد أنملة . ومن ناحية أخرى كان من المستحيل عليه أن يؤجّل هذا الأمر . وفي هذه الحيره احتال للأمر بأن سحب يده اليمنى التي أمسك بها خلف السرج ، وبكل هدوء انتزع الدبّوس الذي يمسك بلباسه ، فنزل عنه الى قدميه وقيّده بالأصفاد ، ثمّ رفع شطر قميصه والقى في الهواء بردفيه الثقيلين . فلمّا فرغ من هذا وأعتقد أنّه أنجز الجانب الأهم من هذه المحنة القاسية ، برزت لديه مشكلة أعسر وأعقد : إذ خيّل إليه أنّه لن يستطيع البدء في انجاز مهمّته دون أن تحدث ضوضاء ، وها هو ذا يصرّ أسنانه ويثني كتفيه ويمسك أنفاسه بكل مافي رئتيه من قوّة . لكن على الرغم من كل هذه الاحتياطات خانه الحظ فأفلتت منه ضوضاء خفيفة ، تختلف كثيراً عن تلك التي أثارت خوفه ، وسمعها دون كيخوته فسأل في الحال :

ـ ما هذه الضوضاء ؟

فأجاب سنشو : لا أدري يا سيّدي! لكن هذا لابدّ أمر جديد ، لأنّ الأحداث والمصائب لا تأتي أبداً وحدها!

ثمّ قام بمحاولة أخرى ، نجحت معه تماماً دون أن تحدث أدنى ضجّة . وبهذا استراح من هذا العبء الثقيل الذي ضايقه أشد الضيق . لكن أنف دون كيخوته لم يكن أقل حساسية من أذنه ، وكان سنشو لصقه كأنّه محيط به ، فانبعثت بعض الأبخرة وصعدت الى خط مستقيم الى أنفه . فلمّا شمّها استعان بأصابعه لتكون في عون خياشيمه التي ضغط عليها بين الإبهام والسبّابة وقال بصوت فيه خَنَف :

ـ يبدو لي ياسنشو أنّك تشعر الآن بخوف شديد .

فأجاب سنشو : نعم! لكن ماذا يجعل مولاي يعتقد أنّ خوفي الآن أشدّ من ذي قبل ؟

فقال دون كيخوته : لأنّك تفوح منك رائحة أشد من ذي قبل ، وليست رائحة عنبر هذه!

فقال سنشو : هذا ممكن أيضاً لكنّ الذنب ليس ذنبي ، بل ذنب مولاي الذي قادني في هذا الوقت غير الملائم الى هذه النواحي المهجورة .

فقال دون كيخوته دون أن يسحب أصابعه من أنفه :

ـ ابتعد بضع خطوات ، يا صديقي ، ومنذ الآن فصاعداً راعِ شخصي وما يجب عليك نحوي ، وعدم الإحترام هذا إنّما نشأ من فرط ما تركت لك من الحرّية معي .

فأجاب سنشو : أراهن أن مولاي يظن أنّي فعلت بنفسي شيئاً كان يحب ألا أفعله أبداً .

فقال دون كيخوته : دع هذا ، دعه! فهذه أمور يحسن عدم إثارتها .

في هذه الأحاديث وأشباهها أمضى المولى والخادم بقية الليل . ولم يكد سنشو يرى الفجر يبزغ حتّى حلّ وثاق روثينانته بكل هدوء . ولمّا شعر الفرس بالحرّية عادت الشجاعة اليه . وعلى الرغم من أنّه لم يكن جموحاً بطبعه ، فقد بدأ يضرب بمقدم حوافره ، أمّا أن ينحني فقد كان أمراً عنده عسيراً . فلمّا رأى دون كيخوته أنّ روثينانته بدأ يتحرّك ، تفاءل وأبصر في هذا إنذاراً بخوض هذه المغامرة الرهيبة!

وفي تلك الأثناء كان النهار قد أشرق وبانت الأشياء بوضوح . فرأى دون كيخوته نفسه تحت خميلة من أشجار الكستناء الباسقة لها ظل كثيف ، أمّا صوت الضربات الذي لم ينقطع أبداً فلم يستطع أن يتبيّن مصدره . لهذا لم يشأ الإنتظار وهمز روثينانته وودّع حامل سلاحه مرة أخرى وأمره أن ينتظره في هذا المكان ثلاثة أيّام على الأكثر ـ كما قال له في المرّة السابقة ـ بعدها إذا لم يعد فليوقن سنشو أن إرادة الله قد شاءت أن تذهب حياته في هذه المغامرة الخطيرة . ثمّ ذكره بسفارته الى سيدته دلثنيا وماسيقوله لها ، وأضاف قائلاً لسنشو ألا يشغل بمسألة دفع أجرته ، لأنّه ، أي دون كيخوته ، قد ترك وصيّة قبل مغادرة بلدته أوصى فيها بأن يدفع له أجره ومكافأته عن المدّة التي خدمه فيها واستمر يقول :

ـ لكن لوشاءت إرادة السماء أن أخرج من هذا الخطر سليماً معافىً ، فيمكنك أن تحسب من المؤكّد كلّ التأكيد أنّك ستملك الجزيرة التي وعدتك بها .

فلمّا سمع سنشو عبارات مولاه الطيّب الرقيقة المؤثّرة ، راح يبكي وصمم على ألا يترك سيده حتّى ختام هذه المسألة تماماً . ومن هذه العبرات وهذه العزيمة النبيلة يستنتج المؤلّف هذه القصة أن سنشو پنثا لابدّ أن يكون من أصل نبيل ، أو على الأقل أنّه مسيحي عريق في المسيحية . فأثار حزنه رقّة شعور مولاه ، لكن لا الى الحد الذي يكشف عن ضعف . كلاّ ،

بل كتم مشاعره مااستطاع ، وسلك سبيله قُدماً صوب الجهة التي خيّل اليه أنّ منها تنبعث ضوضاء الماء والضربات .

وفي إثره مشى سنشو ، كعادته ، يقود حماره ، رفيقه الأبدي في السرّاء والضرّاء . ولمّا سارا زمناً بين أشجار القسطل الكابية ، بلغا مرجاً صغيراً يمتد عند قرار رواب مرتفعة يساقط منها شلاّل جميل يهدر بشدّة . وعلى مستقرهذه الصخور بيوت حقيرة أشبه بالخرائب منها بالمنازل ، وأدركا أن من وسطها تنبعث ضجة هذه الضربات المتواصلة باستمرار . فزع روثينانته من ضوضاء الضربات ومسقط الماء ، فهدأ دون كيخوته روعه بالكلمات واللمسات ، ثمّ اقترب من هذه البيوت قليلاً قليلاً ، وبكل قلبه تضرّع الى سيدته لتمنحه عنايتها في هذه المغامرة الرهيبة ، كما توسّل الى الله ألا ينساه . أمّا سنشو الذي التزم جانب مولاه فقد مدّ رقبته ونظره تحت بطن روثينانته ـ قدر مافي وسعه ـ ليرى جلية الأمر فيما عمر نفسه بالشك والقلق زمناً طويلاً . وعلى هذا النحو خطوا مائة خطوة حتّى تبين لهما ، عند منعطف صخرة ، علّة هذه الضجّة التي أشاعت في نفسيهما طوال الليل كلّه مخاوف شديدة ، ولم يكن (إذا لم يثر هذا في نفسك ، أيها القارىء ، أسفاً ولا حنقاً) ثمة من سبب لها إلا ست مطارق طاحونة[1] كانت ضرباتها المتبادلة تؤلّف كل هذه الضوضاء!

فلمّا تبين دون كيخوته جلية الأمر اعتصم بالصمت ، وامتقع لونه وترنّح من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه . ونظر اليه سنشو فرأى رأسه مائلاً على صدره كمن تسربل بالعار والخجل . ونظر دون كيخوته الى سنشو ، فأبصر خدّيه منتفخين وفمه مليئاً بالرغبة في الضحك حتّى ليكاد يختنق منها ، ولم يتماسك حزنه أمام تقطيبة سنشو المضحكة ، فسلم نفسه للإبتسام . ولم يكد سنشو يرى مولاه يفتر عن ابتسامة حتّى انطلق في ضحك لجّ فيه وأمعن حتّى اضطر أن يمسك بأحشائه لئلا يموت من الضحك . وسكت عنه الضحك أربع مرّات ، واستأنف الضحك أربع مرّات في عنف لا يقل عن عنف المرّة الأولى فثارت ثائرة دون كيخوته خصوصاً حينما سمع سنشو يقلّده في نبراته وحركاته ويصيح : «اعلم ، أي صديق سنشو ، أنّي ولدت بإرادة السماء في عصرنا الحديدي هذا لأبعث العصر الذهبي : ولي أنا الأخطار الرهيبة والأعمال الرائعة ، والمغامرات الفذّة» ويستمر في تكرار هذه الكلمات التي تفوّه بها مولاه حينما سمع ضجة ضربات المطرقة في المرة الأولى . فلمّا رأى دون كيخوته

---

(١) هذا النوع من الطواحين المسمّى batan عبارة عن ماكينة عادية تتألف من بعض مطارق خشبية كبيرة تحرّكها عجلة تتحرّك بواسطة الماء المنحدر ، وتستخدم في تنظيف الأقمشة وصقلها . وكان واسع الانتشار والاستعمال في إقليم المنتشا في اسبانيا في العصر القديم (العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث) .

أنّ سنشو يسخر منه كل هذه السخرية ، تملّكه من الغضب ماجعله يرفع مقبض رمحه ويهوي عليه بضربتين قاسيتين لو كانتا أصابتا الرأس كما أصابتا الكتفين ، لكان في حلّ من دفع راتب له إن لم يكن لورثته . فلمّا أدرك سنشو أن مزاجه قد جرّ عليه كل هذا الويل ، خشى أن يعاود سيده الجزاء فاستكان وتذلّل وقال بلهجة المستغفر :

ـ ليهدأ روع مولاي! وأيم الله لقد كنت أمزح .

فأجابه دون كيخوته : ولأنك تمزح أنا لاأمزح . تعال أيها الهازل وأجبني : هل تظن لو أنّه كانت هذه المطارق مغامرة خطيرة لما كنت أبديت شجاعة في خوضها الى نهايتها ؟ وهل أنا الفارس ملزم بتمييز الأصوات وإدراك ماإذا كانت الضجة التي أسمعها آتية من مطارق أو من شيء آخر ؟ ألا يمكن ـ وهذا عين الحق ـ ألا أكون سمعتها ولا رأيتها في حياتي ، كما سمعت أنت وشهدت أيها الجلف الشرّير الذي ولد ونشأ في جوارها ؟ وإلا فأرني أن هذه المطارق الست قد تحوّلت الى ستة مرده ، ثمّ ادفعها إليّ الواحد بعد الآخر وأرجلها في أعلاها ، فلك أن تسخر منّي ما وسعتك السخرية .

فأجابه سنشو : حسبنا هذا يامولاي ، وأنا أعترف أنّي قد أطلقت العنان لنفسي أكثر مما يجب . لكن أخبرني وقد تصالحنا وعاد بيننا السلام ، ولعل الله أن ينجّيك من كل المخاطر كما نجّاك منها هذه المرّة! ـ أخبرني أليس ثمة ما يضحك ويتندّر به في هذا الخوف البالغ الذي استولى علينا ؟ أعني الذي استولى عليّ أنا ، لأني أعلم أن مولاي لم يعرف اسم الخوف أبداً!

فقال دون كيخوته : لست أنكر أنّه لم يكن فيما وقع لنا مايدعو الى الضحك ، لكنّي لا أظن أن فيه ما يتندّر به لأن جميع الذين سيسمعونك ليس لديهم من الفطانة ما يجعلهم يفهمون الأمور على وجهها الصحيح .

فأجاب سنشو : أنت على الأقل عرفت كيف تستعمل مقبض الرمح على الوجه الصحيح ، لأنك استهدفت الرأس فأصبت الكتفين ، بفضل الله وبما أتيته من انحراف ناحية اليمين . لكن لاعلينا فكل شيء يضيع بالغسل كما يقال ، وكثيراً ما سمعت الناس يقولون : من أحبّك أبكاك ، خصوصاً والسادة الكبار اعتادوا أن يصفعوا خدمهم بعد شتمهم . ولا أدري ماذا يعطونهم بعد ضربهم إياهم ، لكنّي أتصور أن الفرسان الجوّالة يعطون بعد الضرب بالعصا جُزراً أو ممالك راسخة الدعائم .

فقال دون كيخوته : يمكن أن يتحوّل الحظ على نحوٍ يتحقّق معه كل ماتقول . فاصفح عمّا سلف وأنت رجل عاقل وتعلم جيداً أن الحركات الأولى التي تبدر من الانسان ليست ملك يمينه ولكنّي أريد أن أخبرك بشيء حتّى تملك زمامك وتمتنع من التطاول في الكلام معي : وذلك أنّي لم

أقرأ في أي كتاب من كتب الفروسية ـ وهي لا تحصى ـ أن حامل سلاح قد ثرثر مع مولاه بهذه الجرأة كما تفعل أنت مع مولاك . والحق أن كلينا على خطأ : أنت ، لأنك لا تحترمني كما يجب ، وأنا ، لأنني أتساهل في حقّي في الاحترام . فهذا جندالين ، حامل سلاح أماديس الغالي ، الذي أصبح كونت الجزيرة الثابتة ـ يقال أنّه لم يخاطب مولاه أبداً إلا وقبّعته في يده ورأسه خفيض وجسمه منحن ، على عادة الترك . لكن ماذا تقول في جسبال حامل سلاح دون جلاور ، فقد بلغ من التواضع حداً جعل اسمه لا يظهر في هذه القصة الحقيقية الطويلة إلا مرة واحدة ، وهذا دليل على قدرته العجيبة على الصمت ؟ فمن كل ماذكرت عليك أن تستنتج ، أيّ سنشو ، أن احترام الخادم لمولاه أمر ضروري وكذلك احترام التابع الإقطاعي لسيد الإقطاع واحترام حامل السلاح للفارس . لهذا يجب علينا إذن أن نتعامل بمزيد من الاحترام دون تبسّط ولا مغالاة في المزاح . وعلى كل حال فأي غضب غضبته عليك ، فالمغبّة دائماً على الإبريق[1] . والنعم والمكافأة التي وعدتك بهاستمنح في ميعادها ، وإذا لم تأتِ كما وعدتك فإن أجرك لن يضيع .

فأجاب سنشو : كل مايقوله مولاي عظيم ،لكنّي أريد أن أعرف ـ إذا قدر ولم يئن ميعاد المكافأة أبداً ـ وكان لامناص من الاكتفاء بالأجر ـ كم كان يكسب في ذلك الزمان حامل سلاح فارس جوّال ، وهل كان أجره مشاهرة ، أو مياومة كصبيان البنّائين .

فقال دون كيخوته : أعتقد أن حملة السلاح في ذلك الزمان لم يكن لهم أجر معلوم ، بل حسب رغبة السيد الفارس ، وإذا كنت قد عيّنت لك أجراً في الوصيّة المختومة التي أودعتها في منزلي ، فذلك من أجل ما قد يقع . والحق أنّي لا أعرف ماذا على الفروسية أن تفعل في هذه الأزمنة البائسة التي نعيش فيها ، ولاأريد أن تقلق روحي في العالم الآخر بسبب شيء تافه كهذا . ويجب أن تعلم ياسنشو أنه لا يوجد في الدنيا عمل أشق وأحفل بالأخطار من عمل المغامرين في الأخطار .

فأجابه سنشو : أعرف هذا جيّداً ، لأن مجرّد ضجّة مطارق الطاحون قد أشاعت الاضطراب والقلق في قلب جوّال شجاع مثل مولاي . وكن مطمئناً تماماً لن أمزح في أمورك بعد ، بل سأجلّك بوصفك سيدي ومولاي الطبيعي .

فقال دون كيخوته : هذه الحالة إذن ستعيش ، كما يقولون ، على وجه الأرض ، لأن احترام السادة يأتي في المرتبة التالية لاحترام الوالدين ، وكأنهم لهم نفس الحقوق ونفس المكانة .

---

(١) هذا مثل اسباني يقول « إذا وقع الحجر على الابريق فويل للإبريق ، وإذا وقع الإبريق على الحجر ، فالويل أيضاً للإبريق » .

الفصل الحادي والعشرون

في المغامرة الرائعة والغنيمة الوافرة التي ظفر فيها بخوذة ممبرينو، وفي أمور أخرى جرت لفارسنا الذي لا يُقهر

في تلك الأثناء بدأ المطر في السقوط ، فودّ سنشو الاحتماء منه بطواحين النسيج . لكن دون كيخوته أحسّ لها بكراهية شديدة بسبب عبثها به ، فلم يشأ أبداً الموافقة على دخولها . بل شدّ العنان فجأة ناحية اليمين ، ثمّ بلغا طريقاً شبيهاً بطريق الأمس .

وعلى مسافة قليلة أبصر دون كيخوته رجلاً راكباً على فرس ، يحمل على رأسه شيئاً يرفّ ويلمع كأنّه من ذهب . ولم يكد يراه حتّى التفت الى سنشو وقال :

ـ يخيّل إليّ يا سنشو أنّه لا يوجد مثل بغير معنى حقيقي ، لأنّ الأمثال أقوال منتزعة من التجربة نفسها ، وهي أمّ العلوم كلّها ، وخصوصاً المثل الذي يقول : إذا انغلق باب انفتح آخر . فإذا كان الحظ قد أغلق بالأمس باب المغامرة التي سعينا اليها ، فها هوذا يفتح على مصراعيه باب مغامرة أحسن وأوثق . فإن لم أنجح هذه المرّة في العثور على المدخل ، فالغلطة ستكون غلطتي دون أن أجد وجهاً للإعتذار بجهلي بطواحين الأقمشة ، أو بظلام الليل .وإنما أقول هذا كلّه لأنّي أرى ـ لو صدق حدسي ـ قادماً من هذه الناحية يلبس على رأسه خوذة ممبرينو التي اقسمت من أجلها القسم الذي لم تنسه .

فأجاب سنشو : بحق الله ياMولاي إلاّ أخذت حذرك مما تقول ، ومما أنت فاعل ، فلست أريد أن نكون بإزاء مطارق طواحين أخرى تطرّقنا وتطحن عقولنا!

فصاح دون كيخوته : يا لك من شيطان في إنسان! أي شبه بين الخوذة والمطارق ؟

فأجاب سنشو : لست أدري! لكن لو كان في وسعي الكلام كما اعتدت لأبديت لمولاي من الأسباب مايجعله يرى أنّه مخطىء فيما يقول .

فقال دون كيخوته : كيف أخطئ فيما أقول ، أيها الخائن المتحذلق المدقّق ؟ قل لي : أوَلا ترى ذلك الفارس المقبل علينا ممتطياً صهوة فرس أغبر أرقط ، وعلى رأسه خوذة من الذهب ؟

فأجاب سنشو : ماأراه وأتبيّنه ليس إلا رجلاً يركب حماراً رمادياً مثل حماري ، وعلى رأسه شيء يلمع .

فقال دون كيخوته : نعم هذا الشيء الذي يلمع هو خوذة ممبريو . فانتح جانباً ودعني ألاقه وحدي . وسترى كيف أتمّ هذه المغامرة دون أن أنبس بكلمة اقتصاداً للوقت ، وأستولي على هذه الخوذة التي طالما تمنّيتها .

فقال سنشو : أمّا الانتحاء جانباً فهذا شأني ، لكنّي أقول مرة أخرى لعل الله أن يجعله صعتراً لا مطارق .

فقال دون كيخوته : لقد أخبرتك ياأخي ألا تصمّ أذاني بهذه المطارق ، وحق... ـ ولا أزيد ـ وإلاّ طرقت روحك!

فصمت سنشو : خوفاً من أن ينفّذ دون كيخوته قسمه ، لأنه كان قد ضربه فأصماه وأدماه .

وها نحن أولاء نذكر لك نبأ هذه الخوذة وهذا الفرس والفارس التي رآها دون كيخوته : كان في هذه النواحي بلدان متجاوران : أحدهما كان من الصغر بحيث لم يكن فيه صيدلي ولاحلاّق ، والآخر أكبر منه وفيه كلاهما . وكان حلاق البلد الأكبريعمل أيضاً لأهل الأصغر فيفصد هذا ويحلق لحية ذاك . ولأداء هاتين المهمّتين كان يذهب حاملاً صحن حلاقة من النحاس[1] الأصفر . وشاء القدر أن يفاجئه المطر في الطريق ، فلكي يحمي قبّعته ـ وكانت جديدة من غير شك ـ وضع عليها صحن الحلاقة وكان مصقولاً فكان يلمع من مسافة بعيدة . وكان يركب حماراً رمادياً ، كما قال سنشو ، ولهذا ظن دون كيخوته أنه أبصر فرساً أغبر أرقط وفارساً وخوذة من الذهب : لأن جميع مايلفت نظره كان يرتّبه بسهولة وفقاً لهذيانه الفروسي وخواطره الشاردة .

فلمّا أبصر الفارس المسكين قادماً عن قرب ، لم يوجّه اليه كلمة بل انقض عليه بكل ما في وسع روثينانته من قدرة على الركض ، ورمحه مصوّب ، وفي عزمه أن ينفذه فيه من جنب فيخرج من الجنب الآخر ، لكن في اللحظة التي أوشك فيها أن يبلغه صاح فيه دون كيخوته دون أن يهدىء من اندفاع جريه :

ـ دافع عن نفسك ، أيها المخلوق الحقير ، أو سلّم اليّ عن طيب خاطر ماأستحقه بجدارة .

---

(١) الكلمة الاسبانية Azofar عربية هي : الصفر (بضم فسكون) أي النحاس الأصفر .

وشاهد الحلاّق ـ الذي لم يتوقّع ولم يخطر بباله شيء من هذا كلّه ـ هذا الشبح ينقضّ عليه ، فلم يجد وسيلة للإحتماء من ضربة الرمح إلاّ أن يقع من فوق حماره ، ولم يكد يلمس الأرض حتّى نهض أخفّ من الظبي وأطلق ساقيه للريح في السهل المنبسط بحيث لم يكن للريح نفسها أن تلحقه ، تاركاً صحن الحلاقة على الأرض ـ وكان هذا كل مارغب فيه دون كيخوته ، فصاح قائلاً إن الوثني كان فطناً ، حاكى القندس ؛ فإن القندس إذا أطبق عليه الصيّادون قطع بأسنانه ماتدلّه الغريزة على أنه موضوع طلبهم . ثمّ أمر سنشو بالتقاط الخوذة ، فأخذها هذا ووزنها في يده وقال :

ـ والله هذا الصحن جيد ، ويساوي ريالاً ثمانياً[١] مثل المرابطي .

ثمّ أعطاه لمولاه فوضعه على رأسه في الحال ، وقلبه على كل وجه ليتبيّن كيفية وضعه ، ولمّا لم يهتد الى ذلك صاح :

ـ لابدّ أن يكون الكافر الذي صنعت هذه الخوذة الشهيرة لأوّل مرّة وفق مقاسه كان ذا رأس كبير جدّاً ، وماهو أدهى من هذا هو أنّه ينقصها نصفها .

فلمّا سمعه سنشو يسمّي صحن الحلاقة خوذة لم يتمالك من الضحك الشديد ، لكنّه تذكّر غضبة سيده فأمسك وهو في نصف الضحك .

فقال دون كيخوته : مم تضحك يا سنشو ؟

فأجاب : أضحك مما عسى أن يكون كبر رأس هذا الكافر صاحب هذه الخوذة التي تشبه صحن حلاقة حَذْوَ القُذّة بالقذّة .

فقال دون كيخوته : هل تدري ماأتصوّره ؟ إنّي لأتخيّل أن هذه القطعة الفريدة ، هذه الخوذة المسحورة لا بد أن تكون قد وقعت ، بالصدفة الغريبة ، في يد من لا يعرف قيمتها ولا يقدّرها حقّ قدرها ، فلمّا رآها من الذهب الخالص فكّر في صهر نصفها للإفادة من ثمنه ، دون أن يعلم ماذا يفعل ، فبقي النصف الآخر على هذه الصورة التي يجعله يشبه صحن حلاقة ، كما تقول . ومهما يكن من أمرها ، لكنّي وأنا أعرفها لاأهتم بما جرى لها ، بل سأصلح من أمرها عند أوّل حدّاد نلقاه في أوّل قرية نمر بها ، بحيث تصبح لاتقلّ أبداً عن الخوذة التي صنعها ربّ الحديد لرب المعارك[٢] . والى أن يتم إصلاحها سأحملها على

---

(١) الريال الثماني real de a ocho يساوي ثمانية ريالات من الفضّة ، أي ستة عشر ريالاً عاديّاً .

(٢) يقول رودريجث مارين في تعليقه هنا : «لاأذكر أنّ فولكانو صنع أسلحة للمرّيخ ، وإنّما أعرف أن المرّيخ هو الذي صنع أسلحة لفولكانو ، أسلحة من أردأ الأنواع ، بدخوله في علاقات وثيقة مع زوجته فينوس» . ولكن هذه الملحوظة ساخرة ، والحق أن فولكانو (إله الحديد) قد صنع أسلحة لأخيلوس وإينوس .

علاّتها ، فإن شيئاً أفضل من لاشيء ، وعلى كل حال فستكون كافية لحمايتي من الحجارة .

فقال سنشو : نعم ، بشرط ألاّ ترمى الحجارة بمقلاع ، كما حدث في معركة الجيشين لمّا أن كسروا ثناياك وحطّموا القارورة التي وضعت فيها ذلك الشراب المبارك الذي جعلني أتقيّأ كبدي .

فقال دون كيخوته : لستُ كاسف البال لضياعه ، لأنّي أتذكّر تركيبه جيداً كما تعلم يا سنشو .

فقال سنشو : وأنا أيضاً أذكره جيّداً ، لكن إذا ركّبته أو تذوّقته مرّة أخرى في حياتي ، فلتكن تلك نهاية عمري . على أنّي لا أفكّر أبداً بوضع نفسي موضع الحاجة اليه ، بل بالعكس ، أرى أن أحتاط بكل قواي الحسّية حتّى لا أُجرحْ ولا أُجرح أحداً . أمّا أن أرتجح مرّة أخرى ، فهذا أمر لا أدري عنه شيئاً : لأنّه من المصائب التي لا يقدر المرء أبداً على تلافيها ، وإذا وقعت فلا شيء أفضل من ثني الأكتاف وكتم الأنفاس وإغلاق العينين ، وأن يترك المرء نفسه إلى حيث يرسلها البخت والعطاء .

فقال دون كيخوته عند سماعه هذه الكلمات : يالك من مسيحي خبيث ياسنشو! إنّك لا تنسى أبداً الإهانة التي ألحقت بك . لتعلم إذن أن من شيم القلب النبيل الكريم ألا يحفل أبداً بهذه الصغائر . قل لي : بأي رجل تعرج ؟ وأي أضلاعك رضّ ، وأي رأس محطّم استنقذته من المعركة - حتّى لاتنسى هذا المزاح الخفيف ؟ فحقيقة الأمر أنّه لم يكن إلا مزاحاً وهزاءً . ولو لم أفهم الأمر على هذا ، لكنت عدت الى هناك فأحدثت من التخريب والتدمير مالم يفعله اليونانيّون انتقاماً لخطف هيلانة ، هيلانة التي لو وجدت في عصرنا هذا ، أو وجدت حبيبتي دُلثنيا في عصرها ، لكان من المؤكّد تماماً أنّها لن تكون لها كل هذه الشهرة بالجمال .

وهنا زفر زفرة حارة أطلقها في الهواء حتّى السحاب .

فقال سنشو : ليكن الأمر إذن لإضحاكهم مادام ليس في الإستطاعة إبكاؤهم . أمّا أنا فأعرف جيداً ماذا كان للإبكاء وماذا كان للإضحاك ، ولن يذهب من ذاكرتي كما لن يذهب من جلد أكتافي . ودعنا من هذا وقل لي ، إن تفضّلت يامولاي ، ماذا نحن فاعلون بهذا الفرس الأشهب الأبقع الذي يبدو كأنّه حمار رمادي والذي تركه مرتينو ذلك الذي جندلته ، إذ يبدو من هيئته في الهرب أنّه لاينوي العودة لأخذه . وبحق لحيتي إن هذا الفرس ليس بالرديء .

فأجابه دون كيخوته : ليس من عادتي أبداً سلب من أهزمهم ، وليس في عرف الفروسية انتزاع الأفراس منهم وتركهم يسيرون على الأقدام ، اللهم إلا إذا كان المنتصر قد

فقد فرسه في المعركة ، هنالك يجوز له أن يأخذ فرس المهزوم ، لأنّه غنيمة في حرب مشروعة . وإذن فاترك هذا الفرس أو الحمار أو ماشئت أن تطلق عليه من أسماء ، ياسنشو ، فإنّ صاحبه حين يرانا ابتعدنا من هاهنا ، سيعود لأخذه .

فقال سنشو : يعلم الله كم أودّ أخذه أنا ، أو على الأقل استبداله بحماري الذي لايبدو لي فارهاً ، والحق أن قوانين الفروسية ضيقة ، مادامت لاتتسع حتّى لإستبدال حمار بحمار . ولكني أود أن أعرف ماإذا كنت أستطيع استبدال جهازه .

فأجاب دون كيخوته : هذا أمر لست منه على بيّنة ، وفي حال الشك ، وإلى أن أحصل على معلومات أوفى ، أسمح بالبدل إذا كنت في حاجة قصوى إليه .

فقال سنشو : قصوى جداً الى حد لوكان هذا الجهاز لشخصي أنا ، لمآ كانت حاجتي إليه أشد .

فلمّا ظفر بهذه الرخصة قام بعملية البدل[1] mutatio capprum (كما يقول الطلاّب) ، وزيّن حماره بالجهاز فتبدّي رشيقاً أنيقاً . ولمّا فرغ من هذا ، أكلا من بقايا الغنيمة التي ظفرا بها من فوق بغل القساوسة وشربا من ماء الجدول الذي يغذّي طواحين سبك الصوف ، دون أن يديرا وجهيهما ناحية الطواحين ، لشدّة بغضهما لها بسبب ماأحدثته في نفوسهما من ذعر . وذهب الغضب مع الشهيّة ، بل ذهب سوء المزاج كذلك ، فامتطيا الفرس وبدأ المسير في غير اتجاه معلوم ، ابتغاء أن يكونا أقرب الى شيم الفرسان الشاردين ، مسلّمين قيادهما الى روثينانته ، الذي سارت وراءه إرادة سيده ، وتبعته إرادة الحمار وقد كان يسير دائماً أنّى اقتاده الفرس . وعلى هذا النحو عادا الى الطريق العام فالتزماه حيثما اتفق دون هدف معلوم .

وبينما كانا يسيران قدما هكذا ، قال سنشو لسيّده :

ـ مولاي! هل تسمح لي بالتحدث قليلاً إليك ؟ منذ أن فرضت عليّ هذا الأمر القاسي بالصمت ، تعفّن الكثير في جوفي ، وعندي الآن شيء على طرف لساني ، شيء واحد لاأودّ أن يضيع هكذا سدى .

فأجابه دون كيخوته : قل لي ما هو ، وكن موجزاً في كلامك ، فالكلام إذا طال أملّ .

فأجاب سنشو : أقول إذن يا مولاي أنّي بقيت طوال أيّام أفكّر فيما يجنيه المرء من قليل هزيل بالسعي وراءهذه المغامرات التي تنشدها في هذه الأنحاء القاحلة ومفارق الطرق :

---

(١) على عادة ثربنتس من السخرية بالحذلقة ، استخدم هنا هذه العبارة اللاتينية التي تدل على مرسم يجري في عيد القيامة(قيامة السيد المسيح ، وهو يوم تحتفل فيه الكنيسة الكاثوليكية كل عام بقيام المسيح من قبره في اليوم الثالث من صلبه) ؛ في هذا اليوم ....تبدل الكرادلة والمطارنة في الكهنوت الروماني بقبّعاتهم ومعاطفهم الجلدية أخرى من الحرير الأحمر الحقيقي .

فحيث لا يوجد أحد لمشاهدتها والعلم بها ، أيّاً كانت الأخطار التي يواجهها المرء والانتصارات التي يقوم بها ، فإن أعمالك الباهرة ستظل دفينة في نسيان دائم ، رغم نوايا مولاي الطيبة ومزاياها الحقيقية . ولهذا يبدو لي ـ والرأي لمولاي ـ أنّ الأفضل أن نغدوا لخدمة امبراطور أو أمير عظيم ، يكون في حاجة الى القيام بحرب ، فيستطيع مولاي أن يكشف بخدمته عن مزايا ساعده وشدّة أسره وفرط ذكائه ، حتّى إذا ماشاهد السيد الذي نكون في خدمته هذا كلّه ، كان لزاماً عليه أن يكافئنا ، كلاً بحسب فضله . وهناك أيضاً سنجد كتّاباً يسجّلون كتابة أعمالك الخارقة يامولاي ، حتّى تظل ذكراها باقية أبداً . أمّا أعمالي أنا ، فلا أقول عنها شيئاً ، لأنّها يجب ألا تخرج عن حدود مجد السوّاس ، ورغم ذلك ففي وسعي أن أقول إنه لوجرى العرف في الفروسية بتسجيل أعمال السوّاس ، فإنّي أعتقد أن أعمالي لن تبقى بين السطور .

فأجابه دون كيخوته : كلامك هذا ليس بالقبيح ياسنشو! لكن قبل بلوغ هذه المرحلة ، لابدّ أوّلاً من السعي في مناكب الأرض بحثاً عن المغامرات وكأنّهن محن ، حتّى يكسب المرء من وراء هذه الأعمال الرائعة اسماً وشهرة . فإذا مثل في حضرة ملك كبير سبقته شهرة أعماله ، وإذا جاوز أبواب المدينة تبعه الصبية وأحاطوا به صائحين : « هذا فارس الشمس[1] » ، أو فارس الأفعوان[2] ، أو أيّة شارة أخرى عرف بها أنّه من ذوي الأفعال المجيدة . فيقولون : « هذا هو الذي قهر في معركة فردية المارد الهائل بروكابرونو ذا القوّة العظيمة ، هذا الذي خلص من السحر مملوك[3] الفارس الكبير ، وكان مسحوراً من تسع سنوات تقريباً » . وهكذا تذاع أعمالي من فم الى فم ، وبعد هذا تطرق مسامع السلطان هذه الضجّة التي يثيرها الصبيان والعامة كلّهم فيظهر من شرفةقصره الملكي . حتّى إذا أبصر الفارس وتعرّفه من لون سلاحه وشارة ترسه اندفع صائحاً رغماً عنه : « آه! هيّا يافرساني المقيمين في قصري ، انهضوا لاستقبال زهرة الفروسية ، فهاهوذا قادم! » فيخرج الجميع لدى سماعهم هذا الأمر ، وينزل هو بنفسه حتّى منتصف درجات السلّم ، ويعانقه عناقاً حاراً ، ويقبّله قبلة السلام على وجنته[4] ، وسرعان مايقتاده من يده الى جناح الملكة ، فيجدها

---

(١) في قصة « بلمرين دي أليفا » ، الفصل ٤٣ .

(٢) في قصة « اسبلنديان » ، الفصل ١٤٧و١٤٨ .

(٣) يأخذ كلمنثين على ثربنتس أنه يستعمل التعبير : « المملوك الكبير » بينما المستعمل هو « التركي الكبير » (أي سلطان السلاطين) ، وأنه يجعل المملوك سلطان فارس ، مع أنّه حاكم مصر لافارس . كما أنّه ليس لقب تشريف ، ثمّ يستدرك قائلاً إن المتكلّم هنا مجنون ، فله من الحرّية أكثر من الشعراء والرسّامين!

(٤) راجع قصة : « أماديس الغالي » ، الفصل ١١٧ .

الفارس مع بنتها الأميرة التي لابدّ أن تكون من أكمل وأجمل الأوانس اللائي يوجدن ـ ونادراً مايوجدن ـ على الشطر الأعظم من وجه البسيطة . ويحدث بعد هذا أن تقع عين الأميرة على الفارس ، وعين الفارس على الأميرة ، ويبدو كلاهما للآخر أقرب الى الإله منه الى الإنسان ، ودون أن يعرفها كيف ولماذا ، يظلأن معقودين بعقدة الحب الوثيقة ، والقلب حزين لايدري كيف يخاطب القلب ليكشف عن عواطفه ومخاوفه . ومن ثمّ يقتاد الفارس الى قاعة من قاعات القصر فاخرة الرياش ، فتخلع عنه أسلحته ، ويقدّم له حساء فاخر ذو لون قرمزي يتدثّر به ، فإنّ كان جميل الطلعة وهو شاكي السلاح ، فما أروعه بلباس الإحتفال! وإذا أقبل الليل تناول العشاء مع السلطان والسلطانة والأميرة ولايرفع عينيه عن الأميرة دون أن يلحظه الحاضرون ، وهو في هذا جدّ ماهر ، لأنها كما قلت ، آنسة شديدة الحياء قدوع ، فإذا فرغ العشاء شوهد قزم قميء قبيح يدخل من باب القاعة فجأة ، وفي إثره سيّدة فاتنة بين ماردين قدمت لإجراء مغامرة فريدة وصفها حكيم قديم ، الظافر فيها يكون أعظم فرسان العالم[1] .

ثمّ يأمر السلطان جميع الحاضرين من فرسانه بالدخول في هذه المباراة ، فلا ينجح فيها أحد غير هذا الفارس الغريب ، فيتألّق مجده ، ويبعث الرضا في نفس الأميرة ، فيبلغ بها السرور غايته إذا جوزيت عن وصفها أمانيها في هذا المقام العالي . وخير مافي الأمر أنّ هذا السلطان أو الأمير أو من يكون ـ هو في حرب عنيفة ضد أمير آخر من أنداده ، فيلتمس منه الفارس ، ضيفه ، أن يأذن له بخدمته في هذه الحرب ، فيمنحه الإذن عن طيب خاطر ، ويقبّل الفارس يديه بكل أدب واحترام جزاءً وفاقاً لهذه النعمة التي أسبغها عليه . وفي نفس الليلة يودّع الأميرة ، معشوقته ، يودّعها من خلال سور الحديقة الذي يطل عليه مخدع الأميرة . وكأين من مرّة جاذبها الحديث في هذا المكان ، وكان الوسيط بينهما وصيفة تكتم سر الأميرة وتفضي إليها الأميرة بكل أسرارها[2] . يتنهّد ، فيغمى على الأميرة ، فتأتي الوصيفة بماء ، وتأسف لإنبلاج الصباح لأنّها لاتريد أن ينكشف أمرها ، حفاظاً على شرف سيّدتها . وأخيراً تستعيد الأميرة وعيها ، وتبسط من خلال السور الحديدي يديها البيضاويتين الى الفارس الذي ينقضّ عليهما لثماً ويغرقهما بدموعه ، ويتفقان على طريقة ليعرف بها كلاهما أنباء الآخر وما يقع له من محن أو نعم ، وترجوه الأميرة ألا يطول غيابه إلا أقل مدة ممكنة ، فيعدها بذلك مقسماً أغلظ الأيمان ، وبعد أن يقبّل يديها من جديد ، ينتزع نفسه من حضرتها وفي نفسه من الحسرات ما يجعله ينذر عندها الحياة . ويعود الى

---

(١) راجع قصة « اماديس النالي » ، الفصل ٦٦ ، القسم الثاني الخ .

(٢) راجع قصة « أماديس النالي » ، الفصل ١٦ ، « فارس الصليب » ، الفصل ١٤٤ .

مخدعه ، ويلقي بنفسه على السرير ، لكنّه لايستطيع النوم أسفاً على الرحيل . ويصحو مبكّراً ، ويذهب ليودّع السلطان والسلطانة والأميرة ، لكن الأولان ينبأنه بأن الأميرة منحرفة المزاج ولاتستطيع استقبال أحد . فيعتقد الفارس آنئذ أن ذلك بسبب آلام الفراق ، فيفطر قلبه ، ولايعوزه إلا القليل ليكشف علناً عن آلامه . وتشهد الوصيفة كاتمة السر هذا المنظر ، وتلاحظ كل شيء ، وتغدو لتقصّه على سيّدتها التي تستمع إليها باكية وتقول لها إن من أشدّ ما يحزنها أنّها لاتعلم من فارسها هذا ، وهل هو من سلالة الملوك أو ليس من أصلابهم . فتؤكّد لها الوصيفة أن هذا اللطف والأدب والشجاعة لا يمكن أن توجد إلا في أبناء الملوك والأشراف . وترضى الأميرة الحزينة بهذا العزاء ، وتحاول كتم حزنها حتّى لايظن بها أهلها الظنون ، وبعد يومين تظهر للناس . ولكن الفارس قد ارتحل ، ويشترك في الحرب ، ويحارب ويهزم عدو السلطان ويستولي على عدّة مدن ، ويحرز جملة إنتصارات . ثمّ يعود الى البلاط ، ويرى سيدته في الموضع الذي اتعدّاه عادة ، ويتّفق وإيّاها على طلب يدها من أبيها جزاء خدماته ، ولايرضى الملك به صهراً ، لأنّه لايعرف من هو ، واختطافاً أو بطريقة أخرى تصبح الأميرة زوجة للفارس ، وينتهي الوالد بالرضى عن هذا الارتباط ويعدّه شرفاً عظيماً بعد أن يكتشف أن هذا الفارس هو إبن ملك شجاع في إحدى الممالك التي لاوجود لها على المصوّرات الجغرافية . ويموت الوالد ، وترث الأميرة عرشه ، وهاهو ذا الفارس قد أصبح ملكاً[١] . هنالك يكون أوان الإغداق على حامل سلاحه وعلى جميع من عاونوه على بلوغ هذه المكانه العليا . ويزوّج حامل سلاحه بإحدى وصيفات الأميرة ، ولاشكّ أنها ستكون كاتمة سرّ غرامهما ، وهي ابنة دوق من الطراز الأوّل .

فصاح سنشو : هذا هذا! هذا ما أريده ، وعلى بركة الله! إي والله يكفيني هذا ، وسيجري كل شيء تماماً كما وصفت ، مادام مولاي سيسمّى بلقب «الفارس الحزين الطلعة»!

فأجابه دون كيخوته : لا تشكّ في هذا أبداً فالفرسان الجوّالة قد مرّوا ويمرّون بنفس المراحل التي قصصتها عليك حتّى يبلغوا مرتبة الملوك والأباطرة[٢] فلم يبق إذن الآن إلا أن نبحث عمن هو الملك المشغول بحرب عظيمة وله بنت جميلة ، سواء كان من ملوك النصارى أو ملوك الكفّار . ولدينا متسع من الوقت للتفكير في هذا إذ لابدّ أوّلاً ـ كما قلت لك ـ من اكتساب الشهرة قبل المثول في البلاط . وثمّة شيء آخر ينقصني : فلو فرض أننا عثرنا على

---

(١) راجع قصّة : «برنردو دل كاربيو» ، الفصل ٣٨ ، و «بريماليون» ، الفصل ١٥٧ .

(٢) «تيرانت الأبيض» القسم الأول ، الفصل ٤٠ ، «فارس الصليب» ، الكتاب الأول الفصل ٦٥ .

ملك وحرب وبنت ، وأنّي اكتسبت شهرة تجاوبت بذكرها المحافل في الدنيا بأسرها ، فإنّي لأجد كيف يتيسّر أن أجد نفسي من سلالة الملوك ، أو على الأقل ابن عم منحدر من ابن عم للإمبراطور . لأنّ الملك لن يسمح بتزويجي من ابنته قبل أن يتأكّد بكل يقين ، من هذا النسب ، مهما يكن من قيمة أعمالي الرائعة ، وهكذا أفقد ، بسبب عدم وجود هذا النسب الملكي ، ما اكتسبه ساعدي عن جدارة . نعم إنّي ابن نبيل ، ومن بيت معروف ، ولي أموال وعقار ، وكفء لإقتضاء خمسمائة درهم على سبيل التعويض[1] . لكن قد يقع أن يرتّب الحكيم الذي سيكتب تاريخ حياتي ويلفّق نسبي ، بحيث أصبح حفيداً لحفيد الملك ، من الدرجة أو الجيل الخامس أو السادس . إذ يحسن بك ياسنشو أن تعلم أنّ ثمّة نوعين من الأنساب والنبالات ، فبعضها ينحدر من الأمراء والملوك ؛ لكن الزمن يجور عليهم فينتهون إلى نقطة مدبّبة مثل هرم مقلوب ، والبعض الآخر ينحدرون من أصل وضيع ، ثمّ يرتفعون درجة فدرجة ، حتّى يصبحوا سادة عظاماً . وهكذا يكون بينهم هذا الفارق ؛ وهو أنّ بعضهم كانوا على غير ما هم عليه الآن ، وأنّ البعض الآخر هم على غير ماكانوا عليه ، ولمّا كان من الممكن أن أصبح واحداً من الفريق الأول ، حينما يتحقّق أن أصلي عظيم مجيد ، فلا بد أن يرضى هذا الملك صهري المقبل ؛ وإلاّ فإن الأميرة لو أحبّتني حبّاً مفرطاً ، لأتخذتني زوجاً لها وسيّداً ، على الرغم من أبيها ولو عرف معرفة اليقين أنني ابن سقّاء . وإذا لم يقع هذا أيضاً لكان عليّ أن اختطفها وأنقلها إلى حيث أشاء ، حتّى يهدئ الزمن أو الموت من غضب أهلها .

فقال سنشو : هنا محلّ للقول بما يقول به بعض الدهماء : «لا تطلب بالرضا ما تستطيع أخذه بالقوّة» . وإن كان أنسب منه أن يقال : «وثوب الأسوارولارجاء الأخيار»[2] . وأقول هذا لأنّه إذا لم يشأ الملك ، صهرك يامولاي ، أن يوافق على تزويجك بالأميرة ، فليس لديك إلا اختطافها ووضعها في مكان أمين . لكن آفة هذا الأمر هو أنّه حتّى يحين أن تضع الحرب أوزارها وتتمتّع بالملك في هدوء ، يظل حامل سلاحك المسكين يحرّق الأرم في انتظار النعم الموجودة ، اللهم إذا ارتحلت الوصيفة ، كاتمة السر التي ستصبح زوجته ، في إثر الأميرة ، وقضى حياته المسكينة معا ، حتّى يقدّر الله أمراً آخر ، لأنّي أعتقد أنّ مولاه يستطيع أن يهبها إيّاه في الحال زوجة له .

فقال دون كيخوته : لا مانع يمنع من هذا .

---

(١) تقضي قوانين الفويرو خثجو التي سادت التشريع الاسباني من عهد القوط حتّى القرن الثالث عشر «بتعويض» قدره ٥٠٠ سويلدوس sueldos لكل نبيل تلحقه إهانة في شخصه أو في أمواله . وكان السويلدو في قشتالة يساوي ٢٣ شنيزيمو من البسيطة .

(٢) معنى هذا المثل أنّه إذا ارتكبت ذنباً أو جريمة فالهرب خير من الأمل في شفاعة الآخرين .

فأجاب سنشو : ما دام الأمر كذلك ، فليس أمامنا إلاّ تسليم أمرنا الى الله وترك المقادير تجري في أعنّتها .

فأجاب دون كيخوته : حقّق الله أملي وأملك ياسنشو ، والويل لمن يرى في نفسه الويل .

فقال سنشو : على بركة الله! إنّي مسيحي هرم ، ويكفيني أن أصبح كونت .

فقال دون كيخوته : بل هذا كثير ، وإذا لم تصبح كذلك ، فهذا لن يغيّر في الأمر شيئاً . فإنّي إذا أصبحت ملكاً ، استطعت منحك النبالة دون أن تدفع عنها أجراً أو تكسبها بخدماتك ، لأنّي إذا جعلتك كونت ، أصبحت فارساً فجأة ، وسيضطرّون ، رغم ما ستتناقله ألسنة السوء ، الى إعطائك إقطاعية رغم أنوفهم .

فقال سنشو : ماذا! هل يظنّون أنّي لن أقدر على الإحتفاظ بكرامة نقبي!

فقال مولاي : يقال «لقبي» ، لا نقبي!

فأجاب سنشو : ليكن كذلك! أقول أنني كفء له ، وأقسم بحياتي بأنّي كنت مدّة من الزمان حاجباً لفرقة دينية ، وكانت كسوة الحاجب مناسبة لي تماماً حتّى قال الناس أنّي أصلح أن أكون أمين صندوق الجماعة . فكيف سيكون الأمر حينما أضع رداء الدوق على ظهري ، وأتدثّر بالذهب واللآلىء ، على هيئة كونت أجنبي! يخيّل إلي أنّ الناس سيتوافدون لرؤيتي من أقصى البقاع .

فقال دون كيخوته : لاشك في أنّك ستكون ذا بهاء مونق ، لكن عليك حينئذ أن تلمّع لحيتك مراراً ، لأنّها غليظة قذرة شعثاء ، فإن لم تعالجها بالموس مرّة كل يومين على الأقل لتعرّف الناس حقيقة أمرك من مدى قريب .

فقال سنشو : ما عليّ إلاّ كراء حلاّق في منزلي ، بل لو اقتضى الأمر لجعلته يسير ورائي كحامل سلاح لسيّد عظيم .

فسأله دون كيخوته : ومن أدراك أن السادة العظام يجرّون حاملي سلاحهم وراءهم ؟

فأجاب سنشو : سأحكي لك . منذ سنوات أمضيت شهراً في البلاط . وهناك رأيت في النزهة سيّداً قصيراً جداً ، ولكن كان الناس يقولون أنّه طويل[1] جداً . وكان يتبعه رجل يركب فرساً في كل نزهاته ، حتّى كان بمثابة ذيل له . فسألت لماذا لا يلحق هذا الرجل به ولماذا يظل دائماً وراءه . فأجابوني بأنه حامل سلاحه وأنّ من عادة العظماء أن يصحبوا في

---

(١) يلوح أن سنشو يشير هنا الى دون پدور خيرون ، دوق أشونة وكان قصير القامة ولكن طويل الباع بأعماله الباهرة . وقد ولد في ١٢/١٧ سنة ١٥٧٤ في مدينة أشونة وتوفي سنة ١٦٢٤ . وأشونة «من كور إستجة بالأندلس» . (الروض المعطار ص٢٣») .

أثرهم رجالاً من هذا النوع . ومن هنا عرفت هذا الأمر ، ولم أنس هذه الحادثة منذ ذلك الحين .

فقال دون كيخوته : أقول لك إنك على حق ، وأنك تستطيع أن تجرّ وراءك حلاّقك . والعادات لاتأتي كلّها معاً ، بل تبتدع واحدة بعد الأخرى ، ومن الممكن أن تصبح أوّل كونت يتبعه حلاّقه . على أنّ مهمة الحلاق أدخل في الائتمان والثقة من مهمّة من يشد الركاب .

فقال سنشو : أمّا عن الحلاّق ، فدعني وشأنه ، وعليك أنت بالعمل لتصبح ملكاً وتجعلني كونت .

فقال دون كيخوته : وهو كذلك .

ثمّ رفع عينيه فأبصر ماسنقصّ عليك نبأه في الفصل التالي .

الفصل الثاني والعشرون

في تحرير دون كيخوته طائفة من المساكين اقتيدوا رغم أنفهم الى حيث لا يريدون

يروي سيدي حامد بن الأيّل ، المؤلّف العربي المنتشاوي ، في هذه القصّة الرائعة الهائلة المتواضعة العذبة الخيالية أنّه بعد أن تناقل دون كيخوته الشهير الأحاديث التي أوردناها في نهاية الفصل الحادي والعشرون هو وسنشو پنثا ، رفع دون كيخوته دلا منتشا بصره فشاهد على الطريق التي يسلكها قرابة اثني عشر رجلاً قادمين على أرجلهم وقد سُلِكت رقابهم في سلسلة من الحديد طويلة كأنّها حبّات سبحة ، وفي أيديهم الأغلال . وكان يتبعهم راكبان على فرسين ورجلان آخران سائران ، وكان الراكبان يحملان بندقيّتين ذات عجلتين ، وكان الراجلان يحملان حراباً وسيوفاً . فلمّا رآهم سنشو صاح :

ـ هذه سلسلة المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة سخرة ـ من الملك ، يقتادون للتجذيف في السفن .

فسأل دون كيخوته : سُخرة ؟ كيف هذا ؟ وهل الملك يسخّر أحداً ؟

فأجابه سنشو : لا أقول هذا ، بل أقول أنهم قوم حكم عليهم ـ بسبب الجرائم التي ارتكبوها ـ بأن يخدمواالملك سخرةً في السفن .

فقال دون كيخوته : الخلاصة ، هل هؤلاء يذهبون بمحض إرادتهم أو قهراً عنهم ؟

فقال سنشو : قهراً عنهم طبعاً!

فقال مولاه : إذا كان الأمر كذلك ، فهنا مجال أداء رسالتي وهي أن أمنع القهر وأغيث الملهوفين .

فقال سنشو : انتبه الى أنّ العدالة ، وهي عينها الملك ،لا ترتكب قهراً ولا إهانة نحو هؤلاء ، بل تعاقبهم على جرائم ارتكبوها .

وفي تلك الأثناء كانت سلسلة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قد اقتربت منهما

ب دون كيخوته بكل احترام من الحرّاس أن ينبؤوه عن السبب أو الأسباب التي من
اقتادوا هؤلاء المساكين . فأجابه أحد الحرّاس الراكبين قائلاً إن هؤلاء محكوم
، وسيخدمون الملك على الغرابات[1] ، وليس عندي ما أقوله أكثر من ذلك ، وليس لك
ألني أكثر من هذا .
أجابه دون كيخوته : ومع ذلك أود أن أعرف عن كل منهم السبب فيما حلّ به .
أضاف الى ذلك كلمات رقيقة أخرى لحثّهم على أنبائه بما يودّ معرفته ، فقال حارس

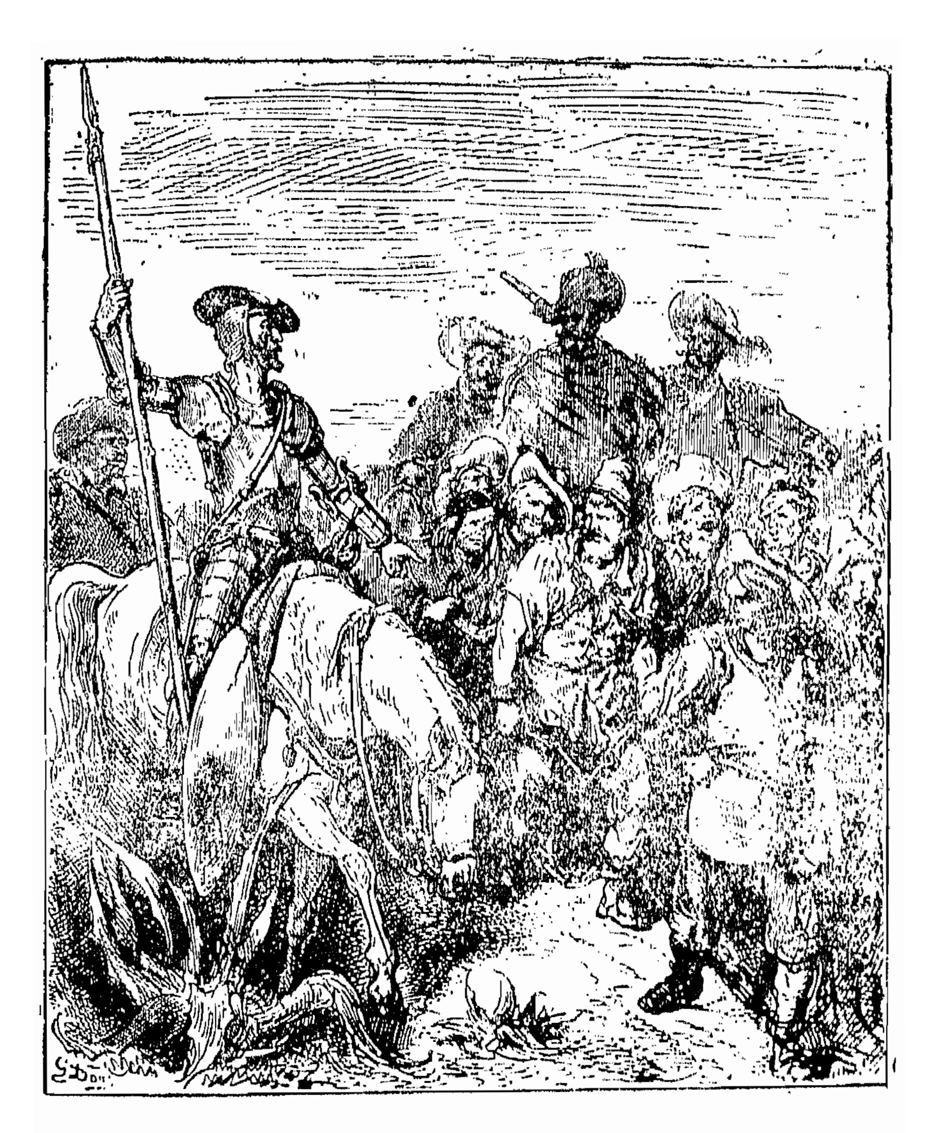
معنا السجل الذي قيّد فيه جرائم كل من هؤلاء التعساء ، لكن ليس هذا وقت الوقوف
وقراءة مافيه . تقدّم أنت ، واسألهم هم أنفسهم ، وسيجيبون عليك إن شاءوا وهم
راغبون ، لأنّهم قوم يلذ لهم أن يرتكبوا الجرائم وأن يقصّوها على الناس .
بهذا الإذن الذي كان دون كيخوته سيأخذه لنفسه بنفسه لو لم يفطن له ، اقترب من
لة وسأل أحدهم عن الخطايا التي أوقعته في هذه الحال . فأجابه أن السبب فيما هو فيه
ب .
سأله دون كيخوته : لهذا السبب وحده ؟ لأنّه إذا كان من يحبّون يحكم عليهم
ال الشاقة ، لكان عليّ أن أكون من بينهم منذ زمن طويل!
قال المحكوم عليه : إنّ حبّي ليس من ذلك النوع الذي تظنّه ياسيّدي . فإنّ حبّي كان
من الغسيل مليئة بالملابس البيضاء ، وقد ضممتها بين ذراعيّ بشدّة بالغة فلو لم
ها العدالة منّي لما كنت تخلّيت حتّى هذه الساعة عن عناقها . وقد قبض عليّ متلبّساً
ستي ، فلم يكن ثمّ مجال لاستجواب ، وأنجزت القضية بلهفة وعجل ، وداعبوا كتفي
سوط ، وعليّ فوق هذا ثلاث سنوات[2] في الغرابات وقضي الأمر .
سأله دون كيخوته : ومامعنى الغُرابات ؟
أجاب : معناها السفن .
كان هذا المحكوم عليه فتى في الرابعة والعشرين من عمره ، وولد في يدراهيتا .
سأل دون كيخوته واحداً آخر نفس السؤال ، فلم يشأ الجواب ، إذ كان يمشي كاسفاً
ن البال . فأجاب عنه الأوّل :

اب : والجمع غرابات وأغربة وغربان ـ سفينة كبيرة . راجع دوزي : الملحق ، ج٢ ، ص٢٠٤ .
الطبعة الأصلية tres precisos وفي الطبعة الثالثة أيضاً طبعت خطأ هكذا : tres precios ـ والمقصود ثلاث سنوات في التجذيف
لسفن في عرض البحر . وهذه السفن تسمّي gurapas وهي كلمة عربية : غراب ، والجمع غرابات .

ـ هذا ياسيّدي ذاهب الى الغرابات لأنّه كناري ، أعني موسيقار ومغنّ .
فكرّر دون كيخوته : كيف! هل يُرسل الموسيقاريون والمغنّون الى الغرابات ؟
فأجاب المحكوم عليه : نعم يا سيّدي! فلا شيء في الدنيا أسوأ من الغناء في العذاب .
فقال دون كيخوته : ولكنّي على العكس من هذا سمعت مثلاً يقول : في الغناء عزاء .
فقال المحكوم عليه : الأمر هنا على العكس ، من يغنِّ مرّة يبكِ عمره .
فقال دون كيخوته : لا أفهم من هذا شيئاً!
لكن قال له أحد الحرّاس :
ـ سيدي الفارس! عند هؤلاء الناس الغناء في العذاب معناه الإعتراف بالتعذيب . فهذا المذنب قد عذّب فاعترف بجريمته وهو أنّه سارق ماشية ، وباعترافه حكم عليه بعقوبة التجذيف ست سنوات ، الى جانب مائتي جلدة حملها على كتفيه . وهو يمشي دائماً حزيناً مسربلاً بالعار لأنّ سائر اللصوص ، أولئك الذين تركهم هناك والذين هاهنا معه ، يزدرونه ويسخرون منه ويسيئون اليه لأنّه اعترف بجريمته ولم يكن لديه من رباطة الجأش والثبات مايجعله ينكرها ، إذ هم يقولون إنّ « كلاّ » ليس فيها من الحروف أكثر مما في « نعم » ، وإنّه لحظ عظيم للمتّهم أن تكون حياته أو موته أمر يتوقّف على لسانه هو ، لا على لسان الشهود والأدلّة ، وفي هذه المسألة أرى أنّ مايقولونه ليس خطأً كلّه .
فقال دون كيخوته : وهذا رأيي أيضاً .
ومضى الى الثالث فسأله نفس السؤال ، وسرعان مالبّى بغير تردّد وقال :
ـ أنا ذاهب لزيارة سيداتي الغرابات طوال خمس سنوات ، بسبب أنّه ليس معي خمس دوقات[1] .
فقال دون كيخوته : أنا مستعد لدفع عشرين عن طيب خاطر لإنقاذك من هذا الهمّ .
فقال المحكوم عليه : هذا شبيه بمن كيس نقوده عامر وهو في وسط الطريق يموت جوعاً لأنّه لايستطيع شراء مايلزمه . أقول هذا لأنّه لوكانت عندي العشرون دوقة التي يقدّمها لي مولاي الآن ، في الوقت المناسب ، لكنت بللت قلم الكاتب وقدحت زناد المحامي العام ، بحيث كنت أكون اليوم في وسط ميدان « سوق الدواب » في طليطلة ، لا في هذا الطريق مقوداً كالكلب السلوقي . ولكنّ الله كبير ، والصبر طيّب... وكفى!
فانتقل دون كيخوته الى الرابع ، وكان رجلاً مهيب الطلعة ، له لحية طويلة بيضاء تغطّي

---

(١) الدوقة ducado عملة ذهبية ، كانت تساوي سبع بسيطات .



الفصل الثاني والعشرون : دون كيخوته والمحكوم عليهم
بالأشغال الشاقة

صدره كلّه . فلمّا سمعه يسأله عن سبب إدانته ، أنشأ يبكي دون أن يجيب بكلمة ، لكنّ المجرم الخامس أجاب عنه فقال :

ـ هذا الرجل الوقور سيمضي أربع سنوات في الغرابات ، بعد أن زفّ في الطرقات ممتطياً صهوة جواده ومتدثراً بأفخر الثياب احتفاءً به .

فقال سنشو پنثا : معنى هذا فيما يبدو لي أنّه اعترف علناً بجريمته .

فأجاب المحكوم عليه : هذا هذا! والجريمة التي بسببها نال هذه العقوبة هو أنّه كان سمسار آذان ، بل سمسار أجسام أيضاً ، أعني أنّ هذا السيد الفاضل كان قوّاداً[1] ، وكان أيضاً يشتغل بالسحر والشعوذة .

فقال دون كيخوته : أمّا السحر والشعوذة فلا شأن لي بهما ، أمّا أنّه كان « قوّاداً » ، فهذا لا يستحق من أجله أن يذهب الى الغرابات ، اللهم إلا إذا كان من أجل أن يكون قائداً فيها ، لأنّ مهمة القوّاد ليست هيّنة ، بل تحتاج الى قوم مهرة كتومين للسر ، وهي مهمّة لا غنى عنها في جمهورية حسنة التنظيم ، ولا يستطيع ممارستها غير قوم كرام العنصر رفيعي التهذيب . بل أرى من الواجب تعيين مفتّشين وممتحنين لأجل هذه المهمّة شأنها شأن سائر المناصب ، وتحديد عدد الأعضاء العاملين فيها ، كما هي الحال تماماً بالنسبة الى سماسرة التجارة . فبهذه الطريقة يتلافى الكثير من المتاعب التي لا سبب لها غير أنّ عدداً أكثر من اللازم يشتغلون بها ، ومعظمهم يعوزهم الأدب والذكاء ، أو مخنّثون وخدم حقراء ،وأغرار تعوزهم الحنكة والتجربة ، لا يعرفون في المواقف الخطيرة ـ حيث لابدّ من التصميم ـ أقول : لا يعرفون ما يأخذون مما يدعون ولا يميّزون يمينهم من شمالهم ويدعون الحساء يبرد بين اليد والفم . وبودّي أن أتابع هذا الحديث ، وأن أثبت لماذا يحسن التدقيق في اختيار الأشخاص الذين يمارسون في الدولة هذه المهمة الضرورية ، ولكن ليس هذا محلّه وأوانه . وسأتحدث في هذا ذات يوم الى من يملك التنفيذ . وحسبي اليوم أن أقول أن الألم ، الذي سببته لي رؤية هذا الوجه الوقور الذي امتحن امتحاناً غليظاً من أجل بضع رسائل غرام ، قد خفف منه إتهامه بالسحر . ولكنّي أعْلم أنه ليس في الدنيا سحر ولا تعاويذ يمكن إرغام الإرادة أو تحويلها ، كما يظن بعض البسطاء . إنّ إرادتنا حرّة لا سلطان للنباتات والتعاويذ السحرية عليها . وما يفعله بعض المخنّثين البسطاء أو بعض الأشقياء الخبثاء ، ليس إلاّ أشربة ومركّبات وسموماً حقيقية ، بها يحوّلون الناس مجانين موهمين الناس أنهم قادرون على جعلهم عاشقين ، مع أنّ من المستحيل إرغام الإرادة .

---

(١) الكلمة الاسبانية alcahuete عربية الأصل .

فقال الشيخ الطيّب : هذا صحيح . والحق يا سيّدي أنه لا شأن لي بالسحر ، أمّا القيادة في الحب فأمر لا أنكره ، ولكني لا أعتقد أني أصبت بالضررفي هذا أحداً . وكان كل قصدي أن يستمتع الناس جميعاً ، وأن يعيشوا في سلام ووئام ، دون خصومات ولا هموم . لكنّ هذا المقصد الكريم لم يحمني من الذهاب الى حيث لن أعود ، فقد أثقلت كاهلي السنون وأشكو احتباس البول احتباساً لا أذوق معه طعم الراحة .

ولدى هذه الكلمات انطلق الرجل المسكين في البكاء ، حتّى استدر شفقة سنشو الى حد حمله على أن ينتزع من جيبه قطعة من ذات الأربعة ريالات ويتصدّق بها عليه .

وتابع دون كيخوته تحقيقه فسأل التالي عن جريمته ، فأجابه بصوت لايقل حرارة وانطلاقاً عن زميله الآخر :

ـ إنّي ها هنا لأنّي أفرطت في المزاح مع ابنتي عمتي ، ومع ابنتي عم أخريين ليستا ابنتي عمّتي . والخلاصة أننا مزحنا مزاحاً نشأ عنه زيادة نسل اختلط حتّى صار من الصعب على واضع شجرة الأنساب أن يتبيّن جلية الأنساب . وأدانتني الأدلّة والشهود ، وأعوزتني المحسوبية ، كما أعوزني المال ، وأوشكت أن تطيح برأسي ، وحكم عليّ بالعمل خمس سنوات في الغرابات . ولم أستطع استئناف الحكم ، وهذا جزاء جريمتي . ولكنّي شاب ، والحياة طويلة ، وطالما امتدّت كان ثمّ دواء لكل داء . فإن كان في وسعك ، ياسيّدي الفارس ، أن تغيث هؤلاء المساكين ، فسيجازيك الله عنه في السماء خير الجزاء ، وسنحرص على أن ندعو الله ونحن على الأرض كي يهبك من الصحة والعمر مايستحقّه شخصكم الكريم .

وكان هذا يلبس لباس الطلاّب ، وقال أحد الحرّاس عنه أنّه فصيح بليغ ، يتقن اللغة اللاتينية .

وخلف هؤلاء جميعاً أقبل فتى في الثلاثين أغر الطلعة ، لولا أنّه حين ينظر كان يضع عينيه في الأخرى . وكان مقيّداً على نحو مخالف الآخرين ، إذ كان في قدمه سلسلة طويلة دارت حول بدنه ، وفي عنقه طوقان شديدان أحدهما متصل بالسلسلة والآخر نوع من الأغلال يتدلّى منه قضبان من الحديد يتحدّران حتّى خصره وينتهيان الى غل قيّدت فيه يداه بأقفال كبيرة ، بحيث لم يكن يقدر على رفع يديه الى رأسه ، ولا إمالة رأسه الى يديه . فسأل دون كيخوته لماذا يحمل هذا الرجل من القيود أكثر مما يحمله الآخرون . فأجاب الحارس بأن ذلك لأنّه ارتكب من الجرائم وحده أكثر مما ارتكب سائرهم مجتمعين ، وأنّه وغد لئيم خبيث فاجر ، حتّى أنّ تقييده على هذا النحو لا يبدو كافياً للإمساك به ، ولهذا يخشون دائماً أن يفر .

فقال دون كيخوته : لكن ما هي هذه الجرائم التي لم تستحق أكثر من عذاب الغرابات ؟

فأجاب الحارس : سيقضي فيها عشر سنوات ، وهذا شبيه بالموت المدني . ويكفي أن تعلم أنّ هذا الرجل هو خينس دي پسمونته[1] الشهير ، ويطلق عليه البعض اسم خينسيودي پرپيا[2] .

فقال المحكوم عليه حينئذ : سيدي المندوب! على رسلك ولا داعي للتنابز بالألقاب . أنا اسمي خينس ، لا خينسيّوك وپسمونته اسم اسرتي ، لا پرپيا كما تقول ، وليفتّش كلٌّ عن نفسه ، فسيرى .

فقال المندوب : اخفض صوتك ، أي سيدي اللص الفتّاك ، إذا كنت لاتريد منّي أن أغلق فمك راضياً أو كارهاً .

فأجاب المحكوم عليه : يبدو تماماً أن المرء يسير وفق مشيئة الله ، لكن سيأتي يوم يعرف فيه الناس ماإذا كان اسمي خنسيّو دي پرپيا ، أو لا .

فقال الحارس : أفلا يسمّونك كذلك ياكذّاب ؟

فأجاب خينس : بلى! لكنّي سأفعل بحيث لايسمّونني بهذا الاسم ، أو فلأنتف لحيتي كما أتكلّم بين أسناني . ياسيّدي الفارس! إذا كان عندك ماتعطيه لنا فاعطه لنا توّاً واذهب في حفظ الله ، لأن هذه الأسئلة عن حياة غيرك تضايق ، وإذا أردت أن تعرف شيئاً عنّي ، فاعلم أنّي خينس دي پسمونه ، الذي كتبت حياته بهذه الأصابع .

فقال المندوب :هذا صحيح ، فقد كتب حياته بنفسه على نحو ليس بعده زيادة لمستزيد . لكنّه ترك الكتاب رهناً في السجن من أجل مائتي ريال .

فقال خينس : وسأعمل على استرداده حتّى لو رهن مقابل مائتي دوقة .

فقال دون كيخوته : هل هو جيّد الى هذا الحد ؟

فقال خينس : جيّد الى حد أنّه يتحدّي قصة « لثريودي طورمس[3] » وكل ما كتب في

---

(١) Cines se passmonte .

(٢) Cinesillo de parapill .

(٣) في سنة ١٥٥٤ طبع كتاب بعنوان « حياة لثريودي طورمس وماجرى له من السعود والأهوال » ثلاث طبعات في برغش والقلعة وامبيرس ، وطبعة برغش يظهر أنها هي الطبعة الأولى ، ولكن لم يذكر عليه اسم المؤلف ، وكذلك طبع بغير اسم المؤلف طوال القرن السادس عشر ، حتى مستهل القرن السابع عشرحيث نسب الى دييجو هورتادودي مندوثا Diego Hurtade de mendoza ، بعد هذا طبع دائماً مقروناً بهذا الاسم ، ولكن أثبت مورل فاتيو Morel - Fatio أنه ليس له . ـ وعلى كل حال فهذه القصة تمتاز بالواقعية ودقة الملاحظة ، وتجري على لسان بطلها ، وفيه سخرية من الوسط الاجتماعي الذي ينتسب اليه البطل ، ولهذا كان هذا الكتاب نموذجاً لنوع أدبي يسمى = « القصة البكارسكا » ، من أشهر أمثلته « حياة قزمان الفاراقي » (سنة ١٥٩٩ ـ سنة ١٦٠٤) تاليف ماتيو أليمان . والبطل في هذه الروايات يتحدث عن نفسه فيروي قصة حياته على هيئة ترجمة ذاتية له ، وحياته عادية حالية من =

هذا الباب أو سيكتب . وكل ماأستطيع أن أقوله لمولاي هو أنّه يروي حقائق ، ولكن حقائق لطيفة شائقة ، لا يمازجها أدنى كذب .

فسأله دون كيخوته : وما عنوان هذا الكتاب ؟

فأجاب : عنوانه «حياة خينس دي پسمونته» .

فسأله دون كيخوته : وهل أرسلت إليه قبل هذه المرّة ؟

فأجاب خينس : نعم! لخدمة الله والملك أرسلت اليها في مرة سابقة وبقيت اربع سنوات ، وأعرف طعم الكعك والكرباج ، ولاآسف كثيراً على العود إليها مرة أخرى ، إذ سيكون لدي متّسع من الوقت لإتمام كتابي : إذ بقي كثير من الأشياء اللطيفة لأقصّها فيه ، وإنّ في غرابات اسبانيا من الفراغ أكثر مما أحتاج ، خصوصاً ولست في حاجة الى وقت طويل لإنجاز مابقيّ عليّ إنجازه ، لأنّي أعرفه عن ظهر قلب .

فقال له دون كيخوته : أنت ظريف خفيف الروح!

فأجاب خينس : وبائس ، لأنّ البؤس يلاحق الظُّرُف .

فقال الحارس : بل يلاحق الأوغاد!

فأجابه پسمونته : قلت لك ياسيّدي المندوب على رسلك! فإن أولئك السادة (رؤساءك) لم يضعوا في يدك هذا الكرباج لتعذيب المساكين الموجودين هنا ، بل لإقتيادنا الى حيث أمر مولانا صاحب الجلالة . وإلاّ ، فوحياة... لكن كفى! ذات يوم تذهب البقع التي ارتكبت في الفندق ، بالغسل . فلنسكت جميعاً ولنعش في سلام ولنحسن الكلام ، ولنَسِرْ ، فكفى هذا الهراء .

فرفع المندوب سوطه لضرب پسمونته جواباً عن تهديداته . لكنّ دون كيخوته وضع نفسه بينهما ورجاه ألاّ يضربه ، وقال أنّه ليس من الغريب أن يكون المقيّد اليدين طلق اللسان . ثمّ وجّه الكلام الى جميع المحكوم عليهم وقال :

ـ من كل ما قلتموه ، يا إخواني الأعزاء جداً ، يتبين لي بوضوح أنّه على الرغم من عقابكم على ذنوبكم ، فإن العقاب الذي ينتظركم لن يلذ لكم كثيراً ، وأنّكم ذاهبون الى الغرابات رغم إرادتكم . ويتبين لي كذلك أن قلّة الشجاعة لدى أحدكم في التحقيق ، وعدم وجود المال لدى الثاني ، وفقدان المحسوبية عند الثالث ، وأخيراً خطأ القاضي أو هواه ـ

= المطامع والمطامح في لمستقبل ، وإنّما تسعى فقط للخلاص بنفسها من المواقف التي تطرأ عليها . فقد كان خادماً لدى كثير من الأسياد المختلفي المنازع ، فاستعرض أخلاقهم جميعاً بدقة ملاحظة وواقعية تامة ، وليس بين المواقف من اتصال وحدة البطل فيها جميعاً .

هذه هي أسباب ماأنتم فيه ، والعلّة في أنّكم لم تنالوا ماتستحقّونه من إنصاف . وهذا كلّه يتبدّى أمام ذاكرتي ليقول ويؤكّد لي وجوب أن أظهر نحوكم ما من أجله أرسلتني السماء الى الدنيا ، ومامن أجله انخرطت في سلك الفروسية وصرت عضواً فيها ، وبسببه نذرت أن أغيث الملهوفين والضعفاء الذين يضطهدهم الأقوياء . ولكن لمّا كنت أعرف أن من صفات الفطنة ألا يعمل المرء بالعنف مايستطيع عمله باللين ، فإنّي أود رجاء السادة الحرّاس والسيّد المندوب ليتفضّلوا بحل وثاقكم وترككم في سلام . وهناك آخرون يستطيعون خدمة الملك في ظروف أفضل ، وإنّه وأيم الله لأمر فظيع شائن أن يستعبد المرء أولئك الذين خلقهم الله والطبيعة أحراراً . وأردف قائلاً : نعم ياسادتي الحرّاس! هؤلاء المساكين لم يرتكبوا بحقّكم أية إهانة . فليذهب كلٌّ بخطيئته : ففي السماء إله لاينسى عقاب المسيء ولامجازاة المحسن ، وليس من الخير أن يجعل أناس شرفاء من أنفسهم جلّادين لغيرهم من الناس ، إذا لم يكن لهم هذا أدنى مصلحة . وأنا أرجوكم هذا الرجاء بكل هدوء ولطف ، حتّى يكون لدي مايدعوني لشكركم إذا أجبتم سؤالي . فإن لم ترضوا عن طيب خاطر ، فهذا الرمح وهذا السيف كفيلان بقوة ساعدي أن يجعلاكم تذعنون بالقوة .

فأجاب المندوب : أوه ياله من مزاح لطيف! تمخّض الجمل فولد فأراً! أولاً يريدنا أن نطلق سراح المحكوم عليهم من الملك ، كأنّ لدينا القدرة على إطلاقهم ، أو لديه الحق في إصدار الأوامر لدينا بذلك! هيّا إذن ياسيّدي ، سرْ في طريقك ، وأصلح من الحوض الذي تحمله فوق رأسك ، ولا تبحث عن ثلاثة أقدام[1] في القط .

فأجابه دون كيخوته : بل أنت القط والفأر والمجرم والوغد!

وما قال حتّى فعل ، فانقضّ عليه بعنف واندفاع هائل حتّى جندله على التراب جريحاً من ضربة رمح ، قبل أن يتمكّن من الاحتياط لنفسه . ومن حسن الطالع أن الذي انقضّ عليه دون كيخوته كان حامل البندقية . وظلّ سائر الحرّاس حيارى مُبْلِسين حينما شاهدوا هذا الهجوم غير المنتظر ، وسرعان ما أفاقوا من دهشتهم وأمسك الخيّالة بسيوفهم والرجّالة بحرابهم وهجموا جميعاً على دون كيخوته الذي انتظرهم برباطة جأش . وكانت ستكون محنة بالغة له لولاأن المحكوم عليهم ، وقد أبصروا هذه الفرصة السانحة لإنعتاقهم ، بذلوا كل مافي وسعهم لتحطيم السلسلة التي قيدوا فيها الواحد الى جانب الآخر . هنالك اختلط الحابل بالنابل ، حتّى أن الحرّاس اضطربوا وحاروا بين الهجوم على دون كيخوته وبين

(١) هذا مثل يطلق لمن يسعى للمتاعب . والصيغة الأوفق والأشهر أن يقال : لاتبحث عن خمسة أقدام في القط ، لأنه من المستحيل ذلك ، بينما البحث عن ثلاثة أسهل .

مطاردة المحكوم عليهم ، ولم يحسنوا عمل شيء . وأعان سنشو من جانبه خينس دي پسمونته ، فكان أول الهاربين ، فلمّا شعر بأنّ أصبح حرّاً وثب على المندوب المطروح على الأرض وانتزع منه سيفه وبندقيّته وصوّبها على الحرّاس جميعاً دون أن يطلق منها الرصاص حتّى فرّ الحرّاس جميعاً من الميدان هاربين من بندقية پسمونته ومن الأحجار التي رماهم بها سائر المحكوم عليهم وقد فكّت عنهم أغلالهم .

وحزن سنشو لهذه المعركة الرائعة ، لأنّه يعرف جيداً أن أولئك الهاربين من الحرّاس سيذهبون جميعاً ويعلنون النبأ «للأخوة المقدّسة» التي تنفخ البوق بدورها لمطاردة المذنبين . وأفضى بهذه المخاوف لسيّده ، ورجاه أن يبتعد سريعاً عن الطريق العام ويتوغّل في داخل الجبل القريب .

فقال دون كيخوته : هذا صواب ، ولكنّي أعلم ما عليّ فعله أوّلاً .

ودعا جميع المحكوم عليهم وهم يعدون في كل اتجاه بعد أن مزّقوا المندوب شر ممزق ، فتحلّقوا حوله ليروا ماذا يريد منهم . فخاطبهم قائلاً :

ـ من شيم الكرام عرفان الجميل ، ومن أشد الخطايا إغضاباً لله نكرانه . أقول هذا لأنّكم شاهدتم بالتجربة البينة يا سادة ما أوليتكم من جميل ، في مقابلة أود ، أو هذه إرادتي ، أن تذهبوا جميعاً حاملين هذه السلسلة التي فككتكم منها ، وبلا أدنى إبطاء ، الى مدينة توبوسو ، وهناك امثلوا أمام سيدتي دلثنيا دل توبوسو ، وقولوا لها إنّ فارسها ، الفارس الحزين الطلعة ، يرسل اليها باحتراماته ، وارووا لها كلمة كلمة تفاصيل هذه المغامرة العظيمة حتّى اللحظة التي حرّرتكم فيها كما كنتم تودّون . وبعد هذا ، لكم أن تذهبوا حيث تشاؤون .

فقال خينس دي پسمونته نيابة عن زملائه :

ـ إنّ ما يأمرنا به مولاي وسيّدي الفارس المحرّر ، من المستحيل عمله ، من المستحيل كل الاستحالة ، لأننا لانستطيع أن نذهب جماعة على طول هذه الطريق المطروقة ، بل نذهب فرادى كلّ بنفسه محاولاً التستّر في حشايا الأرض ، حتّى لايلتقي بواحد من رجال «الأخوة المقدّسة» التي لاشك ستُرسل خير عيونها في أثرنا . وما يستطيع مولاي فعله ، وما يقتضي الإنصاف فعله ، هو تعديل هذه الخدمة وهذا الأمر بالمرور أمام تلك السيدة دلثنيادل توبوسو الى ترتيل عشرات من صلوات «الإيمان»و «سلام لك يامريم» نرتّلها باسمك . وهذه كفارة نستطيع على الأقل القيام بها ليلاً نهاراً ، أثناء الهرب وأثناء الراحة ، في الحرب والسلام . لكنّ الظن بأننا سنعود الآن الى أرض مصر ، أعني أننا سنستأنف حمل القيود

ونذهب الى توبوسو ، هو كالظن أنّ الآن ليل ، وإن كانت الساعة لاتزال العاشرة صباحاً! وطلب هذا الأمر الجنوني ، كطلب الكمثرى من شجر الدردار .

فقال دون كيخوته غاضباً : إذن فقسماً بالله ياابن القحبة ، ياخنسيّو دي پرپيو ، أو كما يسمّونك ، إلا ذهبت وحدك ، مطأطأ الرأس ، أنفك بين فخذيك ، والسلسلة كلّها على ظهرك .

وكان پسمونته رجلاً لا يحتمل المزاح بطبعه ، ولم يفهم أن مخ دون كيخوته طار منه برج ، إذ فعل هذه الفعلة الهائلة وهي أنّ أطلق سراحهم ، فلمّا شاهده يعامله هذه المعاملة ، غمز بعينيه لرفاقه فابتعدوا دفعة واحدة وأمطروا دون كيخوته بوابل من الحجارة حتّى لم تكن كفّاه كافيتين ليتّقي بالترس ما يقذفونه به . أمّا روثينانته المسكين فلم يحفل بالمهماز وكأنّه قدّ من برونز . وأقعى سنشو خلف حماره واحتمى به من سحائب الأحجار التي تهاوت على كليهما .

ولم يستطع دون كيخوته الاحتماء جيداً فأصابه عدد وفير من القذائف في وسط بدنه بشدّة جعلته يسقط على الأرض . فلمّا سقط هجم عليه الطالب فانتزع حوض الحلاقة من رأسه وضربه به ثلاث أو أربع ضربات على كتفيه ، ثمّ ضرب به الأرض حتّى كسره قطعاً قطعاً . وأخذ هؤلاء الأوغاد من الفارس المسكين صدرية ذات كمّين كان يلبسها على سلاحه ، وكانوا على وشك أن ينتزعوا ماعليه حتّى جواربه لولا أن حال دون ذلك سلاحه . وانتزعوا من سنشو معطفه القصير وتركوه بقميصه . ثمّ اقتسموا فيما بينهم غنائم هذه المعركة ، وفرّوا الى كل ناحية حريصين على تفادي «الأخوة المقدّسة» التي يخافونها كل الخوف أكثر من حرصهم على وضع السلسلة في رقابهم والمثول هكذا أمام السيدة دلثنيا دل توبوسو . ولم يبق في الميدان إلا الحمار وروثينانته وسنشو ودون كيخوته : الحمار مطرق منغص الرأس ، يحرّك أذنيه بين الحين والحين وكان وابل الحجارة لايزال ينهمر ، وروثينانته متمدّد على طول جنب سيده ، لأنّ سحيفة[1] من الحجارة جندلته هو الآخر ، وسنشو بقميصه ، ترتعد فرائصة من مرور خاطر «الأخوة المقدّسة» بنفسه ، وأخيراً دون كيخوته وقيذ الجناح لما لقيه من جحود إحسان وكنود نعمة!

---

(١) السحيفة : المطر الشديد الوقع الكثير الصوب .

الفصل الثالث والعشرون

فيما جرى لدون كيخوته وهو في جبل الشارات (سيرًا مورينا)، مغامرة من أندر ما ترويه هذه القصة

ولمّا أبصر دون كيخوته نفسه على هذه الحال الأليمة قال لحامل سلاحه :

ـ أي سنشو! دائماً سمعت الناس يقولون : الإحسان الى الأشرار كرمي الماء في البحار . ولو صدّقت ماقلت لتجنّبت هذه المحنة ، ولكن ما وقع وقع ، فلنصبر ولنتخذ منه للمستقبل عبرة .

فأجابه سنشو : احتمال اتعاظك كاحتمال أن أكون مسلماً[١]! لكن ما دمت تقول أنك لوصدّقتني لكنت تجنّبت هذه المحنة ، فصدّقني الآن كيما تتجنّب محنة أشدّ هولاً ، لأنّي أقول لك إنه لامحلّ للفروسية مع «الأخوة المقدّسة» ، فإنها لاتقيم وزناً لجميع الفرسان الجوّالة ولا بمرابطين ، واعلم أنّه يخيّل اليّ أن سهامها[٢] الآن في أذني .

فقال دون كيخوته : أنت بطبعك جبان ياسنشو . ولكن حتّى لا تقول عنّي إنني عنيد أركب رأسي ولاأعمل أبداً بما تشير به ، فإنّي سأتبع ماتنصح به هذه المرّة ، وأحتمي من هذا الهول الذي تفزع منه . لكن بشرط : وهو ألا نخبر أحداً من الناس ، في حياتي أو بعد مماتي ، أنّي ابتعدت وانسحبت من هذا الخطر خوفاً ، إنما فعلت ذلك استجابة لتضرعاتك . ولو قلت غير هذا لكنت كذبت ، وها أنذا أكذّبك منذ الآن للمستقبل ، وللمستقبل منذ الآن ، وأقرّر أنّك تكذب وتكون كاذباً في كل مرّة تقول فيها أو تفكّر في شيء من هذا القبيل .

ولا تجب عليّ بشيء ، فإنّ مجرّد التفكير في تجنّب الخطر ، وهذا الخطر بالذات الذي يخيّل اليّ فيه أنّي أبدي ظلاً من الخوف ، يجعلني أرغب في البقاء هنا ، في انتظار ليس فقط

---

(١) في النص : «أن أكون تركياً» Como yo soy turco ، والتركي هنا بمعنى المسلم عامة . أي أن هذا مستحيل أن تتعظ بشيء .

(٢) كان هذا حق «الأخوة المقدسة» إعدام المجرمين المتلبسين بجرمهم في مكان الجريمة بضربهم بالسهام .

هذه «الأخوة المقدّسة» أو الجماعة التي تفزعك، انتظارها بمفردي، بل وأسباط بني اسرائيل والأخوة المكابيين السبعة، والتوأمين كاستور ويوليكس، وجميع الإخوة والأخوات وأخوة الأخوات في الدنيا بأسرها!

فأجاب سنشو «الانسحاب يا مولاي ليس معناه الهرب، والانتظار ليس من الحكمة حينما يفوق الخطر الأمل، وإنّ الحكمة تقتضي أن يدّخر المرء نفسه اليوم لغدٍ وألاّ يغامر بكل شيء في يوم واحد. واعلم أنّه على الرغم من غباوتي وغلظ طبعي، فإنّ عندي مايسمّى باسم ضبط النفس. فلا تندم على استماعك نصحي إذن، واركب روثينانته إذا استطعت بنفسك، وإلاّ عاونتك واتبعني، لأنّ عقلي يقول لي إننا أحوج الآن الى أقدامنا منّا الى أيدينا.

فامتطى دون كيخوته فرسه دون أن يردّ بكلمة. وأمامه سار سنشو راكباً حماره، حتّى دخلا طريقاً في جبل سيِّرا مورينا وكان بالقرب منه. وكان قصد سنشو أن يجتازوا هذه السلسلة من الجبال، ليبلغا بيسو أو مدورّ الكمپو[1] بعد الإختفاء مدة في هذا القفار فراراً من «الأخوة المقدّسة» إذا مضت في آثارهم. وشجّعه على هذا الرأي أنّه تبين أن الزاد الذي كان يحمله الحمار أنقذ من نهب المحكوم عليهم، وهذه معجزة حقّاً، لأنّ هؤلاء الناس فتّشوا كل شيء وحملوا ما طاب لهم.

وفي هذه الليلة عينها بلغا قلب سيرامورينا[2]، وبدا لسنشو أنّ من الخير قضاء الليل ها هنا بل وقضاء بضعة أيّام، على الأقل طالما كان لديهم مايكفي من الزاد. فاتخذا مكانهما طوال الليل بين صخرتين وأيكة كثيفة من أشجار الفلّين. ولكنّ القدر ـ شاء أن ينظّم كل شيء على هواه في نظر أولئك الذين لا يستضيؤون بنور الإيمان ـ شاء أن يفكر خنيس دي پسمونته، هذا اللص الفاجر الذي أنقذه من الأغلال دون كيخوته بنبالته وحماقته، أن يفكّر بالإختباء في هذه الجبال مدفوعاً بعامل الخوف من «الأخوة المقدّسة» خوفاً له مايبرّره. وشاء القدر أيضاً أن يقتاده الخوف والطالع الى الموضع نفسه الذي نزل فيه دون كيخوته وسنشو پنثا اللذان سرعان ما تعرفهما وتركهما في سباتهما هادئين. ولمّا كان الأشرار

---

(١) ببسو Viso يقصد بها هنا بيسودل ماركيس Viso del Marques، قرية صغيرة في اقليم المنتشا تخضع لقضاء Valdepenas وبالقرب من سانتاكروث دي موديله Santa cruz de Mudela. وباسم بيسو وسنتاكروث تسمّى دون ألبرو = دي باثان لما أن اشترى هاتين القريتين من كارلوس الخامس(شارلكان)، فأصبح يلقّب بلقب ماركيز دل بيسو. وذلك سنه ١٥٢٩، وكانت قبل ذلك تابعتين لهيئة قلعة رباح Calatrava.

(٢) كلمة سيرا (التي عربت الى شارة) معناها اللغوي الأصلي «منشار» ثمّ أطلقت على سلاسل الجبال الممتدّة في قلب الهضبة الاسبانية ولها أسنان مدبّبة كالمنشار.

دائماً جاحدين ، وكانت الضرورة فرصة تخلق من المرء لصّاً ، والحاضر ينسي المستقبل ، فإن خينس وقد خلا من عرفان الجميل بقدر ما خلا من النوايا الطيبة ، قرّر أن يسرق حمار سنشو پنثا ، غير مكترث لروثينانته إذ بدا له غير صالح للبيع ولا للرهن . كان سنشو نائماً ، وسرق خينس منه حماره ، وقبل بزوغ النهار كان قد ابتعد الى حيث لايُدركْ .

وانبلج الفجر باعثاً في الأرض الحبور وفي نفس سنشو پنثا الحزن . فإنه لمّا لم يجد حماره أنشأ في العويل على نحوٍ لم يُرَ أشدّ منه إيلاماً وحزناً ، حتّى أنّ دون كيخوته استيقظ على دويّ عويله وسمعه وهو يقول :

ـ أي ولد أحشائي ، يا من ولدّت في بيتي وكنت لعبة أولادي ، ومصدر السرور لزوجتي ، والحسد لدى جيراني ، يامن كنت تخفيفاً لأعبائي ، وأخيراً كنت مورد غذاء لنصف شخصي ، فبستة وعشرين مرابطيّاً تكسبها في اليوم كنت تكفل نصف نفقاتي!

فلمّا شاهد دون كيخوته سنشو يشكو وعرف السبب ، واساه بخير مالديه من أسباب المواساة ووعده بصك تحويل لإعطائه ثلاثة حمير من خمسة خلفها وراءه في زريبته . وبهذا الوعد سرّي عن سنشو ، وجفّت دموعه ، وهدأت زفراته ، وشكر لمولاه ما أولاه من نعمة .

وكان دون كيخوته قد انتعشت الآمال في قلبه لمّا أن نفذ في هذه الجبال فبدت له مواطن صالحة للمغامرات التي ينشدها ، فراح يستعيد في ذاكرته تلك الأحداث الرائعة التي وقعت في مثل هذه الأماكن الموحشة الوعرة للفرسان الجوّالة ، واستغرقته هذه الخواطر وملأت نفسه حتّى نسي كل ماعداها . أمّا سنشو فمنذ أن اعتقد أنّه يسير في مكان أمين لم يكن يشغل باله غير شيء واحد هو أن يرضي معدته ببقايا ماغنمه من قساوسة الجنازة . فمضى خلف سيده ، حاملاً كل ماأمكن البرذون[1] حمله ، منتزعاً الطعام من الكيس ليضع منه في كرشه ولذّ له هذا النوع من السير بحيث لم يكن ليدفع فلساً من أجل أية مغامرة أخرى . وفي هذه اللحظة رفع عينيه فشاهد مولاه وقد توقّف محاولاً أن يرفع بطرف رمحه حزمة على الأرض ، فأسرع لمساعدته ووصل في اللحظة التي رفع فيها دون كيخوته على طرف رمحه وسادة وحقيبة مربوطتين معاً ، وكلتاهما ممزقة متعفنة . وكانت من الثقل بحيث اضطر سنشو لأخذهما بيديه ، وأمره مولاه بأن ينظر ما في الحقيبة . فهرع سنشو لتنفيذ

---

(١) في هذا الفصل أضاف ثربنتس حادث سرقة الحمار ، وكذلك في الفصلين التاليين ، ولكنّه ظل في الطبعة الأولى يتحدث بعد هذا الحادث عن الحمار وكأنّه لايزال في حوزة سنشو . وفي الطبعة الثانية أصلح هذا الإهمال . لكنه لم يصلحه بدقّة فبقي في كثير من المواضع ـ كما في هذا الموضع الآن ـ مما تولّد عنه خلط كان ثربانتس أوّل من سخر منه ، كما سنرى في القسم الثاني من دون كيخوته (الفصل الرابع) .



الفصل الثالث والعشرون : دون كيخوته يحاول القيام بوثبة جنونية
(عن جوستاف دوريه)

الأمر ، ورغم أنها كانت مغلقة بسلسلة وقفل فقد أمكنه رؤية مافيها من خلال الثقوب التي أحدثها البلى فيها . وهذه محتوياتها : أربعة قمصان من النسيج الهولندي الرقيق ، وقطع قماش أخرى غريبة نظيفة ، كذلك وجد سنشو فيها كميّة وفيرة من العملة (الأسكودو) الذهبية مربوطة في منديل ، فلم يكد يراها حتّى صاح :

ـ الحمد لله الذي بعث لنا بمغامرة ، فيها مكاسب!

واستمرّ في تفتيش الحقيبة ، فوجد كتيباً لطيفاً فيه مذكّرات ، أنيق التجليد . فطلب منه دون كيخوته أن يعطيه هذا الكتاب ، أمّا النقود فيتركها لسنشو . فقبل هذا كفّي مولاه شاكراً له هذه المنحة ، وأفرغ مافي الحقيبة ووضع القماش في خرج الزاد . ولمّا شاهد دون كيخوته هذا كلّه قال :

ـ يبدو لي يا سنشو ـ ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ـ أن أحد المسافرين الذين ضلّوا الطريق كان يود اجتياز هذه الجبال ، ولكن بعض اللصوص فاجأوه في الطريق وقتلوه وجاءوا لقتله في هذا المكان القفر .

فأجابه سنشو : هذا غير ممكن ، لأن اللصوص لايتركون هنا هذا المال .

فقال دون كيخوته : أصبت فيما قلت يا سنشو ، ولا أستطيع أن أحزر ماذا عسى هذا الأمر أن يكون . لكن انتظر ، ولننظر ماإذا كان في هذه الألواح إشارة يمكن منها أن نهتدي الى مانريد معرفته .

وفتح الكتيّب ، وكان أوّل ماوقع بصره عليه مكتوباً فيه على شكل مسودّة ، وإن كان الخطّ جميلاً ، مقطوعة(سونيتو) قرأها بصوت عالٍ ليسمع سنشو ، ورد فيها :

الحبّ : إمّا غبيٌّ أو مستبدٌّ غشومُ
أو ما ألاقي شديد لا تقتضيه جرومُ
والناس والعقل يدري الحبّ ربٌّ رحيمُ
فمن قضى بعذابٍ يلذّ وهو أليمُ ؟!
إن قلت ياخوط : أنت! كذبتُ ، فالخير خيمُ
الخير ينبت خيراً وما السماء ظلومُ
لابدّ لي من حمام والموت أمرٌ صريمُ[1]
لابدّ من معجزات لدفع ما لا نشيمُ[2]

---

(١) أي : قاطع لا مفرّ منه .

(٢) أي : ما لا نقدره ولا ندرك له سبباً .

فقال سنشو : هذه الأغنية لا تدلّنا على شيء ، اللهمّ إلا إذا استطعنا بواسطة هذا «الخيط» أن نهتدي الى كل هذه المغامرة .

فقال دون كيخوته : أي «خيط» هنا ؟

فأجاب سنشو : يبدو لي أنّ مولاي قد ذكر لفظ «خيط» ؟

فقال دون كيخوته : لقد قلت «خوط»[١] ، وهو من غير شك اسم المعشوقة التي يشكو منها مؤلف هذه المقطوعة . وأيم الله أنه شاعر لا بأس به ، وإن لم أكن أفهم في الشعر كثيراً .

فقال سنشو : وأكثر مما تظن . وسترى مصداق هذا حينما تحمل عنّي الى السيدة دلثنيادل توبوسو رسالة منظومة من أوّلها الى آخرها . ويجب أن تعلم ياسنشو أن جميع أو على الأقل معظم الفرسان الجوّالة في العصور الماضية كانوا من كبار الشعراء المطربين[٢] ، أعني من كبار الشعراء وكبار الموسيقيين : لأن هاتين الملكتين ، أو هاتين العبقريتين كما تسمّيان ، لاغنى عنهما للعشّاق الشاردين . ومن الحق أن نقول إن أشعار الفرسان القدماء كان فيها من القوة والجزالة أكثر مما فيها من الرقة والعذوبة .

فقال سنشو : اقرأ شيئاً آخر ، فلعلّك تجد ما ننشده .

فقلب سنشو الصفحة وقال :

ـ هذا نثر ، ويشبه أن يكون رسالةً .

فسأل سنشو : هل هي خاصة بأعمال ؟

فأجاب دون كيخوته : من استهلالها يبدو لي أنّها رسالة غرامية .

فقال سنشو : من فضل مولاي أن يقرأ بصوت عال ، لأنّي أحب هذه القصص الغرامية حبّاً جمّاً .

---

(١) الخوط : الغصن الناعم ويشبه به المرأة الهيفاء القد الناعمة . قال أبو نوّاس :

علنيه خوط أسحلة لان متناه لمهتصره

وذلك في القصيده التي مطلعها :

أيها المنتاب عن عفره لست من ليلى ولا سمره

راجع ديوانه (ص٦٧ طبع مصر سنة ١٨٩٨ باشراف اسكندر آصاف) .

وعلنيه : سقانيه مرات . والخوط : الغصن الناعم تشبه به المرأة . والأسحلة مفرد إسحل : شجر عظيم ينبت بأعالي نجد . والمهتصر : الذي يجذب الغصن ويميله . وقد وجدنا أن هذا اللفظ «خوط» هو خير تعريب لكلمة Fili الوارده في النص لأنه يسمح بهذا اللبس الذي وقع فيه سنشو ، إذ خلط بين Fili اسم المعشوقة وبين hilo بمعنى خيط .

(٢) الشعراء المطربون : trovadores وهو اسم يطلق في العصور الوسطى ، من القرن الحادي عشر حتّى الخامس عشر ، على الشعراء ، وخصوصاً ـ لتمييزهم من الزجالين Huglares ـ أولئك الذين يقرضون أشعاراً غرامية أو مدائح في سادة القصور والملوك دون أن يهدفوا من ورائها الى التكسّب .

فقال دون كيخوته : بكل ارتياح . وقرأ بصوت عالٍ كما التمس منه سنشو ، فوجد ما يلي :

« وعودك الكاذبة وآلامي المحققة تقتادني الى مكان يصل منه الى أذنيك نبأ موتي أولى من تعبير شكواي . لقد غدرت بي ياجاحدة من أجل رجل يملك أكثر مما أملك ولكنه لا يساوي أكثر منّي . فلو كانت الفضيلة تعدّ ثروة لما حسدت غيري على سعادته ، ولما ذرفت الدموع على شقاوتي . وماصنعه جمالك حطّمته أفعالك . فأحدهما جعلني أظنك ملكاً ، وبالآخر عرفت أنك امرأة . فقرّي عيناً بالسلام ، يامن أعلنت عليّ الحرب ، ولعلّ الله أن يستر خيانات زوجك ، حتى لا تندمي على ما اجترحته يداك ، وحتّى لا أثأر مما لم أعد أرغب فيه » .

فلمّا انتهى دون كيخوته من قراءة هذه الرسالة قال :

ـ إنها لا تخبرنا بشيء أكثر من المقطوعة ، اللهم إلا أنّ من كتبها عاشق مهجور .

ثمّ تصفّح الكتيّب كلّه فوجد فيه أشعاراً أخرى ورسائل ، بعضها يمكن قراءته والآخر ممحو . لكنّها لم تتضمّن غير شكايات وزفرات وملامات ، ومسرّات وآلام ، وعود بالوصل وإعراض ، وتمجيد للواحدة وتَحزُّن على الأخرى . وبينما كان دون كيخوته يفتّش في الألواح ، كان سنشو يفتّش في الحقيبة غير تارك فيها ركناً لم يفتّش فيه ، أو ثنية لم ينفذ الى دخائلها أو خياطة لم يمزّقها أو كبّة من الصوف لم يحلّها ، حتّى لا يضيع شيء نتيجة الإهمال أو عدم الإعتناء ، وكذلك فعل بالوسادة ، وذلك لأنّ النقود الذهبية التي وجدها بعثت في نفسه الجشع ، وقد بلغت عدّتها أكثر من مائة قطعة إذ على الرغم من أنّه لم يجد غير هذه اللقطة ، فقد رأى فيها جزاءً كافياً عن الترجّحات عن الملاءة ، والقيء الذي أحدثه شراب فيرابراس ، وضربات الهراوات ، ولكمات البغال وانتهاب الخُرج وسرقة المعطف وكل ألوان الجوع والعطش والتعب التي قاساها في خدمة مولاه الكريم ، واعتقد أنه جُوزِيَ عن هذا كلّه خير الجزاء بهذا الكنز الذي عثر عليه .

ولكنّ الفارس ذا الوجه الحزين كان يرغب رغبة شديدة في معرفة من هو صاحب هذه الحقيبة ، مقدّراً بالحدس من القصيدة والرسالة ، ومن النقود الذهبية والقمصان الرقيقة أن صاحبها لابد أن يكون عاشقاً من علية القوم ، اقتاده غدر صاحبته وإعراضها إلى نهاية بائسة يائسة . ولمّا لم يجد في هذا المكان القفر الموحش الوعر من يمكنه أن يستحدث منه خبراً ، لم يكن أمامه إلا أن يمضي في طريقه متخذاً السبيل التي يتخذه فرسه روثينانته ، أي حيث تستطيع هذه الدابة المسكينة أن تجد موطئاً لحوافرها ، وفي ظنّه أنه لابد ملاقٍ في

هذه الأدغال مغامرة غريبة . وبينما كان يسير مسترسلاً في هذه الخواطر ، أبصر فجأة - على قمّة رابية في مواجهته - رجلاً يثب من صخرة الى صخرة ومن أيكة الى أخرى بخفة تثير الدهشة . وخيّل اليه أنّ الرجل نصف عار ، ذو لحية سوداء كثّةوشعر طويل أشعث ورأس عارٍ وقدمين حافيتين وساقين لايسترهما شيء . وكان يلبس سروالاً من القطيفة الصفراء يغطّي فخذيه ، ولكنّه ممزق بحيث يبدو منه اللحم في عدة مواضع . وعلى الرغم من أنّه مرّ مرور البرق ، فقد رصد الفارس الحزين الوجه هذه التفصيلات كلّها واستقرّت في مخيلته . وودّ لو لحق به ، لكن لم يكن في وسع قوائم روثينانته الهزيلة أن تلاحقه خلال هذه الصخور ،وهو فرس قصير الخطو بطبعه ، بارد المزاج ، وسرعان ماتراءى لدون كيخوته أنّ هذا الشخص لابدّ أن يكون صاحب الحقيبة ، فقر قراره على مطاردته ولو كلّفه الأمر أن يعدو في هذه الجبال طوال سنة كاملة . فأمر سنشو أن يسير من إحدى نواحي الرابية ، ويسير هو من الناحية الأخرى ، وبهذه المناورة كان يأمل أن يلحق بهذا الرجل الذي اختفى سريعاً .

فأجابه سنشو : لا يسعني تنفيذ ما تأمربه ، لأنّي إذا تركت مولاي انتابني الخوف وهجم عليّ الفزع بكل تهاويله ومخاوفه . وهذا الذي أقوله هو بمثابة دعوة لك بألاّ تبعدني عنك قيد أنملة .

فقال الفارس ذو الوجه الحزين : موافق ، ويسرّني أن تثق بشجاعتي كل هذه الثقة ولن أتخلّى عنك ولو تخلّت روحك عن بدنك . فتعال من ورائي ، خطوة فخطوة ، أو كما في وسعك ، ولتكن عيناك مصباحين . وسنتجوّل في هذه الروابي عسانا نقع على هذا الرجل الذي لمحناه ، وهو لايمكن أن يكون إلا صاحب هذه الحقيبة التي عثرنا عليها .

فقال سنشو : إن كان الأمر كذلك ، فمن الخير ألا نبحث عنه ، لأنّا لو وجدناه وكان هو صاحب النقود الذهبية ، لكنت مضطراً الى ردّها اليه ، فالأفضل إذن أن أبقى محتفظاً بهذه العقيدة الساذجة ، دون القيام بمحاولات لاجدوى منها ، الى أن يكتشف المالك الحقيقي لهذه اللقطة دون أن نبذل جهداً واستطلاعاً في الكشف عنه . ولعلّ ذلك أن يكون بعد إنفاق هذه النقود ، هنالك يعفيني الملك من أدائها إليه .

فأجاب دون كيخوته : أنت مخطىء في هذا ياسنشو . فمن مجرّد أن يخيّل إلينا أن صاحب النقود هو ذلك الذي أبصرناه ، فنحن ملزمون بالبحث عنه وردّها اليه ، فإن لم نبحث عنه فبمجرّد الظن القويّ أنّه صاحبها يلبسنا الذنب نفسه كما لو كان حقّاً صاحبها . وإذن فلا تتعب نفسك ياصديقي سنشو في البحث عنه ، لأنّ عثوري عليه يزيل عن كاهلي عبئاً ثقيلاً .

وماقال هذا حتّى همز روثينانته ، وتبعه سنشو على قدميه يحمل حمل الحمار ، بفضل خينس دي پسمونته . فلمّا كادا يتمّان الدورة حول الجبل عثرا عند شاطئ جدول على جثة بغل بسرجه ولجامه ، وقد نهش نصفه الذئاب والغربان ، مما أيّد ظنهما أن هذا الهارب هو صاحب الحقيبة والبغل . وبينما كانا يتأملانه سمعا صوت صفّارة مثل صفّارة الرعاة الذين ينادون قطعانهم ، وفجأة برز لهما عن يسار حشد هائل من الماعز ، من خلفها تبدّى من أعلى الجبل المعّاز الذي يحرسها ، وكان رجلاً طاعناً في السن . فناداه دون كيخوته بأعلى صوته وطلب منه الإنحدار بالقرب منها . وأجاب المعّاز موافقاً وسألهما مالذي أتى بهما الى هذا المكان الذي لايطرقه غير حوافر المعز أو الذئاب وغيرها من الحيوان الوحشي . فأجابه سنشو داعياً إيّاه الى النزول وسيعرف حينئذ جلية الأمر . فنزل المعّاز ولمّا اقترب من دون كيخوته قال :

ـ أراهن أنك كنت تتأمّل البغل الأجير النافق في هذا الغور . صدّقني إذن إن قلت لك إنه هنا منذ ستّة أشهر . ولكن قل لي هل عثرت هنا على صاحبه ؟

فأجابه دون كيخوته : لم نقابل أحداً ، بل وجدنا وسادة وحقيبة بالقرب من هنا .

فقال المعّاز : وأنا أيضاً عثرت بهذه الحقيبة ، ولكنّي لم أشأ حملها ولا الإقتراب منها ، خشية وقوع أي أذى ، وحتّى لاأتّهم بأنّي حصلت عليها سرقة ، لأن الشيطان خبيث ، يضع بين أرجل الإنسان مابه يتعثّر ويقع دون أن يعلم كيف ولماذا .

فأجاب سنشو : وهذا أيضاً ماقلته ، فقد وجدتها ، لكنّي لن أشأ الاقتراب منها . فتركتها في مكانها كما كانت ، لأنّي لا أريد أن أعلّق الشخاشيخ[1] في الكلاب .

فقال دون كيخوته : خبّرني ، أيها الرجل الطيب ، هل تعرف من صاحب هذه الأشياء ؟

فقال المعّاز : ما أستطيع أن أقوله أنّه منذ قرابة ستّة أشهر قدم الى أكواخ الرعاة ـ وتبعد ثلاثة فراسخ من هنا ـ شاب سبط القوام وضيء الطلعة ، راكباً ذلك البغل النافق هناك ، ومعه هذه الحقيبة التي قلت أنك عثرت عليها ولم تلمسها . وسألنا عن أشد هذا الجبل قفراً ووحشة ، وهذا حق لأنّك إذا توغّلت نصف فرسخ آخر فلعلك لاتجد مخرجاً أبداً ، ويدهشني أنك قدرت على الوصول الى هنا ، إذ لا يوجد طريق ولا شعب يؤدّي الى هذا المكان . أقول إذن أنه ماكاد الفتى يسمع جوابنا حتّى أدار ظهره وأتجه الى المكان الذي أشرنا إليه وتركنا في دهشة وعجب بجمال طلعته وسرعة سيره للنفوذ في أعماق الجبل . ومنذ ذلك الحين لم نره أبداً ، الى أن قطع الطريق بعد ذلك بعدّة أيّام على أحد الرعاة ، ودون أن ينطق بكلمة انهال

---

(١) في الأصل no quiero perro con cencero : «لا أريد كلباً بشخاشيخ» . ـ لأن الكلب ذا الشخاشيخ يفصح عن وجوده اللصوص .

عليه باللكمات والرفسات . ثمّ انقضّ على الأتان الذي يحمل المؤونة ، وأخذ كل ما عليه من خبز وجبن ،ثمّ ولّى هارباً وتوغّل في الجبل . فلمّا عرفنا هذه الحادثة ، قمت أنا وبعض المعازين وبقينا نبحث عنه طوال يومين تقريباً في أعماق غابات الجبل فعثرنا عليه رابضاً تحت شجرة فلّين سامقة شديدة . فأقبل علينا هاشّاً باشاً ، وثيابه مهلهلة ممزّقة ووجهه متغيّر لوّحته الشمس حتّى صعب علينا تعرّفه ، وكانت ملابسه ـ رغم تمزيقها ـ هي التي أكّدت لنا ـ بالذكرى التي تركتها في نفوسنا ـ أنّه هو الذي نبحث عنه . وحيّانا بكل أدب ، وفي كلمات قصار ولكنّها سديدة دعانا إلى ألا ندهش لحاله هذا وعيشه على هذا النحو ، فما ذلك إلا وفاء لنذر كفّارة عن خطاياه العديدة . فرجوناه أن يدلّنا على اسمه ، لكنّا لم نستطع أبداً حمله على ذلك . وقلنا له : إذا احتاج الى غذاء فما عليه إلا أن يدلّنا أين نوافيه به ، إذ يسرّنا أن نلبّي رغباته في هذا بكل ارتياح ودقة . وإن لم يشأ ذلك فليأت لطلب ذلك منّا ، لاأن يأخذه من الرعاة بالقوّة . فشكر لنا شكراً جزيلاً ماعرضنا عليه والتمس الصفح عمّا سلف منه ، ووعدنا أن يسأل غذائه إحساناً لله دون أن يؤذي أحداً . أمّا عن مسكنه فقال أن لا مسكن له إلاّ ما يتصادف وجوده حين يغشاه الليل . وبعد تعاقب هذه الأسئلة وهذه الأجوبة أنشأ في البكاء بحنان ، وإن لم ننطلق معه بالبكاء نحن الذين كنّا نسمعه لكنّا حجارة أو أشدّ قسوة! ويكفي أن ننظر كيف وجدناه في المرة الأولى وكيف نراه الآن ، إذ ، كما قلت لكما ، كان فتى رقيقاً وضيء الوجه يبدي في أدب عبارته عن كريم معدنه ونبالة أصلة ، حتّى أن جفوتنا وقسوتنا بدت جليّة واضحة ولطفه بدا واضحاً حتّى من خلال ماظهره عليه من خشونة . وفجأة وبينما كان في وسط الحديث ، توقّف والتزم الصمت وسمّر عينيه في الأرض مدة طويلة ، فأصابتنا الدهشة وانتابنا القلق ، منتظرين ماذا عسى أن تفضي إليه هذه الجذبة ونحن مشفقون عليه إذ كنّا نراه يفتح عينيه حيناً ويغلقها حيناً آخر ، وينظر الى الأرض دون إطراف ، ثمّ يقبض شفتيه ويقطب حاجبيه ، فعرفنا في التو أنّه مصاب بلوثة جنون . وصدق ما حسبناه لأنّه نهض من الأرض فجأة غاضباً ثائراً ، وانقضّ بجميع قواه وغضبه على أقرب الناس اليه ، ولولا أننا انتزعناه من بين يديه لقتله بلكماته وعضّاته . وكان وهو يضربه يقول : « أي فرنندو الخائن! هنا ستدفع ثمن غدرك بي ، وهاتان اليدان ستنتزعان منك ذلك القلب الذي تسكن به كل الرذائل والدنايات مجتمعة ، وعلى رأسها الخداع والخيانة » ـ وأضاف الى هذا عبارات أخرى كلها سباب في فرنندو هذا قائلاً أنّ خائن غدّار . وأخيراً وبعد جهد جهيد خلصنا رفيقنا من بين يديه ، ودون أن ينبس بكلمة هرب الفتى مسرعاً كل الإسراع ، واختفى بين الصخور والأدغال فاستحالت علينا مطاردته واللحاق به . فاستنتجنا من هذا أنّه مصاب بجنون ، وأنّ

شخصاً يدعى فرنندو قد فعل به فعلة نكراء يدل على نكرها ما آل إليه من حال . وتأيّد هذا كله في المرّات التي قابلناه فيها ليسأل الرعاة شيئاً من الزاد ، أو ليأخذه منهم بالقوة ، إذ حينما تظهر عليه أعراض الجنون في نوباته يُعرض عمّا يقدّمه اليه الرعاة عن طيب خاطر ولا يتقبّل منه شيئاً ، وإنّما يأخذ مايريد باللكمات . ولكن إذا ثاب اليه رشده سأل الإحسان لله بأدبٍ جمّ ، فإن أعطي انطلق ينهج بالشكر ، وبالبكاء أيضاً . وتابع المعّاز حديثه قائلاً : وأقول لكم ياسادتي أنني قرّرت أنا وأربعة رعاة ـ إثنان منهما يشتغلان عندي ، والآخران صديقان ـ أن نبحث عنه حتّى نعثر عليه ، فإذا ظفرنا به اقتدناه ـ شاء أو أبى ـ الى مدينة المدوّر التي تبعد ثمانية فراسخ من هنا ، وهناك نعمل على أن يحصل على الشفاء إن كانت علّته قابلة للعلاج ، أو على الأقل نعرف من هو عندما يثوب الى رشده ، ونعرف هل له أهل يمكن أن نخبرهم بما وقع له . وهذا أيها السيدان هو كل ماأستطيع أن أقوله عمّا سألتماني عنه ، وتأكدا تماماً أن صاحب الأشياء التي وجدتماهاهو بعينه الشخص الذي رأيتماه يمر بسرعة وخفة تلتثمان وغريه » . ولقد أنبأه دون كيخوته فعلاً كيف شاهد الرجل وهو يعدو في ثنايا الجبل .

فانتابت دون كيخوته الدهشة مما سمع من كلام المعّاز ، والرغبة الشديدة في أن يعرف من هو هذا المجنون البائس ، وصمّم على تنفيذ مايفكّر فيه وهو البحث عنه في الجبل كلّه دون أن يترك زاوية أو فجوة أو غاراً بغير أن يفتّش فيه عنه حتّى يعثر عليه . لكن البخت رتّب الأمور خيراً مما رجا ، إذ في هذه اللحظة نفسها تبدّى ـ في مضيق من مضايق الجبل ينتهي اليهم ـ ذلك الفتى الذي يبحثون عنه . وأقبل يرطن بين شفتيه بكلمات لم يكن من الممكن سماعها ولو من قرب . وكان رداؤه كما وصفوه ، لكن حينما لاحظ دون كيخوته أن صدريته ممزّقة يحملها على أكتافه كانت من جلد الغزال المعطّر بالعنبر ، مما جعله يجزم بأنّ شخصاً يلبس ملابس من هذا النوع لا يمكن أن يكون من طبقة وضيعة . ولمّا اقترب الفتى منهم حيّاهم بصوت مبحوح سريع ، لكن بأدب جمّ . وردّ عليه دون كيخوته بأحسن منها ، ثمّ نزل من على صهوة فرسه ، وراح يعانقه بحرارة ويضمّه الى صدره برهة وكأنّه يعرفه منذ سنوات . أمّا الآخر ـ ويمكن أن نطلق عليه اسم (الأرث ذي الوجه القبيح) كما سمّى دون كيخوته : « ذي الوجه الحزين » ـ فبعد أن رضي عن عناقه أبعده ووضع كفّيه على كتف دون كيخوته وراح يتأمّل فيه كأنّه يريد أن يعرفه ، وهو في دهشة أيضاً من رؤية وجه دون كيخوته ومظهره وسلاحه لاتقل عن دهشة هذا منه . وفي النهاية بدأ « الأرث » بالكلام بعد العناق ، فقال ماسنورده فيما يلي .

الفصل الرابع والعشرون

في تلاوة مغامرة السيرا مورينا

تحكي القصة أن دون كيخوته كان يقبل بكل مسامعه على ماكان يقوله «فارس الجبل» البائس وهو يتابع حديثه :

ـ الحق ياسادة ، أياً من كنتم لأنني لاأعرفكم ، أنني أشكر لكم ماأبديتم نحوي من مظاهر الأدب واللطف ، وبودّي لو أستطيع أن أرد عليكم بغير النية الطيبة ما أظهرتموه منها في حسن استقبالكم لي . لكنّ سوء طالعي لا يهيئ لي ـ من أجل الجواب عمّا يقدّم اليّ من خدمات ـ غير الأماني الطيبة في الإعتراف بالجميل .

فأجاب دون كيخوته : إن أمانيّ أن أخدمك ، لأنني صمّمت على عدم الخروج من هذه الجبال حتّى أعثر عليك وأعرف منك مإاذا كانت المحنة التي تدل غرابة حياتك على أنّك مصاب بها يمكن أن يوجد لها دواء فأبذل في الحصول عليه كل ما أستطيع . أمّا إن كانت محنتك مما لايرجى منها شفاء ، فإنّي أود على الأقل أن أعينك على احتمالها فأمزج زفراتي بزفراتك وعبراتي بعبراتك : فمن العزاء عن الألم أن تجد من يشارك في الاحساس به . فإن كانت نواياي الطيبة تستحق الجزاء بشاهد من الأدب ، فإنّي أستحلفك بحق اللطف الذي أراه يرفّ فيك ، وبحق من تعشق أو خير من تحب ، أن تخبرني من أنت وما الدافع بك الى أن تعيش وتموت كالدواب في وسط هذه القفار التي تقيم فيها على خلاف حقيقة حالك ، كما يشهد بذلك مظهرك .وإنّي لأقسم ـ هكذا تابع دون كيخوته قوله ـ بطريقة الفرسان التي دخلت فيها ، وإن كنت بها غير جدير ، وبمهنة الفارس الجوّال ، بأنّك إذا رضيت رغبتي في هذا لخدمتك بكل حماسة وإخلاص يقتضيانهما واجبي : فإمّا أن أواسيك في محنتك بالخفيف منها إن كان لها دواء ، أو بإعانتك على البكاء عليها كما وعدتك .

ولمّا سمع فارس الغابة فارس الوجه الحزين يتحدّث على هذا النحو لم يفعل إلا أن ظل

يحدّق فيه ويفحصه ويتأمّله من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه ، فلمّا فرغ من تأمّله قال :
ـ إن كان معكم طعام فأعطوني إحساناً لله ، فإذا طعمت فعلت وقلت ما شئتم ، اعترافاً بالنوايا الطيبة التي أظهرتموها .

وسرعان ماأخرج سنشومن الخرج والمعّاز من السلة مااحتاجه «الأرث» لشبعه ، فانقضّ على ماقدّموه اليه انقضاض الأبله المتبلّد ، وأخذ في القضم بنهم شديد لم تنتظر معه اللقمة اللقمة ، بل كان يلتهم ولايبتلع . وطالما كان يأكل ظل الباقون معتصمين بالصمت ، ولمّا فرغ من طعامه أشار عليهم بالسير في أثره حتّى اقتادهم الى مرعى نضير كان قائماً هناك عند منعطف لصخر . فلمّا بلغ هذا الموضع انطرح على العشب ، وفعل الآخرون مثله ، دون أن ينطق أحد بكلمه ، الى أن تمكّن الفارس الأرث من جلسته ، فأنشأ يقول :

ـ إن شئتم ياسادة أن أروي لكم بعبارة موجزة هول مصائبي ، فعليكم أن تعدوني ألا تقطعوا سلسلة قصّتي الحزينة بأي سؤال أو حركة ، فإن فعلتم توقّفت توّاً ولم أتحدّث أبداً .

فأعادت هذه المقدمة في ذهن دون كيخوته ذكر القصة التي رواها له حامل سلاحه ، والتي توقّفت لعدم معرفه عدد المعز التي عبرت النهر . ولكن «الأرثّ» تابع حديثه قائلاً :

ـ إن كنت أحتاط هذا الاحتياط فذلك لأنّي لا أرغب في التلبّث طويلاً عند قصّة مصائبي ، لأنّ إعادة ذكرها لن يفيد إلا في خلق غيرها ، فإن أقللتم من الأسئلة كان فراغي من روايتها أسرع ، بيد أنّي لن أغفل عن ذكر شيء ذي بال حتّى أرضي حبّ استطلاعكم تمام الرضا .

فوعده دون كيخوته ـ باسم الجميع ـ بما طلب ، وبهذا التأكيد بدأ على هذا النحو :

ـ اسمي كردنيو ، وبلدي من أهم بلاد هذا الأندلس[1] ، وأسرتي نبيلة ، وأهلي أغنياء ، وشقائي كبير يبكي له أهلي وتشعر به أسرتي ، دون أن يملكوا تخفيفه بثروتهم ، لأن ثروة الرزق لا تغني كثيراً في علاج ماترسله السماء من شقاء . وكان يسكن في ذلك البلد ملاك من السماء ، وضع فيه «الحبّ» كل كمال ومجد كنت أطمح اليه : كذلك كانت لوسنده نبيلة غنيّة مثلي ، لكنّها كانت أسعد منّي وأقل إخلاصاً مما استحقّته عواطفي الشريفة . لوسنده هذه أحببتها وعبدتها منذ نعومة أظفاري . وهي أيضاً كانت تحبّني بتلك البراعة والبساطة التي يسمح بها فناء سنّها . وأدرك أهلونا مابيننا من عواطف متبادلة ، دون أسف ، إذ اعتقدوا أنّ هذه العواطف إذ امتدّت الى مابعد الطفولة فلن يكون لها من

(١) يقول «هذا الأندلس» deste Andalucia ـ كما لاحظ كليمنثين لأنه يشير الى الأندلس الأسفل ، في مقابل الأندلس الأعلى الذي يشمل مناطق غرناطة وقاين حيث الأرض جبلية مرتفعة .

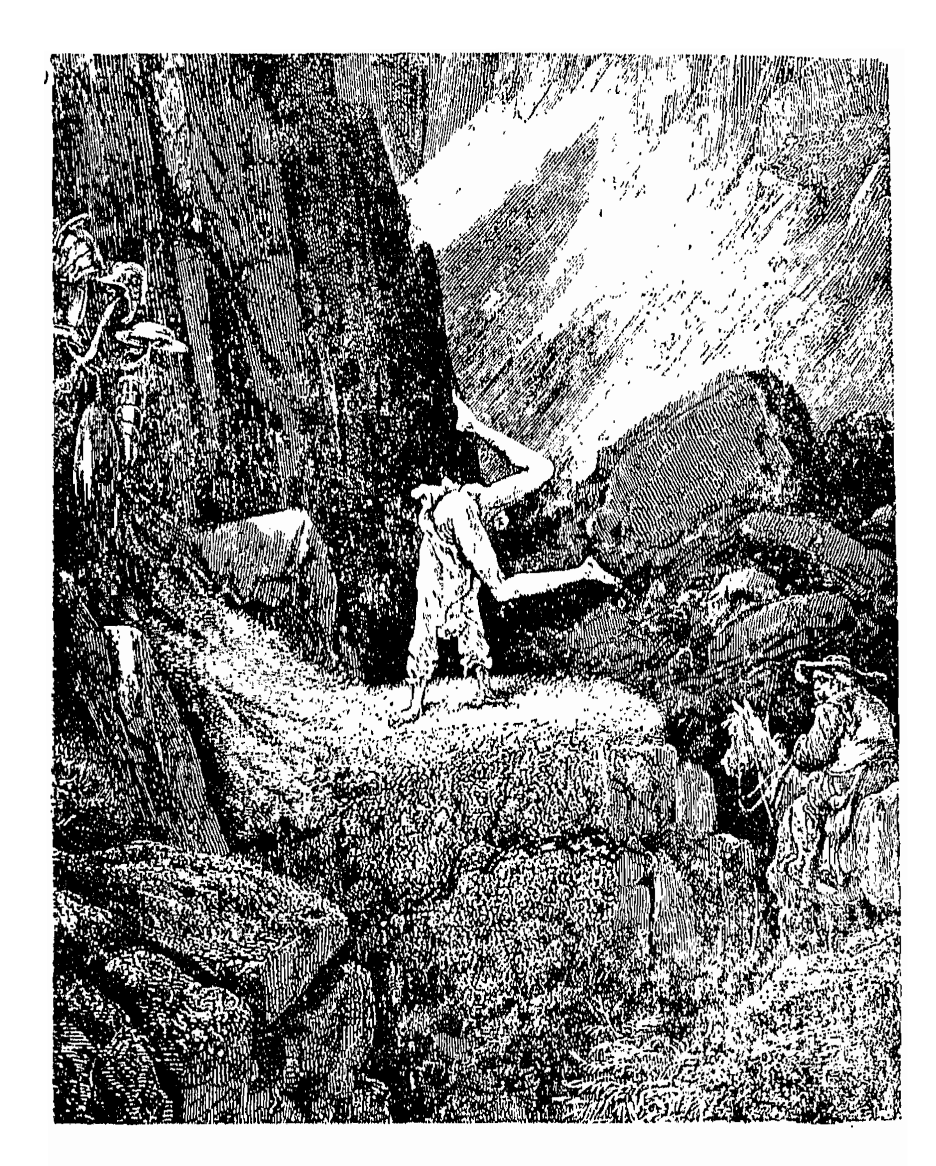
خاتمة غير الزواج ، وهو أمر يبدو كأنّ مساواة كلينا في المنزلة والثروة قد هيّأه سلفاً . ونما الحبّ بيننا مع السن ، ورأى والد لوسنده أن الواجب والأداب تقضي عليه بأن يحول بيني وبين بيته مؤتسياً في هذا بأهل تِسْبه[1] التي طاما تغنّى بها الشعراء . فلم يزدني هذا المنع إلا ضراماً وشوقاً على شوق ، لأن المنع فرض الصمت على شفاهنا ، لاعلى أقلامنا التي استطاعت خيراًمن الألسنة ، أن تعبّر لمن تريد له التعبيرعمّا يختلج في النفس من لواعج ، إذ يحدث كثيراً أن تضطرب الإرادة القوية نفسها في حضرة المعشوق فتنقلب أشدّ الألسنة ذلاقة عيّاً بكيناً . ياالله! كم من رسائل كتبت اليها! وكم من جوابات تلقّيت منها ، كلّها نبل وكلّها رقة! وكم من قصائد نظمتها وأشعارغرامية أفضت فيها نفسي بمكنون عواطفها ورسمت مشبوب أمانيها ، وتحدثت الى ذكرياتها ، واستمتعت بمباهجها! وأخيراً استولى عليّ القنوط وشعرت أنّ نفسي تحترق بلهيب الشوق لرؤية لوسنده ، فقرّرت أن أعمل أنسب الأمور لبلوغ الجزاء المأمول الذي أستحقّه عن غرامي ، أعني أن أطلب من أبيها الاقتران بها زوجة شرعية لي . فتقدّمت الى أبيها بهذا الطلب ، لكنّه أجاب بأنّه مع تقديره للرغبة في تشريفه بهذا الإقتران وتشرّفي به ، فإنّ أبي لايزال حيّاً فله إذن حق التقدّم بهذا الطلب ، لأنّه إن لم يكن هذا الزواج برضا تام وعلى هوى من والدي ، فليست لوسنده من أولئك اللواتي يقترنّ ويقدّمن أنفسهن زوجات سرّاً وقسراً . وبدا لي أنّه على حق فيما يقول ، فشكرت له كريم مشاعره ، وأملت أن أنال موافقة أبي بمجرّد عرض الأمر عليه .

«وذهبت يحدوني هذا الأمل الى والدي أكشف له عن رغبتي هذه . لكن في اللحظة التي دخلت فيها غرفته ، وجدته يحمل في يده رسالة مفتوحة سلّمها إليّ قبل أن أفوه بكلمة ، وقال : يا كردنيو! سترى في هذه الرسالة أنّ الدوق ريكردو يرجو لك الخير » . والدوق ريكردو ـ كما يجب أن تعلموا يا سادة ! ـ رجل من عظماء اسبانيا تقع ضياعه في أخصب بقاع هذا الأندلس[2] . فأخذت الرسالة وقرأتها فوجدتها مكتوبة بعبارات بدا لي أنا نفسي

---

(١) تسبه Tisbe : معشوقة بيرم Pyrame البابلي الذي اتعد وإياها في سهل بالقرب من بابل تحت شجرة توت . فوصلت تسبه أولاً . ثمّ طلت لها لبؤة ففرّت وخلفت وراءها نقابها فمزّقته اللبؤة وملأته دماً ، فشاهده بيرم لمّا وصل فاعتقد أنها قتلت . فاستولى عليه القنوط فقتل نفسه بسيفه . ثمّ عادت تسبه ورأت ما جرى لعشيقها فانتحرت الى جواره . فاستحالت ثمار التوت سوداء بعد أن كانت حتّى ذلك الحين بيضاء .

(٢) يشير كردنيو هنا الى دوقة أشونة ، وأشونة في الأندلس الأسفل . والأندلس الأعلى يمتد من أشبيلية الى غرناطة ، ماراً بأرشذونة ، ويشمل مملكتي غرناطة وقاين القديمتين وإن كان الأب موريو بلاردة Murillo Velarde في كتابه «الجغرافيا التاريخية» ج١ ص١٤٨ (مدريد سنة ١٧٥٢) يقول عن الأندلس إنه يشمل أربع ممالك : غرناطة ، وأشبيلية ، وقرطبة ، وقاين ، وينقسم الى أندلس أعلى هو مملكة غرناطة ، وأندلس أسفل هو سائر الأندلس .



الفصل الرابع والعشرون : دون كيخوته في مجاهداته

أنه من المستحيل بعدها ألا يرضى والدي بما طلب منه فيها . ذلك أنّ الدوق رجاه أن يرسلني الى حيث يقيم قائلاً إنه يريد منّي أن أكون ـ لامن حاشية ابنه الأكبر ، بل رفيقاً له ، وأنه سيتولّى تعييني في منصب يليق بتقديره لي . فتولاّني الصمت لدى قراءة هذه الرسالة ، خصوصاً وقد قال والدي : «في خلال يومين سترحل ياكردنيو لإرادة الدوق ، وأحمد الله الذي فتح عليك بطريق ستصل به الى ماتستحقّه» . والى هذه الكلمات أضاف النصائح التي يسديها والد لولده في مثل هذه المناسبة . وأزف موعد الرحيل ، وكنت قد تحدّثت الى لوسنده في الليلة السابقة وقصصت عليها كل شيء وأنبأت أباها كذلك ملتمساً منه أن يحفظ عهده لي مدة من الزمان ، ويؤجّل اتخاذ قرار بشأن ابنته ، على الأقل حتّى أعرف ماذا يريده ريكردو منّي . فوعدني بذلك ، وأكّدت لوسنده ما وعدّ بأغلظ الأيمان ، وبنوبات من الإغماء . وأخيراً ذهبت الى حضرة الدوق ريكردو ، فاستقبلني استقبالاً حاراً أثار الحسد في نفوس رجاله ، إذ ظنّوا أن ماأبداه نحوي من عطف سابغ سيكون في غير مصلحتهم . وكان أكثرهم اغتباطاً بقدومي ابنه الثاني المدعو دون فرنندو ، وكان شاباً صافي الأديم محمود الشمائل ، حرّ النفس ، أريحي الطباع ، سهل المحبة ، سرعان مارغب في صداقتي إلى حد أطلق الألسنة بذكرها . أمّا الأكبر فكان يحبني من غير شك ، ويعاملني باحترام ، لكن دون أن يكون بيني وبينه من المودّة والانطلاق مثلما كان بين دون فرنندو وبيني . ولمّا كان السر بين الأصدقاء مرفوعاً ، والألفة التي كات بيني وبين دون فرنندوقد أصبحت صداقة ، فقد أفضى اليّ بدخيلة نفسه ومكنون خواطره ، ومن بينهاعاطفة غرامية كانت تسبّب له بعض الهمّ . ذلك أنّه كان يحب فلاحة من أتباع أبيه ، وكان أهلها أغنياء جداً ، وكانت رائعة الجمال خفيفة الروح عاقلة الى حد أن عارفيها لم يكونوا يدرون أي هذه الصفات أبرز من الأخرى : فألهبت هذه الشمائل المجتمعة في الفلاحة الجميلة مشاعر دون فرنندو ، فقرّر أن يعاهدها على الاقتران بها حتى تكون له بعد أن أخفقت سائر الوسائل في الظفر بها . ولكي أكون أميناً على صداقتي وإيّاه رأيت لزاماً عليّ أن أسعى بكل ماأستطيع أن أجده من الحجج القاطعة والأمثلة السائرة ، أن أعدل به عن هذا القرار . لكنّ محاولاتي معه ذهبت سدى ، فقرّرت أن أبوح لأبيه بكل شيء ؛ وكان دون فرنندو لوذعيّاً فطناً فأحسّ بما عزمت عليه ، إذ أدرك أن خادماً أميناً مثلي لايمكن أن يتستّر على شيء يشين الدوق ، مولاي . فأراد أن يصرفني ويخدعني فقال إنه لادواء أنجع لنسيان الجمال الذي استولى عليه ـ من البعد بضعة أشهر ، ومن أجل هذا رغب أن نسافر معاً الى أبي ، بحجّة شراء خيول جيدة من بلدي حيث تربى أحسن الخيول في الدنيا . فلمّا سمعته يتكلّم على هذا النحو ، دفعتني

العاطفة الى موافقته على هذا الرأي حتّى لو كان رأياً فائلاً ، وعدّه أحكم رأي يمكن تصوّره ، ذلك أني رأيت في تنفيذه فرصة رائعة لرؤية حبيبتي لوسنده . وبدافع هذه الفكرة وتلك الرغبة رأفأته على رأيه وأيّدته فيما ذهب اليه ، ونصحته بالتنفيذ في الحال قائلاً أن البعد ، مهما تكن قوّة العواطف ، ذو أثر بالغ لا ينكر . لكن . كما عرفت من بعد ـ لم يقترح عليّ دون فرنندو هذا الاقتراح إلا بعد أن غرّر بالفلاحة تحت ستار أنّه زوجها ، فراح يبحث عن فرصة للهرب قبل افتضاح أمره ، خشية غضب أبيه إن علم بخطيئته ، ولمّا كان الحب ، لدى كثير من الشبّان ، غير جدير بهذا الاسم ، بل هو مجرّد رغبة عابرة لا تستهدف غير اللذّة ، فإذا تحقّقت هذه انطفأ ذاك ، وهو أمر لا يحدث للحب الصادق ـ فإن دون فرنندو لم يكد ينال مراده من الفلاحة حتّى هدأت شهواته وانطفأت شعلة عواطفه ، فإن كان تظاهر أولاً بالرغبة في البعد ليتجنّب أن يلتزم بشيء ، فإنّه قد أراد الآن أن يبتعد ليتجنّب التمسّك بعهده ، وأذن له الدوق في الرحيل ، وكلّفني بمصاحبته . فبلغنا مدينتنا ، واستقبله أبي بما يليق به مثل هذا الضيف الكريم ، ورأيت لوسنده ، وتولّدت مشاعري من جديد وإن لم تكن ماتت ولاخمدت ، ولسوء حظّي أفضيت بها الى دون فرنندو ، لأنّي رأيت أن شريعة صداقتنا تلزمني بألاّ أحجب عنه أي سر . فرحت أثني على مفاتن لوسنده وجمالها وذكائها ، وأعلي من قدرها بحرارة ولّدت في نفسه الرغبة الشديدة في رؤية شخص تحلّى بكل هذه المفاتن . وشاء سوء الطالع أن أحقّق رغبته ، فذات ليلة أريته إيّاها على ضوء شمعة ، من نافذة اعتدنا أن نتحدّث عندها . فنسي كل ما رآه من جمال حتّى ذلك الحين . فظل سادراً ساهماً مستغرقاً لا يحس ، وبالجملة فقد اشتعل غراماً بها الى الحدّ الذي سترونه من خلال قصتي هذه البائسة . وشاء القدر ـ زيادة في إضرام غرامه الذي أخفاه عنّي ولم يبح به إلاّ للسماء ـ أن يعثر ذات يوم على رسالة كتبتها لي تدعوني الى خطبتها الى أبيها ، وكانت رسالة رقيقة مليئة بالحب والحياء لم يكد يقرأها حتّى قال لي أن في لوسنده وحدها اجتمعت كل مفاتن الروح والجمال التي توزّعها سائر النساء . ومن الحق عليّ أن أعترف الآن بأنه على الرغم من إدراكي لصدق الأسباب التي جعلت دون فرنندو يشيد بلوسنده ، فقد بدأت أستشعر عدم الثقة فيه . والواقع أنّه كان يريد دائماً أن نتحدّث عن لوسنده ، ويعود بالحديث اليها مهما تكلّف في ذلك ومهما بعد الموضوع عنها . فأيقظ هذا كلّه في نفسي شائعة الغيرة ، لا لأنّي كنت أخشى تغيير لوسنده عليّ أو خيانة منها ، ولكن مصيري جعلني أخشى ما هيأته لي هي . وحاول دون فرنندو دائماً أن يقرأ الرسائل التي كنت أبعث بها الى لوسنده ورسائلها هي إليّ ، بحجّة أنّه كان معجباً ببراعة تعبيرنا عن عواطفنا .

«وحدث ذات يوم أن سألتني لوسنده أن أقرأ قصة فروسية كانت تعجبها كثيراً ، وهي قصة أماديس الغالي...» .

ولم يكد دون كيخوته يسمع اسم قصة الفروسية حتّى صاح :

ـ لو أنبأتني يا سيّدي في بدء حديثك أن صاحبة العصمة الأنسة لوسندة مولعة بكتب الفروسية ، لما كنت في حاجة الى منقبة أخرى لإقناعي بتقدير سمو عقلها ، وإلاّ فلو كان ينقصها الإعجاب بهذا النوع من الكتب اللذيذة الفاتنة لما كانت متحلية بكل تلك الشمائل التي وصفتها لنا ياسيّدي . فعن نفسي لاحاجة بك الى الإسراف في العبارات للإشادة بمفاتنها ومناقبها وذكائها ، بل كفاني أن أعرف الى أين يتّجه ولعها ، لأقرّر أنها أجمل وأذكى امرأة في الدنيا . بيد أنّي كنت أودّ منك ياسيّدي أن ترسل اليها مع قصة «أماديس الغالي» ، قصة ذلك الرجل الطيب «دون روخيل اليوناني» ، فأنا على يقين من أنّ الأنسة لوسنده كانت ستستمتع كثيراً بأنباءدرئيدا وجرايا ، وأسمار الراعي دارينل[1] ، والقصائد الرعوية التي كان يتغنى بها ويعزفها برقة ولطافة بالغة ، لكن سيأتي الوقت لتتدارك هذا الخطأ ، وذلك حينما تتفضّل معي الى قريتنا ؛ فهناك أستطيع أن أعطيك أكثر من ثلثمائة مجلّد هي لذة نفسي ونعم حياتي ، وإن كنت أعتقد أنّه لم يبق لديّ منها شيء ، بسبب مكر السحرة الأشرار وحسدهم . وليغتفر لي سيّدي إن كنت قد خالفت عهدنا له بألاّ نقاطع قصّته أبداً ، لكنّي لم أكد أسمع كلاماً عن الفروسة والفرسان الجوّالة حتّى استعصى عليّ أن أمنع نفسي من إضافة كلمة في الموضوع ،شأني في ذلك شأن أشعة الشمس لا تملك تمتنع من نشر ضوئها وحرارتها أو القمر أن يبث رطوبته . فاعذرني إذن ، واستمر في حديثك وما أشوقه الآن .

وبينما كان دون كيخوته يلقي الخطبة التي أتينا على ذكرها ، مال كردنيو برأسه على صدره حال من يحلم حلماً عميقاً . وعلى الرغم من أنّ دون كيخوته توسّل اليه مرتين أن يستأنف قصته ، لم يشأ أن يرفع رأسه ولاأن يجيب بكلمة . وأخيراً وبعد صمت طويل ، رفع رأسه وقال :

«لن أستطيع أن أزيل من ذهني ، ولن يزيل أحد من خاطري ، ومن يعتقد أو يفعل

---

(١) درئيدا وجرايا Daraida Garaya شخصيتان في قصة «دون روخيل اليوناني» وهي الجزء الثالث من رواية «دون فلوريسل النيقي» Don Florisel de Niquea تأليف فلثيانو دي سلفا Feliciano de Silva (١٤٩٢ ؟ ـ ١٥٥٨ ؟) الذي ولد في ثيودا رودريجو ، وعشق ابنه يهودي متنصراسمها جرثيا فيهGracia Fe واقترن بها على رغم معارضة كل اسرته . وقد عبر عن غرامه هذا مع جرثيا فيه في كتاب «حلم فلثيانو دي سلفا» ، وفيه تمقّل عظمة الحب» . وقد أضيف الى خاتمة قصة «أماديس اليوناني» . وأشهر قصصه «ثلستينا الثانية» Segunda Celestina وهي مليئة بالأشخاص المختلفين الذين صوّرهم بقوة وتهكّم . وكان أسلوبه مليئاً بالصنعة والبديع ، فسخر منه الكتّاب المعاصرون ، وسخر منه ثربنتس في مستهل دون كيخوته كما أشرنا الى هذا من قبل .

عكس هذا فهو قَدُمٌ ثقيل : هذا الأمر الذي لن أستطيع إزالته ولن يزيله أحد هو أنّ ذلك الخبيث المدعو السيّد اليسابات[١] كان يعاشر الملكة مدسما معاشرة الخلاّن » .

فصاح كيخوته قائلاً : وقد احتد غاضباً(في لهجة عنيفة على عادته) :

كلا! وألف مرة كلا! هذا خبث ، بل نذالة بتعبير أدقّ! إن الملكة مدسما كانت سيدة فاضلة نبيلة ، ولا يمكن الظن أنّ أميرة نبيلة جليلة كهذه تفكّر في مخادنة ربّاطِ فتوق[٢]! ومن يقل عكس هذا يكن كذّاباً أشراً . وسأثبت هذا ، راجلاً أو راكباً ، مسلّحاً أو أعزلاً ، نهاراً أو ليلاً ـ لمن يشاء .

وفي تلك الأثناء كان كردنيو يحدّق فيه بكل انتباه ، إذ أصابت كردنيو لوثة جنون ، فلم يكن في وسعه الاستمرار في قص قصته ، كما لم يكن في وسع دون كيخوته سماعه لشدّة غضبة من إهانة مدسما . والغريب في الأمر أنه دافع عنها كما لوكانت ملكته الشرعية الحقيقية ، لأنه كان مليئاً بما في كتبه الملعونة . وكردنيو من ناحيته قد أصابته نوبة جنون لما أن سمع من يكذبه ويصفه بأنه نذل خبيث ومااالى هذا من نعوت مشابهة ، فأساء تقدير المزاح ، فأمسك بحصاة كبيرة وجدها عند قدميه ، وضرب بها صدر دون كيخوته ضربة شديدة جندلته على ظهره . ورأى سنشو پنثا ماحلّ بمولاه فانقض على المجنون بقبضة يده ، لكن المجنون استقبله بلكمة ألقت بسنشو على الأرض ، وعلا فوق بطنه ورضّ أضلاعه كما لذّ له هواه . وأراد المعّاز الذود عن سنشو فلقي نفس المصير ، وبعد أن طحن المجنون هؤلاء الثلاثة طحناً خلىّ عنهم ومضى لسبيله بكل رباطة جأش وهدوء ، ودخل في خفايا أدغال الجبل . ثمّ نهض سنشو قد بلغ به الغضب مبلغه فهجم على المعازقائلاً أنه هو السبب فيما وقع ، لأنّه لم ينبّهما ـ هو وسيده ـ أن هذا الرجل تنتابه بين الفينة والفينة خبطات جنون ، إذ لو عرفا ذلك لاحتاطا للأمر . فأجاب المعّاز قائلاً أنّه نبّههمااالى ذلك فعلاً ، فإن كان صاحبه لم يصغ الى ما قال فليس الذنب ذنبه . فردّ عليه سنشو وعاود المعّاز الجواب . وانتهى الرد والجواب بالتماسك بالذقون وتبادل اللكمات ، ولولا أن فصل دون كيخوته بينهما لمزّق كلاهما الآخر إرباً إرباً وقال سنشو وهو يمسك بالمعّاز :

ـ دعني وإيّاه ياسيدي الفارس ذا الوجه الحزين! فهذا من السفلة مثلي ، ولم يسلّح فارساً ، وفي وسعي أن انتقم من الإهانة التي ألحقها بي كما أشاء ، وأن أصارعه يداً بيد كما يفعل الرجل الشريف .

---

(١) السيّد اليسابات maestro Elisabat كان جرّاحاً في خدمة أماديس الغالي .

(٢) في الأصل الاسباني sacapotras ومعناها الأصلي : من يشد الفتق عند المصابين بالفتاق . وتطلق مجازاً وتحقيراً على الجراح الرديء .

فقال دون كيخوته : هذا هذا! لكنّي أعلم أن الذنب ليس ذنبه فيما وقع لنا .

وأعاد بينهما السلام بهذا الكلام . ثمّ عاود سؤال المعّاز ما إذا كان من الممكن العثور مرة أخرى على كردينو ، لأنّه في أشد الشوق الى معرفة ختام قصته . فكرّر له المعّاز ماسبق أن قال وهو أنّه ليس يدري أين يقيم كردنيو ، على أنه إذا فتش في هذه النواحي بدقة فهو لابدّ ملاقيه إما عاقلاً وإمّا مجنوناً .

الفصل الخامس والعشرون

في غرائب الأمور التي وقعت لفارس المنتشا الشجاع في جبال السيرّا مورينا والنذر الذي قام به اقتداءً بالأدهم الجميل[١]

فلمّا ودع دون كيخوته المغاز امتطى صهوة روثينانته وأمر سنشو بأن يتبعه ، فامتثل هذا للأمر ساخطاً راكباً حماره[٢] . وتوغلا في أشد أجزاء الجبل وعورة . وكانت تحرق سنشو رغبة ملحة في الحديث مع سيده أثناء المسير ، لكنّه كان يودّ أن يكون سيده البادئ حتّى لا يخالف أوامره . فلمّا لم يستطع هذا الصمت الطويل احتمالاً قال :

مولاي دون كيخوته! تفضّل وقل لي على بركة الله وخلّ عنّي ، لأنّي أود الرحيل من هاهنا والعود الى بيتي لأجد زوجتي وعيالي ، فمعهم على الأقل استطيع الكلام والحديث ماطاب لي الأمر . لأن السير مع مولاي خلال هذه القفار الموحشة ليل نهاردون أن استطيع أن أوجّه اليك كلمة حينما أريد ، هذا معناه أن أقبر حيّاً . بل لو كان القدر قد شاء أن يتكلّم الحيوان الأعجم ، كما كانت الحال في أيّام أيسوب[٣] ، لكان الأمر أهون ، هنالك كنت أتكلّم مع حماري ، أو أي دابة في عرض الطريق ، فأحدّثه عن كل مايطرأ في ذهني ، وأحتمل مصيبتي بصبر وجلد . ولكنّها مشقة بالغة لا قبل باحتمالها أن يسير المرء وراء المغامرات طوال حياته دون أن يجد شيئاً غير اللكمات والرفسات وقذائف الحصى والتأرجح على الملاءة . ومع هذا كلّه يجب أن يغلق المرء فمه دون أن يقوى على أن ينبس ببنت شفة تعبيراً عمّا في نفسه ، وكأن المرء أخرس .

فأجاب دون كيخوته : أنا أفهم ما تريد ياسنشو! إنّك تموت رغبة في أن أرفع الحظر

---

(١) الأدهم الجميل Beltenebros لقب أطلقه أحد الرهبان على أماديس الغالي ، خلال النذر الذي قام به على الصخرة الجرداء .

(٢) ينسى ثرڤنتس هنا أيضاً أن الحمار قد سرق ولم يعد مع سنشو .

(٣) يخطئ سنشو في النطق باسم هذا الشاعر صاحب الخرافات المشهورة فينطقه Cuisopet ، وصحته في النطق القديم Isopete ويكتب اليوم Esobo . ولاحظ أيضاً هنا أنّ المؤلف ينسى أن حمار سنشو قد سرق .

عن لسانك . إذن فهو مرفوع! وتكلّم بما شئت ، لكن بشرط ألا يمتد رفع الحظر هذا الى أطول من المدّة التي سنقضيها في هذه الجبال .

فقال سنشو : موافق ، مادمت سأتكلّم الآن ، وأمّا ماسيأتي بعد فأمره في الغيب . وللإنتفاع بهذه الرخصة منذ الآن ، اسأل مولاي متى خطر له أن يأخذ جانب الملكة مركسينه هذه ، أو كما تسمّى لاأدري . أي شيطان جعلك تهتم بأن يكون ايلي[1] الاباد خليلها أو غير خليلها! أعتقد أنك لو كنت تركت هذه المسألة تمر ـ ولم يكن من شأنك الحكم فيها ـ لكان ذلك المجنون قد استمر في قص حكايته وكنت قد تجنّبت أن يصيبك الحصى في بطنك وتجنّبت أنا أكثر من عشر صفعات على وجهي ومثلها رفسات في بطني .

فأجاب دون كيخوته : وأيم الله ، يا سنشو ، لو عرفت كما أعرف أنا أية سيدة نبيلة محترمة كانت تلك الملكة مدسمه ، لكنت قلت أنّ صبري كان عظيماً لأنّي لم أحطّم ذلك الفم الذي خرجت منه هذه الكلمات الكافرة الفاجرة ، فمن الكفر الشديد أن يقول المرء أو يفكّرأن ملكة تعيش عيشة الخليلة مع جرّاح . وحقيقة الأمر في هذه الحكاية هي أنّ السيد اليساباد الذي تكلّم عنه المجنون كان رجلاً شديد الفطنة واسع الحيلة ، وكان للملكة حاكماً وطبيباً ، أمّا أن يتخيّل المرء أنها كانت خليلة ، فهذه وقاحة تستحق أشد العقاب . ولكي توافقني على أن كردنيو لم يكن يدري ماذا يقول ، فيجب أن تلاحظ أنّه حينما كان يتحدث هكذا كانت قد غلبته اللوثة وانتابته النوبة .

فقال سنشو : هذا هو ما أقوله تماماً ، ولهذا لم يكن لك أن تهتم مطلقاً بما يقوله هذا المجنون ، وعلى كل حال فلولا أنّ ساعدك حسن الطالع ، ولولا أنّ الحصى اتجهت الى البطن ولم تتخذ طريقها الى الرأس ـ لكان الأمرمما لا يحمد عقباه أبداً ، وكل هذا جزاءً وفاقاً لدفاعنا عن هذه السيدة الجميلة التي أخذ الله روحها وصارت تراباً وعفناً!

فأجاب دون كيخوته : أي سنشو! تأكّد تماماً أن جنون كردنيو لا يشفع له أبداً . فكل فارس جوّال واجب عليه أن يدافع عن شرف النساء ضد الحكماء وضد المجانين على السواء ، أيّاً كنّ هؤلاء النساء ، فما بالك إذا اتصل الأمر بالأميرات ذوات الحسب الرفيع ، كما هو شأن الملكة مدسمه التي أحمل لها إعجاباً بالغاً نظراً لصفاتها النادرة : لأنها فضلاً عن جمالها الرائع الخارق ، فقد كانت ذات فطنة وصبر وشجاعة في المصائب العديدة التي حاقت بها . هنالك كان لها العون خير العون في نصائح السيد اليساباد وصحبته ، حتّى

---

(١) يحرف سنشو هنا اسم الملكة : مدسمه والطبيب اليساباد .

استطاعت احتمال آلامها بحزم وفطنة . ومن هنا نبتت لدى الجهلة ذوي النوايا الشرّيرة فكرة أنها كانت خليلته . لكنّهم في هذا كاذبون ، ومن يخطر بباله مثل هذا الظن الأثيم فأولئك يكذبون مئات المرّات .

فقال سنشو : أنا لا أقول ذلك ولا يخطر ببالي ، فهذا شأنهم ، وما على المرء إلاّ أن يأكل من الخبز الذي صنعه بيده ، وسواء لديّ ناما معاً أو لم يناما ، فالله هو الذي سيحاسبهما على ذلك . أمّا أنا فعن كرمي أصدر ، ولا أرى عن غيري شيئاً ، ولست ممن يطمعون في معرفة شؤون الآخرين ، ومن يستر ويدس في جيبه يحسّ . وأكثر من هذا فقد ولدت عرياناً ولاأزال عرياناً ، فلن أدّخر شيئاً ولن أكسب شيئاً . فإن كانا أشد مما هما فماذا يعنيني ؟ كثيرون يحسبون أن ثمة شرائح ، لكن لاتوجد خطاطيف لتعليقها . بيد أنه من ذا الذي يستطيع أن يصنع أبواباً للبراري ؟ وكم قالوا في حق الله!

فقال دون كيخوته : يالله! ماهذه الترهات التي تسوقها! وما الصلة بين مانحن عليه الآن ، وبين هذه الأمثال التي تلضم الواحد منها في الآخر ؟! بحياتك ياسنشو ألا سكتّ ، ولاتهتم منذ الآن فصاعداً إلا بهمز حمارك ، ولا تتدخّل إلا فيما يعنيك . واعلم بكل حواسك الخمس أن كل ما فعلته وأفعله وما سأفعله إنّما يتّفق مع العقل ويطابق تماماً قوانين الفروسية التي أعرفها خيراً من جميع الفرسان الذين مارسوا هذه المهنة في الدنيا كلها .

فأجابه سنشو : مولاي! أمن قواعد الفروسية السليمة أن نسير ضالين هكذا في هذه الجبال ، دون درب ولاطريق ، بحثاً عن مجنون قد يلذ له . إذا ماعثرنا عليه ، أن ينهي مابدأ به ، ولا أعني قصّته ، بل رأس مولاي وأضلاعي أنا ، حتّى يحطّم أوصالنا كلّها ؟

فقال دون كيخوته : صه! مرة أخرى أقول لك ياسنشو . واعلم أنّ ما يجرّني الى هذه الأماكن الموحشة ليس فقط الرغبة في أن أجد المجنون ، بل وأيضاً الرغبة في القيام بمغامرة تخلّد اسمي وتذيع شهرتي في الدنيا بأسرها ، على نحو يكون فيه ختام الفضائل التي تجعل الفارس الجوّال تاماً كاملاً .

فسأله سنشو : وهل تنطوي على خطر شديد هذه المغامرة ؟

فأجابه الفارس الحزين الطلعة : كلا! وإن كان من الممكن أن ينقلب الحظ نحساً ، ولكن كل شيء يتوقّف على مهارتك .

فقال سنشو : مهارتي أنا ؟

فأجاب دون كيخوته : نعم مهارتك ، لأنّك إذا رجعت سريعاً من حيث أود أن أرسلك ، فسريعاً تنقضي متاعبي وسريعاً يبدأ مجدي . ولكن ليس من الانصاف أن أتركك قلقاً في

انتظار ما أودّ أن أفضي به . إنّي أودّ أن تعلم ، أي سنشو ، أن أماديس الغالي الشهير كان من أكمل الفرسان الجوّالة . ماذا أقول ؟! بل هو الوحيد ، الفريد ، الأوّل ، سيّد جميع الفرسان الجوّالة في عصره . ويؤسفني أن أقول هذا واعتذر لدون بليانيس ولأولئك الذين يقولون أنه كان كفئاً له في بعض النواحي ، لأنهم مخطئون في هذا وأيم الله! وأقول أيضاً أن الرسّام الذي يريد أن يكون شهيراً في فنه ، يحاول أن يقلّد اللوحات الأصلية لأكبر الفنّانين الذين يعرفهم ، والقاعدة نفسها تسري على سائر المهن والحرف التي تفيد في إعلاء شأن الجمهوريّات . وهذاأيضاً مايجب أن يفعله ومايعمله فعلاً كل من يريد أن ينال الشهرة في الفطنة والصبر ، إنه يقلّد أولسيس الذي قدّم لنا هوميروس عن أعماله وشخصه نموذجاً حيّاً للرجل الفطن الصبور في المحن ، كما أن فرجيليوس أظهر لنا في شخص إينياس قيمة الولد البار وحكمة القائد الشجاع ، وقد صوراهما لا كما كانا ، بل كما كان يجب أن يكونا ، حتّى يدعا للأجيال القادمة نموذجاً كاملاً لفضائلهما . وكذلك كان أماديس نجمة القطب وشمس الفرسان الجوّالة للعاشقين ، وعلينا نحن الذين انضوينا تحت لواء الفروسية والحب أن نحاكيه ونضرب على قالبه . ومادام الأمر كذلك ياسنشو ، فيبدو لي أن الفارس الذي يتقن محاكاته سيكون أقرب الفرسان الى بلوغ الكمال في الفروسية . ومن بين الأمور التي أبرز فيها هذا الفارس تمام حكمته وشجاعته وثبات صبره وحبّه مافعله حينما اعتزل الناس ـ لما هجرته سيدته أورريانا ـ وأظهر التجرّد على «الصخرة الجرداء» بعد أن غيّر اسمه الى «جميل الظلمات» ، وهو اسم مليء بالمعاني ويتلاءم مع الحياة الجديدة التي فرضها على نفسه[1] . ومحاكاته في هذا الأمر أسهل عندي من قصم ظهور المردة وإطاحة رؤوس الأفاعي وتشتيت شمل الجيوش وتحطيم الأساطيل وإفساد أعمال السحر ، وهذه الأماكن الموحشة أصلح مايكون لتنفيذ هذا العزم ، لهذا لا أودّ أن أدع هذه الفرصة السانحة للظفر بخصلة من شعره ـ تفلت منّي .

فسأله سنشو : وماذا تريد سيادتك أن تفعل في هذا المكان المنقطع ؟

فأجابه دون كيخوته : أولم أقل لك أنّي أريد محاكاة أماديس وقد اصطنع اليأس والحمق والخبرة ، ليحاكي في الوقت نفسه دونرولاندو الشجاع حينما وجد على أشجار ينبوع آثاراً وعلامات تدلّ على أنّ أنجليكا الجميلة قد ارتكبت منكراً مع ميدورو مما أشاع فيه الحزن حتّى بلغ به الجنون وراح يقتلع الأشجار ويعكّر مياه الينابيع الصافية ويقتل الرعيان ويبيد

---

(١) راجع قصة أماديس الغالي» . الفصل ٢١ والفصل ٦٠ ومايليه .

القطعان ويحرق الضياع ويقلب المنازل ويجر فرسه ، وفعل مئات الآلاف من الحماقات والغرائب الجديرة بالذكر والتسجيل[1] حقاً إنّي لا أريد أن أقلّد رولدان أو أورلندو أو روتولاندو (وكان يحمل هذه الاسماء الثلاثة) تقليداً كاملاً في كل شيء وفي جميع ماارتكب من حماقات أو ما فكّر فيه وماذكره منها . بل لعلّي سأقنع بمحاكاة أماديس الذي لم يرتكب حماقات وشروراً ، بل اكتفى بالدموع ومظاهر اليأس وحصل بهذا على مجد لم يظفر بمثله إنسان .

فقال سنشو : يظهر لي أنا أن الفرسان الذين ارتكبوا هذه الأفاعيل قد استثارهم سبب لارتكابها ، وكان لديهم من الدواعي ماحملهم على فعل هذه الحماقات وألوان التعذيب . أمّا أنت يا مولاي ، فماذا يدفع بك الى أن تصطنع الجنون ؟ أية سيدة هجرتك ؟ وأية أثار وعلامات عثرت عليها تدل على أنّ السيدة دلثنيا دلتوبوسو قد ارتكبت منكراً مع مسلم أو نصراني ؟

فأجابه دون كيخوته : آه ، هذه هي المسألة ، وهذه هي النقطة الدقيقة في أمري . فأن يجنّ فارس جوّال يكون ثمّ دواع للجنون ، فهذا أمر لايدعو الى الفخر ولافضل فيه ، وإنّما الفضل هو في أن تفقد العقل بغير داع ، وتجعل سيدتك تقول : إذا كان يفعل كل هذه الأفاعيل والأمر لايزال على الجفاف ، فماذا عساه فاعلاً حين يصبح الأمر على الرّي ؟! ومن ناحية أخرى أليس هذا الغياب الطويل بيني وبين سيدتي وربّتي دائماً دلثنيا دل توبوسوسبباً كافياً ؟ وكما سمعت يقال للراعي أمبروسيو في ذلك اليوم : من يكن غائباً تتوال عليه الشرور ويخشها . ولهذا لا تضيّع وقتك يا صديقي سنشو في نصحي بالعدول عن هذا التقليد النادر السعيد الذي لم ير مثله أحد . أنا مجنون ويجب أن أظل مجنوناً حتّى تعود اليّ بجواب عن رسالة سأكلّفك بحملها الى سيدتي دلثنيا . فإن كان الجواب حسبما يستحقّه إيماني انقضى جنوني واعتزالي ، وإن كان على العكس ، أصبحت مجنوناً فعلاً وفقدت كل عاطفة . فأيّما كان الجواب الذي ستأتيني به فسأخرج من الحيرة والعذاب اللذين ستتركني فيهما ، وأنعم بالخير الذي تأتي به بفضل عقلي وتمام وعيي ، أو أفقد الشعور بالشر بفضل جنوني . لكن خبّرني ياسنشو ، هل حافظت على خوذة ممبرينو ؟ لقد شاهدتك ترفعها بوضوح على متانة صنعها .

فأجاب سنشو عن هذا قائلاً :

---

(١) راجع Orlando Furriovso الأناشيد ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠ وغيرها .

حيّ الله! أي مولاي الفارس الحزين الطلعة! إنّي لا أحتمل ولاأصبر على بعض ماتقوله ياسيّدي . إنّه يخيّل الي في النهاية أن كل ماحدّثتني عنه من مغامرات الفرسان وكسب الممالك والاستيلاء على الدول ومنح الجزر والجود بأفضال أخرى على نحومايفعل الفرسان الجوّالة ، أقول إنّ كل هذا إن هو إلا ريح وكذب وحكايات فارغة . وإلاّ فمن ذا الذي يسمع مولاي يقول أنّ صحن الحلاقة الذي يستعمله الحلاّق هو خوذة ممبرينو ، ولايراه يرجع عن هذا الخطأ طوال عدّة أيّام ـ ثمّ لايقول أنّ من يزعم هذا ويؤكّده لابدّ أن يكون قد فقد صوابه ؟ إن صحن الحلاقة هو معي في الخرج بعد أن تسطّح وتبعّج وقد حملته معي لأصلحه في البيت وأحلق لحيتي به إن شاء الله وسمح لي بالعودة الى زوجي وأولادي .

فقال دون كيخوته : انظر ياسنشو! أقسم بالله الذي أقسمت أنت به أن عقلك أضيق عقل كان لسائس في الدنيا . أمن الممكن أنه منذ الوقت الذي صحبتني فيه ولم تدرك أن جميع أمور الفرسان الجوّالة تبدو كأنّها خيالات وتهاويل وأساطير وأنها تبدو كلّها مقلوبة ؟ السبب في ذلك ليس أنها كذلك في الواقع ، بل السبب هو أنه يضطرب حولنا دائماً شرذمة من السحرة تقلب أمورنا وتقتطع منها وتفسدها وتجعل عاليها سافلهاحسبما تدعوها الأهواءالى الإيذاء أو المعاونة . وهذا هو السبب في أنّ هذا الشيء الذي يبدو لك صحن حلاقة يبدو لي أنا خوذة ممبرينو ، ويبدو لشخص ثالث شيئاً آخر ثالثاً . ولقد كانت حيطة رائعة من جانب الحكيم الذي يعاونني أن يوهم الناس كلهم أن خوذة ممبرينو بعينها هي صحن الحلاقة ، إذ هذه الخوذة ذات قيمة عظيمة جداً فلو أدركوها لطاردوني جميعاً للاستيلاء عليها منّي . ولكن لأنهم يرونها مجرّد صحن حلاقة لذا لايحفل أحد بانتزاعها منّي . وآية ذلك ما فعله الرجل منذ حين : أراد كسرها فاستعصت عليه فتركها على الأرض ولم يأخذها ، ولو عرف حقيقة أمرها لما تركها . فاحتفظ بها يا صديقي ، فلا حاجة بي اليها الآن ، بل عليّ التجرّد من كل هذه الأسلحة لأصبح عرياناً كما ولدتْ ، لأن في اعتزالي هذا أريد أن أكون أقرب الى محاكاة رولدان منّي الى محاكاة أماديس .

وهما في هذا الحديث إذ بلغا قاعدة جبل شاهق يبدو كصخرة عمودية الإنحدار ويقوم وحده بين جبال عديدة تحيط به . وعلى سفحه يجري جدول رقراق حواليه مروج خضر رطيبة تسرّ العيون . وزاد من بهاء المنظر أشجار متناثرة هنا وهناك ، وأزهار بريّة . هذا المكان اختاره الفارس الحزين الطلعة ليعتزل فيه . فما عتم أن رآه حتّى صاح بصوت عالٍ كالمجنون :

ـ «هذا وحق السماء المكان الذي ارتجيه واختاره لأنوح على المصير الذي أوقعتموني

أنتم فيه . هذا هو المكان الذي فيه ترفد عبراتي هذا الجدول ، وتهزّ زفراتي العميقة المتّصلة أوراق هذه الأشجار البرّية ، آية وشهادة على الأحزان التي تمزّق قلبي الجريح . وأنت ـ أياً من كنته ـ أيتها الآلهات الريفية اللواتي تسكنين في هذه الأماكن الموحشة ، استمعن الى شكاة هذا العاشق المسكين الذي تضطرّه الغيبة الطويلة ودواع الغيرة الخياليّة الى بث شكواه في هذا القفار من قسوة تلك الجميلة الجاحدة ، وإن كانت الأنموذج الأعلى لكل جمال إنساني . وأنتن أيتها الناقات والدروادات[١] اللائي تسكنّ عادة في أعماق الجبال ـ لعل الساتورات الرشاق الماجنين الذين يتعشقونكنّ عبثاً لايقلقون راحتكن ، على أن تساعدنني على النواح على شقأ أو في القليل لاتمللن من سماع شكاتي! أي دلثنيا دل توبوسو! يانهار ليالي ، ومجد آلامي ، ونجمة قطب أسفاري ، وسعد سعودي ، ألا ليت السماء تستجيب لكل دعواتك ، لو تفضّلت فنظرت الى ماأنا فيه والى أي حال أفضت بي غيبتك عنّي وكافأت إيماني الراسخ بخاتمة سعيدة! وأنت أيتها الأشجار المتوحدة التي ستشاركيني منذ الآن وحدتي ، خبريني بحفيف أوراقك الرقيق أن وجودي هنا لايضايقك! وأنت ياحامل سلاحي ، يارفيقي المخلص الرقيق في السرّاء والضرّاء ، أذكر جيداً ماستراني أفعله هنا حتّى تنقله وتقصّه على تلك التي هي السبب الوحيد فيه » .

وما قال هذه الكلمات الأخيرة حتّى نزل من على صهوة فرسه روثينانته وأسرع فحلّ لجامها وسرجها ، وربت بخفة على مؤخّرها براحة يده قائلاً :

ـ خذ الحرّية ممن فقدها أيها الجواد الممتاز بأعماله بقدر ماهو تعيس بحظه ، انطلق واسلك أي طريق شئت فقد كتب على جبهتك أنّه ليس ثمة فرس يَعْدِلك خفة وقوّة ، لا فرس استولفو[٢] المجنّح ، ولا فرونتينو الشهير الذي كلّف برادامانته ثمناً غالياً .

فلمّا رأى سنشو هذا قال :

ـ شكراً لمن أعفانا من مشقة خلع البرذعة عن الحمار ، وفي اعتقادي انه لن يخلو من مربت عليه ومادح له . ولو كان هاهنا لما سمحت بأن يخلع عنه البرذعة أحد . وإلا ، فما الفائدة ؟ إذ يكفي ذكر كلمات عاشق ويائس ، لأن صاحبه لم يكن لا عاشقاً ولا يائساً ، وصاحبه هذا هو أنا بمشيئة الله . والحق ، أي مولاي الفارس الحزين الطلعة ، إذا كانت مسألة رحيلي وجنونك جداً لاهزلاً ، فالأجدى أن نعيد السرج واللجام للفرس روثينانته ،

(١) هذه حوريات أو جنّيات ، فأمّا الناقات napeas فكن يسكنّ في الأودية ، وأمّا الدروادات driadas فيسكن في الخمائل ، وأمّا الساتورات satiros فكائنات اسطورية نصفها على هيئة إنسان ، والآخر على هيئة معزي .

(٢) فرونتينو Frontino : فرس مشهور جداً في حكايات الفروسية ، وبرادمانته من أشخاص هذه الحكايات .

ليحل محل الحمار الذي فقدناه ، فهذا يوفر الوقت في الذهاب والإياب ، لأنّي إذا سلكت الطريق على قدمي فلا أدري متى أصل ومتى أعود ، لأنّي بطيء الخطى .

فأجاب دون كيخوته : أقول لك ياسنشو افعل ماتشاء ، وإنّ فكرتك هذه لاتبدو رديئة . وأضيف الى هذا أنّك سترحل في خلال ثلاثة أيّام حتّى ترى إبانها كل ما أعمله وأقوله من أجلها ، وتكرّره على مسامعها .

فقال سنشو : وماذا عساي أن أرى أكثر مما رأيت ؟

فأجاب دون كيخوته : إن الأمر لم يتم فصولاً بعدا فعليّ الآن أن أمزّق ثيابي ، وأنثر سلاحي ، وأتقلّب على هذه الصخور ، وأقوم بأمور أخرى مشابهة تثير إعجابك ودهشتك .

فقال سنشو : بحق الله الا احتاط مولاي إجراء هذه التقلبات ، وإلا وقعت على صخرة ، في وضع ما على نحو تتحطّم به الآلة التي تقوم بهذه المجاهدة . أمّا رأيي أنا فهو أنّ مادام مولاي يجد هذه التقلبات ضرورية لامفرّ منها ، فليكتفي ـ مادام الأمر كلّه مصطنعاً وللهزل ـ فليكتفي بالقيام بها في الماء ، أو على شيء وثير مثل القطن ، ودعني أنا أتكفّل بالباقي : ففي وسعي أن أقول للسيدة دولثنيا أن مولاي قد قام بهذه التقلبات على صخرة مدبّبة حادة أشد مضاءً من الماس .

فأجابه دون كيخوته : أشكر لك ياصديقي سنشو نواياك الطيبة ، ولكنّني أريد منك أن تعلم أن كل هذه الأمور التي أقوم بها هنا ليست هزلاً ، بل هي الجد كلّه ، وإلا لكان في ذلك مخالفة لقواعد الفروسية التي تحرّم علينا الكذب وإلاّ كان ذلك كفراً ، وعمل شيء مكان أخر هو بعينه نوعاً من الكذب . ولهذا يجب أن تكون تقلباتي حقيقية مخلصة لاتشوبها أي مغالطة أو تمويه . بل سيكون من الضروري أن تترك لي بعض خرق التضميد لجراحي ، فقد شاء الحظ العاثر أن نفقد البلسم .

فقال سنشو : لقد كان ضياع الحمار كارثة فقد أضعنا بضماده خرق التضميد وكل الزاد . وأتوسّل الى مولاي أن لا يعيد ذكرى هذا الشراب اللعين ، إذ يكفيني سماع اسمه لتنقلب روحي وأحشائي . وأرجوك أيضاً أن تحسب أن الأيام الثلاثة التي امهلتنيها لأرى إبانها الحماقات التي سترتكبها ـ أقول أن تحسب أن هذه الأيام الثلاثة قد مضت فعلاً ، وأنا أقرّر من ناحيتي أنّها مرّت وأنّي شاهدت ماقمت به فعلاً خلالها ، وأصبح لها قوة الشيء المحكوم به . وسأقص على السيدة الأعاجيب . فاكتب الرسالة ودعني أذهب ، لأنّي أرغب أشد الرغبة في العودة لإنقاذ مولاي من المطهّر الذي سأدعه فيه .

فقال دون كيخوته : تقول « مطهّر » يا سنشو ؟ الأولى أن تسمّيه جحيماً » ، بل أشد من الجحيم إن كانت ثمة ماهو أشد من الجحيم .

فأجاب سنشو : «من سقر[١] لا مفرّ» كما سمعتهم يقولون .

فقال دون كيخوته :لا أفهم المقصود بـ« مفر » .

فأجاب سنشو : « مفر » معناه أنّ من يدخل النارلايخرج منها أبداً ، وهذا سيكون على عكس مايرمي اليه مولاي ، وإلا حفيت أقدامي إذا حملت المهماز لحث روثينانته . فدعني أذهب إلى توبوسو في حضرة السيدة دلثنيا ، هنالك أروي لها من حماقات وجنون (وهما شيء واحد) مولاي ـ مافعل وما سيفعل بعد ـ ممّا يليّن فؤادها فيصبح أطوع من القفاز حتّى لو وجدته أقسى من جذع شجرة الفلّين . وأعود بهذاالجواب المعسول طائراً في الهواء كالسحرة وأخلّص مولاي من هذا المطهر ، الذي يبدو كالجحيم ، وإن لم يكن كذلك إذ هناك أمل في الخروج منه وهو أمر لايتم ـ كما قلت ـ لأولئك الذين يدخلون الجحيم ، ولاأظن أنّ مولاي يقصد شيئاً آخر .

فقال الفارس الحزين الطلعة : نعم هذا هو الحق ، لكن ماذا نعمل لكتابة الرسالة ؟

فأضاف سنشو : وكذلك لكتابة وثيقة التنازل عن الحمير الصغار .

فقال دون كيخوته : سأضمن فيها كل شيء . ومادام ينقصنا الورق ، فمن المناسب أن نكتبها ـ كما كان يفعل القدماء ـ على أوراق الشجرأو على ألواح من الشمع وإن كان العثور على الشمع ليس أسهل من العثور على الورق . أوه! ولكن خطر ببالي الآن أين نكتبها وفي سجلّ متين : لنكتبها في دفتر المذكرات الذي ضاع من كردنيو . وعليك بعد ذلك أن تكلّف من يكتبها على ورق بخطٍّ جميل في أوّل قرية تجد بها معلّم مدرسة ، أو إن لم تجد فأوّل كاهن تعثر عليه ، ولكن لاتفكّر أبداً في أن يكتبها لك موثّق عقود : فخط موثقي العقود مبهم لايستطيع الشيطان نفسه أن يقرأه .

فسأله سنشو : والتوقيع ، ماذا نعمل فيه ؟

فأجابه دون كيخوته : إن أماديس لم يكن يوقّع أبداً رسائله .

فقال سنشو : حسناً ، ولكن وثيقة التنازل لابد لها من توقيع . فإن جعلت كاتباً ينقلها ، لقيل أنّ التوقيع مزوّر وبذلك لا أحصل على الحمير .

فقال دون كيخوته : إن وثيقة التنازل ستكتب ويوقّع عليها في دفتر المذكّرات نفسه وإذا شاهدتها ابنة أخي فلا تمانع أبداً في تنفيذ ماتنص عليه الوثيقة . أمّا رسالة الغرام فضع

---

(١) في النص Quien ha infierno nula es retencio والنقطة في هذه الجملة هي نطق سنشو الفاسد للكلمة اللاتينية redemptio (= خلاص) مما جعل دون كيخوته لايفهم فهذه الجملة الاسبانية هي ترجمة للجملة اللاتينية Quia in inferno nulla est redemptio (=إذ لاخلاص من الجحيم) وهي جزء من ترنيمة كنيسة تقال في الصلوات على الموتى .

عليها التوقيع التالي : «المخلص لك حتّى الممات : الفارس الحزين الطلعة» . ولايهم إذا كانت الرسالة بخط شخص آخر غيري ، لأن دلثينا ـ فيما أذكر ـ لا تعرف القراءة والكتابة ولم تر في حياتها رسالة واحدة . والواقع أنّ غراميّاتي وغرامياتها كانت دائماً أفلاطونية لم تتجاوز أبداً النظرة البريئة ، وفي فترات متباعدة تماماً ، حتّى أنّي استطيع أن أقسم بكل ثقة واطمئنان أنّه منذ اثنتي عشرة سنة ، وأنا أحبها أكثر من مقلة هاتين العينين التي سيأكلهما يوماً دود الأرض ، لم أرها غير أربع مرّات ، بل وفي هذه المرّات الأربع لعلّها لم تلاحظ أنّي كنت أنظرإليها ، بسبب مانشأها عليه أبوها لورنثو كورتشويلو وأمّها الدونثا نوجالس من حياء وحشمة .

فصاح سنشو : ماذا ، ماذا! هل ابنه لورنثو كورتشوويلو هي الآن لسيدة دلثنيا دل توبوسو ، تلك التي تسمّى أيضاً لورنثو! ؟ .

فأجاب دون كيخوته : نعم هي ، هي التي تستحق أن تكون سيدة الدنيا بأسرها .

فقل سنشو : إنّي أعرفها جيداً ، واستطيع أن أقول أنها تحسن إلقاء العمود كأقوى شباب القرية . أوه! إنها بنت صلبة مبنية مستوية ، صدرها أشعر ، قادرة على أن تنتزع لحية أي فارس جوّال يتخذها سيدة له . ياللمارد ، ويالقوّتها ولصوتها! وفي وسعي أن أقول أنها صعدت ذات يوم على برج كنيسة القرية تنادي على فلاحين يعملون في مزرعة والدها : وعلى الرغم من أنّ المسافة كانت أطول من نصف فرسخ ، فقد سمعوها وكأنهم كانوا عند قاعدة البرج . وأحسن من هذا أنها لاتحتشم أبداً ، بل فيها مجون ودلال ، وتمزح مع الجميع ، وتضحك وتهزل في كل مناسبة . والآن أقول لك يا مولاي الفارس الحزين الطلعة : إنك تستطيع بل ويجب عليك أن تقوم بحماقات من أجلها ، وتستطيع بحق أن تيأس وأن تشنق نفسك ، وكل الذين سيعلمون عنك ذلك سيقولون : لقد أحسن فعلاً حتّى لو أطاح بك الشيطان . وإنّي أودّ أن أرحل توّاً ، لا لشيء إلا لأحظى بلذّة رؤياها ، لأنّي لم أرها منذ وقت طويل : ولابد أن تكون قد تغيّرت فلا شيء يفسد بشرة المرأة أكثر من العمل باستمرار في الحقول حيث الشمس والهواء . ولكن يجب عليّ مع ذلك أن أصارح مولاي دون كيخوته بحقيقة . لأنّي بقيت حتّى الآن في جهل تام . لقد ظننت بسذاجتي أن السيدة دلثنيا لابد أن تكون أميرة هام بها مولاي ، أو شخصية ذات مركز سام ، جديرة بالهدايا النفيسة التي بعثت بها إليها ، وأقصد بها : البشكوني المنهزم أو المحكوم عليهم الذين خلصتهم وأمور أخرى كثيرة بمقدار الإنتصارات التي أحرزها مولاي في الوقت الذي لم أكن فيه بعد حامل سلاحه . ولكن إذا قدّرنا الأمور التقديم السليم ، فليت شعري ماذا عسى أن تستفيده

السيدة الدونثا لورنثو ، أعني السيدة دلثنيا دل توبوسو ، من ركوع المهزومين الذين يرسلهم مولاي اليها أمامها ، أو الذين سيرسلهم بعد إليها ؟! إذ قد يحدث في اللحظة التي يمثلون فيها أمامها أن تكون مشغولة بجدل التيل أو درس القمح في الجرن ، فإذا رأوها استشاطوا غضباً ، وسخرت هي أو غضبت من هذه الهدية .

فقال دون كيخوته : كم مرة قلت لك ياسنشو أنك ثرثار كبير وأنك تتدخّل بروحك الغليظة لتمزح وتطلق النكات . ولكي تعرف كم أنت أحمق وكم أنا حكيم ، أريد منك أن تسمع قصة صغيرة . اعلم إذن أنه كانت هناك أرملة شابة جميلة حرّة غنية ، مولعة جداً باللهو ، فأحبّت أخاً شمّاساً ، ضخم الجثة ، في ميعة الشباب ، نضيراً طويل السمت . وعلم بذلك رئيسه ، فقال للأرملة الطيبة زاجراً إياها برقة : «إنني مندهش ياسيدتي ، وعندي من الأسباب مايدعوني لذلك ، من أن سيدة نبيلة مثلك ، ولها ما لك من جمال ومال ، تتعشّق رجلاً وضيع المنزلة فقير العقل مثل هذا ، بينما في نفس المكان كثير من العلماء والاساتذة واللاهوتيّين ، تستطيعين أن تختاري من بينهم كما تختارين بين مائة كمثرى ، وتقولين : هذا يعجبني وذاك لايعجبني» . فأجابته السيدة بانطلاق وانعتاق قائلة : «أنت على خطىء ، أي سيدي وأخي . إنك تفكّر بعقلية قديمة إذا كنت تحسب أنني أسأت الاختيار بتفضيلي ذلك الفتى مهما بدا لك من بلاهة ، لأنه في الأمر الذي أريده من أجله يعرف من الفلسفة بقدر أرسطو طاليس وأكثر» . كذلك ، ياسنشو ، فيما يتّصل فيما أريده من دلثنيا ، إنها تعدل أعظم أميرة في الدنيا . ويجب ألا تعتقد أن جميع الشعراء الذين يتغنّون بسيدات بأسماء يطلقونها عليهن حسب خيالهن يقصدون شخصيّات حقيقية . وإلاّ فهل تحسب أنّ مثيلات أمارليا وفيليا وسيلفيا وديانا وجلاتيا وفيليديا وشبهياتهن ممن يملأن الأسفار والحكايات ومحلات الحلاّقين ومسارح الملاهي ـ كنّ مخلوقات حقيقية ومعشوقات فعلية لأولئك الذين تغنّوا بهن ؟ كلا! إن معظم الشعراء يتخيلوهن ليجدوا موضوعات لأشعارهن ولكي يعتقد الناس أنهم كانوا عاشقين ، أو على الأقل قادرين أن يكونوا كذلك . ولهذا يكفيني أن أظن وأعتقد أن ألدونثا لورنثو الطيبة جميلة وعاقلة . أمّا نسبها وحسبها ، فلا يهم كثيراً ، فلن نقوم بتحقيق من أجل أن نمنحها مسوح الكاهنة ، وأنا مقتنع بأنها في نظري أعظم أميرة في الدنيا . إذ يجب أن تعلم ، يا سنشو ، إذا لم تكن تعلم بعد ، أن أعظم ما يثير العشق أمران : الجمال والصيت الذائع . وهذان الأمران متوفران في دلثنيا الى أعلى درجة ، إذ لايساويها أحد في الجمال ، ولا يضارعها في ذيوع الصيت إلا القليلات . وفي ختام القول أتخيّل أن كل ماأقوله هو هكذادون حاجة الى إضافة شيء أو نقصه ، وإنّي أصورها في خيالي

كما أودّها سواء من ناحية نبالة الأصل أو مفاتن الجمال ، الى درجة لا يدانيها فيها واحدة : لا هيلانة ولا لوكريسيا ولا جميع البطلات في القرون الخالية اليونانية أو الرومانية أو المتبربرة . وليقل الناس عنها مايشاءون ، فلئن لامني الجهّال فلن يعاقبني أهل الجد .

فقال سنشو : وأنا أقول إن مولاي على حق في كل شيء ، وما أنا إلا حمار . ولست أدري لمَ يبادر هذا اللفظ الى لساني إذ لايجوز الحديث عن الحبل في بيت مشنوق . لكن أعطني الرسالة ، وعليّ الرحيل .

وانتزع دون كيخوته دفتر المذكرات وانتحى جانباً وبدأ في كتابة الرسالة رابط الجأش . فلمّا فرغ من كتابتها دعا سنشو وقال له إنه يريد أن يقرأها عليه ليحفظها عن ظهر قلب لإحتمال ضياعها في الطريق ، إذ يخشى من سوء الطالع .

فقال سنشو : خيراً من هذا أن يكتبها مولاي مرتين أو ثلاث في هذا الدفتر ثمّ يعطيني إيّاه ، وسأحرص على صونه ، أمّا الظن بأنّي استطيع استظهاره فهو الحمق كل الحمق . إن ذاكرتي من الضعف بحيث أنسى أحياناً مااسمي . ومع ذلك أقرأه عليّ إذ يسرني سماعه ، فلابد أن يكون مكتوباً بعبارات مشبوبة .

فقال دون كيخوته : اسمع اذن ما ورد فيه :

رسالة دون كيخوته الى دلثنيا دل توبوسو

« سيدتي السامية المبجّلة!

« إن جريح سهم البعاد ، المكلومَ نسيج الفؤاد ، أي دلثنيا توبوسو الناعمة العذبة ، ليتمنّى لك سلامة عافية لا ينعم بها . إذا ازدراني جمالك ولم تشملني مناقبك بالعطف ، وإذا ظلّت قسوتك تواليني بالمخاوف وإن كنت ممن يتحمّلون الآلام ، فلن أقوى على البقاء في هذا الجزع الشديد المتواصل . وإنّ حامل سلاحي الطيّب سنشو سيصف لك بالتفصيل ، يا أيتها الجاحدة الجميلة والعدوّة المعبودة ، أقول أنه سيصف لك بالتفصيل الحالة التي أنا فيها من أجلك . فإن طاب لك أن تنقذيني ، فأنا لك ، وإلاّ فافعلي ما يحلو لك ، فبانقضاء أيّامي أكون قد أرضيت هواك وقسوتك .

« المخلص لك حتّى الممات

الفارس الحزين الطلعة »

ـ وحياة أبي! ـ هكذا صاح سنشو لمّا أن سمع الرسالة ـ هذه أسمى وأجمل قطعة من النثر سمعتها! يا لله! كم أحسن مولاي العبارة عن كل ما أراده! وما أجمل ما وضعت في

الخاتمة : « الفارس الحزين الطلعة »! أقول وقولي الحق إنّك الشيطان بعينه ، فلاشيء ثمّ لا تعرفه .

فأجاب دون كيخوته : كل شيء مطلوب في المهنة التي أمارسها .

فقال سنشو : والآن اكتب وثيقة التنازل عن الحمير الثلاثة على ظهر الصفحة ووقّع عليها بكل وضوح ، فإذا رآها أحد تعرّف خطّك .

فقال دون كيخوته : عن طيب خاطر .

ثمّ كتبها وقرأ مضمونها عليه ، وها هو ذا[1] :

«الرجا أن تدفعي ، يا ابنة أخي ، بموجب وثيقة الحمير هذه الى سنشو پنثا ، حامل سلاحي ، ثلاثة من الحمير الخمسة التي تركتها في البيت تحت رعاية عصمتك ، وهذه الحمير الثلاثة تدفع له وتسلّم اليه نظير مبلغ مساو تسلّمته هنا عداً ونقداً ، وهذا إيصال تحرّرت به هذه الرسالة . تحريراً في أحشاء جبال الشارات السمراء ، في السابع والعشرين من شهر أغسطس من هذا العام » .

فقال سنشو : حسن جداً ، ما على مولاي الآن إلا التوقيع .

فقال دون كيخوته : لاداعي للتوقيع ، سأكتفي بوضع خاتمة ، وقيمتها قيمة التوقيع ، ليس فقط بالنسبة الى ثلاثة حمير ، بل وأيضاً للثلاثمائة حمار .

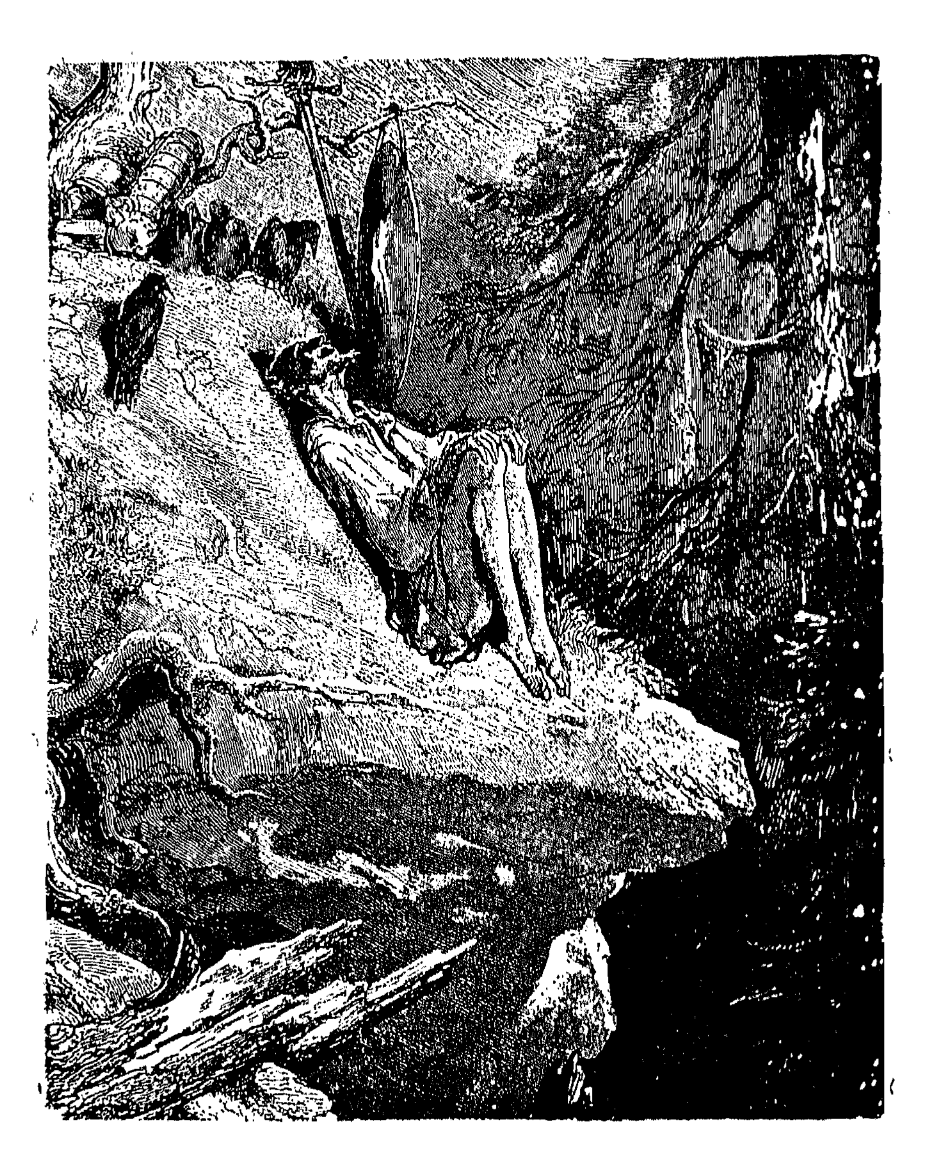
فقال سنشو : إنّي أضع ثقتي في مولاي . دعني الآن أذهب لسرج روثينانته واستعدّ انت لمنحي بركتك ، لأنّي عازم على الرحيل فوراً دون أن أشاهد الحماقات التي ستقوم بها ، وسأستطيع أن أقول إنّي رأيتك بعيني تقوم بها .

فقال دون كيخوته : أريد على الأقل يا سنشو ـ وهذا أمر لا غنى عنه ـ أن تراني عارياً تماماً لا ثوب عليّ غير الجلد وأنا أقوم بعشر حماقات أو عشرين . ويكفيني لذلك أقل من نصف ساعة ، وإذا رأيت هذا بعينك تستطيع أن تحكم وأنت مطمئن الضمير على كل ماسيطيب لك إضافته من عندك ، وأؤكد لك أنك لن تروي بقدر ماأنا عازم على فعله .

فقال سنشو : بحق الله يا مولاي ألا أعفيتني من رؤية جلدك! وإلا فسيتملّكني العطف فلا أستطيع أن أتمالك من ذرف الدموع ، وقد أصاب رأسي الوجع من بكائي بالأمس على حماري المسكين حتّى لا أستطيع أن استأنف البكاء . وإن أصرّ مولاي على ضرورة مشاهدتي بعض حماقاته ، فليقم بها وعليه ثيابه ، ولتكن قصيرة مرتجلة أيّاً كانت ، أمّا عن نفسي فقد

---

(١) في هذه الوثيقة يقلّد ثربنتس ساخراً لغة المعاملات التجارية واصطلاحاتها .



الفصل الخامس والعشرون : دون كيخوته في جبل الشارات
(سيرّا مورينا)

قلت لك أنّ لا ضرورة لهذا وأنا مستغن عن مشاهدتها ، ففي ذلك اختصار لوقت الرحيل وإسراع بالعودة التي لابد ستأتي لك بالأنباء الطيبة كما تودّ يامولاي وتستحق . وإلا فعلى السيدة دلثنيا أن تأخذ أهبتها! لأنها إذا لم تجب بما يقضي به العقل ، فإنّي أقسم قسماً عظيماً بأن انتزع منها الجواب المفيد ، انتزعه من بطنها بالرفسات واللكمات . فمن ذا الذي يحتمل أن يصبح فارس جوّال شهيركمولاي مجنوناً بغير داع لأجل امرأة... أوه ألا ليت هذه السيدة لا تجعلني اضطر الى وصفها ، وإلا والله أطلقت لساني ولم أحفل بما سيكون . إنّي رجل طيب في هذه المواقف ، وهي لا تعرفني ، وإلاّ لو عرفتني لحسبت لي ألف حساب[1]!

فقال دون كيخوته : وأيم الله فإنك فيما تبدو لي لست أعقل منّي .

فقال سنشو : لست مجنوناً مثلك ، ولكنّي أشد غضباً منك . والآن دع هذا جانباً ، وأخبرني ماذا ستأكل الى حين عودتي ؟ هل ستصنع صنيع كردينو فتكمن للرعاة وتنقضّ على طعامهم فتنتزعه منهم ؟

فقال دون كيخوته : لا عليك من هذا ، فحتّى لو كان لدي زاد وفير ، فإنّي لن آكل إلا الأعشاب والثمارالتي تقدّمها لي هذه الأشجاروتلك المروج . والمثل الأعلى في هذه المسألة ألاّ آكل أبداً ، وأن أتحمّل كثيراً من ألوان الزهد والمجاهدة .

فقال سنشو : ولكن ، هل تعرف ماأخشاه ؟ أن أخشى ماأخشاه هو ألا أهتدي الى الطريق وأنا عائد الى هذا المكان الذي أتركك فيه لأنه موحش خفي .

فقال دون كيخوته : استجمع كل ما تستطيع من علامات ، وأنا أيضاً سأحرص على عدم الإبتعاد عن هذه النواحي ، بل سأصعد أعلى الصخور لأرقب ما إذا كنت أستطيع أن أشهد عودتك . وعلى كل حال وخشية أن تفقدني وتضل طريقك ، فإن الأحسن أن تقطع شجيرات الرتم المحيطه بنا هنا ، وتنثرها بين مسافة وأخرى حتّى تبلغ السهل . فتعينك هذه الأغصان كعلامات وصُوى تهتدي بها في عودتك اليّ على غرار الخيط[2] الذي استعمله يرسيوس في التيه .

فأجاب سنشو : هذا ما أنا فاعله .

وراح يقطع بضع شجيرات ثم عاد يسأل مولاه البركة وودعه بعد أن ذرف كلاهما أحرّ

---

(١) النص الحرفي : « لصامت من أجلي » .

(٢) هو خيط أريادنا المشهور في الأساطير . وقد أعطته أرياناً أو اريادناً ، ابنة مينوس ملك أقريطش ، الى ثيسيوس فاستعان به على الخروج من التيه بعد أن قتل المينوتور .

العبرات ، وأوصاه دون كيخوته بروثينانته وصية حارة راجياً إيّاه أن يعنى بها عنايته بشخصه ، وأخذ سنشو في المسير في السهل ناثراً أغصان الرتم على طول الطريق كما نصحه مولاه ، وسرعان ماأصبح بعيداً على غير ماكان يهوى دون كيخوته الذي كان يودّ لو أنّه أطلعه على حماقتين أو ثلاثاً على الأقل .

ولكن سنشو لم يكد يخطو مائة خطوة حتّى عاد وقال لمولاه : أعترف يا مولاي بأنّك كنت على حق . فلكي أقسم وأنا مطمئن الضمير أنّي شاهدتك تقوم ببعض الأعمال الجنونية ، فمن الخير أن أشاهد ولو عملاً واحداً وإن كنت قد رأيت جنوناً كبيراً في مجرّد بقائك هنا في هذا المكان .

فقال دون كيخوته : أو لم أقل لك ذلك ؟ انتظر ياسنشو وسأؤدّي حماقة في أقل من المدّة التي يستغرقها قول «أبانا الذي...»[1] .

وفي الحال خلع دون كيخوته لباسه ولم يبق عليه إلا قميصه ، وبدأ يرفس في الهواء ، ويقفز الى أعلى ويتدحرج وقدماه في الهواء ورأسه في أسفل حتّى كشف عن أمور لم يشأ سنشو أن يراها أكثر من ذلك ، فاستأنف مسيره واقتنع بأنه يستطيع أن يقسم في اطمئنان بأن مولاه قد أصابه لجنون .

والآن فلندع سنشو يسلك سبيله الى أن يعود ، وهو لم يبطئ العودة طويلاً .

---

(١) في النص · قول عقيدة الإيمان credo .

الفصل السادس والعشرون

في استمرار دون كيخوته في مغامراته الغرامية الرائعة في جبل الشّارات

ولنعد الى حديث الفارس الحزين الطلعة لمّا صار وحيداً . تقول القصة أنّ دون كيخوته لم يكد يفرغ من وثباته وتقلباته التي قام بها وهو عارٍ من وسطه الى أخمص قدميه مكسوٌ من وسطه الى رقبته وقد رأى كيف أن سنشو قد ارتحل قبل أن يرغب في مشاهدة حماقات أخرى . نقول أنّ دون كيخوته صعد بعد ذلك الى قمة صخرة عالية وراح هناك يفكّر في أمر طالما شغل باله دون أن يصل بعد إلى قرار بشأنه ،ألا وهو أن يعلم : من الأحسن والأنسب بالنسبة إليه أن يحاكيه : رولدان في حماقاته المدمّرة ، أو أماديس في حماقاته الحزينة ، وكان يحدّث نفسه ويقول : « إذا كان رولدان فارساً شجاعاً قوياً على نحن مايقول الناس ، فأي شيء عجيب في هذا ؟ أو لَمْ يكن مسحوراً ، ولايستطيع أحد من الناس قتله إلا إذا غرز في لوح قدمه إبرة سوداء . ولكنه كان ينتعل حذاءً ذا سبعة نعال من حديد[1] . ورغم ذلك فإن سحره كله لم يفد شيئاً ضد برنردو دل كرپيو[2] الذي فطن للحيلة فخنقه بين ذراعيه في رونصڤال . لكن سنترك جانبا شجاعته ، وننظر في جنونه ، إذ لاشك في أنّه فقد رشده لمّا رأى العلامات على أشجار الينبوع وعلم من المراعي أن أنجليكا نامت مع ميدورو أكثر من قيلولتين ، وكان ميدورو هذا مراكشياً مضفر الشعر وخادماً لأجرمنته[3] . على أنّه إذا كان قد خيّل اليه أن هذا الخبر صحيح وأنّ السيدة قد فعلت معه هذه الفعلة ، لما كان له فضل في أن أصبح مجنوناً . أمّا عن نفسي ، فكيف أستطيع أن أحاكيه في جنونه ، إذ كنت لم أحاكه

---

(١) يقول كلمنثين أن دون كيخوته يخلط هنا بين شيئين يرويهما أريوستو عن شخصين مختلفين هما : فراجوس وأورلاندو . فأولهما كان يحمي بطنه بسبعة ألواح من الحديد ، والثاني(رولدان أورولندو) لم يكن من الممكن جرحه إلا في لوح قدمه .

(٢) راجع ماقلناه عنه من قبل .

(٣) راجع « أورلندو الغضوب » ، النشيد رقم ٢٣ . على أن ميدور كان خادماً لوردينل الأمير الافريقي ، لا لأجر منته ـ أمّا الينبوع والعلامات فيشار بها الى الأشعار التي نقشها ميدور في كهف ينبثق فيه ينبوع .

في الموضوع الذي تسبب في هذا الجنون ؟ إذ أنه فيما يتصل بدلثنيا دل توبوسو فإني أقسم أنها لم ترَ في حياتها ظلاً لمراكشي واحد ، وبلحمه وبلباسه ، وأنها لاتزال حتّى اليوم كأمها التي ولدتها . فستكون لها إذن إهانة بالغة أن أعتقد فيها أمراً أخر وأجنّ بنفس النوع من الجنون الذي أصاب رولدان الغضوب . ومن ناحية أخرى أرى أن أماديس الغالي قد ظفر بشهرة في الحب لا يدانيه منها إنسان ، دون أن يفقد عقله ويرتكب حماقات . ومع ذلك فالقصة تقول أنه لمّا رأى سيدته أوريانا قد ازدرته وأمرته ألا يمثل بعد في حضرتها دون إرادتها ـ فإنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنّه انسحب الى الصخرة الفقيرة بصحبة راهب ، وهناك راح يذرف أحرّ العبرات مسلّماً أمره الى الله ، وظل كذلك إلا أن أعانته السماء بأشد المحنة والآلام . فإذا كان هذا حقّاً ، وهو حقّ قطعاً ، فلماذا أشغل نفسي بأن أعرّي نفسي تعرية كاملة ، وأؤذي هذه الأشجار التي لم تؤذني ؟ وماحاجتي الى تعكير ماء هذه الجداول الصافي الذي سيرويني حين العطش ؟ فلتحيَ ذكرى أماديس ، وليقلده دون كيخوته المنتشاوي في كل مايستطيع ، وسيقول الناس عن دون كيخوته ماقالوه عن غيره[1] وهو : إذ لم يكن قد عمل أعمال عظيمة فقد هلك في سبيل محاولة القيام بها! وإذ كانت دلثنيا لم تهنّي ولم تزدرني ، أفلا يكفي كما قلت أن أكون بعيداً عنها ؟ هيّا إذن ، الى العمل! وتعالي الى ذاكرتي يا أعمال أماديس ، أنبئيني من أين أبدأ في المحاكاة . بيد أنّي أعلم أن الصلوات كانت أكثر ماشغله ، وهذا ماسأفعله أنا أيضاً » .

ثم صنع مسبحة من ثمرات الفلّين الكبيرة عدتها عشر حبّات[2] ولكن الأمر الذي ضايقه كثيراً هو أنّه لم يكن عنده راهب يأخذ منه الإعتراف ويمنحه السلوى . لهذا أمضى وقته في التجوال في البراري أو الكتابة والرسم على لحاء الأشجارأو على الرمل نفسه ، كتابة أشعار يشكو فيها أحزانه أو يتغنّي فيها بدلثنيا . بيد أنّ الأشعار الوحيدة التي وجدت كاملة وأمكن قراءتها حينما جاءوا للبحث عنه ـ كانت المقطوعات التالية :

أيتها الأشجارُ ، أيتها الأعشاب ، أيها النبات
أيتها الزاكيّات في هذه الأعالي

---

(١) الإشاره الى فايتون كما حكى أوفيديوس (التحولات ، الكتاب الثاني) .

(٢) النص هنا كما في طبعة كوستا ، وهي الطبعة الثانية التي ظهرت في نفس السنة ، سنة ١٦٠٥ . أمّا في الطبعة الأولى فكان النص هكذا : « ... ما شغله ، وأكمل امرئ الى الله . ولكن ماذا أفعل للحصول على مسبحة ؟ هناك خطر بباله كيفية صنعها ، فانتزع خرقة كبيرة من طوايا قميصة المتدلية وعقد فيها إحدى عشرة عقدة إحداها أغلظ من الباقيات ، واستعان بها كمسبحة طوال المدة التي أقام فيها هناك حيث تلا مليون مرة صلاة « سلام عليك يا مريم » . وقد تساءل النقّاد عن سبب في تعديل ثربنتس للنص هكذا : أهو الخوف من محاكم التفتيش ، أم ما يقتضيه الذوق ؟

سامقات ناضرات زاهيات
إن كنتن لا تشمتن بأحزاني
فاستمعن الى شكاتي المقدّسة
لا تضيقنَ بآلامي
وإن كانت رهيبة
فلكي يدفع لكنّ ثمن الترحيب
بكى هنا دون كيخوته
على فراق دلثنيا

دل توبوسو

هذا هو المكان
الذي يستتر فيه عن حبيبته
أخلص عاشق
انهال عليه الشقاء
دون أن يعلم كيف ومن أين
إن عشقاً خبيث النحيزة
يعبث به ويعنّيه
لهذا ـ وبما يملأ برميلاً ـ
بكى هنا دون كيخوته
على فراق دلثنيا

دل توبوسو

راح يسعى وراء المغامرات
خلال الصخور العاتيات
لاعناً الطوايا القاسيات
فلم يجد بين ـ الصخور
والأدغال ـ لم يجد الحزين إلا النائبات
لقد ضربه «الحبّ» بسوطه
لابنطاقه الرقيق
فأصابه في قفاه

وهنا بكي دون كيخوته
على فراق دلثنيا

دل توبوسو

وكانت إضافة كلمتي «دل توبوسو» في سطر منفصل الى اسم «دلثنيا» موضوع تندّر أولئك الذين اكتشفوا هذه الأشعار، إذ ظنّوا أن دون كيخوته تخيّل أنّه إذا لم يضف كلمتي «دل توبوسو» الى اسم «دلثنيا» فإن المقطوعة لن تكون مفهومة، وهذا فعلاً ما اعترف هو نفسه به فيما بعد، وكتب أشعاراً أخرى، ولكن هذه الأشعار التي أوردناها هي الوحيدة التي أمكن قراءتها. وهكذا أمضى الفارس العاشق أوقات فراغه، وأحياناً أخرى كان يرسل زفراته ويهيب بجنّيات الحقول والغابات في هذه الخمائل، وبالحوريّات في تلك الينابيع، و«بالصدى» الشاكي الطيّار ـ متوسّلاً اليها أن تصغي اليه وترد عليه وتواسيه، وفي أحيان ثالثة كان يبحث عن بعض لأعشاب المغذّية ليقيم أود حياته في انتظار عودة سنشو. ولو أنّ سنشو تأخّر ثلاثة أيّام، لكان الفارس الحزين الطلعة قد حالت ملامح وجهه فلا يعود يعرفه أحد ولاأمّه التي ولدته.

ويخلق بنا أن ندعه مستغرقاً في أهاته وأشعاره، ونحكي ماجرى لسنشو پنثا في المهمّة التي أوكلت اليه. فنقول إنه لم يكد يبلغ الطريق العام حتّى مضى متوجّهاً الى توبوسو، فبلغ في الغداة الفندق الذي وقعت له فيه حادثة تقليبه على الغطاء. فلم يكد يلمحه حتّى تخيّل نفسه يحلّق مرة أخرى في الهواء فصمّم على ألا يدخله، مع أن ذلك كان وقت دخوله، أعني وقت العشاء وكان يرغب رغبة شديدة في تناول لقمة ساخنة، وهو الذي لم يطعم منذ عدّة أيّام غير الأطعمة الباردة. فدفعته بطنه الى الاقتراب من الفندق، وهو متردّد بين الدخول والعبور. وكان معلّقاً بين الاقدام والإحجام لما أن خرج من الفندق رجلان ما شاهداه حتّى قال أحدهما للآخر:

ـ خبّرني، يا صاحب الإجازة، أوليس هذا الراكب هو سنشو پنثا الذي تقول خادمة صاحبنا المغامر عنه إنه صحب مولاه بصفة حامل سلاحه؟

فقال صاحب الإجازة: بلى، إنه هو، وهذا فرس صاحبنا دون كيخوته.

لقد عرفا الرجل وركوبته بسهولة، لأن أحدهما كان القسّيس والآخر حلاّق القرية وهما اللذان أجريا محاكمة كتب الفروسية. فما كادا يتعرّفان سنشو وروثينانته، حتى دفعهما الشوق الى معرفة أنباء دون كيخوته، فاقتربا منه، وناداه القسّيس باسمه قائلاً:

ـ أي صديق سنشو پنثا! أين مولاك؟

وعرفهما سنشو في الحال ، لكنّه قرّر أن يكتم عنهما موضع مولاه والحالة التي تركه عليها ، وقال لهما إنه مشغول في مكان ما بأمرٍ ما ذي أهمّية بالغة لديه ، ولكنه لم يكشف عن ذلك ولو كلّفه الأمر عينيه اللتين في وجهه!

فقال الحلاّق : كلا ، كلا ، يا سنشو پنثا! إن لم تخبرنا أين هو وماذا يعمل فسنعتقد ـ ولنا الحق في هذا الاعتقاد ـ أنّك قتلته وسرقت أمواله ، وها أنت ذا تركب فرسه . فعليك أن تخبرنا عن صاحب هذا الفرس ، وإلاّ فالويل لك .

فأجاب سنشو : لاداعي لتهديدي ، ولست أنا قاتلاً ولاسارقاً . فليمت كل موتته المقدرة له حسب إرادة الله . أمّا مولاي فهو في أعماق هذه الجبال معتزل وفق مشيئته .

ثمّ راح يقص عليهم في الحال ودون أن يأخذ نفسه كيف تركه ، والمغامرات التي وقعت لكليهما ، وأنّه يحمل رسالة الى السيدة دلثنيا دل توبوسو ابنه لورنثو مورتشويلو التي هام بها مولاه حتّى الجنون . فدهشا مما رواه سنشو پنثا ، ولئن كانا يعرفان من قبل عن جنون دون كيخوته وغرابة نوع جنونه ، فقد ازدادا دهشة فيما سمعاه . والتمسا من سنشو پنثا أن يطلعهما على الرسالة التي يحملها الى السيدة دلثنيا دل توبوسو . فقال سنشو إن الرسالة مكتوبة على دفتر مذكرات وأنّ مولاه قد أمره بتكليف ناسخ ينسخها على الورق في أوّل قرية يصادفها . فقال القسّيس ماعلى سنشو إلا أن يطلعه عليها وسينسخها هو بنفسه بخط جميل . فوضع سنشو پنثا يده في صدره ليبحث عن دفتر المذكّرات ، ولكنّه لم يجده ، وماكان له أن يجده ولوظل يبحث عنه حتّى هذه الساعة ، لأنّ دون كيخوته احتفظ به دون أن يفكّر في إعطائه الى سنشو ، ودون أن يفكّر سنشو أيضاً في أن يطلبه منه .

فلمّا رأى سنشو أنه لم يجد الدفتر ، انتابه عرق بارد وصار شاحباً كالموتى ، وراح يتحسّس جسمه كلّه بلهفة وإسراع من أعلى الى أسفل ، فلمّا لم يجد شيئاً أمسك بلحيته بكلتا يديه وانتزع نصفها وانهال بخمس أو ست لكمات على فكّيه وأنفه حتّى انهمر الدم على وجهه كلّه . فلمّا رأى ذلك القسّيس والحلاّق سألاه عما جرى له حتّى يعامل نفسه هذه المعاملة العنيفة .

فقال سنشو : ماجرى لي ؟ لقد ضيّعت ثلاثة حمير أدناها يساوي قصراً .

فقال الحلاّق : وكيف كان ذلك ؟

فأجاب سنشو : لقد ضيّعت دفتر المذكّرات الذي كانت فيه رسالة الى دلثنيا ثمّ وثيقة بتوقيع مولاي يأمر فيها بنت أخيه بإعطائي ثلاثة حمير من الخمسة أو الستةالتي في الزريبة .

وراح يقص عليهما كيف أضاع حماره . فواساه القسيس قائلاً أنه إذا لقى مولاه فسيطلب منه أن يجدّد الهبة ، وستكون في هذه المرّة مكتوبة على الورق وفقاً للعرف الجاري ، بينما الوثائق المكتوبة على دفتر المذكّرات لا يمكن أن تقبل أو تدفع قيمتها . فأحسّ سنشو بالطمأنينة لدى سماعه هذه الكلمات وقال أنه مادام الأمر كذلك فلا يهم فقدان الرسالة الى دلثنيا لأنّه يعرف مضمونها عن ظهر قلب ويمكن انتساخها من ذاكرته أين ومتى أريد ذلك .

فقال الحلاّق : أسمعناها إذا ياسنشو وسننسخها .

فتوقّف سنشو وراح يحك رأسه عساه أن يتذكّر الرسالة ، ويستند تارة الى رجل ، وتارة أخرى الى الأخرى ، ومرة يتطلّع الى السماء ، وأخرى الى الأرض ، وأخيراً وبعد أن قرض نصف أظفر أحد أصابعه - وهما في لهفة شديدة لسماع مايقول - صاح بعد وقفة طويلة :

- يا صاحب الإجازة! بحق الله لوددت أنّ الشيطان انتزع ماأذكره من الرسالة! على أنّها تبدأ هكذا : « سيدتي السامية الرقيعة[1] » .

فقال الحلاّق : لا ، لايمكن أن تكون « الرقيعة » ، بل « الرفيعة » أو ماأشبه ذلك .

فقال سنشو : نعم هو كذلك ، ثمّ - حسبما أذكر ولم تخنّي الذاكرة - ورد بعد ذلك : « ... الجريح الفاقد النوم والمكلوم يقبّل أياديك الكريمة ، أيتها الجميلة الجاحدة المنكرة كل النكران » . ثمّ لاأدري من أشياء أخرى قالها عن سلامة العافية والمرض وأرسلها اليها ، وراح يسهب ويرمح في الكلام الى أن ختم رسالته بقوله : « المخلص لكن حتّى الممات ، الفارس الحزين الطلعة » .

وضحك السامعان كثيراً مما شاهداه من قوّة ذاكرة سنشو پنثا ، فهنأه على ذلك ، والتمسا منه أن يعيد عليهما الرسالة مرتين أخريين حتّى يحفظاها عن ظهر قلب وينسخاها عند الحاجة . فكرّرها سنشو إذن ثلاث مرّات ، وراح خلال ثلاث مرّات يعيد آلاف الالتباسات اللفظية . وبعد ذلك أنشأ يروي مغامرات مولاه ، بيد أنّه لم يشر أبداً الى مغامرة تقليبه على الغطاء التي جرت له في هذا الفندق ، وقد رفض أن يدخله . وأضاف قائلاً أن مولاه حينما يتلقّى أنباء مشجّعة من سيدته دلثنيا دل توبوسو فإنه سيقوم على حمله ليصبح امبراطوراً ، أو ملكاً على الأقل ، كما وقع الإتفاق بينهما على ذلك ، وهذا أمر بسيط جدّاً

---

(١) حاولنا هنا أن نحاكي اشتباه الألفاظ في كلام سنشو ، وإن كان من العسير محاكاة الأصل الاسباني تماماً ، وهو يقوم هنا على اشتباه الألفاظ المتقاربة النطق وتؤدي الى معان مخالفة قبيحة تثير الضحك من عقلية سنشو .

وسهل جداً ، نظراً لعلو شأنه وقوّة ساعده ، وأنّه حينما يرقى العرش سيزوّج سنشو الذي سيكون حينئذ أرمل لأن الأمر لايمكن أن يكون بخلاف ذلك ، سيزوّجه من إحدى وصيفات الامبراطورة ، وهذه الوصيفة وريثة دولة غنية عظيمة توجد على الأرض الثابتة ، بلا جزائر ولا جزيرات ، ولن يشغل نفسه بعد بالجُزُر .

وكان سنشو يقول هذا كله بلهجة فيها من الجد والخلو من العقل ـ وكان يمسح أنفه ولحيته بين الحين والحين ـ مما جعل السامعين ينحدران من علٍ وهما يشهدان شدّة جنون دون كيخوته بحيث استولى أيضاً على عقل هذا الرجل الساذج المسكين . ولم يشاءا أن يتعبا نفسيهما في انتزاعه من ضلاله ، إذ بدا لهما أن وعيه ليس في خطرفالأحسن تركه على حاله ، وسيكون من الممتع لهما أن يستمعا الى تهويلاته الجنونية . ولهذا طلبا إليه أن يدعو الله ليمنح مولاه العافية وقالا إنه من الجائز والممكن الوقوع أن يصبح مولاه مع مرور الزمن ، امبراطوراً أو على الأقل رئيس الأساقفة أو صاحب مرتبة معادلة .

فقال سنشو : في هذه الحالة إذا عقّد الحظ الأمور فأصبح مولاي رئيس الأساقفة ، لا امبراطوراً ، فإنّي أود أن أعرف منذ الآن ماجرت عادة رؤساء الأساقفة الجوّالين على إعطائه لحاملي سلاحهم .

فأجابه القسّيس : من عادتهم أن يعطوهم منحة بسيطة ، أو منحة معقودة على النفوس ، أو مرتبة حارس خزانة الكنيسة وهي مهنة تدرّ دخلاً ثابتاً ذا قيمة ، هذا بخلاف الجرايات التي تقدّر بهذا المقدار أيضاً .

فقال سنشو : لكن يلزم أن يكون حامل السلاح أعزب وأن يعرف كيف يقيم خدمة القدّاس على الأقل . فإن كان الأمر كذلك فيا ويلتاه عليَّ أنا متزوّج ـ وما أكثر خطاياي ، وأجهل حتّى الحرف الأول من حروف الهجاء! ماذا سيؤول اليه أمري ، يا إلهي ، إذا دخل في رأس مولاي أن يصبح رئيساً للأساقفة ، لا إمبراطوراً كما هو العرف والبدع السائد لدى الفرسان الجوّالة ؟

فقال الحلّاق : لاتعذّب نفسك ياصديقي سنشو بهذه الأمور ، فإننا سنحرص على التوسّل الى مولاك ونصحه وعند اللزوم سنقنعه بأنه فرض عليه أن يصبح امبراطوراً ، لارئيساً للأساقفة ، وهو أمر سيكون أسهل عليه لأنّه شجاع أكثر منه عالماً .

فقال سنشو : هذا أيضاً ماكنت أعتقده دائماً ، وإن كنت أستطيع أن أقرّر أنه صالح لكل أمر . أمّا أنا فإنّي من ناحيتي سأدعو ربّنا أن يبعث به الى حيث يبلغ أربه على أحسن وجه ، وحيث ينيلني أربي أيضاً على أحسن وجه .

فقال القسّيس : أنت تتكلّم بحكمة ، وستعمل عمل المسيحي الصالح . والمهمّ الآن أن نحاول انتزاع مولاك من هذه المجاهدة التي لافائدة منها والتي لذّ له القيام بها هناك كما تقول . وحتّى نفكّر في الوسيلة التي نتذرّع بها الى ذلك ، ولنتناول العشاء أيضاً ـ فقد حلّ وقته ـ يحسن بنا أن ندخل هذا الفندق .

فقال لهما سنشو أن يدخلا هما ، أمّا هو فسيبقى خارجه ، وسيخبرهما فيما بعد بالسبب الذي يمنعه من دخوله ، وهو يرجوهما أن يأمرا بإحضار شيء له ليأكله ، شيء ساخن طبعاً ، وبإحضار شعير لروثينانته . ودخل الصديقان الفندق وتركاه هناك خارجه ، وبعد قليل أحضر له الحلاّق ما يأكله . ثمّ راح الحلاّق والقسّيس يبحثان معاً في الوسائل الواجب اتخاذها لإنجاح مشروعهما ، ثمّ توقّف القسّيس عند فكرة تتفق تماماً ومزاج دون كيخوته وتلائم غرضهما ، وقال للحلاّق أن يلبس ثياب نبيلة جوّالة ، بينما الحلاّق يلبس زي حامل سلاح ، ويذهب كلاهما للبحث عن دون كيخوته ، ويتظاهر القسّيس بأنه نبيلة محزونة تطلب النجدة ، ويسأل دون كيخوته معروفاً لا يملك إلاّ أن يسديه بوصفه فارساً جوّالاً شهماً ، وهذا المعروف الذي سيسأله هو أن يصحبهما حيثما تريد لإصلاح مضرّة أوقعها بها فارس غادر ، وتلتمس منه كذلك ألا يسألها أن تخلع نقابها ولاأن يسألها عن شؤونها الى أن يخلص بحقّها من ذلك الفارس اللئيم . وقال القسّيس إنه لايشك في أنّ دون كيخوته سيذعن لكل مايطلب منه على هذا النحو ، وهكذا يمكنهما أن يخلّصاه مما هو فيه وإعادته الى بلده ، وهناك يحاولان أن يجدا دواءً لجنونه الغريب .

الفصل السابع والعشرون

في كيف أفلح القسيس والحلاق في خطتهما، وأمور أخرى خليقة بالذكر في هذه القصة العظيمة

لم ير الحلاّق بأساً فيما دبّره القسيس بل وجداه صالحاً حتّى إنهما قاما بالتنفيذ في الحال . فسألا صاحبة الفندق أن تعيرهما تنورة ونقاباً ، ورهنا في مقابل ذلك لديها كسوة القسّيس الجديدة . واصطنع الحلاّق لنفسه لحية طويلة عملها من ذنب ثور ، لحية شقراء أو حمراء ، علّق فيها صاحب الفندق مشطه[١] . وقد سألهما عن السبب في طلب هذه الأزياء التنكّرية فقصّ عليه القسّيس باختصار قصة جنون دون كيخوته وكيف أنهما في حاجة الى هذه الأزياء التنكّرية لإنقاذه من الجبل الذي اعتزل فيه . فأدرك صاحب الفندق وزوجته في الحال أن هذا المجنون إنّما هو نزيلهم منذ أيّام ، صانع البلسم ، ومولى حامل السلاح الذي عانى تقليبه على الغطاء ، ولهذا راحا يقصّان على القسّيس كل ماحدث في الفندق دون أن يخفيا ماأخفاه سنشو . وأخيراً ألبست صاحبة الفندق القسيس على أغرب نحو : فألبسته تنورة من القماش المفوّف بأشرطة من القطيفة السوداء سعتها شبر مفصلة قطعاً ، وصدرية من الفضّة الخضراء مزوّدة بإطار من الساتان الأبيض ، وكلتا التنورة والصدرية لابد أن تكون قد صنعت في زمان الملك ومبا[٢] . ولم يشأ القسيس أن يضع نقاباً ، وإنّما غطّى رأسه بطاقية صغيرة من التل المنقوط كان يلبسها في الليل أثناء النوم . ثم عصب جبهته بعصابة واسعة من التفتة السوداء ، واتخذ من عصابة أخرى نوعاً من النقاب يغطّي لحيته ووجهه كلّه . ووضع على رأسه قبعته الدينية وكانت كبيرة بحيث كانت بمثابة مظلّة ، وغطّى كتفيه بمعطفه ، وركب بغلته على نحو ماتركب النساء ، بينما ركب الحلاّق بغلته ولحيته نازلة

(١) كان من عادة الفقراء أن يضعوا مشطاً في ثنايا شعر ذنب الثور لتنظيفه .

(٢) ومبا Wamba ملك القوط الغربيين (في القرن السابع الميلادي) . وهذا الاصطلاح : « زمان الملك ومبا » يعبّر به الاسبان عن عصر بعيد جداً .

حتّى خصره ، ولونها بين الأشقر والأبيض ، لأنّها كانت مصنوعة من ذنب ثور محمار .

وودّعا الجميع ، كما ودّعا أيضاً ماريتورنس الطيبة التي وعدت بقراءة عدية مسبحة ، وإن كانت خاطئة ، ليوفّقهما الله في عملهما الشاق الخيّر . لكنّ القسّيس لم يكد يتجاوز عتبة الفندق حتّى خطر بباله هذا الخاطر السيئ وهو أنّه لايليق به أن يتزيّا بهذا الزي غير اللائق بقسّيس ، وإن كان ذلك لغاية نبيلة . فأفضى بهذا الخاطر الى الحلاّق وسأله أن يستبدل كلاهما ، زيّه بزي الآخر ، لأن الأليق أن يتّخذ الحلاّق زي نبيلة راجية ، فإن لم يشأ الحلاّق ذلك ، فقد عزم على ألا يتابع الخطّة وليذهب الشيطان بدون كيخوته .

وهنا أقبل سنشو ، فلم يتمالك من الضحك لما أن رآهما بهذا الزي . ووافق الحلاق على كل ماأراده القسّيس ، وهكذا غيّر هذا دوره وراح يلقّن زميله كيف يكون تصرّفه وماذا يجب أن يقول لدون كيخوته لحمله على المجيء معهما وترك المكان الذي اختاره لمجاهدته غير المجدية . فقال الحلاّق إنه يعرف كيف يقوم بدوره دون حاجة الى درس وتلقين . ولم يشأ التنكّر الآن ، مؤثراً التريث حتّى يقتربوا من مكان دون كيخوته . فطوى ثيابه ، بينما رتّب القسّيس لحيته وسارا في طريقهما وسنشو ينثا دليلهما . وفي الطريق قصّ عليهما سنشو ماوقع لمولاه وماوقع له مع المجنون الذي صادفاه في الجبل ، ولكنّه أخفى عليهما أنّه وجد حقيبة وماحتوته هذه الحقيبة ، لأنّه رغم بلاهته كان شرهاً .

وفي اليوم التالي بلغوا الموضع الذي نثر فيه سنشو الأغصان صوىً يهتدي به الى المكان الذي ترك فيه مولاه . ولم يكد يتعرّف الموضع حتّى قال لهما إنهم بلغوا مدخل الجبل ، وماعليهما إلا ارتداء الأزياء التنكّرية إن كان في ذلك فائدة في استنقاذ مولاه . ذلك أنهما قد قالا له من قبل إن ذهابهم هكذا جماعة وتنكّرهما على هذا النحو أمر ذو أهمّية بالغة لانتزاع مولاه من الحياة البائسة التي فرضها على نفسه . وطلبا اليه كذلك ألا يخبر مولاه عن حقيقتهما أو أنه يعرفهما ، وإذا سأله دون كيخوته ـ كما هو المتوقّع ـ ماإذا كان قد سلّم الرسالة الى دلثينا فليجب بنعم ، ولكنّ السيدة لمّا لم تكن تعرف القراءة فقد أكتفت بجواب شفوي أمرت فيه دون كيخوته بالمثول في حضرتها حالاً لأمر في غاية الأهمّية ، وإلاّ غضبت عليه ، وأضافا أنّ هذا الجواب ومايعتزمان قوله من ناحيتهما يجعلهما على يقين من الرجوع عمّا فيه واضطراره الى السير حالاً ليصبح امبراطوراً أو ملكاً ، إذ لم يعد ثمّ خوف من أنه يريد أن يصبح رئيساً للأساقفة .

وأصغى سنشو الى كلامهما بانتباه تام ووعاه في ذاكرته بعناية ، وشكر لهما ماأبدياه من رغبة في نصح مولاه بأن يصبح امبراطوراً لارئيساً للأساقفة ، لأنّه كان يعتقد اعتقاداً

جازماً أنّ الأباطرة أقدر وأوسع باعاً من رؤساء الأساقفة الجوّالة فيما يتّصل بمكافأة حاملي سلاحهم . وقال لهما إنه من الأفضل أن يسبقهما الى مولاه ويعطيه جواب سيدته ، ولعلّ هذا الجواب أن يكون كافياً وحده لإنتزاعه من ذلك المكان ، دون أن يكونا في حاجة الى تحمّل كل هذه المشقّة . فاستحسنا ماقاله سنشو ، ولهذا قرّرا الانتظار حتّى يعود بخبر العثور على مولاه .

ونفذ سنشو في أعماق هذه الجبال تاركاً رفيقيه وسط وادٍ ضيّق يجري فيه جدول صغير ذو خرير وتلقي عليه الظلال الوارفة صخور عالية وبعض أشجار تنمو على جوانبها . وكان الوقت شهر أغسطس ، وفي هذه النواحي يكون القيظ في ذلك الشهر شديداً ، وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً . وكل هذا جعل المكان بديعاً ودعا الراحلين الى المكوث فيه انتظاراً لأوبة سنشو . وكان أن أقاما فيه . وبينما هما جالسان في الظل في هدوء ، طرق أسماعهما صوت مفاجئ كان غناءً صافياً رقيقاً لا تصحبه رنّات آلات . فاستولت عليهما الدهشة البالغة لأنّهما لم يكونا ينتظران في هذا الموضع شادياً يغنّي هذا الغناء الجميل . ولئن اعتاد الناس أن يقولوا أنّ المرء يلقى في وسط الحقول والغابات وبين الرعاة أصواتاً جميلة ، فهذا أقرب الى خيال الشعراء منه الى واقع الحال . وتضاعفت دهشتهما لمّا أدركا أنّ ما كانا يسمعانه كان شعراً ينشده رجال مهذّبون لطاف ، لا رعاة قطعان غلاظاً جفاة . ويدل على هذه الحقيقة هذه الأشعار التي سمعاها :

من ضيّع الآمال ؟

الإهمال

من زادني حسرة ؟

الغيرة

من حطّم الصبر ؟

الهجر

من هذه اللأواء

ماثم من شفاء

قد بدّد الرجاء

الهجر والإهمال ـ والغيرة

من أحدث الآلام ؟

الغرام

من يمنع المجد ؟

الحظ

من رضي لي الشقاء ؟

السماء

إخال أنّي أموت

من دائي الممقوت

اتفقت على عذابي

الحظ والغرام ـ والسماء

من يصلح بختي ؟

موتي

ونعيم الحب ـ من ينال ؟

القلّب الأحوال

من شقاء الحب ـ من يعين ؟

الجنون

ليس ثمّ فطنة

في علاج محنة

دواؤها المضمون

الموت والجنون ـ وتقلّب الأحوال

وكان الوقت والزمان والوحدة وجمال الصوت وبراعة الغناء ـ كان لهذا كله أثره في إشاعة الدهشة واللذة معاً في نفوس السامعين . فأرعيا سمعيهما ساكنين على رجاء أن يزدادا سماعاً . فلمّا رأيا أن صمت المغنّي قد طال واستطال ، قرّرا السعي للبحث عنه ولمعرفة من صاحب هذا الصوت الرخيم . ومانهضا حتّى أمسك بهما الصوت نفسه في مكانيهما فراحا يستمعان فيه الى هذه المقطوعة :

أيّتها الصداقة المقدّسة ، يامن طرت بأجنحة رقيقة

تاركة مظهرك على الأرض

وصرت بين الأبرار في علّيين

تقيمين ناعمةً في منازل الخالدين

ومن هناك تبدين لنا ـ إن شئت ـ

وجهك الجميل منقباً بنقاب
تشع من خلاله أحياناً
حميّة الفعال النبيلة التي تُضحي في النهاية دميمة
غادري السماء أيتها الصداقة ، ولا تسمحي
للخداع أن يرتدي ثيابك
ليقضي على النوايا الصادقة
فإنّك إن لم تنتزعي منه مظاهره
فسرعان مايقع العالم في معركة
خليط الكراهية الأولى

وانتهت المقطوعة بزفرة عميقة وأصغى السامعان بانتباه عساهما أن يسمعا مقطوعات أخرى .فلمّا رأيا الموسيقى قد استحالت شكايات وزفرات ، بادرا لمعرفة مَنْ المغنّي الحزين ذو الزفرات الأليمة والصوت البغوم . ولم يبحثا طويلاً : إذ أبصرا عند منعطف سن صخرة رجلاً قامته ووجهه كما وصف سنشو حينما قصّ عليهما قصة كردنيو . فلمّا رآهما هذا الرجل لم يضطرب ولم تستول عليه الدهشة ، بل توقّف وألقى برأسه على صدره في وضع من يحلم حلماً عميقاً دون أن يرفع نظره اليهما اللهم إلا في اللحظة الأولى التي ظهرا له فيها . وتعرّفه القسّيس حسب الوصف الذي قام به سنشو ، وكان القسّيس مهذّب اللفظ أنيقه فاقترب منه ورجاه رجاءً ضارعاً حاراً بعبارات موجزة ملحفة أن يترك الحياة البائسة التي يحياها في هذه القفار وإلاّ فقد عمره وتلك مصيبة المصائب . وكان كردنيو حينئذ في تمام رشده بمعزل عن تلك النوبات العنيفة التي كانت تخرجه عن طوره . فلمّا رأى هذين الرجلين في لباس غير مألوف لدى من يردون هذه القفار انتابه نوع من الدهشة ، خصوصاً حين سمعهما يتحدّثان عن قصّته حديث العارف العليم بها ، فإن كلمات القسّيس أكّدت له هذا المعنى بما لا مجال بعده لأي ارتياب . فأجابهما بهذه الكلمات :

ـ « إنّي أرى أي سيداي ـ أيّاً من كنتما ـ أنّ السماء ـ عناية منها بإغاثة الأخيار ، والأشرار أحياناً أيضاً ـ قد أرسلت اليّ في هذه الأماكن النائية عن البشر أشخاصاً يرسمون أمام عيني وبأجلى صورة جنوني في قضاء عمري بهذه النواحي ويحاولون انتزاعي من هذه الخلوة الحزينة وإعادتي الى مقام أحسن ، وهي نعمة لاأستحقّها . ولكن لأنهم لايعرفون ماأعرف : وهو أنّي إذا خرجت من محنتي الحاضرة فسأقع فيما هو أشدّ منها ـ فسيعتقدون أنني رجل ضعيف العقل بل لعلّهم يحسبون أيضاً أنّي فقدت عقلي تماماً . ولن يكون هذا

داعياً الى الدهشة ، إذ أعلم بنفسي أن ذكرى آلامي متّصلة ثقيلة ولها تأثير عارم لإهلاكي ، وما أملك منها فكاكاً ، حتّى أنّي لأظل أحياناً كالحجر مجرّد من كل وعي وشعور . وعليّ الاعتراف بهذه الحقيقة حين يذكر لي بالبينات الواضحة ما ارتكبت من أفعال لمآ تعتريني تلك النوبات المروّعة . هنالك لاأملك إلا أن أصرخ بشكايات لاجدوى منها وأن ألعن سوء طالعي بغير فائدة ، واعتذاراً عن جنوني أخبر عن أسبابه كل من يودّون الاستماع إلي ؛ فإن عرف العقلاءالسبب بطل العجب ، وإذا كانوا لا يملكون دواءً يقدمونه اليّ ، فهم على الأقل لا يجدون مبرّراً لتحميلي اصره ، ويستحيل هول تهاويلي الى شفقة على آلامي . فإن ، كنتما ، يا سيديّ ، قد جئتما تحدوكما النية التي حدت غيركما ، فإنّي أرجوكما أن تصغيا الى قصّتي الأليمة قبل أن تستأنفا إسداء النصح الخالص الرشيد . ولعلكم بعد أن تستمعا لها أن تعفيا نفسيكمامن عناءالتعزية عن مصاب غلقت دونه كل أبواب العزاء » .

فألح عليه الرفيقان في أن يقصّ قصّته ، فهما لا يودّان خيراً من أن يعرفا منه هو سبب علّته ، ووعداه بألاّ يعملا غير مايشاء هو لعلاجه أو مواساته . هنالك بدأ هذا الفارس الحزين يروي قصّته الدامية بنفس الألفاظ والتفاصيل تقريباً التي رواها بها لدون كيخوته وراعي الماعز قبل ذلك بأيّام حينما بقيت الرواية ناقصة بمناسبة السيّد اليسابات وحرص دون كيخوته على التدقيق في أداء واجبات الفروسية . أمّا الآن فقد شاءت المصادفة السعيدة ألا تنتاب كردنيو نوبة جنون فاستطاع أن يتم قصّته حتّى النهاية . فراح يقصّها حتّى بلغ مسألة البطاقة التي وجدها دون فرنندو في ثنايا كتاب «أماديس الغالي» فقال كردنيو إنه يذكرها جيداً ، وإنها كانت على النحو التالي :

من لوسنده الى كردنيو

«كل يوم تتكشّف لي فيك مواهب تحملني على زيادة تقديرك . فإن أردت منّي الوفاء بديني ، دون أن يكون ذلك على حساب الشرف ، فالوصول الى ذلك ميسور . إنّ لي أباً يعرفك ويحبّني ، وسيستجيب لرغبتك دون أن يرغم إرادتي ، رغبتك العادلة ، إذ كان حقّاً أنك تقدّرني كما تقول وكما أعتقد » .

وهذه البطاقة هي التي دعتني الى طلب يد لوسنده كما قصصت عليكما ، وهي عينها التي جعلتها في نظر دون فرنندو فتاة من ألطف وأمهر فتيات عصرها ، وولدت فيها الرغبة في إهلاكي قبل تحقيق رغباتي . وأفضيت الى دون فرنندو أنّ والد لوسنده يشترط أن يكون والدي هو الذي يطلب يدها منه ، وقلت له أيضاً إنني لاأجرؤ على محادثة أبي في هذا الشأن خوفاً من أن يكون جوابه الرفض ، لا لأنّه كان يجهل فضائل لوسنده ومفاتنها التي تزيّن

أعلى البيوتات في اسبانيا ، ولكن لأنّي افترضت أن أبي لايودّ تزويجي قبل أن يعلم مايريد الدوق ريكردو أن يفعله بي . وأخيراً قلت له أنني لا أخاطر بمفاتحة أبي في الموضوع لهذه العقبة ولعقبات أخرى كثيرة كنت أتبيّنها بخوف دون أن أتحققها ، ولأنّه كان يخيّل الي أن رغباتي لن تتحقّق أبداً . فأجاب دون فرنندو عن هذا كله قائلاً إنه سيتولّى بنفسه أمر مفاتحة أبي في الموضوع وحمله على أن يكلّم والد لوسنده بشأني . أوه! أي ماريوس الغادر ، أي كاتلينا الظالم ، أي سلاّ الأثيم ، أي جانلون الخدّاع ، أي فليدو الخائن ، أي خوليان المنتقم ، أي يوداس الدنيء الطعمة! أيها الصديق الغدّار ، أيها الجاحد اللئيم القاسي! ماذا فعل بك هذا المسكين الذي أطلعك على أسرار قلبه وأمانيه ؟ أيّة إهانة بلغتك منّي ؟ أية كلمة قلتها ، أو نصيحة أسديتها لم يكن هدفي الوحيد منها نفعك وإعلاء قدرك ؟ لكن لماذا أشكو وا أسفاه! أوليس من الحقائق المقرّرة أنّ المصيبة إذا انحدرت من القدر المحتوم مندفعة من العلو الى السفل بقوّة لاتقاوم ، فلن تستطيع قوّة على ظهر الأرض أن توقفها ، ولاأية حكمة إنسانية أن تتلافاها ؟ من كان يتصوّر أنّ دون فرنندو ، هذا الفارس النبيل الأعراق الرائع الذكاء ، الذي غمرته بأياديّ ، وعنده القدرة على نوال كل ماتهواه شهواته الغرامية أينما أراد ، أقول : من كان يتصوّر أنّه يقرّر في نفسه أن يسلبني نعجتي الوحيدة ، التي لم أظفر بها بعد[1] ؟ لكن لنطرح جانباً هذه الإعتبارات التي لانفع فيها ، ولنعد الى قصّتي الأليمة . فأقول أنّ دون فرنندو حينما رأى أن في وجودي عقبة تحول دون تنفيذ غرضه الدنيء ، قرّر أن يرسل بي الى أخيه الأكبر ، بحجّة طلب بعض المال منه لدفع ثمن ست أفراس تعمّد شراءها في نفس اليوم الذي قدر فيه التحدّث الى والدي ، وذلك إبتغاء إبعادي حتّى يخلو الجوّ لغدره . أكان في وسعي ، ياحسرتاه ، أن أتوقّع هذه الخيانة ؟ أكان من الممكن أن يخطر هذا الأمر ببالي ؟ كلا وأيم الله ، كان الأمر بالعكس ، فقبلت عن طيب خاطر أن أرحل في الحال ، راضياً عن هذه الصفقة . وفي الليل تحدثت مع لوسنده وأفضيت اليها بما اتفقت عليه أنا ودون فرنندو ، وعبّرت لها عن وطيد الأمل في تحقّق أمانينا المقدّسة العادلة . فأجابت ، وهي تخشى مثلي من خيانة دون فرنندو : إنّ عليّ أن أعود سريعاً ، لأنّها تعتقد أن أمانينا لن تتأخّر في التحقّق إلا بمقدار مايتأخّر أبي في التحدّث في هذا الموضوع مع أبيها . ولست أدري ما الذي جرى لها في هذه اللحظة ، بيد

---

(١) إشارة الى ما ورد في « سفر الملوك » الثاني ، إصحاح١٢ ، وقد ورد ذكره في القرآن في حكاية داوود (سورة ص آيات ٢٣-٢٤) : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض... » .

أنّها لم تتم هذه الكلمات حتّى امتلأت عيناها بالدموع واختنق صوتها ، ولاح كأنّ عقدة قد ربطت حلقها فلم تدعها تنطق بالكلمات التي حاولت أن تفصح عنها . فاعتراني ذهول لهذا الحادث الذي لم يقع لها من قبل أبداً . ففي كل مرة كانت الصدفة السعيدة أو مهارتي تجمعنا لنتحدّث معاً ، كان يسود حديثنا البهجة والرضا ، دون أن يداخله بكاء أو زفرات أو حسد أو شكوك . وأنا من جانبي كنت في نعمة تامة وشكر دائم على أن وهبني إياها الله حبيبة ، وكنت دائم الإطراء لمفاتنها ومحاسنها . وكانت هي بدورها تبادلني إطراءً بإطراء ، مثنية على ما أظهره حبّها من شمائل عندي خليقة بالثناء . كما كنّا نتبادل آلاف الأحاديث الصبيانية ونروي مغامرات الجيران والمعارف ، ولم تتجاوز بي الجرأة حدّاً أبعد من تناول إحدى يديها البيضاوين ، في شيء من العنف ، وتقريبها من فمي بقدر ماكانت تسمح بذلك قضبان نافذة واطئة كانت تفصلنا عن بعضنا بعضاً . أمّا في الليلة السابقة على اليوم المشؤوم لرحيلي ، فقد كانت تبكي وتنوح ، ثمّ تركتني في اضطراب شديد ومخاوف . فقد أفزعني ما رأيته على لوسنده من شواهد جديدة حزينة من الأسف والتعاسة . وحتّى لا أقضي بنفسي على آمالي ، أرجعت كل شيء الى قوة الغرام الذي تشعر به نحوي والى الأمل الذي يسببه دائماً غرام أولئك المتحابين المولّهين . وأخيراً رحلت ، حزيناً مطرقاً ، ونفسي تساورها الشكوك والمخاوف ، دون أن أعلم على وجه التحقيق أسباب الشكوك والمخاوف : وهي علامات بينات على الضربة الأليمة التي كانت تنتظرني .

بلغت الى حيث أرسل بي وسلّمت الرسائل لأخي دون فرنندو فأحسن استقبالي ولكنّ لم يعجّل إنجاز مهمّتي بل تركني أنتظر ـ على مضض بالغ ـ ثمانية أيام في مكان لم يكن الدوق يستطيع أن يراني فيه ، لأنّ دون فرنندو كتب طالباً أن يرسل اليه المال دون أن يعلم ذلك أبوه . وماكان ذلك إلا من حيل الغدر ، فإنّ المال لم يكن ليعوز أخاه فكان في وسعه أن ينجز مهمّتي في الحال . وكان هذا الوضع غير المنتظر يخوّل لي أن أعصاه ، إذ بدا لي من المستحيل أن أحتمل العيش هذه المدة الطويلة بعيداً عن لوسنده ، خصوصاً وقد تركتها على حال من الحزن وصفتها لك من قبل . ورغم ذلك فقد رضخت وأطعت ، شأن الخادم المخلص ، وإن كنت قد شاهدت أن ذلك سيكون على حساب راحتي وصحّتي . وبعد مضي أربعة أيّام وصل رجل بحث عنّي ليوصّل اليّ رسالة عرفت أنها من لوسنده حينما شاهدت خط العنوان ، ففضضتها وفي نفسي فزع بالغ إذ توقّعت أن يكون ثمة سبب هام قد حملها الى الكتابة اليّ خلال البعاد ، لأنّها نادراً ماكانت تكتب لي وأنا حاضر . لكن قبل أن أتلو الرسالة ، سألت الرجل عمّن أعطاه إيّاها وكم من الوقت استغرقت رحلته . فأجابني أنه كان

يمر صدفة في أحد شوارع المدينة عند الظهيرة وإذا بسيدة رائعة الجمال تدعوه الى النافذة ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وقالت له بلهجة وسرعة : «أخي! إن كنت مسيحيّاً مؤمناً كما يبدو لي ، فإنّي أرجوك ، لله ، أن تحمل هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة جدّاً ، الى المكان والشخص المذكورين على الرسالة ، جزاك الله خير الجزاء ، وحتّى أسهّل عليك هذه المهمّة ، خذ مايحتويه هذا المنديل» . وماقالت حتّى القت من النافذة منديل يحتوي على مائة ريال ، وهذا الخاتم الذهبي الذي أحمله ، وهذه الرسالة التي تمسك بها في يديك ، ودون أن تنتظر جوابي ، تركت النافذة بعد أن شاهدت أنّي التقطت المنديل والرسالة وبعد أن أخبرتها بالإشارات أنّي سأنفّذ ماأمرت به . فلمّا رأيت أنّي سأكافأ هذه المكافأة على المهمة التي سأقوم بها ورأيت من عنوان الرسالة أنني موفد اليك يامولاي ، وأنا أعرفك جيداً والحمد لله ، ولما كنت خصوصاً قد تأثرت بدموع هذه الحسناء ، فقد قرّرت ألاّ أوكل هذه المهمة لأحد غيري فحضرت بنفسي لتوصيل الرسالة إليك ، فأخذت سبيلي منذ أن أعطتني الرسالة فقطعت المسافة في ست عشر ساعة ، إذ طولها كما تعرف ١٨ فرسخاً» .

«وبينما كان هذا الرسول الشاكر للجميل يقص عليّ هذه التفصيلات كنت كأنّي معلّق على كلماته ، وكانت فرائصي ترتعد بقوة لم أكد أحتمل معها الوقوف . وأخيراً فتحت الرسالة فوجدتها تتضمّن هذه العبارات القليلة :

«إنّ ما تعهّد به دون فرنندو من التحدّث الى أبيك ليفاتح أبي ، قد وفى به لصالحه لا لصالحك . فلتعلم ياسيّدي أنّه التمس الزواج منّي ، وأبي ، وقد أعماه ماظن لفضل دون فرنندو عليك ، قد قبل . والأمر من الجدّ بحيث ستتم الخطبة في خلال يومين ، ولكن في الخفاء بحيث لايكون ثم شهود عليها سوى السماء وبعض أهل البيت . في أي حال أنا ، هذا ماأترك لك تصوّره ، فإن كان يهمّك التعجّل فالحكم لك ، وإذا كنت أحبّك أو لاأحبّك ، فالحوادث ستشهد . وإنّي أسأل الله أن تصل رسالتي هذه الى يدك قبل أن تضطر يدي الى الإنضمام الى يد رجل لا يفي بعهده!» .

تلك كانت خلاصة كلماتها في رسالتها هذه . لم أكد أتم قراءتها حتّى رحلت من فوري دون انتظار لمال أو جواب عن مهمّتي ، إذ تبيّن لي حينئذ أن دون فرنندو لم يبعث بي الى أخيه من أجل شراء أفراس ، بل ليخلو الجو لتدبيره وأهوائه . واندفعت بقوة الحفيظة ضد هذا الصديق الغادر وبقوة الخوف من إضاعة قلب كسبته بعد سنوات من الغرام والخضوع ، فوصلت الغداة الى المدينة في الساعة المناسبة للتحدّث الى لوسنده . دخلت بيتها سرّاً ، وتركت البغلة التي ركبتها عند ذلك الرجل الفاضل الذي أتى إليّ برسالتها . وشاء الحظ

السعيد أن أجد لوسنده لدى النافذة الواطئة التي طالما كانت شاهدة على غرامنا . فتعرّفتني في التو وأنا كذلك ؛ لكن لا كما كان يجب أن تراني وأن أراها ، هل في الدنيا ، وياحسرتاه ، رجل يقدر أن يقول أنه سبر أعماق الأفكار المضطربة والأحوال المغايرة في نفس المرأة ؟ كلاّ قطعاً . فلمّا شاهدتني قالت لي :

– كردنيو! إنّي ألبس ثياب الزفاف ، وهاهو ذا دون فرنندو الغدّار وأبي الطموح ينتظراني في البهو ، مع شهود آخرين هم بالأحرى شهود موتي لا شهود زفافي . لاتضطرب يا حبيبي ، بل حاول حضور هذه التضحية . فإن لم تستطع كلماتي أن توقفها ، فهناك خنجر أخفيه هناك يستطيع أن يدفع عنّي كل قهر ويحول دون أن تخور قواي ، به ستختم حياتي وحبّي لك معاً .

فأجبتها في اضطراب واندفاع وأنا أخشى ألا يكون لدي وقت لكي تفهم منّي وتسمعني :

– لعل أفعالك أن تبرّر كلماتك يا لوسنده ، إن معي سيفاً ليدافع عنك ، أو ليقتلني إذا عاكسنا الحظ .

ولا أحسبها قد سمعت كل كلماتي ، إذ جاءوا لدعوتها بسرعة لاقتيادها الى حيث ينتظرها خطيبها .

هنالك غربت شمس سعادتي وخيّم ليل أحزاني . أصبحت عيناي لا تبصران وطار عقلي ، فلم أهتد الى مدخل منزلها ولم أستطع التوجّه الى أيه ناحية . وأخيراً – وقد تبيّن لي أهمّية حضوري في مثل هذه المناسبة الحرجة الهامّة - استجمعت قواي ماستطعت ودخلت المنزل . وكنت أعرف منذ عهد بعيد كل مخارجه ومداخله ، فدخلت دون أن يراني أحد نظراً الى ماكان في المنزل من جلبة وحركة ، واستطعت التسلّل الى ركن تتألف منه نافذة البهو وتغطّيه ستارتان من السجّاد كان في وسعي أن أرى من خلالها كل ما يدور في البهو دون أن يراني أحد . من يقدر أن يصف مامرّ بي من مخاوف اضطرب لها قلبي طوال المدة التي أمضيتها في مخبأي هذا! أي خواطر جالت بنفسي! أي أمور عزمت عليها! لقد كانت هذه كلّها من الاضطراب بحيث يتعذّر ذكرها ويكفي أن تعلم أن الخطيب دخل البهو غير مرتدٍ إلاّ ملابسه العادية . وكان شاهد زواجه هو ابن عم لوسنده ، ولم يكن في البهو كلّه إلاّ خدم المنزل . وبعد قليل برزت لوسنده من غرفة زينتها مصحوبة بأمها وقهرمانتها ، لابسة ومتزينة على النحو الذي يقتضيه حبّها وجمالها ووفق ذوقها المرهف الكامل ، ولم يسمح لي تشتت ذهني أن ألاحظ دقائق ثيابها ، فلم أبصر منها غير ألوانها : الأحمر ، والأبيض ،

والانعكاسات التي كانت تلقيها حليها الثمينة التي زيّنت رأسها وكل ثيابها . أمّا جمال شعرها الأشقر فلم يكن له مثيل ، كان يتألّق تألقاً أروع من الأحجار الكريمة ، وأبهج من المشاعل الأربعة التي كانت تضيء البهو . أيتها الذكرى ، يا لعدوّة راحتي! ماذا يجدي الآن تذكّر مفاتن هذه العدوّة المعبودة ، لوسنده ؟ أوليس الأفضل ، أيتها الذكرى القاسية ، أن تذكريني وتصوري لي مافعلته حينئذ ، حتّى تدفعني هذه الإهانة البالغة الى البحث عن القضاء على حياتي ، إن لم يكن عن الإنتقام ؟ سادتي ، لا تملّوا من سماع الاستطرادات التي قد انساق اليها ، بيد أن قصّتي الأليمة ليست من تلك القصص التي يمكن روايتها بإيجاز وبسرعة ، وكل ظرف من ظروفها يبدو لي أنا خليقاً بالإسهاب» .

فقال له القس إنهم لم يملّوا من سماع مايقول ، بل بالأحرى هم شديدوا الشوق لسماع كل التفاصيل التي تستحق من الانتباه مثلما يستحقّه فحوى القصة نفسها .

فتابع كردينو حديثه قائلاً : بعد أن التمّ الشمل في البهو ، أدخل قسيس الناحية فأخذ بيدي الخطيبين في يده ، لإقامة المرسم المتّبع في هذه الحالة . فيما نطق بالكلمات المعهودة : «هل تقبلين يا سيدتي أن يكون السيد دون فرنندو الحاضر هنا زوجاً شرعيّاً لك ، كما تأمر بذلك الكنيسة المقدّسة ؟ » .

ـ أخرجت رأسي وعنقي من وراء الستار وأرعيت سمعي بنفس مضطربة للإصغاء الى ما ستجيب به لوسنده ، وأنا أرقب من جوابها قرار إعدامي أو التصديق على حياتي . أواه! لماذا لم أخرج حينئذ من مخدعي ؟ ولماذا لم أصح : «لوسنده ، لوسنده! انظري ماتفعلين ، انظري ما تدينين به لي ، إنك لي ولست لأحد غيري ، إنّك إذا نطقت بالقبول فقد نطقت بحكم إعدامي في نفس اللحظة ، وأنت أيها الخائن دون فرنندو ، يامغتصب مالي ، وسالبني حياتي ، ماذا تريد ؟ وماذا تزعم ؟ أولا ترى أنّك لاتستطيع إمضاء رغباتك إمضاءً مشروعاً ، لأنّ لوسنده هي زوجتي وأنا زوجها ؟ » آه ما أتعسني! الآن وأنا بعيد عن الخطر أقول ما كان يجب عليّ فعله فلم أفعله ، الآن وقد تركت كنزي العزيز يسلب منّي ، هأنذا ألعن السالب عبثاً وقد كان في وسعي الإنتقام منه لو كان لي من القلب والشجاعة للإنقضاض عليه مثلما لي الآن من القلب للشكاة والأنين! على كل حال كنت جباناً أحمق ، فحقّ عليّ الآن أن أموت مسربلاً بالعار ، نادماً مجنوناً .

وظلّ القس ينتظر جواب لوسنده التي صمتت طويلاً دون جواب . ولكن حينما خيّل اليّ أنها بسبيل سلّ خنجرها وفاء بعهدها ، أو حل عقدة لسانها لإبراز الحقيقة والتحدّث عمّا بيننا ، إذ بي أسمعها تقول بصوت خفيض مضطرب : «نعم ، أقبله» . وقال دون فرنندو

نفس العبارة ووضع في إصبعها خاتم الزواج ، وهكذا ارتبطا برباط لاإنفصام له . وتقدّم الزوج لتقبيل زوجته ، ولكنها وضعت كفّها على قلبها وسقطت بين ذراعي أمها مغشياً عليها .

« بقي أن أقص عليكم وصف حالتي حينما شاهدت في هذا « القبول » منها ضياع آمالي وزيف وعودها واستحالة رد مافقدته تلك اللحظة . فقدت وعي وشعرت أنّ السماء تخلّت عنّي وأنا على الأرض موضوع كراهية ، لأن الهواء لم يعد يمدّ زفراتي بالأنفاس ، والماء لم يعد يمدّني بالدموع ، إنّما تلظّت النار ، واحترق قلبي بالحسد والغضب . وكان إغماء لوسنده قد أثار الانفعال في كل الحاضرين ، وأبعدتها أمها عن ذراعيها لتستطيع استنشاق الهواء ، فوجد على صدرها ورقة مختومة سرعان ماالتقفها دون فرنندو وأنشأ يقرأها على ضوء أحد المشاعل . فلمّا فرغ من القراءة ، ارتمى على كرسي وأسند رأسه الى يده ، في وضع من يفكّر ، دون أن يسهم في مظاهر العناية التي وفّرت لزوجته لجعلها تفيق من إغمائها . أمّا أنا ، فحينما رأيت البيت كلّه على هذا الحال من الاضطراب ، تجاسرت على الخروج دون أن أهتم بأن يكتشفوا أمري ، وفي عزمي في هذه الحالة أن أثور ثورة دامية ليعرف الناس جميعاً غضبتي العادلة التي تدفعني الى عقاب الخائن ، بل وعقاب تلك التي تغيّرت عن عهدها وإن كانت لاتزال في حالة إغماء . ولكن شاء طالعي أن يحتفظ بي لشقاء أعظم ، إن كان ثمّ أعظم من شقائي ، فأمرني بالتعقّل ، ثمّ حرمني بعد هذا الحدث من كلّ تعقّل . فبدلاً من أن أنتقم من أعدائي الألدّاء ، وهو أمر كان حينئذ سهلاً ، لأنهم لم يكونوا منتبهين لي ، تخيّلت أن أنتقم من نفسي فأعاقبها بالعقاب الذي استحقّوه هم ، وبقسوة أشد مما كان عليّ أن أفعله ضدّهم لو أنّي قتلتهم ، لأن العقاب المفاجيء ينهي العذاب سريعاً ، أمّا العقاب الذي يطول أمده في ألوان من العذاب لاتنتهي فيقتل بموت بطيء . ــ وأخيراً غادرت البيت وذهبت الى الرجل الذي تركت عنده بغلتي . وسرعان ماأسرجتها وغادرت المدينة دون أن أودّع الرجل ، ولم أجرؤ على إدارة رأسي لرؤية المدينة شأني شأن لوط . فلمّا كنت وحدي وسط الحقول التي أرخى الليل عليها سدوله ، يدعوني هدوئها الساجي الى إطلاق العنان لنواحي دون خوف من أن يسمعني أو يتعرفني أحد ، أطلقت لساني وصرخت بلعناتي ضد لوسنده وفرنندو ، كما لو أنّي بهذا أنتقم لنفسي مما لحقني منها من إهانة . واتجهت لعناتي خصوصاً اليها ، ناعتاً إيّاها بالقاسية ، الجاحدة ، الزآئفة ، الحانثة باليمين ، وبالمستغلة الشرهة ، لأن ثروة عدوّي هي التي بهرت عينيها وجعلتها تفكّر بمن حباه الحظ بمالٍ أوفر ، وفي هذه الغضبة وتلك اللعنات كنت أحاول تلمّس عذر لها فأقول : « إنّ فتاة

نشأت في عزلة بين أهلها واعتادت دائماً الإذعان لأبويها ـ لاعجب في أن تنزل عند رغبتهما إذا زوجاها من سيّد نبيل غني وسيم ، فلو أنها رفضته لاتهمت بالجنون أو بحب شخص آخر ، وكلاهما يسيء الى سمعتها أبلغ إساءة »! ثمّ أعود بعد ذلك الى أفكاري الأولى فأقول : « ولماذا لم تقل أنني زوجها ؟ لقد كانوا سيرون حينئذ أنها لم تختر اختياراً سيئاً غير جديد بها لا تستطيع تبريره ، لأنّه قبل أن يتقدّم دون فرنندو لخطبتها ، لما كانا أبواها قد طمعا في خير منّي لوأنهما قاسا رغبتهما بمقياس العقل . أفلم يكن في وسعها إذن ــ قبل أن تخطو هذه الخطوة المروعة الأخيرة ، وقبل أن تقبل ، أن تقول أنها وعدت من قبل بالزواج منّي ، ففي هذه الحالة كنت سأعمل على الاستجابة لكل ماكانت ستتظاهر هنالك به ؟ » وأخيراً أقنعت نفسي بأن قليلاً من الحب ومن العقل ، وكثيراً من الطمع والشهوة للعظمة ، قد جعلاها تنسى الوعود التي ناغتني بها وخدعتني وغزّت أمالي النزيهة الشريفة . وكنت خلال هذه المناجيات والاضطرابات أسلك طريقي الليل كلّه ، حتّى وصلت عند مطلع النهار الى مدخل من مداخل هذه الجبال . فدخلت منه ومضيت قدماً ثلاثة أيّام كاملة دون أن أسلك طريقاً بعينه ، الى أن وصلت الى مرج لاأعرف مكانه بالدقة ، وسألت الرعاة الذين كانوا يرعون دوابهم فيه عن أوحش مكان في هذه الجبال وأشدّها وعورة ، فأشاروا عليّ بهذا المكان ، فغدوت اليه تواً وأنا موطّن العزم على أن أنهي حياتي فيه . ولمّا دخلت هذه الوحشة الموحشة كبت بغلتي وماتت من الجوع والاضطهاد ، أو بالأحرى ـ فيما يخيّل إلي ـ للتخلّص من حمل لافائدة فيه هو شخصي أنا . فوقفت على الأرض ثمّ انطرحت عليها وقد بلغ منّي الإعياء والشقاء ، دون أن أريد من أحد ـ ولم يكن ثمّ أحد ! ـ أن يهبّ لمساعدتي . وبعد أن بقيت مطروحاً على هذا النحو وقتاً لا أدري مداه ، نهضت ولم أعد أشعر بعد بالجوع ، فرأيت الى القرب منّي بعض رعاة الماعز وهم بلا شك أولئك الذين سدّوا حاجتي الملحّة العاجلة . فقد قصّوا عليّ بعد ذلك كيف عثروا عليّ ، وكيف أنّي رويت لهم من الخزعبلات والترّهات ما جعلهم يوقنون أنّي مذهوب العقل . ولقد أحسست بنفسي منذ تلك اللحظة أن عقلي لم يعد سليماً حرّاً دائماً ، بل بالعكس ، صار من الضعف والاختلال بحيث صرت أرتكب آلاف الحماقات وأمزّق ثيابي ، وأصرخ في هذه القفار ، لاعناً حظّي العاثر ، مكرّراً باستمرار اسم عدوّتي الحبيب ، دون أن يكون ثمّ غرض إلاّ أن أدع حياتي تنطلق مع صرخاتي . وحينما أعود لنفسي وأثوب لرشدي أراني على نحو من الإعياء والاستسلام بحيث لاأقوى على القيام بنفسي . وأغلب مسكني في تجويف شجرة فلّين تستر هذا البدن الناحل البائس . ورعاة الضأن والماعز اللذين يجوبون هذه الجبال بقطعانهم تأخذهم الشفقة

بي فيعطونني ماأتبلّغ به وذلك بأن يتركوا على الطرقات أو على الصخور التي يظنّون أنني سأمر بها بعض ألوان الطعام لأجدها عندما أمر بها ، ففي نوبات الجنون أيضاً تنطق الحاجة فتدفعني الغريزة الفطرية الى البحث عن الطعام وتولّد فيّ إرادة إشباع حاجتي منه . وفي أحيان أخرى ـ كما علمت منهم حينما ألقاهم وأنا في كمال عقلي ـ أكمن لهم في الطريق واستولي بالقوة على المؤونة التي يأتي بها الرعاة من القرية الى أكواخهم ، وإن كانوا هم مستعدّين لتقديم ماأشاء من الطعام طواعية وعن طيب خاطر . وهكذا أقضي بقية عمري ، الى أن يطيب للسماء أن تبلغ به نهايته ، أو تسلبني ذاكرتي ، حتّى أستطيع أن أنسى مفاتن لوسندة وخيانتها ، وإهانة دون فرنندو . فإذا أنعمت عليّ السماء بهذه النعمة دون أن تنتزع منّي حياتي ، فسأقتاد أفكاري الى الطريق الصواب ، وإلاّ فليس أمامي إلاّ أن أسألها أن تعامل روحي بالشفقة والرحمة ، لأنّي لااستشعر في نفسي الشجاعة ولا القوّة على إنقاذ بدني من ألوان التقشّف التي فرضتها على نفسي .

تلك يا سادتي هي قصة مصائبي الأليمة . فأنبئوني هل في الوسع روايتها على نحو أقل فجيعة وحزناً مما فعلت . ولا تتعبوا أنفسكم في محاولة إقناعي بما يدلي به العقل لعلاج أدوائي بإسداء النصائح لي ، فليس فيها من الفائدة أكثر مما في شراب يأمربه الطبيب مريضاً لايريد تناوله .إني لا أريد شفاءً غير لوسنده ، ومادامت قد شاءت أن تكون لغيري ، فإني أريد أن أكون للشقاء بعد أن كان من الممكن أن أكون للنعيم . لقد أرادت بعدم اكتراثها أن تؤبّد ضياعي ، إذن فإنّي أريد بإضاعتي لنفسي أن أرضي أمنيتها . وسيقول الناس من بعد إنه ينقصني وحدي مالدى جميع البائسين من وسيلة أخوية ، إذ يعزّيهم استحالة تعزيتهم[1] ، بل بالعكس هذه هي عندي سبب لأشد الأحزان وأقسى الآلام ، لأنني أحسبها ستستمر الى بعد موتي » .

وهنا ختم كردينو روايتة الطويلة لقصّته الغرامية الأليمة . ولمّا أوشك القسّ أن يوجّه إليه بعض عبارات العزاء ، منعه من ذلك صوت دويّ فجأة في آذانهم ، صوت يحكي ، بنبرات نائحة ، ماسيرويه القسم الرابع من هذه القصة ، إذ هاهنا أنهى القاص الحكيم المجتهد سيدي حامد ابن الأيّل القسم الثالث من حكايته .

---

(١) يرى pellicer أن هنا إشارة الى عبارة لفرجيل .

الفصل الثامن والعشرون

في المغامرة الجديدة البهيجة التي وقعت للقس والحلاق

ما أسعد الأزمان التي عاش فيها الفارس الشجاع دون كيخوته المنتشاوي! لقد أمضى نيته النبيلة على بعث طريقة الفروسية الجوّالة بعد أن انقضى عهدها وكادت تتلاشى ، فأصبحنا بفضله نتمتّع الآن ، في هذا العصر المحتاج الى التسلية والبهجة ، بلطائف قصّته الحقيقية ، وبما تنطوي عليه من نوادر وأحداث لاتقل لطفاً في معظمها ولا براعة صدقها عن القصة نفسها ، هذه القصة التي تتابع خيطها الملتوي المعقّد فتحكي أنه في اللحظة التي تهيّأ فيها القس لمواساة كردنيو مااستطاع الى المواساة سبيلاً ، منعه من ذلك صوت هزّ مسامعهم بهذه العبارات الحزينة :

« يا إلهي! هل لي أن أجد مكاناً أستطيع أن أدفن فيه هذا البدن الذي أحمل عبئه الثقيل رغماً عنّي ؟ نعم ، وأيم الله ، اللهم إلا إذا لم أظفر بالوحدة التي أرجوها من هذه الجبال . أوّاه! كم تهيّء لي هذه السماء ، صحبة أشد إمتاعاً من صحبة أي إنسان على ظهر الأرض ، إذ ليس في الدنيا أحد تتوقّع منه النصيحة الصادقة في الملمّات ، والسلوى في الأحزان ، والدواء في الأمراض! » .

هذه الكلمات الأليمة سمعها القسّ ومن كان معه ، سمعاها كأنها قريبة منهم ، فنهضوا في الحال ليستدلّوا على هذا الشاكي الباكي . فلم يكادوا يخطون عشرين خطوة حتّى شاهدوا عند منعطف صخرة شاباً في ملابس فلاّح يجلس عند قاعدة شجرة فرامسنوس (المُران) لم يستطيعوا أنئذ أن يتبينوا وجهه لأنّه كان يخبّئه وهو يغسل رجليه في جدول يجري في هذا المكان . وقد وصلوا في صمت تام بحيث لم يحس بهم الفتى ، الذي لم يكن مشغولاً بغير غسل قدميه وكانت من الشفوف والوضاءة كأنهما قطعتان من البلّور الناصع مختلطتان بسائر أحجار الجدول . بهرهم هذا الجمال وهذه الوضاءة ، إذ بدت قدماه كأنهما

لم تخلقا لتطآ الطين خلف المحراث والثيران كما دلّت على ذلك ملابسه . فلمّا رأوا أنه لم يحس بهم ، أشار القس وكان في مقدّمتهم الى زميله بأن يستترا خلف الصخور القائمة هناك . واستتر ثلاثتهم هناك ليراقبوا ما يفعله الفتى . وكان الفتى يلبس معطفاً صغيراً شدّه الى وسطه بحزام غليظ أبيض ، وجوارب طويلة من الصوف الأسمر ، وعلى رأسه قلنسوة من القماش نفسه . فلمّا فرغ من غسل قدميه ، ورفع قلنسوته ورفع رأسه ، هنالك شاهد الذين يراقبونه جمالاً منقطع النظير ، حتّى قال كردينو بصوت خفيض للقسّ : «مادام هذا ليس لوسنده ، فليس أيضاً بشراً!» وخلع الفتى قلنسوته وهزّ رأسه يمنة ويسرة فانتشر من تحتها شعر يحسده عليه شعاع الشمس نفسه . هناك أدرك الثلاثة الطلعة أن هذا الذي حسبوه فلاّحاً كان فتاة شابة رقيقة ، أجمل ماوقعت عليه أعين صديقيّ دون كيخوته بل وعينا كردنيو نفسه لو لم يعرف لوسنده لأنّه أكد بعد ذلك أن جمال لوسنده هو وحده الذي يمكن أن يقارن بهذا الجمال . وكان هذا الشعر الأشقر الطويل يغطي كتفيها ، بل يغطّيها كلها تحت غدائره الكثيفة ، حتّى لم يكن المرء يرى منها غير قدميها . والتسريحة لم يكن لها من مشط غير أناملها التي بدت في الشعر كأنّها كرات من الثلج ، كما بدا القدمان في الجدول كأنهما قطعتان من البلّور . كل هذا زاد من إعجاب المشاهدين الثلاثة ومن شوقهم لمعرفة حقيقة أمرها ، فقرّروا الخروج من مختبأهم . لكنّ حركة نهوضهم جعلت الشابة الحسناء تدير رأسها وتفصل بيديها شعرها الذي يغطّي وجهها ، ثمّ نظرت من أين جاءت الضوضاء . ولم تكد ترى هؤلاء الرجال الثلاثة حتّى نهضت بلهفة ودون أن تتمهّل للبس حذائها وضم شعرها ، ثمّ أمسكت بحزمة صغيرة من الخرق المهلهلة كانت بالقرب منها ، ثمّ هربت في ذعر واضطراب . بيد أنّها لم تكد تخطو بضع خطوات حتّى عجزت قدماها الرقيقتان عن احتمال وعورة الصخور فارتمت على الأرض . هنالك أسرع اليها الأصدقاء الثلاثة ، وبدأ القس في الكلام فقال : «قفي يا سيدتي! أيّاً من كنت فاعلمي أننا لا نبغي إلاّ خدمتك . فلا تحاولي الفرار ، فقدماك لن تتحمّلان ، ونحن أيضاً لن نسمح لك بذلك» .

فلم تحر جواباً وغلبتها الدهشة والاضطراب . فاقتربوا منها ، وأخذ القس بيدها واستمر يقول :

«إن ماأخفته ثيابك ياسيّدتي قد نمّ عنه شعرك ، وهي دلائل واضحة على أن الدوافع التي حملتك على تمويه جمالك تحت هذا القناع غير اللائق به ودفعتك الى اللجوء الى أعماق هذه القفارالتي يسعدنا أن نلقاك فيها لا نجد دواء لإدوائك ولكن على الأقل لنبذل لك محض النصيحة ـ نقول هي دلائل واضحة على أنّ هذه الدوافع ليست هيّنة . وأيّة مصيبة لا يمكن ،

مادامت الحياة قائمة ، أن تبلغ الحد الذي عنده لايريد صاحبها أن يصغي الى النصيحة التي تُسدى اليه بإخلاص . فاخلصي ياسيّدتي ، أو ياسيّدي ، أيّاً من كنت ، من الفزع الذي أثاره مرآنا في قلبك ، وقصّي علينا ماأصابك من نحس أو سعد ، وثقي أنك ستجدين فينا ، فرادا ومجتمعين ، معيناً لك على تحمّل المصائب ومشاطرتك إيّاها » .

وبينما كان القس يتحدّث هذا الحديث ، ظلّت الحسناء المستخفية مذهولة مشدوهة ، تنظر إليهم واحداً بعد واحد ، دون أن تنبس ببنت شفة ، شأنها شأن فلاح شاب يشاهد فجأة ولأوّل مرّة أشياء نادرة لم يرها أبداً .

واستمرّ القسّ في كلماته الرقيقة ، فانطلقت منها زفرة عميقة قطعت بها صمتها ثمّ قالت :

« مادامت وحشة هذه الجبال لم تستطع أن تسترني عن العيون وشعري لما انتشر لم يدع للساني مجالاً للتمويه ، فمن العبث أن أموّه الآن وأن أقول مالايمكن تصديقه إلا مجاملة . وبعد فأقول ياسادتي إنني أشكر لكم تطوّعكم لخدمتي مما يحملني الى جميع ماسألتموه . بيد أنّي أخشى من أنّ رواية ماحلّ بي من كوارث ستحدث لكم من الضيق بقدر ما ستثير من الشفقة ، لأنكم لن تجدوا دواء لشفائي منها ، ولاعزاء لتخفيف وقعها عليّ . وحتّى لايضار شرفي لديكم بعد أن عرفتم أنني امرأة ورأيتموني شابة وحيدة وفي هذا الزي ، وكلها أمور يمكن أن تقدح في الشرف ، فقد قرّرت أن أفضي اليكم بما كنت أودّ أن يظل سرّاً مكتوماً » .

كان هذا خطاب هذه الحسناء الرقيقة للأصدقاء الثلاثة ، نطقت به دفعة واحدة بصوت بغوم سلسال ، فأحدثت لطافة روحها دهشة لاتقل عن الدهشة التي أثارها جمالها . فراحوا يردّدون استعدادهم لخدمتها ، ويلحفون عليها في الوفاء بما وعدت به . هنالك أصلحت حذاءها وصفّفت شعرها وجلست على حجر كبير وتحلّق حولها الإخوان الثلاثة ، ثمّ كتمت بضع عبرات طفرت الى عينيها ، وأنشأت تقول بصوت جهير موزون قصة حياتها .

« في اقليم الأندلس المجاور لنا مدينة صغيرة باسمها يتلقّب دوق[1] ، وبلقبه هذا صار من عداد من يسمّون عظماء اسبانيا . ولهذا الدوق ولدان : الأكبر ، وهو وارث أملاكه ، هو

---

(١) يرى كلمنثين أن المقصود لعلّه دوق أسونا duque de Osuna ، وإن كان لم يعثر في تاريخ القرن السادس عشر على الأصل الذي رسم على نحوه دون فرنندو . ولكنّ أبحاث فرنشكو رودريجث مرين في هذا الموضوع دلت على أنّ لهذه الأسماء كلها أصولاً تاريخية واقعية : فإن كردنيو هو Gardenas de Gordoba ودون فرنندو هو don pedro Giron الابن الثاني لدوق أسونا الاول ، ودوروتيه هي Dona Maria de Torrs التي اغتصبها دون بدرو خيرون . وهذه الغراميّات جرت في السنوات ١٥٨٢ ، ١٥٨٣ . أمّا ثربنتس فقد بدأ تجواله في مدن وقرى الأندلس في سنة ١٥٨٧ . ولم يستطع دون بدرو الزواج من ماريا دي طوريس هذه . ولمّا عيّن أبوه نائباً للملك في نابلي ذهب معه ومات أعزب في سنة ١٥٨٣م .

أيضاً وارث صفاته الجميلة فيما يبدو ، أمّا الأصغر فلا أدري هو وارث لماذا ، اللهم إلا أن يكون وارث خدع جلالون وغدر وليدو . وأهلي أتباع لهذا الدوق ، متواضعو الأصول ولكنّهم ذوو ثراء ضخم ، فلو كانت مواهبهم الطبيعية بقدر ثرواتهم المادّية لما كانوا في حاجة الى المزيد ، ولما كنت أنا في خوف من الوقوع في المحنة التي أنا الآن فيها ، لأنّ مرجع شقائي كلّه ربما كان لأنّهم لم يولدوا من أصل نبيل . نعم هم ليسوا من انحطاط الأصل بحيث يخجلون ، ولكنّه ليس من العلو بحيث يزيل من فكري أنّ مردّ تعاستي كلّها هو تواضع أصلهم . إنهم مزارعون ولكنّهم من دم صريح لم يهجن بأي جنس دنيء ، وهم كما يقولون نصارى عريقون من أعرق الأصول المسيحية ، وقد بلغوا من العراقة ماجعل ثرواتهم ومظاهر ترفهم تدعو الى تلقيبهم بالأشراف بل بالنبلاء . ولكن أكبر ثروة وأسمى نبالة افتخروا بهما أنني ابنتهم . ولهذا ، ولمّا لم ينجبوا ورثة غيري وكانوا دائماً يعزونني ، أقول لهذا كنت أعزّ فتاة دللها أبواها . كنت المرآة التي فيها ينظران ، والعصا التي تتوكّأ عليها شيخوختهما ، والهدف الوحيد الذي تتجه اليه كل أمانيهما التي حسبوها إرادة السماء ، ولم تكن أمانيّ أيضاً تنحرف عن أمانيهما وفاقاً لإحسانهما قبلي . وكما كنت المسيطرة على قلبهما ، كنت أيضاً صاحبة الأمر في أموالهما . كنت أنا التي تعيّن الخدم والتي تطردهم ، وكل الحسابات المتعلّقة بما كانوا يبذّرون أو يحصدون كانت تمر بين يدي . فطواحين الزيت ، ومعاصر الخمور ، وقطعان الماشية كبيرها وصغيرها ، وخلايا النحل ، وبالجملة كل ما يمكن أن يملكه مزارع غني مثل أبي كانت رعايته مكفولة منّي . كنت ناظرة الضيعة وسيّدة البيت ، وكنت أؤدّي وظيفتي هاتين باهتمام بالغ ولذّة شديدة لا أقدر على وصفهما . ومابقي لي من الفراغ بعد أن أعطي أوامري للأسطوات والتملية وأنفار اليومية ، كنت أزجيه في الأعمال التي تتناسب وكوني امرأة : شغل الإبرة ودف التطريز ، والمنسج أحياناً كثيرة . فإذا تركت هذه الأشغال طلباً للترويح عن نفسي كنت استمتع بقراءة الكتب الجيدة أو بالعزف على الهارْبْ ، إذ دلّتني التجربة على أن الموسيقى تهدىء النفوس المتعبة وتريح من عناء أعمال الذهن . ـ تلك كانت الحياة التي أقضيها في بيت أهلي ، وصفتها بكل تفاصيلها لاتباهياً منّي وافتخاراً بثرائي ، بل لكي تدركوا أنّه لم يكن ذنبي أن أنحدر الى هذه الحالة التي تشاهدونني عليها بعد أن كنت في منزلة عالية . وعبثاً قضيت عمري وسط هذه المشاغل وفي عزلة قاسية تضاهي عزلة الدير لايراني أحد فيما كنت أظن اللهم إلا أهل البيت ، لأنني في الأيام التي كنت أذهب فيها لحضور مراسم القدّاس كنت أذهب مبكّراً جداً تصحبني أمّي وقهرماناتي ، وعلى وجهي نقاب وفي نفسي من الخجل والاستحياء مالم أكن أرى معه من الأرض أكثر

مماتطأه قدماي . ورغم ذلك فإنّ عيون الحب ، أو البطالة ، بتعبير أدق ، وهي أحدُ نظراً من عيون اللنْقُس ، قد أسلمتني الى مطاردات دون فرنندو ، وهذا اسم الابن الثاني للدوق الذي حدّثتكم عنه » .

ولم يكد فمها ينطق باسم دون فرنندو حتّى تغيّر وجه كردنيو وبدأ لونه يرتعد وبدنه يتغيّرالى حد ظنّ معه القس والحلاّق لمّا شاهداه أنّه قد انتابته إحدى نوبات جنونه التي سمعوا أنها كانت تنتابه بين الحين والحين . ولكن كردينيو لم يحدث منه إلا أنه كان العرق يتصبّب منه وكان يرتعد دون أن يتحرّك من مكانه ، ويثبّت نظراته في الفلاحة الحسناء وهو يتخيّل من هي . ولكنّها لم تنتبه لحركات كردنيو المتشنّجة واستمرّت في روايتها تقول :

« ولم تكد عيناه تلمحاني حتّى شعر- حسبما قال فيما بعد - باشتعال الغرام الذي كشف عنه فيما بعد . وحتّى أصل الى ختام قصة آلامي ، سأغفل الخطوات التي خطاها دون فرنندو للإفضاء إليّ بأمانيه . فرشا كل من في البيت ، وانهال على والدي بالهدايا والنعم ، وكانت الأيام أعياداً مستمرّة في الشارع الذي أقطن فيه ، وفي الليل كانت أناشيد المساء لاتدع النوم يطرق عيون أحد ، وكان يرسل مالاحصر له من البطاقات فتصل الى يدي لست أدري عن أي طريق ، وكلها مملوءة بكلمات الغرام ، وفيها من الألفاظ أقل مما فيها من الوعود والأقسام المغلظة . ورغم هذا فلا يمكن لأي شيء من هذا أن يليّن قلبي ، بل بالعكس كان يزيدني صلابة وكأنه ألد أعدائي ، حتّى كانت المجهودات التي يبذلها لإغرائي وكأنها بذلت لإثارتي وإثارة حنقي عليه . وليس ذلك لأنني كنت لا أعترف بقيمة دون فرنندو الشخصية أو لأنني كنت أريد أن أبادل عنايته بالإهانة لشخصه ، بل بالعكس كنت أشعر برضا تام حينما أجد تقدير فارس نبيل كهذا وحبّه لي ، ولم أستشعر ضيقاً من قراءة إطرائه لي في رسائله : لأنني أعتقد أننا معشر النساء ، مهما تكن دمامتنا ، نرتاح مدى الارتياح لدى سماع من ينعتنا بالجمال . لكنّ الأمر الذي حماني من الإغراء والميل هو حرصي على شرفي والنصائح المتّصلة التي كان أبواي يسديانها إليّ وقد استكشفا بسهولة نوايا دون فرندو الذي لم يبذل جهداً في الإفصاح عنها لدى جميع الناس . كان أبواي يقولان لي أنهما أودعا في فضيلتي كل شرفهما واعتبارهما ، وأن عليّ أن أقيس المسافة التي تفصل بيني وبين دون فرنندو لأدرك أن أغراضه كانت تتجه الى ملذّاته لا الى مصالحي على الرغم من أنّه كان يزعم العكس . وقالا لي إنني إذا كنت أريد أن أضع حدّاً لمحاولاته وأن أرغمه عن العدول عن ملاحقاته المهينة ، فإنهما على استعداد على تزويجي في الحال بمن أودّ اختياره من أهل المدينة أو من النواحي المجاورة ، فالناس جميعاً يرجون الكثير من ثرائهما ومن حسن سمعتي . هذا

الوعد ونصائحها التي شعرت بسدادها قوت عزيمتي الى حد أنني لم أشأ أن أردّ بكلمة يمكن أن يستشف منها دون فرنندو ولو من بعيد أي أمل في تحقيق أمانيه . وكل هذه الاحتياطات التي حسبها ازدراءً مني له قد ألهبت شواظ رغباته الآثمة : فهذا هو النعت الوحيد الذي أستطيع أن أصف فيه حبّه الذي أعلنه لي ، لأنّه لو كان حبه كما يجب ، لما أتيحت لي فرصة التحدّث إليكم عنه في هذه اللحظة . وأخيراً علم دون فرنندو أن أهلي يريدون تزويجي حتّى ينتزعوا منه كل أمل في الظفر بي ، أو على الأقل ليكون لي حرّاس يدافعون عنّي غيرهما . وهذا الخبر أو هذا الظن كانا كافيين ليحملاه على القيام بما سأرويه لكم الآن :

«ذات ليلة كنت وحدي في مخدعي ليس معي غير إحدى وصيفاتي ، وقد أغلقت الأبواب بكل عناية ، خوفاً من أن يسبب أقل إهمال في وضع شرفي موضع الخطر . وفجأة ودون أن أستطيع أن أتخيّل ماذا عسى أن يكون ، وسط عديد المشاغل وفي خلوة وصمت ، ظهر أمامي . فسبّب مرآه اضطراباً سلب من عيني بصرها ومن لساني نطقه ، حتّى إنّي لم أستطع أن أصرخ طلباً للنجدة ، وأعتقد أنه لم يكن ليدعني أصرخ ، لأنّه تقدّم اليّ في الحال وطوّقني بذراعيه ومنعني الاضطراب من دفعه عنّي ، وأنشأ يقول لي بعبارات لا أدري معها كيف يبرع الكذب في تزويقها حتّى تبدو كالحقائق . وشاء هذا الغادر أن يتبع كلماته بالدموع ليموّه عن صدق شعوره ، وبالزفرات يؤكّد بها سلامة نواياه . وأنا البنت المسكينة الوحيدة بين أهلي ودون خبرة في مثل هذه المواقف بدأت ـ لست أدري كيف ـ بدأت أصدّق هذه الأكاذيب ، ولكن دون أن تثير في نفسي أكثر من مجرّد الشفقة على زفراته وعبراته ، ولهذا وحينما ثبت الى رشدي بعد الوهلة الأولى قلت له بشجاعة لم أكن أصدّق أنني لاأزال أملكها : إن كانت حالي ياسيدي بين ذراعيك كحالي بين مخالب ليث غضوب وكان عليّ لتخليص نفسي بيقين أن أفعل أو أقول شيئاً ضد الفضيلة ، فلن يكون من الممكن أن أفعله أو أقوله تماماً مثلما أن ما وقع ألا يكون قد وقع . وإذن فإذا كنت تمسك بجسمي مشدوداً بين ذراعيك فأنا أيضاً أمسك بروحي محفوظة داخل عواطفي الطيبة وهي تختلف عمّا سترى من عواطفك إذ كنت تريد أن تستخدم العنف في تحقيقها . إنني من أتباعك ولكنّي لست من عبيدك : ونبالة جنسك لاتعطيك الحق في احتقار تواضع جنسي ، وتدنيس شرفه ، وإنّي لأقدّر نفسي ، أنا الفلاحة الوضيعة ، أنني مثلك أنت السيّد النبيل . وما لقوّتك من سلطان عليّ ولالثرائك نفوذ عندي ، وكلماتك لا تستطيع أن تخدعني ، ولا زفراتك ودموعك تثير الشفقة في نفسي . ولكنّي لو وجدت شيئاً مما أتيت على ذكره في شخص يختاره أبواي

زوجاً لي ، فإنّ إرادتي ستكون طوع إرادته وسأخلص له الى الأبد . فحتّى لو لم يشأ قلبي مادام شرفي سليماً فإنني أمنح عن طيب خاطر ما تريد أنت الآن أن تستولي عليه بالقوة . وأريد من هذا أن أقول إنني لن أمنح أحداً شيئاً إلا إذا كان زوجي الشرعي .

« فقال الفارس الغادر : إذا لم يكن في الأمر إلا هذا لإرضائك فها أنذا يا دوروتيه (وهذا اسم البائسة التي تتحدّث إليكم الآن) أمدّ إليك يدي وأقسم أن أكون لك زوجاً وأشهد السماء على ذلك ولا يخفى عليها شيء ، كما أشهد صورة أم الإله المقدّسة القائمة أمامي الآن » .

وفي اللحظة التي سمعها كردينو تذكر دوروتيه انتابته حركة تشنّج وأيقن تمام اليقين بالرأي الأوّل الذي خطر بباله عنها . ولكنه لم يشأ أن يقطع حبل القصة التي توقّع والتي كان يعرف ختامها ، بل قال لها : « ماذا ياسيّدا هل اسمك دوروتيه ؟ لقد سمعت أخباراً عن فتاة تسمّى بهذا الاسم ، كانت محنتها قريبة لمحنتك . ولكنّ أتمّي قصّتك وسيأتي الوقت الذي أفضي فيه إليك بأمور ستسبّب لك من الدهشة بقدر ماتثير من الشفقة » .

ولدى سماع دوروتيه لهذه الكلمات ألقت نظراتها إليه وتأمّلت ملابسه الزريّة الغريبة ، ورجته إذا كان يعرف شيئاً عنها أن يقوله في الحال ، ثمّ استمرّت تقول : « كل ماتركه لي الحظ هو الشجاعة على تحمّل المصائب التي تحلّ بي ، وأنا واثقة أنه لاتوجد مصيبة يمكن أن تزيد من شقائي » . ـ فأجابها كردنيو : « كنت أودّ ألا أضيّع دقيقة يا سيدتي لأقول لك ما أظنّه ، إذا كنت متأكداً أنني لا أخطئ التقدير ، ولكن الفرصة للإفضاء بذلك لم تحن بعد ، ولا يهمّك مطلقاً أن تعرفي ذلك بعد » . فقالت دوروتيه : « كما تشاء ، إنّي عائدة الى استئناف حديثي » .

« وأمسك دون فرنندو بصورة العذراء الموجودة في الغرفة ووضعها أمامنا لتكون شاهدة على خطبتنا وحلف لي بالأقسام المغلظة والأيمان المؤكّدة أنّه ليتعهّد أن يتزوّجني . لكن قبل أن يتم النطق مما حذّرته مما هو بسبيل فعله ولينظر فيما عسى أن يكون من غضب أبيه إذا علم أن ابنه سيتزوّج فلاحة من أتباعه ، ولايعمينّه جمالي ، لأنّ جمالي ليس عذراً كافياً عن خطيئته ، وقلت له إذا كان الحبّ يدعوك الى الاحسان اليّ ، فعليه أن يدعني أقترن بمن في مثلي منزلتي : لأنّ الزواج غير المتكافئ لا يمكن أن ينجح أبداً ، والسعادة التي يعطيها لا يمكن أن يطول أمدها . كل هذه الحجج والأسباب أوضحتها له هي وغيرها مما لا أذكره ، لكنّها لم تحد به عن خطّته ، مثله مثل من يستدين وفي نيّته ألا يدفع فلا يكترث لشروط الدين . وفي هذه اللحظة تحدّثت الى نفسي وقلت لها : « كلا ، لست أوّل فتاة يرفعها الزواج

من منزلة وضيعة الى منزلة عالية ، وليس دون فرنندو أوّل من أعماه الحب وأضلّته مفاتن الجمال فحمله على أن يتزوّج زواجاً لايتناسب مع علو أصله . ومادمت لا أريد أن أغيّر الدنيا ولاأن أخلق عادات جديدة ، فعندي الحق في اقتناص هذا الشرف الذي هيّأه لي الحظ ؛ فحتّى لو لم يدم غرامه بي الى أطول من تحقيق شهواته ، فإنني سأكون زوجة أمام الله ، كما أنّي إذا أردت إبعاده باحتقاري إياه وجفوتي عنه لصار الى حال ينسى فيها كل واجب ويستعمل القوة والعنف ، فأبقى بعد ذلك دون شرف ، بل ودون عذر مما ارتكبت من خطأ في نظر من لا يعرفون كيف قاومته . فما هي الحجج التي تستطيع أن تقنع أبويّ وغيرهما من الناس أن هذا الرجل قد دخل مخدعي دون إذني ولا برضاي ؟ » ـ كل هذه الأسئلة والأجوبة أثارها خيالي خلال لحظة ، بيد أنّ الشيء الذي بدأ يهزّني ويدفعني الى الهلاك دون أن أدري هو تلك الأقسام التي أقسم بها دون فرنندو ، والشهود الذين استشهد بهم ، والدموع التي ذرفها بغزارة ، وأخيراً مفاتن وجهه الوضيء وقد عزّزها حب صادق ، فكان هذا كلّه قادراً على أن يليّن القلب الحر الأبي العاقل مثل قلبي . دعوت وصيفتي لتكون شاهدة في الأرض الى جانب من استشهد بهم من السماء ، فعاد دون فرنندو يجدّد أقسامه الأولى ويؤكّدها ، ويحلف بقدّيسين آخرين ، ويستنزل آلاف اللعنات على رأسه إذا لم يف بعهده ، وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع ، واشتعل فمه زفرات وأحكم ضمّي بين ذراعيه وكنت لم أستطع أن أخلّص من قبضتهما لحظة واحدة ، وأخيراً حينما غادرت وصيفتي الغرفة ، أتمّ تجريدي من شرفي وجريمة غدره .

«ولم يطلع صبح الليلة التي فقدت فيها شرفي بالسرعة التي كان يرجوها دون فرنندو ، كما خيّل اليّ ؛ فإنّه بعد أن أرضى شهواته الأثيمة لم يكن يودّ إلا البعد قدر المستطاع عن المكان الذي ارتكب فيه فعلته النكراء هذه . أو هذا هو ماخيّل اليّ حينما شاهدت دون فرنندو يعجّل الرحيل . وهذه الخادمة التي اقتادته الى مخدعي هي عينها التي اقتادته الى خارج المنزل قبل أن يتنفّس الصبح . ولمّا ودّعني كرّر مراراً توكيده لي بأن أطمئن الى ما وعد به حتّى اعتقدت صدق إيمانه وإخلاصه فيها ، وإن كان هذه المرة يقولها بحماسة أقل مما فعل حين مجيئه . وتوكيداً لكلامه انتزع من إصبعه خاتماً ثميناً وضعه في إصبعي . وأخيراً تركني ، وبقيت أنا على حال لست أدري أكانت حال حزن أم ابتهاج . وكل ما أستطيع أن أقوله أنني بقيت حائرة حالمة قد خرجت عن طوري تقريباً بسبب هذا الحادث ، دون أن يكون لديّ من الشجاعة ، بل من الفكر ما يجعلني أنتهر وصيفتي لخيانتها إيّاي بإخفائها دون فرنندو في غرفتي ، ذلك أنني لم أستطع أن أقرّر آنذاك

ما إذا كان قد حدث شرٌ أو خيرٌ . وقلت لدون فرنندو ساعة ارتحالةإن في وسعه اتخاذ نفس الطريق لزيارتي في الليل سراً مادمت قد أصبحت له ، الى أن يتيسّر إعلان زواجنا . ولكنه لم يعد إلا في الليلة التالية فحسب ، ولم أستطع أن أراه بعد ذلك ، لا في الطريق ولا في الكنيسة ، طوال شهر كامل أتعبت نفسي عبثاً في سبيل العثور عليه ، وإن كنت قد علمت علم اليقين أنه لم يبرح المدينة وأنّه كان يمارس الصيد في معظم الأوقات وكان بالصيد شديد الولوع . وإنّي لأعرف ، ويأسفاه كم كانت هذه الأيام طويلة عليّ وساعاتها مريرة ، وأعرف أنني بدأت أشك في إخلاص نيّته بل توقّفت عن تصديق عهده . وأعرف كذلك أنّ خادمتي قد سمعت منّي آنئذ التقريع الذي لم أوجهه إليها من قبل لجرأتها على فعلتها هذه ، وأخيراً أعلم أنني كنت أشتد على نفسي لأحبس دموعي وأستعيد رباط جأشي ، حتّى لاأحمل أبويّ على سؤالي عن سرّ حزني ولا أحمل نفسي على الكذب معهما . ولكن هذا الوضع المصطنع المغتصب لم يستمر طويلا . فسرعان ماجاء الوقت الذي فقدت فيه كل صبر ودست بأقدامي على كل اعتبار واحتشام ، فأطلقت لغضبي العنان وأعلنت سخطتي . وكان ذلك بعد مدة من الزمان لمّا أن انتشر بيننا خبر يقول إن دون فرنندو قد تزوّج من المدينة المجاورة بفتاة رائعة الجمال نبيلة المحتد . ولكنّها لم تكن من الثراء بحيث تطمع بمالها في مثل هذا القران السامي . وكان يقال إن اسمها لوسنده ، وتروى أشياء غريبة عمّا جرى أثناء مراسيم الخِطبة » .

فلمّا سمع كردينو اسم لوسنده لم يفعل إلا أن لوى كتفيه وقطّب حاجبيه وعضّ على شفتيه وأطلق على خدّيه جدولين من الدموع . بيد أنّ لوسنده لم تقطع حبل قصّتها واستمرّت تقول :

« وصل هذا النبأ الأليم الى مسامعي سريعاً ، ولكنّ قلبي بدلاً من أن يتجمّد لدى سماعه اشتعل بغيظ بلغ من شدّته أنني كنت على وشك الخروج من المنزل والسير في الطرقات العامة في المدينة وأنا أصيح بالخيانة التي كنت ضحيّة لها . ولكن هذا الغيظ هدأه خاطر سنح لي عن خطّة قمت بتنفيذها في الليلة التالية . فارتديت هذه الملابس التي أعطانيها أحد خدم أبي ، وهو من أولئك الذين يسمّون الزغل[1] Zagal عند المزارعين ، وقد أفضيت اليه بمغامرتي كلها البائسة والتمست منه أن يصحبني الى المدينة التي رجوت أن أجد فيها خصمي . فراح هذا الزغل يلومني على جرأة خطّتي وينصحني بالعدول عنها ،

(١) الكلمة الاسبانية Zagal مأخوذة من العربية هذه ، ويطلق في الاسبانية على « الفتى القوي الضحوك المملوء حيوية ، وعلى الراعي الشاب ، وعلى الصبي الذي يمسك السرج على عربات الحمل ويساعد الاسطى في مختلف الأعمال .

ولكنّه لمّا رأى تصميمي التام تطوّع لمرافقتي حتّى نهاية الدنيا ، كما قال . هنالك وضعت في حقيبة من التيل لباس امرأة ونقوداً وجواهر لاستخدامها عند الحاجة ، وفي جنح الليل ودون أن أقول شيئاً عن رحيلي لخادمتي الخائنة تركت البيت بصحبة الزغل وفي رأسي آلاف الأفكار المضطربة . فسرت في طريق المدينة على قدميّ ، ولكنّ الرغبة في الوصول جعلتني أطير حتّى أستطيع أن أسأل دون فرنندو بأي وجه تصرّف هذا التصرّف ، هذا إن لم استطع أن أمنع من حدوث ماإعتقدت أنه حدث الى غير رجعة . فبلغت وجهتي في يومين ونصف يوم ودخلت المدينة وأنا أسأل عن منزل أهل لوسنده . وقد أجابني أوّل من سألته بجواب أعطاني أكثر مما كنت أريد السؤال عنه . دلّني على منزلها وقصّ عليّ كل ماجرى أثناء خطبتها ، وقد ذاع هذا الأمر في أرجاء المدينة حتّى أصبح حديث الناس المتداول على كلّ الأفواه ومادة أسمارهم . فقال لي إنه في الليلة التي احتفل فيها بزواج دون فرنندو من لوسنده بعد أن أجابت للقبول بالزواج منه قد أصابها إغماء طويل وأنّ زوجها حينما حلّ عناقه منها لتستنشق الهواء وجد بطاقة بخط لوسنده تقول فيها أنها لا يمكن أن تكون زوجة لدون فرنندو لأنها زوجة كردينو ـ وكردينو هذا فارس نبيل من نفس المدينة ، حسبما قال لي هذا الراوي ـ وإذا كانت قد وافقت على الزواج من دون فرنندو فما ذلك إلاّ لإطاعة أبويها . وفهم من هذه البطاقة فيما تضمّنته أن لوسنده قد قررت الانتحار عند إتمام مراسم الخطبة وأبدت حججها التي تحملها على التخلّص من الحياة . وهذه النيّة قد تأيّدت ـ فيما قيل ـ بوجود خنجر أخفته تحت ملابس زفافها . هنالك أدرك دون فرنندو أن لوسنده قد عبثت به وأهانته . فانقضّ عليها قبل أن تفيق من إغفائها ، وأراد أن يطعنها بنفس الخنجر الذي وجدوه في صدرها . وكان على وشك أن يطعنها لولا أن منعه من ذلك الأهل والحاضرون . ويضاف الى هذا أنّ دون فرنندو خرج في الحال ، وأنّ لوسنده لم تفق من إغمائها إلاّ الغداة ، ولمّا أفاقت قصّت على أبويها كيف أنّها الزوجة الحقيقية لكردنيو هذا الذي ذكرته . وعلمت بذلك ، من الشائعات الرائجة ، أنّ كردنيو اكتشف وجوده حاضراً مراسم الخطبة ، ولمّا رأى سيدته قد عقد قرانها ـ وهو أمر لم يكن يعتقد أنّه ممكن ـ غادر المدينة يائساً ، بعد أن كتب رسالة اشتكى فيها من الإهانة التي أصابته بها لوسنده ، وأعلن أنّه لن يعود . كل هذا كان حديثاً شائعاً في المدينة ، ولم يكن للناس حديث غيره . وزاد الحديث سعة لمّا علم الناس أنّ لوسنده اختفت من منزل أبيها ، ومن المدينة نفسها ، فقد بحثوا عنها عبثاً في أنحائها ، حتّى فقد أهلها صوابهم ، لما أعيتهم الذرائع للبحث عنها . فزادت كل هذه الأخبار في آمالي ، واعتقدت أنّ عدم عثوري على دون فرنندو أشدّ

إبهاجاً من العثور عليه متزوّجاً . وبدا لي في الواقع أنّ مصيبتي ليست بغير دواء ، وحاولت إقناع نفسي أنّه ربما وضعت السماء هذه العقبة غير المتوقّعة أمام هذا الزواج الثاني كيما يتذكّر عهوده بالنسبة الى الزواج الأوّل ولحمله على التفكير في أنّ مسيحي يهمّه خلاص روحه أكثر من كل الإعتبارات الانسانية . وأدرت هذه الخواطر كلّها في رأسي ، وأنا أواسي نفسي دون أن يكون ثمّ داعٍ للمواساة ، وأحلم بالآمال البعيدة لأقوى على حياةٍ صرتُ الآن أمقتها .

«وبينما كنت أتجوّل في المدينة دون أن أعرف ماذا أقرّر ، لأنّي لم أقابل دون فرنندو ، سمحت الصائح العام يعلن في الطرقات عن مكافأة سخيّة لمن يعثر عليّ أنا ، ذاكراً أوصافي : سنّي وقامتي وملابسي . وسمعتهم يقولون إن الخادم الذي صحبني قد اختطفني من منزل أهلي . وهذه ضربة جديدة نفذت الى صميم نفسي ، إذ رأيت الى أي درك من الإنحطاط هبطت سمعتي وأنا في حالة من اليأس بالغة ، فلم يكفِ أنني فقدت سمعتي بهروبي بل زاد الأمر نكراً بأن جعلوا شريكي في ذلك شخصاً وضيع المنزلة لايمكن أن يخطر ببالي أن أهرب معه . فلم أكد أسمع هذا الإعلان حتّى تركت المدينة يتبعني خادمي ، وبدأ خادمي يبدي تردّداًفي الإخلاص المطلق الذي تعهّد لي به . وفي الليلة نفسها نفذنا الى أعماق هذه الجبال خشية أن يكتشف أحد من الناس أمرنا . ولكنّ المصائب تتداعى ، كما يقولون ، ونهاية مصيبة هي في العادة بداية لمصيبة أكبر . وهذا ماحدث لي ، إذ لم يكد خادمي الطيّب الذي كان حتّى ذلك الوقت أميناً وفيّاً يخلو بي في هذه القفار حتّى أراد انتهاز الفرصة التي هيأتها له خلوتنا المطلقة ، مدفوعاً بنزالته أكثر من أن يكون مدفوعاً بمفاتني . ودون توقير لشخصي أو خشية من الله ، تجاسر على أن يوجّه اليّ عبارات قبيحة ، ولمّا رأني أرفض عباراته الوقحة بازدراء بالغ ، توقّف عن التضرعات التي بدأ محاولاته بها ، وراح يستعمل القوة معي . ولكن السماء العادلة التي تأتي بالعون لذوي النوايا الطيبة ولاتبخل عليهم بالنجدة إلا نادراً ، قد أعانتني حتّى استطعت رغم قلة قوّتي أن أدفع به في هاوية تركته فيها ، حيّاً أو ميّتاً لست أدري ـ وهذا دون كبير مشقّة . وفي الحال نفذت الى أعماق هذه الجبال بأسرع مما بدا أن التعب والخوف يسمحان به ، دون غرض آخر غير الإختفاء فيها والنجاة من أهلي أو ممن يبعثون للبحث عنّي . ويرجع هذا كلّه الى قبل عدّة أشهر . وسرعان ماالتقيت براعي قطعان حسبني راعياً واقتادني الى قرية صغيرة في قلب الجبل . وبقيت في خدمته حتّى ذلك الحين ، عاملة على البقاء في البرّية طوال النهار حتّى أخفي هذا الشعر الذي كشف لكم عن حقيقتي دون أن أعلم . لكنّ مهارتي

وحرصي ذهبا هباءً في النهاية . إذ اكتشف سيّدي أنني لست صبيّاً ، وأحسّ بنفس الشهوات الأثيمة التي دارت في نفس خادمي . ولكنّ الحظ لا يعطي وسيلة الخلاص دائماً الى جانب الخطر ، ولم أجد هاوية ألقي فيها سيّدي بعد أن القيت في مثلها خادمي ، فوجدت أنّ الأفضل أن أهرب واختفيت مرة أخرى في هذه القفار الموحشة ، بدلاً من أن امتحن معه قواي أو انتهاري له . فعدت إذن أبحث ، في هذه الصخور والغابات ، عن مكان أستطيع فيه أن أبث ـ دون خطر ـ شكاتي الى السماء وأذرف دموعي ، وأسترحمها أن تعطف عليّ في محنتي ، وأن تهبني إحدى الحسنيين : فإمّا أن تنهي حياتي ، أو تدعها طليقة في هذه الخلوات حيث تدفن ذكرى منكودة كانت ـ عن براءة ـ موضوعاً لألسن السوء تنتاش سمعتها » .

الفصل التاسع والعشرون

في الحيلة اللطيفة التي بُذلت لاستخلاص فارسنا العاشق من المجاهدات القاسية التي كان يقوم بها

« هذه ، يا سادتي ، القصة الحقيقية لمغامراتي الأليمة . فشاهدوا واحكموا الآن ما إذا كانت الزفرات التي سمعتموها تنبعث من كلماتي ، والدموع التي شاهدتموها تنحدر من عيوني كان ثمّ مايبرّر انطلاقها بغزارة . إذا نظرتم في طبيعة محنتي فسترون أنّ كل تعزية لاطائل تحتها ، لأنّ العلاج مستحيل . لهذا لست أسألكم إلاّ أمراً واحداً من السهل عليكم أن تحقّقوه لي ، ألا وهو : أن تدلّوني على موضع أستطيع أن أقضي فيه عمري دون أن أتعرّض لفقده في كل لحظة بسبب الخوف ودواعي الاضطراب ، لأنّي أخشى أن يعثر عليّ الذين يبحثون عنّي . نعم أنا أعلم جيّداً أن حنان والديّ عليّ حنان بالغ يجعلهما يحسنان استقبالي ، بيد أنّي أشعر بعار شديد من مجرّد تفكيري في أنّي سأبدو في حضرتهما على غير ما كان يأملان ، حتّى إنّي لأفضّل أن أبعد عنهما نهائيّاً عن أن أقرأ في سيمائهما أنهما لم يعودا يشهدان في وجهي الطهارة والبراءة اللتين كانا ينتظرانهما من ابنتهما » .

ولمّا أتمّت هذه الكلمات سكتت ، وعلتْ وجهها حمرة أظهرت بجلاء ما امتلأت به نفسها من أحزان واضطراب . أمّا الذين استمعوا الى قصّتها فقد أحسّوا في أعماقهم بالعجب والشفقة . وأراد القسُّ المبادرة الى مواساتها ونُصحها ، ولكنّ كردينو سبقه وقال :

ـ ما هذا يا سيّدتي! أأنت دوروتيه الجميلة ، الابنة الوحيدة لكلينر دوالثري!

فدهشت دوروتيه لمّا سمعت اسم أبيها وشهدت ضآلة مظهر من نطق به ، فنحن نعلم كيف كان ملبس كردنيو آنئذ .

فقالت دوروتيه : من أنت يا أخي حتّى تعرف اسم أبي ؟ إنني لم أذكر اسمه مرة واحدة خلال حديثي كلّه ، إذا لم تخنّي الذاكرة .

فقال كردنيو : أنا ذلك البائس الذي قالت عنه لوسنده أنه زوجها ، حسبما قلت

ياسيّدتي ، أنا كردنيو البائس الذي وضعه غدر من ألقى بك في هذه الحال ـ وضعه في الحال التي ترينني عليها الآن : عارياً ممزّقاً ، محروماً من كلّ عزاء على الأرض ، وأفظع من هذا محروماً من العقل ، لأنني لاأملك عقلي إلاّ في اللحظات القليلة التي تشاء السماء أن تجعلني أنعم به فيها . أجل يادوروتيه ، أنا شاهد سفالات دون فرنندو وضحيّتها ، أنا الذي انتظرت حتّى نطقت لوسنده بقبولها القاتل الزواجَ من دون فرنندو ، ولكنّي لم أكن من الشجاعة لأنتظر حتّى أرى الى أي شيء سينتهي إغماؤها وأرى اكتشاف البطاقة التي أخفتها في صدرها ، وذلك لأنّ روحي لم يكن فيها من القوّة ماتستطيع معه احتمال هذه المصائب كلّها دفعة واحدة . لقد غادرت المنزل لمّا أن عيّل صبري وتركت لصاحبي كتاباً رجوته أن يسلّمه الى لوسنده يداً بيد ، وجئت الى هذه القفار على قصد أن أنهي فيها حياتي ، حياتي التي صارت منذ ذلك الحين وكأنّها ألد أعدائي . لكنّ السماء لم تشأ أن تنتزع منّي حياتي ، واقتصرت على أن انتزعت منّي عقلي ، ولعلّها احتفظت بي لألقاك اليوم . لأنّ إذا كان كل ما قلته صحيحاً ـ وهذا ما أعتقد ـ فمن الممكن أن تكون السماء قد هيأت لكلينا نهاية أفضل لمصائبنا ، أفضل مما كنّا نظن . فإن صحّ أنّ لوسنده لاتستطيع أن تتزوّج دون فرنندو ، لأنّها لي ، كما أعلنت ذلك بكل صراحة ، ولايستطيع دون فرنندو الإقتران بها لأنه لك ، ففي وسعنا أن نرجو أن تعيد لنا السماء ما هو لنا ، لأن هذه الأشياء لاتزال موجودة لم تتحطّم ولم يمتلكها الغير . والآن وقد بقيت لنا هذه السلوى غير المستندة الى خيالات جنونية وأماني وهمية فإنّي أتضرّع إليك ياسيّدتي أن تتخذي في خاطرك قراراً جديداً شبيهاً بالقرار الذي أفكّر في أن أتخذه لنفسي ، وأن تقتصري على الأمل في مستقبل أفضل . أمّا عن نفسي فإنّي أقسم بشرفي وديني ألا أتركك قبل أن تُردّي الى دون فرنندو . فإن لم أستطع إقناعه بأن يعترف لك بحقوقك عليه ، إقناعه بالحسنى والبرهان ، فسأستعمل برهاناً آخر يمليه مركزي بوصفي رجلاً مهذّباً ، وذلك أن أدعوه لمبارزتي بسبب ماأصابك به من غير سبب ، دون أن أتذكّر إهاناته لي ، تلك الإهانات التي أترك عقابه عليها للسماء ، حتّى لاأشغل نفسي إلا بالإنتقام من إهاناته لك على الأرض » .

وزاد كلام كردنيو هذا من دهشة دوروتيه فلم تدر كيف تشكر له تطوّعه لخدمتها حتّى كادت أن تجثو عند قدميه وتقبّلهما ، بيد أنّ كردنيو منعها من ذلك . وتكلّم عنها حامل الإجازة ، فحبّذ مشروع كردنيو وأقنعهما ـ بالنصح والرجاء ـ أن يصحباه الى قريته للتزوّد بأشياء تنقصهم والاتفاق على خطة للبحث عن دون فرنندو وإعادة دوروتيه الى منزل أهلها ، أو عمل أنسب الأشياء في هذا الموقف ـ فوافق كردنيو ودوروتيه على ما اقترحه شاكرين .

والحلاّق الذي اعتصم بالصمت حتّى ذلك الوقت ألقى هو الآخر كلمة صغيرة وتطوّع عن طيب خاطر لخدمتهما قدر مايستطيع . ثمّ قصّ بإيجاز السبب الذي دعاهما الى الحضور الى هذا المكان ، وجنون دون كيخوته الغريب ، وهما كانا في انتظار حامل سلاحه الذي أرسلاه بحثاً عنه . هنالك تذكّر كردينو ـ وكأنه في حلم ـ تذكّر النزاع الذي وقع له مع دون كيخوته ، وروى هذه الحادثة دون أن يستطيع أن يبيّن سبب هذا النزاع . وفي هذه اللحظة سُمعت نداءات ، تعرّف فيها القس والحلاّق صوت سنشو پنثا الذي لم يجدهما في المكان الذي تركهما فيه فراح يناديهما بأعلى صوته . فذهبا جميعاً لملاقاته ، ولمّا سألوه باهتمام عن أنباء دون كيخوته ، روى لهم سنشو كيف وجد مولاه : عارياً عليه قميص فقط ، جاف العود ، منقوف البدن ، شاحب اللون ، يموت من الجوع ، ولكنّ يتنهّد دائماً من أجل سيدته دلثنيا . وأضاف :

ـ « ولقد قلت له إنها تأمره بمغادرة هذا المكان والذهاب الى توبوسو حيث تنتظره ، فأجابني أنه لايريد المثول أمام مفاتنها قبل القيام بمجاهدات خطيرة تجعله جديراً برضاها السامي . ولكن الواقع أنه إذا استمر مولاي في هذه المجاهدات أكثر من هذا فإنه يخشى عليه ألا يصبح إمبراطوراً كما أخذ على عاتقه أن يكون ، بل وألاّ يصبح رئيس أساقفة وهو أقل منصب يليق به . فانظروا إذن في الوسيلة التي يمكن بها انتزاعه مما فيه » .

فقال حامل الإجازة لسنشو لاعليه من هذا ، وإن من السهل انتزاع مولاه من مجاهداته تلك ، مهما يكن غيظه من ذلك . وفي الحال قصّ على كردنيو ودوروتيه الوسيلة التي اتخذاها لعلاج دون كيخوته ، أو في القليل لإعادته الى بيته . هنالك تطوّعت دوروتيه عن طيب خاطر لتمثل دور السيدة المحزونة ، فهي تقوم بهذا الدور خيراً من الحلاّق ، فمعها ملابس نساء تهيّئ لها تمثيل ذلك بصورة طبيعية ، وقالت إن في وسعهم الإعتماد عليها في مهمة تمثيل هذه الشخصية ضماناً لنجاح الخطة ، لأنها قرأت الكثير من كتب الفروسية وتعرف الأسلوب الذي به يخاطب الآنسات المحزونات الفرسان الجوّالة حينما يطلبن اليهم القيام بمهمة . فقال القس :

ـ « حسناً! ماعلينا إلا الشروع في التنفيذ فوراً ، والحق أن الحظ معنا ، إذ لم تخطرا أنتما في بالنا أبداً ، وهاهو ذا يبسم الحظّ لنا فيفتح للأمل باباً ويوجد لنا فيكما العون الذي كنّا في حاجة إليه » .

هنالك انتزعت دوروتيه من الحزمة التي تحملها غلالة من النسيج الفاخر الدقيق وشالاً من الديباج الأخضر ، كما أخرجت من مثبنتها عقداً من اللؤلؤ وجواهر أخرى . وفي لحظة

تزيّنت حتّى بدت سيدة جليلة غنية . وكل هذه الأثواب قد حملتها ـ فيما قالت ـ من منزل أهلها لاستخدامها عند الحاجة ، لكن لم تتح لها الفرصة حتّى ذلك الوقت لاستخدامها . فسحرتهم جميعاً بكامل لطافتها وروعة جمالها ، وحسبوا دون فرنندو رجلاً مأفوناً لرفضه هذه المفاتن كلّها . وأكثرهم دهشة وإعجاباً كان سنشو پنثا ، فإنه لم يشاهد أبداً طوال حياته مخلوقاً بهذا الجمال . لهذا بادر يسأل القس من هذه الحسناء وعمّاذا تبحث في هذه القفار . فقال القس :

ـ هذه الحسناء ، يا صديقي سنشو ، هي الوريثة المباشرة ، أباً عن جد ، لمملكة ميكوميكون الواسعة الأرجاء ؛ وقد جاءت للبحث عن مولاك لترجوه أن يمنحها فضل القيام برد إهانة أصابها بها مارد غدّار . وقد جاءت هذه الأميرة تسعى من شواطىء غينيا للبحث عن مولاك بعد أن طبقت شهرته الآفاق بوصفه فارساً مجيداً .

فصاح سنشو نشوان : ماأجمل السعي ، وأروع اللقية! خصوصاً إذا حالف الحظ مولاي فانتقم لهذه الإهانة ورد الإعتبار ، فقتل هذا المارد الشرّير العجيب الذي ذكرته . وأيمّ الله إنه لقادر على قتله اللهم إلا إذا كان شبحاً ، لأنّ مولاي لا يقوى على الأشباح . ولكن ياسيّدي أطلب منك خدمة . وذلك أنه منعاً من أن يخطر ببال مولاي أن يصبح رئيس أساقفة ـ لأنّ هذا هو كل ماأخشاه ـ فإنك تحسن صنعاً لو نصحته بالإقتران فوراً بهذه الأميرة ؛ وبهذه الطريقة يستحيل عليه أن يُرسم رئيس أساقفة ، ويقتنع بسهولة بالإكتفاء بمنصب امبراطور ، وهذا هو غاية ماأتمنّاه . وبصراحة أقول لك إنني فكّرت في الأمر جيّداً وحسبت لكل شيء حساباً فوجدت أنه ليس من مصلحتي أن يكون مولاي رئيس أساقفة ، ذلك لأنني لا أصلح لشيء في الكنيسة ، لأنني متزوّج ، وقيامي بالسعي والإنفاق الآن من أجل الحصول على معاش من الكنيسة ، وعندي امرأة وأولاد ، هذا أمر سيطول الى غير نهاية . وعلى هذا فزبدة المسألة يا سيدي هي أن يتزوّج مولاي في الحال بهذه السيّدة التي لا أستطيع أن أسمّيها باسمها لأنني لا أعرفه بعد ،

فقال القس : اسمها الأميرة ميكوميكونا ، لأنّ مملكتها تسمّى ميكوميكون ، فمن الواضح أنّ اسمها يجب أن يكون كذلك .

فقال سنشو : بلا شك ، وقد شاهدت ناساً يتخذون أسماء أسرهم من المكان الذي ولدوا فيه ، فيسمّون : بدرو القلعي أو خوّان الأُبذي Juan de Ubeda أو دييجو البلدوليدي ، ولابد أن يكون العرف جارياً كذلك في غينيا ، فتتخذ الملكات أسماء الملكة .

فقال القس : هذا محتمل . أمّا عن زواج مولاك ، فاعلم أنني سأبذل كل ما في وسعي من بلاغة للوصول الى تحقيقه .

ورضي سنشو بهذا الوعد تماماً كما دهش القس من سذاجته ، وأدرك كيف أنّ عدوى جنون مولاه قد انتقلت الى سنشو بحيث اعتقد هذا فعلاً أنّ مولاه سيصبح امبراطوراً ذات يوم .

وأثناء هذا الحديث ، كانت دوروتيه قد امتطت صهوة بغل القس ، ووضع الحلاّق في ذقنه لحية من ذيل البقرة . ثمّ طلبوا من سنشو اقتيادهم الى حيث يوجد دون كيخوته بعد أن حذّروا سنشو وأكّدوا عليه ألا يبدو عليه مايدل على أنة يعرف القس والحلاّق ، ففي هذا ضمان نجاح السحر الذي سيجعل مولاه امبراطوراً . أمّا القس وكردنيو فلم يرغبا في صحبتهم ؛ كردنيو خوفاً من أن يتذكّر دون كيخوته النزاع الذي وقع له معه ، والقسّ لأنّه لم يكن ثمّ فائدة من حضوره آنذاك . لهذا تركا الآخرين يسبقونهما ، وتبعاهم على الأقدام دون إسراع . ورأى القس من الأفضل تلقين دوروتيه دورها ، ولكن هذه طمأنته من هذه الناحية وأكّدت له أنّ كل شيء سيسير تماماً وفقاً للأوصاف الواردة في كتب الفروسية .

وبعد أن سارت وصاحبيها ثلاثة أرباع فرسخ ، اكتشفوا دون كيخوته بين مجموعة صخور متكاثفة ، وقد لبس ملابسه دون سلاحه . فلم تكد دوروتيه تلمحه وتعرف من سنشو أنه دون كيخوته حتّى حثّت فرسها المطهّم يتبعها الحلاّق بلحيته . ولمّا اقتربوا منه وثب السائس من فوق بغلته وأخذ دوروتيه من بين ذراعيها فنزلت الى الأرض بخفّة ورشاقة ، وألقت بنفسها عند قدمي دون كيخوته ، وهي تتحدّث إليه بهذا الكلام :

ـ كلاّ ، لن أنهض من مكاني هذا ، أيها الفارس الشجاع المروّع ، إلا إذا شاء فضلك السابغ أن تمنحني فضلاً يزيد من شرفك وعلو صيتك ويفيد آنسة أهينت أبلغ إهانة ولن تنفع فيها السلوى ، فإن كانت قوّة ذراعك التي لا تقهر جديرة بصوت شهرتك الخالدة ، فإنّك مضطر الى أن تهب لنجدة فتاة بائسة جاءت من أقاصي الدنيا اقتفاء لصيتك الذائع لتجد لديك علاجاً لمصائبها .

فقال دون كيخوته : أيتها السيدة الحسناء النبيلة! لن أجيب بكلمة ولن أسمع شيئاً مما جرى لك قبل أن تنهضي من الأرض .

فقالت الآنسة المنكودة : وأنا لم أنهض قبل أن يتعطّف عليّ أدبك فتمنحني ماأنا طالبة .

فأجابها دون كيخوته : منحتك سؤالك ، بشرط ألا يكون في تحقيقه مايضرّ أو يسيء الى شرف ملكي ووطني وتلك التي بيدها مفتاح قلبي وحرّيتي .

فقالت الأنسة المحزونة : كلاّ ، لن يضرّ أو يسيءالى شرف أحد ممن ذكرت .

وكانت على وشك استئناف كلامها حينما اقترب سنشو من أذن سيّده وهمس له فيها قائلاً :

ـ سيّدي! إن سيادتك تستطيع أن تمنحها ما تطلبه ، فما تطلبه أمر تافه جداً ، وهو أن تقتل ماردأ ثقيلاً ، والتي تطلب إليك هذه الخدمة هي الأميرة السامية القدر ميكوميكونا ، ملكة دولة ميكوميكون العظيمة في الحبشة .

فقال دون كيخوته : أياً من كانت فإنّي سأفعل مايمليه عليّ الواجب والضمير وفقاً لقواعد مهنتي .

ثمّ اتجه الى الأنسة بالحديث قائلاً : فلينهض جمالك الرائع ، فقد منحته كل ما يلذ له أن يطلبه .

فقالت الآنسة : إنّ ماأسألك هو أن يتفضّل شخصك العظيم فيأتي معي فوراً الى حيث أقتاده وأن يعدني بعدم الدخول في أية مغامرة وألاّ يتدخّل في أية مشاجرة قبل أن يثأر لي من خائن اغتصب مُلكي ، بغير حق من حقوق الأرض والسماء .

فقال دون كيخوته : أعود فأؤكّد أنني أمنحك سؤالك ، وفي وسعك ياسيّدتي أن تمسحي الحزن عن وجهك وتجدّدي أملك المتداعي . فبعون الله وبفضل ساعدي هذا ، ستعودين قريباً الى مملكتك وتجلسين على عرش دولة أجدادك العظيمة ، رغماً عن كل الأوغاد الذين قد يقفون في الطريق . هيّا بنا إذن الى العمل ، ففي التأخير يكمن التقصير ، كما يقول المَثَل .

هنالك تظاهرت الأنسة الراجية عونه بالرغبة في تقبيل يده ، ولكن دون كيخوته ـ وكان في كل مناسبة فارساً نبيلاً مهذّباً ـ لم يوافق على هذا أبداً . بل أنهضها وعانقها باحترام ، وأمر سنشو بشدّ السرج على روثينانته وأن يحضر له سلاحه في الحال . فانتزع حامل سلاحه الأسلحة وكانت معلّقة كالغنيمة على فروع شجرة سنديان . وبعد أن رتّب السرج على الدابة ألبس مولاه سلاحه في لحظة . فلمّا اكتمل له سلاحه صاح :

ـ هيّا بنا لنجدة هذه الأميرة الجليلة ، بعون الله .

أمّا الحلاّق فكان لايزال راكعاً ، حريصاً على ألا ينطق بالضحك أو تسقط لحيته منه ، خوفاً من أن يؤدّي سقوطها الى إخفاق خطّتهما الحكيمة هذه . فلمّا رأى أن دون كيخوته تفضّل بالمنحة وكيف تهيّأ دون كيخوته للتنفيذ بكل حماسة ، نهض وأخذ سيدته من يدها ، وحملها الى كاهل البغلة بمساعدة الفارس دون كيخوته الذي امتطى صهوة روثينانته بكل رشاقة ، واستقام الحلاّق على ظهر دابته ، أمّا سنشو المسكين فقد ظلّ على قدميه مما جدّد في أحزانه وأشعره بمصابه في فقد حماره . ولكنّه صبر وتجلّد ، إذ بدا له أنّ سيده قد أوشك

أن يصبح إمبراطوراً ولم يعد لديه أدنى شك في أنّ دون كيخوته سيقترن بالأميرة ، وبهذا يصبح على الأقل ملكاً لمملكة ميكوميكون . ولكنّ هناك شيئاً واحداً أزعجه : ألا وهو أن هذه المملكة في بلاد الزنوج وأن القوم الذين سيصبحون أتباعه كلهم سود . ولكنّ خياله سرعان ماأسعفه وقال لنفسه : ماذا يهمّني إن كان كل أتباعي زنوجاً ؟ ماذا عليّ حينئذ أن أفعل ـ اللهم إلا أن أحزمهم جميعاً وأبعث بهم الى اسبانيا حيث أستطيع بيعهم بالدنانير الرنانة ؟ وبهذا المال اشترى لقباً أو وظيفة تكفل لي العيش بقية عمري دون هموم . هذا هذا! أو تظن أن ينام المرء ملء جفنيه ولايكون لديه ذكاء ولا قريحة للإفادة من الظروف واستغلال هذه المسألة ، وبيع ثلاثين أو عشرة آلاف تابع كما يحرق الإنسان حزمة من القش ؟ آه! أياً من كنت ، صغيراً أو كبيراً ، فإنّ في وسعي أن أنجح بهذه المسألة ، وأن أحيلهم في جيبي الى بيض أو صفر ، حتّى لو كانوا سوداً مثل روح ابليس . تعالوا ، تعالوا ، وسترون إذا كنت أمصّ إصبعي[1] .

ومشى سنشو ملياً بهذه الأحلام مشغولاً بها راضياً رضيّ أنساه تعب المشي على الأقدام .

هذا المشهد الغريب كلّه قد ظلّ كوردنيو والقس يراقبانه من خلال الأعشاب ولايدريان أيّة حيلة يتذرعان بها للإنضمام الى سائر الركب . ولكنّ القس ، وكان واسع الحيلة ، سرعان ما تنبّه الى مايمكن تدبيره للخروج من هذا المأزق . فأخذ مقصّاً كان معه وحلق لحيته كردنيو بعناية ، ودثّره بمعطف أسمر كان يلبسه وألبسه بنيقة سوداء ، ولم يحتفظ لنفسه إلا بسرواله وصدريته . فتغيّرت هيئة كردنيو بهذا الملبس تغيّراً لو شاهده في مرآة لأنكره ، ولمّا أتمّا ذلك وعلى الرغم من أنّ الركب قد سبقهما بمسافة طويلة ، فقد استطاعا الوصول الى الطريق العام قبلهم ، لأن الصخور والحشائش الغليظة كانت تعترض الطريق فلا تسمح للراكبين بالسير بسرعة الراجلين . ولمّا وصلا الى السهل توقّفا عند مخرج الجبل ، ولم يكد القس يلمح دون كيخوته مصحوباً بمن معه قادماً حتّى تفرّسه بدقة ، وأبدى حركات من يحاول تعرّفه . وبعد أن تفحّصه طويلاً ، أقبل عليه بذراعين مفتوحتين وهو يصيح بأعلى صوته :

ـــ أهلاً وسهلاً بمرآة الفروسية مواطني دون كيخوته المنتشاوي ، زهرة الشهامة وزبدتها ، وعماد المحزونين ودرعهم الواقي ، وخلاصة الفرسان الجوّالة .

---

(١) كناية عن بلاهته . أي أنه ليس أبله الى هذا الحد .

وكان وهو يقول هذا الكلام يعانق ركبة دون كيخوته اليسرى ، فبهت دون كيخوته مما فعله هذا الرجل وراح يتفرّسه باهتمام ، وأخيراً تعرّفه من هو .

ودهش دون كيخوته دهشة عجيبة من عثوره على القس في هذا المكان ، وسرعان ماحاول النزول من فرسه ، لكنّ القس لم يوافي . فقال دون كيخوته :

ـ سيّدي صاحب الإجازة! دعني أنزل ياسيّدي ، فلا يليق بي أن أظل على صهوة جوادي ، بينما فضيلتك راجل .

فقال القس : لاأقبل ذلك أبداً ، بل جلالتك يبقى على صهوة فرسه ، لأن جلالتك إنما يواجه أعظم المغامرات ويقوم بأخطر الأعمال التي عرفها عصرنا هذا وهو ممتط صهوة جواده . أمّا أنا ، القس الحقير ، فيكفيني أن أركب ردفاً على بغلة أحد هؤلاء السادة الذين يسيرون في موكب جلالتك ، إن تفضّلوا وتنازلوا ، وسأعتقد أنني أركب الفرس بيجاس[١] أو حمار الوحش الذي كان يحارب عليه المراكشي الشهير مُزرّق الذي لايزال يوجد مسحوراً في كهف سليمة بالقرب من مدينة كومبلوتو[٢] .

فقال دون كيخوته : لم أنتبه لهذا ، أي سيّدي صاحب الإجازة ، ولكنّي متأكّد أن الأميرة الجليلة ستوافق ـ إرضاء لي ـ أن تأمر سائسها أن يتنازل لسيادتك عن ظهر بغلته وأن يكتفي بالإرتداف خلفك ، مادامت الدابة تحتمل ركوب اثنين .

فقالت الأميرة : نعم ، فيما أحسب . ولكنّي أعلم أنه ليس من الضروري إعطاء أوامر للسائس ، لأنه من الأدب والتهذيب والعلم بقواعد المروءة بحيث لا يرضى أن يمشي رجل الدين على قدميه مادام يستطيع الركوب .

فقال الحلاّق : طبعاً ، لا ـ ثم نزل من البغلة ، وعرض على القس أن يركب . فوافق القس دون إطالة في المجاملات . ولكن المصيبة هي أن البغلة كانت بغلة في الأجرة ، أي أنها بغلة رديئة . فلمّا أراد الحلاّق أن يرتدف قمصت ورفست رفستين لو أصابتا بطن الاسطى نقولا أو رأسه لّلعَن ميلاد دون كيخوته . على أنّ هاتين الرفستين قد هزّته بعنف حتّى سقط على الأرض بشدّة ، دون أن يهتم بلحيته ولهذا سقطت منه اللحية من الجانب الآخر . فلمّا رأى أنه أضاع لحيته لم يجد خيراً من أن يخفي وجهه بكفّيه ويشكو من أنّ الدابة اللعينة قد حطّمت فكّيه . ولمّا شاهد دون كيخوته هذه الحزمة من الشعر وليس معها

---

(١) بيجاس Pegaso فرس أسطوري مجنّح ، صعد الى السماء وتحوّل الى مجموعة كواكب تحمل اسمه .

(٢) عند الجنوب الغربي من كومبلوتو الكبرى (قلعة هنارس ، موطن ثربنتس) توجد رابية كبيرة تسمى سفح سليمة كانت الموضع الأصلي القديم لمدينة كومبلوتو القديمة ، كما تشهد على ذلك الآثار الباقية .

لحم ولا دم وقد قذف بها بعيداً عن وجه السائس ، صاح : ـ الله أكبر ، هذه معجزة كبرى! لقد نزعت منه اللحية من الذقن كالشعرة من العجين!

هنالك بادر القسّ ـ وقد خشي على لحيته أن تفتضح ـ بجمع أشتات اللحية وحملها الى حيث يرقد الاسطى نقولا وكان هذا لايزال يصرخ صرخات مخنوقة ، وحمل رأسه الى بطنه ورتّب له اللحية بعقدة واحدة وهو يتمتم ببضع كلمات قال أنها تعويذة مفيدة جداً في استرداد اللحية . والواقع أنه لم يكد يلصق الذيل (اللحية) حتّى ابتعد ، وشوهد السائس سليماً معافى ذا لحية كما كان من قبل . فدهش دون كيخوته كل الدهشة من هذا العلاج ، والتمس من القس أن يعلّمه هذه التعويذة ، حينما يتهيّأ الوقت ، فلا بد أن يكون تأثيرها أكبر من مجرّد لصق اللحى ، إذ من الواضح أنه إذا انتزعت اللحية جرح اللحم ، فإذا كانت التعويذة قد عالجت الكل فيجب أن تكون نافعة في اللحم كما في الشعر سواء بسواء . ورافاه القس على رأيه ، ووعده بأن يعلّمه التعويذة في أوّل فرصة تسنح .

هنالك تقرّر أن يركب القس وحده على البغلة ، ومن حين الى حين يتناوب الحلاّق وكردنيو الركوب عليها مكان القس ، الى أن يصل الركب الى الفندق ، وهو على بعد فرسخين . ثلاثة إذن كانوا راكبين : دون كيخوته ، والقس ، والأميرة ، وثلاثة كانوا راجلين هم كردنيو والحلاّق وسنشو پنثا . وقال الفارس للأميرة : «اقتادينا جلالتك الآن حيث تشائين» . ولكن قبل أن تجيب تكلّم حامل الإجازة (القسّ) فقال : «الى أي مملكة تريد عظمتك اقتيادنا ؟ الى مملكة ميكوميكون ؟ هذا ما يخيّل اليّ ، وإلاّ فأنا قليل البضاعة من العلم بالممالك» . وكانت دوروتيه حاضرة البديهة ، ففهمت بماذا تجيب ، وقالت : «نعم ياسيّدي ، إنني متوجّهة الى تلك المملكة» . فقال القس : «في هذه الحالة ، لابد من المرور خلال قريتنا ، ومن هناك نسلك طريق قرطاجنة ، حيث يمكنك الإبحار باسم الله وفي حفظه ، فإن جرت الريح بما نشتهي وكان البحر هادئاً والسماء بلا عواصف ، فيمكن في مدى تسع سنوات أو أقل قليلاً أن تبصري بحيرة ميونا العظيمة ، أقصد ميوتيدس ، التي لاتبعد إلا مائة يوم عن الطريق الى مملكة عظمتك» .

فقالت : يخيّل اليّ ياسيّدي أنك أخطأت ، لأنه لم تمض بعد سنتان على مغادرتي لمملكتي ، ودون أن يكون الجو ملائماً ، ورغم ذلك فقد بلغت أربي بلقاء قبلة آمالي أعني السيد دون كيخوته المنتشاوي الذي ملأت شهرته أسماعي منذ أن وصلت الى اسبانيا . وإن الضجة التي أثارتها مغامراته هي التي حملتني على البحث عنه لألقي بأمري الى مروءته وأودع عدالة قضيّتي بين ذراعي شجاعته التي لا تقهر .

فصاح دون كيخوته : عفواً ، عفواً ، مولاتي ، كفى إطراءً لشخصي ، فأنا أكره كل أنواع الملق ، وعلى الرغم من أنك لا تقصدين ملقي ، فإن هذه العبارات تخدش مع ذلك حياء أذني . كل ماأستطيع أن أقوله يامولاتي ، سواء أكان لديّ شجاعة أو ليس لديّ ، هو أنّ مالديّ أو ماليس لديّ منها سأضعه في خدمتك حتّى الممات . وندع هذا لأوانه ، ولكنّي أرجو السيد حامل الإجازة أن يتفضّل فيذكر لي السبب الذي دفع به الى هذا المكان ، وحده بغير خادم ، لابساً لباساً خفيفاً يخيفني .

فأجاب القسّ : « أجيبك عن هذا السؤال بإيجاز . اعلم ياسيّدي دون كيخوته أنني أنا والاسطى نقولا ، صديقنا الحلاّق ، كنّا بسبيل الذهاب الى اشبيلية لاستلام مبلغ من المال أرسله الى أحد أقاربي الذي ارتحل الى الهند الغربية ، منذ عدة سنوات ، وهو مبلغ لايستهان به ، لأن قيمته ستّون ألف قطعة فضّية . ولمّا اجتزنا هذه المنطقة النائية بالأمس فاجأنا أربعة لصوص أشرار اغتصبوا منّا كل شيء حتّى اللحية ، نعم حتّى اللحية ، الى حد أن الحلاّق اضطر الى وضع لحية مستعارة ، أمّا هذا الفتى الذي يصحبنا(وأشار الى كردنيو) فقد جرّدوه وتركوه كما ولدته أمه . وأعجب مافي الأمر هو أنّ الإشاعة تقول في هذه النواحي أن هؤلاء اللصوص الذين اغتصبوا أموالنا هم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة أطلقوا سراحهم ، في هذا المكان نفسه تقريباً ، رجل شجاع جداً استطاع أن يخلّصهم جميعاً رغماً من المندوبين والحرّاس . وليس من شكّ في أنّ هذا الرجل فقد عقله ، أو لعلّه مجرم عات لا يقل إجراماً عن أولئك الذين خلّصهم ، رجل بلا روح ولاضمير ، لأنه أراد أن يطلق الذئب بين الضأن ، والثعلب بين الدجاج ، والزنبار فوق العسل ، لقد أراد تحطيم عمل العدالة ، والتمرّد على ملكه ومولاه فخرق أوامر العادلة ، أقول أنه أراد أن ينتزع من السفن الأذرع التي تحرّكها ، وأن يثير ثائرة الأخوة المقدّسة التي ترقد في سلام منذ سنوات طوال ، وبالجملة لقد أراد القيام بمغامرة فقد فيها روحه دون أن يكسب منها بدنه شيئاً » .

وكان سنشو قد روى للقس والحلاّق مغامرة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، تلك المغامرة التي خرج منها مولاه مكلّلاً بالمجد ، ومن أجل هذا حرص القس على توكيد العبارات في هذه القصّة حتّى يرى ماسيفعله دون كيخوته أو يقوله . ولكنّ هذا الفارس كان لونه يتغيّر لدى سماعه كل كلمة من كلمات القس ولم يجرؤ على الاعتراف بأنه مرّر هذه العصبة الكريمة .

واستأنف القس قائلاً : هؤلاء هم الذين سلبونا أموالنا وجعلونا على هذه الحال . عفا الله برحمته الواسعة عمّن حال دون اقتيادهم الى العقاب الذي يستحقّونه!

الفصل الثلاثون

في كياسة دوروتيه الجميلة وأمور أخرى لطيفة شائقة جداً

ولم يكد القسّ يتم كلماته حتّى قال سنشو :

ـ سيّدي صاحب الإجازة ، أوتعرف من قام بهذه المغامرة الرائعة ؟ إنه مولاي . ورغم ذلك فلم أقصّر في تحذيره من عمله هذا ، فتلك خطيئة قاتلة أن يطلق سراحهم ، لأنهم محكوم عليهم بالأشغال بوصفهم من عتاة المجرمين .

فقال دون كيخوته : أيها المغفّل! هل من شأن الفرسان الجوّالة أن يحقّقوا فيما إذا كان المكروبون والمقيّدون والمضطهدون الذين يعثرون بهم في قارعة الطريق قد وقعوا في هذه الحال وتلك الآلام بسبب أخطائهم أو فضائلهم ؟ إنه ليس عليهم إلا أن يهرعوا لنجدتهم بوصفهم تعساء ، ولايعنيهم إلاّ إسعاف تعاستهم ، لا البحث في جرائمهم . لقد التقيت بطائفة من البائسين الفقراء ، المحزونين المتألمين ، ففعلت من أجلهم مايقتضيه يمين الطريقة التي أتبعها . وليكن مايكون . فلو كان لأحد اعتراض ـ مع احترامي لقداسة صاحب الإجازة ولشخصه الكريم ـ فسأقول إنه لايفهم شيئاً في أمور الفروسية ويكذب كذباً حنبريتاً ، وسأبرهن له على ذلك بالرمح والسيف ، راجلاً أو راكباً ، أو على أي وضع يختاره هو .

ولمّا قال هذه الكلمات الأخيرة شدّ مقعده على فرسه ووضع خوذته حتّى عينيه ، أما صحن الحلاقة ـ الذي كان يعده خوذة ممبرينو ، فقد علّقه على السرج ، انتظاراً لإصلاحه مما أصابه به المحكوم عليهم بالأشغال .

أمّا دوروتيه ـ وكانت راجحة الحصاة ذكية ، تعرف مزاج دون كيخوته الغريب ، وتعرف أنهم جميعاً يسخرون منه ـ فيما عدا سنشو پنثا ـ نقول : أمّا دوروتيه فلم تشأ أن تظلّ بمعزل عن هذه المساجلة ، فلمّا رأت الغضب في وجه دون كيخوته قالت :

ـ سيّدي الفارس! لا تنس ياصاحب السعادة ما تفضّلت فأنعمت بـه عليّ وتعهّدت بـه بشرفك وهو : ألاّ تدخل في أية مغامرة ، مهما تكن ملحّة . فليهدأ قلبك الثائر ، ولو عرف صاحب الإجازة أن إطلاق سراح المحكوم عليهم بالأشغال قد تمّ على يديك الظافرتين ، لوضع إصبعه في فمه ثلاث مرّات ، بل لعضّ لسانه ثلاث مرّات ولا أن يتفوّه بكلمة تضايق سعادتك أقل مضايقة .

فقال القس : أوه! قسماً بالله على ذلك ، بل لكنت أيضاً قد انتزعت شاربي!

فقال دون كيخوته : سأهدأ إذن ياسيّدتي . وسأطفئ غضبتي العادلة التي اشتعلت في قلبي وألتزم الهدوء والسلام ، حتّى أفي بالعهد الذي قطعته لك . ولكن في مقابل هذه النيّة الطيبة أرجوك أن تتفضّلي ـ إن لم يكن في هذا مايزعجك ـ فتذكري موضوع شكواك ، ومن هم وما عدد الأشخاص الذين يجب عليّ أن أنتقم لك منهم انتقاماً عادلاً كاملاً .

فقالت دوروتيه : عن طيب خاطر أذكر لك ماتطلب ، إذا لم يكن يسوؤك سماع أخبار المصائب والشكاوي .

فأجاب دون كيخوته : كلاّ ، أبداً .

فقالت دوروتيه : إذن فليعرني مولانا سمعه .

ولم تكد تنطق بهذه العبارة حتّى وقف الى جانبها كردنيو والحلاّق وهما متلهّفان لمعرفة كيف تصوغ دوروتيه قصّتها المصنوعة ، وكذلك فعل سنشو ، وكان مثل مولاه مخدوعاً بشأن الأميرة . ـ أمّا هي فقد اعتدلت في ركوبها وسعلت واتخذت كل احتياطات الخطيب قبل أن يبدأ خطبته ، ثمّ أنشأت تقول بلطف وسهولة :

« سادتي ، قبل كل شيء أريد أن أخبركم أنني أدعى... » وهنا توقّفت لحظة ، وهي لم تعد تذكر الاسم الذي أطلقه عليها القس ، ولكنّ هذا فهم سبب تلعثمها فهبّ لنجدتها وقال لها : « ليس بمستغرب ياسيّدتي أن تضطرب عظمتك في رواية مصائبها . فمن أثر الشقاء عادة أن ينتزع الذاكرة ممن أصابهم ، حتّي لينسوا أسماءهم كما حدث الآن لجلالتك ، إذ يبدو أنك لم تعودي تذكرين أنك الأميرة ميكوميكونا ، الوريثة الشرعية لمملكة ميكوميكون العظيمة . وبهذه الإشارة البسيطة يمكن عظمتك الآن تذكّر ماتشائين أن ترويه لنا » .

فقالت الأنسة : ماتقوله حق ، لكن يخيّل إليّ أنه لم يعد من الضرروري بعد أن تخبرني أو تلقّني أي شيء ، وسأروي قصّتي على التمام . وها هي ذي :

« كان السلطان أبي واسمه تينكريو الحكيم[1] ـ متبحّراً في علم السحر . وبفضل صنعته

---

(١) الحكيم هنا بمعنى : الساحر ، تماماً كما في عنوان كتاب المجريطي : « غاية الحكيم » .



الفصل الثلاثون : دون كيخوته ودوروتيه والحلاق

هذه اكتشف أنّ أمّي ـ وتدعى الملكة خرملّة ـ ستموت قبله ، وأنه سيموت بعدها بقليل ، فأصبح أنا يتيمة الوالدين . ورغم ذلك كان يقول إن هذا الخاطر لم يكن يزعجه بقدر ماأزعجه خاطر آخر وهو أنه كان يعلم علم اليقين أنّ مارداً عاتياً يسيطر على جزيرة كبيرة قريبة جداً من مملكتنا ، اسمه پندفلندو المظلم البصر(إذ تبيّن أنه على الرغم من أنّ عينيه في موضعهما الطبيعي ومستقيمتان ، فإنه ينظر دائماً عن عرض كأنه أحول ، وهذا مكر منه لإرهاب من ينظر اليهم) ، أقول أنّ أبي عرف أن هذا المارد حينما يعلم أنني أصبحت يتيمة ، سيأتي بجيش عرمرم للإنقضاض على مملكتي وينتزعونها منّي جزءاً جزءاً حتّى آخرها ، بحيث لن أجد قرية بعد ألجأ إليها ، لكنّني أستطيع تجنب هذه الكارثة وذلك الدمار إذا أنا وافقت على الإقتران به . وكان أبي يرى أنني لايمكن أن أوافق على هذا الزواج غير المتكافيء ، وهذا حق : إذ لم يخطر ببالي قط أن أتزوّج هذا المارد ولاأي مارد آخر مهما يكن عاتياً هركولاً . وقال أبي أيضاً أنه بعد أن يموت وأرى پندفلندو يبدأ في الإغارة على مملكتي لن أفكّر أبداً في الدفاع وإلاّ كان في ذلك ضياعي ، بل سأتركه يغزو مملكتي إذا أردت أن أجنّب رعيّتي الوفية الطيبة الموت والدمار ، لأنه من المستحيل أن أقاوم قوّة هذا المارد الشيطانية . وأضاف أنه يجب عليّ حينئذ الإرتحال فوراً الى اسبانيا ، فهناك سأجد الدواء لمصائبي في شخص فارس جوّال طبقت شهرته آفاق تلك البلاد ، اسمه ـ إن لم تخنّي الذاكرة ـ دون أسوطة أو دون خجوته[1]... » .

فقاطعها سنشو پنثا قائلاً : إنه يقصد دون كيخوته ياسيّدتي ، ويلقّب أيضاً الفارس الحزين الطلعة .

فقالت دوروتيه : نعم هذا هو ، وقال أبي عنه أنه فارع القامة ، ساهم الوجه ، وفي جنبه الأيمن تحت الكتف اليسرى أو بالقرب من هناك عليه شامة سمراء اللون وحولها شعر كزغب الخنزير البرّي ،

هنالك قال دون كيخوته : اقترب منّي ياسنشو يابنيّ ، وساعدني على خلع ملابسي ، لأنّي أريد أن أعرف ماإذا كنت الفارس المقصود في نبوءة هذا الملك الحكيم .

فقالت دوروتيه : ولماذا تريد سيادتك التعرّي هكذا ؟

فأجاب دون كيخوته : لأرى ماإذا كانت عندي هذه الشامة التي ذكرها أبوك .

فقال سنشو : لاحاجة بك الى التعرّي من أجل ذلك ، فأنا أعلم جيّداً أنه عند سيادتك شامة من هذا النوع في وسط شوكة الظهر ، وهي علامة على القوة في الرجال .

---

(١) اسوطه = nzote = السوط بالعربية (والكلمة أصلها عربي) . خجوته = jigote = كفتة (لحم مفروم) .

فقالت دوروتيه : هذا يكفي ، فبين الإخوان لا محلّ للتدقيق . فأن تكون الشامة على الكتف أو على العمود الفقري ، أو في أي موضع تشاؤه ، ليس هذا مهمّاً بشرط أن يكون ثمة شامة . وعلى كل حال فهو نفس اللحم . ولاشكّ في أنّ أبي قد صدق النبوءة ، وأنا أيضاً قد صدقت الملاقاة بتوجهي الى السيد دون كيخوته ، الذي عنه تحدّث أبي ، لأن أوصاف وجهه تتفق مع أوصاف الشهرة التي ينعم بها هذا الفارس ليس فقط في اسبانيا ، بل وأيضاً في كل اقليم المنتشا .

« والواقع أنني لم أكد أنزل في أُشونه وسمعت الناس يتحدّثون كثيراً عن مغامراته العديدة حتّى قال لي قلبي في الحال إنه هو الذي أتيت للبحث عنه » .

فقاطعها دون كيخوته قائلاً : لكن كيف نزلت في أشونه ، وهذه المدينة ليست ميناءً بحرياً ؟

وقبل أن تجيب دوروتيه ، قال القس : إن الأميرة تريد قطعاً أن تقول أنها بعد أن نزلت في مالقة كان أوّل مكان سمعت فيه عن أنبائك كان أشونه .

فقالت دوروتيه : نعم هذا ماكنت أقصد .

فقال القس : كل شيء واضح إذن . تستطيع جلالتك أن تكملي قصتك .

فقالت دوروتيه : ليس لدي بعد ما أقوله سوى أنه من حسن طالعي أن ألقى السيد دون كيخوته ، فقد أصبحت أشعر أنني سيّدة مملكتي كلّها وسلطانتها . لأنه بفضل أدبه الجم وكرمه الشامل أنعم عليّ بنعمة اقتياده الى حيث أشاء ، وإنّي اريد اقتياده الى مواجهة پندفلندو المظلم البصر ليقتله ويعيد اليّ ما اغتصبه ذلك الغدّار ضد كل قانون وعقل . وكان هذا سيحدث بحذافيره كما تنبّأ بذلك تنكريو الحكيم ، أبي الكريم ، الذي ترك وصيّة بحروف يونانية أو كلدانية ـ لست أدري! ـ يقول فيها أنه إذا أراد فارس هذه النبوءة أن يتزوّج بي بعد أن يقطع رأس المارد ، فعليّ دون أدنى تردّد أن أسلّم نفسي له زوجة شرعية وأن يملك في مملكتي كما ملّكته في شخصي .

فقال دون كيخوته : ماذا ترى في هذا ياصديقي سنشو ؟ ألا ترى ما يجري ؟ ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ أو لا ترى أننا قد أصبح لنا مملكة نحكمها وملكة نتزوّجها ؟

فصاح سنشو : « أقسم بالله على هذا! وتبّاً لمن لا يتزوّج حالما يفتح حلق السيّد پندهيلادو[1]! قد تكون الملكة بشعة ، ولكن! لتكن كل براغيث سريري هكذا خلقت! » ـ

(١) يخطئ سنشو دائماً في النطق بهذه الأسماء الغريبة .

ولمّا قال ذلك وثب في الهواء وثبتين وهو يضرب عقب قدمه ، بنشوةٍ بالغة ، ثمّ أخذ لجام بغلة دوروتيه وأوقفها وركع أمام الأميرة وتوسّل اليها أن تتفضّل فتمد يديها كي يقبّلها ، علامة أنها ملكته وسيّدته .

من كان منهم يستطع أن يمسك عن الضحك وهو يرى جنون السيّد وسذاجة الخادم ؟ لقد قدّمت دوروتيه يدها الى سنشو ووعدته أن تجعله سيّداً جليلاً في مملكتها حالما تستعيد ملكها . فراح سنشو يشكر لها بعبارات أطلقت الضحك من جديد .

وتابعت دوروتيه قصتها تقول : هذه قصّتي على حقيقتها ياحضرات السادة ، ولم يبق لدي ماأقوله لكم بعد سوى أن أقول أنه لم يبق من الحاشية التي صحبتني غير هذا السائس الملتحي ، أمّا الباقون فقد غرقوا جميعاً في عاصفة هبّت ونحن مقبلون على الميناء . وقد بلغنا الشاطىء ، هو وأنا ،على لوحين من خشب ،وقد وصلنا بنوع من المعجزة ، لأنّ كل شيء معجزة وسرٌّ في مجرى حياتي ، كما لعلّك لاحظت . فإن كنت قد ذكرت أموراً لاحاجة اليها ، وكنت لم أقابل دائماً من يجب مقابلتهم ، فمرد ذلك الى ماأشار اليه السيّد صاحب الإجازة في مستهل قصّتي ، ألا وهو أنّ الآلام المتّصلة غير العادية تقتلع الذاكرة ممن يعانونها .

فقال دون كيخوته : إنها لن تقتلع ذاكرتي أنا ، أيتها الأميرة النبيلة الشجاعة ، مهما تكن شديدة رهيبة تلك الآلام التي سأعانيها في سبيل خدمتك . وهكذا أؤيّد من جديد المنحة التي منحتك إيّاها ، وأقسم أن أتبعك الى نهاية العالم حتّى أجد نفسي في مواجهة عدوّك المروّع الذي سأحتزّ رأسه ، بعون الله وبفضل ساعدي هذا ، سأحتزّه بهذا السيف... ولاأقول السيف الصارم ، بفضل خنيس دي يسمونته الذي انتزع منّي سيفي .

قال دون كيخوته هذه الكلمات الأخيرة بين شفتيه ، وتابع حديثه قائلاً : وبعد أن أحتزّ له رأسه وأعيد لك مملكتك ، ستكونين حرّة في أمر نفسك تفعلين مايحلو لك ، وذلك لأنّه طالما بقيت ذاكرتي مشغولة ، وإرادتي أسيرة وعقلي مستعبداً لتلك التي... ولاأزيد ، ولاأستطيع التفكير ، مجرّد التفكير ، في الزواج ، حتّى ولا بالعنقاء .

فوقعت هذه الكلمات الأخيرة التي نطق بها دون كيخوته ورفض الزواج وقع الصاعقة على سنشو ، فغضب وصاح بصوتٍ عالٍ : مولاي دون كيخوته!أقسم بالله وبالشيطان أنّك الآن غيرسديدالرأي . وإلاكيف تتردّد بالزواج بأميرة نبيلة كهذه ؟ أوتظن أنّ حسن الطالع سيقدّم لك في كل مرة فرصة سعيدة كهذه ؟ وهل السيّدة دلثنيا أجمل ؟ كلاّ والله ، ولانصف جمال هذه ، بل أود أن أقول أنها ليست جديرة أن تحل رباط حذاء هذة الماثلة أمامك! إي

نعم! سأنعم بالضيعة التي أرقبها ، إذا ظلّ مولاي يسعى للبحث عن البطاطس في البحر[١]! تزوّج ، تزوّج بسرعة ، وخذ هذه المملكة التي وقعت في يديك حلالاً ، وحينما تصبح ملكاً اجعلني مركيزاً أوحاكماً ، وليذهب الشيطان بالباقي!

لكن دون كيخوته لم يملك نفسه لما أن سمع هذا التجديف باسم دلثنيا . فرفع منخاسه من مقبضه ودون أن يوجّه كلمة الى سنشو ودون أن ينبهه ضربه في بطنه ضربتين جندلتاه على الأرض ، ولولا أن صرخت دوروتيه بوجهه أن يكف ، لكان قد قتله . ثمّ قال له دون كيخوته :

ـ هل تظن ، أيها الوغد البائس ، أنك تستطيع أن تحشر نفسك في كل مناسبة ، وأنه ليس لدينا من شغل إلا أن تذنب أنت وأصفح أنا عن هذا الذنب ؟ لاتصدّق ذلك أيها النذل الخسيس ، وإنك لكذلك لأنك أطلقت لسانك في دلثنيا المنقطعة النظير . أوتعلم أيها السافل الحقير الدنيء أنه لولا المدد الذي تشدّ به ساعدي ، لما كانت لديّ القدرة حتّى على قتل برغوث ؟

قل لي أيها الساخر ولسانك لسان الأفعى ، من ذا الذي تظن أنه قد ظفر بهذه المملكة واحتزّ رأس المارد وجعلك مركيزاً ـ فهذا كلّه أمرٌ أعده مفروغاً منه وصار في قوة الشيء المحكوم به ـ إن لم يكن قوة دلثنيا التي اتخذت من ساعدي أداةً لأعمالها الجبّارة ؟ إنها هي التي تقاتل وتنتصر في شخصي ، وأنا إنما أحيا وأتنفّس بها ، ومنها أستمد الوجود والحياة . أيها الجلف الوضيع الأصل السيّء التهذيب كم أنت جاحد! أرفعك من تراب الحقول لأجعل منك سيّداً صاحب لقب ، فتقابل هذا الجميل بالإساءة الى من يحسن اليك! .

ولكن إصابة سنشو لم تكن بحيث تحول بينه وبين سماع ما قاله مولاه . وسرعان مانهض وراح يستتر وراء فرس دوروتيه ، ومن هناك أجاب مولاه قائلاً : «قل لي مولاي : هل أنت مصمّم على عدم الزواج بهذه الأميرة العظيمة ؟ إذن لن تكون المملكة لك ، فإن لم تكن لك ، فماذا تستطيع أن تعمل لي ؟ من هذا أشكو . صدّقني وتزوّج بهذه الملكة واخلص ، فقد نزلت عليك من السماء ، وبعد هذا تستطيع أن تعود الى السيدة دلثنيا ، فقد حدث لبعض الملوك أن كانت لهم حظايا الى جانب زوجاتهم . أمّا عن الجمال ، فلا أتدخّل فيه . وإذا قلت الحق ، قلت إن كلتيهما في نظري لابأس بهما ، وإن كنت لم أر السيدة دلثنيا أبداً .

---

(١) أي يسعى للحصول على المستحيل .

فصاح دون كيخوته : كيف ؟ ألم ترها أيها الخائن الكافر! أولم تأتني منذ قليل برسالة منها ؟

فأجاب سنشو پنثا : أريد أن أقول أنني لم أستطع مشاهدتها عن قرب بحيث أتفرّس ملامحها بالتفصيل واحداً بعد واحد ، لكنّها في جملتها لابأس بها .

فعاد دون كيخوته يقول : الآن أصفح عنك ، واعذرني عمّا بدر منّي نحوك ، إن البوادر الأولى ليست في وثاق المرء .

فقال سنشو : أقر بذلك ، وأوّل بادرة عندي هي الرغبة في الكلام ، ولاأستطيع أن أمنع نفسي من أن أفضي بكل مايرد على لساني .

فقال دون كيخوته : ومع ذلك كلّه فخذ حذرك مما تقول ياسنشو ، إذ الجرّة مهما تحمل الى العين فلا بدّ في النهاية أن تنكسر... ويكفي هذا .

فأجاب سنشو : حسناً! والله في عليائه يرى خداع الخادعين ، والله يحكم بيننا : من منّا يسيء أكثر ، أنا بكوني لاأحسن الكلام ، أو مولاي بكونه لايحسن الفعل .

فقاطعت دوروتيه قائلة : كفى! اذهب ياسنشو فقبّل يد مولاك واطلب منه الصفح ، ومن الان كن أكثر احتياطاً في مديحك وفي نقدك ، وخصوصاً لاتسيء أبداً الى السيدة توبوزا التي لا أعرفها أبداً ، وإن كنت على استعداد لخدمتها ، وثق بالله الذي لن يحرمك من إقطاعية تستطيع أن تعيش فيها مثل الأمير .

فمضى سنشو كسير الجناح خفيض الرأس يسأل مولاه العفو ويطلب يده ، فمدّها مولاه اليه بوجه جاد حازم . ولمّا قبّل سنشو يد مولاه ، منحه هذا بركته وطلب منه أن يختلي به ناحية لأن لديه أسئلة يوجهها اليه ويريد أن يتحدّث معه في أمور على جانب كبير من الخطورة . فأطاع سنشو ، ولمّا تقدّما قال له دون كيخوته :

ـ منذ عودتك لم يسمح الوقت ولم تتهيّأ الفرصة لكي أسألك عن المهمّة التي كلّفتك بها وعن الجواب الذي أتيت به منها . والآن وقد أتاح لنا الحظ هذه الخلوة ، لا تتأخّر عن إرضائي بالأنباء السعيدة .

فأجاب سنشو : سل ما شئت يا مولاي! سأفضي اليك تماماً بكل ماوعته أذناي . لكن أرجوك في المستقبل ألا تكون عنيفاً هكذا .

فقال دون كيخوته : لماذا هذا الرجاء يا سنشو ؟

فقال سنشو : أقول هذا لأنّ ضربات العصا التي تلقّيتها منذ قليل ترجع بالأحرى الى النزاع الذي قام بيننا في تلك الليلة ، لا من أقوالي عن السيّدة دلثنيا ، التي أحبّها وأقدّسها كإحدى المقدّسات ، حتّى لو لم تكن جديرة بذلك ، لا لشيء إلا لأنها صاحبتك .

فقال دون كيخوته : لا تعد الى هذ ا الموضوع ياسنشو ، وحياتك إنه يؤلمني ويحزنني . لقد عفوت عنك منذ قليل ، وتذكّر جيّداً مايقال عادةً : لكل خطيئة جديدة كفّارة جديدة .

ولما بلغا هذا المبلغ من حديثهما شاهدا على طول الطريق الذي يسلكانه قادماً على حمار لمّا اقترب منهما بدا لهما من الغجر . لكن سنشو پنثا الذي لم يكن يستطيع أن يشاهد حماراً دون أن تعلق به عيناه لم يكد يلمح الرجل حتّى عرف فيه خينس دي پسمونته . ذلك أن پسمونته ـ لكي يبيع الحمار كما يشاء ـ تخفّى في زي غجري وكان يتقن لهجة الغجر كما يتقن لهجات أخرى . رآه سنشو وعرفه ، فصاح فيه بأعلى صوته :

ـ خنسيّو أيها السارق ، ردّ مالي ، اترك حياتي ، انزل عن سرير راحتي ، ردّ روحي ، رد اليّ بهجتي وكبريائي ، اهرب يا وغد ، ارحل يا لص ، ورد ما ليس لك .

وماكان في حاجة الى كل هذه الكلمات واللعنات ، لأنّ خنيس لم يكد يسمع أوّل كلمة حتّى قفز الى الأرض وسار يعدو عدو فرس الرهان وسرعان ماغاب عن الجميع . هنالك أسرع سنشو الى حماره يقبّله ويقول له :

ـ كيف حالك يا ولدي ورفيقي ، يا حماري يا عزيز عيني وأحشائي ؟

وكان وهو يقول ذلك يقبّله ويربت عليه وكأنّه إنسان عاقل ، ولكنّ الحمار صمت ، لايدري ماذا يقول ، تاركاً سنشو يقبّله ويربت عليه دون أن يرد عليه بكلمة . ووصلت الرفقة كلّها ، وكلّهم يهنّئ سنشو بعثوره على حماره ، وقال له دون كيخوته إن عثوره على حماره لن يجعله يعدل عن منحه الجحاش الثلاثة ، وكانت لفتة كريمة تلقّاها سنشو بعرفان الجميل .

وبينما كان الفارس وسائسه يتحدّثان معاً في خلوة ، كان القس قد هنّأ دوروتيه على ما أبدته من مهارة وفطنة ، سواء في اختراعها قصّتها وفي تلوينها بلون قصص الفروسية . فأجابت بأنه كان يلذ لها قراءة كتب الفروسية ولكن لأنها لم تكن تعرف أين توجد المقاطعات وموانئ البحار ، فإنّها قالت إنها نزلت في ميناء أشونه . فقال القس :

ـ لقد لاحظت ذلك ، ولهذا بادرت الى القول لإصلاح الموقف .

لكن أليس من الغريب أن نرى ذلك الرجل المسكين يصدّق بسهولة كل هذه الإختراعات والأكاذيب لا لشيء إلا لأنهّا من أسلوب ترّهات كتبه التي أولع بها ؟

وقال كردنيو : نعم إنه لجنون بلغ من الغرابة حداً يتساءل معه المرء ما إذا أراد اختراعه على هواه أو كان يجد عقلاً ساذجاً يمكن أن يتعلّق به وينطلي عليه أمره ؟!

وعاد القس يقول : لكن هناك ماهوأدهى من ذلك : فإنه بخلاف التهاويل التي ينزلق اليها هذا الرجل البسيط ، يكفي أن يطرق المرء موضوعاً آخرو إذ به يكشف عن رجاحة تفكير ووضوح ذهن وتعقّل في كل شيء . فلو لم يطرق المرء موضوع الفروسيّة الجوّالة ، لما شكّ أحدٌ في أنة سليم العقل مستقيم التفكير .

وبينما كان أولئك في غمرة هذا الحديث ، كان دون كيخوته وسنشو پنثا يتجاذبان أطراف الكلام : قال له دون كيخوته :

ـ صديقي پنثا ، لننسَ خلافاتنا ولنعقد السلم ولتخبرني الآن ، دون أن تحمل في نفسك حنقاً ولا غضباً ـ حدّثني : كيف ومتى وأين وجدت دلثنيا . ماذا كانت تعمل ؟ وماذا قلت لها ؟ وبماذا أجابتك ، وماذا ارتسم على تعابير وجهها لدى قراءة رسالتي ؟ ومن الذي خطّ لك الرسالة ؟ وبالجملة اذكر لي كل ما تراه خليقاً بالسؤال عنه ومعرفته في هذه المغامرة ، ولا تكذب ولا تتزيّد طمعاً في زيادة رضاي ، ولا تقلّل حتّى لاتقل لذّتي .

فقال سنشو : مولاي! إن شئت الصدق قلت لك إن أحداً لم يخطّ الرسالة ، لأنني لم أحمل رسالة ما .

فقال دون كيخوته : الأمر كما تقول لأنّي بعد يومين من رحيلك عثرت على الدفتر الذي كتبتها فيه ، مما أثار في نفسي ألماً بالغاً ، لأنّي لم أدر ماذا ستقول حينما ترى نفسك دون رسالة ، واعتقدت أنّك ستعود لأخذ الرسالة لمّا تجد نفسك بدونها .

فأجاب سنشو : هذا ماكنت فاعله لو أنني لم استظهرها حينما قرأها مولاي ، لقد حفظتها عن ظهر قلب حتّى رويتها لحارس كنيسة أثبتها على الورق كلمة فكلمة حتّى قال لي أنّه لم يقرأ في حياته رسالة رقيقة كهذه ، على الرغم من أنه قرأ الكثير من بطاقات الدفن .

فسأله دون كيخوته : وهل لاتزال تحفظها ؟

فأجاب سنشو : كلاّ يامولاي ، فمنذ أن رويتها لحارس الكنيسة رأيت أنه لاجدوى بعد من إبقائها في الذاكرة ، فعملت على نسيانها . ولو بقي منها شيء في الذاكرة فهو استهلالها : سيدتي(النيلة) أقصد النبيلة . والخاتمة : «المخلص لك حتّى الممات ، الفارس الحزين الطلعة» . وبين الاستهلال والخاتمة وضعت ثلاثمائة نفس وحياة وعيون جميلة .

الفصل الحادي والثلاثون

في الحديث الشائق الذي دار بين دون كيخوته وسنشو پنثا ومغامرات أخرى

وعاد دون كيخوته ليقول :

ـ كل هذا لا يضايقني ، استمر في حديثك . حينما اقتربت منها ، ماذا كانت تعمل ملكة الجمال هذه ؟ لقد وجدتها من غير شك تسلك الدرر في عقد ، أو تطرز بخيط من الذهب كلمات غراميّة لأسيرها الفارس .

فأجاب سنشو : لقد وجدتها تغربل قدحين من القمح في الحوّاش .

فقال دون كيخوته : قدّر أنّ حبّات القمح لمّا مستها أناملها تحوّلت الى حبّات من اللؤلؤ . لكن هل لاحظت ماإذا كان من خالص القمح الأبيض ، أو من الغليظ الأسمر ؟

فأجاب سنشو : كان من الشعير الأبيض .

فقال دون كيخوته : ورغم ذلك أؤكّد لك أنّه بعد أن غربلته بيديها تحوّل الى أجود أنواع القمح . لكن دعنا من هذا . حينما سلّمتها رسالتي ، هل قبّلتها ؟ هل رفعتها فوق رأسها ؟ هل قامت بمراسم جديرة بمثل هذه الرسالة ؟ وبالجملة ، ماذا فعلت ؟

فأجاب سنشو : في اللحظة التي تهيّأت فيها لتسليمها الرسالة كانت في حميّة العمل تهزّ في الغربال مقداراً كبيراً من القمح ، وهنالك قالت لي : ياولدي ، ضع هذه الرسالة على هذه الزكيبة ، فلن أقرأها قبل أن أفرغ من غربلة هذا القمح كلّه .

فقال دون كيخوته : يالها من فتاة حريصة! ذلك أنها قصدت من ذلك أن تقرأ الرسالة على مهل لكي تستمتع بكل مافيها من عبارات . استمر في حديثك ياسنشو . بينما كانت بسبيل إنهاء عملها ، فيما تحدثتما ؟ وماذا كانت أسئلتها بشأني ؟ وبماذا أجبت ؟ انته من حديثك ، قصّ عليّ كل شيء ولا تنس حرفاً واحداً .

فأجاب سنشو : لم تسألني أي سؤال . أمّا أنا فقد ذكرت لها كيف أنّ مولاي بقي هناك

للقيام ببعض المجاهدات لخدمتها وكيف أنك كنت عارياً من الوسط حتّى الرقبة ، معتزلاً في أعمال الجبال والصخور ، كأنك متوحّش حقّاً ، تنام على التراب ولا تتناول خبزاً على مائدة ولاتمشّط لحيتك ، دائم البكاء والنواح تلعن حظّك العاثر .

فقال دون كيخوته : لقد أخطأت العبارة حين قلت أنّي ألعن حظّي العاثر ، لأنّي على العكس من ذلك أبارك حظّي وسأباركه طوال عمري ، إذ جعلني جديراً باستحقاق حب سيّدة كبيرة مثل دلثنيا دل توبوسو .

فقال سنشو : أمّا أنها كبيرة فهذا صحيح ، وأستطيع بكل إطمئنان أن أؤكّد أنها أطول مني بشبر .

فقال دون كيخوته : وكيف عرفت هذا يا سنشو ؟ هل قست نفسك بها ؟

فأجاب سنشو : قست نفسي بها على هذا النحو ، وهو أنني اقتربت منها لأساعدها في حمل زكيبة قمح على حمار فاقترب كلانا من الآخر بحيث استطعت أن ألحظ أنّها أطول منّي .

فقال دون كيخوته : ولكن أليس من الحق أيضاً أنها تصحب كبر البنية بآلاف من رشاقة الروح ؟ هناك شيء لا تستطيع أن تنكره ياسنشو : حينما اقتربت منها ، ألم تستروح عطراً رائعاً وأريجاً لطيفاً كأريج المسك بل أعذب ، ونسمات رقاقاً ، وكأنك كنت في دكّان عطّار رقيق ؟

فأجاب سنشو : كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني شممت رائحة كرائحة الرجال ، ولاشك أن ذلك كان بسبب ماتصبّب منها من عرق غليظ من فرط المجهود .

فقال دون كيخوته : ليس الأمر كذلك ، بل لابدّ أنّك كنت مزكوماً أو كنت تشمّ رائحتك أنت نفسك ، لأنّي أعلم رائحة هذه الوردة بين الأشواك ، هذه الزنبقة في الحقول ، هذا العنبر المحلول .

فأجاب سنشو : هذا ممكن ، لأنّي كثيراً ما أشمّ خارجة منّي تلك الرائحة نفسها التي بدت لي خارجة من بدن صاحبة العصمة السيّدة دلثنيا . لكن لاداعي للدهشة من هذا فالشياطين أشباه .

وهناك قال دون كيخوته : ثمّ لمّا فرغتْ من غربلة القمح وأرسلته الى الطاحونة ، ماذا فعلت حينما قرأت رسالتي ؟

فقال سنشو : أمّا الرسالة فلم تقرأها لأنها قالت أنها لاتعرف الكتابة ولا القراءة ، بل بالعكس مزقتها قطعاً صغاراً وهي تقول أنها لاتريد أن يقرأها أحد حتّى لايطّلع أحد من أهل

الناحية على أسرارها وأنّه كفاها ماسمعته منّي شفاهاً مما يتعلّق بحب مولاي لها ، وما تقوم أنت به من مجاهدات شاقة بشأنها . وأخيراً قالت لي أن أقول لك أنها تقبّل يديك ، وأنّها تودّ أن تراك أكثر مما تودّ أن تكتب إليك ، ولهذا ترجوك وتأمرك في الحال أن تترك هذه الأحراش وتوقف هذه الحماقات وتمشي فوراً الى التوبوسو ، لأنّها تموت هياماً برؤياك ، اللهمّ إلا إذا أعاقك عن ذلك أمر أهم . وقد ضحكت ملء فيها حينما قصصت عليها أنّ مولاي قد تسمّى باسم «الفارس الحزين الطلعة» . وسألتها ماإذا كان قد زارها ذلك الرجل البشكوني ، فأجابت بالإيجاب وقالت إنه رجل ظريف جداً . وسألتها نفس السؤال فيما يتّصل بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، فقالت إنه لم يزرها أحد منهم بعد .

فقال دون كيخوته : كل شيء حتّى الآن على مايرام ، لكن قل لي ، حينما ودّعتها أيّة حلية هدتك للأنباء التي حملتها اليها عن فارسها ؟ لأن العرف القديم المقدّس الجاري بين الفرسان الجوالة وصواحبهم يقضي بإهداء السائسين أو الوصيفات أو الأقزام الذين الى فرسان سيداتهم أو سيّدات فرسانهم أنباءً عنهم ـ إهدائهم حلياً نفيسة مكافأة عن الرسالة .

فأجاب سنشو : هذا ممكن ، وأرى من ناحيتي أنّ هذا عرف جميل ، ولكنّ لاشكّ أنّ هذا العرف كان جارياً في الأزمنة الخالية فقط ، أمّا اليوم فالعادة لابدّ جرت بالإكتفاءبإعطاء رغيف أوقطعة من الجبن ، لأنّ هذا هو ما أعطتنيه السيّدة دلثنيا من فوق سور الحوش حينما ودّعتها ، وهذا الجبن جبن غنم .

فقال دون كيخوته : إنها كريمة الى أقصى حدود الكرم ، وإذا كنت لم تتلقّ منها حلية ذهبية فلابدّ أن ذلك لأنّه لم يكن في متناول يديها شيء لتهديه اليك . لكنّ المؤجّل غير مضيّع ، سأراها وسأرتّب الأمر . هل تعرف مم أنا مندهش ياسنشو ؟ من أنّه يبدو لي أنّك قمت برحلتك ذهاباً وإيّاباً على متن الهواء ، لأنّك لم تقضِ إلا ثلاثة أيّام ـ ذهاباً وإياباً ـ من هذه الجبال الى التوبوسو ، بينما المسافة من هنا الى هناك تبلغ ثلاثين فرسخاً على الأقل . هذا يجعلني أحسب أنّ هذاالساحر الحكيم الذي يعنى بأموري وهو صديقي ـ فلا بدّ أن يكون لي صديق ، وإلاّ لم أكن فارساً جوّالاً حقّاً ـ أقول أن هذه الساحر لابدّ أنّه قد ساعدك على المسير دون أن تشعر بذلك . والحق أن ثمّة حكماء يأخذون الفارس الجوّال من سريره وهو مستغرق في النوم ، ودون أن يشعر يستيقظ في الغداة واجداً نفسه في مكان يبعد بآلاف الفراسخ عن المكان الذي كان نائماً في سريره فيه . ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطاع الفرسان الجوّالة أن يساعد بعضهم بعضاً في إبان الخطر ، كما ينجد بعضهم بعضاً في كلّ مناسبة . فقد يحدث أن يكون أحدهم في معركة في جبال أرمينية ضد أفعى أو تنّين ،

أوضدّ فارس أخر ويقع في خطر الموت ، وفجأة ودون أن يشعر يأتي الفارس من أصدقائه على سحابة أو عربة من نار قادماً من انكلترا ليدافع عنه وينقذ حياته ، وحينما يأتي الليل يعود الى بيته ويتناول عشاءه على مائدته في هدوء ، ورغم ذلك فإن المسافة بين كلا الموضعين تبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف من الفراسخ . وإنّما يتم هذا كلّه بفضل علم وحكمة هؤلاء الحكماء السحرة الذي يسهرون على رعاية أولئك الفرسان الشجعان . ولهذا لا أجد مشقّة ياصديقي سنشو في الإعتقاد في أنّك ذهبت فعلاً الى التوبوسو وعدت منها ، فلابد كما قلت لك أن أحداً من الحكماء الأصدقاء قد حملك على جناح طائر دون أن تشعر أنت بذلك .

فقال سنشو : هذا ممكن ، لأن روثينانته كانت تسير ببطء كبطء حمير الغجر في أذانها الزئبق .

فصاح دون كيخوته : ماذا تقول : الزئبق ؟! لقد كانت عصابة من العفاريت تسير وتسيّر غيرها ، دون أن تكلّ ، وحسبما يحلو لها . لكن دعنا من هذا وقل لي ماذا يجب عليّ أن أعمله فيما يتعلّق بالأمرالذي بعثت به سيّدتي ، أمرها إيّاي بزيارتها ؟ إنّي أرى إنّي ملزم بتلبية أمرها ، ولكن هذا يجعل من المستحيل عليّ أن أقوم بأداء النعمة التي وهبتها للأميرة التي ترافقنا ، وقوانين الفروسية تلزمني بإطاعة ماتعهّدت به أولى من إطاعة ملذّاتي . من ناحيتي تحفزني الرغبة لرؤية سيّدتي ، ومن ناحية أخرى يدعوني العهد الذي قطعته والمجد الذي ينتظرني من وراء هذه المغامرة . وأرى أن أعمل الآتي : سأسرع السير الى حيث يوجد هذا المارد ، وحينما أصل اليه سأحزّ رأسه ، وأعيد الأميرة الى عرشها في مملكتها ، فإذا تمّ هذا ، أرحل وأعود لرؤية هذا الكوكب الذي يضيء بنوره إحساسي . فأقدم بين يديها الأعذار فلا تغضب بل بالعكس تطرب لتأخّري حينما ترى هذا التأخّر مصدراً لمجدها وشهرتها ، لأن كل ماأناله من مجد وكل مانلته وسأناله في السلاح في هذه الحياة الدنيا إنّما أدين بالفضل فيه لما تمنحينه من عطف وما تحبوني به من نعمة حبّها .

فقال سنشو : يا للعذراء! كم أنت ضعيف العقل! لكن قل لي يا مولاي ، هل تريد أن تقطع هذه المسافة كلّها لشمّ الهواء! وهل تدع فرصة هذا الزواج السامي تفلت من بين يديك ، بينما بائنتها مملكة يحيطها أكثر من عشرين فرسخ - كما أخبروني - وفيها كل ما هو ضروري لإقامة أود الإنسان ، وبالجملة هي أكبر من البرتغال وقشتالة مجتمعتين ؟ كلاّ! اسكت بحق الله واخجل مما قلته واتّبع نصيحتي واغفر لي ، وأعقد قرانك في أوّل قرية نمر بها ونجد فيها قسّيساً ، وإلاّ ، فها هنا صاحب الإجازة يستطيع أداء هذه المهمّة على خير وجه ، واعلم أنّ

سنّي تسمح لي بإسداء النصائح ، وأنّ نصيحتي هذه تلائمك كل الملائمة ، لأنّ عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة ، وإذا أعطاك أحداً خاتماً فمد إصبعك للبسه .

فقال دون كيخوته : انتبه أنت أيضاً ياسنشو : إن كنت تنصحني بالزواج حتّى أصير ملكاً لمّا أن أقتل المارد ، ويكون في مقدوري حينئذ أن أمنحك المنح وأعطيك ماوعدتك به ، فإنّي أنبّهك كذلك بأنّي أستطيع أيضاً أن أحقق أمنيتك دون أن أتزوّج . فإنّي قبل أن أبدأ المعركة مع المارد سأشترط أنني إذا خرجت منها ظافراً فيجب إعطائي شطراً من المملكة سواء تزوّجت أو لم أتزوّج ، شطراً أستطيع أن أمنحه لمن أشاء . ولمن تظن أنّي سأعطيه إن لم يكن لك أنت ؟

فقال سنشو : هذا واضح ، ولكن لينتبه مولاي حتّى يختار هذا الشطر في ناحية البحر ، حتّى إذا لم يطب لي المقام استطعت أن أبحر مع رعاياي الزنوج ، لأفعل بهم ماذكرته من قبل . ولا تهتم الآن بزيارة السيدة دلثنيا ، بل اذهب فوراً لقتل المارد ، ولننتهي من هذه المسألة التي تبدو لي بحق الله ذات شرف عظيم وربح جسيم .

فقال دون كيخوته : أقول إنّك على حق يا سنشو ، وسأتّبع نصيحتك فيما يتّصل بالذهاب مع الأميرة ، لا الى دلثنيا ، لكنّي أحذّرك من عدم البوح بشيء لأحد ، حتّى ولا أولئك الذين في صحبتنا لأن دلثنيا من التواضع والحياء ، بحيث لاتريد أن يعلم أحداً عن أسرارها شيئاً ، وسيكون شيئاً خطيراً حقاً أن تفشي أسرارها عن طريقي أو عن طريق من يتّصل بي .

فقال سنشو : لكن إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يرى مولاي أنّ على الذين يظفر بهم أن يمثلوا أمام السيّدة دلثنيا ؟ أليس هذا اعترافاً صريحاً بأنّك تحبّها وأنّك عاشقها ؟ ومادمت تلزم كل هؤلاء بالذهاب للركوع أمامها وأن يقولوا أنهم جاءوا من قبلك ليقدّموا فروض الطاعة والولاء ، فكيف تظل مع هذا أسراركما مصونة ؟

فقال دون كيخوته : أوه كم أنت ساذج مغفّل! أولا ترى أن هذا كلّه تمجيدٌ لها وتعظيم ؟ ألا فلتعلم إذن أن أسلوب الفروسية يجعل شرفاً عظيماً أن يكون في خدمة السيدة عدد جمّ من الفرسان الجوّالة ، دون أن يتجاوز فكرهم مجرّد أن يتشرّفوا بخدمتها ، لالشيء إلا لأنّها هي ، ودون أن يتوقّعوا عن خدماتهم وتمنّياتهم مكافأة غير أن تسمح لهم بأن يكونوا لها فرساناً .

فقال سنشو : هذا هو الحب الذي سمعت الواعظ ينصح به في حب سيّدنا المسيح : أن يحب المرء لذاته ، دون أن يكون الدافع لذلك رغبة في الجنّة أو رغبة من النار ، وإن كنت أنا أقنع بحبّه وخدمته لسبب من الأسباب .

فصاح دون كيخوته : يالك من شيطان! إن لك لخواطر رائعة في بعض الأحيان! حتى ليقول المرء أنّك درست(اللاهوت) في شلمنقة .

فأجاب سنشو : إنني لا أعرف حتّى الكتابة!

وفي تلك اللحظة صاح الأسطى نقولا فيهما لينتظراه ، لأن رفقاءه يريدون الإرتواء من ينبوع موجود على حافة الطريق . فتوقّف دون كيخوته مما أشاع السرور في نفس سنشو إذ شعر هذا بأنّه متعب من فرط ماكذب وكان يخشى أن يكتشف مولاه كذبه ،ولكنه وإن كان يعلم أن دلثنيا كانت فلاحة في قرية التوبوسو ، فإنه لم يرها بعينه . وخلال هذه الفترة كان كردنيو قد لبس الملابس التي كانت دوروتيه ترتديها لمّا أن التقوا بها ، وهي ملابس إن لم تكن فاخرة فقد كانت أفضل بكثير من تلك التي كان يلبسها من قبل .

ونزلوا جميعاً عند الينبوع ، وتبلّغوا ببعض ماتزوّد به القس من الفندق وكانوا جياعاً كل الجوع .

وأثناء تناولهم الطعام مرّ غلام على الطريق ، وتوقّف ليتفرّس في وجوه الجالسين عند الينبوع ، ثمّ عدا نحو دون كيخوته وعانق قدميه وأنشأ يبكي بدموع غزار ويقول : مولاي! أوَلا تعرف من أنا ؟ تأمّل في وجهي جيّداً ، إنني أندريس ذلك المسكين الذي حللتم وثاقه من شجرة السنديان . هنالك تعرّفه دون كيخوته وأمسك بيده وتوجّه الى الحاضرين بهذا الكلام يقول بجد :

ـ من هذا ترون ياسادة أهمية وجود فرسان جوّالة في هذا العالم للإنتصاف من الآثام والذنوب التي يرتكبها الأشرار والأوغاد . ألا فلتعلموا أنه منذ بضعة أيّام كنت أمر بالقرب من هذه الغابة فسمعت صرخات وأنيناً كأنين البائس المتألّم . فأسرعت ، يدفعني الواجب ، الى المكان الذي انبعثت منه هذه الشكاة الأليمة ، فوجدت هذا الفتى مقيّداً في شجرة سنديان ، وهذا أمر تبهج له نفسي كل البهجة ، فهذا شاهد على صدق ماأقول . لقد كان مقيّداً في السنديانة عارياً من الرأس حتّى الوسط وكان ثمة جلف ـ عرفت من بعد أنّه سيّده ـ يمزّق جلده بضربات من سيور فرس . فلمّا شاهدت هذا المنظر سألت ذلك الفلاح عن السبب في هذه المعاملة القاسية الفظيعة . فأجابني الوغد بأنّ هذا الغلام هو خادمه ، وأنّه كان يجلده لأنّ بعض الوان الإهمال التي ارتكبها يشمّ منها رائحة اللصوصية لا الغفلة . هنالك صاح هذا الولد : «سيّدي ، إنّه يجلدني لأنني طلبت منه أجري» . فأجاب سيّده بعبارات جوفاء واعتذارات ، قبلت سماعها دون تصديقها . وأخيراً حللت وثاق الولد المسكين وحملت ذلك الوغد على أن يقسم بأنه سيعود بالغلام الى البيت ويدفع له أجره فلساً فلساً ، بل وبفائدة . أليس الأمر

كذلك يا ولدي أندريس ؟ أما شاهدت كيف كنت آمر سيّدك باستعلاء ، وكيف وعدني بكل تذلّل أن ينفّذ كل ما أمرته به ؟ أجب بلا تردّد ، وارو لهؤلاء السادة كيف جرى الأمر ، حتّى يرى الناس الفائدة من وجود الفرسان الجوّالة على الطرقات العامة ، كما سبق أن قلت .

فقال الغلام : كل ما قاله سيدي هو الحق كل الحقّ ، بيد أن نهاية المسألة قد جرت على عكس ماتتخيّل .

ـ على العكس ؟ كيف هذا ؟ هكذا قال دون كيخوته . هل لم يدفع لك ذلك الوغد ؟

فأجاب الغلام : ليس فقط لم يدفع لي! بل لم تكد ياسيّدي تخرج من الغابة ونبقى وحدنا حتّى أمسكني وقيّدني بشجرة السنديانة ، وانهال عليّ ضرباً بالسيور ، ولم يخلّ عنّي حتّى سلخني سلخ القدّيس برتلوميو ، وكل ضربة كان يصحبها بنكتة أو سخرية ليهزأ بك ، ولولا الألم في أضلاعي لضحكت أنا أيضاً ما كان يقول . وعلى كل حال فقد تركني على حالٍ اضطررت معه الى ملازمة المستشفى للعلاج مما أصابني به هذا الشرّير ، وكل هذا سببه أنت يا سيّدي ، إذ لو كنت مضيت لسبيلك دون أن تأتي حيث لم يدعك أحد ودون أن تحشر نفسك في شؤون غيرك ، لكان سيدي اكتفى بإثنتي عشرة أو أربعة وعشرين جلدة ، ، ثمّ حلّ وثاقي ودفع لي أجري كلّه ، لكنّك ياسيّدي رحت تشتمه بغير داعٍ وتنهال عليه بالسباب حتّى ثار الغضب في أنفه ، ولمّا كان لم يستطع أن ينتقم لنفسه منك ، فقد انتقم لنفسه في شخصي وانقضّت سحابة غضبه عليّ ، حتّى أنني لن أكون رجلاً طوال حياتي .

فقال دون كيخوته : سبب المصيبة هو أنني تركتكما مبكّراً ولم أنتظر حتّى تنال أجرك . لقد كان عليّ أن أعرف من طول الخبرة ، أنّ النذل لايمكن أن يفي بعهده ، إلاّ إذا كان لا مفرّ له من ذلك . لكنك تذكّر ياأندريس أنني أقسمت أنني سأعود للبحث عنه إذا لم يدفع لك ، وسأعثر عليه حتّى لو اختفى في بطن الحوت .

فقال أندريس : نعم! ولكن هذا لم يفد شيئاً .

فصاح دون كيخوته : سترى الآن إذا كان في هذا فائدة!

وماقال ذلك حتّى نهض مسرعاً ودعا سنشو وأمره بأن يسرج روثينانته وكانت ترعى بينما كان القوم يأكلون . هناك سألت دوروتيه دون كيخوته عمّا أعزم فعله . فقال دون كيخوته إنه عازم على البحث عن هذا الوغد لعقابه جزاء وحشيّته ولإرغامه على دفع أجر أندريس الى آخر مرابطي ، رغم أنف جميع الأوغاد في العالم . لكنّها نبهته الى أنه حسب المنحة التي وعد بها لا يستطيع خوض أية مغامرة قبل تنفيذ المهمّة الخاصة بها ، ودون كيخوته يعلم ذلك تمام العلم لهذا يجب عليه أن يكظم غضبه الى حين رجوعه من مملكتها .

فأجاب دون كيخوته : لك الحق ، وعلى أندريس أن ينتظر حتّى أعود ، كما قلت يا سيّدتي ، بيد أنّي أقسم مرّة أخرى وأعد بشرفي أنني لن يهدأ لي بال حتّى يُنتقم له ويدفع .

فقال أندريس : هذه الأيمان لا تهمّني ، وأودّ خيراً من هذا أن يكون في يدي الآن مايمكّنني من الذهاب الى اشبيلية ، فهذا أفضل عندي من كل أنواع الإنتقام ، فأعطني شيئاً أتبلّغ به إذا كان معكم طعام أو ما أضعه في جيبي ، والله يحرسك أنت وجميع الفرسان الجوّالة وأتمنّى لهم حظّاً سعيداً مثل حظّي معهم .

هنالك أخرج سنشو من خرجه قطعة من الخبز والجبن وقدمهما الى الفتى قائلاً : خذ ياأخي أندريس ، وبهذا ينال كلّ منّا حظّاً من مصيبتك .

فسأله اندريس : وأي شطر ينالك أنت ؟

فأجاب سنشو : إن هذه القطعة من الخبز والجبن التي أعطيتها لك . والله يعلم حاجتي اليها ، إذ يجب أن تعلم يا صديقي أننا سائسي الفرسان الجوّالة معرّضون للجوع والبؤس ولأمور كثيرة أخرى الإحساس بها أقوى من التعبير عنها .

فأخذ أندريس الخبز والجبن . ولم ير أحداً آخر مستعداً لإعطائه شيئاً ، فحنى رأسه وأدار ظهره وأمسك الطريق بيديه كما اعتاد القوم أن يقولوا . غير أنّه قال لدون كيخوته وهو يرحل :

ـ استحلفك بالله أيها الفارس الجوّال إذا لقيتني مرة أخرى فلا تنهض لنجدتي حتّى لو رأيتني أمزّق إرباً إرباً ، بل دعني في محنتي فإنها لن تكون أسوأ مما يصيبني بسبب نجدتك إيّاي ، وإنّي لأدعو الله أن يلعنك أنت وجميع الفرسان الجوّالة في الدنيا .

فهبّ دون كيخوته لعقاب هذا الفتى الوقح ، لكن هذا جرى سريعاً فلم يخطر ببال أحد اللحاق به .

وظلّ فارسنا إذن في مكانه ، والخجل يسربله بسبب حكاية أندريس هذه ، وأمسك الأخرون أنفسهم جهدهم حتّى لا ينطلقوا في الضحك ، كيلا يثيروا حفيظة دون كيخوته .

الفصل الثاني والثلاثون

فيما جرى في الفندق لأفراد كوكبة دون كيخوته

وما انتهت المأدبة الفاخرة حتى أسرجت الخيول ، وفي الغد وصلت الجماعة الى الفندق ، مثار خوف سنشو پنثا ، دون أن يقع ما يستحقّ الذكر . وودّ سنشو لو لم يدخل الفندق . بيد أنّه لم يكن في وسعه تجنّب ذلك . فصاحب النزل وامرأته وابنتهما وماريتورنس ، وقد شاهدوا دون كيخوته وسنشو ، خرجوا للقائهما وقابلوهما بأعظم مظاهر الحفاوة والسرور . ولكنّ فارسنا تلقّاهم بوجه عابس جادّ وطلب اليهم أن يعدّوا له فراشاً أحسن من الفراش الذي هيأوه له في المرة الأولى . فقالت صاحبة النزل إنه سيجد منامة أمير بشرط أن يدفع الثمن . فوعد دون كيخوته بالدفع ، ونصب له سرير مقبول في نفس العنبر الذي بات فيه المرّة الأولى ، وذهب على الفور لينام لأنه كان محطّم البدن موهون العقل .

ولم يكد يغلق الباب ، حتّى اقتربت صاحبة النزل من الحلاّق ووثبت على وجهه وأمسكت بلحيته بيديها وقالت :

ـ والله لن تستخدم ذيلي بعد اليوم لحية لك ، وعليك أن تسلّمني إيّاه فوراً . فمنذ أخذته فإنّ أقذار زوجي تزحف على الأرض وإنه لعار ، أقصد المشط الذي كنت أعلّقه على ذيلي .

وراحت صاحبة النزل تشدّ لحيته ، ولكنّه رفض أن يسلّمها اليها . وهنا قال القسّيس للحلاّق إنه يستطيع الآن رد هذا الذيل ، فما ثمّ حاجة بعد الى الاستمرار في هذه الحيلة ويمكنه أن يظهر في مظهره العادي . وقال :

ستقول لدون كيخوته أنه بعد أن سلبك المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هربت ولجأت الى هذا الفندق وإذا سأل عمّا جرى لسائس الأميرة فسيقال له أنها أمرته بأن يسبقهم ليعلن للناس في مملكتها أنها عائدة بصحبة من سيحرّرها ويحرّرهم .

هنالك أعاد الحلاّق الذيل الى صاحبة النزل وأعيدت اليها كل الخرق وأدوات الزينة التي أعارتها إيّاهم لإنقاذ دون كيخوته .

وأخذ جمال دوروتيه وحسن طلعة الراعي كردنيو بألباب كل من في النزل . وطلب القسّيس إعداد عشاء حسبما وجد في النزل ، وقدّم لهم صاحب الفندق طعاماً بالفندق ، طعاماً لابأس به ، على أمل أن يدفع له بسخاء . بيد أنّ دون كيخوته استمرّ يغط في نومه ، واستقرّ الرأي على عدم إيقاظه ، فالسرير كان أنفع له من المائدة . وفي أثناء العشاء كان الكلّ : صاحب النزل وزوجته وابنته وماريتورنس وجميع النزلاء يستمعون الى قصّة جنون دون كيخوته المسكين والحال التي وجدوه عليها في الجبل . وروت صاحبة النزل ماحدث له مع صاحب البغال ، وروت كذلك حكاية تقليب سنشو مما أثار المرح في جميع الحاضرين ولم يكن سنشو فيهم . وبهذه المناسبة قال القسّيس إن كتب الفروسيّة التي قرأها دون كيخوته هي التي أوقعت الخبال في عقله ، فصاح صاحب النزل :

ـ لست أدري كيف وقع هذا ، أمّا عن نفسي فالحقّ أقول إنني لاأعرف قراءة ألذ من قراءة هذه الكتب . وعندي هناك إثنان أو ثلاثة كتب منها هي التي أعادت اليّ الحياة مراراً ، كما أعادت الحياة الى كثيرين غيري . ففي أيّام الحصاد يتجمّع هنا عدد كبير من الحصّادين في أيّام الأعياد ، ومن بينهم دائماً شخص يحسن القراءة ، فيتناول واحداً من هذه الكتب ونتحلق نحن أكثر من ثلاثين شخصاً حوله ، ونصغي اليه بلذّة بالغة تنتزع منّا آلاف الشعرات البيض . وعلى الأقل بالنسبة الى نفسي أقول إني حين أستمع الى رواية هذه الضربات الرهيبة العنيفة من السيوف التي يتبادلها الفرسان ، تتملّكني رغبة شديدة في أن أكيل مثلها وأودّ أن أستمع اليها طوال الأيّام والليالي .

فقالت صاحبة النزل : وأنا أيضاً ، فليس ثمّ من وقت لذيذ أقضيه في النزل إلا ذلك الوقت الذي تمضيه أنت في الإستماع ، لأنك تكون حينئذ مستغرقاً بكل نفسك بحيث لاتتذكّر أن تنتهرني .

وقالت ماريتورنس : هذا حقّ والله! إنني ألذّ جداً من سماع هذه الأشياء خصوصاً حين يحكى أنّ السيدة تقف تحت أشجار البرتقال تقبّل حبيبها كما تهوى ، بينما تتولّى حراستهما قهرمانة تموت حسداً ويملؤها الفزع . كل هذا شهي حلو كالعسل .

فقال القسّيس موجّهاً الخطاب الى بنت صاحب النزل : وما رأيك أنت يا آنستي الجميلة ؟

فأجابت : وحق نفسي يا سيّدي لا أدري . ولكن أستمع ، شأني شأن غيري ، ورغم أنّي لا أفهم فإنه يلذّ لي السماع . بيد أنّي لاأسرّ للضربات كوالديّ ، بل تطربني الشكاية والأنين

اللذان يصدران من الفرسان حينما يكونون بعيدين عن حبيباتهم ، وأحياناً أذرف الدموع عطفاً عليهم .

فقالت دوروتيه : وإذن لو كانت دموعهم من أجلك فإنك لا تدعينهم يطيلون الشكاة ؟

فأجابت الفتاة : لست أدري ماأنا فاعلة إذن ، لكنّي أعلم جيّداً أن من بين هؤلاء المحبوبات من هنّ من القسوة بحيث ينعتهم الفرسان بأنهنّ قساة كالنمرة والفهود ، ونعوت سيّئة أخرى . أي يسوع! ماهذا النوع من البشر عديمي الروح والضمير ، حتّى يدعوا الرجل الفاضل يموت أو يجن ولايمنحونه نظرة! ولاأدري لماذا كل هذا التعقيد : إن كنّ يفعلن ذلك لحكمة ، فلماذا لايتزوّجن بهم لأنّ هؤلاء لا يريدون شيئاً غير ذلك .

فقالت ربّة النزل : اخرسي يا بنيّتي . ليقال إنّك تعرفين الشيء الكثير عن هذا الموضوع ، ولا يخلق بمن في سنّك أن تعرف هذا كلّه وتثرثر كل هذه الثرثرة .

فأجابت البنت : مادام هذا السيّد يسألني فعليّ أن أجيب .

فقال القسّيس : والآن أرني هذه الكتب يا صاحب النزل فإنّي أودّ أن أراها .

فأجاب هذا قائلاً : عن طيب خاطر! ـ ثمّ ذهب الى غرفته وعاد منها بخزانة قديمة مغلقة بقفل ، ثمّ فتحها وأخرج منها ثلاث مجلّدات ضخمة ، أخذها القسّيس ووجد أوّلها هو : «دون ثيرونخيلو التراقي»[1] والثاني : «فليكسمارتي الهركاني»[2] والثالث : «قصّة القائد العظيم غنصالبه هرناندث القرطبي مع حياة دييجو غرسيه من باريدس»[3] . وبعد أن قرأ القسّيس عنوان القصّتين الأوّليين ، توجّه الى الحلاّق قائلاً :

ـ زميلي ، إنّ قهرمانة صديقنا وبنت أخيه ينقصاننا الآن!

فأجاب الحلاّق : لا! إنني أيضاً أستطيع حملها الى الفناء ، أو رميها في المدخنة ، ففيها نار متّقدة .

فصاح صاحب النزل : هل تريد فضيلتك إحراق كتبي ؟

فقال القسّيس : هذين فقط : «دون ثيرونخيلو» و «فليكسمارتي» .

فقال صاحب النزل : ماذا ؟ هل كتبي فيها هرطقة أو «سندقة» حتّى تريد إحراقها ؟

فقاطعه الحلاّق قائلاً : «زندقة» لا «سندقة» .

---

(١) تأليف برنردو دي برجاس ، أشبيلية سنة ١٥٤٥ .

(٢) ذكرناه من قبل .

(٣) طبعت في سرقسطة سنة ١٥٥٩ بدون اسم المؤلف . وغنصالبه القرطبي بطل روائي مشهور . أمّا دييجو غرسيه من باريدس فكان مغامراً صعلوكاً تقلّب في عدّة أحوال ، فكان جنديّاً لدى البابا ، وقرصاناً ، وقائداً اسبانياً(في القرن السادس عشر الميلادي) .

فقال صاحب النزل : كما تريد نطقها ، ولكن إذا شئت إحراقها فلا تحرق منها إلاّ قصّة ذلك القائد دييجو غرسيه ، أمّا الآخران فإنني أفضّل أن تحرق زوجي وأولادي ولا يُحرقا .

فأجاب القسّيس : يا أخي! هذان الكتابان قصّتان كاذبتان مليئتان بالحماقات والتهاويل ، أمّا الأوّل فهو على العكس تاريخ حقيقي ، يتحدّث عن مغامرات غنصالبه القرطبي الذي استحقّ بجلائل أعماله الكثيرة أن يلقّب في الدنيا كلّها بلقب «القائد العظيم» وهو لقب لامع واضح استحقّه هو وحده . أمّا دييجو غرسيه من باريدس فكان فارساً نبيلاً ، أصله من تروجّاله Trujillo في استرمدورا ، وكان محارباً صلب العود شديدالأسر ، حتّى أنّه كان يستطيع بإصبعه أن يوقف عجلة طاحونة تدور بمنتهى الشدّة والسرعة . وحدث ذات يوم أن وقف عند مدخل جسر وفي يديه سيف ذو مقبضين فمنع مرور جيش عرمرم . وكان له من المغامرات مالو ترك غيره يصفها بحرّية بدلاً من أن يصفها هو بتواضع الفارس الذي يروي مغامراته بنفسه ، إذن لأنست هذه المغامرات مغامرات هكتور وآخيلوس وورولان .

فصاح صاحب النزل : ستعطيني إيّاه إذن! إن وقف عجلة طاحونة أمر يدعو الى أشد العجب . فمن فضلك إذن دعني أقرأ الآن ماسمعته عن فليكسمارتي الهوركاني الذي كان بضربة واحدة من ظهر كفّه يشق أبدان خمسة مردّة من أوساطها ، وكأنها من لحم اللفت ، أوكصغار الرهبان الذين يصنعهم الأطفال . وذات مرّة هاجم بمفرده جيشاً عظيماً قويّاً مؤلفاً من مليون وستمائة ألف جندي كلّهم شاهر السلاح ، ورغم ذلك مزّقهم جميعاً إرباً إرباً كأنهم قطيع من الضأن . وماذا تقول عن ذلك الشجاع ثيرونخيلو التراقي : لقد كان جسوراً متهوّراً كما سترى في قصّته هذه التي تروي أنّه ذات يوم كان يركب زورقاً في نهر وإذا بتنّين من نار ينبثق فجأة من الماء ، ولم يكد يراه حتّى وثب ثيرونخيليو عليه وامتطى على أكتافه الصدفية وبجمع يديه خنقه من حلقه . فلمّا رأى التنّين أنّه كاد يُخنق عوّل على الغوص في أعماق النهر حاملاً هذا الفارس الذي أبى أن يتركه! فلمّا وصلا الى القاع وجد الفارس نفسه في قصر فخم وسط جنّات رائعه الجمال ، ثمّ تحوّل التنّين الى شيخ وقور راح يقول له أشياء جميلة . هيّا يا سيّدي ، لو شئت قراءة هذا كلّه ، لجننت من اللذّة ، وتينتين[1] لهذا القائد العظيم الذي تقول عنه ، ولد بيجو غرسيه .

ولمّا سمعت دوروتيه هذا الحديث البليغ انحنت الى كردنيو وقالت له بصوت خفيض : لم يبق إلاّ قليل ويصبح صاحب النزل قريناً لدون كيخوته .

(١) تعبير للتحقير مثل قولنا في اللغة الدارجة : طز في...

فأجاب كردنيو : هذا مايبدو لي! إذ يظهر من كلامه أنّه يؤمن كل الإيمان بأنّ كل ماتقوله كتبه هذه قد وقع فعلاً بحذافيره ، وأنا أتحدّى جميع الرهبان الحفاة أن يقنعوه بخلاف هذا .

وفي تلك الأثناء قال القسّيس : لكن حذار ياأخي! إنه لم يوجد في الدنيا أبداً فليكسمارتيه الهوركاني هذا ولاتثيرونخيليو التراقي ، ولافرسان من النوع الذي تصفه كتب الفروسيّة . وماهذا كلّه إلاّ كذب واختلاق ، إن هي إلاّ أساطير اخترعها قومٌ متعطّلون وكتبوها للغرض الذي ذكرته أي لإزجاء الفراغ كما يزجيه الحصّادون عندكم ، وأقسم لك أنه لم يوجد أبداً أمثال هؤلاء الفرسان وأنهم لم يقوموا بهذه المغامرات ولا تلك التهاويل .

فصاح صاحب النزل : قل هذا لغيري! وابحث عن كلب آخر ليعرق عظامك : أو لاأعلم أين يوجعني الحذاء ، أو كم عدد الأصابع في يدي ؟ لاتفكّر في أن تجعلني أبتلع هذه الشربة ، فوالله لست مغفّلاً . أوتريد منّي أن أعتقد أن كل ماورد في هذه الكتب المكتوبة بحروف مصبوبة ليس إلاّ تهويلاً وكذباً ، مع أنها طبعت برخصة وإذن من أعضاء المجلس الملكي ؟! وكأنّ هؤلاء يمكن أن يسمحوا بطبع هذه العشرات من الأكاذيب عن معارك وألوان من السحر يطير لها صواب الإنسان ؟

فردّ القسّ قائلاً : لكنّي قلت لك ياعزيزي إنّ هذا كلّه إنما كتب لتزجية أوقات الفراغ ، وكما يسمح في الدول المنظّمة بممارسة ألعاب الشطرنج وسعف النخل وكرة المنضدة (البلياردو) لشغل فراغ من لايريدون أو لا يستطيعون أو لا ينبغي لهم أن يشتغلوا ، كذلك يسمح بطبع وتداول أمثال هذه الكتب ، على افتراض أنه لا يوجد امرؤ هو من البلاهة والجهل بحيث يعتقد أنّ الحكايات الواردة بها هي حكايات صحيحة وحقائق . ولو كانت لديّ اليوم فسحة من الوقت وأمامي جمهور ملائم ، إذن لقلت عن قصص الفروسيّة وماينقصها لتكون جيّدة صالحة أشياء لعلّها أن تجعلها ليست خلواً من الفائدة بل والمتعة ، لكنّي أرجو أن تتاح لي الفرصة للتفاهم مع أولئك الذين يستطيعون أن يقوّموها . وحتّى ذلك الحين ، ياسيّدي صاحب النزل ، صدّق ماقلته لك ، استعد كتبك ، وهيّئ أمورك مع حقائقها أو أكاذيبها ، ولتعد عليك بالنفع ، والله يعصمك من أن تعرج قدم ضيفك دون كيخوته .

فأجاب صاحب النزل : أمّا هذا فكلاّ! لن يبلغ بي الجنون حدّاً يجعلني فارساً جوّالاً ، وإنّي لأدرك جيّداً أن الأمور لاتجري اليوم كما كانت تجري في الأزمان حينما كان هؤلاء الفرسان المشهورون يجولون في أنحاء الأرض ، كما يقال .

وكان سنشو حاضراً القسم الأخير من هذا الحديث ، وظلّ ساهماً يفكّر فيما سمعه من أنّ الفرسان الجوّالة لم يعد اليوم لهم شأن ، وأنّ جميع قصص الفروسيّة أباطيل وحماقات .

لهذا رأى وقرّر في نفسه ألا ينتظر غير نهاية سيّده الحالية ، فإن لم تكن خاتمتها كما تخيّل فإنه سيرجع الى زوجه وأولاده ليستأنف معهم أعماله العادية .

وأخذ صاحب النزل كتبه وخزانته . بيد أنّ القسّ خاطبه قائلاً :

ـ انتظر قليلاً ، أود أن أشاهد ما في هذه الأوراق المكتوبة بخط جميل .

فاستخرجها صاحب النزل من الخزانة وقدّمها للقسّيس ليقرأها فوجد هذا أنّها تؤلّف كراسة من ثماني ورقات مخطوطة ، وعلى الصفحة الأولى كتب بحروف كبيرة العنوان التالي : « قصّة الفضولي » . فقرأ ثلاثة أو أربعة أسطر منها بصوت هامس ، ثمّ صاح :

ـ إنّ عنوان هذه القصّة يغريني ، وأودّ قراءتها كاملةً .

فأجابه صاحب النزل : أحسنت ياصاحب الفضيلة ، إذ ينبغي أن تعلم أن بعض ضيوفي قرأوها فأعجبوا بها وألحّوا عليّ فوراً في طلبها ، ولكنّني لم أشأ أبداً إعطاءها لأحد ، لأنّي أود ردها الى من نسيها عندي . هنا هذه الخزانة ومافيها من كتب وأوراق . ومن الممكن أن يعود صاحبها ذات يوم فأردها اليه لأنني وإن كنت صاحب نزل فإنني مع ذلك مسيحي تقي ، ورغم أن الكتب هنا تعوزني .

فقال القسّ : أنت على حق يا عزيزي ، لكن إذا أعجبتني القصّة هل تسمح لي باستنساخها ؟

فأجاب صاحب الفندق : نعم طبعاً!

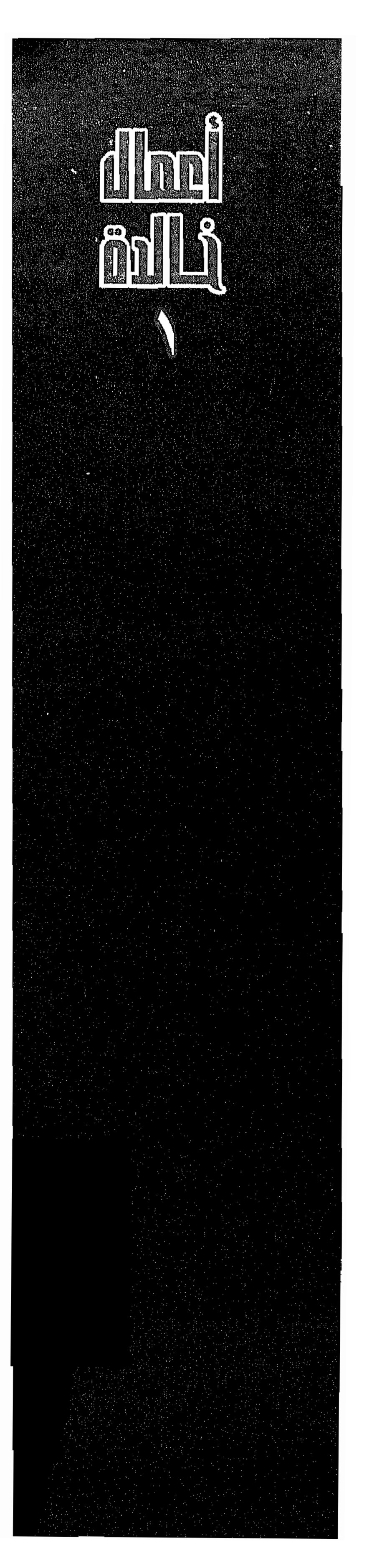
وخلال هذا الحديث كان كردنيو قد تناول القصّة وشرع يقرأ بعض عبارات منها ، وكان رأيه كرأي القسيس فرجاه أن يقرأ بصوتٍ عالٍ حتّى يسمعها الجميع . فقال القسّيس : « كنت لأقرأها عن طيب خاطر إن لم يكن من الأفضل صرف الوقت في النوم لا في القراءة » .

فقالت دوروتيه : إنه لمريح أن يمضي الإنسان ساعة أو ساعتين في الإستماع الى قصة . لأني لا أشعر بهدوء كافٍ كي أنام حسبما أريد .

فقال القس : إذا كان الأمر هكذا ، فإنّي أريد أن أقرأ ، ولو من باب حب الاستطلاع ، وأرجو ألا يخيب رجاؤنا فيها فيكون فيها مايبهج الخاطر . وكذلك قام الأسعلى نقولا وحتّى سنشو نفسه فوجها اليه نفس الرجاء . فرأى القسّيس أن الأمر مما يبهج الجميع ولن يضيّع جهده سدى فقال : إذن أعيروني أسماعكم : هكذا تبدأ القصّة :

(تم الجزء الأول ويتلوه الجزء الثاني ويبدأ بالفصل الثالث والثلاثين)

فهرس الكتاب


أعمال
خالدة
١

الفصل الثالث والثلاثون

ويروي حكاية المستطلع الفاسد الرأي[١]

في فيرنتسة ، وهي مدينة ايطالية شهيرة ثرية ، بمقاطعة توسكانيا ، كان يعيش سيّدان غنيّان ممتازان ، هما أنسامو ولوتريو ، وكان صاحبين بلغا من الصحبة حداً جعل الذين يعرفونهما يسميانهما «الصاحبين» . كانا في ميعة الصبا من سن واحدة ، وذوي مزاج مشترك ، وهذا التوافق زاد في توثيق عرى الصداقة بينهما . وكان أنسلمو يسعى الى لذّات الحب باهتمام أكبر من اهتمام لوتريو الذي كان يفضّل عليها لذّات القنص ، لكن كثيراً ماكان أنسلمو يرى وهو يضحّي بأهوائه ابتغاء اتباع لوتريو في الأحراش ، كما كان لوتريو ينسى القنص ليصحب أنسلمو . وهكذا اتحدت إرادتهما ، كما تسير تروس الساعة الدقيقة .

كان أنسلمو يهوى بجنون فتاة تقطن نفس المدينة ، وكانت من الجمال والحكمة وطيب الأرومة بحيث قرّر أن يخطبها الى أهلها ، وفقاً لمشورة لوتريو الذي لم يكن يفعل شيئاً دون أن يسأله النصيحة . وتولّى لوتريو السفارة بينه وبين أهلها ، ونجح في ذلك المسعى بمهارة حتّى صار أنسلمو بعد قليل من الزمان ينعم بالسعادة التي كان يرنو اليها . ورضيت كميلا هي الأخرى عن هذا الزواج فلم تكف عن حمد الله ثمّ شكر لوتريو الذي اليه يرجع الفضل في سعادتها .

وإبان الأيّام الأولى من الزواج ، وهي في العادة تنقضي في أعياد ، استمر لوتريو في التردّد على صديقه كدأبه تكريماً له واحتفالاً به ماستطاع الى ذلك سبيلاً . فلمّا تمّت مراسم الزفاف وهدأت الزيارات ، إلا وبدأ يقلّل من زوراته ، مقتنعاً بأن الرجل الحصيف

---

(١) هذه الحكاية مستوحاة من «أورلندو الغاضب» لاريوستو . نشيد ٤٢ ، ٤٣ .

ينبغي ألاّ يتردّد على أصدقائه بعد الزواج مثلما كان يفعل قبله حينما كانوا فتياناً . لأنّه على الرغم من أنّ الصداقة الصادقة الحقيقية لايمكن ولاينبغي أن تحيك في صدرها الظنّة ، فإن شرف الزوج من الدقّة بحيث يمكن أن يخدشه حتّى الأخوة أنفسهم ، فما بالك بالأصدقاء! ومالبث أنسلمو أن أدرك الفتور من جانب لوتريو ؛ وشكا اليه منه شكوى حارة قائلاً إنه لو قدّر مقدّماً أنّ زواجه سيقف عثرة في سبيل التقائهما المعتاد ، لما أقدم عليه ، وإذا كانت الصلة الوثيقة قد ربطت بينهما منذ ريق الصبا حتّى أطلق عليهما اسم «الصاحبين» الرقيق ، فلا ينبغي ، بسبب تحوّط لامحلّ له ، فقدان هذا اللقب الكريم الجميل ، وتوسّل إليه ، لو جاز للصداقة أن تستخدم هذه العبارات ، أن يعود إليه ، وأن يكون هو ربّ البيت ، يخرج منه ويدخله كما كان يفعل من قبل ، مؤكّداً له أنّ زوجته كميلا ليس لها من رضا ولامشيئة إلا ذلك اللذان يلهمها إيّاهما ، وأنّها لمّا علمت مدى صحبتهما دهشت من هذا الفتور .وعن هذه الأسباب التي ساقها أنسلمولإقناع لوتريو بالعودة اليه والتردّد كما كان يفعل من قبل أجاب هذا الأخير بلباقة وفطنة واحتشام جعلت أنسلمو يقتنع بطيب مقصده . فاتفقا على أن يأتي لوتريو ــ من الآن فصاعداً ـ لتناول طعام العشاء مرتين كل اسبوع وفي أيّام الأعياد . لكن بالرغم من هذا الإتفاق فقد صمّم لوتريو ألا يأتي أمراً من شأنه أن يمس شرف صديقه ، ذلك الشرف الذي كان عنده أغلى من شرف نفسه . وكثيراً ما كان يقول له ــ وبحق ــ إن أولئك الذين وهبتهم العناية الإلهية امرأة جميلة ، ينبغي عليهم أن يدقّقوا كثيراً في اختيار الأصدقاء الذين يسمحون لهم بزيارة بيوتهم ، وفي اختيار النسوة اللواتي يختلطن بها ، لأنّ مالا يمكن أن يتم التفاهم عليه ولاعمله في الكنائس والمحال العامة والأعياد وأماكن العبادة (وهي أماكن لايستطيع الزوج دائماً أن يمنع زوجته من ارتيادها) يمكن أن يتمّ بسهولة في بيت صديقة أو صاحبة سر ، وبيّن له أن يكون للأزواج صديق صدوق أمين ، ينبّههم الى ماعسى أن تصدر عنهم من أخطاء في إدارة بيوتهم ، إذ كثيراً مايعميهم حبّهم لزوجاتهم فلا يسدون اليهن ـ خوفاً من إغضابهن ــ ما ينبغي من نصائح ليفعلوا هذا وليجتنّبوا ذاك من الأمور التي قد تهين الشرف وتجلب العار والمذمّة ، أمّا إذا نبههم الى ذلك صديق ففي وسعهما أن يعالجوا الأمر بالدواء الناجع . لكن أنّى له بالصديق الأمين الفطن الذي ينشده له لوتريو ؟ لست أدري . إن لوتريو وحده هو الذي يمكن أن يكون له ذلك الصديق ، وهو الساهر على شرف أنسلمو ، والذي كان ينتحل مختلف الأعذار ليتجنّب زيارة صديقه حتّى لايعطي الفرصة للمتبطّلين والأشرار ليلغوا في شرف صديقه ، حين يرون فتىً ثريّاً نبيلاً متحلّياً بآلاف المناقب يتردّد على بيت زوجة رائعة الجمال مثل كميلا ، وعلى

الرغم من أن ماعرف عن هذه السيّدة الشابة من رزانة وحكمة من شأنه أن يضع حداً لسوء المقال ، فإنه لم يشأ أن يدع سمعتها وسمعة أنسلمو تحت رحمة الصدف . وتبعاً لذلك كان ينتحل مختلف الأعذار ، في غالب الأحوال ، حتّى لايأتي في الأيام المتّفق عليها ، ولهذا فإن الصاحبين حين كانا يجتمعان كانا يمضيان الشطر الأكبر من النهار في الشكاة واللوم من جانب ، والإعتذارات من الجانب الآخر .

وذات يوم كان الصاحبان يتريّضان في مرج خارج المدينة ، فقال أنسلمو مخاطباً لوتريو : « لاشكّ ، ياصديقي لوتريو ، أنّ عليّ أن أحمد الله كثيراً على أن جعلني أولد لأبوين مبجّلين مثل والديّ ، وأن أغدق عليّ من خيرات الطبيعة وخيرات الثراء بملء كفّيه . كما أحمده كذلك على أن قيّض لي صديقاً مثلك ، وزوجة مثل كميلا . وأنا أقدّر هذه النعم تقديراً إن لم يكن كفاء مايجب ، فعلى الأقل قدر ماأستطيع ومع كل هذه المواهب التي تؤلّف ـ في العادة ـ السعادة الإنسانية فأنا أشد الناس قلقاً ، وحزناً . ومنذ مدّة لاأدري مداها وأنا فريسة رغبة غريبة خارقة للعادة إلى حد يجعلني أدهش من نفسي ، وأنحني باللائمة على هذه الرغبة وأودّ لو أخفيتها عن أفكاري ، لكنّي أعاني نصباً في إبعادها مثلما سأعاني لو أنّي كشفت عنها لكل الناس . ولمّا كنت لاأملك كتمانها في صدري زماناً أطول ، فإنّي أود أن أفضي بها الى فطنتك ، وأنا مقتنع بأن ماستبذله من حرص تمليه صداقتك لتجد له العلاج ، سيخلّصني عمّا قريب من القلق الذي يمسك بمخنقي ، فأتحوّل من الألم الذي يسببه لي جنوني الى الرضا الذي سيوفّر لي اهتمامك بأمري » .

ولوتريو ، وقد أدهشه حديث أنسلمو ، لم يدر الى أين تفضي هذه المقدّمة الطويلة . فتّش في رأسه عمّا عسى أن تكون رغبة صديقه هذه ، لكنه لم يستطع أن يبلغ شيئاً . وحتّى يضع حداً لهذا العذاب قال لأنسلمو إنّ من الإهانة الى صداقتهما الوثيقة أن يسلك هذه المسالك الملتويةليكشف له عن أخفى أسرار فكره ، لأنّ عليه أن يثق أنه سيتلقّى منه إمّا نصائح يستهدي بها ، أو نجدة لعلاج علله . فأجاب أنسلمو : «أنت على حق ، وبهذا تشجّعني على أن أعترف لك بأن الرغبة التي تعذّبني هي أن أعرف هل كميلا من الكمال والأمانة والإخلاص بقدر ماأعتقد . والوسيلة الوحيدة التي تجعلني أعتقد بهذا ، هي أن أضعها موضع الإمتحان بحيث تتجلّى أمانتها ، مثلما تتجلّى جودة الذهب بفعل النار ، لأنّي أرى أنّ المرأة لايمكن أن يقال عنها أنها فاضلة إلا بعد إغرائها ، والمرأة الأمينة هي تلك التي لاتؤثّر فيها الوعود ولا الهدايا ولاالدموع ولا الحاح العشّاق باستمرار . وهل يعرف المرء للمرأة جميلها من حيث هي صالحة ، إن لم يهيّئ لها الفرصة لتكون فاسدة ؟ وهل من

عجب في أن تكون هيّابة محتشمة ، إذا لم تهيّأ لها الفرصة لتفجر ، وإذا عرفت ، من ناحية أخرى ، أن زوجها قادر على أن ينتزع حياتها لدى أوّل خطيئة ترتكبها ؟ إن المرأة التي لاتكون عاقلة إلاّ عن رهبة أو انعدام فرصة ، لا يمكن أن تقارن بالمرأة التي تغرى ، وتلاحق وتخرج من المعركة وعلى هامتها إكليل النصر . لهذه الأسباب ، وأخرى كثيرة أستطيع أن أسوقها لتبرير رأيى ، أرغب بحرارة في أن تمر زوجتي كميلا بهذه المحن ، وأن تتطهّر على نار الإغراءات والمطاردات الذي يبذلها شخص فيه من الفضل ما يثير رغائبها . فإن خرجت من هذا الإمتحان ظافرة ، كما هو أملي ، فستكون سعادتي بغير نظير ، وأبلغ قمّة أمانيّ ، وسأقول أنّ الحظ حباني بالمرأة القوية التي قال عنها الحكيم[1] : من ذا الذي سيعثر عليها ؟ أمّا إن حدث ماليس في الحسبان فإنّ لذة الإقتناع بصحة رأيي ستخفّف من الألم الذي لابد سيحدثه مثل هذا الإمتحان القاسي . والآن ، أي صديقي لوتريو ، لمّا لم يكن في مقدور أي سبب تنتحله أن يصرفني عن خطّتي ، فإن الرجاء الوحيد الذي ألتمس منك تحقيقه هو أن تستعد لتكون أداة لهذه العملية ، وهذه رغبتي . وسأزودك بكل الأسباب المؤدّية الى تنفيذها دون أن أهمل كل ما أظنه قادراً على إثارة إمرأة شريفة ، متواضعة ، هادئة منزهة عن الهوى . وما يجعلني أختارك أنت خصوصاً لأداء هذه المهمّة الشاقة هو أنّك إذا أفلحت في التغلّب على حكمة كميلا فإنّي واثق كل الثقة أنّك لن تندفع حتّى النهاية ، بل ستعتبر أنّه قد تمّ ما يمنعك الإحترام الإنساني من ارتكابه : بحيث لن أهان إلا من حيث النيّة ، وتظل الإهانة مدفونة في طوايا صمتك الذي ينبغي أن يكون ، فيما يتعلّق بنفسي ، أبديّاً مثل صمت الموت . وهكذا ياصديقي إن شئت أن أنعم بعد بما يمكن أن يسمى الحياة ، فلا بد أن تبادر فتبدأ هذه المعركة الغرامية ، لابفتور وبطء ، بل بكل الحرارة والحرص اللذين تقتضيهما ثقتي فيك والصداقة التي تربط بيننا » .

هكذا كان حديث أنسلمو الى لوتريو الذي كان يصغي اليه دون أن ينطق بكلمة . فلمّا توقّف أنسلمو عن الكلام ، تفرّس صديقه فيه طويلاً ، كما يتطلّع المرء في شيء لم يره أبداً ، يبدهه فيقف مشدوهاً حياله . ثمّ قطع لوتريو الصمت قائلاً :

« لاأستطيع أن أقنع نفسي ، أي صديقي أنسلمو ، بأن كل ماقلته ليس إلا نسيجاً من المداعبات ، لأنّي لو حسبت أنّك كنت تتكلّم جاداً لما أرعيت إليك سمعي ، ووضعت بذلك حدّاً لخطابك الطويل . إنّي واثق أنّك لاتعرفني . أو لاتعرف أنني أنا لوتريو ، وأنّك أنت

---

(١) سليمان في « سفر الأمثال » أصحاح ٢١ .

أنسلمو ؟ لكن ، وا أسفاه! إني أخشى ألا تكون بعد أنسلمو الأمس ، وأنت ، هل ظننت أنني لم أعد إنسانا الأمس ، لأنّ الآراء التي أبديتها لايمكن أبداً أن تكون آراء من يدعو نفسه صديقي ، وهل الإقتراحات التي أبديتهالي يمكن أن توجّه الى لوتريو الذي تعرفه ؟ إن المرء يمتحن أصدقاءه ، كما يقول الشاعر ، حتّى المذبح ، ومعنى هذا أنه يجب عليه ألاّ يستخدمهم في نقض الشرائع الإلهية . فإن كانت هذه الحقيقة بيّنة عند الوثني[1] فكم بالأحرى ينبغي أن تكون بيّنة عند المسيحي ، الذي يعرف أنه لاينبغي أن يصرفنا أي حب عن حب الله ، وأنه إذا كان الإنسان قادراً على نسيان مايدين به للسماء من أجل الاشتغال بصديقه ، فيجب أن يكون ذلك في أمور تتعلّق بالشرف أو بالحياة ، لابأمور هزلية تافهة . فقل لي إذن ياأنسلمو ماهو الخطر الذي يهدّد شرفك أو حياتك ، حتّى استلزم باسترضائك بارتكاب أمر كريه كهذا الذي سألتني ؟ لاشيء ، أبداً . بل أراك على العكس من ذلك تطلب إليّ أن أسلبك الشرف والحياة ، وأن أسلب نفسي كليهما في الوقت نفسه : أو ليس سلبك الشرف هو سلبك الحياة لأن الإنسان بغير شرف إنسان ميّت ؟ وأنا الذي تطلب إليه أن يكون أداة لإحداث هذا الشر العظيم سيسربل بالعار ، وتبعاً لهذا سأعدّ نفسي آنذاك ميّتاً أو كالميّت أصغ إلي ، ياعزيزي أنسلمو ، ولا تقاطعني قبل أن أفضي إليك بكل ما يخطر ببالي لإجابة عمّا تسألني عنه : وبعد ذلك سيكون لك الوقت كلّه للرد ، وسأصغي اليك بدوري .

فقال أنسلمو : موافق ، تحدّث ماحلا لك الحديث .

فقال لوتريو : يبدو لي أن عقلك الآن كعقل من ليسوا على ديننا[2] ، إذ لايمكن أن يبيّن لهم أخطاء مذهبهم بشواهد من الكتاب المقدّس ، وبراهين نظرية أو مبنيّة على مواد الإيمان ، ولا بحجج منطقية : بل لابد من أن نسوق إليهم أمثلة محسوسة ، سهلة ، مفهومة ، بيّنة ، لاشك فيها مع براهين رياضية لايمكن إنكارها ، مثل أن أقول إذا نزعت من كميّتين متساويتين جزئين متساويين فالباقي متساو .فإن لم يفهموا كلامنا ، وهم في الواقع لايفهمونه ، فلابدّ أن نبيّن لهم ذلك بالأيدي ، وأن نضعه تحت أنظارهم ، وفي نهاية الأمر لانستطيع أبداً أن نقنعهم بحقائق ديننا المقدّس . كذلك سيكون أمري معك وأنا مضطر الى ذلك : لأنّ وجدانك قد أضلّك ، ورغبتك أبعد ماتكون عن سمة العقل ، بحيث سأضيّع وقتي في تفهيمك سذاجتك ولن أسمّيها بعد باسم آخر ، ولولا الصداقة التي أكنّها لك ، وتمنعني من استخدام الشدّة معك ، ومن تركك في الخطر البيّن الذي أنت فيه ، لتركتك تتحمّل وزر

(١) هذه العبارة نسبها فلوطرخس الى فرقليس في كتابة «العارالردي» .

(٢) من ليسوا على ديننا : تصرفنا في هذه الكلمة .

أحلامك وتهاويلك . تأمّل ماذا تطلب منّي! إنّك تريد منّي أن أغري بالحب إمرأة هادئة مقتصرة ، وأن أغرّر بسيّدة شريفة ، وأن أقدّم الهدايا الى زوجة نزيهة ، وأن أضايق امرأة ذات فطنة وحصافة! هذا هو ماقلته لي . لكن إذا كنت ترى أنّ زوجتك تتحلّى بكل هذه الصفات ، فلم تبحث إذن ؟ وإذا كنت تعتقد بأنها ستخرج ظافرة من هجومي وهذاأمر لاريب عندي فيه ، فأي ألقاب أشرف تريد أن تعطيها إياها غير تلك التي تملكها هي بالعقل الآن ، وأية كمالات ستحظى بها أكثر مما عندها ؟ أمّا أنّك لاتعتقد أنها كما تقول ، أو أنّك لاتدري ماتطلب . إن كنت لاتؤمن بفضائلها ، فلماذا تمتحنها ؟ أليس الأفضل أن تبادر على الفور فتصنع معها ماتراه ؟ لكن إذا كنت ترى أنها كاملة ، أليس من سوء التدبير أن تريد امتحان حقيقة لن تغيّر شيئاً في الرأي الذي كوّنته بالفعل ؟ إن القيام بعمل لايمكن إلا أن يجلب الضرر لنا ، دون أن يعود علينا بأدنى عائدة ، أليس هذا من شأن الشخص المتهوّر المضطرب ، خصوصاً إذا لم يلجئنا الى ذلك ضرورة ، وكان أقل تفكير كافياً لتبصيرنا بحماقتنا ؟ إننا نقوم بالأمور الصعبة أما في سبيل الله أو في سبيل الدنيا ، أو في سبيل كليهما ، فتلك التي تتم في سبيل الله هي أعمال القديسيين ، الذين بأبدان بشرية يعيشون عيشة الملائكة ، وتلك التي تتم في سبيل الدنيا تشابه جهود المسافرين الذين يخترقون البحار ، ويجوبون خلال البلاد ، ويزورون مئات الأمم الأجنبية ابتغاء تحصيل الأموال ، وأمّا الأمور الصعبة التي تتم في سبيل الله والدنيا معاً فهي مغامرات الجنود الشجعان الذين مايكادون يلمحون في أسوار العدو ثغرة سعتها سعة قنبلةالمدفع حتّى يحطّموا عنهم كل خوف ولايوقفهم الخطر الداهم الذي يتهدّدهم بل يلقون بأنفسهم ورأسهم مخفوض خلال آلاف الموتى ، ولقد ألهبتهم الحماسة للدفاع عن إيمانهم : تلك هي الأعمال التي تحقّق لأصحابها المجد والشرف ، والكسب أيضاً أيّاً كانت مصاعبها ومخاطرها . ولكن ماتفكّر أنت فيه لا يمكن أن يجلب لك مجداً في نظر الله ، ولاشرفاً عند الناس ، ولاكسباً لنفسك ، ولو نفّذته فلن تزداد رضا ولاثراء ولااحتراماً ، وإذا لم تكن النتيجة سعيدة ، فسترى نفسك أشقى الناس ، دون أن يجديك في شيء أن تعرف أن شقاءك مجهول ، إذ يكفي لعذابك أن تعرفه أنت . وحتّى أؤيّد لك هذه الحقيقة ، أسوق اليك مقطوعة للشاعر الشهير[1] لويس تنسيلو Luis Tunsilo ، وردت في نهاية القسم الأوّل من « عبرات القدّيس بطرس » :

---

(١) لويدجي تنسيلو (١٥١٠ ـ ١٥٦٨) من أكبر شعراء نابلي في القرن السادس عشر . وقد كتب هذه القصيدة الشهيرة ليكفّر بها في أخريات عمره عن شعر الغزل الذي نظّمه في شبابه . وقد ترجمها الى الاسبانية لويس جلفز دي مونتلفو Luis Galvez de Mon-talvo الذي كان صديقاً حميماً لثربانتس ، ونشرها سنة ١٥٨٧ .

« زاد الألم ، وزاد العار ، في قلب بطرس ، لمّا أن طلع النهار . وعلى الرغم من أنه لايرى أحداً فإنه خجل من نفسه حين فكّر في أنّه أخطأ ؛ لأن العار لايأتي القلب الكريم من كونه قد شاهده ، فلو لم يبصره غير السماء والأرض لأحمرّ خجلاً من نفسه حين يقع في الخطيئة » .

وهكذا لن يخفّف الكتمان من ألمك ؛ بل ستذرف العبرات تلو العبرات ، وإذا أبت العيون ، زوّدك القلب بعبرات من الدماء ، مثل تلك التي ذرفها ذلك الطبيب البالغ السذاجة الذي جرّب تجربة الإناء المسحور الذي رفض رينلدو الفطن أن يقوم بها لأنه كان عاقلاً[١] . وهذاالمثل وإن أخذ من خرافة شعرية ، فإنه ينطوي على حكمة أخلاقية يجب أن تتخذ رأياًوموضوعاً للتأمّل وقاعدة السلوك . ولكنّي أريدأن أجعلك تقتنع بخطأ رأيك . قل لي ياعزيزي أنسلمو ، لو وهبتك السماء أو الحظ السعيد ماسة ثمينة ، صفاؤهاولمعانها وقيمتها ترضي أمهر تجّار الأحجار الكريمة حتّى ليظنّوها أكمل جوهرة في نوعها ، وكان هذا رأيك أنت أيضاً ، فهل من الفطنة وهل من العقل أن يخطر ببالك أن تضعها على سندان وأن تقرعها بمطرقة مرّات ومرّات ، كي تحقّق هل هي صلبة متينة كما تظن ، لأنه مع افتراض أنّ الماسة تقوى على احتمال هذاالإمتحان العنيف ومقاومته ، فهل هذا من شأنه أن يزيد شيئاً في قيمتهاوثمنها ؟ وإذا انكسرت الجوهرة ، وهوأمرمن الممكن أن يقع أفلا تفقد بهذا كل شيء . وينظر الى مبتكر هذه التجربة العجيبة على أنه أحمق ؟ نعم ، ياأنسلمو ، إنّ هذه الماسة هي كميلا ، في نظرك وفي الواقع ، فهل من الحكمة أن تعرّضها للكسر ؟ وإذا قاومت فهل يزيد ذلك في قيمتها ؟ وإذا استسلمت ، فانظر منذ الآن ماذا سيصير إليه أمرك بغيرها ، وكم ستشكو نفسك عن حق لأنّك تسبّبت في ضياعها وضياعك . واعتبر أنّ لاماسة في الدنيا أثمن من المرأة العفيفة ، وأنّ شرف النساء إنما هو في الرأي الذي لدينا عنهم ، وأنّ سمعه المرأة من الطهارة بمقدار ما يمكن أن تتمناها ، وإن كان يبدو أنّك ترتاب في هذه الحقيقة . وتذكّر أنّ المرأة حيوان ناقص ، وأنه يجب ألا تنصب الحبائل تحت أقدامها حتّى تترنّح وتسقط ، بل على العكس يجب أن نزيلها لنخلي طريقهامن كل عقبة حتّى تصل بسهولة الى الكمال الذي ينقصها ، والذي يتلخّص في الفضيلة . وعلماء التاريخ الطبيعي يقولون أن السمور حيوان صغير فراؤه أبيض كل

---

(١) حكاية وردت في ملحمة أريوستو : « أورلندو الغاضب » النشيدين ٤١ ، ٤٢ . وهذا الإناء المسحور كان يمكن بواسطته اكتشاف أمانة النساء . وهذه الحكاية هي التي أوحت الى ثربانتس بفكرة الحكاية التي يرويها هذا الفصل . كما ستوحي الى لافرنتين بموضوع قصيدة « الكنائس المسحورة » .

البياض ، وإذا أراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة : يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها ، ويضعون فيها طيناً ثمّ يأخذون في مطاردته ، وحين يصل السمور الى الموضع الذي وسخه الطين ، يتوقّف دفعة واحدة ، ويفضّل أن يؤخذ ويقتل على أن يمر في الطين ويوسّخ بياض فرائه الذي يقدّره أكثر من الحرّية والحياة . والمرأة الشريفة الأمينة العفيفة ـ هي هذا السمور ، وفضيلتها وحياؤها يجعلانها أطهر وأشد بياضاً وصفاءً من الثلج : وللمحافظة على هذا البياض ومنعه من التدنّس ، لابدّ من حيلة أخرى غير تلك التي يستخدمها الصيّاد ، فبدلاً من وضع طين الهدايا واغراءات العشّاق ، لأنه ربّما ليس فيها من القوة والفضيلة الطبيعيّتين مايمكّنها من تجنّب مثل هذه الأحابيل ، ينبغي ألا نبيّن لها غير جمال الفضيلة ، والبريق الناشيء عن السمعة الطيبة . إنّ المرأة الشريفة مرآة من البلّور اللامع المصقول ، يغشى عليها ويجعلها صدئة أقل نفس يمرّ عليها . وينبغي أن نعاملها معاملة الذخائر ، نعبدها ولانمسّها ، ونعدّها كبستان جميل حافل بالأزهار ، لايمكن أن نخطو فيه ولا أن نقتطف ورده ، بل نعجب ، من خلال سوره المعشق ، بأناقته ونضارته . وبهذه المناسبة أودّ أ أنشدك بعض أشعار مأخوذة من ملهاة حديثة يبدو لي أنّ موضوعها قريب من الموضوع الذي نبحث فيه ، هاهو ذا شيخ حكيم ينصح والداً بأن يحرس ابنته ويسهر عليها جيّداً ، ومن بين مايسوقه من حجج يقول :

النساء كالزجاج :
لا ينبغي أن نجرّب
هل ينكسر أو لا ينكسر إذا رمي به على الأرض ،
لأننا لا ندري ماذا يمكن أن يحدث .

* * *

ولمّا كان سينكسر ، في غالب الظن ،
أفليس من الجنون أن نجازف
بمثل هذه التجربة
في جسم لا يمكن شعبه ؟

* * *

هذا رأي يستند الى العقل .
ولايزال العالم يعتقد

أنه طالما يشاهد داناوات في العالم
فسيشاهد الذهب يساقط[1] .

« إنّي لم أحدثك حتّى الآن ، أي عزيزي أنسلمو ، إلاّ عمّا يمسّك أنت . فاسمح لي الآن أن أقول « كلمة » عن مصلحتي أنا ، وإن بدت لك أحاديثي طويلة جداً فأستميحك المعذرة ، فهذا أقل مايجب من أجل استنقاذك من التيه الذي ألقيت بنفسك في أعماقه . أنت تعدّني صديقك ولكنّك تريد أن تسلبني الشرف ، وهذا أمر يضاد الصداقة ، ولست فقط تريد أن تسلبني إيّاه ، بل تسألني أيضاً أن أسلبك شرفك أنت . أمّا أنّك تريد أن تشوّه شرفي فهذا أمر ثابت محقق ، لأنّ كميلا حين ترى أنني أسعى لافسادها ، كماتريد أنت ، فإنها ستنظر اليّ كرجل ضال ، لاأمانة عنده ولاأخلاق ، إذ خطر بباله مثل هذه الخطة الكريهة المنافية لصداقتنا المشتركة ، وأمّا أنّك تريد منّي أن أثلم شرفك ، فالأمر ليس أقل ثباتاً وتحقّقاً لأن كميلا سيكون أمامها مجال الظن أنّي اكتشفت فيها عيباً ما ، مادمت من الجسارة بحيث تحدثت اليها عن حبّي ، والعار الذي سأصبّه عليها أولن يسقط عليك أنت ، لأنّها امرأتك ، من هنا ينشأ ازدراء الناس بزوج المرأة الزانية . فحتّى لو جهل مصيبته ، ولم يتسبّب فيها بسلوكه ، ولم يكن في وسعه أن يمنعها ، فإنّ الرأي العام رغم ذلك يحتقره ، تقتحمه العيون ولايتحدّث عنه إلاّ باستهزاء ، ولا يوقّره أحد ، وإن كانت هذه البليّة إنما صدرت عن سوء ميول زوجته لاعن إهماله ، . وأودّ هنا أن أستقصي الأسباب التي من أجلها يتسربل بالعار زوج المرأة الخائنة ، على الرغم ، كما قلت لك ، من أنه يجهل بليّته ، وليس هو السبب فيها ، ولم يهيّء لها الفرصة أبداً . وأحسب أنّ هذا الاستطراد لن يبعث في نفسك الملل أبداً ، لأنّه لاهدف له إلا إسداء المعروف لك» .

« ورد في الكتاب المقدّس أنّه لمّا خلق الله أبانا الأوّل ووضعه في الجنّة التي على الأرض ، أرسل النوم الى آدم ، وبينما كان هذا نائماً انتزع الله منه ضلعاً في الجانب الأيسر ، ومن هذا الضلع خلق أمّنا جميعاً حوّاء . فلمّا استيقظ آدم ورآها وصاح : « هذا اللحم من لحمي ، وهذا العظم من عظامي » . فقال الله : « ولهذا يترك الإنسان أباه وأمّه ، وكلاهما يؤلّفان لحماً واحداً » .

« وهكذا أنشيء مرسم الزواج المقدّس ، بروابط وثيقة لايستطيع إلاّ الموت وحده حلّها ، وهذا المرسم له من العزّة والفضل بحيث يجعل شخصين مختلفين يكوّنان لحماً واحداً

(١) ربما كان هذا الشعر لثربانتس . ويروي رودريجث مارين أنه مستخرج من إحدى كوميديات ثربانتس المفقودة وعنوانها : « المرتبكة » ، وكان المؤلف يقدّرها فوق سائر كوميدياته .

(جسداً واحداً) ، وفي القرانات السعيدة لاتكون للنفسين غير إرادة واحدة ؛ ولهذا فلأن جسد المرأة وجسد زوجها جسد واحد ، فإنّ عيوب المرأة ونقائصها تقع على الرجل وإن لم يتسبّب فيها ، وكما أنّ الألم في القدم أو في أي عضو آخر يشعر به سائر الجسم ، حتّى الرأس ، لأنّه ليس كلّه غير جسد واحد ، فكذلك الزوج يشارك في عار زوجته لأنّه هو وهي شخص واحد . ولمّا كان كل شرف أو عار في العالم ، وتبعاً لذلك لمّا كانت أفعال المرأة الزانية تصدر عن الدم والجسد ، فلا مندوحة عن أن يكون للزوج فيها نصيب وأن يتسربل بالعار وإن جهلها . فانظر . أي أنسلمو ، لأي خطر تعرّض نفسك وأنت تسعى الى تعكير صفو الهدوء الذي تنعم به زوجتك الفاضلة ، وتأمّل مافي استطلاعك هذا الذي يدفعك إلى إثارة مزاج زوجتك العفيفة الهادىء ، مافيه من خرق بدون نفع ولاجدوى ، وتأمّل كيف أنّك ، في هذه المغامرة ، لن تكسب إلاّ القليل ، أمّا ما تخسر فيفوق الوصف . فإن كان كل هذا الذي قلته لك غير كافٍ لصرفك عن خطّتك الفاسدة ، اذن فابحث عن أداة أخرى لشقائك وعارك ؛ أمّا أنا فلا أريد أن أكون تلك الأداة أبداً حتّى لو أدّى ذلك الى فقدان صداقتك ، ويالها من خسارة كبرى! » .

وسكت لوتريو الفاضل العاقل ، وبقي أنسلمو مبلساً يفكّر ، وظلّ على هذه الحال طويلاً دون أن يستطيع أن يقول كلمة ، ثمّ قال أخيراً : «رأيت ياعزيزي لوتريو بأي اهتمام أرعيتك سمعي . وتعرّفت في حججك وشواهدك ، ومقارناتك حكمتك الكبرى ، وما تحمله لي من صداقة حميمة مخلصة ، وأعترف لك بأنّي إذا لم أتبع نصائحك ، وإذا انسقت وراء أفكاري ، فسأفر من الخير عادياً الى الشر ، ولكن يجب عليك أن تتصوّر أن بي داءً شبيهاً بداء بعض النسوة اللواتي يأكلن الطين ، والرماد ، والفحم ، وأشياء أخرى أسوء مما يمكن تصوّره ؛ ولهذاينبغي أن تتلطّف في الحيلة من أجل شقائي ، وهو أمرميسور لوأردت فقط أن تحاول إغراء كميلا ، ولو قليلاً وعن تظاهر . إنها ليست من الضعف بحيث يسقط شرفها لدى أوّل محاولة ، أمّا عن نفسي فسأظل راضياً عن هذه المحاولة . أمّا عن نفسك فستكون قد قمت بما يقتضيه حق الصداقة منك ، ليس فقط بإعطائك إيّاي الحياة ، بل وأيضاً بإقناعي بأنّي لست عديم الشرف . وسبب واحد يجب أن يحملك على ألا ترفض طلبي هذا وهو أنّي وقد صمّمت على محاولة هذه التجربة فإنّك لن توافق على أن أفضي بجنوني هذا الى إنسان آخرمما من شأنه أن يحطّم شرفي الذي أراك تخشى عليه من كل خدش . أمّا عن كميلا فينبغي عليك ألا تتوقّف عند الفكرة السيّئة التي يمكن أن تكوّنها عنك وهي تراك تغازلها وتراودها ، إذ بمجرّد أن تعرف نتيجة التجربة التي تحاولها ستكون في حل أن تكشف لها

عن الحيلة ، وهنالك سترد إليك كل ما لك من تقدير لديها ، وهكذا مادمت لن تصاب بشيء في هذه المحاولة ، وسترضيني بها ، فإنّي أتوسّل اليك ألا ترفضها ، رغم ماتجد فيها من مشقة ، لأنّي كما قلت لك أرى أنّك كلّما بادرت عددت أنا الأمرمنتهياً » .

فلمّا رأى لوتريو عزم أنسلمو ، ولم يدر ماذا يستطيع بعد أن يعترض عليه به ، وأي تأنيب يوجّهه إليه ، وقدّر أيضاً أنّ صديقه قادر أيضاً على أن يفضي بجنونه هذا الى أي شخص آخر ، قرّر إرضاءه ، تجنّباً لشر أكبر ، لكن مع نيّة صادقة في أن يسلك مسلكاً ليس من شأنه أن يغيّر من عواطف كميلا الشريفة وفي الوقت نفسه يرضي صديقه . وطلب إليه ألا يفضي بمشروعه الى أحد ، وأنه سيتولّى الأمر بنفسه ، وسيبدأ متى شاء أنسلمو فعانقه هذا بحرارة ، وشكر له صنيعه هذا شكراً جزيلاً ، وكأنّه أسدى اليه أجل خدمة في الدنيا . واتفقا على أن يبدأ العمل في اليوم التالي ، وأن يهيّء أنسلمو له الفرصة للتحدّث مع كميلا في خلوة ، ويزوّده بالمال والحلي لتقديمها إليها ، ونصح صديقه بأن يهيّء لكميلا أغاني غرام مسائية ، وأن يوجّه إليها القصائد ، وإن لم يشأ أن يعني نفسه بنظمها فسيتولّى هو ، أي أنسلمو ، نظمها له . ووافق لوتريو على كل شيء ، لكن بنية مخالفة لنية أنسلمو . ولمّا تمّ الإتفاق على هذا النحو ، عاد الصديقان الى بيت أنسلمو ، فوجدا كميلا شديدة القلق لتأخّر زوجها في العودة .

ولمّا عاد كل منهما الى بيته كان أنسلمو راضياً ، بينما ظل لوتريو مفكّراً حائراًلايدري كيف يخلص من هذه المسألة الحمقاء ، وكيف يخدع أنسلمو دون أن يهين كميلا . وفي الغداة غدا لتناول العشاء عند صديقه ، فتلقّته زوجته بالترحاب ، وأبدت له من مظاهر الحفاوة مايتّفق مع ماتعرفه من وثاقة الصلة بينه وبين زوجها أنسلمو . وبعد الفراغ من العشاء التمس هذا من لوتريو أن يظل في صحبة كميلا حتّي يعود من مكان له فيه بعض الشؤون إبان ساعة ونصف . وأرادت كميلا منعه من الخروج ، وسعى لوتريو الى اللحاق به ومصاحبته ، ولكنّه مضى ، موصياً زوجته بألا تترك لوتريو وحده ، وموصياً هذا بأن ينتظره لأن لديه أموراً مهمّة يريد أن يحادثه بشأنها . وبالجملة فقد عرف كيف يتظاهر بضرورة غيابه ، بحيث كان من العسير إدراك السبب . وهكذا بقيت كميلا ولوتريو وحدهما لدى المائدة ، لأن خدم البيت مضوا لتناول عشائهم . فأصبح لوتريو ، وفقاً لرغبة أنسلمو ، في حضرة عدو يستطيع بجماله وحده أن يتغلّب على فرقة من الخيّالة المدجّجين بالسلاح من الرأس حتّى القدم . وكان الموقف يثير الإرتباك . ووضع لوتريو يده على خدّه ، واستند الى كرسيه ، وادّعى أنه يرغب في النوم رغبة شديدة ، وسأل كميلا أن تأذن له بالقليل من

الراحةحتى يعود صديقه . فأجابته كميلا قائلة أن الأفضل أن يستريح على أريكة بدلاً من الكرسي ، لكنّه لم يأخذ بنصيحتها ، وأخذ في النوم .

ولمّا عاد أنسلمو وجد كميلا في غرفتها ، ووجد لوتريو نائماً في قاعة الطعام : ففكّر أنهّ لمّا طالت غيبته كان عند لوتريو من الوقت مايسمح له بالتحدّث مع كميلا ثم بالنوم بعد ذلك . وانتظر نافد الصبر أن يستيقظ لوتريو ليخرج معه ، ويستعلم منه عمّا جرى . فلمّا صارا وحدهما قال له لوتريو أنّ لم ير من اللائق أن يكشف عن نفسه منذ أوّل يوم ، وأنّه لم يفعل أكثر من أن يمتدح جمال كميلا قائلاً لهاإنه لاحديث للمدينة إلا عن جمالها ومفاتنها وصفاتها النادرة . وأضاف قائلاً : « أرى أنّ هذه هي الوسيلة الصحيحة للنفوذ الى رضاها وتهيئتها للإصغاء اليّ ، وأنّ من المناسب اللجوء الى حيلة الشيطان الذي حين يريد أن يخدع فانيا متنبّهاً لأحابيله يتحوّل الى ملك نوراني ، وإن كان هو ملكاً ظلمانيّاً ، ويغريه تحت مظاهر المقاصد النبيلة ، ثم يكشف عن نفسه في النهاية ، ويحقّق مقصده ، إذا لم يفسد عليه المرء حيله هذه منذ البداية » .

واغتبط أنسلمو لهذه التفاصيل . وقال للوتريو إنّه ، دون أن يخرج من بيته ، سيهيئ له الفرصة لرؤية كميلا كل يوم ، وسيحتاط بحيث لاتدرك كميلا شيئاً من هذه الحيلة ولايحيك في صدرها بشأنها أي شك أو ظنّة . ومضت أيّام عديدة : ولم يقل لوتريو شيئاً لكميلا ، ثمّ راح يروي لأنسلمو أنّه أغراها وراودها دون أن يستطيع اكتشاف أي مظهر لجعلها تستجيب لأي شيء مستقبح ، وبالجملة دون أدنى أمل في النجاح ، بل بالعكس هدّدته بتبليغ زوجها إن لم يغيّر مسلكه .

فقال أنسلمو : هذا حسن ، حتّى الآن استطاعت كميلا أن تقاوم الكلام ، ولابد أن نعرف الآن هل ستقاوم الأفعال . وسأعطيك غداً ألفين من القطع الذهبية لتقدّمها إليها ، وألفين أخرين لشراء حلي تهديها إليها . إنّ النسوة لايحببن شيئاً قدر حبّهن للحلي : ولاجدوى من عفّتهن ، بل كلّما ازددن جمالاً ازددن حرصاً على الزينة . فإن قاومت كميلا هذا الإغراء ، فسأكون راضياً ولن أعذّبك بهذا الأمر بعد » .

فأجاب لوتريو بأنه مادام قد بدأ فإنه يريد أن يستمرفي المغامرة حتّي النهاية ، وهو يأمل في أن يخرج منها متعباً مقهوراً . وفي اليوم التالي أخذ مبلغ الأربعة آلاف قطعة من الذهب ، التي سبّبت له أربعة آلاف هم ، لأنّه لم يعرف بعد أيّ أكاذيب يخترع ، وأخيراً قرّر أن يقول أنّ كميلا قاومت الهدايا والوعود كما رفضت عبارات الغرام ، وأنه لاجدوى من مضايقتها أكثر من ذلك ، لأن كل هذه المحاولات تضيع سدى . لكن يشاء الحظ أن يقدر

أمراً آخر ، فذات يوم ترك أنسلمو ، كالعادة ، كميلا ولوتريو وحدهما ، وانحاز الى غرفة مجاورة للغرفة التي تركهما فيها ، وراح يتسمّع وينظر من خلال خرق المغلاق الى مايقولان ويفعلان : فرأى أن لوتريو لم يفتح فاه طوال أكثر من نصف ساعة ، ولم يقل كلمة واحدة ولن يقول حتّى لو بقيا معاً أطول من قرن . فأدرك حينئذ أنّ كل ماقاله لوتريو عن أجوبة كميلا المزعومة لم يكن إلا تمويهاً وكذباً ، ولكي يتم إقتناعه خرج من الغرفة التي كان فيها وجاء لينتحي بلوتريو ناحية وأن يسأله هل من جديد ، وماذا كان مزاج كميلا . فقال لوتريو إنه لايظن أنه يستطيع الاستمرار في هذه المغامرة الأليمة أطول من هذا ، وأنّ كميلا أجابته بامتعاض وحدّة وغضب بحيث لم يستطع أن يجد كلمة واحدة يوجّهها اليها .

فقال أنسلمو : آه يا لوتريو ، آه يا لوتريو! يا لسوء استجابتك لما سألتك إيّاه وللثقة البالغة التي أوليتك إيّاها! إنّي خارج لتوّي من الغرفة المجاورة لهذه : وتسمّعت لك ، إنك لم تقل لكميلا كلمة واحدة ، وهذا يجعلني أظن أنّك لم تتحدّث اليها أبداً . فإذا كان الأمر كذلك ، وهو مالاأشكّ فيه ، فلماذا تخدعني ، وتنتزع منّي بحيلتك هذه الوسيلة لبلوغ غرضي ؟

ولم يزد أنسلمو على هذا ، بل تركه في حيرة وارتباك لأنّ كذبه افتضح ثمّ أقسم لوتريو لأنسلمو أنّه من الآن فصاعداً سيضع كل اهتمامه في خدمة ارضائه ، ولن يكذب عليه بعد أبداً ، وأنّ حماسته ستبدّد الظنون التي ظنّها أنسلمو ، فوثق هذا بكلامه ، ولكي يزيد في تيسير الأمر على لوتريو قرّر أن يتغيّب عن أهله ثمانية أيّام . فطلب الى أحد أصدقائه وهو يقطن في الريف أن يستضيفه ، حتّى يعتذر بذلك لدى كميلا عن ابتعاده .

يالك من أحمق شقي! ماذا تريد أن تفعل ؟ وماذا تقصد ؟ وأي خطّة جسرت أن تدبّرها ؟ إنّك تعمل ضد نفسك ، وتتآمر على شرفك ، وتسعى الى حتفك بظلفك! إن زوجتك شريفة ، وأنت تنعم في سلام بمناعم الحياة الزوجية ، ولاشيء يعكّر ملذّاتك ، وأفكار كميلا لاتخرج من أسوار بيتك ، أنت سماؤها على الأرض ، ومطمع أمانيها ، والغاية الوحيدة لمشاعرها الرقيقة ، والقاعدة لإرادتها والتحكّم في مشيئتها ، وهي لاتريد إلا ماتريده أنت ، وماتأمر به السماء . فإذا كنت بغير أدنى عناء تسحب من شرفها وجمالها وأمانتها كل الثروة التي يمكن أن تريدها ، فلأي هدف تريد أن تحفر الأرض وتبحث عن مناجم جديدة في كنز مجهول ، معرّضاً نفسك لخطر أن تراها تذوب في يديك ، لأنّها لاتستند إلاّ الى الدعامات الضعيفة لطبيعتها الهشّة ؟ وفكّر أنّ من يطلب المستحيل من العدل أن يحرم من الممكن ، كما يقول الشاعر :

في الموت أنشد الحياة
وفي المرض أنشد الصحة
وفي السجن أنشد الحرّية
وفي الهلاك أنشد النجاة
وعند الخائن أنشد الأمانة ؟
ولكن قرار القدر الرهيب
يقضي على إرادتي ؛
إذا طلبت المستحيل
حرمت من الممكن[١]

وفي الغداة ارتحل أنسلمو الى الريف ، قائلاً لكميلا أنّه أثناء غيابه سيأتي لوتريو ليرعى شؤون البيت ويتعشّى معها ، وأوصاها بأن تعامله معاملتها لزوجها أي لنفسه . فحزنت كميلا من أمر زوجها وهي المرأة الحكيمة الحصيفة ؛ وبيّنت له أنّه من غير اللائق أن يحل محله على المائدة شخص آخرأثناء غيابه ، وأنّه إذا كان يفعل ذلك عن عدم ثقة بمهارتها في إدارة البيت ، فليضعها موضع الإمتحان وستريه أنها كفء للقيام بمهام أعظم . فقال أنسلموأن هذه هي رغبته وما عليها إلا أن تسايرها ، فوعدته كميلا ، ولكن على الرغم منها . ورحل أنسلمو ، وذهب لوتريو الى بيت صديقه . فاستقبلته كميلا كما يليق ، ولكنها حرصت على ألا تكون معه وحدها ؛ فكان ثمّ دائماً ناس من خدم البيت يغدون ويروحون ، وخصوصاً إمرأة تدعى ليونلا ، أتت بها من عند أبيها حينما تزوّجت أنسلمو ، وكانت تؤثرها بحبّها لأنهما كانت لهما ظئر واحدة . وطوال الأيّام الثلاثة الأولى لم يقل لها لوتريو شيئاً ، وإن كان في وسعه أن يتحدّث اليها أثناء وجبات الطعام ، حين يغدو الخدم للأكل . والحق أن كميلا أوصت ليونلا بأن تسبق بتناول الطعام حتّى تكون دائماً بالقرب منها ، ولكن هذه الفتاة ، التي كانت تدور برأسها خواطر أخرى ، وكانت تستفيد من ذلك الوقت لكي تخلو الى ملذّاتها ، لم تحسب حساباً لأوامر سيّدتها ، وكثيراً ما تركتها هي ولوتريو وحدهما ، وكأنّما أوصاها بذلك أحد . ولكن أمانة كميلا ، وسمتها الجاد ، والحياء الذي

---

(١) ربّما كان هذا الشعر أيضاً لثربانتس . ويقارن رودريجث مارين هذا الشعر بفقرة في ملهاة للمؤلّف بعنوان « الفتى الاسباني » في اليوم الثالث ، قالتها دونيا مرجريتا ؛ يائسة من الحياة ، وضاق بها العيش حتّى أنها تبحث عمياء عن الحرّية في السجن ، وعن المخرج من المستحيل » .

فاض على كل شخصها ، كل ذلك أغلق فم لوتريو . ولكن هذه البدايات السعيدة لم تستطع أن تحميهما من الدمار ؛ لأنّه إذا كان اللسان قد التزم الصمت ، فإنّ الأفكار كانت تأخذ مجراها ، وكانت لدى لوتريو الفرصة كلّها لتأمّل مفاتن كميلا بتفاصيلها ، وهي مفاتن قادرة على أن تبعث الحياة في تمثال من المرمر ، وبالأحرى في قلب كائن فانٍ ، كان يتأمّل في عجب بدلاً من أن يتكلّم ، ورأى كم هي خليقة بأن تعشق ، وهذه التأملات أضعفت بكل شك شعور الإحترام الواجب لانسلمو . وكم مرة فكّر في أن يغادر المدينة ، وأن يعتكف في مكان لايرى فيه أنسلمو ولا كميلا ، ولكنّ المتعة التي كان يستشعرها في النظر إليها كانت سرعان ماتحطّم قراراته . بذل وسعه وكافح ضد نفسه ليحطّم سحر مرآها فلا يستشعره ، واتهم نفسه ، وقال لنفسه أنه صديق سيّئ ، ومسيحي طالح ، وراح يقارن بين نفسه وبين أنسلمو ؛ وقادته هذه المقارنات كلّها الى هذه النتيجة ، ألا وهي أنّ جنون الواحد فاق كثيراً خيانة الآخر ، وأنه إذا كان أثم قليلاً في نظر الله وفي نظر الناس ، فليس عليه أن يخشى عقاباً عن خطيئته . وأخيراً تغلّبت مفاتن كميلا وجمالها ، مضافة الى الفرصة التي هيّأها زوج أحمق ، تغلّبت على إخلاص لوتريو ؛ ودون أن يصغي الى شيء غير وجدانه ، وبعد مرور ثلاثة أيّام في كفاح لنفسه متواصل ، شرع في استرضاء أهواء كميلا ، باهتمام واضطراب وجعلاه مرتبكاً لم يستطع أن يفعل أكثر من أن يترك كرسيه وينحاز الى غرفته ، دون أن ينطق بكلمة . ولكن هذا الإحتقار ، بدلاً من أن يبعث اليأس في نفس لوتريو ، لم يستطع أن يسلبه الأمل الذي يتولّد دائماً مع الحب ؛ بل بالعكس لم يفعل هذا الإحتقار (من جانبها) إلا أن يزيده اشتعالاً نحو كميلا ، التي شدهها هذا المسلك غير المتوقّع فلم تعرف ماذا تقرّر . ولمّا رأت أنّه ليس من اللائق ولامن المأمون أن تعطي لوتريو فرصة أخرى لرؤيتها ، قرّرت أن ترسل في الليلة نفسها أحد رجال أنسلمو اليه بهذه الرسالة ، ونصّها :

الفصل الرابع والثلاثون

تلاوة حكاية المستطلع الفاسد الرأي

«كما اعتاد الناس أن يقولوا أنّ الجيش لايمكن أن يبقى بغير قائد ولا القصر بغير ربّة ، كذلك أقول أن إمرأة شابة متزوّجة ينبغي ألاّ تحرم من زوجها ، حينما لا يضطرّهما شأن مهم الى أن يبتعد أحدهما عن الآخر . إنّي من دونك استشعر الكرب ، وغيابك عنّي يؤلمني ويقلقني إلى حد أنّه إذا لم تعد بسرعة فسأرى نفسي مضطرة الى الإنسحاب الى منزل والديّ ، حتّى لو ظلّ بيتك بغير حارس ؛ لأنّ من تركته لي ، إذا كان لايزال يستحق هذا اللقب (حارس) ، يبدو لي أنّه أكثر انشغالاً بلذّته منه بما يتعلّق بشؤونك . أنت فطين ، وهذا يكفي ؛ ولن أقول أكثر من ذلك»[١] .

فهم أنسلمو من هذه الرسالة أن لوتريو قد بدأ المحاولة ، وأنّ كميلا قد أجابت وفقاً لرغباته ، فسرّ بهذه الأنباء السعيدة وردّ على زوجته طالباً منها ألاّ تترك البيت أبداً لأي سبب كائناً ماكان ، لأنّه لن يتأخّر في العودة ودهشت كميلا من ردّ زوجها ولم تدر ماذا تقرّر . فالبقاء في البيت معناه وضع شرفها في خطر ، والذهاب الى بيت أبيها معناه مخالفة مشيئة أنسلمو ؛ فاختارت من بين هذين الأمرين أسوأهما وهو أن تبقى في بيت زوجها ، بل وألاّ تتجنّب حضور لوتريو ، حتّى لا تدع الظنون تتسرّب الى خدم البيت . وندمت على كتابتها لزوجها ، خشية أن يتخيّل أن يكون لوتريو قد اكتشف فيها نقيصة ظاهرة سمحت له بأن يتخلّى عن الإحترام الواجب . ووضعت ثقتها في الله وفي شرف مشاعرها ونبل عواطفها التي بفضلها كانت تأمل في أن تقاوم كل اغراءات لوتريو وكذلك بالصمت تستعينه في المقاومة ، دون أن تكون بحاجة الى تنبية زوجها ، حتّى لا يقلق وتساوره

---

(١) هذه الرسالة موجودة بنصّها في الكوميديا التي ألّفها جيين دي كاسترو وموضوعها الموضوع نفسه ، وعنوانها نفس العنوان لهذه الحكاية .

الهموم ، بل فكّرت في الوسيلة التي بها تبرئ لوتريو في نظر أنسلمو ، حينما يسألها هذا عن الداعي الى إرسال رسالتها تلك .

وبهذه القرارات ، التي تستحق الإطراء أكثر من أن تُنعت بالسلامة والأمن ، راحت تصغي الى مراودات لوتريو في اليوم التالي ، وكانت هذه المراودات من الإلحاح والمهارة بحيث أخذت تزعزع ثباتها : حتّى استظهرت صعوبة في منع عينيها من إظهار العطف الرقيق على ماأوحت به عبرات لوتريو وزفراته . وأدرك هذا نجاحه ، فزاد حبّه اشتعالاً : ورأى أنه لابدّ من الانتفاع بغيبة أنسلمو للإستيلاء على هذه القلعة . وكانت هجماته الأولى عبارة عن مدائح مبالغ فيها يطري بها جمالها : لأنّه لا شيء أفعل في تقويض أبراج غرور امرأةجميلة من هذا الغرور نفسه إذا وضع في خدمة التملّق ، وأخيراً قوّض صخرة عفافها بمهارة حتّى لوكانت من البرونز لتداعت وانهارت : الدموع ، والتوسّلات ، والوعود ، وألوان الملق ، وأنواع التظاهر ـ كل هذا استغلّه بمهارة وبراعة في التظاهر بالحب الحقيقي حتّى أسقط فضيلة كميلا وظفر بما كان يرجوه أعظم الرجاء وليس لديه إلا أقل أمل في الفوز به . استسلمت كميلا : ولم تستطع فضيلتها أن تقاوم حبّ لوتريو ، وهذا مثل خالد ، يبرهن على أنّ الفرار وحده هو الذي يستطيع أن يتغلّب على الحب ، وعلى أنه يجب ألاّ يحاول أحد أن يقوم بالنضال ضد هذا العدو الجبّار (الحب) ، وأنّ لابد من قوى إلهيّة للتغلّب على الضعف الانساني . وليونلا هي وحدها التي عرفت سقطة سيّدتها : فإن الحبيبين الغادرين والعاشقين الجديدين لم يستطيعا الاستخفاء منها . بيد أنّ لوتريو لم يشأ أبداً أن يكشف لكميلا عن جنون أنسلمو ولاأنّه هو الذي هيّأ له أن يراها في خلوة ، خوفاً من أن تقلّل من شأن حبه لها وأن تظن أنه راودها بالصدفة لاعن قصد كامل .

وبعد أيّام قليلة عاد أنسلمو ، ولم يتفطّن لما أضاعته كميلا ، وهو أعز مايقدّر وأقل مااستطاع المحافظة عليه . وأسرع الى لوتريو وبعد العناق الأوّل سأله عن أنباء حياته أو موته ، فأجابه لوتريو : « إن الأنباء التي أستطيع أن أخبرك بها ياعزيزي أنسلمو هي أنّ لك زوجة تصلح قدوة ونموذجاً لكل النساء الشريفات . لقد ضاعت كلماتي أدراج الرياح ، ومحاولاتي لم تقم هي لها أي وزن ، وهداياي نبذتها ، والعبرات المصطنعة التي سفحتها سخرت هي منها : والخلاصة أنها نموذج الجمال وهيكل الأمانة والفطانة والحياء وكل الفضائل التي يمكن أن تهيّأ السعادة والمجد لإمرأة أمينة عاقلة . أسترد نقودك ، فلم تتح لي أية فرصة لاستخدامها ، وإن نفس كميلا أنبل من أن تستسلم لأشياء وضيعة مثل الهدايا والوعود . فكن راضياً إذن ياأنسلمو : ولاتبحث عن براهين جديدة ، ومادامت قد عبرت

بقدم جافة هذا البحر من الشبهات والظنون التي تحيط بالمرأة عادة ، فلا تحاول مرة أخرى أن تبحر فيه ، ولاتجرّب بواسطة بحّار آخر متانة السفينة التي وهبتك السماء إيّاها لتعبر بها هذه الدنيا ، وعد نفسك في مرفأ أمين ، لايمكنك أن تخشى بعد فيه أي غرق » .

رضي أنسلمو عن حديث لوتريو كل الرضا ، وصدّق كلامه وكأنه وحي منزّل . ولكن استحلفه ألا يترك المغامرة نهائيّاً ، ولو من أجل التلهية ومن باب حب الاستطلاع ، وأضاف قائلاً أنّه ليس ثـمّ ضرورة لمعاناة النصب كما حدث له من قبل ، ويكفيه أن يوجّه إليها بعض أشعار باسم كلوريس ، وسيقول أنسلمو لكميلا أن لوتريو يعشق سيّده يتغزّل فيها تحت اسم كلوريس حتّى لايسيء الى سمعتها ، وإذا لم يشأ لوتريو أن يعذّب نفسه بقرض الشعر فسيتولّى هو ذلك بنفسه ويجنّبه هذا العناء .

فأجاب لوتريو : ليس هذا بالأمر الضروري : فربات الشعر لسن من القسوة بحيث لايزرنني أحياناً . وأخبر كميلا إذن بما تخيّلته عن غراميّاتي المصطنعة ، وأنا سأنظّم لها الأشعار فإن لم تكن من الجودة بقدر مايستحق الموضوع ، فإنّي سأبذل قصارى جهدي .

ولمّا ترافأ الصديق الساذج مع الصديق الغادر على هذه الأمور هكذا ، عاد أنسلمو الى بيته ، وسأل زوجته كميلا ماذا دعاها الى أن تكتب إليه . فأجابت ـ وقد أدهشها أنّ زوجها لم يسألها بعد هذا السؤال ـ أنه بدا لها أنّ لوتريو كان ينظر اليها باحترام أقل مما كان يفعل بحضرة زوجها ، لكنّه مالبث أن ثاب الى رشده واعترف بأنّ ذلك كان تخيّلاً من ناحيته ، لأن لوتريو تجنّب دائماً أن نوجد وحدنا في خلوة .

فقال أنسلمو أنه ماكان ينبغي لها أن تستشعر أي خوف من هذه الناحية ، وأنه يعرف من مصدر وثيق أنّ لوتريو يعشق سيّدة من أكابر سيدات المدينة ، وأنه يتغزّل فيها تحت اسم كلوريس ، وأنه حتّى لو لم يكن هذا صحيحاً فينبغي الإعتماد على أمانته وصداقته لأنسلمو . وكان لوتريو قد أبلغ كميلا بهذا الحب المزعوم لسيّدة مزعومة اسمها كلوريس ، مما أعطاه الحرّية في أن يتغنّى بها كما يشاء : حتّى أنها لم تشعر بأية غيرة . وذات يوم كانوا يتحدّثون ثلاثتهم بعد الطعام ، فطلب أنسلمو من لوتريو أن ينشده بعض الأشعار التي نظّمها في كلوريس حبيبته ، وقال أن في وسعه أن يقول مايشاء ، لأنّ كميلا لاتعرفها .

فأجاب لوتريو : وحتّى لو كانت تعرفها ، فلن أتخلّى عن إنشاد هذه الأشعار : لأن العاشق لايمكن أن يسيء الى سمعة سيّدته إذا شكا من صدّها ، وفي الوقت نفسه امتدح جمالها . وهذه هي مقطوعة (سوناته) نظمتها منذ قليل أتحدّث فيها عن جحودها :

«في صمت الليل لما أن استولى النوم على نفوس الأحياء ، أعرض على السماء وعلى كلوريس الحساب الحزين لآلامي العديدة .

«وفي اللحظة التي تبدأ الشمس فيها تطلع على أبواب المشرق الورديّة أجدّد شكاتي القديمة مصحوبة بزفرات ونبرات متقطّعة .

«وحينما ترمي الشمس ، من أعلى عرشها البراق ، بنار أشعّتها على الأرض ، تزداد عبراتي وتتوالى منائحي .

«ويعود الليل ، وأعود الى شكاياتي الحزينة ، ودائماً ، في هذا النضال القتّال ، أجد السماء صمّاء وكلوريس لا تتأثّر»[1] .

وأعجبت كميلا بالسوناته ، وزاد أنسلمو في إطرائها ، وأردف قائلاً :

إن هذه السيّدة لابدّ أن تكون من القسوة بحيث لايرق قلبها لمثل هذا الحب الصادق .

وقالت كميلا : وهل كل مايقوله الشعراء العاشقون حق ؟

فأجاب لوتريو : لا بوصفهم شعراء ، بل بوصفهم عشّاقاً فإنّ وجدانهم أقوى من أن يستطيعوا التعبير عنه .

فقال أنسلمو : «لاشك في ذلك» ـــ وهو يقصد أن يزيد عواطف لوتريو قبل كميلا التي من جانبها استمتعت كل الاستمتاع بهذه الحيلة : لأنها لمّا كانت مولّعة بحب لوتريو ، فإنها كانت تحب كل مايأتي منه ، وهي تعلم جيّداً أن هذه الأشعار موجّهة اليها ، لأنها هي كلوريس الحقيقية . ولهذا سألته إن كان يذكر سوناتات أخرى أو أشعاراً .

فقال لوتريو : أذكر سوناته أخرى ، لكنّي أعتقد أنها أضعف من الأولى ، وأترك لك الحكم على ذلك :

«أعرف أنّي أموت ، وإذا لم تصدّقيني فإنّ موتي محقّق بقدر ماهو محقق ، أيّتها الجاحدة الجميلة ، أن تريني ميّتاً عند قدميك أولى من أن تريني نادماً على عشقك .

«وقد أجد نفسي في زاوية النسيان و هجرتني الحياة والمجد والحظ ، هنالك يمكن أن يرى ، في قلبي المفتوح ، كيف انتقش وجهها الجميل في أعماقه .

«وإنّي لأحتفظ بهذا الذخر للشقاء الذي يهدّدني به إخلاصي ، الذي يتقوّى بصدّك نفسه .

«يا ويلتاه لمن يبحر ، والجو مكفهرّ مظلم ، في بحر مجهول ، متخذاً سبيلاً محفوفة بآلاف المخاطر ، لانجم يهديه ولا مرفأ يلوح لناظريه» .

---

(١) أدرج ثربانتس هذه السوناتة في ملهاته بعنوان «بيت الغيرة» في بداية اليوم الثاني .

فامتدح أنسلمو هذه السوناته الثانية بما لايقل عن امتداحه للأولى ، وهكذا مضى بصنع ، حلقة تلو حلقة ، السلسلة التي قيّدته الى عاره . وكلّما زاد لوتريو في جرح كرامتها ، ازداد تقديره له ، والدرجات التي نزلتها كميلا نحو العاروسوء السمعة ، كانت في نظر زوجها صعوداً نحو قمة الفضيلة والسمعة الطيّبة .

وذات يوم كانت كميلا وحدها مع خادمتها فقالت لها : آسف بالغ الأسف يا عزيزتي ليونلا ، لأنّي استسلمت للوتريو بسرعة ، ولم أجعله يشتري امتلاك شخصي وسلطانه على إرادتي بمقاومة أكبر وخدمات أطول . وأخشى أن يزدري عمّا قليل هذه المتعة السهلة ، ويعزوها الى طيشي ، دون أن يتذكّر القوّة التي كان عليه أن يستخدمها من أجل التغلّب على مقاومتي .

فأجابت ليونلا : لا تقلقي لهذا ، فما يعطيه الإنسان لا يفقد من قيمته لأنه أعطاه بسرعة ، مادام حسناً وخليقاً بالتقدير ، بل اعتاد الناس أن يقولوا أن من يعط بسرعة مرّتين (خيرالبرّ عاجله) .

فقالت كميلا : نعم! لكن يقال أيضاً إن ما لا يكلّف قليلاً يُقدّر أقل .

فقالت ليونلا : هذا لا يمكن أن ينطبق على حالك : فلقد طالما سمعتهم يقولون أن الحب أحياناً يطير وأحياناً يمشي ، مع البعض يعدو ، ومع البعض الآخريسير على قدميه ، يشعل هؤلاء ، ويدفىء أولئك ، أحياناً يجرح ، وأخرى يقتل ، رغباته تتولّد في لحظة ، وفي اللحظة نفسها تشبع ، إذا هجم في الصباح على قلعة حصينة ، في المساء نفسه يضطر الى التسليم ، اذ لا توجد قوة تستطيع مقاومته . مم تدهشين إذن وماذا تخشين ؟ ولابدّ أن لوتريو قد ساءل نفسه نفس الأسئلة ، لأن الحب اختار ، أداة لهزيمتك غياب سيّدي . ألم يكن من المحتوم أن يتم ماقدره ، دون أن يعطي الوقت للوقت كما يقال ، إذ كان من الممكن أن يعود أنسلمو في أية لحظة ، وبحضوره يقف نجاحه ، إن الفرصة هي خير وزير اصطنعه الحب لتنفيذ قراراته ، وهو يستغلّها في كل مغامراته ، وخصوصاً في البدايات . وكل ماأقوله لك قد تعلمته بالتجربة أكثر مما تعلمته بالسماع . وسأحدّثك يوماً عن تجاربي ، لأنّي في نهاية الأمر من لحم وعظم مثل أي إنسان آخر .

أمّا أنت يا سيّدتي ، فلا أرى أنك استسلمت بسرعة كما تقولين : إن ذلك لم يحدث إلا بعد أن شاهدت روح لوتريو كلّها في عينيه ، وفي زفراته ، وفي هداياه ووعوده ، وبعد أن تبيّن لك كيف أن كل مناقبه تجعله خليقاً بالحب . فإن كان الأمر كذلك ، فلماذا تملأين خيالك بوساوس زائفة وخواطر سيّئة ؟ كوني واثقة أنه يقدّرك كما تقدّرينه ، وأنه يعيش

راضياً بأغلال غرامه ، وأنه ليس فقط يملك الواوات الأربعة التي يجب أن يتّصف بها ، فيما يقولون ، كل العشّاق الكمل[1] ، بل يملك أبجدية بأكملها . فإذا لم تصدّقيني فاسمعي لي ، لأنّي أعرفها عن ظهر قلب ، وها هي ذي فيما يبدو وفيما أعتقد : أمين ، بشوش ، تقي ، ثابت ، جريء ، حليم ، خدوم ، دمث ، ذكي ، رصين ، سرّي ، شهير ، صادق ، ضابط ، طيّب ، ظريف ، عاشق ، غني ، فارس ، قوي ، كريم ، مطيع ، نبيل ، هادئ ، والواوات الأربعة ، يقظ[2] .

فضحكت كميلا كثيراً من أبجدية ليونلا ، وأدركت أنها تعرف عن مكائد الحب أكثر مما أرادت أن تقول . ولم تنكر ليونلا ذلك ، بل اعترفت بأنها تمارس الحب مع شاب من أسرة عريقة في المدينة نفسها . فاضطربت كميلا لهذا الاعتراف ، لما خشيته من نتائج على سمعتها ، وأرادت أن تعرف على الأقل الى أي حد وصل غرامهما ، وهل ليس بينهما غير أحاديث الغرام ، ولكن ليونلاّ ، بقليل من الحياء وكثير من الوقاحة ، اعترفت بأنّ عاشقها سعيد . وهكذا يخلع خطايا السيّدات حياء الخادمات ، فلا يحفلن أبداً بالسقوط ، ولابأن يعلم أمرهن ، حين يرون من يأمرنهن قد ارتكبن خطيئة . فلا تستطع كميلا من أن تفعل أكثر من أن ترجو ليونلا ألا تقول شيئاً لعاشقها عمّا يخصّها ، وأن تسلك الفطنة... حتّى لايلاحظ أنسلمو ولوتريو شيئاً . فوعدت ليونلا بذلك ، لكنّها سلكت مسلكاً رديئاً سرعان مابرّر مخاوف كميلا من أن تفقد سمعتها . لقد كانت ليونلا وقحة فاسدة ، فتجاسرت على أن تأتي بعاشقها الى بيت سيّدتها ، وهي واثقة أن كميلا لن تقول شيئاً حتّى لو شاهدت هذا الرجل . وهذا هو جزاء النسوة اللواتي يفقدن فضيلتهن ، وهي أن يرين أنفسهن وقد أصبحن عبدات لخادماتهن وأن يتسترن على جرائمهن . وهذا ما حدث لكميلا ، فلقد طالما شاهدت ليونلاّ مع عاشقها في إحدى غرفات جناحها فلم تجرؤ على تقريعها ، بل أكثر من هذا ساعدتها في إخفائه حتّى لا يراه زوجها .

---

(١) في الاسبانية ، حروف الـS الأربعة ، وهي التي تبدأ بها الكلمات ، كتوم Secreto ولوع Solicito وحيد Solo عاقل Sabio وقد اخترنا بالعربية المرادفات الأربعة التالية التي تبدأ بحرف الواو ، واعي - وحيد - ولوع - وثيق .
وفي النص أغفل حرفي X, Y ، « لأنّ حرف X حرف خشن فلا يحسب له حساب ، وحرف Y حرف عطف فقط » .
وأبجدية الحب تذكّرنا بالأبجدية المشهورة في مسرحية « بريبانيت وقائد أركانيا » للوبة دي بيجا .

(٢) في الاسبانية Agradecido (لطيف) ، Bueno (طيب) ، Caballero (فارس مهذب) ، Dadivoso (كتوم) ، Enamorado (عاشق) ، Firme (ثابت) ، Gallardo (كريم) ، Honrado (محترم) ، Illustre (شهير) ، Leal (مخلص) ، Mozo (متواضع) ، Noble (نبيل) ، Onesto (أمين) ، Principal (قوي) ، Quantioso (ذو مثاقب) ، Rico (غني) ، Tacito (صموت) ، Verdadero (صادق) ، Zelador (غيور على شرفك) .

وأخيراً حدث ذات صباح ، في الفجر ، أن أبصر لوتريو رجلاً يخرج من عند كميلا ؛ فحسبه في البدء شبحاً ، لكنّ لمّا رآه يمشي متخفّياً في معطفه ، غيّر رأيه فوراً ، وظن ظنّاً كان سيضيّعهم جميعاً ، لولا أن كميلا عالجت الأمر . لم يخطر بباله أبداً أنّ في العالم امرأة تدعى ليونلا ، فاعتقد أنّ كميلا من السهولة والطيش بالنسبة الى الغير كما كانت بالنسبة إليه ، لأن هذه هي مصيبة المرأة التي استسلمت مرّة ، وهي أنّها تفقد حتّى ثقة ذلك الذي غرّر بها بتوسلاته وتضرعاته ، فإنه يعتقد دائماً أن غيره يمكن أن يفعل فعلته نفسها . فأسرع لوتريو ـ وقد أعماه هذا الشك ، ولم يصغ الى أي تعقّل ولا الى أي شعور حكيم ـ أسرع في الحال الى أنسلمو وكان لم يفق من نومه بعد ، متلهّفاً على إشباع الغيرة التي تمزّق قلبه ، وعلى الإنتقام من كميلا التي لم توجه اليه أية إهانة . وقال له :

ـ يا صديقي! منذ أيّام عديدة وأنا أكره نفسي على ألاّ أبوح لك بشيء لا أستطيع ولا ينبغي أن اكتمه عنك أطول من ذلك . ألا فلتعلم إذن أن كميلا الأنوف قد استسلمت أخيراً وصار في وسعي أن أفعل بها مايحلو لي . وإذا كنت لم أكشف لك عن هذه الحقيقة قبل الآن ، فذلك لأنّي أردت أن أتأكّد أن ماقالته لي لم يكن نزوة طارئة ، أو من أجل امتحاني ومعرفة هل أنا جاد في مراودتها . وإنّي واثق أنه لو كانت كميلا كما ينبغي أن تكون ، وكما اعتقدنا نحن ، لأنبأتك بمحاولاتي ، لكن مادامت قصر على الصمت ، فإنّي أحسب أن عليّ الظن أن وعدها لي حقيقي صادق ، بأن تطارحني في الغرفة التي تحفظ فيها الملابس ، حينما تغيب عن البيت (والواقع أن هذا كان مكان لقاؤهما المعتاد) . ومع ذلك فلا أريد منك أن تستولي عليك أية فكرة في الإنتقام ، لأنّ الجريمة لم تتجاوز بعد حد النيّة ، وربّما ندمت كميلا وتابت عنها . وهكذا فما دمت قد اتبعت نصائحي حتّى الان ، كلّيّاً أو جزئيّاً ، فإنّي أريد منك أن تتّبع النصيحة التي سأسديها اليك الآن ، حتّى تستطيع أن تتخذ قرارك المناسب دونما غلط وبعد تفكير ناضج . فتظاهر ، كالعادة ، بأنّك ستغيب يومين أو ثلاثة ، لكن حاول أن تتسلّل الى الغرفة التي ذكرتها لك ؛ فالأبسطة الجدرانية والملابس يمكن أن تختبىء فيها بسهولة ، وسيرى كلانا بأعيننا ماهي نيّة كميلا ، فإن كانت آثمة ، وثمّ من الخوف من ذلك أكثر من الرجاء ، فسيكون في وسعك بسهولة أن تنتقم منها ، دون لغط ولاضوضاء ، وفي ظل الأسرار .

ولمّا سمع أنسلمو هذا الكلام صمت حائراً مبلساً مستغرقاً في خواطره ، وعرف فجأة آخر ماكان يتوقّعه ، لأنه بدا له أن انتصار كميلا صار أمراً مؤكّداً ، وبدأ يفخر بذلك ويتيه . ولبث وقتاً طويلاً مطرقاً وعيناه مثبّتتان في الأرض ، لا يقول حرفاً ، وأخيراً قال :

ـ ياعزيزي لوتريو! لقد فعلت ماارتقبته من صداقتك ، وقد أخذت بنصائحك كلّها ، فافعل الآن ماتراه مناسباً ، وفكّر خصوصاً في كتمان السر في أمر كهذا .

فوعده لوتريو بذلك ومضى . ولكنه ماكاد يخرج حتّى راح يعضّ بنان الندم على فعلته البغيضة النكراء ، ويجيل في نفسه أنه كان في وسعه أن ينتقم من كميلا على نحو أقل قسوة وامتهاناً لكرامتها ؛ وراح يتّهم نفسه بالطيش ، لاعناً تسرّعه ، ولم يدر كيف ينقض ماأبرم ، أو على الأقل يمنع من وقوع آثاره المدمّرة ، وأخيراً قرّر أن يعترف لكميلا بكل شيء ، ولم تعوزه الفرصة للقائها فلقيها وحدها في اليوم نفسه . فقالت له في الحال :

ـ ياعزيزي لوتريو! إن وقاحة ليونلا فاقت الحدود حتّى أنها في كل ليلة تدخل في بيتي رجلاً يبيت فيه حتّى مطلع النهار . فماذا ستؤول اليه سمعتي إذا شوهد هذا الرجل يدخل أو يخرج في أوقات غير عاديّة ؟ وإنّ مايؤلمني أكثر وأكثر هو أنني لاأستطيع تقريعها ولاعقابها ؛ ذلك أنها هي المطلعة على أسرار غرامنا ، فلا أملك إذن أن ألومها على غراميّاتها هي ، وأخشى أن يقع شر مستطير لهذا السبب .

فظن لوتريو أن هذه ربّما كانت حيلة من كميلا لتخدعه عن أمر الرجل الذي لمحه يخرج من البيت ، لكنّ لمّا رآها تذرف العبرات وتحرق الأرم وتسأل النجدة ، لم يشك بعد في صدقها ولم يزد إلا ارتباكاً وشعوراً بالندم . وقال لها أن عليها ألا تحزن ، وأنه سيستطيع أن يضع حدّاً لوقاحة ليونلا ، وبعد ذلك اعترف لها بما جعلته الغيرة يقوله لأنسلمو ، وأنّ هذا سيختبئ في صوّان الملابس ليتجسّس عليها . وسألها المغفرة عن حماقتة هذه ، واستحلفها بالله أن تساعده على الخروج من هذا التيه اللعين الذي أوقعه فيه طيشه . فلبثت كميلا في ذهول من كلام لوتريو ، وراحت توجّه اليه اللوم الرقيق على سوء ظنه بها ، والقرار اليائس الذي اتخذه ، وكما أنّ أرواح النساء أسرع الى أرواحنا والى الخير أو الى الشر ، وأنهن أقدر على الفعل منهن على الكلام برزانة ، فسرعان ماوجدت كميلا الوسيلة لعلاج مابدا أنّه لا علاج له . وقالت للوتريو أن يعمل بحيث يختبئ أنسلمو في اليوم التالي كما قرّ قراره من قبل ، وهي من ناحيتها ستبحث عن وسيلة ليتمكّنا من أن يلتقيا بكل حرّية ، ودون أن تكشف له عن مشروعها ، أضافت قائلة أن عليه أن يتأهّب ليأتي اليها حين تغدو ليونلا لطلبه ، وأنّ يجيب عن كل ما تقوله له وكأنّ أحداً لايتسمعه . وأراد لوتريو أن يزداد بالخطة علماً حتّى يكون مسلكه باطمئنان أكبر ، ولا يبدر عنه شيء غير مناسب .

فقالت كميلا :

ـ يكفيك أن تجيب علي كما اتفقنا .

ولم تشأ أن تدخل في تفاصيل أدق ، حتى لا تتراءى خطّتها من الإحكام بقدر ما بدا لها ، ولا يبحث عن خطط أخرى أقل مهارة .

وفي الغداة تظاهر أنسلمو بالذهاب الى الريف عند بعض أصدقائه : وخرج من المنزل ، ثمّ عاد اليه دون أن يراه أحداً ، خصوصاً وقد سهّلت له كميلا وليونلا الوسيلة لذلك ، واختبأ في صوان الملابس ورأسه حافل بآلاف الخواطر المهتاجة ، شبه إنسان ينتظر أن يرى بعينيه البراهين على عاره ، وأن يضيّع الثروة الوحيدة التي يقدّرها وتتوقّف على هذه الخائنة . ولمّا تأكّدت هذه (كميلا) من أنّه أختبأ في صوان الملابس ، دخلت الغرفة تتبعها ليونلا ، وأطلقت زفرة حارة عميقة وقالت :

ـ وا أسفاه ياصديقتي ليونلا! أليس من الأفضل ، بدلاً من تنفيذ الخطّة التي لاأريد أن أفضي اليك بسرّها ، خوفاً من اعتراضك عليها ، أن تأخذي خنجر أنسلمو الذي طلبته منك وتطعني به قلبي الدنيء ؟ لكن كلا ، ليس من العدل أن أحمل عبء خطيئة الغير : أريد قبل هذا أن أعرف ماذا رأت عينا لوتريو الفاجرتان اللئيمتان فيّ مما أعطاه الجرأة عن الكشف عن وجدانه الشرّير ، جلباً للعار على وجه صديقه الحميم . تطلّعي من النافذة يا ليونلا : وأنا متأكّدة أنه في الشارع ينتظر الوقت المحدّد لتنفيذ خطّته البشعة ، التي سأتمكّن تماماً من إفسادها .

فأجابت ليونلاً الماكرة : آه ، ياسيّدتي ، ماذا تريدين أن تصنعي بهذا الخنجر ؟ هل تنوين أن تطعني به نفسك أو تعاقبي لوتريو ؟ على كلا الحالين ستضيّعين شرفك وسمعتك ، أوليس من الأفضل أن تستري إهانتك أولى من أن تدخلي هذا الرجل الشرير الى هذه الغرفة التي نحن فيها الآن وحدنا ؟ مانحن إلا نسوة ضعيفات ، أمّا هو فرجل شديد العزم . خصوصاً في هذه اللحظة التي يأتي فيها بنوايا سيّئة وقلب موله الغرام ، وقبل أن تستطيعي تنفيذ خطّتك فلربّما قضي على حياتك . ملعونة ثقة سيّدي أنسلمو الذي فتح بيته لهذا الرجل الشرّير! لكن لو أنّك قتلته يا سيّدتي ، لأنّي أدرك أن هذه هي خطّتك ، فماذا سنصنع بجثّته ؟

فقالت كميلا : ماذا سنصنع بجثّته ؟ سنتركها هنا ليدفنها أنسلمو . أليس من العدالة أن يتحمّل هذا العناء ، في مقابل ما سأكون قد فعلته ستراً لعاره في أحشاء الأرض ؟ أسرعي ، ناديه حالاً ، يبدو لي أن الوقت الذي يضيع قبل أن أنتصف لإهانتي بانتقام عادل هو إهانة للأمانة التي أحملها لزوجي .

وسمع أنسلمو كل هذه الأحاديث ، وكل كلمة من كلمات كميلا قلبت كل أفكاره ، لكن حين أدرك أنها مصمّمة على قتل لوتريو كان على وشك أن يخرج من مخبأة ويظهر

ليمنع هذه الكارثة : لكنّه كان يود أن يشاهد كيف ستتم هذه العزيمة الشريفة الشجاعة ، متهيّئاً للظهور في الوقت المناسب . وفي هذه اللحظة انتاب كميلا ضعف شديد ، فارتمت على سريرها الموجود هناك ، وأنشأت ليونلا في البكاء ، قائلة : ماأشقاني! لم يبق إلا أن أشاهد زهرة الشرف في هذا العالم تموت بين أحضاني ، سيّدتي تاج النسوة الفاضلات ، ومثل العفاف ، ثمّ ألافاً أخرى من الصفات الحميدة التي تجعل منها أخلق الفتيات بالاحترام ، ومن سيّدتها كميلا فنلوفا أخرى وهي هدف لمطاردات العشّاق . وما لبثت كميلا أن أفاقت من إغمائها ، وصاحت :

ـ لماذا لا تذهبين إذن يا ليونلا لدعوة هذا الصديق ، أخون خائن أضاءته الشمس بنورها وستره الليل بظلامه ؟ أسرعي ، اجري ، طيري ، لا تدعي نار الغضب المتّقد في قلبي تنطفيء ، تلك النار التي تحرق انتقامي العادل وتحيله الى لعنات عاجزة .

فأجابت ليونلا : إنّي ذاهبة ، لكن قبل ذلك أعطيني هذا الخنجر حتّى لا تفعلي في غيبتي أمراً يورّث الأسف الأبدي لكل أولئك الذين يحبّونك .

فقالت كميلا : اذهبي ، لا تخشي شيئاً ، وإن كنت ترينني جسورةً مصمّمة على الإنتقام الذي قرّرته ، ومع ذلك فلست مثل لوكرتيا التي انتحرت ، ولم تكن آثمة ، قبل أن تذبح المتسبّب في عارها : لاشك في أنّى أريد أن أموت ، لكن ذلك لن يتم قبل أن أنتقم من ذلك الذي أرغمني على المجيء الى هذا المكان لأبكي على إهانة لم أجلبها على نفسي .

وطال رجاء ليونلا قبل أن تقرّر الذهاب ، وأخيراً خرجت ، وفي أثناء غيابها قالت كميلا وهي تتظاهر بأنها تخاطب نفسها : « يا إلهي! ألم يكن الأفضل أن أدفع لوتريو عن رغبته كما فعلت في المرّات السابقة ، أولى من أعرّض نفسي ، كما أفعل الآن ،لأن يكوّن عنّي فكرة سيّئة ؟ لاشك أن ذلك كان سيكون التصرف الحسن ، ولكن ، ماذا ؟ لن أنتقم لنفسي ولن يوقّر بذلك شرف زوجي ، لو أنه انسحب سليماً معافى من مكان ساقه اليه نواياه الشرّيرة... . نعم! ليدفع الشرّير الخائن حياته ثمناً لمقاصده الخسيسة! لابدّ أن يعلم الناس جميعاً أن كميلا ليست فقط أمينة على الثقة التي أولاها إيّاها زوجها بل وأنها عرفت كيف تنتصف لنفسها ممن أراد إهانتها...ومع ذلك ، أوليس الأولى أن أبلّغ أنسلمو ؟لقد مسست الموضوع مسّاً رقيقاً في الرسالة التي كتبتها اليه وهو في الريف ، وأظن أنه إذا كان قد أهمل الإصغاء الى شكاتي ، فقد كان ذلك عن ثقة وطيب قلب ،لأنه لم يستطيع أن يصدّق أن صديقاً كاملاً مثل لوتريو يمكن أن تخطر بباله خواطر منافية للشرف . وقد رجعت أنا

الأخرى الى هذا الرأي ، بعد ذلك بزمان ، ولاأزال عند هذا الرأي لولاأن وقاحة هذا الغدّار ، وهداياه ووعوده المعسولة وعبراته المتواصلة قد أقنعتني بأنه خائن ، لكن ماالفائدة في كل هذه الكلمات ، هل لايزال ثمّ مجال للنصائح ، إذا كنت قد اتخذت قراراً كريماً ؟ كلا ، وأيم الله : الإنتقام : الإنتقام! ألا فليأت الخائن! وليقترب ، وليمت! وليكن ما يكون . لقد دخلت طاهرة في حوزة من وهبته السماء لي زوجاً : وأريد أن أخرج منها طاهرة أيضاً ، لن يلوّثني إلا دمي الزكي العفيف ودم ذلك الصديق الأفّاك الدم الدنس لأخسّ صديق في الدنيا! » .

وكانت تذرع الغرفة وهي تنطق بهذه العبارات ، والخنجر المسلول في يدها ، تخطو بخطى واسعة ، ، دون نظام ولاإيقاع ، وتبدر عنها حركات غريبة حتّى لتبدو وكأنها قد فقدت عقلها ، ويظنها المرء شاباً يائساً لا امرأة لطيفة رقيقة .

وكان أنسلمو يصغي اليها ويتأمّل في كل ماتقول ، وهو مختبئ وراء سجّادة الحائط : كان معجباً أيما إعجاب ، ووجد أن كل ماكان شاهداً عليه فيه الكفاية وزيادة لتبديد أخطر الظنون والإتهامات ، وود لو لم يأت لوتريو ، لأنه خشي أن يقع حادث أليم . بل كان على استعداد لأن يظهر ويبدّد مخاوفها ، حينما شاهد ليونلاّ قادمة بصحبة لوتريو . ولمّا شاهدت كميلا لوتريو رسمت على الأرضية فرقاً كبيراً وقالت له « حذار يا لوتريو ، لو تجاسرت على تخطّي هذا الخط أو مجرّد الإقتراب منه ، لأسرعت فأغمدت هذا الخنجر في صدرك . وقبل أن تنطق بكلمة أريد منك أن تسمع ما أقوله لك : ثمّ تجيب بعد ذلك . قل لي ، هل تعرف زوجي أنسلمو ، وتعرفني ؟ أي رأي كوّنته عنّا ؟ أجب قبل أن تضطرب وتتلعثم ، لأن ما أسألك عنه ليس فيه صعوبة » .

ولم يكن لوتريو من السذاجة بحيث لا يدرك من أوّل كلمة ماذا تريد كميلا أن تفعله ، خصوصاً وهو يعلم أن أنسلمو يتسمّع ، ولهذا أجاب بفطنة وتمييز حتّى لم يكن لأحد أن يظن أن حديثهما حديث خرافة . قال لها : «أي كميلا الجميلة! لم أكن أحسب أنّك دعوتني الي المجيء هنا لتسأليني عن هذه الأمور الغريبة عن الموضوع الذي دعاني الى الحضور ، فإذا كنت تفعلين ذلك للتهرّب من وعودك فقد كان ينبغي عليك ألا تعطيني الأمل ، لأن الخير يغرينا بقدر ما تقترب لحظة الاستمتاع به ، ولكن حتّى لا تتهميني بعدم الرد على طلباتك فإني أقول لك إنني أعرف زوجك أنسلمو وقد توثّقت عرى الصلات بيننا منذ الصبا ، ولن ألح في توكيد صداقة أنت تعرفينها خير المعرفة ، وإذا كنت أبدو في هذه اللحظة أنّي أهين شرفك ، فالذنب في ذلك ذنب الحب ، والحب يغتفر ذنوباً أفظع . أمّا أنت يا كميلا فإني أعرفك أيضاً : وأنت عندي عزيزة مثله ، وكان لابد من صفاتك الممتازة

لتجعلني أنسى واجبي نحو نفسي ونحو ناموس الصداقة المقدّس الذي يرغمني الحب ، وهو طاغية القلوب ، على انتهاكه .

فقالت كميلا : بعد هذا الاعتراف الفظيع أجب أيها العدو القاتل لكل ما هو خليق بأن يحب ، وبأي وجه تجرؤ على الظهور أمام المرآة التي يتأمّل فيها ذلك الذي أهنت شرفه أبلغ إهانة ؟ ولكن واأسفاه! ما أشقاني إنّي أدرك السبب الذي جعلك تنحرف عن جادة الواجب : ذلك أنّي سمحت لنفسي أمامك ببعض الحرّية ، التي لن أسميها عدم حياء لأنني لم أفعل ذلك عن قصد ، بل عن غفلة وإهمال مما يبدر عن النساء حينما لا يأخذن حذرهن فإن لم يكن السبب هو هذا فقل لي ، أيها الخائن ، هل شاهدتني أبداً أستجيب لمراوداتك بكلمة أو حركة قد توحي إليك بأقل أمل في نجاح نواياك الوضيعة ؟ وهل أصغيت أحياناً الى كلماتك الغرامية دون أن أدفعها بغضب واحتقار ؟ وهل شاهدني أحد أصدّق وعودك أو أقبل هداياك ؟ ومع ذلك ، فإنه لمّا لم يكن من الطبيعي أن يثابر المرء على مغامرة غرامية إن لم تلح له بارقة أمل ، فإني أعزو الى نفسي السبب في وقاحتك ؛ وأريد أن أعاقب نفسي على ذلك ، وأوقع على نفسي العقاب الذي تستحقه أنت ، لأنه لا شك في أن بعض عدم التحفّظ من جانبي قد هدهد آمالك ، وحتّى تعلم أنني لن أكون أقل قسوة على نفسي منّي عليك ، فإنّي أريد أن تكون شاهداً على التضحية التي أريد أن أقدّمها قرباناً للشرف المهان لزوجي المبجّل ، الذي أهانه كلانا : أنت بمطارداتك الإجرامية عن عمد ، وأنا لقلّة اهتمامي بتجنّب المناسبات التي يمكن أن تساعد نواياك الآثمة . نعم ، إن هذه الفكرة التي كوّنتها أنا عن نفسي هي التي تعذّبني أشد العذاب وتحملني على أن أعاقب نفسي بيدي ، خوفاً من أن يكون من شأن استعارة يد غيري أن تصبح خطيئتي أشهر ، لكن قبل أن أموت ، أريد أن أذبح فاعل كل مصائبي ، وأن أملّي عيوني بمنظر انتقام تفضي به وتسمح به العدالة التامة » .

وما قالت هذه الكلمات حتّى انقضّت على لوتريو والخنجر في يدها ، بقوّة هائلة وخفّة زائدة ، متظاهرة بالرغبة في طعنه ، حتّى أنه لم يكد يعرف هل هذه المظاهرات حقيقية أو مصطنعة ، وحتّى اضطر الى استخدام القوّة والبراعة ليمنع كميلا من جرحه ؛ والواقع أن ملامح اليأس ارتسمت على وجهها بقوّة بالغة حتّى أنها أرادت أن تزيد من ترويعها بأن تسيل دمها هي . فلمّا رأت أنها لا تستطيع أن تطعن لوتريو ، أو على الأقل تظاهرت بهذا ، صاحت : «لمّا كان القدر يأبى أن يساعدني في خطّتي ، فإنه على الأقل لن يكون من القسوة بحيث يمنعني من أن أنفّذ بعض هذه الخطة» . هنالك استخلصت يدها بقوّة من قبضة لوتريو ، وطعنت نفسها في موضع لا يمكن أن يكون فيه الجرح عميقاً ، بين النهدين

والكتف اليسرى ، ثمّ خرّت على الأرض وكأنه أغمي عليها ، فلمّا شاهدتها ليونلا ولوتريو راقدة على الأرض مضرّجة في دمائها ، انتابهما فزع بالغ ؛ وأسرع لوتريو لينتزع الخنجر من الجرح ، ولمّا رأى الجرح بسيطاً إطمأنّ ولم يملك نفسه من الإعجاب مرة أخرى بهذه الحيلة وبمهارة كميلا وفطنتها . ولكي يلعب هو الآخر دوره أخذ في الصراخ والشكاة العالية وكأنّها قد ماتت ، صاباً على نفسه اللعنات ، وليس فقط على نفسه بل وعلى السبب في كل هذه الكارثة ، ولمّا كان يعلم أنّ أنسلمو يتسمّع ، كان ينفث من الزفرات العميقة ماجعله يثير الشفقة أكثر من كميلا نفسها ، مهما بدت ميتة .

وأخذت ليونلاّ سيّدتها بين ذراعيها وأرقدتها على السرير ، متوسّلة الى لوتريو أن يمضي ليبحث عن شخص يستطيع أن يضمّد جراحها في السر . وسألته فيما ينبغي أن يقال لأنسلمو لو عاد قبل أن يتم شفاء كميلا . فقال لها لوتريو إن لها أن تقول ماتشاء ، وإنه هو في حالة لا تسمح له بإسداء النصح ، وأنّ المهم هو وقف هذا الدم المنهمر ، أمّا عن نفسه فإنه سيغدو الى مكان لايمكن أن يراه فيه أحد . ومضى وهو يبدي المزيد من مظاهر التألّم ، ولمّا أصبح وحده لم يكف عن رسم علامات الصليب ، والتعجّب من براعة كميلا ولباقة ليونلا ، ورأى أن أنسلمو ينبغي له أن يعد زوجته كأنها[1] بورشيا أخرى ، وود أن يكون معه ليحتفلا معاً بما لم يكن إلا ثمرة أعمق تخييل وتمويه وبراعة كاملة . ووقفت ليونلا دم الجرح ؛ ولم يكن قد خرج منه إلا القدر اللازم لتلوين الحيلة ، وصبّت عليها النبيذ ، وضمّدت الجرح على قدر ما استطاعت ، وكانت تصحب أعمالها بمناجيات لنفسها لو لم يسمع أنسلمو غيرها لظن أن زوجته نموذج الإخلاص والشرف . أمّا هذه ـ أي كميلا ـ فهي من ناحيتها راحت تقول عن نفسها أنها جبانة ، هيّابة ، ولامت نفسها على فقدانها الشجاعة ، في لحظة مهمة كهذه ، الشجاعة على القضاء على حياة صارت تفزع منها . وسألت ليونلاّ هل من اللائق إخبار زوجها بما جرى ؛ فنصحتها ليونلا ألا تفعل ، خوفاً من أن يرى أنسلمو نفسه مضطراً الى أن ينتصف من لوتريو ، وهذا ما لا يمكنه أن يقوم به دون أن يعرّض حياته للخطر ، وأردفت قائلة أن النسوة العاقلات الحصيفات ينبغي عليهن أن يجعلن كل همّهن في أن يبعدن عن أزواجهن كل أسباب النزاع . ووافقت كميلا على هذه النصيحة ووعدت بالتزامها ، لكنها لاحظت أنه لابدّ ، على كل حال ، من إيجاد تبرير لجرحها هذا الذي لا يمكنها إخفاؤه عنه . فأجابت ليونلاّ قائلة إنها لاتعرف الكذب ، حتّى في المزاح .

---

(١) بنت كاتوالاوتيكي وزوجة مركس بروتس ، ولمّا علمت بموت زوجها بعد معركة فيليب ، انتحرت بأن ابتلعت حجراً محترقاً .

فقالت كميلا : وأنا أيضاً مع الأسف ، لن يكون عندي من رباطة الجأش مايمكّنني من اختراع كذبة وتأييدها ، حتّى لو تعلّق الأمر بحياتي نفسها ، فإن لم نجد أي مبرّر وتعلة ، فلا بد من الاعتراف بالحقيقة كاملة عارية ، حتّى لا يظن بنا الظنون .

فقالت ليونلاّ : لاتقلقي ، فمنذ الآن حتّى الغد سأفكّر ، وربّما أمكن أن يختفي جرحك دون أن يراه ، ولتتفضّل السماء بإنجاح مساعينا الشريفة . لاتهتمّي الان ، ياسيّدتي ، إلا بتسكين إنفعالاتك ، حتّى لا يجدك سيّدي مضطربة . وعلى كل حال فاعتمدي عليّ وعلى رحمة الله الذي يساعد دائماً ذوي النوايا الطيبة .

وكان أنسلمو قد أرهف سمعه وشاهد تمثيل مأساة موت شرفه ، وقد تمّ التمثيل والإخراج بصورة طبيعية مؤثرة بحيث يظن المرء أنها الحقيقة عينها ، وانتظر الليل بصبر نافذ كي يستطيع الخروج من بيته والذهاب للقاء صديقه الحميم لوتريو ، ويغتبط معه لهذه الدرّة اليتيمة التي وجدها في شرف زوجته وعفافها . ويسّرت الإمرأتان له كل سبل الخروج ، ودون أن يضيّع وقتاً جرى الى لوتريو . ولايمكن التعبير عن فرحته وكم مرة عانقه وقبّله ، وماذا قال مدحاً لكميلا . وأصغى إليه لوتريو دون أن يستطيع التعبير عن سرور كبير ، لأنه تصوّر الى أي حد خدع أنسلمو وكم خدعه هو على نحو شائن . ولاحظ أنسلمو قلّة سرور لوتريو ، لكنه عزا ذلك الى جرح كميلا الذي اعتقد صديقه (لوتريو) أنه السبب فيه ؛ ولهذا : فتعزية له ، قال أنه لامحل للقلق ، وأنّ الجرح خفيف من غير شك مادامت المرأتان (كميلا وليونلاّ) اتفقتا على ألا يخبرانه به ، ولهذا ينبغي طرد كل حزن ، وعدم التفكير إلا في السرور ، لأنه بفضل مغامرة لوتريو شعر أنسلمو كأنه بلغ قمّة السعادة ، وماعلى صديقه (لوتريو) إلا أن ينظّم شعراً على شرف كميلا ، ليخلّد اسمها بين الأجيال المقبلة . وأثنى لوتريو على مقصده ، ووعد بالإسهام في تشييد هذا التمثال المجيد .

وهكذا استمرّ أنسلمو أكبر مخدوع في الدنيا ، وهو نفسه ، بيديه ، قد شيّد في بيته تمثال عاره وهو يعتقد أنه إنما أقام صرح مجده . واستقبلته كمليلا حزينة الوجه ، في الظاهر ، وإن تكن في قلبها راضية . واستمر الوهم فترة من الزمان ، الى أن أدار الحظ عجلته ، فهذه الخديعة التي بذل في إخفائها كل عناية اكتشفت ، وكلّفت أنسلمو حياته جزاءً وفاقاً عن استطلاعه الأخرق .

الفصل الخامس والثلاثون

في المعركة الدامية الرهيبة التي أثارها دون كيخوته ضد خوابي النبيذ، وتتمة حكاية المستطلع الفاسد الرأي

لم يبق لإتمام قراءة القصة غير صفحات قليلة حينما خرج سنشو پنثا من الغرفة التي كان يستريح فيها دون كيخوته ، وهو في فزع يصيح :

ـ أسرعوا ياسادة ، هبّوا لنجدة مولاي فإنه يخوض أفظع معركة شاهدتها . الحمد لله! لقد طعن بالسكّين المارد العدو للسيّدة الأميرة ميكوميكونا ، طعنة نجلاء حتّى قطع رأسه عند حزّ الكتفين ، وكأنه لفتة .

فقال القسّيس ، وقد قطع القراءة : ماذا تقول ياأخي ؟ هل أنت بعقلك ياسنشو ؟ كيف يمكن أن يحدث مثل هذا ، مادام ذلك المارد على بعد ألفي فرسخ من هاهنا ؟

وفي الوقت نفسه سمعت ضوضاء شديدة من الغرفة المجاورة ، وسمع دون كيخوته وهو يصرخ : « كف أيهّا اللص ، الصعلوك ، الخسيس ، أنت في قبضتي ، وسيفك لن يفيدك شيئاً » . وفي الوقت نفسه أهوى بضربات شديدة على الجدار . فقال سنشو : « كيف تتلهّون بالسماع ياسادتي ، ادخلوا ، وافصلوا بين المحاربين ، أو انجدوا مولاي وإن كنت لاأظنّه في حاجة الى نجدة ، إذ لاشكّ أن المارد قد قتل فعلاً ومات ، والله يحاسبه الآن على سوء أفعاله . لقد شاهدت دمه يسيل على الأرض ، رأسه مجندلاً الى جواره ، ورأسه كبير مثل خابية النبيذ .

فقال صاحب الفندق : ليقتلني من شاء إن كان دون كيخوته أو دون شيطان لم يطعن بسيفه خوابي النبيذ الأحمر الملأى كلّها والمرصوصة هناك عند رأس سريره ، وأن النبيذ الذي سال منها هو ماحسبه هذا المأفون دماءً!

هنالك دخلوا الغرفة ، ووجدوا دون كيخوته في أغرب لباس في الدنيا : كان يلبس قميصه ، ولكنّ هذا القميص كان قصيراً الى حد أنه لم يغطّي حتّى منتصف وركيه ، ومن

الخلف كان أقصر بطول ستة أصابع ، وكان ساقا دون كيخوته الطويلين المعروقتين ، يغطّيهما شعر كثيف ملوّث وعلى ذراعه اليسرى ملاءة السرير ، هدف غيظ سنشو لسبب يعرفه هو جيّداً ، وكان يمسك بيده اليمنى بسيفه مسلولاً ، ملوّحاً به ، عن يمين مهدّداً نفس التهديدات وكأنه فعلاً كان يحارب مارداً من المردة . والطريف في المسألة أن عينيه كانتا مغمضتين ، لأنه كان ناعساً يحلم بأنه يصارع المارد وتسلّطت المغامرة على خياله حتّى راح ينفّذها ، وخيّل إليه أنه قد وصل فعلاً إلى مملكة ميكوميكونا ، وأنه صار في مواجهة عدوّه . وفي اندفاعه سدّد الى خوابي النبيذ طعنات متواليات وهو يعتقد أنه يسدّدها الى المارد حتّى فاضت الغرفة كلّها بالنبيذ . فلمّا شاهد صاحب الفندق هذه الخسائر استولت عليه سورة غضب شديدة جعلته ينقضّ على دون كيخوته ويهوي عليه باللكمات العنيفة الى حد أنه لو لم ينتزعه القسّيس وكردنيو من بين يديه لانتهت حرب المارد . وعلى الرغم من هذا الوابل من اللكمات فإن الفارس المسكين لم يستيقظ من نومه ، وكان سيستمر في نومه من غير شك لولا أنّ الحلاّق أتى بدلو ماء بارد من البئر وصبّه على جسم دون كيخوته . ففتح هذا عينيه ، لكنه لم يفق الى الحد الذي يتبين له معه الحالة التي صار اليها . ودخلت دوروتيه ولكنّها لمّا شاهدت أن المدافع عنها يلبس لباساً قصيراً جداً ، لم تشأ البقاء لتشهد المعركة . وفتّش سنشو في كل مكان عن رأس المارد ، فلمّا لم يجده صاح :

ـ نعم ، إني أرى تماماً أن كل شيء في هذا المنزل سحر ، في المرة الأخرى ، في نفس المكان الذي أنا فيه ، تلقّيت لكمات وتطويحات عديدة دون أن أعرف من الذي يسدّدها الي ودون أن أبصر أحداً ، والآن هذا الرأس الذي شاهدته بعينيّ يقطع ، وشاهدت الدم يهراق منه كالنافورة ، قد اختفى .

فقال صاحب الفندق : عن أي دم وأية نافورة تتكلّم ياعدو الله وأوليائه ؟ ألا ترى أيها الوغد أن هذه النافورة وهذا الدم ليسا غير خوابي تراها مخروقة والنبيذ الأحمر الذي نعوم نحن الآن فيه هنا ؟ ألا ليت روح من خرقها تعوم كذلك في الجحيم .

فقال سنشو : لست أدري شيئاً ، وكل ماأستطيع أن أقوله هو أنّي إذا كنت من تعاسة الحظ بحيث لاأعثر على ذلك الرأس ، فإن كونتيّتي ستذوب مثل الملح في الماء .

ولقد كان سنشو صاحياً أسوأ من مولاه نائماً ، لأن وعود هذا قد أدارت رأسه . وبرح اليأس بصاحب الفندق وهو يرى برود السائس وجنون المولى : فأقسم بألاّ يحدث هذه المرة ماحدث في المرة السابقة حين رحلا دون أن يدفعا الأجرة ، وأن امتيازاتهما المزعومة

الناجمة عن الفروسية لاتمنعهما من دفع الإجرة والتعويض عن الخسائر ، بل وعن الخرق التي سترتق بها الخوابي المخروقة .

وأمسك القسّيس بيدي دون كيخوته ، وظنّ هذا أنه أتم المغامرة ، وصار عند قدمي الأميرة ميكوميكونا ، فجثا على ركبتيه أمام القسّيس وقال له : « عظمتك ، أيتها السيدة العالية المقام القوية السلطان ، يمكنها أن تعيش الآن في أمان تام دون أن تخشى السوء من تلك المخلوقات الشرّيرة وقد أصبحت منذ اليوم وفيّاً بالعهد الذي قطعته لك ، لأنّي بعون الله جلّت قدرته ، ولطف تلك التي من أجلها أحيا وأتنفّس ، قد نفّذت وعدي خير تنفيذ » .

فقاطعه سنشو حين سمع هذه الكلمات قائلاً : ألم أقل لكم ؟ لم أكن سكران ، انظروا هل ألقى مولاي بالمارد في الملح! أمسك بالثيران[1] وكسب كونتيّتي .

من ذا الذي كان يستطيع أن يمسك نفسه عن الضحك وهو يستمع الى جنون المولى والسائس ؟ لهذا أخذ الجميع في الضحك ، فيما عدا صاحب الفندق الذي استبد به الغضب والغيظ . وأخيراً قام كردنيو والحلاّق والقسّيس بإرقاد دون كيخوته على السرير ، بعد مشقة ، وكان نائماً وعليه مظاهر الإعياء الشديد . وتركوه يستريح ، ثمّ عادوا الى باب الفندق ليواسوا سنشو الذي كان لايزال مهموماً لأنه لم يستطع العثور على رأس المارد ، ولكنّهم وجدوا مشقة أكبر في تهدئة صاحب الفندق الذي استبدّ به اليأس لضياع خوابيه .

وصاحت صاحبة الفندق بدورها : « يالنحس الساعة التي دخل الفندق فيها هذا الفارس الجوّال! ألا ليتني لم أشاهد طلعته أبداً لأنه طالما كلّفنا حضوره! في المرة الأخيرة مضى دون أن يدفع ثمن المبيت ليلة وثمن العشاء والغرفة والتبن والشعير عن نفسه وعن سائسه والحمار والفرس ، قائلاً أنه فارس جوّال يخوض المخاطر والمغامرات (بعث الله له بالمغامرات السيّئة هو وكل المغامرين في هذا العالم) ، وأنه بهذه الصفةمعفى من الدفع ، كما هو مكتوب في لوائح الفروسية الجوّالة . والآن وبمناسبته ، يأتي شخص آخر يسرق ذيل بقرتي ويعيده إليّ بأكثر من مرابطين حلواناً ، وقد نحل وبره بحيث لم يعد يصلح لزوجي . وثالثة الأثافي أن يأتي هذا الفارس اللعين ليفقأ خوابيّ ويهرق نبيذي . بودّي لورأيت دمه يُهرق! ولكن لايحسبنّ أنه سيتخلّص من هذه الحكاية بثمن بخس ، قسماً بعظم أبي وعمر أمّي أنه سيدفع ثمن هذا كلّه عداً ونقداً ، وإلا فقدت سمعتي ولم أعد بنت أبي » .

وهكذا نفّست صاحبة الفندق عن غضبها وصاحبتها في ذلك خادمتها ماريتورنس . أمّا

---

(١) تعبير مأخوذ من لغة مصارعة الثيران ، معناه : لاشك في ذلك .

البنت فلم تقل شيئاً ، مكتفية بالإبتسام بين الحين والحين . وأخيراً سكّن القسّيس كل الضجة ، بعد أن وعد بدفع الخسارة التي وقعت للخوابي والنبيذ وذيل البقرة الذي تعلّقت به كل هذا التعلّق . وواست دوروتيه سنشو وأكّدت له وعدها بأن تعطيه خير كونتيسة في مملكتها حينما تستقر في سلطانها ، بشرط إثبات أنّ مولاه احتزّ رأس المارد ، وبناء على هذا الوعد طاب خاطر سنشو وأكد للأميرة أنه شاهد بعيني رأسه سقوط رأس المارد ، وأمارة ذلك أنه كان لهذا الرأس لحية طويلة تنزل حتّى النطاق ، وإذا لم يعثر على الرأس فذلك لأن كل شيء في هذا النزل يتم بالسحر ، كما جرّب هو ذلك في المرة الأخيرة . فقالت له دوروتيه أنها تعتقد ذلك أيضاً ، ولكن عليه ألا يقلق ، وسيجري كل شيء على مايرام . فلمّا هدأت الضوضاء هكذا ، رأى القسّيس أنه لم يبق إلا القليل في الحكاية فأراد إتمامها . ورجاه كردنيو ودوروتيه والآخرون أن يتمّها وشاء هو أن يرضيهم ويرضي نفسه ، فتابع القراءة هكذا :

واليقين الذي استقرّ في نفس أنسلمو بفضيلة زوجته جعله أشد من في الدنيا رضى وهناءة . وكانت كميلا تتجهّم في وجه لوتريو كي تخفي أفكارها ، ولوتريو ابتغاء توكيد مارآه أنسلمو من رأي ، التمس منه الإذن بالانسحاب ، لأن حضوره صار بغيضاً في عيني كميلا . لكن أنسلمو المخدوع دائماً ، لم يشأ الموافقة ، وهكذا أسهم هو نفسه في عاره دون أن يدري . وفي هذه الأثناء كانت ليونلا ـ وقد أعمتها الملذّت التي ذاقتها في الغرام ـ اندفعت فيه بغير أدنى تحفّظ ، معتمدة على سيّدتها التي كانت تسترها ، فتتستّر عليها ، وتقدّم لها الوسائل لإرضاء شهواتها بدون ضوضاء . وأخيراً ذات ليلة سمع أنسلمو وقع أقدام في غرفة ليونلا ، فأراد أن يدخلها ليرى ماذا هناك ، فأحس بأن ثمّ من يضغط على الباب من خلف . فزادته هذه المقاومة رغبة في فتحه ، وبذل جهداً كبيراً حتّى استطاع دفع الباب ، فلمّا دخل أبصر رجلاً يقفز من النافذة . فاندفع بسرعة للإمساك به أو على الأقل لتبيّن من هو ، لكنّ ليونلا اعترضت أمامه وقالت له : « قف ، يا سيّدي ولا تضطرب ، ولا تحاول اللحاق بالهارب . إن هذا الأمر يعنيني أنا وحدي ، إنه زوجي » . لكنّ أنسلمو لم يشأ تصديقها ، واستلّ خنجراً وهدّد بقتلها إن لم تخبره بالحقيقة . فأفقدها الخوف رشدها وأجابت : « لا تقتلني ، سأخبرك بأمور أهم بكثير مما تظن » . فقال أنسلمو : « قولي في الحال وإلا قتلتك » . فقالت له : « من المستحيل أن أقول لك شيئاً الآن ، إذا استولى الاضطراب عليّ انتظر حتّى صبيحة الغد ، وسأكشف لك عن أمور ستدهشك ، ولكنّي أقسم لك بأن هذا الذي قفز من النافذة شاب من هذه المدينة ، وعدني بالزواج » .

فسكنت ثائرة أنسلمو ، وقرّر الإنتظار حتّى الغد ، وهو لم يخطر بباله أبداً أنه سينبأ بشيء يشين كميلا ، لأنه كان واثقاً كل الثقة بأمانتها . وخرج من الغرفة ، وحبس فيها ليونلا ، قائلاً أنه لن يطلق سراحها إلا بعد أن تبوح له بكل ماتعرف . وعاد في الحال الى جناح كميلا ، وقصّ عليها ماجرى ، ووعد ليونلاً بأن تبوح له بسر عظيم . أمّا أن كميلا قد اضطربت لمّا قال ، فهذا هو المتوقّع ، أليس من المحتمل جداً أن يكون هذا السر خاصاً بها ، وأن ليونلا ستكشف عن كل ماتعرفه عن قلة أمانة سيّدتها ؟ ولهذا فإن أنسلمو لم يكد ينام حتّى أخذت نقودها وأثمن حليّها ، ثمّ خرجت من البيت دون أن يراها أحد ، وخرجت الى لوتريو وروت له ماحدث ، متوسلة اليه أن يهرب معها أو على الأقل يؤويها بمأمن من مطاردات أنسلمو . فاضطرب لوتريو أيما اضطراب ، حتّى لم يستطع أن يحير جواباً وماذا يستطيع أن يقرّر ، وأخيراً قرّر أن يقتاد كميلا الى دير كانت أخته رئيسته ، ونفّذ هذا الأمر بسرعة ، أمّا هو فقد خرج لفوره من المدينة ، دون أن يودّع أحداً . وفي الغداة صباحاً استيقظ أنسلمو دون أن يفكّر في كميلا ولم يكن يشغله غير السر الذي ستبوح به ليونلاً ، فجرى الى الغرفة التي حبسها فيها ، وفتحها ودخل فلم يعثر على أحد ، لكن ملايات السرير كانت مربوطة في النافذة ، فأدرك من ذلك أنها قد هربت من النافذة . فتضايق لذلك كثيراً ومضى الى جناح كميلا فلم يجدها لافي مخدعها ولافي البيت كلّه . نادى على الخدم فلم يظفر من أحد منهم بأنباء ، وشاهد خزائنها مفتوحة وليس بها حليها ، مما أكّد له نهائيّاً محنته وأنّ ليونلا ليست السبب الوحيد في هذا كلّه . وأراد ، حزيناً مفكّراً ، أن يذهب ليروي مأساته للوتريو ، ودون أن يتم لبس ملابسه أسرع اليه ، فلم يجده هو الآخر ، وعلم من خدمه أنه رحل أثناء الليل وحمل معه كل نقوده . وعند هذه العلامة الأخيرة كاد يفقد أنسلمو رشده ، وفقده نهائيّاً لمّا أن عاد الى بيته فلم يجد خدماً ، ولاخادمات ، لقد كان البيت خاوياً . فلم يدر ماذا يفكر ، أو ماذا يقول أو ماذا يفعل ، وطارت قواه العقلية شيئاً فشيئاً ، لقد وجد نفسه فجأة بغير زوجة ولاصديق ولاخدم ، مجرّداً من شرفه الذي أزاله فرار كميلا . وأخيراً قرّر الذهاب الى ذلك الصديق الذي كان قد ذهب اليه حينما يسّر للوتريو كل الوسائل لخيانته . فأغلق باب البيت ، وامتطى فرسه ومضى لسبيله محطّماً بأفكاره الحزينة ، مضطراً الى النزول عن صهوة فرسه وربطه الى شجرة انهار عند جذورها تخنقه الزفرات . وظلّ في هذا الموضع حتّى المساء . وهنالك مرّ رجلاً يركب فرساً قادماً من المدينة ، فحيّاه ، وسأله أي جديد يتحدّث عنه الناس في فيرنتسة فأجابه المسافر : « إنهم يتناقلون أغرب الأنباء ، إذ يقولون علناً أن لوتريو ذلك الصديق الحميم لأنسلمو الغني ،

ويسكن في سان جوفاني ، قد رحل هذه الليلة مع زوجة أنسلمو هذا الذي اختفى هو الآخر . وقد عرف نبأ ذلك عن طريق خادمة لكميلا أوقفها الحرّاس حين نزلت بملايات من نافذة البيت . إنني لا أعرف جيداً كل ظروف هذه الحادثة ، بيد أنّي أعلم فقط أنّ المدينة كلّها في دهشة بالغة جداً ، بسبب الرابطة الوثيقة التي جمعت بين هذين الرجلين بحيث كانا يسمّيان « الصاحبين » .

فسأله أنسلمو : وهل تعرف ، بالصدفة ، الطريق التي سلكها لوتريو وكميلا ؟

فأجاب المسافر : كلا ، إن الحاكم قد بذل مساعي لافائدة منها حتّى الآن في تتبّع آثارهما .

فقال أنسلمو : وداعاً يا سيّدي!

فأجاب المسافر : « في رعاية الله » ـ ومضى في طريقه .

هذه الأنباء الأليمة أرهقت أنسلمو حتّى أوشك أن يفقد العقل والحياة معاً . نهض ما وسعه النهوض ، وراح الى صديقه الذي لم يكن قد عرف بعد أنباء مصيبته ، لكنّه لمّا رآه شاحباً مهلهلاً حكم فوراً أنه لابد وقع له حادث أليم . فرجاه أنسلمو أن يهيّئ له سريراً ، ويبعث اليه بورق وحبر . ونام ، وأراد أن يكون وحده ، ورجا إغلاق الباب عليه . أسلم نفسه الى نفسه ، وجثت عليه الهموم من محنته ، فاستشعر الى جانب المخاوف بأن الحياة تغادره ، وحتّى يعرف الناس السبب في موته ، أخذ يكتب ، لكنّ قواه خانته قبل أن يتم الرسالة ، وفاضت روحه من الألم الذي أحدثه استطلاعه الأحمق . ولمّا رأى صاحب البيت أن أنسلمو لم ينادِ أحداً ، دخل في غرفته ليستطلع خبر ماأصابه ، فوجده ونصف جسمه خارج السرير منحنياً على المنضدة ، والقلم في يده وهو يستند الى ورقة مكتوبة مفتوحة أمامة . نادى عليه ، لكنّ لمّا لم يجده يرد عليه ، أخذه من يده وتبيّن له أنه مات . فاستولى عليه الفزع ، ونادى الخدم ليكونوا شهوداً على هذا الحادث الفظيع ، وأخذ يقرأ مافي الورقة ، فوجد مكتوباً فيها ما يلي :

« إن رغبة حمقاء رعناء قد كلّفتني حياتي . فإذا بلغ نبأ موتي الى مسامع كميلا فلتعلم أنّي عفوت عنها ، إنها لم تكن مضطرّة أبداً الى صنع معجزات ، ولم يكن في وسعي أن أطالبها بذلك ، ومادمت قد كنت أداة عاري ، فمن العدل أن... » .

هذا كل ما كتب ، ولا شك في أنه قد لفظ نفسه الأخير قبل أن يستطيع المضي في الكتابة . وفي الغداة أعلن صديق أنسلمو نبأ وفاته لأقاربه وكانوا قد علموا بالمغامرة الحزينة . أمّا كميلا فقد كانت في ديرها ، مستعدّة للحاق بأنسلمو في رحلته الأخيرة ، لا

أسفاً على موته ولكن لأنه لم تكن لديها أية أنباء عن لوتريو . وهم يؤكّدون أنها لم ترد أن تنخرط في سلك الرهبنة ولا أن تخرج من الدير إلا حين علمت أن لوتريو قد قتل في معركة وقعت في مملكة نابلي بين م . دي لوتريك وبين جونثالبه فرنندث القرطبي الملقب بـ« القائد العظيم[1] » ، وتلك كانت نهاية الصديق الذي تاب بعد فوات الأوان . هنالك نذرت كميلا نفسها لحياة الرهبنة ، ولكنّها لم تعش طويلاً فقد حطّمها الحزن ووخز الضمير والتأنيب . وهكذا هلك ثلاثة أشخاص لأن أحدهما اندفع في رغبة حمقاء .

فقال القسّيس : « هذه الحكاية تبدو لي حسنة ، لكنّي لاأستطيع الإقتناع بأنها حدثت فعلاً ، فإن لم تكن إلا من صنع الخيال ، فإنّي أجدها رديئة ، فمن ذا الذي يستطيع أن يفترض وجود زوج أحمق بلغت به الحماقة الى حد الرغبة في إجراء امتحان خطير مثل هذا ؟ لو كان الأمر بين عاشق وعشيقته لهان الخطب ، ولكن بين الزوج وزوجته هذا أمر من المستحيل أن يقع . أمّا بناء الحكاية من الناحية الفنّية فإنه يعجبني كثيراً » .

(١) هنا خطأ تاريخي ، لأن جونثالبه (غنصالبه) القرطبي ترك إيطاليا في سنة ١٥٠٧ ، وتوفي في غرناطة سنة ١٥١٥ ، بينما لوتريك لم يكن قائداً للقوات الفرنسية إلا في سنة ١٥٢٧ ، وكان أمير أورانج قائداً لقوات شارلكان (كارلوس الخامس) .
ولكن رودريجث مارين يرد على ملاحظة كليمنثين هذه قائلاً : إن لوتريك حضر معارك « القائد العظيم » في إيطاليا ، واشترك في معركة ثرنيولا (وهذه مدينة في مملكة نابلي القديمة على مسافة ٣٧كم من جنوب شرقي فودجيا) التي انتصر فيها غنصالبه القرطبي على دوق نيمور سنة ١٥٠٣ ، مما نتج عنه ضياع ممتلكات لويس الثاني عشر في مملكة نابلي .

الفصل السادس والثلاثون

في الأحداث الغريبة التي وقعت في الفندق

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فأجاب الخادم : لست أدري أيضاً ، لأنّي لم أر وجهها طوال الرحلة . لقد سمعتها فقط تزفر زفرات حارة مرات عديدة وتنوح كما لوكانت ستلفظ أنفاسها الأخيرة ، وعلى كل حال فليس من الغريب ألا نعرف عنهم أكثر من ذلك ، لأننا في صحبتهم منذ يومين فقط ، أنا ورفيقي . لقد التقوا بنا كلينا في الطريق وأقنعونا بمصاحبتهم حتّى الأندلس ، ووعدونا بأجر سخي .

فسأله القسّيس : ولم تسمع اسم أحد منهم ؟

فأجاب الخادم : كلا ، لأنهم يسيرون في صمت عجيب ، ولايسمع المرء غير الزفرات والتنهّدات التي تنبعث من السيّدة المسكينة التي تبعث في نفوسنا شفقة بالغة . ونحن مقتنعون أنهم يسوقونها على الرغم منها ، وإذا كان لي أن أحكم بحسب لباسها فإنها راهبة ، أو ستصير الى الإنخراط في الرهبنة ، وهذا هو الأكثر احتمالاً ، وربّما كان هذا هو السبب في حزنها .

فأجاب القسّيس وهو يمضي : هذا ممكن جداً .

وأراد القسّيس أن يلحق بدوروتيه التي لمّا سمعت السيّدة الشابة تتنهّد اقتربت منها متأثّرة بشفقة رقيقة وقالت لها :

ـ ماذا أصابك ياسيّدتي ؟ إن كان داؤك من النوع الذي اعتاد النسوة الإصابة به ، ويعرفن كيف يعالج ، فأفضي بسرّك إليّ وثقي بي : فإنّي أعرض عليك خدماتي عن طيب خاطر .

ولكنّ السيدة الشابة المجهولة اعتصمت بالصمت ، وجدّدت دوروتيه محاولتها .

وأخيراً اقترب الفارس الذي أشار الخادم الى القسّيس بأنه هو السيّد الآمر ، وقال لدوروتيه :

ـ لاتلحّي ياسيّدتي في تقديم خدماتك الى هذه السيّدة ، لأنها لاتعرف الجميل الذي يسدى اليها ، ولاتأملي منها أن تردّ عليك اللهم إلا من أجل أن تلقي بالأكاذيب .

فقالت المجهولة حينئذ : لم أقل كذباً أبداً! بل على العكس ، إنني لا أجد نفسي في هذه الحال السيّئة إلا لفرط أمانتي وصدقي . وإنّي لأحكم اليك أنت نفسك ، لأن أمانتي هي التي تجعلك كذّاباً أفّاقاً .

سمع كردنيو كل هذه الكلمات ، ولم يكن يفصله عن تلك التي تكلّمت غير باب دون كيخوته . فصاح : يا إلهي! ماذا أسمع ؟ أي صوت رنّ في أذني ؟

ولدى هذه الصيحات اضطربت السيّدة وأدارت رأسها ، ولمّا لم تر من تكلّم نهضت وأرادت أن تدخل الغرفة ، لكنّ الفارس القاسي منعها . وفي لحظة الإضطرابات هذه سقط

نقابها ، وأبدى عن جمال رائع ، ووجه سماوي ، وإن يكن شاحباً مشعثاً . تلفّتت في كل ناحية بحركة سريعة حتّى ليظن بها الجنون ، مما أشاع في نفس دوروتيه والآخرون شفقة عليها . وكان الفارس يمسك بها من كتفيها بشدّة وكان مشغولاً بإمساكها الى حد أنه لم يستطع معها أن يرفع قناعه لمّا أن سقط ، وقد سقط فعلاً على الأرض .

وفي هذه اللحظة رفعت دوروتيه طرفها وتعرّفت زوجها دون فرنندو . فأطلقت صرخة مدويّة وأغمي عليها ؛ وكانت ستسقط على الأرض لولا أنّ الحلاّق أمسك بها بين ذراعيه . واقترب القسّيس لنجدتها ، ولمّا أراد أن يصب الماء على وجهها خلع نقابها ؛ هنالك تعرّفها دون فرنندو . فلمّا رآها أصبح شاحباً كالميّت . لكنّ لم يترك لوسنده التي بذلت كل مافي وسعها من جهد للتخلّص منه ، لأنها تعرفت صوت كردنيو ، كما تعرّف هذا على صوتها . كذلك سمع كردنيو الصرخة التي أطلقتها دوروتيه وهي تسقط ، وخيّل اليه أنها لوسنده ، فخرج من الغرفة فزعاً ، وكان أوّل من رأى هو دون فرنندو الذي كان يمسك بها . فتعرّفه هذا الأخير ، حتّى أن الثلاثة : لوسنده ، ودوروتيه ، وكردنيو ظلّوا صامتين لا يتحرّكون ، ولايستطيعون أن يفهموا ماذا جرى لهم ، كانت دوروتيه تتطلّع في دون فرنندو ، وهذا يتطلّع في كردنيو ، وهذا يتطلّع في لوسنده ولوسنده في كردنيو . وقطعت لوسنده حبل الصمت ، وقالت لدون فرنندو : «دعني ياسيّدي ، بحق مايجب عليك نحو نفسك ، مادام أي اعتبار آخر لايؤثّر فيك ، دعني أستند الى الجدار الذي أنا كالعليقة عليه ، والذي لم تستطع أن يفصلني عنه مضايقاتك ولاتهديداتك ولاوعودك ولاهداياك . أنظر عجباً أية طرق مستسّرة غريبة جعلتني السماءأعثر من جديد على زوجي الحقيقي ، أنت تعلم ، من آلاف التجارب التي كلّفتنا غالياً ، أن الموت وحده هو القادر على أن يمحوه من ذاكرتي . وإلا فلتحل خيبات الأمل الواضحة هذه حبّك الى غضب جنوني (لأنك لاتقدر على استشعار عواطف أخرى) ورغباتك الى حنق! انتزع منّي الحياة ؛ فإنّي إذا فقدت الحياة بحضور زوجي أكون قد استخدمت الحياة استخداماً حسناً ، وموتي سيكون بالنسبة اليه شهادة على إخلاصي له حتّى القبر» .

وخلال هذا الكلام عادت دوروتيه الى رشدها ، وسمعت توسلات لوسنده ، تلك التوسلات التي عرفتها بواسطتها . فلمّا رأت أن دون فرنندو لم يكف عن احتجازها دون أن يجيب عليها ، نهضت وألقت بنفسها عند قدميه ، وانهمرت الدموع من مآقيها كالسيل وإن زادتها جمالاً ، وقالت له : « إذا لم يبهر عينيك لمعان الشمس التي تحملها بين ذراعيك ، لكنت قد تبيّنت أنّ التعيسة الساجدة أمامك هي دوروتيه الحزينة البائسة : إنّي تلك الفلاحة

البسيطة التي أراد حبّك أو كرمك أن يرفعها الى شرف الإنتساب اليك ، وأنا تلك التي كنت أعيش عيشة راضية ، في حدود حياة شريفة ، الى أن تجاوزت من أجلك حدود الإحتشام ، مستسلمة لمضايقاتك ولمّا بدا أنه حبك ، ووضعت بين يديك حرّيتي ، تلك الهبة التي أسأت أنت فهمها ، كما تدل على ذلك الضرورة التي تلجئني الى الوجود في هذا المكان ، والحالة التي أراك عليها . لكن حذار أن تعتقد أن فكرة عاري هي التي قادتني الى هنا ، مع أنّ ما ساقني الى هذا المكان هو الألم والغيظ من رؤية نفسي منسيّة . لقد رغبت في أن أكون لك ، وكانت أمانيك كذلك ، وعلى الرغم من أنها تبدّلت فإنّي لا أملك الكف عن الإنتساب إليك . تأمّل يا سيّدي ، إن المحبّة الزائدة التي أحملها لك يمكن أن توازن نبالة وجمال تلك التي من أجلها هجرتني . إنك لا يمكن أن تنتسب الى لوسنده ، لأنك لي ، ولوسنده هي الأخرى لا يمكن أن تستجيب لأمانيك لأنها أسلمت نفسها الى كردنيو ؛ والأيسر لك أن تعود الى تلك التي تعبدك ، من أن تكره على حبّك امرأة لاتشعر نحوك بغير الكراهية والنفور . لقد استحلفتني أن أصغي لك ، ونشدت هزيمتي ؛ وأنت لم تجهل وضعي الإجتماعي ، وتعرف تماماً بأية طرق استسلمت لشهواتك ، وليس لك أن تشكو من كونك قد وقعت فريسة الخيانة . فإن كان الأمر هكذا حقّاً ، وإن كنت مسيحيّاً صالحاً بقدر ما أنت فارس ، فلماذا تؤجّل جعلي سعيدة في النهاية كما كنت سعيدة في البداية ؟ إن لم تشأ أن تتخذني زوجة شرعية ، فاسمح على الأقل أن أكون عبدتك ؛ فسأعدّ نفسي سعيدة جداً طالما كنت أنتسب إليك . لا تسمح بأن أصبح ـ من جرّاء إهمالك وهجرك ـ مضغة في أفواه الناس ، ولاتملأ بالمرارة أيّام والديّ العجوزين ، جزاءً حزيناً عن الخدمات المخلصة التي أسدياها إليك كتابعين من أتباعك . فإذا كنت تظن بأنّك تدنّس دمك بامتزاجه بدمي ، فتذكّر أنه لا توجد نبالة في العالم سلكت طريقاً واحدة ، وليست نبالة النساء هي التي تفيد في تكوين الأجناس الشهيرة . والنبالة الحقيقية هي نبالة الفضيلة ، فإن لم تسمع لصوتها وتطعه بأن ترد اليّ ماهو حقّي ، فسأظل إذن أنبل منك . والخلاصة ، ياسيّدي ، شئت أو لم تشأ ، فأنا زوجتك ؛ وضماناتي على ذلك أيمانك ، التي لايمكن أن تكون كاذبة زائفة ، إذا كنت لاتزال تتيه بما يحملك على احتقاري ، وكذلك الوعد الذي قطعته لي كتابة ، والسماء التي تلقّت كلمتك ، وحتّى لو أعوزتني كل هذه الأدلّة ، فإن ضميرك سيعكّر عليك ملذاتك ، وسيدوي صوته في نفسك ، شاهداً على شقائي وبراءتي » .

وكانت دوروتيه وهي تقول هذه العبارات تذرف العبرات ، حتّى إن كل الذين كانوا في صحبة دون فرنندو ، والباقين ، لم يتمالكوا من البكاء معها .

وكان دون فرنندو يسمع كلامها دون أن يجيب بكلمة واحدة حتّى توقّفت عن الكلام لتطلق من الزفرات والتنهّدات ما لا بد للمرء معه من قلب من البرونز حتّى لا يتأثّر ويرق لآيات هذا الألم البالغ . نظرت إليها لوسنده ، ولم تكن أقل تأثّراً لحزنها منها اندهاشاً لجمالها وعقلها ، وكانت تود لو اقتربت من المسكينة التعيسة كي تواسيها ، ولكنّ دون فرنندو كان يحتجزها دائماً . وأخيراً وبعد أن ظل هذا وقتاً طويلاً يتأمّل دوروتيه ، وكلّه اضطراب وارتباك ، فتح ذراعيه وأطلق سراح لوسنده ، وصاح : «لقد انتصرت يا دوروتيه ، لقد انتصرتِ : من المستحيل إنكار كل هذه الحقائق مدة أطول» . وكانت لوسنده لم تشف تماماً من ضعفها فكادت أن تسقط على الأرض لولاأن كردنيو ، وكان واقفاً وراء دون فرنندو حتّى لايرى ، أسرع مبدّداً كل مخاوفه وأمسك بها بين ذراعيه . وقال لها : «إذا تفضّلت السماء الرحيمة بأن تهبك بعض الراحة ، أي زوجتي الشجاعة المخلصة الجديرة بالتقدير ، فأين تكونين في مكان أكثر أماناً من هذين الذراعين اللذين تلقياك قديماً حينما كان مسموحاً لي بأن أدعوك حبيبتي ؟» .

فرفعت لوسنده عينيها الى كردنيو ، وهي في نصف إغماء ، وتعرّفته جيّداً ، ودون أن يزعجها أي اعتبار ، ألقت بنفسها على رقبته وصاحت : «أنت ، أنت المتحكّم وحدك في مصيري ، نعم ، أنا أسيرتك ، رغم كل التهديدات والمصاعب التي يضعونها في طريق حياتي» .

أثّر هذا المنظر في كل الحاضرين ، وأدهش دون فرنندو الى أقصى حد . وشاهدته دوروتيه يشحب لونه ويمد يده الى سيفه وكأنه يريد الإنتقام من كردنيو . وبسرعة البرق جثت على ركبتيها ، ومنعته من التحرّك وقالت له : «ماذا تريد أن تفعل ، ياملاذي الوحيد ، في هذا اللقاء غير المنتظر ؟ إنك ترى زوجتك عند قدميك ، وتلك التي أردت إكراهها هي بين ذراعي زوجها ، وهل يناسبك ، بل هل من الممكن أن تنقض ماأبرمته السماء ؟ أليس من الأفضل أن ترفع الى منزلتك تلك التي طالما تعذّبت من أجلك ، وفي هذه اللحظة تغرق بدموعها الرقيقة صدر زوجها الحقيقي ؟ أستحلفك بالله ، كف عن غضبك ، ووافق على أن يجتمع هذان العاشقان بعد أن طال عذابهما ، وأبن عن نبل دمك النبيل العريق ، وليعلم الناس جميعاً أنّ للعقل سلطاناً عليك أكبر من سلطان الهوى» . وكان كردنيو في تلك الأثناء يحتضن لوسندة ، وينظر دائماً الى دون فرنندو ، حتّى يكون مستعدّاً للدفاع عن نفسه إذا بدرت منه أدنى بادرة ، بل وأن يحارب كل من يريدون الاضرار به ، حتّى لو كلّفه ذلك حياته ، ولكنّ أصحاب دون فرنندو ، والقسّيس ، والحلاّق وكل الحاضرين ، فضلاً عن

سنشو پنثا الطيّب ، كل هؤلاء أحاطوا بدون فرنندو ، واستحلفوه أن يرق لمدامع دوروتيه ، وألا يخيّب آمالها ، لأنها لم تقل له غير الحق ، وأن يعتبر أنه ليست الصدفة ، بل عناية السماء هي التي جمعتهم كلهم في هذا المكان الذي لم يخطر ببالهم أبداً أن يتلاقوا فيه ، وأنّ الموت وحده ـ هكذا قال القسّيس ـ يمكن أن يفصل بين لوسندة وكردنيو ، وهذا الموت ، لو أصابهما معاً ، لحسبوه موتاً سعيداً ، وأن من كرم الشجاعة أن تحترم الروابط التي لا يمكن انفصامها وأن تمكّن بإرادتها وحدها من أن ينعم العاشقان بالخير الذي أرسلته إليهما السماء .

وتوسّلوا إليه في أن يتطلّع في جمال دوروتيه ، الذي لم يكن له نظير ، وفي تواضعها والحب الغامرالذي يتأجّج في صدرها ، وأن يتذكّر أنه إذا كان يهتم بلقب مسيحي وفارس فلا يمكن أن ينكث العهد الذي قطعه ، وهو الوسيلة الوحيدة لإرضاء واجبه نحو ربه ونحو العقلاء الذين يعرفون والذين يوقّرون مزايا الجمال ، والجمال حتّى لو كان في شخص من أصل متواضع فإنه إذا كان مصحوباً بالأمانة يمكن أن يسمو الى أعلى المراتب ، دون أن يحط من قدر من يقترن به ، وإن من يطع القوانين الجبّارة لرغباته ، إذا فعل ذلك دون خطيئة لا يمكن أن يلومه في ذلك لائم .

والى هذه الأسباب أضافوا أخرى قوية ، وأخيراً لم يكذّب قلب دون فرنندو الكريم الدم العريق الذي يجري فيه : فلم يستطع أن يقاوم الحقائق التي أرهقوه بها ، واستسلم . أنهض دوروتيه ، وقبّلها برقّة وقال لها : «انهضي ، ياسيّدتي ، ليس من العدل أن ترى عند قدميّ تلك التي تسيطر في نفسي . وإذا كنت حتّى الآن لم أبدِ من المظاهر مايدل على ذلك ، فهذا من غير شك بقرار من السماء التي شاءت أن أكون شاهداً على إيمانك بحبّي ليزداد تقديري لك . فتفضّلي بالعفو عن مسلكي السيّء قبلك . إن سحراً لايقاوم قد ألقى بي بين ذراعيك ، ولكن كرامة ليست أقل قوة قد أبعدتني عنك . تأمّلي لوسنده هذه ، وهي اليوم راضية كل الرضا ، وستجدين في عينيها عذري . لكن لمّا كانت قد التقت بمن تهواه ، وأنا أجد فيك كل ما يرضيني ، فلتحيى هي سعيدة هانئة مطمئنة ولتقض مع حبيبها كردنيو أيّامٌ طوالاً راغدة : وإنّي لأرجو من السماء أن تهبني مع دوروتيه نفس السعادة» .

ولمّا أتم هذه الكلمات قبّلها مرة أخرى قبلة حنوناً ، وكان عليه أن يضبط نفسه بجهد شديد ليمنع الدموع من الإنهمار من عينيه وليخفي حبه وتوبته وندمه . ولكنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة الى كردنيو ولوسنده والآخرين : فلم يستطيعوا أن يحبسوا الدموع : بعضهم من الفرح ، والآخرون من فرط التأثّر ، حتّى لكأن وقع لكل منهم حادث عظيم . وحتّى

سنشو نفسه بكى ، لكن عرف فيما بعد أن السبب في بكائه هو أنه شاهد تماماً أن دوروتيه ليست الملكة ميكوميكونا ، التي رجى من ورائها مكافآت عظيمة!

واستمر الصمت والدهشة فترة من الزمان ، وأخيراً مضت لوسندة وكردنيو وألقيا بنفسيهما عند ركبتي دون فرنندو ، وشكرا له كرمه بعبارات قويّة مؤثّرة لم يعرف كيف يجيب عنها فأنهضهما وقبّلهما بحنان . وشاء أن يعرف بعد ذلك من دوروتيه ماذا جاء بها في هذا المكان النائي جداً عن بلدتها . فروت له في كلمات قليلة كل ماقالته من قبل لكردنيو ، ووجد دون فرنندو والباقون في قصّتها مايشوّق كثيراً ، حتّى رغبوا إليها أن تسهب وتطيل ، لأنها كانت تتكلّم بلطف بالغ . أمّا دون فرنندو فقال لهم إنه بعد أن وجد في حضن لوسنده الورقة التي تصرّح فيها بأنّها زوجة كردنيو ، أراد أن يقتلها ، وهو ماكان سيفعله لولا أن منعه أهله من ذلك ، وأنه خرج بعد ذلك من البيت ، وهو مصمّم على تأجيل انتقامه الى الغداة ، بيد أنّه عرف بعد ذلك أن لوسندة هجرت بيت أهلها دون أن يعرف أحد مصيرها ، وأخيراً ، وبعد بضعة أشهر ، عرف أنها لجأت الى دير ، بقصد البقاء فيه طول حياتها إذا لم تستطع العثور من جديد على كردنيو ، فلمّا عرف هذا الخبر ، ذهب الى الدير الذي تقيم فيه ، ومعه ثلاثة من أصدقائه ، ولكنه لم يرد أن يراها خوفاً من أن يؤدّي مجيئه الى زيادة الحراسة على الدير ، وذات يوم انتظر أن يفتح الباب ، وكان قد ترك صديقين من أصدقائه لحراسة الباب ، ثمّ دخل الدير مع الثالث ليبحث عن لوسندة ، فوجداها في الصحن تتحدّث مع راهبة ، فخطفاها دون أن يعطياها الوقت لتعرفهما ، واقتادها الى مكان أتوا منه بكل مايلزم للسفر ، وسهل عليهم هذا العمل أنّ الدير كان بعيداً عن المدينة ، وأضاف دون فرنندو قائلاً أنّ لوسندة لمّا وجدت نفسها بين يديه ، فقدت كل شعور ، ومنذ ذلك الوقت لم تكف عن البكاء والتنهّد دون أن تقول كلمة ، وعلى هذه الحال ، في الصمت والدموع ، وصلوا الى الفندق ، وكان هذا بمثابة بلوغ السماء ، حيث تنتهي كل مصائب الأرض .

الفصل السابع والثلاثون

استمرار قصة ولية العهد الشهيرة ميكوميكونا
ومغامرات شائقة أخرى

استمع سنشو الى كل هذه الأقوال وهو يستشعر ألماً حاداً إذ يرى آماله في الثروة التي لوّحت له بها الأميرة الجميلة ميكوميكونا تذهب أدراج الرياح كالدخّان ، الأميرة ميكوميكونا التي صارت دوروتيه ، مثلما صار المارد هو دون فرنندو ، وبينما كان هذا كلّه يجري ، كان مولاه (دون كيخوته) نائماً لا يدري شيئاً مما حدث . ودوروتيه ، من ناحيتها ، حسبت أنها تحلم ، وكذلك كردنيو ، ولوسنده لم تكن أكثر تأكّداً . وحمد دون فرنندو السماء على ماأنعمت به عليه ، وحمدها أن خلّصته من تيه أوشك أن يفقد فيه روحه وشرفه ، وأخيراً اغتبط كل من كانوا في الفندق للخاتمة السعيدة التي انتهت اليها هذه الأحداث المضطربة المتشابكة التي لم يكن يرجى لها أقل نجاح .

والقسّيس ، وهو رجل فطن ، راقب كل شيء ، وهنّأ كل واحد على ماأصابه من خير . ولكن أكثرهم إظهاراً للفرح كانت صاحبة الفندق ، التي وعدها كردنيو والقس بأن يدفعا لها تعويضاً عن الأضرار التي أحدثها دون كيخوته . وكما قلنا من قبل ، كان سنشو وحده هو الحزين الأسيف اليائس . ولمّا لم يقوَ على الصبر دخل لدى مولاه وكان قد استيقظ ، وقال له : «مولاي الفارس الحزين الطلعة! لسعادتك أن تنام ملء جفونك دون أن تقلق لقتل المارد ووضع الأميرة على عرشها ، إذ تمّ كل شيء وانتهى» .

فأجاب دون كيخوته : «أعتقد ذلك تماماً ، لأنّي حاربت المارد حرباً لم أخض من قبل مثلها ، وبضربة واحدة قطعت رأسه ، ولهذا سال دم كثير كأنها أنهار من الماء» .

فقاطعه سنشو : بل قل من النبيذ الأحمر : إذ يحسن بك أن تعرف أن هذا المارد المقتول ليس شيئاً آخر غير خابية مخروقة ، وهذا الدم إن هو إلا الثلاثون ربعاً من النبيذ الأحمر الذي كان في داخل الخابية ، أمّا الرأس الذي قطعته فإنه لايوجد إلا في خيالك ، وليذهب الشيطان بكل شيء!

فقال دون كيخوته : ماذا تقول يا مجنون ؟ هل فقدت صوابك ؟

فأجاب سنشو : انهض يا مولاي! وسترى الخسائر التي أحدثتها ، وعلينا أن ندفع تعويضاً عنها . وسترى أيضاً الملكة وقد تحولت الى امرأة عادية تدعى دوروتيه ، وحوادث أخرى ستدهشك .

فقال دون كيخوته : لن أدهش لشيء ، إذ تذكر أنه في المرة الأخيرة التي كنّا فيها في هذا الفندق قلت لك أن كل شيء هاهنا يجري بالسحر ، وأعتقد أن الأمر كذلك الآن .

فقال سنشو : وأنا أيضاً كنت سأعتقد ذلك ، لو كان تدويخي من النوع نفسه ، ولكنّه كان تدويخاً حقيقيّاً واقعيّاً لاشك فيه : ولقد شاهدت تماماً أنّ صاحب الفندق ، وهو نفسه المائل هناك . كان يمسك بأحد زوايا الملاءة ، ويطوّحني بكل قواه وهو يضحك ضحكات عاليات . وهذا هو مايمكّن من معرفة الأشخاص ، أمّا أنا ، العبد الفقير المذنب ، فلن أقرّر أنه لم يكن هناك سحر ، بل أضلع ترضرض وويل عظيم .

فأجابه دون كيخوته : « أصلح الله الأمور . أعطني ملابسي : أودّ أن أذهب لرؤية التحوّلات التي تحدّثت عنها » .

وساعده سنشو على ارتداء ثيابه ، وفي هذه الأثناء أخبر القستيس دون فرنندو والآخرين بجنون دون كيخوته ، والحيلة التي كان عليه أن يلجأ اليها لاستخلاصه من الصخرة المسكينة ، التي خيّل اليه عندها أنه كان موضوع استهزاء سيدته ، وروى لهم كل ماأخبره به سنشو ، مما أدهشهم وأضحكهم كثيراً ، لأن هذا النوع من الجنون بدا لهم أغرب جنون يمكن أن يستعر في مخ إنسان مخبول . وأضاف القستيس أنه لمّا كانت السعادة غير المنتظرة التي حظيت بها دوروتيه قد حالت دون متابعة الخطة التي رسموها ، فمن الضروري تخيّل خطة أخرى لإعادة الفارس الى بلده .

فعرض كردنيو أن يستبدل لوسنده بدوروتيه ، ولوسنده ستمثّلها خير تمثيل . فقال دون فرنندو : « كلاّ ،كلاّ ، أريد أن تتم دوروتيه تنفيذ الخطّة : وبشرط ألا تكون المسافة بعيدة جداً من هنا حتّى بلد الفارس الطيّب الساذج ، فإنه ليسرّني الاسهام في شفائه » .

فقال القسيس : إنها على مسافة يومين لا أكثر .

فقال فرنندو : حسناً ، وحتّى لو كانت أبعد من ذلك فسأشارك عن طيب خاطر في هذا العمل الخيري .

وفي هذه اللحظة ظهر دون كيخوته ، مدجّجاً بسلاحه من رأسه حتّى أخمص قدمه والترس على ذراعه ، وهو يستند الى قطعة رمحه ، ورأسه مغطّى بخوذة ممبرينو ، ولاتزال

حدباء ، فأخذت الدهشة بمجامع دون فرنندو وسائر الغرباء لدى رؤيتهم لهذا المخلوق العجيب : فتطلّعوا في صمت الى هذا الوجه الطويل طول ذراع ، وتلك البشرة النحاسية ، وذلك الجسم النحيل الجاف ، وغرابة أسلحته وسيماه الوقور الجادة . تقدّم بكل إجلال ورمى بطرفه دوروتيه ، وقال لها : «أخبرني سانسي ، ياسيّدتي الجميلة ، أن عظمتك أغمي عليها وأنّ وجودك انعدم لأنك بعد أن كنت ملكة وسيّدة عظيمة كما كنت تبدين أصبحت مجرّد فتاة : فإذا كان هذا التحوّل قد تم بأمر من والدك الملك الزنجي ، خوفاً من ألا أكون قادراً على نجدتك في الأمر الذي يهمّك ، فإنّي أقول أنّ معلوماته ليست واسعة كثيراً ، وأنّه ليس على إطّلاع واسع على تاريخ الفروسية : لأنه لو عرفه كما أعرفه أنا لرأى في كل خطوة فرساناً أقل شهرة منّي ، يقومون بأعمال أصعب كثيراً . وهل هذا أمر عجيب جداً أن أقتل مارداً صغيراً ، مهما تكن وقاحته ؟ لم تمض ساعتان على مبارزتي له ، و... لكنّي أسكت ، خوفاً من أن أتّهم بالكذب : فالزمان الذي يكشف كل مخبأ سيعلن الحقيقة حين تكون بعيدة عن خاطر الناس» .

فقال صاحب الفندق : إنّك بارزت خابيتين لا مارداً .

لكنّ دون فرنندو أسكته ومنعه من مقاطعة دون كيخوته الذي استمرّ في كلامه قائلاً :

ــ أقول إذن ، أيتها الأميرة المحرومة من ميراث العرش ، إذا كان أبوك للسبب الذي ذكرته ، قد أجرى فيك هذا التحويل ، فينبغي عليك ألا تؤمني بذلك : لأنه لايوجد خطر على الأرض لا يستطيع سيفي أن يشقّ طريقي فيه ، وحين ألقي عند قدميك برأس عدوّك فسأستطيع أن أضع على رأسك التاج الذي تستحقّينه .

ثمّ سكت دون كيخوته في انتظار جواب الأميرة التي وقد أدركت عزم دون فرنندو على متابعة المغامرة حتّى يرجع دون كيخوته الى بلده ــ أجابته بكل وقارٍ وجد :

ـ إن من قال لك ، أيها الفارس الشجاع ذو الطلعة الحزينة ، أنّي تحوّلت وفقدت حالتي الأولى ، لم يقل الحقيقة ، لأنّي اليوم تماماً ماكنته بالأمس . صحيح أنّ بعض الأحداث السعيدة قد أصلحت من حالي قدر مارجوت ، لكنّي برغم هذا لاأزال كما كنت ، ولست أقل تصميماً على الإنتفاع بساعدك الذي لا يقهر ، ولهذا ياسيّدي أرجو من لطفك أن توقّر أبي وتعده رجلاً عاقلاً فطناً ، فقد استطاع بعمله أن يجد وسيلة سهلة لعلاج شقائي : لأنّي أعتقد أنّه لولاك ، ياسيّد ومولاي ، لما شاهدت نهاية لمصائبي ، وكل الحاضرين هنا يمكنهم أن يشهدوا على صدق ماأقول . إن مابقي علينا هو أن نتابع غداً سيرنا ، لأننا اليوم لانستطيع أن نقطع مرحلة كبيرة ، أمّا عن النجاح الذي آمل فيه فإنّي أتوكّل فيه على الله وعلى قوّة ساعدك » .

هكذا تكلّمت دوروتيه اللبيبة ، هناك تلفّت دون كيخوته الى ناحية سنشو وقال له بصوت غاضب : « ياسنشو الصغير ، ياصديقي ، أنت أكبر وغد في كل بلاد اسبانيا . تعال أيها الصعلوك : ألم تقل لي منذ قليل إنّ الأميرة تحوّلت الى فتاة تدعى دوروتيه ؟ وإنّ الرأس الذي اعتقدت أنّي أطحت به لا وجود له ، وحماقات أخرى عديدة أوقعتني في ارتباك شديد جداً هو أفظع ارتباك مرّ بي طوال حياتي ؟ » ثمّ أضاف وهو يتأمّل في السماء ويصكّ أسنانه : « بحق الموت! ليت شعري ماذا يمنعني من أن أجري في بدنك مذبحة تصبح في المستقبل أمثولة لكل السوّاس الكاذبين في الدنيا! » .

فأجاب سنشو : لاتغضب يامولاي ، من الممكن أن أكون قد أخطأت فيما يتعلّق بتحوّل السيدة الأميرة ميكوميكونا ، أمّا فيما يتّصل برأس المارد ، أو على الأقل بالخوابي المشقوقة ، والدم الذي هو نبيذ أحمر ، فإنّي أقسم بالله أنّي لم أكذب أبداً ، لأنّ الخوابي لاتزال عند رأس سريرك ولايزال النبيذ يكوّن بحيرة في الغرفة ؛ وفضلاً عن ذلك فسترى الحقيقة بعينك حينما يأتي صاحب الفندق ويطالبك بدفع ثمن النبيذ المهراق . فإذا كانت السيدة الملكة لاتزال هي هي كما كانت ، فإنّ هذا يسرّني جداً ، إذ يخصّني في ذلك نصيب كأي فرد .

فقال دون كيخوته : كفى ، ماأنت إلا أبله يا سنشو المسكين!

فقال دون فرنندو بدوره : فلنكف عن التكلّم في هذا الموضوع ، مادامت السيّدة الأميرة ترغب في ألا نتابع السير إلا غداً لأننا تأخّرنا اليوم ، فليكن ذلك ؛ فإننا نستطيع أن نمضي الليلة في أحاديث حتّى الصباح وغداً نصحب السيّد دون كيخوته نحن جميعاً ، لأننا نريد أن نكون شهوداً على الأعمال النادرة الجبّارة التي سيقوم بها في هذه المغامرة الكبرى .

فأجاب دون كيخوته : بل أنا الذي أخدمكم وأصحبكم . وأشكر لكم ماتفضّلتم به عليّ ، وحسن ظنّكم بي . وسأبذل جهدي في سبيل تبرير حسن هذا الظن ، ولو كلّفني ذلك حياتي ، بل وأكثر منها إن أمكن .

وتبودلت عبارات الثناء والتحيّة وعروض الخدمات بين دون كيخوته ودون فرنندو ، لكن قطعها وصول مسافر يدل ملبسه على أنه نصراني جاء حديثاً من بلاد المسلمين : إذ كان يلبس عباءة من الجوخ الأزرق ذات وشاح قصير ، بنصف أكمام وبغير بنيقة ، وكان تبانه من التيل الأزرق ، كما كانت قبّعته من اللون نفسه ، وقد حمل خفّاً بلون البلح والخنجر بحمالة كان يحملها على صدره . وكانت معه امرأة تركب حماراً . وتلبس زيّاً

مغربياً ، وعليها خمار يغطّي كل وجهها ؛ وعلى رأسها طاقية من الديباج المذهّب ، وتلبس « ملفّة »[١] تغطّيها من الرأس الى القدمين . وكان الرجل متين البنية ، رائع القوام ، يناهز الأربعين من عمره ، وبشرته برونزية ، وشواربة طويلة ولحيته مرتّبة ؛ والخلاصة أن مظهره وسمته يدلاّن على أنه رجل نبيل ، لولا تواضع ملبسه . ولمّا دخل طلب غرفة ، فلمّا قيل له أنها كلّها مشغولة ، امتعض امتعاضاً شديداً . ولكنه اقترب من الفتاة التي كان زيّها زي الموركسيين ، وأخذها بين ذراعيه وأنزلها على الأرض . فاقتربت منها لوسنده ودوروتيه وصاحبة الفندق وبنتها والخادمة ماريتورنس ، ولقد لفت أنظارهن جدة الزي ولم يكنّ قد رأين مثله من قبل . وقالت لها دوروتيه بلطفها وفطنتها وقد رأتها متضايقة من عدم وجود غرفة خالية : « لاتحزني ياسيّدتي من سوء الصدف هذا ، لأنّ المعتاد هو ألا يجد المرء في الفندق مايحتاج اليه ، لكن إذا قبلت أن تسكني معنا ـــ وهي تشير الى لوسنده ـ فربّما في كل أسفارك لن تجدي ملاذاً ألطف ولاترحيباً أجمل » .

فلم تجب الموركسي بكلمة ، بل نهضت وخالفت مابين ذراعيها على صدرها ، وانحنت انحناءة عميقة ، للشكر ، مما جعلهن يعتقدن أنها موركسية ولا تفهم لغة النصارى . وفي هذه اللحظة دخل الأسير ، وكان حتّى ذلك الوقت مشغولاً بأمور أخرى ، ولمّا شاهد كل السيّدات متحلّقات حول المغربية ، قال لهن : « سيّداتي! هذه الفتاة لاتكاد تفهم لغتنا ، ولا تعرف غير لغتها هي ؛ ولهذا لم تجبكم ولن تجيب عليكم » .

فقالت لوسنده : « وسنرحّب بها خير ترحيب نستطيعه ؛ لأن إكرام الضيف واجب ، فما بالك إذا كانت امرأة! » .

فقال الأسير : إنّي أقبّل أيديكم ، بالنيابة عنها وبالأصالة عن نفسي . وأنا متأثّر جداً لهذا الفضل منكم . وفي مثل هذه الظروف ومن أشخاص مثلكن كما تبدين ، هذا عظيم جداً .

فسألته دوروتيه : قل لي يا سيّدي : هل[٢] هذه السيّدة نصرانية أو مسلمة ؟ إن ملبسها وصمتها يجعلاننا نخشى أن تكون ما لا نود أن تكونه .

فأجاب الأسير : إنها مسلمة زيّاً ومولداً ، لكنها في داخل روحها نصرانية صميمة ، وفيها رغبة شديدة في أن تصير كذلك .

---

(١) ملفّة : كلمة عربية انتقلت الى الاسبانية وهي تقابل اليوم كلمة (الملاية اللف) .

(٢) هنا صفحة من صفحات آثار الصراع بين الاسلام والنصرانية في اسبانيا لم نجد بأساً في إثباتها على حالها لإعطاء القارئ فكرة عن روح ذلك العصر ومايكنّه المؤلف من موجدة بسبب أسر المسلمين له وسجنه في الجزائر . راجع المقدمة .

فقالت لوسندة : ألم يجر تعميدها بعد ؟

فأجاب الأسير : لم يكن لدينا متّسع من الوقت ، قبل سفرنا من الجزائر ، وطنها . وحتّى الآن لم يطرأ أي خطر ، وقد رغبت أنا في انتظار أن تعرف كل المراسم التي تأمر بها الكنيسة المقدّسة . وأرجو من الله أن يعجّل بتعميدها ، بما يتّفق ومكانتها وهي مكانة أرفع جداً مما يدل عليه ملبسها وملبسي .

وزادت هذه العبارات في لهفة الحاضرات لمعرفة من هذه الموركسية ومن هذا الأسير ، ولكن لم تجرؤ إحداهن على سؤاله : لأنهما كانا في حاجة الى النوم أشد من الرغبة في قص مغامراتها . فاقتادت دوروتيه الموركسية من يدها ، وأجلستها الى جوارها ، ورجتها أن ترفع نقابها . فتطلّعت في الأسير ، وكأنها تسأله ماذا يقولون وماذا ينبغي عليها أن تفعل . فقال لها باللغة العربية أنه يلتمس منها أن ترفع نقابها . ورفعته فعلاً ، وكشفت عن وجه هو آية في الجمال حتى رأتها دوروتيه أجمل وأكمل من لوسنده ، ولوسنده أجمل من دوروتيه ، واعتقد الحاضرون أنّ الموركسية وحدها تعدلهما معاً ، بل قال البعض أنها تبزهما ، ولمّا كان من عادة الجمال أن يجذب اليه قلوب الناس جميعاًوإراداتهم فقد تدافعوا من حولها جميعاً ليخدموا الموركسية الجميلة ، ويلاطفوها بكل أنواع الملاطفات . وسأل دون فرنندو الأسير مااسمها ، فأجاب : « للاثريا »[1] . لكنّها وقد فهمت ما سألوا عنه صاحبها قالت بقلق وحدّة : « لا ، للاثريا ، ماريه ، ماريه » وهي تقصد بذلك أنّ اسمها ماريه ، لاثريا . وهذه الكلمات والطريقة التي أفصحت بها عنها ، أجرت أكثر من عبرة من عيون الحاضرين ، خصوصاً النسوة وهن بطباعهن أكثر حساسة وانفعالاً . فقبّلتها لوسنده بحنان وقالت لها : « نعم ، نعم ، ماريه » . فأجابت « نعم ، نعم ، ماريه ، ثريا[2] ما كان شي » أي : لا ، لم يبق بعد اسم ثريا .

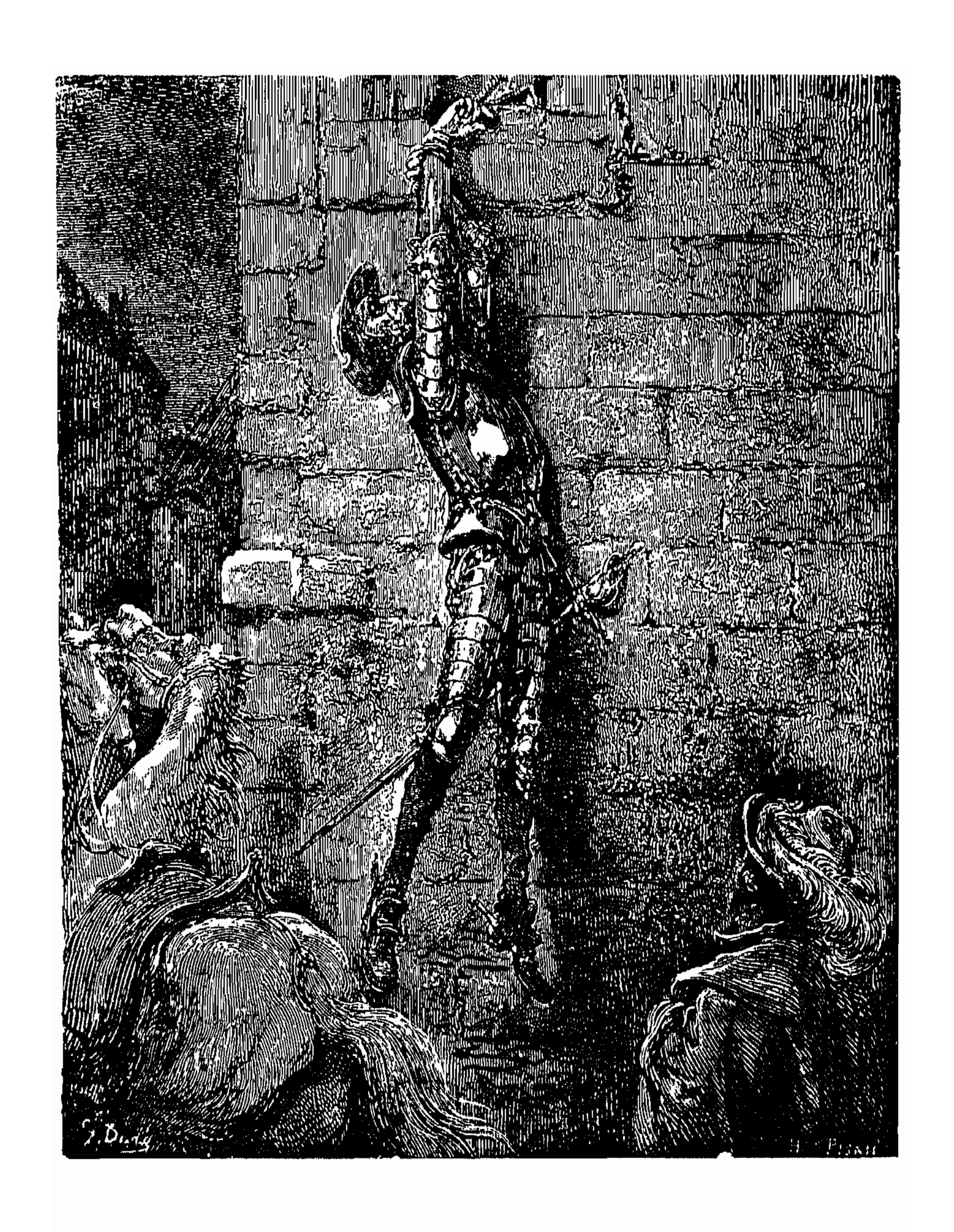
ثم أقبل الليل وكان صاحب الفندق ، بأمر من أصحاب دون فرنندو ، قد أعدّ خير عشاء يمكن الحصول عليه . وجلس الجميع الى مائدة طويلة من ذلك النوع الموجود في المطاعم العامة ، لأنه لم توجد في الفندق مائدة مستديرة ولامربّعة . وأعطى مكان الشرف الى دون كيخوته رغم تمنّعه : وأراد أن يكون الى جانب الأميرة ميكوميكونا لأنها كانت تحت حمايته . وبعدها جلست لوسندة وثريّا ، وفي مواجهة النسوة الثلاث جلس دون فرنندو وكردنيو والأسير ، ثمّ السادة الآخرون . وجلس الحلاّق والقسيس الى جانب

(١) كتبها ثربانتس Zoraida ، فرأينا أن « ثريا » هو أقرب الأسماء العربية الاسلامية الى هذا الاسم . وللا باللغة البربرية = السيدة .

(٢) « ما كان شي » في النص باللغة العربية شبه العامّية .

السيّدات . وتناولوا العشاء في سرور بالغ ، وازدادوا بشراً لما رأوا دون كيخوته يتوقّف عن الطعام ويأخذ في الكلام بنفس الروح التي جعلته يتحدّث طويلاً مع رعاة الماعز ، قال :

«الحق يا سادتي ــ لو تنبّهتم ـ هو أنّ أولئك الذين يزاولون مهنة الفروسية الجوّالة هم شهود على أحداث عظيمة لم يُسمع بمثلها . وإلا فقولوا لهم من ذا الذي يدخل هذا القصر ويجدنا هكذا مجتمعين يمكن أن يحزر من نكون نحن ؟ ومن ذا الذي يمكنه أن يعتقد أنّ هذه السيّدة ، الجالسة الى جانبي ، هي تلك الملكة العظيمة التي نعرفها وأني أنا الفارس الحزين الطلعة ، الذي تتفضّل شهرتي بالاهتمام بأمرها ؟ وهل يجسر أحد على أن يشك الآن في أنّ هذا الفن أو هذه المهنة تفوق كل المهن التي اخترعها الناس ، وأنها تستحق من الإحترام والتقدير بقدر ماهي معرّضة لأخطار شتّى ؟ ألا بعد لأولئك الذين يدعون أنّ الأداب تتفوّق على الأسلحة ؛ فأيّاً من كانوا فسأبرهن لهم على أنهم مخدوعون . فالحجة التي اعتادوا أن يسوقوها ، ويستندون إليها أكثر من غيرها ، هي أنّ الأعمال العقلية أكثر تقديراً من الأعمال البدنية ، وأنّ الأسلحة لاشأن لها إلا بالبدن ، وكأن مانسمّيه الأسلحة ، نحن الذين نحترفها ، لاتتضمّن في داخلها أفعال الشجاعة والتبريز ، مما يحتاج بالضرورة الى عقل نادر الذكاء . فالمحارب الذي يقود جيشاً ، ومن يتولّى الدفاع عن مدينة محاصرة ، ألا يعملون بعقولهم بقدر مايعملون بأجسامهم ؟ وهل يستطيع أحد أن يزعم أنّ بالقوى الجسمانية وحدها يمكن حزر خطة العدو وإفسادها ، ومقاصده وحيله وخدعه وحل الصعوبات وتلافي الأخطار التي يخشى شرّها ؟ إنّ هذا كله من شأن العقل ولاشأن له بالجسم . فإذا كان من المؤكّد إذن أن الأسلحة ، شأنها شأن الأداب ، تستخدم العقل ، فلننظر من منهما : الأديب أو المحارب يقوم بأعمال أعظم وأنفع ؛ ونستطيع أن نحكم على ذلك من الغاية التي يستهدفها كل منهما إذ ينبغي أن يكون أقدر من يرفع الى غاية أنبل ـ أكبر والآداب ، وأقصد الآداب الإنسانية (لأنه بالنسبة الى الآداب الإلهية لمّا كانت الغاية منها هي اقتياد أرواحنا الى السماء فإنها لا يمكن أن تقارن بشيء) أقول إن الآداب الإنسانية الغاية منها تنمية العدالة التوزيعية ، وإعطاء كل امرئ حقّه ، ومراعاة القوانين الجيّدة العادلة ؛ وهي غاية كريمة من غير شك ، عظيمة وخليقة بالإطراء ، لكن لابالقدر الذي تستحقّه الغاية التي تهدف اليها الأسلحة ، ألا وهي السلام ، وهو أعظم الخيرات التي يمكن أن يرغب فيها الإنسان في هذه الحياة . ولهذا فإنّ البشائر الأولى التي تلقّاها العالم والناس عند مجيء المخلّص ، في الليلة التي كانت نهارنا الأعظم ، كانت هذا النشيد المنشد وسط الهواء : «المجد لله في السماء ، وعلى الأرض السلام لذوي النوايا الطيبة» . والتحيّة التي علّم سيد



دون كيخوته معلقاً خارج الفندق

السماء والأرض تلاميذه وأحبّاءه أن يلقوها هي أن يقولوا إذا دخلوا مكاناً : «السلام على هذا البيت» . وفي أحيان أخرى كان يقول لهم : «أعطيكم سلامي ، وأدع لكم سلامي ، السلام عليكم» ، وكانت هذه أثمن درّة يمكن أن تعطيها مثل هذه اليد ، وهي درّة لايمكن بدونها أن يوجد خير على الأرض ولافي السماء . أقول لكم إذن أنّ السلام هو الغاية الحقيقية المنشودة من الحرب ، والأسلحة والحرب شيء واجب . فإذا ثبتت هذه الحقيقة ، وثبت فضل الأسلحة على الآداب ، فلنفحص الآن أعمال جسم الأديب ، ولنقارنها بأعمال المحارب ، ولننظر أيّها أعظم» .

وكان دون كيخوته وهو يلقي هذه الخطبة يعبّر بعبارات جيدة سليمة ، بحيث لم يخطر ببال أحد ممن كانوا يستمعون إليه أنه مجنون : بل بالعكس لمّا كانوا كلّهم تقريباً من الفرسان ، ومهنة الأسلحة مألوفة لهم ، فقد أصغوا اليه بلذة بالغة . واستمر في كلامه قائلاً : «وهاهي ذي متاعب الطالب . أوّلاً الفقر : ولاأزعم أبداً أنّ كل الطلبة في فقر ، ولكن أريد أن أصوّر الأمر في أسوأ صوره ، ومن يقل الفقر يقل ، فيما أعتقد ، أعظم الشرور . والطالب يعانيه في كل أجزائه : أحياناً الجوع ، وأحياناً البرد ، وأحياناً العري وأحياناً الثلاثة معاً . ومع ذلك فهو يأكل ، أحياناً متأخّراً فيما ينبغي ، وله ماتبقّى من موائد الأغنياء ، وهذا هو أعظم بلايا الطلبة ، ويسمّى : «الذهاب الى الحساء» . وقد لا يعوزهم بعض النار للتدفئة ، أو في القليل لتهدئة غائلة البرد الذي يلفحهم ، وأخيراً ينامون الليل تحت سقف . ولا أريد التحدّث عن ألوان أخرى من البؤس ، مثل الافتقار الى القمصان ، والأحذية ، وخفة ملابسهم المرقّعة ، ولا عن الإفراط الذي يدفعهم اليه الجوع حينما يرسل إليهم الحظ بأكلة جيدة . وعن هذا الطريق الذي رسمته ، وهو طريق شاق وعر ، يتعثّرون فيه هنا ، ويسقطون هناك ، وينهضون مرّة ويقعون أخرى ، ويصلون الى الغرض من رغائبهم . وقد رأينا منهم قوماً ، بعد أن اجتازوا هذه العقبات ، وتجنّبوا المزالق والأخطار طاروا على جناحي الحظ فدعوا الى حكم العالم من أعلى عروشهم ، ورأوا جوعهم وقد تحوّل الى شبع ، وبردهم الى نسيم عليل ، وعريهم الى ثياب فاخرة ، وحصائرهم التي من اليراع الى أسرّة من أفخر الديباج الدمشقي وأجواخ التيل الهولندي : وكان هذا جزاء عادلاً لمثابرتهم . ولكن كل هذه المتاعب وكل هذه الأعمال لا يمكن أن تقارن بأعمال رجل الحرب ، كما سأبرهن لكم» .

الفصل الثامن والثلاثون

تلاوة الخطبة القبيحة التي ألقاها دون كيخوته
في موضوع الأسلحة والآداب

وتابع دون كيخوته خطابه هكذا :

«لمّا كنّا قد فحصنا عن حال الطالب أوّلاً من ناحية الفقر ، فلنبحث إذن هل الجندي أغنى ، وسنجد أنه ليس ثمّ هو من أشد إملاقاً منه ، لأنه ليس له ما يقيم أوده به غير مرتّب ضئيل ، يحصل عليه متأخّراً أو لا يحصل عليه أبداً ، وغير ما يستطيع أن ينهبه بيديه معرضاً بذلك حياته للخطر ونجاته في الآخرة . وأحياناً يكون عارياً لايستر بدنه غير بنيقة ممزّقة يستخدمها قميصاً وزينة ، وليس لديه غيرها يستخدمها إبان الشتاء القارس ، يتستّر بها من عاديات الجو ، في سهل منبسط ، وليس عنده مايتدفّأ به غير أنفاسه وهي أولى أن تكون باردة من أن تكون حارة لأنها خارجة من فم خاوٍ . وهل تظنّون أنه عند اقتراب الليل يأمل في أن يعوّض عن هذا كلّه بسرير جيّد ؟صحيح أنّ السرير الذي ينتظره لن يكون ضيّقاً إلابسبب غلطه هو ، لأنه يستطيع أن يمتد على مايشاء من مساحة على الأرض ، وأن يتقلّب عليها دون أن يخشى أن تلتوي الملاءات . ثمّ تأتي بعد هذا ساعة التدريب العسكري ، وربّما ساعة المعركة : فتُقطع ذراعه ، أو ساقه ، أو تنفذ رصاصة من أعلى صدغيه ، ويلف رأسه بخرق من القماش لتضميده فإن لم يقع له أي سوء ، وتحفظه السماء الرحيمة سليماً معافى ، فهل يصبح بذلك أغنى ؟ ألن يظل في نفس الحاجة والإملاق ؟ لابدّ له من لقاءات أخرى ، ومعارك أخرى ، وانتصارات دائماً حتّى يمكنه أن يستفيد شيئاً . لكنّ هذه المعجزات نادراً ماتحدث ، واذكروا ياسادة ، إن كنتم قد رويتم في الأمر أحياناً ، ماأقلّ عدد الجنود الذين يستفيدون من الحرب بالنسبة الى أولئك الذين يهلكون فيها! لا شكّ في أنّكم ستجيبون عليّ قائلين أنه ليس ثمّ وجه للمقارنة : فعدد الموتى لانهاية له ، أمّا عدد من يستفيدون من الحرب فلا يتجاوز ثلاثة أرقام .والأمر بالعكس تماماً فيما يتعلّق بأهل الأدب ، لأنّهم بمقاطع طيالسهم ، ولاأقول بأكمامهم الطويلة ، يجدون دائماً الوسيلة للعيش .

وهكذا نجد أن أكبر المتاعب من حظ الجندي ، وفي الوقت نفسه ينالون أدنى المكافآت . وقد يُعترض عليّ فيقال إنّ مكافأة ألفين من الأدباء أسهل من مكافأة ثلاثين ألفاً من الجنود ، لأنّ الأوّلين (الأدباء) يُعطون المناصب التي تؤهّلها لهم مهنتهم ، أمّا الآخرون (الجنود) فلا يمكن مكافأتهم إلا على حساب السيّد الذي يخدمونه ، ولكن هذا الإعتبار نفسه يؤيّد الرأي الذي أذهب اليه . ولندع جانباً هذا التيه من الصعوبات ، ولنعد الى تفوّق الأسلحة على الآداب ، وهي مسألة لم يفصل فيها بعد ، رغم الحجج التي سيقت من هنا وهناك . إنّ المدافعين عن الآداب يقولون إنه بدونها لا يمكن للأسلحة أن تعمل ، لأنه إذا كانت للحرب قوانينها التي تخضع لها ، فإن هذه القوانين تنتسب الى الأدباء . وأنصار الأسلحة يجيبون قائلين أنّ القوانين لاتقوم لها قائمة بدون الأسلحة ، لأنه بالأسلحة يدافع عن الجمهوريّات ، ويحافظ على الممالك ، وتحمى المدن ، وتؤمّن الطرق ، وتطهّر البحار من القراصنة ، والخلاصة أنه بدون الأسلحة تصبح الممالك والجمهوريّات والسلطنات ، والمدن ، وطرق البر والبحر ـ عرضة للأخطار ، وللإضطراب الذي تجر اليه الحرب ، طالما استمرّت واستخدمت حقوقها وقوتها . وإنه لمبدأ يقيني معترف به أنّ ما يكلّف أكثر ينبغي أن تكون قيمته أكبر . والوصول في عالم الآداب يكلّف الوقت والسهر والجوع والعري وآلام الدماغ والمعدة ، وسائر الآلام التي ذكرتها من قبل ، لكن لكي يصبح المرء جندياً بالمعنى الأقوى لهذا اللفظ ، فإنّ ذلك يكلّف المتاعب نفسها التي يعانيها الطالب ، ولكن بدرجة أكبر جداً بحيث لا محل أبداً للمقارنة بينهما في هذا الصدد ، خصوصاً والجندي يتعرّض في كل لحظة لفقدان حياته . ومايعانيه الطالب من الجوع أو البؤس هل يقترب مما يخافه الجندي المحاصر في قلعة ، وهو يقف في زاوية في أعلى الحصن للحراسة فيلمح أنّ العدو يحفر لغماً تحت قدميه ، ولا يجسر أن يبتعد ولا أن يهرب من الخطر الذي يتهدّده ؟ كل مايستطيع أن يفعله هو أن يبلّغ قائده مايجري ، لكي يعالجه بلغم مضاد ، وعليه ، أي الجندي ، أن يظل هناك بغير حراك ، متوقّعاً أن يُقذف الى السحاب أو يلقى به في الهاوية في أيّة لحظة . فإن بدا لكم هذا الخطر هيّناً ، فلننظر لعل أشد منه هولاً مايحدث حينما يلتقي مركبان ويتجاذبان عند مقدّمهما ، وفي وسط المحيط الهائل لايكون لدى الجندي مكان يتحرّك عليه غير مساحة قدمين على لوح في مقدم السفينة . وفي مواجهته ، على بعد مقاس رمح ، يشاهد من وزراء الموت بقدر هنالك من قطع مدفعية على مركب العدو ، ويشعر أنه عند أوّل خطوة غير سليمة سيمضي لزيارة منازل نپتون (إله البحر) المظلمة . وفي هذا الوضع الرهيب يتعرّض ، مدفوعاً بالشرف والشجاعة الجسور ، هدفاً للضربات التي تهدّد ، ويحاول ، وهو على لوح ضيّق ، أن يدخل سفينة العدو . وأروع مافي الأمر أنه مايكاد جندي يسقط في البحر الذي لن يخرج منه أبداً ، حتّى يتبعه جندي

آخر ، ويسقط هذا بدوره في البحر الذي ينتظره كأنه عدوّه ، فيقوم مقامه جندي ثالث دون أن يكون لدى المرء وقتاً ليتبيّن ذلك ، وهذا أكبر جرأة يمكن أن تقدّمها مصادفات الحرب . سعيدة ، ومائة مرة سعيدة تلك القرون التي لم تعرف آلاف المدفعية الرهيبة! ولابدّ أن الجحيم قد كافأ مخترع هذا الإختراع الجهنّمي ، الذي به يستطيع الجبان الوغد الرعديد أن يقضي على حياة الفارس الشجاع ، وسط أعماله الرائعه ، دون أن يدري أحد كيف ومن أين أتت رصاصة ملعونة ، ربّما أطلقها هارب مذعور من نار بندقيّته ، هذه الرصاصة تقضي على عمر وعلى كل خطط من استحقّ عمراً طويلاً . إنّي حين أتأمّل في هذه الأمور ، أندم حقّاً على اختياري لمهنة الفارس الجوّال ، في هذا العصر البغيض الذي نعيش فيه ، لأنّي وإن كنت لاأرهب أي خطر ، فإنّي لاأخلو من الهم حين أفكّر في أنّ البارود والرصاص يمكنهما في أية لحظة أن يسلباني الوسائل التي تجعلني شهيداً معروفاً على وجه البسيطة كلّها ، بفضل قوّة ساعدي وحدّ سيفي . وعلى كل حال فلتأمر السماء بما تشاء . فإن أفلحت فسأزداد تقديراً بقدر ماأتعرّض طواعية لأخطار أكبر مما تعرّض له الفرسان في القرون الماضية » .

ألقى دون كيخوته هذه الخطبة الطويلة بينما كان الآخرون يتناولون العشاء ، دون أن يفكّر في تناول أية لقمة ، على الرغم من أنّ سنشو كثيراً ما نبّهه الى تناول العشاء ، وله بعد ذلك أن يتكلّم ماطاب له الكلام . واستشعر السامعون شفقة جديدة ، وهم يفكّرون في أنّ رجلاً أبدى كل هذه الحصافة في الرأى والبلاغة في التعبير في كل هذه الخطب التي ألقاها ، هو رجل يفقد عقله تماماً حينما يتعلّق الأمر بفروسيّته اللعينة . وقال له القسّيس أنه على صواب كامل في كل ماقاله دفاعاً عن الأسلحة ، وأنه ، على الرغم من كونه ، أي القسّيس ، رجل آداب وحامل إجازة علمية ، يوافق على رأيه .

ولمّا انتهى العشاء رفع المفرش ، وبينما كانت صاحبة الفندق وبنتها وماريتورنس يهيّؤون غرفة دون كيخوته الصغيرة ، التي ستأوي اليها السيّدات إبان الليل ، التمس دون فرنندو من الأسير أن يروي قصّة حياته ، قائلاً أنها لابد شائقة ، كما يبدو من حسن طلعته وجمال ثريا . فأجاب الأسير قائلاً إنه سيستجيب لسؤالهم عن طيب خاطر ، لولاأنه يخشى أن يثير الملل في الجمع . فانضمّ القسّيس وسائر الحاضرين الى دون فرنندو في رجائه . فلمّا رأى الجميع يلحّون عليه في ذلك ، رأى من واجبه أن يرضيهم ، فقال لهم : ستسمعون تاريخاً حقيقيّاً ، ربّما لاتساويه أبدع الأساطير . فأعروني كل أسماعكم . فصمت الجميع ، وأنشأ يقول ، بصوت رخيم متّزن :

الفصل التاسع والثلاثون

تاريخ الأسير

«ولدت في جبال ليون ، لأبوين حظيا من مواهب الطبيعة أكثر مما نالا من هبات الحظ والرزق ، وإن كان أبي ، في بلد فقير مثل هذا ، عرف بالثراء ؛ وكان سيكون ثرياً فعلاً لو أنه بذل من الإهتمام بالمحافظة على ماله بقدر ماتلذّذ بإنفاقه . وهذا الميل الى السخاءأتاه من كونه قد كان جندياً إبان شبابه ؛ لأن هذه المهنة مدرسة فيها يصبح المقتصد سخياً ، والسخي مبذّراً ، وإذا وجد جنود بخلاء فهذا أمر نادر جداً ، مثل المخلوقات العجيبة . وقد تجاوز أبي حد السخاء : كان شبه مسرف ، وهي صفة لاتفيد إلا قليلاً بالنسبة الى رجل متزوّج عنده أولاد سيخلفونه ويرثون اسمه وثروته . وكنّا ثلاثة أولاد في سن العمل . فلمّا رأى والدي أنه لايستطيع أن يقاوم ميله المدمّر ، قرّر أن يضع حداً له بأن يحرم نفسه من وسائل تحقيقه ، أي أنه أراد أن يتجرّد من ماله ، والمال وسيلة بدونها يبدو الاسكندر نفسه بخيلاً . أتى بنا ذات يوم نحن الثلاثة في غرفته وقال : «ياأولادي ، كي أقنعكم بأنّي أطلب لكم الخير ، يكفي أن أذكّركم أنّكم أولادي ، وللاعتقاد بأنّي أطلب لكم السوء يكفي أن تروا أنني لاأستطيع أن أكتم اسرافي اللعين الذي يمنعني من المحافظة على مالكم ؛ ولكي تقتنعوا من الآن فصاعداً أنني أعزّكم كوالد ، ولاأريد خرابكم ، فإنّي سأنفّذ مشروعاً يخصّكم وأفكّر فيه منذ زمن طويل . إنكم في عمر العمل واتخاذ طريق يمكن ، حين تعلو بكم السن ، أن يؤدّي بكم الى المجد والثراء . سأقسّم مالي الى أربعة حصص متساوية : لكل واحد منكم حصّته ، وأحتفظ لنفسي بالحصة الرابعة أستعين بها على العيش بقية عمري . ولكنّي أود قبل أن يأخذ كل منكم نصيبه المشروع أن يسلك كل منكم أحد الطرق التي أدلّكم عليها . إنّ عندنا في اسبانيا مثلاً يبدو لي صادقاً جداً ، كما هو الشأن في كل الأمثال لأنها جوامع كلم منتزعة من تجربة

طويلة . وهذا المثل يقول : «الكنيسة أو البحر أو القصر الملكي» ، ومعنى هذا أنّ الذي يريد أن يصير غنيّاً يجب عليه أن يدخل السلك الكهنوتي ، أو يبحر للإشتغال بالتجارة ، أو يدخل لخدمة الملك في قصره ، لأنّ الفتات المتساقط من الملوك خير من أفضال الأعيان ، كما يقول الناس . فقصدي إذن هو أن يتّخذ أحدكم مهنة الآداب ، والثاني مهنة التجارة ، والثالث يخدم الملك في الجيش ، مادام من الصعب جداً الدخول في قصره : فإذا كانت مهنة السلاح لاتأتي بثروة كبيرة ، فإنها على الأقل تعطي القيمة والشهرة . وفي خلال ثمانية أيّام سأسلّم كلاً منكم نصيبه نقداً دون أن ينقص فلساً . فانبؤوني الآن هل تريدون أن تتبعوا نصيحتي ؟» .

توجّه بالكلام إليّ أوّلاً ، فأنا الأكبر . فاستحلفته ألا يتنازل عن ثروته ، بل يتصرّف فيها كما يشاء ، وقلت له أننا في سن نتمكّن معه من كسب قوتنا ، وقلت أنني سأمتثل مايأمر به وسأختار مهنة السلاح ، فأخدم الله والملك . وأبدى له الأخ الثاني الاعتبار نفسه ، واختار الذهاب الى الهند للاتجار بالمبلغ الذي من نصيبه ، والأصغر ، وكان فيما أعتقد أكبرنا عقلاً ، قال أنه يريد الدخول في سلك الكنيسة أو الذهاب الى شلمنقة لإتمام دراساته . ولمّا اتفقنا على هذا ، قبّلنا أبونا ، وفي المهلة التي حدّدها سلّم كلاً منّا نصيبه نقداً ، وكان يبلغ ، فيما أذكر ، ثلاثة آلاف دوقة ، وقد أتمّ الأمر بسهولة لأن أحد أعمامنا اشترى كل العقار حتّى لايخرج من الأسرة ، ودفع ثمنه نقداً وعداً . وودّعنا ثلاثتنا أبانا في اليوم نفسه ، لكن قبل السفر لمّا بدا لي من عدم الإنسانية أن أترك والداً عجوز وليس معه إلا مال قليل ، فإني حملته على أن يستعيد ألفي دوقة من الثلاثة آلاف دوقة التي تخصّني ، ولقد رأيت أنّ الباقي يكفي لتجهيز جندي . وتأسّى أخواي الآخران بالمثل الذي قدمته فترك كل منهما له ألف دوقة ، مما أعطاه مبلغاً إضافيّاً قدره أربع آلاف دوقة ، فضلاً عن الثلاث آلاف التي تخصّه ، وكان من العقار الذي لم يرد بيعه . وانفصلنا عنه وعن عمّي ، بعد أن ذرفنا الكثير من العبرات ، ووعدنا والدي بإبلاغه بأنبائنا : الحسنة والسيّئة على السواء كلّما استطعنا الى ذلك سبيلاً . منحنا بركته ، واتخذ أحدنا سبيله الى شلمنقة ، والثاني الى أشبيلية ، أمّا أنا فسافرت الى أليقانت حيث عرفت أن سفينة محمّلة بالصوف ستتخذ سبيلها الى جنوة . وقد مضى على تركي لمنزل أبي إثنتان وعشرون سنة : وكتبت كثيراً ، ولكنّي لم أتلق أبداً أية أنباء من والدي ولا من أخوي . وسأروي لكم بإيجاز ماذا جرى لي .

«ارتحلت من أليقانت فوصلت جنوة بسلام ، ومنها سافرت الى ميلانو لشراء السلاح

وكل مايلزم الجندي . وأردت اللحاق بجيوش بيمونته ، لكن لمّا كنت في الطريق الى اسكندرية التبن[1] علمت أنّ دون ألبا الكبير كان يمر في الفلاندر . فغيّرت رأيي ؛ ولحقت به ، واشتركت في الحرب في صفوفه . وشهدت مصرع كونت اجمونت وكونت هورن ، وكنت حامل[2] لواء قائد شجاع من وادي الحجارة ، اسمه دييجو دي أربينا . وبعد مدة من وصولي الى الفلاندر علمنا بالمحالفة التي عقدها قداسة البابا بولس الخامس ، الطيّب الذكر ، مع اسبانيا وجمهورية البندقية ضد العدو المشترك ، وهو الترك ، الذين استولوا بإسطولهم على جزيرة قبرص التابعة للبنادقة ، وهي خسارة مهمة أليمة . وعرف أيضاً أنّ دون خوان النمساوي ، الأخ الطبيعي لملكنا الطيّب فيليب ، سيكون القائد العام لهذه العصبة (المحالفة) ، وأن استعدادات للحرب هائلة تجري على قدم وساق . فألهبت هذه الأنباء حماستي وشجاعتي ، وأعطتني الرغبة في الإشتراك في هذه الحملة . وعلى الرغم من أنّي كنت شبه متأكّد من الترقّي الى رتبة نقيب في أوّل فرصة ، فقد تخلّيت عن كل شيء وسافرت الى إيطاليا . ومن حسن الحظ كان دون خوان قد وصل الى جنوة منذ وقت قليل ، ومن هنا أبحر الى نابولي ، حيث ينبغي عليه أن يلحق بأسطول البنادقة ، وهو مافعله في مسينا . وأخيراً شهدت ذلك اليوم السعيد الشهير ، يوم معركة ليبانته ، وأنا برتبة نقيب في المشاة ، التي حصلت عليها لحسن حظّي لا لأنّي استحقّها . وفي هذا اليوم ، السعيد بالنسبة الى النصارى ، لأنه بدّد الخطأ الذي خيّل اليهم أنّ الترك لا يُقهرون في البحار ، ولكنّ الكبرياء العثماني ترنّح في ذلك اليوم ، وبين كل أولئك المحظوظين الذين يعدّ منهم أولئك الذين دفعوا حياتهم ثمناً لتعلّقهم بالدين ، كنت أنا وحدي الشقي : إذ بدلاً من أن أتلقى اكليلاً بحريّاً كما كانت الحال في زمان الرومان ، وجدت نفسي ، في الليلة التي تلت ذلك اليوم الرائع ، مقيّداً بالسلاسل ، والأغلال تشد يدي وقدمي . كيف حدثت هذه المصيبة ، هذا ماسأرويه لكم .

«العلج[3] علي ، داي الجزائر ، وهو قرصان جسور جبّار موفّق ، حاصر سفينة مالطة المعقود لها القيادة ، والتي لم يبق فيها غير ثلاثة فرسان مثخنين بالجراح . فأسرعت

---

(١) اسكندرية التبن : مدينة في شمال ايطاليا ، على ٧١كم شمال شرقي تورينو ، أسّستها العصبة اللومبردية سنة ١١٦٨م لمقاومة فردريك بربروسه ، وسمّيت الاسكندرية نسبة الى البابا اسكندر الثالث . واحتقاراً لها سمّاها فردريك باسم اسكندرية التبن ، لأن أسوارها ، فيما يقال ، كانت من التبن والخشب المغطّى بالطين .

(٢) الكلمة الاسبانية Alferea (الفارس) بالعربية ولكنها أخذت معنى آخر هو الذي ذكرناه .

(٣) كلمة «علج» تطلق على النصارى الذين أسلموا . وكان أصله من كلبريا في جنوب ايطاليا ، ولد بمدينة لياستلي ، لأبوين فقيرين ، واشتغل أولاً بالصيد في البحر ، ثمّ أسره القرصان علي حامد ، وهو علج رومي أسلم .

السفينة خوان أندريا ، التي كانت عليها فرقتي ، الى نجدتها . قمت بواجبي ووثبت في السفينة المعادية ، ولكن في اللحظة نفسها ، ابتعدت هذه السفينة عن تلك التي هاجمتها ، بحيث لم يستطع جنودي اللحاق بي ، فأصبحت وحدي في وسط أعدائي ، واضطررت للتسليم أمام القوة العدّدية ، وأنا مثخن بالجراح . وأنتم تعلمون أنّ العلج علي فرّ مع سفينته : وهكذا بقيت في حوزته ، الحزين الوحيد بين كل أولئك السعداء ، والأسير الوحيد وسط خمسة عشر ألفاً من النصارى العبيد في السفن التركية ، وقد نالوا حرّيتهم . اقتادني الى القسطنطينية ، حيث كان السلطان سليم هو قائدي العام في البحر ، لأنه أدّى واجبه في المعركة ، وأحضر ، كدليل على شجاعته ، لواء مالطة . وفي السنة الثانية ، سنة ١٥٧٢ ، كنت في نوارين ، على البارجة (المصابيح الثلاثة) ، وهناك لاحظت ضياع فرصة محاصرة كل الإسطول التركي في الميناء وشل حركته ؛ لأنّ اللاونديّين والإنكشارية الموجودين هناك كانوا مقتنعين بأنهم لابد سيهاجمونهم في الميناء نفسه الى حد أنهم كانوا متأهّبين بملابسهم وأحذيتهم ليستطيعوا الفرار الى البحر ، دون أن ينتظروا المعركة ، لأنهم كانوا في أشد الفزع من اسطولنا . لكن السماء قرّرت غير ذلك ، لابسبب خطأ أو إهمال قائدنا العام ، وإنّما بسبب خطايا النصارى ، ولأن الله يسمح بأن يكون ثمّ جلاّدون دائماً لعقابنا . والواقع أن العلج علي انسحب الى مودون ، وهي جزيرة مجاورة لنوارين ، وأنزل جنوده هناك ، وحصّن مدخل الميناء ، وبقي هناك حتّى ارتحل دون خوان .

«وفي هذه الحملة استولى النصارى على البارجة المسمّاة «الاستيلاء» ، المعقود لواؤها لأحد أبناء الشهير خير الدين بربروسة . وكانت بارجة نابولي المسمّاة «الذئبة» هي التي قامت بهذا الاستيلاء بأمرة صاعقة الحرب ، وأبي الجنود ، القائد الموفق المنصور دائماً دون ألبرودي باثان ، مركيز سنتا ـ كروث . ولا أستطيع أن أغفل ذكر ما جرى عند الاستيلاء على هذه البارجة . لقد كان ابن بربروسة قاسياً يسيء معاملة أسراه الى حد أنه حين شاهد مجذفوه أن الذئبة تتوجّه إليهم وأوشكت أن تبلغهم ، تركوا المجاذيف جميعاً ، وأمسكوا بالقائد ، وكان يقف عند المؤخّرة يصيح فيهم أن يسرعوا في التجذيف ، ونقلوه من مقعد الى مقعد ، ومن المؤخرة الى المقدّمة ، وعضّوه عضّات متواليات ، حتّى أنه قبل أن يصل الى السارية كانت روحه قد مضت الى الجحيم ، ذلك أنه كان شديد القسوة عليهم فكانوا يكرهونه أشد الكراهية .

«وعدنا الى القسطنطينية . وفي السنة التالية ، ١٥٧٣ ، علمنا أنّ دون خوان استولى على تونس من الأتراك ، وأعطاها الى مولاي حامد ، فقضى بذلك على كل أمل في عودة

مولاي حميده ، الذي كان أشجع المسلمين وأشدّهم قسوة . فتأثّر السلطان الأعظم لهذه الخسارة . ولهذا استخدم الحيلة المألوفة في قومه ، واصلح من البنادقة وهم كانوا الى الصلح أشد توقاً . وفي السنة التالية ، سنة ١٥٧٤ ، هاجم سليم حلق[1] الواد والحصن الذي تركه دون خوان بالقرب من تونس ولم يتم بناؤه . وفي أثناء كل هذه المصادمات ، كنت أقوم بالتجذيف ، دون أدنى أمل في استعادة حرّيتي ، على الأقل بالفدية ، لأنّي كنت مصمّماً على ألا أخبر أبي بما حل بي من مصائب .

وأخيراً تمّ الاستيلاء على حلق الوادِ والحصن . وقد وضع أمام هذين الموقعين خمسة وسبعون ألفاً من الجنود النظاميين ، وأكثر من أربعمائة ألف عربي ومغربي من كل افريقية ، مع ذخيرة وعدّة حرب هائلتين ، وكثير من السلابة ، حتّى أنهم كانوا يستطيعون بأيديهم وحدها وحفنات من التراب أن يغطّوا الحصن وحلق الوادِ . واستولى على هذه أوّلاً ، وإن كانت قد اشتهرت بأنه لا يمكن الاستيلاء عليها . ولم يكن ذلك ذنب المدافعين عنها ، فقد قاموا بواجبهم خير قيام : لكنّ الصدفة علّمت الأتراك سهولة تشييد خنادق على رمل الصحراء الذي كان يعثر على الماء تحته بقدمين في قديم الزمان أمّا آنذاك فلم يكن الماء يوجد على مسافة ستة أقدام . وبفضل جوّالات الرمل ، شيّدوا خنادق عالية سيطرت على أسوار المدينة ، ومن هناك شلّوا دفاع المحاصرين . وقد اعتاد الناس أن يقولوا أن رجالنا ماكان ينبغي عليهم أن ينحصروا في حلق الواد ، وأنه كان الأفضل لهم أن يتمسّكوا بالبحر ليقاوموا نزول الأعداء . ولكنّ الذين كانوا يتكلّمون هكذا كشفوا أنهم لم يشاهدوا المواقع ، أو ليست لهم خبرة كبيرة : لأنه لم يكن في الحصن وحلق الواد أكثر من سبعة آلاف جندي ، فكيف يتأتّى لهذه الفرقة الصغيرة أن تحارب في البر وتدافع عن الموقعين ضد جيش جرّار مثل جيش العدو ، مهما يكن من شجاعة أفرادها وتصميمهم ؟ وأي موقع هذا الذي يستطيع أن يصمد دون نجدة . خصوصاً إذا كان الذين يحاصرونه أعداء عنيدين هم أصحاب البلاد ؟ أمّا عن نفسي فمن رأيي أنّ الإستيلاء على حلق الواد كان منّة وفضلاً من السماء على اسبانيا ، بتخليصها من مستودع المصائب هذا ، من تلك الغولة ، أو الأسفنجة ، من هذه السوسة الناخرة التي استهلكت بغير فائدة أموال الحكومة ، دون أن تصلح إلا الى تخليد

(١) حصن ومرفأ على بعد ١٢ كم من تونس . وقد أقيم في مكان مدينة ليجولا الرومانية وسمّاه العرب « حلق الواد » (الوادي = النهر) . ولهذا سمّاه الإيطاليّون باسم Goletta وساد هذا الاسم في اللغات الأوربية ، وهو ، أعني المرفأ ، يشبه الحلق ، لأنه قناة طويلة تصل مابين بحيرة تونس والبحر . والميناء نفسه هو قناة عرضها ١٢ متراً وعمقها ٢,٥ متراً ، ولهذا لا تسمح بالمرور إلا للسفن الصغيرة .

ذكرى كارلوس كونتوس الذي لايقهر ، كما لو كانت هذه الكتلة من الحجر ضرورية كتخليده . واستسلم الحصن هو الآخر ، ولكنّ الأتراك لم يستولوا عليه إلا شبراً شبراً ، لأن الجنود الذين كانوا يدافعون عنه استبسلوا في الدفاع حتّى قتلوا أكثر من خمسة وعشرين ألفاً من جنود الأعداء ، في اثنتين وعشرين هجمة صمدوا لها . والثلثمائة جندي الذين بقوا في قيد الحياة لم يكن منهم أحد لم يجرح ، وهذا شاهد قاطع على شجاعتهم . واستسلم كذلك حصن صغير ، يقع في وسط بركة[1] ، بشروط ، وكان قائده هو دون خوان ثنوجيرا البلنسي ، وكان محارباً جريئاً . وأسر الأعداء دون بدرو بورتوكريرو ، قائد حلق الواد ، الذي بذل كل جهد في سبيل الدفاع عن الموقع ، واستاء من ضياعه الى حد أنه مات وهو في الطريق الى قسطنطينية حيث أردوا سوقه . وأسروا كذلك قائد الحصن ، جبريو ثربيون Ga-brio Cervellon وهو مهندس بارع ومحارب شجاع ، وهلك في الحصن كثير من علّية القوم ومن بينهم باجانودريا Pagano Doria وهو فارس من طريقة القدّيس يوحنّا ، ورجل سخي كريم ، كما يدل على ذلك سخاؤه الكامل مع أخيه يوحنّا أندريا دوريا الشهير .

«وأشد مايحزن في هذا الأمرهو أنه هلك على يد بعض العرب الذين وثق بهم لمّا أن رأى الحصن سيضيع ، وقد عرضوا عليه في أن يقتادوه في زي مغربي الى طبرقه ، وهو ميناء صغير يحتلّه أهل جنوة على الساحل ، ويشتغلون فيه بصيد المرجان . احتزّ هؤلاء العرب رأسه وحملوه الى قائد الجيش التركي ، الذي حقّق بالنسبة اليهم مايقوله المثل الاسباني وهو أنّ الخيانة تسر ، ولكن الخائن في فزع ، لأنه أمر بشنقهم ، بدعوى أنهم لم يأتوا به حيّاً! ومن بين النصارى الذين أسروا رجل يدعى دون بدرو دي أجيلار الذي ولد في مكان ما بالأندلس ، وكان حامل العلم في الحصن ، وجنديّاً شجاعاً ذا ذكاء نادر ، وقريحة خاصة فيما يسمّى بالشعر : وأنا أعلم ذلك ، لأنّ الحظ ساقه الى بارجتي وعند مقعدي ، وكنّا عبدين لسيّد واحد وقبل أن يغادر الميناء نظّم سوناتتين يرثي فيهما حلق الوادِ والحصن الآخر . وبودّي أن أنشدهما لكم ، لأنّي أحفظهما عن ظهر قلب وأعتقد أنهما سيعجبانكم » .

وفي اللحظة التي ذكر فيها الأسير اسم دون بدرودي أجيلار ، تطلّع دون فرنندو في أصحابه : وأخذ الثلاثة في الإبتسام ، وقال أحدهم للأسير : « قبل كل شيء ، أرجو أن تقول

---

(١) ماينعته ثربانتس هنا بأنه بركة كان ميناء قرطاجنة القديم . وفي وسط هذه البركة ، كان يقوم برج عتيق شيّد منه سربيون قلعة . وقد استسلم ثنجيرا بشرط أن يطلق سراحه هو والحامية . ولكن سنان ، قائد جيش البر ، أنزل هذا الشرط الى خمسين جندياً هم الذين يطلق سراحهم .

لي ماذا آل إليه أمر دون بدرو دي أجيلار هذا الذي تتحدث عنه » . فأجاب الأسير : كل ماأعرفه أنه بعد مضي عامين من إقامته في القسطنطينية ، هرب في زي ألباني ، مع جاسوس يوناني . ولاأدري إن كان قد استردّ حرّيته ، ولكنّي أميل الى اعتقاد ذلك ، لأنّي ، في العام التالي ، شاهدت ذلك اليوناني في القسطنطينية ، ولكنّي لم أستطع أن أسأله عن أخبار رحلتهما » . ـ فقال الرجل : « إنه حر . إنّ دون بدرو هذا هو أخي ، وهو الآن في بلادنا ، سليم معافى ، غني ، متزوّج ، وأب لثلاثة أولاد » . ـ فقال الأسير : « الحمد لله . لاأعتقد أن ثمّ على الأرض سعادة أعظم من استعادة الحرّية المفقودة » . فقال الرجل : « وأنا أعرف السوناتتين اللذين نظمها أخي » . فقال الأسير : « انشدهما اذن من فضلك ، فأنت أقدر على ذلك منّي » فقال الرجل : عن طيب خاطر . ها هي ذي سوناته حلق الواد :

الفصل الأربعون

تلاوة تاريخ الأسير

« أيتها الأرواح الراضية ، يامن تحرّرتم ، بأفعالكم الجميلة ، من العشاء الفاني ، لقد ارتفعتم من حقارة الأرض الى أعلى علّيين في السماء ،

« يامن مارستم قوة أبدانكم ، تشيع فيكم الحمية والحماسة النبيلة ، يامن صنعتم بالحمرة ، حمرة دمكم ودم الآخرين ، أمواج البحر ورمال الساحل .

« أعوزتكم الحياة ، ولكن لم تعوزكم الشجاعة التي شاعت في سواعدكم المجدّة ، التي ظفرت بالنصر وإن ماتت وقهرت ،

« وهذا الوقوع الكئيب القاتل ، بين الجدار والحديد ، جعلكم تستحقّون الشهرة التي تعطيها الدنيا ، والمجد في السماء » .

فقال الأسير : نعم أنا أحفظها كذلك فعلاً .

فقال الرجل (صاحب فرنندو) : وإذا لم تخنّي الذاكرة فهذه هي سوناتة الحصن :

« من هذا التراب العقيم المثار ، ومن أنقاض هذه الأبراج المتداعية ، صعدت الأرواح المقدّسة لثلاثة آلاف جندي ، صعدت حيّة الى مقام أرفع وأفضل ،

« لقد بذلوا في غير طائل قوة سواعدهم الشجاعة الى أن غُلبوا على أمرهم وقلّ عددهم فأسلموا الحياة على ظباة السيوف .

« وهاهنا الأرض التي مُلئت دائماً بآلاف الذكريات الأليمة ، في القرون الماضية كما في القرن الحالي » .

« لكن لم تصعد الى السماء من حصن هذه الأرض الخشنة أرواح أعدل ، ولم تحمل هذه الأرض أجساماً أشجع » .

ولم يجد القوم هاتين السوناتتين رديئتين ، وسُرّ الأسير بمعرفة هذه الأنباء عن

رفيقه ، واستمر يقول :

«وبعد استسلام الحصن وحلق الوادِ ، أمر الأتراك بتهديم هذه ، لأنه فيما يتعلّق بالحصن كان الحصن على حال لا يحتاج معها الى زيادة تخريب . ولإنجاز العملية بسرعة وضعت ألغام في حلق الوادِ في ثلاثة مواضع ، لكن على الرغم من كل مابذل من مجهودات لم يتمكّنوا حتّى من تهديم الأسوار القديمة التي بدت أضعف الأجزاء . أمّا التحصينات الجديدة التي أمر بتشييدها فراتين ، فقد هدمت في لحظات . وأخيراً عاد الأسطول التركي ظافراً منصوراً الى القسطنطينية ، وبعد وقت قصير مات سيدي علي ، الذي كان يسمّى عادة باسم العلج علي فرتكس ، ومعنى هذا باللغة التركية المرتد الأجرب . وكان كذلك فعلاً ، ومن عادة الترك أن يلقّبوا الناس بألقاب مأخوذة أما من عيب فيه أو مزيّة ، لأنه ليس لديهم غير أربعة أسماء أسر مختلفة بين المنحدرين من بيت آل عثمان : وكل الباقين يطلق عليهم ، كما قلت ، ألقاب تدل على عاهات في الجسم أو صفات في النفس .

«وكان العلج على طوال أربعة عشرة سنة عبداً للسلطان الأعظم ، يجذف مثلي . ولمّا بلغ الرابعة والثلاثين من عمره تحوّل عن دينه ، لمّا أن خدعه تركي ، واعتنق الإسلام لينتقم لنفسه . وتميّز بشجاعته الفائقة حتّى صار ملكاً (داي) على الجزائر ، دون أن يمر بالمراتب الوسطى التي اعتاد أن يشغلها محاسيب السلطان ، ثمّ صار أمير البحر ، وهو ثالث منصب في الدولة . وكان مولده في كلبريا ، وكان رجلاً طيّباً ، يعامل عبيده بإنسانية بالغة ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ، وزّعوا بعد موته ، وفقاً لوصيّته ، بين انكشارية . والسلطان الأعظم الذي هو وارث كل الذين يموتون يشارك في الميراث أبناء المتوفّى . أمّا أنا فكنت من نصيب أحد البنادقة ، وكان من قبل ملاحاً ، ومن أقرب المقرّبين الى العلج علي الذي أسره في البحر ، وكان أقسى إنكشاري وجد . وكان اسمه حسن أغا ، وصار غنيّاً جداً ، وعيّن ملكاً (داي) على الجزائر . وتبعته في دولته ، مغتبطاً بالإقتراب من اسبانيا ، لا لأنّي كنت أنوي أن اكتب الى أحد ، ولكن على أمل أن يواتيني الحظ أكثر مما كان حظّي في القسطنطينية ، حيث حاولت الفرار آلاف المرّات دون أن أفلح في ذلك . وقرّرت القيام بمحاولات أخرى للفرار وأنا في الجزائر ؛ لأنّي لم أيأس أبداً من استرداد حرّيتي ، ولمّا لم تنجح الخطة التي دبّرتها لم أيأس بل نصّبت مدافع أخرى ، وهدهدت نفسي بآمال جديدة ، وإن كانت ضعيفة أو مبنية على شفا جرف هار . ومع ذلك أمضيت حياتي داخل سجن يسمّيه الأتراك باسم «البنية» . فيه يعتقل العبيد النصارى ، سواء أكانوا عبيد الملك (الداي) أم عبيد أفراد الناس أم من يقرّرون للأعمال العامة . أمّا الأخيرون فمن

الصعب أن يستردّوا حرّيتهم ، لأنهم لمّا كانوا يخدمون الجميع ، وليس لهم سادة مخصوصون ، فإنهم لايعرفون لمن يقدّمون الفدية إن كان معهم مايدفعونه . وفي هذه السجون يضع بعض أفراد الناس ، كما قلت ، عبيدهم ، خصوصاً أولئك الذين تمكّنهم أحوالهم من إفتداء أنفسهم ، لأنهم يكونون هناك في أمان حتّى تصل فدياتهم . وعبيد الملك (الداي) الذين ينتظرون الفداء من الأسر لايعملون مع باقي العبيد ، اللهم إلا إذا تأخّر وصول الفدية ؛ إذ لحثّهم على الكتابة باهتمام أكبر الى أوطانهم يرسلون الى الغاب مع الباقين ، وهو تعب ليس بالقليل . وقد وضعوني بين أولئك ، لمّا أن عرفوا أنني برتبة نقيب ، وإن كنت قد بيّنت لهم أنه لامال عندي للفدية . والسلسلة التي قيّدوني بها كانت علامة فدية مقبلة أولى من أن تكون علامة عبودية ؛ وهكذا قضيت حياتي في هذا السجن ، بين الفرسان وعلّية الناس المنتظر فداؤهم بالمال ، وعلى الرغم من أنّ الجوع والحرمان عذّبانا كثيراً مراراً ، ففي وسعي أن أقول دائماً أنه لم يحزننا شيء قدر أن نكون شهوداً على قساوات لم يسمع بمثلها ، كان سيّدي يسومها للنصارى ؛ فلم يمض يوم دون أن يشنق أو يخوزق بعضهم ، أو على الأقل يقطع آذانهم ، وهذا كلّه لأسباب تافهة جداً حتّى أنّ الأتراك أنفسهم كانوا مضطرّين الى أن يقولوا أنه في فعله هذا إنما كان ينساق وراء مزاجه الدموي . ولكنّ جنديّاً اسبانيّاً واحداً اسمه سابدرا[١] ، استطاع أن يغيظ هذا الرجل القاسي ؛ فقام ، من أجل استرداد حرّيته ، بأعمال ظلّ الأتراك يذكرونها زمناً طويلاً ؛ فلم يضربه حسن أغا أية ضربة ولم يأمر بضربه أبداً ، ولم يقل له أبداً كلمة خشنة . وكنّا نخشى في كل لحظة أن يخوزق هذا الجندي (سابدرا) ؛ وهو نفسه خشى ذلك أكثر من مرة ، ولو كان لدي متّسع من الوقت لرويت لكم بعض أعماله الشجاعة الباسلة التي ستدهشكم وتشوّقكم أكثر من تاريخي أنا » .

« كانت تطل على فناء سجننا نوافذ خلفية لمنزل مغربي ثري . ووفقاً لعادات هذه البلاد لم تكن النوافذ غير طاقات ضيّقة عليها مشربيات غليظة ضيّقة الخروق . وذات يوم كنت على السطح أتدرّب على القفز مع ثلاثة من رفاقي ، وكان الباقون جميعاً في الشغل ، فرفعت بصري صدفة الى تلك النوافذ فلمحت عصا على طرفها علّقت قطعة قماش وكانت هذه العصا

(١) سابدرا ، هو ثربانتس نفسه ، فاسمه الكامل هو ميجيل ثربانتس سابدرا ، ولم يشأ أن يغفل ذكر بعض مغامراته ، أمّا الأسير ، بطل هذا التاريخ ، فهو النقيب روي بيرث دي بيدما ، زميل ثربانتس في الأسر ، وكان هو الأخر عبداً لحسن أغا ، وحسن أغا أصله من البندقية وأخذ أسيراً ، وكان اسمه اندريتا ، وكان يعمل موثقاً على إحدى السفن ثمّ أسر ، وأسلم ، وصار أمين خزانة العلج علي ، وقد صار والياً (باشا) على الجزائر مرّتين ، وواليأ على طرابلس الغرب ، وأميراً للبحر ، ومات مسموماً .

تتحرّك كما لو قصد بها الى دعوتنا الى التقاطها . وعند هذا المنظر وضع أحدنا نفسه تحت العصا حتّى يرى إن كانت ستترك تسقط ، لكنها رفعت وحرّكت ذات اليمين وذات الشمال ، كحركة الرأس حين يريد المرء أن يقول : لا . فعاد العبد إلينا ، فخفضت العصا من جديد . فتقدّم أحد رفاقنا لكن لم يفلح هو الآخر ، كذلك الثالث لم يكن أسعد حظّاً . وحاولت بدوري أن أجرّب حظّي ولم أكد أقترب من العصا حتّى تركوها : وسقطت عند قدمي في السجن . فأسرعت لحل قطعة القماش ، فوجدت فيها عشرة جنيهات Gianis ، وهي قطع صغيرة ذهبية من النقود المتداولة عند المغاربة ، وتساوي عشرة ريالات . ولاتسأل عن شدة سروري بهذه النجدة ، خصوصاً وقد بدا من الواضح أنها موجهة الى شخصي أنا ، إذ لم يرد ترك العصا للآخرين . فاحتفظت بالنقود ، وكسرت العصا ، وعدت الى السطح ، وأخذت أتطلّع في المشربية : فرأيت منها يداً بيضاء كل البياض خرجت منها فتحت النافذة ثمّ أغلقتها في الحال .

« فاستنتجنا في الحال أنّ امرأة من هذا البيت قد جاءت علينا بهذا المبلغ . وللرد عليها حيّيناها على طريقة المغاربة ، خافضين الرأس ثانين الجسم مخالفين بين الذراعين على الصدر . وبعد وقت قصير ، أظهر من النافذة نفسها ، صليباً صغيراً من اليراع سرعان ما سحب : مما أكّد لنا أنّ في هذا البيت نصرانية عبدة ، وأنها هي التي جادت علينا بهذا الخير . بيد أنّ بياض يدها الناصع ، والسوار الذي لمحناه في معصمها جعلنا نظن فيما بعد أنها لابد أن تكون نصرانية اهتدت الى الإسلام واتخذها سيّدها زوجة شرعية له : لأن القوم يقدّرون هؤلاء النسوة أكثر من تقديرهم لسيدات بلادهم . ولكنّنا أخطأنا في كل تقديراتنا ، كما ستعرفون بعد قليل . ومنذ هذه اللحظة واهتمامنا الوحيد هو التطلّع الى النافذة التي ظهرت منها العصا السعيدة : لقد كانت بوصلتنا : فلم تصرف أنظارنا إلا اليها . ومضى ما يقرب من خمسة عشريوماً دون أن نرى اليد ولاأيّة علامة أو إشارة : ومن كل المعلومات التي جمعناها لمعرفة هل تسكن في هذا البيت نصرانية أسلمت كل مااستطعنا معرفته هو أنه يقطن في هذا البيت مغربي (مسلم) اسمه الحاج مراد الذي كان والياً على a Pata(١) ، وهو منصب من أرفع المناصب في هذا الإقليم . وذات يوم ومن حيث لانتوقّع ، وكنّا وحدنا كما في المرّة الأولى ، شاهدنا ظهور عصا عليها منديل بدا أشد إنتفاخاً . فاستأنفنا التجربة ، ولم تترك العصا إلا لي أنا .

---

(١) حصن على مسافة فرسخين من وهران .

وحللت العقدة فوجدت أربعين قطعة ذهبية اسبانية ، ورسالة باللغة العربية ، في أسفلها رسم صليب كبير . فقبّلت الصليب ، وأخذت النقود ، وعدت الى السطح : وحيّيت بتحيّاتنا ، وشاهدت اليد تظهر ، وأشرت إشارة أنّي سأقرأ الرسالة ، ثمّ أغلقت النافذة . وكنّا راضيين عن حسن حظّنا ومدهوشين في وقت واحد ، لكن لم يكن بيننا واحد يعرف العربية ، وكنّا مع ذلك في لهفة شديدة لمعرفة ماهو مكتوب في الرسالة : فكانت الصعوبة الكبرى هي في العثور على من يقرأها لنا . وأخيراً قرّرت أن أوكل الأمر الى مهتد الى الإسلام من مرسيه كان يظهر لي كثيراً من إمارات الصداقة ، وكانت علاقتي معه ترغمه على الاحتفاظ بالسر الذي أردت أن أفضي به اليه . ذلك أن المهتدين الى الاسلام الذين يريدون العودة الى ديار النصرانية كان من عادتهم أن يحصلوا ، من العبيد الممتازين ، على شهادات بأنهم ناس طيّبون ، وأنهم حاربوا النصارى ورغبوا في الفرار لدى أوّل فرصة . ومن بين هؤلاء المهتدين ، البعض يسعى للحصول على هذه الشهادات لأغراض نزيهة حميدة ، والبعض الآخر يستغلّونها في تجارة آثمة : لأنهم حين يذهبون للقرصنة في بلاد النصارى فإنهم إذا أخذوا أسرى أبرزوا هذه الشهادات ليثبتوا ، فيما يقولون ، أنهم إنما جاءوا ليلجأوا الى النصارى ، ومن أجل هذا لحقوا بالترك في مغامراتهم ، وبهذه الوسيلة يتلافون الخطر الأوّل ، ويتصالحون مع الكنيسة ، دون أن يقع لهم أي ضرر ، ثمّ إذا سنحت الفرصة عادوا الى بلاد الاسلام ليستأنفوا صناعتهم الأولى . والمهتدى الذي قد تحدّثت عنه كان قد حصل من كل زملائي على شهادات مماثلة ، مستوفاة ، ولو وجد المسلمون معه هذه الأوراق لأحرقوه حيّاً . وكنت أعلم أنه يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة . لكن قبل أن أفضي اليه بدخيلة أمري طلبت اليه فقط أن يقرأ عليّ هذه الورقة التي عثرت عليها في زاوية من غرفتي . ففضّ الرسالة ، وتفحّصها زمناً ، وهو يتمتم بين أسنانه . فسألته هل فهمها . فأجاب : « فهمتها تماماً ، وإذا أردت أن أترجمها لك حرفيّاً ، فآتني بقلم وحبر » فأعطيته ما طلب ، وترجم الرسالة في وقت قصير وقال لي : « هذا هو مافيها بالدقة . لكن عليّ أن أنبّهك الى أنه حيث توجد هاتان الكلمتان : للا مريم ، فاعلم أن معناهما هو سيّدتنا العذراء مريم » . وهذا فحوى الرسالة :

« لمّا كنت بنتاً صغيرة ، كان لأبي جارية علّمتني بلغتي الصلاة المسيحية ، وحدّثتني كثيراً عن للامريم . وماتت هذه الجارية وإنّي لأعلم تمام العلم أنها لم تذهب الى النار ، بل عند الله ، لأنّي رأيتها بعد ذلك مرّتين ، وقالت لي اذهبي الى بلاد النصارى ، لتري للا مريم التي تحبّني كثيراً . لكنّي لاأدري كيف يتم هذا : لقد شاهدت من هذه النافذة الكثيرين من

النصارى ، لكن لم يبد لي أحد منهم فارساً إلا أنت . إنّي شابة رائعة الجمال ، وأستطيع أن آخذ معي كثيراً من المال . فانظر هل تستطيع أن تأخذني الى هناك ، وستكون أنت لي زوجاً ، إذا شئت ، وإن لم تشأ ، فلن يشق عليّ هذا ، لأنّ للا مريم ستستطيع أن تهبني زوجاً . إنّي أنا التي أكتب اليك ، لاتثق بأي مغربي : فسيخدعونك جميعاً . وهذا يثير همومي . وأريد منك ألا تفضي بالسر الى أحد من الناس : لأنه لو عرف هذا والدي ، لألقى بي في بئر وملأه بالحجارة . وسأضع خيطاً في العصا حتّى تستطيع أن تربط فيها جوابك . فإن لم تستطع الكتابة بالعربية ، فخاطبني بالإشارات : وللا مريم ستجعلني أفهمك . حفظتك وحفظك الله ، وهذا الصليب الذي أقبّله مراراً ، كما أوصتني بذلك الأسيرة » .

«احكموا أنتم ياسادتي ، أي دهشة وأي سرور غمرتنا بهما هذه الرسالة! ولهذا أدرك المهتدي (الذي قرأ له الرسالة) بسهولة أن الصدفة ليست هي التي جعلته يحصل على هذه الرسالة ، بل هي موجّهة الى واحد منّا بالذات . فاستحلفنا أن نثق بكتمانه ، وقال أنه مستعد لتعريض حياته للفناء من أجل أن يحصل على حرّيتنا ، وانتزع ، وهو يقول هذه الكلمات ، صليباً صغيراً من المعدن كان في صدره ، وسفح الكثير من العبرات ، وأقسم بالله الذي رآه مرسوماً عليه ، وفيه يضع كل ثقة ، رغم كفره وخطاياه ، أن يحافظ على السر في كل مانريد أن نفضي به اليه : لأنّه بدا له ، كما قال ، أنه عن طريق من كتبت هذه الرسالة ، نستطيع أن نسترد حرّيتنا ، وأن يحقّق هو خصوصاً ، رغبته الشديدة في أن يعود الى حضن الكنيسة المقدّسة أمّنا ، الذي انفصل عنها كعضو أصابته الغنغرينة من جراء الجهل والخطيئة . وبكى طويلاً ، وكشف عن رغبته في التوبة الصادقة حتّى أننا ، نحن الأربعة ، باتفاق وإجماع ، قرّرنا الثقة به . فكشفنا له عن كل شيء ، وأريناه النافذة التي ظهرت منها العصا . فتفحّص البيت بإمعان ، ووعد بأن يكتشف من يسكن فيه . ثمّ تباحثنا في أمر الجواب عن رسالة المغربية المحسنة ، فعرض المهتدي في الحال أن يكتب الجواب فأمليته عليه بالصيغة التالية ، لأن جميع ظروف رقّي لن تمحى أبداً من ذاكرتي » :

« حفظك الله الحق ياسيّدتي ، وحفظتك مريم الطوباوية ، أم الرب الحقيقية ، إنها هي التي تلهمك خطّتك الكريمة في الذهاب الى بلاد النصارى ، لأنها تحبّك كثيراً . فادعيها كي تعرّفك الوسائل الى تحقيق ذلك ، إنها طيبة وستفعل ذلك لك . أمّا عن نفسي وبالنيابة عن كل النصارى الذين معي ، فإنّي أعرض عليك أن نعمل من أجلك كل ما يتوقّف علينا ، حتّى لو كان في ذلك تعريض حياتنا للخطر . لاتكفّي عن الكتابة إليّ وإنبائي بخططك ، وسأرد عليك دائماً ، لأن الله العظيم قد هيّأ لنا مساعدة نصراني عبد يعرف الكتابة

والقراءة بلغتك ، كما سترين من هذه الرسالة . وهكذا ، دون أن تخشي شيئاً ، تستطيعين أن تبلّغيني كل ما تبغين . أمّا عن عرضك على الزواج حين نصبح في مكان أمين ، فإنّي أوافق عليه كمسيحي صحيح الإيمان ، وسترين أنّ النصارى أصدق قولاً . وليكلأك الله وللا مريم أمه بعنايتهما » .

« ولمّا كتبت الرسالة وأغلقت مرّ يومان قبل أن نصبح وحدنا . هنالك صعدت الى السطح ، لأرى هل تظهر العصا ، ولم أنتظر طويلاً . ولمّا شاهدتها وإن كنت لم أميّز أحداً ، أظهرت الورقة ، لكي أدل على أن تضع الخيط ، لكنه كان في العصا فعلاً . وربطت الرسالة ، وتلقّيت الرسالة وبعد وقت قصير ظهر نجمنا ومعها المنديل المعقود ، وكأنه راية السلام حقّاً . فوجدت فيه نقوداً من الذهب والفضة قيمتها أكثر من خمسين اسكودو ، مما ضاعف سرورنا وأملنا خمسين مرة . وفي الليلة نفسها عاد المهتدي وأيّد ماعرفناه من قبل وهو أنّ البيت يقطن فيه المغربي الحاج مراد[1] وهو رجل في غاية الثراء ليست له غير بنت واحدة ، وهي وريثة كل أملاكه ، ويعدها كل أهل المدينة أجمل فتاة في المغرب ، وأنّ الكثير من الولاة طلبوا يدها ، لكنّها لم تشأ الزواج أبداً . وعرف أيضاً أنه كان عند هذا الغني جارية نصرانية توفّيت ، وكل هذه التفاصيل كانت متفقة كل الإتفاق مع ماورد في رسالتها إلينا . فتشاورنا الرأي فيما بيننا ومعنا المهتدي ، لنهتدي الى الوسيلة التي بها يمكن إنقاذ المغربية والذهاب بها الى بلاد النصارى ، وأخيراً قرّرنا أن ننتظر تعليمات جديدة من ثريا[2] (وهذا هو اسم من تريد اليوم أن تسمّى ماري) ، لأنّنا أدركنا أنه يتوقّف عليها وحدها حل آلاف الصعوبات . ولكنّ المهتدي شجّعنا ، وكرّر أنه إمّا أن يضيّع حياته أو يصل الى تخليصنا . وطوال أربعة أيّام كان السجن مليئاً بالناس ، مما كان السبب في أنّنا لم نشاهد العصا . وأخيراً ظهرت وفيها منديل كان من الإنتفاخ بحيث وعدنا بخاتمة سعيدة . لقد وجدت فيه مائة اسكودو من الذهب ورسالة

---

(١) الحاج مراد : ليس من اختراع ثربانتس ، وإن كانت الحكاية الغرامية التالية كلّها أو بعضها مخترع . وإنّما وجد فعلاً مملوك غني جداً في الجزائر بهذا الاسم في القائمة التي أوردها دييجو دي هايدو والتي تشمل كبار المسلمين الذين كانوا يعيشون في الجزائر سنة ١٥٨١م (راجع كتاب Topografia الفصل ١٤) ، كماذكر في الفصل ٢٩ من بين أجمل المنازل الخاصة في الجزائر بيت الحاج مراد المملوك الذي أسلم .

(٢) رسم هذا الاسم في الأصل هو Zoraida .

ويرى اجيلاث أن أصله العربي هو ثريّا ، بينما يرى بول رافيس (في مقالاته عن « الكلمات العربية والاسبانية ، الموريسكية » ، في مجلة اللغويّات والفيلولوجيا المقارنة سنة (١٩٠٧ ـ ١٩١٤) أنه « دريدة » تصغير دريد ، ولكنّنا لم نعثر على هذا التصغير اسم علم على امرأة ، ولهذا أخذنا برأي اجيلاث Eguilaz .

جديدة . وفي هذه اللحظة كان المهتدي معنا ، وقرأ لنا الرسالة ، وهذا نصّها :

«لست أدري ياسيّدي ، ماذا نعمل للفرار الى اسبانيا ، إنّ للامريم لم تخبرني ، وأني سألتها ذلك مرّات . كل ماأتصوّره أن ألقي إليك من هذه النافذة بالكثير من الذهب ، الذي به تفتدي نفسك من الأسر ، أنت وأصدقاءك . ويذهب أحدهم الى بلاد النصارى ، ويشتري سفينة ثمّ يعود لأخذ الباقين . أمّا أنا فستجدوني في بستان أبي عند باب[1] الضأن Bab-azon على ساحل البحر حيث أمضي الصيف مع والدي وعبيده . وستستطيع حينئذ أن تأخذني في الليل وتقتادني الى السفينة . لكن تذكّر أنّك وعدتني بالزواج منك ، لأنك إذا أخلفت وعدك لطلبت من للا مريم أن تعاقبك . أمّا إذا لم تثق بأحد لشراء السفينة فاقتدِ نفسك أنت ، واذهب بنفسك ، وأنا متأكدة أنك ستعود ، لأنّك فارس ومسيحي تقي . فاستعلم عن المكان الذي فيه البستان ، وإذا تريّضت هنا فاعلم أنه لاأحد في السجن ، وسأعطيك مالاً وفيراً . وفي رعاية الله يا سيّدي» .

«وبعد قراءة هذه الرسالة ، تطوّع كل واحد ليفتدي نفسه من الأسر واعداً بالعودة في الميعاد . وتطوّعت أنا ، لكنّ المهتدي عارض في ذلك بشدّة ، قائلاً على أنه لن يوافق على أن يفتدى واحداً ويخرج إلا إذا أفدى الكل ، وأنّ التجربة علّمته أنّ قليلين جداً من الذين استردّوا حرّيتهم وفوا بالعهود التي قطعوها لمّا كانوا عبيداً ، وإنّ كثيراً من الأسارى البارزين قد استخدموا هذه الوسيلة ، فاقتادوا واحداً منهم للذهاب الى بلنسية أو ميورقة . ليجهّز سفينته ، ويعود ليأخذ الباقين ، ولكن لم يعد منهم أحد لأنّ الفرحة باسترداد الحرّية ، مقرونة بالخوف من فقدها ، انتزعت من ذاكرتهم كل الالتزامات التي تعهّدوا بها .

ولتأييد رأيه هذا روى لنا حادثاً وقع من وقت قريب لفرسان نصارى هو أعجب حادث عرف في بلد يجري فيه الكثير من العجائب . وأخيراً قال لنا أن أنسب شيء هو أنّ المال الذي كان سيستخدم في دفع فدية واحد منهم ، يعطى له هو لشراء سفينة في الجزائر نفسها ، بدعوى القيام بالتجارة بين تطوان ومدن الساحل ، ولمّا كان هو صاحب السفينة فسيكون من السهل عليه إخراجهم من السجن واقتيادهم الى ظهر السفينة ، وأنّه لو أعطت المغربية كل المال التي وعدت به لافتدائهم جميعاً ، لكان أسهل عليه جداً أن يبحر في رائعة النهار ، لأنهم سيكونوا جميعاً أحرار . والصعوبة الوحيدة هي أن المغاربة

(١) باب الضأن : أحد أبواب مدينة الجزائر التسعة ، وكان فعلاً بالغرب من الميناء .

لايسمحون أبداً للمهتدين أن يشتروا سفناً أو أن يشغّلوها ، بل يسمحون لهم فقط ببوارج عظيمة مسلّحة تقوم بالخدمة ، خوفاً من أنّهم لو اشتروا سفناً ، خصوصاً إذا كانوا من الاسبان فإنهم سيستخدمونها في الذهاب الى بلاد النصارى . لكنّ صاحبنا المهتدي هذا رأى أن يمكن علاج هذه المشكلة بإشراك مغربي ثغري[1] في ملكية السفينة وأرباح التجارة ، وبهذه الحيلة تكون السفينة تحت تصرّفه ، ويمكنه حينئذ أن ينفّذ كل ما وعدنا به .

وقد بدا لي ولأصحابي أن الأضمن هو أن نبعث في شراء سفينة من ميورقة ، كما نصحتني الموركسية ، لكنّنا لم نستطع مناقضة المهتدي خوفاً من أنّنا لو عارضناه لكشف تواطؤنا مع ثريا وعرّض حياتنا وحياتها للخطر ، وهي التي من أجلها كنّا على استعداد للتضحية بنا جميعاً . فقرّرنا إذن أن نضع مصيرنا بين يدي الله وهذا الرجل . وجعلته يكتب الى ثريا أننا سنفعل كل ماتأمر به ، وأنّ نصائحها سديدة كما لوجاءت من للا مريم نفسها ، وأنّ عليها وحدها يتوقّف تأجيل المحاولة أو تنفيذها فوراً .

وعرضت عليها من جديد أن أتزوّجها . وفي اليوم التالي شاهدتنا وحدنا فأعطتني على دفعات ، بواسطة العصا ، ألفي اسكودو من الذهب ، ومعها ورقة تقول فيها أنه في يوم الجمعة التالي ستغدو الى بستان أبيها ، ولكنّها ستعطينا قبل ذلك نقوداً أخرى ، فإن لم يكف كل هذا المال ، أخبرناها ، وستعطينا كل مانريده ، لأن أباها عنده من النقود الكثير جداً بحيث لن ينتبه لشيء ، وهي من ناحية أخرى معها مفتاح كل شيء . فأعطيت حالاً خمسمائة اسكودو للمهتدي لشراء السفينة . وبثمانمائة أخرى دفعت ثمن فديتي : أعطيتها الى تاجر بلنسي كان موجوداً في الجزائر وهو افتداني من الملك (الداي) على وعد أن يدفع مبلغ الفدية حين تصل أوّل سفينة من بلاده . وكنت مضطراً الى التصرّف على هذا النحو ، لأنه لو دفع المبلغ فوراً لاشتبه في أنّ المبلغ كان معه منذ مدّة طويلة في المدينة واحتفظ به بين يديه لاستغلاله ، ولقد كان الملك وهو سيّدي ، سيّئ الظن الى حد أنني لم أجرؤ على إيصال المبلغ اليه فوراً ، وعشية يوم الجمعة أعطتني ثريا ألف اسكودو أخرى وأنبأتني برحيلها ، وأوصتني ، حين أفتدي نفسي ، بالاستعلام عن منزل أبيها والسعي لرؤيتها . فأجبتها بعبارات موجزة أنّي سأفعل ذلك ، وعليها أن توجّه دعواتها الى للا مريم كما علّمتها الجارية . وبعد هذا عملت على افتداء أصحابي الثلاثة من الأسر

(١) ثغري : يسكن الثغور ، وانتقلت الكلمة العربية الى الاسبانية في ذلك العصر للدلالة على المسلمين الذين كانوا على الثغور في أرغون وبلنسية وتطلونيا ، أما الذين كانوا في غرناطة والأندلس فأطلق عليهم اسم « المدجنون » أي دافعو الجزية للنصارى .

لتسهيل خروجنا من السجن ، وخوفاً من أنهم قد رأوني أفتدى من دونهم وهم يعلمون أنّ معي مالاً ــ قد يستبدّ بهم القلق ، ويوسوس الشيطان فكرة الإضرار بثريا . صحيح أن أخلاقهم كانت تجعلني أثق فيهم ، لكن على الرغم من ذلك فإنّي لم أشأ أن أضع نفسي تحت رحمة الصدف . فعملت إذن على افتدائهم الطريقة نفسها التي استعملتها بالنسبة الى نفسي وأعطيت كل المبلغ اللازم الى التاجر البلنسي كي يستطيع أن يدفع فدياتهم بكل أمان ، دون أن أكشف له سرّي ، وإلا لكان في ذلك خطر عظيم .

الفصل الحادي والأربعون

تلاوة تاريخ الأسير

وقبل مضي خمسة عشرة يوماً ، كان المهتدي قد اشترى سفينة تكفي لحمل ثلاثين شخصاً ، ولإبعاد كل شبهة ، سافر الى شرشال[1] ، وهي تبعد عشرين فرسخاً عن الجزائر ، من ناحية وهران ، وفيها تجارة واسعة بالتين المجفّف . وقام بهذه السفرة ثلاث مرّات ، بصحبة المغربي الذي ذكرته ، وفي بلاد المغرب يطلق اسم «الثغريون» Tagarinos على مسلمي أرغون ، أمّا مسلمو غرناطة فيلطق عليهم اسم «المدجنين» Mudejares ويسمّى هؤلاء الأخيرون باسم «العلوج» Elches في مملكة فاس ، ومعظم جنود الملك (السلطان) منهم . وفي كلّ مرة كان المهتدي يمر فيها بسفينته كان يلقي مراسيه في جون صغير على مسافة طلقتي بندقية من بستان ثريا ، وهناك كان يؤدّي الصلاة مع ملاحيه المغاربة أو يجرّب ، وكأنه يمثّل ، الخطة التي فكّر في تنفيذها ، بل كان يذهب أحياناً الى البستان ليطلب فاكهة ، وكان والد ثريا يأمر بإعطائه وهو لايعرفه ، وسعى لرؤية الفتاة ، كما صرّح لي فيما بعد ، كي يقول لها إنه هو الذي اخترته أنا لاقتيادها الى بلاد النصارى ، وأنّ عليها ألا تخشى شيئاً ، لكنه لم يفلح في هذا لأن المرأة المغربية لا تسمح لمغربي أو تركي (لمسلم) برؤيتها إلا إذا أذن لها بذلك أبوها أو زوجها .

أمّا العبيد النصارى فكنّ يرينهم عن طيب خاطر ، بل أكثر مما ينبغي أمّا عن نفسي فما كنت لأرضى أن يتحدث اليها ، وإلا لكانت قد فزعت من رؤية مصيرها بين يدي أمثاله . لكن الله الذي قدّر غير ذلك ، لم يأذن له بلقائها . ولمّا رأى المهتدي بأية سهولة كان يغدو ويروح وأنه كان يلقي مراسيه حيث أراد ، وأنّ الثغري شريكه قد صار

---

(١) أقام خير الدين بربروسه ميناء في شرشال سنة ١٥٢١ ، إذ رأى فيها مرفأ طبيعي أمين ، يمكن الدفاع عنه بسهولة .

طوع إرادته ، وأنّي قد أفتديت من الأسر ولم ينقصنا بعد غير بعض النصارى الذين يحسنون التجديف ، قال لي اختر من تريد أن يأتوا معنا ، فضلاً عن رفاقي الثلاثة ، وأن أنبه عليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد ليوم الجمعة المقبل وهو اليوم الذي حدّد لرحيلنا . ففاتحت في الأمر إحدى عشر إسبانيّاً ، من المجذّفين الأشدّاء الذين يستطيعون الخروج بسهولة من المدينة . وكان ذلك مصدر سعادة بالغة عندي أن أجد مثل هذا العدد في هذه المناسبة لأن عشرين سفينة قد خرجت للسفر وحملت معها كل المجذّفين ، وماكان في استطاعتي الظفر بهؤلاء لولا أنّ رئيسهم كان قد بقي في المدينة لإتمام بارجة كانت تبنى ، مما منعه من السفر هذا الصيف . ولم أقل لهؤلاء الرجال أكثر من أن يخرجوا من المدينة واحداً إثر واحد يوم الجمعة القادم في المساء دون أن يظهر عليهم أي شيء وينتظروني بالقرب من بستان الحاج مراد . وأعطى هذا الأمر لكل واحد منهم على حدة ، وإذا وجد مسيحيّين آخرين هناك فليكتف بأن يقول إنه ينتظرني في هذا المكان .

وبقي عليّ شيء مهم هو أن أنبه ثريا بما جرى عليه الإتفاق ، لأنّي خشيت أن لو فاجأتها لارتاعت من أخذها قبل الوقت الذي تتوقع فيه وصول السفينة من بلاد النصارى . ولهذا ذهبت عشية السفر الى بستان حاج مراد ، ودخلت بحجة قطع أعشاب ، وعلى أمل التحدث الى ثريا . وكان أول شخص لقيته هو والدها ، فخاطبني باللغة[1] التي يتخاطب بها في كل المغرب ، بل وحتّى في القسطنطينية ، بين العبيد والمغاربة ، وهذه اللغة ليست العربية ، ولا القشتالية (الاسبانية) ، ولالغة أي أمّة من الأمم وإنما هي خليط من كلّ اللغات بها نتفاهم جميعاً . فسألني في خدمة من أنا ، وما الذي أبحث عنه في البستان ، فأجبته أنني عبد لمامي الأرنؤودي (الألباني) ، لأنّي كنت أعلم أن هذا الرجل من أعز أصدقائه ، وأنّي أبحث عن أعشاب لعمل سلطة . وأراد أن يعرف هل افتديت ، وماذا اقتضاه سيّدي منّي نظير الافتداء ، وفي تلك الأثناء جاءت الى البستان ثريا الجميلة ، فعرفتني من مكانها ، ولمّا كانت المغربيّات لاتخشين الظهور أمام النصارى ، ولايسعين لتحاشيهن ، كما قلت من قبل ، فقد اقتربت دون حياء من المكان الذي كنت أتكلّم فيه مع والدها ، الذي دعاها لمّا أن رآها . هنالك تأمّلت جمالها النادر لأوّل مرة بإمعان ، وكذلك لطفها وفخامة ملابسها ، إنّ اللآلئ التي تدلّت من أذنيها وجيدها ورأسها فاقت في العدد شعرها ، وقدماها ، اللتان كانت عاريتين مكشوفتين

---

(١) كانت هذه اللغة خليط من لغات أوروبية عديدة ، معظمها يتألف من كلمة إيطالية واسبانية ، وبعض الكلمات البرتغالية .

وفقاً لعادة القوم في بلادها ، كانت مغطّيتين بخلاخيل من الذهب الخالص المطعّمة بالجواهر حتّى قالت لي بعد ذلك أن أباها يقدّرها بعشرة آلاف دبلون[1] أمّا أساورها فكانت تقدّر بما لا يقل عن ذلك . وكانت اللآلئ دقيقة جداً وعديدة جداً ، لأنّ أفخر زينة عند المغربيات هي لبس حبّات اللؤلؤ . ولهذا فإن المغاربة يملكون من اللؤلؤ أكثر مما تملك سائر الأمم كلّها ، وكان يُعرف عن أبي ثريا أنه يملك أثمن اللؤلؤ في الجزائر كلّها ، فضلاً عن مائتي ألف اسكودو اسبانية ، كانت كلّها تحت تصرّف ابنته . ولكي تحكموا ، ياسادتي ، على ماكانت عليه أيّام عزّها وهي محلاة بهذه الحلي ، انظروا حالها الآن حتّى بعد أن عانت ماعانت . وأنتم لاتجهلون أنّ جمال معظم النساء هو ابن يومه ، وأنّ القليل القليل يزيده أو يشوهه ، لأن وجدانيّات النفس ترفعها أو تخفضها ، وكثيراً ماتقضي عليه . أمّا عن نفسي فسأقدّر أنني وجدتها ألمع وأجمل من أية امرأة رأيتها في حياتي ، وحينما اعتبرت الإلتزامات التي لاتحصى والتي التزمت بها أنا قبلها ، اعتقدت أنّي أرى فيها الهة نزلت من السماء كي تضع نهاية لشقائي . ولمّا صارت بالقرب منّي قال لها أبوها بالعربية أنني عبد عند صديقه مامي الأرنؤودي ، وأنّي أتيت لإلتقاط أعشاب للسلطة . فقالت تسألني باللغة المشتركة التي ذكرتها هل كنت نبيلاً ولماذا لم أفتد نفسي من الأسر . فأجبتها أنّي افتديت نفسي وأنها تستطيع أن تحكم عليّ من القيمة التي اقتضاها سيّدي منّي ثمناً لفديتي ، لأنّني اضطررت أن أدفع له مبلغ ألف وخمسمائة سلطاني . فقالت : « الحق أنك لو كنت عند أبي لما وافقت على فك رقبتك بهذا المبلغ ، لأنكم أيها النصارى تكذبون في كل أقوالكم ، وتتظاهرون بالفقر والمسكنة لتخدعوا المسلمين » . فقلت لها : « يمكن أن يصح هذا بالنسبة الى غيري ، أمّا عن نفسي فقد تعاملت مع سيّدي بالأمانة ، وسيكون هذا تصرّفي مع جميع الناس » فقالت : « ومتى ترحل ؟ » فقلت : « غداً فيما أعتقد ، لأنّ في الميناء سفينة فرنسية ، ستبحر غداً ، وفي عزمي انتهاز هذه الفرصة » .

ـ لكن أليس الأفضل لك أن تنتظر سفينة اسبانية بدلاً من السفر مع الفرنسيين ، وهم ليسوا أصدقاء لأمّتك ؟

فقلت لها : لا ، صحيح أنّ في استطاعتي الإنتظار ، لكن الأضمن هو السفر غداً ، لأنّ تلهفي على العودة الى وطني ، والكون بين الأشخاص الذين أحبّهم ، لايسمح لي بالتأجيل الى مابعد .

ـ أنت لاشك متزوّج في وطنك ، ولهذا أنت متلهّف للعودة ولقاء زوجتك .

---

(١) عملة ذهبية اسبانية .

ـ لم أتزوّج بعد ، لكنّي وعدت بأن أتزوّج لدى وصولي الى أرض الوطن .

ـ وهل عروسك المقبلة جميلة ؟

ـ جميلة بحيث إذا أردت أن أمدحها بما تستحق لقلت لك إنها تشبهك كثيراً .

وعند هذه الكلمات أخذ أبوها في الضحك ، وقال : « والله[1] ، يا نصراني ، إنها لابد جميلة جداً إذا كانت تشبه ابنتي التي لانظير لجمالها في كل هذه البلاد ، انظر فيها بإمعان تجد أنّي أقول الحق » .

وكان هذا الوالد الطيّب يقوم بدور الترجمان لأنه كان أكثر تعوّداً على اللغة المهجّنة التي تستخدم في هذا البلد ، لأن ابنته وإن كانت تتملّكها فإنها كانت تعبّر عن نفسها بالإشارات أكثر من الكلمات .

وبينما كنّا نتحدّث على هذا النحو ، شاهدنا مغربيّاً يجري مسرعاً ويصيح قائلاً : إنّ أربعة أتراك قد تسلّقوا سور البستان ، ونهبوا الفاكهة ، مع أنها ليست ناضجة . فاضطرب الشيخ وابنته لهذه الكلمات لأنّ المغاربة بطبعهم يرهبون الأتراك رهبة شديدة ، وخصوصاً الجند منهم والجنود الترك في غاية الوقاحة ويعاملون المغاربة بمنتهى العجرفة وكأنّهم عبيدهم .فطلب الحاج مراد من ابنته أن تدخل البيت وتغلق على نفسها ، بينما يغدو هو للتكلّم مع هؤلاء الكلاب . ثمّ قال : « وأنت يانصراني ، اخطف أعشابك وامشي ، والله يوصّلك الى بلادك في أمان » . فانحنيت انحناءة عميقة ، وذهب هو للتكلّم مع الأتراك ، وتركني وحدي مع ثريا التي تظاهرت بالذهاب . ولكن لم يكد أبوها يختفي وراء الأشجار حتّى عادت اليّ وعيناها مليئتان بالدموع وقالت : « أنت[2] ماشي ، يا نصراني أنت ماشي ؟ » أي « هل أنت ذاهب يا نصراني ؟ هل أنت ذاهب ؟ » .

فقلت لها : « نعم ياسيّدتي ، لكن ليس من غيرك أبداً : انتظريني يوم الجمعة ولاتخافي حين ترييننا ، ولاشك أننا سنصل الى بلاد النصارى » .

وكلّمتها بحيث تفهم كل ماقلته لها : ثمّ أحاطت رقبتي بذراعها وبدأت تسير نحو بيتها بقدم مرتجفة . وفي هذا الموقف ، الذي كان من الممكن أن يصبح كارثة علينا ، لولا أنّ السماء دبّرت أمراً آخر ، رأينا أبوها يعود ، وأدركنا تماماً أنه رآنا : ولكنّ ثريّا ، لفطنتها ، بدلاً من أن تسحب زراعها ، مالت عليّ أكثر ، وتركت رأسها يسقط على صدري ، وثنت ركبتيها قليلاً ، كأنها أصيبت بإغماء ، بينما بدوت أنا لا أسندها إلا رغماً عنّي . فأسرع

---

(١) « والله » بالعربية في النص الاسباني .

(٢) « أنت ماشي بالعربية في الأصل الاسباني .

أبوها ، وسأل ماذا بها ، ولمّا رأى أنها لاتجيب قال : « لاشك أن الفزع ، الذي أحدثه هؤلاء الكلاب ، هو الذي تسبّب في إصابتها بإغماء » . وأخذها بين ذراعيه ، وقالت لي وهي تتنهّد تنهّداً عميقاً : « أنت تمشي[1] يانصراني ، أنت تمشي » ، أي : « امش يانصراني ، امش » .

فقال الحاج مراد : « ماذا يهم أن يمشي! إنه لم يسئ اليك . اهدئي يا ابنتي ، لقد مشى الأتراك : ولا أحد هنا يمكن أن يسيء اليك » .

فقلت بدوري : « أنت على حق ياسيّدي : نعم هؤلاء الأتراك هم الذين جعلوها تضطرب ، لكن مادامت تريد منّي أن أمض ، فإنّي لا أريد أن أعارضها .

السلام عليكم . بإذنكم ، سأعود لإقتطاف الأعشاب من بستانكم : لأنّ سيّدي يقول أنه لاتوجد أعشاب أفضل مما عندكم » .

فقال الحاج مراد : « يمكنك أن تحضر متى تشاء . إنّ ماقالته ابنتي لاشأن له بك ولابسائر النصارى! لقد أرادت أن يذهب الأتراك ، وفي اضطرابها ظنّتك واحداً منهم ، أو أرادت أن تنبهك الى الذهاب لاقتطاف الأعشاب » .

وفي الحال تركتهما ، وتبعت ثريا أباها ، وبدت في غاية الاضطراب أمّا أنا ، فبحجة اقتطاف أعشاب اخترقت البستان كلّه ، ولاحظت بعناية المداخل والمخارج ، والمقاومة التي يمكن أن تصدر عن البيت ، والتسهيلات التي يمكن الإفادة منها في تنفيذ الخطة . وذهبت بعد ذلك أخبر المهتدي والآخرين بكل مافعلته . وكنت في لهفة شديدة جداً الى الاستمتاع في أمان بالنعمة التي وهبنيها الحظ السعيد بامتلاك ثريا الجميلة . وأخيراً مضى الوقت ، وجاء اليوم بل اللحظة التي طالما تمنّيتها : وبفضل الإحتياطات والاجراءات التي أملاها علينا التفطّن والتفكير الناضج حصلنا على كل النجاح الذي رجوناه . فغداة اليوم الذي تكلّمت فيه مع ثريا جاء المهتدي وألقى مراسيه تحت أسوار البستان . وكان كل المجذفين النصارى في أماكنهم ، مختبئين في مواضع عديدة ، وملؤهم القلق ، وعلى أهبة الاستيلاء على السفينة التي شاهدوها ، لأنهم كانوا يجهلون تواطئي مع المهتدي ، وظنّوا أنه بالقوّة يجب علينا أن نسترد حرّيتنا ، بأن نذبح المغاربة الذين في السفينة . ووصلت بعدهم بوقت قصير ومعي رفاقي ، فلمّا رأونا أقبلوا للانضمام إلينا . وكانت أبواب المدينة مغلقة ، ولم يظهر أحد في النواحي القريبة . ولم ندر بماذا نبدأ حينما ظهر المهتدي ، وقال لنا أنه آن الوقت للتأكّد

---

(١) « أنت تمشي » بالعربية في الأصل الاسباني .

من المغاربة ، الذين كان معظمهم نائمين لا يعرفون شيئاً ، وقال أن المهم جداً هو أن نستولي على السفينة ، وهو أمر نستطيع القيام به بسهولة وبغير خطر ، وعلينا بعد ذلك أن نذهب الى ثريا . وبدا لنا أن هذا هو الرأي الأسلم . فقدمنا الى السفينة : فوثب فيها أوّلنا ، وامتشق سيفه ، وصاح باللغة العربية : «لايتحرّك أحد ، وإلا قضي على حياته!» وفي الوقت نفسه ظهر النصارى ، والمغاربة ، وهم قليلو الشجاعة ولم يكن معهم سلاح تقريباً ، لمّا سمعوا رئيسهم يقول هذه الكلمات ، لم يبدوا أية مقاومة ، وتركوا النصارى يوثّقون أيديهم وهم يهدّدونهم بالذبح لو صرخوا أقل صرخة . وبعد اتخاذ هذا الإجراء تركنا نصف رجالنا لحراسة السفينة ، ثمّ سرنا ، يقودنا المهتدي دائماً ، نحو بستان الحاج مراد وكنّا نظن أننا سنضطر الى دفع الباب بالقوة ، ولكننا فتحناه بكل سهولة وهكذا تقدّمنا في صمت نحو البيت دون أن يرانا أحد .

« وكانت ثريا الجميلة تنتظرنا في النافذة ، فلمّا أبصرتنا سألتنا بصوت خفيض هل نحن نصارى . فأجبت : نعم ، وتعرّفتني ، ونزلت في الحال ، وفتحت الباب ، وبدت لعيوننا في روعة من الصعب وصفها . قبّلت يدها ، وفعل الباقون مثلي ، وبدونا كما لو كنّا نشكر لها تحريرنا . وسألها المهتدي بالعربية ، هل أبوها في البيت .

فأجابت : «نعم ، نائم» .

فقال : « سيكون من الضروري إيقاظه وأخذه معنا . وعلينا أن نأخذ كل ماهو مفيد هنا » .

فقالت : « كلا ، لا أريد أن يمس إنسان أبي . وليس في البيت أكثر مما أحمله ، ومعي ما يكفي لجعلكم جميعاً أغنياء سعداء . انتظروا لحظة » .

ولمّا قالت هذه الكلمات دخلت البيت وأوصتنا بالصمت وقالت أنها ستعود بعد قليل . واستحلفت المهتدي ألا يفعل شيئاً ضد رغبة ثريا التي عادت في الحال تحمل صندوقاً مليئاً بالذهب ، وكان ثقيلاً بحيث كانت تحمله بعناء . وشاء سوء الحظ أن يستيقظ أبوها في هذه اللحظة ، وسمع الضجة التي أحدثناها ، وظهر في النافذة ، فلمّا شاهد كوكبة من النصارى راح يصرخ بالعربية : «الى النصارى! الى النصارى! الى اللصوص!» .

أحدثت هذه الصيحات فزعاً شديداً في نفوسنا ، ولكن المهتدي ، وقد رأى الخطر الذي نحن فيه ، وضرورة الإنتهاء من مهمّتنا قبل أن نكتشف ، صعد بسرعة حيث كان الحاج مراد ، صعد ومعه بعض رجالنا ، لأنّي أنا لم أجسر على ترك ثريّا التي أغمي عليها بين ذراعيّ . وأفلحوا في العملية بمهارة حتّى ظهروا بعد لحظة ومعهم الحاج مراد ويداه موثقتان وعلى فمه منديل ، وهدّدوه بالقتل إذا فتح فاه . فلمّا رأته ابنته وضعت يداها على

عينيها حتّى لاتراه أمّا هو فقد وقف مرتبكاً مرتجاً عليه ،لايدري هل كانت ابنته بين أيدينا بإرادتها واختيارها . لكن لمّا كانت اللحظات ثمينة ،فقد ألقينا أنفسنا بسرعة في السفينة ، حيث كان الآخرون في انتظارنا ، خوفاً من أن يقع لنا شر . وكانت الساعة أوشكت على الثانية بعد منتصف الليل حينما اجتمعنا كلنا في السفينة . هناك فككنا وثاق الحاج مراد ، ورفعنا المنديل عن فمه ، مهدّدين إيّاه دائماً بالقتل لو نطق بكلمة . لكنه حين شاهد ابنته تنهد بحنان ، خصوصاً وقد رآني أضمّها ضمّاً وثيقاً دون أن تقاوم ، ولأن تدافع عن نفسها ولأن تشكو ، ومع ذلك لم يجرؤ على الكلام خوفاً من تهديدات المهتدي . ولكنّ ثريّا لمّا أبصرت أننا أخذنا الأهبة للتجديف ، توسّلت الى المهتدي أن يطلب منّي إطلاق سراح أبيها ، وحلّ وثاق المغاربة ، وقالت أنها تفضّل أن تلقي بنفسها في البحر على أن ترى أباها الذي يعزّها أسيراً بسبب حبّها . فأبلغني المهتدي هذا الالتماس فوافقت عليه عن طيب خاطر ، لكنّه نبّهني الى أنه لم يأن الأوان بعد ، لأننا لو أطلقنا سراحهم في هذا المكان لاستغاثوا واستنجدوا وأهاجوا أهل المدينة ، وهؤلاء سيطاردوننا بمركب سريع ، ولن نستطيع الإفلات منهم ، وأنّ كل مانستطيع فعله هو أن نطلق سراحهم عندما نصل الى أوّل بلد مسيحي . وكان الجميع على رأيه هذا ، وثريا نفسها وافقت على ذلك بعد أن أبدينا لها الأسباب . وهكذا أخذالمجدفون الأشداء في العمل ، وتوكّلوا على الله وتوجّهوا الى جزيرة ميورقة ، وهي أوّل أرض مسيحية . ولكن ريح الشمال أهاجت الموج فلم يكن في مقدورنا إتخاذ هذا الطريق ، ورأينا أنفسنا مضطرّين الى المساحلة في مواجهة وهران ، لشدة أسفنا ، لأننا خفنا أن نشاهد من شرشال التي تقوم على هذا الساحل على مسافة ستّين ميلاً من الجزائر . وكذلك خفنا أن نلاقي في هذه النواحي بعض البوارج القادمة محمّلة من تطوان ؛ لكن لم يشك أحد في أننا لو لاقينا مركباً محمّلاً بالبضائع ، بشرط أن يكون مسلّحاً ، فإننا ليس فقط لن نستسلم بل على العكس سنستولي على هذا المركب الذي من شأنه أن ينجز رحلتنا بأمان أكبر .

«وبينما كنّا نسير كانت ثريا تضع رأسها بين يدي حتّى لاترى أبيها وسمعتها تدعو للا مريم . وكنّا قطعنا ثلاثين ميلاً حين طلع النهار ونحن على مسافة ثلاثة مرامي بندقية من الأرض التي بدت لنا خالية ، لم نشاهد عليها أحد يمكن أن يرانا ويكشفنا . وبفضل المجاذيف دخلنا في الماء أكثر وأكثر . إذ صار البحر أقل هيجاناً ، وعلى مسافة فرسخين أبعد أمر الملاحون بالتجديف الخفيف ، بينما كنّا نتناول بعض الغداء ، وكانت السفينة محمّلة بالأطعمة . ولكن المجذّفين قالوا لنا أنّ الوقت لم يئن بعد للإستراحة ، ولم يشاءوا

ترك التجذيف ، ولهذا كان يطعمهم أولئك الذين لم يكونوا يجدفون . وبعد ذلك هبّت ريح مواتية ، اضطرّتنا الى مد الشراع وترك التجديف ، دائماً في اتجاه وهران لأننا لم نستطع اتخاذ طريق آخر .

« وتمّت المناورات بسرعة : فجعلنا الشراع نسير بسرعة ثمانية أميال في الساعة ، دون أن نخشى شيئاً غير الإلتقاء بأحد القراصنة . وقدّمنا الطعام للمغاربة . وكان المهتدي (المرتد) يواسيهم ويقول لهم إنهم ليسوا أسارى ، وأنه سيطلق سراحهم عند سنوح أوّل فرصة . وقال نفس القول لوالد ثريا الذي أجاب عليه قائلاً : « في وسعي ، أيها النصارى ، أن أتوقّع أي شيء آخر من كرمكم ، لكن لاتظنّوا أنّي من السذاجة بحيث أعتقد أنكم ستطلقون سراحي : إنكم لم تسلبوني حرّيتي تحت التعرّض لكل الأخطار من أجل أن تمنحوني إيّاها بكل هذا السخاء ، خصوصاً وأنتم تعرفون من أنا وماذا تكسبون بجعلي أفتديها . فإذا شئتم تحديد فديتي فإنّي أقدّم لكم كل ماتطلبونه منّي ومن ابنتي البائسة ، أو من أجل فداء ابنتي وحدها وهي أعز وأعظم أجزاء روحي » .

وكان وهو يقول هذه الكلمات يذرف أحرّ العبرات حتّى تأثّرنا جميعاً شفقة عليه ورحمة . ولمّا رأته ثريا على هذه الحال لم تتمالك نفسها : بل عادت لتقبيله ، ومزجت عبراتها بعبراته ، وهزّت كياننا تأثّراً لها . هنالك أبصر الحاج مراد أنها متزيّنة زينة العيد وعليها كل أصناف الجواهر . فقال لها :

ـ ما هذا ؟ بالأمس مساء ، قبل مصيبتنا هذه ، رأيتك بملابس عارية والآن ، دون أن يقع لنا حادث يستحق الإحتفال به ، أراك لابسة مااستطعت اعطاءك إيّاه في أيّام نعيمنا . أجيبي عليّ . إنّ هذا يدهشني أكثر من مصيبتي هذه .

وكان المهتدي (المرتد) يترجم لنا كل هذه الأسئلة ، ولكنّ ثريا لم تجب بكلمة واحدة . وأخيراً لمح المغربي (الحاج مراد) في زاوية من السفينة ، الصندوق الذي تحفظ فيه ابنته جواهرها ، وهو يعرف أنه تركه في الجزائر ، لأنه لم يرد أن يأتي به الى البستان . فازدادت دهشته وسألها كيف وقع هذا الصندوق في أيدينا ، وماذا فيه . فقال المهتدي (المرتد) ، دون انتظار لجواب ثريا : « لا تعذّب ابنتك ياسيّدي بكل هذه الأسئلة . إنّ جواباً واحداً يكفيك : ألا فلتعلم أن ثريا نصرانية ، وهي التي كسرت أغلالنا » .

فقال المغربي : هل هذا صحيح يابنيّتي ؟

فأجابت ثريا : نعم!

فقال : ماذا! أنت نصرانية ؟ وأنت التي أسلمت أباك الى قبضة أعدائه ؟!

فأجابت : صحيح أنا نصرانية ، لكنّي لست أنا السبب في أسرك : لم يكن في نيّتي أن أتركك ولا أن أصيبك بأي سوء ، وإنّما أردت فقط أن أسعى الى خير لنفسي .

ـ وأي خير تظنّين أنك وجدته ؟

ـ اسأل عنه للا مريم : فستخبرك خيراً منّي .

ولدى سماع هذه الكلمات ألقى المغربي (الحاج مراد) بنفسه في البحر بسرعة لاتصدّق ، ملقياً برأسه أوّلاً ، وكان سيغرق لولاأن جلبابه الطويل أمسك به على الماء . فصرخت ثريا صرخة : فأسرعنا كلّنا : وأمسكنا بأبيها من قفطانه وأنقذناه بغير شعور . وراحت ثريا تولول كما لو كان قد مات . فقلبناه على بطنه لنجعله يقيء الماء الذي ابتلعه ، ثم عاد الى رشده والى الحياة بعد ساعتين .

« في هذه الأثناء تغيّرت الريح مرة أخرى وجرّتنا الى البر الذي لم نستطع تجنّبه الا بقوة التجديف . وأخيراً ساقنا الجد السعيد الى جون يكوّنه اللسان الذي يسمّيه المغاربة باسم « القحبة الرومية »[1] أي الفاسقة المسيحية . وتروي الأخبار أن المرأة التي أضاعت اسبانيا على المسلمين مدفونة في هذا المكان . و« القحبة » هي المرأة الفاسقة ، والرومية : أي المسيحية . وهذا الموضع مشؤوم عند المسلمين . فلا يتوقفون عنده أبداً إلا إذا اضطرّوا الى ذلك اضطراراً ، لكنه بالنسبة إلينا كان مرفأ أميناً ضد العواصف . فوضعنا حرّاساً على البر دون أن نغادر المجاذيف ، وتناولنا وجبة طعام خفيفة ، وتوكّلنا على الله والعذراء . واستحلفتنا ثريا مرة أخرى أن نترك أباها على البر هو وباقي المغاربة ، لأنها كانت تتألّم أشد الألم من رؤيتهم أسارى موثقين . فوعدناها أن نفعل ذلك قبل أن نرحل ، لأنه لم يكن في هذا المكان الخاوي الذي كنّا فيه أي خطر من إطلاق سراحهم . وأخيراً تحقّقت أمنيتنا وصار البحر هادئاً ، والريح مواتية ، وكان كل شيء يدعو الى مواصلة السير في طريقنا . فحللنا وثاق المغاربة وأنزلناهم الى البر واحداً إثر واحد ، وهو أمر دهشوا له كل الدهشة ، لكن حين جاء دور والد ثريا وكان قد استعاد حواسه قال :

ـ « لأي سبب أيها النصارى ، تظنّون أن هذه المخلوقة الشرّيرة تريد أن يطلق سراحي ؟ أتظنّون أنّ الرحمة هي التي دفعتها ؟ كلا ، وأيم الله ، بل هو العار والخزي اللذان يسبّبهما لها حضوري لتنفيذ نواياها الفاسدة . ولاتعتقدوا أنّها بدّلت دينها لأنها وجدت دينكم أفضل بل لأنها تعرف أنّ النساء في بلادكم ينعمن بحرّية أكبر مما في بلادنا » .

---

(١) بالعربية في الأصل الاسباني .

ثمّ تلفّت الى ثريا بينما كان نصراني آخر وأنا نمسك به من ذراعيه خوفاً من أن يندفع أية اندفاعة ، وقال لها :

ـ «يافاسدة ، يامخدوعة . الى أين تذهبين أيّتها العمياء ، بين هؤلاء الكلاب ، وهم أعداؤنا الطبيعيّون ؟ لعن الله الساعة التي ولدتك فيها! ولعن الله مابذلت لك من رعاية منذ طفولتك! » .

فلمّا رأيت أنه لم يفرغ من شكاواه ، أنزلته الى البر بسرعة ، فاستمر في لعناته ، متشفّعاً (بالنبي) محمد أن يهلكنا الله ، ولمّا أبحرنا ولم نعد نسمع صيحاته بعد ، شاهدناه يشد شعره ، وينتف لحيته ، ويتلوّى على التراب . وفي لحظة علا فيها صوته وصار مسموعاً ، التقطنا هذه الكلمات . «عودي ، يا ابنتي العزيزة ، عودي ، وسأغتفر لك كل شيء . اتركي هذا المال لأولئك الناس ؛ وقد صار فعلاً في حوزتهم . ارجعي لتواسي قلب والدك الحزين ، الذي سيلفظ أنفاسه في هذه الفلوات لو تركته ولم تعودي» . وكانت ثريا تصغي اليه وتبكي ولم تستطع أن تجيب إلا بهذه الكلمات : «ياأبي! جعل الله للا مريم ـ وهي السبب في اعتناقي المسيحية ـ تعزّيك في حزنك . والله يعلم حق العلم أنني لم أستطع الإمتناع عن فعل مافعلت ، وأنّ النصارى لم يرغموني على ذلك ، لكنّي لم أقو على مقاومة الرغبة في ترك بلادي والذهاب معهم ، لأنّي كنت متلهّفة الى فعل ماأعتقد أنه الخير وماتراه أنت هو الشر بعينه» . واستمرّت في الكلام وهو لايسمعها ، ونحن لم نعد نستطيع أن نراه . وعجّلت اليها لمواساتها .

«واستمررنا في طريقنا ، وكانت الريح مواتية جداً الى حد أننا كنّا متأكّدين أننا سنبصر في الغد شواطئ اسبانيا ، لكن لمّا كان من النادر أو بالأحرى لايأتي الخير أبداً إلا مصحوباً أو متبوعاً بشر يعكّر صفوه ، أو ربّما نتيجة للعنات التي أطلقها المغربي (الحاج مراد) ضد ابنته ، ويجب على المرء أن يخشى لعنة الوالد من أي والد جاءت ، فإنه حدث في الساعة الثالثة ليلاً ، ونحن في عرض البحر ، نسير والشراع منشور ، والمجاذيف معلّقة ، لأن الريح المواتية جعلتها بغير فائدة ، شاهدنا على ضوء القمر بالقرب منّا ، مركباً مستديراً يسير أمامنا قريباً جداً منّا وكل أشرعته منشورة . وكنّا قريبين جداً منه الى حد أن اضطررنا الى جذب شراعنا حتّى لانصطدم بذلك المركب ، وهو ، من ناحيته ، ضغط على الدفّة ليسمح لنا بالمرور . وكان بحّارته قد وقفوا على المركب ليسألونا من نحن والى أين نحن ذاهبون ، ومن أين أتينا . لكن لمّا كانت هذه الأسئلة باللغة الفرنسية ، قال المهتدي (المرتد) : «لاتجيبوا ، لاشكّ أنهم قراصنة فرنسيّون ، وهم لا يرحمون أحداً» . فمررنا

دون أن ننطق بكلمة ، وتركنا مركبهم تحت الريح ، لكنّ في اللحظة نفسها أطلق علينا مدفعاً قذائفه فيما يبدو مسلسلة[1] ، لأنه شقّ ساريتنا نصفين ، فهوت في الماء مع الشراع ، ثمّ أطلق طلقة أخرى خرقت سفينتنا دون أن تجرح أحداً ، وفي الحال تدفق الماء في سفينتنا ، ولمّا رأينا أنفسنا نوشك على الغرق في الأعماق ، أطلقنا صيحات عالية وطلبنا النجدة ، متوسّلين إليهم أن يأتوا لإنقاذنا لأننا نغرق . فجذب رجال المركب أشرعتهم ، وأنزلوا الزورق في البحر ، ووثب فيه إحدى عشر فرنسيّاً ، مسلّحين بالبنادق ذوات الفتائل المشتعلة ، واقتربوا منّا . فلمّا رأوا قلّة عددنا ، انتشلونا قائلين لنا أنّنا ينبغي علينا ألا نعزو مصيبتنا هذه إلا الى قلة أدبنا .وأخذ المرتد صندوق ثريا ، وألقى به في الماء دون أن يراه أحد . وانتقلنا جميعاً الى مركب الفرنسيين ، الذين بعد أن سألونا مايريدون من أسئلة جرّدونا من كل شيء كما لو كنّا ألد أعدائهم . وانتزعوا من ثريا كل ما عليها حتّى خلاخيلها ، وكان أخوف ما أخافه عليها هو أن يسلبوها شيئاً هو أعز وأثمن بآلاف المرّات ، لكن هؤلاء الناس لا يريدون غير المال ، إنهم شرهون الى المال الى حد أنهم كانوا سينتزعون من الأسرى (نحن) ملابسهم لو عرفوا أنّ فيها أدنى فائدة .

«وبعد هذه المغامرة ، تشاوروا فيما بينهم ، وكان من رأي الكثيرين منهم أن يلقوا بنا في البحر ، مكفّنين في شراع ، لأنّه كان في نيّتهم أن يتاجروا على شواطىء اسبانيا مدّعين أنهم بريتانيّون ، فلو أنزلونا الى البر أحياء لأكتشفت سرقتهم وعوقبوا . ولكن القبطان ، وهو الذي جرّد ثريا قال أنه يكتفي بالغنائم التي ظفر بها ولايريد أن يلمس أي ميناء اسباني ، وأنّ نيّته هي أن يتابع السير في طريقه ويجتاز في الليل مضيق جبل طارق ليعود الى مدينة لاروشل التي بدأ السير منها . وقرّروا إذن أن يتركوا لنا زورقهم وكل ما يلزم لابحارنا القصير ، وفعلوا ذلك حين صرنا على مرأى من سواحل اسبانيا ، وهذا المرأى أشاع في نفوسنا فرحاً عظيماً جداً الى حد أنه جعلنا ننسى كل مصائبنا وشقائنا ، لأن استعادة الحرّية أمر يبعث في النفس أعظم الرضا .

«وكان الوقت قرب الظهيرة حينما أنزلونا في الزورق وأعطونا برميلين من الماء وقليلاً من البسكويت . والقبطان ، وقد تأثّر بما لاأدري من الشفقة على ثريا الجميلة أعطاها أربعين اسكودو ذهبيّاً ، ولم يوافق على أن ينتزع منها جنوده ملابسها ، وهي هذه التي ترونها عليها الآن أمامكم .

---

(١) القذائف المسلسلة ، كانت قذائف مضمومة الى بعضها بسلسلة أو قضيب ، الخ وكانت تستخدم لكسر سواري مراكب الأعداء .

ونزلنا القارب إذن ، ودون أن نظهر أية موجدة شكرنا لهم ماأسدوه الينا من معروف . وتوجّهوا هم الى عرض البحر ، وتابعوا طريق مضيق جبل طارق . أمّا نحن فلمّا كانت غايتنا الوحيدة هي البر الذي تبدّى أمام نواظرنا ، أخذنا في التجذيف بقوة هائلة حتّى قدّرنا عند مغرب الشمس أننا سننزل الى البر قبل الظلام . لكن لمّا لم يكن ثمّ قمر ، وكانت السماء ملبّدة بالسحاب ، ولم ندر من أية ناحية نحن ، ظهر لنا أنه ليس من الحكمة أن ننزل الى البر ، وإن كان البعض رأى أن من الأفضل النزول ، ولو بين الصخور ، بعيداً عن المدن والقرى ، خوفاً ـ وهو خوف له مايبرّره ـ أن يكون ثمّ حراس القراصنة التطوانيين ، لأنهم في المساء يكونون في بلاد المغرب ، وفي الصباح يشاهدون على شواطىء اسبانيا ، حيث يقومون بنهب عظيم ، ثمّ يعودون للنوم في منازلهم . وأخيراً تقرّر أن نقترب شيئاً فشيئاً ، وإذا سمح هدوء البحر ، ننزل حيث نستطيع النزول . وقد كان .

«وقرابة منتصف الليل كنّا عند سفح جبل وعر ، بينه وبين البحر مسافة تسمح بالنزول . فوثبناعلى الشاطىء ، وقبّلنا هذه الأرض التي طالما تشوّقنا اليها ، وحمدنا الله على النهاية السعيدة لرحلتنا هذه . وأخذنا من الزورق زادنا ووضعناه على البر ، وصعدنا بعد ذلك شطراً من الجبل ، دون أن نستطيع التأكّد بعد هل نحن في بلد مسيحي . وأخيراً تنفّس الصبح ، متأخّراً عن موعده المعتاد فيما حسبنا . ومضينا في الصعود لنرى هل ثمّ مكان مأهول ، أو بعض أكواخ الرعاة ، ولكننا على مدى البصر لم نر ناساً ولاقرى ، ولاحتّى درباً مطروقاً . فقرّرنا المضي في السير ، لأنه بدا لنا من المستحيل ألا نلتقي بعد قليل بمن يدلّنا أين نحن . وأشدّ ماآلمني هو أن أرى ثريا تمشي على قدميها على هذه الصخور الوعرة الشديدة . وكنت أحملها أحياناً على كتفي ، ولكنّ خوفها من الأثقال كان يعذّبها أكثر مما يعذّبها التعب ؛ فكانت تفضّل المشي وهي تمسكني من يدي ، وأبدت بذلك رضا بالغاً .

«وأخيراً ، وبعد مسافة ربع فرسخ ، سمعنا صوت ناقوس صغير (شخشيخة) ، وهذا دليل يقيني على أننا بالقرب من قطيع يرعى ؛ فتلفّتنا في كل ناحية ، وشاهدنا عند أسفل سنديانة راعياً شاباً جالساً بهدوء يشذّب عصا بسكينته . ناديناه ؛ فرفع رأسه ، ولمّا شاهد ثريا والمرتد (المهتدي) بزي مغربي ، هرب بأقصى سرعة الى الغابة ، لأنه ظن ، كما عرفنا فيما بعد ، أن كل البربر المغاربة يطاردونه . جرى وهو يصرخ بأعلى صوته : «الى المغاربة! الى المغاربة! المغاربة قدموا الى البلاد!» فلمّا سمعنا هذه الصرخات بقينا حائرين لاندري ماذا نفعل ، لكن لمّا قدّرنا أن الراعي سيثير كل الناحية ، وأنّ فرسان السواحل لابد قادمون لاستكشافنا ، أسرعنا فنزعنا من المرتد ملابسه التركية ، وألبسناه خوذة عبد أعطاها له

أحدنا ، وبقي بقميصه . ووكّلنا أمرنا الى الله ، واقتفينا الطريق الذي اتخذه الراعي ، متوقّعين دائماً وصول الفرسان . ولم نخطىء في تقديرنا : فبعد مضي ساعتين ، ونحن نخرج من الشجيرات وندخل في السهل ، شاهدنا خمسين فارساً يركضون نحونا . فتوقّفنا في الحال لإنتظارهم . فاقتربوا منّا ، ولمّا لم يجدوا غير نصارى مساكين ، بدلاً من مغاربة ، سألونا هل نحن السبب في الذعر الذي أحدثه الراعي ونشره في الناحية . فقلنا نعم ، وبدأت أعرّفهم من نحن ، ومن أين أقبلنا ، وإذا بأحد رجالنا المسيحيّين ، وقد تعرّف الفارس الذي كان يكلّمني ، يقاطعني قائلاً : «الحمد لله ياسيّدي ، على أن هدانا الى هذا المرفأ الأمين ، لأنّه إذا لم يخطىء ظنّي ولم يجعلني الأسر أفقد ذاكرتي ، أعتقد أنّ البلد الذي نحن فيه هو مقاطعة بلش مالقة Velez Malaga ، وأنّك أنت ياسيّدي الفارس الذي تستجوبنا أنت بدرو دي بستامنته ، خالي» .

ولدى سماع هذه الكلمات نزل الفارس الى الأرض واثباً ، وجاء يقبّل الشاب ويقول له :

ـ نعم ، أنا أتعرّفك ، ياقرّة عيني ومناط محبّتي . لقد بكينا عليك مراراً وحسبناك قد مت ، أنا ، وأختي التي هي أمّك ، وكل أقاربك الذين لايزالون على قيد الحياة . وقد تفضّلت العناية الالهية فحفظت لهم أعمارهم حتّى يسعدوا برؤيتك من جديد . لقد عرفنا أنّك كنت عبداً أسيراً في الجزائر ، وإذا حكمنا بحسب ما تدل عليه ملابسك وملابس كل رفاقك لقلنا أنكم لابدّ نجوتم بمعجزة .

فقال الشاب : هذا صحيح : وسيكون لدينا وقت طويل للتحدّث في ذلك .

ولمّا سمع سائر الفرسان أننا نصارى عائدون من الأسر ترجّلوا ، وقدم الينا كل واحد منهم فرسه ليوصلنا الى مدينة بلش مالقة ، التي تبعد بمقدار فرسخ ونصف . وذهب البعض منهم للبحث عن زورقنا في المكان الذي خلفناه فيه ، لنقله الى المدينة ، والبعض الآخر أركبنا خلفه .

أمّا ثريا فقد ركبت خلف خال صاحبنا . وأقبل علينا كل سكان المدينة ، لأنهم أبلغوا بوصولنا . ولم يكن منظراً جديداً عليهم أن يشاهدوا مغاربة أسرى أو نصارى عائدين من الأسر : فإن قربهم من البحر كثيراً ماجلب اليهم الكثير منهم مراراً ، لكنّهم أعجبوا أيما إعجاب بجمال ثريا الذي أنعشته متاعب الطريق وفرحة الوجود في أمان في بلد نصراني . وكانت من الروعة بحيث بدا في نظري أن من المستحيل أن توجد امرأة أجمل منها . واقتادونا الى الكنيسة لشكر الله ، فلمّا دخلناها قالت ثريا أنها تبصر أشكالاً شبيهة بشكل للا مريم . فقلنا لها إنها صور لمريم . وفسّر لها المرتد ، قدر ما استطاع ، قداسة هذه

الصور حتّى تعبدها كأنّها مريم الحقيقية التي تجلّت لها . وكانت حادة الذكاء ففهمت ماقيل لها بسرعة . ووزعونا بعد ذلك على مختلف أعيان المدينة . واقتادنا ابن أخت بستامنته : المرتد وثريا وأنا الى أهله ، وهم قوم ميسورو الحال ، فعاملونا كما يعاملون أبناءهم . فبقينا عندهم ستّة أيّام ، بعدها مضى المرتد ، وقد استعلم عن بعض الأمور ، الى غرناطة ليعود الى حظيرة الكنيسة ، بمعونة ديوان التفتيش المقدّس . وعاد باقي النصارى الى أهليهم ، وبقيت وحدي مع ثريا ، وليس معنا من المال إلا المبلغ الضئيل الذي أعطاه لها الفرنسي ، وبه اشتريت الفرس الذي أوصلني الى هنا . ومنذ تلك اللحظة وأنا لها بمثابة والد ، وسائس ، لكنّي لست بعد زوجها . وسنغدو لنعرف هل مايزال أبي في قيد الحياة ، أو إذا كان أحد إخوتي أسعد منّي حظّاً ، وإن كنت أعتقد أن صحبة ثريا هي أعظم نعمة أنعمت بها السماء عليّ . إن صبرها على تحمّل الشدائد الناشئة عن البؤس ، وتلهّفها الى أن تصير نصرانية هما فوق كل تعبير ويكفيان لجعلي أخدمها طوال حياتي . ومع ذلك فالرضا الذي أشعر به للإنتماء اليها ، ولكونها في الوقت نفسه تحت سلطاني ، قد أضعفه عدم يقيني بأن أستطيع أن أجد في وطني ركناً من الأرض أستقبلها فيه ، أو أعثر على شخص ليعرفني ، إذا كان أبي وإخوتي قد فارقوا الحياة .

« هذا تاريخي ، أيها السادة ، ولست أدري هل شاقكم . وكان بودّي أن أرويه لكم على نحوٍ أوجز ، مع أنّ خوفي من املالكم حملني على حذف الكثير من التفصيلات » .

الفصل الثاني والأربعون

احداث جديدة تقع في الفندق، وامور اخرى خليقة بأن تعرف

فلمّا توقّف الأسير عن الكلام هنّأه دون فرنندو تهنئة حارة على تنوّع الحوادث التي يتألّف منها تاريخه ، وعلى الطريقة التي رواها بها . وقال له : « كل مافيه جديد وفريد ، وقد شاقنا الى حد أننا كنّا نود لو قضينا الليل بطوله نستمع لك » . وعرض كردنيو وكل الباقين عليه أن يقدّموا اليه كل مايشاء من خدمات ، بتلّهف جعله يعتقد بطيب نواياهم . ومن بين ماعرضه عليه دون فرنندو أن يأخذه معه ، واعداً بأن يكون إخوة المركيز اشبينا لثريا ، وأنه هو نفسه سيعمل على عودته مكرّماً معزّزاً الى وطنه فأزجى اليه الأسير كل شكر لكنه لم يشأ قبول هذه العروض السخية .

ثمّ بدأ النهار ينحدر والليل يقبل[1] حينما توقّفت عربة ، بصحبة عدداً من راكبي الخيول ، أمام باب الفندق . وطلب هؤلاء الرجال المبيت ، لكنّ صاحبة الفندق قالت أنه لايوجد أيّ جحر خالٍ في الفندق .

فقال أحد الفرسان : « ستجدين مكاناً لسيادة المندوب[2] الذي في هذه العربة » . وعند سماع هذا الاسم أجابت صاحبة الفندق ، وقد عراها اضطراب : « الحق إنه ليس عندنا سرير ، لكن إذا كان سيادة المندوب معه سرير ، كما أظن ، فيمكنه الدخول : وسنتخلّى له أنا وزوجي عن غرفتنا » .

فقال السائس : طيب .

في الوقت نفسه خرج من العربة رجل دلّ زيّه الطويل وأكمامه المشرّحة على أنه بالفعل

---

(١) يظهر أن ثربانتس قد نسي أن الليل قد أقبل منذ وقت طويل وانهم تناولوا العشاء وأن الأسير قضى زمناً طويلاً في رواية تاريخه الطويل!!

(٢) Oidor : قاضي في المحاكم يسمع الشكاوي ويفصل في الدعاوى .

المندوب . وكان يمسك بيديه فتاة في سن السادسة عشرة تقريباً ، في ثياب السفر ، جميلة لطيفة حتّى لينظر اليها بإعجاب ، ولاتقل جمالاً عن لوسنده ، وثريا ودوروتيه . وكان دون كيخوته حاضراً عندما وصل سيادة المندوب ، فلمّا رآه قال له : « يمكن سيادتك أن تدخل هذا القصر بكل أمان ، لأنه وإن يكن صغيراً وغير منظّم ، فليس ثمّ مضايقة لاتسلم للآداب السلاح ، خصوصاً إذا كان يحدوهما الجمال ، الذي ينبغي على القصور أن تفتح أمامه ، والصخور تنشق ، والجبال تمهّد لاستقباله . فادخل اذن ياسيّدي في هذه الجنّة : فستجد فيها شموساً جديرة بالسماء التي تصحبك ، وأسلحة بكل بريقها ، وجمالاً بكل روعته» . فاندهش المندوب من هذا الكلام ، وأخذ يتفحّص دون كيخوته ، ووجد شخصه ليس أقل غرابة من كلماته . ولم يعرف بماذا يجيبه ، لكنه ازداد دهشة حينما أبصر لوسندة وثريا ودوروتيه اللواتي هرعن لاستقبال الفتاة التي بالغت صاحبة الفندق في وصف جمالها . وحيّاها دون فرنندو وكردنيو والقسّيس أطيب تحية . فدهش من كل مارأى ، وكل ماسمع ، وقدّر أن الجماعة تتألف من ناس ذوي صفة ، لكن شكل دون كيخوته ولباسه وحركاته جعله يتشتّت عقله . وبعد تناول التحيّات بين الجانبين ، تقرّر أن تتجمّع كل السيدات في غرفة واحدة ، كما اتفق على ذلك من قبل ، وأن يظل الرجال في الخارج لحراستهن . فأرسل المندوب إذن بنته مع سائر السيّدات . وبجزء من سرير صاحب الفندق الضيّق ونصف سرير المندوب رتّبوا أمورهم هذه الليلة خيراً مما ظنن . ولم يكد الأسير يلمح المندوب حتّى قالت له دقّات قلبه أنه هو أخوه . فسأل أحد رجاله ماسمه ومابلده : فأجاب الخادم أن اسمه خوان بيرث دي بيدما ، وأنه سمع أنّ سيده من جبال ليون ، فأكدت له هذه الإجابة أنّ المندوب أخوه الذي اتخذ حرفة الآداب وفقاً لنصيحة أبيه . فسرّ كل السرور لهذا الاكتشاف ، وانتحى بكردنيو ودون فرنندو والقسّيس ، وأخبرهم بما اكتشفه ، مؤكّداً لهم أنّ المندوب أخوه . وكان الخادم قد قال له أنه عيّن مندوباً في الهند (امريكا) في محكمة المكسيك ، وأنّ البنت بنته وقد ماتت أمها وهي تضعها وتركت لزوجها البائنة الكبيرة التي أتت بها في الزواج . فسألهم الأسير ماذا يعمل ليكشف عن شخصيّته لأخيه ، وهل ليس من الأوفق التأكّد أوّلاً من عواطف أخيه نحوه ، خوفاً من أن يخجل المندوب من رؤية أخيه فقيراً هكذا . فقال القسّيس : «دعني أحاول هذه المحاولة وإن كنت لاأشك أبداً في أنه سيستقبلك خير استقبال ، لأن الحكمة والفطنة اللتين يكشف عنهما أخوك يبدو أنهما تشهدان على أنه ليس عنده تلك الكبرياء الحمقاء التي تجعلنا نحتقر أولئك الذين اضطهدهم الحظ» . فأجاب الأسير : « ورغم ذلك ، فإنّي لاأريد أن أكشف عن نفسي فوراً » . فقال القسيس : « أكرّر لك أنني سأرتب الأمور على النحو الذي يرضيك» .

وفي تلك الأثناء وضع الطعام على المائدة ، وأخذ جميع الرجال في تناول العشاء ، ماعدا الأسير فقد أكل مع السيّدات في غرفتهن . وفي منتصف الأكل ، قال القسيس : « سيّدي المندوب ، كان لي في القسطنطينية حيث كنت أسيراً لعدة سنوات خلت ، زميل اسمه كأسمك ، وكان من أشجع نقباء المشاة الاسبان ، لكنّ شجاعته وبسالته لم تزيداه إلا شقاءً » . فسأله المندوب : « وماذا كان اسم هذا النقيب ؟ » فأجاب القسّيس : « كان يدعى روي بيرث دي بيدما ، ولد في قرية بجبال ليون ، وروى لي عن أبيه وإخوته حكاية عجيبة لولاأن قائلها رجل صدوق لعددتها من تلك الخرافات التي تروى عند المدفأة إبان الشتاء . قال لي أنّ أباه وزّع كل أمواله بين أولاده الثلاثة ، وأسدى لهم نصائح أحكم من نصائح كاتو ، وأنه اتخذ مهنة السلاح ونجح فيها حتّى أنه بعد قليل من السنوات ، وبغير عون إلا شجاعته وبسالته ، صار نقيباً في سلاح المشاة ، وكان على وشك الحصول على رتبة قائد عسكري ، لكن عاكسه الحظ وهو في أوج أمانيه لأنه فقد حريته في يوم معركة ليبانته السعيد ، وهو الذي حرّر الكثيرين من الأسرى . أمّا أنا فقد أسرت في حلق الواد ، وبعد ذلك ، من خلال أحداث عديدة ، صرنا زملاء الشقاء في القسطنطينية . ثم جاء بعد ذلك الى الجزائر ، حيث وقعت له أغرب الأحداث » .

ثمّ روى له القسّيس بإيجاز كل ماجرى بين ثريا وأخي المندوب وكان هذا يصغي اليه بانتباه بالغ . ومضى القسّيس في روايته حتّى اللحظة التي جرّد فيها الفرنسيّون المسيحيّين الموجودين في السفينة ، ووصف ماعاناه زميله وثريا من بؤس وشقاء ، وختم قائلاً إنه لايدري هل وصلا الى اسبانيا أو ساقهما القراصنة الى فرنسا . واستمع الأسير ـ وكان منتحياً ناحيته ـ الى كل ماقاله القسّيس ، وتابع بعينيه كل حركات أخيه فلمّا رأى هذا أن القسّيس توقّف عن الكلام تنهّد تنهيدة عميقة وصاح وعيناه مليئتان بالدموع : « آه! ياسيّدي! لو عرفت أية أخبار أخبرتني بها ، وكم هي تمسّني وتؤثّر في نفسي! إن هذه الدموع التي تراني أذرفها تفصح لك عن ذلك بما فيه الكفاية . إنّ هذا النقيب الشجاع الذي حدّثتني عنه هو أخي الأكبر ، وكان أشجع منّي ومن أخي الآخر وأكثر ولعاً بالمغامرة ، فاختار مهنة السلاح الشريفة ، وهي إحدى المهن الثلاث التي اقترحها علينا أبونا ، كما قال لك زميلك . أمّا أنا فقد اخترت مهنة الأداب ، وقد وصلت فيها بفضل الله والاجتهاد الى المرتبة التي تراني فيها . أمّا أخي الأصغر فهو في بيرو ، وقد أثرى الى حد أن ما أرسله إلينا من مال سدّد به ماأخذه من نصيب وأعطى والدي من المال مامكّنه من إشباع سخائه الطبيعي ، ويسّر لي أن أتابع الدراسة بيسر أكبر وكرامة أوفر . ولايزال أبي في قيد الحياة ، لايطمع إلا

في سعادة أن يرى ابنه الأكبر ، ويدعو الله دائماً ألا يفارق الدنيا قبل أن يحتضنه بين ذراعيه . لكنّ مايدهشني هو أنه في وسط كل هذه الأشغال ، لم يبعث بأخباره الى والدي وماجرى له من خير أو سوء ، رغم أنه رجل عاقل فطين : لأنه لو أنّ والدي أو أحدنا قد تلقّى أنباء عنه ، لما كان أخي في حاجة الى معجزة العصا ليفتدي نفسه . وأخشى تماماً ألا يكون هؤلاء الفرنسيّون قد أطلقوا سراحه ، أو أن يكونوا قد قتلوه لإخفاء نهبهم . وهذا القلق الفظيع سيكون سبباً في ألا أتابع سفرتي بنفس اللذة التي شعرت بها منها حتّى الآن ، بل وأنا في غم وحزن . أي أخي الطيّب ، ليت شعري أين أنت الآن ؟ سأغدوا للبحث عنك وإنقاذك حتّى لو خاطرت في سبيل ذلك بحياتي . ولو كان والدي الشيخ العجوز يعلم أنك لاتزال حيّاً ، حتّى لو كنت معتقلاً في أخفى سجون بلاد البربر ، لأستنقذك بأمواله وأموالي أو أموال أخي . وأنت يا ثريا الجميلة السخية ، من ذا الذي يستطيع أن يجازيك عمّا أسديت لأخي من معروف ؟ وما أسعدنا أن نحضر هذا الزفاف الذي سيملؤنا بغاية الرضا!» وكان المندوب ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، يكشف عن حزن عنيف ، حتّى تأثّر من سماعه كل الحاضرين .

لكنّ القسّيس لمّا رأى أن براعته صادفت نجاحاً عظيماً بالنسبة الى قضية الأسير ، شاء أن يضع حدّاً للحزن المشترك : نهض من المائدة ، وانتقل الى الغرفة الأخرى ، وأمسك بثريا من يدها ، وتبعتها لوسنده ودوروتيه وابنة المندوب . وباليد الأخرى أمسك الأسير ، وأتى بكليهما الى المندوب وقال له :

ـ خفّف دموعك : فهذا هو أخوك الطيّب وهذه هي زوجة أخيك العزيزة . إنّي أقدّم لك النقيب بيدما والموريسكية الجميلة التي أسدت اليه خدمات جلّى . والفرنسيّون الذين حدّثتك عنهم جعلوه في الحالة التي تراه عليها ، كي يكون لديك الفرصة لتمارس فيه كرمك .

فهرع النقيب «الأسير» لتقبيل أخيه ، وهذا استمر يتفحّصه حتّى تعرّفه . وظل كل منهما بين ذراعي الآخر وقتاً طويلاً ، وهما يذرفان دموع الفرح ، مما أثّر في نفوس كل الحاضرين . أمّا ملاطفات كل منهما للآخر وما تبادلاه من عبارات ففوق كل تعبير ولايمكن إيرادها .

وأخبر كل منهما الآخر عن أحواله ، وكشفا عن كل مافي قلبيهما من طيبة . وقبّل المندوب ثريا وجعلها تقبّل ابنته وترجو لها كل خير .

وأشاعت الفتاة الموروسكية الحنان في نفوس الجميع . ولاحظ دون كيخوته كل شيء ، واستمع دون أن ينطق بكلمة ، وفي جنونه نسب الى الفروسية الجوّالة كل هذه الأحداث

المفاجئة العجيبة . وتقرّر أن يصحب النقيب «الأسير» وثريا والمندوب الى أشبيلية ، ويبلغ الأب عودة الإبن ، ليذهب الى هذه المدينة ، إذا استطاع ، لحضور تعميد ثريا وزفافها ، لأن المندوب لم يستطع تغيير اتجاه طريقه ، إذ بعد شهر سيبحر الأسطول من أشبيلية الى اسبانيا الجديدة وستكون خسارة كبيرة عليه أن يضيّع هذه الفرصة .

وشارك الجميع في سعادة الأسير ، ولمّا مضى من الليل ثلثاه قرّروا أخيراً الذهاب للنوم . وعرض دون كيخوته أن يتولّى حراسة القصر ، خوفاً من أن يأتي مارد أو فارس غدّار ، حاسد لما فيه من كنوز الجمال ، فيهاجم القصر إبان الليل . والذين كانوا يعرفونه وافقوا على عرضه هذا ، وأخبروا المندوب بجنونه الغريب مما سلاّه كثيراً . وسنشو وحده هو الذي كان متضايقاً من التأخّر في النوم الى هذه الساعة . ورتّب أموره خيراً من الباقين ، بأن صنع لنفسه سريراً ببردعة حماره التي كلّفته كثيراً كما سنرى فيما بعد . وخرج دون كيخوته من الفندق ليقوم بالدورية كما وعد .

وقبل بزوغ النهار بقليل سمع صوت رخيم عذب جعل النسوة يرعين آذانهن ، وخصوصاً دوروتيه ، التي لم يغمض لها جفن ، وكانت راقدة الى جوار كلارا بيدما ابنة المندوب . ولم يستطع أحد أن يتخيّل من ذا الذي يغنّي هذا الغناء الجميل ؛ كان صوتاً فحسب ، دون أية مصاحبة ، وكان يلوح أحياناً أنه آتٍ من الفناء ، وأحياناً أخرى أنه آتٍ من الإسطبل .

فاقترب كردنيو من باب السيّدات ، وقال لهن :

«اذا لم تنمن ، إصغين وستسمعن بغّالاً شاباً يغنّي غناءً ساحراً» .

فأجابته دوروتيه : «سنستمع اليه» ، وسمعته يغنّي الأغنية التالية :

الفصل الثالث والأربعون

قصة البغال الشاب، وأحداث أخرى غريبة وقعت في الفندق

في زورق خفيف
منوّع التجديف
قد خضت بحر الحب
والحب يسبي اللب
لم أدرِ أين أرسي
والحب دوماً ينسي
لكنّ نجمي الهادي
في البحر كان الحادي
بقيت في هداه
لكن ، وياويلاه!
غطّى السحاب النجما
وساد ثمّ الظلما
لانور في السماء
والقلب في لأواء
يانجم ، ياذا الومض!
ارحم شبابي الغض
وعد الى الظهور
أنقذ بهذا النور
غريق حب غط
ولا تدعني قط

وأرادت دوروتيه أن تسمع كلارا هذا الصوت الجميل فأيقظتها برقّة وقالت لها : « عفواً ، إنّي أوقظك لأنّي أريد أن أُسمعك أجمل صوت في العالم » . فهبّت كلارا واثبة ولم تفهم في البداية ماقالته لها دوروتيه ، فلمّا كرّرت عليها هذه ماقالته أخذت في الإصغاء . ولم تكد تسمع بعض كلمات الأغنية حتّى أحسّت برعدة في بدنها وكأنها أصيبت بالحمّى ، وألقت بنفسها بين ذراعي دوروتيه وقالت لها : « آه ، ياعزيزتي! لماذا أيقظتني ؟ إنّ أعظم خير يمكن أن يصيبني في هذه اللحظة هو أن تغلق عيناي وأذناي حتّى لاأسمع هذا الموسيقار البائس » .

فقالت دوروتيه : ماذا تقولين يا بنيّة ؟ إنّ الذي يغنّي بغّال شاب .

فقالت كلارا : كلا ، كلا ، إنه سيّد نبيل يملك الضياع ، ومكانته في قلبي أمينة فلو لم يفارق هو قلبي لاحتلّه أبداً .

فقالت دوروتيه ، وقد أدهشتها كلمات البنت الصغيرة وبدت لها عجيبة بالنسبة الى سنّها : يا عزيزتي ، اشرحي ماذا تقصدين ، لأنّي لاأفهم شيئاً مما تقولين . مابالك تتحدّثين عن المكانة ، والقلب ، وعن هذا الموسيقار الذي يسبّب لك كل هذا الاضطراب ؟ تكلّمي ولاتخشي شيئاً أو بالأحرى لاتقولي لي شيئاً الآن : لأنّي لاأريد أن أضيّع ، وأنا أسمعك اللذة التي أستشعرها وأنا أسمعه ، ويخيّل اليّ أنه بسبيل إنشاء أغنية جديدة .

فقالت كلارا : كما تحبّين .

وفي الوقت نفسه وضعت كلارا يديها على أذنيها حتّى لاتسمع شيئاً ، وهو أمر أدهش دوروتيه كل الإدهاش . وكان نص الأغنية هكذا :

« ياأملي الحلو! يامن تتغلّبين على الصعاب والعقاب وتشقّين طريقك الذي رسمته لنفسك بمثابرة وثبات ، ولاتقنطي إذا رأيت نفسك في كل لحظة على وشك الهلاك .

« إنّ الكسالى المتراخين لايظفرون بانتصارات مشرّفة ولا تتوّج هاماتهم بالنصر . والسعادة ليست لأولئك الذين لايكافحون ضد سوء الحظ ، بل يسلّمون كل حواسهم برخاوة الى البطالة الرخوة .

« أمّا أن الحب يبيع نعمه بأثمان غالية ، فهذا عين العدل والحكمة ، لأنه لاجوهرة أثمن من تلك التي حدّدتها أمنيتنا ، ومن الواضح أنّ الناس لايقدرون أبداً مالايكلّف إلا قليلا .

« إنّ المثابرة في الحب تحصل أحياناً على مايبدو مستحيلاً . ولهذا فعلى الرغم من أنّ ثباتي يسعى الى أصعب الأمور ، فإنّي مع ذلك لاأيأس أبداً من الصعود من الأرض الى السماء » .

وهنا سكت الصوت ، وأرسلت كلارا من جديد زفرات ، مما زاد في رغبة دوروتيه في استطلاع السبب في هذه التنهدات الغرامية واضطراب البنت . فأعادت أسئلتها ، ولكنّ كلارا وقد خافت أن تسمع لوسندة ، قبّلت دوروتيه بحنان ، وهمست في أذنها قائلة : « إنّ الذي يغنّي ، ياسيّدتي العزيزة ، هو ابن عين من أعيان اقليم أرغون ، يملك ضيعتين ، وبيته في مدريد يواجه بيت أبي : ولقد كانت نوافذنا مسدودة بالشيش في الصيف وبستائر من التيل في الشتاء . لست أدري كيف ، لكن هذا الرجل النبيل الذي كان يذهب الى المدرسة رآني إمّا في الكنيسة أو في مكان آخر : فصار عاشقاً لي ، وأسمعني كلمات غرامه من نوافذ بيته ، بمظاهر حامية جعلتني أعتقد صدق حبّه ، بل جعلتني أعشقه ، دون أن أعرف بعد ماذا يريد منّي .ومن بين الإشارات التي كان يحدثها أنه كان يضم يديه كفّاً لكف وكأنه يريد أن يفهمني أنه يريد الإقتران بي . وودت لو تمّ هذا الزواج ، لكنّي كنت وحدي ، بلا أم ، ولاأعلم لمن أفضي بسرّي وكان التلطّف الوحيد الذي أبديته هو أنه حين يخرج والدانا ، كنت أفتح الشيش نصف فتح وأريه نفسي ، مما كان يملؤه سروراً الى حد يكاد يفقد العقل معه . وفي تلك الأثناء حدث رحيل أبي ، وقد علم نبأه من غيري ، فلم أكن أبداً لأخبره بشيء من ذلك ، فمرض حزناً من ذلك ، فيماأقدر ، ولهذا لم أستطع أن أراه في اليوم المحتوم ، يوم الرحيل ، لأودّعه ، ولو بالنظرات . لكن بعد يومين من سفرنا ، رأيته عند باب فندق دخلناه ويبعد عن هنا بمقدار مسيرة يوم ، وكان بزي بغّال ، ومتنكّراً تنكّراً لايتعرّفه أحد لولا أنّ قلبي كان دليلي فتعرّفته .

فأدهشني مرآه وسبّب لي فرحة . وكان يتطلّع اليّ اخلاساً ، لأنه يختبىء من والدي في الطرقات والفنادق التي ننزل فيها . أمّا وأنا أعرف حاله ، فإنّي حين أفكّر في إنه يمشي هكذا على قدميه من أجل حبّي ، متحمّلاً التعب والمشاق ، يستولي عليّ اليأس ، وتتابع عيوني خطواته . ولست أدري لأي قصد يلاحقني ، وكيف فرّ من بيت أبيه الذي يعزّه كثيراً إذ ليس له من وريث غيره : على أنّ هذا الشاب يستحقّ المعزّة من كل ناحية واعتبار ، وتستطيعين أن تصدّقي ذلك لورأيته . وأقول لك أيضاً إنّ كل مايغنّيه هو من نظمه : لأنّي سمعت أن عنده موهبة عظيمة لقرض الشعر وإذا سمعت صوته شعرت بإنفعال بالغ ، لأنّي أخشى أن يعرفه أبي ويكتشف تواطئنا . وإنّي أعترف لك ، وإن كنت لم أحادث هذا الشاب أبداً ، أنّي أشعر حقّاً بأنني لا أستطيع العيش بدونه . وهذا ، يا سيّدتي العزيزة ، هو كل ماأستطيع أن أقوله لك عن هذا الموسيقار الشاب ، الذي أعجبك صوته وأنّ روعة صوته لتكفي كي تدركي أنه ليس مجرّد بغّال ، بل فتى نبيل الأرومة » .

فقالت دوروتيه وهي تقبلها : كفى ، كفى! لننتظر حتّى الصباح ، لأنّي آمل أن تكون خاتمة مسألتك سعيدة بقدر ماكانت أوليتها شريفة مؤثّرة .

فقالت كلارا : وأيّة خاتمة يمكن أن أرجيها ، مادام أبوه من الثراء والجاه بحيث لن يجدني أبداً جديرة بأن أكون زوجة ابنه ؟ أمّا أن أتزوّجه بغير علم أبي فلاشيء في الدنيا يمكن أن يحملني على الموافقة عليه . إنّي أود أن يعود هذا الفتى الى أهله وأن يتركني وشأني ؛ ولعل في طول الطريق الذي سأسلكه ما يخفّف من أحزاني ، وإن كنت أخشى ألا يكون هذا الدواء ناجعاً شافياً . ولست أدري أي جنّي يلاحقني ، ومن أين هذا الحب الذي استشعره نحوه إنّ كلينا شاب في ميعة الصبا الأوّل ، لأنّي أظن أننا في سن واحدة ، وأبي يقول أنني سأبلغ السادسة عشرة في عيد القدّيس ميخائيل» .

ولم تتمالك دوروتيه من الضحك على سذاجة كلارا ، وقالت لها : ألا فلتسترح بقية الليل ، وغداً سأسعى في أمرك ، أو سأضيّع جهدي فيه .

ثمّ ناما ، وساد الفندق صمت عميق . لكنّ ابنه صاحبة الفندق وماريتورنس وحدهما لم تناما ؛ فإنهما وقد عرفتا مزاج دون كيخوته الغريب وهو كان يقوم بالحراسة في خارج الفندق راكباً روثينانته ومسلّحاً من رأسه حتّي قدميه ، قرّرا أن يعبثا به ، أو على الأقل يسخرا من حماقاته .

ولم يكن في الفندق نافذة تفتح على الحقول غير كوّة كان يلقى منها بالتبن الى الدواب . جلست الفتاتان عند هذه الكوّة وأبصرا دون كيخوته راكباً فرسه ، متّكئاً على رمحه ، ينفث زفرات عميقة جداً الى حد أنه يخيّل الى المرء أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة . ثمّ أنه بعد ذلك صاح بصوت عاشق حنون : «يا سيّدة أفكاري ، أي دلثنيا دل توبوسو ، ياكمال الجمال ، ومثال الحكمة ، وكنز المفاتن التامة ، ومستودع كل الفضائل ، ونموذج كل ماهو مفيد وشريف ولطيف ولذيذ في العالم ، ماذا يفعل الان لطفك ؟ هل تتنازلين فتهتمّي بهذا الفارس ، عبدك . الذي من أجل خدمتك وحدك ، يعرّض نفسه عن طيب خاطر لكل هذه المخاطر ؟ وأنت أيّتها الربّة المثلّثة الأوج[1] ، أنبئيني بأخبارها ، لعلّك تغارين من جمال وجهها . فيلذ لك أن تتأمّليها وهي تتريّض في بهو من أبهاء قصورها الفخمة ، أو مستندة الى افريز طنفها ، وهي تحلم بوسائل لتهدئة عذاب قلبي الحزين ، دون أن تمس مجدها وفضيلتها ، وتتعطّف بما يعوّض عن آلامي ، وبهدنة لهمومي ، ومكافأة لخدماتي ، وبالجملة

(١) القمر (وهو مؤنث في اللغات اللاتينية) منظوراً اليه بوصفه فيبو في السماء ، وديّاناً على الأرض ، وهيكاته في العالم السفلي .

تمنح الحياة لمن يموت من أجلها . وأنت أيتها الشمس ، يا من تسرعين الى ربط خيولك في عربتك ولتبكّري في القدوم للإعجاب بتلك التي أعبدها ، حيّيها من فضلك باسمي ، لكن حذار أن تمنحيها[1] قبلة ، لأنّي سأغار منك أكثر من غيرتك من تلك الجاحدة الطائشة الجمال التي طالما جعلتكِ تركضين في سهول نساليا أو على شواطىء البنيوس ، في مكان لست أدري بعد ما هو[2] » .

وكان دون كيخوته بسبيل متابعة مناجاته المؤثّرة حين قالت له ابنة صاحبة الفندق ، بصوت هامس : « اقترب قليلاً ياسيّدي ، أرجوك » . ولدى سماع هذه الكلمات أدار رأسه ، وشاهد ، على ضوء القمر ، وكان حينئذ بدراً ، أنّ أحد يناديه من تلك الكوّة التي تجلّت في ناظريه كأنّها نافذة ذات أسلاك ذهبية ، كما في القصور الفخمة التي من نوع الفندق كما تخيّله آنذاك . وفي اللحظة نفسها مثّل له خياله الجنوني ، كما في المرّة الأولى ، ابنة صاحب القصر ، وقد قهرها الحب ، فجاءت تبذل له مراودات جديدة . وبناء على هذه الفكرة ، أدار لجام روثيناته حتّى لا يبدو سيّئ الأدب ، واقترب من الكوّة ، وقال للفتاة حين رآها :

ـ الحق ، أيّتها السيدة الجميلة ، أنّي مشفق على رؤياك توجّهين خواطرك الغراميّة الى من لايستطيع أن يستجيب لها بقدر ماتستحقّين فلا تنسبي الذنب في ذلك الى الفارس الجوّال البائس الذي ترينه أمامك : فإنّ الحب يمنعه من ربط إرادته بواحدة أخرى غير تلك التي صارت من أوّل نظرة سيدة روحه . استميحك عذراً أيّتها السيّدة الجميلة ، عودي الى مخدعك ، ولا تضطرّيني ، بإظهار رغباتك على نحو أوضح ، الى حملي على الظهور بمزيد من الجحود . ولو وجدت فيّ شيئاً آخر غير الحب يمكن أن يحل محل حبّك لي ، فاسأليني إيّاه : وإنّي لأقسم بعدوّة قلبي الرقيقة أنّك ستنالينه فوراً ، حتّى لو طلبت خصلة من شعر ميدوزا المقمّمة بالأفاعي ، أو أشعة من الشمس معبّأة في قارورة .

فقالت ماريتورنس : سيّدتي ليست في حاجة الى شيء من هذا كلّه .

فقال دون كيخوته : وماذا تريد إذن أيتها القهرمانة الأمينة على السر ؟

فقالت ماريتورنس : إحدى يديك الجميلتين فقط ، حتّى تستطيع ، حين تمسّها ، أن تسكّن حرارة الوجدان الذي يحرقها ، والذي حملها على المجيء الى هذه الأماكن ، وسط الأخطار العظيمة ، ولو عرف والدها ذلك لقطع على الأقل أذنيها .

---

(٢) لاحظ أن « الشمس » مذكّر في اللغات اللاتينية .

(١) هذه الجميلة الجاحدة هي دفنيس التي كانت تهرب من أبولون على شاطىء نهر البنيوس ، وظفرت بأن تتحول الى شجرة غاركي تنجو من عناقه .

فقال دون كيخوته : بودّي لو رأيت هذا! : إنه سيمسك عن ذلك إن أراد ألا تحدث له أسوء خاتمة حياة يمكن أن يختم بها والد حياته بسبب أنه أهوى بالأذى على الأعضاء اللطيفة لابنته العاشقة » .

ولمّا كانت ماريتورنس واثقة أنّ دون كيخوته لن يتردّد في تقديم اليد التي طلبت منه ، فقد فكّرت في حيلة خبيثة : جرت الى الاسطبل ، وأخذت خطام حمار سنشو پنثا ، ثمّ عادت بسرعة في اللحظة التي وضع الفارس فيها قدميه على سرج روثينانته ليبلغ النافذة ذات القضبان التي تخيّل أنّه شاهد فيها الفتاة المحطّمة الفؤاد . وقال وهو يقدّم اليها يده :

ـ ها هي ذي يدي ، إرهاب وجلاد كل الأشرار في الدنيا : خذيها ، ياسيّدتي ، لم تمسّها امرأة من قبل ، حتّى ولا تلك التي اليها ينتسب كل شخصي . إنّي أقدّمها اليك لتقبيلها ، بل لتعجبي بمعاقد أعصابها ، وتعانق عضلاتها وضخامة عروقها ، ومن هذا تحكمين على قوّة الساعد الذي له مثل هذه اليد .

فقالت ماريتورنس : هذا ماسنراه حالاً .

وفي الوقت نفسه عملت خية في الخطام ، ووضعتها حول الرسغ ، ونزلت من الكوّة ، وربطت بإحكام الطرف الآخر من الخطام في باب المخزن .

فلمّا أحسّ دون كيخوته بشدة هذه الربطة صاح : « يا إلهي! سيّدتي! بدلاً من التربيت على يدي لكأنّك تستحقّينها . لاتعامليها بكل هذه القسوة : فهي ليست السبب في الألم الذي أجعلك تتحمّلينه ، إنّ هذا الجزء الصغير لايمكن أن يكون مسؤولاً عن الكل » .

وعبثاً راح يشكو ، فلم يصغ اليه أحد : لأنّ ماريتورنس لم تكد تعقد العقدة حتّى هربت كلتاهما وهما يختنقان من الضحك ، وتركاه من المستحيل عليه أن يخلّص نفسه . كان ، كما قلنا ، واقفاً على ظهر فرسه روثينانته ، وذراعه داخل في الكوّة ، ورسغه مربوط بمزلاج الباب ، لايستطيع أن يتحرّك خوفاً من أن يظل معلّقاً بذراعه ، لو تحرّك فرسه أدنى حركة ، وإن كان من الممكن الأمل في أن يظل الفرس قرناً كاملاً دون أن يتحرك ، نظراً الى صبره وهدوئه . فلمّا رأى دون كيخوته نفسه مربوطاً هكذا ، ولم يعد يسمع صوت أحد ، خيّل اليه أن كل شيء في هذا القصر الملعون يتم بالسحر ، كما في المرة الأخرى ، حينما انهال عليه المغربي المسحور ، أعني البغّال ، بالضربات المتوالية . ولعن عدم تحوّطه بالعودة الى مكان خرج منه بالمرة الأولى ممزّقاً . أما كان من الواجب عليه أن يعرف أنه إذا جرّب الفارس الجوّال مغامرة فلم يفلح فيها فإنّ هذا دليل على أنّ المغامرة من اختصاص فارس جوّال آخر ، وتبعاً لذلك فمن غير المفيد محاولتها مرة أخرى ؟

ولكنّه حاول مع ذلك أن يخلّص ذراعه فشدّه ، لكنّه كان موثقاً بإحكام بحيث أخفقت كل مجهوداته : صحيح أنه كان يشد بحذر واحتياط ، خوفاً من أن يقوم روثينانته بحركة ما ، لكن على الرغم في رغبته الشديدة في أن يستوي على سرج فرسه راكباً ، اضطرّ أن يبقى واقفاً وإلاّ لاقتلعت يده . وكم كان يتشوّق آنذاك الى سيف أماديس الغالي الشهير الذي كان يقضي على كل سحر! لعن سوء حظّه ، وتمثّل أي ضرر يصيب العالم كلّه طول مدة سحره : لأنّه لم يشك لحظة واحدة في أنّه كان مسحوراً . ناجى حبيبته دلثنيا ، ونادى تابعه المخلص سنشو الذي كان نائماً على برذعة حماره يغط في سبات عميق ولايتذكّر أمّه ، وناجى الحكيمين لرجنديو والقيف ، وصديقته الطيبة أورجنده . وأخيراً طلع عليه النهار وهو في يأس بالغ حتّى كان يخور خوار الثور ؛ لأنّ لم يتوقّع من النور أي سلوى ، وظن أن سحره أبدي ، وأيّد له ذلك ثبات روثينانته ، حتّى اعتقد أنه سيظل على هذه الحال دون طعام ولا شراب ولا نوم ، هو وفرسه ، حتّى يتبدّد تأثير الكواكب الخبيث ، أو ينقذه من هذه الحال ساحر أبرع .

لكنّه أخطأ كثيراً في تقديراته : لأنّه لم يكد الفجر يبزغ حتّى وصل الى الفندق أربعة يركبون خيولاً وهم مجهّزون خير تجهيز ، ومسلّحون باسكوبات[١] ، وقرعوا الباب قرعات متواليات . فلمّا شاهدهم دون كيخوته ، من فوق حصانه ، صاح فيهم بصوت متعجرف : « فرساناً كنتم أم سوّاساً ، لايخلق بكم أن تقرعوا هكذا باب هذا القصر : إذ عليكم أن تتذكّروا أنّ سكّان القصر في هذه الساعة نائمون ، وليس من المعتاد فتح الحصون قبل مطلع الشمس . انسحبوا ، انتظروا حتّى الضحى ، وسنرى حينئذ هل من المناسب أن نفتح لكم أو لا .

فقال أحد هؤلاء راكبي الخيل : أي حصن أو أي قصر هذا المنزل ، لتقتضي منّا كل هذه المراسم ؟ إذا كنت صاحب الفندق ، فافتح لنا : فنحن مسافرون لا نريد غير شعير لخيولنا ، وسنتابع سيرنا ، لأننا في عجلة .

فقال دون كيخوته : وهل يبدو عليّ يا سادة ، مظهر صاحب فندق ؟

فقال الآخر : لا أدري من تكون ، ولكنّي أعلم حق العلم أنّك تحلم حين تسمّي هذا الفندق قصراً .

فقال دون كيخوته : إنه قصر ، أقول لك ، ومن أفخر القصور في المنطقة : ويسكنه قوم حملوا الصولجان في يمينهم والتاج على رؤوسهم .

---

(١) كلمة إيطالية الأصل Schioppetto ومعناها : بندقية صغيرة ذات دواليب (عجل) تحمل في اليد ، وكان يتسلّح بها المشاة وبعض الفرسان الخفاف ابتداء من القرن الخامس عشر ، وكانت ماسورتها من الحديد ، وتعمّر من الفوهة .

فقال المسافر : بل العكس هو الصحيح ، السيف على الرأس : والتاج في اليد[١] : ربّما كان هنا فرقة من الممثّلين الهزليين الذين كثيراً ما يحملون السيف والتاج ، لأنه لايمكن تصوّر غير هذا في فندق حقير المظهر هكذا .

فقال دون كيخوته : أوه! كم أنت لاتعرف الدنيا ، لأنّك تجهل المغامرات الرائعة التي تقوم بها الفروسية الجوّالة .

فلمّا تضايق المسافرون من كلام فارسنا (دون كيخوته) أخذوا من جديد في قرع الباب بشدة أكبر ، حتّى استيقظ صاحب الفندق وسائر من في الفندق ، وغدا يرى من ذا الذي يقرع هكذا . وفي هذه اللحظة نفسها ، أقبل أحد خيول هؤلاء الرجال وشم روثينانته الذي كان يحتمل دون حراك جسم صاحبه الممتد ، وهو حزين وأذناه مرتخيتان : ولمّا كان روثينانته من لحم ودم ، وإن كان من الممكن الظن أنه من خشب ، فقد انتعش ، وأراد هو الآخر أن يشم الحيوان الذي يداعبه هذه المداعبات ، لكنّ لم يكد يقوم بحركة خفيفة حتّى انزلقت رجلا دون كيخوته من السرج ، وكاد يسقط على الأرض لولا أنّ ذراعه كان مربوطاً ، ممّا سبّب له ألماً شديداً جدّاً كما لو كانوا يقطعون يده أو يقتلعون ذراعه . وكان قريباً جداً من الأرض حتّى ليكاد يمسّها بطرف قدميه ، وكان هذا عذاباً فوق عذاب يعانيه هذا المسكين : لأنّه وقد شعر بقربه من الأرض بذل محاولات يائسة غير مجدية ليقف على الأرض ، مثله مثل أولئك الذين يعطى لهم الموطىء فيزيدون بذلك عذابهم أملاً في أن يمستوا الأرض بمط أرجلهم .

---

(١) اشارة الى ماجرت به العادة من وشم أيدي المجرمين برسم التاج .

الفصل الرابع والأربعون

تلاوة الأحداث الغريبة التي وقعت في الفندق

أطلق دون كيخوته صرخات شديدة حتّى أسرع صاحب الفندق ففتح الباب فزعاً ليرى من أين أتت هذه الصرخات ، كذلك فعل الذين كانوا في الخارج . وأفاقت ماريتورنس على هذه الصرخات نفسهاوهي تعلم من أين مأتاها ، فهرعت الى المخزن ، ودون أن يراها أحد حلّت الخطام الذي ربطت به دون كيخوته فسقط هذا على الأرض ، أمام صاحب الفندق وراكبي الخيول الأربعة . فسأله الجميع ماذا جعله يصرخ هكذا ، لكنه دون أن ينطق بكلمة نزع الخطام من رسغه ، ونهض ، ووثب على روثينانته ، ولبس ترسه ، وأمسك برمحه ، ثمّ ابتعد قليلاً ليتّخذ مسافة ، ثمّ عاد راكضاً وهو يصيح :

ـ من يرد أن يدّعي أنني سحرت عن حق أقل له أنه كذب ، وإذا أذنت لي الأميرة ميكوميكونا تحدّيته للمبارزة .

فتطلّع إليه القادمون الجدد (راكبو الخيل الأربعة) باندهاش ، لكن صاحب الفندق بدّد دهشتهم بأن أخبرهم عن أحوال دون كيخوته وأضاف أنه لاينبغي الانتباه الى مايقول ، لأنّه مجنون . فسأل هؤلاء الخيّالة بعد ذلك صاحب الفندق هل جاء الى فندقه شاب في سن الخامسة عشرة يلبس زي بغّال ، صفته كذا وكذا ، وذكروا أوصاف عاشق كلارا . فأجاب صاحب الفندق بأنّ في فندقه عدد كبير جداً من الناس ، ولهذا لا يستطيع أن يقول شيئاً ، لكن لمّا تعرّف أحدهم عربة المندوب صاح : نعم ، إنه لابد أنه ها هنا ، فهذه هي العربة التي لابد قد تبعها : فليبق أحدنا بالباب ، بينما يبحث الآخرون في كل زاوية بل من المستحسن أيضاً أن يدور أحدنا حول الفندق خوفاً من أن يقفز من فوق سور الفناء . فأجاب أحدهم : سأتولّى ذلك .

وهكذا وقف أحدهم لدى الباب ، ودخل إثنان في الفندق ، والرابع دار حول الأسوار .

وتركهم صاحب الفندق يفعلون مايريدون ، وهو لايعلم لأي سبب يبحثون عن هذا الفتى . وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء ، وكانت صيحات دون كيخوته قد أيقظت الجميع ، وهرع الكل للنهوض ، خصوصاً دوروتيه وكلارا اللتان لم تتمكّنا من النوم ، إحدهما مما أصابها من إنفعال شديد بسبب وجود عاشقها بالقرب منها ، والأخرى (دوروتيه) رغبة في رؤيته . وكان دون كيخوته يختنق غضباً ، وهو يرى أنه لم يقبل تحدّيه أي واحد من القادمين الجدد بل ولم يلق بالاً اليه . ولو أنه قرأ في قوانين الفروسية أن الفارس الجوّال ، رغم وعده بألا يلقي نفسه في أيّة مغامرة ، يمكنه أن يحاول مغامرة جديدة ، لكان قد هاجمهم جميعاً ، وأرغمهم على الرد عليه ، لكن الكلمة التي أعطاها الى الأميرة ميكوميكونا بأن يبدأ أوّلاً بتنصيبها على عرشها ، ألزمته بأن يعتصم بالهدوء بانتظار نتيجة تفتيشات هؤلاء الرجال . وأخيراً وجد أحدهم من يبحثون عنه ، وهو نائم بجوار بغّال ، دون أن يخطر بباله أنهم يفتّشون عنه ناهيك بأن يعثروا عليه . وأخذه من ذراعه وقال له :

ـ الحق ، ياسيّدي دون لويس ، أنّي أجدك في لباس خليق بمركزك ، وهذا السرير يناسب تماماً الرفاهية التي ربّتك أمك عليها!

وفتح الفتى عينيه وهما لاتزالان مثقلتان بالنعاس ، وتأمّل فيمن يمسكه من ذراعه ، وعرف أنه خادم عند أبيه ، فأرتج عليه وهو لم يحر جواباً . وتابع الخادم الكلام قائلاً :

ـ سيّدي ، إنّ ماعليك فعله هو أن تصبر وتعود الى بيت أبيك ، إذا اردت ألا يذهب الى الآخرة : لأنه لا يُتوقّع شيء آخر نتيجة للحزن الذي أحدثته غيبتك .

فسأله دون لويس : ومن أدرى والدي أنّي اتخذت هذا الطريق ، وتنكّرت بهذا الزي ؟

فقال الخادم : تلميذ ، تفضي اليه بأسرارك ، اكتشف ذلك وقد تأثّر من ألم والدك لمّا سمع بخبر هروبك . وفي الحال بعث أبوك بأربعة من خدمه للجري في أثرك ونحن جميعاً رهن أوامرك ونحن راضون كل الرضا لهذا الخبر السعيد الذي سنسوقه الى والدك ، ونحن نعيدك إليه ، وهو يحبّك دائماً .

فقال دون لويس : سيكون الأمر كما أريده ، أو كما تقضي به السماء .

فقال الخادم : وماذا يمكنك أن تقرّر ، أو ماذا يمكن أن تأمر به السماء غير أن تأتي معنا ، لأنه لا يمكن أن يحصل غير ذلك ؟

فلمّا سمع البغّال ، الذي كان ينام الى جواره دون لويس ، هذه الأقوال ، نهض ، وأخبر بها دون فرننده وكردنيو والباقين وكانوا قد نهضوا ، وأضاف أنّ الخدم يلقّبون الفتى بلقب (دون) ، وأنهم يريدون أن يعيدوه الى أبيه بينما لايريد الفتى أن يعود . وهذه الأخبار ،

مضافة الى السرور الذي أحدثه في نفوسهم صوت الفتى ، ألهمتهم الرغبة في أن يعرفوا عنه تفاصيل أوفى ، بل وأن ينجدوه لو استخدم الخدم القوّة القاهرة مع الفتى . فتوجّهوا الى الاسطبل ، حيث وجدوه يتجادل مع خادمه . وفي تلك اللحظة خرجت دوروتيه من غرفتها ، تتبعها دونيا كلارا وهي في غاية الإضطراب ؛ ودعت كردنيو وقالت له بصوت خفيض وبقليل من الكلمات ماهي حكاية الموسيقار والبنت الصغيرة . وهو من جانبه روى لها مقدم خدم دون لويس ، لكنه لم يستطع أن يقوله بهمس يمنع كلارا من سماعه ؛ فتأثّرت كل التأثر ولولا أنّ دوروتيه أمسكت بها لسقطت على الأرض . فطلب كردنيو من دوروتيه أن تدخل غرفتها ، وأنه هو سيعمل لعلاج الأمر كلّه . وأحاط خدم دون لويس الأربعة به ، وبذلوا جهدهم لإقناعه بالعودة الى أبيه . فأجابهم أنه لايستطيع العودة قبل أن ينهي مسألة تتوقّف عليها حياته ، وشرفه وسعادته . وضغط عليه الخدم ، قائلين أنهم لن يعودوا بدونه ، وسيأخذوه طوعاً أو كرهاً .

فقال لهم دون لويس : لن تأخذوني إلا ميّتاً ، لأنّ حملي على الرحيل معناه انتزاع الحياة منّي ، على كل حال .

وفي هذه اللحظة كانت ضجة النزاع قد جذبت كل من كانوا في الفندق ، ومنهم كردنيو ودون فرنندو وأصدقاؤه ، والمندوب ، والقسّيس والحلاّق بل ودون كيخوته نفسه الذي رأى أن القصر لم يعد في حاجة بعد الى حراسة . وكردنيو ، وقد عرف حكاية الفتى ، سأل الخدم لأي سبب يريدون أن يأخذوه رغماً عنه . فقالوا : « لرد الحياة الى أبيه الذي يقرب غياب ابنه من ذهابه الى القبر » ، فقال دون لويس : « لاحاجة الى حكاية شؤوني هنا : أنا حر ، وسأعود إذا أنا أردت ، ولن يستطيع واحد منكم أن يرغمني على العودة » . فقال الخادم : « سيرغمك العقل على ذلك ، فإن لم يستطيع العقل شيئاً معك ، فإنه يعلمنا أن نقوم بواجبنا » . فقال المندوب : « لنتبيّن مامعنى هذا كله » وأدرك الخادم أنه جار لبيت سيّده فقال له : « يا سيّدي المندوب! ألا ترشد هذا الشاب ، ابن جارك ، الذي هرب من بيت أبيه ، وهو يلبس زيّاً لا يليق بمكانته ، كما تراه ؟ » فنظر المندوب في الفتى بإمعان ، وتعرّفه ، وقبّله وقال له : « ماهذه الأعمال الصبيانية يادون لويس ؟ وما هي الأسباب القوية التي يمكن أن تكون قد حملتك على السفر هكذا ، على حال لا تتفق مع صفتك ؟ » فأنشأ الفتى في البكاء ، ولم يحر جواباً . وطلب المندوب من الخدم أن يهدأوا ، وقال أنّ كل شيء سيسير على مايرام . وأخذ دون لويس من يده ، وانتحى به ناحية ، وسأله عن السبب في سفره .

وبينما كان يستجوب الفتى ، سمعت صيحات عالية عند باب الفندق : ذلك أن رجلين أمضيا الليل فيه لمّا شاهدا الكل مشغولين لدى البغال المزعوم (الفتى) حاولا الذهاب دون أن يدفعا الأجرة ، ولكن صاحب الفندق ، وهو أحرص على الاهتمام بأموره الخاصة به بأمور الأخرين ، فاجأهما لدى الباب ، وطالبهما بالأجرة ، وقرن طلبه هذا بشتائم بذيئة حتّى رأيا من واجبهما الرد عليه باللكمات ، وهجما عليه هجوماً عنيفاً جعله يضطر الى طلب النجدة . فهرعت صاحبة الفندق وبنتها ، لمّا قدرتا أن دون كيخوته أقل الجميع انشغالاً ، بحثتا عنه ، وقالت البنت له : «سيّدي الفارس ، بحق الشجاعة التي منحك الله ، أغث أبي المسكين الذي انهال عليه رجلان بالضرب المبرح» . فأجابهما دون كيخوته بكل برود : «ياأنستي الجميلة! لاأستطيع الإستجابة لالتماسك في هذه اللحظة ، لأنه ممنوع عليّ القيام بأية مغامرة قبل أن أنهي تلك التي أعطيت كلمتي بشأنها ؛ وكل مااستطيع فعله لك هو أن أدعوك للذهاب الى أبيك لتقولي له أن عليه أن يصمد ويدافع عن نفسه قدر المستطاع ، وخصوصاً ألا يدع نفسه يهزم بأي حال من الأحوال ، بينما أغدوا أنا الى الأميرة ميموميكونا اسألها الإذن لي بنجدة أبيك . فإن سمحت بذلك ، فتأكدي أنني سأخلّص أباك» . فصاحت ماريتورنس : «يا لي من حزينة شقيّة! قبل أن تحصل على الاذن الذي تتكلّم عنه ، سيكون سيّدي المسكين في العالم الآخر» . فقال دون كيخوته : «تحمّلي ياسيّدتي أن أطلب هذا فإذا حصلت عليه ، لايهم أن يكون أباك في العالم الآخر أو في الأخرة ، فإنّي سأقدر على تخليصه بالرغم من العالم نفسه ، أو على الأقل سأنتقم من القتلة إنتقاماً ترضين عنه» . ودون أن يتوقّف أكثر من ذلك هرع وألقى بنفسه عند ركبتي دوروتيه والتمس منها ، بأسلوب الفارس الجوّال ، الإذن بنجدة السيّد صاحب القصر الذي هو في خطر داهم . فأعطته الأميرة الإذن عن طيب خاطر ، وهو في الحال حمل ترسه ، ووضع السيف في يده ، وهرع الى باب الفندق ، حيث كان النزيلان يضربان صاحب الفندق . لكنّ توقّف في الحال وظلّ بغير حراك ، رغم صرخات ماريتورنس وصاحبة الفندق اللتين سألتاه عمّا يمنعه من النجدة . فقال دون كيخوته : «لقد توقّفت ، لأنه ليس من المسموح لي بأن أنازل سوآساً ، لكنناديا سانسي سنشو : فهذه العملية من شأنه هو» . وجرى هذا المنظر عند باب الفندق ، حيث انهمرت اللكمات والصفعات على صاحب الفندق المسكين ، على الرغم من ماريتورنس وصاحبة الفندق وابنتها ، اللواتي يئسن من جبن دون كيخوته ومن الضربات التي تلقّاها رب البيت .

لكن لندعه هناك فترة : فلن يعدم مَن يغيثونه ، وليخرس من يعد بأكثر مما عليك . لنرجع القهقرى خمسين خطوة لنرى بماذا أجاب دون لويس على المندوب الذي سأله السبب في

سفره ماشياً وبهذا اللباس الخشن الغليظ . لقد أمسك الفتى بيدي المندوب بقوّة وكأنه يرهقه ألم عظيم ، وبعد أن ذرف سيلاً من الدموع قال له : « سيّدي! إنّي لا أستطيع أن أجيبك بشيء آخر غير أن السماء وجوارنا أرادا أن أرى دونيا كلارا ، ابنتك ؛ وفي الحال جعلتها سيّدة أفكاري كلّها ، وإذا لم تمانع إرادتك ، ياسيّدي الحقيقي ووالدي ، فإنها تصير من اليوم زوجتي . من أجل هذا هربت من بيت أبي ، وتنكّرت بهذا الزي لمتابعتها في كل مكان كما يبحث السهم عن الرقبة والبحّار عن نجمه وهي لاتعرف عن حبّي إلا ما دلّت عليه من بعيد عبراتي . وأنت يا سيّدي تعرف نبل أهلي وثراءهم ، وتعرف أنني وريثهم الوحيد : فإن بدت لك هذه المؤهلات كافية للطموح الى سعادة الإقتران بدونيا كلارا ، فتفضّل بقبولي فوراً ابناً لك . فإن لم يقدر أبي ، وقد كوّن لي خطة أخرى ، أن يدرك الخير الذي أجتلبه بذلك لنفسي ، فإن للزمان قدرة على تغيير الأحوال أكبر من إرادة بني الإنسان » . وصمت العاشق الفتى ، ووقف المندوب مندهشاً لايحير جواباً ، معجباً بالعبارات الحكيمة المتواضعة التي استخدمها دون لويس للكشف عن أفكاره ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لايدري أي قرار يتّخذ في ظرف مفاجيء كهذا . فاكتفى بأن يطلب اليه أن يهدأ ، وقال له إنه إذا استطاع أن يجعل خدم أبيه لايأخذونه هذا اليوم ، فإنه سيفكّر في الوسائل التي بها يرتّب الأمور على أحسن وجه . فقبّل دون لويس يديه ، ورواهما بدموعه ، مما كان من شأنه أن يليّن قلوباً من المرمر ، فما بالك بقلب المندوب ، وهو رجل عاقل لبيب ، رأى ما في هذا الزواج من مزايا عديدة لابنته ، وود لو حصل على موافقة والد دون لويس ، وهو يعلم أنه يريد أن يجعل من ابنه نبيلاً ذا لقب .

وفي تلك الأثناء كان النزيلان قد تصالحا مع صاحب الفندق ودفعا له الأجرة تحت تأثيرنصائح دون كيخوته ، أولى من أن يكون ذلك تحت تأثير تهديداته . وأنتظر خدم دون لويس نهاية المشاورات بين المندوب وبين سيّدهم الفتى وقرار هذا الأخير ، وإذا بالشيطان ، الساهر دائماً ، يدخل في الفندق الحلاّق الذي انتزع منه دون كيخوته خوذة ممبرينو ، وانتزع منه سنشو برذعة حماره ، التي قايض بها برذعته . وقاد الحلاق دابته الى الاسطبل فأبصر سنشو وهو يرتّب هذه البرذعة نفسها ، فتعرّفها ، وأمسك بتلابيب سنشو وقال له : « آه ، أمسكت بك أيها اللص! أعد اليّ فوراً صحن الحلاقة وبرذعتي مع السروج التي سرقتها منّي » . فلمّا رأى سنشو أنه أخذ على حين غرّة وانهالت عليه الشتائم ، أمسك البرذعة بيد وباليد الأخرى لكم الحلاّق لكمة جعلت فكّه كلها تفيض دماً . ولكنّ الحلاق لم يتركه وأخذ يصيح بأعلى صوته حتّى هرع كل من في الفندق على صراخه وهو يقول : « العدالة! العدالة باسم الملك! هذا اللص ، قاطع الطريق ناهب أموالي ، ويريد أن يقتلني » .

فأجاب سنشو : «أنت كذّاب ، أنا لست قاطع طريق :إن مولاي قد فاز بهذه الغنائم نتيجة حرب حقيقية» . وكان دون كيخوته مفتوناً بالطريقة التي هاجم بها سائسه ودافع عن نفسه : ورأى أنه رجل شجاع ، وفكّر في أن يسلحه فارساً ، في أوّل فرصة تسنح ، معتقداً أنه سيكون مكسباً طيّباً لطريقة الفروسية . ومن بين الحجج التي ساقها الحلاق أن قال : «سادتي ، إن هذه البرذعة ملكي ، مثل الموت الذي أدين به لله ، وأعرفها وكأنّي أنا الذي صنعتها . وحماري هنالك في الاسطبل فليكذّبني : وإلا ، فجرّبوا عليه البرذعة ، فإن لم توافقه مثل القفّاز . فقولوا عنّي نصّاباً . وأكثر من هذا : في اليوم الذي نهبت منّي ، سرق منّي كذلك صحن حلاقة من النحاس لم يستعمل بعد ، ويساوي اسكودو . هنالك لم يملك دون كيخوته نفسه من أن يجيب عليه . فوضع نفسه بين المحاربين ، وحجز بينهما ووضع البرذعة على الأرض حتّى يراها الجميع ، وتتّضح الحقيقة ، وقال : «سادتي ، لأبرهن لكم على خطأ هذا السائس الساذج (الحلاق) ، اعلموا أنه يسمّي صحن الحلاقة ما كان ، وما هو ، وما سيكون دائماً خوذة ممبرينو ، واعلموا أنني أخذتها منه في حرب شريفة ، وتملّكتها بطريقة شرعية . أمّا البرذعة فلا شأن لي بها . وكل ماأستطيع أن أقوله هو أن سائسي (سنشو) استأذنني في انتزاع سرج هذا الجبان المهزوم ليضعها على حماره : فأذنت له في ذلك ، فأخذها ، أمّا عن تحوّل هذا السرج الى برذعة ، فإنّي لاأستطيع تفسيره إلا بكون هذه التحوّلات شائعة في تاريخ الفروسية . ولتأييد ما قلته ، اجرِ ، يا ولدي سنشو ، وأحضر تلك الخوذة التي يسمّيها هذا الرجل العبيط صحن حلاقة» .

فأجاب سنشو : «يا مولاي ، إذا لم يكن لدينا دليل نسوقه غير هذا ، فإنّ الخوذة صحن حلاقة كما أن السرج برذعة» .

فقال دون كيخوته : «افعل ما آمرك به ، ليس كل ما يجري في هذا القصر يتم بالسحر» .

فذهب سنشو لإحضار صحن الحلاقة ، وأتى به ، وأخذه دون كيخوته بين يديه وقال : «انظروا ياسادة . كيف يجرؤ هذا السائس (الحلاق) على أن يدّعي أن هذا صحن حلاقة وليس الخوذة التي قلت لكم عنها ؟ أقسم ، بحق طريقة الفروسية التي أمتهنتها ، أنها هي التي أخذتها منه ، ولم أضف اليها شيئاً ولم أنقصها شيئاً» .

فقال سنشو : «لاشك في أنها هي ، لأنه منذ أن استولى عليها مولاي حتّى الساعة وهو لم يستخدمها الا في معركة واحدة ، حينما خلّص مولاي المقيّدين بالأغلال المساكين ، ولولا هذا الصحن ـ الخوذة ، لعانى وقتاً عصيباً ، لأنه تلقّى ضربات بالأحجار لا حصرلها» .

الفصل الخامس والأربعون

وفيه تم إيضاح الشكوك المتعلقة بخوذة ممبرينو والبرذعة، مع مغامرات حقيقية هي الأخرى

فقال الحلاق : «ماذا ترون ، يا سادة ، من هذين الرجلين اللذين يؤكّدان أن هذا ليس صحن حلاقة ، بل خوذة حقّاً ؟» .

فقال دون كيخوته : «ومن يجرؤ على أن يؤكّد عكس هذا أعلمته أنه يكذب ، إذا كان فارساً ، وأنه كذب ألف مرّة ، إذا كان سائساً» .

أمّا حلاقنا الأصلي (الأسطى نقولا) وكان حاضراً ويعرف تماماً مزاج دون كيخوته فقد أراد أن يشجّع جنونه ويدفع اللعبة الى أقصى حد لتسلية الجماعة ، فقال للحلاق الآخر : «سيّدي الحلاق ، أو أياً من كنت ، اعلم أنني من أهل مهنتك ؛ وحصلت على شهادة الامتحان منذ أكثر من عشرين عاماً ، وأعرف آلات المهنة كلّها بغير استثناء . وفضلاً عن ذلك فقد كنت جنديّاً أيّام شبابي ، ولهذا أعرف أيضاً الخوذات والبيض والبلب وسائر أسلحة الحرب ، خصوصاً أسلحة الجندي . وأقول ، إلا إذا وجد رأياً أفضل ، وفوق كل ذي علم عليم ، إن هذه القطعة التي يحملها هذا السيّد الطيّب (دون كيخوته) في يده هي ليست صحن حلاقة ، بل هي أبعد ماتكون عنه بعد الأبيض عن الأسود والحقيقة عن الكذب ؛ وأقرّر أنها خوذة ، ولكنّها ليست كاملة» .

فقال دون كيخوته : «لا قطعاً ، إذ ينقصها نصفها وهو رباط الذقن» .

فقال القسّيس ، وقد فطن بسهولة لغرض الأسطى نقولا : «هذا صحيح» . وكان كردنيو ودون فرنندو وأصحابه على الرأي نفسه ، وكان المندوب هو الآخر سيوافقهم على الرأي نفسه لولا أنه كان مشغولاً كل الإنشغال بمسألة دون لويس ، مما منعه من إيلاء انتباه كبير الى كل هذه الممازحات .

فقال الحلاق الآخر الذي كانوا يسخرون منه : «الله في عوني! هل من الممكن أن

يحسب أناس شرفاء كهؤلاء صحن حلاقة خوذة ؟ إنه لأمر يدعو الى دهشة أعلم الجامعات . ولكن إذا كان هذا الصحن خوذة ، فلا شك في أنّ البرذعة ستكون سرج فرس ، كما قال هذا السيّد » .

فقال دون كيخوته : « إنها تبدو لي أنا برذعة ، لكنّي قلت لك إني لا شأن لي بهذا » .

فقال القسّيس : « ولكن الحكم في هذا من اختصاص السيّد دون كيخوته ، لأننا نعترف نحن جميعاً ، أنه يفوقنا في كل ما يتعلّق بالفروسيّة ونسلّم له فيه » .

فصاح دون كيخوته : « وحق الله ياسادة لقد وقعت لي مغامرات غريبة جداً في هذا القصر في كلتا المرتين اللتين سكنته فيهما ، بحيث لاأجرؤ على أن أقرّر شيئاً إيجابيّاً في أي أمر يقع فيه ، لأنّي واثق أن كل شيء يحدث فيه بواسطة السحر . في المرة الأولى نكّل بي منكل بواسطة مغربي مسحور كان فيه ، ولم يكن سنشو أحسن حظّاً ، وفي هذه الليلة ، ليلة أمس ، رأيت نفسي معلّقاً من ذراعي طوال أكثر من ساعتين ، دون أن أعرف لماذا أو كيف وقع لي هذا الشر . ولهذا فإن الحكم على مثل هذه المسائل المشتبكة الغامضة سيكون طائشاً . لقد ذكرت لكم رأيي فيما يتعلّق بالخوذة ، لكنّني لن أجازف أبداً فأقرّر هل هذه برذعة أو سرج : وأوكل اليكم الفصل في هذا يا سادة . ربّما ، وأنتم لم تسلّحوا فرساناً مثلي ، لا يؤثّر فيكم السحر ، وعقلكم إذن حر تستطيعون أن تحكموا حكماً سليماً على ما يجري في هذا القصر ، وأنتم تريدون الأشياء على حقيقتها ، لا كما تبدو » .

فقال دون فرنندو : « لاريب في شيء مما تقوله ، إنّ علينا نحن ، كما لاحظ بحق السيّد دون كيخوته ، أن نفصل في هذه القضية ، وللسير في الأمر تبعاً للإجراءات القانونية ، سأتعرّف رأى كل واحد منّا سرّاً ، وأخبركم بالنتيجة » .

وكان هذا المنظر مصدر تسلية هائلة لأولئك الذين عرفوا مزاج دون كيخوته ، وأمّا الأشخاص الذين لم يعرفوا دخيلة الأمر فلم يروا في ذلك إلا أسخف شيء في الدنيا ، ومن بين هؤلاء خدم دون لويس الأربعة ودون لويس نفسه وثلاثة قادمون جدد بدا أنهم رماة ، وكانوا كذلك فعلاً . والحلاق هو وحده الذي برح به اليأس والغيظ وهو يرى ، أمام ناظريه ، أنّ صحن الحلاقة قد تحوّل الى خوذة ، وأنّ البرذعة بدورها لابدّ ستتحوّل الى سرج مطهم لفرس . وضحك هؤلاء وأولئك من رؤيتهم دون فرنندو ، وهو يهمس في أذن كل واحد ، ويجمع الآراء بجد عن موضوع هذا الخلاف العظيم . وأخيراً وقد استشار كل من عرفوا دون كيخوته ، قال بصوتٍ عال : « أيها الرجل العبيط ، لقد تعبت من استطلاع كل هذه الآراء ، ومن رؤية أنه لم يجب أحد بغير القول أنه من الحماقة أن يسمّى هذا برذعة حمار ، بينما هو

في الحق سرج حصان ، بل وحصان أصيل ؛ فتجلّد واصبر اذن ، لأنه على الرغم منك ومن حمارك فإن هذا سرج وليس برذعة . لقد نازعت بغير حق ولم تقم الدليل » .

فصاح الحلاق المسكين : « لا دخلت الجنّة أبداً إن كنتم لستم جميعاً مجانين ، وإنّي لأشهد الله أن هذه برذعة وليست سرجاً . لكن هكذا تسير القوانين... ولا أقول أكثر من ذلك . ومن المحقّق أنني لست سكراناً ، لأنني لم أكسر صيامي حتّى الآن ، اللهم إذا كان ذلك بخطاياي » . وكانت سذاجة الحلاق تثير الضحك بقدر ما يثيره جنون دون كيخوته الذي قال : « لم يبق إذن شيء نعمله غير أن يسترد كل منّا ما أعطاه الله ، وبركة القدّيس بطرس » . هنالك صاح أحد الخدم : « لاشكّ أن هذه مؤامرة مدبرة ؛ لأنّي لا يمكن أن أقتنع أن كل هؤلاء الناس السليمي العقول الموجودين هنا ـ أو يظهر أنهم كذلك ـ يمكن أن يقولوا ويقرّروا أن هذه ليست برذعة ، وذلك ليس صحن حلاقة . لهذا أظن أن في المسألة سراً ، حينما أرى دفاعاً عن رأي مضاد للتجربة والواقع . وأقسم بأنه لا يستطيع أحد من الأحياء أن يجعلني أعتقد أن هذا ليس صحن حلاقة وتلك برذعة حمار » .

فقال القسّيس : « هذه يمكن أن تكون برذعة أتان » .

فأجاب الخادم : « هذا الشيء نفسه ، المهم هو أن نعرف هل هذه برذعة أو هي ما تقولونه أنتم » .

وصاح غاضباً أحد الرماة الذين جاءوا منذ قليل ، وكان قد سمع النزاع الذي وقع كلّه : « والله هذه برذعة كما أن أبي رجل ؛ ومن يقل غير هذا فسيكون سكراناً » .

فأجابه دون كيخوته : « أنت تكذب ، أيها الشرّير الدنيء » ورفع رمحه الذي لم يتركه أبداً وراح ليضربه على أم رأسه ضربة شديدة ، ولولا أن الرامي تراجع لجندله على الأرض ، فتحطّم الرمح على البلاط ، ولمّا رأى باقي الرماة زميلهم يعامل هذه المعاملة ، صاحوا : « القوة للأخوة المقدّسة! » وعند سماع هذه الكلمات هرع صاحب الفندق ـ وكان عضواً في هذه الجماعة ـ الى مسكنه ليتناول سوطه وسيفه ، وعاد وانتظم في صف الرماة ، وأحاط خدم دون لويس بهذا الأخير خوفاً من أن يهرب منهم أثناء المعركة . ولمّا رأى الحلاق الفندق كلّه في اضطراب أراد أن يأخذ البرذعة ، وكذلك فعل سنشو . وامتشق دون كيخوته سيفه في يده ، وهاجم الرماة ، وصاح دون لويس في خدمه أن يتركوه ويذهبوا لنجدة دون كيخوته ودون فرنندو وكردنيو اللذين انضمّا اليه . وصاح القسّيس ، وصاحت صاحبة الفندق ، وناجت ابنتها ، وبكت ماريتورنس ، وكانت دوروتيه ترتعد ، ولوسنده لا تحرّك ساكناً ، ودون لويس ، الذي تجاسر أحد خدمه فأمسك به من يده خوفاً من أن يهرب ، لكم

هذا الخادم لكمة قوية أدمت فكّه . وداس دون فرنندو أحد الرماة تحت قدميه ، ولم يتوقّف صاحب الفندق عن الصياح قائلاً : «النجدة للأخوة المقدّسة!» .

حتّى أنه لم يكن في كل الفندق غير الصرخات والتهديدات والدموع والاختلاط والفزع والضربات بالسيف والصفعات والضرب بالعصا والركل بالقدم والدماء تسيل غزيرة . وفي وسط هذا الاختلاط الهائل وهذا التيه العجيب نفذت في رأس دون كيخوته لمحة من النور ، فتمثّل نفسه في معسكر اجرامنته وسط هذه المعركة . وصاح بصوت اهتزّت له أرجاء الفندق «ليتوقّف كل منكم ، ويعلّق سلاحه ، وليهدأ وليسمع ما أقول إذا أراد إنقاذ حياته» . فتوقّف الكل في الحال ، فقال :

ـ ألم أقل لكم يا سادة أن كل شيء في هذا القصر يتم بالسحر ، وإن فيلقاً من الشياطين قد اتخذوه مسكناً لهم ؟ ولكي أبرهن لكم على ذلك انظروا الى النزاع الذي ساد في معسكر اجرامنته كيف تسرّب الى هذا المكان واضطرب بيننا : تأملوا واعجبوا كيف يكافح الواحد من أجل السيف ، والثاني من أجل الفرس ، والثالث من أجل النسر ، والرابع من أجل خوذة ، نحن نتحارب جميعاً ولايفهم أحدنا الآخر ولا يتفاهم بعضنا مع بعض . اقتربوا ، يا سيّدي المندوب ، وأنت يا سيّدي القسّيس : فليمثّل أحدكما الملك أجرامنته ، والآخر الملك سوبرينو ، واعقدوا الصلح بيننا : لأنه ، وأيم الله ، من العار أن يتعارك ناس فضلاء مثلنا ويقتل بعضهم بعضاً من أجل أمور تافهة كهذه» .

ولكنّ الرماة ، الذين لم يكونوا يفهمون شيئاً في أسلوب دون كيخوته ، ورأوا ماأصابهم من كردنيو ودون فرنندو والآخرين ، لم يريدوا وقف المعركة أبداً . والحلاق المسكين لم يطلب خيراً من هذا : نصف لحيته بقي في المعركة ، والبرذعة تفكّكت وتمزّقت شر ممزّق وسنشو ، شأنه شأن كل سانس مخلص ، توقّف لدى سماعه أوّل كلمة قالها مولاه ، وسكن خدم دون لويس ، وتذكّروا أن كل هذا لم يكن يهمّهم في شيء ، وصاحب الفندق هو وحده الذي أصرّ على معاقبة المجنون الذي أحدث دائماً الاضطراب في فندقه . وأخيراً هدأ كل شيء : أمّا البرذعة فبقيت سرجاً الى يوم يبعثون ، وصحن الحلاقة خوذة ، والفندق قصراً في ذهن دون كيخوته .

ولمّا عاد السلام ، وعاد الأصدقاء بفضل نصائح المندوب والقسّيس ، بدأ خادم دون لويس من جديد في الضغط عليه للعودة معهم في الحال ، وفي هذه الأثناء استشار المندوب القسّيس ودون فرنندو وكردنيو ، وسرد عليهم الأسباب التي ذكرها الفتى (دون لويس) . فتقرّر أن يقوم دون فرنندو فيعرّف الخادم بنفسه ويقول لهم أن قصده هو أن يأخذ معه دون

لويس الى الأندلس ، حيث يستقبله أخوه المركيز الاستقبال اللائق به : لأنه عرف أن دون لويس يفضّل أن يمزّق إرباً إرباً على أن يعود فوراً الى والده . فلمّا عرف الخادم مكانة دون فرنندو وقرار سيّدهم الفتى ، قرّروا أن يذهب ثلاثة منهم الى أبيه ليخبروه بماحدث ، أمّا الرابع فيبقى مع دون لويس ليخدمه ، ولا يتركه أبداً حتّى يعودوا للبحث عنه أو يعطي الوالد أوامر جديدة . وهكذا انتهت هذه السلسلة الفظيعة من الخلافات والمعارك ، بفضل سلطة الحكيم أجرامنته والملك سوبرينو . لكن عدو السلام ، وخصم الإتفاق ، وقد غاظه تفويت غرضه وامتهانه ، وساءه ضآلة الثمار التي اجتناها من كل هذه المكائد ، قرّر أن يحاول مرّة أخرى ، وأن يثير اضطرابات جديدة ومنازعات جديدة .

ذلك أن الرماة ، لمّا أن علموا بمكانة من كانوا يتضاربون معهم ، انسحبوا بلباقة من المعركة ، معتقدين أنه لابد على كل حال ، أن تدور الدائرة عليهم ، لكن أحدهم ، وهو الذي ضربه دون فرنندو ضرباً مبرحاً ، تذكّر حينئذ أنه من بين قرارات القبض على مجرمين عديدين التي كانت معه ، قرار بالقبض على دون كيخوته ، وأن الأخوة المقدّسة أصدرت أمراً بالقبض عليه لأنه أطلق سراح المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وهو أمر فزع له سنشو وحق له أن يفزع . فأراد هذا الرامي أن يتأكّد هل الأوصاف الواردة في قرار القبض هذا تنطبق على دون كيخوته : ولهذا أخرج من صدره ورقة برشمان أخذ يقرؤها بصعوبة لأنه لم يكن يحسن القراءة ، وعند كل كلمة كان يلقي بنظره على دون كيخوته ، ليقارن بينه وبين الأوصاف الواردة في قرار القبض . فلمّا أيقن أنه هو المطلوب القبض عليه أمسك بالقرار بيده اليسرى ، وباليد اليمنى أمسك بالفارس من بنيقته ، وضغط عليه بشدّة حتّى منعه من التنفّس ، وصاح بأعلى صوته :

«القوة للأخوة المقدّسة! وحتّى لا يحتج أحد بجهله فهذا هو القرار الذي يأمر بالقبض على قاطع الطريق هذا » .

فأخذ القسّيس القرار ، وتفحّصه ، ورأى أن الرامي يقول الحق . فاستشاط دون كيخوته غضباً إذ رأى هذا الجلف يعامله هذه المعاملة ، فأمسكه من حلقه بكلتا يديه بأقوى مايستطيع ، وضغط عليه بشدة حتّى أنه لو لم يهرع اليه رفاقه لفارق الحياة قبل أن يتركه دون كيخوته . واندفع صاحب الفندق لمساعدة رفاقه في الأخوة المقدّسة . ولمّا رأت صاحبة الفندق زوجها يشترك مرة أخرى في العراك ، استأنفت صرخاتها ، واشتركت في ذلك ماريتورنس وابنتها ، متوسلتين الى السماء والى كل من كانوا في الفندق . ولمّا رأى سنشو ماحدث قال : «الله حي! إن مولاي على حق حين يقول إن كل شيء في هذا القصر يتمّ

بالسحر ، إذ لايمكن العيش فيه ساعة في راحة» . وفصل دون فرنندو بين دون كيخوته والرامي ، وماكان أشد رضاهما عن ذلك لأنهما كانا مشتبكين كل الاشتباك الواحد يمسك بنيقة والثاني بخناقه . ومع ذلك لم يكف الرماة عن مطالبة المأمور بالقبض عليه (دون كيخوته) ، وطلبوا المساعدة لتقييده بالأغلال ، ووضعه بين أيديهم ، لأن هذا هو ماتتطلّبه خدمة الملك والأخوة المقدّسة التي باسمها يجب عليهم أن يساعدوهم في القبض على هذا اللص ، قاطع الطريق ، الصعلوك . وضحك دون كيخوته من شتائمهم وقال لهم بكل برود : «تعالوا هنا ياأوباش : أنتم تصفونني بوصف قاطع طريق ـ من يحرّر المغلوبين ، ويخلّص المسجونين ، ويغيث الملهوفين ، ويدافع عن المستضعفين والمظلومين ؟ ياغوغاء ، ياسفلة ، ألا فلتُفهمكم السماء بعقلكم الوضيع ما للفروسية الجوالة من قيمة عالية ، وما أنتم فيه من جهل وخطيئة بعدم توقيركم لظل ولا أقول لحضور فارس جوّال! تعالوا هنا ، يا عصابة اللصوص ، لا يا جماعة الرماة ، ياقطّاع الطرق بإجازة من الأخوة المقدّسة ، قولوا من هو ذلك الجاهل الذي وقّع قرار القبض على فارس مثلي ؟ أو لا يعرف إذن أن الفرسان الجوّالة لا يمكن تقديمهم الى أية محكمة ، وأن قوانينهم هي سيوفهم ، وحقوقهم هي قوّتهم وشجاعتهم ، وقراراتهم هي إرادتهم ؟ من الوقح الذي يمكن أن يجهل أنه لا يوجد مؤهل نبالة يعطي من الامتيازات والاعفاءات ما يعطيه المؤهل الذي يحصل عليه الفارس في اليوم الذي فيه يقبل في طريقه الفرسان ويكرّس نفسه لوظائفها الشاقة ؟ وأي فارس جوّال دفع عشوراً أو مكساً أو ضريبة ، أو عوائد ، أو رسوم نقل أو معدية ، وأي رسوم أخرى ؟ وأي خيّاط جعله يدفع تفصيل حلة ، وأي صاحب قصر طالبه بإجرة المبيت في القصر ؟ وأي ملك لايستضيفه على مائدته ؟ وأي آنسة لم تتوله غراماً بحبّه ، ولم تسلّم نفسها للباقته ؟ وأخيراً ، أي فارس جوّال وجد ، أو يوجد ، أو سيوجد في العالم ، ليست عنده القدرة أن ينهال وحده بأربعمائة ضربة عصا على أربعمائة رامٍ يريدون أن يقفوا في طريقه ؟ » .

الفصل السادس والأربعون

في مغامرة الرماة الفريدة وغضبة فارسنا الطيب دون كيخوته غضبة عظيمة

وبينما كان دون كيخوته يتكلّم هكذا ، كان القسّيس يبذل كل ما في وسعه لإقناع الرماة بأنه عديم العقل تماماً ، كما يستطيعون أن يلاحظوا ذلك من أقواله وأفعاله ، وأنّ عليهم أن لايندفعوا في هذه المسألة الى أكثر من ذلك ، لأنهم حتّى لو أخذوه واقتادوه فسيضطرون بعد ذلك الى الإفراج عنه لأنه مجنون . وعن هذا أجاب حامل قرار القبض بأنه ليس من اختصاصه الحكم على جنون دون كيخوته ، وأن عليه تنفيذ أوامر رئيسه ، حتّى إذا ماقبض عليه فليفرجوا عنه ثلاثمائة مرّة شاءوا . فقال القسّيس : «ومع ذلك كلّه فلن تسوقوه هذه المرّة ، لأنه لن يمكّنكم من أخذه بسهوله» . وأخيراً قال لهم وأطال القول ، ودون كيخوته أبدى من الحماقات ، بحيث كان لابدّ أن يكونوا أكثر منه جنوناً إذا لم يكونوا قد أدركوا أنه مجنون . فهدأوا إذن ، بل وأرادوا أن يصلحوا مابين الحلاق وسنشو وكانا لايزالان في خصام عنيف ، وتوسّطوا بوصفهم من رجال العدالة ، وحكموا حكماً جعل الخصمين شبه راضيين إن لم يكونا راضيين تمام الرضا . وتبودلت البراذع ، لكن بدون السيّور واللجم . أمّا عن خوذة ممبرينو فإن القسّيس أعطى الحلاق ثمانية ريالات دون أن يعرف دون كيخوته ، وأعطاه الحلاق إيصالاً تعهّد فيه بعدم المطالبة بأي شيء ولا بأي تعويض ولا استبدال ، ولا فائدة ، آمين!

فلمّا سكن هذان النزاعان ، وكانا أهم المنازعات ، بقي حمل خدم دون لويس على أن يعود ثلاثة منهم الى أبيه ، ويبقى الرابع في خدمه سيّده الى حيث يلذ لدون فرنندو أن يقتاده ، ولمّا كان حسن الحظ قد بدأ يعلن عن نفسه في صالح العشّاق والشجعان الذين كانوا في الفندق ، فقد شاء حسن الحظ هذا أن يتم عمله ويعطي لكل أمر نهاية سعيدة . فوافق الخدم على كل ما طولبوا به ، وسرّت دونيا كلارا أيما سرور حتّى كان يمكن قراءة

حبورها على وجهها الجميل . أمّا ثريا ، التي لم تفهم كثيراً مما جرى ، فقد كانت تحزن أو تفرح حسبما يظهر على الأخرين ، خصوصاً على وجه نقيبها الاسباني ، الذي ظلّت لاترفع عينيها عنه . أما صاحب الفندق ، وقد شاهد المنحة التي نفح القسّيس بها الحلاق ، فقد طالب بأجر مبيت دون كيخوته ، وثمن الخوابي المهراقة ، وأقسم أنه لن يدع روثينانته ولاحمار سنشو يخرجان من الاسطبل قبل دفع المبلغ الى آخر فلس . ونظّم القسّيس كل شيء ، ودفع دون فرنندو ، وإن كان المندوب عرض أن يتولّى هو الدفع . وأخيراً أعيد السلام ، حتّى أنه بدلاً من خلاف معسكر أجرامنته الذي أشار إليه دون كيخوته ، ساد في الفندق نفس الإنسجام ونفس الهدوء والوفاق الذي كان في عهد أوكتافيوس . وهو أمر أرجع الكل الفضل فيه الى فصاحة القسّيس المقنعة وسخاء دون فرنندو الذي لا ينفد .

فلمّا رأى دون كيخوته أنه تخلّص من كل هذه المنازعات وصار حرّاً ، سواء المنازعات الخاصة به وتلك الخاصة بسائسه فقد وجد أنّ من المناسب أن يتابع رحلته ، وأن يتم المغامرة الكبرى التي دعي لها واختير ، فراح إذن يجثو أمام دوروتيه التي لم تسمح له أن يقول كلمة قبل أن ينهض واقفاً .

فأطاع دون كيخوته وأنشأ يقول :

ـ إنه لمثل سائر ، ياسيّدتي الجميلة ، أن الاجتهاد أبو الحظ السعيد ، وفي الكثير من الظروف الهامة اعترف بأن نشاط التاجر ينهي القضايا الشائكة نهاية سعيدة . لكن هذه الحقائق لا تتجلّى أكثر مما تتجلّى الا في مغامرات الحرب ، حيث السرعة والمبادرة تقضيان على خطط العدو ، وتؤكّد لنا النصر قبل أن يأخذ أهبة الدفاع . وإنّي أقدّم هذه الملاحظات اليك أيتها الأميرة الجليلة السامية المكانة ، لأنه يبدو لي أن مقامنا في هذا القصر لم يعد له عندنا أدنى فائدة ، بل على العكس إنه يمكن أن يضر بنا ضرراً سنتبيّنه ذات يوم . ومن يدري ما إذا كان عدوّك المارد قد علم بالفعل أنني زاحف للقضاء عليه ، وقد تبلّغ تبليغه ذلك جواسيس سرّيون مجدّون ، بينما نحن نترك له الوقت للتحصّن في قصر شامخ لايمكن الوصول اليه ولايستطيع أن يؤثّر فيه اجتهادي ولاقوة ساعدي هذا الذي لايكل ولايتعب ؟ صدّقيني إذن يا سيّدتي ، ولنبادر الى إفساد خطّته ، ولنرحل فوراً ، لأنه لتحقيق أمانيك لايتوقّف الأمر إلا على أن أوجد في حضرة عدوّك » .

وسكت دون كيخوته منتظراً في لهفة جواب الأميرة الجميلة وريثة العرش ، التي قالت في جلال يتفق مع أسلوب بطلنا : أشكر لك أي سيّدي الفارس ، رغبتك في مواساتي في محنتي ، بوصفك فارساً طيّباً شريفاً ، اليه وحده وكلت إغاثة اليتامى والمساكين . ولتحقّق

السماء أمانيك وأمانيّ ، حتّى تثق بأن في العالم سيّدات يعترفن بالجميل! أمّا عن وجوب الرحيل فوراً ، فأنا أوافق على ذلك ، لأنه لا مشيئة لي إلا مشيئتك . فتصرّف فيّ كما يحلو لك : فتلك التي وكّلت اليك الدفاع عن شخصها ، وتضع بين يديك أعزّ مصالحها ، يجب عليها ألا تسمح بشيء يتنافى مع ماتأمر به فطنتك» .

فقال لها دون كيخوته : «في حفظ الله! فمادامت سيّدة عظيمة مثلك تتواضع أمامي هكذا ، فإنّي لاأريد أن أضيّع الفرصة لرفعها وتنصيبها على عرشها الموروث . فلمنض فوراً . إنّ اللهفة وطول الطريق يحثّانني ، وكما قلت لكِ إنّ الخطر هو في التأخّر . ولمّا كانت السماء لم تخلق ، والجحيم لم ينتج شيئاً يخيفني ، فاذهب ياصاحبي سنشو ، وشد سرج روثينانته ، وأعد حمارك وفرس زينة الملكة ، ولنودّع السيّد رب القصر وكل الفرسان ، ثمّ نرحل من هنا » .

وكان سنشو حاضراً هذا الحديث ، فقال وهو يهزّ رأسه : آه ، يامولاي ، إن في القرية من الشر أكثر مما تظن ، أقول هذا ولا أهين أحداً .

فقال دون كيخوته : وأي شر يمكن أن يكون هناك ، ياوغد ، في أي قرية أومدينة في الدنيا يمكن أن يضر بي ؟

فأجاب سنشو : أوه! إذا كنت ستغضب فإني سأسكت ، ولن أقول لك أبداً ما أعتقد أنّي ملزم بإفشائه إليك ، بوصفي سائساً جيداً ، وخادماً أميناً ينبغي عليه أن يؤدّي واجبه نحو سيّده .

فقال دون كيخوته : قل إذن ما تريد أن تقوله ، بشرط ألا تهدف كلماتك الى تخويفي . إذا كنت خائفاً ، فافعل ماتراه ، أمّا عن نفسي ، أنا الذي لايعرف أبداً عاطفة الخوف ، فإنّي أقوم بواجبي .

فأجاب سنشو : ليست هذه هي المسألة ، وياويلي أنا الخاطئ ، بل أقول وأقرّر أن هذه السيدة ، التي تقول عن نفسها أنها ملكة على مملكة ميكوميكون العظمى ، ليست ملكة كما أنّ أمّي ليست كذلك : لأنها لو كانت كما تقول لما ذهبت في كل ساعة وفي كل لقاء ، تقبّل رجلاً ها هنا .

ولدى سماع هذه الكلمات احمرّت دوروتيه خجلاً كاحمرار الجمر : لأنه من الصحيح أن زوجها دون فرنندو ، كان أحياناً ، يختلس بعض القبلات من شفتيها ثمناً حلواً لغرامه . وشاهد سنشو هذا الأمر ، ووجد أن هذه الأحوال أقرب أن تكون من شأن خليلة لا من شأن ملكة على مملكة عظيمة . ولهذا لم تستطع دوروتيه أن تنطق بكلمة ، وتابع سنشو كلامه :

« أقول لك هذا ياسيّدي ، قبل أن نجتاز الدروب في الجبال والأودية ، ونمضي ليالي رهيبة وأيّاماً أسوأ . وإذا بأحد من في هذا الفندق يأتي ليقتطف ثمار أعمالنا ، فلا يكون ثمّ فائدة في التلهّف على شد سرج روثينانته ، ووضع البرذعة على حماري ، وليغزل كلٌّ بمغزله ، ولنعش » .

يا إلهي! من ذا الذي يستطيع أن يصوّر غضب دون كيخوته لدى سماعه الكلام الوقح الذي تفوّه به سائسه ؟! غضب غضبة هائلة ، وصار يتمتم في غضبه وينطلق الشرر من عينيه ، وقال له :

ـ أيها الوغد ، الجلف ، الجاهل ، الأحمق ، القليل التربية ، الفدم ، الوقح ، الفاجر ، الواشي ، المدنّس ، أتجرؤ أن تقول مثل هذا الكلام ، في حضوري ، أمام السيّدة الرفيعة المقام ؟ وكيف يمكنك أن تضع في خيالك الدنيء أفكاراً طائشة خسيسة كهذه ؟ غر من أمام عينيّ ، يا وحش الطبيعة ، ومستودع الأكاذيب ، ومخزن التزييفات ، وصومعة الخساسات ، ومخترع الخبائث ، وراوي المبالغات ، وعدو الاحترام الواجب للشخصيّات السلطانية . امش! ولاتعد للظهور أمامي أبداً ، وإلا صببت عليك جام غضبي!

وكان وهو يقول هذه الكلمات ينفخ صدغيه ، ويقطّب مابين حاجبيه ، ويتلفّت في كل ناحية بناظريه ، ويضرب الأرض بقدميه ، وهي علامات جليّة على الغضب الذي كان قد استبدّ به . ولدى سماع هذه الكلمات الرهيبة ورؤية هذه الحركات الهائجة ، ظلّ سنشو مذهولاً حائراً ، حتّى كان يود لو اتسعت الأرض تحت قدميه وابتلعته ، ولمّا لم يدر ماذا يفعل . أدار كتفيه وابتعد عن مولاه الغاضب الهائج . ولكن دوروتيه العاقلة التي عرفت تماماً مزاج دون كيخوته قالت له تهدّئه : « لا تغضب ، أيها الفارس الحزين الطلعة ، من الحماقات التي نطق بها سائسك الطيّب : إنه لم يقلها بدون سبب ، ثمّ إن طبيعته الساذجة وضميره لا يمكنان من اتهامه بالرغبة في الإضرار بشخص عن طريق شهادة زور . ولهذا ينبغي أن نعتقد ، بغير شك ، أنه مادام كل شيء في هذا القصر يتم بالسحر ، كما قلت ذلك أنت نفسك ، ياسيدي ، فلا بدّ أنّ سنشو قد رأى الأمور التي تحدّث عنها ، رآها عن هذا الطريق الشيطاني ، وهي أمور تمس شرفي مسّاً خطيراً » .

فأجابها دون كيخوته : بحق الله العلي العظيم! إن عظمتك قد أصابت الهدف : ولابدّ أن رؤيا شرّيرة سحرت عيون هذا المذنب المسكين ، وجعلته يرى مالا يمكن أن يُرى إلا بالسحر ، لأنّي أعرف جيّداً براءة هذا الشقي وطيبته بحيث لاأظنّه قادراً على شهادة الزور .

فقال دون فرنندو : لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا : ولهذا عليك يا سيّد دون كيخوته أن تعفو عنه ، وترضى كما كنت عنه راضياً قبل هذه الرؤية .

فقال دون كيخوته : عفوت عنه .

وذهب القستيس لإحضار سنشو الذي قام ذليلاً متواضعاً ، وجثا على ركبتيه أمام سيّده ، وقبّل يده ، فباركه دون كيخوته وقال له : الآن ياولدي سنشو ،. عليك أن تعترف بالحقيقة التي طالما قلتها لك مراراً وتكراراً وهي أنّ كل شيء في هذا القصر يتم بواسطة السحر .

فقال سنشو : وأنا أعتقد ذلك أيضاً ، فيما عدا الوثبات على الملاءة ، فقد وقعت فعلاً وبطرائق طبيعية جداً .

فقال دون كيخوته : لاتظنّن هذا ، لأنه لو كان هذا حقّاً لكنت قد انتقمت لك في الحال والآن أيضاً ، لكن لم أكن أدري في ذلك الوقت ولا في هذه اللحظة ممن أنتقم من الفعلة التي فعلوها بك .

وأرادت الجماعة كلّها أن تعرف ماهذه الملاءة ، فروى صاحب الفندق بالتفصيل تحليقات سنشو پنثا في الهواء وتطويحاته : مما أثار ضحكاً غير قليل في نفوس الجميع ، وغضباً في نفس سنشو ، الذي كان سيغضب فعلاً لو لم يؤكّد له مولاه من جديد أن ذلك كان من عمل السحر . ومع ذلك ففي أعماق قلبه لم يذهب جنونه الى حد الظن أن التطويح بواسطة ناس من لحم وعظم ، لابواسطة أشباح ، كما يدّعي مولاه ، لم يكن حقيقة ثابتة يقينية ليس فيها أدنى تمويه ولاوهم .

وكان قد مضى يومان على مقام هذه الجماعة الجليلة في الفندق . فقرّروا الرحيل ووضع حد لقصّة الملكة ميكوميكونا ، ليجنّبوا دون فرنندو ودوروتيه مشقّة إعادة دون كيخوته الى قريته ، فبحثوا إذن عن وسيلة يتمكّن بها الحلاق (الأسطى نقولا) والقسّيس من إعادته الى بلده كما أرادا ، ابتغاء محاولة علاجه . وكانت هذه الوسيلة هي التفاهم مع سائق عربة يمر من هنا لإعادة دون كيخوته بالطريقة التالية : أمروا بصنع نوع من القفص ، مؤلّف من قطع من خشب معشّقة ، وقادر على أن يوضع فيه وضعاً مستريحاً ، ولمّا تمّ صنع هذا القفص ، دخل دون فرنندو وأصحابه وخدم دون لويس والرماة وصاحب الفندق نفسه ، بعد أن تنكّروا بأشكال مختلفة ، وفقاً لمشورة القسّيس ، حتّى لايتعرّفهم نزلاء الفندق ، دخلوا جميعاً في صمت غرفة فارسنا دون كيخوته وكان ينام ويستريح من متاعبه ، وفكره أبعد ما يكون عن هذه المغامرة : وأمسكوا به وأوثقوا قدميه ويديه بشدّة ، حتّى أنه لمّا استيقظ

فجأة لم يستطع التحرك وظلّ حائراً مسكر البصر عندما رأى هذه الوجوه الغريبة العجيبة . هناك فكّر فيما صوّره له خياله المجنون باستمرار : لقد اعتقد أن هذه الوجوه هي أشباح القصر المسحور ، واعتقد أنه هو نفسه مسحور ، لأنه لم يستطع التحرك ولا الدفاع عن نفسه . وهكذا تمّ كل شيء كما قدّر القسّيس الذي دبّر الأمر بمكر وبمهارة .

ولكنّ سنشو ، وحده بين الحاضرين ، احتفظ بوجهه وسلامة حسته المعتادة . ولو أنه لم يكن بعيداً كثيراً عن المشاركة في جنون مولاه ، فإنه لم يخطىء في تعرّف كل هؤلاء المتنكّرين ، بيد أنّه لم يجرؤعلى أن يفتح فمه الى أن عرف ماسيحصل عن هذه المفاجأة وأسر دون كيخوته . وهذا هو الآخر لم ينطق بكلمة ، منتظراً نهاية محنتة ، التي انتهت بالطريقة التالية : وضع في القفص ، وسمّر القفص بشدّة حتّى لايستطيع هو أن يزعزعه ، ثمّ حملوا القفص على أكتافهم ، ولمّا أخرجوه من الغرفة نطق صوت رهيب ، هو صوت الأسطى نقولا ، بهذه العبارات :

« أيها الفارس الحزين الطلعة! لاتحزن على أسرك : إنه ضروري لوضع حد ، في وقت مبكّر ، للمغامرة التي حملتك عليها شجاعتك العظيمة ، وسينتهي حين يصبح أسد المنتشا الرهيب وحمامة توبوسو البيضاء شخصاً واحداً ، بعد أن يحنيا رأسيهما الشامخين تحت نير الزواج العذب الرقيق . ومن هذا الإقتران الذي لانظير له سيخرج ويلمع على نور الدنيا الأشبال الشجعان الذين لم يقلّوا إثارة للرهبة من أبيهم الشجاع الباسل . وهذه الأحداث ستقع قبل أن يزور ذلك الذي يلاحق باستمرار الحورية[1] الهاربة ـ يزور مرّتين بمجراه الطبيعي السريع الصور اللامعة في القبّة المرصّعة بالنجوم . وأنت ، ياأنبل وأطوع سائس حمل سيفاً في جانبه ولحية في ذقنه ، وتمتّع بحواسه الطبيعية الخمس باستمرار ـ لاتحزن إذا رأيت زهرة الفروسية الجوّالة تقاد هكذا على مرأى من ناظريك : لأنه بعد قليل ، لوشاء خالق الدنيا ، سترى نفسك قد ترقّيت الى منصب رفيع جداً الى حد أن تنكر ذاتك ، ولن تذهب الوعود التي وعدك بها مولاك سدى . وأشهد لك ، باسم متنيرونيانا العاقلة[2] ، أنّ أجرك سيدفع لك بنبالة ، وستشعر بآثار هذه النبوءة . اقتف آثار سيّدك الباسل في سحره ، لأنه يخلق بك أن تصحبه الى النقطة التي يجب عليكما أن تتوقّفا عندها . ولمّا لم يكن مسموحاً لي أن أقول شيئاً آخر ، فإنّي أقول وداعاً ، وأعود الى حيث أعلم حقّاً » .

---

(١) إشارة الى اسطورة أبولون ودافنيه (ومعناها باليونانية : شجر الغار) حورية أحبها أبولون ، وطاردها ، فهربت منه ، الى أن كان على وشك الإمساك بها فطلبت من أبيها أن يحوّلها ، فتحوّلت الى شجرة غار ، وهي شجرة محبّبة الى الاله .

(٢) كلمة ، القسم الأول منها مؤلّف من Mentir = كذب .

وقوّى الحلاق صوته وهو يختم هذه النبوءة ، ثمّ أضعفه شيئاً فشيئاً ، بفن ومهارة ، حتّى أنّ أولئك الذين عرفوا الخدعة جال بخاطرهم أنها حقيقة واقعية . أمّا دون كيخوته فإن وعود الوحي واسته خير مواساة : وأدرك معناها تماماً ، ورأى أنهم يراودونه بأمل الإرتباط بالروابط المقدّسة لزواج شرعي من حبيبته دلثنيا دل توبوسو ، وأنه من هذا الزواج سيولد أشبال ، وهم أولاده ، في سبيل مجد إقليم المنتشا العظيم . فامتلأ إيماناً بهذا الوحي ورفع صوته وقال وهو يتنهّد تنهّداً عميقاً :

ـ أي أنت ، أيّاً من كنت ، يامن تعدني بهذا المستقبل الزاهر ، استحلف ، باسمي ، الساحر الحكيم الذي يعنى بشؤوني ، ألا يدعني أهلك في هذا السجن الذي يجرونني فيه ، قبل أن أرى هذه الوعود المعسولة الرائعة التي لانظير لها تتحقّق . فإن استجاب الى طلبي ، فسأفخر بأسري ، وسأرى لذة في الأغلال التي تقيّدني ، وهذا السرير الذي أرقدوني عليه لن يبدو لي ساحة قتال عنيف ، بل فراش زواج فاخر وثير . أمّا المواساة التي قدّمتها الى سنشو پنثا ، سانسي ، فإنّ طيبته ووسائله الشريفة تؤكّد لي أنه لن يتخلّى عنّي أبداً في السرّاء والضرّاء ، وإذا حدث ، لسوء حظّه وحظّي ألا أتمكّن من إعطائه الجزيرة التي وعدته بها ، أو شيئاً مماثلاً ، فإنه على الأقل لن تضيع عليه إجرته : لأنني قرّرت في وصيّتي ماأردت أن يعطى له ، لا بما يتكافأ مع خدماته الجليلة ، بل على الأقل بحسب مواردي » .

فانحنى سنشو باحترام ، وقبّل يد مولاه ، لأنّها كانتا موثقتين معاً . وفي اللحظة نفسها رفعت الأشباح القفص ووضعوه على العربة ، وكانت تجرّها الثيران .

الفصل السابع والأربعون

في الطريقة الغريبة التي بها سحر دون كيخوته وحوادث عجيبة أخرى

ولمّا رأى دون كيخوته نفسه موضوعاً في القفص على هذا النحو فوق العربة أنشأ يقول :

ـ لقد قرأت الكثير من قصص الفرسان الجوّالة وأهمّها ، لكنّي لم أقرأ أبداً ولم أرَ ولم أسمع أنّ الفرسان المسحورين يساقون بهذه الطريقة ، بهذا السير البطيء المتراخي لهذه الدواب الكسول . بل العادة جرت أن يحملوا في الهواء ، بسرعة جبّارة خارقة ، مدثرين في غمام وغيوم ، أو في عربة من النار ، أو على فرس طائر أو أي حيوان مائل ، لكن أن أساق هكذا على عربة يجرّها الثيران فبالله أن هذا يثير الحيرة في نفسي . ومع ذلك فقد يجوز أن تكون الفروسية وأنواع السحر في هذا العصر مضطرّة الى سلوك طريق آخرغير طريق القرون الماضية ، وربّما أيضاً ، لأنني فارس جديد في هذا العالم ، وأوّل من بعث طريقة الفروسية الجوّالة بعد أن طواها النسيان ، أقول ربّما اخترعت أنواع أخرى من السحر وطرق أخرى في قيادة المسحورين . ما رأيك في هذا يا ولدي سنشو ؟

فأجاب سنشو : لا أعرف ما هو رأيي ، لأنّي لم أستطع مثلك أن أقرأ قصص الفرسان الجوّالة ، لكنّي مع ذلك كلّه أجرؤ على أن أؤكّد بل وأن أقسم أن الأشباح التي تحيط بنا ليست كاثوليكية[1] أبداً .

فقال دون كيخوته : كاثوليكية! يأبانا الأزلي! أنّى لها أن تكون كذلك ، وهي جن اتخذوا أجساماً عجيبة لصنع كل هذه الأمور ووضعي في هذه الحال ؟ وإذا أردت أن تعلم الحقيقة ، تحسّسها ، مسّها ، وسترى أنه ليست لها أجسام غير الهواء ، وأنها ليست مظاهر تتراءى وخيالات .

---

(١) بالمعنى المجازي : أي طيبة .



دون كيخوته يوضع في القفص الذي ستحمله العربة

فقال سنشو : والله يامولاي لقد لمستها : فهذا الشيطان الذي تراه مشغولاً هكذا له بشرة بيضاء رقيقة ناعمة ، ويملك صفة تختلف تماماً عن تلك التي تعزى الى الجن : إذ يقال عادة أن رائحة الجن تشبه رائحة الكبريت أو رائحة أخرى كريهة ، أمّا هذا فيشم العنبر منه على مسافة نصف فرسخ » .

وكان سنشو يقصد دون فرنندو الذي كان كثير التطيّب بالعطور ، شأن كل نبيل عظيم .

فقال دون كيخوته : لاتدهش لهذا أبداً ، فالشياطين واسعو الحيلة جداً ، فعلى الرغم من أنهم يحملون روائح معهم ، فإنهم بذاتهم لارائحة لهم ، فلا بدّ أن تكون مقزّزة كريهة : والسبب في ذلك أنهم يجرّون الجحيم معهم ، دون أن يستطيعوا أن يظفروا بما يخفف آلامهم : وهكذا نرى أنه لمّا كانت الرائحة الزكية شيئاً يسر ويلذ ، فليس من الممكن أن تكون رائحتهم طيّبة . فإذا كان هذا الشيطان يبدو لك أنه يشتم منه العنبر فإمّا أنك واهم تخدع نفسك ، وإما هو الذي يخدعك حتّى لاتدرك أنه جنّي » .

وأثناء هذا الحديث بين المولى والخادم ، أراد دون فرنندو وكردنيو التعجيل برحيلهم خوفاً من أن يكتشف سنشو حيلتهم تماماً ، فانتحيا بصاحب الفندق ناحية ، وطلبا منه أن يشد السرج في روثينانته ويضع البرذعة على الحمار ، وهو مافعله في الحال . واتّفق القسّيس مع الرماة لاقتياده الى ضيعته . وعلّق كردنيو في سرج روثينانته الترس في جانب ، وصحن الحلاقة في الجانب الآخر ، وأشار الى سنشو بركوب حماره واقتياد روثينانته من لجامه . وجلس الرماة على جانبي العربة ومعهم الاسكو يتات لكن قبل قبل أن يخرج من الفندق جاءت صاحبة الفندق وبنتها وماريتورنس لوداع دون كيخوته ، وتظاهرن بالرثاء له في محنته . فقال لهن :

ـ لا تبكنّ أبداً ، أيتها السيّدات الطيّبات ، فهذه أحداث عارضة تقع لمن يمارسون المهنة التي أشرّفها ، ولو لم تقع لي ، لما عددت نفسي فارساً جوّالاً شهيراً : لأن مثل هذه الأحداث لا تقع أبداً لمن شأنهم ضئيل ، وتنطفئ ذكراهم معهم ، لكنها من نصيب الفرسان البواسل الذين يحسدهم الأمراء والفرسان الآخرون الحريصون على القضاء على الأخيار . ورغم ذلك ، فإن للفضيلة من القوة وحدها ، بالرغم من كل سحر زرادشت ، أوّل من اخترع السحر ، بحيث تخرج منتصرة في النضال ، وتنشر على الأرض نوراً لا يقل سطوعاً عن نور الشمس في كبد السماء . فاغفرن لي ، أيّتها السيدات الجميلات ، إذا كنت ، عن غير قصد منّي ، قد سبّبت لكن بعض المضايقات ، ذلك أنّي لم أتعمّد هذا أبداً . وادعنَ الله أن

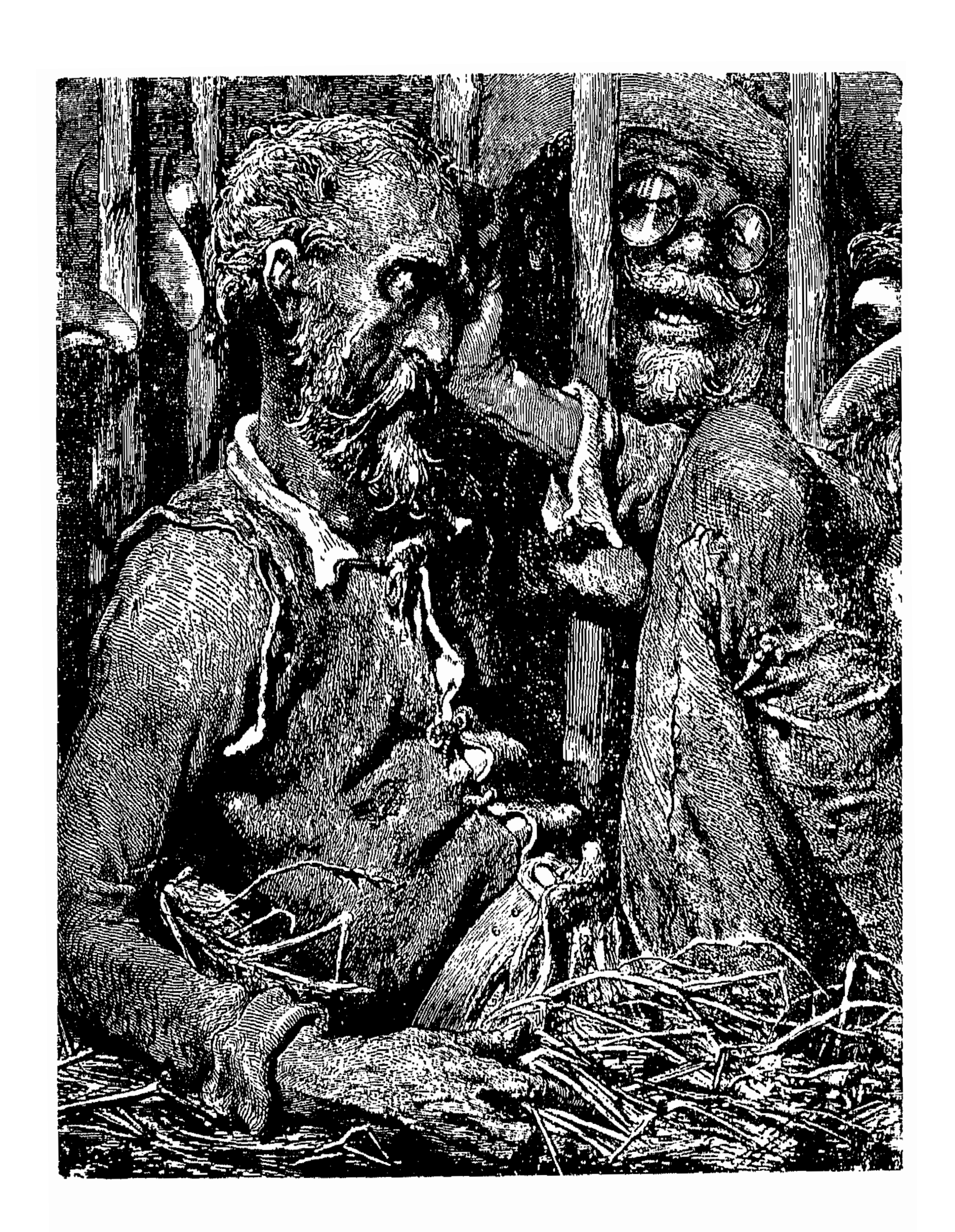
يخلّصني من هذا السجن الذي يحبسني فيه ساحر خبيث ، وحينما أخرج منه فإنّي لن أتذكّر الخدمات التي أسديتهن لي في هذا القصر إلا لكي أعترف بها كما تستحق ، أوقّركن وأخدمكن » .

وخلال هذه الخطبة الجميلة ، ودع الحلاق والقسيس دون فرنندو وأصحابه ، والنقيب (الأسير) وأخاه ، وكل السيّدات ، دون أن ينسيا لوسنده ودوروتيه . وقبّل بعضهم بعضاً وتواعدوا فيما بينهم أن يتبادلوا الأنباء . وطلب دون فرنندو من القسّيس أن يبلّغه بكل ماسيحدث لدون كيخوته مؤكّداً أن هذا يسرّه كل السرور ، وأنه من ناحيته سيخبره بكل مايهمّه : بزواجه وتعميد ثريا ونجاح دون لويس وعودة لوسنده الى بيتها . وتبادلوا القبل والعناق مرة أخرى ، وعرض بعضهم على البعض الآخر تبادل الخدمات . وسلّم صاحب الفندق الى القسّيس أوراقاً وجدها في بطانة الحقيبة التي وجدت فيها قصّته (المستطلع الفاسد الرأى) ، وقال له أن في وسعه أن يأخذها كلّها لأن صاحب هذه الحقيبة لم يعد . فشكر له القسّيس ذلك ، وتأمّل في هذه الكرّاسة ورأى أنه كتب عليها العنوان التالي : « أقصوصة رنكونيته وكورتاديو[١] » ، وفكّر أنّ من الممكن ألا تكون أقصوصة رديئة ، لأن قصة « المستطلع الفاسد الرأى » كانت جيّدة ، ويجوز أن تكون كلتاهما لمؤلّف واحد ، ولهذا أخذها معه ليقرأها على مهل . وركب هو والحلاق (الأسطى نقولا) الفرس ، واحتفظا بقناعيهما حتّى لايتعرّفهما دون كيخوته في الحال ، ثمّ سافرت القافلة على الترتيب التالي : سارت العربة أوّلاً في المقدمة يسوقها صاحبها ، وعلى جانبها كان الرماة ومعهم بنادقهم الاسكو يتات ، يتلو ذلك سنشو راكباً حماره ، وممسكاً بلجام روثينانته ، والحلاق والقسّيس في المؤخّرة وعلى سيمائهما الجد ، يركبان بغلين قويّين ، وعلى وجهيهما قناعات ، وكان سير الموكب على حسب سير الثيران البطيء ، وكان دون كيخوته جالساً في قفصه ، ماداً قدميه على العصي ، ويداه موثقتان ، وهو صامت لايتحرك حتّى يظن أنه رجل من حجر . وساروا فرسخين في صمت ، وجدوا أنفسهم بعدهما في وادٍ أراد سائق العربة أن يجعل ثيرانه ترعى فيه ، لكنّ الحلاق نصح بالتقدّم قليلاً ، لأنه وراء أكمة يرونها من مكانهم يوجد وادٍ آخر ، العشب فيه أغزر وأحسن . وتابعوا على إشارته ، واستأنفوا السير .

وفي هذه اللحظة أدار القسّيس رأسه ، فشاهد خلفه ستة أو سبعة من رجال على خيول مجهّزة ، سرعان مالحقوا بهم ، لأنهم لم يكونوا يسيرون ببطء مثل سير الثيران ، بل كانوا

---

(١) إحدى أقاصيص المجموعة التي عنوانها « أقاصيص نموذجية » لثربانتس ، وظهرت سنة ١٦١٣ .



دون كيخوته في داخل القفص

راكبين على بغال كاهن ، ويرغبون في الوصول بسرعة الى فندق يبعد بمقدار فرسخ تقريباً . فحيّا الراكبون أصحاب الموكب الهادىء بأدب ، ولمّا أبصر أحدهم ، وهو كاهن طليطلة ، ورئيس الباقين ، هذا الموكب الفريد المؤلّف من العربة والرماة وسنشو وروثينانته والحلاق والقسّيس ، وخصوصاً منظر دون كيخوته وهو في القفص ، لم يتمالك من أن يسأل من هذا الرجل الذي يقتادونه هكذا ، وخيّل اليه وقد رأى شارات الرماة ، أنه لابدّ أن يكون لصّاً أو أي مجرم آخر ، عقابه من اختصاص الأخوة المقدسة . فأجابه أحد الرماة وكان السؤال اليه : « ياسيّدي! على هذا الفارس نفسه أن يخبرك لماذا يقتاد هكذا : لأننا لاندري شيئاً » . فلمّا سمع دون كيخوته هذه الكلمات قال : « سيّدي الفارس! هل أنت مطّلع على علم الفروسية الجوّالة ؟ إن كان الأمر كذلك رويت لك مصائبي ، وإن لم تكن فلا فائدة في أن أتعب نفسي بالتكلّم معك » . وفي هذه اللحظة اقترب الحلاق والقسّيس ، لمّا شاهدا الراكب يتكلّم مع دون كيخوته ، لكي يخبراه دون أن يكشفا عن حيلتهما . فأجاب الراكب موجهاً الكلام الى دون كيخوته : « الحق ياأخي أنني قرأت في كتب الفروسية أكثر مما قرأت في « المتون الصغرى » التي ألّفها بيابندو[1] Villapando : فإذا كان الأمر لايتوقّف إلا على هذا ، فيمكنك أن تقول لي كل مايحلو لك » .

فقال دون كيخوته : « الحمدلله ، اعلم إذن ، ياسيّدي الفارس ، أنني مسحور في هذا القفص بحيلة وبسبب غيرة سحرة خبثاء : لأن الفضيلة يضطهدها الأشرار أكثر مما يحبّها الأخيار . أنا فارس جوّال ، لامن أولئك الذين لم تخلّد الشهرة أسماءهم ، بل من أولئك الذين ـ على الرغم من الحسد ، ومن كل ماأنتجته فارس من مجوس ، والهند من براهمة ، والحبشة من حكماء عراة ـ ينقشون أسماءهم في معبد الخلود ، ليكونوا ، في القرون المقبلة ، قدوة وأنموذجاً للفرسان الجوّالة ، في الطريق الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه إذا شاءوا أن يبلغوا قمّة المجد » .

فقال القسّيس : « نعم إن السيّد دون كيخوته يقول الحق : إنه مسحور على هذه العربة ، لابسبب أغلاطه أو خطاياه ، بل من جراء سوء أولئك الذين تؤذيهم الشجاعة ، وتهينهم الفضيلة . إنك ترى أمامك الفارس الحزين الطلعة الذي ربّما سمعت الناس يتحدّثون عنه ، والذي سننقش أعماله العظيمة ومغامراته الخالدة على البرونز ، وتخلّد على المرمر ، برغم مايبذله الحسد من جهد لتعكير لمعانها ، والخبث لدفنها في النسيان » .

---

(١) عالم باللاهوت قدير ، ولد في أشقوبيه ، وكان رفيع المكانة في عصره ، وألّف عدة متون في الدين ، وبرز في مجمع ترنيت لطول باعه وغزارة علمه . ولد في القلعة سنة ١٥٥٧ ، وصار استاذاً في جامعتها . وكان كتابه هذا وعنوانه Summa Summularum (خلاصة الخلاصات) متن التدريس في المنطق في تلك الجامعة ، بينما في سائر الجامعات كانت تقرأ متون دومنجو سوتو .

فلمّا سمع الكاهن السجين (دون كيخوته) ومن كان مطلق السراح (القسّيس) يتكلّمان بنفس الإسلوب ، دهش كل الدهشة حتّى أوشك أن يرسم علامة الصليب ، ولم يدرِ ماذا يفعل ، وكل أولئك الذين كانوا في صحبته لم يكونوا أقل منه إندهاشاً . وكان سنشو قد اقترب ليسمع هذه الأحاديث ، فأراد أن يوضّح الأمر فقال : «ياسادتي ، رضيتم عمّا أقول أو لم ترضوا ، الحقيقة أن مولاي دون كيخوته مسحور مثل أمّي : فعقله سليم ، ويشرب ، ويأكل ، ويقضي حاجته مثل سائر الناس ، وكما قضاها بالأمس قبل أن يدخل في هذا القفص . ولمّا كان الأمر هكذا ، فكيف يراد إقناعي بأنه مسحور ؟ لقد سمعت من كثير من الناس بأن المسحورين لايمكنهم أن يأكلوا ولا أن يناموا ، ولاأن يتكلّموا ، ولكنّ مولاي ، إذا لم يقاطعه أحد ، يتكلّم مثل ثلاثين من النواب العموميين » . ثمّ تلفّت ناحية القسّيس وقال : «آه! ياسيّدي القسّيس ، ياسيّدي القسيس! فضيلتك تحسب أنني لاأفطن لهذا ولاأهدف الى أي أمر تهدف هذه السحرات الجديدة . إذن فاعلم أنني أعرف من أنت ، وإن كنت تخفي وجهك ، واعلم أنّي أدركت غرضك ، وإن كنت تموّه عن خداعك ، لكن حيث يسود الحسد لا تستطيع الفضيلة أن تعيش ، ولاالسخاء مع البخل . وعلى الرغم من الشيطان فإنه لولا فضيلتك لكان مولاي ، في هذه الساعة ، متزوّجاً من وريثة العرش الأميرة ميكوميكونا ، ولكنت أنا كونتاً على الأقل ، لأني لاأطمع في أكثر من ذلك في طيبة مولاي الفارس الحزين الطلعة ، ومن عظمة الخدمات التي قمت أنا بها . ولكن الناس على حق حين يقولون أن عجلة الحظ تدور أسرع من عجلة الطاحون ، وأن أولئك الذين كانوا بالأمس في القمة صاروا اليوم في الأرض . إنّي لا آسف إلا من أجل أولادي وزوجتي : فحين جاز لهم بل وجب عليهم أن يأملوا في رؤية أبيهم وقد عاد إليهم حاكماً أو نائب ملك لجزيرة أو مملكة ، سيرونه وقد عاد إليهم وهو يرتدي زي بغّال . وما قلته لك ياسيّدي القسّيس ليس الا لإثارة أبوّتك لتلوم نفسها على سوء المعاملة التي تعامل بها مولاي : حذار أن الله سيحاسبك ، في الحياة الآخرة ، على سجنك له وعلى الخير العظيم الذي كان سيفعله لو لم يحبس » .

فصاح الحلاق : «لم يكن ينقص إلا هذا! هل أنت ياسنشو من جماعة مولاك ؟ الله حي! أنت تستحق أن تشاركه القفص ، إذ يبدو أنك لابد مسحور مثله فيما يتعلّق بالفروسية . لقد أسأت اختيار وقتك لتصبح منفوخاً بوعوده وتملأ مخك بتلك الجزيرة التي طالما اشتقت اليها! » .

فقال سنشو : «إنّي لست منفوخاً بشيء ، ولست ممن ينفخهم أحد ، حتّى لو كان الملك نفسه . فعلى الرغم من أنّي فقير فاني مسيحي عجوز ، ولا أدين لأحد بشيء . وإذا

كنت أرغب في جزر ، فغيري يرغب فيما هو أسوأ من ذلك ؛ وكل إنسان ابن أعماله ، إنني إنسان ، وبوصفي إنساناً فمن الممكن أن أصبح أباً ، وبالأحرى أن أصبح حاكماً على جزيرة إذا ظفر مولاي بجزر عديدة لايدري لمن يعطيها . فاحذر ماتقول ياسيّدي الحلاّق ، ليست حلاقة الذقون هي كل شيء ، ويوجد فرق بين بطرس وبطرس ؛ أقول لك هذا لأننا نعرف بعضنا بعضاً ، وما أنا بالرجل الذي يضحك عليه . أمّا عن سحر مولاي فالله أعلم بالحقيقة . فلنقف عند هذا ، إذ ليس من الخير أن نلحّ عليه» .

لم يرد الحلاق أن يرد على سنشو حتّى لايكشف بسذاجته عمّا حاول هو والقسّيس إخفاؤه . وللسبب نفسه دعا القسّيس الكاهن وأصحابه أن يتقدّموا قليلاً معه ، ليفضى اليهم بسر القفص وأمور سارة أخرى . فأصغوا بإعجاب الى كل ماذكره عن حال وحياة وأخلاق وجنون دون كيخوته ، وعرض في كلمات قليلة... الأصل في تهاويله ومسارها ، حتّى حبس في هذا القفص لإعادته الى بيته ومحاولة علاجه . فبدت لهم تفاصيل هذه الحكاية مذهلة ، ولمّا توقّف عن الكلام قال له الكاهن :

ـ الحق يا سيّدي أنّي أرى عن نفسي أنّ كتب الفروسية هذه ضارة بالدولة ضرّراً بالغاً جداً . دعاني فساد الذوق وكثرة الفراغ الى أن أقرأ بداية كل ماطبع منها تقريباً ، لكنّي لم أصبر أبداً على إتمام قراءة واحد منها ؛ إذ يبدو لي أنها تكاد تتشابه كلها ، ولا يجد المرء في الواحد أكثر منا يراه في الآخر . وعندي أنّ هذا اللون من التأليف قد تولّد عن الخرافات الميلازية القديمة ، وهي قصص مضحكة لاتستطيع الا الترويح عن النفس دون إفادتها مثل الأمثال التي تجمع بين المتعة والفائدة . وأنّى لهذه الكتب أن تمتّع وهي حافلة بأمور لامعقولة عديدة ؟ إن متع العقل تتولّد من الجمال والتوافق بين الأشياء التي نراها أو التي تتراءى لخيالنا ، بينما كل ماينطوي في داخله على قبح أو تشويه فإنه لايرضي العقل . فقل لي إذن أي جمال تجده ، وأي إنسجام بين الأجزاء والكل ، والكل والأجزاء ، في خرافة تجد فيها صبيّاً في سن السادسة عشرة يشطر الى نصفين ، بضربه واحدة من ظهر سيفه ، مارداً هائلاً إرتفاعه كالبرج ، وكأنه من السكّر ؟ وإذا أراد هؤلاء المؤلّفون أن يصفوا معركة فماذا يقولون ؟ بعد أن ينهبونا مقدّماً الى أن جيش الأعداء مؤلّف من مليون محارب ، يكفي أن ينازلهم بطل الكتاب كي نراه وحده ضدّهم ، ينتصر بقوّة ساعده . وماذا نقول عن السهولة التي بها ملكة ، ووريثة امبراطورية عظيمة ، تلقي بنفسها بين أحضان فارس مجهول ؟ وأي عقل ، إذا لم يكن عقلاً همجيّاً ، يكن أن يقتنع حين يقرأ أن برجاً عاليا مليئاً بالفرسان ، يسبح في عرض البحر ، كالسفينة والريح مواتية ، وأن يكون في لومبارديا هذا المساء ،

وغداً صباحاً في بلاد القسّيس خوان في الهند أو في أي بلاد أخرى لم يعرفها بطليموس ولم يكتشفها ماركوبولو ؟! وإذا اعترض متعرض فقال أن مؤلفي هذه الكتب يقدمونها على أنها خرافات ، ولهذا فهم غير ملزمين بمراعاة الإحتمالات والممكنات ، فإنّي أجيب على هذا الإعتراض فأقول أن الخرافات تكون أحسن وأمتع كلّما ازدادت قرباً من الحقيقة واندرجت في نطاق الأمور الممكنة . والخرافات الكاذبة يجب أن تكون في متناول أولئك الذين يقرأونها وأن تتصور بحيث تجعل ممكناً ما ليس كذلك ، سهلاً ما ليس إلا صعباً ؛ حتّى أنها وهي تجعل العقل دائماً معلّقاً ، تثير الإعجاب واللذة والدهشة والإنفعال والنشوة ، وهي عواطف لا يثيرها أبداً أولئك الذين يبتعدون عن الاحتمال وعن روح المحاكاة التي هي كمال الفن . ولم أر أبداً كتاب فروسية الحكاية فيه تؤلف جسماً كاملاً بكل أعضائه ، بحيث يتجاوب الوسط مع البداية ، والنهاية مع البداية والوسط ، بل يؤلّفها المؤلفون على العكس من هذا ، من أشلاء ، متنافرة ، حتّى ليبدو وكأن قصدهم هو أن يصنعوا مخلوقاً وهميّاً أو وحشاً عجيباً ، لا شكلاً منتظماً متناسباً . والى جانب هذه النقيصة تجد أسلوبهم جافاً ، وحكاياتهم غير معقولة ، وغراميّاتهم شهوانية فاجرة ، وآدابهم مضحكة ، ومعاركهم بغير نهاية ، وبراهينهم فاسدة ، ورحلاتهم خيالية ؛ وبالجملة فإنهم مجرّدون من المواهب بحيث يجب نفيهم من الجمهورية المسيحية بوصفهم قوماً لا غناء فيهم ولا فائدة » .

وأرعى القسّيس كل انتباهه الى هذا الكلام ؛ وبدا له الكاهن رجلاً راجح العقل سليم الذوق في كل ما قال . فأجاب عليه قائلاً إنه يشاركه الرأي وأنه يكره كتب الفروسية ، وأحرق كل ماوجده منها عند دون كيخوته وما كان أكثرها! ثمّ ذكر له الإمتحان الذي أخضعها له ، ذاكراً ماحكم عليه منها بالإلقاء في النار ، وتلك التي خلّى عنها . وضحك الكاهن كثيراً من هذه المحاكمة الجديدة النوع ، وأضاف قائلاً أنه على الرغم من كل السوء الذي قاله عن كتب الفروسية ، فإنه لم يمكن أن يمنع نفسه من أن يجد فيها بعض الخير ، من حيث أنها تقدّم الى العقول السليمة مجالاً واسعاً للتمرين والتعريف بالذات ، بتمكينها لأقلامهم من التحليق في سبحات عالية . إذ يمكنهم حسبما يشاءون ، أن يصفوا عواصف وألواناً من الفرق ، ولقاءات ، ومعارك ، وأن يرسموا قائداً باسلاً بكل الصفات الضرورية له : محتاطاً من الخطر ، يعرف كيف يتنبّأ بحيل العدو وبخططه ، خطيباً بليغاً ومسيطراً على جنوده يوجّههم كيف يشاء ، ناضجاً في النصح ، حازماً في العزم ، ليس أقل إرهاباً حين يهاجم منه حين يهادن ، وهم يستطيعون مرة أن يؤثّروا في النفس بحكاية حادث أسيان ، ومرة أخرى أن يفرحوا النفوس بلوحات باسمة ومناظر مفاجئة ؛ لسيّدة جميلة ، شريفة ،

حصيفة ، لبيبة ، فارس مسيحي شجاع مهذّب ، فشّار غاشم متشرّد ، أمير مهذّب ، باسل ولطيف ، مليء بالطيبة ، والأمانة مع تابعين ، أعيان نبلاء كرماء . ويصفون منجّماً ، وجغرافيّاً ، وموسيقاراً حاذقاً ، ورجلاً بارعاً في أمور الدولة ، وأحياناً ساحراً عند الإقتضاء . ويمكنهم أن يرسموا لنا مكائد أوليس ، وتقوى إينيوس ، وشجاعة الإسكندر ، وبسالة قيصر ، وعلم تريان ونزاهته ، وإخلاص زوبير ، وحكمة كاتون ، أعني كل الأفعال التي بها كمال شخص لامع ، بتصويرها أحياناً مجتمعة في واحد ، وأحياناً موزّعة بين كثيرين . وكل هذه الخيوط إذا نسجها أسلوب ممتع ، وابتكار بارع ، قريب دائماً من الحقيقة ، ـ تكوّن من غير شك نسيجاً غنيّاً منوّعاً مؤلّفاً من أزهى الألوان ، وإذا تمّ كشف عن لطف وكمال ، وحصل على قصب السبق بين الإنتاج الفكري ، الذي يهدف ، كما قلت ، الى الإفادة والإمتاع معاً . ومثل هذا الكتاب ، وإن كان مكتوباً بالنثر ، فإنه يعطي المؤلّف الفرصة ليظهر ملحميّاً وغنائيّاً ومأساويّاً وملهاويّاً ، وبالجملة متضلّعاً في كل الأقسام التي يتألّف منها البلاغة والشعر ، لأن الملحمة يمكن أن تكتب بالنثر أو بالشعر» .

الفصل الثامن والأربعون

تلاوة حديث الكاهن عن كتب الفروسية
وأمور أخرى جديرة بعقله الراجح

فأجاب القستيس : « إن ما قلته يا سيّدي الكاهن ، صحيح ، وهذا هو ما يزيد في ذم أولئك الذين ألّفوا ، حتّى الآن ، مثل هذه الكتب ، دون الإعتناء بإسلوبهم ومراعاة القواعد التي كان من شأنها أن تجعلهم من الشهرة في النثر بقدر ما كان أميرا الشعر اليوناني واللاتيني[1] » .

فاستأنف الكاهن كلامه وقال : « ومع ذلك فإن إغراء تأليف كتاب فروسية ، مع اتباع كل القواعد التي ذكرتها ، قد راودني ، بل أعترف لك أنّي كتبت منه أكثر من مائة صفحة ، ولكي أتأكّد هل هو حقّاً كما بدا لي ، ناولت مخطوطي لأناس متحمّسين جداً لهذا اللون من القراءة ، فاهمين عاقلين ، وكذلك ناولته لجهلاء لا ينشدون منه غير المتعة واللذة : وتلقّيت من كلا الفريقين تقريظاً مُرضياً . على الرغم من ذلك لم أتابع محاولتي ، لأنه بدا لي أن ذلك أمر غريب عن مهنتي . ومن ناحية أخرى أشاهد أنّ عدد الحمقى أكبر من عدد أصحاب العقل والاستحقاق ، وعلى الرغم من أن الأمتع هو أن يمدح المرء من جانب عدد قليل من العقلاء أكثر من أن يسخر منه الجمهور العديد من الجهلة ، فإني لم أشأ أن أستهدف للحكم غير المتّزن الصادر عن عامي غير معتبر ينشد هذا اللون من المؤلّفات . وماصرفني خصوصاً عن إتمامه هو حجّة أبديتها لنفسي فيما يتعلّق بالكوميديّات التي تُمثّل في هذه الأيّام . هذه الكوميديّات ، أو معظمها على الأقل ، سواء تلك المستمدّة من التاريخ ، أو تلك المخترعة اختراعاً ، تعد جديرة أن يُهزأ منها ، ولا رأس لها ولاذنب ، ومع ذلك فإنّ العامة يتلقّونها بشغف ولذّة ، ويرونها حسنة ، مع أنّها بعيدة جداً عن أن تكون كذلك . والمؤلّفون الذين

---

(١) هوميروس وفرجليوس .

ينشؤونها ، والممثلون الذين يمثّلونها ، يقولون أن من الواجب أن تكون كذلك ، لأن الشعب يريدها هكذا ، لاعلى نحو آخر ، ويقولون أيضاً إن الكوميديّات التي تتبع الفعل كما تقضي بذلك قواعد الفن ، لاتناسب إلا ثلاثة أو أربعة حكماء يقدّرون جمالها ، بينما سائر الناس يبذلون جهداً لافائدة فيه لفهمها ، وإنّ الأفضل كسب مايتعيّش منه من العدد الأكبر ، على السمعة الطيبة مع العدد الأصغر . وسيكون هذا أيضاً شأن كتابي : فبعد أن أحرقت جفوني إبتغاء مراعاة كل هذه القواعد بعناية ، سأكون كالخيّاط في الأغنية المشهورة ، الذي كان يعطي الخيط مع التفصيلة . وكم حاولت مراراً إقناع المؤلّفين بأنهم على ضلال في هذا الرأي الذي يرونه هم ، مبيّناً لهم أنهم سيجتذبون جمهوراً أكبر ، وسيحظون بشهرة أعظم لو أنهم ألّفوا كوميديّات وفقاً للقواعد ، بدلاً من مسرحيّاتهم المفتعلة التهويلية ، ولكنّهم عنيدون مصرّون على رأيهم ، وقد ركبوا رؤوسهم بحيث لم يعد بوسع أي برهان أو بينة أن تجعلهم يرجعون عن رأيهم . وأذكر أنّي قلت ذات مرة لأحد هؤلاء العنيدين : «ألا تذكر أنه منذ سنوات مثّلت في اسبانيا ثلاث طراغوديات من تأليف شاعر مشهور في هذه المملكة ، كانت من الجمال بحيث أدهشت وفتنت كل الذين شاهدوها ، الجهلة والمتعلّمون على السواء ، الشعب والبلاط ، وأنها كسبت وحدها من المال أكثر مما كسبت ثلاثون من أفضل المسرحيّات التي مثّلت منذ ذلك الحين ؟» فأجاب من كنت أسأله : «لاشك أنّك تقصد مسرحية «إيزابلا» و«فليس» و«ألكسندرا»[1] ؟» فقلت له : «نعم ، ووافقني على أن كل قواعد الفن مراعاة فيها بكل دقة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت ماكانت ، وأمتعت الجميع . فأنت ترى إذن أن الغلطة ليست غلطة الشعب إذا طلب مسرحيّات سخيفة تافهة ، بل غلطة المؤلّفين الذين لايقدّرون أن يقدّموا اليه غير ذلك . ثمّ إنه لاتوجد تهاويل في مسرحية «الإنتقام من نكران الجميل» ، ولا في «نومانثيا» ولافي «التاجر العاشق» ولافي «العدوة المفيدة[2]» ولا في بعض المسرحيّات الأخرى التي ألّفها شعراء مهرة لصالح شهرتهم ومن أجل مكاسب الممثلين» . ثمّ أضفت أسباباً أخرى لاستخلاصه من خطأه : ولكنّي وجدته مرتبكاً دون أن يكون مقتنعاً .

---

(١) هذه المسرحيّات الثلاث من تأليف ليونردو دي أرخنسولا . والثانية ضاعت أمّا الأولى والثالثة فنشرا في المجلّد السادس من «البرناسو الاسباني» تحقيق لويث دي سيدانو (سنة١٧٧٢) . وقد ولد سنة ١٥٥٩ وتوفّي سنة ١٦١٣ . وعلى الرغم من إطراء ثربانتس فإن مسرحيته ضئيلة القيمة . وله كتاب مهم في التاريخ عن «حوادث أرغون في العامين سنة ١٥٩٠ ـ سنة ١٥٩١» ، كما جمع مواد كبيرة الفائدة عن تاريخ أرغون قبل الفتح الإسلامي .

(٢) الأولى من تأليف لوبه دي بيجا ، والثانية لثربانتس ، والثالثة لجسبار دي أجيلار ، والرابعة للكاهن القانوني فرانشكو دي ترجه .

فقال القسّيس بدوره : يا سيّدي الكاهن! إن فضيلتك قد أيقظت في نفسي كوامن الحقد على الكوميديّات في العصر الحاضر ، وهو حقد وكراهية لا يقلّان عن حقدي وكراهيّتي لكتب الفروسية .إنّ الكوميديا في رأي شيشرون يجب أن تكون مرآة الحياة الإنسانية ، وأنموذج الأخلاق ، وصورة الحقيقة ، ولكنّ الكوميديات التي تمثّل اليوم هي مرايا التهاويل ، ونماذج الحماقات وصور الفجور . وهل يمكن أن تكون هناك حماقة أكبر ، مثلاً ، من إظهار طفل في المهد في بداية الفصل الأوّل ، ونراه في الفصل التالي رجلاً كامل الرجولة ذا لحية[1] ؟ أليس من الهزء أن نرى شيخاً باسلاً ، وشاباً جباناً ، وخادماً بليغاً ، ووصيفاً مستشاراً ، وملكاً حمّالاً ، وأميرة مساعدة طبّاخة ؟ وماذا أقول لك عن الطريقة التي بها يراعى الزمن الذي تحدث خلاله الأحداث التي تمثّل ؟ لقد رأيت كوميديا مضى اليوم الأوّل فيها في أوروبا ، والثاني في اسيا ، والثالث في أفريقيا ، ولاشكّ أنها لو كان فيها يوم رابع لأنتهى في امريكا : حتّى إنّ المسرحية ستكون قد جرت أحداثها في كل أرجاء العالم الأربعة . ومن ناحية أخرى ، إذا صحّ أنّ المحاكاة هي الجزء الجوهري في الكوميديا ، فكيف يمكن أن نحتمل أنه في حادث وقع في أيّام الملك بيبان أو شرلمان نجد أن الشخصية الرئيسية هي الامبراطور هرقل ، الذي يدخل القديس ومعه الصليب ، ويستولي على القبر المقدّس ، كما فعل جودفروا دي بويون ، بينما الفارق الزمني بين هذين العصرين كبير جداً ، إنّ الكوميديا تقوم على الخرافات ، أفليس إذن منتهى الجنون أن نمزجها بالحقائق التاريخية بالخلط بين الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، وحتّى هذا لا يجري بطريقة محتملة ، بل بتكديس أفحش الأخطاءوأشدها إثارة للغيظ ؟ والشر الأكبر هو أنّ الجهلة يقولون أن في هذا يقوم الكمال ، وماعداه فليس إلا بحثاً لا فائدة فيه . وإذا وصلنا الى الكوميديّات المقدّسة ، فما أكثر المعجزات الزائفة التي تحشى بها ؟ وما أعجب الأقوال المكذوبة التي أسيء فهمها إذ ينسب الى قدّيس معجزات قديس آخر ، بل تورد معجزات في المسرحيّات غير الدينية ، دون أي توقير ، ولا تحفّظ ، فقط لأنه يخيّل الى المؤلّف أن مثل هذه المعجزة ، أو مثل هذا التجلّي سيكون ذا أثر مناسب في هذا الموضع أو ذاك ، ابتغاء إدهاش البلهاء واجتذابهم الى المسرح . وكل هذه الأمور تسيء الى الحقيقة ، والى التاريخ ، بل والى الكتّاب الاسبان فتسربلهم بالعار : لأنّ الأجانب ، وهم يراعون بالدقة التامة قواعد الكوميديا ، ينظرون الينا على أننا همج وجهلة ، حين يرون مافي مسرحيّاتنا من استحالة وعدم معقولية . وليس عذراً

(١) لاشك لي أن لربانتس يهاجم هنا بعض مسرحيّات لويه دي بيجا ، وخصوصاً مسرحية « أورسون وبالنتين » .

مقبولاً أن يقال أن الهدف الرئيسي للدولة الجيّدة الحكومات وهي تسمح بالتمثيل العام إنما هو تسلية الشعب بترويح شريف وحمايته من أخطار البطالة ، ولهذا فلا يهم كثيراً أن تكون الكوميديّات جيّدة أو رديئة ، وإنه لافائدة من فرض قواعد عليها ولاإلزام أولئك الذين يؤلفونها بالتزام القواعد المفروضة ، مادام الغرض المنشود قد تحقّق على كل حال . وأنا أجيب على هذا فأقول : إن هذا الغرض يتحقّق بواسطة الكوميديّات الجيّدة أكثر مما يتحقّق بواسطة الكوميديّات التي ليست جيّدة ، لأنه بعد سماع كوميديا جيّدة التركيب يخرج المشاهد من المسرح وقد أفرحته الفكاهات ، وعلّمته الحقائق الأخلاقية ، وأدهشه تنوع الأحداث ، وأصلحته المواعظ ، ونبّهته المكائد ، وأدّبته القدوة الحسنة ، وصار يثور ضد الرذيلة ويتحمّس للفضيلة . وكل هذه المشاعر ينبغي على الكوميديا الجيّدة أن تثيرها في نفس من يسمعها ، مهما يكن جلفاً بسيطاً ساذجاً . ومن المستحيل على كوميديا تجمع كل هذه الصفات ألا تسر ، وتعلّم ، وتمنع وترضي أكثر من تلك التي تخلو منها ، أي من معظم الكوميديّات التي تمثّل هذه الأيّام . وليست هذه غلطة الشعراء المحدثين أن لاتكون مسرحيّاتهم جامعة لتلك الصفات ، لأن الكثيرين منهم يعرفون جيّداً أين يخطئون ، وما الذي يجدر عمله ، لكن لمّا كانت الكوميديّات قد صارت بضاعة فهم يقولون عن حق إنها لن تشترى ولن تمثّل إذا لم تصنع بتلك الطريقة .

وهكذا يخضع الشاعر لمقتضيات الممثّل الذي يطلب منه المسرحية ويأجره عليها . ويبرهن على حقيقة ما أقول العدد الذي لا نهاية له من الكوميديّات الذي ألّفها عبقري سعيد[1] في هذه المملكة ، بلطف وذوق وأناقة في الأشعار ، وسلامة في الأحكام ، وعمق في الأداب والأمثال ، وبالجملة باسلوب نبيل سهل ، حتّى ملأ الدنيا بشهرته . إنّ هذا الرجل العظيم لم يعنِ بكل مسرحيّاته بدرجة متساوية ، ابتغاء للتلاؤم مع ذوق الممثّلين ، وكثيراً منهم ليست على الدرجة المطلوبة من الإتقان . وغيره لا يذكرون اهتماماً يذكر بتأليف مسرحيّاتهم ، حتّى أنه بعد التمثيل يضطر الممثّلون الى الهرب والاختباء خوفاً من العقاب ، كما وقع لهم مراراً لأنهم أهانوا حاكماً أو أسرة عريقة . وهذه النقائص وغيرها ستزول لو وضع في القصر مراقب مختار من بين الرجال الأذكياء العقلاء ، يقوم بفحص كل المسرحيّات قبل عرضها ، ليس فقط في البلاط ، بل في اسبانيا كلّها . وبدون موافقته ، المختومة ختماً قانونيّاً صحيحاً ، لاتسمح المحاكم بتمثيل أية مسرحية . وبهذه الطريقة يرسل الممثّلون

(١) لوبه دي بيجا .

مسرحيّاتهم الى البلاط ، دون تخلف ، ويمكنهم أن يمثلوها بكل أمان ، والمؤلفون يبذلون عناية أكبر في التأليف ، وهم يعلمون أنهم لابد أن تمر مسرحيّاتهم بامتحان دقيق يقوم به قاضٍ واعٍ فاهم ؛ وهنالك تكون عندنا كوميديّات جيّدة تجمع الصفتين اللتين تتطلّبان منها وهما الإفادة والإمتاع ، ويصبح الممثّلون في أمان ، ولايضطر أحد الى عقابهم . وإذا أريد ، الى جانب ذلك ، تكليف المراقب نفسه ، أو غيره ، بفحص كتب الفروسية التي ستنشر في المستقبل ، فيمكن أن يوجد بعض كتب الفروسية التي تتصف بالإتقان الذي تحدّثتم فضيلتكم عنه ، وستغنى لغتنا بكنز ثمين ، يستبدل بالكتب القديمة مؤلفات ممتعة تصلح تسلية شريفة لإزجاء الفراغ ، ليس فقط فراغ الفارغين ، بل وأيضاً فراغ أكثر الناس إنشغالاً ؛ لأن قوسنا لا يمكن أن تظل مشدودة باستمرار ، والضعف الانساني في حاجة الى نوع من الترفيه » .

وفي هذه اللحظة اقترب الحلاق من المتحادثين ، وقال للقسّيس : « هذا هو المكان الذي قلت لك أننا نستطيع الاستراحة فيه وجعل الثيران ترعى بغزارة » . فأجاب القسّيس : « وهذا مايبدو لي أيضاً » ، وهنالك سأل الكاهن ماذا يريد أن يفعل ، فقرّر هذا أن يبقى معه وقد جذبته نضارة المكان وجماله ، والرغبة في معرفة المزيد من تفاصيل مغامرات دون كيخوته وحديث القسّيس الجذّاب الذي سرّه كثيراً . وكلّف أحد خدمه بالذهاب الى الفندق المجاور لشراء أطعمة تكفي الجميع . فأجاب الخادم قائلاً : إن البغل المحمّل بالزاد لابد أن يكون قد وصل وهو يحمل مايكفي الجميع ، دون حاجة الى شراء شيء آخر غير الشعير علفاً للدواب . فأمر الكاهن بإرسال كل الدواب الى الفندق وإعادة البغّال .

وبينما كان هذا الأمر بسبيل التنفيذ ، رأى سنشو أنه يستطيع أخيراً أن يكلّم مولاه دون مراقبة من القسّيس والحلاق اللذين ظهرا له مشبوهين ، فاقترب من القفص وقال لدون كيخوته :

ـ مولاي ، إرضاء لضميري ، عليّ أن أخبرك عمّا يجري فيما يتعلّق بمسألة سحرك[1] . إنّ هذين الرجلين المقنّعين اللذين تراهما هما قسّيس وحلاق قريتنا ، ويخيّل اليّ أنهما يسجنانك هكذا حسداً منك لرؤيتك قد تفوّقت عليهما في أعمال البطولة . فإذا صح هذا ، فينتج عنه أنّك لست مسحوراً ، بل مخدوعاً ومسجوناً في قفص . وللتدليل على هذا سأسألك عن شيء ، فإن أجبتني عنه بما أظن ، فسيكون من الواضح وضوح

(١) أي كونك مسحوراً .

الشمس أنهما يخدعانك ، وأنّك لست مسحوراً ، بل كل ما في الأمر أن مخّك في وضع مقلوب .

فقال دون كيخوته : اسأل مابدا لك ، ياولدي سنشو ، وسأجيب عليك كما تشاء . أمّا ماتقوله من أنّ هذين الرجلين اللذين يرافقاننا هما الحلاق والقسّيس ، ابنا بلدتنا ، فيجوز تماماً أن يبدو لك كذلك ، أمّا أن يكونا فعلاً كذلك فلا تعتقدون ذلك بأي حالٍ من الأحوال . إنّ ماعليك أن تعتقده ، إذا كانا يشبهانهما حقّاً ، هو أن اللذين سحراني قد اتخذا شكليهما (إذ يمكنهما أن يتّخذا مايشاءان من الأشكال) ، كي يخدعاك ويغرقاك في تيه من الشكوك لن تخرج منه أبداً حتّى لوكان معك خيط[1] ثيسيوس . ويجوز أن يكونا قد اتخذا هذين الشكلين لإحداث الاضطراب في عقلي ومنعي من معرفة من أين جاءني هذا الشقاء ، لأنه إذا كنت تؤكّد لي ، من ناحية ، أنّ هذين الرجلين هما الحلاق والقسّيس في قريتنا ، وإذاكنت أنت من ناحية أخرى ، أرى نفسي في هذا القفص ، فماذا تريد منّي أن أظن ، أنا الذي أعلم أن قوى خارقة لاتكاد تقوى على سجني فيه ، غير أن سحري (كوني مسحوراً) يتجاوزكل ماقرأته في تاريخ الفرسان الجوّالة الذين سحروا هكذا ؟ ولهذا يمكنك أن تطمئن ، أمّا اللذان تظن أنّك تعرّفتهما فهما هما بقدر ما أنا تركي . فاسألني الآن عمّا يحلو لك ، وسأجيب عليك حتّى الغد إذا اقتضى الأمر .

فصاح سنشو : يا للعذراء المقدّسة! أيكون رأسك جامداً وعقلك صغيراً بحيث لاتدرك أن ما أقوله لك هو عين الحق ، وأنّ سجنك ومحنتك هما من مكر أعدائك لا من كونك مسحوراً ؟! إذن مادمت لا تريد أن تصدّقني فإنّي أريد أن أثبت لك بأنّك لست مسحوراً . ولعل الله أن يخلّصك من هذا العذاب ، ويضعك في حضن السيّدة دلثنيا في الوقت الذي تكون هي فيه أبعد ماتكون عن خاطرك .

فقال دون كيخوته : كف عن تعزيماتك يا صاحبي ، ولقد قلت لك إنني سأرد عليك بدقّة .

فقال سنشو : هذا ما أطلبه : أجبني بكل إخلاص ، دون أن تزيد أو تنقص شيئاً ، وبكل صراحة من يمارسون مهنة السلاح ، مثلك يا مولاي ، بلقب الفارس الجوّال .

فأجابه دون كيخوته : أقول لك مرّة أخرى أنني لن أكذب في شيء : اخلص ، وحق الله ، لأنك تتعبني بمقدّماتك واعتراضاتك .

---

(١) أي خيط أريان ، التي أعطته لمحبوبها ثيسيوس في التيه الذي حبس فيه مينوتور ، ممّا سهّل له سبب العودة .

فقال سنشو :إنّي أقر بطيبة وأمانة مولاي : ولكي نعودالى حكايتنا ، أسألك ، مع كل احترامي ، هل مولاي منذ أن وضع في القفص أو كما يلذ لك أن تقول : منذ أن سحرت في هذا القفص ،لم تشعربالحاجة الى قضاء حاجة ما ؟

فقال دون كيخوته : لا أفهم ماذا تقصد بكلامك هذا : وضّح ، إذا شئت منّى أن أجيبك جواباً قاطعاً .

فقال سنشو : هل من الممكن ألا تفهم مايفهمه كل الأطفال ؟ إنّي أسألك هل لم تشعر بالحاجة الى قضاء ما لا يمكن الإنسان أن يستغني عنه ؟ فأجابه دون كيخوته : آه ، آه ، فاهم ماذا تقصد ياسنشو . نعم يا صاحبي ، عدّة مرّات ، وحتّى في هذه اللحظة : فخلّصني ، أرجوك ، من هذا المأزق ، لأنّي أخشى من عواقبه .

الفصل التاسع والأربعون

محادثة عاقلة بين دون كيخوته وسنشو پنثا

فقال سنشو : آه! أمسكت بك! فهذا هو ماكنت أود أن أعرفه بحياتي ونفسي . هل تستطيع أن تنكر ما اعتاد الناس أن يقولوا حين يرون شخصاً معتل المزاج : «لا أدري ما إذا أصابه ، لكنّه لا يشرب ، ولا يأكل ، ولا ينام ، ولا يجيب عمّا يسأل عنه : كأنه مسحور» . ومن هذا القول ينبغي أن نستنتج أنّ الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يؤدون الوظائف الطبيعية ـ مسحورون ، وتبعاً لذلك فإن الذين يشربون حين يقدّم اليهم الشراب ، ويأكلون حين يقدّم اليهم الطعام ، ويحسّون بالحاجة التي تلح عليك ، ليسوا مسحورين . أجب عن هذا ، من فضلك .

فأجابه دون كيخوته : ماتقوله صحيح ، ولكن ألم أقل لك أيضاً أن هناك أنواعاً عديدة من الإنسحار ؟ يجوز أن طبيعتها تغيّرت مع الزمن ، وأنه صار من المعتاد اليوم أن يفعل المسحورون كل ماأفعل ، بينما لم يكونون سابقاً يستطيعون ذلك . والمرء لا يستطيع أن يحاج ضد العرف ولا أن يستنتج أية نتيجة ، وأنا أعلم وأنا موقن كل اليقين أنّني سحرت ؛ وهذا يكفي ليقين ضميري واطمئنانه ، لأنه لن يكون أبداً مطمئناً لو اعتقدت أنني لست مسحوراً ، وأنّي أبقى هكذا في هذا القفص جباناً كسولاً ، مخيّباً آمال البائسين والمحزونين في النجدة التي يمكنّني اغاثتهم بها ، ولعلّهم في هذه اللحظة أشد ما يكونون بحاجة إليها .

فأجاب سنشو : ومع هذا كلّه فإنّي أعتقد ، زيادة في الإطمئنان ، أنه سيكون من الخير لسيادتك أن تحاول الخروج من هذا السجن وأن تركب روثينانته فرسك الطيّب ، الذي يبدو حزيناً مكتئباً حتّى لكأنه مسحور هو الآخر . وأعرض عليك أن أساعدك بكل ماأستطيع ، وأعتقد أنني سأفلح في هذا . وبعد ذلك تحاول القيام بمغامرات أخرى ، فإن لم تفلح هذه المغامرات سيكون أمامنا دائماً متّسع من الوقت للعودة الى القفص ، الذي أتعهّد ـ عهد

سائس طيّب أمين ـ أن أسجن نفسي فيه معك ، إذا كنت تعيساً ، وأنا غير ماهر ، بحيث لاتفلح بما أقوله لك .

فأجابه دون كيخوته : بودّي أن أحاول ماتقترحه ، يا أخي سنشو ، وحين ترى الفرصة مواتية لتنفيذ هذه الخطة فسأفعل كل ماتريد ، ولكنك سترى يا صاحبي أنك تخطىء في معرفة طبيعة محنتي هذه .

وعلى هذا النحو سار الفارس الجوّال والسائس الساخط ، الى أن بلغوا المكان الذي كان ينتظرهم فيه القسّيس ، والكاهن ، والحلاّق . وحلّ سائق العربة ثيرانه وأرسلها ترعى في حرّية . وكانت نضارة المكان وجماله يدعوان الى الإستراحة ، لا الناس المسحورين مثل دون كيخوته ، بل الأشخاص العاقلين الواعين مثل سائسه . وتوسّل هذا الى القسّيس أن يسمح لمولاه بالخروج قليلاً من القفص وقال أنه لو رفض فمن الجائز ألا يظل القفص نظيفاً كما يتناسب ذلك مع مكانة فارس نبيل مثل دون كيخوته . وفهم القسّيس بسهولة ما قصد سنشو وقال أنه يود الإستجابة الى هذا الطلب ، لكنه يخشى أن يهرب دون كيخوته حين يرى نفسه طليقاً ، ولايمكن العثور عليه بعد ذلك .

فقال سنشو : أنا مسؤول عنه .

وأضاف الكاهن : وأنا أيضاً مسئول عنه ، خصوصاً إذا أعطاني كلمة شرف بوصفه فارساً ألاّ يبتعد عنّا طالما رغبنا .

فقال دون كيخوته : أعطي كلمة الشرف ، خصوصاً ومن هو مسحوراً مثلي ليست لديه الحرّية في أن يفعل مايريد ؛ لأن من يمسك به مسحوراً يمكن أن يمنعه من التحرّك طوال ثلاثة قرون ، وإذا هرب ، يحمله على العودة بأسرع من الريح . وهكذا إذن تستطيعون إطلاق سراحي ، وأنّي أطلب منكم هذا لمصلحتكم ، لأنكم لو رفضتم ، فابتعدوا جانباً ، لمصلحة حواس الشم فيكم .

وبناء على كلمته مدّ الكاهن اليه يده وساعده على الخروج من سجنه ، ممّا سرّه كل السرور . فبدأ بالتمدّد والتمطّع بكل جسمه ، ثمّ اقترب من روثينانته وربت على مؤخّرته وهو يقول له : « أي أنت ، يازهرة ومرآة كل الأفراس ، أرجو من الله ومن أمّه (العذراء) أن نلتقي عمّا قليل وفقاً لرغائبنا ، أنت تحمل سيّدك ، وأنا ضاغطاً على جانبيك الكريمين ومستمرّاً في المهمّة التي من أجلها خلقني الله في الدنيا » . ثمّ ابتعد ، يتبعه سنشو ، ثمّ عاد بعد فترة وقد استراح ، وهو عازم كل العزم على تنفيذ مشروع سائسه . فتطلّع فيه الكاهن ، وتعجّب من غرابة نوع جنونه ، الذي ترك عقله حرّاً ، وحكمه سليماً في سائر

الأمور ، ولكنه يفقد كل ضابط ، كما قلنا ، كلّما تعلّق الأمر بالفروسية . تأثّر عطفاً عليه وقال له بعد أن جلسوا جميعاً على العشب في انتظار البغل الذي يحمل الزاد : «هل من الممكن ، ياسيّدي الفارس ، أن يكون لقراءة كتب الفروسية قراءة فارغة حمقاء كل هذا السلطان على عقلك بحيث تفقد ملكة الحكم السليم ، فتعتقد أنّك مسحور ، وتعتقد آلافاً آخرى من التهاويل البعيدة كل البعد عن الحقيقة بعد الحقيقة عن الكذب ؟ وأي عقل إنساني ، قل لي ، يمكن أن يصدّق بوجود هذا العدد اللانهائي من الأماديسيين (جمع : أماديس) ، وهذا الحشد الحاشد من الفرسان المشهورين ، ومن الأباطرة في ترابيزون ، وأمثال فليكس مارس الهوركاي ، وهذه الأعداد من خيول الزينة ، والآنسات الشاردات ، والأفاعي والتنانين ، والعفاريت ، والمردة ، والمغامرات التي لم يسمع بمثلها ، والمعارك ، والانسحارات ، والإلتقاءات الرهيبة ، والملابس الفاخرة ، والأميرات العاشقات ، والسوّاس الذين أصبحوا كونتات ، والأقزام المتساهلين ، والبطاقات العذبة ، وكلمات الغرام ، والنسوة الباسلات ، وبالجملة كل الحماقات التي تحتوي عليها كتب الفروسية ؟ أمّا عن نفسي فإنّي أصرّح لك بأنّي إذا قرأت كل هذا دون أن أظن أنه خرافات فإنه يفرحني ، لكن حين أفكّر في أنه ليس إلا أكداساً من الأكاذيب فإنّي أضرب بخير هذه الكتب عرض الحائط ، وألقي به في النار إن كانت قريبة منّي ، وأراه جديراً بهذا العقاب لأنه زائف ، خدّاع ، يتناقض مع الطبيعة الإنسانية ، وينشىء بدعاً جديدة ، وألواناً جديدة من الحياة ، ويعطي العامّي الجاهل الفرصة لاعتقاد كل هذه الأباطيل . إنّ كتب الفروسية خطرة جداً حتّى أنّ في استطاعتها أن تحدث الإختلال في أكبر العقول حظّاً من الحكمة ، كما هو مشاهد فيك أنت يا سيّدي ، فقد أحالتك بحيث اضطرّت الناس الى حبسك في قفص وجرّك على عربة تجرّها ثيران كأنّك أسد ، أو نمر يساق من مدينة الى مدينة لكسب بعض المال . آه! سيّدي دون كيخوته ، ارحم نفسك ، وعد الى العقل ، واستخدم العقل الذي وهبك الله ، ووجّه صفات عقلك العديدة اللامعة نحو قراءةأخرى تفيد ضميرك . وإذا رغبت في ذلك ، مسوقاً بقوة نوازعك ، في قراءة كتب شجاعة وبطولة وفروسية فاقرأ في الكتاب المقدّس سفر«القضاة» : فستجد فيه أعمالاً عظيمة ومغامرات رائعة وصحيحة معاً . لقد كان في البرتغال فرياتس ، وفي روما قيصر ، وفي قرطاجنة هانيبال ، وفي اليونان الاسكندر ، وفي قشتالة الكونت فونان جونثالث[1] ، وفي

---

(١) فرنان جونثالث أوّل كونت في قشتالة (في القرن العاشر) .

ـ دييجو غرسيه دي باريدس ، قائد عاش في عهد كارلوس الخامس (شرلكان) وله أعمال مجيدة جعلت الناس يلقّبونه بلقب ، شمشون استريمادور . =

بلنسية السيّد القمبيطور ، وفي الأندلس غنصالبه القرطبي ، وفي استريمادورا دييجو غرسيه دي باريدس ، وفي شريش غرسي بيرث دي برجاس ، وفي طليطلة جرثلاسو ، وفي أشبيلية دون مانويل الليوني ، وقراءة أعمالهم الباهرة تجذب ، وتعلّم ، وتمتّع ، وتخلب أعظم الألباب . إنها قراءة خليقة بك ياسيّدي ، وستجعلك عالماً في التاريخ ، متحمّساً للفضيلة ، مستنيراً في أعمال الخير ، مهذّباً في أخلاقك ، شجاعاً بغير تهوّر ، جسوراً بغير ضعف : وكل هذا في سبيل مجدك ، ومصلحتك ، وشرف اقليم المنتشا الذي أعلم أنك تنتسب إليه » .

وأصغى دون كيخوته باهتمام عظيم الى الحجج التي ساقها الكاهن . ولمّا رآه توقّف عن الكلام ، تطلّع فيه فترة من الزمن ، ثمّ أجاب عليه : ـ يبدو لي ، ياسيّدي ، أن كلامك يهدف الى إقناعي بأنه لم يوجد أبداً فرسان جوّالة ، وبأن كل كتب الفروسية زائفة ، كذابة ، خطيرة ، لا فائدة فيها للدولة ، وبأنّي أسأت بقراءتي لها ، وأسأت أكثر بتصديقي لما فيها ، وأكثر وأكثر بمحاكاتها ، لأنّي كرّست نفسي لمهنة الفارس الجوّال القاسية التي تلقّنها هذه الكتب . وتنكر أيضاً أنه يوجد من يدعى أماديس الغالي أو اليوناني ، ولاأي فارس تذكره هذه الكتب .

فقال الكاهن : تماماً . كلمة بكلمة .

فاستأنف دون كيخوته حديثه قائلاً : وقلت أيضاً أن هذه الكتب أضرّت بي أبلغ الضرر ، لأنها سلبتني ملكة الحكم السليم وجعلتهم يسجنونني في قفص ، وأنّ من الخير لي أن أصلح أمر نفسي وأغيّر قراءتي ، وذلك بأن أختار كتباً أصدق ، تفيدني علماً وتزيدني إمتاعاً ؟

فقال الكاهن : تماماً .

فقال دون كيخوته : لكنّي أنا أرى أن من المؤكّد أنك أنت المجرّد من الحكم السليم ، وأنك مسحور ، لأنّك جرؤت على التفوّه بكل هذه التجديفات ضد شيء محقّق مصدّق في العالم حتّى أنّ من ينكره كما فعلت أنت يستحق العقاب نفسه الذي حكمت به على الكتب التي لا تسرّك . والتصريح بأنه لم يوجد أماديس أبداً ، ولاكل أولئك الفرسان الذين تروي الكتب مغامراتهم هو مثل القول بأنّ الشمس لا تضيء ، وأنّ البرد ليس بارداً ،وأن الأرض ليست يابسة . وهل يجرؤ أحد على الزعم بأن مغامرة وريثة العرش فلوريدا مع جي

= ـ غرسي بيرث دي برجاس : محارب برز في استيلاء فرننDو على أشبيلية سنة ١٢٤٨ .

ـ جرثلاسو القرطبي ، اشترك في حصار غرناطة أيام فرنندو وايزابيلا سنة ١٤٩١ .

ـ دون مانويل دي ليون : فارس عاش في القرن الخامس عشر ، التقط القفاز الذي رمت به حبيبته في فناء حبس فيه سباع .

ـ فرياتس : قام بالثورة ضد الرومان سنة ١٤٩ ق .م وهزم أربعة بريتوريين ، ثمّ ذبحه أحد رجاله سنة ١٤١ بتدبير من الرومان .

البورجوني مخترعة لا أصل لها ؟ وأنّ مغامرة فيربراس على جسر مانتيل ، التي وقعت في زمان شرلمان ، زائفة[1] ؟ أقسم بالله أنها حقيقية كما أنّ الوقت الآن نهار . وانكار ذلك هو مثل القول بأنه لم يوجد أبداً هكتور ولا أخيلوس ولا حرب طروادة ولا أكفّاء فرنسا الاثنا عشر ولا الملك آرثر ملك انجلترا الذي تحوّل الى غراب وينتظر في كل لحظة أن ترد إليه مملكته . ومعناه أيضاً أنّ تاريخ جوارينو مثكينو وتاريخ الظفر بكأس الجرال[2] المقدّس زائفان ، وأنّ عشق ترستان للملكة ايزولده ، وعشق جنيفر ولانصلو منحولان . إنه لايزال يعيش ناس يذكرون أنهم كادوا أن يكونوا قد رأوا الدونيا كنتانيون ، أشهر ساقية في انكلترا تفهم في تذوّق الخمور ، وأذكر أنني لمّا كنت صغيراً قالت لي جدّتي لأبي ، وهي تدلّني على دونيا طويلة الشعر والقبّعة : « أنظر يا ولدي كأنها السيّدة كنتانيون » . فهي كانت تعرفها اذن ، أو هي على الأقل رأت صورتها . وهل يمكن إنكار أن قصة بطرس البروفنصي وماجلونه[3] الجميلة قصة حقيقية ، حينما لانزال نرى حتّى اليوم في دار صناعة الملك الكعب الذي به كان بطرس يوجّه فرس الخشب الذي حملها وهي تطير في الهواء ؟ إنّ هذا الكعب أكبر من عريشة عربة ، وبالقرب منه سرج بابيكا ، وفي رونصفالس نجد نفير رولندو[4] وهو طويل مثل جذع خشب . ومن كل هذا ينبغي أن نستنتج أنه وجد أكفّاء فرنسا الاثنى عشر ، وبطرس البروفنصي والسيد القمبيطور وباقي الفرسان المغامرين كما يقال . فهل تجرؤ إذن أن تنكر أن البرتغالي الباسل خون دي مرلو كان فارساً جوّالاً وهو الذي سافر الى اقليم البورجواني وحارب في مدينة أراس سيد شارني الشهير واسمه بطرس[5] ، وبعد ذلك حارب في بازل هنري دي رمستان ، وخرج من هاتين المعركتين مكلّلاً

---

(١) هذه الحوادث مذكورة في « أخبار أكفّاء فرنسا الاثني عشر » وفي « تاريخ شارلمان » .

(٢) « الجرال » هو الكأس الذي شرب منه المسيح وحواريوه ليلة اللقاء الأخير . ولمّا صلب المسيح ذهب يوسف الراعي (الاريمائي) الى المكان الذي فيه صلب والتقط في هذا الكأس الدم المنزوف من جراحات المسيح ، واحتفظ لنفسه بهذا الكأس . ومن ثمّ تكوّنت اسطورة حول هذا الكأس . فقيل أنه لمّا أن قام بالتبشير بالدعوة الجديدة وحبسه اليهود كانت هذه الكأس تحفظه من كل ما يسومونه من عذاب ، وأنها حفظته من الشيخوخة ولمّا أطلق سراحه بعد أربعين سنة بدا له وكأنّ سجنه لم يكن لأكثر من يومين ، ثم ترحّل في أسيا وكوّن تلاميذ ، اجتازوا البحر المتوسّط ووصلوا الى بريطانيا العظمى ، حيث شيّدوا قصراً حفظوا فيه الكأس المقدّسة وأقام فيه الساهرون على حفظها ، وتعاقب كثير من الملوك على الاحتفاظ بها لما فيها من عجائب . وأصبح موضوع الظفر بها من المغامرات العظمى التي ألهبت خيال أصحاب كتب الفروسية في العصور الوسطى ، ومن أشهر من تناولوا هذا الموضوع فلفرام فون ايشيباخ في ملحمته الفروسية بعنوان « برسيفال » .

(٣) قصة ألّفها التروبادورالبروفنصالي برنافيز ، وترجمها الى الاسبانية فيليب كاموس ، طليطلة سنة ١٥٢٦ .

(٤) النفير الذي نادى به رولندو على عمّه شارلمان لينجده في وادي رونصفالس لما أن حاصروه بعد أن قضى المسلمون على كل جيشه الذي كان في مؤخّرة جيوش شارلمان وهي تعبر جبال البرانس من اسبانيا الى فرنسا عائدة إثر حملة .

(٥) بييردي بوفريمون ، سيّد اقطاع شاربو- شارني .

بإكليل المجد! وماذا تقول عن التحدّيات التي قبلها ـ ضد أبناء كونت سان بول ـ بدرو بربا وجوتيرث كيخادا الذي انحدر من صلبه مباشرة من ناحية الأب ، وانتصر عليهم ؟ وهل تنكر أيضاً أن فرنندو دي جباره ذهب ليبحث عن مغامرات في ألمانيا ، حيث حارب السيّد جورج فارس بيت دوق النمسا ؟! وهل مبارزات سويرو دي كنينوس ، ومباريات[1] المعبر ومغامرات لويس دي فالنس ضد جونثالودي قزمان ، الفارس القشتالي[2] ، وآلاف من المغامرات الأخرى التي قام بها الفرسان المسيحيّون في هذه البلاد أو في البلاد الأجنبية ، ليست حقيقية ، مع أنها صحيحة واقعية الى حد أنّ من ينكرها لابد أن يكون قد فقد عقله ؟!» .

أصغى الكاهن مدهوشاً الى هذا المزيج من الحقائق والأكاذيب الذي صنعه دون كيخوته ، ولم يتمالك من الإعجاب بمعلوماته الواسعة العميقة في كل مايتعلّق بشؤون الفروسية الجوّالة . ثمّ أجاب عليه :

ـ إنّي لا أستطيع أن أنكر ، ياسيّدي ، أنه ليس ثمّ شيء من الحقيقة فيما تقول ، خصوصاً فيما يتعلّق بالفرسان الجوّالة الأسبان . بل أسلّم لك بأن الأكفاء الاثني عشر في فرنسا وجدوا ، لكنّي لاأستطيع أن أصدّق أنهم فعلوا ما نسبه اليهم المطران توربان ، والشيء الحق هو أنهم كانوا فرساناً اختارهم ملوك فرنسا ، وسمّوا «أكفاء» لأنّهم كانوا جميعاً متساوين في المولد ، والقيمة ، أو على الأقل كان من الواجب أن يكونوا كذلك : لقد كانوا يؤلّفون نوعاً من الطريقة أو الديانة ، كما نشاهد طريقة شنت يعقوب أو طريقة قلعة رباح ، التي يفترض أن رجالها شجعان ومن أصل عريق ، وكما يقال اليوم فارس القدّيس يوحنّا أو القنطرة ، كذلك كان يقال فارس الأكفاء الاثني عشر ، لأن طريقتهم كانت مؤلّفة من اثني عشر عضواً بعضهم كفء لبعض .

أمّا السيّد القمبيطور ، وبرنردو دل كربيو فلا يشك أحد في وجودهما أما أنهما قاما بكل أعمال البطولة التي تنسب اليهما فهذا أمر مشكوك فيه كل الشك . أمّا عن كعب الكونت بطرس الذي تفضّلتم بالكلام عنه ، ويقال إنه عند سرج رابيكا ، في قائمة أسلحة

---

(١) هذه مباريات ومنازلات رويت في قصص عديدة . وأشهرها مباريات ومنازلات سويرو دي كنيوس ، عند معبر أوربيجو ، على ثلاث فراسخ من اشتورجه . فطوال ثلاثين يوماً قام بمبارزات ضد ثمانية وخمسين فارساً .

فالمعبر هو أوربيجو .

وقد نشر الأخ خيران دي بنييدا في شلمنقة سنة ١٥٨٨ أخبارهذه المباريات التي يضمّها كتاب اسمه «الممر الأمين»

(٢) قصة في «أخبار الملك دون خوان الثاني» ، الفصل ١٠٢ .

الملوك ، فإنّي أعترف بجهلي أو بضعف بصري ، لقد رأيت السرج ، ولكنّي لم أر الكعب وإن كنت تقول عنه إنه كبير .

فقال دون كيخوته : لاشك أنه موجود هناك ، وقد وضعوه في علبة من الجلد لحفظه .

فقال الكاهن : يجوز ، لكن أقسم لك بشرف مهنتي أنّي لم أره ، وحتّى لو سلّمت بأنه في ذلك المكان ، فليس هذا سبّباً يدعو الى إن أصدّق تصديقاً أعمى قصة كل هؤلاء الأماديسيين ، والفرسان الذين يحدثوننا عنهم ، ولا الى أن يعد رجل شريف ذو مواهب عديدة مثلك أنّ هذه الأكداس الهائلة من الحماقات التي نراها في كتب الفروسية المهولة ـ هي حقائق .

الفصل الخمسون

مناقشات ممتعة بين دون كيخوته والكاهن
وأحداث أخرى

فاستأنف دون كيخوته كلامه قائلاً : هذه الكتب المطبوعة بإذن من الملوك وموافقة الناس المكلّفين بفحصها ، هذه الكتب التي تقبلها بقبول حسن الكبار والصغار ، الفقراء والأغنياء ، المتعلّمون والجهّال ، الدهماء والنبلاء ، وبالجملة كل أنواع القرّاء ، من أية منزلة وبأي حال كانوا ، تقول عنها إنها ليست إلا مجموعات من الأكاذيب ، وإن كانت لها كل مظاهر الحقيقة ، إذ يذكر فيها اسم الأم والأب والبلد والأهل والسن ومغامرات كل فارس والأماكن التي شهدت أعمالهم العظيمة ، نقطة بنقطة ، ويوماً بيوم ؟! اخرس ياسيّدي ولاتقل كل هذه التجديفات وصدّقني أنّي لاأنصحك إلا بما يجب على كل إنسان عاقل لبيب حكيم : وإلا فاقرأ هذه الكتب ، ترَ أية متعة تزوّدك بها . خبّرني ، هل ثمّ رضا أعظم من أن نشاهد هنا ، أمامنا ، بحيرة واسعة من القار الذي يغلي ، فيه تسبح حشود من الأفاعي ، والحيّات والعظايا وسائر الحيوانات الوحشية المروّعة ؟ وفجأة ، من وسط البحيرة ، يخرج صوت نائح يقول : « أيها الفارس ، أيّاً من كنت ، يامن تتأمّل هذه البحيرة الرهيبة ، إذا شئت أن تنعم بالكنوز المخبّأة تحت مياهها السود فاكشف عن عظمة شجاعتك النبيلة ، واقذف بنفسك في أمواجها الملتهبة ، وإلا فلن تكون جديراً بالاستمتاع بالعجائب المحفوظة في القصور السبعة للجنّيّات السبع تحت هذه البحيرة . ولايكاد الفارس يفرغ من سماع هذا الصوت النائح حتّى يلقي بنفسه في وسط هذه البحيرة التي من نار متوكّلاً على الله وعلى سيّدته المعشوقة ، دون أن يستشير أحداً ، أو يرهب خطراً ، بل حتّى دون أن يتمهّل حتّى يلقي بسلاحه الثقيل ، وبعد ذلك ، دون أن يعرف كيف ، يجد نفسه في مرج مزهر ، ليست الجنان العليا شيئاً بالنسبة اليه ، فيه كوكب النهار يسطع بنور أزهى ، وزرقة السماء أصفى ، وأشف : هناك تتبدّى أمام ناظريه غابة ممتعة أشجارها الملتفّة وأوراقها السميكة تمتّع النظر وتنشر النضرة والانتعاش في كل النواحي ، وعلى أغصانها

المتعانقة تتطاير أسراب الطيور اللطيفة المتعدّدة الألوان الزاهية الغنية ، التي تسحر بشدوها الطبيعي وهديلها العذب الأسماع ، والآذان . هاهنا يجد كوثراً صغيراً ، مياهه الصافية ، الشبيهة بالبلّور السائل ، تجري على رمل دقيق وحصى أبيض يشبه الذهب الخالص واللآلىء الصافية . وهناك يشاهد نافورة لطيفة مصنوعة من اليشب ذي الألوان المتعدّدة والمرمر المصقول ، ثمّ يبصر أخرى بناؤها ريفي الطراز ، فيها الأصداف الدقيقة والحلازن البيض والصفر الملتوية ، مختلطة في عدم انتظام ، واحكام بقطع من البلّور اللمّاع والزمرّد المصنوع ، كل هذا يؤلّف عملاً فنّياً متنوّعاً ، فيه الفن ، وهو يحاكي الطبيعة ، ينتصر عليها هذه المرة . وبعد هذا يتجلّى فجأة لناظريه قصر حصين أو قصر لامع ، جدرانه من الذهب المتكتّل ، وسقوفه من الماس ، وأبوابه من الياقوت الزعفراني ، ومعماره رائع حتّى أنّ العقيق واللآلىء والماسات والكهرمان والذهب والزمرّد التي يتألّف منها أقل نفاسة من مهارة الفن . فإذا مارأى المرء هذا كلّه ، فماذا يمكن أن يريد غير أن يرى خروج عدد كبير من الأوانس من القصر ، ثيابهن فاخرة ، جذّابة ، بحيث لن أفرغ أبداً إذا حاولت وصفها كما يفعل مؤرخونا القصاص ؟ أمّا تلك التي تبدو سيدة الباقيات فتأخذ بيد الفارس الجسور الذي ألقى بنفسه في البحيرة التي تغلي ، ودون أن تقول له كلمة تدخله في هذا القصر الفاخر : ويجرّد من ثيابه ، ويصبح عارياً كما ولدته أمّه ، ثمّ يدخل في حمّام لذيذ ، فيعطّر جسمه بالعطور النفيسة ، ويلبس قميصاً من أفخر النسيج تنبعث منه أذكى الأراييج . وتأتي آنسة أخرى فتغطّي كتفيه بمعطف ثمين يساوي وحده ثمن مدينة بأكملها ، وأخيراً يقتاد الى بهو آخر ، رصّت فيه الموائد بنظام وفخامة يدهش لهما ، ويصب على يديه العنبر أو ماء الزهر المقطّر ، ويجلس على عرش من العاج ، ويخدمه أوانس في صمت رائع ، وتقدّم اليه أطاييب الطعام العديدة الأنواع المتقنة الطهي حتّى لايدري ماذا يبدأ بتناوله ، وبينما يأكل ، تصدح موسيقى سماوية تسحر حواسه ، دون أن يرى المغنّين والموسيقيّين ولا أن يكتشف من أين تأتي هذه الأنغام العذبة . حتّى إذا فرغ من طعامه ، ورفعت الموائد ، استراح الفارس مستنداً الى ظهر كرسيه ، ومنظّفاً أسنانه كما هي العادة ، وإذ به يرى أنسة أخرى تدخل ، أجمل جداً من الآخريات ، وتأتي وتجلس الى جواره وتحكي له حكاية هذا القصر ، وكيف أنها مسحورة فيه ، وأموراً أخرى كثيرة تدهش القارئ وتخلب لبّه إعجاباً . ولن أطيل في هذا الموضوع ، لأنه من الممكن أن يستخلص ، مما قلت ، أنه لايوجد فقرة في تاريخ فارس جوّال لا تجد في نفس القارىء دهشة ولذّة وإمتاعاً . صدّقني ، يا سيّدي ، واقرأ هذه الكتب ، كما نصحتك من قبل : وسترى أنها ستسحر أحزانك إن كنت ذا أحزان ، وتشفي مزاجك السقيم إن كان سقيماً . أمّا عن نفسي فأستطيع أن أقول أنه منذ أصبحت فارساً جوّالاً صرت شجاعاً ،

لطيفاً ، سخيّاً ، مهذّباً ، أنيس البشر ، كريماً ، مؤدّباً ، جسوراً ، رقيقاً ، صابراً على الآلام ، والسجون وألوان السحر ، وعلى الرغم من أنه لم يمض وقت طويل على وجودي في قفص كالمجنون ، فإنّي أرجو ـ إذا واتتني السماء ، ولم يعاكسني الحظ ـ أن أصير عمّا قليل ، بقوّة ساعدي ، ملكاً على إحدى الممالك ، أمارس فيها سخائي وإحساني الغريزيّين في نفسي ، لأن الفقير ، ياسيّدي عاجز عن إظهار سخائه ، مهما يكن عظم سخائه ، والاحسان الذي لا يكون إلا بالقلوب والنيّات شيء ميّت ، مثل الإيمان بلا أعمال . ولهذا أود لو يهيّئ الحظ سريعاً الفرصة كي أصبح امبراطوراً ، لأظهر إرادتي الخيرة وأحسن الى أصدقائي ، وخصوصاً الى سنشو پنثا المسكين ، سائسي ، وهو خير من في الدنيا ، وأود لو أستطيع أن أعطيه كونتية ، وعدته بها منذ أمد طويل ، وإن كنت أخشى ألا يكون من المهارة بحيث يحكم دولة .

سمع سنشو هذه الكلمات الأخيرة فقال لمولاه : «اشتغل فقط ياسيّدي دون كيخوته ، لإعطائي هذه الكونتية التي طالما وعدتني بها ، وطالما انتظرتها منك ، وإنّي لأتعهّد لك بأنّني لن تعوزني المهارة في حكمها . وإذا أعوزتني فقد سمعت أن ثم أشخاصاً يستأجرون دول سادتهم مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً ويتولّون هم حكمها وادارتها ، والسيّد يكتفي بالريع ، دون أن يشغل نفسه بأي شيء آخر ، وسأفعل : فبدون مساومة سأتخلّص من كل الشؤون ، وأتمتّع بريعي كدون ،وليفعل الآخرون ما يشاؤون .

فقال الكاهن : ياأخي سنشو ، هذا حسن فيما يتعلّق بالريع ، لكن شؤون القضاء والعدالة من اختصاص سيد العدالة وربّها : وهي أمور تتطلّب سلامة الحكم ، وخصوصاً النية في حسن العمل . فإن أعوزت في البداية فلا بد أن يضل المرء في الوسط أو في النهاية : لأن الله يحب مساعدة نية الرجل البسيط الحسنة ، ويخزي نية الرجل المستنير .

فقال سنشو : أنا لاأفهم شيئاً في كل هذه الفلسفات ، كل ماأعرفه أنني أريد أن تكون لي هذه الكونتية وأنا أعرف كيف أحكمها ، فعندي نفس مثل غيري ، وجسم مثل غيري ، وسأكون ملكاً جيّداً على دولتي كما أنّ غيري ملك جيّد على دولته : فإذا صرت ملكاً فعلت مايحلو لي ، وإذا فعلت مايحلو لي ، فسأرضي ذوقي ، وإذا أرضيت ذوقي ، سأكون راضياً ، وإذا كنت راضياً ، فلن يكون ثم شيء أرغب فيه ، وإذا لم يكن ثم شيء أرغب فيه ، صار كل شيء على مايرام : فلتأت الدولة ، ومع السلامة ، الى اللقاء ، كما قال أعمى لآخر .

فقال الكاهن : هذه الفلسفات ليست سيّئة كما تقول ياسنشو ، لكن مع كل هذا فثم أمور أخرى كثيرة تقال فيما يتعلّق بموضوع الكونتيات .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : لا أعلم ماذا يمكن أن يقال في هذا الموضوع : إني أقتدي

بالأمثلة العديدة المتنوعة التي أستطيع أن أذكرها أمثلة فرسان مهنتي الذين أعطوا مكافآت محترمة لسوّاسهم جزاءً وفاقاً لإخلاصهم وخدماتهم الحسنة ، فجعلوهم ولاة مطلقين على جزر أو مدن بل أن بعضهم قد وصل الى مرتبة عالية حتّى راودته نفسه أن ينصّب نفسه ملكاً . لكن دون أن نضيّع وقتاً أطول هنا في هذا الموضوع ، أليس لدينا مثال بارز في شخص الفارس العظيم الذي لن يوفّى أبداً حقه من الثناء وهو أماديس الغالي الذي عيّن سائسه كونتاً على الجزيرة الثابتة ؟ لهذا أستطيع ودون أي تأنيب من ضميري ، أن أعيّن سنشو پنثا كونتاً ، وهو من خير السوّاس الذين عرفهم الفرسان الجوّالة .

ولقد كان الكاهن في عجب شديد من سماع دون كيخوته يتفوّه بهذه الحماقات المعقولة ، إن جاز أن يتّفق الحمق مع العقل ، وأعجب بالسهولة التي روى بها مغامرة فارس البحيرة ، وتعجّب من الإنطباع العميق الذي تركته في نفسه الكتب الكاذبة التي قرأها . ولم يكن أقل دهشة من سذاجة سنشو الذي اشتاق كل هذا الشوق للحصول على الكونتية التي وعده بها مولاه .

وفي تلك الأثناء عاد خدم الكاهن مع البغل الذي يحمل الزاد . فمدّوا سماطاً على العشب النضير ، تحت ظل بعض الشجر ، وأخذت الجماعة كلّها في تناول الطعام في هذا المكان حتّى لا يحرموا الثيران من المرعى النفيس .

وأثناء ما كانوا يأكلون سمعوا ضجّة كبيرة وصوت شخشيخة ينبعثان من أيكة مجاورة . وفي اللحظة نفسها ظهرت معزة جميلة رقطاء منقّطة بالأبيض والأسود والأشقر ، ومن خلفها أقبل معّاز كان يحاول النداء عليها لتعود الى القطيع . فجاءت المعزة الفزعة مباشرة الى الجماعة وهي تأكل ، وكأنها تطلب منهم النجدة ، ووقفت بالقرب منهم . واقترب المعّاز وأمسك بها من قرونها ، وقال لها وكأنها تفهمه : « آه ، أيّتها الجبلية الرقطاء ، تجرين وأنت تجلجلين! أي ذئاب أفزعتك إذن يا ابنتي ؟ ألا تقولين لي مافي الأمر ؟ لكن ماذا يمكن أن يكون اللهم إلا أنك أنثى ولا تستطيعين أن تهدئي أبداً ؟ يالشيطان مزاجك ، ومزاج كل اللواتي تشابهنك! عودي ، عودي ، يا صديقتي العزيزة . وإن لم تكوني راضية تماماً ، فإنّك على الأقل ستكونين في أمان في الحظيرة ، أو بين صواحبك وزميلاتك . أما إذا مشيت هكذا ، ضالة شاردة بغير دليل ، أنت يا من ينبغي عليك أن تحرسيهن وتقودنيهن ، فماذا سيصبحن بدونك ؟ » ــ هذا الكلام العجيب سرّ الجماعة كثيراً ، وخصوصاً الكاهن ، فقال للمعّاز :

ــ بحياتك يا أخي ألا استرحت قليلاً ، ولاتتعجّل عودة هذه المعزة الى القطيع . فما دامت انثى كما تقول أنت ، فلا بدّ لها أن تتبع غريزتها الطبيعية ، مهما حاولت منعها . خذ هذه اللقمة ، واشرب هذا الكأس ، يذهب عنك غضبك ، ولتسترح المعزة .

وفي الوقت نفسه قدّم إليه بطرف السكّينة قطعة من أرنب بارد ، أخذه المعّاز وشكرله وشرب وأجاب : «لا أريد ياسيدي أن تظنّني إنساناً ساذجاً ، وقد رأيتني أتكلّم هكذا مع العنزة ، لأن ثمّ سراً في الكلمات التي نطقت بها : إنّي ريفي ، لكن لا إلى حد أن أجهل كيف ينبغي الكلام مع الناس ومع الحيوان» .

فقال القسّيس : أنا متأكّد من هذا ، وأعرف بالتجربة أن الجبال تخبّيء أناساً مثقفين ، وأن أكواخ الرعاة تضم فلاسفة .

فقال المعّاز : على الأقل يا سيّدي يوجد فيها رجال مجرّبون ، ولإقناعك بهذا وجعلك تلمس هذه الحقيقة بإصبعك كنت سألتمس منك أن تعيرني انتباهك لحظة ، لولا إنّي أخشى أن أثقل عليك وأن أدعو نفسي من غير دعوة ، فإن سمحت رويت لك حكاية حقيقية ، تؤيّد ما قلته لك وما قاله لك هذا السيّد (وأشار الى القسّيس) .

فقال دون كيخوته : حيث أنّي أرى ، يا أخي ، أن حكايتك لها علاقة ما بمغامرات الفروسية ، فسأصغي اليها ، من ناحيتي ، بلذة بالغة ، وكل هؤلاء السادة سيصنعون صنيعي ، لأنهم قوم عقلاء يحبّون استطلاع الأخبار الجديدة التي تدهش ، وتمتّع وتفيد ، ولاأشك في أنّ حكايتك من هذا القبيل . فابدأ اذن يا صاحبي ، فنحن نصغي اليك .

فقال سنشو : أمّا عن نفسي فإنّي متنازل عن نصيبي ، وسأغدو الى ذلك الجدول ، ومعي هذه الكعكة التي ستطعمني لثلاثة أيّام ، لأنّي سمعت مولاي دون كيخوته يقول أنّ سائس الفارس الجوّال يجب عليه أن يأكل إذا تيسّرت له الفرصة ، حتّى التخمة وحتّى لا يستطيع المزيد ، إذ كثيراً مايقع له أن يدخل في غابة كثيفة ملتوية لا يستطيع أن يخرج منها قبل ستة أيّام ، فإذا لم يشبع هذا الرجل كل الشبع حتّى الامتلاء التام ، أو إذا لم يحمل خرجاً ، مليئاً ، فيجوز أن يبقى الى الأبد في هذا المكان بعد أن يتحوّل الى مومياء .

فقال دون كيخوته : هذا من حصافة الرأي ، اذهب اذن ياسنشو الى أين تريد ، وكل قدر ماتستطيع . أمّا عن نفسي فإنّ معدتي راضية ، وسأهتم الآن بغذاء روحي ، وذلك بالإستماع الى حكاية هذا الرجل الشهم .

وقال الكاهن : «وهكذا سنفعل جميعاً» . وفي الوقت نفسه التمس من المعّاز أن يبدأ . وهذا ضرب ضربتين براحة يده على ظهر المعزة التي كان يمسك بها من قرنيها ، وهو يقول لها : «نامي بالقرب منّي ، يارقطاء وعندنا وقت طويل قبل العودة الى القطيع» .

وبدا كما لو كانت المعزة تفهم قصده : فحينما رأته يجلس رقدت بهدوء الى جواره ، وتطلّعت فيه ، وكأنها متنبّهة الى ماسيقول ، وحينئذ أنشأ يقول :

الفصل الحادي والخمسون

الحكاية التي رواها المعّاز لأولئك الذين اقتادوا دون كيخوته

على مسافة ثلاثة فراسخ من هذا الوادي قرية إن تكن صغيرة فإنها من أغنى القرى في الإقليم . وكان يعيش فيها حرّاث يقدّر لفضائله أكثر مما يقدّر لثرائه ، وإن كانت الثروة تعطي الكثير من التقدير . لكنّ الكنز الذي كان يغالي فيه كان بنتاً مفرطة الجمال ، نادرة العقل ، فيها من الصفات ما يتعذّر معه الإعجاب الكافي بالمواهب التي منحتها الطبيعة والسماء ؛ كانت جميلة في طفولتها ، وزادت مفاتنها مع سنّها ، وفي سن السادسة عشرة لم يكن لها نظير . وانتشر صيت جمالها في كل القرى المجاورة ، ماذا أقول ؟ بل وفي القرى البعيدة حتّى بلغ قصر الملوك ، وهرع الناس من كل حدبٍ وصوب لمطالعة جمالها ، وكأنّها معجزة ، أو شيء نادر فريد . وكان أبوها يرعاها بعناية ، ولكنّها كانت ترعى نفسها أكثر وأكثر لأنه لا أقفال ولا ضباب ولا مزاليج يمكن أن تحفظ الفتاة أحسن من عقلها . ودفع ثراء أبيها وجمال الفتاة كثيراً من الغرباء ، أو من أهل القرية نفسها ، لطلب يدها ، لكنّ الوالد ، واليه وحده الفصل في أمر هذه الجوهرة النفيسة ، كان في حيرة شديدة ، لايدري من يختار من بين كل أولئك الذين ألحّوا عليه . وكنت أنا واحداً من هؤلاء وممن كان لهم أعظم الأمل ؛ لأن أباها كان يعرفني جيّداً ، كنت في القرية نفسها ، وابن أبوين فاضلين ، وفي زهرة العمر ، غني فيما أملك حين أرث ، لايعوزني الحكم السليم .

وفي الوقت نفسه سعى اليها يطلب يدها شاب آخر من قريتنا ، له المزايا نفسها مثلي ، ممّا جعل الوالد في غاية التردّد ، لأنه بدا له أن ابنته ستكون منعمة مع الواحد مثلها مع الآخر . ولكي يخرج من حيرته قرّر أن يكل الأمر الى لياندرا (وهذا هو اسم الفتاة الغنية التي جعلتني هكذا شقيّاً) ، بعد أن رأى أننا ونحن متساويان في الفضل ، فينبغي له أن يترك لها الخيار بين كلينا ؛ وهو تصرّف خليق بأن يكون قدوة لكل الآباء الذين يريدون تزويج

أبنائهم وبناتهم . ولا أقصد أن يتركوا لهم ولهن الخيار بين خطّاب سيّئين بل يقترح عليهم وعليهن خطّاب فضلاء ، ثمّ يترك لهم ولهن حينئذ التقرير . ولست أدري ماذا كان جواب لياندرا ، لكنّ والدها راح يحدّثنا عن صغر سن البنت ، ويأخذ بنا في أحاديث غامضة ، دون أن يلتزم بشيء أو يرفضنا . وكان اسم منافسي أنسلمو ، واسمي أنا هو يوخنيو : وهكذا تعرفون اسمي ممثّلي هذه الطراغوديا (المأساة) التي لاتزال خاتمتها مجهولة ، لكن يظهر أنها لن تكون خاتمة سعيدة . وفي تلك الأثناء وصل الى قريتنا فتى يدعى بيثنته دي لاروكا ، وهو ابن حرّاث فقير في الاقليم . وقد جاء من ايطاليا وبلاد أخرى كان فيها جنديّاً . وفي سن الثانية عشرة أتى به قائد مرّ بالقرية مع فرقة ، وبعد ذلك بإثنتي عشرة سنة عاد بزي جندي زاهي الألوان ، مغطّى بترّهات من البلور وسلاسل صغيرة من الصلب . وكان يتّخذ اليوم زينة ، وغداً زينة أخرى أنيقة متنوّعة الألوان لها من اللمعان أكثر مما لها من القيمة . والفلاحون وهم ماكرون خبثاء ، خصوصاً حين يكون لديهم فراغ ، فحصوا وحسبوا كل هذه الأزياء ووجدوا أن لديه ثلاث حلل متعدّدة الألوان ، مع رباطات ساق وجوارب ، لكنّه كان يموّه بها بطريقة مختلفة ، حتّى ليخيّل الى المرء أن عنده عشرين ، وأكثر من عشرين كسوة . ولا تعجبوا وأنتم ترونني أهتم بعدد ملابسه ، لأنها تلعب دوراً كبيراً في هذه القصة . وكان من عادته أن يجلس على صخرة ، بالقرب من شجرة دردار تقوم في ميداننا ، وهناك كان يجعل أفواهنا فاغرة ونحن نسمع منه أخبار المغامرات التي خاضها . لم يكن في الدنيا بلد لم يزره ، ولا معركة إلا شهدها ، وقتل هو وحده من المغاربة أكثر من عدد سكّان مراكش وتونس ، وقام بمبارزات فردية أكثر مما قام به جانتي أي لونا ، وديبجو غرسيه دي باريدس ، وآلاف آخرين ذكرهم : وخرج من كل هذه المعارك منتصراً ، دون أن تكلّفه قطرة واحدة من دمه ، وأرانا ندوب جروح لم نستطع أن نراها ، لكنه قال أنها طلقات أصيب بها في مختلف الملاحم . وبالجملة فإنه كان يفاخر على أنداده أولئك الذين كانوا يعرفونه خير معرفة ، ويقول أن ساعده هو أبوه ، وأنّ أعماله هي نبالته ، وأنه بزي الجندي هذا لايدين لأحد بشيء ولا للملك نفسه[1] . والى جانب كل هذه المفاخرات ، كان يعرف القليل من الموسيقى ويدندن على القيثارة ، وليتم الدائرة ادعى أنه شاعراً أيضاً : حتّى أن أقل حادث يقع في القرية كان يلهمه موضوع قصيدة لا تنتهي . هذا الجندي الجميل ، بيثنته دي لاروكا هذا ، هذا الشجاع ، هذا الغرنوق ، هذا الموسيقار هذا الشاعر رأته لياندرا عدة مرّات ، من

(١) يبدو أن ثربانتس يسخر . من شخص هذا الفيّاش ، بالعبارة الشائعة في عصره ، ونصّها : النبيل لا يعدو عليه إلا الله ، ولايقل قدراً عن الملك .

نافذة بيتها المطلّة على الميدان . فبهرتها زيناته ، واستمعت الى رومانثاته ، التي كان يوزّع منها عشرين نسخة ، وبلغت مسامعها الروايات التي كان يرويها عن أعماله البطولية ، وبالجملة ، تدخّل الشيطان في الأمر : فعشقته قبل أن يجرؤ على مغازلتها ، فسرعان ماتمّ التفاهم بين بيثنته وليباندرا ، وقبل أن يشتبه أحد الخطّاب في خطّتهما ، نفّذاها : فهجرت ليباندرا بيت أبيها الذي كان يعزّها (لأنها فقدت أمّها) وهربت مع الجندي ، الذي خرج من هذه المسألة أكبر انتصاراً منه في كل الأمور التي كان يتباهى بها ويتفاخر ، وعرفت القرية كلّها هذه المخاطرة فدهشت لها كل الدهشة . أمّا أنا فقد ارتجّ عقلي ، وأنسلمو كان مبلساً ، وأبوها حزيناً ، وأهلها مجلّلين بالعار .ولم تنم العدالة ، بل انطلق الرماة في أثرهما ، يذرعون الدروب ، ويفتّشون الغابات ، ويبحثون في كل مكان ، وأخيرا ، وبعد ثلاثة أيّام ، عثر على ليباندرا ، في جوف صخرةعارية بقميصها ، بدون المال ، ولاالجواهر ، التي أخذتها معها من المنزل . فأعيدت الى والدها البائس ، واستجوبت . فاعترفت بغير إكراه أن بيثنته دلاروكا غرّر بها ، وتحت تأثير وعد الزواج منها أقنعها بهجر بيت أبيها ، ووعدها بأن يسافر معها الى أمتع وأغنى مدينة في العالم وهي نابلي ، وبسذاجتها صدّقت كلامه ، وسرقت أباها وتبعت بيثنته في الليلة نفسها التي هربت فيها ، فاقتادها هذا الى جبل عالٍ وحبسها في كهف هو الذي عثروا عليها فيه ، دون أن يفعل بها أكثر من أن يسرق كل ماعليها . وكان هذا موضوع دهشة جديدة في نفوس أولئك الذين كانوا يسمعون أقوالها فقد كان من العسير تصديق عفّة الشباب ، لكنّ ليباندرا أكّدت هذا بطريقة إيجابية طبيعية ، حتّى أنها واست أباها الحزين الذي لم يهتم كثيراً بالأموال التي سلبت ، مادامت ابنته قد ترك لها الكنز الذي لو فقد مرة لايمكن العثور عليه أبداً . وفي اليوم نفسه الذي عادت فيه ليباندرا ، أخذها والدها من القرية واقتادها الى دير في مدينة مجاورة ، في انتظار أن يمحو الزمان الأثر السيّء الذي أحدثه هروبها في نفوس الناس . وكان في شباب ليباندرا مايلتمس له وجه العذر ، على الأقل في نظر أولئك الذين لم يكن الأمر يهمّهم ، أمّا أولئك الذين كانوا يعرفون روحها وعقلها فإنهم لم يستطيعوا أن يعزّوا غلطتها الى الجهل ، بل الى خفّة مزاجها ، ورعونتها ، والميل الطبيعي عند النساء الذي يحملهن على أن يكنّ طائشات غير راجحات العقول . فلمّا حبست ليباندرا في الدير على هذا النحو ، فقد أنسلمو كل ابتهاجه ، ولم يعد يجد شيئاً جديراً باهتمامه ، وكان الأمر كذلك أيضاً فيما يتّصل بي . وزاد حزننا بازدياد لهفتنا وجزعنا ، ولعنّا تنفجات الجندي ، وقلة رعاية الوالد لابنته ، وأخيراً قرّرنا نحن الاثنين أن نهجر قريتنا وأن نستقر في هذا الوادي الذي يرعى هو فيه الغنم ، وأنا الماعز ، ونقضي

حياتنا وسط الأشجار ، مطلقين العنان لوجداننا ، ومنشدين معاً مدائح أو نقائص ليباندرا ، متنهّدين على حدة أو مازحين شكوانا .

واقتداء بنا أقبل الكثيرون من خطّاب ليباندرا الى هذه الجبال ، يمارسون نفسها المهنة . وازداد عددهم الى حد أنه يخيّل الى المرء أن هذه البقعة صارت أركاديا[1] جديدة ، لكثرة مايرعى فيها من رعاة وقطعان ، وليس فيها موضع لايسمع فيه اسم ليباندرا الجميلة يتردّد ، فأحدهم يلعنها ، وينعتها بأنها هوائية المزاج ، طائشة غير متّزنة ، والآخر يصفها بأنّها سهلة خفيفة العقل ، وثالث يغفر لها ويبرىء ساحتها ، ورابع يعيبها ويطريها في وقت واحد ، وخامس يتغنّى بجمالها ، وسادس يأسى لغيابها ، وهم جميعاً يعبدونها ويزدرونها ، وقد بلغ الجنون ببعضهم حداً جعله يشكو من تعاليها مع أنه لم يحادثها أبداً ، والبعض الآخر يحترقون بلهيب غيرة مضحكة لأنه لم يعرف خطّتها إلا بعد غلطتها . ولايوجد هاهنا صخرة ولا جدول ، ولاشجرة لايشاهد بالقرب منها راعٍ يبث الريح استشهاده في الغرام . وفي كل ناحية يردّد الصدى اسم ليباندرا ، فيرن على الجبال ، وتتمتم به الجداول ، إنه يسحرنا ، ويبعث النشوة فينا ، فنأمّل بغير رجاء ، ونخشى دون أن ندري مم . وبين كل هؤلاء المجانين أكثرهم وأقلّهم عقلاً معاً هو منافسي أنسلمو : إنّ أسباب شكواه عديدة ، ولكنه لايأسى الا على غياب ليباندرا ، في شعر يكشف عن جمال روحه ، يتغنّى به بمصاحبة كمان يعزف عليه عزفاً بديعاً . أمّا أنا فأسلك مسلكاً أكثر طبيعة وأسهل . إذ يبدو لي أنّ الأعدل هو استنكار طيش النساء ، وعدم ثباتهن على الود ، ونفاقهن ، ووعودهن الخادعة ، وكذب إيمانهن وطيش أفكارهن . وهذا ، ياسادتي ، هو باعث العبارات الذي سمعتموني أقولها للمعزة ، حينما أمسكت بها كأني ، أنا لاأحفل بها كثيراً ، وإن تكن أفضل مافي قطيعي . وبهذا تنتهي الحكاية التي وعدتكم بروايتها . فإن بدت لكم مسهبة بعض الإسهاب ، فإنّي لن أدّخر وسعاً في تقديم خدماتي اليكم ، إنّ كوخي بالقرب من هنا . وعندي لبن طازج ، وجبنة لذيذة ، وفاكهة من فواكة الموسم لذيذة الطعم بقدر ماهي بديعة المنظر .

---

(١) إشارة الى قصيدة سنازار الشهيرة .

واركاديا : هي الهضبة الوسطى في مقاطعة البلوبو نيز في بلاد اليونان ، وكان يسكنها الرعاة والصيّادون ، وتغنّى بها الشعراء بوصفها بقعة شعرية مثالية .

الفصل الثاني والخمسون

في النزاع الذي وقع بين دون كيخوته والمعّاز والمغامرة المذهلة للتوابين، التي ختمها خاتمة مجيدة بعرق جبينه

لذّت حكاية المعّاز لكل الحاضرين وخصوصاً للكاهن ، وقد وجد أن الراوي لم يروها كمعّاز ريفي ، بل كرجل بلاط ، رقيق لطيف ، وأنّ القسّيس كان على حق حينما قال أنه يوجد في الجبال قوم مثقّفون ، مصقولون ، مؤدّبون . وعرض الجميع على يوخنيو آلاف الخدمات ، لكنّ أكثرهم تلهّفاً كان دون كيخوته الذي قال له : « الحق ، ياأخي ، أنه لو كان مسموحاً لي القيام بمغامرات ، لشرعت فوراً في إيجاد مغامرة جيدة لك : فأمضي الى الدير لإختطاف لياندرا ، فإنها من غير شك محبوسة فيه من غير إرادتها ، ولن أحفل برئيسة الدير ولابكل أولئك الذين قد يتعرّضون طريقي ، وأعود لأضعها بين يديك لتفعل بها ماتشاء ، مع مراعاة قوانين الفروسية التي تمنع من الإساءة الى أية آنسة . لكنّي آمل ، بعون الله ربّنا ، ألا تكون لسلطان ساحر خبيث قوة لا تفوقها قوّة ساحر أحسن قصداً ، وحينئذ أعدك بالنجدة والحماية ، كما تلزمني بذلك مهنتي ، التي ليست شيئاً آخر غير إغاثة الملهوفين والمضطهدين » .

فأخذ المعّاز يتطلّع في دون كيخوته ، ولمّا وجده غريب الطلعة سيءالملبس ، سأل الحلاق وكان بالقرب منه ـ من هذا الرجل المرتدي هذا الرداء والذي يتكلّم هذا الكلام ـ فأجاب الحلاق : « ومن يمكن أن يكون غير الشهير دون كيخوته دلا منتشا ، مصلح المظالم ، المنتقم للإهانات ، سند الآنسات ، ومرهب المردة ، والظافر في كل المعارك ؟ » فأجاب المعّاز : « هذا يشبه ماقرأته في كتب الفروسية ، حيث يفعل الفرسان الجوّالة كل الأمور التي ذكرتها ، وأعتقد أنّك إمّا تسخر منّي ، أو هذا السيّد في عقله حجرات خالية » .

فصاح دون كيخوته : « أنت وغد وقح! بل أنت المختل المأفون الخاوي ، أمّا أنا فرأسي أكثر امتلاء من رأس القحبة ، بنت القحبة ، التي وضعتك في الدنيا » . وأثناء ما كان يقول هذه الكلمات أخذ رغيفاً بالقرب منه وألقى بها في وجه المعّاز بقوة صفعت أنفه . فلمّا

رأى المعّاز ، وهو لايفهم في المزاح ، أنه قد أهين هذه الإهانة ، دون احترام للسماط والطعام وكل الجماعة ، وثب على دون كيخوته وأمسك رقبته بكلتا يديه وكان سيخنقه بدون رحمة ، لولا أن سنشو بنثا هرع وأمسك بالمعاز من كتفيه وقلبه على السماط ، وكسر الزجاجات ، وحطّم الصحون ، وأحرق كل مافيها . ودون كيخوته ، لمّا تخلّص ، انقض هو الآخر على المعّاز ، وكان وجهه يسيل دماً وسنشو يركله . وزحف المعّاز وبحث عن سكينة على السماط لينتقم انتقاماً دامياً ، لكن منعه الكاهن والقسّيس . وفي تلك الأثناء ساعد الحلاق المعّاز على وضع دون كيخوته تحته ، وأمسك هذا بدون كيخوته وأهوى عليه بالضربات حتّى كان الدم يسيل من وجه الفارس المسكين كما سال من وجه خصمه المعّاز . وكان الكاهن والقسّيس يختنقان من الضحك[1] ، ووثب الرماة فرحاً وسروراً ، وهيّجوا البطلين الواحد ضد الآخر ، مثل الكلاب التي تهيّج للعراك . وبلغ اليأس بسنشو مبلغه ؛ ولكن أحد خدم الكاهن احتجزه ومنعه من مساعدة مولاه . وأخيراً ضحك الجميع ، فيما عدا المتعاركين ، حينما سمع فجأة صوت بوق حزين كئيب ، جذب انتباه الجميع . لكنّ أكثرهم تأثراً كان دون كيخوته ، الذي قال للمعّاز ، على الرغم من أنّه كان محتجزاً تحته وجسمه مطحون بالضربات : «أخي الشيطان ، إذ لابدّ أنّك الشيطان بعينه ، مادامت قوّتك سيطرت على قوّتي ، فلنعقد ، أرجوك ، هدنة لمدة ساعة ، لأن الصوت الحزين المنبعث من هذا البوق يلوح أنه يعلن عن مغامرة تدعوني إليها » . فتخلّى عنه المعّاز وهو متعب من الضرب : ضارباً ومضروباً . وفي الحال نهض دون كيخوته على قدميه ، وتلفّت الى الناحية التي جاء منها الصوت ، فأبصر نازلاً من الرابية عدداً كبيراً من الناس اللابسين البياض ، على طريقة التوابين[2] .

وينبغي أن تعلم أن الغيوم في هذا العام أبت على الأرض أن تنفحها بأمطارها التي تأتي بالخير ؛ ولهذا سارت في كل أماكن الإقليم مواكب ، أقيمت صلوات استسقاء ، ومجاهدات روحية ، يطلبون الى الله أن يفتح على الشعب شآبيب رحمته فيرسل عليهم الأمطار . وكان سكّان القرية المجاورة قد خرجوا في موكب قاصدين خلوة مباركة تقع على إحدى الروابي المطلّة على الوادي .

---

(١) هذه الفقرة من المواضع التي أخذت على ثربانتس لمجافاتها لروح الكرم والأخلاق . والنبل ، خصوصاً تصويره لدور الكاهن والقسّيس والحلاق .

والواقع أن ثربانتس في واقعيته الساخرة لم يوقّر أحداً ووصف الضعف الانساني بما هو . وهذا مما يحمد له ، لا مما يؤخذ عليه .

(٢) منعت مواكب التوابين هذه في نهاية حكم كارلوس الثالث .

فلمّا لمح دون كيخوته ملابس الضاربين أنفسهم بالسياط ، وهي ملابس غريبة ، دون أن يتذكّر كم شاهد مثلها مرات عديدة ، خيّل اليه أن هذه مغامرة جديدة عليه وحده القيام بها ، بوصفه فارساً جوّالاً ، ومما ثبّت هذا الرأي في ذهنه أنه شاهد صورة مغطّاة بنقاب أسود يحملها هؤلاء التّوابون ؛ فخيّل اليه أنها سيّدة عظيمة اختطفها هؤلاء الأوغاد ، هؤلاء اللصوص الأراذل . وامتلأ رأسه بهذه الفكرة وهرع الى روثينانته ، الى كان يأكل العشب ، ووضع فيه اللجام ، وطلب من سنشو أن يناوله سيفه ، ثمّ امتطى صهوة الفرس ، ووضع ترسه على ذراعه ، وقال للحاضرين بصوت عالٍ : «الآن! أيتها الجماعة الباهرة الباسلة ، سترون عظم نفع الفرسان الجوّالة للإنسانية ، في هذه الساعة ، أقول لكم ، ستحكمون أنهم جديرون بالإحترام ، بناء على تحريري لهذه السيدة الطيبة التي تساق أسيرة» .وماقال هذه الكلمات حتّى ضغط على جانبي روثينانته ، إذ لم يكن في رجليه مهماز ، فكدف الفرس كدفة كبيرة (إذ في كل هذه القصة الحقيقية لم يشاهد روثينانته أبداً يركض) ، وهكذا مضى للقاء التوابين ، ولم تفلح مجهودات الحلاق ، والكاهن والقسّيس لوقفه ومنعه ، كما لم تفلح صيحات سنشو وهو يصرخ فيه : الى أين أنت ذاهب يامولاي دون كيخوته ؟ أي شيطان يجعلك تزحف هكذا ضد إيماننا الكاثوليكي ؟ يا ويلتاه عليّ! ألا ترى أن هذا موكب التّوابين ، وأن هذه السيدة المحمولة على تحفة هي صورة العذراء الطاهرة الطوباوية مريم ؟ انظر ماأنت فاعل يامولاي ؛ هذه المرة ليس الأمر كما تتخيّل» . ولكن عبثاً راح سنشو يصيح ؛ فقد كان مولاه متلهّفاً جداً للهجوم على التوابين وتخليص السيّدة الحزينة ، بحيث لم يصغ الى أي كلام ، وحتّى لو سمع كلمة ، لما رجع ، ولا بأمر الملك ، واقترب دون كيخوته من الموكب ، ووقف روثينانته ، الذي لم يكن يودّ خيراً من التوقّف ، وبصوت مضطرب مبحوح ، صاح : «قفوا ياهؤلاء ، ولاشكّ أنّكم لستم أهل خير ، مادمتم تخفون وجوهكم ، اسمعوا لي» .وكان أوّل من وقف هم أولئك الذين كانوا يحملون الصورة ، وقال له أحد القسس الأربعة الذين كانوا ينشدون التراتيل ، وقد شاهد هزال روثينانته وغرابة وجه دون كيخوته وكل مافيه مما يثير الهزء والإضحاك : «ياأخي ، إن كان عندك شيء تريد أن تقوله لنا ، فقله بسرعة ؛ فإن هؤلاء الإخوان الذين تراهم يمزّقون أكتافهم ، ونحن لا نستطيع أن نتوقّف بغير سبب كي لا نسمع شيئاً ، اللهم إلا إذا كان ما تريد أن تقوله موجزاً في كلمتين» .

فقال دون كيخوته : «لن أقول غير كلمة واحدة ، هي أن تطلقوا سراح هذه السيدة الجميلة ، التي تدل دموعها ووجهها الحزين على أنّكم تسوقونها بالقوّة والإكراه ، وأنّكم

أهنتموها . وأنا الذي خلقت للإنتقام من الإهانات ، لاأسمح لكم بالتقدّم خطوة واحدة قبل أن تطلقوا سراحها وتعطوها حريّتها التي تطالب بها وتستحقّها » .

هذا الكلام أفهم بسهولة من سمعوه أن دون كيخوته مجنون . فقهقهوا ، ولكن قهقهتهم كانت البارود الذي أشعل غضب الفارس (دون كيخوته) . وإذا به ، دون أن ينطق بكلمة ، يستل سيفه ويتقدّم نحو المحفّة . فترك أحد الذين كانوا يحملونها الحمل لاصحابه ، وتقدّم الى دون كيخوته بمذراة أو عصا كان يستخدمها في رفع المحفة حين كان يستريح . فهجم دون كيخوته على هذه العصا بضربة من سيفه كسرها نصفين ، ولكن الحمّال ، ببقية العصا الباقية في يده ، أهوى بضربة هائلة على كتف الفارس ، من ناحية السيف ، حتّى أن دون كيخوته المسكين ، الذي لم يستطع درءها بالترس ، سقط على الأرض في حالة سيئة جداً . وكان سنشو بنثا قد لحق به وهو يلهث فلمّا شاهده ملقى على الأرض صرخ بالحمّال أن يكف عن الضرب ، قائلاً أنه فارس مسحور بائس ، لم يؤذ طوال حياته أحداً ، لكن ماجعل الشرّير (الحمال) يتوقّف لم يكن صرخات سنشو ، بل رؤيته لدون كيخوته ساكناً لايحرّك قدماً ولاذراعاً . فظنّ أنه قتله ، وشمّر بسرعة رداءه حول خصره ، وفرّ هارباً في الخلاء ، كالوعل . وفي تلك الأثناء وصلت كل جماعة دون كيخوته . أمّا رجال الموكب فإنهم لمّا رأوا الجماعة تعدوا هكذا يتبعها الرماة بأسلحتهم ، خشوا أن يكون ثمّ خطّة شريرة : فانتظموا جميعاً في دائرة حول الصورة ، رافعين قلانسهم ، ممسكين سياطهم ، والقسس يحملون شموعهم ، منتظرين الهجوم ومصمّمين على الدفاع عن أنفسهم ، بل والهجوم إن استطاعوا . لكنّ الحظ رتّب خير مما ظنّوا . فقد ألقى سنشو بنفسه على جسم مولاه ، باكياً شاكياً بأضحك نواح عرفته الدنيا ، لأنه اعتقد أن مولاه مات ، وتعرّف أهل الموكب القسّيس ، فسكّن هذا التعرّف خوف الفريقين . وأنبأ القسّيس الأوّل القسّيس الأخر بجنون دون كيخوته في كلمة موجزة : هنالك تقدّم كل التوابين الضاربين أنفسهم بالسياط ليروا هل لايزال دون كيخوته يتنفّس ، فوجدوا سنشو يقول والدموع في عينيه :

ـ يا زهرة الفروسية ، يامن شاهدت ، بضربة واحدة من العصا ، نهاية عمرك الذي أحسنت استخدامه ، ياشرف جنسك ، وفخر المنتشا ومجده ، بل وفخر العالم بأسره ومجده ، وبغيرك سيصبح العالم مليئاً بالأشرار ، الواثقين من أنهم بمنجى من العقاب على سوء أفعالهم! أيها الكريم وكرمك فوق كرم كل اسكندر ، لأنك وعدتني ، نظير خدمة ثمانية أشهر فقط ، وعدتني بأحسن الجزر التي تحيط بها البحار! أنت أيها المتواضع مع المتكبّرين ، المتعجرف مع المتواضعين ، المتصدّي للأخطار الصابر على الإهانات ، العاشق

من غير معشوقة ، محاكي الأخيار ، ونقمة الأشرار ، وعدو الفاسدين ، أنت أيها الفارس الجوال ، يامن أنت كل مايمكن أن يقال!...» .

وعلى صيحات وتنهّدات سنشو أفاق دون كيخوته واستعاد حواسه ، وكانت أولى كلماته هي : «إن الذي يحيا بعيداً عنك ، أي دلثنيا الحلوة! يحتمل من الشرور أكثر من هذه . ساعدني ياصاحبي سنشو على الركوب على العربة المسحورة ، لأنّي لاأقدر على الإمساك بنفسي على روثينانته : فقد تحطّم كتفي» . فأجابه سنشو : «بكل ارتياح يامولاي! وصدّقني ، لنعد الى قريتنا ، بصحبة هؤلاء السادة الذين لايريدون لك إلا الخير . وهناك ندبّر خرجة أخرى تهيّئ لنا ربحاً أوفر ومجداً أكبر» . فقال دون كيخوته : «أنت على صواب فيما تقول ياولدي ، فمن الفطانة العالية أن نترك تأثير الكوكب النحس الذي يتحكّم الآن ، نتركه يمر» .

وصفّق الكاهن والحلاق والقسّيس لهذا القرار ، وبعد أن تسلّوا كثيراًبسذاجات سنشو ، وضعوا دون كيخوته على العربة كما كان من قبل . وسارت القافلة في طريقها وعلى ترتيبها ، وودّع المعّاز الجماعة ، ولم يرغب الرماة في الذهاب الى أبعد من هذا ، ودفع لهم القسّيس أجرتهم ، ورجا الكاهن القسّيس أن يوافيه بأنباء دون كيخوته ، سارة كانت أو رديئة ، واستأذنه في استئناف سيره : وأخيراً افترق الجميع ، ولم يبق غير القسّيس ، والحلاق ، ودون كيخوته ، وسنشو وروثينانته المسكين الطيب الذي أبدى في كل المصادمات من الصبروالتحمّل ماأبداه صاحبه .

وعلّق صاحب الثيران ثيرانه على العربة ، ووضع دون كيخوته على حزمة من الدرّيس ، وبالسير البطيء لدوابه الهادئة تابع الطريق الذي دلّه عليه القسّيس . وأخيراً ، وبعد ستّة أيام ، وصلوا الى القرية في ساعة الظهيرة وكان اليوم يوم الأحد . وكان الناس جميعاً مجتمعين في الميدان ، ومرّت العربة خلاله . فهرع كل السكان لمشاهدة من تحمل العربة ، فلمّا تعرّفوا ابن قريتهم ، بقوا حائرين مشدوهين . وجرى صبي صغير لإبلاغ بنت اخته والخادمة أن سيّدهما وصل ، شاحباً مهلهلاً ، على عربة تجرّها الثيران وهو راقد على حزمة من الدرّيس . وكم كان يثير الرحمة سماع صيحات هاتين الامرأتين وكيف كانت تلطمان الخدود ، وتلعنان مرة أخرى كتب الفروسية ، واستأنفا الصياح واللطم لمّا شاهدا دون كيخوته يدخل بيته...

وعلى الضجّة التي أحدثها وصول هذا الأخير ، هرعت زوجة سنشو بنثا ، لأنها كانت قد علمت أنه رحل ليكون سائساً لدون كيخوته . فلمّا رأت سنشو (أحسن من صاحبه) .

فقالت الزوجة : «الحمدلله على هذه النعمة! لكن قل لي ياعزيزي ماذا كسبت من وظيفتك سائساً ؟ وأية هدية ستعطيني ؟ وأين الأحذية لأولادنا ؟ » .

فقال سنشو : لم آتك بشيء من كل هذا ياامرأة ، بل أتيت بأشياء أكبر أهمّية .

فقالت : هذا أحسن . ارني إذن هذه الأشياء الجميلة ياحبيبي لتفرّح قلبي ، الذي كان حزيناً طوال القرون التي غبت فيها عنّي .

ـ سأريك إيّاها في البيت ، ياامرأة ، أمّا الآن فاكتفي بأن تعرفي أنه بفضل الله في المرة الأولى التي سنخرج فيها من جديد للبحث عن مغامرات ، سترينني أعود كونتاً أو حاكماً على جزيرة ، لامن تلك الجزر الموجودة بالعشرات ، بل من أحسن الجزر الموجودة .

ـ الله يسمع منك ، يا زوجي ، لأننا في أشد الحاجة الى ذلك . لكن قل لي ، ما هي الجزيرة ؟ أنا لا أعرف هذا .

ـ إن العسل ليس من أجل فم الحمار : حينما يأتي الأوان سترينها يا امرأة ، وستدهشين كل الدهشة حينما تسمعين أتباعك ينادونك ياصاحبة الجلالة!

ـ عن أية جلالة تتحدّث وأية جزر وأتباع ؟ هكذا قالت حنّة[1] بنثا (وهذا هو اسم زوجة بنثا ، لا لأنهما كانا قريبين ، بل لأن العرف في المنتشا جرى بأن تتخذ الزوجات أسماء أزواجهن) .

ـ لا تتعبي نفسك يا حنّة ، في معرفة كل هذه الأمور الآن ، وليكفك أن تعلمي أنّي أقول لك الحقيقة ، واسكتي . إنما أقول لك ، بالمناسبة ، إنّ ألذ شيء في الدنيا أن يكون المرء السائس المحترم لفارس جوّال يسعى الى المغامرات ، صحيح أنّ معظمها لاينجح كما يريد المرء ، وفي كل مائة ، تسعة وتسعون منها تخفق . وأنا أعرف ذلك بالتجربة ، لأنّي خرجت من بعضها مدوّخاً مطوّحاً ، ومن البعض الآخر خرجت محطّماً باللكمات والضربات ، ومع هذا كلّه فمن الأمور السارة أن يأمل المرء في النجاح ، وأن يجتاز الغابات ، ويعد الصخور ، ويزور القصور ، ويقيم الفنادق كما يشاء ، ودون أن يدفع مرابطيّاً واحداً » .

جرى هذا الحوار بين سنشو وحنّة ، بينما استقبلت ابنة الأخت والخادمة دون كيخوته ، وخلعتا ملابسه ، وأرقدتاه في سريره القديم . فتطلّع فيهما بعيون زائغة... ولم يستطع أن يتذكّر في أي مكان كان . وأوصى القسّيس ببنت الاخت ببذل كل العناية لخالها ، وأن تحتاط لئلا يفلت منهما مرّة أخرى ، وروى لهما كل ما اضطر الى فعله من أجل إعادته الى

---

(١) في كل المواضع الأخرى تقريباً يسمّيها ثرباتنس باسم : تريزة .

بيته . ولدى سماع هذه الرواية استأنفت الإمرأتان صراخهما ولعناتهما على كتب الفروسية ، راجين السماء أن تلقي في أعماق الهاوية بمؤلفي كل هذه الأكاذيب والحماقات . وأخيراً كانتا ترتعدان باستمرار خوفاً من أن يرحل خالها وسيدهما مرّة أخرى حين يرى نفسه قد استردّ صحّته ، وهو أمر قد حدث كما توقعتا .

بيد أنّ مؤلف هذه القصة ، رغم كل مابذله من جهد في سبيل البحث عن رواية مغامرات دون كيخوته في خرجته الثالثة ، لم يستطع العثور على أي أثر لها ، على الأقل في وثائق صحيحة . وكل مايعرف وفقاً للنقول المحفوظة في المنتشا ، هو أنّ دون كيخوته في خرجته الثالثة ذهب الى سرقسطة حيث شهد المباريات الشهيرة التي جرت في هذه المدينة ، وأنه قام فيها بأعمال جديرة بشجاعة ورجاحة حكمه ، لكنّ المؤلّف لم يعثر على أي شيء يتعلّق بمغامراته الأخيرة وموته ، وما كان له أن يعرف شيئاً عن هذا لو لم يهيّئ له حظه السعيد أن يلقى طبيباً عجوزاً يملك صندوقاً من الرصاص يظهر أنه عثر عليه بين أساسات دير عتيق كان يعاد بناؤه . ووجد في هذا الصندوق برشمان مكتوب بحروف قوطية ، ولكن بشعر قشتالي (اسباني) يروى الكثير عن مغامرات فارسنا . وفيه كلام أيضاً عن جمال دلثنيا ، وهزال روثينانته ، وإخلاص سنشو ودفن دون كيخوته . وفيه أيضاً مراث مختلفة ومدائح في حياته وأخلاقه ومناقبه . والمؤلّف الحقيقي لهذه القصة الجديدة المدهشة يورد هنا الأشعار التي أمكن فك رموزها وقراءتها . ومكافأة عن العمل الهائل الذي اقتضته أبحاثه في كل محفوظات اقليم المنتشا فإنه لا يطلب من القارئ إلا أن يمنح قصّته من التصديق ما يمنحه العقلاء لكتب الفروسية ، الكثيرة الرواج في هذه الأيّام . فإن ظفر بها ونعم وعدّ نفسه راضياً قد نال عن تعبه خير الجزاء ، وهذا سيشجّعه على البحث عن مغامرات أخرى إن لم تكن حقيقية ، فإنها ستكون على الأقل بديعة الإختراع مثل هذه ولا تقل عنها إمتاعاً . والكلمات الأولى المكتوبة على البرشمان الذي عثر عليه في الصندوق الذي من الرصاص هي :

أعضاءأكاديمية أرجميسا[1] ، بلدة في اقليم المنتشا ، كتبوا هذه عن حياة وموت الشجاع دون كيخوته دلامنشا .

---

(١) أرجميسا دي ألبا ، قرية على بعد ٧٥ كليو متراً في الشمال الشرقي من ثيودا ريال بمقاطعة طليطلة ، على ارتفاع ٦٦٠م فوق سطح البحر .

وقد اثبت النقد الحديث أن ثربانتس لم يسجن في أرجمسيا . لكن سخريته الشديدة من هذه القرية تجعل المرء يرجح أنه كان يعدّها مسقط رأس دون كيخوته .

المونيكونجو[1] ، عضو أكاديمية أرجمسيا
على قبر دون كيخوته
رثــاء

«المخ المحترق الذي أغنى اقليم المنتشا بغنائم أعظم مما ظفر به ياسون الكريتي ، والحكم الذي كان يدور مع وردة الرياح ؛

«والساعد الذي امتدّت قوته من قطاي حتّى غائيتا ، وربة الشعر التي كانت أشد من نقش شعراً على لوح من البرونز ترويعاً وفطنة ، «من خلف الأماديسيين وراءه ولم يقم كبير وزن للجلاورين ، مستنداً الى عشقه وشجاعته ، «من أسكت البليانسن ، من مضى يطلب المغامرات ممتطياً على روثينانته .

«يرقد تحت هذا الحجر البارد » .

البانأجوادو[2] ، عضو أكاديمية أرجمسيا ،
في مدح دلثنيا دل توبوسو
سوناته

«من ترونها ذات وجه بض منفوخ ، وصدر واسع ، وسمت مستكبر ، هي دلثنيا ، ملكة توبوسو ، التي عشقها دون كيخوته العظيم .

«من أجلها وطئ جانبي الجبل الأسود الواسع وسهل مونتييل الشهير ، حتّى وادي أرنخويث المخضوضر ، سائراً على قدميه متعباً . «كانت تلك غلطة روثينانته . أي كوكب نحس هيمن على مصائر تلك السيدة المنتشاوية وذلك الفارس الجوّال الذي لايقهرا في سنوات شبابها ،

و«هي تحتضر لم تعد جميلة ، وهو ، على الرغم من أنه يظل منقوشاً على المرمر ، لم يستطع الخلاص من الحب ، ولا من الكراهية ، ولا من المكيدة» .

---

(١) جميع أسماء أعضاء الأكاديمية القاب للسخرية . المونيكونجو =نسناس الكونجو .

(٢)كلمة مؤلفةمن كلمتين ، Pan =خبز agua=ماء ،وتدل الكلمة المركبة على الطفيلي الذي يكون ضيفاً معتاداً على بيت .

الكبرثيوس[١] ، عضو أكاديمية أرجمسيا البارع
الملحة ، في مديح روثينانته ، فرس دون كيخوته ولامنتشا
سوناته

« على العرش الأثيل الماسي الذي يطؤه المرّيخ بالدابة الدمية ، يهز المنتشاوي المهتاج رايته بغضب لانظير له .

« ويعلق السلاح والصلب الدقيق الذي به يحطّم ، ويقلب ، ويشطر ويقسم . أعمال بطولة جديدة! لكن الفن يخترع اسلوباً جديداً للفارس الجديد .

« وإذا كانت بلاد الغال فخورة بأماديسها ، الذي جعل أسباطه بلاد اليونان تنتصر آلاف المرّات ، ونشروا مجده ؛

« فاليوم تعطي المحكمة التي يرأسها بلوني الجائزة الى دون كيخوته ، واقليم المنتشا النبيل يفخر ببطله ، أكثر مما تفخر بلاد اليونان والغال .

« لن يجعل النسيان مجده يبهت أبداً ، لأن روثينانته نفسه يفوق في الشجاعة بريادور وبايار » .

البرلادور[٢] ، عضو الاكاديمية الأرجمسياوية ،
عن سنشو بنثا
سوناتة

« ها هو ذا سنشو بنثا ، القميء البدن ، لكنه العظيم بشجاعته ، أعجوبة مدهشة! لقد كان أشد السوّاس سذاجة وإخلاصاً ، السوّاس الذين عرفهم العالم ، أقسم لكم بذلك وأشهد عليه .

« أوشك أن يكون كونتاً ، لكنّ تآمر ضده الشر والظلم في هذا العصر الخبيث ، وهما لا يغفران حتّى لحمار .

« على حمار(مع الاحترام) كان يركب هذا السائس الرقيق ، خلف الفرس الهادىء أروثينانته وخلف مولاه .

« يالآمال الناس الباطلة! أنت تمرين واعدة بالراحة ، وأنت في النهاية لست إلاّ ظلاً ، ودخاناً وحلماً! » .

---

(١) أي صاحب الأهواء والنزوات .
(٢) = الساخر ، الهازئ .

الكاتشديابلو[1] عضو أكاديمية أرجميسا ،

على قبر دون كيخوته

رثـاء

«هنا يرقد الفارس ، المضروب كثيراً الجوّال السيء التجوال ، الذي حمله روثينانته في دروب ودروب .

«وبجواره يرقد أيضاً سنشو بنثا المغفّل ، أخلص سائس عرف بين السوّاس» .

التبكيتوك ، عضو أكاديمية أرجمسيا

على قبر دلثينا دل توبوسو

رثـاء

«هنا ترقد دلثنيا ، وعلى الرغم من أنها كانت نضرة بضة ، فقد استحالت الى تراب ورماد بفعل الموت المروّع .

«ولدت من عنصر عفيف ، وكان لها سمت السيّدة العظيمة ، وكانت شعلة العظيم كيخوته ، ومجد قريتها» .

تلك كانت الأشعار التي أمكنت قراءتها ، أمّا باقي الأشعار فقد نخر حروفها الدود ، فأعطيت الى أحد أعضاء الأكاديمية ليحاول استعادتها . ونحن نعرف أنه أفلح في ذلك بفضل السهر والاجتهاد والعمل المتواصل ، وأنه ينوي نشرها ، على أمل أن يخرج دون كيخوته خرجته الثالثة .

ربّما ينشد غيري   برباب أحسن[2]

ـ انتهى القسم الأول ـ

---

(١) قناع الشيطان ، وكان هذا لقبا أطلق على أحد نواب (عمال) بربروسا .

(٢) بيت شعر مأخوذ من ملحمة «أورلندو الغاضب» تأليف أريوستو ، النشيد الثلاثون ، البيت رقم١٦ ،وهذه الملحمة كانت ذات تأثيرعميق في ثرفانتس كمارأينا مراراًخلال الجزءالأول من القصة .

النبيل البارع

دون كيخوته دلامَنْتشا

تأليف

ميجيل دي ثرينتس سابدرا

إلى كونت ليموس[1]

وأنا أرسل إليك ياصاحب السعادة منذ أيّام مسرحيّاتي الهزلية ، التي طبعت قبل أن تمثّل ، قلت إذا لم يخطئ ظنّي ، ان دون كيخوته ، متأهّب قد انتعل مهمازيه ابتغاء الذهاب للمثول بين يديك ، واليوم أقول لك أنه انتعلهما وأخذ في الطريق إليك ، فإن وصل الى هناك ، فيبدو لي أنّي أسديت بعض الخدمة الى سعادتك ، إذ يلحّون عليّ من كل ناحية لإرساله علاجاً من الغثيان والقيء اللذين أحدثهما دون كيخوته آخر ، أخذ ، تحت قناع أنه جزء ثان ، يجوب الدنيا . والذي أظهر أكبر رغبة في مشاهدته هو امبراطور الصين العظيم ، ذلك أنه بعث إليّ قبل أقل من شهر برسالة عاجلة مع رسول خاص ، مكتوبة باللغة الصينية ، يطلب منّي فيها ، أو بالأحرى يتوسّل اليّ ، أن أبعث به إليه ، لأنه يود أن ينشىء كلية تدرّس فيها اللغة الاسبانية ، وأن يكون النص المستخدم في التعليم هو قصة دون كيخوته . وفي الوقت نفسه رغب اليّ في أن أكون مديراً لهذه الكلّية . فسألت الرسول هل صاحب الجلالة الامبراطور قد حمله من أجلي ببعض المؤونة والمعونة . فأجاب بأن هذا الأمر لم يكن موضوع بحث .

هنالك قلت له : إذن تستطيع ، ياأخي ، أن تعود الى الصين على مراحل طول كل منها عشرة أو عشرون فرسخاً ، أو بالطريقة التي أرسلوك بها ، لأنّي أقول لك عن نفسي أن صحتي لاتمكّنني من القيام بمثل هذه الرحلة الطويلة ، وفضلاً عن كوني مريضاً فإنّي خالٍ من

---

(١) في سنة ١٦١٣ اهدى ثربانتس الى الكونت دي ليموس ، دون بدرو فرنندث دي كسترو نائب الملك في نابلي منذ سنة ١٦١٠ ، «الأقاصيص النموذجية» . فلقي منه رعاية وافرة دفعته الى أن يهدي اليه في سنة ١٦١٥ «أولاً ثماني هزليّات وثماني وسيطات (انترميسس) جديدة لم تمثّل» ، ثمّ القسم الثاني من دون كيخوته . وقبل وفاته بخمسة أيّام أهدى اليه «أعمال برسيلس وسجسمندا» .

المال ، وامبراطوراً بإمبراطور وعاهلاً بعاهل عندي في ناپلي كونت ليموس العظيم ، الذي يبذل لي يد العون ، دون كل ألقاب الكلّيات والمديرين ، ويسد حاجتي ، ويهبني من فضله مالا يزيد عليه .

وعلى هذا ودّعته ، وعلى هذا أيضاً أستودع وأنا أقدّم الى سعادتك « أعمال پرسيلس وسجسموندا » ، الذي سأفرغ منه قبل أربعة أشهر ، إن شاءالله ، وسيكون أسوأ أو أحسن ماألّف في لغتنا وأقصد بين الكتب التي قصد بها الترفيه والتسلية ، وأخطىء حين أقول « أسوأ » ، لأنه في رأى أصدقائي ، سيبلغ أوج الكمال الممكن . فليعد سعادتك بالصحة التي نرجوها ، وستكون پرسيلس هناك لتقبيل أياديك وأنا لتقبيل قدميك ، أنا الخادم الأمين لسعادتك .

مدريد في اليوم الأخير من شهر اكتوبر سنة ألف وستمائة وخمس عشرة .

خادم سعادتك

ميجيل دي ثربانتس سابدرا

استهلال إلى القارئ

كان الله في عوني!

بأي لهفة ، أيها القارىء الكبير أو ربّما من العامة ، كان عليك أن تنتظر هذا الاستهلال ، متوقعاً أن ترى فيه انتقاماً من مؤلّف دون كيخوته الثاني[1] ، وهجوماً عليه وصبّاً للشتائم فوق رأسه ، وأقصد به ذلك الذي ، فيما يقال ، ولد في توردسياس وتولّد في طرغونه . ولكنّي في الحق لن أحقّق لك هذه الرغبة ، لأنه إذا كانت الشتائم تثير الغضب في القلوب الخانعة الجبانة ، فإنها في قلبي تثير النقيض . أنت تود ، من غير شك ، أن أقول عنه أنه حمار ، أحمق ، وقح ؟ لكن هذا ليس في نيّتي . وليكن في خطيئته عقابه . وليلزمها في عنقه ، وليهنأ بها .

لكن أشد ماآلم نفسي هو أنه يقول عنّي إني عجوز بذراع واحدة ، وكأنه كان في مقدوري أن أقف عجلة الزمان فلا تدور بالنسبة إليّ ، أو كأن يدي تحطّمت في حانة من الحانات ، لافي أعظم عمل يستحق الخلود عرفته القرون الماضية ، وتعجب به القرون الحاضرة ، ويمكن أن تحلم برؤيته الأجيال المقبلة . وإذا كانت جراحي لاتلمع في عيون من يرونها ، فهي على الأقل موضع تقدير ممن يعرفون كيف أصبت بها . ومخاطر الجندي في المعركة تشرّفه أكثر من السلامة التي يجدها في الهرب : وأقول عن نفسي أن جعلوني أؤمّل في المستحيل في هذه اللحظة ، إنّي كنت أفضّل أن أكون حاضراً في ذلك اليوم المشهود على ألا أشارك في مخاطرة وأكون بغير جراح ، إنّ الجراح التي يحملها الجندي على وجهه وصدره هي بمثابة نجوم تهديه وتقوده الى سماء الشرف ، وتجعله يطمح الى

---

(١) اشارة الى المؤلّف الذي نشر في طرغونه سنة ١٦١٤ الجزء الثاني من دون كيخوته تحت اسم مستعار هو ألونسو فرنندث دي ابيانيدا من توردسياس . الحاصل على الليسانس .

تلك المدائح العادلة التي لاتمنح للشعر الأبيض ، بل للجدارة والاستحقاق والفضل الذي ينمو ويقوى مع الأيّام .

ثمّ رأيته أيضاً ينعتني بأنّي حاسد ، ويعتقد أنّي من الجهل بحيث أحتاج أن يعلّمني ماهو الحسد . وهذا أمر يحزّ في نفسي . وأقول قسماً بشرفي وضميري إنّي لاأعرف من نوعي الحسد غير النوع المقدّس النبيل الحسن القصد . وإذا كان الأمر هكذا فليس من شأني أن أهاجم أي قسيس[1] ، خصوصاً إذا أضاف الى هذا اللقب لقب « المقرب » الى الديوان المقدّس . فإن كان من يتّهمني يقصد حقّاً من يلوّح أنه يقصده ، فإنه مخطىء خطأ فاحشاً : لأنّي أحب عقل من يتحدث عنه وأعجب بأعماله وبحياته الفاضلة الشريفة[2] . بيد أنّي أشكر للمؤلّف قوله أنّ « أقاصيصي » أقرب أن تكون ساخرة من أن تكون أنموذجية ، ولكنّها جيدة وماكان لها أن تكون كذلك لو لم تضم طرفاً من كل شيء . لكن يبدو لي ، أيها القارىء الحر ، أنّي أسمعك تقول أنّي أتقدّم قليلاً وإنّي أحصر نفسي أكثر مما ينبغي في حدود تواضعي . والحق أنه لاينبغي زيادة أحزان رجل محزون ، وأحزان هذا الكاتب لابدّ كبيرة ، لأنه لايجرؤ على الظهور في وضح النهار ، ويموّه عن اسمه الحقيقي وبلده ، كما لو كان مرتكباً لجريمة الطعن في الذات الملكية . فإن تصادف أن عرفته ، فقل له ، بالنيابة عنّي ، إنّي لا أشعر بأن إهانة لحقتك وإنّي أعلم حق العلم إغواءات الشيطان ، وأنّ من أعظمها أن يضع في رأس إنسان أنه قادر على أن يكتب ويطبع كتاباً يمنحه من القدر بقدر مايمنحه من الربح ، ومن الربح بقدر ما يمنحه من القدر . ولأويّد ماقلته أود أن تقص عليه هذه الأقصوصة بلطفك وذكائك :

« كان في اشبيلية مجنون ، انهمك في أعجب تهويل خطر ببال مجنون . صنع أنبوبة من اليراع ، مدبّبة الطرف ، فإذا أمسك بكلب في الشارع أو في أي مكان آخر ، وضع أحد مخلبيه تحت قدمه ، ورفع الآخر بيده ، وأدخل الأنبوبة قدر المستطاع في موضع حين ينفخ فيه يجعل الكلب مستديراً كالكرة . وبعد أن يضعه في هذه الحال ، يضربه على بطنه بضربتين خفيفتين من يده ، ثمّ يتركه قائلاً للحاضرين وكان عددهم كبيراً دائماً : هل تظنّون أن نفخ كلب أمر هيّن ؟

فإن لم تناسبه هذه الأقصوصة فأروِ له ، أيها القارئ العزيز ، هذه الأخرى والأمر فيما يتعلّق أيضاً بالمجنون والكلب .

---

(١) يقصد به لوبه دي بيجا .

(٢) هذه العبارة تهكّم على لوبه دي بيجا الذي كانت حياته الخاصة حافلة بالفضائح ، كما كشفت عنها الرسائل المتبادلة بينه وبين حاميه دوق سيسا . وثربانتس كان على علم بهذه الفضائح .

« كان في قرطبة مجنون آخر ، وكان من عادته أن يحمل على رأسه قطعة من الرخام أو من الحجر الثقيل . فإذا قابل كلباً آمناً اقترب منه وأسقط عليه عمودياً الثقل الذي يحمله . فكان الكلب يثور وينبح ويعوي ، ويهرب عادياً . لكن حدث أن كان من بين الكلاب التي يلقي عليها بأثقاله كلب يملكه بائع قبّعات وكان يعزّه كثيراً . سقط الحجر على رأس هذا الكلب فراح يصرخ ، فأبصره سيّده وسمع صراخه : فأمسك بسلاح ، وانقضّ على المجنون ولم يترك له عظمة سليمة في بدنه . وعند كل ضربة كان يقول له : آه ، ياكلب ، يالص ، إنك تعذّب سلوقي هكذا! ألم تر ياقاسي أنّ كلبي سلوقي ؟ » وكرّر اسم « سلوقي » عدة مرّات ثمّ أطلق سراح المجنون مسحوقاً كالحناء . ولم يضع هذا الدرس . فقد انطوى المجنون ، ولم يشاهد في الميدان طوال شهر . لكن عند نهاية هذه المدة عاد الى جنونه وحمل ثقلاً أكبر . واقترب من الكلب ، وتطلّع فيه بانتباه ، ودون أن يريد ولا أن يجرؤ على إسقاط الحجر ، قال : « هذا سلوقي فاحذر! » وهكذا كان يقول عن الكلاب التي يلقاها ، حتّى لو كانت دراوس أو كليبات أنها سلوقية ومنذ ذلك الحين وهو لا يسقط حجراً على كلب » .

وربّما يحدث مثل هذا لذلك القصّاص ، فإنه لن يجرؤ على إسقاط ثقل روحه على كتب هي أثقل من الحجارة إذا كانت رديئة . وقل له أيضاً بأنّي لأهتم أبداً بتهديده إيّاي بانتزاع كل مكاسب منّي عن طريق كتابه . وإنّي أجيبه بالعبارة الشهيرة في هزلية « بيرندنجا » : « يحيى الأربعة والعشرون[1] ، يا سيّدي ، والمسيح للجميع! » .

فليحيى كونت ليموس العظيم ، الذي يعينني كرمه وإنسانيّته ضد كل ضربات الحظ المنكود! وليحيى إحسان الرجل العظيم دون برنردو دي سندوبال أي روخاس ، مطران طليطلة! وبعد هذا ماذا يهمّني ألا تكون في الدنيا أية مطبعة ، أو أن تطبع ضدّي كتب بمقدار ماتحتوي مثنويات منجو ريبلجو[2] من حروف! لقد تفضّل هذان الأميران بالإهتمام بأمري وحمايتي من ظلم الأقدار ، دون أن يحثّهما على ذلك تملّق وضيع ، ودون دافع غير طيب النفس ، وأشعر بأنّي أسعد وأغنى مما لو كان الحظ ، بالطرق المعتادة ، قد غمرني بنعمه . إنّ الشرف يمكن أن ينتسب الى الفقير ، لا الى الشرّير ، والفقر قد يغشى على النبالة ببعض الغيوم ، لكنه لا يمكن أن يسبل الظلمة الدامسة عليه : وكما تلمع الفضيلة

---

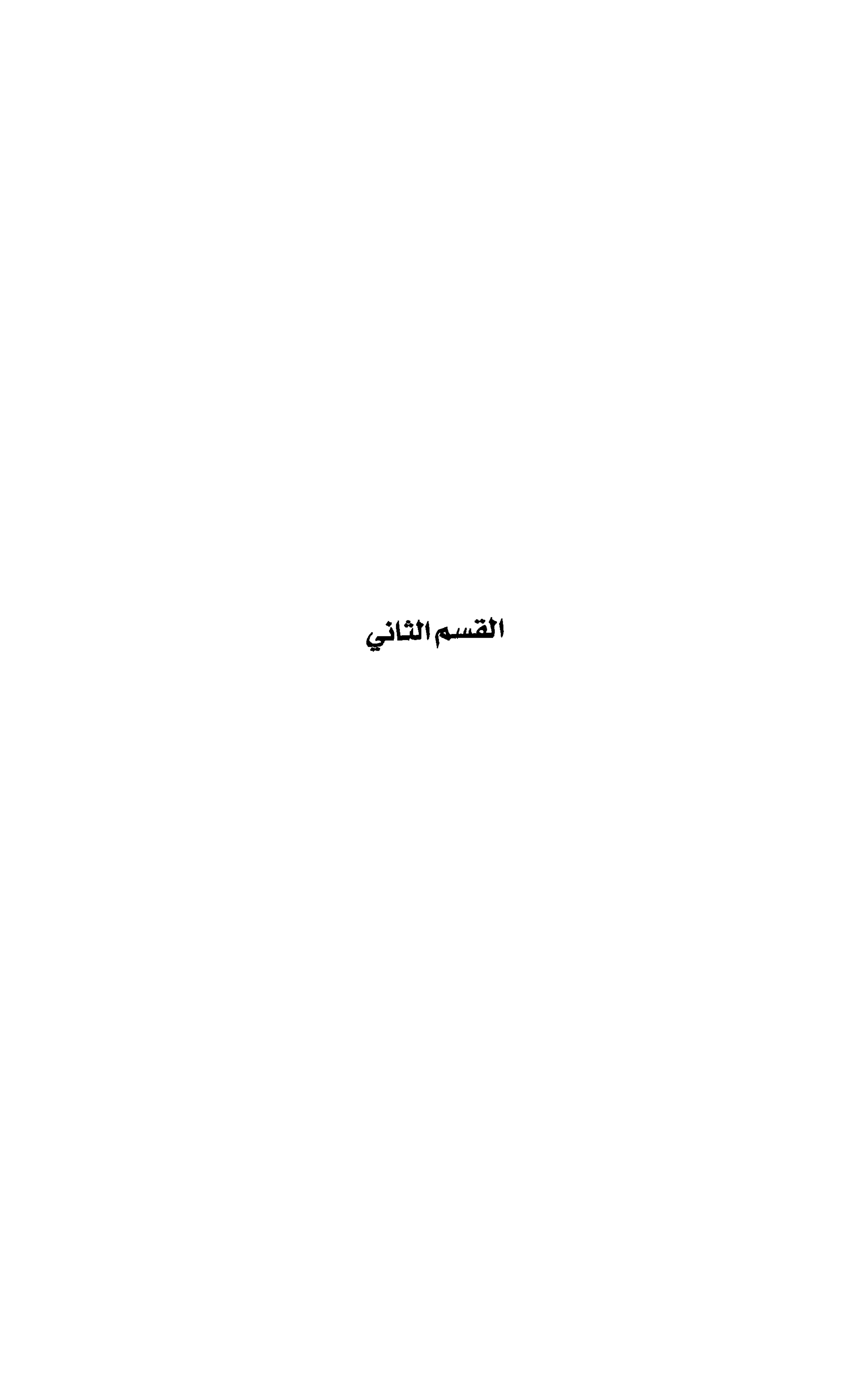
(١) الأربعة والعشرون هم موظّفو البلدية في اشبيلية ، وغرناطة وقرطبة .

(٢) حوار شعري بين راعيين هما خيل أوباتو ومنجلو ريبلجو ، وفيه سخرية من هنري الرابع ملك قشتالته ومحسوبه دون بلتران دلا كويبا ، وفيه قواعد الحكم الصالح ، وقد طبعت الطبعة الأولى منه في لشبونه (بغير تاريخ) ، ويعتقد أنّ تاريخها قبل سنة ١٤٨٥م .

لمعاناً خاصاً بها ، رغم كل منغّصات الإملاق ، فإنها تعرف كيف تكون موضوع تقدير النفوس النبيلة الرفيعة وحمايتها .

ولن أطيل عليك أيها القارىء العزيز . وإنّما أنبّهك الى أن هذا القسم الثاني من «دون كيخوته» الذي أقدّمه اليك الآن ، قد فصّل على نموذج القسم الأوّل نفسه ومن نفس قماشه . وفيه أقدّم اليك دون كيخوته في تلاوة مغامراته وحتّى وفاته ودفنه ، كيلا يخطر ببال أحد أن ينسب اليه أفعالاً جديدة . إنّ أفعاله القديمة تكفي ، وحسب رجل شريف أن يكون قد أفضى اليك بنبأ حماقات دون كيخوته العاقلة ، دون أن يأتي إنسان فيحشر نفسه فيها ؛ ووفرة الأمورالأحسن وفرة هائلة جداً تجعل تقديرها أقل ، أمّا إن كانت رديئة فإن قدرتها تجعلها مقبولة . وقد نسيت أن أقول لك أن تنتظر «برسيلس» فأنا بسبيل الفراغ منها ، والقسم الثاني من «غلاطية[1]» .

(١) كتب إهداء «برسيلس» في ١٨ ابريل سنة ١٦١٦ ، قبل موت ثربانتس بخمسة أيّام في ٢٣ ابريل .



القسم الثاني

الفصل الأول

في كيف كان تصرف القسيس والحلاق مع دون كيخوته إبان مرضه

يروي سيّدي حامد بن الأيل ، في القسم الثاني من هذه القصة ، الذي يتضمّن الخرجة الثالثة لدون كيخوته[1] ، أنّ القسّيس والحلاق ظلاّ قرابة شهر من الزمان لايريان صاحبهما حتّى لايذكّراه بماجرى . لكنّهما مع ذلك لم يكفّا عن زيارة إبنة الأخت والخادمة مراراً عديدة ، وتوصيتهما بأن تحسنا معاملته ، وأن تقدّما اليه غذاءً مقوّياً ، مفيداً للقلب والمخ ، الذي منه جاء كل الداء ؛ فأجابتا أنهما تعاملانه هذه المعاملة وستستمرّان على بذل كل مافي وسعهما من معونة ، خصوصاً وأنه توجد لحظات فيها يبدو سيدهما في تمام عقله . وهذا الخبر جلب السرور على الصديقين ، واغتبطا لتخيلّهما فكرة أنه مسحورمن أجل إعادته على عربة تجرّها الثيران ، كما رأينا في الفصل[2] الأخير من القسم الأوّل من هذه القصة العظيمة الحقيقية ؛ وتبعاً لهذا فقد قرّرا زيارته ، ليتأكّدا بأنفسهما من هذا التحسّن في أحواله العقلية وإن كان يظنّان هذا التحسّن أمراً غير ممكن ، لكنهما اتفقا فيما بينهما على ألا يمسّا أية نقطة تتعلّق بالفروسية الجوّالة ، حتّى لايفتحا جرحاً حديث الإصابة . دخلا عليه فوجداه جالساً على سريره ، لابساً قميصاً من الصوف الأخضر ، وعلى رأسه طاقية حمراء من النوع الذي يصنع في طليطلة ، وكان هزيلاً معروقاً الى حد يُرى معه كأنه مومياء . فقوبلا أحسن مقابلة ، وسألاه عن أخبار صحتّه فوصفها لهما وصف رجل في تمام قواه العقلية ، بل وبألفاظ منتقاة . ثمّ شاع التشويق في الحديث ، فتطرّق الى شؤون الدولة ، وشكل الحكم ، فكانوا يصحّحون عادة ، أو يلغون أخرى ، وكل منهم يفصل في الأمر فصل المشرّع ، وكأنّ

---

(١) لم يشأ ثربانتس أن يذكر لنا أين وكيف وجد هذا القسم الثاني من كتاب سيدي حامد بن الأيل ، ذلك أنه في الفصل ٥٢ من القسم الأوّل قال أنّ المؤرّخ العربي ، سيدي حامد ، لم يستطع الحصول على معلومات عن أعمال دون كيخوته في خرجته الثالثة .

(٢) الأصح أن يقول : في الفصول الأخيرة من القسم الأوّل .

ليكرجس أو سولون العصر ، وأخيراً غيّروا شكل الحكومة تماماً ، حتّى ليقال أنهم وضعوها في بوتقة ، وخرجت منها شيئاً آخر مختلفاً تماماً . وفي كل المسائل التي جرى الحديث حولها كان دون كيخوته يتكلّم بكل حكمة ، حتّى أنّ الفاحصين (القستيس والحلاق) اقتنعا بأنه استردّ عقله كاملاً .

وكانت بنت الأخت والخادمة حاضرتين أثناء الحديث ، فشكرتا الله على شفاء سيدهما . لكنّ القستيس تخلّى عن قراره الذي اتخذه قبل المجيء ـ بعدم الكلام عن الفروسية ، وأراد أن يدفع الامتحان حتى نهايته ، ليرى ماإذا كان شفاء دون كيخوته حقيقيّاً أو زائفاً : فتطرّق الحديث ، والحديث ذو شجون ، الى الأنباء التي وصلت حديثاً من القصر ، ومنها خبر مفاده أنّ الأتراك أبحروا بإسطول قوي ، ولكن لم تعلم وجهته وعلى أي مكان سينقضّ هذا السحاب ، وأن هذه الخطط قد أشاعت في كل البلاد المسيحية فزعاً يجدّده المسلمون كل عام ، وأنّ صاحب الجلالة عمل على تأمين نابلي ، وصقلية وجزيرة مالطة .

فقال دون كيخوته : إنّ جلالته يسلك مسلك المحارب الحذر حين يحصّن بلاده في الوقت المناسب ، حتّى لا يفاجؤها العدو وهي بغير دفاع ، لكنه لو سألني النصيحة لأسديت اليه نصيحه ماأبعده عن التفكير فيها .

فقال القسّيس في نفسه : آه دون كيخوته أيها المسكين ، الله يحفظك! أعتقد أنّك عدت الى جنونك .

وجالت بخاطر الحلاّق الفكرة نفسها فسأل دون كيخوته عن هذا الإجراء الذي يحسن اتخاذه في نظره ، إذ يجوز أن يكون رأياً من تلك الآراء غير الموفّقة التي جرت العادة بإبدائها للملوك .

فقال دون كيخوته : يا سيّدي يا جزّار اللحى ، إنّ رأيي ليس غير موفّق ، بل موفّق جداً .

فأجاب الحلاّق : لا أقول العكس ، ولكنّ التجربة دلّت على أن معظم الخطط التي تقدّم الى صاحب الجلالة يستحيل تنفيذها ، وجنونية ، بل وضارة بالدولة أو بالحاكم .

فقال دون كيخوته «لكنّ خطّتي ليست مستحيلة ولاجنونية ، بل هي أسهل وأعدل وأنسب وأحسم وسيلة خطرت على عقل ناصح .

فقال القسّيس : إنك تبطئ طويلاً في إخبارنا بهذا ياسيّدي .

فأجاب دون كيخوته : لا يهمّني كثيراً أن أذكرها الآن ، حتّى لاتبلّغ غداً مستشاري الملك ، فيتلقّى غيري المدح والثمن عمّا هو عملي أنا .

فقال الحلاّق : عن نفسي أقسم أمام الله والناس بألاّ أذكرها للملك ، أو الطابية[١] ولاإلى أي انسان فاني : وهذا القسم وجدته في رومانثه (القسّيس) الذي في مقدّمتها عرّف الملك باللص الذي سرق منه مائتي دبلة[٢] وبغله الذي كان يحسن الرهو .

فقال دون كيخوته : لا أعرف هذه الحكاية ، لأنّي أعرف أنه قسم عظيم ، لأنّ السيّد الحلاق رجل طيب .

فقال القسّيس : حتّى لو لم يكن ، فإنّي أتعهّد بالنيابة عنه ألا يتكلّم أبداً كأنه أخرس ، وإلا دفع غرامة .

فقال دون كيخوته : وأنت يا سيّدي القسّيس ، من يتعهّد لي عنك أنت ؟

فأجاب القسّيس : مهنتي التي تلزمني بكتمان السر .

فقال دون كيخوته : هاهي خطّتي إذن : يكفي أن يعلن صاحب الجلالة ، بواسطة النفير ، على أنّ كل الفرسان الجوّالة في اسبانيا أن يذهبوا الى القصر في يوم معلوم . فحتّى لو لم يحضر غير ستّة ، فيكفي واحد منهم ، هو وحده ، للقضاء على قوة الأتراك . أعيراني سمعيكما ياصاحبي ، وتابعا كلامي . هل هو أمر جديد ، وقولا لي ، أن يقوم فارس جوّال واحد بالقضاء على جيش مؤلّف من مائتي ألف رجل وكأنه ليس لهم جميعاً غير عنق واحد وأنهم صنعوا من العجين ؟ كم من تواريخنا (قصصنا) حافل بهذه العجائب! لو عاش اليوم ، لسوء حظّي (ولا أقول حظ غيري) الشهيد دون بليانس أو أي واحد من ذرّية أماديس الغالي العديدة ، وهاجم الأتراك ، ألا تصدّقون أنه سيقهرهم ؟ صبراً والله يرحم شعبه ويخلق فارساً إن لم يكن شجاعاً شجاعة فرسان العصور الماضية فإنه يساويهم على الأقل في البسالة . والله يسمعني ، ولن أزيد .

فصاحت بنت الأخت : ليتوفّني الله إن لم يكن في نية عمّي أن يعود الى فروسيّته الجوّالة!

فأجاب دون كيخوته : لابدّ لي أن أموت فارساً جوّالاً ، وليصعد الأتراك أو لينزلوا بأية قوة شاءوا ، والله يسمعني .

فقال الحلاق : أتوسّل الى سيادتك السماح لي بأن أقص ، في جمل قليلة ، مغامرة حدثت في اشبيلية ، مناسبة جداً لهذا المقام .

فوافق دون كيخوته والقسّيس ، وأنشأ الحلاق يقول :

---

(١) هذا القسم مأخوذ من لغة الشطرنج : الملك ، الطابية ، الخ...

(٢) دبلة : عملة اسبانية قديمة من الذهب كانت تساوي عشر بسيطات في ذلك العهد .

«في مستشفى المجانين بإشبيلية كان يوجد رجل حبسه فيه أهله ، لأنه فقد عقله . وكان مجازاً في القانون الديني في آشونه ، لكنه حتى لو كانت إجازته من شلمنقة لما كان أقل جنوناً . وبعد مرور عدة سنوات على حبسه ، اقتنع هذا المجاز بأنه استردّ عقله . وبناء على هذه الفكرة ، كتب الى المطران ، متوسّلاً اليه بإلحاح ، ولأسباب قوية ، أن يستنقذه من البؤس الذي كان يعيش فيه ، لأن رحمة الله قد أعادت اليه رشده ، وأضاف أن أهله ، لينعموا بأمواله ، أمسكوا به في السجن ، مدّعين ضد كل حق ، أنه سيكون مجنوناً حتّى يموت . واقتنع المطران بما توالى عليه من رسائل حافلة بسلامة العقل والرأى ، فكلف أحد القسس عنده بالاستعلام من مدير المستشفى هل ما يقوله هذا المجاز صحيح ، وأن يتحدّث بنفسه الى هذا الرجل ، فإن وجده فعلاً في تمام قواه العقلية فليخرجه وليرد إليه حرّيته . وفعل القسّيس ما أمره به المطران . فقال مدير المستشفى أن هذا الرجل مجنون دائماً ، إذ بعد أن يتكلّم طويلاً بعقل يعود الى تهاويل ليست أقل طولاً من حكمته المزعومة ، وسيرى هو مصداق ذلك بعد أن يتحدّث اليه . فحاول القسّيس أن يجرّب ، فتكلّم مع المجنون أكثر من ساعة ، وفي أثناء هذا الوقت كله لم يصدر من المجنون أي عمل جنوني ، بل كان على العكس من ذلك يعبّرعن نفسه بحكمة وعقل حتّى اعتقد القسّيس أنه شفي تاماً . ومن بين ماقاله أنّ المدير أراد الإبقاء عليه في المستشفى حتّى لايضيّع الهدايا التي تصله من أسرته رشوة منه ليقرّر أن السجين دائماً مجنون ، وإن مرّت عليه فترات يسترد فيها عقله . وقال أن السبب الأكبر في محنته هذه هو ثروته الكبيرة ، لأنّ أعداءه لجأوا الى الكذب من أجل الاستمتاع بها ، وأنكروا فضل الله عليه الذي حوّله من دابة الى إنسان . وأخيراً تكلّم بما يجعل المدير متّهماً ، ويجعل أقاربه قوماً طماعين شرهين ليس في قلوبهم رحمة ، وبدا عاقلاً حتّى أن القسّيس قرّر اقتياده الى المطران ، ليحكم بنفسه على الأمر . فرجا المدير أن يرد الى المجاز ملابسه القديمة : فنبّهه المدير مرة أخرى الى الاحتياط مما يفعل ، مدعياً من جديد أن المجاز لايزال مجنوناً . فلم يحفل القسّيس بهذا التنبيه ، واضطر المدير الى الطاعة ، لأنه رأى أن هذا هو أمر المطران : فرد الى المجاز ملابسه ، وكانت جيدة محتشمة . فلمّا رأى المجنون أنه تجرّد من ملابس الجنون ولبس ثوب العقل ، التمس من القسّيس أن يسمح له ، قبل أن يخرج ، بالذهاب لتوديع زملائه المجانين ووافق القسّيس ، وأراد أن يكون في صحبته لرؤية هؤلاء المساكين ، وصحبهما آخرون . فوصلوا أمام قفص وضع فيه مجنون مهتاج ، لكنه كان في تلك اللحظة هادئاً نسبيّاً . فقال له المجاز : «أخي ، هل لك حاجة تكلّفني بها فإنّي عائد الى بيتي . إن الله برحمته الواسعة ردّ لي عقلي ، دون

أن أستحق ذلك ، وشفيت تماماً وصرت في كامل قواي العقلية ولايستحيل شيء على قدرة الله .فضع كل رجائك فيه واعتقد أنه مادام قد أعادني الى حالتي الأولى ، فإنه يمكنه أن يمنحك النعمة نفسها لو لجأت الى الدعاء والصلوات . وسأهتم بارسال أطعمة جيدة اليك ؛ لأنّي أعرف بالتجربة أن كل أنواع جنوننا لا تنشأ إلا لأنّ معدتنا خاوية وفمنا مليء بالريح . تشجّع وانشط ؛ لأن الخمود في الشفاء يقضي على الصحة ويقرّب الموت» . وسمع هذا الكلام مجنون آخر ، موضوع في قفص مواجه لقفص هذا المجنون المهتاج ، فنهض من فوق حصيرة عتيقة كان نائماً عليها عارياً تماماً ، فسأل صائحاً بصوتٍ عالٍ عن هذا الذي يخرج عاقلاً قد شفي هكذا . فأجاب المجاز : «أنا يا أخي لم يعد لي شأن بهذا المكان ، وأنا أشكر للسماء هذه النعمة الكبرى» . فقال المجنون : «حذار مما تقول ، ولايغرّرن بك الشيطان ، صدّقني ، وعد الى قفصك ، وأخشى أن تخرج منه» . فأجاب الآخر : «إنني متأكّد أنني شفيت ، ولم تعد بي حاجة الى العودة الى هذا المكان» . فقال المجنون : «أنت ، شفيت! اذهب ، وليهدك الله ، ولكنّي أقسم بحق جوبيتر ، الذي ، أمثّل أنا على الأرض جلالته العظمى ، لأعاقبنّ أشبيلية من أجل خطيئتها في الإعتراف أنّك عاقل وفي إطلاق سراحك ، عقاباً ستتذكره على مدى القرون . آمين! ألا تعلم ، أيها المجاز الساقط ، أنّ عندي القدرة على هذا ، لأنّي كما قلت لك أنا جوبيتر صاحب الرعد ، الذي يمسك في يديه بالسهام الملتهبة الذي بها أستطيع أن أهدّد العالم وأحطّمه ؟ لكنّي سأكتفي بعقاب أقل أعاقب به هذا الشعب الجاهل : سأحرم المدينة من المطر ، هي وكل إقليمها طوال ثلاث سنوات كاملة ، ابتداء من اليوم الذي أطلق فيه هذا التهديد . آه! أنت حر ، شفيت ، عاقل! وأنا ، أنا مجنون ، محبوس ، موثق! اذهب ، لا أفكّر في الأمطار كما لا أفكّر في الانتحار» . وأصغى كل الحاضرين بانتباه الى أقاويل المجنون ، وإذا بالمجاز يتلفّت الى القسّيس ويأخذ بيده ويقول : «سيّدي! لا تقلق من تهديدات هذا المجنون ، إذا كان هو جوبيتر ، ويرفض اطلاق المطر ، فأنا نبتون ، إله المياه وأبوها ، سأمطر ماشاء لي الأمطار وكلّما كان ذلك ضرورياً» . فأجاب القسّيس : «حسناً ، ولكن يا سيّدي نبتون الأحسن ألا تهيّج السيد جوبيتر ، ولهذا فأرجوك من فضلك أن تعود الى قفصك . وفي يوم آخر يكون لدينا فيه مزيد من الوقت ، سنعود لأخذك» . فأخذ المدير وسائر الأشخاص في الضحك ؛ وأوشك القسّيس أن يغضب . فجرّد المجاز من ملابسه ، واقتيد من جديد الى محبسه ، وانتهيت أنا من حكايتي» .

فقال دون كيخوته : أهذه إذن الحكاية التي رأيت أنها مناسبة جداً للمقام بحيث لم

تتمالك من إيرادها ؟ آه يا سيّدي الحلاق ، سيّدي الحلاق! يا لعمى من لايستطيع أن يرى من خلال الغربال! هل من الممكن أن يجهل حضرتك أن المقارنات التي تعقد بين عقل وعقل ، وقيمة وقيمة ، وجمال وجمال ، وأسرة وأسرة هي دائماً بغيضة لا تتقبّل قبولاً حسناً ؟ أنا لست نبتون ، إله المياه ، ولا أريد أبداً أن ينظر إليّ إنسان على أنني عاقل ، إذا لم أكن كذلك فعلاً . ولكنّي أتعب نفسي فقط في تفهيم العالم أنهم يخطئون حين لايريدون تجديد الأزمنة السعيدة التي لمعت فيها طريقة الفرسان الجوّالة . ولكنّي أرى جيداً أن هذا العصر الفاسد لايستحق أن ينعم بالنعم التي لا نهاية لها والتي كان ينشرها حولهم أولئك الفرسان ، الذي تحمّلوا وحدهم عبء الدفاع عن الممالك وحماية الأوانس ، وغوث المستضعفين واليتامى ، وعقاب المستكبرين في الأرض ومكافأة المتواضعين . ولكنّ غالبية فرسان اليوم يفضّلون لبس القماش الدمشقي والديباج (البروكار) والثياب الثمينة على لبس الدروع التي كان يلبسها القدماء . ولم يعد أحد منهم ينام في الخلاء ، متعرّضاً لعواصف السماء والأنداء ، مسلّحاً من رأسه حتّى أخمص قدميه ، ولم يكونوا يتركون الركاب بل يستندون الى رماحهم ويسعون لخداع النوم ، كما كان يفعل الفرسان الجوّالة . ولن تشاهد اليوم فرساناً يخرجون من الغابات ويتسلّقون الجبال وينزلون من ثمّ الى شاطئ عقيم خاوٍ ، على ساحل بحر كثيراً ما تحرّكه العواصف ، فيجدون زورقاً صغيراً بدون مجاذيف ولا أشرعة ولا ساريات ولا حبال ، فيقذفون بأنفسهم فيه بقلب جسور ، تاركين أنفسهم للأمواج العاتية لبحر عميق أحياناً يصاعد بهم حتّى السحاب ، وأحياناً أخرى يغوص بهم في الهاوية ، ويكافحون ضد الرياح بشجاعة لاتقهر ، ويجدون أنفسهم ، حيث لايتوقّعون على مسافة ثلاثة آلاف فرسخ من النقطة التي بدأوا منها . فيقفزون على هذه الأرض المجهولة النائية ، ويخوضون مغامرات جديرة بأن تنقش ، لاعلى البرشمان ، بل على البرونز . أمّا اليوم فإنّ الكسل ينتصر على الجد ، والبطالة على العمل ، والرذيلة على الفضيلة ، والاستكبار على القيمة ، والنظر على العمل بالسلاح ، السلاح الذي يلمع لمعاناً خالداً في العصر الذهبي وبين الفرسان الجوالة . وإلا فقولا لي من ذا الذي كان أعظم أمانة وبسالة من الشهير أماديس الغالي ؟ ومن كان أرجح عقلاً من بلمرين الانجليزي ؟ ومن كان أكثر أنساً وتساهلاً من تيرانت الأبيض ؟ ومن كان أكثر عزلاً من لسورت اليوناني ؟ ومن كان أكثر جراحاً وأشد إرهاباً في المعركة من دون بليانس ؟ ومن كان أكثر جسارة من بريون الغالي ؟ ومن واجه أخطار أكثر من فليكس مارس الهوركاني ؟ ومن كان أكثر نزاهة من اسبلانديان ؟ وأكثر إقداماً من دون ثرونخليو التراقي ؟ وأشجع من رودامنت ؟ وأشجع وأكثر حصافة من الملك

سوبرينو ؟ وأكثر تهوّراً من رينالدو ؟ ولايقهر مثل أورلندو ؟ وألطف وأحسن أدباً من ردجيرو الذي ينحدر منه دوقات فراراً ، كما يخبرنا بذلك توربين في كتاب « وصف الكون » ؟ كل هؤلاء الفرسان ، ياسيّدي القسّيس ، وكثيرون غيرهم أستطيع أن أذكرهم ، كانوا فرساناً جوالين وكانوا مجداً لطريقتهم . ومن رأيي أن يستخدم الملك هؤلاء أو من هم على شاكلتهم ؛ وسيجد من أمثالهم ، وبهذا يقلّل كثيراً من النفقات ، وبهم ينتزع الأتراك من لحاهم . وعلى كل حال فسأبقى أنا في مسكني ، مادام القسّيس (في الحكاية المذكورة) لا يريد اخراجي منه ، وإذا يشأ جوبيتر ، كما يقول الحلاق ، أن يجعل المطر ينزل ، فسأتولّى أنا إنزال المطر حينما أشاء : قلت هذا ياسيّدي ، لأبيّن لكم أنني فهمتكم جيداً .

فأجاب الحلاق : الحق ، ياسيّدي دون كيخوته ، أنني لم أقصد أبداً الى الإساءة إليك : والله يشهد أنّ قصدي كان حسناً ، وأنه لا ينبغي لسيادتك أن تتضايق مما قلت .

فأجاب دون كيخوته : أنا الذي أعرف هل ينبغي عليّ أولا .

وقال القسّيس ، مقاطعاً إيّاه : أمّا عن نفسي ، وإن كنت لم أكد أقول كلمتين حتّى الآن ، فإنّي لاأستطيع أن أكتم وقتاً أطول أمراً مقلقاً أثاره ماقاله السيّد دون كيخوته .

فقال هذا الأخير : تكلّم يا سيّدي ، ومسموح لك بأمور أكبر ، خبّرنا عن هذا الأمر المقلق ، إذ لا ينبغي أن تمضي مثقل الضمير .

فقال القسّيس : مادمت تأذن لي ، فإنّي أقول لك إذن ، بلا لف ولادوران ، أنني لا أستطيع أن أقنع نفسي بأنّ كل هذه العصابة من الفرسان الجوالة الذين ذكرتهم قد وجدوا فعلاً ، وكانوا ناساً من لحم وعظم ؛ ويخيّل اليّ أن كل هذا من اختراع الخيال ، وخرافة كاذبة ، إنها أحلام يرويها قوم يقظى ، أو بعبارة أدق نصف نائمين .

فأجاب دون كيخوته : هذا خطأ آخر وقع فيه كثير من الناس الذين لايريدون أن يصدّقوا بوجود أمثال هؤلاء الفرسان . وكثيراً ماسنحت لي الفرصة مراراً عديدة ، ومع كثيرين من الأشخاص ، لمحاربة هذا الخطأ : وأحياناً لم أفلح في إقناعهم ، وفي أحيان أخرى أفلحت في استخراج الحقيقة ، التي تبدو لي بيّنة الى حد أن أستطيع أن أقول أنني شاهدت بعيني أماديس الغالي : لقد كان رجلاً طويل القامة ، أبيض الوجه ، جميل اللحية ، وإن كانت سوداء ، ذا نظرة شديدة رقيقة معاً ، قليل الكلام ، بطيء الغضب ، سريع الهدوء . وكما أستطيع أن أصف لك صورته ، ففي وسعي أيضاً أن أرسم ملامح كل الفرسان الجوّالة الذين تروي القصص أخبارهم : فمن دراستي لمغامراتهم ، وأعمالهم وطباعهم يمكن المرء بسهوله أن يحكم على ملامحهم ولون بشرتهم وطول قامتهم ، بفلسفة سليمة .

فسأله الحلاق : وماذا كانت قامة المارد مورجانت في نظرك ياسيّد دون كيخوته ؟

فأجاب دون كيخوته : فيما يتعلّق بالمردة اختلفت الآراء : فالبعض ينكر وجودهم ، والبعض الآخر يؤكّده . ومع ذلك فإن الكتاب المقدّس ، وهو لايمكن أن يخطىء في أي شيء ، يبرهن على وجودهم ، لأنه يروي لنا تاريخ جوليات الفلسطيني ، الذي كان طوله سبع أذرع ونصفاً ، وهذا طول مفرط جداً . وفي صقلية عثر على عظام سيقان وأكتاف طويلة جداً ، وطولها يبرهن على أن من كانت لهم هذه العظام كانوا طوالاً كالأبراج العالية ، كما تدل الهندسة على ذلك . وعلى الرغم من كل هذا ، فإنني لاأستطيع أن أقرّر بالدقة ماذا كانت قامة مورجانت ، وإن كنت لاأظن أنه كان رجلاً طويلاً ، وما يحملني على هذا الظن هو أنه في تفاصيل مغامراته ورد مراراً أنه كان ينام تحت سقف ، ومادامت قد وجدت سقوف قادرة على أن تظلّه ، فمن البيّن أنه لم يكن ذا قامة مفرطة الطول .

فقال القسّيس : وقد راعه سماع هذه الحماقات الكبيرة : «أنت على صواب» ، ثمّ سأله عن رأيه في شكل رينالدوس دي مونتالبان ، وأورلندو ، وسائر أكفّاء فرنسا ، ماداموا جميعاً قد كانوا فرساناً جوّالة .

فقال دون كيخوته : أمّا عن رينالدوس دي مونتالبان فإني أجرؤ أن أقدّر أنّ وجهه كان واسعاً ، وبشرته بيضاء وقرمزية ، وعيونه في حركة دائمة ، وكان سهل الإثارة والغضب ، صديقاً للصوص ولكل أنواع الضالين . أمّا أورلندو أو روتولندو أو رولدان (لأنه تطلق عليه هذه الأسماء الثلاثة في القصص) فإنّي أشهد أنه كان متوسّط القامة ، عريض المنكبين ، أحدب قليلاً ، وأسمر الوجه ، أشعث اللحية ، أشعر البدن ، نظرته متوعدة ، وكلامه موجز ، ومع ذلك كان مؤدّباً مهذّباً .

فقال القسّيس : إذا لم يكن أورلندو أجمل مما رسمته ، فإنّي لاأدهش بعد في كون أنجليكا الجميلة أهملته وفضّلت عليه لطف ورقّة وسماحة وجه ذلك المغربي الشاب الذي لم يكن عليه سوى زغب خفيف ، والتي أسلمت نفسها له : لقد كانت عاقلة إذن في تفضيلها للمدوّر الرقيق على أورلندو الخشن الغليظ .

فقال دون كيخوته : أنجليكا هذه ، ياسيّدي القسّيس ، كانت فاجرة لعوباً ، طائشة ذات نزوات ، أحدثت في العالم ضجة بوقاحاتها بقدر ماأحدثت بجمالها : لقد ترفّعت عن آلاف السادة ، وآلاف الرجال الشجعان العاقلين ، من أجل غلام صغير أمرد ، دون أي ثروة ودون أي مؤهّل غير الإعتراف بالجميل لصاحبه . وذلك الذي طالما تغنّي بجمالها ، وهو أريوستو الشهير ، ترفّع عن ذكرآخر مغامراتها ، ولاشكّ في أنها لم تكن مغامرات شريفة

جداً ، بعد أن اختارها اختياراً غيرلانق ، ثمّ تركها بعد ان قال : «برباب أحسن ربّما يذكر غيري كيف تلقّت صولجان قطاي» . لاشكّ في أن هذه كانت نبوءة (لأن الشعراء يسمّون Vates متنبّؤون) لأنه بعد أريوستو ، جاء شاعر أندلسي شهير[1] وتغنّى «بدموع» انجليكا ، وشاعر اسباني (قشتالي) آخر يمكن أن يسمّى «الأوحد[2]» مجّد جمالها .

فقال الحلاق : قل لي ياسيّد دون كيخوته ، بين كل هؤلاء الشعراء الذين تغنّوا بأنجليكا ، ألم يوجد أحد ألّف هجاء فيها ؟

فقال دون كيخوته : أعتقد لو أنه كان ساكرينته وأورلندو شاعرين ، لما قصّرا في نظم الهجاء ، لأنه من عادة العاشقين الذين لم تحفل بهم معشوقاتهم ، الحقيقيّات أو المفترضات ، واللواتي أصبحن سيّدات أفكارهن ، أن ينتقموا منهن بالأهاجي ، وهو انتقام والحق يقال لا يليق بقلب كريم . وعلى كل حال فإنه لم يبلغ علمي حتّى الآن أنه نشر ضد أنجليكا الجميلة أي شعر يهجوها فيه .

فصاح القسّيس : «معجزة»!

وفي الوقت نفسه سمعت بنت الأخت والخادمة ، وكانت قد غادرتا الجماعة ، وهما تحدثان ضجة كبيرة في الفناء ، فجروا كلّهم الى هناك .

---

(١) هوينتلويس برهونادي سوتو (١٥٤٨ ـ ١٥٩٥) «مؤلّف القسم الأوّل من انجليكا» .

(٢) لويه دي بيجا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥) مؤلّف «جمال أنخلكا» .

الفصل الثاني

في النزاع الكبير الذي جرى بين سنشو پنثا وبنت أخت دون كيخوته وخادمته، وحوادث أخرى

ويروي التاريخ أن الضجة التي سمعها دون كيخوته والقسّيس والحلاق صدرت عن بنت الأخت والخادمة . وذلك أن سنشو پنثا قرع الباب وأراد رؤية مولاه ، فرفضتا أن تفتحا له ، وقالت الخادمة : « عماذا يبحث عنه هذا المتشرّد في هذا البيت ؟ عد الى بيتك يا أخي : ألست أنت قد جئت لإفساد سيّدنا ، وجعله يجوب الآفاق ؟ » .

فأجاب سنشو : ياخادمة الشيطان! الفاسق ، المخدوع ، الذي يساق الى الآفاق هو أنا ، لا سيّدك : إنه هو الذي جاب بي الأفاق . أنت تخطئين في نصف الحساب : فهو الذي انتزعني من بيتي بكلمات معسولة ، واعداً إيّاي بجزيرة لازلت في انتظارها .

فقالت ابنة الأخت : خنفتك جزر فاسدة يا سنشو اللعين! ما هي الجزر[1] ؟ هل هي شيء يؤكل ، أيها الشره الأكول ؟

فأجاب سنشو : ليست شيئاً يؤكل ، بل يحكم ، وأحسن من أربع مدن ، وخير من أربعة عمديات .

فقالت الخادمة : ومع كل هذا فلن تدخل هنا ، ياصندوق الخبائث ، وكيس الشرور : اذهب واحكم بيتك ، واحرث حقولك ، وكف عن التطلّع الى جزر أو جزيرات .

وابتهج الحلاق والقسّيس كثيراً من هذا النزاع ، لكن دون كيخوته ، وقد خاف أن تفلت من سنشو سذاجة تضر به ، ناداه : وهكذا اضطرّت السيّدتان بالسماح له بالدخول . وودّع الحلاق والقسّيس دون كيخوته ، يائسين من شفائه ، وقد رأياه لايزال متشبثاً بأوهامه وفروسيّته التعيسة المنحوسة .

---

(١) كان دون كيخوته يستعمل كلمة insula غير الشائعة بدلاً من isla الشائعة ، ولهذا لم تفهم بنت الأخت المقصود من هذه الكلمة ، وسنشو نفسه لم تكن لديه فكرة واضحة عنها .

قال القسّيس للحلاق : سترى يازميلي أنه في اللحظة التي نكون أبعد مانكون عن التفكير في الأمر ، سيعود نبيلنا (دون كيخوته) الى الجّولان .

فأجاب الحلاق : ليس عندي في هذا أي شك ، لكنّي لا أدهش من جنون المولى (دون كيخوته) بقدر ما أدهش من سذاجة السائس (سنشو) ، الذي يعتقد اعتقاداً جازماً أنه سيظفر يوماً بجزيرة ، بحيث لا يستطيع أي شيء في الدنيا أن ينتزع من رأسه هذه الفكرة .

فقال القسّيس : شفاهما الله . ولنبق متفرّجين : وسنرى ماذا سيحدث عن هذا المزيج من الحماقات بين مثل هذا الفارس ومثل هذا السائس ، لكنّهما قدّا من قالب واحد ، وحماقات المولى بغير حماقات الخادم لا تساوي فلساً .

فقال الحلاق : أنت على حق ، وبودّي لو عرفت أي حديث يجري بينهما الآن .

فأجاب القسّيس : أنا واثق أن بنت الأخت والخادمة تستطيعان أن تنبآنا به : إنهما شديدتا الاستطلاع بحيث لابدّ أنهما تصغيان .

وفي تلك الأثناء كان دون كيخوته قد أغلق على نفسه في غرفته ومعه سنشو ، فلمّا وجدا نفسيهما وحيدين قال أوّلهما : «إنّي حزين جداً ياصاحبي سنشو ، إذ أراك تقول وتكرّر أنني أنا الذي انتزعتك من كوخك لأنك تعلم جيداً أنني لم أبق في بيتي . لقد خرجنا معاً ، وكنّا معاً ، وسافرنا معاً ، وكان حظّنا واحداً ، ومصيرنا واحداً ، فإن كنت طرت مرّة ، فقد كسرت أنا وطحنت أكثر من مائة مرة : ففي هذا قد شأوتك وزدت عليك» .

فأجاب سنشو : هكذا قضى العقل ، لأنك تقول أن حوادث النحس تصيب الفرسان الجوّالة أكثر مما تصيب سوّاسهم .

فأجاب دون كيخوته : أنت تخطئ يا سنشو ، لأن المثل يقول ...Quando Caput dolet .

فقال سنشو : أنا لا أفهم لغة غير لغتي .

فأجاب دون كيخوته : معناه أنه حين يتألّم الرأس ، تتألّم سائر الأعضاء : فما دمت أنا مولاك وسيّدك ، فأنا الرأس ، وأنت أحد أعضائي ، لأنك خادمي ، ومعنى هذا فإن الداء الذي يمسني أو سيمسني لابدّ أن يمسّك ، وداؤك يمسّني أنا أيضاً .

فأجاب سنشو : يجب أن يكون الأمر هكذا : لكن بينما طيّروني كعضو ، كان رأسي[١] في الجانب الآخر من السور ينظر اليّ وأنا أطير في الهواء دون أن يشعر هذا الرأس بأي

---

(١) أي دون كيخوته وقد كان يتطلّع من فوق السور على سائسه وهو يطير في الهواء ، راجع الجزء الأول ص١٥٤ .

ألم ، ومع ذلك فإن كان من الضروري أن تشعر الأعضاء بالألم الذي يشعر به الرأس ، فمن الضروري أن يلزم الرأس بالشعور بألم الأعضاء .

فقال دون كيخوته : أنت تريد أن تقول ، فيما أحسب ، أنني لم أتألم حين كنت تطير ؟ لا تقل هذا ولا يخطر ببالك : لأنّي أقول لك إن روحي كانت تتألم أكثر من جسمي . لكن لندع هذا الآن ، وسيكون لدينا كل الوقت للعودة الى هذا الموضوع . قل لي ، يا صاحبي سنشو ، ماذا يقال عنّي في القرية ؟ وأي فكرة كوّنها عنّي عامة الناس والنبلاء والفرسان ؟ ماذا يقال عن بسالتي ، وأعمالي ، وآدابي ؟ وماذا يظن بالقرار الذي اتخذته وهو بعث طريقة الفروسية التي نسيت ؟ وبالجملة فيا سنشو أريد منك أن تقول لي كل ماوصل الى سمعك عن هذا الموضوع دون أن تنقص شيئاً حسناً ، أو تنقص شيئاً قبيحاً . إن الأتباع المخلصين ملزمون بأن يذكروا لسادتهم الحقيقة العارية كلّها ، دون أن يزيد اليها التملّق شيئاً ، أو ينقص منها الاحترام فتيلاً . وأريد لك أن تعرف يا سنشو أنه لو بلغت الحقيقة هكذا الى مسامع الأمراء ، دون تزويقات التملّق ، لكانت عصور أخرى غير عصرنا قد نعتت بأنها عصور الحديد ، ولكنّ عصرنا جديراً بأن يسمّى العصر الذهبي بالنسبة الى العصور التي سبقت . تذكّر هذا الرأي يا سنشو ، حتّى تخبرني بحكمة وطيب نيّة الخبر اليقين عما سألتك عنه .

فأجاب سنشو : سأفعل هذا عن طيب خاطر ، بشرط ألا تغضب مما سأقوله ، مادمت تريد منّي أن أخبرك بصراحة عارية ، دون أن ألبسها أية ملابس غير تلك التي كانت عليها لمّا بلغتني .

فقال دون كيخوته : لن أغضب أبداً ، ولك مطلق الحرّية في الكلام بغير خوف .

فقال سنشو : أقول لك إذن أوّلاً إن الشعب ينظر اليك على أنّك مجنون كبير ، وإنّي لست أقل منك جنوناً ، والنبلاء يقولون أنّك ، وقد خرجت عن حدود صفتك ، قد منحت نفسك لقب « دون » واغتصبت لقب فارس ، مع أنّك لاتملك غير أربع أقدام من الكروم وقصبتين من الأرض مع أكواخ من خلف ومن قدّام . والفرسان يقولون أنهم لاينظرون بعين الرضا الى النبلاء وهم يريدون أن يسوّوا أنفسهم بهم ، وخصوصاً النبلاء السوّاس[1] الذين يدهنون أحذيتهم ويرفون جواربهم السود بحرير أخضر .

فقال دون كيخوته : هذا لا يمسّني : فإنّي دائماً ألبس لباساً لامعاً ، بغير ترقيع ، صحيح أنّ ملابسي قد ترقّع أحياناً ، لكن بالسلاح لا بالزمان .

---

(١) يطلق هذا على النبلاء (هيدالجوس) الذين يحاربون وهم مشاة ويلبسون تروساً بيضاً ، ولا يمكنهم ، رغم أعمالهم ، أن يصبحوا فرساناً .

فقال سنشو : أمّا فيما يتعلّق ببسالتك ، وأدابك ، وأعمالك والخطة التي رسمتها فقد اختلفت الآراء : بعضهم يقولون أنّك مجنون ، والبعض الآخر يعتقدون أنك باسل ، ولكنّك بائس تعس الحظ ، وفريق ثالث يجدك في آن واحد مؤدّباً ووقحاً ، وفي هذا الموضوع يذهبون في نهشك كل مذهب بحيث لا يدعون لك ولا لي أنا أي عظم واحد سليم .

فقال دون كيخوته : تأمّل يا سنشو : في كل مكان تتجلّى فيه الفضيلة بدرجة بارزة ، تضطهد دائماً . ونادر جداً بل ربّما ولا واحد من الناس الكبار في العصور الماضية لم يستطع أن ينجو من سهام الوشاية والحسد : فيوليوس قيصر ، ذلك الشجاع ، العاقل ، والقائد المحنّك ، أتهم بالطموح والتبذّخ بإفراط في ملابسه وطريقة حياته . والاسكندر ، الذي استحقّ بجليل أعماله لقب «الأكبر» ، لم ينج من الطعن عليه بأنه سكّير . وقالوا عن هرقل ، صاحب الأعمال الاثنى عشر[1] ، أنه كان شهوانياً فاسقاً فاجراً ، وعن دون جلاور ، أخي أماديس الغالي ، أنه كان كثير العدالة ، وعن أخيه أنه كان دائم البكاء . وهكذا ياسنشو بين كل هذه المطاعن التي وجّهت الى الأخيار ، يمكن المطاعن التي وجّهت الى أن تمر بسلام ، اللهم إلا إذا كان هناك أكثر مما قلت .

فصاح سنشو : يا جسد أبي ، تلك هي العقدة .

ـ أهناك شيء آخر ؟

ـ بقي أن يسلخ الذيل : إنّ ماقلته ليس إلا فطائر وحلوى ، لكن إذا أردت أن تعرف كل المطاعن التي تشاع عنك ، فإنّي آتيك هنا بشخص يذكرها لك كلّها دون أن ينقص منها شيئاً ، فمساء الأمس وصل ابن برتلميه كرسكو ، الذي تخرّج من شلمنقة ، وحصل على إجازة فذهبت للترحيب به وتهنئته بسلامة الوصول ، فقال لي أنّ تاريخك شاع في كل الدنيا تحت عنوان «البارع النبيل دون كيخوته دلا منتشا» وقال لي أيضاً أنهم وصفوني أنا الأخر فيه باسمي «سنشو پنثا» وكذلك السيّدة دلثنيا دل توبوسو ، وأمور أخرى كثيرة جرت بيننا ، نحن وحدنا ، مما جعلني أرسم ألفاً من علامات الصليب ، لأنّي لا أستطيع أن أرسم كيف استطاع ذلك المؤرّخ أن يعرفها .

---

(١) هي أشهر أعمال هرقل وهي : خنق أسد نيميا ، قتل الخنزير البري في أرومنته وحية لرنا ، ونفذ بسهامه في طيور بحيرة استومفالا ، قهر ثور اقريطش وافراس ديوميد ، اختطف ثيران جريون وتفاحات الهسبريدس الذهبية ، لحق بالأروية ذات الأرجل النحاسية ، نظّف اسطبلات أوجياس ، هزم الأمزونات وجر كربيروس خارج العالم السفلي ، خلّص هسيون من وحش بحري ، فصل جبال كلفية وجبال أورلا ، التي كانت في الأصل متصلة جبلاً واحداً ، وتكون ما عرف فيما بعد باسم أعمدة هرقل (جبل طارق) ، قتل القنطور نسوس الذي أراد اختطاف ديجانير زوجته ، حل وثاق بروميتيوس الذي كان مغلولاً ، على جبل القوقاز .

فقال دون كيخوته : أؤكّد لك يا سنشو أن هذا المؤرّخ لا بدّ أنه ساحر حكيم : ومثل هؤلاء لا يخفى عليهم شيء .

فقال سنشو : وكيف يكون ساحراً وحكيماً ، إذا كان اسمه ، فيما يقولون سمسون كرسكر ، سيدي حامد برنجانه ؟

فقال دون كيخوته : هذا اسم مغربي .

فقال سنشو : لابدّ أنه كذلك ، لأنّي سمعت مراراً من يقول أن المغاربة يحبّون البرنجان (الباذنجان) .

فقال دون كيخوته : أنت مخطىء فيما يتعلّق باسم «سيّد» لأن معناه بالعربية : «مولى» .

فقال سنشو : هذا جائز ، لكن إذا رغبت في أن آتي به هناك ، فإنّي أذهب اليه حالاً .

فقال دون كيخوته : هذا يسرّني جداً ياصاحبي ، إنّ ما قلته لي يجعلني في لهفة حارة بالغة ، ولن أستطيع أن أستسيغ لقمة قبل أن أعرف كل شيء بدقّة .

فقال سنشو : سأذهب حالاً . ثمّ ترك سيّده ، وذهب للبحث عن صاحب الإجازة ، ثمّ عاد به في خلال لحظات ، وقام بين ثلاثتهم حديث شائق لطيف .

الفصل الثالث

في الحديث الشائق الذي جرى بين دون كيخوته وسنشو پنثا وصاحب الاجازة سمسون كرسكو

بقي دون كيخوته مفكّراً وهو ينتظر صاحب الإجازة ، وقد أمل في أن يعرف منه أخبار نفسه ، مستمدّة من كتاب كما قال له سنشو . ولم يستطع أن يقنع نفسه بوجود مثل هذا التاريخ (القصة) لأن سيفه كان لايزال مضرّجاً بدماء الأعداء الذين قتلهم ، ومع ذلك طبعت أعماله الفروسية العظيمة . فخيّل اليه أن أحد السحرة ، صديقاً أو عدوّاً ، قد أجرى هذا الطبع بفن السحر ؛ فإن كان قد فعله كصديق فلابدّ أن ذلك كان من أجل تمجيد أعماله ، ورفعها فوق أعظم أعمال الفرسان الجوّالة ، وإن كان عدوّاً ، فلا بدّ أنه حط من شأنها ، ووضعها تحت أحط أعمال أهزل وأتفه سائس رويت أعماله . ومع ذلك فإن وجد مثل هذا التاريخ (القصة) فلا بدّ أنه سام ، رفيع ، ممتاز ، رائع ، صحيح ، لأنه تاريخ فارس جوّال . فبعثت هذه الفكرة السلوى في نفسه ، لكنّه تأسّف من ناحية أخرى حين رأى أن مؤلّف تاريخه رجل مغربي ، كما يدل على ذلك اسم «سيّد» ؛ لأنه كان يعتقد أنه لايمكن أن ينتظر من مثله أن يقول الحقيقة ، لأنهم جميعاً كذّابون ، خدّاعون ، مزيفون . وخشي أيضاً أن يعالج المؤلف غراميّاته بقليل من التحفّظ ، وفي هذه إساءة الى شرف سيدته دلثنيا دل توبوسو ، وكان يودّ منه أن يعلن عن إخلاصها ، ومحافظتها على كرامتها بترفّعها عن الملكات والامبراطوريّات ، والأوانس من كل مرتبة ، وكل مكانة ، ضابطة حركات الطبيعة . وهكذا ضل خاطره بين الأفكار ، حينما وصل سنشو وكروسكو ، فرحّب به دون كيخوته بأدب جم . وصاحب الإجازة هذا ، وإن كان اسمه سمسون «شمشون» فإنه لم يكن فارع القامة ؛ كان دحداحاً دقيقاً ، شاحباً ، لكنّه ممتلئ الروح والحيويّة ، وكانت سنّه أربعاً وعشرين سنة تقريباً ، ووجهه مستديراً ، وأنفه أفطس وفمه واسعاً ، وكل هذه العلامات تدل على أنه ماكر ساحر خبيث ، كما كشف عن ذلك حين أقبل على دون كيخوته ، وجثا على ركبتيه وقال :

سيّدي دون كيخوته إئذن لي بتقبيل يدي عظمتك ، لأنه بحق زي القدّيس بطرس الذي أحمله ، وإن كنت لم أتلق بعد غير الترتيبات الأربعة الأولى ، أقسم بأنّ سعادتك من أشهر الفرسان الجوّالة الذين وجدوا على ظهر الأرض وسيوجدون . والله يحفظ من الشر سيدي حامد بن الأيل ، الذي أعطانا تاريخ وقائعك العظيمة ، والمستطلع الذي عمل على ترجمته من العربية الى الاسبانية ابتغاء التعليم العام للشعوب!

فأنهضه دون كيخوته وقال له : صحيح اذن أنه كتاب تاريخي ، وأنّ المؤلّف عربي مغربي ؟

فأجاب سمسون : نعم يا سيّدي ، وأنا متأكّد أنه في اللحظة التي أكلّمك فيها الآن يوجد أثنتا عشرة ألف نسخة مطبوعة من هذا الكتاب ، في البرتغال ، وبرشلونة ، وبلنسية ، وهناك من يؤكّد أنه يطبع أيضاً في أنفرس . وفي رأيي أنه لن توجد أمّة لن تترجمه الى لغتها .

فقال دون كيخوته : من الأمور التي ينبغى أن تعطى للرجل الفاضل الممتاز أعظم الرضا أن يكون محمود السمعة بين أقرانه الذين يطبعون وينشرون تاريخه ؛ وأقول محمود السمعة ، لأن العكس أسوأ من الموت .

فقال كرسكو : من الأمور التي ينبغي أن تعطى للرجل الفاضل فيجب أن ينال سعادتك قصب السبق على كل الفرسان الجوّالة ؛ لأن المسلم في لغته والمسيحي في لغته قد أرادا كلاهما أن يصوّر بسالتك تصويراً حاداً دقيقاً ، وأن يصف شجاعتك الكبرى في الأخطار ، وصبرك في الشدائد ، وتسليمك في البلايا والمحن ، وأمانتك ، وعفّتك في غراميّات أفلاطونية مع السيدة دونيا دلثنيا دل توبوسو .

فقاطعه سنشو قائلاً : لم أسمع أبداً لقب «دونيا» يطلق على السيّدة دلثنيا وإنما كانت تسمّى فقط السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وهكذا يخلط التاريخ في هذه النقطة .

فقال كرسكو : هذا الاعتراض ليس كبير الأهمّية .

فقال دون كيخوته :كلا ، قطعاً ، لكن قل لي :ياسيّدي صاحب الإجازة ، أي أعمالي يمجّد أكثر من غيره في هذا التاريخ ؟

فأجاب صاحب الإجازة : لمّا كانت الأذواق في هذه المسألة متفاوتة فإن الآراء أيضاً مختلفة : فالبعض يفضّل مغامرة طواحين الهواء ، التي حسبتها بريارات ومردة ، والبعض الآخر يفضّل مغامرات طواحين الكبس ، وفريق ثالث ، وصف الجيشين اللذين صارا قطيعين من الضأن ، وهذا يفضّل مغامرة الميّت الذي كانوا يحملونه ليدفن في أشقوبية ، وذلك يعطي

الجائزة الأولى لتحرير المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وثالث يعطيها لقصة الماردين البندكتيين وصراعك مع البشكونشي الباسل .

فقاطعه سنشو قائلاً : خبرني ، ياسيّدي صاحب الإجازة ، هل لم تذكر مغامرة البغّالين الينجواسيين ، حينما لقي روثيناتته الطيب نصيبه من الرفسات لمّا حاول الاستمتاع ؟

فقال كرسكو : إنّ المؤرّخ العلامة لم ينس أي تفصيلة في كتابه . بل تذكّر كل شيء نقطة بنقطة ، حتّى التطويحات التي تقاذفت سنشو المسكين في الملاءة .

فقال سنشو : لم يكن ذلك في الملاءة ، بل في الهواء ، وأكثر مما أردت .

فقال دون كيخوته : أظن أنه لايوجد تاريخ إنساني ليس فيه بلايا ، خصوصاً تاريخ حياة الفرسان الجوّالة ، إذ لا يمكن أن يكون الانتصار اللامع حليفهم باستمرار .

فاستأنف صاحب الإجازة قائلاً : وعلى الرغم من هذا فأن بعض الذين قرأوا هذا الكتاب يقولون أنهم سيكونون أكثر ارتياحاً لو أن المؤلّفين أغفلوا ذكر ضربات العصا العديدة التي انهالت على السيّد دون كيخوته في لقاءات مختلفة .

فقال سنشو : هذا يدخل في باب الحقيقة التاريخية .

فقال دون كيخوته : كان في وسعهم أن يسكتوا عنها ، على الأقل من باب الإنصاف ، لأن المرء ليس مرغماً على ذكر الأفعال التي لاتغيّر ولاتبدّل في حقيقة الوقائع : وهكذا يمكن المرء أن يعفي نفسه من تعريف الناس بها ، خصوصاً إذا كانت تميل الى جعل بطل القصة موضوع احتقار . وإنّي لأقسم لكما أنّ اينيوس لم يكن من التقوى بالقدر الذي يزعمه فرجييوس ، وأن أوليس لم يكن من الفطنة كما يصوّره هوميروس .

فقال كرسكو : هذا صحيح ، لكن هناك فارق هائل بين أن يكتب بوصفه شاعراً وبوصفه مؤرّخاً : إذ الشاعر يمكنه أن يروي أو يتغنّى بالأشياء لا كما حدثت وكانت بالفعل ، بل كما كان ينبغي أن تكون ، أمّا المؤلّف فيجب عليه أن يوردها ، لابالكمال الذي كان واجباً أن تكون عليه ، لكن كما كانت وحدثت بالفعل تماماً دون أن يزيد أو ينقص شيئاً من حقيقة الوقائع .

فقال سنشو : إذن إن كان ذلك السيّد المغربي ملزماً بقول الحقيقة فمن العدل أن توجد بين الضربات بالعصا التي انهالت على مولاي ـ الضربات التي تلقّيتها أنا : لأن أكتافه لم تحك مرة دون أن يطحن جسمي أنا كلّه ، وليس في هذا مايثير العجب ، لأن الأعضاء ـ كما يقول مولاي ـ يجب أن تشارك في ألم الرأس .

فقال دون كيخوته : أنت هازل سخيف ياسنشو ، وإنّي أرى جيّداً أنك لاتعوزك الذاكرة حين تريد .

فقال السائس : وحين أود أن أنسى الرفسات التي أصابوني بها فإن العلامات التي لاتزال على أضلاعي لاتمكّنني من ذلك .

فقال دون كيخوته محتداً : اسكت يا سنشو ، لا تقاطع السيد صاحب الإجازة ، وإنّي أرجوه أن يتابع حكاية ما يخصّني في هذا التاريخ .

فقال سنشو : وعنّي أنا ماذا يقال ؟ إذ يؤكّدون أنني أحد «الأسخاص» الرئيسيّين .

فقال كرسكو : قل اذن «الأشخاص» يا صاحبي سنشو .

فقال سنشو : أوه! وهذا قاشر ألفاظ هو الآخر ، ولكن لنستمر ، وإلا لم نفرغ أبداً .

فقال كرسكو : ليعاقبني الله ياسنشو إذا لم تكن أنت ثاني شخصية في هذا التاريخ بل أن بعضهم يقول إنه يفضّل أن يسمعك تتكلّم على أن يسمع كلام أبرع من يذكرهم هذا التاريخ! ومع ذلك فإن آخرين يرون أنك لابد ساذج الإعتقاد جداً بحيث تتخيّل أن حكم الجزيرة التي وعدك بها السيد دون كيخوته هنا يمكن أن يصبح أمراً فعليّاً .

فقال دون كيخوته : لايزال وراء الجبل شمس ، وحين تتقدّم السن لسنشو ، وبالتجارب التي سيمر بها خلال السنين ، سيصبح أقدر منه الآن على تولّي شؤون الحكم .

فقال سنشو : يا لله يا مولاي! إن الجزيرة التي لا أستطيع حكمها وأنا في سنّي هذه ، لن يكون حكمي لها أحسن إذا بلغت سن نوح ، ولكن المصيبة هي أن هذه الجزيرة توجد حيث لاأدري ، لأنّي لاأشعر بعدم كفايتي حكمها .

فقال دون كيخوته : توكّل على الله ، وسيسير كل شيء سيراً حسناً ، بل ربّما أحسن مما تتصور : لأن الورقة لا تسقط من الشجرة بدون إرادة الله .

فقال سمسون : هذا صحيح ، وإذا أراد الله ، حصل سنشو على آلاف من الجزر يتولّى حكمها ، وبالأحرى على جزيرة واحدة .

فقال سنشو : لقد رأيت حكّاماً لا يرتفعون في نظري الى أعلى من كعب حذائي ، ومع ذلك تعطى لهم الأولويّات ، ويقدّم لهم الطعام في أطباق من الفضة .

فقال سمسون : هؤلاء ليسوا حكّام جزر ، بل وظائفهم أسهل : لأن الذين يحكمون الجزر يجب على الأقل أن يعرفوا الغرامطيقا (النحو) .

فأجاب سنشو : أمّا «الغرامة» فأعرفها وأستطيع التخلّص منها ، أمّا «طيقا» فلا أعرف ماذا تقصد بها فأدعها وشأنها لكن لايهم ، إنّي أدع هذا الحكم بين يدي الله ، وهو يعرف أين يضعني في المكان الذي أكون فيه مفيداً ، وأقول لك يا سيّدي صاحب الإجازة سمسون كرسكو إنّي مغتبط جداً لأن مؤلّف تاريخنا هذا قد تكلّم عنّي بحيث لا يضايق القارئ ما يقال

عنّي : لأنه ، قسماً بشرف السانس ، لو قال عنّي أشياء لاتلائم مسيحياً عتيقاً مثلي ، لصحت صيحات قوية يسمعها حتّى الصم .

فقال سمسون : سيكون هذا معناه صنع معجزات .

فقال سنشو : معجزات أو لا ، على كل امرىء أن يحاسب وهو يتكلّم أو يكتب عن الناس ، ولا يكونن كحاطب ليل ، يلقي بكل ما يخطر برأسه .

فقال صاحب الإجازة : من عيوب هذا التاريخ أن المؤلّف أولج فيه حكاية عنوانها : المستطلع الفاسد الرأي ، لا لأنها في ذاتها رديئة ولا أسيئت صياغتها ، لكن لا صلة لها بالموضوع ، ولا علاقةلها بتاريخ السيّد دون كيخوته .

فقال سنشو : أراهن أنّ ابن الكلب هذا خلط الكرنب باللفت .

وقال دون كيخوته : حسبما أرى الآن فإن مؤرّخي ليس حكيماً : بل هو ثرثار جاهل حشر نفسه في زمرة الكتّاب بدون عقل ولا ترتيب ، لقد صنع صنيعة أوربنيخا ، رسام أبذة[1] الذي أجاب حين سئل عمّ يرسم فقال : « مايخرج من فرشاتي » . فمرّة يكون ديكاً سيّئ الرسم بحيث كان من الضروري أن يكتب تحته بالخط العريض : « هذا ديك » . وهكذا الشأن في تاريخي لابدّ أنه كذلك : فهو يحتاج الى شرح ليفهم .

فقال سمسون : أنت على خطأ . إنه من الوضوح بحيث لايجد المرء فيه أية صعوبة : والأطفال يتصفّحونه ، والشباب يقرأونه ، والرجال يفهمونه ، والشيوخ يمجّدونه ، وبالجملة أنه تصفّح ، وقرئ ، وحفظه كثير من الناس عن ظهر قلب ، الى درجة أنه لايكاد المرء يشاهد فرساً هزيلاً حتّى يقول : « هذا هو روثينانته » .

لكن أكثر الناس عكوفاً على قراءته هم الوصفاء : فلا يوجد غرفة استقبال لسيّد من السادة لا توجد فيها نسخة من« دون كيخوته » ، والبعض يأخذون الكتاب حالما يفرغ منه الآخرون ، هؤلاء يستولو ن عليه ، وأولئك يطلبونه : وبالجملة فإن هذا التاريخ من أمتع وأشرق التواريخ التي يمكن قراءتها ، خصوصاً ولا توجد فيه كلمة نابية واحدة ، ولا فكرة لا يقرّها كاثوليكي صحيح الإيمان .

فقال دون كيخوته : والكتابة بغير ذلك سيكون معناها كتابة أكاذيب لاحقائق ، والمؤرّخون الذين يكذّبون يستحقّون أن يحرقوا مثل مزيّفي النقود . لكنّي لاأدري ماذا دفع المؤلّف لإدراج حكايات وقصص غريبة فيها وقد كانت لديه مادة وفيرة جداً في مغامراتي ،

---

(١) عاصمة اقليم Jaen ، بينها وبين بياسة سبعة أميال .

لابدّ أنه تذكّر الدور الذي يقول : «من التبن والدرّيس ، الخ» ، ولو أنه لم ينشر غير أفكاري وزفراتي ودموعي وحسن مقاصدي ومغامراتي لكان في ذلك مايؤلف مجلّداً أضخم وأطول من كل مؤلّفات توستادو[١] . ولتأليف تاريخ ياسيّدي صاحب الإجازة أو أي كتاب آخر أيّاً كان ، لابدّ من ذكاء كبير وعقل وافر ، ولكن معالجة الموضوعات اللطيفة أو المختلفة هي من شأن العقول الكبيرة . وأصعب شخصية في الملهاة «الكوميديا» هي شخصية المهرّج .

ويجب ألا يكون المرء بسيطاً من أجل أن يكون في مقدوره أن يظهر بهذا المنظر . إنّ التاريخ أمر مقدّس ، لأنه يجب أن يكون صحيحاً : إذ حيث توجد الحقيقة يوجد الله ، لأنه هو الحقيقة نفسها . ومع ذلك يوجد قوم يؤلّفون وينشرون كتباً كما تصنع الفطائر .

فقال صاحب الإجازة : لا يوجد كتاب مهما تكن رداءته لايحتوي على شيء حسن .

فقال دون كيخوته : لست أشك في هذا ، ومع ذلك فقد يحدث مراراً أنّ شخصاً ينال بمؤلفاته شهرة يعتقد أنه يستحقّها عن جدارة ثمّ يفقدها كلّها ، أو على الأقل يراها تتضاءل كثيراً حين يسلّم كتاباته الى المطبعة .

فقال سمسون : السبب في هذا أنه كان من الممكن فحص الكتب المطبوعة بتؤدة ورويّة وإمعان ، فمن الأسهل أن يكتشف مافيها من العيوب أكثر مما يتيسّر ذلك حين تسمع وشخص يقرؤها ، ويمكن نتف ريشها بقوة تتزايد مع تزايد شهرة الذين ألّفوها . إن الناس المشهورين بعبقريّاتهم : الشعراء الكبار ، والمؤرّخين العظام ، يحسدهم دائماً ، أوعلى الأقل في الغالب ، أولئك الذين لم ينتجوا شيئاًوليس لهم شغل غيرنقد مؤلّفات الغير .

فقال دون كيخوته : ليس في هذا مايثير الدهشة : فمثلاً عندنا كثير من اللاهوتيّين العاجزين عن اسماع أصواتهم على المنابر ، لكنّهم بارعون في الكشف عن عيوب من يخطبون .

فقال صاحب الإجازة : أنت على صواب ياسيد دون كيخوته ، لكنّني كنت أود أن يكون هؤلاء الناقدون أقل قسوة وتزمّتاً ، وألا يتوقّفوا عند البقع التي لايمكن رؤيتها في الشمس الساطعة التي يرونها أمام عيونهم ، وأن يتذكّروا أنه إذا كان هوميروس العظيم تغفل عينه أحياناً فكم سهر الليالي في تأليف كتابه «الألياذة» ، ولربّماكانت هذه البقع التي تظلّلها شبيهة بعلامات الرجاء التي كثيراً ما تزيد في روعة أعماله . ولهذا أقول أن من يطبع

---

(١) كاتب مطيل ألف أربعة وعشرين مجلداً في حجم النصف ، طبعت في البندقية بعناية أنطونيو بيرث .

كتابه يستهدف الى خطر أكبر ، وهو يعلم أن من المستحيل ، بل من رابع المستحيلات أن يؤلّف كتاباً يرضى عنه جميع القرّاء .

فقال دون كيخوته : إن من عالج مغامراتي لاشكّ أنه أرضى قليلاً من الناس ؟

فقال صاحب الإجازة : هذا ما يخدعك : لأن عدد المجانين لمّا كان لانهاية له ، فكذلك عدد أولئك الذين قرأوه بلذة واستمتاع . غير أنّ بعضهم مع ذلك يتهّم المؤلّف بفقدان الذاكرة أو بالخبث ، لأنه مثلاً ينسى أن يذكر لنا من كان سارق حمار سنشو ، إنه لايذكره أبداً ، ولكنّنا نستنتج فقط أن الحمار سرق ، ثمّ بعد ذلك بمدة قليلة نشاهد سنشو يركب نفس الحمار ، دون أن يعرف كيف حدث هذا[1] . كذلك لايذكر لنا المؤلّف ماذا فعل سنشو بالمائة اسكودو التي وجدها في الحقيبة لما كان في أعماق سيراموريتا (جبل الشارات) ، ولم يعد لذكرها أبداً : ومع ذلك يود المرء أن يعرف ماذا فعل بها ، وفيماذا أنفقها ، هذا نقص في الكتاب .

فقال سنشو بهذه المناسبة : ياسيد سمسون ، أنا لست في حال الآن تمكّنني من الإجابة عليك في هذا الموضوع ، إذ أشعر بتوعّك في المعدة إن لم أعالجه بشربتين من النبيذ المعتّق فإنه سيسمّرني على شوك القدّيسة لوقيا . أنا ذاهب الى بيتي ، حيث تنتظرني امرأتي ، وحين أفرغ من طعامي سأعود لإرضاء سيادتك وكل الناس ، فيما يتعلّق بضياع الحمار واستخدام المائة اسكودو .

وخرج دون أن يزيد شيئاً أو ينتظر جواباً . والتمس دون كيخوته من صاحب الإجازة أن يشاركه غداءه الرديء ، فوافق ، وأضيف حمامتان على الطعام المعتاد . وفي أثناء الطعام جرى الحديث عن الفروسية : واستطاع كرسكو أن يتكيّف مع مزاج دون كيخوته . وبعد الغداء ناموا القيلولة . ثمّ عاد سنشو ، وحمي الحديث .

---

(١) العجيب هوأن ثربانتس نفسه هو الذي أخطأ حين ادّعى أنه يصحّح هناخطأبن مزعومين ، فهو لا يتذكّر أن قال بصراحة في الفصل الثالث والعشرين من القسم الأول أن خينس دي ياسمونته هو الذي سرق حمار سنشو ، ثم إنه في الفصل الثلاثين يذكر أيضاً كيف أن سنشو عثر على خينس لابساً زي الغجر واسترد منه حماره . وهذه الغفلة من المؤلف وهو ينقد نفسه بنفسه تدل على أنه كان لا يعيد قراءة ما سبق أن كتبه ولا يراجعه حتّى عندما يقتضي الأمر ، كما هو الحال هنا .

الفصل الرابع

حيث يجيب سنشو عن الأسئلة ويوضح شكوك صاحب الاجازة سمسون كرسكو، وحوادث أخرى جديرة بأن تعرف وتروى

ولمّا عاد سنشو استأنف المناقشة حيث تركها فقال :

ـ تريد أن تعرف ، ياسيّد سمسون ، من ومتى وكيف سرق منّي حماري ؟ . وعلى هذا أجيب فأقول أنه في الليلة التي فيها هربنا من الإخوة المقدّسة واختبأنا في سيراموربنا (جبل الشارات) . فبعد المغامرة المنحوسة المتعلّقة بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وتلك الخاصة بالميت الذي كانوا يحملونه الى اشقوبيه ، دخلنا في غابة ، مولاي وأنا ، وكان يستند الى رمحه ، وأنا أستند الى حماري ، فنمنا ونحن متعبون مطحونون بما وقع لنا في معاركنا الأخيرة ، ونعسنا كما لو كنّا ننام على أربع حشايا من الريش ، وخصوصاً أنا كنت أغط في نوم عميق ، حتّى استطاع السارق بسهولة أن يدق أربعة أوتاد في أركان البرذعة الأربعة ، تاركاً إيّاي هكذا معلّقاً فوقها ، ثمّ سحب الحمار من تحتي دون أن أشعر . وكان أمراً سهلاً وليس جديداً ، لأن الحادثة نفسها وقعت لسكرينته ، حينما استخدم اللص الشهير برونل ، أثناء حصار البراق ، الحيلة نفسها وسحب منه الفرس من بين ساقيه . وطلع النهار ، ولم أكد أتحرّك قليلاً حتّى انهارت العصا التي كانت تحملني فسقط ثقيلاً على الأرض . وبحثت عن حماري فلم أجده . فأخذت في البكاء ، ونحت نواحاً إذا كان مؤلّف تاريخنا أغفله فعليه أن يعدّ نفسه لم يفعل شيئاً مفيداً . وبعد انقضاء ما لا أدري من الأيّام وأنا أسير مع السيدة الأميرة ميكوميكونا عثرت على حماري ، وشاهدت أن من كان يركبه ، بزي غجري ، كان ذلك اللص الفاتك خينس دي باسامونته ، الذي نجّاه مولاي وأنا من الأغلال .

فقال سمسون : ليس الخطأ هنا ، بل هناك كلام عن الحمار قبل هذه اللحظة والمؤلف يقول إن سنشو كان يسير راكباً حماره[1] .

---

(١) في الفصل الخامس والعشرين ، راجع الجزء الأول ص٢٣٢ .

فقال سنشو : عن هذا لا أستطيع الجواب ، اللهم إلا أن أقول إن المؤلّف أخطأ ، أو هنا غلطة مطبعية .

فقال سمسون : يحتمل ، لكن ماذا كان مصير المائة اسكودو ؟

فقال سنشو : أنفقتها على نفسي وامرأتي وأولادي . وكانت هي السبب في صبر إمرأتي على ذهابي وغدوي في خدمة السيّد دون كيخوته . فلو أنّي عدت ، بعد كل هذه المدة ، الى البيت بغير حمار ولا نقود ، لكان عليّ أن أتوقّع استقبالاً حزيناً . فإذا شئت أن تعرف منّي أي شيء آخر فها أنذا على استعداد للجواب حتّى أمام الملك نفسه ، وما كان لأحد أن يقلق لكوني وجدت هذه النقود أو لم أجدها ، أنفقتها أو لم أنفقها ، لأنه إذا كانت الضربات التي تلقّيتها في أسفاري تقدّر بالفلوس ، فحتّى لولم تتمّن كل ضربة إلا بأربعة مرابطيّات ، فلا بد من أكثر من مائة اسكودو على الأقل ثمناً لنصفها فقط . فليضع كل امرىء كتفه على ضميره ، ولا يتدخّلن في عد الأسود أبيض والأبيض أسود . نحن جميعاً كما خلقنا الله ، بل وأسوأ في بعض الأحيان .

فقال كرسكو : سأعني بألا ينسى مؤلّف هذا التاريخ ، إذا طبعه طبعة ثانية ، ماقاله سنشو الطيّب : فإن هذه الإضافة ستزيد كثيراً في قدر كتابه .

فسأله دون كيخوته : وهل ثمّ أمور أخرى ينبغي تصحيحها في هذا الكتاب ياسيدي صاحب الإجازة ؟

فأجاب : ربّما بعض مواضع أخرى ، لكنّها أقل أهمية من تلك التي ذكرتها .

فقال دون كيخوته : وبهذه المناسبة هل وعد المؤلّف بقسم ثانٍ ؟

ـ نعم من غير شك ، لكنه يقول إنه لم يجده بعد ، وإنه لا يدري أين يجده : حتّى أننا في شك هل سيظهر . وعلى كل حال فإن البعض يقولون إن الأقسام الثانية ليست أبداً جيدة ، والبعض الآخر يزعمون أن ماكتب عن دون كيخوته فيه الكفاية : مما يؤذن بأننا لن نظفر بأكثر من القسم الأول . ومع ذلك فإن أولئك الذين هم أميل الى الفرح منهم الى الحزن لا يكفّون عن القول : أعطونا دون كيخوتات ، وليعمل دون كيخوته ، وليتكلّم سنشو : ومهما يكن مانعطاه فسنرضى به .

فسأله دون كيخوته : وما الذي يوقف المؤلّف إذن ؟

فقال صاحب الإجازة : ما الذي يوقفه ؟ إنه يسعى للبحث بعناية تامة عن كل أجزاء هذا التاريخ ، وبعد ذلك سيقدّمها الى المطبعة ، معنيّاً بالفائدة التي ستستخلص منه أكثر من اهتمامه بالمدائح التي يمكن أن تزجى اليه .

فقال سنشو : إنه يتطلّع إذن الى المال أكثر من أي شيء آخر ، ستكون عجيبة إذن أن يصنع شيئاً حسناً : إنه لن يفعل أكثر من أن يخيط بغرز واسعة ، مثل الخيّاط عشية عيد الفصح ، والمؤلّفات التي تصنع بعجلة لا تبلغ الإتقان المطلوب أبداً ، فعلى السيّد المغربي إذن أن يصمد ، وليحتط فيما سيعمل لأن مولاي وأنا ، سنكفل له عملاً طويلاً ، فيما يتعلّق بالمغامرات والأحداث المختلفة ، بحيث يستطيع أن يؤلّف ليس فقط قسماً ثانياً ، بل مائة قسم . إن هذا الرجل البسيط يظن أننا ننام هنا على التبن ، لكن ليتبعنا قليلاً في جولاتنا ، وسيرى بأي حطب نستدفئ . وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنه لو شاء مولاي أن يتبع نصيحتي لكنّا الآن في الحقول ، نصلح المظالم وننتصف من الإهانات ، كدأب الفرسان الجوّالة الحقيقيّين .

ولم يكد سنشو يفرغ من هذه الكلمات حتّى سمع صهيل روثينانته : وكان هذا الصهيل طالعاً حسناً لدون كيخوته ، وجعله يصمّم على القيام بخرجة أخرى في خلال ثلاثة أو أربعة أيّام . وأفضى بخطّته هذه الى كرسكو ، وسأله النصيحة في الطريق الذي يسلكه . وكان من رأي كرسكو أن يتوجه دون كيخوته الى مملكة أرغون ، وأن يذهب الى سرقسطه ، حيث ستقع بعد عدة أيّام مباريات رسمية بمناسبة عيد القدّيس جورج ، وأضاف أن في هذه المدينة يمكن أن يرفع اسمه فوق الفرسان الأرغوبيين ، أي فوق كل فرسان العالم . وامتدح كثيراً شجاعته ، وعزمه النبيل ، لكنه رجاه أن يكون في المستقبل أقل تهوّراً في الخطر ، لأن حياته ليست ملكه ، بل هي من أجل كل البائسين الذين يحتاجون الى عونه في محنهم .

فقاطعه سنشو قائلاً : هذا ما يثير ثائرة غضبي ياسيد سمسون ، لأن مولاي لا يهتم بمهاجمة مائة رجل مسلّح أكثر من إهتمام طفل شره بمهاجمة ست شمّامات لطيفة الحجم . يالله ياسيدي صاحب الإجازة! ثم أوقات للطعان ، وأوقات للانسحاب : ولا ينبغي الصياح باستمرار : «شنت يعقوب واسبانيا ، الى الأمام!» ولقد سمعت ، إذا لم تخنّي الذاكرة ـ مولاي يقول إنه بين طرفي الجبن والتهوّر تقوم الشجاعة . فإذا كان الأمر هكذا ، فإني لا أريد منه أن يهرب بدون داع ، ولاأن يهاجم حينما يقضي العقل بشيء آخر . وإنّي أنبّهه الى أنه إذا كان يريد أن يأخذني معه ، فسيكون ذلك بشرط أن يتحمّل هو كل المعارك ، ولا يكون عليّ غير الاهتمام بشخصه فيما يتعلّق بالنظافة والأكل ، وفي هذا سأستبق حوائجه . لكن أن يظن أنني سأضع السيف في يدي ، حتّى ضد أوغاد سفلة ، فهذا خطأ فاحش ، إنّي لا أطمح ، يا سيدي سمسون ، الى الاشتهار بالشجاعة ، بل بأن أكون أفضل سائس وأخلص من خدم فارساً جوّالاً . فإذا شاء مولاي دون كيخوته ، اعترافاً منه بخدماتي العديدة الجليلة ، أن يعطيني

واحدة من تلك الجزر التي عليه أن يغزوها ، كما يقول ، فإني سأكون مديناً له بأكبر الفضل ، وإن لم يعطني فليكن فأنا أعيش ؛ والإنسان ليس له أي عون في هذه الدنيا غير عون الله . ومن يدري لعل الخبز الذي آكله بدون حكم أن يكون أفضل من خبز الحاكم ، وربّما دبّر لي الشيطان في هذه الحكومة مكيدة يشغزبني بها لأسقط على رأسي وأحطّم أسناني! ولدت سنشو وسنشو سأموت . وعلى الرغم من هذا ، وبدون كثير عناء ولامخاطرة ، إذا أرسلت الى السماء بجزيرة أو شيء شبيه بها ، فلن أكون من الحماقة بحيث أرفضها ؛ لأنه كما يقال ، إذا أعطيت عجلة فضع حبلاً في عنقها ، وإذا جاءك الخير فضعه في بيتك .

فقال له كرسكو : يا أخي سنشو ، أنت تتكلّم كالواعظ . توكّل على الله وعلى السيّد دون كيخوته الذي سيعطيك لا جزيرة بل مملكة .

فأجاب سنشو : ماينطبق على الأكثر ينطبق على الأقل ، وأستطيع أن أؤكّد للسيد كرسكو أن المملكة التي سيعطيني مولاي إيّاها لن تقع في زكيبة مخروقة . لقد حبست نبضي ، ووجدت نفسي كفء لحكم جزر وإدارة ممالك ولقد قلت ذلك من قبل لمولاي .

فقال سمسون : حذار يا سنشو فإن المناصب تغيّر الأخلاق ؛ فقد يحدث أنك إذا صرت حاكماً أنكرت أمك التي ولدتك .

فأجاب سنشو : هذا يجوز بالنسبة الى أولئك الذين ولدوا بين الأشرار ، لا أولئك الذين على قلوبهم ، مثلي ، سمك أربعة أصابع من شحم المسيحي العريق . وهكذا فإنّي لن أنسى أبداً أصلي ، وسأكون لطيفاً مع كل الناس .

فقال دون كخوته : لتكن تلك إرادة الله ، وسنرى ذلك حين يأتي الحكم ؛ ويبدولي أنه قد أصبح فعلاً أمام ناظري .

وبعد ذلك ، وجه الكلام الى صاحب الإجازة مستحلفاً إياه إذا كان شاعراً أن ينظّم أبياتاً بمثابة توديع يرسله الى السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وأن يعنى بنظمها بحيث يبدأ كل بيت بحرف من اسمها ، حتّى إذا ضمّت كل الحروف الأوائل قرئت ؛ دلثنيا دل توبوسو . فأجاب صاحب الإجازة قائلاً إنه وإن لم يعد بين الشعراء المشهورين في اسبانيا ، لأنه لايوجد ، كما يقولون ، غير ثلاثة ونصف شاعر مشهور ، فإنه يوافق على نظم هذه الأبيات ، ولكنه سيجد في ذلك مشقة بالغة ؛ والسبب هوأن الحروف التي تكوّن هذا الاسم عددها (في الاسبانية) سبعة عشر حرفاً[١] ، فإن نظّم أربع فقرات من أربع حروف ، على الطريقة

---

(١) Dulcinea gel Toboso .

القشتالية ، فسيبقى حرف ، وإن صنع الفقرات من خمسة أبيات ، وهي التي تسمّى العشريات أو « ريدونديا س» redondillas فسينقص ثلاثة حروف ، ولكنه سيعمل جهده حتّى يختلس حرفاً قدر المستطاع بحيث يندرج اسم دلثنيا دل توبوسو في الرباعيّات الأربع .

فأجاب دون كيخوته : لابد من هذا ، لأنه إذا لم يوجد فيها الاسم واضحاً بجلاء ، فلن تعتقد أية امرأة أن هذه الأشعار نظّمت فيها .

ولم يدفعا المناقشة الى أكبر من هذا الحد ، واتفقا على أن يتم سفر دون كيخوته في خلال ثمانية أيام . وأوصى دون كيخوته صاحب الإجازة بالتزام الكتمان ، خصوصاً مع القسّيس والأسطى نقولا ، وبنت الأخت والخادمة ، خوفاً من أن يضعوا العراقيل في طريق مغامرته المشرّفة الباسلة . فوعد كرسكو بكل شيء ، ورجا دون كيخوته أن يخبره بأنباء حظه السعيد أو السيئ ، حينما تسنح له الفرصة . وودّع كل منهما الآخر ، وأخذ سنشو في إعداد وترتيب ماهو لازم للسفر .

الفصل الخامس

في المحادثة العاقلة الممتعة بين سنشو پنثا وزوجته تريزه پنثا، وحوادث أخرى جديرة بالذكرى الطيبة

ولمّا وصل مترجم هذا التاريخ الى هذا الفصل الخامس قال أنه يرى أنه منحول ، لأن سنشو يتكلّم فيه بأسلوب غير ذلك الذي يتوقّع من رجل محدود الذكاء مثله ، ولأنه يقول أشياء دقيقة من المستحيل أن تصدر منه . ومع ذلك فإنه لم يحجم عن ترجمة هذا الفصل إرضاءً لما يمليه عليه واجبه فتابع هكذا :

عاد سنشو الى بيته ، فرحاً جذلان ، حتّى لاحظت عليه ذلك زوجته منذ أن لمحته من بعيد لم تتمالك من أن تسأله :

ـ ماذا جعلك فرحاناً هكذا يا عزيزي سنشو ؟

فقال سنشو : لو شاء الله لكنت أكثر سروراً من كوني لست راضياً كما يبدو عليّ .

ـ إني لا أفهمك يا زوجي العزيز ، ولاأدري ماذا تقصد حين تقول إنه لو شاء الله لكنت راضياً بألا تكون هكذا راضياً ، لأني على الرغم من أني مغفّلة ، فإنّي لا أظن أن أحداً يسخط من كونه راضياً .

ـ اسمعي يا تريزة! أنا راضٍ لأنّي قرّرت العودة الى خدمة مولاي دون كيخوته ، الذي سيقوم بخرجة ثالثة سعياً وراء المغامرات ، وسأذهب معه ، لأن الضرورة تقضي بذلك ، مقرونة بالأمل الذي يسرّني في العثور على مائة اسكودو أخرى كتلك التي أنفقناها . لكنّي حزين حين أفكّر في أن من الضروري أن أبتعد عنك وعن أولادي . ولوشاء الله أن يمنحني القوت في بيتي وقدماي جافّتان ، ودون أن أضطر الى التجوال بين الجبال والأودية بكل عناء ومشقّة ، وهو أمر يستطيع فعله بقليل من النفقة ، إذ يكفيه أن يريده ، فإن من المؤكّد أن سروري سيكون أتم وأنشط ، لأنه في هذه اللحظة مملوء بالحزن لفراقك . فكنت إذن على حق حين قلت أنه لو شاء الله لكنت راضياً بألا أكون هكذا راضياً .

فقالت تريزة : هل تعرف يا سنشو أنك منذ أصبحت عضواً في الفروسية الجوّالة صرت تتكلّم بطريقة ملتوية بحيث لايمكن فهمك ؟

فقال سنشو : يا امرأة ، يكفي أن يفهمني الله : إنه وحده يفهم كل شيء . لكن لندع هذا . وأنبّهك يا أختي أنه خلال هذه الأيام الثلاثة يجب الإعتناء بالحمار حتّى يكون على استعداد لحمل السلاح : ضاعفي عليقه ، وافحصي برذعته وكل جهازه . إننا لسنا ذاهبين الى عرس ، بل نتجوّل في أنحاء الدنيا لنتعارك مع المردة والجن والأشباح ، وسنسمع تصفيرات ، وزئيرات ، ونباحات ، وخوارات ، وكل هذه لن تكون إلا كالورود إن لم نقابل بغالة ينجواسيين أو مغاربة مسحورين .

فقلت : إني أعتقد تماماً يا عزيزي أن السوّاس الجوّالة لايأكلون خبزهم مجّاناً ، ولهذا سأدعو الله أن يحفظك من كل سوء .

فقال : أقول لك يا إمرأة ، إنّي إذا لم أؤمل أن أصبح حاكماً على جزيرة في خلال مدة قصيرة ، فسأموت في الحال .

فقالت تريزة : لا يا زوجي العزيز إذا كان الأمر كذلك فلتحيي الدجاجة وإن كانت لها لهاة! عش وليذهب الشيطان بكل حكومات العالم . فقد خرجت من بطن أمك بدون حكومة ، وبدون حكومة عشت حتّى هذه الساعة ، وبدون حكومة ستذهب الى حيث يلحدونك في قبرك حين يشاء الله . وماأكثر عدد الذين يعيشون في الدنيا بغير أن يحكموا ، ومع ذلك يعيشون ويعدّون من بني الإنسان ، وأحسن أدام في الدنيا هو الجوع ، ولمّا كان الجوع لا يعوز الفقراء فإنهم يأكلون دائماً بشهية . ومع ذلك يا سنشو فإذا كان من حسن حظّك أن تجد حكومة وتصبح حاكماً ، فلا تنسني لا أنا ولا أولادك . وتذكّر أن سنتشيكو قد بلغ خمسة عشرة سنة كاملة ، وأنه آن الآوان لأن يذهب الى المدرسة إذا كان خاله الكاهن يريد أن يدرجه في السلك الكنيسي . ومارية سنتشا ، بنتك ، لن تموت إذا نحن زوّجناها ، واعلم تمام العلم أنها تتحرّق شوقاً الى زوج قدر تحرّقك شوقاً الى حكومة ؛ وعلى كل حال فإن بنتاً سيئة الزواج أفضل من حسنة الغرام .

فقال سنشو : يا امرأة ، إذا تفضّل الله فمنحني حكومة ، لزوّجت مارية سنتشا زواجاً عظيماً كأنها سيدة عظيمة .

فأجابت تريزة : أمّا هذا فلا ياسنشو ، زوّجها بمن هو في مستواها ، فهذا أضمن ، لو حولت نعالها الى أحذية ، وقميصها الصوفي الى ديباج أو فساتين حرير ، وجعلت من ماريتا التي تخاطب بأنت صاحبة عصمة وسيادة ، فإنها لن تعرف طريقها وتتعثّر المسكينة في كل

خطوة تخطوها وتشف عن نسيج من الصوف الخشن الغليظ .

فقال سنشو : اخرسي ياحمقاء ، لن تحتاج الى أكثر من سنتين أو ثلاث لتتخذ السمت والهندام المناسب ، وحتّى لو لم يجيئنا ، فماذا يهم ؟ ستكون سيدة فاضلة ، وليكن مايكون .

فقالت تريزة : قس نفسك على قدر حالتك يا سنشو ، ولا تحاول أن ترفع نفسك ، وتذكّر المثل الذي يقول : مخّط ابن جارك ، وضعه في بيتك . صحيح أنه سيكون أمراً جميلاً أن نزوّج بنتنا مارية لكونت عظيم أو فارس : إذا شاء له هواه أراها المر ونعتها بأنها شرّيرة ، تغزل بالمغزل ، وبنت حطّاب : إنّي لم أربّها لذلك . أحضر النقود ياسنشو وسأعنى أنا بتزويجها . عندنا هنا لوبه توتشو ، ابن يوحنّا توتشو ، وهو ولد طيب ، حسن العافية ، ونحن نعرفه . وأنا أعرف أنه لا ينظر الى بنتنا بعين شرّيرة ، ولمّا كان من مستوانا فسيكون الزواج موفّقاً . وستكون دائماً تحت نظرنا : والأب والأم والأولاد والصهر والأحفاد سنكون شخصاً واحداً ، وسيحل السلام وبركة الله بيننا . لكن لا تزوّجها في تلك البلاطات ، وتلك القصورالباذخة ، حيث لا أسمعها أنا ولا تسمع هي نفسها .

فقال سنشو : تعالي هنا ، يا دابة ، يا امرأة برابا : لماذا تريدين الآن أن تمنعيني من تزويج ابنتي لرجل يعطيني أحفاداً يتّخذون ألقاب السادة ؟ اسمعي يا تريزة ، سمعت أن الشيوخ يقولون أن من لا يعرف كيف يستمتع بالنعمة حين تأتي اليه ، لا يحق له أن يشكو إذا ذهبت عنه . فهل وهي تطرق بابنا نغلق دونها الباب ؟ دعينا ننقد بهذه الريح المواتية التي تسوقنا . (وبسبب هذه الطريقة في التعبير ، وماسيقوله سنشو عمّا قليل ، يرى مترجم هذا التاريخ أن هذا الفصل منحول) . ألا يبدو لك حسناً ، ياخنزيرة ، أنّي ألقي بنفسي في حكومة مفيدة ، وأن أنقذ نفسي من الطين ، وأن أزوّج ابنتنا ماريه سنتشا لمن أراه صالحاً ؟ سترين أنهم سينادونك بلقب دونيا تريزة پنثا ، وأنك ستجلسين في الكنيسة على طنافس فاخرة ، وبلاط ، على الرغم من كل زوجات نبلاء القرية . إنني لا أريد أبداً أن نبقى على الوضع نفسه ، لا نزيد ولا ننقص ، كتماثيل الزينة . وعلى هذا فلنكف عن الكلام في هذا الموضوع ، إن سنتشيكا ستصبح كونتيسة ، مهما قلت أنت .

فأجابت تريزة : حذار مما تقول يازوجي ، لأنه مع كل هذا أخشى أن يتسبّب هذا الكونت لإبنتي في ضياعها . اصنع بها ماشئت ، حتّى دوقة وأميرة ، لكنّي لا أستطيع أن أقول أن ذلك لم يكن أبداً بمشيئتي ورضاي ، لقد كنت دائماً ، يا أخي نصيرة للمساواة ، ولا أستطيع احتمال الكبرياء . لقد سمّوني تريزة على حوض التغطيس (التعميد) دون إضافات

أو تزويقات «دون» ، و«دونيا» ، وأبي كان يسمّى كسكاخو ، وأنا ، لأنّي زوجتك ، اسمي تريزة پنثا ، وإن كنت في الحق تريزة كسكاخو . ولكن الملوك يضعون من القوانين كما يشاءون : وأنا قانعة بهذا الاسم ، دون أن يضاف اليه حمل «دون» ، فهو حمل ثقيل لاأقوى على حمله . ولا أريد أن أكون مادة حديث لأولئك الذين سيروني لابسة زي كونتيسة أو حاكمة . سيقولون حينئذ : أنظروا اذن الى راعية الخنازير هذه كيف انتفخت علينا : بالأمس كانت تشقى لتفصيص جزة الصوف ، أو كانت تذهب الى القدّاس وهي تغطّي رأسها بذيل ثوبها ، بدلاً من قلنسوة ، وها هي ذي اليوم تلبس خزّاً ومطرزات ، وكأنّنا لا نعرفها . ولو حفظ الله حواسي الخمس أو الستة أو ماعندي ، فإني آمل ألا أساق الى رؤية نفسي في هذه المحنة . أمّا أنت ياأخي فخذ حكومة ، وجزيرة ، وكل الفخفخة التي تريدها : وإنّي أقسم لك بحياة أمّي أنه لا بنتي ولا أنا لن نترك سقف كوخنا هذا ولا خطوة واحدة . المرأة الشريفة تكسر رجلها في بيتها ، والفتاة الشريفة العمل هو عيدها . اذهب مع دون كيخوته هذا وتابع مغامراتك ودعنا هنا لبلايانا . والله يصلح لنا الأحوال ، وهو يعلم أننا طيّبون . والله لا أدري من ذا الذي أعطاه لقب «دون» ، لأنه لا أبوه ولا أجداده حملوا هذا اللقب .

فأجاب سنشو : الآن أقول لك إنه يسكن بدنك عفريت . كان الله في عونك! كم من أشياء سردتها لي لا رأس لها ولا قدم! ماالذي يجمع بين آل كسكاخو ، والتوفيقات ، والأمثال ، والكبرياء وكل ماأقوله ؟ تعالي يا بلهاء ، يا جاهلة ، إني أستطيع أن أصفك بهذه الأوصاف لأنّك لا تريدين أن تعقلي ما أذكر لك من أسباب من شأنها أن تمنحك السعادة : لو أرادت أن تلقي ابنتي بنفسها من أعلى برج ، أو تذرع الدنيا مثل وريثة العرش دونيا أراكا[1] ، لكان لك الحق في ألا تتّبعي نصيحتي ، لكن لو أنني في غمضة عين منحتها لقب «دون» ، و «سيادة» ، وأنقذتها من الكوخ ، ووضعتها تحت قبّة ، على عرش ، على منصّة مزوّدة بطنافس من القطيفة عددها بقدر ما في مراكش من مغاربة ، فلماذا لا توافقين ، ولا تريدين ما يريده زوجك ؟

فقالت تريزة : أتدري لماذا ؟ لأنّي أذكر المثل الذي يقول : ما يغطّيك يكشف عنك . الأنظار تمر مروراً على الفقير ، ولكنّها تتوقّف طويلاً على الغني : فإن كان هذا الغني قد كان في الماضي فقيراً ، تهامس الناس ولعنوه ، وأسوأ من هذا يستمرّون في صب اللعنات عليه ، وتكرارها في الشوارع فتنتشر كخلايا النحل .

---

(١) بنت دون فرنندو ، التي راحت تذرع الدنيا لمّا أن حرمها أبوها من الميراث .

فقال سنشو : أصغي يا تريزة الى ما أنا قائله الآن : لعلّك لم تسمعيه أبداً . وهي كلمات ليست من عندي ، بل هي كلمات قالها أب واعظ كان في فترة صوم الفصح يعظ في قريتنا . قال إذا لم تخنّي الذاكرة ، إن كل الأمور الحاضرة التي تتجلّى لنواظرنا تتجلّى وتقيّم في ذاكرتنا أرسخ من الأمور الماضية . (كل هذه الأسباب التي يسوقها سنشو هي في نظر المترجم براهين جديدة على أنّ هذا الفصل منحول ، لأنها فوق مستوى سنشو) . وهكذا فإننا حين نرى شخصاً جميل الهندام يلبس ملابس فاخرة ثمينة ويحيط به الخدم والحشم بجلال وأبّهة ، يبدو لنا أن هذه الفخفخة تحملنا على احترامه ، وإن كانت الذاكرة تذكّرنا في الوقت نفسه بالإنحطاط الذي كان فيه هذا الشخص نفسه وعرفناه فيه ، ذلك أن هذا الانحطاط ، سواءٌ نشأ عن الفقر ، أو عن المولد ، قد مضى وزال ولم يعد موجوداً بعد ، وليس واقعيّاً إلا مانراه حاضراً ، وإذا كان قد رفعه الحظ من أعماق الانحطاط الى قيمة النعيم رجلاً طيّباً ، سخيّاً ، مهذّباً مؤدّباً مع جميع الناس ، ولايريد أن يسوّي نفسه بأولئك الذين هم نبلاء الأصل ، فثقي يا تريزة أنه لن يوجد إنسان يتذكّر ماكان عليه في الماضي ، ولايوقّر ماهو عليه الآن ، اللهم إلا الحسدة ، والحسدة ليس لأحد منهم أي حظ سعيد .

فأجابت تريزة : لا أفهم شيئاً مما تقول يا زوجي ، افعل ما تشاء ، ولا تكسر رأسي أكثر من ذلك بخطبك وبلاغتك ، وإذا كنت قد قدرت فعل ما تقول...

فقاطعها سنشو : قولي : «قرّرت» يا امرأة ، ولا «قدرت» .

فأجابت تريزة : لا تنازعني ، أنا أتكلّم كما يريد الله ولا تحاول التحذلق . أقول فقط إذا كنت مصمّماً على الحصول على حكومة ، فخذ معك ابنك سنشو ، لتعلّمه كيفية الحكم : إنها عادة حسنة أن يتعلّم الأطفال ويمارسوا مهنة أبيهم

فقال سنشو : حين أصبح حاكماً سأبعث في طلبه بالبريد ، وسأرسل اليك نقوداً ، وهي لن توزن ، لأن الحكّام يجدون دائماً من يقرضهم إذا أعوزهم المال ، وألبسي الولد ثياباً جديدة حتّى لايرى كما هو ، ويبدو كما ينبغي .

فقالت تريزة : ابعث بالنقود وأنا ألبسه كملاك صغير .

فقال سنشو : وأخيراً نحن على اتفاق في أن تصبح ابنتنا كونتيسة ؟

فأجابت تريزة : في اليوم الذي أراها فيه كونتيسة سأعدّها قد دفنت في التراب . ومع ذلك فإنني أقرّر وأقول لك : افعل ما تشاء : إنّا معشر النساء نولد مع التزام الطاعة لأزواجنا حتّى لو كانوا حميراً .

ولمّا قالت هذه الكلمات أخذت في البكاء بكاءً حاراً مخلصاً وكأنّها قد رأت فعلاً سنتشيكا ماتت ودفنت فواساها سنشو قائلاً إنه وإن كان في عزمه أن يجعل منها كونتيسة فإن لم يفعل ذلك في آخر وقت ممكن .

وهكذا انتهت محادثتهما ، وعاد سنشو الى دون كيخوته لترتيب السفر[١] .

(١) بيّن كيلهابا Gallhava في كتابه «فن الكوميديا» أن موليير قد حاكى على طريقته هذا الفصل الخامس ، وذلك في ملهاته «البرجوازي النبيل» الفصل الثالث ، المنظر الثاني عشر ، حيث يتنازع السيّد جوردان مع زوجته حول تزويج ابنتهما . فزوجته تريد تزويجها الى تاجر ، من مستواه ، أمّا السيّد جوردان فيريد لابنته أن تصبح دوقة أو على الأقل مركيزة .

الفصل السادس

فيما جرى بين دون كيخوته وبنت أخته وخادمته، وهو فصل من أهم فصول هذا التاريخ

بينما كانت تجري بين سنشو پنثا وتريزة كسكاخو زوجته المحادثة العجيبة التي أوردناها ، لم تكن إبنه أخت دون كيخوته والخادمة فارغتين ، لأنهما تعرفتا بآلاف من الدلائل والعلامات أن خالها وسيدها يفكّر في انطلاقة ثالثة ، ويريد استئناف مهنة الفارس الجوّال التعيسة عليهما . فحاولتا بكل الطرق الممكنة أن تثنياه عن هذه الخطة السيّئة ، لكن كان ذلك بمثابة طرق الحديد وهو بارد ، أو الوعظ في البرّية . ومن بين الأسباب التي ساقتاها ، قالت الخادمة له :

ـ الحق يا مولاي أنه إذا لم يقيّد سيادتك قدميه ، ويقبع هادئاً في بيته ، ويتخل عن التجوال بين الجبال والأودية ، كأنه روح شرّيرة في عذاب ، ساعياً وراء مايسمّى بالمغامرات ، وماأسمّيه أنا النكبات ، فلن أكف عن الصراخ عند الله والملك ، لعلاج هذا الأمر .

فأجابها دون كيخوته : يا خادمتي! لا أدري بماذا سيجيب الله والملك عن هذه الشكاوي ، لكنّي أعلم تمام العلم أنني لو كنت ملكاً لأعفيت نفسي من الرد على كل هذه التلال من الشكاوي غير الصحيحة التي يضايق بها كل يوم : وإنّ من أشق الأعمال على الملوك ، من بين أخرى كثيرة ، أن يضطرّوا ويلزموا بالإصغاء الى كل الناس والرد عليهم جميعاً . ولهذا فإنّي لاأريد له أن يتضايق بسببي أنا .

فقالت الخادمة : لكن يا مولاي ألا يوجد في بلاط جلالته فرسان ؟

فقال دون كيخوته : لكن يا مولاي ألا يوجد في بلاطه فرسان ، فرسان زينة للعرش وأبّهة للجلالة الملكية .

ـ اذن لماذا لا تكون سيادتك واحداً من هؤلاء الفرسان الذين في البلاط في خدمة الملك ؟

ـ لاحظي يا عزيزتي ، أنه لا يمكن أن يكون كل الفرسان من أهل البلاط ، ولا كل رجال البلاط فرساناً جوّالة بل لابدّ أن يوجد في العالم من كل نوع ، وإن كنّا جميعاً فرساناً ، فثم فروق عديدة بين بعضهم وبعض ؛ لأن رجال البلاط ، دون أن يخرجوا من غرفهم ولا من عتبة القصر ، يسافرون في العالم كلّه بأن ينظروا في الخريطة ، دون أن يكلّفهم ذلك شيئاً ، ودون أن يتحمّلوا حمارة القيظ ولا صبارة البرد ، ولا الجوع ولا العطش ، أمّا نحن ، معشر الفرسان الجوّالة الحقيقيّين ، فإننا نذرع الأرض كلّها في الليل والنهار ، على الأقدام أو على صهوات الخيل ، ونعرف الأعداء ، لافي التصاوير فقط ، بل وفي لحمهم وعظامهم . وفي كل تصادم ، وفي كل مناسبة ، نهاجمهم ، دون أن نتلبّث عند التفاهات أو قوانين المبارزة ، ودون أن نفحص هل رمح أو سيف الواحد أقصر من سيف أو رمح الآخر ، وهل يحمل الخصم بعض الذخائر أو التموينات الأخرى ، وهل يتقاسمان الشمس أو لا ، وماشاكل ذلك من مراسم ، تراعى في المبارزات الفردية بين رجل ورجل ، وهي أمور أنت لاتعرفينها ، ولكنّي أنا أعرفها تمام المعرفة . وعليك أيضاً أن تعرفي أن الفارس الجوّال الحق ينبغي عليه ألا يهاب شيئاً ، الواحد منهم مثل برجين هائلين ، وذراعاه مثل ساريتي سفينتين ضخمتين ، والعين كبيرة مثل حجر الطاحونة ، وأشد لهيبها من الفرن . بل بالعكس عليه أن يهاجم رابط الجأش ثابت الجنان جسور القلب ، وأن ينقضّ عليهم وإن استطاع يقهرهم ويحطّمهم في لحظة واحدة ، حتّى لو كانوا مسلحّين بأصداف نوع من السمك يقال إنها أصلب من الماس ، وحتّى لو كان معهم بدل السيوف ، قواضب دمشقية أو مرازب حديدية ، مزوّدة بأسنة من الصلب نفسه ، كما رأيت ذلك أكثر من مرّتين . وأقول لك كل هذا ، يا عزيزتي ، حتّى تستطيعي أن تحكمي على الفارق بين الفرسان بعضهم وبعض . وقد كان العدل يقضي بأن يقدّر الأمير هذا الفريق الثاني ، أو بعبارة أصح ، هذا الفريق الأوّل المؤلّف من الفرسان الجوّالة ؛ لأننا نقرأ في التواريخ أن منهم من تدين له بالنجاة ليس فقط مملكة واحدة ، بل عدّة ممالك .

فقالت في هذه اللحظة بنت أخته : آه يا سيّدي ، لاحظ أنّ كل ماتقول عن الفرسان الجوّالة ليس إلا كذباً وخرافة ، وإذا لم تحرق هذه التواريخ فإنها تستحق على الأقل أن تلبس لباس المحكوم عليهم بالإعدام من الديوان المقدّس ، أو أية علامة أخرى تدل على أنها كتب شائنة تفسد الأخلاق .

فصاح دون كيخوته : بحق الله الذي يعينني! لو لم تكوني بنت أختي ، أختي أنا مباشرة ، لعاقبتك على التجديفات التي تفوّهت بها عقاباً تسمعه الدنيا بأسرها . كيف! هل

من الممكن أن بلهاء لاتكاد تحسن إدارة اثنى عشر مغزلاً لعمل شبكة ، تتدخّل وتتكلّم لتعيب تواريخ الفرسان الجوّالة ؟

ماذا سيقول السيد أماديس لو سمع هذا الكلام ؟ ومع ذلك فإنه كان سيغفر لك ، لأنه كان أرق وأكثر فرسان عصره أدباً ، وخصوصاً كان حامياً عظيماً للفتيات . لكن ربّما سمعك آخر ، وجعلك تندمين على ما قلت ، لأنهم لم يكونوا جميعاً مؤدّبين معتدلين : بل كثيرون منهم كانوا غدّارين غلاظاً ، وليس كل الذين يسمّون فرساناً هم كذلك في كل شيء : فبعضهم من الذهب ، والبعض الآخر من خليط ، وكلّهم يبدون فرساناً ، لكنهم لا يصمدون كلهم لمحكّ اختبار الحقيقة . فثم قوم من أصل وضيع ينتفخون ليظهروا بمظهر الفرسان ، وثمّ فرسان من أصل رفيع يبدو أنهم يحاولون الظهور بمظهر عامة الناس : وفريق يرتفع بالطموح أو الفضيلة ، وفريق ينحط بالرخاوة أو الرذيلة . والمرء في حاجة الى الفطنة لتمييز هذين النوعين من الفرسان ، الذين يتشابهون بالاسم ولكن يختلفون بالأفعال .

فقالت بنت الأخت : كان الله في عوني! أعتقد ياخالي أنّك تستطيع عند الحاجة أن ترقى منبراً أو تخطب في الطرقات ، لكن عماك العظيم ، وجنونك معروف بيّن ، حتّى لتظن في نفسك أنّك شجاع قوي وأنت عجوز ، قوي البنية وأنت مريض ، مصحّح للمظالم وأنت نفسك قد أحنتك السنون ، وفوق كل هذا فارس مع أنّك لست كذلك : لأنه لو أنّ النبلاء يمكن أن يصيروا فرساناً ، فإن الفقراء منهم لايمكن أن يصيروا كذلك .

فقال دون كيخوته : أنت على صواب فيما قلت يا بنت أختي ، وفي وسعك فيما يتعلّق بهذه الفوارق في الأصول ، أن أعلّمك أموراً تخلب لبّك وتنتزع إعجابك : لكنّي لن أتحدّث عنها ، حتّى لا أخلط بين ما هو إلهي وما هو دنيوي ، استمعا اليّ يا عزيزتاي! إن من الممكن رد كل الأجناس التي في العالم الى أربعة : جنس الذين كانت أولوياتهم متواضعة ، ثمّ انتشروا وتزايدوا حتّى بلغوا قمّة العظمة ، وجنس أولئك الذين كانوا عظماء في أوليّتهم ، وحافظوا على عظمتهم ، ولايزالون يحافظون عليها في المستوى نفسه ، وجنس الذين وإن كانوا في البداية أقوياء فقد تضاءلوا شيئاً فشيئاً على شكل هرمي ، ففقدوا بهاءهم ، وأصبحوا عدماً ، مثل قمة الهرم التي ليست إلا نقطة بالنسبة الى قاعدته ، وأخيراً جنس ـ وهو الأكثر عدداً ـ لم يكن له بداية عظيمة ، ولاوسط معقول ، وستكون نهايتهم بغير اسم ، وهذا هو الجنس المعتاد لعامة الناس . وعلى النوع الأوّل ، الذي كانت أولويته متواضعة ثمّ بلغ العظمة التي لايزال يحافظ عليها حتى الآن ، عندك مثلاً آل عثمان ، الذين ولدوا من راعٍ بسيط حقير ، ثم وصلوا الى الدرجة التي نراهم

عليها الآن . ومن النوع الثاني ، الذي نشأ في العظمة ويحافظ عليها دون أن يزيدها ، نجد كثيراً من الأمراء الذي يحكمون ـ بحق الوراثة ـ كثيراً من الدول ، ويحافظون على ملكهم دون أن يزيدوا فيه أو ينتقصوا منه ، وينحصرون بهدوء في داخل حدود ممالكهم . أمّا على أولئك الذين كانت أوليتهم عظيمة ثمّ انتهوا الى نقطة مدببة ، فلدينا آلاف الشواهد : فكل فراعنة مصر وبطالمتها ، وقياصرة روما ، مع الحشد اللامتناهي من الأمراء والولاة والحكّام الميديين والأشوريين والفرس واليونان والبرابرة ، كل أولئك الأجناس انتهت الى نقطة مدبّبة وأفضت الى العدم ، الى حد أنه لايمكن العثور على أي واحد من ذريّتهم الآن ، وإن واحد ، فسيكونون في حال من البؤس الشديد . أمّا الأسر العامة ، فليس عندي ماأقوله عنها سوى أنها لا تفيد إلا في زيادة عدد الأحياء ، دون أن تستحق أي ذكر .

ومن كل ما قلته ، يا أيّتها الجاهلتان المسكينتان ، أريد منكما أن تستنتجا شدة الاختلاط بين الأجناس ، وأنّ التي تبدو عظيمة جليلة هي تلك التي تتميّز بالفضيلة والثروة والكرم ، لأن العظيم الذي يكون شرّيراً ، سيكون شرّيراً جداً ، والغني بغير كرم لن يكون غير بخيل متسوّل . وليس امتلاك الأموال بل استخدامها هو الذي يجعل المرء سعيداً ؛ ولابدّ فوق هذا من معرفة كيفية استخدامها على الوجه الصحيح . والفارس الفقير ليس في حاجة ـ من أجل إثبات نبالته ـ إلا الى الفضيلة فليكن لطيفاً ، معقولاً ، مهذّباً ، يقوم بالواجب بغير كبرياء ولاسوء قاله عن الناس ، وليكن محسناً ، وإذا أعطى عن طيب قلب مرابطيين لفقير ، فإنه ليس بهذا أقل كرماً من ذلك الذي يبذل الصدقات على صوت الناقوس . ولن يراه إنساناً هكذا مزوّداً بكل الفضائل دون أن يحكم عليه أنه رجل من بيت رفيع العماد وإن كان لايعرفه ، ولن تكون هذه معجزة ، لأن المديح كان دائماً مكافأة الفضيلة ، ومن المستحيل ألا يكون الفضلاء غير مقدّرين . وثمّ طريقان ، ياابنتاي ، للوصول الى الثروة والجاه : الأداب ، والأسلحة . وأنا أكثر تضلّعاً في الأسلحة منّي في الآداب وقد ولدت ذا ميلٍ غريزي الى الأسلحة ، تحت تأثير النجم المسمّى المشتري وهكذا فإنّي مضطر الى سلوك هذا الطريق ، وسأتبعه على الرغم من كل العالم بأسره . فعبثاً إذن تحاولان إقناعي بالسير ضد مشيئة السماء ، وضد أمر القدر ، وأمل العقل ورغبة نفسي . وأنا أعلم أنه إذا كانت أعمال الفروسية الجوّالة لاتحصى ولاتعد ، فإن الخيرات التي تجلبها هي أيضاً لانهاية لها ، وإذا كان طريق الفضيلة ضيّقاً ، فإن طريق الرذيلة واسع رحب فسيح ، وأنّ هذين الطريقين مختلفان كل الإختلاف ، لأن طريق

الرذيلة ، وهو مفتوح وميسور ، يفضي الى الموت ، وطريق الفضيلة..القاسي الشاق يفضي بنا الى الحياة ، لاإلى حياة فانية ، بل الى تلك التي لن تنفذ أبداً وأنا أعلم ، كما قال[1] أحد كبراء شعرائنا الاسبان ، أنه «عن هذه الطرق الشاقة يذهب المرء الى عرش الخلود ، حيث لايصل اليه أبداً من يتّخذ طريقاً آخر» .

فصاحت بنت الأخت : آه! يا لشقائي! إن خالي شاعراً أيضاً ؛ إنه يعرف كل شيء ، وأراهن أنه لوشاء أن يكون بنّاءً لبنى منزلاً كالقفص .

فأجابها دون كيخوته : أؤكّد لك ، يا بنت أختي ، لولا أن هذه الأفكار الفروسية اختلبت كل مشاعري ، لما بقي شيء لا أعمله ، ولا عجيبة إلا صدرت عن يدي ، خصوصاً الأقفاص والسوّاك .

وفي هذه اللحظة سمع طرق على الباب . فنودي من هناك . فأجاب سنشو : بأنه أنا . وفي الحال راحت الخادمة تختبئ حتّى لاتراه ، لأنّها كانت تفزع منه أشد الفزع . وفتحت ابنة الأخت الباب . فاستقبل دون كيخوته سائسه بذراعين مفتوحتين ؛ وأغلقا عليهما الغرفة ، وجرت بينهما مناقشة لا تقل في نفاستها عن السابقة .

---

(١) هو جرثيلاسو دلاّ بيجا (١٥٠٣ ـ ١٥٣٦) ؛ من أعظم شعراء اسبانيا ، ولد في طليطلة من أسرة شهيرة ، والغريب أن هذا الشاعر الذي تغنّى بنعمة الراحة وحياة الرعي والسلام ، أمضى حياته كلها في امتشاق الحسام ، ومات وهو يحارب . اشترك في كل الحروب التي شنّها كارلوس الخامس (شرلكمان) وبرز خصوصاً في معركة بافيا (سنة ١٥٢٥) ، وقتل وهو يحارب أمام مرسيليا حين غزو الامبراطور لفرنسا ، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره . وأشعاره معظمها قصائد رعوية (أجلوجات) وأودات وايليجيّات . ويمتاز شعره بالسهولة والبساطة والجرس الموسيقي العذب ولهذا لقب باسم «بترركه الاسباني»... وأحسن طبعة لأشعاره هي طبعة مدريد سنة ١٧٦٥وسنة ١٧٨٨ ، ثمّ طبعة أدولفو دي كاسترو سنة ١٨٥٤ (مكتبة المؤلّفين الاسبان) ، وأحدثها طبعة نبرو توماس في مجموعة «الكلاسيك الاسبان» (ج٢) سنة ١٩١١ . ثمّ توالت الطبعات بعد ذلك على أساس هذه الأخيرة .

الفصل السابع

فيما جرى بين دون كيخوته وسائسه، وحوادث أخرى خليقة بالذكر

ولم تكد الخادمة ترى سنشو يخلد الى سيّدها حتّى حزرت موضوع حديثهما .. واقتنعت أن هذا الحديث سيخرج عنه قرار القيام بخرجة ثالثة فلبست معطفها ومضت ، وهي مليئة بالهموم والأحزان ، الى صاحب الإجازة سمسون كرسكو ، وقد قدّرت وهو المتكلّم الجميل الكلام والصديق الجديد لسيدها ، سيستطيع إقناعه بالعدول عن هذا المشروع الجنوني . فوجدته يتريّض في فناء بيته ، ولمّا أبصرته جثت عند قدميه وهي تلهث وتنحدر منها قطرات من العرق غليظة . فلمّا رآها كرسكو مضطربة حزينة هكذا ، قال لها :

ـ ماذا جرى أيتها السيدة القهرمانة ؟ ماذا حدث لك اذن ؟ لكأنّك على وشك أن تلفظي أنفاسك الأخيرة .

فأجابته : يا سيّدي الطيّب! إنه مولاي يريد أن يرحل ، ومن المؤكّد أنه سيرحل .

ـ كيف ، يرحل ؟ هل كسر عضو من أعضائه ؟

ـ كلاّ يا سيّدي : سيرحل من باب جنونه ، أقصد ، يا صاحب الإجازة الفاضل ، أنه عازم على القيام بخرجة جديدة ، وستكون هذه هي الثالثة ، بحثاً في العالم عمّا يسمّيه بالمغامرات ، ولا أستطيع أن أتصوّر أن يسمّيها بهذا الاسم . في المرة الأولى رأيناه يعود منها مرقداً بالمقلوب على حمار ، مطحوناً بضربات عصا ؛ وفي المرة الثانية عاد إلينا محمولاً على عربة تجرّها الثيران ، محبوساً في قفص تخيّل أنه مسحور فيه ؛ وكان هزيلاً ، نحيلاً ، حزيناً ، حتّى أن أمّه نفسها ما كانت لتتعرّف من هو ، وكانت عيناه غائرتين حتّى أعماق مخّه . ولكي يستعيد حالته بعض الشيء كلّفني هذا أكثر من ستمائة بيضة ؛ والله يعلم ذلك ، وكل الناس ، خصوصاً دجاجاتي التي لن تدعني أكذب .

فأجاب صاحب الإجازة : أنا أصدّق هذا بسهولة ، لأنّ دجاجاتك جيّدة ، سمينة ، ربّيت

تربيـة حـسنة ، بحيث لا تخلط بين الكلام ، حتّى لو كـان في ذلك هلاكـهـا . وهكذا ، يا سيّدتي القهرمانة ، لا همّ عندك إلا الخوف مما يريد أن يفعله السيّد دون كيخوته ؟

فأجابت : كلاّ ، لا يوجد هم آخر .

فقال : اذن لا تقلقي ، وعودي بهدوء إلى بيتك ، وأعدّي لي شيئاً ساخناً آكله . وفي الطريق رتّلي دعـاء القـدّيسـة أپولينا اذا كنت تـعـرفـينه ، سـأحـضـر في إثرك ، وستـرين العجائب .

فأجابته الخادمة : يالتعاستي! ألا تقول لي أن أرتّل دعاء القديسة أپولينا ؟ كان سيكون مفيداً لو كان مولاي يشكو ألماً في أسنانه ، ولكنّه يشكو من ألم في عقله .

فقال : أنا أعرف ما أقول ، يا سيّدتي القهرمانة ، اذهبي ، ولا تنازعيني : أنت تـعلمين أنني صاحب إجازة من شلمنقة .

فمضت الخادمة ، ومضى صاحب الإجازة الى القسّيس ليخبره بما سيأتيه نبأه في وقته ومكانه .

وفي تلك الأثناء اختلى دون كيخوته وسنشو ، وجرت بينهما محادثة يرويها مؤرخهما بكل دقة وصحة .

قال سنشو لمولاه : مولاي! لقد حفلت امرأتي على تركي أذهب مع سيادتك الى حيث تريد اقتيادي .

ـ قل «حملت» يا سنشو ، لا «حفلت» .

فقال سنشو : إذا لم تخنّي الذاكرة فإنّي رجوتك مرة أو مرّتين ألا تصحّح أبداً كلماتي مادمت تفهم ماأقصده . فإن لم تفهمه فقل بكل بساطة : «سنشو يا شيطان ، أنا لا أفهم» .وحينئذ إذا لم أفهمك فصحّحني ، لأنّي نطيع جداً .

ـ أنا لا أهم يا سنشو ، لأنّي لا أعرف ما معنى : «إنّي نطيع جداً» .

فأجاب سنشو : «نطيع» ، كمن يقول : إنّي كلي هكذا .

ـ إنّي لا أفهم يا سنشو .

ـ اذا كنت لا تفهم ، فليكن الله معي : لا أدري بعد ماذا أقول .

ـ آه ، آه ، حزرت : أنت تريد أن تقول إنك «مطيع» جداً ، سلس القياد ، مهاود ، وأنّك ستتحمّل كل ما أقوله لك ، وتعمل بما أعلمك إيّاه .

فقال سنشو : أراهن أنّك فهمتني من البداية ، لكنّك يلذ لك أن تربكني حتّى أقول مئات العبارات غير المناسبة .

فقال دون كيخوته : يجوز ، على كل حال ، ماذا تقول تريزة ؟

ـ إنها تقول يا سيّدي إن عليّ أن أعقد اتفاقات سليمة معك ، وإن المكتوب يتكلّم ، ولكن الكلام يسكت ، ومن يعط الورق لايفنّطه ، وأنّ عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة أو في الغد . أمّا عن نفسي فأقول إن نصيحة المرأة قليلة القيمة ، لكن من لا يتبعها يكن مجنوناً .

فأجاب دون كيخوته : وأنا أعتقد مثلك ، لكن تابع كلامك ، يا صاحبي سنشو ، لأنك لاتعطينا اليوم إلا الدرر .

فقال سنشو : أقول لك إذن ، كما تعرف أنت خيراً منّي ، أنّ كل نفس ذائقة الموت : اليوم نعيش ، وغداً لا ، يموت الحمل كما يموت الكبش . لا يستطيع إنسان أن يزيد في عمره ساعة أكثر مما قدّر الله : لأن الموت أصم ، وحين يقرع على باب حياتنا يجرى دائماً : ولا يستطيع أن يوقفه دعاء ولا قوة ولا صولجان ولا سيد ، كما يقول الكل ويعظ الواعظ على المنبر .

فقال دون كيخوته : كل هذا صحيح ، لكنّي لا أرى الى أين تريد الوصول .

فأجاب سنشو : أريد الوصول الى أن تقرّر لي سيادتك مرتّباً محدّداً عن كل شهر أخدمك فيه ، وهذا المرتّب تدفعه لي نقداً : لأنّي لا أريد أن أعتمد بعد الآن على مكافآت تأتي متأخرة أو قليلة أو لا تأتي أبداً ، والله يعينني فيما أملك ، وأخيراً أريد أن أعرف ماذا سأكسب ، قليلاً كان أو كثيراً . إن الدجاجة ترقد على بيضة ، كثير من القليل يصنع الكثير ، وطالما يكسب المرء شيئاً فهو لا يضيّع شيئاً . صحيح أنه لو حدث ـ وهو ما لا أعتقده ولا أرجوه ـ إن أعطيتني الجزيرة التي وعدتني بها ، فإنّي لست من الجحود والشراهة بحيث لا أوافق على تقدير دخلي من هذه الجزيرة ثمّ يخصم من مرتّباتي .

فقال دون كيخوته : يا صاحبي سنشو ، أحياناً يكون القط حسناً كالفأر .

فأجاب سنشو : أنا فاهمك . لا يهم ، بشرط أن تكون قد فهمت قصدي .

فقال دون كيخوته : لقد فهمتك جيّداً ، الى حد أني نفذت الى أعمق عمائق خفى أفكارك ، وأعرف الهدف الذي تستهدفه بسهام أمثالك العديدة . اسمع ياسنشو ، عن طيب خاطر أقرّر لك مرتّباً لو أنّني وجدت في تاريخ أي فارس جوّال شاهداً يمكنني من أن أعرف ماذا يكسب السوّاس سواء في الشهر ، أو في السنة . لكن في كل الكتب التي قرأتها لم أجد أبداً أن أحد الفرسان قد قرّر مرتباً ثابتاً لسائسه : فالكل كانوا يخدمون بحسب ما تأتي به الظروف ، وفي الوقت الذي يكون فيه الأمر أبعد مايكون عن تفكيرهم يكافأون

بجزيرة أو شيء مشابه ، أو يظفرون بلقب وإقطاع ، حينما يكون الحظ مواتياً لسادتهم . وهكذا ياسنشو إذا كنت قانعاً بهذه الآمال وبهذا الرجاء ، وأردت أن تعود الى خدمتي ، فبها ونعمت ، لكن أن تظن أني سأخالف من أجل خاطرك العرف العريق الذي جرت عليه الفروسية الجوّالة فهذا خطأ . عد إذن الى بيتك ، وخبّر تريزاك بمقاصدي : فإن استحسنت هي وأنت أن تتبعني بحسب ما تأتي به الظروف (بما فيه القسمة) ، فبها ونعمت ، وإلاّ فلنفترق كأصدقاء : إن الحبّة حين لا يخلو منها برج الحمام ، فإن الحمام هو الآخر لايعوز ، وتنبّه الى أن الأمل الطيب أفضل من الامتلاك السيّئ ، والمطالبة الحسنة أفضل من الدفع الزهيد . إنّي أكلّمك هكذا يا سنشو لأبيّن لك أنّني أستطيع مثلك أن أطلق الأمثال كالأمطار . وبالجملة أقول لك إذا كنت لاتريد أن تتبعني بحسب ماتأتي به الظروف ، وأن ينالك ماينالني ، فليكن الله معك ، وليبارك عليك : ولن يعوزني أن أجد سوّاساً أكثر طاعة ، وغيرة ، وأقل بلادة وثرثرة منك .

فلمّا سمع سنشو قرار مولاه الحازم ، غشي على بصره ، وخار قلبه ، لأنه اعتقد اعتقاداً جازماً أن دون كيخوته لن يرحل بدونه ولو من أجل ذهب الدنيا بأسرها . وظلّ حائراً مبلساً مفكّراً ، وهنا دخل سمسون كرسكو ، تتبعه بنت اخته والخادمة ، وهما متلهّفتان لمعرفة ماذا سيستخدم صاحب الإجازة من حجج لثني مولاهما عن الرحيل طلباً للمغامرات . وكان سمسون يحب المزاح ، فاقترب من الفارس ، وقبّله كالمرة الأولى ، وبصوت جهوري قال له :

ـ أي زهرة الفروسية الجوّالة! نور الأسلحة الباهر! شرف الأمة الاسبانية ومرآتها! جعل الله القدير أولئك اللواتي أو الذين يريدون أن يعترضوا ويضعوا العراقيل في سبيل خرجتك الثالثة ـ لا يستطيعون هم الخروج من تيه رغائبهم ، ولا ينجحون أبداً في نواياهم السيئة .

ثمّ تلفّت الى الخادمة وقال لها :

ـ تستطيعين الآن أن تكفّي عن قراءة دعاء القديسة أپولينا ، لأنّي أعلم الآن أن النجوم قد قرّرت أن يعود دون كيخوته لتنفيذ أفكاره العالية الجديدة ، وأرى ضميري غير مستريح إذا لم أحثّ وأقنع هذا الفارس بألا يؤجّل طويلاً استخدام قوة ساعده الباسل وطيب شجاعته الجسور ، إنه بتأخيره يسيء الى إصلاح المظالم ، وحماية اليتامى ، وشرف الأوانس ، والدفاع عن الأيامي ، وحماية الزوجات ، وأمور أخرى من النوع نفسه تمس ، وتنتسب اليّ ، وهي من صميم نظام الفروسية الجوّالة . فإلى الأمام اذن يا سيّدي دون كيخوته ، أيها الفارس الشجاع الجميل ، لتبدأنّ عظمتك في المسير اليوم قبل الغد . وإذا أعوزك شيئاً في

سبيل التنفيذ ، فهأنذا مستعد لتلافيه بشخصي ومالي ، وإذا احتاجت عظمتك الى سائس ، فسأعد نفسي سعيداً جداً لوسمحت لي أن أخدمك .

وعند هذه الكلمة قال دون كيخوته لسنشو وهو يتلفّت اليه :

ـ هذا هو يا سنشو ، ألم أقل لك إنني لن يعوزني السوّاس ؟ هاهوذا يتطوّع : إنه صاحب الإجازة العديم النظيرسمسون كرسكو ، بهلول جامعة شلمنقة ، صحيح الجسم ، خفيف الحركة ، كتوم ، يستطيع احتمال البرد والحر ، الجوع والعطش ، وبالجملة يتّصف بكل الصفات المطلوبة من سائس فارس جوّال . وعلى ذلك فمعاذ الله أن أوافق ـ من أجل إرضاء رغبتي ـ على تحطيم عمود الآداب ، ورعاة العلوم ، وأن أنتزع فخر الفنون الحرّة! ألا فليبق سمسون الجديد في وطنه ليشرّفه ، وكذلك الشعر الأبيض على رؤوس أهله الشيوخ : سأقتنع بأي سائس كان ، مادام سنشو لايريد أن يجيء معي .

فقال سنشو والدموع في عينيه : نعم ، نعم سأجيء معك . يا مولاي! لن يتّهمني أحد بسوء الصحبة بعد أن أكلت من خبز إنسان .

وما أنا من أسرة جاحدة : فالكل يعرف ، خصوصاً أهل قريتي ، ماذا كان عليه آل پنثا الذين أنحدر من أصلابهم . وأنا أعرف من ناحية أخرى ، بالآثار الطيبة والكلمات الطيبة ، رغبتك في أن تكافئني . فإذا كنت قد تجاوزت الحدود حين طلبت منك مرتّباً ، فإنما فعلت ذلك إرضاء لزوجتي التي إذا وضعت شيئاً في رأسها تضغط عليك لتجعلك توافق أشد مما يضغط صانع البراميل على دوائر براميله لإدخالها بعضها في بعض . لكن في نهاية الأمر يجب أن يكون رجلاً ، والمرأة ليست إلا إمرأة ، ومادمت رجلاً ، وهو مالاأستطيع إنكاره ، فإنّي أريد أن أكون رجلاً في بيتي ، رغم أنف الجميع . فلم يبق إذن الآن غير أن تضع وصيّتك مع ملحقها ، حتّى لايمكن نسخها ، ولنأخذ في السير حالاً ، حتّى لانجعل روح السيّد سمسون تتعذّب أكثر مما تعذّبت ، إذ هو يقول أن ضميره يلزمه بإقناعك بالخروج للمرة الثالثة . وأنا أتقدّم لخدمة سيادتك بإخلاص وأمانة ، مثله بل أحسن من كل السوّاس الذين وجدوا في العصور الماضية والحاضرة .

ودهش صاحب الإجازة من الطريقة التي عبّر بها سنشو عن نفسه ، لأنه وإن كان قد قرأ القسم الأوّل من تاريخه ، لكنه لم يعتقد أبداً أنه ممتع هكذا كما صوّر ، لكن حينما سمعه يتكلّم عن الوصية والملحق الذي لا يمكن نسخه ، بدلاً من فسخه ، صدّق بسهولة كل ما قرأه عنه ، واعتقد أنه من أكبر الحمقى في هذا العصر ، وأنه لم يوجد أبداً مجنونان مثل المولى وخادمه .

وأخيراً قبّل دون كيخوته وسنشو بعضهما الآخر ، وبقيا صديقين ، ثم ، بناء على رأى وموافقة كرسكو العظيم ، الذي أصبح بمثابة وحي لهما .تم الإتفاق على أن يتم الرحيل في غضون ثلاثة أيّام ، وفي تلك الأثناء يعد كل مايحتاجان اليه للسفر ، ويحصل على خوذة كاملة بعدّتها ، لأن دون كيخوته أراد أن يكون له سلاح كامل مهما يكن الثمن . فوعده سمسون بأن يزوّده بواحده لأنه يعلم أن أحد أصدقائه عنده واحدة ، لن يرفض إعطاءه إيّاها ، لأنها قد وسّخها الصدأ والرطوبة أكثر مما جلاها السنباذج وصقلها .

وراحت بنت الأخت والخادمة تصبّان اللعنات التي لاحصر لها على صاحب الإجازة ؛ وتنتزعان شعورهما ، وتخدشان وجهيهما ، ،مثل البواكي في العصر القديم ، كانتا تنوحان على رحيل سيدهما ، وكأنه مات . لكن الدور الذي لعبه سمسون ، بإقناعه دون كيخوته بالخروج مرة ثالثة ، كان قد اتفق عليه ، كما يقول مؤرّخنا ، مع القستيس والحلاّق . وأخيراً ، وخلال الثلاثة أيّام الباقية ، تزوّد دون كيخوته وسنشو بكل مااعتقدا أنهما سيكونان في حاجة اليه . وسكّن سنشو روع زوجته ، ودون كيخوته روعي بنت أخته وخادمته ، ثمّ رحلاأثناء الليل ، دون أن يراهما أحد ، وأخذوا طريق توبوسو ، دون كيخوته راكباً على فرسه الطيب روثينانته ، وسنشو على حماره العجوز ، وكان الخرج مزوّداً بالزاد وكيس النقود الذي أعطاه دون كيخوته لسنشو للإنفاق على ماسيحتاجان اليه . وقبّل سمسون الأرض ، واستحلفه بأن يوافيه بأنبائه حسنة كانت أو سيئة ، حتّى يغتبط أو يبتئس ، كما تقضي بذلك قواعد الصداقة . فوعده بهذا دون كيخوته . واتخذ سمسون طريقه الى قريته ، بينما تابع المولى والسائس الطريق الموصل الى مدينة توبوسو العظيمة .

الفصل الثامن

فيما وقع لدون كيخوته وهو ذاهب لرؤية سيدته دلثنيا دل توبوسو

«تبارك الله العظيم!» هكذا يقول سيدي حامد بن الأيل في بداية هذا الفصل الثامن ، «تبارك الله!» وكرّرها ثلاث مرّات ، والسبب في هذه التبريكات هو كما يقول أن دون كيخوته وسنشو ينثا شرعا في الحملة ، وأن الذين يقرأون هذا التاريخ اللطيف يستطيعون الآن أن يتأكّدوا ، منذ الآن ، أنه قد بدأت مغامرات المولى ومساخر السائس . وفي نفس الوقت يدعو القارئ الى نسيان المغامرات السابقة التي قام بها البارع النبيل ، وألا يشغل نفسه الا بالمغامرات القادمة ، وهي تبدأ الآن في طريق توبوسو ، كما بدأت الأولى في سهل مونتييل . ومايطلبه لايعد شيئاً لو قورن بما يعد به . وهو يتابع هكذا :

لمّا رحل سمسون صار دون كيخوته وسنشو وحدهما ، وأخذ روثينانته في الصهل والحمار في النهق ، فعد صاحبانا المغامران هذا علامة فأل حسن . لكن إذا كان علينا أن نقول الحق فإن نهقات الحمار كانت أطول من صهلات الفرس ؛ مما جعل سنشو يستنتج أن سعادته تفوق سعادة مولاه . ولا ندري هل استند في رأيه الى التنجيم الفضائي[1] ، وكان له به بعض إلمام ؛ فإن هذا التاريخ لا يقول لنا عن هذا الموضوع شيئاً .

لكن كثيراً ماسمع سنشو يقول حين يترنّح الحمار أو يسقط أنه كان يود ألا يكون قد خرج من بيته ، لأنّه إذا ترنّح أو سقط لا يكسب غير تمزيق نعاله أو تكسير أضلاعه ، وعلى الرغم من أنه كان ساذجاً مغفّلاً فإنه لم يخطئ في هذا الحزر كثيراً . ومع ذلك قال له دون كيخوته : لا يا صاحبي سنشو! كلّما تقدّمنا في السير ازداد الظلام ، والأمل يضيع في أن نرى توبوسو عند مطلع النهار . وقد قرّرت الذهاب الى هناك قبل أن أخوض أية مغامرة .

---

(١) قسم من علم النجوم ، يتعلم منه المنجّم القواعد التي بها يستخلص مصائر وأقضية المولودين اعتماداً على الأبراج . ويمكن أن نسمّيه : علم الطوالع .

وهناك أتلقّى بركة دلثنيا المنقطعة النظير وأودّعها ، وبهذا التوديع أتأكّد أنّي سأفلح في إنجاز أخطر مغامرة ، لأنه لا شيء في العالم يجعل الفرسان أكثر بسالة من أن يشعروا بعطف محبوباتهم .

فقال سنشو : وأنا اعتقد مثل اعتقادك ، ولكنّي أظن أن من الصعب عليك أن تتكلّم مع السيدة دلثنيا ، أو أن تراها في مكان تستطيع أن تتلقّى فيه بركاتها ، اللهم إلا إذا رمتها عليك من فوق جدران حاصل الدجاج حيث رأيتها في المرة الأولى التي حملت اليها نبأالحماقات التي لذّ لك القيام بها في سيرامورينا (جبل الشارات) .

فقاطعه دون كيخوته : جدران حاصل الدجاج! إن خيالك أنت هو الذي يظهر لك على هذا النحو المكان الذي يسكن فيه هذا الجمال ، هذا اللطف الذي لايفي بوصفه واصف : إنه لا يمكن أن يكون إلا إبهاء وطنفاً ، وردهات ، أو كما يقال دهاليز قصور فاخرة غنية .

فقال سنشو : يجوز ، ولكنّها بدت لي جدراناً كالحة إن لم تخنّي الذاكرة .

فقال دون كيخوته : لايهم ياسنشو ، ولنذهب الى هناك على أي حال : مادمت سأراها ، حتّى لو كان ذلك من فوق جدران ، ونوافذ ، وفتحات ، ومعشقات بستان ، ومادام شعاع من شمس جمالها سيبهر عيوني ، وينير عقلي ويقوّي قلبي فيبقى وحيداً لا نظير له في الحكمة والشجاعة .

فقال سنشو :أعترف لك يامولاى أنني حينما رأيت شمس السيدة دلثنيا دل توبوسو هذه لم تكن ساطعة بحيث يمكن أن يصدر عنها أي شعاع ، وربّماأيضاً ، وكانت مشغولة بغربلة القمح ، كما قلت لك ، تسبب الغبار المنتشر منها كالسحاب ، في حجب وجهها وجعله مظلماً .

فقال دون كيخوته : إنّك تخطئ خطأً عجيباً ياسنشو حين تقول وتفكّر وتعتقد وتقرّر أن سيدتي دلثنيا كانت تغربل القمح : فهذا عمل يتعارض تماماً مع ماتعمله وينبغي أن تعمله الشخصيّات الممتازة ، فهؤلاء خصّصن وقدّرن لأعمال وازجاءات فراغ أكثر نبلاً ، مما من شأنه أن يبرز عظمتهن بكل جلاء . ألا تذكر ياسنشو أبياتاً لشاعرنا فيها يصف الأعمال التي كان يقوم بها ، في قصور من البلّور ، الحوريّات الأربع اللواتي خرجن من نهر التاجه ، ورحن ينسجن تلك الغلالات الرقيقة التي وصفها لنا الشاعر[1] : لم يكن نسجها إلا من الذهب ، والدر والحرير . ومثل هذا كان شغل سيّدتي حين رأيتها ، اللهم إلا إذا كان حسد ساحر

---

(١) جرثلاسو دلابيجا ، الرعوية رقم ٣ .

خبيث قد عمل على تغيير كل الأشياء التي يمكن أن تسرّني ، الى أشكال وصور أخرى . وهذا مايجعلني أخشى ، في تاريخ مغامراتي الذي يقال أنه مطبوع ، إذا كان المؤلف ساحراً من خصومي ، أقول أخشى أن يكون قدوضع شيئاً مكان شيء ، وخلط آلاف الأكاذيب بالحق ، ولذّ له أن يروي مغامرات في غير محلّها ، لا شأن لها بمجرى التاريخ . أيها الحسد! يا منبع الشرور التي لا تنتهي ، ويادودة تقرض كل الفضائل! إنّ الرذائل ، يا صاحبي سنشو ، كلّها تحمل معها شيئاً ساراً ، لكنّ رذيلة الحسد لاتعطي إلا الأحقاد وألوان الغضب وماتعافه النفس .

فأجاب سنشو : رأيي مثل رأيك . ولهذا فإنّي أعتقد أنه في هذه الأسطورة أو التاريخ ، الذي يقول صاحب الإجازة كرسكو أنه رآه ، لابدّ أن شرفي يسير فيه كما تسير العربة المتخلخلة ، مختلطاً ، مشيناً ، هنا وهناك ، كانساً الشوارع ، ومع ذلك فقسماً بشرفي لم أقل أية كلمة سيئة عن أي ساحر ، وليس عندي من الثراء مايثير الحسد . صحيح أنني ماكر داهية الى حدٍّ ما ، لكنّ سذاجتي ، وهي دائماً طبيعية وغير مصطنعة أبداً ، تغطّي على كل شيء ، وحين لايكون ثمّ غير الإعتقاد الجازم الصريح المخلص في الله وفي كل ماتعلّمنا إيّاه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدّسة ، وكراهيّتي لليهود وأنا عدوّهم اللدود ، وأجد نفسي عارياً ؛ فلن أفقد شيئاً ولن أكسب شيئاً بذلك ، وعلى الرغم من أنّي أرى نفسي تذرع الدنيا في كتاب ينتقل من يد الى يد ، فلن أهتم أدنى اهتمام بما يمكن أن يقال عنّي .

فقال دون كيخوته : هذا شبه ، ياسنشو ، لما جرى لشاعر شهير في عصرنا هذا ؛ ألّف هجاءً لاذعاً ضد كل سيّدات البلاط ، إلاّ واحدة ، لا يستطيع المرء أن يقول هل هي سيّدة أو لا . فلمّا رأت أنها ليست في ثبت الأخريات ، شكت الى الشاعر ، وسألته ماذا لاحظ فيها مما جعله لايدرجها ضمنهن ، ورجته أن يطيل في هجائه حتّى تندرج ضمنه ، دون تمييز وبحسب المولد ؛ فقبل الشاعر ، ووضعها في مرتبة الأخريات ، ورضيت لأنها رأت نفسها قد اشتهرت ، وإن كان ذلك بالقدح فيها . والى هذا ينتسب أيضاً مايروى عن الراعي الذي أحرق معبد ديانا الشهير الذي كان إحدى عجائب الدنيا السبع ؛ وهو لم يفعل ذلك إلا من أجل تخليد اسمه بين الأجناس المقبلة ، وعلى الرغم من أنه منع (بقرار عام) من ذكر أو كتابة اسمه (وإلا كانت العقوبة هي الإعدام) حتّى لاتتحقّق أمنيته ، فإن أحداً لايجهل أن اسمه ايروستراتس . وبهذه المناسبة يحضرني أيضاً ماوقع بين الامبراطور الكبير شارلكان (كارلوس الخامس) ونبيل في روما ؛ لقد ودّ الامبراطور أن يرى ذلك المعبد الشهير

المستدير ، الذي سمّاه الأوائل باسم معبد جميع الآلهة[١] ، ويسمّى اليوم ، بتكريس أحسن ، باسم معبد جميع القدّيسيين . وهو أسلم المعابد التي شيّدتها الوثنية في روما ، ويعطينا أعظم فكرة عن عظمة القدماء وفخفختهم : شكله شبيه بنصف برتقالة ، لكنه كبير جداً ، وداخله في غاية الإضاءة ، وإن كان النور لايدخل فيه إلا من نافذة ، أو بتعبير أدق ، من فتحة مستديرة في القمّة . والامبراطور ، وهو يتطلّع من هذه الفتحة ، أعجب بجمال البناء ، وكان معه نبيل روماني لفت انتباهه الى جمال هذه الفتحة المعمارية وأناقتها . فلمّا خرج الامبراطور شارلكان (كارلوس الخامس) قال هذا النبيل له : « ياصاحب الجلالة المقدّسة ، آلاف المرّات راودتني الرغبة في أن أمسك بجلالتك بين ذراعيّ وأرتمي الى أسفل معك ، حتّى أترك ذكرى خالدة لنفسي » . فقال له الامبراطور : « أشكر لك عدم تنفيذك لهذه الفكرة السيئة ، ولكن صدق أنني ، من الآن فصاعداً ، لن أعطيك الفرصة كي تدلّل على إخلاصك : وتبعاً لهذا ، فإنّي أمنعك من الكلام معي أبداً أوالمثول أمامي » . ولمّا قال هذا منحه منحة عظيمة .

أي سنشو! أريد أن أقول أن الرغبة في اكتساب الشهرة حارة وقويّة فينا . من ذا تظن قد ألقى بهوراتيوس كوكلس[٢] من أعلى الجسر في نهر التفرة ، وهو في تمام سلاحه ؟ ومن أحرق يد وذراع موكيوس اسكفولا[٣] ؟ ومن دفع كورتيوس الى الإلقاء بنفسه في تلك الهاوية المشتعلة العميقة التي انفتحت في وسط روما ؟ ومن جعل قيصر[٤] يعبر الروبيكون ، رغم

---

(١) الباثيون (= جميع الألهة) .

(٢) بطل من أبطال أيام روما الأولى ، دافع بمفرده ضد دخول جيش بورسنا (٥٠٧ ق .م) عن مدخل جسر سوبليكو ، بينما قام أصحابه بتحطيم هذا الجسر من ورائه ، ولمّا تحطّم الجسر ، ألقى بنفسه في النهروهو بكل سلاحه ، ودخل روماسليماً معافى . وكلمة « كوكلس » معناها : أعور ، وقد لقّب به لأنه فقد إحدى عينيه في القتال .

(٣) شاب روماني دخل في معسكر الأعداء الاوترسك حتّى وصل الى خيمة ملك الاوترسك أثناء حصار بورسنا لروما سنة ٥٠٧ ق .م ولكنه أخطأ فلم يقتل الملك ، بل قتل كاتبه ، ولمّا قبض عليه واستجوب ، لم يجب بل وضع يده على نار مشتعلة ، ليعاقبها على خطئها ، وتركها لتحترق ، وقال للملك أن ثلاثمائة شاب روماني على استعداد للنفوذ في المعسكروقتل الملك فخاف بورسنا ، وأطلق سراحه .

(٤) نهر صغير في إيطاليا ، يسمّى اليوم فيومسينو ، أو بيسانلو ، يصب في الأدرياتي ، ويفصل بلاد الغال الواقعة في هذه الناحية من جبال الألب عن إيطاليا الأصلية . وكان ممنوعاً على القوّاد الرومان عبور هذا النهر على رأس جيش للدخول في ايطاليا . لكن يوليوس قيصر عبر النهر على رأس جيشه ، فكان هذا إيذاناً حاسماً بتمرّده على وطنه وبداية الحرب الأهلية سنة ٤٩ ق .م ، وكان يصيح وهو يعبره : « تقرّرت الأقدار! » ومن هنا جاءت عبارة : « عبور الروبيكون » للدلالة على الإقدام على عمل جريء وحاسم . والسبب في ذلك التحريم الذي أصدره مجلس الشيوخ الروماني هو حماية روما ضد جيوش الغال ، وينص القرار على أنّ من يعبر النهرعلى رأس فيلق أو حتّى كتيبة فإنه يعد خائناً لوطنه ومصيره الى آلهة الجحيم .

أمّا كورتيوس فشاب روماني كرّس نفسه لآلهة العالم السفلي من أجل وطنه . ذلك أنه انفتحت هاوية عميقة واسعة في وسط الفوروم في روما ، وأعلن الوحي أن الهاوية لن تغلق الا إذا ألقت فيها روما بأثمن من لديها . وكان كورتيوس قد اشتهر بأعماله البطولية . فألقى بنفسه في الهاوية وهو بكل سلاحه ، فانسدّت الهاوية في الحال ، وذلك سنة ٣٦٠ ق .م .

النذر المضادة ؟ وإذا شئت أمثلة أحدث ، من أمر بإغراق سفن الاسبان البواسل بقيادة كورتيس[1] العظيم في العالم الجديد ، حتّى يسلبهم كل وسيلة للعودة ؟ كل هذه الأعمال المجيدة ، وكثير أخرى غيرها ، كانت وتكون وستكون أعمالاً تصنع الشهرة التي يطمح اليها الفانون ، كجزء من الخلود الذي استحقّته أعمالهم العظيمة . أمّا المسيحيّون الكاثوليك ونحن الفرسان الجوالة ، فينبغي علينا بالأحرى أن نطمح الى مجد القرون المقبلة ، المجد السرمدي في علّيين ، لا إلى غرور الشهرة الحالية التي مهما طال بها الزمان فإنها ستنتهي مع هذا العالم الفاني . ولهذا ياسنشو علينا ألا نجعل أعمالنا تخرج عن الحدود التي رسمها الدين المسيحي الذي نؤمن نحن به . ولنحطّم الكبرياء بقتل المردة ، والحسد بالقلب الطيب والكرم ، والغضب بالهدوء والاعتدال ، والشراهة والنوم بالقناعة والسهر الطويل ، والفجور والفسق بالشقة التي أوليناها لأولئك اللواتي جعلناهنّ سيدات أفكارنا ، والكسل بالتجوال في الدنيا والبحث عن الفرص التي يمكن أن تجعلنا ليس فقط مسيحيّين أتقياء ، بل وأيضاً فرساناً طائري الصيت : هذه هي يا سنشو الوسائل التي بها ينال المدائح الطيفة التي تكوّن السمعة الطيّبة .

فأجابه سنشو : لقد فهمت جيّداً ، يامولاي ، كل ماقلته حتى الآن ، لكنّي أود أن تتفضّل بترديد شك حاك في صدري الآن . فقال دون كيخوته : تريد أن تقول : «تبديد» ، إذن تكلّم ، قل ماتريد أن تقوله ، وسأجيبك بما أعرف .

- قل لي يامولاي ، هؤلاء اليوليوس ، وهؤلاء الأوغسطس ، وكل أولئك الفرسان المغامرين الذين ذكرتهم ، وقد ماتوا ، أين هم الآن ؟

- الوثنيّون منهم هم في الجحيم من غير شك ، والنصارى ، إن كانوا فضلاء ، هم في المطهر أو في السماء .

- حسن ، لكن ، قل لي ، القبور التي فيها أجسام هؤلاء السادة العظام هل هي مضاءة بمصابيح من فضّة ؟ والجدران هل هي مزيّنة بالعكازات ، والأكفان والشعور والسيقان والعيون التي من شمع ؟

فأجاب دون كيخوته : قبور الوثنيّين كانت في الغالب معابد فخمة : فرماد يوليوس قيصر وضع في هرم من الحجر مرتفع جداً ، يسمّى اليوم في روما باسم «مسلّة القديس

(١) قائد اسباني ولد سنة ١٤٨٥ ، وانتقل الى الهند الغربية (امريكا) في سنة ١٥٠٤ وكانت آنذاك مصدر مجد اسبانيا وثرائها . وفي سنة ١٥١٩ أبحر على رأس اسطول للاستكشاف فنزل في تبسكو في المكسيك . وأخذ في غزو المكسيك كلّها ، واستعمل في ذلك قسوة بالغة ، وعيّن بعدها حاكماً للمكسيك . وتوفّي سنة ١٥٤٧م فقيراً مهجوراً بعد الوشاية به وعزله وإرجاعه الى اسبانيا .

بطرس[1]» والامبراطور هادريانوس دفن في قصر كبيركبر المدينة ، واسمه «صخرة هادريانوس» ويسمى اليوم باسم كاستل سانت أمجلو (قصر القديس الملاك) ، والملكة أرتميس شيّدت لزوجها موسول بناء كان يعد من عجائب الدنيا السبع ، لكن كل هذه المقابر وكثير غيرها مما شيّده الوثنيّون لم تكن مزينة بالأكفان ولاقرابين تدل على أن الموتى كانوا قدّيسين .

فقال سنشو : والآن يا مولاي ، قل لي ، أرجوك ، ماهو الأجمل : إحياء ميّت ، أو قتل مارد ؟

فقال دون كيخوته : الجواب سهل : إحياء ميّت أجمل .

فصاح سنشو : آه! أمسكت بك! إذن إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة ، والأعرج ، والمريض ، وأن يكون أمام الضريح مصابيح مشتعلة ، وهياكل حافلة بالأتقياء الذين يتعبّدون حاثين ذخائرك ، كل هذا يعطي ، في هذه الدنيا وفي الآخرة ، سمعة أعظم من تلك التي يتركها أو تركها كل الأباطرة الوثنيّين والفرسان الجوّالة الذين وجدوا ؟

فأجاب دون كيخوته : أوافق على ما تقول .

فقال سنشو : اذن أجسام وذخائر القديسين تنال هذه الشهرة ، وهذه الألطاف ، وهذه المزايا ، أو أي اسم تسمّيها ، وبموافقة كنيستنا المقدّسة أمّنا يكون لهم مصابيح ، وأحجبة ، وأكفان وعكّازات وصور ، وشعور ، وعيون ، وسيقان ، تزيد التقوى وتنمّي سمعتهم المسيحية ، إن الملوك يحملون ذخائرهم على أكتافهم ، ويقبّلون قطعاً من عظامهم ، ويزيّنون بها مصلاتهم ومذابحهم الثمينة .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : لكن ماذا ينبغي أن نستنتج من كل ما قلته لي ؟

فقال سنشو : يا مولاي ، أقصد أن أقول أن ما علينا إلا أن نجعل أنفسنا قدّيسين ، فنحصل بسرعة على السمعة الطيبة التي نشتاق اليها . بالأمس أو في اليوم الذي قبله (لأنه لم يمض الاوقت قصير على إمكان التكلّم هذا) قدس أو طوب إخوان بسيطان حافيان ، وهاهم الناس أخذوا يرون من الشرف العظيم أن يلمسوا ويقبّلوا الأغلال الحديدية التي تمنطقا بها وعذّبا جسميهما بواسطتها : وهذه الأغلال تنال من التوقير أكثر مما يناله سيف أورلندو في

---

(١) هي المسلة المصرية التي أمر كاليجولا بنقلها من مصر (معبد هيرابوليس) الى روما لوضعها في السيرك الذي أمر ببنائه في الميدان الفاتيكاني ، وسمّي فيما بعد بسيرك نيرون ، وتقوم اليوم في ميدان القدّيس بطرس أمام كاتدرائية القديس بطرس في روما ، وارتفاعها ٢/١ ٢٥متر . والذي أمر بنقلها الى هذا المكان الأخير هو البابا سكستوس الخامس في سنة ١٥٨٦ (بعد إقامة ثربانتس في ايطاليا) .

صوان مولانا الملك حفظه الله من كل سوء . وهكذا ياسيدي ، أن يكون المرء أخاً بسيطاً في أية طريقة رهبانية أيّاً كانت هذا أفضل من أن يكون فارساً جوّالاً باسلاً ؛ وعشرتان من السياط أعظم عند الله من ألف ضربة رمح تسدّد الى المردة ، والوحوش ، والعفاريت .

فأجابه دون كيخوته : كل ماتقوله صحيح ، لكنّنا لا نستطيع أن نصبح كلّنا رهباناً . إن هناك طرقاً عديدة يقتاد الله فيها عبيده الى الجنّة : والفروسية دين ، وفي السماء (الجنة) فرسان قدّيسون .

فأجاب سنشو : حسن ، لكنّي سمعت أن في السماء (الجنة) من الرهبان أكثر مما فيها من الفرسان الجوّالة .

ـ هذا بسيط : إذ يوجد رهبان أكثر من الفرسان على الأرض .

ـ وهؤلاء أيضاً كثيرون .

ـ لاشك أنهم كثيرون ، لكن القليل منهم يستحق اسم فارس .

وبهذه الأحاديث وأشباهها قضيا الليل والنهارالتالي دون أن يلقيا شيئاً جديراً بأن يروى ، مما آلم دون كيخوته أشد الإيلام . وأخيراً ، في اليوم التالي ، عندما وافى الليل ، شاهدا مدينة توبوسو العظيمة ، التي أنعش مرآها نفس الفارس وأحزن سنشو ، لأنه لم يكن يعرف أين بيت دلثنيا ، ولم يره أبداً من قبل ، لاهوولامولاه : حتّى كان كلاهما مضطرباً : الواحد رغبة في رؤيته ، والثاني لأنه لم يره أبداً ، وسنشو لم يتخيّل ماذا يستطيع أن يفعل لو بعث به مولاه الى توبوسو . وأخيراً لم يشأ دون كيخوته أن يدخل المدينة إلا ليلاً ؛ وفي انتظار أن يأتي الليل توقّفا عند سنديان مجاور ، وفي الساعة الملعونة دخلا المدينة حيث جرى لهما ما ستعرف .

الفصل التاسع

وفيه يروى ما سيرى

أوشك الليل على الانتصاف حينما ترك دون كيخوته وسنشو الغابة الصغيرة ودخلا توبوسو . كان الصمت العميق يخيّم في القرية ، لأن كل السكّان كانوا يغطّون في نوم عميق . وكانت الليلة واضحة بعض الوضوح ، وإن كان سنشو يود لو كانت دامسة الظلام ، حتّى يجد في هذه الظلمة عذراً عن حماقته . ولم يكن يسمع في كل القرية غير نباح الكلاب يرن في مسامع دون كيخوته ويشيع الاضطراب في قلب سنشو . وبين الفينة والفينة كان يسمع حمار ينهق ، وخنازير توصوص ، وقطط تموء ، وكان يبدو أن هذه الصيحات المختلفة تتزايد مع صمت الليل : فرأى فيها الفارس العاشق فأل سوء . ولكنه قال لسنشو :

- يا بني! قدني الى قصر دلثنيا : فربّما نجدها ساهرة .

فقال سنشو : يا لله! الى أي قصر تريدني أن أقتادك ، لأن ذلك الذي شاهدت فيه عظمتها لم يكن غير بيت صغير ؟

فقال دون كيخوته : لابدّ أنها قد راحت تستريح إذاً في جناح صغير من أجنحة القصر ، للتسلية مع وصيفاتها ، كما هي عادة السيّدات العظيمات والأميرات .

فقال سنشو : يا مولاي! مادام سيادتك تريد ، على الرغم منّي ، أن يكون بيت السيّدة دلثنيا قصراً فهل هذه الساعة التي نجد بابه مفتوحاً وهل من المناسب أن نطرق طرقات كبيرة ليفتح لنا ، فنبعث الذعر في نفوس الجميع ؟ وهل يقرع باب فتياتنا ، كما يفعل أولئك العشّاق الذين من حقّهم أن يأتوا ويطرقوا الباب ويدخلوا في أية ساعة كانت ؟

فأجاب دون كيخوته : اذن فلنبحث عن القصر من بيت الى بيت ، وبعد هذا أقول لك ما ينبغي أن تفعل . لكن إمّا أن أخطئ خطأً فاحشاً أو هذه الكتلة الهائلة الكابية التي ترى من هنا لابد أن تكون قصر دلثنيا .

فأجاب سنشو : قدنا سيادتك ، ربّما كانت كذلك ، لكن لو رأيته بعيني ولمسته بيدي لاعتقدته كما أعتقد أن الساعة وقت النهار الآن .

فسر دون كيخوته في المقدمة ، ولما أن سار مائتي خطوة صار بالقرب من هذا الظل الكبير ، فشاهد برجاً عالياً كبيراً ، وتبيّن له أن هذا البناء ليس قصراً ، بل الكنيسة الكبرى في القرية . فقال لسنشو : «لقد لقينا الكنيسة» . فأجاب سنشو : «هذا ما أراه جيداً ، والحمد لله أنه لم يقدّر أن نلقي قبرنا أيضاً ، لأنه ليس من حسن الطالع أن نتجوّل في المقابر في مثل هذا الوقت ، لكن إذا لم تخنّي الذاكرة فإنّي أذكر أنني قلت لسيادتك أن بيت هذه السيدة يقوم في حارة مسدودة» .

فصاح دون كيخوته : لعنة الله عليك ، يا أحمق! أين رأيت أن القصور الملكية تشيّد في حارات مسدودة ؟

فقال سنشو : يا مولاي! لكل بلد عوائده : يجوز أنه في توبوسو تبنى القصور والمباني الشاهقة في حارات ، ولهذا أرجوك أن تتركني أبحث في هذه الأزقّة والحواري التي تتجلّى أمام ناظري : ولربما أجد ، في ركن من الأركان ، ذلك القصر الملعون ، الذي أود لو أكلته الكلاب ، لأنه يعذّبنا ويجعلنا نجري هنا وهناك .

فقال دون كيخوته : اسمع يا سنشو! تكلّم بمزيد من الاحترام عن الأمور التي تخص سيّدتي ، ولنقض العيد في سلام ، ولا ترم اليد بعد الرمّانة .

فقال سنشو : سأضبط نفسي يا مولاي ، لكن هل أستطيع أن أتحمّل ، بصبر ، وأنت تريد منّي أنا الذي لم أر بيت سيّدتك غير مرة واحدة أن يكون حاضراً دائماً في ذاكرتي وأن أجده في منتصف الليل ، بينما لاتستطيع أنت أن تعثر عليه ، وأنت الذي ربّما رأيته ألف مرة ؟

ـ أنت تجعلني أيأس ياسنشو ، هكذا قال دون كيخوته . تعال هنا أيها الكافر : ألم أقل لك ألف مرة أنّي في كل أيّام حياتي لم أر أبداً دلثنيا المنقطعة النظير ، وإنّي عاشق لها بالسمع فقط وبناء على شهرتها العظيمة بالحكمة والجمال ؟

فأجاب سنشو : اليوم فقط أعلم منك هذا ، وأقول إذن مادمت لم ترها أبداً ، ولا أنا أيضاً...

فأجاب دون كيخوته : هذا غير ممكن ، لأنّك قلت لي أنّك رأيتها تغربل القمح بالغربال ، حينما أتيت لي بالجواب عن الرسالة التي بعثت بها .

فقال سنشو : لا تصدّق هذا يا مولاي ، إذ عليك أن تعلم أن زيارتي والرد تمّا بالسماع فقط ، ولهذا فأنا أعرف السيدة دلثنيا بقدر ما أستطيع أن ألكم السماء .

فقال دون كيخوته : سنشو ، سنشو ، يوجد وقت للمزاح ووقت لايقبل فيه المزاح . إذا كنت أنا أقول أنني لم أرَ أبداً السيدة دلثنيا ، ولم أكلمها بعد ، فأنت تستطيع أن تقول الشيء نفسه ، لأنك تعرف العكس .

ولّما كانا يتناقشان على هذا النحوأبصرا قادماً اليهما رجلاً معه بغلان . وبحسب الضجة التي أحدثها محراث وهو ينجر على الأرض ، حكما بأنه حرّاث استيقظ قبل طلوع الشمس ليذهب الى عمله ، وكان يسير وهو يغنّي الرومانثة :

يا فرنسيّون فتم صيدكم في رنصفال

فقال دون كيخوته : أراهن بحياتي لو جرى لنا شيء سعيد هذه الليلة! ألا تسمع ما يغنّيه هذا القروي ؟

فقال سنشو : لكن ماذا يهمّنا من صيد رنصفال ؟ في وسعه أيضاً أن يغنّي رومانثة كلاينوس[1] فالأمر سيّان ، لن يحدث لنا بسببها أكثر ولاأقل ، واقترب الحرّاث ، فقال له دون كيخوته : ياصاحبي! منحك الله كل أسباب السعادة : هل تستطيع أن تقول لي أين قصر المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ؟

فأجاب الفلاح : سيدي! أنا لست من هنا ، ولم تمض على إقامتي هنا غير وقت قصير ، في خدمة مزارع غني . لكن ها هو ذا ، في المواجهة ، بيت خازن الكنيسة والقسّيس : وهما يستطيعان أن يدلاك على تلك السيدة الأميرة ، لأن عندهم ثبتاً بكل سكّان الناحية ، ومع ذلك فأنا أعتقد أنه لا يوجد في كل القرية أية أميرة ، بل بعض السيدات الكبيرات اللواتي يسلكن مسلك الأميرات في بيوتهن .

فأجابه دون كيخوته : لا أشك أن التي أسألك عنها هي واحدة من هؤلاء .

فقال الفلاح : يجوز ياسيدي ، لكن هاهو ذا النهار قد طلع : وداعاً! ثم ضرب بغليه بالسوط ومضى لسبيله دون انتظار أسئلة أخرى .

فلمّا رأى سنشو مولاه مفكّراً ومتضايقاً من هذه الإجابات قال له :

«مولاي ، اقترب مطلع النهار ، وليس من المناسب أن تفاجئنا الشمس هكذا في الشارع . الأفضل أن نخرج من المدينة ، ونختبىء في غابة مجاورة وسأعود في وضح النهار ، ولن أدع ركناً في كل القرية حتّى أعثر على بيت أو قصر أو سراي سيدتي . وسأكون

(١) هذه الرومانثة تقول انه كان على كلاينوس Calainos المغربي (المسلم) أن يطيح برقاب ثلاثة من أكفاء فرنسا ليحق له الزواج من اشبيلية ، بنت الملك المنصور (ابن أبي عامر) غير أن رولدان قتله ، فيما تزعم هذه الاسطورة .

شقيّاً جداً إذا لم أعثر عليه . وحين أجده سأتكلّم مع عصمتها ، وأخبرها أين أنت وكيف حالك ، وأنّك تنتظر حتّى تدلّك هي على الوسيلة لرؤيتها ، دون مساس بشرفها وسمعتها » .

فقال دون كيخوته : ياصاحبي سنشو ، بهذه الكلمات القلائل قلت ألف جملة ، وأوافق من كل قلبي على النصيحة التي أسديتها إليّ . تعال ياولدي ، ولنكن في مكان ما ، ثمّ تعود أنت ، كما تقول ، لتبحث عن مكانها وترى سيدتي وتكلّمها : وأنا أرجو من حكمتها وأدبها أكثر من نعم خارقة .

وكان سنشو عل أحر من الجمر ليسحب مولاه الى خارج القرية ، خوفاً من أن يفتضح كذبه في الرد الذي أتى به في سيرامورينا (جبل الشارات) من طرف دلثنيا : ولهذا حث دون كيخوته حثاً شديداً على الإسراع بالسير فوراً . وعلى ميلين من القرية وجدا غابة اختبأ فيها دون كيخوته ، بينما عاد سنشو الى القرية للتكلّم مع دلثنيا . وفي هذه السفارة التي قام بها جرت له أمور تقتضي انتباهاً جديداً وثقة جديدة .

الفصل العاشر

في الطريقة البارعة التي لجأ إليها سنشو لسحر السيدة دلثنيا، وحوادث أخرى مضحكة ولكنها حقيقية

ولمّا وصل مؤلّف هذا التاريخ العظيم الى الحوادث التي يرويها هذا الفصل قال أنه كان يود أن يجر عليها ذيل الصمت خوفاً من ألا يصدّقها أحد ، لأن بوادر دون كيخوته الجنونية قد اندفعت الى درجة لايمكن تصوّرها ، بل تفوق أبعد مديي البندقية عن التصديق . ومع ذلك ، وبالرغم من مخاوفه ، فقد صمّم على أن يكتبها كما صدرت عن دون كيخوته ، دون أن يضيف أو ينقص من الحقيقة مثقال ذرة ، ودون أن يتوقّف عند ماعسى أن يوجّه اليه من اتهام بالكذب . وقد أصاب في هذا ، لأن الحقيقة تطهّر ولاتدمّر ، وتمضي دائماً فوق الكذب ، كالزيت فوق الماء . فتابع تاريخه قائلاً أن دون كيخوته لمّا اختبأ في الأيكة أو الحرش أو الغابة المجاورة لتوبوسو الكبيرة ، أمر سنشو بالعودة الى المدينة ، وبألاّ يرجع ويمثل أمامه إلا بعد أن يتكلّم باسمه مع سيدته ليرجوها أن تتفضّل فتسمح لعبدها الفارس بأن يراها ، وأن تباركه بعد ذلك ، حتّى يمكنه الرجاء في الفلاح في مغامراته الخطرة العسيرة ، فوعد سنشو أن يفعل بكل ماأمربه ، وأن يعود برد جميل مثل ذلك الذي تلقّاه في المرة الأولى . وقال له دون كيخوته :

ـ اذهب اذن يا ولدي ، ولا تضطرب أبداً حين ترى أمامك نور شمس الجمال التي أنت ذاهب اليها . يالك من سائس سعيد ، سعيد فوق كل السوّاس في العالم ! ولاتنس خصوصاً أن تحفظ في ذاكرتك الكيفية التي تقابل بها ، وتذكّر هل يتغيّر لونها حين تعرض عليها موضوع سفارتك ، وهل تضطرب وهي تسمع اسمي ، وهل تتمكّن من الجلوس على حشاياها حين تجدها جالسة على المنصة الوثيرة اللامعة بالسيدات ذوات المكانة ، وحين تقف هل تستند مرة الى قدم ، ومرة الى القدم الأخرى ، وهل لاتكرّر الرد الذي ستعطيك إيّاه مرّتين أو ثلاث مرّات ، وهل تغيّره من رقيق الى خشن ، وحامض الى غرامي ، وهل ترفع يدها الى

شعرها لترتّبه ، وإن لم يكن مضطرباً ، وبالجملة ياولدي اطبع في ذاكرتك كل حركاتها وأفعالها ، أنك لو رويتها لي بدقّة لاستطعت هناك أن أعرف أخفى خفايا أسرار قلبها ، فيما يتعلّق بغراميّاتها . وأعلمك ياسنشو إذا لم تكن تعلم أن الأفعال والحركات الخارجية للعشاق ، حين يتعلّق الأمر بغراميّاتهم ، هي بريد أمين يحمل معه أنباء مايجري في داخل نفوسهم . فاذهب أنت ياصاحبي : لعلّك تكون أكثر توفيقاً منّي ، وأن تعود بنجاح أكبر من ذلك الذي أنتظره في الخلوة التي تتركني فيها!

فقال سنشو : سأمضي يا مولاي ، وسأعود بسرعة . لكن تشجّع ، وابسط قلبك الصغير المسكين الذي أنا متأكّد أنه في هذه اللحظة ليس أكبر من بندقة ، لأنه مقبوض . وتذكّر أنه يقال عادة أن الشجاعة الجيدة تحطّم الحظ السيئ ، وأنه حيث لا يوجد لحم مملّح فلا يوجد وضم لتعليقه ، ويقال أيضاً أن الأرنب الجبلي يثب حين لاينتظر ، لأننا إن لم نستطع هذه الليلة أن نجد مقر السيدة دلثنيا فالآن وقد طلع النهار أعتقد حقّاً أنني سأعثر عليه في اللحظة التي يكون بعيداً عن ذهني ، وإذا عثرت عليه فدعني أعمل .

فقال دون كيخوته : نعم ياسنشو ،لعلّي أفلح فيما انتظره فلاحك أنت في العثور على أمثال بمناسبة ماتتكلّم عنه! .

وعند هذه الكلمات أدار سنشو ظهره ، ووضع البرذعة على حماره ، بينما بقي دون كيخوته منتعلاً ركابه ، منثنياً على رمحه ، ونفسه مليئة بالأحزان والأفكار المشوّشة .

ولنتركه في هذا الوقت ، ولنتابع سنشو پنثا الذي أخذ يسير ببطء وهو لا يقلّ تفكّراً ولا ارتباكاً عن مولاه . ولم يكد سنشو يخرج من الغابة حتّى أدار رأسه ، ولمّا لم يشاهد دون كيخوته بعد ، نزل من على حماره ، وجلس عند جذع شجرة وأنشأ يكلّم نفسه هكذا :

ـ فلننظر الآن يا أخانا سنشو أين تذهب سعادتك . هل أنت ذاهب للبحث عن حمار فقدته ؟

ـ لا ، طبعاً .

ـ عم تبحث إذن ؟

ـ أوه ، أنا ذاهب للبحث عن أميرة ، وفيها الشمس والجمال وكل نجوم السماء .

ـ وأين تظن أنك ستجد ماتقوله هذا ، ياسنشو ؟

ـ أين ؟ في مدينة توبوسو العظيمة .

ـ حسن! وباسم من ستبحث عنها ؟

ـ باسم (من طرف) الفارس الشهير دون كيخوته دلا منتشا ، الذي يفكّ المظالم ، ويطعم العطشان ، ويسقي الجائع .

ـ كل هذا حسن جداً ، ولكن هل تعرف بيت هذه الأميرة ؟

ـ يقول مولاي إنه لابد أنه قصر ملكي ، وسراي فخمة .

ـ وهل تصادف وأنك رأيته في بعض الأحيان ؟

ـ لكن يبدو لي أن سكّان توبوسو سيحسنون صنعاً ـ إذا عرفوا أنّك هنا بقصد إغراء أميراتهم وإشاعة الفجور بين سيداتهم ـ لو أنهم رضّوا أضلاعك بضربات العصي دون أن يتركوا فيها موضعاً سليماً .

ـ لاشك أنهم سيكونون على حق إذا لم يعتبروا أنني مجرّد رسول ، ونسوا هذه الأبيات القديمة : «أنت رسول يا صاحبي ، فلا تستحق أي لوم!» .

ـ لا تعتمد على هذا ياسنشو : فإن المنتشاويين سراع الغضب بقدر ما هم أمناء ، وهم خصوصاً حسّاسون جداً . الله حي! لو شمّوك فقط ، للقيت الويل!

ـ آه ، لكن حذار! هل هذا يعنيني ؟ هل أنا في حاجة ، من أجل إرضاء شخص آخر ، الى البحث عن ثلاثة مخالب في القط ؟ ثمّ أن البحث عن دلثنيا في توبوسو هو بمثابة البحث عن ماريكا في رافنا[1] أو صاحب إجازة في شلمنقة! إنه الشيطان ، نعم الشيطان وحده ، هو الذي شبكني في هذه المسألة .

هكذا كان سنشو يكلّم نفسه ، ووصل الى هذه النتيجة : «هيّا ، هيّا ، هكذا استمر يقول لنفسه ، لكل داء دواء يستطب به إلا الموت الذي لامفر منه ، شئنا أو لم نشأ ، في نهاية أعمارنا . إن مولاي ، وعندي على هذا آلاف الأدلّة ، مجنون ينبغي توثيقه ، وأنا لاأقل جنوناً ، بل أنا مجنون أكثر منه ، أنا الذي أخدمه وأتبعه ، إذا صح المثل الذي يقول : «لا من معه تولد ، بل من معه ترعى» ، وهذا المثل الآخر : «أخبرني من تصاحب أخبرك من أنت» فمولاي مجنون ، بحيث يعتقد الشيء مكان الشيء الآخر ، الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، كما فعل حين قال أن طواحين الهواء مردة ، وبغال الرهبان ، هجن ، وقطعان الضأن ، جيوش معادية ، وأمور أخرى كثيرة مشابهة ، ولهذا لن يكون من العسير أن نجعله يعتقد أن

---

(١) هناك مثل إيطالي معناه : البحث عن شيء في المكان الذي لا يوجد فيه هذا الشيء ، ولكنه يستخدم هنا بعكس هذا المعنى ، أي : البحث عن شيء في مكان مملوء منه ، كما يقول المثل العربي : كمهدي التمر الى هجر .

وكذلك : البحث عن «صاحب الإجازة في شلمنقة» حيث يوجد آلاف من حملة الإجازات الدراسية . وكانت مشهورة بجامعتها وكلياتها الثانوية .

أية فلاحة تمر من هنا هي السيدة دلثنيا . فإن لم يشأ أن يصدّق ، أقسمت له ، فإن أقسم هو بدوره ، كرّرت القسم من جديد ، وإن أصرّ ، زدت أنا في إصراري . وبهذه الطريقة تكون لي دائماً الغلبة عليه ، وليكن مايكون .وربّما بسبب إصراري لايكلّفني بمثل هذه السفارات ، حين يرى أنها لاتفيده ، أو ربّما يظن ، كما يخيّل اليّ ، أن ساحراً خبيثاً ، من أعدائه أولئك ، قد غيّر وجه سيدته على هذا النحو لإثارة غضبه» .

هذه الفكرة هدّأت خاطر سنشو ، وبدا له أن المسألة قد سوّيت . ولكنه بقي مع ذلك وقتاً طويلاً في المكان الذي كان فيه ، حتّى يعتقد دون كيخوته أنه كان لديه الوقت الكافي للذهاب والعودة . وأفلح في كل شيء دبّره ، حتّى أنه حين نهض ليركب حماره شاهد قادمات من توبوسو الى المكان الذي توقف فيه ثلاث فلاحات راكبات على حميرأو حمارات ، لسنا نعرف على وجه الدقة لأن المؤلّف لم يحدّد ذلك ، ويمكن الظن أنها كانت أتاناً ، لأن عليها اعتاد الفلاحون الركوب ، لكن لمّا كانت هذه المسألة ليست بذات فائدة تذكر ، فمن العبث التوقّف لتحقيقها .

ولمّا رأى سنشو هؤلاء الفلاحات ، هرع للحاق بمولاه ، فوجده يتنهّد وينوح نواحاً غرامياً طويلاً . وقال لسنشو : ماذا هناك يا صاحبي سنشو ؟ هل عليّ أن أعلم هذا اليوم بحجر أبيض أو أسود ؟

فقال سنشو : الأحسن أن تعلمه بحجر أحمر ، مثل إعلانات المدرسة ، حتّى يرى من بعيد .

ـ لقد أتيتني إذن بأنباء سارة ؟

ـ سارة الى حد أنه ليس على سيادتك إلا أن تهمز روثينانته ، وتخرج الى السهل لتشاهد السيّدة دلثنيا دل توبوسو التي قدمت لزيارتك مع اثنتين من وصيفاتها .

ـ ما أعظم فضل الله! ماذا تقول لي يا صاحبي سنشو ؟ حذار من التغرير بي ومن جلب حزني بسرور زائف .

ـ وماذا أفيد من التغرير بك وأنت على وشك اكتشاف الحقيقة ؟ اركض يامولاي وتعال لرؤية الأميرة سيدتنا ، مزينة بما يليق بها . إن وصيفتيها وهي ، لامعات من الذهب النضار والماس والياقوت والديباج ذي الأكثر من عشرة هدابات ؟ وشعورهن مسترسلات على أكتافهن ، كأنها أشعة شمس تتلاعب بها الرياح . وهن يركبن ثلاث مهطمات رقطاوات متعة للناظرين .

ـ تقصد مطهّمات ؟

ـ أوه! ليس ثمّ فارق كبير بين مهطّمات ومطهّمات ، وعلى كل حال فهن راكبات مالست أدري وما شأني ، وهن أرشق سيدات يمكن أن يراهن إنسان ، وخصوصاً الأميرة دلثنيا ، سيدتي ، التي تخلب العقول .

ـ لنسر ياولدي سنشو . ومكافأة لك على هذه الأنباء السارة غير المنتظرة أعدك بأفضل غنيمة أكسبها في أول مغامرة . فإن لم يكفك هذا ، أضف اليه الأمهار التي تلدها هذا العام أفراسي الثلاث ، وهن على وشك أن يلدن ، كما تعرف ، في المرعى المشترك لقريتنا .

فقال سنشو : سأكتفي بالأمهار ، لأنّي لست متأكّداً أن غنائم مغامرتك الأولى ستكون جيدة .

ولمّا أتم هذه الكلمات خرج هو ومولاه من الغابة فأبصرا بالقرب منهما الفلاحات الثلاث . وراح دون كيخوته يتطلّع بكل عينيه في طريق توبوسو ، فلمّا لم ير غير الفلاحات الثلاث اضطرب وسأل سنشو هل ترك هؤلاء السيدات خارج المدينة . فقال سنشو :

ـ كيف ، خارج المدينة ؟هل عيناك وراء رأسك ، فلا تراهن قادمات لامعات ساطعات كالشمس في رائعة النهار ؟

ـ إني لا أرى يا سنشو غير ثلاث فلاحات على ثلاث أتانات .

ـ أوه فلينجّني الله الآن من الشيطان! أمن الممكن أن ثلاث مطهمات ، أو كما تريد أن تقول ، بيضاء مثل الثلج تبدو لك أتانات ؟ الله حي! فلتنتزع لحيتي إذا كان هذا صحيحاً!

ـ لكنّي أقول لك يا سنشو إن هذا صحيح أنها أتانات أو حمير كما أنه صحيح أنني دون كيخوته وأنت سنشو : على الأقل هي تبدو لي هكذا .

ـ اسكت يا مولاي ، لا تقل مثل هذا الكلام : افتح عينيك ، وتعال حيِّ سيدة أفكارك ، فهي قادمة .

لمّا قال هذا الكلام تقدّم للقاء الفلاحات الثلاث ، وترجّل ، وأمسك بخطام حمار إحداهن ، وجثا على ركبتيه وقال لها :

ـ يا ملكة ، أميرة ، دوقة الجمال ، لتتنازل سموّك وعظمتك فتتلقّى بالقبول والرحمة هذا الفارس ، عبدك ، الذي صار مثل تمثال من المرمر ، لاحراك فيه ولانبض ، لمّا أن صار في حضرتك الفخيمة ، أنا سنشو پنثا ، سائسه ، وهو الفارس الجوّال دون كيخوته دلا منتشا ، الملقّب بالفارس الحزين الطلعة .

وفي الوقت نفسه جثا دون كيخوته على ركبتيه بجوار سنشو : وراح يتطلّع بعينين زائغتين مضطربتين في تلك التي سمّاها سنشو سيدة وملكة ، ولمّا لم ير منها غير بنت

فلاحة قبيحة ، لأنها كانت فطساء ووجهها منتفخ ، ارتج عليه دون أن يجرؤ على أن يفتح فمه . ولم تكن الفلاحات أقل دهشة لمّا أن أبصرن هذين الرجلين المختلفين كل الإختلاف راكعين يمنعانهن من المرور . وأخيراً قطعت الصمت تلك التي أمسك بخطام حمارها ، وقالت غاضبة : «ابتعدا عن طريقنا ، ودعانا نمر ، فنحن مستعجلات» .

فأجاب سنشو : ياأميرة توبوسو وسيدتها الكلية ، لماذا لايتعطّف قلبك الرحيم وهو يرى راكعاً أمام حضرتك السامية عمود الفروسية الجوّالة وسندها ؟ وعند سماع هذه الكلمات صاحت إحدى الفلاحتين الأخريتين : «تعالي إذن لأضع فيك المهماز ، ياحمارة صهري ، انظري كيف يسخر هذان السيدان من الفلاحات كما لو كنّا لانستطيع أن نكيل لهما الصاع بصاعين . سيرا في طريقكما ، ودعانا نسير في طريقنا ، ومساء الخير» . فقال دون كيخوته : «انهض يا سنشو ، إنّي أتبين تماماً أن الحظ لم يرض بعد تماماً عن بلاياىا . لقد غلق كل الطرق التي يمكن أن يأتي منها السرور لهذه النفس الهزيلة التي يضمّها جسمي . وأنت ، يا أعظم كمال يمكن التطلّع اليه ، يا غاية اللطف الإنساني ، أنت الدواء الوحيد لقلبي الحزين الذي يعبدك! ومادام ساحر خبيث يطاردني ، ويغشي على عيوني بالغيوم والسحاب ، حتّى حوّل في نظرها وحدها لافي نظر غيرها ، جمالك المنقطع النظير الى مظهر فلاحة مسكينة ، إذا لم يعطني ملامح تنين لأصبح كريهاً في نظرك ، فتنازلي وانظري إليّ برقة وغرام ، وتطلّعي ، في الخضوع والاحترام اللذين أكنّهما لجمالك المشوه ، الى تواضع هذه النفس التي تعبدك» .

فقالت الفلاحة : «يا لجدي! هل أنا هنا إذن لسماع هذه الأباطيل ؟ ابتعد من هنا ، ودعني أمر ، أرجوك» .

فابتعد سنشو وتركها تمر ، وهو راضٍ عن تخلّصه من المشكلة بهذه الطريقة . ولم تكد القروية التي أريد لها أن تلعب دور دلثنيا ، تتخلّص ، حتّى نخست أتانها بمسلة موضوعة في طرف عصا ، وجعلت حمارتها تجري في المرج ، لكن الدابة ، وقد أحسّت أنها نخست أكثر من المعتاد ، أخذت ترفس وتقمص ، ثمّ ألقت على الأرض السيدة دلثنيا . فأسرع دون كيخوته لإنهاضها ، بينما أصلح سنشو البرذعة التي استدارت حول بطن الحمارة . ولمّا أعيدت البرذعة الى مكانها ، أراد دون كيخوته أن يأخذ بين ذراعيه سيدته المسحورة ، ليركبها على البرذعة ، لكنّها أعفته من هذه المهمّة : لأنها بعد أن قامت ، تراجعت بضع خطوات ، ثمّ استعدّت للوثوب ، ووضعت كفّيها على مؤخرة الحمارة ، ووثبت على الحمارة وهي أخف من الصقر ، وركبت وكل رجل على ناحية مثل الرجال . فصاح سنشو : «بحق القديس روك! سيدتنا أخف من الطائر : إنها تستطيع أن تعلّم الركوب على

الخيل أبرع السوّاس في قرطبة أو المكسيك ، لقد استقرّت بوثبة واحدة فوق قبو السرج ، وبدون مهماز جعلت رهوانتها تركض كحمارالوحش ، ووصيفتاها لاتقلان عنها براعة ، لأن ثلاثتهن يعدون عدو الريح » .

وكان هذا حقاً ، لأن دلثنيا حينما ركبت انطلقت الثلاث بسرعة هائلة . ولم تكففن عن العدو ، دون أن تلتفتن ، طوال أكثر من نصف فرسخ . وتابعهن دون كيخوته بنظره ، ولمّا غبن عن نظره ، تلفّت الى سنشو وقال له : «ماذا ترى يا سنشو ؟ ألا يسيء السحرة معاملتي ؟ أنظر الى أى مدى يذهب خبثهم وحقدهم عليّ ، ماداموا يحرمونني من لذة رؤية سيدتي كما هي . ولدت لأكون نموذجاًوقدوة للبائسين ، وهدفاً يرمى بسهام النحس ، فهؤلاء السحرة الخونة لم يكتفوا بتحويل دلثنيا ، بل غيّروها الى شكل دميم ممسوخ دنيء مثل شكل تلك الفلاحة ، وانتزعوا منها خصوصاً ماهو من شأن السيدات العظيمات ، وهو أن تنبعث منهن رائحة عطرة ، لأنهن دائماً وسط العنبر والأزهار ، لأنّي أقول لك أنني حين تقدّمت لإركابها على رهونتها ، كما تقول ، ولكنّها تبدو لي مجرّد حمارة ، انبعثت منها ناحيتي رائحة ثوم نيّئ كادت منه روحي تخرج من بدني » .

فصاح سنشو : أيها الرعاع الملاعين! أيها السحرة الأنجاس الأشرار! بودّي لو رأيتكم جميعاً مسلوكين في أذانكم في خيط مثل السردينات! أنتم تعلمون الكثير ، وتقدرون على الكثير ، وتفعلون ماهو أسوأ . لم يكفكم ، أيها الأوغاد ، أن تحوّلوا لآلىء عيون سيدتي الى بنادق من الفلّين ، وشعرها الذي من الذهب الخالص الى وبر ثور أحمر ، وكل جسمها من خير الى شر ، دون أن تمسّوا رائحتها ، حتّى نستطيع على الأقل أن نحذر مااستتر تحت هذا اللحاء القبيح ، وإن كنت أستطيع أن أقول حقاً أنني لم أر أبداً قبحها ، بل جمالها ؟ كانت على شفتها اليمنى علامة على شكل شارب ، فيه سبع الى ثماني شعرات حمراء كخيوط الذهب ، أطول من شبر .

فقال دون كيخوته : فيما يتعلّق بالتطابقات بين علامات الوجه وعلامات الجسم . لابد أن يكون لدلثنيا شيء مشابه على الفخذ في الجنب نفسه .

فقال سنشو : أؤكّد يا مولاي أنه ليشبه أن تكون قد ولدت فيها .

فقال دون كيخوته : وأنا أعتقد ذلك . ياصاحبي ، لأن الطبيعة لم تصنع في دلثنيا شيئاً ليس تاماً : ولهذا فإنه لو كان على جسمها مائة من العلامات التي تكلّمت عنها فإنها ستكون بمثابة نجوم ساطعة . لكن قل لي يا سنشو ، إن بدا لي برذعة هل كان سرجاً مستوياً أو سرج امرأة ؟

فقال سنشو : لقد كان سرجاًعربيّاً كسرج الفارس ، عليه لبّاد معسكر يساوي نصف مملكة ، لأنه كان وثيراً غنيّاً .

فقال دون كيخوته : إنّي لم أرَ شيئاً من هذا كلّه ياسنشو ، وأكرّر ذلك لك وسأقوله ألف مرة ، إنّي أشقى الناس .

ولكن سنشو الماكر وجد مشقّة في ضبط نفسه من الضحك وهو يسمع بلاهات مولاه الذي غرّر به تغريراً بارعاً ، وأخيراً ، وبعد كثير من الأحاديث الأخرى ، ركبا دابتيهما ، واتخذا طريق سرقسطة ، وقدّرا أنهما سيصلان في الوقت المناسب لحضور المباريات الرسمية التي تقام كل سنة في تلك المدينة المشهورة ، لكن قبل أن يصلا إليها ، وقعت لهما مغامرات عديدة ، عظيمة وجديدة ، تستحق أن تكتب وتقرأ ، كما سنرى .

الفصل الحادي عشر

في المغامرة الغريبة التي جرت للفارس دون كيخوته
مع عربة أو عربية «محاكم الموت»

سار دون كيخوته مفكّراً مشغولاً بالمكيدة التي دبّرها له السحرة بتحويل سيدته دلثنيا الى فلاحة كريهة ، ولم يتخيّل أي دواء يمكنه أن يستخدمه لإعادتها الى شكلها الأوّل ، واستغرقته هذه الأفكار الى حد أنه دون أن يدري ترك العنان لروثينانته ، فلمّا شعر هذا بحرّيته توقّف عند كل خطوة لرعي العشب الذي يغطّي هذه الحقول .

فأخرجه سنشو من هذه الأفكار قائلاً له : «مولاي ، الحزن للدواب ، لا لبني الإنسان : وإذا استسلم الناس تحوّلوا الى دواب . عد الى رشدك ، وأمسك بعنان روثينانته ، واستيقظ ، وانتبه ، واكشف عن تلك الفحولة التي تليق بالفرسان الجوّالة . ياللشيطان ما هذا ؟ لماذا هذا التخاذل ؟ هل نحن هنا أو في فرنسا ؟ وليذهب الشيطان بكل دلثنيات الدنيا! إن صحة فارس جوّال واحد أفضل من كل السحرة وكل التحولات في العالم .

فقال دون كيخوته بصوت حازم : اسكت ياسنشو ، اسكت ، أقول لك : لا تتفوّه بأية تجديفات ضد سيدتي المسحورة : أنا السبب الوحيد في بليّتها ومحنتها ، إنهما نشأتا عن الحسد الذي يحمله الأشرار ضدّي .

ـ أنا موافق ، يا مولاي على ما تقول : إذ هل يقدر المرء أن يكون قد رآها ثمّ يراها الآن دون أن يبكي ؟

ـ أنت في وسعك أن تقول هذا ياسنشو ، أنت ، لأنّك رأيتها في كمال جمالها ، والسحر لم يحجب عنك وجهها ولامفاتنها : فضدّي أنا وحدي وضد عيني تفعل قوة السحر . لكن ثمّ أمراً يحيّرني يا سنشو ، وهو أنّي أعتقد أنّك أسأت وصف جمالها : لقد قلت لي ، إن لم تخنّي الذاكرة ، إن عينيها كاللآلئ ، ولكن عيون اللآلئ هي عيون سمك أحرى من أن تكون عيون نساء . وأعتقد أن عيون دلثنيا لابد أن تكون من الزمرّد الأخضر الذي يعلوه

قوس قزح كحاجب . واللآلئ التي تتحدّث عنها يا سنشو لابد أنها هي أسنانها : فلا بدّ أنك حسبت أسنانها عيوناً .

فقال سنشو : هذا جائز جداً ، يامولاي ، لأن جمالها ربّكني كما ربّكك قبحها . لكن لنكل كل شيء الى الله ، الذي يعرف كل مايجري في هذه الدنيا ، وادي الدموع ، هذا العالم الشرّير الذي نحن فيه ، حيث لايوجد شيء غير ممزوج بالشر والخداع واللؤم . إن شيئاً واحداً يقلقني يامولاي أكثر من غيره ، وهو إذا حدث وقهرت مارداً أو أي فارس ، وأمرته بالذهاب للمثول أمام جمال السيدة دلثنيا ، ففي أي مكان هذا المارد المسكين أو ذلك الفارس الشقي سيجدها ؟ يبدو لي أنهما سيذرعان كل أرجاء مدينة توبوسو كالأغرار ، باحثين في كل موضع عن السيدة دلثنيا ، وإذا وجداها في عرض الشارع فلن يتعرّفاها كما لن يتعرّفها أبي .

فقال دون كيخوته : ربّما لم يمتد الإنسحار ياسنشو الى حد انتزاع معرفة دلثنيا من المردة والفرسان المقهورين الذين سيمثلون أمامها . وسنجري التجربة مع أوّل اثنين أو ثلاثة أقهرهم ، لنرى هل سيجدونها أم لا ؛ وسأوصيهم بأن يعودوا إليّ ، ليرووا لي ماسيحدث لهم .

فقال سنشو : فكرتك تبدو لي جيّدة ، يا مولاي ؛ وسنعرف بهذا مانريد أن نعرفه ، وإن كان جمال السيدة دلثنيا محجوباً عنك وحدك فإن البلية ستكون بليّتك أنت أولى من أن تكون بليّتها هي ؛ وبينما تكون هي في حبور وصحة ، نكون نحن مشغولين بالبحث عن المغامرات ، تاركين للزمن أن يفعل فعله ، لأنه أحسن دواء لكل هذه العلل ولما هو أشدّ منها .

وكان دون كيخوته على وشك الرد على سنشو ولكن حال بينه وبين ذلك عربة تجتاز الطريق ، وعليها أغرب أشكال وأشخاص يمكن تخيّلها ، وكان من يقود البغال ويقوم بمهمة السوّاق يمثّل جنّياً شرّيراً ، وكانت العربة مفتوحة بغير سقف .

وأوّل شكل تبدّى لعيني دون كيخوته كان شكل الموت نفسه بوجه بشري ، وبالقرب منه ملاك له أجنحة كبيرة مرسومة ، وفي الجانب الآخر يشاهد امبراطوراً يحمل على رأسه تاجاً من الذهب . وعلى جانب الموت كان الإله كوبيدون ، بغير رباط على عينيه ، ومعه قوسه ، وجعبته وسهامه .

وشوهد بعد ذلك فارس مسلّح من رأسه حتّى أخمص قدميه ، لكنه بدلاً من أن يحمل على رأسه خوذة كان يلبس قبّعة مزيّنة بالريش المتعدّد الألوان وشوهد أشخاص

آخرون بأزياء مختلفة . هذا المنظر المفاجئ أشاع الاضطراب في نفس دون كيخوته ، والذعر في سنشو ، ثم أفاق بسرعة وظن أنه أمام مغامرة خطرة جديدة . وبناء على هذه الفكرة ، وقف أمام العربة مستعداً لمجابهة الأخطار ، وبصوت عالٍ مهدّد صاح : «عربجي ، سوّاق ، شيطان ، أو أيّاً من كنت ، قل لي بسرعة من أنت ، والى أين ، هؤلاء الناس الذين تحملهم في العربة التي تشبه زورق خارون أكثر من أن تشبه العربات المعتادة» .

فأجاب الشيطان بصوت رقيق ، وهو يقف بالعربة : نحن يا سيّدي ممثّلون كوميديّون في فرقة أنجولو الرديء[١] . وهذا الصباح هو الثامن من عيد الله ، كنّا في القرية التي هي وراء هذه الرابية لتمثيل مسرحية «محاكم الموت» ، وعلينا أن نمثّلها أيضاً هذا المساء ، في قرية أخرى قريبة من هنا . ولمّا كانت قريبة جداً ، فلتجنّب عناء خلع ثم لبس ملابسنا ، فإننا نسير لابسين الملابس التي نستخدمها أثناء التمثيل ، وهذا الشاب الذي تراه يمثّل الموت ، وهذا الأخير يمثّل ملاكاً ، وهذه السيدة ، وهي زوجة المدير ، تقوم بدور الملكة ، وهذا يمثّل الجندي ، وذلك يمثّل الامبراطور ، وأنا أمثّل الشيطان ، أحد الممثلين الرئيسيّين في المسرحية ؛ وأنا الذي أفتتح التمثيل . فإن شئت سيادتك السؤال عن أي شيء آخر ، فاسأل وسأجيبك بكل دقة : لأنّي لمّا كنت الشيطان فأنا لا أجهل شيئاً .

فقال دون كيخوته : قسماً بشرف الفارس الجوّال أنّي حين رأيت هذه العربة ظننت أنني أمام مغامرة عظيمة ، وهاأنذا أرى الآن أنه ينبغي مس الظواهر بطرف البنان ، إذا شاء ألا يخدع . اذهبوا في سلام ، أيها الناس الطيبون ، احتفلوا بعيدكم ، وقولوا هل استطيع أن أفيدكم في شيء ؛ فإني على استعداد لتقديم أية خدمة عن طيب خاطر . منذ نعومة أظافري كنت أحبّ المساخر ، وكانت الملهاة (الكوميديا) هوايتي المفضّلة .

وبينما كانا يتناقشان على هذا النحو شاء القدر أن يقترب منهما ممثّل كوميدي يلبس لباس مهرّج ، ويدق شخاشيخه ويحمل على طرف عصا ثلاث أنابيب[٢] منفوخة . ولمّا اقترب من دون كيخوته أخذ هذا الشخص الغريب يتلاعب بعصاه ، ويضرب الأرض

---

(١) مدير فرقة تمثيلية متجولة ، كان يلقب بهذا اللقب لتمييزه من ممثل له نفس الاسم ولكنه ممثل جيد . وكانت «الأسرار» (التمثيليات الدينية) التي تمثّل ، خصوصاً في عيد الله وفي الثمانية منها ، يجري تمثيلها في المسارح والشوارع والميادين العامة ، والكنائس ، وحتى أمام المجلس الأعلى للتحقيق (التفتيش) . ومالبثت أن تحوّلت الى تمثيليّات فاجرة فاضحة .

(٢) مثانات بقر منفوخة .

بأنابيبه ، ويثب عدة وثبات على ضجة شخاشيخه . وهذا المنظر الشاذ أخاف الفرس روثينانته حتى أنه بالرغم من مجهودات دون كيخوته للإمساك به ،. أخذ اللجام بأسنانه وراح يعدو في السهل ، بسرعة أكبر مما ينتظر من هذا الهيكل العظمي . فلمّا رأى سنشو ما فيه مولاه من خطر أن يهوى من الفرس على الأرض ، نزل عن حماره ، وعدا بكل قوته لمساعدته ، لكنه حين وصل كان دون كيخوته مجندلاً على التراب ، بجوار روثينانته ، الذي جرّه في كبوته : وهي نتيجة معتادة من ألاعيب روثينانته . ولم يكد سنشو يترك حماره حتّى ركبه الرجل صاحب الأنابيب ، وضربه بها بشدّة ، حتّى أن الضجة والخوف أكثر من ألم الضربات ، هيّجت الحمار وجعلته يطير في السهل ، ناحية المكان الذي سيجري فيه الإحتفال بالعيد . ونظر سنشو الى عدو حماره وسقوط مولاه ، ولم يدرِ أي هذين الشرّين يبدأ بالعلاج ، لكنه بوصفه سائساً جيّداً ، وخادماً مهذّباً ، تغلّب حبّه لسيّده على عطفه على حماره ، وإن كان في كل مرة يشاهد فيها الأنابيب تعلو وتهوي على مؤخّر الحمار كان يحس بضربات خنجر تشق صدره هو : وكان يفضّل أن يتلقّى هذه اللكمات على إنسان عينه من أن يراها تسقط على أدنى شعرة في ذيل حماره . وفي هذا الارتباك البالغ ، اقترب من دون كيخوته فوجده في حال أسوأ مما ظن ، وساعده على الركوب روثينانته ، وقال له : مولاي! إن الشيطان ولّى بالحمار . ـ أي شيطان ؟ الشيطان صاحب الأنابيب . ـ فأجاب دون كيخوته : سأعثر عليه ، حتّى لو اختبأ في أعمق عمائق هوى الجحيم . اتبعني فقط : إن العربة تسير ببطء ، والبغال تعوّض مكان الحمار الضائع . ـ فقال سنشو : لا حاجة بك أن تحمل هذا العناء ، هدىء من ثورة غضبك ، يبدو لي أن الشيطان ترك الحمار : وها هو ذا الحمار يعود .

وكان مايقوله صحيحاً : فقد كبا الحمار والشيطان عليه ، ليحاكيا كبوة روثينانته ودون كيخوته ، فمضى الشيطان على قدميه ، وعاد الحمار الى صاحبه فقال دون كيخوته : « ومع ذلك فمن المستحيل معاقبة وقاحة هذا الجنّي في شخص أحد رجال العربة ، حتّى لو كان الامبراطور نفسه » .

فقال سنشو : دعك من هذه الفكرة ، يامولاي ، واتبع رأيي : ينبغي عدم مهاجمة المهرّجين أبداً ، لأن لهؤلاء أصدقاء في كل مكان . ولقد شاهدت ممثّلاً هزليّاً ، يوضع في السجن بسبب جنايتي قتل ارتكبهما : فأخرج من السجن دون أن يصيبه شيء . لأنهم قوم يوفرون المسرة ، ويفرحون الناس ، ولهذا فإن الناس جميعاً تحابيهم ، وتساندهم ، وتساعدهم وتقدّرهم ، خصوصاً الفرق الملكية الرسمية وهؤلاء يعيشون عيشة الأمراء .

فأجابه دون كيخوته : لايهم ، فأنا لاأريد أن يفخر هذا المهرّج الشيطان بأنه أفلت منّي ، حتّى لو كان مسنوداً من الجنس البشري كلّه .

وماقال هذه الكلمات حتّى ركض وراء العربة ، وكانت بالقرب من القرية ، وصاح بكل قوّة : قفوا يافرقة التهريج والتفريح ، أريد أن أعلمكم كيف تعامل الحمير وسائر الحيوانات التي يركبها سوّاس الفرسان الجوّالة .

وكانت صيحات دون كيخوته عالية جداً بحيث سمعها أصحاب العربة ، فحكموا على نيّتة من كلماته ، فقرّروا قرارهم : نزل «الموت» أوّلاً من العربة ، تلاه الامبراطور ، ثمّ السائق الشيطان ، ثمّ الملاك ، والملكة والإله كوبيدون ، وكلّهم جمعوا حجارة وحصى واصطفّوا للمعركة مستعدّين لاستقبال دون كيخوته بوابل من الحصى والحجارة . فلمّا شاهدهم دون كيخوته يؤلّفون على هذا النحو كتيبة جريئة ، والأذرع مرفوعة ومتأهّبة لكي تصب على رأسه وابلاً من الحجارة ، شدّ عنان روثينانته ، وأخذ يفكّر في الكيفية التي بها يستطيع أن يهاجمهم بأقل خطر . وفي هذه اللحظة وصل سنشو ، فلمّا أبصر مولاه مستعداً لمهاجمة كتيبة مصفوفة هذا التصفيف قال له : «مولاي! من الجنون المطبق أن تحاول هذه المغامرة . وتأمّل أنه لايوجد ضد هذا الوابل من الحصى أي سلاح دفاعي غير الإختباء تحت ناقوس من البرونز ، ثم أليس من التهوّر لا من الشجاعة أن يهاجم رجل بمفرده جيشاً فيه الموت ، ويحارب فيه أباطرة بأشخاصهم ، يعاونهم ملائكة أخيار وأشرار ؟ فإن كان هذا الإعتبار لا يهمّك ولا يؤثّر فيك ، لاحظ أنه بين كل هؤلاء الناس الذين تراهم ، وإن بدوا ملوكاً أو أباطرة أو أمراء ، لايوجد فارس جوّال واحد » .

فقال دون كيخوته : ياسنشو! لقد مسست النقطة التي ستجعلني أعدل عن قراري ، إذ لايجب ولايمكن أن أسحب سيفي على من لم يسلّحوا فرساناً ، كما قلت لك من قبل مائة مرة . بل عليك أنت ياسنشو إذا شئت ، أن تنتقم للإهانة التي لحقت حمارك ، وسأشجعك وأنا واقف هنا بالكلمات ، وأساعدك بالنصائح الشافية .

فقال سنشو : لا حاجة يا مولاي للانتقام من أحد . وليس يليق بالمسيحي الصالح أن يحمل قلبه غلاً بسبب الإهانة ، وسأعمل على أن يضع حماري إهانته بين يدي إرادتي ، وإرادتي هي أن أعيش بسلام طوال الزمان الذي تتفضّل عليّ السماء بأن أحياه .

فقال دون كيخوته : مادام هذا عزمك ياسنشو الطيّب ، ياسنشو ياعاقل ، يا سنشو يا أمين يا صريح ، يا سنشو يا مسيحي يا ورع ، فلنترك إذن هذه الأشباح ، ولنمض في سبيلنا سعياً وراء مغامرات أفضل وأنبل لأنّي أرى أنه لن تعوزنا أمثالها بل وأروع في هذا الإقليم .

وفي الحال أدار العنان ، واستردّ سنشو حماره ، وركب «الموت» وكل كتيبته في العربة من جديد وتابع رحلته . وبذلك كانت الخاتمة السعيدة للمغامرات الخطرة ، مغامرة عربة الموت .والفضل والشكر للنصيحة السليمة التي أسداها سنشو الى مولاه الذي جرت له في اليوم التالي مغامرة أخرى مع فارس عاشق وجوّال ، مغامرة لاتقل روعة عن هذه .

الفصل الثاني عشر

في المغامرة الغريبة التي خاضها الفارس دون كيخوته مع فارس المرايا الهمام

والليلة التي تلت اللقاء «بالموت» قضاها دون كيخوته وسنشو تحت أشجار باسقة متشابكة ، وبناء على نصيحة سنشو أكل الفارس من الزاد الذي كان يحمله الحمار . وقال سنشو وهو يأكل : «أعترف يا مولاي ، بأنني كنت سأكون مغفّلاً كبيراً لو أنني قبلت كمكافأة لي غنائم مغامرتك الأولى ، بدلاً من الأمهار التي ستلدها أفراسك الثلاث . والواقع أن عصفوراً في اليد خيراً من رخم يطير» .

فقال دون كيخوته : «ومع ذلك فلو أنك تركتني أفعل ماكنت أريد لكن نصيبك من الغنائم على الأقل تاج الامبراطور الذهبي ، وأجنحة كوبيدون المرسومة ، التي كنت سأحطّمها بعكس ريشها وأضعها بين يديك» .

فقال سنشو : «لم يحدث أبداً أن كانت صولجانات وتيجان أباطرة التمثيل المسرحي من الذهب الخالص ، بل هي من الورق أو رقائق المعدن المذهب» .

فقال دون كيخوته : هذا صحيح ، فإن تزيينات الكوميديا ليست في العادة دقيقة ، بل هي مزيّفة وظاهرية ، مثل الكوميديا ، وكذلك من يمثّلونها ومن يؤلفونها . فهم جميعاً ذوو فائدة كبرى في الدولة ، لأنهم يقدّمون لنا تحت أبصارنا مرآة ترتسم فيها كل أفعال الحياة الإنسانية ، ولاتستطيع أية لوحة أن تصوّر لنا على نحو أبرز وأكثر حيوية مانحن عليه ، ومايبنغي أن نكون عليه ، أفضل من الكوميديا والممثلين الهزليّين . قل لي ، ألم تر أبداً تمثيل كوميديّات تدخّل فيها الملوك ، والأباطرة ، والبابوات ، والفرسان ، والسيارات وشخصيّات أخرى ؟ واحد يلعب دور المتنفّج (الفشار) ، والآخر دورالمنافق ، وهذا دور التاجر ، وذاك دور الجندي ، وثالث دور رجل حكيم ورابع لدورعاشق ـ حتّى إذا انتهى تمثيل الكوميدية ، وخلع الممثّلون ملابسهم ، ألا يصير كل الممثّلين متساوين ؟

فقال سنشو : نعم ، رأيت هذا .

فقال دون كيخوته : والأمر كذلك بالنسبة الى كوميديا هذا العالم ، البعض يعملون أباطرة ، والبعض الآخر بابوات ، وما إلى هذا من شخصيّات تدخل في الكوميديا ، وحين نصل الى النهاية ، وهي حين تنتهي الحياة ، يجرّدهم الموت من كل الأزياء التي تميّزهم ، ويعتبر الكل متساوين في القبر .

فقال سنشو : تشبيه جميل ، غير أنه ليس جديداً لأنّي سمعته من قبل عدة مرّات ، وكذلك تشبيه لعبة الشطرنج حيث تكون لكل قطعة وظيفتها طالما استمر اللعب ، لكن إذا انتهى ، اختلطت كل القطع وتجمّعت بغير ترتيب في صندوق ، مثل الأجسام في القبر .

فقال دون كيخوته : ياسنشو ، أنت في كل يوم تقل سذاجة وتزداد حكمة .

فأجاب سنشو : ليس بعجب أن أقتبس شيئاً من حكمتك . إن الأراضي التي بنفسها تكون جافة عقيمة تنتج ثماراً طيبة ، حين تسمّد وتزرع . أقصد أن أقول يا مولاي أن حديثك كان بمثابة سماد وضع في الأرض العقيمة لذهني ، والزراعة هي الزمن الذي مرّ منذ أن قمت بخدمتك واتصلت بك ، وآمل أن أنتج ثماراً مباركة لن تكون غير جديرة ، ولن تبتعد عن التربية الصالحة التي لقّنتها لعقلي .

فأخذ دون كيخوته في الضحك من العبارات المتحذلقة التي استخدمها سنشو ، وإن كان ماقاله عن تقدّمه بدا له صحيحاً : لأن سنشو كان يتكلّم أحياناً كلاماً يثير الإعجاب في نفس مولاه ، لكن حين كان هذا الرجل الساذج يريد أن يتكلّم بلغة منمّقة ، أو على طريقة البلاط ، كان يهوي من علياء سذاجته الى هاوية جهله . وكان أشد الأمور إظهاراً لذاكرته أناقته ، هو حين كان يتفوّه بالأمثال ، سواء كانت مناسبة لمقتضى الحال أو غير مناسبة ، كما يمكن ملاحظة ذلك خلال هذا التاريخ .

وأمضيا شطراً من الليل في مثل هذه الأحاديث ، وأخيراً شعر سنشو بالحاجة الى إسدال ستائر عينيه ، كما اعتاد أن يقول حين يريد أن ينام فأنزل البرذعة عن ظهر حماره ، وتركه يرعى في حرّية ، أمّا روثيناته فلم يخلع سرجه ، لأن مولاه منع ذلك صراحة حين يقضيان الليل في الخلاء ولا ينامان تحت سقف : وهذه عادة قديمة ، مقرّرة ، محفوظة بين الفرسان الجوّالة ، يخلع اللجام ويربط في قربوس السرج ، أمّا السرج فلم يكن يخلع . والتزم سنشو بهذا العرف ، ثمّ أطلق روثيناته . ثمّ أن الصداقة بين هذين الحيوانين كانت كبيرة ، فريدة حتّى أن نقلاً متوارثاً من الأب الى الأبن يروي أن مؤلّف هذا التاريخ الحقيقي خصّص لها فصولاً : لكن من أجل الإحتفاظ بالتزويق المناسب لتاريخ بطولي ، لم يولجها فيه . ولكنه أحياناً

ينحرف عن موضوعه ليقول لنا إنه حين كان هذان الحيوانان يلتقيان معاً كان يلذ لكلٍّ منهما أن يحك الآخر ، وإذا أشبعا هذه الحاجة تعانق عنقاهما بخلاف ، وكان طول عنق روثينانته يجعل عنقه يمتد الى أكثر من نصف ذراع في الجانب الآخر ، ويظل كلاهما في هذا الوضع وعيونهما تحدّق في الأرض ، طوال ثلاثة أيّام أو على الأقل طوال المدة التي يسمح لهما بها ، إلا إذا أرغمها الجوع على الذهاب للرعي . وهم يؤكّدون أيضاً أن المؤلّف قارن صداقة هذين الحيوانين[1] بصداقة : نيوس وأوريال ، أو فولادس وأروسطس ، وهذا يدل على متانة الرابطة التي جمعت بين هاتين الركوبتين ، ومثل هذا يندى له جبين الناس الذين قليلاً ما يوفّون بالعهد ، ومن هنا نشأ هذا المثل : لاصديق لصديق ، اليراع يصبح[2] رماحاً ، بين الصديق والصديق ما بين الإبهام والإذن . ولايحسبن أحد المؤلّف قد حاد عن طريقه حين قارن بين صداقة الحيوانات وصداقة الناس ذلك أننا تلقّينا من الحيوانات كثيراً من التنبيهات وتعلّمنا كثيراً من الأمور المهمّة : فالبلشون علّمنا الحقن الشرجية ، والكلب علّمنا المقيئات والاستكشاف ، والكراكي : اليقظة ، والنمل ، التدبير السابق ، والفيلة ، الحياء ، والفرس ، الإخلاص ، وأخيراً نعس سنشو عند جذر شجرة فلّين ودون كيخوته تحت سنديانة باسقة .

لكن بعد فترة قصيرة استيقظ دون كيخوته على ضجّة سمعها وراءه فنهض واثباً ، وتلفّت ، وتسمّع من حيث تأتي الضجّة ، فأبصر ، في الظلام الليل ، رجلين راكبين على فرسين ، وأحدهما وهو ينزل يقول للآخر : «انزل ياصاحبي ، واخلع اللجام من الفرسين ، إن هذا المكان يبدو لي غنيّاً بالعشب لهما ، وبالصمت والوحدة المناسبين للخواطر الغرامية» .

وأتمّ الكلمات لمّا نزل الى الأرض ، وأحدث سلاحه ضجّة كبيرة ، وهو أمر لم يدع أي شك في أنّ هذا الرجل فارس جوّال . فاقترب من سنشو وكان نائماً ، وشدّه من ذراعه ، ولم يتعب في إيقاظه ، وقال له بصوت خفيض : «ياأخي سنشو ، أمامنا مغامرة ـ فأجاب سنشو : الله يجعلها جيدة ، وأين هذه السيدة المغامرة ؟ ـ أين ، سنشو ؟ أدر عينيك ، وانظر ، ترَ هناك فارساً جوّالاً يبدو لي أنه ليس مسروراً جدّاً ، لأنه انزلق حزيناً الى الأرض ، وفي سقوطه أحدث سلاحه ضجّة . ـ هل هذا إذن ماتسمّيه مغامرة ؟ ـ لاأقصد أن أقول لك

---

(١) نيسوس هو ملك نيغارا ، كانت في رأسه شعرة من البرفير قال الوحي أن عليها تتوقّف المحافظة على ملكه . وكانت له بنت تدعى سقولا عشقت مينوس الذي جاء وحاصر ميغارا ، وإذا بسقولا تقطع شعرة أبيها وتحملها الى مينوس ، مما مكّن هذا من الاستيلاء على المدينة ، لكنه ازدرى حب سقولا وربطها في سارية سفينته . وحوّل الإله نيسوس الى باشق ، وابنته الى قبرة .
وقد تغنّى فرجيل في «الالياذة» (الكتابان الخامس والسادس) بالصداقة الحميمة بين نيسوس وأربال ، ويظهر أنهما خرافيّان .

(٢) هذان المثلان بيتان من رومانثة ألّفها خينس دي هيتا ، ووردت في «حروب غرناطة» تأليف خينس دي هيتا (الفصل السادس) .

إنها مغامرة كاملة ، بل بداية مغامرة ، لأن المغامرات تبدا هكذا . لكن اسمع! اعتقد انه يسوي عوداً أو قيثارة وأنه يسعل استعداداً للغناء . ـ لابدّ أنه فارس عاشق . ـ لايوجد فارس جوال واحد ليس عاشقاً ، لكن لنرع السمع ، فلربّما أمسكنا بخيط أفكاره : إن اللسان يتكلّم من فيض القلب» . وأراد سنشو أن يجيب ، ولكن صوت فارس الأيكة ، ولم يكن بالصوت الجميل ولا الرديء ، أوقفه فأصغيا وسمعا غناء هذه السوناتة :

أعطني يا سيّدة
أي درب تتبعين
إن أمري طوع أمرك
عن هواك لن يحيد

وإذا شئت أموت ،
مسكتاً كل عذابي ،
فاحسبيني الآن مت
وإذا شئت العبارة
عن غرامي بالجديد
أترك الحب يعبر

في اختبارات التضاد
أنا من شمع طري
ومن الماس الصليب
بيد أنّي أخضع الـ
ـنفس لقانون الغرام

وسواء كان رخواً
مثل شمعٍ أو كماس
هاك قلبي فخذيه
اطبعي فيه انقشي ما
شئتِ ، أحفظه للأبد

وختم فارس الأيكة أغنيتة بزفرة عميقة بدا أنه يخرجها من اعماق قلبه ، وبصوت ضعيف نائح شاكٍ صاح : « يا أجمل النساء وأشدّهن جحوداً ، ياكسلديه دي وندليا! أمن الممكن أن توافقي على أن يستهلك نفسه فارسك وعبدك ، في أعمال شاقة ، ورحلات مستمرة ؟ألم يكفك أنني أرغمت كل فرسان نبرة ، وليون ، والأندلس ، وقشتالة ، وأخيراً كل فرسان المنتشا على الإقرار بأنك أجمل النساء ؟ » ـ» أوه أمّا هذا فلا! هكذا صاح دون كيخوته ، إنّي أنا من إقليم المنتشا ، ولم أقرّ بشيء من ذلك ، وماكان لي أبداً أن أقر بشيء يسيء الى جمال سيّدتي . ها أنت ذا ترى ياسنشو أن هذا الفارس يحلم . ومع ذلك فلنصغ : ربّما عرفنا أمره على نحوٍ أدق . ـ فأجاب سنشو : لاشكّ ، لأنه يبدو عليه أنه يريد أن يتشكّى طوال شهر كامل » .

ومع ذلك فلم يحدث هذا ، لأن فارس الأيكة وقد خيّل اليه أنه يجري كلامه حوله ، نهض على قدميه ، وسأل ، بصوت جهوري رزين : « من هناك ؟ من أنت ؟ أواحد من السعداء أو البائسين ؟! » فأجاب دون كيخوته « من البائسين » . فقال فارس الأيكة : « اقترب إذن ، واعلم أنك لاقيت الحزن بشخصه » . فلمّا رأى دون كيخوته أدب هذه الدعوة اقترب ، وكذلك فعل سنشو . فقال الفارس البائس لدون كيخوته ، وهو يمسك بذراعه : « اجلس ياسيدي . لمعرفة أنك من أولئك الذين يمتهنون مهنة الفروسية الجوّالة يكفيني أن ألقاك في هذا المكان ، في صحبة الوحدة والسكون وهما المقام المعتاد للفرسان الجوّالة » . فقال دون كيخوته : « أنا فارس من النوع الذي تتكلّم عنه ، وعلى الرغم من أن الحزن ، والبلايا والمحن تملأ نفسي ، فإنها ليست مغلقة دون الرحمة التي تثيرها مصائب الآخرين : وتبعاً لما استنتجته من أغانيك فإن آلامك غرامية ، أعني أنها صادرة من غرامك بالجميلة الجاحدة التي ذكرتها في شكاواك » .

وكان الحديث يجري بينهما هكذا وهما جالسان الى جوار بعض على الأرض ، في تفاهم جميل ، دون أن يقدرا أنه حين ينقشع الظلام سيكسر كل منهما رأس الآخر . وقال فارس الأيكة لدون كيخوته : « هل أنت ياسيدي الفارس عاشق ؟ » فأجاب دون كيخوته : « نعم ، لشقاوتي ، وإن كانت البلايا الصادرة عن العواطف النبيلة ينبغي أن تعد نعماً لا نقماً » .

فقال الآخر : « هذا سيكون صحيحاً لو أنّ ازدراء جميلاتنا لا يضيّع العقل وملكة الحكم بحيث يبدو لنا كانتقام » . فقال دون كيخوته : « أنا لم أشعر بأي ازدراء من جانب سيدتي لي » . فقاطعه سنشو قائلاً ، وكان هناك : « أبداً هذه السيدة رقيقة كالحمارة ، طريّة كالزبدة » .

فقال فارس الأيكة : «هل هذا الرجل سائسك ؟ » فأجاب دون كيخوته : «نعم ياسيدي! » فقال فارس الأيكة : «لم أشاهد أبداً سائساً يسمح لنفسه بالتكلّم حين يتكلّم مولاه . ها هو ذا سائسي وهو كبير مثل الأب والأم ، وأتحدّى أن يبرهن أحد على أنه فتح فمه حين كنت أتكلّم» .

فقال سنشو : «نعم ، أنا تكلّمت ، وأستطيع أن أتكلّم أمام شخص آخر... ولاأقول أكثر من هذا ، لأن كلامي سيكون أسوأ» .

وفي اللحظة نفسها أمسك سائس فارس الأيكة من ذراعه وقال له : «لنذهب الى مكان نستطيع فيه أن نتناجى ودّياً بكل ما يخطر ببالنا ، ولندع السادة يناقشون وهما يرويان أخبار غرامياتهما كل للآخر . وأنا متأكّد أن النهار سيطلع عليهما قبل أن ينتهيا» . فقال سنشو : «موافق وسأقول لك من أنا ، وسترى ما إذا كنت جديراً بأن أسلك في عداد السوّاس الكثيري الكلام» . ثمّ ابتعدا قليلاً ، وبعد قليل جرت بينهما محادثة هازلة بقدر ماكانت محادثة سيديهما جادة .

الفصل الثالث عشر

تلاوة مغامرة فارس الأيكة، والحوار الجديد الحكيم السار الذي جرى بين السائسَين

انفصل السائسان عن الفارسين : الأولان يرويان لبعضهما قصة حياتهما ، والآخران يقصّان حكاية غرامهما . وهذا التاريخ يورد أوّلاً حديث الخادمين ، ثمّ ينتقل الى حديث السيّدين ، فيقول أنه لمّا انتحى السائسان ناحية ، قال سائس فارس الأيكة لسنشو :

ـ الحق ياسيدي أن الحياة التي نحياها ، نحن سواس الفرسان الجوّالة ، حياة شاقة مؤلمة ، ونحن نأكل خبزنا من عرق جبيننا ، وهذه إحدى النقم التي فرضها الله على أبوينا الأوّلين .

فقال سنشو : ونستطيع أن نقول أيضاً إننا نأكله من برود جسمنا ، لأنه من ذا الذي يتحمّل القيظ والبرد أكثر من السوّاس البائسين للفرسان الجوّالة ؟ ولو كان يصيبنا ما يكفي من الخبز لهان الخطب ، لأن الخبز يخفّف الألم ، لكن قد يمضي اليوم واليومان دون أن نتغذّى بغير الريح التي تهب .

فقال الآخر : على كل حال كل هذا يمكن تحمّله على أمل المكافأة ، لأنه اللهم إلا إذا كان الفارس الجوّال أتعس الناس حظاً ، فإن السائس الذي يخدمه يمكن أن يأمل في الحصول ، بعد فترة وجيزة ، على حكومة طيبة لجزيرة ما ، أو كونتيسة جميلة .

فأجابه سنشو : أمّا عن نفسي فقد قلت لمولاي أنني قانع بجزيرة ، وهو من النبل والكرم بحيث وعدني بها عدّة مرّات .

فقال السائس الأخير : أنا ترضيني[1] كاهنية نظير خدماتي ، ومولاي قد سبق ومنحني إيّاها .

---

(١) أي لقب « كاهن » .

فقال سنشو : مولاك إذن فارس كنسي بحيث يستطيع أن يمنح مثل هذه المكافآت للسوّاس الممتازين ؟ أمّا فارسي أنا فعلماني خالص . وأذكر أن بعض العقلاء ، ولكن في نظري سيئو النية ، نصحوه بأن يصير مطراناً لكنه رفض ، لأنه أراد أن يصير امبراطوراً ، وكنت أرتعد خوفاً من أن يقبل منصباً دينياً ، لأني لم أستشعر في نفسي القدرةعلى شغل وظيفة دينية ، إذ على الرغم من أني أبدو إنساناً فإني دابة فيما يتعلّق بالأمور الكنسية .

فأجابه سائس فارس الأيكة : ربّما أنت مخدوع ، إذ ليست كل حكومات الجزر من نوع جيد ، فمنها ماهي ملتوية ، معوجّة ، فقيرة ، محزنة ، وأحسنها تنظيماً تجر معها حملاً ثقيلاً من الهموم والمتاعب التي يحملها على عاتقه الحاكم البائس . إن الأفضل لنا ، معشر اللذين نقوم بهذه الخدمة اللعينة ، أن ننزوي في عقر دورنا ونقوم بأعمال أرحم ، مثل الصيد والقنص : ومن هو السائس الذي بلغ به الفقر حداً لا يكون عنده مهر وزوج من الكلاب السلوقية وسنارة للصيد وإزجاء الوقت في البيت ؟

فأجاب سنشو : لا ينقصني شيء من هذا ، صحيح أنه ليس عندي مهر ، ولكن عندي حماراً يساوي ضعف ثمن فرس مولاي : وليعكّر الله صفو أيّام فصحي المقبلة لو أبدلت فرسه بحماري ولو أعطاني علاوة على ذلك أربعة مكاييل من الشعير : ولو حدّثتك عن كل ميزات حماري ، لحسبتني أسخر . وأنا أسمّيه «الرمادي» لأن شعره رمادي اللون ، أمّا الكلاب السلوقية فلا تعوزني ، ففي قريتنا منها ، والقنص يكون أكبر كلّما كان على حساب الغير .

فقال سائس فارس الأيكة : الحق يا سيدي السائس ، اعترف لك أنني قرّرت أن أترك كل حماقات الفروسية هذه ، وأن أعود الى قريتي لتربية أولادي الثلاثة ، هم لطاف مثل ثلاث لآلئ شرقية .

فقال سنشو : وأنا عندي ولدان ، يمكن تقديمهما الى البابا نفسه بشخصه وخصوصاً عندي بنت أربّيها لتصبح كونتيسة إن شاء الله ، رغم معارضة أمها الشديدة .

- وماعمر هذه الفتاة التي تربّيها لتصبح كونتيسة ؟

- خمس عشرة سنة تقريباً ، فارعة القوام كالرمح ، نضرة كالصباح في شهر أبريل ، وقوية البنية كالجمال .

- هذه الصفات تصلح ليس فقط لأن تكون بها كونتيسة ، بل وأيضاً حورية في خميلة خضراء . يالها من مضحكة! أي كف كفّها هذه القحبة!

فقال سنشو في حدّة : ها! إنها ليست مضحكة ولا قحبة ، لا هي ولا أمها ، ولن تكون

واحدة منهما كذلك طالما كنت حياً . تكلّم بأدب ، إن كلامك لايليق بمن تربّى بين الفرسان الجوالة وهم قوم في غاية الأدب .

فأجابه فارس سائس الأيكة : أوه! كم أنت تسيء فهم المدح! كيف ألا تعرف أنه حين يضرب الراكب الثور بضربة رمح قوية في الحلبة ، أو إذا فعل أحد الناس عملاً عظيماً ، فإن من عادة العامة أن يصيحوا : آه يا ابن القحبة! والله شاطر! حتى أن مايبدو أنه شتيمة يصبح مدحاً عظيماً ، وعيك أن تبرأ من أولادك وبناتك إن لم يفعلوا شيئاً يستحق من أجله أبوهم مثل هذه المدائح!

فأجاب سنشو : نعم أتبرأ منهم ، وبهذه الطريقة تستطيع ياسيّدي أن تفرض على زوجتي وأولادي كل قحابة الدنيا ، لأنهم لايصنعون شيئاً غير جدير الى أقصى حد بمثل هذه المدائح . لكنّي ، لكي أستطيع أن أعود اليهم ، فإني أدعو الله أن ينقذني من الخطيئة الكبيرة ، أو بعبارة أخرى ، من هذه الحالة الخطرة ، مهنة السائس ، التي عدت إليها جذعاً ، تحت إغراء كيس فيه مائة دوقة وجدته بين صخور سيرا مورينا (جبل الشارات) . ومنذ هذه اللحظة والشيطان يلقي أمام عيوني ، هنا ، وهناك ، وفي كل مكان ، بكيس مليء بالنقود ، أتخيّل في كل خطوة أني أمسك به بين يدي ، فأحتضنه ، وأحمله الى بيتي ، وأشتري ضيعة ، ويدخل لي منها ريع ، وأعيش عيشة الأمراء ، وحين أفكّر في هذا تسهل عليّ الآلام التي عليّ أن أتحمّلها مع مولاي المجنون ، الذي حظّه من الجنون أكبر من حظه من الفروسية .

فقال فارس سائس الأيكة : ولهذا يقال أن الجشع يقطع الكيس . لكن إذا شئت أن تتكلّم عن المجانين ، فأنا أعتقد أنه لايوجد في العالم مجنون أعظم جنوناً من سيّدي أنا ، لأنه من أولئك الذين يقال عنهم أن الهموم من أجل الغير تقتل الحمار ؛ فإنه من أجل أن يشفي فارساً آخر فقد العقل ، عمل مجنوناً هو نفسه ، ومضى يبحث عمّا ربما لن يجده حسناً حين يجده فعلاً .

فسأله سنشو : أيكون عاشقاً ؟

ـ نعم ، إنه يعشق فتاة تدعى كسلديا دي ونداليا ، وهي أشد سيدات العالم تكبّراً وقسوة . ومع ذلك فإن هذا ليس أشد مايؤلمه : بل في رأسه نزعات أخرى ، كما ستعرف بعد قليل .

فقال سنشو : لا يوجد طريق معبّد إلا وفيه موضع عثرة . في بيوت أخرى يطبخ الفول ، وفي بيتنا يحترق ، وأتباع الجنون أكبر من أتباع العقل لكن إذا صح مايقال من أن الصحبة

في المتاعب تجلب العزاء ، فإنّي أستطيع أن أعزّي نفسي مع سيادتك ، لأنك تخدم سيداً مجنوناً مثل سيدي .

فأجاب سائس فارس الأيكة : هو مجنون ، ولكن شجاع ، وشرّير أكثر منه شجاع ومجنون .

فقال سنشو : سيدي أنا ليس كذلك : ليس فيه أي شر ، وقلبه مفتوح ، ولايستطيع أن يؤذي أحداً ، بل على العكس يفعل الخير لجميع الناس ، وليس فيه أي خبث ، بل يمكن طفلاً أن يجعله يعتقد في رائعة النهار أن الوقت ليل . وهذه السذاجة تجعلني أحبه كإنسان عيني ، ورغم كل تهويلاته فإنّي لا أقوى على التصميم على تركه .

فقال السائس الآخر : ومع هذا يا أخي فإن الأعمى إذا أراد أن يقود آخر فقد يحدث أن يقعا معاً في الهاوية : والأولى بنا أن نترك هذه الشغلة ونعود الى بيوتنا ، لأن الذين يبحثون عن مغامرات لا يجدونها دائماً جيدة .

بيد أن سائس فارس الأيكة المحسن ، لمّا رأى سنشو يبصق في كل لحظة بصاقاً ثخيناً ، قال له : « يظهر أن أحاديثنا ألصقت ألسنتنا بالحلوق ، وعندي في قربوس سرجي شيء عجيب » . وفي الحال نهض واقفاً ، ومضى ثم عاد بعد قليل ومعه قربة كبيرة فيها نبيذ ، وشريحة طويلة طولها نصف ذراع ، لأنها كانت من أرنب منزلي كبير ، حتّى أن سنشو ظنّه معزة لاجدياً ، وقال له سنشو : « آه ، ياسيدي ، هل هذا زاد كم ؟ » فقال الآخر : « هل تظنّني سائساً للاشيء ؟ إنّي أحمل على مؤخّر فرسي زاداً أفخر مما يحمله قائد حملة » . وأخذ سنشو في الأكل من غير أن يحتاج الى دعوة ، وراح يلتهم لقمات كبيرة مثل قبضة اليد ، وقال لزميله :

ـ الحق يا سيّدي ، أنك سائس مخلص ، أمين ، فطين ، عاقل ، عظيم ، فخيم ، كما يدل على ذلك طعامك الذي يبدو كما لو كان قد أتى به ساحر ، ولست هزيلاً بائساً مثلي أنا . أنا الذي ليس في خرجه غير قليل من الجبن الجامد جداً بحيث يمكن كسره على رأس مارد ، ثمّ أربع أثني عشرات من الخروب ومثلها من الجوز والبندق ، وذلك بسبب بؤس مولاي ، والفكرة التي كوّنها عن الفروسية وراعاها ، وهي أن الفرسان الجوّالة يجب عليهم ألا يتغذّوا إلا بالفواكة الجافة وأعشاب الحقل .

فصاح سائس صاحب الأيكة : ياأخي ، إن معدتي لم تخلق للشوك والكمثرى البرية ولاجذور الغابات . فليذهب سادتنا بأفكارهم وقوانين فروسيّتهم ، وليأكلوا مايريدون : أمّا أنا فأحمل دائماً لحوماً باردة وهذه القارورة المعلّقة بقرب سرجي ، مهما حدث ، وأنا أحب هذه القارورة ، وأعزّها ، حتّى أنّي في كل لحظة أقبّلها آلاف القبل .

وفي الوقت نفسه وضعها بين يدي سنشو ، فحملها الى فمه وظلّ يتطلّع في النجوم ربع ساعة ، ثمّ ألقى برأسه جانباً ، وقال بزفرة كبيرة : « آهٍ ، إنه كاثوليكي صالح ، ابن القحبة! » فقال عند هذه الكلمة سائس فارس الأيكة : « أعترف ، وأصرّح ، وأقرّ أنه ليس عاراً أن تلقّب أحداً بابن القحبة ، إذا كان المقصود مدحه . لكن قل لي ، بحياة أغلى من عندك ، أليس هذا النبيذ من ثيودا ريال (المدينة الملكية) ؟ » فصاح السائس الآخر : « يالك من أكول شهير! نعم إنه لم يأتِ من مكان آخر ، وقد خزّن في الكهف عدة سنوات » . فقال سنشو : « إنّي أفهم في هذا ، ياسيدي السائس ، إن عندي غريزة حادة طبيعية لتعرف الأنبذة بحيث يكفي أن أشم النبيذ لأعرف من أي بلد ، ومانوعه ، وطعمه ، وعمره ، والتغيرات التي طرأت عليه ، وكل الظروف المتعلّقة بالخمر ، واتعجب من هذا ، لأن في اسرتي من ناحية الأب والجد أكبر متذوقي خمر عرفا في كل أقليم المنتشا منذ زمان طويل . وسأقدّم لك دليلاً على عبقريتهما هذه : كلّفا بتذوّق نبيذ برميل ، وسئلا عن رأيهمافي النوع ، والجودة ، والعيوب في هذا النبيذ . فمسّه أحدهما بطرف لسانه ، والآخر شمّه فقط : وقال الأوّل إن فيه طعم الحديد ، وقال الثاني أن له طعم الجلد . وإدّعى صاحب النبيذ أن برميله كان نظيفاً ، وأن النبيذ لايمكن أن يكون به طعم الحديد ولا طعم الجلد . وأصرّ الذوّاقتان على رأيهما . ومع الزمن بيع النبيذ ، ونظّف البرميل (الجرن) ، فوجد في قاعه مفتاح صغير مربوط بسير من الجلد . ومن هذا تستطيع أن تحكم أن شخصاً ينحدر من مثل هذه الأسرة يمكنه أن يفهم في مثل هذه الأمور .

فقال السائس الآخر : هذا ما يجعلني أقول يجب علينا أن ندع المغامرات ، ومادام عندنا خبز ، فلا نبحثنّ عن الفطائر . لنعد الى أكواخنا : فهناك سيجدنا الله إن شاء .

فقال سنشو : أمّا عن نفسي فسأخدم مولاي حتّى نصل الى سرقسطة ، وهناك نتفاهم .

وأخيراً تكلّم سائسانا وشربا حتّى عقد النوم لسانيهما وهدأ عطشهما ، لأن إطفاء عطشهما كان أمراً مستحيلاً . ونام كلاهما ، ممسكاً القربة نصف الفارغة ، والفم لايزال مليئاً بلقم نصف ممضوغة . فلندعهما هناك يغطّان في النوم لنروي ماجرى بين فارس الأيكة والفارس الحزين الطلعة .

الفصل الرابع عشر

تلاوة مغامرة فارس الأيكة

من بين الأحاديث الكثيرة التي دارت بين فارسينا يروي التاريخ أنّ فارس الأيكة قال لدون كيخوته :

ـ وأخيراً ياسيّدي الفارس ، قدّر المصير ، أو بالأحرى اختياري ، على أن أحب المنقطعة النظير كاسلديا دي ونداليل ، وأنعتها بوصف : «المنقطعة النظير» لأنها لانظير لها في النبل والجمال . لكنّ كاسالديا هذه تكافىء حبّي ومقاصدي الطيبة بتعريضي ، كزوجة أبي هرقل ، لأعمال عديدة خطيرة ، واعدة دائماً حين أنتهي من أحدها ، بأنها بعد التالي ستستجيب لرغباتي . وهكذا تسلّلت أعمالي واحداً بعد واحد ، دون أن أستطيع أن أحسب حسابها ، ولست أدري ماذا عسى أن يكون العمل الأخير الذي سيكون أوّل شاهد على سعادتي . ذات مرّة أمرتني بتحدّي مارد أشبيلية الشهير باسم «الخيرالده»[١] ، المعروف بقوّته وبسالته ، إذ له جسم برونز ، ودون أن يغيّر مكانه هو أشد النسوة تغييراً وتقلّباً في الأهواء : اقتربت منه ، وشاهدته ، وقهرته ، وثبتّه لأنه طوال اسبوع بأكمله لم تهب ريح غير ريح الشمال . ومرّة أخرى أرادت منّي أن أرفع وأزن ثيران جسندو[٢] القديمة القوية ، وهي مغامرة جديرة بحمّال لابفارس . ثمّ أمرتني بالإلقاء بنفسي من قمة جبل قبرا ، وفي هذا مخاطرة بحياتي ، وأن أقدّم لها تقريراً عمّا تحتويه كهوف هذا الجبل . فثبّت الخيرالده ، ووزنت ثيران

---

(١) تمثال الإيمان ، مصنوع من البرونز ، ارتفاعه أربعة أمتار وسمّي باسم« خيرالده » من الفعل girara يدور ، لأنه يمسك باليد اليمنى علماً كبيراً يدل على اتجاه الريح ، والتمثال موضوع على محور ، ويدور حول نفسه بسهولة ، وهو لهذا يستخدم بمثابة وردة رياح ، وهو كلّه على أعلى برج كان في الأصل مئذنة مسجد عظيم في اشبيلية .

(٢) جسندو دير على الطريق بين آبلة وطليطلة . وهذه الثيران تماثيل قديمة من الجرانيت ، تكسّرت بعض أجزاءها . ويقال أن الذين أقاموها هم أهل قرطاجنة . ويوجد تماثيل مثلها في اشقوبية ، وآبلة ، وتورلبه ، ولدسما ، ألخ...

جسندو ، وألقيت بنفسي في الهاوية ، وكشفت عن أخفى أسرار الكهوف ؛ واستمرت هي مع ذلك تتعالى عليّ . وأخيراً أمرتني بإجتياز كل مقاطعات اسبانيا وحمل كل الفرسان الجوّالة الذين ألتقي بهم على الإقرار بأنها أكمل النساء وأجملهن ، وبأنّي أشجع وأعشق الفرسان . وامتثالاً لأمرها زرت الشطر الأكبر من اسبانيا ، وانتصرت على الكثير من الفرسان الذين قرّروا عكس هذا ، لكن من بين كل هذه الأعمال الجليلة التي قمت بها كان أعظمها والذي أفخر به أكثر من غيره وهو في نظري ذو قيمة عظيمة هو انتصاري ، في مبارزة فردية ، على الفارس الشهير دون كيخوته دلا منتشا وإرغامه على الإعتراف والإقرار بأن صاحبتي كاسلديا أجمل من صاحبته دلثنيا . وبهذا الإنتصار وحده أرى أنّي انتصرت على كل فرسان العالم ، لأن دون كيخوته هذا الذي أتكلّم عنه قد انتصر عليهم جميعاً ؛ ومجده ، وشهرته ، وشرفه انتقلت كلّها الى شخصي أنا ، وأعماله التي لاتحصى قد صارت أعمالي أنا . وأنت تعلم أنه كلّما كان المهزوم شهيراً كان المنتصر عليه أعظم مجداً .

فدهش دون كيخوته لهذا الكلام كل الدهشة ، وألف مرة حاول أن يفتح فمه ليكذّب فارس الأيكة ، لكنه مع ذلك تمالك نفسه قدر المستطاع ، ثمّ حاول أن يجعله يقر بكذبه ، فقال له دون إنفعال : «ليس عندي ماأقوله ، ياسيدي ، بشأن كونك انتصرت على كل الفرسان الجوّالة تقريباً في أسبانيا بل وفي العالم كلّه ، أمّا أنّك انتصرت على دون كيخوته دلا منتشا فأنا أشك في هذا كثيراً . فربّما كان شخصاً آخر يشبهه ، وإن كان لايشبهه إلا القليلون جداً» .

فأجابه فارس الأيكة : كيف لا بحق السماء التي تعلو علينا! لقد نازلت دون كيخوته ، وانتصرت عليه ، وجعلته تحت رحمتي . إنه رجل فارع القامة ، نحيف الوجه ، أشلاؤه طويلة معروقة ، وشعره مشعث ، وأنفه مدبّب كالنسر ومنحن ، وشواربه كبيرة سوداء مهدّلة ، ويحارب تحت اسم الفارس الحزين الطلعة ، وله سائس فلاح يدعى سنشو پنثا ، ويركب جواداً شهيراً اسمه روثينانته ، وأخيراً له سيدة أفكار تدعى دلثنيا دل توبوسو ، وكان اسمها من قبل ألدونثالورنثو : مثل صاحبتي ، واسمها كاسلدا وهي من الأندلس ، وقد سمّيتها كاسلديا دي وندليا ، فإن كانت كل هذه الإمارات لاتكفي لإثبات الحقيقة ، فهاهوذاسيفي يستطيع أن يقهرعدم تصديقك .

فأجابه دون كيخوته : على رسلك قليلاً ياسيدي الفارس ، واسمع ماأريد أن أقوله لك : دون كيخوته هذا الذي تتكلّم عنه هو أعز أصدقائي ، وهو صديق حميم الى حد أني أستطيع أن أقول أنّي أحبّه كأنه ذاتي الأخرى ، وبالعلامات التي ذكرتها ، وهي دقيقة ، صريحة ،

لاأستطيع أن أشك أنه هو الذي انتصرت عليه أنت . من ناحية أنا أرى بعيني ، وألمس بيدي أنه لايمكن أن يكون هو ، اللهم إلا أن يكون ـ وهو رجل له أعداء كثيرون من بين السحرة ، وخصوصاً ساحر لاينثني عن مطاردته ، ـ قد اتخذ واحداً منهم شكله ليترك نفسه يهزم ، حتّى يشوّه بهذا سمعته التي اكتسبها بأعماله الجليلة في طول المعمورة . وكدليل على ماأقول لك عن خبث هؤلاء السحرة ، أقول لك أنه منذ يومين حوّلوا دلثنيا الجميلة الى فلاحة قبيحة حقيرة ؛ فلابدّ أنهم حوّلوا أيضاً دون كيخوته . فإن لم يكفِ كل هذا الذي قلته لإقناعك ، فها هو ذا أمامك دون كيخوته هذا بعينه ، يؤيّده لك والسلاح في يده ، راجلاً أو راكباً ، على أي نحوٍ تريد .

ولمّا قال هذه الكلمات هبّ واقفاً ، وأمسك سيفه ، منتظراً قرار فارس الأيكة . فقال هذا الأخير بهدوء : «الدافع الجيّد لايخشى أبداً من إعطاء رهن : إذا كنت قد انتصرت عليه محوّلاً ، ياسيّد دون كيخوته ، فإنّي أستطيع أن آمل في أن أهزمه بشكله الحقيقي . لكن لمّا كان من غير اللائق أن يتبارى فارسان إبان الليل كقطّاع طرق ، فانتظر حتّى الصباح لتضيء الشمس أعمالنا . وشرط النزال هو أن يظل المقهور تحت رحمة القاهر ، وأن يفعل كل مايطلبه هذا منه ، بشرط ألا يكون أمراً مخلاً بنظام الفروسية» . فأجاب دون كيخوته : «وأنا أوافق على هذا الشرط» .

وفي الوقت نفسه اقتربا من الموضع الذي كان فيه سائساهما ، فوجدانهما يشخران في الوضع نفسه الذي غلبهما فيه النعاس ، فأيقظاهما وأمراهما بأن يعدا فرسيهما ، لأنه لدى أوّل شعاع من الشمس عليهما أن يخوضا معركة حامية دامية الواحد ضد الآخر . فاضطرب سنشو لهذا الخبر أيما اضطراب ، وخشي كثيراً على مولاه ، بناءً على ماسمعه عن بسالة فارس الأيكة مما رواه سائسه . ودون أن يتفوّها بكلمة ذهب الخادمان لإحضار الأفراس الثلاثة والحمار وكلّها قد بقيت مع بعضها بعد أن شمّ كل منهما الآخر .

وفي أثناء الطريق قال سائس فارس الأيكة لسنشو : عليك أن تعرف ياأخي أنه في الأندلس حين يتبارز فارسان ، فإن تابعيهما يجب ألا يقفا ساكتين ، مكتوفي الذراعين ، بينما الآخران يتبارزان ، وأنا أنبّهك الى هذا حتّى نتبارز نحن من ناحيتنا ، بينما يتبارز سيدانا .

فقال سنشو : ربّما كان هذا العرف موجوداً ، ياسيدي السائس ، بين الفشارين والفياشين المدعين الشجاعة الذي تقول عنها ، ، أمّا أن يمارسه سوّاس الفرسان الجوّالة فهذا أمر لاأصدّق منه شيئاً : على الأقل لم أسمع أبداً مولاي يتكلّم عن مثل هذا العرف ، وهو

يحفظ عن ظهر قلب كل قوانين الفروسية ، وحتّى لو افترضنا أن هنك قانوناً حقيقيّاً صريحاً يلزم السوّاس بالقتال حين يتصارع أسيادهم ، فليست لديّ أية نية في إطاعة هذا القانون ؛ وأفضّل دفع الغرامة المفروضة على السوّاس المسالمين ، وهذه الغرامة ، فيما أظن ، لاتتجاوز رطلين من الشمع ، وأنا أفضّل دفع هذين الرطلين ، لأنّي أعلم أن ذلك سيكلّفني أقل مما يكلّفه الشاش الذي لابد لي أن أشتريه لتضميد جراح رأسي ، إذ يلوح لي فعلاً الآن أنها انفلقت فلقتين ، أضف الى هذا أنّي ليس معي سيف ، ولم أحمل سيفاً طوال حياتي ، ولاأستطيع استعماله .

فقال سائس فارس الأيكة : أعرف علاجاً ناجعاً لكل هذا كلّه : معي زكيبتان من التيل ذواتا حجمٍ واحد ، أنت تأخذ واحدة ، وأنا الأخرى ، ونتضارب هكذا بسلاح متكافىء .

فقال سنشو : حسناً ، ننفض غبار ملابسنا بدلاً من أن نجرح بعضنا بعضاً .

فقال الآخر : لاأقصد هكذا : فحتّى لاترفع الريح زكيبتينا سنضع في كل منهما ست حصوات لامعة نظيفة متساوية الوزن ، وبهذه الطريقة نحك بعضنا بعضاً دون أن نؤذي أنفسنا .

فصاح سنشو : بحق جسم أبي! انظر أي قطن مندوف أو أي قطع سمور يضعها في الزكائب حتّى لايكسر رأسنا أو يكسر عظامنا! حتّى لو ملأتها بقطع من الحرير ، اعلم ياسيدي العزيز ، أنّي لاأرغب أبداً في العراك . لندع سيّدينا يفعلان مايشاءان ، وليتبارزا ماحلا لهما ، أمّا نحن فلنعش ونشرب ، والزمن كفيل وحده بانتزاع حياتنا ، دون أن نبحث عن وسائل اختصارها قبل الأوان .

فقال سائس فارس الأيكة : ورغم هذا كله لابد من أن نتضارب ولو لمدّة نصف ساعة .

فقال سنشو : هذا ، لا ، ولن أكون عديم التهذيب جاحداً الى حد التنازع ، أي تنازع ، مع من شربت معه وأكلت ، وحينما لايكون المرء غاضباً فبأي شيطان إذن يقرّر أن يتعارك .

فأجاب سائس فارس الأيكة : أعرف أيضاً علاجاً ناجعاً لهذا : قبل أن نبدأ المعركة ، أقترب منك ، أصفعك صفعتين أو ثلاثاً تجندلك على الأرض : هنالك يأتيك الغضب قطعاً ، حتّى لو كنت مخدّراً كل التخدير .

فقال سنشو : أمّا أنا فأعرف علاجاً خيراً منه : آخذ عصا ، وقبل أن يكلّف سيادتك نفسه بإثارة غضبي ، أنوّم غضب سيادتك بضربات من العصا متوالية ، بحيث لاتستيقظ الا في العالم الآخر . من المعلوم أنني لست ممن يتركون أحداً يأكل لحمهم : وليأخذ كل إنسان حذره! ومع ذلك فالأفضل تنويم الغضب ، لأنه لاأحد يعلم مايجري في نفس الآخر ،

هذا يأتي ليبحث عن صوف فيعود مجزوزاً . بارك الله في السلام ، ولعن العراك! إذا كان القط قد طورد وشدّد عليه وحوصر يصبح أسداً ، فأنا الإنسان ، الله يعلم ماذا يمكن أن أصبح ؛ ولهذا ياسيدي السائس ، أنبّهك مقدّماً الى أنك ستكون وحدك مسؤولاً عن كل ماعسى أن ينتج عن عراكنا من شرور .

فقال الآخر : هذا حسن ، إن شاء الله يطلع النهار ونرى!

ثمّ بدأت آلاف أنواع الطيور الصغيرة ، المتفاوتة الألوان الزاهية ، في التغريد على غصون الأشجار ، وبدا كما لو أنها كانت بأغانيها الفرحة المنوّعة تحيي اورورا (الفجر) النضيرة ؛ فقد شوهدت (الفجر) وهي تقبل من خلال أبواب الشرق وطنفة ، وهي تهزّ بشعرها الأشقر كمّية هائلة من اللآلىء المائية التي تستنشقها بشراهة أعشاب المروج ، وتؤلّف على الخضرة شبكة لامعة فسيحة وأشجار الصفصاف تقطّر منها شهيّاً ، والينابيع تنشر أبسطها السندسية الخضراء لاستقبال الآلهة (أورورا) .

لكن لم يكد نور النهار يسمح بتمييز الأشياء ، حتّى كان أوّل ماتبيّن لناظر سنشو هو أنف سائس فارس الأيكة ، وكان أنفاً كبيراً جداً حتّى كان يظل جسمه كلّه . ويروى أن هذا الأنف كان ذا طول مفرط ، منحنياً عند الوسط ، مليئاً بالشامات ، بنفسجيّاً مثل الباذنجان ، وينزل الى أدنى من الفم بمقدار إصبعين ، وكان طول ، ولون ، وتقويس ، وشامات هذا الأنف تجعل وجه السائس بالغ الدمامة والقبح ، حتّى أن سنشو أخذ يضرب بقدميه ويصفّق بكفّيه مثل طفل سقط ، ولهذا قرّر أن يدع نفسه ويتلقّى مائتي صفعة بدلاً من إثارة هياج مثل هذا الشبح .

ودون كيخوته ، من ناحيته ، أخذ يتفحّص خصمه ؛ فرأى أنه قد وضع الخوذة على رأسه ، بحيث لايمكن رؤية وجهه ، ولاحظ أنه شديد الأسر ، مفتول العضلات ، ولكنّه قصير القامة ، وكان يلبس فوقه سلاح سترة بدت من التيل المرصّع بالذهب الخالص ، وكان ينثر عليها مرايا لامعة ، على شكل أقمار صغيرة ، جعلت هذا الرداء ثميناً بقدر ماكان أنيقاً ، وكانت خوذته مملوءة بكمية كبيرة من الريش الأخضر ، والأصفر ، والأبيض ، وكان رمحه ، الذي أسنده الى شجرة ، كبيراً طويلاً مسلّحاً بحديدة مدبّبة أطول من شبر . ولاحظ دون كيخوته كل شيء وفحص كل شيء ، وقدّر أن هذا الفارس لابدّ أن يكون قويّاً جداً . ومع ذلك فإنه لم يرتعد مثل سنشو ؛ بل بالعكس ، اقترب بثبات من خصمه ، وقال له : « إذا كانت الرغبة في القتال لاتغيّر أبداً أدبك فإنّي أستحلفك أن ترفع كمّامة خوذتك ، حتّى أرى ما إذا كانت الطيبة تتفق مع ثراء هندامك وهيئتك» .

فقال فارس المرايا : قاهراً أو مقهوراً ياسيدي الفارس ، سيكون لديك متّسع من الوقت للتطلّع فيّ . وإذا كنت لاأستجيب الآن لرغبتك فذلك لأنه يبدو ليّ أنه من الإهانة للجميلة كسلديا دي ونداليا أن أؤخّر اللحظة التي أحملك فيها على الإقرار بما تعرف .

فقال دون كيخوته : لنركب فرسينا إذن ، وتستطيع حينئذ أن تحكم ياسيدي هل أنا ذلك الدون كيخوته الذي قلت أنك هزمته .

فقال الآخر : إنّك تشبهه كما تشبه البيضة البيضة ، لكن مادمت تقول أنه يطارده السحرة ، فإنّي لاأستطيع أن أجزم هل أنت هو .

فأجاب دون كيخوته : هذا يكفي ، إنّي أدرك خطأك : ولتبديده نهائيّاً فليؤت بأفراسنا ، وفي أقل من المدة المطلوبة لرفع كمّامتك ، إذا ساعدني الله وسيّدتي وذراعي ، سأرى وجهك ، وستتعرّف أنت أنني لست ذلك الدون كيخوته الذي تعتقد أنّك انتصرت عليه .

ودون أن يتابعا الكلام ، ركبا فرسيهما . أمّا دون كيخوته فأدار لجام روثينانته ليتّخذ المسافة الكافية للقدوم للإنقضاض على خصمه ، الذي قام بالمناورة نفسها ، لكن لم يكد يسير عشرين خطوة حتّى دعاه فارس المرايا وقال له : « تذكّر يامولاي ، شروط قتالنا : المهزوم ، كما قلت لك ، يجب أن يصير تحت رحمة وتصرّف الظافر » . فقال دون كيخوته : « أعرف ذلك ، بشرط ألا يفرض عليه شيء يتنافى مع قوانين الفروسية » . فقال فارس المرايا : « وأنا مقر بهذا أيضاً » .

وفي تلك اللحظة أبصر دون كيخوته غرابة أنف السائس ، فدهش منها دهشة لاتقل عن دهشة سنشو : فاعتقد أن هذا الشخص عجيبة من عجائب المخلوقات ، ونوع جديد من الناس ، لم يعتد أحد رؤيته . وسنشو من ناحيته حين رأى مولاه يسير لإتخاذ مسافة ، لم يشأ أن يبقى مع السائس العجيب الخلقة ، وخشي أن يلقي به على الأرض ويخنقه بضربة واحدة عى أنفه ، فراح يقف خلف روثينانته ، ويده على جانب السرج ، ولمّا رأى مولاه راجعاً ، قال له : « مولاي ، أتوسّل اليك قبل أن تمضي ، أن تعاونّي على الصعود على شجرة الفلّين هذه ، التي منها أستطيع على نحو أحسن من الأرض رؤية لقائك الباسل مع هذا الفارس » .

فأجابه دون كيخوته : « أعتقد أنّك ياسنشو إنّما تريد بهذا أن تصنع صنيع أولئك الذين يقفون على السقالات ليروا مصارعة الثيران بغير خطر » .

فأجاب سنشو : « سيدي : أعترف لك بأن الأنف الفظيع لهذا السائس قد بعث رعباً شديداً في نفسي حتّى إنّي لاأجسر على البقاء بجواره » .

فقال دون كيخوته : « صحيح أنه عجيب الخلقة . ولو لم أكن أنا من أنا ، لكنت خفت منه أنا أيضاً . تعال أساعدك على الصعود » .

وبينما كان دون كيخوته يساعد سنشو على الصعود على شجرة الفلّين ، كان فارس المرايا قد اتخذ المسافة التي حسبها ضرورية ، واعتقاداً منه أن دون كيخوته فعل الشيء نفسه ، فإنه بغير انتظار البوق أو إشارة ، أدار عنان فرسه ، ولم يكن أحسن ولاأخف من روثينانته ، وبكل قوّة عدوه ، ولم يزد عن كدفة خفيفة ، تقدّم لملاقاة خصمة ، لكن لمّا رآه مشغولاً مع سنشو ، توقّف في وسط الميدان ، ضابطاً عنان فرسه ، الذي اغتبط لذلك ، لأنه لم يكن بوسعه بعد أن يتحرّك . فلمّا ظن دون كيخوته أن خصمه يريد أن ينقض عليه ، همز جانبي روثيننانته بشدّة ، وهيجه ، الى حد أن هذه كانت ـ فيما يروي المؤرّخ ـ المرة الأولى التي فيها ركض ، لأنه في العادة يكدف فقط . وبهذا التهيّج غير المعتاد ، أقبل على فارس المرايا الذي كان يحاول عبثاً أن يغرز المهمازين في بطن فرسه ، دون أن يستطيع أن يحرّكه من المكان الذي وقف فيه مبهور الأنفاس . فارتبك على ركوبته ، وارتبك من رمحه ، فلم يستطع أن يصوبه في وضع القتال : وهذا ، وبدون أي خطر ، دون كيخوته الذي لم يهتم بإضطراب خصمه صدمه بقوة كبيرة حتّى أنزله عن سرجه وألقى به على الأرض بقوة ، حتّى لم يحرّك هذا يده ولاقدمه ، وظنّ أنه مات . ولم يكد سنشو يراه يسقط حتّى انزلق عن شجرة الفلّين ، وجرى بسرعة الى حيث مولاه ، وكان هذا قد نزل من روثينانته وألقى بنفسه على فارس المرايا ، فحلّ رباط خوذته ليرى هل مات ، أو ليجعله يتنفّس إذا كان لايزال حيّاً ، لكن من ذا الذي يعرف ، ولايدهش ، ولايرتعد ، أي منظر تجلّى أمام ناظريه! لقد رأى دون كيخوته ، وتعرّف ، هكذا يقول المؤرّخ ، وجه وشكل ومظهر وسيماء وقسمات وملامح صاحب الإجازة سمسون كرسكو! فلمّا رآه صاح : « تعال هنا ياسنشو ، انظر ترى شيئاً لايمكنك أن تتصوّره وتصدّقه : انظر يابني ، ماذا يمكن أن يفعل السحر ، وكم هي هائلة قوة السحر! » فتطلّع سنشو ، ورأى وجه صاحب الإجازة ، فأخذ يرسم آلافاً من علامات الصليب . لكنّ الفارس المغلوب لم يكشف عن أي علامات للحياة . فقال سنشو : « سيدي ، من رأيي مهما يكن الأمر ، أن تغرز سيفك في جسم المزعوم سمسون كرسكو هذا : وبهذه الوسيلة ، تبيد واحداً من أعدائك السحرة » .

فقال دون كيخوته : « هذا رأى سليم : إذ سينقص من عددهم واحد على كل حال » . واستل سيفه لتنفيذ نصيحة سنشو ، حينما اقترب سائس المغلوب ، وقد نزع أنفه الذي جعله قبيحاً جداً ، وصاح : « حذار مما أنت فاعل ، ياسيد دون كيخوته : إن من تراه تحت

قدميك هو صديقك صاحب الإجازة سمسون كرسكو ، وأنا سائسه» . ولمّا رآه سنشو بوجهه العادي قال له : «والأنف ، أين هو ؟» فقال الآخر : «في جيبي» . وفي الوقت نفسه أراه أنفاً من الورق المقوى الملوّن مثل أنف الأقنعة ، وكما وصفناه . فتفحصه سنشو شيئاً فشيئاً متطلّعاً في وجهه ، وصاح بدهشة بالغة : «ياللعذراء المقدّسة مريم! رحماك! هذا هو اشبين ولدي وجاري توماس ثيال» . فقال السائس الذي بدون أنف :«صحيح ، تماماً أنا هو . وسأروي لك بعد قليل الحيل ، والمكائد ، والألاعيب التي اقتادتني الى هنا ، لكن أرجو ، وأتوسّل الى مولاك ألا يمس ، ولايسيء معاملة ، ولايضرب ، ولايقتل فارس المرايا الراقد عند قدميه ، لأنه من غير أدنى شك هو المسكين الفائل الرأي صاحب الإجازة كرسكو ، ابن قريتنا» .

وفي تلك الأثناء كان هذا قد استردّ وعيه ، ولمّا لاحظ هذا دون كيخوته وضع طرف سيفه على رقبته ، وقال له : «أنت مقتول يافارس إن لم تقر في الحال أن المنقطعة النظير دلثنيا يفوق جمالها جمال صاحبتك كسلديا دي وندايا ، وإن لم تتعهّد لي بأن تذهب ، إذا نهضت من سقطتك ، الى مدينة توبوسو وتمثل أمام السيدة دلثنيا ، لتتصرّف فيك ، كما تشاء ، ثمّ تعود بعد ذلك لتلحق بي ، وسيكون أثر أعمالي الجليلة قدوة تحتذيها ، وتروي لي ماجرى بينها وبينك . بهذا الشرط أهبك الحياة والحرّية : وهما تتفقان مع ماقدرناه من شروط قبل القتال ، ولاتتجاوز حدود الفروسية الجوّالة» .

فأجاب الفارس المغلوب : أعترف وأقر بأن حذاء السيدة دلثنيا دل توبوسو ، حذاءها القذرالممزّق أفضل من لحية كسلديا لحيتها غيرالممشوطة وإن تكن نظيفة ، وأتعهّد بالمثول أمامها ، والعودة اليك لتقديم تقرير عن سفارتي .

فقال دون كيخوته : وعليك أيضاً أن تعترف وتقر ، بأن الفارس الذي انتصرت أنت عليه ليس ، ولايمكن أن يكون ، دون كيخوته دلاّ منتشا ، بل هو شخص يشبهه ، كما أنّي من ناحيتي أعتقد وأقر بأنك لست صاحب الإجازة سمسون كرسكو ، وإن كنت تبدو أنك هو ، بل أنت شخص يشبهه ، وأظن أن أعدائي قد اتخذوا شكله ليقفوا ويسكّنوا اندفاع غضبي ، ولكي أستغل شرف انتصاري برحمة .

فأجاب الفارس المقهور : أعترف ، وأحكم ، وأعتقد كل ماتحكم به ، وتعتقده وتراه . دعني أنهض ، أرجوك ، إذا مكّنني ألم السقوط من النهوض ، لأنّي تحطّمت تماماً .

فساعده دون كيخوته على النهوض ، وكذلك ساعده توماس ثيال الذي لم يكف سنشو عن التطلّع فيه . والأحاديث والأجوبة التي نطق بها السائس برهنت بكل وضوح أنه ليس

شخصاً آخر غير اشبين ولد سنشو وجاره ، لكن ماسمعه من مولاه عن خبث السحرة وتحوّل فارس المرايا ، منعه من الإعتماد على ماتشهد به عيناه . وأخيراً بقي السيد والخادم على خطئهما! وانفصل فارس المرايا وسانسه في ارتباك وتحطّم ، عن دون كيخوته وسنشو ، بقصد البحث عن مكان يمكن فيه تضميد أضلاع كرسكو المحطّمة . واستأنف دون كيخوته وسنشو طريقهما الى سرقسطة ، ويتركهما المؤرّخ ليقرّر حقيقة فارس المرايا والسائس ذي الأنف الكبير .

الفصل الخامس عشر

وفيه يروى من كان فارس المرايا وسائسه

رضي دون كيخوته عن نفسه كل الرضا ومضى في طريقه مكلّلاً بغار النصر والمجد ، مزهواً بالإنتصار الباهر الذي أحرزه على ذلك الفارس الباسل الذي اعتقد أنه فارس المرايا . ومليئاً بالثقة بكلمة الفروسية (العهد الذي تعهّد به فارس المرايا) كان يأمل في أن يعرف بعد قليل هل لايزال انسحار سيدته مستمراً ؛ لأنه لم يشك لحظة واحدة في أنّ الفارس المقهور سيعود اليه ويأتيه بنبأ المقابلة ، وإلاّ إنحط عن رتبة الفروسية . لكن دون كيخوته فكرّ في شيء ، وفارس المرايا فكّر في شيء آخر ، وإن كان همه الوحيد في تلك اللحظة هو أن يضمّد نفسه كما قلنا ، ولكن التاريخ يروي هو أنه حين نصح صاحب الإجازة سمسون كرسكو فارسنا دون كيخوته أن يعود الى إستئناف السعي وراء المغامرات ، لم يتم ذلك إلا بعد أن استشار القسّيس والحلاق ، للبحث في الوسائل الكفيلة بإرغام دون كيخوته على أن يقبع ساكتاً في بيته ، دون سعي وراء مغامرات فاسدة . وكان الرأي الذي أجمع عليه مجلسهم ، وخصوصاً رأي كرسكو ، هو أن يتركوا دون كيخوته يرحل ، إذ بدا من المستحيل منعه ، ،وأن يقوم سمسون كرسكو ، مسلّحاً بشكل فارس جوّال ، بالحملة ، ويستثيره للنزال (إذ بدا لهم أن الإنتصارعليه أمر سهل) بشرط صريح وهو أن يصبح المغلوب تحت رحمة الغالب . فإن هزم دون كيخوته ، فرض عليه كرسكو أن يعود الى قريته وبيته ، وألا يخرج منه طوال عامين ، أو على الأقل حتّى يتلقّى أمراً مضاداً . وبدا من المؤكّد أن دون كيخوته سيراعي هذا الشرط بكل دقة وأمانة ، حتّى لايخالف قوانين الفروسية ، وكان من المحتمل أنه خلال هذه المدّة الطويلة سينسى حماقاته ، أو يجدون دواء لعلاجه من دائه . ولمّا تم الإتّفاق على هذا ، أخذ كرسكو على عاتقه القيام بهذه المهمّة ، وتطوّع توماس ثثيال ليكون سائسه ؛ وكان جاراً واشبين ولد لسنشو ، متقلّب المزاج يحب أن

يعيش . وتسلّح كرسكو على النحو الذي وصفناه ، ووضع ثثيال أنفاً زائفاً من الورق المقوّى حتّى لايتعرّفه جاره سنشو ، ولمّا استعدّا هكذا تابعا الطريق نفسه الذي سلكه دون كيخوته ، وكانا على وشك اللحاق به وقت مغامرة عربة الموت . ثمّ لحقا به في الأيكة (الغابة) التي وقع فيها ماعرفه القارىء في الفصل السابق ، ولولاأن خيال دون كيخوته المختل لم يقنعه بأن صاحب الإجازة ليس كرسكو ، لاستحال على السيّد صاحب الإجازة أن ينال بعد ذلك درجة الليسانس ، بسبب أنه لم يجد العش الذي ظنّ أنه سيعثر فيه على عصافير .

ولمّا رأى توماس ثثيال إخفاق رحلتهما وخطّتهما قال لصاحب الإجازة : « ياسيّد سمسون ، لم ننل إلا مانستحق ، يعتقد المرء أحياناً أنه سيتم عملاً بسهولة ، وغالباً لايخرج منه إلا بعد صعوبات جمّة . إنّ دون كيخوته مجنون ، أمّا نحن فعقلاء ، إنه يمضي فرحاً سليماً ، أمّا أنت فحزين محطّم الأضلاع ، قل لي إذن من الأكثر جنوناً : من هو مجنون لأنّه لا يمكن أن يكون غير ذلك ، أو من يتصنّع الجنون بإرادته ؟ » فقال سمسون : « الفارق بين هذين المجنونين هو أن المجنون رغماً عنه سيظل كذلك دائماً ، أمّا الآخر فسيتوقّف عن الجنون حينما يشاء » . فقال ثثيال : « إذا كان الأمر كذلك فقد كنت أنا مجنوناً بإرادتي واختياري حين عملت سائساً لسعادتك ، وبإرادتي واختياري أيضاً أترك أنا خدمتك وأعود الى بيتي » .

فأجابه سمسون : « الأمر أمرك أنت ، لكن أرجوك أن تعتقد أنني لن أعود قبل أن أحطّم أضلاع السيد دون كيخوته ، وليس لي الآن هدف من إعادته الى صواب العقل ، بل هدفي هو أن أنتقم منه ، لأن آلام أضلاعي لاتبعث في نفسي أية شفقة » .

وكانا يتناقشان هكذا لمّا أن بلغا قرية وجدا فيها لحسن الحظ ، مجبّراً ضمّد كرسكو المسكين . وتركه ثثيال ليعود أدراجه . ولنترك سمسون يفكّر في الإنتقام ، فإن المؤرّخ يعرف كيف يعثر عليه عند الحاجة . ولا نشغلنّ أنفسنا الآن إلا بالمشاركة في فرحة دون كيخوته .

الفصل السادس عشر

فيما وقع لدون كيخوته مع فارس عاقل من المنتشا

تابع دون كيخوته سيره كما قلنا ، بكبرياء وسرور ورضا ، متخيّلاً بعد مثل هذا الإنتصار أنه أعظم فارس جوّال في العالم كلّه ، ومعتقداً أن كل مغامراته المقبلة ستتم بنجاح تام ، ولم يعد يحفل كثيراً بالسحرة والإنسحارات ، غير متذكّر بعد ضربات العصي التي لاتحصى ولاتعد والتي لقيها وأصابته خلال أعماله ، ولا الحجر الذي كسر نصف أسنانه ، ولاجحود المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، ولا أوتاد البغالة الينجواسيين .

وأخيراً قال لنفسه أنه لو استطاع أن يكتشف الفن ، والوسيلة والطريقة التي بها يستطيع أن يبطل مفعول سحر سيدته دلثنيا ، فلن يحسد أعظم حظ ناله أسعد فارس جوّال في العصور الماضية .

وبينما كان مستغرقاً في هذه التأمّلات اللذيذة قال له سنشو : « سيدي ! أليس من المضحك أنني أتصوّر دائماً أني أرى أمام عيني هذا الأنف الكريه ، وهذين المنخارين الواسعين لجاري توماس ثثيال ؟ » فقال له دون كيخوته : « وهل تعتقد إذن أن فارس المرايا هو صاحب الإجازة (البكالوريا) كرسكو ، وأن سائسه هو توماس ثثيال جارك ؟ »

فقال سنشو : « والله لاأعرف : كل ماأعرفه هو أن العلامات التي ذكرها عن بيتي ، وزوجتي ، وأولادي لايمكن أن تصدر إلا عنه هو ، وشكله ، حين لايكون له الأنف المستعار ، هو تماماً شكل توماس ثثيال كما رأيته ألف مرة في قريتنا ، لأن بيته ملاصق لبيتي ، وفضلاً عن ذلك فإن نبرة صوته هي هي » .

فقال دون كيخوته : تعال هنا ياسنشو ، ولنتكلّم قليلاً بعقل : لأي سبب ترى أن يأتي حامل البكالوريا توماس كرسكو ، على هيئة فارس جوّال ، مدجّج بالأسلحة الهجومية والدفاعية ، ليقاتلني ؟ هل أنا عدوّه ؟ هل فعلت شيئاً في حياتي يسبّب في نزاع معه ؟ هل أنا

منافسه ؟ هل هو يحترف مهنة السلاح ، حتى يكون غيّوراً من المجد الذي حصّلته عن طريقها ؟

فقال سنشو : لكن يامولاي ماذا تقول إذن عن هذا التشابه المدهش بين هذا الفارس ، أيّاً من كان هو ، وبين حامل البكالوريا كرسكو ، بين سائسه وبين توماس ثثيال جاري ؟ إذا كان هذا من فعل السحر كما تقول ، فإنه لا يوجد في العالم اثنان يشبهانهما هذا الشبه التام .

فأجاب دون كيخوته : كل هذا ليس إلا خداعاً وتزييفاً من فعل السحرة الخبثاء الذين يلاحقونني : فهم لمّا قدّروا مقدّماً انتصاري في المعركة ، أعطوا الفارس المغلوب شكل صديقي حامل البكالوريا حتّى تحول المودّة التي تجمع بيننا دون قوة ذراعي وغضب سيفي ، وتهدّىء من ثائرة غضبي العادل ، وبهذه الطريقة أبقي على حياة من استخدم الحيلة للقضاء على حياتي ، وللتدليل على ما أقوله لك أنت تعرف ياسنشو بتجربة لايمكن أن تخدع كيف يسهل على السحرة أن يحدثوا تحويلات ، وإنهم يستطيعون إذا شاؤوا ، أن يحوّلوا الجمال الى قبح ، والجميل الى قبيح ، كما شاهدت مثالاً على ذلك منذ يومين في شخص دلثنيا ، التي شاهدت أنت جمالها في تمام روعته ، بينما لم أبصر أنا غير فلاحة حقيرة قبيحة جلفة في عينيها سحابة ، وتنبعث من فمها رائحة كريهة : فهل من عجب إذن في أن يكون الساحر الشرّير الذي أحدث هذا التحوّل الكريه قد أحدث أيضاً تحوّل كرسكو وجارك ثثيال ، كيما ينتزع من يدي ثمن النصر ؟ لكن مايعزيني ، أيّاً ماكان الشكل الذي اتخذه عدوّي ، هو أنني انتصرت عليه .

فقال سنشو : «الله أعلم بحقيقة هذا كلّه!» ـ ولم يكن سنشو مقتنعاً بالأسباب التي ساقها دون كيخوته ، لأنه كان يعلم حق العلم أن تحوّل دلثنيا كان من عندياته هو واختراعه ، لكنه لم يرد عليه ، خوفاً من أن يمكنه من كشف خدعته .

وفي اللحظة نفسها سمعا قادماً خلفهما مسافراً يسلك الطريق نفسه الذي يسلكانه : وكان يركب فرسة جميلة لونها رمادي تفاحي ، وعليه معطف من الجوخ الأخضر الفاخر ، المحاط بالقطيفة المصقولة ، وعلى رأسه قلنسوة من نفس القطيفة ، وكانت فرسه ذات سرج عربي من نفس الألوان ، وكان يعلّق في منطقته الخضراء الذهبية سيفاً مغربيّاً ، وكانت الأحذية متشابهة في اللون للمنطقة ، ولم يكن مهمازاه مذهّبين ، بل مطليين بطلاء أخضر ، يلمع في انسجام مع سائر هندامه ، فكان وقعها أجمل مما لو كانت من الذهب . ولمّا مر برجلينا (دون كيخوته وسنشو) حيّاهما بأدب ، وهمز فرسه وتابع الطريق ، حين قال له دون كيخوته : «سيدي ، إذا كنت سائراً في نفس طريقنا ولست متعجّلاً السير والوصول ، فربّما لايضايقك أن نسافر معاً» .

فأجاب الغريب : «يا سيدي إن السبب في إسراعي هو أنّي خشيت أن يقلق وجود فرسي فرسك» .

فقال له سنشو : «تستطيع أن تكون مستريح البال من هذه الناحية : فإن فرسنا آمن وأكثر الأفراس أدباً في العالم ، إذ لم تصدر منه في مثل هذه الظروف أية قبيحة أبداً ، والمرة الوحيدة التي انطلق فيها دفعنا نحن ثمن ذلك غالياً ، مولاي وأنا . إذن لاشيء يمنعك من وقف ركوبتك ، لأنّي واثق أن فرسنا لن يقربها أبداً مهما حدث وأغريناه بها بين صحفتين من الطعام» .

فنوقّف الغريب ، وأخذ يتأمّل في شكل وحركات دون كيخوته الذي لم يكن على رأسه خوذته ساعتئذ ، لأن سنشو حملها ، كحقيبة على تقويسة برذعته ، وإذا كان الرجل ذو الملابس الخضراء ينظر بإنتباه شديد الى دون كيخوته ، فهذا هو الآخر كان يتطلّع فيه ، إذ بدا له رجلاً عاقلاً رفيع المكانة : كان يبدو في سن الخمسين ، وأنفه محدودب ، وشعره لم يخطه الشيب بعد ، وبالجملة كانت هيئته هيئة رجل كريم المحتد . أمّا الغريب فلم يشاهد في حياته شكلاً يشبه شكل فارسنا هذا ؛ ودهش أيضاً من رؤية هذا الفرس الطويل الهزيل ، وتلك القامة الفارعةالنحيلة ، وذلك الوجه الأصفرالمعروق ، وهذين الذراعين ، وبالجملة كل تلك الهيئة العابسة المضحكة معاً .

وتفطّن دون كيخوته لشدّة تفحّص المسافر له ، وقرأ الدهشة في عينيه . ولمّا كان مؤدّباً جداً ، ومستعداً باستمرار ، قبل أن يوجّه اليه الآخر أي سؤال ، فقد قال له : «لست مندهشاً ياسيدي من كونك تندهش من شكل مثل شكلي . شكل غريب مختلف عن الأشكال التي تراها عادة . ولكن دهشتك تزول حين أقول لك أنني واحد من أولئك الفرسان الذين يسيرون ، كما يقال ، سعياً وراء المغامرات . لقد هجرت بلدي ، ورهنت أملاكي ، وتركت هناك كل اللذّات ، لأرتمي في أحضان الحظ ، وأسلّم قيادي اليه يقودني إلى حيث يشاء ، فقد أخذت على عاتقي بعث الفروسية الجوّالة ، ومنذ وقت طويل ، كابياً هنا ساقطاً هناك ، ناهضاً في مكان آخر ، فقضيت شطراً كبيراً من عملي في إعانة الأرامل ، والدفاع عن الفتيات ، وحماية السيدات المتزوجات ، وإغاثة اليتامى والقصر ، وهي المهمّة التي أختص بها الفرسان الجوّالة . وأعمالي لعديدة محسّنة قد جعلتني أستحق شرف أن تطبع عند كل أمم العالم تقريباً . لقد طبع من تاريخي ثلاثون ألف نسخة ، وإذا لم تعالج السماء الأمر فمن الممكن أن يطبع منه ثلاثون مليوناً . وبالإجمال وإختصاراً للقول أقول لك إنني دون كيخوته دلا منتشا ، الملقّب بالفارس الحزين الطلعة ؛ وإذا لم يكن من الملائم أن يمدح المرء نفسه ، فإنني أرى نفسي ملزماً أحياناً بأن أفعل ذلك ، على الأقل حين لا يتولّى أحد

ذلك . ولهذا فلا ينبغي ياسيّدي الفاضل أن يدهشك هذا الفرس ، ولاهذا الرمح ، ولاهذا الترس ، ولاهذا السائس ، ولاكل هذه الأسلحة ، ولانحول جسمي ، ولاشحوب وجهي ، الآن وقد عرفت من أنا وأيّة مهنة أمارس» .

وسكت دون كيخوته ، ولم يدر الرجل ذو الرداء الأخضر بماذا يجيبه ، وأخيراً وبعد صمت طويل قال له : «لقد أدركت ياسيدي دهشتي من رؤياك ، لكنك لم تبدّدها بما أخبرتني به من مهنتك : بل على العكس ، ازددت دهشة أكثر من ذي قبل . إذ كيف يتأتى أن يكون في العالم اليوم فرسان جوّالة ، وأن تطبع كتب صحيحة في الفروسية ؟ إنّي لاأستطيع أن أقتنع أن على الأرض شخصاً يعين الأرامل ، ويدافع عن الفتيات ، ويحمي السيدات المتزوّجات ، ويغيث اليتامى ، ولن أصدّق ذلك إذا لم أره بعيني في شخصك . بوركت السماء لأن تاريخ أعمالك الجليلة الحقيقية ، التي تقول أنها مطبوعة ، سينسى عمّا قليل الناس هذا العدد الضخم من الفرسان الخياليين الذين تملأ أساطيرهم الدنيا ، إفساداً للأخلاق وللتواريخ الحقيقية » .

فقال دون كيخوته : هناك الكثير مما يمكن أن يقال بشأن الزيف المزعوم للتواريخ الفروسية .

فقال الغريب : ومن ذا الذي يشك إذن في زيف هذه التواريخ .

فأجاب دون كيخوته : أنا ، يا سيدي ، إذا أمضيت سحابة النهار معك فإنّي آمل بعون الله أن أقنعك بأنه ينبغي ألا يتّبع المرء الرأي الشائع الذي يزعم أن هذه التواريخ خرافية .

ولدى سماع هذه الكلمات أدرك الرجل ذو الرداء الأخضر أن دون كيخوته فيه مسّ من الجنون ، وانتظر بقية حججه ليتأيد عنده هذا الرأي . ولكن دون كيخوته وقد عرّفه بنفسه ، سأله قبل المضي في الحديث عن اسمه وحالته ، فأجاب الغريب :

أنا يا سيدي نبيل ولدت في قرية آمل أن نتناول الطعام فيها معاً اليوم ، وأنا ميسور النعمة ، واسمي دون دييجو دي ميرندا ، وأقضي حياتي مع زوجتي وأولادي وأصدقائي ، وهواياتي المفضّلة هي القنص والصيد : ومع ذلك فليس عندي بزّات ولاكلاب سلوقية ، بل بلشون مدرّب ، وحجل مؤنس مروّض ، وعندي قرابة سبعين مجلّداً ، بعضها باللاتينية ، والبعض الآخر بالإسبانية وبعضها في التاريخ ، والأخرى في الدين ، أمّا كتب الفروسية فلم تمر أبداً من عتبة بيتي ، وأفضّل الكتب العلمانية على الدينية ، لأنها تلذّ أكثر : فهي الى جانب جمال الاسلوب تمتاز بالإبتكار والإختراع ، لكن لايوجد في اسبانيا إلا القليل من هذا النوع . وأتناول الطعام أحياناً عند جيراني وأصدقائي ، وفي أحيان أخرى أستقبلهم في بيتي : ومآدبنا حافلة ، لا إسراف فيها ولاتقتير ، وتسودها النظافة . ولاأحب الكلام في حق الناس ولا أحتمل

سماع إنساناً يذم في آخر أمامي ، ولاأتجسّس على جيراني ، ولاأتدخّل في شؤون غيري ، وأسمع القدّاس كل يوم ، وأجود بالصدقات على الفقراء دون تظاهر بالإحسان ، حتّى لايتسرّب النفاق الى قلبي أو الغرور ، وهما عدوّان يستوليان بهدوء على أعقل الناس . وأسعى لإصلاح ذات البين بين الناس المتنازعين ، وأعبد العذراء ، وكلّي إيمان برحمة الله الواسعة » .

وسنشو ـ وكان يصغي بإهتمام بالغ الى وصف الغريب لحياته وأعماله ـ وجد هذه الحياة طيبة ، مقدّسة ، حتّى ظنّ أن من يعيش هذه العيشة لابد أن يصنع المعجزات ، فنزل عن حماره ، وسارع الى الإمساك بالركاب الأيمن لهذا الرجل الفاضل ، وقبّل قدميه مراراً ، وعيناه تغرورقان بالدموع . فقال له المسافر : « ماذا تصنع ياأخي ؟ لماذا هذه القبلات ؟ »

فأجاب سنشو : « دعني أقبّل قدمك ، لأنه يبدو لي أنّك أوّل قدّيس خيال رأيته في حياتي » . فقال الغريب : « لست أبداً قدّيساً ، بل خاطىء كبير الذنوب ، بل أنت الأولى ياأخي ، ياأخي ، أن تكون رجلاً طيباً ، كما تدل على ذلك بساطتك » .

وعاد سنشو الى ركوب حماره ، وكان موضع إعجاب المسافر . ودون كيخوته نفسه ، على الرغم من حزنه العميق ، لم يتمالك من الإبتسام لسذاجة سنشو .

وبعد ذلك بلحظات وجّه دون كيخوته الكلام مرة أخرى الى المسافر فسأله كم عدد أولاده ، وأضاف قائلاً : « من الأمور التي عدّها الفلاسفة القدماء من الخيرات العليا ، وهم الذين حرموا من معرفة الله ، التمتّع بهبات الطبيعة ، ورعاية الحظ ، وأن يكون للمرء كثير من الأصدقاء وأولاد حسان » .

فأجاب الغريب : « سيدي ، ليس لي غير ولد واحد ، وربّما كنت أكثر سعادة لولم يكن لي أي ولد ، لا لأنه شرّير ، لكنّي لاأجده حسناً بالقدر الذي كنت أرومه . وهو في الثامنة عشرة من عمره ؛ وقضى منها ستاً في شلمنقة ، يدرس اللغتين اليونانية واللاتينية ، وحين أردت أن أوجّهه لدراسات أخرى ، وجدته مولّعاً بالشعر (إذا كان الشعر يمكن أن يعد علماً) الى درجة أنه من الممكن جعله يدرس القانون ، وكنت أريد له أن يدرسه ، ولا اللاهوت الذي هو ملك العلوم كلّها . وكنت أود أن أجعل منه فخراً لوطنه ؛ نحن نعيش في عصرٍ يكافئ فيه الملوك الفضائل والآداب مكافأة مجزية ، لأن الآداب بدون الفضائل ، كاللآلىء في الزبل . وهو يمضي النهار كلّه في تحقيق هل هذا البيت من « الألياذة » جيد أو سقيم ، هل مارسيال ماجن أو غير ماجن في هذه الأهجية أو تلك ، وكيف ينبغي أن نفهم بعض أشعار فرجيليوس والخلاصة أننا نجد كل محادثاته تدور حول هوراس وبرسيوس وجوفنال وتيبولس : لأنه لايعزو لشعرائنا المحدثين كبير قيمة ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من

ضآلة تقديره للشعر الاسباني ، فإنه مشغول الآن بعمل شرح على أربعة أبيات أرسلت اليه من شلمنقة ، وتبدو لي جميلة جداً .

فقال دون كيخوته : سيدي! إن الأطفال هم بمثابة أحشاء آبائهم : ولهذا ينبغي علينا أن نحبّهم ، سواء كانوا صالحين أو فاسدين ، كما نحب الروح التي تهبنا الحياة . وواجب الآباء هو إرشادهم في أثناء طفولتهم الى سبيل الرشاد والفضيلة ، وتهيئة تربية جيدة لهم ، وأخلاق شريفة تقيّة مسيحية ، حتّى إذا كبروا صاروا عكّازات شيخوختنا ، وفخراً لذرّيتنا ، لكن الرغبة في إرغامهم على دراسة علم دون آخر ، أنا لاأوافق عليها وإن لم يكن ثم خطر في محاولة إقناعهم بذلك . وحين لايكون المرء مضطراً الى الدراسة كي يعيش ، وحين يكون الطالب الشاب من حسن الجد بحيث يكون له أب يترك له مالاً ، فإنه يبدو لي من الملائم أن نتركه يدرس من العلوم مايعجبه أكثر من غيره ، ولئن كان الشعر أدخل في الإمتاع منه في النفع ، فليس فيه مع ذلك شيء يمكن أن يدنّس شرف من يمارسه ، إن الشعر ، ياسيدي النبيل ، فتاة جميلة رقيقة يلذ لفتيات أخرى كثيرة هي العلوم الأخرى ـ أن تغنّيها ، وتزيّنها ، وتزوّقها . إنها (الشعر) تستفيد من الجميع ، والجميع يستمد منها سلطتها ، لكنها لاتريد أن تدنّس ، وتجر في الطرقات وينادى عليها في الميادين العامة ، وفي دهاليز القصور الخفية : الشعر جوهر صافٍ ذو قوة تجعل من يعرف كيف يمارسه يحوّله الى ذهب إبريز خالص جداً ، لاتصاب له قيمة . وعليه أن يضبطه ، وأن يمنعه من الفرار الى أهاجٍ مخجلة وسوناتات صامتة ، وعليه أن لاينتج إلا القصائد البطولية ، والتراغوديّات المؤثّرة ، والقوموديّات المشعشعة بخفة الروح والفرح ، ولاينبغي له أن يسلّم نفسه للمهرّجين ، والجهلة العامة العاجزين عن معرفة وتقدير الكنوز التي ينطوي عليها ، ولاتحسبن ياسيدي أنني أقصد بالعامة الدهماء ، بل أقصد كل جاهل ، مهما يكن عظيماً أو أميراً . وهكذا ياسيدي ، من يمارس الشعر بكل ألوان العناية التي بسطتها لك ، يصبح شهيراً رفيع القدر في كل الأمم المتمدّنة . أمّا قولك أن ابنك لا يقيم كبير وزن للشعر الاسباني فأنني أعتقد أنه يخطئ في هذا الحكم وهاك السبب عندي : أن هوميروس العظيم لم يكتب باللاتينية لأنه كان يونانياً ، كذلك لم يكتب فرجليليوس باليونانية لأنه كان لاتينياً وبالجملة ، كل الشعراء القدماء كتبوا بلغاتهم الأصلية ، ولم يذهبوا للبحث عن لغات أجنبية للتعبير عن أسمى أفكارهم وتصوّراتهم : وهكذا يشاء العقل أن يمتد هذا العرف الى كل الشعوب ، فلا يحتقر شاعر ألماني ينظّم بالألمانية ، ولاإسباني ينظّم بالإسبانية ، بل ولابشكوني يكتب باللغة البشكونية . ولكن ابنك ياسيدي ، فيما أتصوّر ، ليس عدوّاً للغتنا العامية (الاسبانية) بقدر ماهو عدو لشعرائنا ، الذين هم أكثر عامية ، لأنهم لايعرفون لغات

أخرى ، ولاعلوم أخرى يمكن أن توقظ وتساعد ، وتغني أساسهم هم : وحتى في هذا يجوز أن يكون ثمّ خطأ ، لأن ثمّ رأياً على أساسٍ قويم يقول أننا نولد شعراء ، أي أن الشاعر الحق هو الذي يخرج شاعراً من بطن أمه وبهذه الموهبة التي منحته السماء فإنه بدون صناعة وبدون دراسة ينظّم روائع تبرّر قول من قال « إن الله فينا ، الخ » وأضيف الى هذا أن هذا الشاعر المطبوع ، الذي يستعين بالصنعة يفوق كثيراً من لايعرف إلا الصنعة ، لأن الصنعة لاتفوق الطبيعة ، وهكذا بمزج الطبيعة بالصنعة والصنعة بالطبيعة يخرج شاعراً كاملاً . ونتيجة قولي ياسيّدي هي أن ترك ابنك يسلك المسلك الذي يقوده اليه نجمه ، ولمّا كانت الميزة كما ينبغي ، قد اجتاز بنجاح السلّم الأوّل للعلوم ، أقصد معرفة اللغات ، فإنه بمعونتنا يبلغ أعلى درجات الآداب الإنسانية التي تليق برجل العلْم أو الحرب لتزيّنه وتشرفه وتسمو به مثل القلانس للأساقفة ، والعباءات الطويلة (الأرواب) لعلماء القانون . ازجر ولدك إن نظّم أهاجي للقدح في شرف الغير ، وعاقبه ، ومزّق شعره ، لكن إن نظم قصائد مثل قصائد هوراس ينقد فيها الرذيلة بوجه عام بإسلوبٍ صافٍ ، أنيق كإسلوب ذلك الشاعر اللاتيني ، فينبغي عليك أن تثني عليه لذلك : لأنه من المسموح للشاعر أن ينظّم ضد الحسد ، وأن يهجوا الحاسدين ، وكذلك سائر الرذائل ، بشرط ألا يذكر اسم أحد من الناس ، إن هناك شعراء يجلبون على أنفسهم النفي الى جزر البحر الأسود لتلذّذهم بالسب والهجاء ، فإن كان الشاعر عفيفاً في أخلاقه ، فإنه سيكون كذلك في شعره : والقلم لسان الروح : وبحسب ماتكون تصورات هذه يكون مايكتبه ذاك ، ولهذا فإن الملوك والأمراء حين يرون علم الشعر الرائع يعالجه ناس فطنون ، أفاضل ، جادّون فإنهم يشرّفونهم ويوقّرونهم ويغدقون عليهم الصلاة ، ويصنعون لهم تاجاً من تلك الشجرة التي لاتنالها الصواعق أبداً ، وكأنهم يريدون أن يعلّموا الناس أن من الواجب عليهم ألا يهينوا أبداً أولئك الذين كلّل جبينهم بأغصان من هذه الشجرة المقدّسة » .

وبقي صاحب الرداء الأخضر في غاية الدهشة من أحكام براهين دون كيخوته ، وسرعان ماتبدّدت الفكرة التي كوّنها عن جنونه ، وأثناء هذا الحوار الجاد ، الذي لم يكن أبداً على هوى سنشو ، انحرف هذا عن الطريق ليطلب قليلاً من اللبن من رعاة كانوا يرعون ، بالقرب من الطريق قطيعاً من الأغنام . وحاول الغريب ، وقد رضي كل الرضا عن حكمة دون كيخوته وبلاغته ، أن يستأنف الحوار ، وإذا بهذا الأخير ، وهو يرفع رأسه ، يلمح على الطريق الذي يسلكونه عربة قادمة مزدانة بأعلام عليها الشارات الملكية ، وحسب أن هذه مغامرة جديدة مثلت له ، فدعا سنشو بأعلى صوته ليحضر له خوذته ، وعلى هذه الصيحات ترك سنشو الرعاة وركب حماره وعاد الى مولاه الذي وقعت له بعد قليل مغامرة مضحكة ، بقدر ما هي مروّعة .



الفصل السابع عشر

حيث يذكر أعظم دليل على شجاعة دون كيخوته، والنهاية السعيدة لمغامرة الأسود

يروي هذا التاريخ أنه في اللحظة التي نادى فيها دون كيخوته على سنشو كي يحضر له خوذته ، كان هذا بسبيل شراء جبن طري من الرعاة .ولمّا كان صوت مولاه يستحثّه ، فإنه لم يدرِ أين يضع هذا الجبن ، ولم يشأ أن يضيّعه ، لأن ثمنه كان مدفوعاً ، فخطر بباله أن يضعه في خوذة مولاه ، وعاد بسرعة ليرى ماذا يطلب منه دون كيخوته . فقال له هذا :« ياصاحبي! أعطني خوذتي لأنه إمّا أنّي لاأفهم شيئاً ، أو هذه مغامرة تلزمني بحمل سلاحي » . فتلفّت ذو الرداء الأخضرفي كل ناحية ، فلم يرَ شيئاً غير عربة مزدانة ، بعلمين أو ثلاثة ، مما جعله يعتقد أنها محمّلة بالنقود للملك ؛ وقال هذا لدون كيخوته ، لكنّ هذا ، الذي لم يكن يرى في كل شيء غير فرصة للمغامرة ، أجابه : « المكشوف نصف مهزوم ، لن أفقد شيئاً بالإحتياط وأخذ الأهبة ، وأنا أعلم بالتجربة أن لي أعداءً ظاهرين ومستترين ، لكنّي لاأعرف متى وأين وبأي شكل سيهاجمونني » .

وفي الوقت نفسه تلفّت الى سنشو وسأله عن الخوذة ، فأعطاها له سنشو قبل أن يجد متّسعاً من الوقت لإفراغها من الجبن الذي وضعه فيها ، فأخذها دون كيخوته ودون أن ينظر في داخلها ، وهكذا انضغط الجبن فبدأ اللبن المتخثر يسقط على طول صدغيه ولحيته ، فقال لسنشو : « ماهذا ؟ » ـ وكان سنشو مضطربا ـ« لكأن مخّي يصفى وانصهر ، أو أنّي أعرق من قدمي حتّى رأسي ، لكن إذا كنت أتصبّب عرقاً فليس ذلك قطعاً بسبب الخوف . لاشك أن المغامرة التي تنتظرني ستكون رهيبة . أعطني إن كان معك ، بعض القماش لتجفيف نفسي ، لأن العرق يغشي على عيني » .

وسنشو دون أن ينطق بكلمة ، قدّم له منديلاً ، وحمد الله على أن مولاه لم ينتبه لشيء . فجفّف دون كيخوته نفسه ، وخلع خوذته ليرى ماذا يرطّب رأسه هكذا ، فرأى

تلك القطعة البيضاء المتخثّرة ، فحملها الى أنفه ، وقال : «وحياة سيدتي دلثنيا! هذا جبن طري وضعته في خوذتي ياخائن ، ياوقح ، ياسائس قليل الأدب!» فقال سنشو ، بهدوء وبرود متكلّف : «إذا كان هذا جبناً فأعطني إيّاه لأكله ، أو ليأكله الشيطان وهو لابدّ أنه يعرف من الذي وضعه في الخوذة . هل تظن أنّي أتجاسر على توسيخ خوذة سعادتك؟ أوه! أنك لم تقع يدك على الفاعل الآثم . بشرفي يامولاي وبحسب مايلهمني الله ، لابد أن ثمّ سحرة يطاردونني أنا الآخر ، بوصفي عضواً ومخلوقاً من قبل سعادتك : ولابد أنهم هم الذين وضعوا هذه القذارة لإهاجة ثائر غضبك ، وتحطيم أضلاعي كالعادة ، لكنّهم أخطأوا هدفهم هذه المرّة ، فيما أرجو : وأنا أترك الحكم لعقلك الصائب ، وسيقرّر أنه ليس عندي جبن ولالبن ولاأي شيء يشابه ، ولو كان عندي منها شيء لوضعته في كرشي لافي الخوذة» .

فقال دون كيخوته : «كل شيء جائز» . وفي تلك الأثناء كان النبيل (ذو الرداء الأخضر) يتفحّصه ، ويندهش ، وازدادت دهشته لمّا أن فرغ من تجفيف رأسه ووجهه ولحيته ونظف خوذته ووضعها على رأسه وتثبّت في ركابه ، وامتشق حسامه ، وأمسك برمحه صائحاً : «ليأت من يشاء ، إنّي على استعداد لمنازلة الشيطان نفسه» .

وفي تلك اللحظة وصلت العربة ذات الأعلام ، ولم يكن فيها من أشخاص غير السائق ببغاله ، ورجل يجلس على المقدّمة . فوقف دون كيخوته وقال لهما : «الى أين ياأخوي! ماهذه العربة؟ وماذا تحملان عليها؟ وماهذه الأعلام؟» فأجاب السائق : «هذه العربة عربتي : وتحمل أسدين جميلين في قفصين ، بعث بهما والي وهران الى جلالة الملك ، وهذه الأعلام تحمل إشارات الملك للإشاره الى أن ما نحمله خاص بالملك» .

فقال دون كيخوته : «وهل هذان الأسدان كبيران؟» فأجاب الرجل الجالس على مقدمة العربة : «كبيران الى درجة أنه لم يرَ مثلهما مما ورد إلى اسبانيا من أفريقية . وأنا أعنى بهما ، وقد وردّت كثيرين ، ولكن لم أورد من قبل أشباهاً لهذين ، إنهما أسد ولبوة : الأسد في القفص الأوّل اللبوة في الثاني ، وهما جائعان الآن ، لأنّهما لم يأكلا هذا اليوم : ولهذا ابتعد ياسيدي قليلاً ، ودعنا نمر ، حتّى نسرع بالوصول الى مكان نستطيع فيه أن نقدّم لهما الطعام» .

فقال دون كيخوته وهو يبتسم ابتساماً خفيفاً : «إليّ أنا ترسل أشبال ، اليّ أنا في مثل هذا الوقت! يالله! إن من أرسلوها الى هنا سيعلمون هل أنا رجل يخاف من الأسود . انزل ، يارجل ياساذج ، مادمت أنت الذي تعنى بهما ، فافتح هذين القفصين ، وأخرج هذين

الحيوانين ، وهنا في هذا المكان الفسيح سأعرّفهما من هو دون كيخوته دلا منتشا ، على الرغم من السحرة الذين بعثوا بهما » .

فقال ذو الرداء الأخضر في نفسه : « أوه! أوه! الفارس الساذج قد كشف عن نفسه ، لاشكّ أن الجبن طرّى رأسه وأنضج مخّه » .

وفي هذه اللحظة اقترب منه سنشو ورجاه ، باسم الله ، أن يمنع مولاه من مقاتلة هذين الأسدين لأننا فيما قال : « سنمزّق كلّنا إرباً إرباً » .

فقال الغريب : « وهل تعتقد أن مولاك من الجنون بحيث يجرؤ على مهاجمة هذين الحيوانين المتوحّشين ؟ » فأجاب سنشو : « إنه ليس مجنوناً ولكنّ متهوراً » . فقال النبيل : « سأعمل على صرفه عن هذا » .

ثمّ اقترب من دون كيخوته وكان يلح على رجل الأسدين ليفتح القفصين ، وقال لدون كيخوته : « سيدي! إن الفرسان الجوّالة ينبغي عليهم أن يبحثوا عن المغامرات التي تعطيهم الأمل في أن يتمّوها على نحوٍ سعيد ، لاتلك التي لايمكن أن تكون لها نتيجة ومخرج : لأن الشجاعة التي لايقودها غير التهوّر هي أقرب الى الجنون منها الى الشجاعة . وانظر أيضاً من ناحية أخرى الى أنّ هذين الأسدين لم يأتيا الى هنا لمهاجمتك ولايخطر ذلك ببالهما : إنهما سيمثلان أمام جلالة الملك ، ولن يكون عملاً طيباً أن تمنعهما من ذلك وتضع العراقيل في سبيل سفرهما » .

فأجاب دون كيخوته : « سيدي النبيل ، اهتم برعاية حجلك الخاص ، وبلشونك الشجاع ، ودع كل إنسان يؤدّي وظيفته : وهذه وظيفتي أنا هنا ، أنا أعرف هل هذان الأسدان جاءا ضدّي ، أو لا » . قال هذا وتلفّت ناحية الرجل صاحب الأسدين وقال له : « ياصعلوك ، أقسم أنه إذا لم تفتح في الحال هذين القفصين ، فإنّي سأسمّرك بهذا الرمح في هذه العربة » فلمّا شاهد السائق عناد هذا المسلّح قال له : « سيدي! سنطيع أمرك ، لكن بالله دعني أحل البغال ، وأنجو بها قبل أن يخرج الأسدان : لأنهما لو قتلاها لأفلست الى الأبد ، ليس عندي مال غير بغالي وهذه العربة » .

فأجاب دون كيخوته : « أيها الرجل القليل الثقة ، حل بغالك ، واذهب ، وافعل ماتشاء : وسترى بعد قليل أنّك تشتغل في غير طائل ، وإنّك كنت تستطيع أن تتلافى هذه المشقّة » . فنزل السائق على الأرض ، واسرع يحل بغاله . فصاح حارس الأسدين : « أنتم جميعاً شهود على أنه ضد إرادتي وبالقوة والإكراه افتتح قفص الأسدين ، وهكذا يكون هذا الرجل هو المسؤول الوحيد عن كل الضرر الذي يمكن أن يحدثه هذان الحيوانان ، مع

احتفاظي بكافة حقوقي وأجرتي ، لكن قبل أن أفتح أرجوكم ، ياسادة ، أن تضعوا أنفسكم في أمان ، أمّا عن نفسي فأنا واثق أنهما لن يصيبانني بأي شر » .

فعاود النبيل (ذو الرداء الأخضر) الى دون كيخوته يحاول إقناعه بعدم القيام بمثل هذه العملية الجنونية ، قائلاً أن هذا تحدٍّ لله . فاقتصر دون كيخوته على القول بأنه يعرف مايعمل . فقال النبيل : « خذ حذرك ، أعتقد أنّك مخطىء » . فقال دون كيخوته : « إذا لم ترد أن تكون شاهداً على ماتعتقد أنه مأساة ، فامضِ بفرسك البقعاء ، وضع نفسك في أمان » . وعند هذه الكلمات توسّل سنشو والدموع في عينيه ، أن يتخلّى عن مثل هذه المغامرة ، التي ليست بالقياس اليها مغامرة طواحين الهواء والمغامرة الأشدّ منها المتعلّقة بطواحين الكبس ، وعلى وجه العموم كل تلك التي خاضها طوال حياته ـ لم تكن غير ألاعيب أطفال . وقال له : « تنبّه يامولاي أنه ليس هنا أي إنسحار : لقد شاهدت ، من خلال قضبان وثغرات القفص ، مخلب أسد حقيقي ، وإذا كان علينا أن نحكم بحسب هذا المخلب ، فلا بدّ أن هذا الأسد أكبر من جبل » .

فقال دون كيخوته : « إن الخوف سيجعلك تراه أكبر من نصف الكرة الأرضية . انسحب ياسنشو ، ودعني وحدي هنا . فإن متّ فأنت تعرف ما إتّفقنا عليه منذ وقت طويل ، ستذهب لتجد دلثنيا ، ولاأزيد على هذا » . ومع ذلك فقد أضاف أسباباً أخرى انتزعت من الحاضرين كل أمل في أن يتخلّى عن عناده وكان بود الرجل ذي الرداء الأخضرأن يمنعه ، ولكنّه لمّا رأى عدم تكافؤ الطرفين ، وأن من الجنون التنازع مع مجنون ، مثل دون كيخوته كما بدا له في كل حركاته ، همز فرسه ، ونخس سنشو حماره ، والسائق بغاله وابتعد الجميع قدر المستطاع عن العربة قبل أن يخلى سبيل الأسدين وراح سنشو يبكي موت مولاه ، لأنه في هذه المرة أيقن أنه سيسقط بين مخالب هذا الحيوان ، ولعن حظّه والساعة التي خطر بباله فيها أن يعود الى خدمة مولاه ، وكان وهو يبكي يضرب حماره بقدميه حتّى يبتعد عن العربة .

فلمّا رأي حارس الأسدين أن الجميع ، فيما عدا دون كيخوته ، قد ابتعدوا راح يحاول إقناع دون كيخوته ، لكن هذا أجابه أن لافائدة في هذه المحاولة ، وأن عليه أن يبادر . وبينما انشغل هذا الفارس بفتح القفص الأوّل ، فكّر دون كيخوته هل يحارب راجلاً أم راكباً ، وأخيراً قرّر أن يكون راجلاً ، خوفاً من أن يفزع روثينانته من منظر الأسد ، فنزل عن فرسه ، وألقى برمحه ، وأخذ ترسه ، واستل سيفه ، وبقدم ثابتة ، وثقة بنفسه نبيلة ، وشجاعة لاتتزعزع ، راح يقف أمام العربة ، متوكّلاً على الله وعلى سيدته دلثنيا . وهنا يصيح المؤلّف الحقيقي لهذا التاريخ الخالد :

« أي دون كيخوته دلا منتشا الباسل الجسور ألف مرة فوق الجميع ، أيها المرآة التي يمكن أن ينعكس فيها كل أبطال العالم الشجعان أنت أيها الدون مانويل دي ليون الجديد[1] ، الذي كان مفخرة الفرسان الأسبان! بأي عبارة أصف هذه المغامرة الرهيبة ؟ وكيف يتسنّى لي أن أجعل العصور المقبلة تصدّقها ؟ وأي مدائح تفي بحق فضلك ، حتّى لو كانت أكداس من صيغ المبالغة بعضها فوق بعض ؟ أنت وحدك ، راجلاً شجاعاً ، صبوراً ، حليماً ، ليس معك غير سيفك . وهو سيف ليس حتّى من طليطلة[2] ، ومعك ترسك ، الذي ليس حديده لامعاً ، هاأنت تنتظر دون تأثّر الأسدين المتوحّشين الأشد افتراساً بين الأسود التي أنتجتها صحاري افريقية . أعمالك وحدك كفيلة بمديحك ، أيها المنتشاوي الباسل إنّي أتركها كما هي ، افتقاراً الى التعبيرات المناسبة لتمجيدها » . .

وهنا يقف المؤلّف بعجبه ويستمر في حكايته هكذا :

ولمّا لاحظ حارس الأسدين من موقف دون كيخوته أنه لن يستطيع التأجيل في الإمتثال لأمره ، خوفاً من أن يصب عليه جام غضبه ـ فتح القفص الأوّل على مصراعيه ، وكان فيه كما قلنا الأسد ، وكان كبيراً جداً ذا مظهر مروّع فعلاً ، وكانت أوّل حركة أبداها الأسد هي أن تمرّغ في قفصه ، ومدّ مخالبه وتمطّى بكل جسمه ، ثمّ فتح شدقه الواسع ، وتثاءب طويلاً ، وبلسانه الذي بطول شبرين ، مسح كل وجهه ، ثمّ أخرج رأسه من قفصه ، وتلفت في كل ناحية بعينين أشد إحمراراً من الجمر المتّقد ، وبمنظر يبعث الرعب في الجسارة نفسها . ووقف دون كيخوته وحده يتطلّع اليه بإنتباه ، منتظراً وراغباً أن يخرج من قفصه ويأتي لمنازلته واثقاً أنه سيمزّق الأسد إرباً إرباً بسهولة وهو أمر كان في القمّة من الجنون المطبق ، لكنّ الأسد الكريم ، وكان مؤدّباً أكثر منه متعجرفاً ، احتقر هذه الجرأة الصبيانية ، وبعد أن تطلّع في كل ناحية ، كما قلنا ، أدار كتفيه ، وإبان مؤخرته لدون كيخوته ، وعاد يرقد جليلاً في قفصه : ولمّا رأى ذلك دون كيخوته قال للحارس أن يضرب الأسد بعصا لإهاجته وإخراجه ، فقال الحارس : « لاأجرؤ على هذا ، لأنّي لو فعلت ذلك لكنت أوّل من يمزّقه الأسد . ياسيدي الفارس ، صدّقني واقنع بما فعلت ، وهو أقصى حدود الشجاعة ، ولا

---

(١) دون مانويل بونث دي ليون الذي اشتهر في حروب غرناطة . ويروى أن أحد السيدات سقط منها ، أو سقطت عمداً ، قفازاً من نافذتها في فناء حبس فيه أسود أمر ملك اسبانيا إحضارها من افريقية . فنزل مانويل الجسور ، وفتح باب الفناء ، والتقط القفاز ، وراح يردّه الى سيدته ، فأخذته ووضعته على رقبتها وهي تقول : سأحتفظ به طول حياتي » . وقد ذكره خينس دي هيتا في « حروب غرناطة » .

(٢) « سيف البريو » : اسم أطلق على نوع ممتاز من السيوف كان يصنعه خوليان دل ري أحد كبار صنّاع الأسلحة في طليطلة وسرقسطة ، ولاتزال سيوف طليطلة مشهورة حتى اليوم وإن كانت للزينة طبعاً الأن!

تتحدّ الحظ مرة أخرى . إن الأسد فتح عليه الباب وله أن يخرج أو لا يخرج ، ومادام لم يخرج منذ قليل ، فإنه لن يخرج طوال اليوم . وعظمة شجاعتك تجلب في وضح النهار وقد سمعت أن المحارب الشجاع ليس ملزماً إلا بتحدّي خصمه وانتظاره في مكان مكشوف فإن لم يأتِ ، فالعار عليه ، ومن تحداه ينل النصر » .

فأجابه دون كيخوته «أنت على صواب فيما تقول ، أغلق باب القفص وأعطني شهادة بما رأيتني فعلته ، شهادة تامة التوثيق ، تقرّر فيها أنّك فتحت الباب للأسد ، وأنّي انتظرته ، وأنه هو لم يخرج ، ثمّ انتظرته مرّة أخرى ،ولكنّه لم يرد أن يخرج وعاد للرقاد ، وبضميري أنا لست ملزماً بأكثر من ذلك . ألا سحقاً للسحرة! الله يحمي العقل ، والعدل ، والفروسية الحقّة . أغلق ، ياصاحبي ، بينما أعطي الإشارة الى الجبناء والفرّارين ، ليعرفوا منك نبأ هذه المغامرة الشهيرة!

وامتثل الحارس ، ووضع دون كيخوته على طرف رمحه القماش الذي مسح به وجهه الموسّخ من الجبن ، ثمّ راح يشير الى أولئك الذين لم يكفّوا عن الفرار ، وهم يديرون رؤوسهم في كل خطوة ، يتقدّمهم النبيل . وكان سنشو أوّل من رأى إشارة المنديل الأبيض فقال : «أموت إذا لم يكن مولاي قد انتصر على هذه الحيوانات المفترسة ، هاهو ذا ينادي علينا » . فتلفّتوا وراءهم جميعاً ، وشاهدوا دون كيخوته يلوّح لهم بإشارات ، فنزل عنهم بعض الخوف واقتربوا شيئاً فشيئاً ، وسمعوا بوضوح صيحات دون كيخوته ، وأخيراً وصلوا الى العربة ، وقال دون كيخوته ، موجّهاً الخطاب الى السوّاق : «ضع بغالك في العربة ، ياأخي ، وتابع سيرك ، وأنت ياسنشو أعطيه اسكودوين من الذهب له ولحارس الأسدين ، تعويضاً لهما عن الزمن الذي جعلتهما يضيّعانه» .

فقال سنشو : «أعطيهما عن طيب خاطر ، لكن ماذا صار اليه أمر الأسدين ؟ هل هما ميّتان أو حيّان ؟ » .

هنالك أخذ حارس الأسدين يردّد تفصيلاً كل ماحدث ، مبالغاً في شجاعة دون كيخوته الى أقصى حد ، قائلاً أن منظره أخاف الأسد ، الى حد أنه لم يجرؤ على الخروج من قفصه الذي ظلّ مفتوحاً مدّة طويلة ، وأضاف أنه أوضح لدون كيخوته أن من تحدى الله أن يهيّج الأسد لإخراجه بالقوة من القفص كما أراد ؛ حتّى أن الباب ، طوعاً أو كرهاً ، أعاد إغلاقه .

فقال دون كيخوته : «ما رأيك في هذا يا سنشو ؟ هل تستطيع السحرة شيئاً ضد الشجاعة الحقّة ؟ قد يستطيعون أن ينتزعوا منّي الفرصة لإظهار شجاعتي ، لكن أن يقضوا عليها ، هذا مستحيل» .

وأعطى سنشو ، الاسكودين ، ووضع السائق دوابه في العربة ، وقبّل حارس الأسدين يدي دون كيخوته ، ليشكره ، ووعده برواية هذه المغامرة الباسلة للملك نفسه حين يصل الى البلاط .

فقال له دون كيخوته : « وإذا سألك من قام بها ، فقل له أنه فارس الأسود ، لأنّي أريد منذ الآن فصاعداً إتخاذ هذا اللقب ، واستبداله بلقب الفارس الحزين الطلعة : وفي هذا أنا أتابع العرف القديم الجاري بين الفرسان الجوّالة ، فقد كانوا يغيّرون ألقابهم حين يشاؤون ، أو حين تسنح الفرصة » . واستأنفت العربة مسيرها ،وكذلك تابع دون كيخوته وسنشو والرجل ذو الرداء الأخضر طريقهم .

وإبان هذا لم يفتح دون دييجو دي ميرنده فمه بكلمة ، إذ كان مشغولاً بملاحظة أفعال دون كيخوته وأقواله وبدا له أن هذا الفارس حكيم مصاب بالجنون ، أو مجنون مزوّد بالعقل السليم . ولم يكن قد عرف بعد ـ القسم الأوّل من تاريخه المطبوع : ولو كان قد عرفه ، لما كان قد دهش من حركاته وأفعاله ، إذ كان سيعرف أي نوع من الجنون ينتابه لكن لمّا كان يجهله ، فإنه كان يعد دون كيخوته مرّة مجنوناً ، ومرّة عاقلاً لأن أقواله كانت صافية ، أنيقة ، معقولة ، وأفعاله كانت بغير عقل ، متهورة ، جنونية .

وقال في نفسه : « أي جنون في أن يضع على رأسه خوذة مملوءة بالجبن ، ويعتقد بعد ذلك أنّ السحرة طرّوا رأسه! وهل هناك جنون أو تهوّر أكبر من أن يريد مقاتلة أسود » . وأخرجه دون كيخوته من هذه الخواطر والمناجيات حين قال له :

ـ أراهن ياسيّدي دي ميرنده ، أنك تعدّني أحمق مجنوناً ، ولا يدهشني هذا ، لأن أفعالي لاتدل إلا على هذا ، لكن مع ذلك أرجوك أن تصدّق أنني لست مجنوناً ممروراً كما أبدوا لك ، هذا فارس يتميّز في نظر الملك ، حين يضرب في الميدان الواسع ثوراً قوياً بضربة محكّمة من رمحه ، وهذا فارس آخر ، مدجّج بالأسلحة اللامعة ، يدخل لحلبة أمام السيدات ويبدي عن مهارته في المباريات ، وبالجملة ينظر بعين الرضا الى أولئك الذين ، في التمرينات العسكرية أو التي تبدو كذلك ، يشغلون ، ويسلّون ، ويشرّفون ـ إذا صح القول ـ بلاط الأمراء . لكن لأجدر منه بالتقدير هو الفارس الجوّال الذي يجوب القفار ، والأماكن الموحشة ، ومفارق الطرق ، والغابات والجبال ، سعياً وراء أخطر المغامرات يخوضها ويخرج منها ظافراً منتصراً ، لا لغرض سوى أن يظفر بمجد دائم! ألا يخلق بالناس أن يفضّلوا من يغيث الأرامل في مكان موحش على رجل البلاط الذي يمارس الحب في وسط المدن ؟ لكل فارس وظائفه الخاصة ، وعلى من في المدن أن يخدموا السيدات ، ويزيّنوا البلاطات

بملابسهم الزاهية ، ويدعوا الى موائدهم الفاخرة الفرسان الذين تولاّهم سوء الحظ ، وليقيموا المباريات ، ويقترحوا البرجاسات ، وليظهروا ، بالجملة ، عظماء ، رائعين ، أسخياء ، وفوق كل شيء مسيحيين صالحين ـ فإنهم بهذا يؤدّون واجبهم ، لكن الفارس الجوّال يجب عليه أن يتجوّل في كل أركان العالم ، وينفذ في أشد الأتاويه تشابكاً ، وأن يتحدّوا المستحيل في كل لحظة ، ويتحمّلوا ، وسط القفار أشعة شمس الصيف المحرقة ، وقسوة ثلوج الشتاء ، وشدّة الرياح ، لايخافون الأسود ، ولاترهبهم الأشباح ، ولاتفزعهم العفاريت يبحثون عن هؤلاء ، ويهاجمون أولئك وينتصرون على الجميع . هذه هي تمريناتها الحقيقية ، وما دام نصيبي هو زيادة عدد هؤلاء الفرسان ، فإنّي لاأملك نفسي عن القيام بكل مايندرج في مهامهم ، وهكذا أستطيع أن أعفي نفسي من مهاجمة هذين الأسدين اليوم ، وإن كنت أعرف أن هذا منتهى التهوّر ، لأنّي لاأجهل أن الشجاعة وسط عادل بين طرفين هما الجبن والتهوّر ، ومع ذلك فمن الأفضل أن يرتفع الرجل الشجاع الى آخر درجات التطرّف من أن ينحطّ وينزل الى الجبن كما أنه أسهل على المبذّر من البخيل أن يكون مجرّد كريم ، فكذلك المتهوّر يمكنه على نحو أسهل أن يحصر نفسه في حدود الشجاعة الحقيقية من الجبان الرعديد الذي يبلغها . أمّا عن تحدّي المغامرات فصدّقني ياسيدي الدون دييجو ، الأفضل أن يهلك المرء من أجل الأكثر خيراً منه من أجل الأقل ، لأن الأجمل أن يقال : هذا الفارس متهوّر جسور ، من أن يقال : إنه جبان رعديد .

فأجاب دون دييجو : ياسيّد دون كيخوته! كل مافعلته وقلته يتّفق مع العقل السليم المستقيم ، ولو ضاعت قوانين الفروسية الجوّالة ، لعثر عليها في قلبك فهو مستودعها ، وخزانة حفظها ، لكنّي أرجوك أن تسرع السير ، والوقت تأخّر بنا ، ولنسرع للوصول الى قريتي وبيتي : وهناك تستطيع أن تستريح من عناء أعمالك التي إن لم تتعب الجسم فقد أتعبت الروح وهو ما يؤدّي غالباً الى إتعاب الجسم أيضاً .

فأجاب عليه دون كيخوته : إنها لمكرمة عظيمة منك أن تدعونا هذه الدعوة الكريمة .

وهنالك حثّا المسير ، وكانت الساعة قرابة الثانية بعد الظهر حينما وصلوا الى بيت دون دييجو الذي سمّاه دون كيخوته باسم فارس الرداء الأخضر .

الفصل الثامن عشر

فيما وقع لدون كيخوته في قصر أو بيت فارس الرداء الأخضر وأمور أخرى عجيبة

وجد دون كيخوته بيت دون دييجو فسيحاً ، شأن البيوت في الريف ؛ وكانت شارته فوق الباب منحوته من الحجر الغليظ ، والكهف في الفناء ، والمخزن تحت البوابة ، وشوهد حواليه كثير من الأباريق الكبيرة المصنوعة في توبوسو ، مما ذكّر فارسنا بسيّدته دلثنيا المسحورة المتحوّلة ، ودون وعي ، وبغير أن يهتم ليرى هل ثمّ شهود ، صاح وهو يتنهّد :

« أيتها الرهائن العزيزة التي وجدتها لتثير عذابي! حلوة فرحة إذا شاء الله! أي أباريق توبوسو ، يامن تذكّرينني بموضوع حزني المرير ، موضوعه العذاب الرقيق! »

وسمعه التلميذ الشاعر ، ابن دون دييجو ، الذي جاء في هذه اللحظة مع أمّه لملاقاة أبيه ، ولمّا شاهدا شكل دون كيخوته الغريب عقدت الدهشة لسانهما . وأسرع هذا فنزل ، وراح يحيّي هذه السيدة ويقبّل يدها بكل أدب واحترام . وقال لها دون دييجو : « تفضّلي ياسيّدتي فاستقبلي ، بلطفك المعهود ، السيد دون كيخوته الذي أقدّمه إليك : إنه فارس جوّال ، وأعقل وأشجع فارس جوّال في العالم » . فتلقّت السيدة ، واسمها دونياكرستينيا ، دون كيخوته بالترحاب والأدب ، وهذا بدوره أبدى عن تعقّل وأدب بالغ . وتبودلت التحيّات نفسها بين دون كيخوته والشاعر الطالب ، الذي حكم عليه بأنه عالم خفيف الروح ، بناءً على الكلام الذي قاله الفارس .

وهنا يصف المؤلّف بالتفصيل بيت دون دييجو ، ويبيّن كل الأشياء التي توجد عادة عند ثري في ريف نبيل ، لكنّ المترجم رأى من واجبه حذف هذه التفصيلات الدقيقة ، لأنها لاتلائم كثيراً الغرض الحقيقي من هذا التاريخ الذي يستد كل قوته من الحقيقة ، لا من الاستطرادات الباردة .

أدخل دون كيخوته في قاعة . وخلع سنشو سلاحه عنه : فبقي في سراويل واسعة وصديري ملوّن من الشاماوه سوده حك السلاح ، وكانت ياقته واسعة كالتلاميذ ، بغير نشا ولا دنتله ، وكانت خفّافه صفراء ، وحذاؤه مطليّاً ، وأخذ سيفه البتّار الذي كان معلّقاً بجزام من جلد الذئب البحري ، لأنه فيما يقال كان مريضاً بكليتيه مدة طويلة ، وغطّى نفسه بمعطف من الجوخ الأسمر الجيد ، ولكن ، وقبل كل شيء ، بخمسة أو ستة أباريق ماء ، وهناك خلاف في العدد الدقيق لهذه الأباريق ، غسل وجهه ورأسه ، وفي كل مرة كان الماء مبيضّاً ، بسبب شراهة سنشو وشرائه الجبن . ولمّا تزيّن دون كيخوته على هذا النحو ، انتقل الى قاعة أخرى ، كان ينتظره فيها الشاب ليحادثه أثناء ماكانوا يعدّون الطعام : لأن دونيا كرستنيا أرادت ، بمناسبة مقدم هذا الضيف النبيل ، أن تبيّن أنها تعرف وتقدر على استقبال من يأتون اليها .

وبينما كان دون كيخوته يخلع سلاحه ، سأل دون لورنثو ، ابن دون دييجو ، أباه رأيه في هذا الرجل الذي أتى به معه ، وأضاف : « أن اسمه وشكله وصفته فارساً جوّالاً وضعتنا ، أنا وأمّي ، في دهشة بالغة » .

فقال له أبوه : « لاأدري ماذا أقول لك ياولدي : لقد رأيته يأتي أعمالاً لاتصدر إلا عن أكبر مجنون في الدنيا ، بينما أقواله من الحكمة بحيث تنسي المرء أفعاله . تكلّم معه أنت ، وجس نبضه فيما يتعلّق بما يعرف ، وأنت مثقّف ، وستحكم على حكمته أو جنونه ، وإن كنت في الحق أعتقد أنه مجنوناً أكثر منه عاقلاً » .

فذهب دون لورنثو اذن للتحادث مع دون كيخوته ، فكان من بين ماقاله هذا للإبن : « إن السيد والدك مدح كثيراً قريحتك النادرة ، ولطافة عقلك ، وقال لي خصوصاً أنّك شاعر كبير » .

فقال لورنثو : « شاعر ، هذا جائز ، ولكن شاعر كبير ، فلا أظن : صحيح أن عندي ذوقاً مرهفاً للشعر وأحب قراءة الشعراء المجيدين ، لكن هذا لا يكفي لأستحقّ اللقب الذي نعتني به والدي » .

فقال دون كيخوته : يعجبني هذا التواضع ، إذ لا يوجد شاعر ليس متكبّراً متعجرفاً يحسب نفسه أعظم رجل في العالم » . فقال لورنثو : « لاتوجد قاعدة بغير استثناء ، ومن الناس من هو شاعر دون أن يدري ، فقال دون كيخوته : « إن عددهم قليل ، لكن قل لي ياسيدي ، أي شعر تشتغل به الآن ويسبب لك ، حسبما يقول والدك ، كثيراً من الهموم والإنشغال . إذا كان الأمر يتعلّق بشرح ، فإنّي أفهم في هذا بعض الفهم ، وسأكون مسروراً

لو رأيت شعرك . وإذا كان يتعلّق بمباراة أدبية ، فإنّي أدعوك الى أن تنشد الجائزة الثانية ، لأن الأولى تعطى في العادة بسبب محاباة للشخص أو صفة في شخصيّته ، أمّا الثانية فتعطى بعدل ، وكذلك الثالثة ، حتّى أنه تبعاً لهذا الحساب فإن الأوّل يصبح الثالث من حيث الاستحقاق ، كما هو الشأن في الليسانسات التي تعطى في الجامعات : فدائماً شخص كبير هو الذي ينال الجائزة الأولى » .

فقال دون لورنثو بصوت هامس في نفسه : « حتّى الآن لا أستطيع أن أعدك مجنوناً . فلنتابع » . ثمّ قال بصوت مسموع لدون كيخوته :

ـ يبدو لي ياسيدي أنك دخلت المدارس : فأي علم تعلّقت به أكثر من غيره ؟

ـ علم الفروسية الجوّالة ، وهو جيّد مثل الشعر ، بل وأفضل .

ـ أنا لاأعرف هذا العلم : لم يبلغ علمي حتّى الآن .

فقال دون كيخوته : هذا علم يشمل العلوم كلّها ، أو على الأقل معظم علوم العالم . والذي يمارسه ينبغي أن يكون فقيهاً مشرّعاً ، يعرف كل قوانين العدالة التوزيعية والعدالة التعويضية ، ليعطي كل ذي حقٍّ حقّه ، وينبغي عليه أن يكون عالماً بأصول الدين ، ليستطيع تفسير وتبرير الشريعة المسيحية التي يؤمن بها ، ويشرحها بوضوح ومعقولية ، كلّما دعت الحاجة الى ذلك ، وينبغي عليه أن يكون طبيباً ، وخصوصاً عشّاباً ، ليعرف وهو في وسط القفار الأدوية المفردة التي تبرىء الجروح : لأنّ الفارس الجوّال يجب عليه ألا يبحث في كل لحظة عن شخص يضمّد جراحه ، وينبغي عليه أن يكون عالماً بالنجوم ، ليعرف ، بمعونة النجوم ، ساعات الليل ، في أي جو وأي مكان وجد ، وينبغي عليه أن يعرف الرياضيّات لأنه يحتاج اليها في كل خطوة يخطوها . ولندع جانباً الفضائل اللاهوتية والأصلية التي ينبغي أن يمارسها ، ولننزل الى تفاصيل أقل : وينبغي عليه أن يعرف السباحة كما كان يسبح « السمكة نقولاس »[1] ، وينبغي عليه أن يعرف كيف يصنع الحديد من نعل الفرس ، ويصلح السرج واللجام ، ولكي نعود الى حديثنا الأولى أقول : أن عليه أن يؤمن بالله ويثق بسيدته ، وأن يكون عفيفاً في أفكاره وأعماله ، شريفاً في كلامه ، سخيّاً فيما يقوله ، شجاعاً في أفعاله ، صابراً على الآلام ، محسناً على الفقراء ، والخلاصة أن عليه أن يعلن الحقيقة ، ويدافع عنها ، ويؤيّدها ويسندها حتّى لو كا ن في

---

(١) سباح مشهور عاش في نهاية القرن الخامس عشر ، أصله من قطانيا في جنوب إيطاليا . وكان يمضي في الماء أكثر مما يمضي على البر ، وكان يتحدى الأمواج في أشد العواصف ، ليؤدي مهمّات للملاحين الذين كانوا في البحر . ولكنه هلك أمام مسينا ، وهو يحاول أن يلتقط صحناً من الذهب كان فريدريك ، ملك نابلي ، قد أمر بإلقائه في البحر لإمتحان مهارة الغوّاصين .

ذلك خطر على حياته : بكل هذه الصفات ، الكبيرة والصغيرة ، يجب أن يتحلّى بها الفارس الجوّال . فاحكم الآن ، ياسيد دون لورنثو ، هل هذا العلم يستحق الإحتقار ، وهل لايتكافأ مع أسمى العلوم التي تدرّس في المدارس والمعاهد ؟

فأجاب دون لورنثو : لو كان الأمر هكذا لقلت إن هذا العلم يفوق سائر العلوم .

فقال دون كيخوته : كيف ، لو كان الأمر هكذا ؟

فقال دون لورنثو : أقصد أنني أشك في أنه وجد أو لايزال يوجد فرسان جوّالة يتحلّون بكل هذه الفضائل .

فقال دون كيخوته : كثيراً مالاحظت ، مثلك ياسيدي ، أن معظم الناس لا يصدّقون أنه وجد فرسان جوّالة ، أمّا عن نفسي فأنا أرى أنه بغير معجزة من السماء فإنه لا أحد سيقتنع بهذه الحقيقة وكل مجهود يبذل في محاولة إقناعهم سيذهب عبثاً ، كما تدل على ذلك التجربة . ولن أحاول أبداً إنتشالك من هذا الخطأ الشائع المشترك ، وإنّما سأدعو السماء أن تنوّرك ، وتجعلك تفهم كم كان الفرسان الجوّالة ذوي نفع كبير في الماضي ، وكم سيكونون ذوي نفع كبير اليوم ، إن وجدوا . لكن اليوم لاينتصر غير الكسل والبطالة ، والشراهة والشهوة ، بسبب خطايا الناس .

فقال دون لورنثو في نفسه : « آه! لقد تخلّص ضيفنا من المشكلة هذة المرة : إنه مجنون لطيف ممتع ، وسأكون أنا مجنوناً إذا حسبت شيئاً آخر » .

ووقفت المناقشة عند هذا الحد ، اذ دعيا للطعام . وسأل دون دييجو إبنه عن رأيه في الفارس . فأجاب : « كل الأطبّاء والكتّاب المجيدين في العالم لن ينتشلوه من حمأة تهاويله الجنونية : إنه مجنون مشتّت منوّع ، لكن يتخلّل جنونه فترات تعقّل واضحة » .

وأخذوا في تناول الطعام : وكانت وجبة ، كما أعلن دون دييجو في الطريق ، حافلة ممتعة شهية ، لكن أكثر ماأثاره دهشة دون كيخوته هو مراعاة الصمت الرائع على المائدة : وكأنّهم كانوا جماعة من الشارتريين .

ثمّ رفعت المائدة ، وتلي الحمد ، ورفعت الأيدي ، فرجا دون كيخوته من دون لورنثو بحرارة أن ينشده الأشعار التي كانت موضوع المباراة الأدبية ، فقال الفتى :

ـ حتّى لا أشبّه أولئك الشعراء الذين يرفضون إنشاد شعرهم حين يرجون في ذلك ، ولكنهم يقذفون به في أنفك حين لاتطلب منهم ، سأقرأ عليكم شرحي ، الذي لاأنتظر عليه أية جائزة ، لأنّي لم أنظّمه الا من باب التمرين العقلي .

فقال دون كيخوته : كان لي صديق مثقّف حكيم ، وكان من رأيه أنه ينبغي على المرء

ألا يضيّع وقته في كتابة[1] شرح على الشعر : لأنه ، هكذا قال لايمكن الشرح أن يساوي النص ، وفي أغلب الأحيان ينحرف عن القصد من الموضوع ، أضف الى ذلك أن قوانين الشرح قاسية جداً : فهي لاتسمح بالإستفهام ، ولا بكلمات مثل « قلت » ، « سأقول » ، ولاتسمح بتكوين أسماء من الأفعال ولابتغيير المعنى ، فضلاً عن القيود الأخرى التي لابّد أن تعرفها .

فقال دون لورنثو : الحق ، ياسيدي ، أنني ظننت أنّي سأصطادك هنا ، ولكنّي لا أستطيع ، فأنت تفلت منّي دائماً كثعبان السمك .

فأجابه دون كيخوته : لا أفهم ماذا تريد ، ماذا تقصد بقولك انني أفلت منك دائماً ؟

فقال دون لورنثو : سأفسّر لك فيما بعد ، أمّا الأن فتفضّل ياسيدي بسماع الشعر والشرح . ها هما :

لو عاد ماكان لم أحتج الى الأمل

أو فلينئن وقت ما لا بد أن يقعا

شرح

« وأخيراً ، وكما أن مصير كل شيء الزوال ، فقد مضى النعيم الذي منحني أياه الحظ الجوّاد ، ولم يردّه الا بعد ذلك ، لا بيد سخية ولا بتقتير . مضت قرون وأنت تراني ، أيها الحظ ، أجثو عند قدميك . رد اليّ نعيمي الماضي ، وسأكون سعيداً « لو عاد ماكان » .

« لاأريد لذّة أخرى ولامجداً آخر ، ولاجائزة ولاغنيمة ، ولاانتصاراً ولاظفراً ، غير أن أسترد ذلك النعيم الذي تبعث ذكراه الأسى في نفسي . فإن رددتني اليه ، أيها الحظ ، هدأ أوار ناري في الحال ، خصوصاً إذا أتى هذا النعيم وشيكاً « لم أحتج الى الأمل » .

« أنّى أطلب المستحيلات ، لأن العمل على إمكان عودة الزمان الذي قد كان ، أمر لم تصل الى تحقيقه أية قوّة على ظهر الأرض . إن الزمان يجري ، ويطير ، ويمضي بسرعة حتّى لايعود ، ويخدع نفسه من يريد أن يكون الزمان قد مضى فعلاً ، « أو فلينئن وقت » .

« والعيش في قلق مستمر ، بين الرجاء والخوف ، هو الموت ، والأفضل أن يموت المرء فعلاً لينجو من الآلام . وفائدتي في أن ينتهي عمري ، لكن لا ، لأنّي إذا فكّرت وجدت أن الحياة تبث فيّ الخوف ، « مما لابد أن يقعا » .

ولم يكد دون لورنثو يتم إنشاد شرحه ، حتّى نهض دون كيخوته وأمسك بيده اليمنى

(١) شرح منظوم على نص شعري ، وكان نوعاً من المباراة الشعرية التي يتنافس فيها الشعراء ، ويمنحون الجوائز عليها .

وقال : «الله حي! أيها الفتى الكريم ، أنت أعظم شاعر في الدنيا ، تستحق أن تتوّج بإكليل من الغار ، لافي قبرص ولاجنيتا ، ولكن كما قال شاعر يرحمه الله ، ولكن في أكاديميات أثينا إن كانت لاتزال قائمة ، أو على الأقل تتوّجك الأكاديميات الموجودة الآن في باريس وبولونيا (ايطاليا) وشلمنقة . ولتقدّر السماء أن ينفذ فيبوس سهامه في قلوب القضاة الذين يرفضون منحك الجائزة الأولى ، ولاتلمس ربّات الشعر (الموساوات) عتبة أبوابهم! لكن ، قل لي ياسيدي ، ألم تنظّم أبداً أشعاراً كبيرة ؟ إنّي أود أن أعرف أعماق عقلك الرائع» .

ويخدع المرء نفسه إذا ظن أن لورنثو لم يتأثّر بمديح دون كيخوته ، وإن كان يعدّه مجنوناً . ياللقوّة التملّق! إن أثرك لعظيم ، وحدود دولتك الممتعة الواسعة! ودون لورنثو يقدّم الدليل على هذه الحقيقة ، لأنه امتثل لرغبة دون كيخوته ، بأنه أنشد سوناتة موضوعها يتعلّق بخرافة أو تاريخ فيريام وثسبيه .

سوناتة

«نفذت من السور الفتاة الجميلة التي فتحت قلب فيرام الكريم . والحب رحل من قبرص ، ومضى فوراً ينظر الفتحة الضيقة العجيبة .

«هناك يتكلم الصمت ، لأن الصوت لايجرؤ على النفوذ من مثل هذا الثقب الضيّق ، لكنّ الأرواح تمر من خلاله ، لأن الحب يسهّل كل صعب .

«الرغبة خرجت عن الحدود ، ومسالك العذراء المتهوّرة يفضي الى موتها ، بدلاً من متعتها . انظر أية حكاية!

«كلاهما ، في الوقت نفسه ، ياله من حظ غريب ، يقتلهما سيف ، ويحتويهما قبر ، وتبعثهما الذكرى نفسها» .

فصاح دون كيخوته بعد أن سمع هذه السوناتة : «بارك الله فيك! أخيراً ، بين الحشد الهائل من الشعراء المجيدين الموجودين ، لقيت شاعراً ، هو أنت ياسيدي ، وهذه السوناتة دليل على هذا» .

وأمضى دون كيخوته أربعة أيّام في ضيافة ممتازة ، عند دون دييجو . وعند نهاية المدّة سأله الإذن في الرحيل ، معرباً عن أجزل آيات الشكر والإمتنان لهذه الضيافة الكريمة ، لكنّه أضاف أنه ليس من المناسب أن يستسلم الفرسان الجوّالة للراحة والرخاوة ، وأنه لذلك مضطر الى استئناف المسير ، والبحث عن المغامرات ، وهو يعلم أنها كثيرة في هذا الإقليم ، حتّى يحين أوان مباريات سرقسطة التي ينوي حضورها ، بيد أنه يريد قبل ذلك أن يزور كهف مونتسينوس الذي تروى عنه العجائب ، وأن يعرف بنفسه المنبع الحقيقي للبحيرات

السبع التي تسمّى عادة باسم «برك رويديرا» فأثنى دون دييجو وابنه على عزيمته الشريفة ، ودعواه الى أن يأخذ من بيتهما كل ما يراه مناسباً ، وأبديا له استعدادهما لتقديم كل خدمة ممكنة اعترافاً بقيمته وشرف مهنته .

ثمّ جاء يوم الرحيل ، وأبدى دون كيخوته من الرضا بقدر ماأبدى سنشو پنثا من الحزن والهم لأن هذا الأخير عاش عيشة رافهة جداً في بيت دون دييجو ، ولم يشأ العودة إلا مكرهاً الى ألوان الحرمان التي يتلقّاها المرء عادة في القفار والغابات ، حيث كان الزاد الفقير في خرجه قليل الفائدة ؛ ومع ذلك فقد ملأه بأحسن مايستطيع . وقال دون كيخوته لدون لورنثو ، وهو يودّع مضيفيه : «لقد قلت لك ياسيدي ، وأكرّر لك أنّك إذا شئت أن تقوم بالأعمال التي يمكن أن تقودك الى قمة معبد الشهرة ، تلك القمة الصعبة البلوغ ، ليس أمامك إلا أن تترك الطريق الضيّق للشعر ، وأن تتقدّم بخطى ثابتة في الطريق الأضيق ، طريق الفروسية الجوّالة ، فتستطيع أن تصبح ، في لحظة واحدة ، امبراطوراً » .

وبهذا أتمّ دون كيخوته الإبانة عن جنونه ، وخصوصاً حين أضاف قائلاً : «الله يعلم كم يسرّني أن آخذ معي السيّد دون لورنثو ، لأعلّمه كيف ينبغي أن نعفو عن المهزومين ونخضع المتمرّدين والمتكبّرين ، وهما فضيلتان من صميم المهنة التي أمارسها ، لكن مادام فتاء سنّه ودراساته الحميدة تحول دون أمنياتي ، فإنّي أكتفي بأن أنبّهك الى أنه في ميدان الشعر ، تستطيع أن تجعل نفسك مشهوراً ، إذا قدّرت إنتاجك حسب رأى الآخرين لا تبعاً لرأيك أنت . لايوجد آباء يرون أطفالهم قبيحين ، وهذا الخطأ أشد نكراً حين يتعلّق الأمر بثمار عبقريّتنا » .

وتعجّب الولد من غرابة طباع دون كيخوته ، وهذا المزيج المستمر من الحكمة والجنون ، وخصوصاً إصراره على متابعة المغامرات التي كانت الهدف الوحيد لأمانيه . وكرّرا له استعدادهما لخدمته وتحيّاتهما ، ثمّ ودّع دون كيخوته راكباً روثينانته ، وسنشو راكباً حماره ، سيدة القصر وأخذا في المسير .

الفصل التاسع عشر

حيث تروى مغامرة الراعي العاشق، وحوادث أخرى صادقة بقدر ما هي ممتعة

كان دون كيخوته غير بعيد عن قرية دون دييجو ، حينما لقي نوعين من الكتّاب أو الطلبة ، يتلوهما فلاحان ، والأربعة يركبون حميراً ، وكان أحد الطالبين يحمل ، بدلاً من حقيبته ، بعض الخرق الملفوفة في قماش أخضر ، وزوجين من جوارب صوفية ، والآخر كان يحمل سيفين[1] جديدين بزرايرهما ، وكان الفلاحان يحملان مواد تموينية يبدو أنهما اشترياها من المدينة ليحضراها الى قريتهما . واستولت الدهشة على الجميع لمرأى دون كيخوته كدهشة كل من يراه لأوّل مرّة ، وتحرّقوا شوقاً لمعرفة من عسى أن يكون هذا الرجل العجيب . حيّاهم دون كيخوته ، ولمّا رآهم يسلكون الطريق نفسها ، عرض عليهم المرافقة ، راجياً منهم إبطاء سير ركوبتهم ، وكانت تجري أسرع من فرسه ، ولحملهم على ذلك قال لهم ، بإختصار ، إنه فارس جوّال ، وأنه يسير بحثاً عن مغامرات في كافة أجزاء الدنيا الأربعة ، وذكر لهم اسمه ، وأضاف اليه لقب «فارس الأسود» . أمّا الفلاحان فقد بدا لهما كل ماقاله لغة لايفهمونها ، ولكنّ الطالبين تبيّنا بسهولة جنون دون كيخوته لكنّهما نظرا اليه بدهشة ممزوجة بالإحترام .

قال له أحدهما : «سيدي الفارس! إذا كنت مثل أولئك الباحثين عن المغامرات لاتتخذ طريقاً معيّناً ، فإنّي أدعوك الى المجيء معنا : وسترى واحداً من أجمل وأغنى الأعراس التي احتفل بها في إقليم المنتشا والنواحي المجاورة» .

فسأله دون كيخوته هل هذا عرس أمير أو رجل ذي لقب . فقال الطالب : «لا ، بل عرس حراث بسيط وفلاحة ، ولكن الرجل أغنى أهالي الإقليم ، والعروس أجمل فتاة .

---

(١) من السيوف المستخدمة في المسايفة (اللعب بالسيف) .

والإستعدادت لهذا العرس هائلة ، إذ سيجري الاحتفال في مرج مجاور لقرية العروس التي تدعى « كتريه الجميلة » . كما يدعى خطيبها باسم « كمتشو الغني » . عمرها ثماني عشرة سنة ، وعمره هو إثنان وعشرون ، وبالاختصار كلاهما كفؤ للآخر ، وإن كان المتحذلقون الذين يعرفون كل أسرار الدنيا يدعون أن أسرة كتريه أعظم من أسرة كمتشو ، لكن لاينبغي أن نعبأ بهذا ، لأن الثروة ترتّب كل شيء . والحق أن كمتشو كريم ، وقد قرّر أن يغطّي كل المرج بأغصان الشجر ، حتّى لاتنفذ الشمس إلا قليلاً من خلال الخضرة ، لتذهيب عشب الحقول . ورقصة السيوف ، ورقصة الشخاشيخ ، ورقصات أخرى كثيرة سيزدان بها الاحتفال ، إذ في قريته راقصون بارعون . ولاأقول شيئاً عن الراقصين بأحذيتهم : فهناك منهم عدد هائل . ولكن من بين أحداث هذا العرس حادث سيجعله خالد الذكر ، ألا وهو يأس باسيل . باسيل هذا راعٍ شاب جارٍ لكتريه ، بيتاهما متلاصقان ، ولذ للغرام ، أن يستغل الفرصة فيجدّد المناظر المؤثرة بين فيرام وثسبيه . وكان باسيل يعبد كتريه منذ نعومة أظفاره ، وهي بدورها استجابت لغرامه : حتّى كانت الشائعات في كل القرية تتحدّث عن غرام هذين الولدين الواحد بالآخر . وكبرا في السن مع الزمن : فقرّر والد كتريه أن يحرم من الآن فصاعداً دخول بيته على باسيل ، ولكي يزيل منه كل حجّة في الغيرة ، قرّر أن يزوّج ابنته من كمتشو الغني ، لأنه رأى أن زواجها من باسيل غير مناسب ، لأن هذا الأخير لم يرعه الحظ كما رعته الطبيعة . ولكي نقول الحق بغير حسد ، نقول أن هذا الشاب هو أنشط شباب القرية ، وهو يرمي الجلّة ، ويصارع ، ويلعب الكرة ، ويعدو كالغزال ، ويقفز كالمعزة ، ويكفأ[1] الاسطوانات بما يشبه المعجزة ويغنّي كالبلبل ويعزف على القيثارة عزفاً مطرباً ، وفوق هذا كلّه يضرب بالسيف كأشجع الفرسان .

فقال دون كيخوته : لهذه الصفة الأخيرة وحدها يستحقّ أن يتزوّج ليس فقط كتريه الجميلة ، بل وأيضاً الملكة جنيفرا لو كانت لاتزال في قيد الحياة ، على الرغم من لانصلو وكل من يريدون الإعتراض على ذلك .

فقال سنشو ، الذي ظلّ حتّى الآن يصغي ولايقول كلمة : « والله أن زوجتي من رأيها أنه يجب على كل واحد أن يتزوّج التي في مستواه ، عملاً بالمثل القائل : كل نعجة ونعجتها ، وبودّي لو أنّ هذا الدون باسيل ، وقد بدأت أحبّه ، يتزوّج هذه السيدة كتريه ، أطال الله في عمرها ، ولعن الله من وضع عقبة في سبيل زواج المحبّين » .

---

(١) لعبة فيها يقلب الإنسان اسطوانات خشبية طويلة بواسطة كرة .

فقال دون كيخوته : أذا كان كل المحبين يتزوّج بعضهم بعضاً ، فقد الآباء الحق في تزويج أولادهم متى وبمن يرونهم مناسبين ومناسبات ، وإذا اختارت الفتيات أزواجهن بإرادتهن ، فترى هذه تختار خادم أبيها ، وتلك أوّل من تراه يمر في الشارع فخوراً وسيماً ، وإن كان مجرّد صعلوك . إن الحب يبهر بسهولة عيون العقل ، وعيون العقل ضرورية لمثل هذا الإختيار ، وحب الزواج من الدقة بحيث يتعرّض المرء لخطر كبير إذا انخدع ، ولابدّ من دقّة في الحكم ومعونة السماء للحصول عليه . ومن يرد أن يقوم برحلة طويلة إذا كان حكيماً فعليه قبل أن يبدأ السفر أن يبحث عن رفقة ملائمة أمينة تساعده في تحمّل متاعب الطريق : فلماذا لايسلك المسلك نفسه ذلك الذي ينبغي عليه أن يقوم برحلة الحياة الطويلة حتّى باب القبر ، خصوصاً إذا كان رفيقه (أو رفيقته) ستشاركه في الفراش والمائدة ، وتتبعه في كل مكان ، كما هو شأن الزوجة مع زوجها ؟ إن المرأة ليست سلعة تشترى ، وتباع ، ويقايض عليها ، وتستبدل بغيرها : بل هي غرض لايفترق عنك ، يبقى مابقيت الحياة ، إنها رابطة ، إذا وضعت في العنق ، تتحوّل الى عقدة لا انفكاك لها ، ولايحلّها إلا منجل الموت! إلا بقطعها . ولاأستطيع أن أضيف هنا أموراً أخرى كثيرة ، لكنّي متشوّق لمعرفة هل عند السيّد حامل الليسانس تفاصيل أخرى عن باسيل .

فأجاب الطالب ، حامل البكالوريا ، أو الليسانس ، كل ما أعرفه هو أنه منذ أن عرف باسيل أن كتريه الجميلة ستتزوّج كمتشو الغني لم يرَ باسماً ولامتكلّماً بعقل ، إنه دائماً حزين ، يكلّم نفسه كرجل فقد عقله ، يأكل قليلاً ، وينام غراراً ، والفاكهة طعامه الوحيد ، وينام في الحقول ، وينام على الحصباء كالدابة العجماء ، وكثيراً مايتطلّع في السماء ، وأحياناً أخرى يسمّر عينيه في الأرض ، على حال من الوجد تحيله الى شبيه بتمثال لابس ، يحرّكه الخواء : ويكشف في كل شيء عن قلب متّقد بالوجدان ، حتّى أن كل الذين يعرفونه لايشكّون في أنّ زواج كتريه هو حكم عليه بالإعدام .

فقال سنشو : هيّأ الله له مصيراً أفضل : وإن كان يعطي المرض فهو يعطي أيضاً العلاج . ولايدري أحد ماذا سيحدث : ومن الآن حتّى صبيحة الغد ستمر ساعات عديدة ، وتكفي ساعة ، بل برهة ليتهدّم البيت . رأيت هطول الأمطار وسطوع الشمس في وقت واحد ، هذا ينام في المساء صحيح البدن ، وفي الغد لايستطيع التحرّك . وقل لي هل تعرف أحداً استطاع أن يفخر بأنه وضع مسماراً في عجلة الحظ ؟ لا ، طبعاً : بين نعم المرأة ولائها لاأستطيع أن أدسّ سن الإبرة ، لأنه ليس ثمّ مكان . اجعلوا كتريه تحب باسيل حبّاً صادقاً ، وأنا أعطيه كيساً مليئاً بالسعادة : لأن الحب ، كما يقال ، له نظّارات تجعل النحاس يبدو ذهباً ، والفقر ثراء ، والزجاج لؤلؤاً .

فصاح دون كيخوته : الى أين أنت ماضٍ في تخليطك ياسنشو ياملعون ؟ حين تبدأ في سلك حكاياتك وأمثالك لايأمل غير يوداس وحده أن تنتهي ، ألحقك الله به! قل لي ، ياحيوان ، ماذا تقصد بمساميرك وعجلاتك وسائر حماقاتك ؟

فأجاب سنشو : إذا لم أفهم ، فليس بعجب أن تظهر لكم عباراتي تخريفات ، لكن لايهمّني ، أنا أفهم ماأقصد ، وأعرف تماماً أنني لم أقل حماقات : بل أنت ، ياسيدي ، دائماً الرقيب والمحاسيب على أقوالي وأفعالي .

فقال له دون كيخوته : قل «المحاسب» يامفسد اللغة الجميلة ، عليك لعنة الله!

فقال سنشو : لاتغضب يامولاي ، فأنت تعرف جيداً بأنني لم أرب في البلاط ، ولم أدرس في شلمنقة ، حتّى أعرف إذا أضفت حرفاً أو نقصت حرفاً في كلماتي . يالله لايطلب من فلاح أن يتكلّم مثل ساكن طليطلة ، بل يوجد بعض سكّان طليطلة ممن لايبهرون كثيراً بفصيح الكلام .

فقال حامل الليسانس : هذا صحيح : لأن الذين يغشون الحانات والسوق لا يمكن أن يحسنوا الكلام مثل أولئك الذين يمضون اليوم في خلوة الكاتدرائية ، ومع ذلك فكلّهم من طليطلة . إن صفاء ووضوح وأناقة العبارة إنما توجد لدى أهل البلاط المستنيرين ، وفي أي مكان ولدوا ، وأقول المستنيرين لأن كثيرين جداً ليسوا كذلك ، والإستنارة هي النحو الصحيح للغة الجميلة ، التي يكملها الإستعمال بعد ذلك . وأنا ياسيدي ، بسبب ذنوبي ، درست القانون الديني في شلمنقة ، وأعتز بأنّي أتكلّم لغة صافية ، وبوضوح ، وحسن عبارة .

فقال له الطالب الآخر : لو لم تعتز أكثر بالمسايفة منك بممارسة اللسان ، لكنت أوّل الليسانس بدلاً من أن تكون في الذيل .

فقال الأوّل : ياحامل البكالوريا ، أنت تخطىء خطأ فاحشاً حين تظن أنه لافائدة في المسايفة .

فأجاب حامل البكالوريا وليم كورتشويلو : كلا ، أنا لاأخطىء في هذا ، هذا ليس مجرّد ظن ، بل حقيقة ثابتة مبرهن عليها ، وإذا كنت تشك في هذا فالبرهان سهل : معك سيوفك ، وعندي قوّتي ، وشجاعتي وهي ليست قليلة ، وسأحملك على الإعتراف بأنني لست على خطأ ، انزل ، والجأ الى دوائرك ، وزواياك ، وأوضاع جسمك ، وكل علمك ، وبمهارتي الطبيعية الغليظة أريد أن أريك النجوم في عزّ الظهر . وأتحدّى أن يرغمني إنسان على إدارة كتفي ، أو أن يوجد إنسان في العالم لاأجندله على الأرض .

فصاح المسايف الماهر : أن تدير كتفيك أو لاتديرها ، هذا لن أقول فيه شيئاً ، لكن قد يحدث أنه حين تضع قدمك مرة ، ستجد هناك قبرك وأن تهلك لأنّك احتقرت المهارة في السلاح .

فقال كورتشويلو : «هذا ماسنراه» . وفي الوقت نفسه نزل على الأرض برشاقة ، وانتزع غاضباً هائجاً أحد السيفين الذين كان يحملهما حامل الليسانس ، واتّخذ موقف انتباه .

فقال دون كيخوته فوراً : «ينبغي ألا تسير الأمور على هذا النحو : أريد أن أكون معلّم مسايفة ، وحكماً في مسألة طالما تنوزع فيها عبثاً» .

ولمّا قال هذا نزل عن فرسه ، واعتمد على رمحه ووقف في وسط الطريق بينما تقدّم حامل الليسانس بمظهر المتحدّي ضد كورتشويلو الذي أقبل هو الآخر والشرر ، كما يقال ، ينقدح من عينيه . وبقي الفلاحان ، دون أن ينزلا عن حماريهما ، يتفرّجان على هذه المأساة الدامية ، وكانت ضربات الحد ، والسن ، والنصل ، والظهر باليدين التي انهال بها كورتشويلو كثيرة بغير حساب وتنزل كالبرد ، وبدا أنه أسد متهيّج ، لكنّ كان يلقي دائماً زرار سيف حامل الليسانس ، الذي كان يوقفه في وسط هيجانه ، ويجعله يقبله كأنه ذخيرة ، وإن كان بورع أقل ، وأخيراً عد بسيفه كل زراير نصف الرداء الذي كان يلبسه ، وجعل قبّعته تقفز مرّتين ، ونكأ فيه الى حد أن الآخر وقد انقلب غيظه الى جنون أمسك بسيفه من المقبض وقذف به في الهواء بشدة حتّى رمى به الى أبعد من ثلاثة أرباع الفرسخ ، إذا صحّ مايقوله أحد الفلاحين وكان كاتباً . وهذا المثل الخالد الذكر يدل على أنّ القوّة غالباً مايغلبها الفن . وكان كورتشويلو قد تحطّم . فاقترب منه سنشو وقال له : «ياسيدي حامل البكالوريا ، إذا شئت أن تصدّقني ، في المستقبل لا تتحدّ إنساناً في المسايفة ، بل في المصارعة أو قذف الجلّة ، لأنّ سنّك وقوّتك تمكّنانك من هذا النوع من الرياضة ، لكن فيما يتعلّق بأصحاب السلاح ، كثيراً ما سمعت أنهم يستطيعون أن يضعوا سن السيف في ثقب الإبرة» .

فقال كورتشويلو : «أنا راضٍ عن الإعتراف بخطئي ، وقد برهنت لي التجربة كم كنت بعيداً عن الحقيقة» . وفي الوقت نفسه أسرع لتقبيل حامل الليسانس ، وصارا صديقين أكثر من ذي قبل . ثمّ بغير انتظار للكاتب ، الذي ذهب للبحث عن السيف ، مما كان سيؤخّرهم طويلاً ، تابعوا طريقهم للوصول مبكّراً الى قرية كتريه ، التي ولدوا جميعاً فيها . وأثناءالطريق حدّثهم حامل الليسانس عن مزايا المسايفة شارحاً الأسباب الجلية ، ومقدّماً

البراهين الرياضية ، حتّى إن جميع الذين كانوا يستمعون اليه آمنوا بفائدة هذا العلم ، وشفى كورتشويلو من خطئه .

وكان الليل قد وافى حينما اقتربوا من القرية ، وبدت لهم السماء المرصّعة بالنجوم رائعة ، وفي الوقت نفسه سمعوا أصواتاً عذبة مختلطة تصدر عن عدد كبير من الآلات ، مثل النايات ، والطنابير ، والبسالتريونات ، والشبّابات ، والقرب والطبول . ولمّا ازدادوا قرباً ، شاهدوا أنّ الأشجار التي غرست على مدخل القرية قد زوّدت كلّها بالقناديل ، التي لم تكن الريح تؤثّر فيها ، لأن النسيم كان عليلاً لايقوى على تحريك الأوراق . وكان الموسيقيون مكلّفين بإشاعة الطرب والفرحة في العرس ، وكوّنوا مجموعات مختلفة في هذا المقام البديع ، البعض يرقص ، والبعض الآخر يغنّي ، والثالث يعزف بالآلات ، وفي كل مكان سادت اللذة والحبور ، وهذا يعدو ، وذاك يقفز ، وكل الوجوه يعلوها الإبتسام . وكثيراً من الناس كانوا مشغولين بوضع سقالات ، يمكن منها في الغد مشاهدة الرقص والألعاب التي ستجري في المرج ، الذي هو مسرح عرس كمتشو وجنازة باسيل . ولم يشأ دون كيخوته أن يدخل القرية ، رغم إلحاح حامل البكالوريا والفلاح ، معتذراً بعذر وجيه جداً في نظره ، وهو العرف الجاري بين الفرسان الجوّالة والقاضي بالنوم في الحقول والغابات بدلاً من الأماكن المأهولة حتّى لو كان ذلك تحت سقوف ذهبية . وتبعاً لذلك انحرف قليلاً عن الطريق ، ممّا ضايق سنشو ، الذي تأسّف على الإقامة الجيدة التي ظفر بها في قصر أو في بيت دون دييجو .

الفصل العشرون

وفيه يروى أنباء عرس كمتشو الغني، ومغامرة باسيل الفقير

ولم يكد الفجر الأبيض يدع فيبوس (الشمس) الساطع يجفّف بأشعّته الحارة اللآلىء السائلة من شعره الذهبي ، حتّى نهض دون كيخوته هازاً كسل أعضائه ، ودعا سائسه سنشو الذي كان لايزال يغط في نومه ولمّا رأى سنشو على هذه الحال قبل أن يوقظه ، قال له : « أنت ، أنت سعيد بين كل أولئك الذين يعيشون على وجه البسيطة ، لأنّك تنام هادئاً دون أن تعرف الحسد ، ودون أن يحسدك أحد ، ولايطاردك أي ساحر ولاتعرف حيلهم الخبيثة . نم ، أقول لك وأكرّر هذا القول مائة مرّة ، دون أن ترغمك غيرة سيّدتك على السهر المتواصل ، ودون أن يؤرّقك هم الديون ، ولاهم معرفة كيف تستطيع غداً أن تطعم أسرتك البائسة الصغيرة ، الطموح لايعذّبك ، وأنت تحتقر فخفخة الدنيا الزائفة ، ولاتهتم إلا برعاية ركوبتك ، أمّا شخصك فأنا وحدي الذي أهتم به ، وهذا تعويض عادل تفرضه الطبيعة والعرف على السادة . الخادم ينام ، بينما يسهر السيّد ، مشغولاً بإطعامه ، وتحسين حاله ، ومكافأته عن حماسته ، وعبثاً تصبح السماء من البرونز وترفض أن تمنح الأرض الندى المفيد : فالخادم لايهتم بهذا ، بل سيّده هو الذي يجب عليه أن يطعم ـ في القحط والمجاعة ـ من خدمه في الخصب والوفرة » .

ولم يجب سنشو بكلمة عن كل هذا ، لأنه كان نائماً ، ولاشك أنه لم ليستيقظ حالاً ، لولا أن دون كيخوته مسّه بطرف رمحه . وأخيراً فتح عينيه المتعلّقتين بالنوم ، وتلفّت في كل ناحية ، ثمّ قال : « من هذه التعريشة تأتي رائحة ، إن لم يخب ظنّي ، هي بالأحرى رائحة شواء لارائحة صعتر ونمّام . والله إن العرس الذي تنبعث منه رائحة مثل هذه الروائح لابد أن يكون حافلاً بأطايب الطعام » .

فقال له دون كيخوته : اخرس ، ياشره ، وتعال ، سنذهب لمشاهدة هذا العرس لنعرف ماذا سيفعل باسيل البائس .

فأجاب سنشو : ليفعل مايشاء . لماذا هو فقير ؟ لو لم يكن فقيراً لكان في استطاعته أن يتزوّج كتريه . لايكون معه فلس[1] ، ويريد أن يتزوّج في السحاب! بصراحة « يامولاي » أنا من رأيي أن الفقير يجب أن يقنع بما عنده ، وألا يذهب ليبحث عن اللآلىء في الكروم! أراهن بقطع ذراعي أن كمتشو يستطيع أن يغطّي باسيل كلّه بريالاته ، وإذا كان الأمر كذلك ، فستكون كتريه مجنونة ، إذا تركت الزينات والحلي الذي أعطاها إيّاها كمتشو ويمكن أن يعطيها أيضاً ، لنفضّل مهارة باسيل في قذف الجلة... أو المسايفة . إن المهارة في قذف الجلة والمسايفة لاتعطيك ائتماناً بكأس من النبيذ في الحانة : فالمهارات والقرائح لا تكسب شيئاً ، وليست غير كلمات لافائدة فيها ، لكن إذا وجدت هذه المزايا عند أولئك الذين عندهم مال ، آه هنا أود أن تشبه حياتي حياتهم . على أساس متين يمكن إقامة بناء متين ، وأمتن أساس في الدنيا هو المال ، ما في ذلك أدنى ريب .

فقال له دون كيخوته : سنشو ، كفى خطابة ، وأنا أعتقد في الحق أنه لو ترك لك متابعة خطبك التي تبدؤها في كل مناسبة ، لما كان عندك وقت للأكل والنوم ، بل ستستعمل كل وقتك في الكلام .

فأجاب سنشو : إذا كانت ذاكرة مولاي جيدة ، فتذكّر مواد الإتّفاق المعقود بيننا قبل أن نأخذ في خرجتنا هذه : من بين هذه المواد مادة تقرّر أن عليك أن تتركني أقول ماأشاء ، مادام ليس ضد الجار ، ولاضد سلطتك ، وحتّى الآن لا أعتقد أنني خالفت هذه المادة .

فقال له دون كيخوته : أنا لا أتذكّر أبداً هذه المادة ياسنشو ، لكن حتّى على هذا الفرض فإنّي أريد منك أن تسكت وأن تتبعني . إن الآلات التي سمعناها مساء الأمس بدأت تبعث السرور في هذه الأودية : ولاشك أن الإحتفال بالعرس سيتم في نضارة الصباح ، لا في الأشعة المحرقة لكوكب النهار » .

فأطاع سنشو . ووضع السرج على روثينانته ، والبرذعة على حماره ، وتقدّما ثمّ دخلا معاً بعد قليل تحت العريشة .

وكان أوّل شيء تبدّى لنظر سنشو ثوراً فتيّاً كاملاً سفوده غصن وكان الخشب المخصّص لشوائه يكوّن جبلاً صغيراً ، وكان حول النار ستّة قزانات ، أو بالأحرى ستّة طسوت هائلة في كل منها خروف بأكمله كان يتراءى كأنه لايزيد عن حمامة ، والأرانب الجميلة المخلاة والدجاجات المنتوفة الريش كانت بغير حساب معلّقة في الأشجار ،

---

(١) في الأصل : ريع . والريع : نقد من النحاس يساوي أربعة مرابطيّات .

وستجد مقابرها في هذه القزانات ، فضلاً عن عدد لانهاية له من الطيور وقطع القنص التي وضعت في الهواء لتجف . وعدّ سنشو أكثر من ستّين قربة كبيرة ، في كل منها خمسون لتراً على الأقل وكلّها مملوءة بأفخر الأنبذة ، وتكدّست تلال من الخبز الأبيض كالثلج على المرج ، كأنه القمح في الجرن ، وكانت أكوام الجبن تكوّن مايشبه سوراً من القرميد ، وغلايتان للزيت ، أكبر من غلايات الصباغة ، استخدمتا لقلي لقمة القاضي ، وكانت تستخرج من الغلاية بمجرافين كبيرين لنقلها الى غلاية أخرى مملوءة بالعسل المجهّز . وكان عدد الطبّاخين والطبّاخات يزيد عن الخمسين ، وكلّهم نظيفون نشيطون راضون . وفي بطن الثور وضع أثنا عشر خنزيراً لبنيّاً لإعطائه نكهة وجعله أطرى . وكانت الأفاويه من كل الأنواع تملأ صندوقاً كبيراً ، زنتها تقدّر لا بالأرطال بل بالقناطير . وبالجملة كانت معدّات هذا الفرح ريفية ، من غير شك ولكن المأكولات كانت وفيرة جداً ، بحيث كانت تكفي لإطعام جيش بأسره .

وقف سنشو يتأمّل كل شيء ، ويعجب بكل شيء . أوّلاً القزانات خلبت عقله ، وكان بودّه أن يتذوّق منها بوفرة ، ثمّ أن قرب النبيذ دعته الى تحيّتها ، ثمّ لقمة القاضي التي كانت تستخرج من المقلاة إذا أمكن أن تسمّى مقلايات هذه الغلايات الضخمة ، ولم يتمالك نفسه ، فاقترب من أحد الطبّاخين بأدب ، وبكل تهذّب المعدة الجائعة سأله أن يأذن له في غمس قطعة خبز في القزان . فأجابه الطبّاخ : «أخي ، هذا اليوم ليس يوم صوم ، بفضل كمتشو الغني : تقدّم ، وانظر هل تجد كبشة لتستخرج دجاجة أو دجاجتين ، وبالهناء والشفاء» . فقال سنشو : «لا أدري أية كبشة» . فقال الطبّاخ : «انتظر ، بالله إنك مرتبك» . ولمّا قال هذا تناول كسرولة ، وغمرها في قزّان ، واستخرج منها ثلاث دجاجات وأوزّتين وقال لسنشو : «خذ يا صاحبي ، وكل ، وافطر بهذه التصبيرة ، الى أن تأتي ساعة الغداء» . فقال سنشو : «لكن ليس معي إناء أضعها فيه» . فقال الطبّاخ : «اذن خذ الكسرولة بما فيها : فكمتشو غني ويسعده أن يتحمّل هذا» .

وبينما كان سنشو يستغل وقته بأحسن استغلال ، شاهد دون كيخوته يدخل تحت العريشة إثنا عشر فلاحاً يركبون أفراساً مطهّمة ، على صدورها شخاشيخ . وكانوا يلبسون ملابس احتفال وتجمّعوا على هيئة فرقة منظّمة السير ، وعدّوا عدة عدوات فوق المرج ، وهم يصيحون بفرح : «يحيا كمتشو وكتريه! إنه غني بقدر ماهي جميلة ، وهي أجمل نساء العالم» .

فلمّا سمع هذا دون كيخوته قال لنفسه : «واضح أن هؤلاء لم يشاهدوا صاحبتي دلثنيا دل توبوسو ، وإلا لو رأوها لخفّفوا من إطرائهم لكتريه هذه» .

وبعد هذا بدأت جماعات من الراقصين تدخل في نقط مختلفة تحت التعريشة ، ومن بينهم فرقة من الراقصين بالسيوف ، وعددهم حوالي أربعة وعشرين شاباً وسيماً ، وكلّهم يرتدون تيلاً أبيض ، وعلى رؤوسهم قلانس مختلفة الألوان مطرّزة بأفخر الحرير . فسأل أحد الفلاحين الراكبين على الأفراس قائد الفرقة ، وهو شاب قوي البنية ، هل جرح أحد الراقصين .

فقال : « الحمد لله ، حتّى الآن لم يجرح واحد منّا ، نحن سليمون معافون » . وفي الحال بدأ بالإشتراك مع فرقته يأتي حركات ببراعة فائقة ، حتّى أن دون كيخوته الذي طالما شاهد مثل هذه الرقصات لم يرّ في حياته رقصاً بهذه الروعة والكمال . وحكم بنفس الحكم على مجموعة مؤلّفة من فتيات رائعات الجمال ، صغراهن في حوالي الرابعة عشرة ، وكبراهن في الثامنة عشرة من عمرها ؟ وكن يرتدين ثياباً خضراً ، وكانت شعورهن وبعضها منسابة متطايرة ، وبعضها معقوصة ، أبهى من أشعة الشمس ، ومزدانة بأكاليل من الياسمين والورد وسالف العروس وسلطان الجبل ، وعلى رأسهن شيخ وقور وسيدة رهيبة ، أكثر خفّة ونشاطاً ممّا يسمح به سنّهما ؛ وينظّم الإيقاع قربة مو سيقية سمورية[1] وتجلّت هذه الفتيات الجميلات ، والحياء يعلو وجوههن ، والخفة في أقدامهن ، أجمل راقصات في العالم

وبعدهن ظهرت جوقة من الرقصات التي تسمّى « الرقصات الناطقة » ، وكانت الجوقة مؤلفة من ثماني حوريّات منقسمات الى فرقتين ، إحداهما يقودها كوبيدون ، « اله الحب » كتبت أسماؤهن على أكتافهن بحروف كبيرة ، وهن : الشعر ، الحكمة ، النبالة ، الشجاعة ، واللواتي كان يقودهن إله الثراء أسماؤهن هي : السخاء ، العطاء ، الكنز ، الامتلاك الأمين ، وأمام الفرقة تقدّم قصر من الخشب ، يجره أربعة متوحّشون يلبسون التيل الأخضر وأوراق الغار ، وملابسهم التنكّرية مطابقة الى حد أنهم بعثوا الرعب في نفس سنشو ، وعلى إفريز القصر نقش على جوانبه الأربعة هذه الكلمة : « قصر الفطنة » ، وكانت الموسيقى يعزفها أربعة من عازفي الناي والضاربين على الطبول . وافتتح كوبيدون الرقصة ، وبعد مدخلين ، رفع عينيه وأطلق سهماً في فتاة جاءت لتقف بين أسنان الحصن ، ثمّ أنشد هذه الأشعار .

أنـــا الإلـــه الـــقـــوي
الـعـلـو والأرض تـعـنـو ،
والـبـحـر ذو الـعـمـق يـجـثـو

---

(١) نسبة الى سمورة (ثمورا) ؛ مدينة في غرب شلمنقة . ولكن رفيس Ravaisse يرى أن Zamorana ليست نسبة الى سمورة ، بل هي كلمة عربية وهي : زماره .

وكـــل مـــافـــي الـــهـــوى
لـــم أدر مـــاالـــخـــوف يـــومـــاً
ومـــــاأريـــــد أنـــــقـــــذ
حـــتّـــى الـــمـــحـــال أحـــقـــق ،
فـــي كـــل مـــاهـــو مـــمـــكـــن
أعـــــطـــــي وأمـــــنـــــع
أنـــــهـــــي وآمـــــر

ولمّا انتهت المقطوعة أطلق «الحب» سهماً آخر مرق من فوق القصر ، ثمّ انسحب . وتبعه اله الثروة ، وقام بحركتين ، وسكتت الدفوف ، وقال :

إنـــنـــي أقـــوى مـــن الـــحـــب وأقـــدر
بـــيـــد أنّـــي بـــالـــهـــوى والـــحـــب أرشـــد
إنـــنـــي مـــن خـــيـــر مـــاتـــرعـــى الـــســـمـــاء
فـــوق هـــذي الأرض ، إكـــرامـــاً وشـــهـــرة
إنـــنـــي الـــثـــروة ، لايـــفـــهـــمـــنـــي الا الـــقـــلـــيـــل
وبـــغـــيـــري لا يـــتـــم الـــفـــعـــل الا مـــعـــجـــزة
هـــــذه حـــــالـــــي ، وإنّـــــي مـــــخـــــلـــــص
لـــــك ، آمـــــيـــــن ، الـــــى أقـــــصـــــى الأبـــــد

فلّما انسحبت «الثروة» تقدّم الشعر ، وقام بحركاته ، كالآخرين ، ثمّ أنشد وعيناه تتطلّع في فتاة القصر .

إنـــنـــي الـــشـــعـــر الـــلـــطـــيـــف
ربـــة الـــحـــســـن الـــعـــفـــيـــف
أبـــعـــث الـــروح مـــعـــانـــي
ســـامـــيـــات بـــارعـــات
فـــي ألـــوف مـــن أغـــانـــي

فـــإذا لـــم تـــضـــجـــري
مـــن طـــرادي بـــالـــغـــزل
تـــبـــلـــغـــي أوج الأعـــالـــي
فـــوق دارات الـــقـــمـــر
تـــحـــســـدي مـــن كـــل فـــرد

وانسحب «الشعر» ، وخرج السخاء من مجموعة الثروة ، وبعد أن رقص قال :

إن الـــســـخـــاء عـــطـــاء
بـــيـــن الـــســـفـــاه وضـــده
مـــمّـــا يـــبـــيّـــن ضـــعـــفـــنـــا
لـــكـــنـــنـــي لـــنـــمـــائـــك
أريـــــد بـــــذلاً وفـــــيـــــراً
إن كـــــان هـــــذا رذيـــــلـــــة
يـــا حـــســـنـــهـــا مـــن رذيـــلـــة
تـــزيـــن فـــي قـــلـــب عـــاشـــق
تـــنـــم عـــنـــه الـــهـــدايـــا

وعلى هذا النحو تقدّم وانسحب كل أشخاص المجموعتين : رقصوا وأنشدوا أشعاراً ، بعضها جيّد والبعض الآخر مضحك ، ودون كيخوته ، على الرغم من قوة ذاكرته ، لم يحفظ غير التي رويناها . ثمّ اختلط كل الراقصين ، وهم يعقدون ويحلّون حلقات بكل سهولة ورشاقة ، وفي كل مرّة كان «الحب»يمر أمام القصر ، كان يطلق سهامه ، بينما يرمي إله الثروة بكرات من الذهب . وبعد أن شبع إله الثروة من الرقص قذف القصر بكيس كبير مصنوع من جلد قط كبير من نوع الأنجورا ، وفي الكيس نقود وفيرة ؛ وتحت تأثير هذه الضربة تداعت جوانب القصر الأربعة ، تاركاً الفتاة مكشوفة بغير دفاع . وفي الحال رماها إله الثروة في رقبتها بسلسلة من الذهب ، وبدا أنه يريد أسرها ، فتظاهر «الحب» وأنصاره بالحيلولة دون ذلك ؛ وكل هذا تمّ بإيقاع على صوت الطنابير «الدفوف» . وأخيراً حجز المتوحّشون بين الفريقين ، وأصلحوا الألواح التي صنع منها القصر ، ودخلته الفتاة من جديد . وهكذا انتهت هذه الرقصة ، بعد أن أشاعت رضاً تاماً في نفوس كل المشاهدين .

فسأل دون كيخوته إحدى الحوريات عن مؤلّف هذه القطعة «البانتوميم» فأجابت بأنه مستفيد (وظيفة دينية) في القرية ، وهو رجل بارع جداً في هذا اللون من الإختراع . فقال دون كيخوته : «أراهن أن حامل البكالوريا هذا أو المستفيد أكثر صداقة لكمتشو منه لباسيل ، وأنه يعرف الهجاء أكثر مما يعرف صلوات الأصيل . وفضلاً عن ذلك فقد أتقن في قطعة تصويره ثروة كمتشو ومواهب باسيل» . وقال سنشو بعد أن أصغى الى كلام مولاه : «الملك ديكي[1] ، وأنا من أنصار كمتشو» . فقال دون كيخوته : «ظاهر من هذا ياسنشو أنك سافل ، وأنك من أولئك الذين يصيحون : يحيا الغالب!» فأجاب سنشو : «لاأدري من أي فريق أنا ؟ لكنّي أعلم حق العلم أنه لن تخرج من قزانات باسيل أطعمة شهية مثل تلك التي استخرجتها من قزانات كمتشو» . وأظهر الكسرولة المليئة بالأوز والدجاج ، وأخذ منها واحدة وشرع يأكل بشهية بالغة وهو يقول : «في لحية مواهب باسيل ، إنه يساوي بقدر ما يملك ، ويملك بقدر مايساوي . كانت إحدى جدّتاي تقول لايوجد في الدنيا غير صنفين من الناس : من يملكون ومن لايملكون ، وكانت من أنصار من يملكون ، واليوم ، ياسيدي دون كيخوته ، الناس يقدّرون الأملاك أكثر مما يقدّرون العلوم . الحمار المغطّى بالذهب يبدو أحسن من الفرس الرديء السرج ، وهكذا أعود فأكرّر فأقول : أنا من أنصار كمتشو ، الذي تتألّف رغوة قزاناته من الأوز والدجاج والأرانب الجبلية والأرانب المنزلية ، بينما قزانات باسيل لابد هزيلة جداً» . فقال دون كيخوته : «هل انتهيت من خطبتك ؟» . فقال سنشو : «نعم يا مولاي ، لأنّي أرى أن هذا يغضبك ، وإلا لكان عندي مايشغلني طوال ثلاثة أيّام» . فأجابه دون كيخوته : «أرجو الله أن يريني إيّاك أخرس قبل أن أموت!» . فقال سنشو : «على حسب مانحن سائرون عليه ، سأمضغ الأرض قبل أن تموت أنت يامولاي : وهكذا قد يحدث ألا أقول كلمة من هنا حتّى نهاية العالم ، أو على الأقل حتّى يوم الحساب» . فقال دون كيخوته : «وحتّى لو حدث هذا ، ياسنشو ، فإنّك لن تسكت بقدر ماتكلّمت ، وتتكلّم وستتكلّم طول حياتك . ثمّ إن نظام الطبيعة يقتضي أنه لابد لي أن أموت قبلك : وتبعاً لذلك ، لا يمكنني الأمل في أن أراك أبداً أخرس ، حتّى حين تشرب أو تنام ، وهو كل ما أستطيع انتظاره» .

فأجابه سنشو : «يا سيدي ، لا يمكن الوثوق بالتمجرد ، أعني الموت : فهو ينتزع الخروف كما ينتزع النعجة ، وقد سمعت قسّيسنا يقول أن الموت يدوس بنفس القدم على

---

(1) تعبير أسباني معناه : أنا مع الأقوى ، مع الغالب .

قلاع الملوك الشامخة وأكواخ الفقراءالوضيعة[1] . إن الموت فيه من السطوة أكثر مما فيه من الرقة ؛ وهو لا يعاف شيئاً ، بل يأكل كل شيء ، ويملأ خرجه بكل أنواع الناس والأعمار والمراتب . إنه ليس حصّاداً ينام القيلولة ؛ بل يحش في كل ساعة العشب الأخضر ويجفّفه ، إنه لايمضغ ، بل يبتلع كل مايقدّم اليه ، عنده شهية الكلاب ، شره لايشبع أبداً ، وعلى الرغم من أنه ليس له بطن ، فإنه يشبه أن يكون مصاباً بالإستسقاء ، لأنه متعطّش لشرب حيوات جميع الموجودات ، مثلما تشرب أنت جرّة من الماء العذب » . فقال دون كيخوته : « كفى ياسنشو ، إبق حيث أنت ، ولا تنزلق تسقط . والحق أن ماقلته عن الموت ، بعبارات ريفية ، هي كل مايستطيع أن يقوله واعظ جيد ، ولما كنت تملك الحكمة وسلامة الطبع ، فإنّك تستطيع أن تصعد المنبر وتجوب الدنيا تعظ الناس بالحكمة والموعظة الحسنة » . فقال سنشو : « يعظ وعظاً حسناً من يعيش عيشاً حسناً ، وأنا لا أعرف أي لاهوت آخر » . فقال دون كيخوته : « وأنت لست في حاجة اليه . لكنّي لاأستطيع أن أفهم كيف أنك وأنت الذي تخاف من السحلية أكثر مما تخاف الله ، مع أن خوف الله هو رأس الحكمة ، أقول كيف أنك مع هذا تعرف كل هذا » . فأجاب سنشو : « سيدي ، من فضلك اكتف بالحكم في أمور فروسياتك ، ولاتحكم على خوف الآخرين أو شجاعتهم . إنّي أخاف الله بقدر مايخافه أشد الناس خوفاً منه . ومع ذلك دعني أبتلع هذه الرغوة (من الأوز والدجاج الخ) ، لأن ما عدا ذلك فهو كلام فارغ سنحاسب عليه في الحياة الآخرة » .

ولمّا قال هذه الكلمات استأنف الهجوم على كسرولته ، بشراهة كبيرة أيقظت شهية دون كيخوته ، وهذا كان سيشارك ، لو لم يمنعه ماسنذكره في الفصل التالي .

---

(١) هذه العبارة مأخوذة من هوراس ، الأود ١ ٤ .

الفصل الحادي والعشرون

وفيه استمرار عرس كمتشو، ومغامرات أخرى ممتعة

وبينما كان دون كيخوته وسنشو يتبادلان الأحاديث التي أوردناها في الفصل السابق، سمعت ضجة كبيرة وتصفيق ينبعث من الشبّان الراكبين الخيل الذين ساروا في المقدمة أمام العروسين، اللذين وصلا، تسبقهما آلاف الآلات الموسيقية المنوعة، ويصحبهما القسيس والأسرتان، وأعيان القرى المجاورة، وكلهم بلباس الإحتفال، ولم يكد سنشو يلمح العروسة حتّى صاح: «إنها لا تلبس لباس فلاحة، بل لباس سيدة بلاط جميلة. وبحسب ماأرى فإن أنواطها من المرجان الفاخر، والجوخ الأخضر المصنوع من قونكة[1] وهو من القطيفة ذات الثلاثين وبرة، وتحشية التيل الأبيض هي فيما أعتقد من الساتان. ولكن تأمّل يديها المزدانتين بخواتم من الكهرمان الأسود، وأموت إن لم تكن خواتم من الذهب الخالص المزوّدة بفصوص من اللؤلؤ الأبيض بياض اللبن، وكل فص لابد يساوي عيناً في الرأس. آه، ياعفريتة! يالروعة شعرها! إذا لم يكن مستعاراً، فإني لم أر في حياتي أطول منه ولاأبهى شقرة! وقامتها! كأنّها نخلة تمشي، محمّلة بالبلح، إذ الجواهر المعلّقة في جيدها وشعرها تشبه البلح. وإنّي أحلف بحياتي أنها ثرثارة ماكرة، وأنها ستمر من كثبان الفلاندر[2]».

فأخذ دون كيخوته في الضحك على المدائح الريفية التي أطلقها سنشو، إلا أنه وجد فعلاً أنه لم يشاهد أبداً امرأة بهذا الجمال الرائع، فيما عدا سيدته دلثنيا دل توبوسو.

---

(١) قونكة، مدينة اسبانية، كبيرة، على مسافة ١٢٤كم جنوب شرقي مدريد. وفيها ولد مولينا. وقد ظلّت تحت حكم المسلمين دهراً طويلاً، ثم استولى عليها ألفونسو السادس سنة ١٠٧٢، ولكن المسلمين استردوها، الى أن أخذها ألفونسو التاسع. وهذا الجوخ كان يصنع خصوصاً في قونكة، وكان أجود أنواعه ماهوأزرق اللون، لكن كان يوجد نوع منه أخضر أيضاً.

(٢) كثبان رملية خطرة جداً على المسافرين.

وكانت كتريه شاحبة بعض الشحوب ، ولكن هذا كان راجعاً من غير شك الى سهر العرائس عشية يوم العرس اعداداً لزينتهن .

واتجهت الجماعة كلها الى مسرح أعد في ركن من المرج مغطّى كله بالأغصان ، وهناك كان سيجري الإحتفال بالزواج ، ومنه تشاهد الرقصات والألعاب ولمّا اقتربوا من المسرح ، سمع من الخلف صوت يصيح . «انتظروا قليلاً أيها المتعجّلون غير المتدبّرين! » هنالك أدار الناس رؤوسهم ، فشاهدوا رجلاً يلبس عباءة سوداء ، بأطرافها شرائط حمراء ، وكان متوّجاً بالسرو ، وبيده عصا كبيرة . ولمّا أصبح قريباً عرفوا أنه باسيل ، وصاروا حيارى ، لايدرون ماذا يحدث كلامه ، وهم يخشون أن يكون مجيؤه في هذه المناسبة مصدراً لإشاعة الاضطراب . جاء مهتاجاً ووقف أمام العروسين ، وغرس في الأرض عصاه ، وكانت تنتهي بسن مدبّبة من الصلب ، وتطلّع في كتريه بنظرات حائرة ، ثم قال لها بصوت مرتجف مبحوح : «أنت تعلمين ، أي كتريه الجاحدة ، أنه وفقاً لشريعتنا المقدسة لاتستطيعين أن تتخذي زوجاً طالما كنت أنا في قيد الحياة ؟ وأنت تعلمين أيضاً أنه بينما كنت أنتظر أن يصلح الزمان والإجتهاد أحوالي المادية ، لم أكف عن التمسّك بأهداب العفاف الخليق بأمانتك ، لكنّك وقد نسيت عرفان الجميل الذي تدينين به لحبّي الطاهر ، تريدين أن تملكي شخصك ، الذي ينتمي اليّ ، لشخص آخر يدين بكل سعادته لثرائه ، لكن لئلا يقف شيء في سبيل سعادته التي يدين بها - في رأيي - لنعم السماء لا لفضله هو ، أريد أن أحطّم بيدي القبة التي تحول دون سعادته ، بأن أنتزع حياة نفسي . وليحيى كمتشو الغني وكتريه الجحود ، طوال عدة قرون متوالية! وليهلك باسيل المسكين ، الذي قصّ الفقر جناحي سعادته ، وألقى به في القبر! » وفي اللحظة نفسها أمسك بالعصا التي غرزها في الأرض ، وأظهر غماد سيف قصير ، أسند مقبضه الى الأرض ثمّ وثب بجسمه بسرعة على السن ، فانغرز في بدنه وخرج بين كتفيه يفيض دماً .

وسقط غارقاً في دمائه ، مضروباً بسلاحه . فانزعج أصدقاؤه من هذا الحادث الأليم ، وهرعوا لمساعدته ، ونزل دون كيخوته بسرعة عن فرسه ، وأنهضه ، وأخذه بين ذراعيه ، ووجده لايزال يتنفّس . وأريد إخراج السيف من جسمه ، لكنّ القسّيس ، الذي كان موجوداً هناك عارض في ذلك قبل أن يتلقّى اعترافه ، لأنه كما قال بأنه سيسلّم الروح حالاً . واسترد باسيل شيئاً من وعيه وقال بصوت ضعيف : «لو شئت أي كترية القاسية ، في هذه اللحظة الأخيرة القاضية ، أن تعطيني إقرارك فسأعتقد على الأقل أن تهوّري يمكن التماس العذر له ، لأنه سيعطيني سعادة أن أكون لك» ولمّا سمع القسّيسس هذا الكلام ، طلب منه أن يفكّر بالأحرى في نجاة روحه لافي متعة جسده ، وأن يسأل الله الغفران لذنوبه ولقراره اليائس ،

فأجاب باسيل أنه لن يعترف إلا بعد أن تقر بأنها زوجته ، لأن الرضا الذي سيشعر به من جراء ذلك سيمنحه القوة والإرادة للإعتراف .ولمّا سمع دون كيخوته طلب الجريح ، قال بصوت عالٍ إن هذا مطلب عادل معقول ، وينبغي إجابته ، خصوصاً وسيكون شرفاً عظيماً للسيد كمتشو أن يتلقى كتريه أرملة لباسيل الباسل ، في الحالة نفسها التي كان سيتلقّاها عليها من والدها ، وليس ثمّ مايمكن عمله غير الموافقة ، لأن سرير الزفاف سيكون القبر . واستمع كمتشو الى كل شيء ، وبقي حائراً متردّداً ، لا يدري ماذا يقول وماذا يفعل . وأخيراً استطاعت توسّلات أصدقاء باسيل أن تؤثّر حتّى وافق كمتشو على أن تقر كتريه بأنها زوجة باسيل ، حتّى لايضيّع هذا روحه وهو يموت موت البائس : فقال إذن أنه إذا وافقت كتريه فهو يوافق أيضاً ، وإن كان في ذلك بعض التأخير لتحقيق أمانيه . وفي الحال اقترب الجميع من الجميلة ، واستحلفها الكل : بعضهم بالتوسّلات ، وبعضهم بالدموع ، لكنّها كانت أقسى من المرمر ، وأبرد من تمثال ، ولم تدرِ ، ولم تشأ ، ولم تستطع أن تجيب بكلمة واحدة ، ومن المحتمل أنها كانت لن تجيب أبداً ، لولا أن القسّيس حثّها على اتخاذ قرار بسرعة ، وقال لها أن باسيل الموت بين أسنانه ، ولايستطيع انتظار تردّدها . وأخيراً اقتربت من باسيل ، مضطربة ، حزينة ، لا تنطق بكلمة ، وكان هو يقلب عينيه ، ولكن تخرج أنفاسه ، وهو يتمتم بين أسنانه باسم كتريه ، ويريد أن يموت كما يموت الوثني لا كما يموت المسيحي الصالح : ثمّ جثت كتريه على ركبتيها ، وطلبت يده بالإشارات . فرفع باسيل بصره ، وتطلّع فيها بانتباه ، وقال لها : « أي كتريه شفقتك بعد فوات الأوان هي الخنجر الذي سيجهز على حياتي ، إذ لاأملك القوة على احتمال المجد الذي تمنحينني إيّاه باختيارك ، ولا على تسكين الألم الذي يغشي على عيوني بغشاوة الموت المظلمة . ولكنّي على الأقل استحلفك ، أيها الكوكب النحس ، ألا يكون قرارك بإعطائي يدك لم يكن من باب المجاملة ولا من أجل خداعي : أقرّي بصوت عال أنّك بفعل حر من إرادتك تتخذينني زوجاً شرعياً لك ، ولايليق بك أن تستخدمي المراءاة مع من أظهر لك دائماً كل صراحة » . وكان هذا المسكين وهو يتكلّم يغمى عليه في كل لحظة ، حتّى اعتقد المشاهدون أنه سيسلم الروح في كل لحظة ، فأخذت كتريه بيد باسيل ، في ارتباك متواضع ، وقالت له : « لا تستطيع أية قوة أن تغيّر إرادتي : حرة وبمحض اختياري أعطيك يدي بوصفي زوجتك الشرعية ، وأتناول يدك ، إذا أعطيتني إيّاها بمحض اختيارك ، دون أي تشوّش على عقلك الحالة التي أنت فيها » . فقال باسيل ، بغير اضطراب ، ولااحتجاج ، بل بتمام عقله : « هاهي ذي يدي أعطيك إيّاها ، وعيشي الآن سنوات طوالاً ، ولا تتركيني الا للذهاب الى القبر » .

وهنا قال سنشو : « يلوح لي أن هذا الشاب يتكلّم أكثر مما ينبغي لجريح بالغ الجراح : حذار أن تطلع روحه ، إنها أشد تعلّقاً باللسان منها بالأسنان » .

وبينما كان العاشقان يتماسكان هكذا باليد ، بارك عليهما القسّيس والدموع في عينيه مباركة الزواج ، داعياً الله من كل قلبه للزوج المسكين . لكن ، ياللمعجزة! لم يكد باسيل يتلقّى البركة ، حتّى نهض ببطء ، وانتزع السيف الذي بدا أن جسمه كان غمداً له . فوقع جميع المشاهدين في حيرة مبلسين ، وصاح السذج منهم : « معجزة! معجزة! » ولكن باسيل قال : « لا معجزة ، بل مهارة! » ووضع القسّيس ، وهو في حيرة تامة ، يديه على موضع الجراح ، فوجد أن السيف نفذ لا من الجسم ولا من بين أضلاع باسيل ، بل من انبوبة من الحديد مملوءة بالدم المحضّر ـ كما عرف فيما بعد ـ بحيث لايتجمّد . وأخيراً أدرك القسّيس وكمتشو والآخرون جميعاً أن الأمر كلّه بتدبير وحيلة خدعوا بها . ولم تبد العروس أي انزعاج لهذه الحيلة المدبرة : بل على العكس ، لمّا سمعت من يقول أنّ الزواج باطل لأنه تم بالخديعة ، أيّدت الزواج من جديد ، مما جعل كل واحد يستنتج أن المكيدة قد تمّت بتدبير متّفق عليه فيما بينهما سرّاً . ولكن كمتشو ورجاله هاجوا لهذا الخداع واستلّوا سيوفهم وهاجموا باسيل الذي سرعان ما التفت حوله عدد كبير من الأنصار ، ولكن دون كيخوته ، والرمح في يده ، ومغطّى بترسه ، أفسح مكاناً لنفسه ، أمّا الذي لم يحبب أبداً أمثال هذه المشاحنات ، فقد راح يختبىء بين القزانات التي سحب منها تلك الرغوة الفاخرة ، وهو يعد هذا المكان مقدّساً وجديراً بالاحترام .

ورفع دون كيخوته صوته صائحاً : « كفّوا ، يا سادة ، كفّوا! ليس من العدل أن ننتقم من الإهانات التي يصيبنا بها الحب : فالحب شبيه بالحرب ، والحرب خدعة ، وترى من المسموح به ومما جرى به العرف استخدام الحيل والمكائد من أجل النصر ، والأمر كذلك بالنسبة الى حيل الحب ومكائده من أجل الوصول الى رغباته ، بشرط ألا تهدف الى تدنيس شرف المحبوب ، كانت كتريه لباسيل ، وباسيل لكاتريه ، بتأثير السماء العادل المواتي ، وكمتشو غني ، وسيجد بسهولة ما يرضيه حين يشاء . أمّا باسيل فلم تكن له غير نعجة[1]

---

(١) إشارة الى المثل الذي ضربه ناتان الحكيم وهو يوبّخ داود على اغتصابه لزوجه أوريا الحثي ، بحسب ماورد في سفر الملوك الثاني ، الفصل ١٢ ، « فأرسل الرب ناتان الى داود فأتاه وقال له : كان رجلان في إحدى المدن أحدهما غني والآخر فقير . وكان للغني نعاج وبقر كثيرة جداً . والفقير لم تكن له غير نعجة واحدة صغيرة قد اشتراها وربّاها وكبرت معه... فنزل الرجل الغني ضيفاً ، فشح أن يأخذ من نعاجه وبقره ليهيئ للضيف الوافد عليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيّأها للرجل الوافد عليه . فغضب داود على الرجل جداً وقال لناتان : حي الرب أن الرجل الذي صنع هذا يستوجب الموت... فقال ناتان لداود أنت هو الرجل . هكذا قال الرب إله اسرائيل إني منحتك ملكاً على اسرائيل وأنقذتك من يد شاول . وأعطيتك بيت سيّدك وأزواج سيدك » . وكذلك ماورد في سفر صموئيل =

واحدة هي كتريه ، ولا يستطيع إنسان في العالم مهما يكن غنيّاً وقويّاً ، أن ينتزعها منه ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يفصل ماربطه الله ، ومن يجرؤ على محاولة ذلك عليه أوّلاً أن يجرّب سن هذا الرمح » .

ولمّا قال هذه الكلمات شهر رمحه بقوة ومهارة حتّى أخاف كل الذين لايعرفونه . ومن جهة أخرى أخلى الحب مكانه للإحتقار في قلبي كمتشو ، حتّى أتمّت نصائح القسّيس ـ وهو رجل عاقل فطن ـ تسكين ثائرته . فأعاد هو ورجاله سيوفهم الى أغمادها ، وأنحوا باللائمة على طيش كتريه أكثر من لومهم لبراعة تدبير باسيل . كذلك فكّر كمتشو أنه إذا كانت كتريه قد أحبّت باسيل وهي بنت ، فربّما ستحبّه وهي زوجه ، وعليه إذن أن يحمد الله على أنه سلبها منه ، لا على أنه أعطاها إيّاه ، ولكي يبيّن كمتشو على أنه لايحمل موجدة ، أراد أن يستمر الاحتفال ، وكأنه هو الذي سيتزوّج . لكنّ باسيل ، وزوجته ، وأصدقاؤه اعتذروا عن الحضور ، وراحوا جميعاً الى بيت باسيل : إن الفقراء ، الأفاضل العقلاء ، لا يعوزهم من يتبعونهم ويكرمونهم ، ويساعدونهم ، كما أن الأغنياء يجدون دائماً متملّقين يصحبونهم . وأخذوا معهم دون كيخوته ، وهم ينظرون اليه على أنه رجل ذو شجاعة فائقة ،وسنشو هو وحده الذي كان حزيناً إذ رأى أن من المستحيل عليه أن يشهد مأدبة كمتشو العامرة واحتفاله الفخم ، اللذين استمرّا حتّى الليل . فتبع مولاه وهو حزين كئيب ، بينما مولاه يسير مع جماعة باسيل ، وأدار ظهره لقزانات مصر ، وإن كان يحملها في قلبه ، لأن الرغوة التي ابتلعها كلها تقريباً ذكّرته بالمجد والخير اللذين فقدهما : وهكذا مضى في أثر روثينانته ، مثقلاً بالخواطر الحزينة والغموم ، مع أنّه لم يكن جوعان .

= الثاني ، الفصل (٩ ـ ١٢) : « لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه . قد قتلت أوريا الحثي بالسيف ، وأخذت امرأته وإياه قتلت بسيف بني عمون . والآن لا يفارق السيف بيتك الى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة » .
وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم في سورة ص : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة ، فقلت اكفلينها وعزني في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على البعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم . وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

الفصل الثاني والعشرون

وفيه تروى المغامرة الكبرى في كهف مونتسينوس الموجود في وسط اقليم المنتشا، وهي مغامرة أتمها بنجاح الشجاع دون كيخوته دلا منتشا

احتفل العروسان بدون كيخوته احتفالاً عظيماً ، اعترافاً منهما بفضله في الدفاع عن قضيّتهما ، ووجد أن حكمته كفاء شجاعته وعدّوه مثل «السيد »في الشجاعة ومثل شيشرون في الفصاحة ، وتمتّع سنشو بأطايب الطعام طوال ثلاثة أيّام على حساب العروسين الجديدين . وعرف منهما أن كتريه لم تكن تعلم شيئاً عن حيلة باسيل ، بل كان كل شيء من اختراع هذا ، ولم يخب أمله ، ولكنّ أفضى بمشروعه هذا الى بعض أصحابه ، حتّى يساعدوا في إتمام المكيدة في الوقت والمكان ، فقال دون كيخوته : «لايمكن أن يسمّى خديعة مايهدف الى غاية حميدة ، وزواج شخصين متحابّين هو أنبل الغايات . ومع ذلك فإن ألد أعداء الحب هما الجوع والبؤس المستمرّان : فالحب إله طروب ، يحب الملذّات ، خصوصاً إذا امتلك المحب ، موضوع أمانيه أما إن هاجمته الحاجة ، فوداعاً للّذات ، ووداعاً للحب» . وكان دون كيخوته وهو يتكلّم على هذا النحو ، يريد إقناع باسيال بالإنصراف عن التمرينات البدنية التي جلبت له تلك الشهرة الواسعة ، لكنّها لا تجلب له مالاً ، وأن يعمل على الحصول على الأموال بوسائل الاجتهاد المشروعة ، وهي لا تعوز أبداً العقلاء المجدّين . وقال دون كيخوته متابعاً : «الفقير (إن كان أحد يحترمه) يملك كنزاً بإمتلاك امرأة جميلة ، وانتزاعها منه هو انتزاع لشرفه : والمرأة المحبوبة الجميلة ذات الزوج الفقير تستحق أكاليل الغار وجوائز الإنتصار . والجمال ، وحده ، يجذب كل القلوب ، وكل إرادات من يعجبون به ، إنه شبيه بالطعم الذي ينقض عليه النسر الملكي وسائر الطيور البواشق . لكن إذا انضم الى الجمال الفقر والحاجة ، هناك تهاجمه الغربان والحداء وسائر طيور النهب والسلب ، والتي تصمد وسط كل هذا الهجوم ، تستحق أن تدعى تاج زوجها . اسمع أي باسيل البارع . كان من رأي أحد الحكماء ، ولاأذكر الآن

ماسمه ، أنه لايوجد في العام غير إمرأة واحدة صالحة ، وكان ينصح كل واحد أن يفكّر ويعتقد أن هذه المرأة الوحيدة هي امرأته ، ويقول أن هذه هي الوسيلة كي يعيش المرء راضياً . إنّي لست متزوّجاً ، ولم يخطر ببالي حتّى الآن فكرة الزواج ، ومع ذلك فإنّي أجرؤ على أن أسدي النصيحة لمن يسألني النصيحة في كيفية اختيار الزوجة ، وأقول له أوّلاً انظر الى طيب السمعة أكثر من النظر الى الثروة ، لأن المرأة الشريفة لاتقدّر فقط لأنها امرأة صالحة في ذاتها ، بل وتبدو للناس كذلك ، إن الطيش وإنّ الخفة والاستهتار التي يترخص فيها النساء علناً تسيء اليهن أكثر جداً من مكائدهن الخفية . فإذا وضعت في بيتك إمرأة فاضلة ، فسيكون من السهل عليك أن تحافظ على طيبتها بل وأن تزيد فيها وتحسنها ، لكنّك إذا أخذت زوجة رديئة ، فإنّك ستضيّع جهودك سدى في محاولة إصلاحها ، لأنه ليس من السهل أبداً الإنتقال من طرف الى طرف ؛ ولست أقول أن هذا مستحيل ، ولكنه أمراً على الأقل عسير جداً » .

وكان سنشو حاضراً يصغي لهذا الكلام ، فقال في نفسه : «من عادة مولاي ، حين أقول شيئاً مفيداً جيداً ، أن يقول إنني أستطيع أن أحمل منبراً بيدي وأغدو للوعظ مواعظ جميلة ، وأنا أقول أنه حين يبدأ في سرد جمله وإسداء نصائحه ، فإنه ليس فقط يستطيع أن يحمل منبراً في يده ، بل منبرين في كل إصبع ويبدو واعظاً في الميادين العامة لكل من هب ودب . يا له من شيطان! كفارسٍ جوال ما أوسع ما يعرف! لقد كنتُ أظن أنه لم يكن يعرف غير الأمور المتعلقة بالفروسية ، لكن لا يوجد شيء لا يستطيع أن يغرس ملعقته فيه » .

وسمعه دون كيخوته يتكلّم بين أسنانه فقال له : « بم تتمتم يا سنشو ؟ » فأجاب : « أنا لا أتمتم بشيء ، بل أقول فقط أنّي كنت أود لو سمعت كل ما قلته الأن ، قبل أن أتزوّج ، لأنّي ربّما أقول الآن إن الثور المحلول قيده يلعق نفسه كما يشاء » . فقال دون كيخوته : « هل تريزاك شرّيرة الى هذا الحد ؟ » فقال سنشو : « مولاي! إنّها ليست شرّيرة جداً ولا طيبة جداً ، لكنّها ليست من الطيبة بمقدار ما كنت أود » . فقال دون كيخوته : « ليس حسناً يا سنشو أن تذم زوجتك ؛ فهي أم أولادك » . فأجاب سنشو : « نحن متخالصان ؛ فهي أيضاً تذمّني حين يحلو لها ، وخصوصاً حين تغار ، لأنه في مثل هذه اللحظات ، لحظات الغيرة ، لا يستطيع الشيطان نفسه أن يتحمّلها » .

وأمضى المولى والسائس ثلاثة أيّام في ضيافة العروسين ، وهما يحتفى بهما كأميرين . ورجا دون كيخوته باسيل أن يعطيه دليلاً يرشده الى كهف مونتسينوس ، لأنه يرغب رغبة

شديدة في الدخول فيه ليرى بعينيه العجائب التي تروى عنه في كل الإقليم . فقال له باسيل أنه سيعطيه أحد أبناء عمومتة ، وهو طالب شهير ومولع كبير بكتب الفروسية ، ويطيب له أن يرشده حتى مدخل الكهف نفسه ،ويريه أيضاً برك رويديرا ، المشهورة ليس فقط في إقليم المنتشا ، بل وأيضاً في اسبانيا بأسرها ، وأضاف أنّ هذا الشاب سيكون محدثاً ممتعاً ، لأنه يقدر على تأليف كتب جديرة بأن تطبع وتقدّم الى الأمراء .

وأخيراً وصل ابن العم راكباً حمارة حبلى ، على برذعتها سجادة رديئة . وأسرج سنشو روثينانته ، ووضع البرذعة على حماره ، وملأ خرجه ملأً تاماً ومعه خرج ابن العم حافلاً هو الآخر بالزاد . ثمّ توكّلوا على الله ، وودّعوا الجميع ، وتابعوا الطريق الذي سيقودهم الى كهف مونتسينوس الشهير .

وفي أثناء الطريق ، سأل دون كيخوته ابن العم من أي نوع تمريناته ودراساته ، ومهنته . فأجابه بأنه مشتغل بالعلوم الإنسانية ، وأنّ عمله هو تأليف الكتب ثمّ طبعها لنفعه والمنفعة العامة ، وأنّه ألّف كتاباً عنوانه : «شارات الموكب» ، وفيه وصف سبعمائة وثلاث شارات ، بألوانها وأرقامها ونقوشها الكتابية ، مما يمكّن رجال القصر أن يختاروا منها في أوقات الأعياد والمباريات ، دون أن يحطّموا رؤوسهم ويرهقوا أمخاخهم في البحث عن شارات تتلاءم مع مبتكراتهم . وأضاف : «لأنّي أعطي للقبور ، والمهجور ، والمنسي ، والغائب ، وماهو مناسب تماماً» . وأنا أشتغل في كتاب آخر ، عنوانه «التحوّلات أو أوڤيد الاسباني» وهو كتاب مبتكر فريد في نوعه : لأنّي أحاكي أوفيد في النوع الساخر ، فأعرف بماذا كانت خيرالده أشبيلية ، وملاك المجدلية ، ومجرور بسنجرا في قرطبة ، وثيران جسندو ، وسيراموريـنا (جبل الشارات) ، ونافورات لجانيتوس ولافاپيس (غسيل القدم) في مدريد ، دون أن أنسى نافورات بيوجو ، والأنبوبة الذهبية والديرانية[1] ، وكل هذا مع رموز ، وأمثال ، ومجازات ، وتحويلات ، تدهش ، وتسلّي ، وتعلّم القارئ . وأقوم بتأليف كتاب آخر بعنوان : «ملحق بيوليدور فرجيليوس[2]» ، وفيه

(١) ذكرنا قبل هذا خيرالده أشبيلية وثيران جسندو الأربعة ، أمّا سهل لجانيتوس فيقع في الشمال الشرقي من مدريد ، ويطل على نهر منثارنس ، وقد أقيمت فيه نافورات ذات ماء صاف جداً . أمّا لافاپيس (غسيل القدم ، مغسلة القدم) فكانت نافورة في مدريد ، في ميدان كانت تجري عنده مسابقات الثيران ، ونافورتا بيوخو والأنبوبة الذهبية كانتا في حديقة البرادو الفسيحة الفخمة في مدريد ، ونافورة الديرانية كانت في حدائق اقليم عليها دير ، وملاك المجدلية شكل منحوت في ناقوس كنيسة المجدلية في سلمنته .

(٢) بوليدور فرجيليوس ، مؤرّخ ايطالي ولد حوالي سنة ١٤٧٠ في أوربينو ، وتوفي سنة ١٥٥٥ ، ودخل الطريقة الرهبانية ، ودرس في بولونيا ، وانتقل الى انكلترا ، وعيّن رئيساً لشمامسة ولز في سنة ١٥٠٧ . وله من المؤلفات : «التاريخ الإنكليزي في ٢٦ مقالة» ، بازل سنة ١٥٣٤ ، «في مكتشفي الأشياء» في ثماني مقالات وكذلك «في العجائب» في ثلاث مقالات ، أمستردام سنة ١٦٧١ .

أبحث في اختراع الأشياء : وهو كتاب احتاج الى مجهود شاق وإطّلاع واسع ، لأنّي أعرض فيه ، بإسلوب شائق ، كل ماغفل يوليدور الكلام عنه . فهو مثلاً نسي أن يقول لنا من أوّل من أصيب بنزيف ، ومن أوّل من لجأ الى الحك لعلاج الداء الفرنسي : أمّا أنا فأقرّر الأمر تماماً ، مستنداً الى خمسة وعشرين مؤلفاً . وبهذا تستطيع أن تحكم هل اشتغلت بذمة ، وهل كتابي مفيد » .

وكان سنشو يستمع بانتباه شديد الى كلام ابن العم ، وقال له : «سيدي هيّأ الله لك النجاح في طبع كتابك ، هل تستطيع أن تقول لي... لكنّك تعرف ، لأنّك تعرف كل شيء ، من هو أوّل من حكّ رأسه ؟ رأيي أنا أنه لابد أن يكون هو أدم» فأجاب ابن العم : «لاشك في ذلك : فممّا لاريب فيه أنه كان لأدم رأس وشعر ، فلمّا كان أوّل إنسان في العالم فلا بدّ أنه حكّ رأسه بين حين وآخر» . فقال سنشو : «وأنا أعتقد ذلك أيضاً ، لكن قل لي الآن من أوّل من وثب وطار ؟ فأجاب ابن العم : «الحق ياأخي أنني لا أستطيع أن أجيبك الآن : وسأدرس هذه المسألة بمجرّد عودتي الى كتبي ، وسأعطيك الجواب الشافي في أوّل مرة نلتقي فيها بعد ذلك (لأنّي أظن أن هذه ليست الأخيرة) .فقال سنشو : «لا حاجة بك ياسيدي الى كل هذا العناء ، لأنّي وجدت الآن ما سألتك عنه : أوّل من طار في العالم هو لوسيفر (الشيطان) حينما ألقى به من السماء ، وسقط طائراً حتّى أعماق الهاوية» . فقال ابن العم : «أنت على حق يا صاحبي» .

فقال دون كيخوته بدوره : «ياسنشو هذا السؤال وهذا الجواب ليسا من عندك ، بل سمعت أحداً يقولهما» . فقال سنشو : «اسكت يا مولاي ، لأنّي والله لو شرعت في وضع أسئلة وأجوبة فلن أنتهي قبل أسبوع ، وللسؤال عن ترّهات والإجابة ببلاهات لا حاجة بي الى سؤل جيراني» .فقال دون كيخوته : «لقد قلت أكثر مما تعي ، لأن ثمّ أشخاصاً يعذّبون أنفسهم لمعرفة وتحقيق أمور لاتفيد العقل ولا الذاكرة أدنى فائدة» .

ومضى النهار في مثل هذه الأحاديث ، وفي الليل أقاموا في قرية صغيرة تبعد عن كهف مونتسنوس بحوالي فرسخين ، حسبما يقول ابن العم الذي نبّه دون كيخوته الى أنه إذا كان يريد حقّاً النزول الى أعماق الكهف فلا بدّ من التزوّد بحبال يربط بها . فقال دون كيخوته إنه يريد أن يصل الى أعماقها ، حتّى لو كانت هي الهاوية بعينها . وفي الغد في الساعة الثانية بعد الظهر ، وصلوا الى الكهف ، وكانت فتحته واسعة ، لكنّها كانت مملوءة بالزعرور والشوك والتين البرّي والعليق الكثيف حتّى كان المدخل كلّه مغطّى بها .

فنزل دون كيخوتته وابن العم وسنشو عن ركائبهما ، وربط دون كيخوته بحبال ربطاً وثيقاً ، وقال له سنشو وهو يربطه : « سيدي! خذ حذرك مما أنت فاعل ، لاتدفن نفسك حياً ، وتشق نفسك كالقربة التي تنزل في بئر لتبريدها . إنه ليس من شأنك أن تنزل لفحص هذا الكهف الذي لابدّ أن يكون أسوأ من سجن المغاربة »...

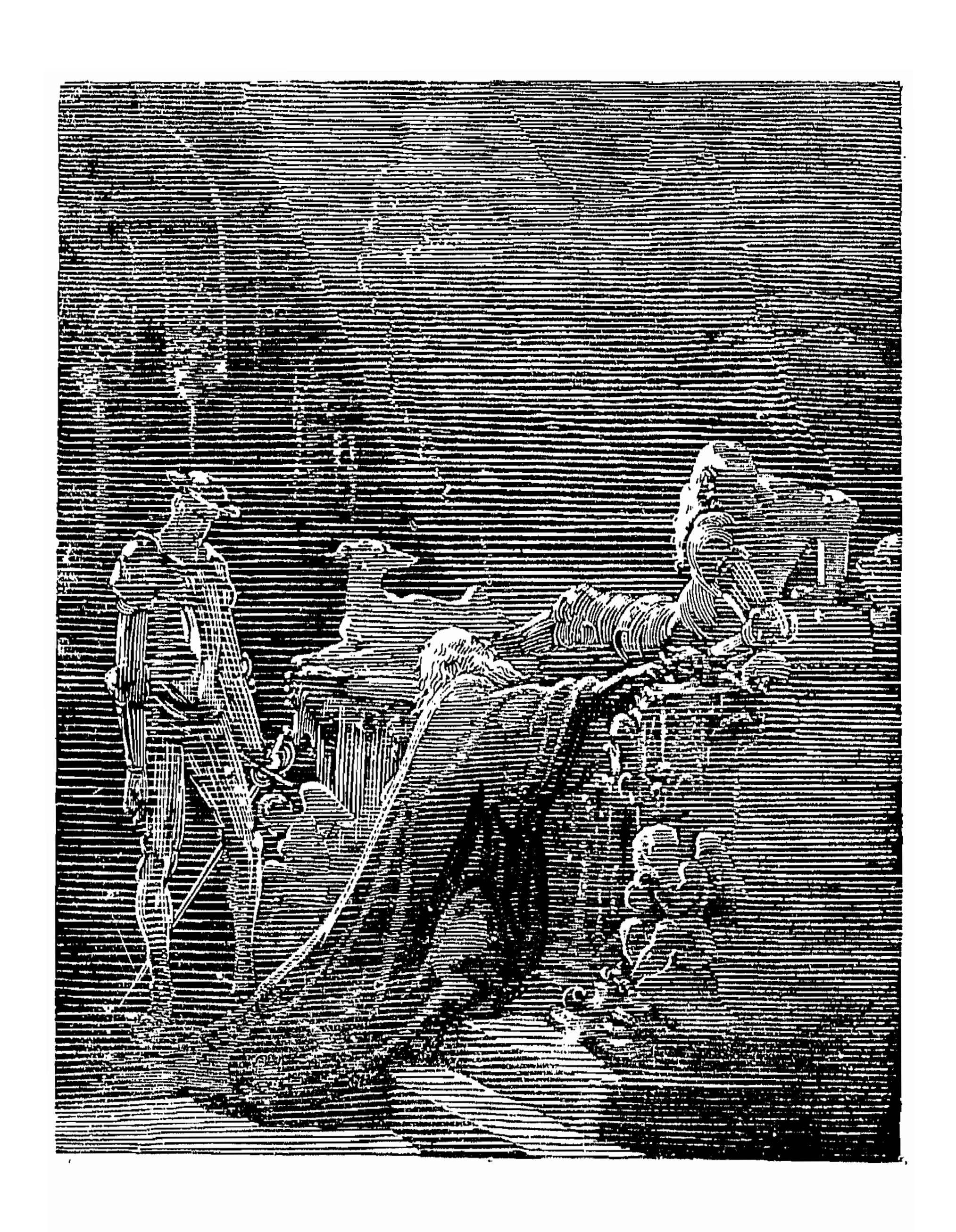
فقال دون كيخوته : اربط ، واسكت ، لي أنا ، ياصاحبي سنشو ، توكّل مغامرة مثل هذه .

فقال له مرشده (ابن العم) حينئذ : سيدي! أتوسّل إليك أن تفحص بمائة عين كل ماستراه في داخلها : إذ لاشك في أنك سترى فيها أشياء أستطيع وصفها في كتابي عن التحوّلات .

فقال سنشو : إطمئن ، المسألة في أيدٍ أمينة .

وقال دون كيخوته وقد ربط ربطاً محكّماً ، لافوق سلاحه ، بل تحته وعلى الصدرية : « لم نفكّر في الحصول على جرس صغير ، لاستخدامه في إبلاغكم أنني لاأزال حيّاً ، لكن مادمنا لا نستطيع الحصول على جرس الآن ، فلنمض في عناية الله وحراسته » . وفي الحال ركع ، ووجه الى السماء صلوات بصوت خفيض ، سائلاً الله أن يكون في عونه وأن يكلّل بالنجاح هذه المغامرة الجيدة الخطرة معاً ، ثمّ قال بصوتٍ عالٍ : « يا سيدة أفعالي وعواطفي ، أي دلثنيا دل توبوسو الرائعة المنقطعة النظير ، إن كان من الممكن أن تصل الى أذانك دعوات وتوسّلات عاشقك المغامر ، فإنّي أستحلفك بحق جمالك المنعدم النظير ، أن تصغي اليها برضا ؛ لأنّي لاأسألك إلا عدم حرماني من عطفك وحمايتك اللذين احتاج اليهما في هذه الساعة أشد الاحتياج . إنّي بسبيل أن ألقي بنفسي ، وأضيع وأغوص في الهاوية التي تنفتح تحت أقدامي ، لا لشيء إلا من أجل أن يعرف الكون أنه لا يستحيل على شجاعتي شيء طالما كنت تمنحيني عطفك ورضاك » .

وما أتمّ هذه الكلمات حتّى اقترب من الفتحة وأدرك أن من المستحيل الدخول فيها إلا بقوّة ذراعيه وبضربات السيف القوية . هنالك أمسك بسيفه وأهوى على الأشواك والحشائش المتكاثفة التي سدّت المدخل . وعلى أثر الضجة الكبيرة التي أحدثها طارت أسراب من الغربان متلاحمة عنيفة بحيث قلبت دون كيخوته ، ولو كان ممّن يتشاءمون بقدر ما كان كاثوليكيّاً صالحاً ، لكان قد أبصر في سقطته هذا نحساً وشؤماً ، ولم يجسر على النفوذ في مثل هذا المكان . ولكنه نهض ، ولمّا رأى أنه لايخرج بعد غربان ولاخفافيش ولا أي طيور ليلية أخرى ، انزلق في الأعماق بواسطة الحبل الذي أمسك به ابن العم وسنشو . وفي اللحظة التي دخل فيها منحه سنشو البركة ، ورسم بالإشارة إليه



دون كيخوته في كهف مونتسينوس

آلافاً من علامات الصليب وقال له : «الله يهديك[1] ، وصخرة فرنسا ، وثالوث منيتا ، أنت يازهرة وزبدة ، ورغوة الفرسان الجوّالة! امض يابطل العالم ، وقلب الحديد وذراع البرنز! ليكن الله مرشدك وهاديك مرة أخرى ، وليعدك سالماً معافى بغير جراح - الى نور هذه الحياة ، الذي تتركه لتدفن نفسك في هذه الظلمات التي تسعى إليها!» وردّد ابن العم الدعوات نفسها والمناجيات تقريباً . واستمر دون كيخوته ينزل ، صائحاً بترك المزيد من الحبل ، فأنزلا الحبل شيئاً فشيئاً ، ولما لم يعودا يسمعان كانا قد مدّا له من الحبل مائة ذراع! هنالك رغبا في إعادة دون كيخوته ، لأنه لم يكن في وسعهما بعد أن يمداه بالحبل . ولكنّهما انتظرا نصف ساعة بعدها بدآ يسحبان الحبل بسهولة كبيرة ، دون أن يشعرا بثقل ولامقاومة ، مما جعلهما يعتقدان أن دون كيخوته بقي في أعماق الكهف . فأخذ سنشو في البكاء الشديد المرير ، وشد بأسرع ما يستطيع ليوضّح شكوكه ، ولكن حينما سحبا حوالي ثمانين ذراعاً من الحبل ، أحسّا بالثقل ، مما أفرحهما الى أقصى حد ، وأخيراً شاهدا دون كيخوته بوضوح .فصاح سنشو : «عود حميد ، يا مولاي ، لقد حسبنا أنّك بقيت هناك لتجد جذورك» . فلم يجب دون كيخوته بكلمة ، ولمّا أخرجاه الى خارج الكهف ، لاحظا أن عينيه مغمضتان ، وأنه بدا نائماً . فوضعاه على الأرض ، وحلاّ الحبل عنه ولكنّه مع ذلك لم يفق ، ثمّ قلّباه على جنبيه ، وأعادا تقليبه ، وهزّاه بشدة حتّى أنه بعد مرور فترة طويلة فتح عينيه ، واستردّ وعيه ، وتمطّى كرجل استيقظ من نوم عميق ، ثمّ تلفّت في كل ناحية وقال في شيء من الفزع : «ياصاحبيّ سامحكما الله ، لقد حرمتماني من ألذ حياة ، وأمتع منظرحظي به إنسان ، وأنا أقر الآن ، عن تجربة ، أن كل لذائذ الحياة تمضي كالظل ، أو الحلم ، أو تذبل كأزهار الحقول . أي مونتسينوس[2] البائس أي[3] دوراندرا الجريح بنذالته! أي بلرما

---

(١) صخرة فرنسا : جبل عالٍ في مقاطعة شلمنقة ، على بعد سبعة فراسخ من ثيودا رود ريجو . ويقال أن أحد الفرنسيين أكتشف هناك ، في سنة ١٤٤٣ صورة لعذراء ولهذا أقيم دير للدومينيكان على هذه الصخرة . أمّا ثالوث «جنيتا» فاسم يطلق على كنيسة ودير أسّسهما فرتندو ملك أرغون في جنيتا ، أحد الموانىء الإيطالية ، في مملكتي نابلي ، وكان البحارة يتبرّكون بهما كثيراً .

(٢) مونتسينوس لقب لقّب به تيوبلد ، ابن كونت جريميلدو وابن أخي شارل مارتل ، وقد فقد إقطاعه في فرنسا ، ونفي ، فرحل للإقامة في اسبانيا في منطقة جبلية ، ولهذا سمّي : «مونتسينوس» أي الجبلي ، وعاد الى فرنسا في أيّام شارلمان ، وصار أحد أكفّاء فرنسا الأثني عشر ، وخاض مغامرات غرامية عديدة ، وعاد الى اسبانيا حتّى توفّي . وتزوّج في اسبانيا من الآنسة روسا فلوريدا ، سيدة قصر يدعى روتشفريدا ، في سهل مونتييل . وغير بعيد عن هذا القصر كان يوجد كهف مونتسينيوس .

(٣) دوراندرا كان أحد أكفّاء فرنسا الأثني عشر ، وابن عم مونتسينوس ، وعاشقاً «لبلرما» وقد جرح جرحاً قاتلاً في معركة رونصفال ، فكلّف مونتسينوس بالعمل على نقل جثمانه ، وحمله الى بلرما .

الشقية! أي جودا[1] ديانا الشاكي الباكي ، وأنت يابنات روديرا الحزينات يامن ليست مياهكن الغزيرة غير العبرات التي سفحتها عيونكن الجميلة! » .

وفتح ابن العم وسنشو عيونهما دهشة ، وأصغيا باهتمام الى عبارات دون كيخوته ، التي كان ينطق بها وكأنّه يسحبها بألم بالغ من أعماق أحشائه : وتوسّلا اليه أن يشرح ما قال ، ويروي لهما ما شاهد في ذلك الجحيم .

فقال دون كيخوته : تقولان الجحيم ؟ لا تسمّيانه بهذا الاسم ، من فضلكما ، إنه يستحق اسماً آخر ، كما ستعرفون بعد قليل ، لكن قبل هذا أعطياني ، من فضلكما ، شيئاً آكله ، لأنّي أشعر بجوع شديد . فمدّا على العشب السجادة التي كان يستخدمها ابن العم سرجاً ، وفتحا الخرجين وجلس الثلاثة على العشب المزهر وتغدّوا وتعشّوا في وقت واحد ترفرف عليهم المودّة والأخوة .

ولمّا رفعت السجادة قال لهما دون كيخوته :

ـ لا يتحرّكن أحد! والآن ، يا ولديّ ، أعيراني كل أسماعكم!

(١) جوادیانا (الوادي اليانع ، وكلمة وادي= نهر) : نهر في اسبانيا ، لم تكن منابعه معروفة في عهد ثربانتس ، مما جعله يظن أنه ينبع من ينابيع تحت الأرض في كهف مونتسينوس ولكن الوادي اليانع « جوادیانا » ينبع في الواقع من شمال الكرز ، ويؤلّف أوّلاً نهيراً صغيراً يصب في أولى برك رويديرا ، ولمّا يخرج من البرك يتشعّب في الأرض . وبعد ٢٤ كم من المجرى تحت الأرض غير بعيد عن ديميسيل توجد بحيرتان كبيرتان تسمّيان « العينان » عينا الوادي اليانع ، وهذه البحيرة تؤلّف منبعاً جديداً للنهر ، ثمّ يدخل بعد ذلك في البرتغال ، ليصب نهائيّاً في المحيط الأطلسي ـ أمّا رويديرا فكانت قرية ، يملكها طريقة شنت يعقوب ، ثمّ صارت مكاناً مهجوراً .

وكهف مونتسينوس عمقه ٦٠ متراً وسعته أربعون متراً . ويقع في ناحية قرية اسمها « أوسا دي مونتيل » . ومدخلها تسدّه الصخور والأعشاب والأشواك . وإذا مانزل فيه على اليمين وجد فراغ كبير يلوذ به الرعاة . وتوجد بركة مياه تجري في أعماق الكهف ثمّ تصب في برك رويديرا ، وهذه عددها ثلاثة عشر ، وثربانتس يسمّيها هنا « بنات رويديرا الحزينات » ، ويعد منها تسعاً ، فقط ، سبع هن بنات هذه السيدة ، وإثنتان هما بنتا أختها : والسبع الأوّل للملك . والإثنتان الأخريتان لطريقة القدّيس يوحنّا .

الفصل الثالث والعشرون

في الأمور العجيبة التي قال الرائع دون كيخوته أنه رآها في كهف مونتسينوس العميق، وهي امور مستحيلة لا تصدق، حتى أن هذه المغامرة تعد منحولة

كانت الساعة الرابعة مساءً تقريباً بعد الظهر ، والشمس ، وكانت نصف محجوبة بالغيوم التي خفّفت شدة حرارة أشعتها ، لم تكن تنشر غير ضوء هادئ ، ومكّنت دون كيخوته أن يروي ، بغير حرارة ولا تعب لسامعيه الفخيمين ، ما رآه في كهف مونتسينوس . بدأ هكذا :

«على عمق إثنتي عشرة أو أربع عشرة ذراعاً من هذا الكهف يوجد عن يمين فراغ فسيح ، يمكن أن يحتوي على عربة كبيرة ببغالها ، ويدخل فيه نور ضئيل من شقوق وخروق تمتد حتّى سطح الأرض . وحينما أبصرت هذا التجويف ، كنت متعباً من الشعور بأنّي معلّق بحبل دون اتّخاذ طريق معيّن . فقرّرت أن أدخل في هذا التجويف لأستريح قليلاً . وقد ناديتكما حتّى لا ترسلا حبلاً بعد الى أن أطلب منكما ، ولكن لابدّ أنكما لم تسمعاني . فجمعت الحبل الذي أرسلتماه ، وصنعت منه كومة جلست عليها مفكّراً ، لست أدري ماذا أفعل لبلوغ القاع ، لأنه لم يعد ثمّ من يمسك بي وشغلتني هذه الفكرة واستغرقتني وأنا حائر ، فغصت في نوم عميق بغير إرادتي ، ثمّ بدون أن أشعر ، ودون أن أعلم كيف استيقظت فوجدت نفسي في وسط أجمل مرج وألذّ وأمتع مايمكن أن تنتجه الطبيعة أو يحلم به الخيال الخصب ، وفتحت عينيّ ، وفركتهما ، وأيقنت أنّي لم أنم ، وأنني كنت يقظان فعلاً . ولكي أتأكّد أنه أنسياً وليس شبحاً عابثاً ، تحسّست صدري ورأسي : فأكّد لي اللمس ، والشعور والبراهين التي أقمتها في داخل نفسي أنني كنت كما أنا الآن . وفي الوقت نفسه تجلّى أمام بصري قصر ملكي فخم ، بدا أن أسواره من البلّور الأصفى . وفتح بابان كبيران : فرأيت شبحاً وقوراً يخرج منهما ويتقدّم اليّ ، متدثّراً بمعطف من السرج اللازوردي ، يتجرجر على الأرض ، وكان كتفاه وصدره مغطّان بوشاح طالب من الساتان

الأخضر ، وكانت على رأسه قلنسوة ميلانوية من القطيفة السوداء ، وكانت لحيته البيضاء تتهدّل الى أدنى من حزامه . ولم يكن معه أي سلاح ، بل كان في يده مسبحة فقط ، حبّاتها أكبر من الجوز ، والعشارات مثل بيض النعام ، وكان وقاره وسمته ، ونبل طلعته والمكان الذي وجدت نفسي فيه ـ كل هذه ملأتني دهشة وإعجاباً . واقترب منّي ، وعانقني عناقاً وثيقاً ، وقال لي :

« منذ زمن بعيد ، أيها الفارس الشجاع دون كيخوته دلا منتشا ، ونحن ننتظرك وسط هذه الخلوات المسحورة ، حتّى تخبر العالم بما يحتويه كهف مونتسينوس الذي دخلت فيه ، وهي مغامرة كانت مخصّصة لشجاعتك التي لا تقهر ، وتصميمك الجسور . تعال معي أيها السيّد العظيم جداً ، وسأريك العجائب التي يحتويها هذا القصر الشفّاف الذي أنا ربّه وحارسه الدائم ، لأنّي أنا مونتسينوس الذي يحمل هذا الكهف اسمي » .

ولم يكد يقول لي إنّه هو مونتسينوس حتّى سألته هل صحيح ما يقال في العالم ، إنه انتزع بخنجر قلب صديقه دورندار ، وحمله الى السيدة بلرما ، بناء على التماس دوروندرا منه وهو يموت . فأجاب : «نعم ، هذا كلّه صحيح ، فيما عدا الخنجر : لأنه كان نصلاً لامعاً ، حاداً مثل المخرز » .

فقال سنشو : «لابدّ أنّ هذا النصل من صنع رامون دي هوتس في اشبيلية » . فأجاب دون كيخوته : «لا أعرف ، لكنّي لا أعتقد ذلك لأن رامون هذا يعيش في عصرنا ، بينما معركة رونصفال التي قتل فيها دوريدار أقدم بكثير ، وعلى كل حال فإن هذه الجزئية ليست بأقل أهمّية ولا شأن لها بالقصة» . فقال ابن العم : «أنت على حق ، تابع ياسيد دون كيخوته : إنّي أصغي اليك بمنتهى الشوق والرضا » .

فقال دون كيخوته : «عندي الكثير ، وأقول لك إذن أن مونتسينوس الوقور أدخلني في قصر البلّور هذا ، حيث رأيت في قاعة دنيا ، كلّها من الألبستر ذات طراءة لذيذة ، شاهدت قبراً من المرمر البديع الصنع يتمدّد على طوله فارس ، لا من البرنز ، أو المرمر أو اليشب ، مثلما يرى على سائر القبور ، بل من لحم وعظم ، وكانت يده اليمنى موضوعة على قلبه وبدت لي هذه اليد عصبية كثيفة الشعر ، وهذا دليل على القوة الكبيرة وقبل أن أسأله أي سؤال ، لمّا رأى مونتسينوس دهشتي من منظر القبر والفارس قال لي : «هذا هو صديقي دورندار ، زهرة الشجعان ومرآتهم وزهرة العشّاق في عصره . ومرلان ، هذا الساحر الفرنسي الذي قيل أنه ابن الشيطان ، لأنه ، كما أظن ، يعرف أكثر منه ، ومرلان هذا هو الذي يمسك مسحوراً في هذا القصر صديقي دورندار وأنا وكثيرين من

الفرسان والسيدات . ولايدري أحد كيف ولماذا يمسكنا مسحورين في هذا القصر . وستعرف ذلك فيما بعد ، كما يخيّل اليّ . إنّ ثمّ شيئاً يدهشني ؛ فأنا أعلم علم اليقين وعلمي أن الآن نهار ، أن دورندار أنهى حياته بين ذراعي ، وبعد موته انتزعت بيدي قلبه ، وكان كبيراً حتّى ليزن رطلين على الأقل ، لأن علماء التاريخ الطبيعي يقولون أن صاحب القلب الأكبر هو الأشجع » . فقلت له : « إذا كان الأمر كذلك ، وكان هذا الفارس قد مات فعلاً ، فكيف يتأتّى إذن أنه يتنهّد ويتشكّى ، في كل لحظة كأنه حي فعلاً ؟ » وفي اللحظة نفسها صاح دورندار البائس ، بصوت شاك : « أي ابن عمي مونتسينوس ، كان آخر شيء طلبته منك هو أنه حين أموت وترحل روحي ، أن تحمل قلبي الى بلرما باستخراجه من صدري إما بخنجر أو نصل » . فلما سمع الوقور مونتسينوس هذه الكلمات جثا على ركبتيه أمام الفارس البائس وقال والدموع في عينيه : « سيدي دورندار! أي ابن عمّي العزيز جداً ، لقد فعلت ما أمرتني به في اليوم المشؤوم لهزيمتنا ؛ وانتزعت منك القلب على خير وجه استطعته ، دون أن أترك في الصدر أية فدرة منه ، ومسحته بمنديل من الدنتلة ، ورحلت الى فرنسا بعد أن وضعت جثمانك في قلب الأرض وأنا أذرف العبرات ما يكفي لغسيل يدي وتنظيفها من الدم الذي ضرّجها حين فتّشت في أحشائك والدليل على ما أقول لك ، أي ابن عمّي العزيز وروحي ، أنه في أول قرية مررت بها وأنا خارج من وادي رونصڤال وضعت بعض الملح على قلبك ، حتّى لاتفسد رائحته ويمكن تقديمه الى السيدة بلرما التي هي ، مثلك أنت ، وأنا ، وجواديانا سائسك ، والدونيا رويديرا وبناتها السبع ، وإبنتي أختها وكثيرين غيرهم من أصدقائك ومعارفك ، ممسوكة بالسحر في هذا القصر بواسطة الحكيم مرلان ، منذ سنوات عديدة ، وعلى الرغم من أنّه قد مرّت على هذا خمسمائة سنه فإنه لم يمت واحد منّا ، ولا ينقصنا غير رويديرا وبناتها وبنتي أختها ، اللواتي يبكين باستمرار ومن باب العطف حولهن مرلان الى بكر تسمى في عالم الأحياء وفي اقليم المنتشا باسم برك رويديرا ، والبنات السبع يملكهن ملك اسبانيا أمّا بنتا الأخت فيملكهما فرسان طريقة موقّرة جداً ، تسمّى طريقة القدّيس يوحنّا أمّا جواديانا (الوادي اليانع) سائسك ، الذي لم يكف عن النوح على نهايتك الفاجعة ، فقد حوّل الى نهر يحمل اسمه ، لكن حين وصلت أمواجه الى سطح الأرض ، وأبصر شمس العالم الآخر فإن أسفه على تركك قد جعله يغوص من جديد في أحشاء الأرض ؛ لكن لمّا كان من الممكن أن يترك مجراه الطبيعي ، فإنه يتبدّى ، من موضع الى موضع على مسافات يتبدّى للشمس والناس . والبرك التي حدّثتك عنها تزيد في مياهه ، وبها وبكثير

غيرها مما يتلقّى في مسيره ، يدخل بجلال في البرتغال . لكن في أي موضع تريّض بمجراه فإنه يتبدّى أبداً عن حزنه وأسفه ، لأنه يستكبر أن يغذّي من مياهه الأسماك الفاخرة الرقيقة ، والأسماك التي نغذّيها غليظة لا طعم لها ، تختلف تماماً عن سمك نهر تاجه الذهبي . وماأقوله لك الآن ، يا ابن العم العزيز ، قلته لك من قبل مائة مرّة ، ولمّا كنت لاتجيبني فإنّي أتصوّر إمّا أنّك لا تصدّقني أو أنّك لا تسمعني ، والله يعلم ما يسبّبه هذا لي من ضيق وألم . ومع ذلك فإنّي أريد أن أخبرك بنبأ أن لم يواس ألمك : فهو على الأقل لن يزيده ، إعلم أن أمامك (افتح عينيك تره) ذاك الفارس المشهور دون كيخوته دلا منتشا ، الذي تنبّأ له الحكيم مرلان بالكثير من الأشياء ، وقد بعث بمجد أعظم مما كان في الماضي ، الفروسية الجوّالة ، المنسية اليوم . وربّما حدث ، بواسطته ، أن يزول الانسحار عنّا ، لأن المغامرات الكبرى محفوظة للناس العظام» . فقال دورندار بصوت ضعيف شاك : «إذا لم يحدث هذا ياإبن عمّي ، فصبر جميل ولنفنّط[١] الكوتشينة» . ولمّا أتمّ هذه الكلمات تلفّت جانباً ، وغرق في الصمت .

«ومع ذلك سمعت صيحات عالية ، وشكايات وتنهّدات عميقة : فأدرت رأسي ، ومن خلال أسوار من البلّور شاهدت في قاعة أخرى موكباً مؤلّفاً من فتيات جميلات على صفّين ، وكنّ مجللات بالحداد ، وعلى رؤوسهن عمائم بيض على طريقة الأتراك (المسلمين) . ووراء الصفّين أقبلت سيدة تدل مشيتها على أنها ذات مرتبة رفيعة . وكانت تلبس السواد هي الأخرى ، وعليها نقاب أبيض طويل جداً بحيث كان ينجر على الأرض ، وكانت عمامتها أكبر بمرتين من عمامات الباقيات ، وكان حاجباها متماسين وأنفها أفطس وفمها واسعاً ، وشفتاها ملوّنتين ، وأسنانها واضحة سيئة التصفيف ، ولكنّها بيض كاللوز المقشور ، وكانت تحمل في يدها قماشاً رقيقاً جداً ، كان فيه ، بقدر ما تمكّنت من الحكم ، قلب من لحم مومياء لأنه كان جافاً متيبّساً . فقال مونتسينوس أن كل هؤلاء النسوة كنّ وصيفات عند دورندار وبلرما ، وهن مسحورات مثل سيدهن ، والأخيرة التي كانت تحمل في يديها القلب الملفوف هي بلرما نفسها ، التي كانت تسير في هذا الموكب مع وصيفاتها أربعة أيّام في الاسبوع ، وهي تنشد أو بالأحرى تبكي على جثمان ابن عمّها وقلبه المتيبّس ، وأضاف أنها إذا بدت لي قبيحة ، أو أقل جمالاً مما اشتهر عنها ، فالسبب في هذا الإنسحار ، كما يدل على ذلك شحوب لونها وغؤور عينيها مما لا يمكن أن يعزّى الى التوعّكات الدورية الخاصة

---

(١) هذا تعبير يستخدم للدلالة على أنه مادام لا علاج للأمر فالأفضل أن نسلّم الأمور .

بالنساء ، لأنها منذ وقت طويل لم تعد تأتيها العادة ، بل الى الألم المتجدّد من المنظر القاسي الذي يذكّرها في كل لحظة بالنهاية الفاجعة لعاشقها البائس . ولولا هذا لما كادت أن تعدلها في الجمال واللطف والأناقة دلثنيا دل توبوسو العظيمة ، ذات الشهرة الواسعة في هذه الناحية بل وفي العالم كلّه» . فقلت له : «قف هنا يا سيد مونتسينوس : قص حكايتك كما يجب ، وعليك أن تعرف أن كل مقارنة كريهة . إن المنقطعة النظير دلثنيا هي من هي ، والسيدة بلرما هي من هي ، أو من كانت . فلندع هذا» . فأجابني مونتسينوس : «عفواً ياسيد دون كيخوته ، أعترف بأنّي أسأت التعبير حين قلت إن دلثنيا لاتكاد تعدلها . كان يكفي أن يذكر لي أحد أنّك فارسها ، إذن لكنت عضضت لساني قبل أن أقارنها بغيرها حتى ولا باللواتي في السماء نفسها» .

وعند هذه الكلمات هدأت ، ونسيت تلك المقارنة المهينة .

ـ فقاطعه سنشو قائلاً : «سيدي ، إنّي مندهش لأنّك لم تنقض على هذا العجوز لتطحن أضلاعه أو تنتزع لحيته دون أن تترك فيه شعرة واحدة» . ــ فقال دون كيخوته : «لا يا صاحبي سنشو ما كان يخلق بي أن أفعل هذا ، لأننا ملزمون جميعاً بتوقير الشيوخ ، سواء أكانوا فرساناً أو لم يكونوا ، خصوصاً إذا كانوا مسحورين . وأنا أعلم أيضاً أننا لا ندين بعضنا بعضاً بشيء بسبب الأسئلة والأجوبة التي تتبادلها فيما بيننا» .

فقال ابن العم : «لكن كيف استطعت في هذه المدة القليلة التي بقيتها في الكهف ، أن ترى كل هذه الأشياء وتتناقش كل هذه المناقشات الطويلة ؟» فسأل دون كيخوته : كم من الزمن بقيت إذن في الكهف ؟ فأجاب سنشو : «أكثر من ساعة بقليل» . فقال دون كيخوته هذا غير ممكن ، لأنني رأيت الليل والنهار ثلاث مرّات : حتّى أنني وفقاً لحسابي ، أقمت ثلاثة أيّام في هذه المناطق تحت الأرض ، المجهولة للفانين من بني الإنسان» . فقال سنشو : «لابد أنّك على حق يا مولاي ، إذ مادام كل ماحدث لك قد تمّ بالسحر ، فمن الجائز أن ما بدا لنا ساعة ، لنا نحن ، يبدو ثلاثة أيّام وثلاث ليال هناك في تلك المواضع» . فقال دون كيخوته : «هذا محتمل» . ـ فقال ابن العم : «لكن يا سيدي ، ألم تأكل شيئاً طوال كل تلك المدة ؟» ـ فأجاب دون كيخوته : «ولا لقمة واحدة ، ولم أكن في حاجة الى ذلك ، بل ولم أفكّر في الطعام» .

فقال ابن العم : «وهل المسحورون يأكلون ؟» فقال دون كيخوته : «كلا إنهم لا يأكلون ، وليست عندهم حاجة لإرضائها ، وإن كانت اللحية ـ حسب الرأي الشائع ـ والشعر والأظافر تنمو» . فسأله سنشو : «وهل ينامون ؟» فقال دون كيخوته : «أبداً ، فطول

الأيّام الثلاثة التي مكثتها بينهم لم يغمض لأحد منهم جفن ، ولا لي أنا » . ـ فقال سنشو : « هذا ما يبرّر المثل الذي يقول : أخبرني من تصاحب أخبرك من أنت . لقد وجدت نفسك بين مسحورين يسهرون ويصومون فتصوم وتسهر مثلهم . أليس هذا عجيباً ؟ لكن إغفر لي يا مولاي إذا قلت لك هذا : ليتوفّني الله (وكدت أقول ليأخذني الشيطان) إذا كنت أصدّق كلمة واحدة من كل ماقلت » . فقال ابن العم : « ولماذا إذن ؟ أتظن أن السيد دون كيخوته يكذب ؟ وحتّى لو أراد ذلك أفكان في وسعه أن يخترع كل هذه الأساطير في كل هذا الوقت القصير ؟ » . ـ فأجاب سنشو : « أنا لا أعتقد أن مولاي يكذب » . فقال الفارس (دون كيخوته) : « فماذا تعتقد إذن ؟ » فقال سنشو : « أنا أعتقد أنّ مرلان ، أو السحرة الذين سحروا كل الجماعة التي تقول أنّك رأيتها هناك ، قد دسّوا في مخّك ، بالسحر ، كل الحكايات التي رويتها لنا أو التي بقي عليك أن ترويها » . ـ فأجاب دون كيخوته : « هذا الأمر ممكن ، ومع ذلك فإن كل ماحكيته لكما قد رأيته بعيني ، ولمسته بيدي . وماذا ستقول إذن إذا أضفت أنه ـ بين عدد لاينتهي من العجائب التي أرانيها مونتسينوس ، وسأرويها لك على مهل أثناء السفر ، لأن الكثير منها لا ينتسب الى هذا البلد ، أقول إن من بين هذه العجائب أراني ثلاث فلاحات كن يقفزن ويحجلن مثل الماعز في تلك المروج الناعمة ، وأنّي تعرفت على إحداهن دلثنيا دل توبوسو المنقطعة النظير ، والفلاحتان الأخريان كانتا الفلاحتين نفسيهما اللتين كانت في صحبتها وتحدّثنا اليهما ونحن خارجان من توبوسو ؟ وقد سألت مونتسينوس هل يعرفهن ، فأجاب بالنفي ، قائلاً أنهن لابد أن تكنّ سيدات عظيمات مسحورات ، لأنهن لم يشاهدن إلا منذ أيام قليلة في هذا المروج ، وأنه ليس لي أن أدهش ، لأنه يوجد في هذا المكان نفسه كثيرات من سيدات القرون الماضية والعصر الحاضر ، وهن مسحورات تحت أشكال في غاية الغرابة ، وقد تعرف من بينهن الملكة جينيفر ودونيا كنتانيونه التي قدمت الخمر للانصلو حين عاد من بريتاني » .

ولما سمع سنشو مولاه يتكلم عن الفلاحة ، ظن أنه سيفقد عقله أو يموت من الرغبة في الضحك : فهو وحده الذي كان يعرف انسحار دلثنيا المزعوم والذي كان من اختراعه هو وشهده وهو بنفسه ؛ فتيقن تماماً أن مولاه فقد عقله وصار مجنونا من كل ناحية . وقال لمولاه : « أي سيدي العزيز ، لقد نزلت الى العالم الآخر في ساعة نحس ، وفي يوم أنحس ؛ ومن المؤسف جدا أنك التقيت بالسيد مونتسنيوس الذي أطار صوابك . لقد كنت هنا في حال حسنة ، بتمام عقلك ، كما وهبك اياه اللّه ؛ تنطق بعبارات حكيمة ، وتسدي نصائح في كل خطوة ، لا كما أنت الآن تهرف بتخريفات هي أبعد ما يتصور الخيال . » ـ فأجاب دون

كيخوته : «إني أعرفك يا سنشو، ولهذا لا أقيم أي وزن لكلماتك.» فرد عليه سنشو: «ولا أنا أقيم أي وزن لكلماتك أنت. إضربني، أقتلني من أجل ما قلته لك أو ما أريد أن أقوله، إذا لم ترد أنت، نعم أنت، أن تصلح لغتك: لكن قل لي، بينما نحن في سلام، كيف وبأية علامة تعرفت سيدتك؟ وإذا كنت قد كلمتها، فماذا قلت لها؟ وبماذا أجابتك؟» ـ فقال دون كيخوته: «تعرفتها لأنها كانت تلبس الثياب نفسها التي كانت تلبسها حينما أريتنيها أنت؛ وقد كلمتها، لكنها بدلا من أن تجيب أدارت لي كتفيها وهربت بسرعة حتى ان السهم نفسه لم يكن ليلحق بها. وأردت الجري وراءها، لكن مونتسينوس صرفني عن ذلك قائلا إن محاولتي ستذهب سدى، ثم أن اللحظة التي يجب علي فيها أن أرجع إلى العالم الآخر (الدنيا) قد اقتربت. وأضاف أنه مع الزمن سأخبر كيف يزول الانسحار عنه هو وبلرما ودورندار والآخرين. لكن ما أحزنني أكثر من غيره في كل ما رأيت ولاحظت هناك في ذلك المكان، هو أنه بينما كان مونتسينوس يتكلم معي، اقتربت مني إحدى رفيقتي دلثينا المسكينة دون أن أراها قادمة، وقالت لي بصوت خفيض، والدموع في عينيها؛ وفي حالة اضطراب تام: «سيدي، ان سيدتي دلثينا دل توبوسو تقبل يديك، وترجو أن توافيها بأخبارك؛ انها الآن في حاجة ماسة، وتستحلفك بإلحاح أن تقرضها مبلغ ستة ريالات، أو ما تستطيع اقراضه، على هذه التنورة القطنية الجديدة التي ألبسها؛ وهي تعدك بشرفها أن تردها إليك بسرعة». وقد دهشت كل الدهشة من هذه الرسالة الغريبة؛ فالتفت إلى مونتسينوس وقلت له: «هل من الممكن أن يشعر المسحورون بالحاجة؟ فأجابني: «سيدي، ما يسمى بالحاجة يشعر بها في كل مكان، ولا يفلت منها حتى المسحورون؛ وما دامت السيدة دلثنيا تطلب منك ستة ريالات، والرهن حسن، فإني أنصحك بأن تقرضها هذا المبلغ، إذ لا بد أنها في مسيس الحاجة إليه.» فقلت له: «إني لا أريد رهنا، ولن أعطيها ستة ريالات، إذ ليس معي غير أربعة.» وكانت هذه، يا سنشو، هي تلك التي أعطيتها ذات يوم لإعطاء الصدقات للفقراء الذين ألقاهم في الطريق. فأعطيت الفتاة الأربعة ريالات وقلت لها: «يا عزيزتي، أخبري سيدتك أنه لا شيء يؤلمني مثل الأحزان التي تعانيها، وبودي لو كنت فوكار[1] لأعالج الأمر، ولكني لن أنعم بالصحة والراحة طالما بقيت محروما من رؤية طلعتها الجميلة ومن حديثها الشائق الحكيم؛ ولهذا أتوسل إليها بكل خضوع أن تتنازل ليراها خادمها الأسير وفارسها الفقير، وأنها في

(١) آل فوكار: كانوا تجاراً أغنياء في أوجسبورج بألمانيا، وأصلهم من كونستانس، وكانت قروضهم تمتد الى كل أوربا، وبخاصة أسبانيا.

اللحظة التي يكون الأمر أبعد ما يكون عن ذهنها ستسمع أنني نذرت نذرا شبيها بنذر مركيز منتوا ، حين قرر أن ينتقم لإبن أخيه بودوان لما وجده يموت على الجبل ، وهذا النذر هو ألا يأكل خبزا على مفرش ، وسائر الالتزامات المعتادة ، قبل أن ينتقم له . وأنا أيضا سأنذر بألا أتوقف ، وأن أذرع أرجاء العالم السبعة ، بلهفة أكبر من لهفة ولي العهد دون بدرودي برتغال ، حتى أخرجها من انسحارها . » فأجابت الفتاة : «هذا واجبك قبل سيدتي ، وثم واجبات أخرى كثيرة عليك أن تؤديها لها » ، وأخذت الأربعة ريالات ؛ وبدلا من أن تحيي تحية الاحترام ، وثبت وثبة صعدت بها ست أقدام على الأقل في الهواء » .

فصاح سنشو : يا إلهي! هل من الممكن سماع مثل هذه الأشياء ، وهل للسحرة والسحر كل هذه القدرة على تحويل عقل مولاي إلى مثل هذا الجنون ؟! مولاي ، مولاي! عد إلى صوابك ، ثب إلى رشدك ؛ وصونا لشرفك لا تصدق شيئا من كل هذه التخريفات التي تنتزع عقلك .

فأجاب دون كيخوته : سنشو ، إن تعلقك بي هو الذي يجعلك تتكلم هكذا ؛ ولما كنت لم تجرب شيئا من أمور هذا العالم ، فإن ما يشكل صعوبة يبدو لك مستحيلاً ؛ ولكن سيأتي الوقت ، كما قلت لك ، الذي فيه أروي لك بعض مشاهداتي هناك ؛ وستجعلك تصدق تلك التي رويتها لك الآن ، والتي لا تحتمل حقيقتها أي شك أو مناقشة .

الفصل الرابع والعشرون

وفيه آلاف من الترهات غير المقبولة ولكنها ضرورية
من أجل الفهم الصحيح لهذا التاريخ الكبير

من ترجم هذا التاريخ الكبير عن الأصل الذي ألفه مؤلفه الأول سيدي حامد بن الأيل يقول إنه حين وصل إلى الفصل الخاص بمغامرة كهف مونتسينوس وجد على هامش المخطوط التأملات التالية ، مكتوبة بخط حامد نفسه : « لا أستطيع أن أتصور ولا أن أقتنع أن المغامرات الموصوفة في الفصل السابق قد وقعت فعلا للشجاع دون كيخوته : لأنه حتى الآن كانت كل مغامراته محتملة وممكنة ؛ أما مغامرة الكهف فلا سبيل إلى عدها صحيحة لأنها تتجاوز حدود العقل . ومع ذلك فمن المستحيل أن نفترض أن دون كيخوته قد كذب ، وهو أصدق النبلاء وأنبل الفرسان في عصره ؛ ولا يكذب كذبة مهما رشق بالسهام . وألاحظ أيضا أنه يروي هذه المغامرة بأدق التفصيل ، ولم يكن من الممكن أن يكون قد ألف في هذا الوقت القليل خرافة بهذا التعقيد . فإن بدت كاذبة منحولة ، فلا أملك في هذا شيئا ، وليس الخطأ خطأي ؛ وأنا أوردها من غير أن أؤكد أنها صحيحة أو كاذبة . وأنت أيها القارئ ، بوصفك إنسانا فطنا ، أحكم عليها كما يحلو لك : فلا أملك في الأمر شيئا وهم يؤكدون مع ذلك أن دون كيخوته ، عند احتضاره ، تنصل من هذه المغامرة ؛ وقال انه تخيلها لأنها بدت له تتناسب تماما مع كل تلك التي قرأ عنها في كتبه . » وبعد تقرير هذا ، يستمر المؤلف على النحو التالي :

ودهش ابن العم هو الآخر من جرأة سنشو پنثا وصبر دون كيخوته عليه : وقدر أن التسامح وصفاء المزاج عند هذا الأخير نشأ عن اغتباطه لمشاهدة سيدته دلثنيا ، وإن كانت مسحورة ؛ وإلا لولا هذا لاستحق سنشو على كلامه أن يطحن بضربات العصا ، لأنه لم يحترم سيده . وقال ابن العم مخاطبا دون كيخوته :

ـ « إني يا سيدي أعد هذا اليوم قد أحسن الانتفاع به ، لأني اكتسبت فيه أربعة أمور :

الأول معرفة سيادتك ، وهو أمر أعده شرفا عظيما ؛ والثاني هو أني عرفت ما يحتويه كهف مونتسينوس ، وتحولات جوادِيايا وبرك رويديرا ، وهذا سيفيدني في « أوفيديوس الأسباني » الذي اشتغل الآن بتأليفه ؛ والثالث هو اكتشافي لقدم عهد ورق اللعب ، اذ لا بد أنه كان مستعملا في زمان الامبراطور شرلمان ، إذا كان لنا أن نحكم بحسب الكلمات التي سمعت دوراندار يقولها حين صاح بعد محادثته مع مونتسينوس : « صبر جميل ، ولنفنط الكوتشينة » . وهذا التعبير لا يمكن أن يكون قد تعلمه وهو مسحور ؛ إذن لا بد أن ذلك كان ،أي معرفته بهذه التعبير ، في عهد إقامته في فرنسا ، أيام حكم الامبراطور شرلمان . وهذا الاكتشاف مناسب لي جدا في الكتاب الآخر الذي أؤلفه ، وهو « ملحق لپوليدر فرجيل » ، عن اختراعات القدماء ، لأني أعتقد أنه أغفل في هذا الكتاب أن يذكر أصل الكوتشينة . ولهذا سأسد هذا النقص وهو أمر بالغ الأهمية ، خصوصا حين أستند إلى رواية رجل جاد صادق مثل السيد دورندار . والأمر الرابع هو أني أعرف الآن بيقين أين يقع منبع نهر جواديانا (الوادي اليانع) ، وهو أمر كان مجهولا حتى اليوم » .

فقال دون كيخوته : أنت على صواب ؛ لكني أود أن أعرف إلى من تنوي أن تهدي كتبك ، على فرض أنه سيسمح لك بطبعها ، وهو أمر أشك فيه كثيرا .

فقال ابن العم : إن أسبانيا لا تخلو من السادة والعظماء الذين يمكن إهداؤها إليهم .

فقال دون كيخوته : إنهم ليسوا كثيرين ، لا لأنهم لا يستحقون كلهم تقريبا هذا الإهداء ، ولكن لأنهم يرفضون قبوله ، حتى لا يقروا بما يدينون به لعمل المؤلفين وأدبهم . ولكني أعرف مع ذلك أميرا يمكن أن يعوض نقيصة الآخرين ، مع مزايا كبيرة لو فصلتها هنا لأثرت حسد أسخى القلوب[1] . لكن لنؤجل هذا الحديث إلى فرصة أنسب ، ولنبحث أين يمكن أن نمضي الليل .

فقال ابن العم : أنا أعرف غير بعيد عن هنا صومعة يسكنها راهب كان ، فيما يقال ، جنديا ؛ وقد اشتهر بأنه مسيحي صالح ؛ محسن ؛ حكيم . وبالقرب من صومعته بنى بيتا وإن يكن صغيرا فسيسعنا .

فسأله سنشو : هل عند هذا الراهب دجاج ؟

فقال دون كيخوته : قليل من الرهبان هم الذين ليس عندهم دجاج : لأن رهبان اليوم لا يشبهون رهبان الصحارى في مصر ، الذين كانوا يتدثرون بسعف النخيل ولا يأكلون غير

---

(١) الأمير الذي يشير إليه ثربانتس هنا هو ، من غير شك ، كونت ليموس ، الذي أهدى إليه القسم الثاني من « دون كيخوته » .

الجذور . ولا أقصد من هذا أن أقول لأن هؤلاء كانوا صالحين فإن الآخرين طالحون ؛ وإنما أريد فقط أن أفهمكم أن زهادات اليوم لا تقترب من تقشف وقساوة زهادات الماضي . لكنهم مع ذلك جميعا طيبون ، أو هذا على الأقل رأيي فيهم ؛ وما دامت كل الأوضاع مقلوبة فإن المنافق الذي يدعي التقوى أقل ضررا من الخاطئ صراحة وعلانية .

وفي هذه اللحظة أبصروا قادما عليهم رجلا ماشيا على قدميه بخطى سريعة ، وهو يضرب بغلا محملا بالرماح والحراب ، يسير أمامه . ولما اقترب منهم حياهم دون أن يقف . فقال له دون كيخوته : أيها الرجل الطيب ، توقف قليلا ، فإنك تمشي أسرع مما يريد بغلك» . فأجاب : «سيدي! لا أستطيع الوقوف فإن الأسلحة التي تراها يجب استعمالها غدا ؛ ولهذا فإني مضطر إلى الإسراع . وداعا! وإذا أردت أن تعرف مصيرها ، فإني أنوي التوقف وقضاء الليل في الفندق الذي في أعلى الصومعة ، وستجدني هناك ، وسأروي لك العجائب . لكن ، وداعا مرة أخرى .» ثم دفع بغله ، دون أن يترك لدون كيخوته الفرصة ليسأله عن هذه العجائب ما هي ، ولما كان هذا الأخير طلعة يريد أن يعرف دائما أشياء جديدة فقد صمم أن يتابع طريقه لينام في الفندق ، دون التوقف عند الصومعة ، حيث كان ابن العم يفضل أن يقضي الليل . فأخذ ثلاثتهم طريقهم إلى الفندق ، ومروا بالصومعة قبل المساء بقليل . فاقترح ابن العم على دون كيخوته التوقف قليلا لشرب كأس خمر . وفي الحال أدار سنشو العنان ناحية الصومعة وتابعه الاخران . ولكن يشاء الحظ ألا يكون الراهب موجودا في الصومعة ، وانما وجدوا خادمته : فسألاها نبيذا من أفخر النبيذ ، فأجابت بأن سيدها ليس عنده نبيذ ؛ أما إذا أرادوا ماء ، بثمن بخس ، فانها تعطيهم عن طيب قلب . فقال سنشو : «إذا كنت أريد ماء فعلى الطريق آبار أستطيع أن أروى منها عطشي . آه! أي عرس كمتشو! أي وفرة بيت دون دييجو! كم مرة سآسف عليك في حياتي!» .

فتركوا الصومعة ، وتقدموا ناحية الفندق . وعلى مسافة قليلة التقوا بشاب كان يمشي الهوينا ، فبلغوه بسهولة ؛ وكان يحمل على كتفه سيفا ، في طرفه علقت حزمة تحتوي من غير شك ، على حاجياته ومعطفه وبعض الأقمصة ؛ وكان يلبس صدرية من القطيفة ، ووشاحات من الساتان ، وفوقهما القميص ؛ وكانت جواربه من الحرير ، وحذاؤه مربعا ، على حسب «موضة» القصر ؛ وبدا أنه في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره ؛ وكان وجهه سمحا ، نشط السير ، وكان يمشي وهو يغني السجديات ليبدد ملل الطريق . ولما صار بالقرب منهم ، أتم غناء الأغنية التالية التي حفظها ابن العم عن ظهر قلب :

إلى الحرب تقتادني حاجتي ولو عندي المال ما خضتها

وكان دون كيخوته أول من كلمه ، وقال له : « مسافر أنت خفيف الحمل يا سيدي : أهذه هواية ؟ وأين أنت إذن ذاهب ؟ » فقال الشاب : « الحرارة والفقر هما اللذان يجعلانني أمشي هكذا بهذا اللباس ؛ إني ذاهب إلى الحرب . » - فقال دون كيخوته : « أما عن الحرارة فهذا جائز ؛ لكن الفقر ؟ » - فأجاب الشاب : « سيدي ، إني أحمل في هذه الحزمة تبانات من القطيفة شبيهة بالصدرية ؛ فلو أفسدتها في الطريق ، فإنها لن تجملني في المدينة ، وليس معي من المال ما أشتري به غيرها ؛ فلهذا السبب وحتى لا أشعر بالحر فإني ألبس هذا اللبس حتى ألحق بفرق المشاة التي تبعد عشرين فرسخا من هنا ، وسأنخرط فيها جنديا . هنالك لن تعوزني عربة لوضع حاجياتي فيها إلى حين الوصول إلى ميناء الإبحار الذي قيل لي أنه ميناء قرطاجنة (أسبانيا) . وأنا أفضل أن يكون الملك مولاي ، وأن أخدمه في الحرب ، لا أن أكون أي مأفون في قصره » .

فقال ابن العم : لكن ألم تستفد من بعض المزايا ؟

فأجاب الشاب : لا شك أنني لو كنت خدمت عظيما في إسبانيا ، أو شخصا ذا أهمية ، لكنت استفدت ؛ وهذا هو ما ينتج عن خدمة النبلاء : من غرفة الاستقبال يصبح المرء حامل علم أو نقيب ، أو يحصل على معاش جيد ، لكني أنا المسكين لم أخدم غير صعاليك ، مفلسين ، بأجر زهيد ، ينفق نصفه في تنشية الياقة ، وستكون احدى المعجزات أن يقدر خادم هؤلاء الناس أن يدخر شيئا .

فسأله دون كيخوته : لكن قل لي يا صاحبي ، أمن الممكن أنه طوال كل مدة خدمتك لم تحصل على أي كسوة ؟

فأجاب الشاب : أعطوني مرتين ، لكن كما أنه ينزع اللباس الديني من اولئك الذين يتركون الخدمة الدينية قبل رسمهم وتعاد إليهم ملابسهم ، فكذلك خلع سادتي الكسوتين اللتين أعطياني إياهما للتباهي حين عادوا إلى بيوتهم بعد أن أنهوا أعمالهم في القصر .

فقال دون كيخوته : يا لها من كزازة[1] كما يقول الإيطاليون . ومع كل هذا فينبغي أن تعد من حسن حظك أن تغادر البلاط بهذه النية الحسنة . إذ لا يوجد على الأرض شيء أكثر تشريفا ، وفي الوقت نفسه أكثر مكسبا ، من خدمة الله أولا والملك ثانيا ، الذي هو مولانا

(١) الجملة قالها بالإيطالية في الأصل .

الطبيعي ، خصوصا في مهنة السلاح التي يكتسب المرء إن لم يكن أموالا أكثر فعلى الأقل شرفا أعظم مما تأتي به مهنة الآداب ، كما قلت ذلك مرارا ، لأنه على الرغم من أن الآداب ربما قد أفادت مناصب أكثر من السلاح ، ومع ذلك فإن رجال هذه الطبقة الأخيرة فيهم شيء أشرف وألمع يعطيهم الميزة على الآخرين . احفظ جيداً ما أنا قائلة لك ، وستكون آرائي ذات فائدة كبيرة لك ، وتنفحك عزاء في عملك أكبر . أبعد عن فكرك المصائب التي يمكن أن تقع لك . وأسوؤها الموت ، ولكنه أشرفها ، وعليك أن تنظر إليه على أنه أعظم النعم . سئل يوليوس قيصر ذات يوم ، وهو الامبراطور الروماني الباسل ، أي موت أفضل . فقال الموت غير المتوقع ، الموت الأشد مفاجأة ولا شك أن جوابه كان جواب رجل وثني غريب عن معرفة الله الحق ، لكنه مع ذلك أحسن الجواب ، لأنه نحى جانبا كل المخاوف الإنسانية .

افرض أنك قتلت في أول هجوم ، أما بالنار ، أو بانفجار لغم ، فماذا يهم ؟ إنه دائما موت ونهاية عمر . وفي رأي تيرانتيوس أن الجندي الذي يموت في المعركة أفضل من ذلك الذي ينجو بالفرار ، وأن من يطيع بكل دقة قائده ورؤساءه هو الأجدر بالتقدير ، وأشرف له أن يستروح البارود من أن يستروح المسك . وإذا فاجأته الشيخوخة في هذا العمل النبيل ، وإن كان مغطى بالجراح ، أعرج ، مبتوراً ، فلن يكون بغير شرف ، ولا يمكن الفقر ان يحط من قدره ، لأن البحث جارٍ ، الآن عن توفير وسائل المعونة والعيش للجنود القدماء المبتورين . والواقع أنه من غير الإنسانية أن يعاملوا معاملة الزنوج ، الذين تطلق حريتهم حين يصبحون عجوزين ولا يستطيعون الخدمة بعد فيتركون بيت أسيادهم بلقب أحرار ويصبحون عبيداً للجوع الذي لا يستطيعون التخلص منه الا بالموت . ولا أريد الان أن أقول لك أكثر من ذلك ، لكن اركب ورائي ، واصحبني حتى الفندق . وسنأكل معاً ، وغداً تتابع طريقك . وأرجو أن يوفقك الله لما فيه الخير بقدر ما يتكافأ مع مشروعك الشريف . »

فوافق الخادم (الشاب) على اقتراح مصاحبته حتى الفندق ، لكنه لم يرض ابداً أن يركب وراءه... ولكن سنشو تمتم في نفسه : « يا لله! هل من المعقول أن رجلاً يقول مثل هذه الأشياء الجميلة الحكيمة ، يدعى أنه شاهد كل تلك المحاولات التي رواها عن كهف مونتسينوس ؟ » ووصلوا الفندق عند اقتراب الليل ، وكان شعور سنشو بالرضا غير قليل حين رأى أن مولاه قد عده فندقاً ، وليس قصراً ، كما كانت عادته . ولم يكادوا يدخلون حتى سأل دون كيخوته عن الرجل صاحب الرماح ، فقال صاحب الفندق أنه في الاسطبل مشغول بالعناية ببغله . واقتاد ابن العم العم سنشو ركوبهم إلى هناك وحرصوا على أن يعطوا روثينانته خير مكان وخير مفرش في الاسطبل .

الفصل الخامس والعشرون

وفيه تروى مغامرة نهيق الحمار، والقصة اللطيفة الخاصة باللاعب بالعرائس، مع التكهنات الخليقة بالذكر التي قالها النسناس المتكهن

كان دون كيخوته متلهفاً لمعرفة العجائب التي أعلن عنها الرجل الذي كان يقود حمل السلاح . فراح يبحث عنه في المكان الذي أشار إليه صاحب الفندق ؛ ولما وجده رجاه أن يفي بوعده ويروي له ما سأله عنه أثناء الطريق . فأجاب هذا الرجل : « يا سيدي الطيب ، ان رواية هذه العجائب لا يمكن أن تتم ونحن وقوف هنا وفي لحظة : دعني أتم اعطاء العليقة لبغلي وسأروي لك أموراً رائعة » . فقال دون كيخوته « عن طيب خاطر ؛ بل وأريد أن أساعدك » . وفي الوقت نفسه أخذ دون كيخوته يغربل الفول ، وينظف الطوالة ، وهذا التواضع ألزم الرجل بأن يروي له عن رضا ما سأله عنه . فجلسا الواحد الى جانب الآخر على دكة من الحجر وبدأ قائد البغل قصته ، ويسمع له ابن العم ، والشاب الخادم ، وسنشو پنثا ، وصاحب الفندق .

«ستعلمون يا سادة أنه في قرية على مسافة أربعة فراسخ ونصف من هنا كان هناك ناظر فقد حماره بمكيدة من خادمته ، وقام عبثاً بالبحث المتواصل عنه للعثور عليه . ومضى خمسة عشر يوماً ، فيما يظن ؛ وذات صباح كان هذا الناظر في الميدان العام ، فقال له أحد زملائه : «أيها الزميل ، أعطني حلواناً ، فقد عثر على حمارك .» فأجاب الناظر : «أعدك وعداً صادقاً بحلوان ؛ لكن أين رأيته ؟» فقال الزميل : «في الغابة هذا الصباح : كان بغير برذعة ولا خطام ، وهزيلاً بحيث يثير الشفقة . وقد حاولت مطاردته أمامي لأعيده اليك ؛ لكنه صار متوحشاً ، شريراً ، حتى أنني حين اقتربت منه هرب واختبأ في الجبل . فان شئت أن نذهب معاً للبحث عنه ، فدعني أقتد حماري الى البيت ، وسأعود في الحال» .

فأجاب الآخر : «سيسرني هذا كثيراً ؛ وخدمة بخدمة ، واعتمد علي» .

هكذا على الأقل يروي الحكاية من عرفوها . وأخيراً ذهب الناظران إلى الغابة ، مشيا على الأقدام ، للبحث عن الحمار حيث ظنا العثور عليه ، لكنهما لم يجداه هناك ، ولا في النواحي المجاورة . ولما وجدوا أن تعبهما بغير فائدة قال من أبصره للآخر : «يا زميلي ، عندي فكرة ، لا شك في أنها ستمكننا من العثور على هذا الحيوان ، حتى لو كان مختبئاً لا في داخل الغابة ، بل في حشايا الأرض . اني أحسن النهيق تماماً ؛ فإن كنت تقدر على النهيق ولو قليلاً نجحت خطتنا» . فقال الآخر : «كيف : ولو قليلاً ؟ اعلم اذن أن أحداً لا يفوقني فيه ، ولا أخشى حتى من الحمير» . فقال الأول : «هذا ما سنراه . تابع هذه الناحية من الغابة ، وأنا أتابع الناحية الأخرى ؛ وبهذا ندور دورة : أنت تنهق من ناحيتك ، وأنا أنهق من ناحيتي ، ومن المستحيل الا يسمعنا الحمار ، ولا يجيبنا ، اذا كان في الغابة» . فقال الآخر : «يا زميلي هذه فكرة رائعة وجديرة بعقلك» .

ثم انفصلا ، وراح كل من ناحيته . شاءت الصدفة أن يأخذا في النهيق في وقت واحد ؛ فهرع كل منهما ، مخدوعاً بصياح الآخر ، ومعتقداً أن الحمار ظهر . فلما رأى كلاهما صاحبه قال أحدهما : «أمن الممكن الا يكون ما سمعته ينهق هو حماري ؟» فأجاب الآخر : «انه أنا» . فقال الأول : «الحق يا زميلي إني لا أميز بينك وبين الحمار فيما يتعلق بالنهيق ، وأعترف لك بأنني لم أسمع نهيقاً بهذا الإتقان» . فأجاب الآخر : «هذا المديح أنسب لك مني ، فبحق الله الذي خلقني أنت تستطيع منافسة بل والتغلب على أبرع حمار . إن صوتك مليء ، مسنود ، موزون ؛ والاستئنافات عديدة ومتنوعة ؛ وبالجملة فإني أعترف بهزيمتي ، وأسلم لك الجائزة» . فقال صاحب الحمار : «ما دمت تقول هذا ، فإني سأقدر نفسي أكثر من ذي قبل ، وأعتقد أنني أعرف شيئا . لقد كنت أظن أن عندي موهبة ما ، ولكني لم أحسب أنني بغلت درجة الإتقان التي تقول عنها .» ـ فقال الآخر : « أعترف يا زميلي إذن أن في العالم مواهب مدفونة ، أو أسيء استخدامها من جانب اولئك الذين لا يعرفون كيف يستفيدون منها على الوجه الأتم .» ـ فقال الأول : « إن مواهبنا لا يمكن أن تفيدنا إلا في حالة مثل هذه التي نحن فيها الآن ؛ بل حتى في هذه الحالة نرجو الله أن تكون لها فائدة!» .

فانفصلا مرة أخرى ، وبدآ في النهيق ؛ وفي كل لحظة كانا ينخدعان ويلتقيان ، حتى أنهما اتفقا على أن يكررا صيحاتهما مرتين متواليتين حتى لا يخطئا . وبهذه التنهيقات المزدوجة تجولوا في كل الغابة ، ـ دون أن يظهر الحمار أو تصدر عنه إشارة حياة . وأنى له

هذا والحيوان المسكين قد وجدوه في أعماق الغابة قد أكلته الذئاب! ولما رآه صاحبه صاح : «لقد دهشت لأنه لم يرد علي ؛ ومن المؤكد أنه لو لم يمت لأخذ في النهيق وإلا لما كان حمارا . ولكن ، يا زميلي ، بعد أن سمعتك تنهق عن طيب خاطر ، فإني لا آسف على تعبي ، وإن كنت وجدت دابتي ميتة» . فأجاب الآخر : «ليكن ؛ لأنه إذا كان رئيس الدير يغني جيدا ، فإن الراهب لا يقل عنه» .

وعادا إلى قريتهما حزينين مبحوحين . ورويا لأصحابهما وجيرانهما ومعارفهما ما وقع لهما في بحثهما عن الحمار ، مبالغا كل منهما في إطراء ملكة زميله على النهيق . وانتشرت هذه الحكاية في القرى المجاورة . وإذا بالشيطان ، وعينه لا تغفل أبدا ، ويلذ له أن يبذر الشقاق في كل مكان ، وأن يثير المنازعات على أتفه الأمور ، عمل عمله بحيث أنه حين يلقي سكان القرى المجاورة واحدا من قريتنا ، يأخذون فورا في النهيق ليسخروا من نظارنا . واشترك الأطفال في هذه العملية ، وكأن كل شياطين الجحيم قد شاركوا بنصيب . وانتشرت هذه السخرية من قرية إلى قرية ، وصار أهل قريتنا يعرفون بهذا النهيق اللعين ، مثل الزنوج بين البيض . فحنقوا لهذا حنقا شديدا حتى أنهم كثيرا ما خرجوا كالجيش للهجوم على الساخرين منهم ، دون أن يستطيع الملك ولا العدالة ولا الخوف ولا العار أن يمنعهم . وأعتقد أنهم غدا أو بعد غد سيخرجون للهجوم على أهل قرية تبعد بمسافة فرسخين عن قريتنا ؛ وهم أشد أهالي القرى سخرية منا ، وحتى يكونوا مسلحين خير تسليح فإني اشتريت الرماح والحراب التي شاهدتها . تلك هي العجائب التي أردت أن أن أقصها عليك ؛ فإن لم تجدها كذلك ، فإني لا أعرف غيرها» . وهكذا انتهى هذا الرجل من رواية حكايته .

وفي تلك اللحظة دخل رجل يلبس جلد الوعل والسراويل والجوارب والصدرية - في الفندق ، وقال : «يا صاحب الفندق هل عندك مكان ؟ ها هوذا النسناس المتكهن ، ومنظر تحرير مليساندره» . فقال صاحب الفندق : «آه! هل أنت المعلم بطرس ؟ سنقضي سهرة جميلة» . وقد نسيت أن أقول لك أن المعلم بطرس هذا كان يحمل على عينه اليسرى رباطا من التافتا يغطي نصف وجهه ، كما لو كان مريضا . وتابع صاحب الفندق كلامه قائلا : «أهلا وسهلا ، يا معلم بطرس . لكن أين النسناس والمسرح ؟ إني لا أراهما» . فأجاب : سيكونان هنا بعد لحظة ؛ لقد سبقت لأعرف هل نستطيع المبيت هنا» فقال صاحب الفندق : «آه يا معلم بطرس ، إذا اقتضى الأمر طردت دوق ألبا واستقبلتك أنت ؛ أحضر النسناس والمسرح ؛ إن في فندقي ناسا يدفعون الكثير من أجل مناظر الواحد ومهارة الآخر» . فقال الرجل ذو الرباط : «الحمد لله! وسأخفض الأسعار ، وما دمت سأعوض عن المصروفات ،

فسأكون راضيا . وسآتي بالعربة التي فيها النسناس والمسرح » . وفي الوقت نفسه خرج من الفندق وسأل دون كيخوته صاحب الفندق من يكون المعلم بطرس هذا وما النسناس والمسرح فأجاب صاحب الفندق « سيدي! إن هذا الرجل لاعب بالعرائس شهير يتجول منذ زمن طويل في كل منتشا أرغون ؛ ويحمل معه مسرحا يمثل مليساندره وقد خلصها دون جايفيروس ، وهي حكاية من أجمل الحكايات وخيرها تمثيلا مما شوهد منذ زمن بعيد في هذا الإقليم . ومعه أيضا نسناس ، هو أبرع نسناس عرف ؛ إن سألته عن شيء أصغى إلى ما تقول ، ثم وثب على كتف صاحبه ، واقترب من أذنه ، وهمس فيها بالجواب ، فيردده صاحبه بصوت عال ؛ ويجيب عن الأمور الماضية خيرا مما يجيب عن المستقبل ؛ وإذا لم يكن يرد دائما ، فإنه لا يخطئ أبدا ، مما يجعل المرء يظن أن الشيطان في جسمه . وكل سؤال أجرته ريالان ، إذا حصل المرء على جواب من النسناس ، أو بالأحرى من المعلم الذي يتكلم بالنيابة عنه ؛ ولهذا يعتقد أن المعلم بطرس غني جدا . إنه رجل لطيف ، وأنيس الرفقة ؛ ويعيش عيشة كلها حبور وسرور ؛ ويتكلم كستة أشخاص ، ويشرب كاثنى عشر ، وكل هذا على نفقة لسانه ، ونسناسه ، ومسرحه » .

وفي هذه اللحظة دخل المعلم بطرس تتبعه العربة التي وضع فيها المسرح والنسناس ، وهو نسناس كبير ، بغير ذنب ، ومؤخرته من اللبد ، وملامحه حسنة . ولم يكد دون كيخوته يلمحه حتى قال له : « سيدي المتكهن ، أخبرنا عن بختنا . ماذا سيقع لنا غدا ؟ ها هما ريالان » . وفي الوقت نفسه أشار إلى سنشو ليعطي ريالين للمعلم . فقال بطرس ، وهو يتكلم بالنيابة عن النسناس : « إن هذا الحيوان لا ينبئ عن المستقبل ؛ بل يعرف الماضي وشيئا قليلا من الحاضر » . فقال سنشو : « لا ، أنا لا أعطي فلسا لأعرف ماذا وقع لي ؛ لأنه من ذا الذي يعرف ذلك خيرا مني أنا ؟ ومن الغفلة التامة أن أدفع شيئا لأعرف ما أعرفه بالفعل . لكن ما دمت تعرف الحاضر ، ها هما ريالاي ؛ قل لي ، أيها النسناس الصغير الجميل ، ماذا تفعل وتقول الآن تريزه پنثا ، زوجتي ؟ » لكن بطرس لم يشأ أن يأخذ النقود ، قائلا إنه لم يعتد أخذ الأجرة قبل العمل . وضرب بيده اليمنى ، على كتفه اليسرى ضربتين ؛ فوثب عليه النسناس في الحال ، وأخذ يهمس في أذن صاحبه ، وهو يقضم أسنانه ، وبقي الزمن الكافي لتلاوة « صلاة » ، ثم نزل بخفة على الأرض . وفي الحال تقدم المعلم بطرس ناحية دون كيخوته ، وركع أمامه ، وقبل ساقيه وقال « سيدي! إني أقبل هذين الساقين وكأني ألمس أعمدة هرقل ، أيها المجدد الشهير للفروسية الجوالة التي نسيت منذ زمن بعيد! أيها الفارس دون كيخوته دلا منتشا الذي لا يفي حقك من الثناء مادح! يا سند

الضعفاء ، ومعين من يسقطون ، وذراع من سقطوا وعزاء كل المحزونين!» فدهش دون كيخوته كل الدهشة ، وخجل سنشو ، وأرتج على إبن العم ، ودهش الخادم الشاب ، وفغر الرجل صاحب النهيق فاه من الدهشة ، وصاحب الفندق تحير ، وبالجملة فإن جميع الذين سمعوا المعلم بطرس ماتوا من الفزع . فاستأنف المعلم بطرس كلامه قائلا : وأنت ، أي سنشو پنثا الطيب ، يا خير سائس لأعظم فارس ، إفرح : فإن الطيبة تريزه في صحة وعافية ؛ وهي تفصص الآن رطلا من التيل ؛ وللتدليل على هذا أقول أن بجوارها جرة مكسورة الفوهة ، مليئة بالنبيذ ، بها تسلي نفسها أثناء الشغل .» ـ فقال سنشو : «يا لله! أنا أصدق هذا بغير عناء ، لأنها امرأة ناضجة ؛ ولو لم تكن غيورا لما استبدلت بها أندندونا الماردة التي كانت ، بحسب ما يقول مولاي ، امرأة كاملة وربة بيت صالحة . وتريزي من اولئك اللواتي لا يحرمن أنفسهن من شيء ، حتى لو كان ذلك على حساب ورثتها» . فقال دون كيخوته : «الآن نستطيع أن نقول أن من قرأ كثيرا وسافر كثيرا يرى ويعرف الكثير . من كان يستطيع إقناعي بأنه توجد نسانيس تتكهن وتحزر ، كما شاهدت الان ؟ نعم يا سادتي ، أنا دون كيخوته نفسه الذي ذكره هذا الحيوان الطيب ، لكنه بالغ في إطرائي من غير شك . وأنا بما أنا أحمد السماء لأنها أعطتني قلبا طيبا ، وبرأتني بحيث أكون متأهبا دائما لفعل الخير ، دون أن أوذي أحدا» . فقال الخادم الشاب : «لو كان معي نقود لالتمست من سيادة النسناس أن يخبرني بما سيحدث لي في رحلتي .» ـ فقال المعلم بطرس واقفا : «لقد قلت لكم من قبل أن هذا الحيوان لا يجيب عن المستقبل : وإلا لما كنتم في حاجة إلى المال ما دمتم في صحبة السيد دون كيخوته ، وأنا من أجله مستعد لنسيان كل مصالحي المادية ؛ والآن لكي أؤدي له ما يجب علي ، وللترويح عنه ، سأنصب مسرحي وأريه لجميع من في الفندق ، دون أن يدفعوا شيئاً» . ولدى سماع هذه الكلمات عين صاحب الفندق ـ وهو فرح مسرور ـ المكان الذي يمكن نصب المسرح فيه ؛ وتم هذا في الحال . ولم يكن دون كيخوته راضيا كل الرضا عن تكهنات النسناس ، لأنه بدا له من غير الطبيعي أن يعرف حيوان من هذا النوع الحاضر أو الماضي . وبينما كان المسرح يعد ، انسحب إلى زاوية في الاسطبل هو وسنشو حيث قال له دون أن يسمعه أحد : «يا صاحبي! لقد فكرت جيدا في براعة هذا النسناس المدهشة ؛ أما عن نفسي فأنا لا أشك في أن المعلم بطرس هذا ، صاحبه ، قد عقد ميثاقا صريحا أو ضمنيا مع الشيطان .» ـ فأجاب سنشو : «إذا كانت العجينة غليظة ومن صنع الشيطان ، فلا بد أن تنبعث منها رائحة كريهة ؛ لكن فيم تفيده هذه العجائن ؟ فقال دون كيخوته : «أنت لا تفهمني يا سنشو ؛ إني لا أكلمك عن

العجين : أقصد أن أقول أنه لا بد قد عقد اتفاقا ما مع الشيطان ، ليعطي هذه الموهبة للنسناس ، ابتغاء اغناء المعلم ؛ وحين يصبح هذا غنيا ، يبيع روحه للشيطان ، وهذا هو كل ما يرجوه هذا العدو لبني الإنسان . ومما يؤيد هذا في نظري هو أن النسناس لا يخبر الا عن الماضي والحاضر : وعلم الشيطان لا يمتد إلى ما بعد ذلك ، فهو لا يستطيع أن يعرف المستقبل ، إلا بالتخمين ، وفي أحيان قليلة فقط ، لأن اللّه هو وحده الذي يعرف الأزمنة : وبالنسبة إليه كل شيء حاضر ، وليس عنده ماض ولا مستقبل . ولما كان الأمر هكذا ، فمن الواضح أن النسناس لا يتكلم إلا بواسطة الشيطان ؛ وإني مندهش جدا من أنه لم يتهمه أحد حتى الان أمام الديوان المقدس ، ولم يأمر بفحصه لمعرفة بفضل أية قوة هو يتكهن : لأنه لا شك في أن هذا النسناس ليس عالما بالنجوم ، ولا يستطيع هو ولا معلمه أن يرتب الأشكال التي تسمى طوالع النجوم ، وقد انتشرت اليوم في أسبانيا بحيث لا توجد امرأة ولا خادم ولا إسكافي لا يشتغل في ترتيب هذه الأشكال مثل الشايب ذي ورقة البرسيم ، أو ذي المربعات ، وهم بهذا يفسدون ، بجهلهم وأكاذيبهم ، حقيقة العلم الرائعة . وقد علمت أن سيدة طلبت يوما من أحد هؤلاء العرافين هل تحبل كلبتهما الصغيرة ، وكم من الجراء تلد ، وماذا سيكون لونها . فأجاب العراف ، بعد أن رسم أشكاله ، إن الكلبة ستلد ثلاثة جراء : جرو أخضر ، وجرو أحمر ، والثالث مختلط الألوان ، بشرط أن يتم التلقيح بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة في النهار أو في الليل ، في يوم إثنين أو يوم سبت : والذي حدث هو أن الكلبة ماتت من سوء الهضم بعد يومين ، وكان هذا العراف مشهورا بأنه عراف ماهر ، شأنه شأن كل العرافين في الناحية » .

فقال سنشو : « سيدي! ولكني مع ذلك أريد منك أن تقول للمعلم بطرس أن يسأل نسناسه هل كل ما شاهدته في كهف مونتسينوس صحيح : لأني أعتقد ، واعذرني فمن ذلك ، إنه أكاذيب وأوهام ، أو على الأقل رؤى أحلام . » ـ فقال دون كيخوته : « يجوز ؛ وسأفعل ما تنصح به ، وإن كنت أشعر بشيء من التأنيب » .

وفي تلك اللحظة جاء المعلم بطرس إلى دون كيخوته وقال له إن المسرح معد ، ولا ينتظرون غيره . فأنبأه دون كيخوته بفكرته ، وطلب منه أن يسأل في الحال نسناسه هل بعض الأمور التي رآها في كهف مونتسينوس صحيحة أو كاذبة ، وأضاف أنها بدت له بين بين . فذهب بطرس ـ دون أن يجيبه ـ وأحضر نسناسه ، ثم قال له : « سيدي النسناس! هذا الفارس يريد أن يعرف هل بعض الأمور التي رآها في كهف يقال له مونتيسنوس ، صحيحة أو زائفة » . ثم أشار الإشارة المعتادة ؛ فوثب النسناس على كتفه ، وبدا أنه يهمس في أذنه ؛

وقال بطرس : «النسناس يقول إن جزءا مما شاهدته زائف ، والجزء الآخر محتمل : هذا كل ما يستطيع أن يقوله . فإذا شئت أن تعرف المزيد ، فإنه سيستطيع الإجابة يوم الجمعة القادم ، عن كل ما تسأله عنه ؛ أما الآن فإن حصة التكهن قد انتهت ولن تعود إلا يوم الجمعة القادم » .

فقال سنشو : أولم أقل لك يا مولاي أنني لا أستطيع أن أتصور أن ما قلت إنك شاهدته في ذلك الكهف هو صحيح[1] ، ولا حتى نصفه ؟

فأجاب دون كيخوته : الزمان سيعلمك يا سنشو : إنه يكشف كل شيء ، ولا يدع شيئا لا يظهره في وضح النهار ، حتى لو اختبأ في مركز الأرض . لكن لندع هذا الآن ، ولنذهب لمشاهدة مسرح الرجل الطيب المعلم بطرس هذا ؛ لا بد أنه شيء جديد طريف .

فقال المعلم بطرس : شيء ؟ كيف! إن مسرحي يحتوي أكثر من ستين ألف شيء . وأقول لك يا سيد دون كيخوته ، أنك سترى مناظر من أجمل مناظر الدنيا التمثيلية : وصدق الأفعال ، لا الكلام . والآن هيا بنا . الوقت متأخر ؛ وعندنا الكثير لنقوله ، والكثير لنفعله ، والكثير لنعرضه .

فتبعه دون كيخوته وسنشو إلى الغرفة التي نصب فيها المسرح ، وكان مضاء من كل ناحية بشموع كثيرة صغيرة . ووقف بطرس وراء الستارة لأنه هو الذي يحرك العرائس . وفي مقدمة المسرح صبي صغير يشرح ، ويفسر كل الحكاية ، وبيده عصا ، يشير بها إلى الأشياء . واحتل سنشو ودون كيخوته والخادم الشاب وابن العم خير الأماكن ؛ وكل الآخرين الذين كانوا في الفندق جلسوا أو ظلوا واقفين أمام المسرح ، وبدأ الصبي الصغير يشرح ما سنراه في الفصل التالي .

---

(١) كان هذا النوع منتشراً في اسبانيا في عهد ثربانتس ليس فقط في القرى بل وفي المدن ، وكان يطلق عليه اسم « صوانات العجائب » Retbles de maravillas .

الفصل السادس والعشرون

استمرار المغامرة اللطيفة للاعب العرائس وأمور أخرى من المؤكد أنها لطيفة

سكت الجميع : أهل صور وأهل طروادة ، أعني أن كل الذين كانوا يتفرجون على المسرح انتظروا في صمت رواية المفسر (الصبي) ، وإذا بهم يسمعون ، خلف الستارة ، ضجة عظيمة للأبواق والطبول وهجمات المدفعية ؛ وبعد ذلك قال الصبي :

ـ سادتي! إن التاريخ الصحيح الذي نتشرف بتقديمه اليكم مستمد ، كلمة فكلمة ، من الأخبار الفرنسية والقصص الأسبانية ، التي على لسان كل الناس ، وحتى الأطفال . وستشاهدون فيها كيف أن السيد دون جايفيروس خلص زوجته مليساندره ، التي كانت أسيرة في اسبانيا في قبضة المسلمين ، في مدينة سنسونية ، وهو اسم مدينة سرقسطة آنذاك . ولاحظوا يا سادة كيف يلعب دون جايفيروس لعبة المناضد ، ناسيا مليساندره » .

وهذا الشخص الذي ترون التاج على رأسه والصولجان في يده هو الوالد المظنون لمليساندره الجميلة ، الامبراطور شرلمان الذي غضب من عدم اكتراث صهره فجاء لينحى عليه باللائمة والتوبيخ : أنظروا بأي عنف يوبخه ،وكأنه يريد بصولجانه ، أن يضربه ست ضربات ، بل هم يؤكدون فعلا أنه ضربه ضربات محكمة ، وبعد أن يقول له الكثير من الأشياء عن الخطر الذي يتعرض له شرفه بعدم محاولته تخليص زوجته ، يقال أنه أضاف : « قلت لك ما فيه الكفاية : فخذ حذرك . » ـ أنظروا الآن ، يا سادة ، كيف يدير الامبراطور شرلمان ظهر كتفيه ويترك دون جايفيروس حانقاً استبد به الغضب فرمى باللعبة بعيدا ، وطلب سلاحه ، والتمس من ابن عمه أورلندو أن يعيره سيفه المسمى دورندال . وها أنتم ترون دون أورلندو يرفض أن يعطيه السيف ، لكنه يعرض عليه أن يرافقه في هذه العملية العسيرة . ولكن الباسل دون جايفيروس ، غاضبا ، يرفض هذا العرض قائلا إنه الكفيل وحده بتحرير زوجته حتى لو كانت أسيرة في مركز الأرض . تسلح ورحل . أنظروا الآن إلى هذا

البرج الذي تبصرونه هناك : إنه أحد أبراج سرقسطة ، ويسمى اليوم باسم «الجعفرية» . وهذه السيدة التي تشاهدونها في هذه الشرفة ، لابسة الزي المغربي ، هي مليساندره المنقطعة النظير : وكثيرا ما تصعد اليها تنظر إلى طريق فرنسا ، وتتسلى في أسرها ، وهي تفكر في باريس وفي زوجها . أنظروا الآن شيئا جديدا لم ير مثله من قبل : أنظروا الآن هذا المغربي الذي يسترق الخطى كالذئب ، وإصبعه في فمه ، خلف مليساندره ، ويفاجئها بقبلة . وانظروا كيف تبصق ، وتمسح فمها بكم قميصها ، وتشكو وتنوح وتشد شعرها الجميل كما لو كان هو السبب في هذه الإهانة ، وانظروا إلى هذا المغربي الوقور ، في هذا البهو : إنه مرسليو ، ملك سنسونيه ، الذي شاهد وقاحة المغربي ، فأمر حراسه بأن يقبضوا عليه ، على الرغم من أنه قريبه وخليله ، ويأمر بجلده مائتي جلدة ، وأن ينادي عليه في الشوارع .

وانظروا إلى الحرس يخرج لينفذ الأمر ، على الرغم من أن الجريمة لم ترتكب إلا منذ وقت قصير جدا ، لأنه عند المغاربة لا يوجد استخبار ولا تحقيق أدلة ، كما عندنا .

فقاطعه دون كيخوته قائلا : يا ولد ، تابع تاريخك في خط مستقيم ، دون أن تنحرف في طرق جانبية ملتوية : لإيضاح واقعة ، لا بد غالبا من معلومات وأدلة .

فقال المعلم بطرس (من خلف الستارة) السيد (دون كيخوته) على حق : إفعل ما يقولون ؛ لا تبد تأملات ؛ تابع النغم المستوي دون أن تتوقف عند الطباق ، فهو أمر دقيق جدا .

فقال الصبي : سأفعل .

واستمر الصبي قائلا : «هذا الشكل الذي ترونه على فرس ، وعلى رأسه قلنسوة على الطريقة الجسكونية ، هو دون جايفيروس نفسه الذي تنتظره زوجته ، وقد انتصف لها من إهانة المغربي العاشق . وهي تكلمه من أعالي البرج ، وهي تحسبه ؛ وما قالته له مذكور في الرومانثة : «أيها الفارس ؛ إذا كنت ذاهبا إلى فرنسا ، فاستعلم عن دون جايفيروس .» ولن أزيد على هذا ، لأن الاسهاب يولد الملال . فيخبرها دون جايفيروس عن هويته ، فتفرح مليساندره ، مما يدل على أنها تعرفته : وها هي ذي تريد أن تقفز من الشرفة لتقع على مؤخرة فرس زوجها ؛ لكن ويا للأسف! تعلقت جونلتها بطرف مدبب في الشرفة ، وظلت معلقة في الهواء ، دون أن تستطيع بلوغ الأرض . لكن أنظروا كم تساعدنا النساء ونحن في أشد الأخطار : يقترب دون جايفيروس ، ودون أن تزعجه الجونلة التي تلبسها يجرها إليه ، وينزلها إلى الأرض . ويلقي بها على مؤخرة فرسه ، ورجلاها على كلا الجانبين مثل الرجال ،

ويوصيها بأن تعانقه بشدة حتى لا تقع ، لأنها لم تتعود ركوب الخيل هكذا . وأنظروا كيف أن صهيل الفرس يشهد على اللذة التي يستشعرها وهو يحمل هذا الحمل اللذيذ العذب ، صاحبه وصاحبته . وأنظروا كيف يستديران ويخرجان من المدينة ويتخذان ، مسرورين ، الطريق إلى باريس . سيروا في سلام ، أيها الزوجان النموذجيان للعشاق الكمل : ولتصلا بالسلامة إلى وطنكما العزيز ، دون أن يعكر سوء الحظ صفو رحلتكم! ولتشاهدكما عيون أقاربكما وأصدقائكما تقضيان في سلام وهدوء ، سنوات مثل سنوات نسطور .!

فقال المعلم بطرس : قف هنا ، يا ولد ، ولا تتحمس هكذا : فإن كل تصنع فاسد .

فلم يرد الصبي ، واستمر قائلا : «ولايخلو مكان من متطفلين يتجسسون على كل شيء : لقد شوهدت مليساندره وهي تنزل من الشرفة وتركب الفرس ، فأبلغوا الملك مرسليو ، فأمر فورا بالتنبيه . أنظروا بأية سرعة تنفذ أوامره : أتسمعون صوت النواقيس القائمة في مآذن المساجد ؟»

فقال دون كيخوته : «على رسلك يا ولد ، إن المعلم بطرس أخطأ فيما يتعلق بالأجراس : لأنه لا توجد أجراس في مآذن المساجد ، والمغاربة ليس عندهم نواقيس ، بل يستخدمون صنجا ونوعا من الصفارات يشبه أرغولنا :

فجعل الأجراس تدق في سنسونية هذا خطأ فاحش» .

فقال المعلم بطرس : بعد أن كف عن دق الأجراس ، أرجوك ألا تلقي بالا لهذه التفاهات ، وألا تأخذ الأمور بشكل حرفي . ألا ترى آلاف الكوميديات التي تمثل وهي مليئة بألوان الجنون وعدم الاحتمال ؟ ومع ذلك فإنها ناجحة جدا : تسمع ليس فقط بلذة ، بل وبإعجاب . استمر يا ولد ، ودع النقد يقل ما يشاء : ما دمت أكسب منها ، فلا يهم إذا كانت الأخطاء عديدة مثل ذرات الشمس .

فقال دون كيخوته : أنت على حق .

واستمر المتكلم (الصبي) قائلا : «انظروا كم يخرج فرسان لامعون من المدينة راكضين وراء المحبين المسيحيين ؛ وكم من أبواق تصيح ؛ وكم من صفارات وصيحات وطبول! إني أخشى أن يلحقوا بهما ، وأن يعيدوهما موثقين بذيول خيولهم ، وسيكون هذا منظرا رهيبا» .

ولدى رؤية هذا العدد الهائل من المغاربة في حملة ، وسماع آلات الحرب هذه المدوية ، أعتقد دون كيخوته أنه آن الأوان لنجدة المحبين الهاربين ؛ ولهذا نهض باندفاع وصاح : «كلا ، إني لا أسمح في حضوري وطالما كنت حيا بأن يخان فارس شهير ومحب

شجاع مثل دون جايفيروس . قفوا أيها الأوغاد الملاعين ، كفوا عن مطاردته ، أو استعدوا للقتال » . ثم استل سيفه وانقض على المسرح ، هائجا ثائرا ينهال بضربات شديدة من سيفه على العرائس المغربية ، يحطم بعضها ، وينتزع البعض الآخر ، ويبتر هذا ، ويقطع أوصال تلك . وأهوى عليها بضربة شديدة من فوق إلى أسفل حتى أنه لولا أن المعلم بطرس أقعى في الركن لطار رأسه هو الآخر مثل قطعة من الخبز . وبح صوت المسكين وهو يصيح : « كف يا سيد دون كيخوته ؛ إن الذين تجندلهم وتقتلهم ليسوا مغاربة حقيقيين ؛ بل هم أشكال وتماثيل من العجين . يا لي من مذنب ، لقد خربت بيتي وقضيت على كل ما أملك . » وعلى الرغم من هذه الصيحات فإن دون كيخوته لم يكف عن الضرب طولا وعرضا وبالظهر بضربات شديدة تنهمر كالمطر . وأخيرا وفي أقل مما يحتاجه قول « دعائين » ، ألقى المسرح على الأرض ، وقطع الحبال وحطم كل التماثيل والأشكال ؛ وجرح الملك مرسليو جراحا بالغة ، وانشق رأس الامبراطور شرلمان وتاجه إلى نصفين ؛ وشاع الفزع في كل المشاهدين ؛ وهرب النسناس إلى سقف البيت ، وارتعدت فرائص ابن العم ، ودهش الخادم الشاب كل الدهشة ، وسنشو نفسه خاف خوفا شديدا حتى أنه بعد العاصفة أقسم أنه لم ير مولاه أبدا في مثل هذا الغضب الشديد .

وبعد أن تحطم كل شيء ، هدأ دون كيخوته قليلا وقال : « كنت أود أن يكون هنا كل اولئك الذين ينكرون فائدة الفرسان الجوالة للعالم! أنظروا ، لو لم أكن موجودا في هذا المكان ، فماذا كان سيؤول إليه أمر الطيب دون جايفيروس والجميلة مليساندره ؟ لا شك في أنهم كانوا سيقعون الآن في قبضة أولئك الأوغاد الذين كانوا سيسومونهم كل عذاب وإهانة . لتحيَ الفروسية الجوالة فوق كل ما هو حي على سطح الأرض! » ـ فقال المعلم بطرس بصوت شاك نائح : لتحيَ ، نعم ، لكن لأمت أنا ، أنا البائس بؤسا أستطيع معه أن أقول مع الملك دون رودريجو : « لقد كنت بالأمس سيد أسبانيا ، أما اليوم فلم يبق ثقب أستطيع أن أقول إنه ملكي . » منذ نصف ساعة فقط ، بل منذ لحظة ، كنت سيدا على ملوك وأباطرة ؛ وكانت اسطبلاتي مملوءة بعدد لا نهاية له من الخيول ؛ وكانت خزائني وأكياسي حافلة بما لا نهاية له من أدوات التزيين . أما الآن فأنا فقير ، شحاذ ، محطم ، بائس ، وفوق كل شيء ليس عند نسناس ، إذ علي قبل أن أستطيع استرداده أن أعرق حتى أسناني ؛ وكل هذا يحدث لي بسبب الهياج الجنوني لهذا الفارس الذي يقال عنه أنه حصن اليتامى ، وراد المظالم ؛ إنه يسدي الخير للآخرين ، أما أنا فيحرمني من نواياه الكريمة ، ليتبارك الله ألف مرة حتى عرش مجده! لقد كان على الفارس الحزين الطلعة أن يشوه وجوه تماثيلي » .

فقال سنشو پنثا ، وقد تأثر من شكايات المعلم بطرس : «لا تبك يا معلم بطرس ، ولا تتشك هكذا ؛ إنك تذيب قلبي . إعلم أن مولاي دون كيخوته رجل صالح ذو ضمير ، وحين يدرك أنه أصابك بالضرر فإنه سيعوضك عنه ، بل ولصالحك .» ـ فقال المعلم بطرس : «ما دام السيد دون كيخوته يريد أن يدفع قسما من الأضرار التي أصابني بها ، فإني سأكون راضيا ، ويبرئ ذمته ويريح ضميره : إذ لا نجاة لمن يأخذ مال الغير ضد إرادته ، ولا يرده إليه .» ـ فقال دون كيخوته : «أنت على حق يا معلم بطرس لكني لا أرى أني قد أخذت منك شيئاً حتى الآن فقال المعلم بطرس : «كيف لم تأخذ شيئا ؟ وهذه الأنقاض على الأرض ، وهذه التماثيل من الذي بددها ، وحطمها ، إن لم يكن قوة ذراعك الذي لا يهزم ؟ والأجسام التي كومتها ، لمن هي إن لم تكن لي أنا ؟ ومم كنت أتعيش إن لم يكن من هذه التماثيل والأشكال ؟» ـ فأجاب دون كيخوته : «لقد انتهيت بأن أصدق ما ظننته من قبل مرارا ، وهو أن السحرة الذين يضطهدونني يضعون تحت عيني أشكال الأشياء كما هي ، ثم يحولونها كما يريدون ، وإني لأشهد وأقرر يا سادتي أمامكم جميعا يا من تستمعون إلي ، أنه خيل إلى أن كل ما جرى أمامي كان واقعيا يحدث فعلا وحرفيا ، وأن مليساندره كانت هي مليساندره بعينها ، وكذلك دون جايفيروس حبيبها ، ومرسليو ملك سنسونية وشرلمان الامبراطور هو بعينه : وهذا المنظر قد أشعل غضبي ؛ ولأداء واجبي بوصفي فارسا جوالا ملزما بنجدة المضطهدين ، فعلت بقصد شريف ما رأيتموني أفعله . فإن كان قد حدث عن هذا ضرر ، فليس ذلك ذنبي ، بل ذنب الأشرار الذين يطاردونني ويضطهدونني . ومع ذلك ، فعلى الرغم من أن غلطي لم ينشأ عن قصد الأضرار ، فإني أحكم على نفسي بدفع التعويض . فانظر يا معلم بطرس ماذا تطلب تعويضا عن تماثيلك المحطمة ؛ وأعرض عليك أن أدفعه في الحال بالعملة الأسبانية الصحيحة .» ـ فقال المعلم بطرس وهو ينحني : «لم أكن أتوقع أقل من هذا من الأمانة المسيحية للباسل دون كيخوته دلا منتشا ، السند الحقيقي ، والحصن الحصين للمحتاجين والمتشردين ، وسيكون صاحبا الفندق حكمين يقرران قيمة هذه الأشكال والتماثيل المحطمة» .

وتمت الموافقة على هذا العرض ؛ وقال المعلم بطرس ، وهو يرفع من على الأرض الملك مرسليو ملك سرقسطة ، الذي لم يكن له رأس بعد : «سادتي! ها أنتم ترون أن هذا الملك لا يمكنه أن يجلس على العرش من جديد ؛ ولهذا أعتقد ، إلا إذا كان هناك رأي أحسن ، إنه يمكن إعطائي أربعة ريالات ونصف تعويضا عن نهايته وموته وتحطيمه»

- فقال دون كيخوته : «موافق» . - فقال المعلم بطرس وهو يشير إلى شرلمان : وعن هذا الرأس المشقوق إلى نصفين ، ليس بالكثير مبلغ خمسة ريالات وربع» . - فقال سنشو : «هذا كثير» . - فقال صاحب الفندق : «ليس هذا بكثير : قيسوا الجرح ، على كل حال لنقل خمسة ريالات» . - فقال دون كيخوته : «أعطوه ما يطلب : فإن ربعا بالزيادة أو النقصان لا يؤثر كثيرا في هذا الاضطراب الشديد . لكن لنسرع ، فالوقت وقت الطعام ، وأنا أشعر بالجوع .» - فقال المعلم بطرس : «أما هذا التمثال الذي ينقصه الأنف وإحدى العينين ، فهو مليساندره الجميلة : وأنا أطلب تعويضا عنه ، وأنا مستريح الضمير ، مبلغ ريالين واثني عشر مرابطيا . - فقال دون كيخوته : «ستكون من مكائد الشيطان إذا لم تكن مليساندره وزوجها قد وصلا إلى حدود فرنسا ، لأن الفرس الذي كان يحملها بدا أنه كان يطير ولا يجري . ولست أنا الذي يباع له قط على أنه أرنب ، وتقدم إليه مليساندره بدون أنف ، بينما مليساندره الحقيقية توجد في فرنسا ، تستمتع هي وزوجها . ليقنع كل بما عنده ، يا معلم بطرس : ولنسر في طريق مستقيم بغير غش ولا مكر ، استمرا» لكن بطرس لما أدرك أن دون كيخوته يخرف وعلى وشك أن يعود إلى حالته السابقة ، خاف أن يفلت منه ، فقال : «نعم ، ليست هي مليساندره بل إحدى وصيفاتها ؛ وهكذا فإن ستين مرابطيا تكفي» . وبالطريقة نفسها تم تثمين سائر التماثيل والأشكال المبتورة : وكان الحكمان يعدلان في الثمن بموافقة الطرفين . وبلغت جملة المبلغ أربعين ريالا وثلاثة أرباع الريال ، فدفعها سنشو في الحال . وطالب بطرس بريالين آخرين تعويضا عن المجهود الذي سيبذل في العثور على النسناس . فقال دون كيخوته : «أعطه إياهما ، لا للعثور على النسناس ، بل للشراب على صحتي . وسأعطي مائتين عن طيب خاطر لمن يقول لي بيقين إن دونيا مليساندره والسيد دون جايفيروس هما الآن في فرنسا بين ذويهما .» - فقال المعلم بطرس : «لا يستطيع أحد أن يخبرنا بهذا خيرا من النسناس ؛ لكن المصيبة هي في الإمساك به ؛ لكني أرجو أن يضطره الجوع وتعلقه بي إلى البحث عني في هذه الليلة . وسيطلع النهار غدا ، وسنرى» .

وأخيرا لما أصلح الضرر ، تعشى الجميع في سلام ، بعضهم مع بعض ، على حساب دون كيخوته الذي كان سخيا جدا . ورحل الرجل ذو الرماح قبل مطلع النهار ؛ وفي وقت مبكر ودع ابن العم والخادم الشاب دون كيخوته : فعاد الأول إلى بيته ، وتابع الثاني طريقه ، وأعطاه دون كيخوته اثني عشر ريالا مساعدة . ولم يشأ المعلم بطرس أن يكون له أي شأن مع دون كيخوته ، وهو كان يعرفه تمام المعرفة ؛ ولهذا استيقظ قبل مطلع

الشمس ، وجمع بقايا مسرحه ، واستعاد نسناسه ، ورحل باحثا ، من ناحيته ، عن مغامرات . وصاحب الفندق ، وكان لا يعرف دون كيخوته ، اندهش من سخائه بقدر ما اندهش من جنونه . وأخيرا دفع له سنشو مبلغا محترما بأمر من مولاه ، وودعه ؛ وفي الساعة الثانية صباحا أخذ السيد والسائس يسلكان طريقهما . ولندعهما يسيران ، ولنرو بعض الخصائص التي تتعلق بهذا التاريخ الخالد الذكر .

الفصل السابع والعشرون

وفيه يذكر من هو المعلم بطرس ونسناسه، وإخفاق دون كيخوته في مغامرة النهيق التي لم تجر كما أعتقد

سيدي حامد ، مؤلف هذا التاريخ العظيم ، يبدأ هذا الفصل بهذه الكلمات العظيمة : « إني أقسم بوصفي مسيحيا كاثوليكيا ، الخ » ؛ ويلاحظ المترجم أن هذه الكلمات ، على لسان سيدي حامد الذي كان مغربيا ، لا تعني غير أنه كما أن المسيحي الكثوليكي حين يقسم ، يقول أو عليه أن يقول الحقيقة ، فكذلك سيدي حامد يحلف أنه سيقول الحقيقة فيما يتعلق بدون كيخوته ، وخصوصا فيما يختص بالمعلم بطرس ونسناسه المتكهن الذي كان موضوع إعجاب كل الإقليم .

يقول إذن أن الذين قرأوا القسم الأول من هذا التاريخ لا بد أنهم يذكرون شخصا يدعى خينس دي باسمونه الذي حرره دون كيخوته من بين ما حرر من محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، ولم يلق عن صنيعه الخير هذا غير الأذى من هذا الجنس الفاسد المتعود على الإجرام . خينس دي باسمونه هذا الذي سماه دون كيخوته باسم خنسيو دي بربيا ، كان هو الذي سرق حمار سنشو ، ولأنه ، في القسم الأول ، نسي - بسبب غلط من الطابعين - أن يذكر متى وكيف حدثت هذه السرقة ، فإن كثيرين قد نسبوا إلى فقدان ذاكرة المؤلف ما لم يحدث إلا عن خطأ في الطباعة . وبالجملة ، فإن خينس سرق الحمار بينما كان سنشو ينام عليه ، مستخدما الحيلة التي استخدمها برونل ليسرق من سكر بنته ، أثناء حصار البراق ، فرسه من بين رجليه . وقد استعاد سنشو حماره بعد ذلك ، كما قلنا . وكان خينس هذا هاربا من ملاحقة القضاء ، الذي كان يبحث عنه بسبب ما لا نهاية له من الجرائم التي بلغ من عددها أنه ألف عنها هو نفسه مجلدا ضخما ؛ فقرر إذن أن ينتقل إلى مملكة أرغون ، مخبئا عينه اليسرى برباط كبير ، واشتغل لاعبا بالعرائس ، وهي مهنة كان يحسنها كما كان يحسن مهنة صانع المكايد . فاشترى من نصارى عائدين من المغرب نسناسا علمه القفز

على كتفه ، عند إشارة معينة منه ، والتظاهر بالتكلم في أذنه . ولما تم له هذا فإنه قبل أن يدخل قرية ما لاستعراض ألعاب نسناسه ومسرحه ، كان يستعلم ، بقدر ما يمكن ، عن الأمور التي جرت في هذا المكان ، وعن الأشخاص ؛ ويضع كل هذه المعلومات المنوعة في ذاكرته ، ثم يبدأ بعرض مسرحه الذي كان يمثل أحيانا حكاية أو أخرى وكلها سارة ممتعة ومعروفة . حتى إذا انتهى العرض أعلن عن مواهب نسناسه قائلا إنه يحزر الحاضر والماضي ، دون المستقبل ؛ وعن كل جواب كان يتقاضى ريالين ، أو أقل ، حسبما يجس بعض المشاهدين ، ولما كان يدخل أحيانا في بيوت أولئك الذي كان يعرف شئونهم ، وإن لم يكن قد دعى بعد ، فإنه كان يشير بالإشارة المعلومة إلى النسناس ، ثم يقول إن النسناس اكتشف كذا وكذا من الأمور التي كانت مطابقة . وبهذه الحيلة ، حصل على ثقة كبيرة ، وجرى الكل وراءه . وفي أحيان أخرى ، وكان رجلا شاطرا جدا ، كان يؤلف أجوبته بحيث تتناسب مع الأسئلة ، أيا كانت ؛ ولما لم يفكر أحد في أن يعرف بأية طريقة يمكن نسناسه أن يحزر ، فإنه كان يخدع الجميع ، ويملأ جيوبه بالمال المتحصل . فلما دخل الفندق ، تعرف في الحال دون كيخوته وسنشو ؛ فكان من السهل عليه إذن أن يفاجئهم بمفاجأة عظيمة ، ويفاجئ سائر الحاضرين ، ولكنها مفاجئة كادت أن تكلفه غاليا ؛ وكان مقضيا عليه لو كان دون كيخوته قد خفض يده إلى أسفل قليلا حين قطع رأس الملك مرسليو ، وحطم كل فرسانه ، كما قلنا في الفصل السابق . وهذا ما كان علينا أن نقوله بشأن المعلم بطرس ونسناسه .

ولنعد إلى دون كيخوته . لما خرج من الفندق قرر أن يزور شواطئ نهر الابرو وكل النواحي المجاورة ، قبل أن يدخل سرقسطة ، لأنه كان لديه متسع من الوقت حتى يحين موعد المباريات ؛ تابع إذن الطريق الكبير وسار طوال يومين دون أن يلقى شيئا يستحق الذكر ؛ ولكن في اليوم الثالث ، بعد أن صعد رابية ، سمع ضجة طبول كبيرة وصياح أبواق وبنادق فظن أولا أن فرقة من الجنود كانت تمر من هذا المكان ، ولكي يشاهدها نخس روثينانته حتى أعلى الرابية ؛هناك رأى عند سفحها أكثر من مائتي شخص مسلحين بأسلحة مختلفة بالرماح ، والقسي ، والبرتجانات[1] ، والحراب ، والخوازيق ، والتروس وبعض البنادق . فنزل ، واقترب من هذه الفرقة حتى شاهد الأعلام والألوان والشارات ؛ فوجد أن منها علما من الساتان الأبيض ، رسم عليه حمار صغير ، مرفوع الرأس ، فاغرا شدقيه ،

(١) البرتجانة « كلمة ايطالية » ؛ حربة حديدة قاعدتها مزودة بأذنين .

ممدود اللسان ، والخلاصة أنه في موقف حمار ينهق ، وحول الرسم كتبت هذه الكلمات بحروف كبيرة وتؤلف بيتين من الشعر : «لم يكن عبثا أن نهق كلا العمدتين» .

وهذا ذكر دون كيخوته بأن هؤلاء الناس لا بد من القرية التي فيها الناظران اللذان قلدا الحمار : وقال ذلك لسنشو وهو يقرأ له ما هو مكتوب على العلم ؛ وأضاف إن من روى له الواقعة قد أخطأ ، من غير شك ، حين قال إنهما ناظران ، لأنه يحسب هذا الشعر يبدو أنهما كانا عمدتين . فقال سنشو : «مولاي ، يجوز أن يكون الناظران قد صارا مع الزمن عمدتين : وهكذا أمكن تلقيبهما بهذين اللقبين ؛ وعلى كل حال فهذا لا ينقص فتيلا من صحة الحكاية : عمدتين كانا أو ناظرين ، فقد سمعا ينهقان ؛ وأحدهما يساوي الآخر .» والخلاصة أنهما اقتنعا بأن قرية قد زحفت على قرية أخرى ، بهياج وإصرار أكثر مما يتوقع من جارتين . فاقترب دون كيخوته من الفرقة ، على شدة تضايق سنشو ، الذي لم يحبب أبدا مثل هذه المصادمات : فتلقاه الفلاحون بينهم ، حاسبين أنه محارب من أنصارهم . ورفع دون كيخوته حافة الخوذة عن رضا ، واقترب من الموضع الذي كان فيه العلم : وهناك أحاط به أعيان الناحية وتأملوا فيه بهذه الدهشة التي يشعر بها كل إنسان حين يراه لأول مرة . فلما شاهدهم دون كيخوته مهتمين بتفحصه ، دون أن يفتح واحد منهم فمه بكلمة أو يسأله أي سؤال ، أراد استغلال هذا الصمت ، ولهذا وبصوت مرتفع قال لهم : «سادتي الأعزاء ، أرجوكم ألا تقاطعوا الخطبة التي أود القاءها عليكم ، ولن تستمر أكثر مما ترغبون ، وعند أقل إشارة سأضع خاتما على فمي ، وعنانا في لساني .»

فأكدوا له جميعا أنه يستطيع أن يتكلم كما يشاء ، فسيصغون إليه عن طيب خاطر . واستنادا إلى هذا التوكيد ، استأنف دون كيخوته كلامه فقال :

ـ سادتي! أنا فارس جوال ؛ ومهنتي هي السلاح ؛ ومهمتي هي نجدة المساكين والمحتاجين . وأنا أعلم منذ عدة أيام نبأ محنتكم والسبب الذي يسلحكم في كل لحظة لتنتقموا من أعدائكم . وقد فكرت طويلا في قضيتكم وأرى أنكم ، وفقا لقانون المبارزة ، مخطئون في اعتقادكم أنكم أهنتم : لأن رجلا فردا لا يمكن أن يهين شعبا بأسره ، إلا إذا اتهمه بالخيانة ، لأنه حينئذ وهو يجهل من الذي ارتكب هذه الخيانة يمسك بالجمهور ، وعندنا مثل على ذلك في شخص دون دييجو أوردنييث دي لارا ، الذي اتهم شعب سموره لأنه جهل أن بييدو دولفوس كان هو وحده قاتل ملكه ، فانقض على الجميع : فكان على الجميع إذن أن يرووا وينتقموا للإهانة التي وجهت إليهم . وأنا أعترف مع ذلك بأن السيد دون دييجو كان طائشا بعض الشيء ، وتجاوز حدود الاتهام المشروع ، لأنه لا يستطيع

أن يتهم الأموات ، ولا الأطفال الذين لم يولدوا بعد ، ولا المياه ، ولا المحاصيل ، وسائر الأعمال الجنونية التي تشاهد في رسالة تحديه . لكن لندع هذا إن الغضب حين يفيض فلا يمكن أن يردعه والد ولا سيد ولا عنان . فلما كان من المعترف به إذن أن رجلا فردا لا يمكن أن يهين مملكة ، أو جمهورية أو مقاطعة ، أو مدينة ، أو شعبا بأسره ، فمن البين أيضا أنه لا يمكن إجراء الانتقام من مثل هذه الإهانة ، لأنها غير موجودة ؛ وإلا لكان على الكثوليروسيين[1] ، والباذنجانيين[2] ، والسماكين[3] ، والصبانيين[4] وكل أولئك الذين ينبذهم العامة والأطفال بالألقاب الساخرة أن يتقاتلوا معهم بسبب هذه الألقاب ؛ وكان لابد إذن أن يظل هؤلاء المواطنون الطيبون مسلحين باستمرار يستلون سيوفهم لأقل نزاع . لا ، لا ، الله لا يريد هذا ولا يسمح به . إن العقلاء والحكماء ، والدول الصالحة الحكومات لا تقرر حمل السلاح وامتشاق السيوف ، وتعريض الأشخاص والحيوان ، والأموال إلا لأربعة أسباب : للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ، وللدفاع عن حياتهم ، وهذا أمر يقضي به الشرع الإلهي والقانون الطبيعي ، وللدفاع عن شرفهم وأسرهم وأموالهم ، ورابعا لخدمة الملك ، في حرب عادلة ؛ وإذا شئنا أن نضيف سببا خامسا ، ويمكن أن يعد السبب الثاني ، نقول : وللدفاع عن وطنهم . ويمكن أن ترغم على حمل السلاح ، لكن حمل السلاح بسبب أمور تافهة هي بالأحرى ملح وفكاهات أكثر منها إهانات ، فهذا معناه انعدام العقل والتمييز . وأكثر من هذا : السعي إلى الإنتقام الظالم (لأنه لا يمكن أن يوجد انتقام عادل) هو السير مباشرة ضد الشريعة المقدسة التي ندين بها ، والتي تأمرنا بالإحسان إلى الأعداء ، وحب مبغضينا ، وهو أمر إن بدا أن من العسير اتباعه فإنه ليس عسيرا إلا على أولئك الذين يفضلون الدنيا على الله ، والجسد على الروح . ويسوع المسيح ، الإنسان ـ الاله الحق ، الذي لم يكذب أبدا ولا يمكن أن يكذب وهو شارعنا ، قال إن نيره عذب وحمله خفيف ؛فهو لا يمكن إذن أن يأمرنا بشيء مستحيل التنفيذ ، وهكذا يا سادتي ، أنتم ملزمون ، بناء على الشرائع الإلهية والإنسانية ، بأن تهدئوا أنفسكم » .

---

(١) نسبة إلى كثوليروس ، أو كثيروس ؛ وهو لقب نبز به سكان مدينة بلد الوليد ، الذين شنقوا أوغسطين دي كثيا ـ بحسب شرح ديلونيه ، أو نسبة إلى Cnzoleros « محبو الكسرولات » بحسب منديثابل .

(٢) لقب نبز به سكان طليطلة لإكثارهم من أكل الباذنجان .

(٣) على سكان مدريد ، بسبب حكاية مشهورة عن حوت نهر المنثارس .

(٤) لقب على سكان Getafe بحسب شرح ديلونيه ، أو مدينة اشبيلية بحسب منديثابل « طبعة فاكس ، مدريد سنة ١٩٤٢ » ، لكثرة انتاج الصابون فيها .

فقال سنشو في نفسه : أخذني الشيطان إن لم يكن مولاي لاهوتيا ، وعلى الأقل إذا لم يكن كذلك ، فإنه يشبه اللاهوتي شبه البيضة للبيضة . »

وتوقف دون كيخوته قليلا ، ولما رأى أنهم يصغون إليه بانتباه عاطف ، كان على وشك أن يستأنف كلامه ، لما أن أنشأ سنشو ، الرقيق ، وقد رأى مولاه يسكت ، أنشأ هو يقول :

ـ « إن مولاي ، السيد دون كيخوته دلا منتشا ، المسمى سابقاً بإسم الفارس الحزين الطلعة ، والآن يسمى فارس الأسود ، رجل نزيه عاقل : إنه يعرف اللاتينية والأسبانية مثل أي حامل بكالوريا ، وفي كل ما يقوله وينصح به يسلك مسلك الجندي الحسن ، وهو يعرف عن ظهر قلب كل قوانين وقواعد المبارزة : وهكذا ليس عندكم أفضل من أن تتبعوا نصيحته . وإذا أخطأ فعلى وزر ذلك ، وتذكروا خصوصا ما قاله وهو أنه من السذاجة التامة أن يتقاتل الناس من أجل نهيق حمار . وأذكر ، حين كنت صغيرا ، أنني كنت آخذ في النهيق حين يحلو لي ، ودون أن يدعوني أحد إلى ذلك ، بكل لطف ورقة حتى أن جميع حمير قريتنا كانت ترد على صوتي وتتجاوب معه : ولم أكن مع هذا غير ابن أبي وأمي ، وكلاهما كان محترما جدا في الناحية ، وبالرغم من أنه حسدني على هذه الموهبة أكثر من أربعة من عفاريت القرية ، فإن ذلك لم يجلب إلي أي مكسب ولا مليما واحدا . وحتى تروا أن ما أقوله صحيح ، انتظروا واسمعوا : إن هذا العلم مثل علم السباحة ، إذا تعلمه المرء مرة لم ينسه أبدا . » وفي الحال رفع يده إلى أنفه وأخذ ينهق بقوة شديدة جعلت كل الأودية تتجاوب بنهيقه ، لكن أحد الذين كانوا بالقرب منه خيل إليه أنه يريد أن يسخر منهم ، فرفع خازوقا كان يحمله في يده وضربه ضربة جندلت سنشو ينثا على الأرض فلما شاهد دون كيخوته ما أصاب سنشو ، انقض والرمح في يده على من ضربه ، لكن حجز بينهما عدد كبير من الناس بحيث لم يستطع أن ينتقم لسائسه . ولما أحس بأن سحابة من الحجارة وآلافا من اللقى وعددا لا يقل عن ذلك من البنادق موجها ضده ، أدار عنان فرسه فورا ، وابتعد بأسرع ما يمكن أن يعدو روثينانته ، متوسلا إلى الله بكل قلبه أن يخلصه من هذا الخطر ، وهو يظن في كل خطوة أنه سيتلقى رصاصة في أكتافه أو في صدره ، وممسكا أنفاسه في كل لحظة حتى يعرف هل سيلفظها ، لكن الفرقة ، وقد اكتفت برؤيته يهرب ، امتنعت من الاطلاق ، وأنهض سنشو ، ووضع على حماره ، لما أن أفاق قليلا من سقطته ، وتركوه يلحق بمولاه ، ولم يكن في حالة تسمح له بأن يتماسك ويأخذ طريقه ، ولكن الحمار تابع بنفسه أثر روثينانته ولم يكن

يسير بغيره . وبعد أن جرى دون كيخوته مسافة طويلة بفرسه دفعة واحدة ، أدار رأسه ، فشاهد سنشو قادما إليه ، دون أن يطارده أحد فتوقف في الحال لانتظاره . وبقي الفلاحون في الخلاء حتى المساء ، ولما لم يظهر أعداؤهم عادوا أدراجهم فخورين مسرورين . ولو كانوا عرفوا العادة القديمة عند اليونان ، لما قصروا في إقامة نصب في هذا المكان .

الفصل الثامن والعشرون

في الأمور التي ذكرها ابن الأيل، وسيعرفها القارىء لو قرأها بانتباه

إذا هرب شجاع فمعنى هذا أنه اكتشف كمينا ، لأن من الكياسة أن يوفر المرء نفسه لفرصة أحسن . هذه الحقيقة برهن عليها دون كيخوته ، إذ لم يشأ أن يقف في وجه هيجان وعداوة الفيلق الغاضب ، فآثر الفرار ، دون أن ينتظر سنشو ، ودون أن يفكر في الخطر الذي تركه يتعرض له ، وابتعد إلى حيث اعتقد أنه في أمان فتابعه سنشو ، راقدا بخلاف على حماره ، كما قلنا ، ثم لحق به أخيرا ، ولما عاد نهائيا إلى رشده ، سقط من الحمار عند سنابك روثيناتته ، وهو يلهث محطما مكسورا . ونزل دون كيخوته إلى الأرض ليفحص جراحه ، فلما لم يجد أي جرح ، ووجده سليما من رأسه حتى أخمص قدميه ، قال له غاضبا : « لقد أسأت اختيار الوقت للنهيق يا سنشو . وأن وجدت أن من الحكمة أن يتكلم المرء عن الحبل في بيت مشنوق ؟ ولموسيقى النهيق أي مصاحبة تناسب غير ضربات العصي ؟ أحمد ربك يا سنشو لأنك لم تعط البركة إلا بعصا ؛ وأنت سعيد الحظ لأنهم لم يرسموا عليك علامة الصليب بسيف . »

ـ فقال سنشو : « لست في حال تسمح لي بالرد عليك ، إذ يبدو لي أني أتكلم من أكتافي . لنركب ولنبتعد من هنا . من الآن فصاعدا سأحاذر النهيق ، لأنني لن أكف عن القول بأن الفرسان الجوالة يهربون مثل سائر الناس ، ويتركون سواسهم الطيبين محطمين مطحونين كالقمح ، بين أيدي أعدائهم . » فقال دون كيخوته : « من ينسحب لا يهرب : وأنت تعلم جيدا يا سنشو أن الشجاعة التي لا يرشدها الفطنة تصبح تهورا ، وأن نجاحات المتهور يجب أن تعزى إلى الحظ ، لا إلى شجاعته : ولهذا فأنا أعترف بأنني انسحبت ، ولكني لم أهرب ، وفي هذا قد حاكيت كثيرا من الشجعان الذين قدروا أن عليهم أن يوفروا أنفسهم لمناسبات أفضل . والتواريخ مليئة بأشباه هذه الأمثلة ، ولا أذكرها لك ، لأنها لن تفيدك فتيلا ، ولامزاج عندي لروايتها » .

ركب سنشو حماره ، بمساعدة دون كيخوته ، وكلاهما وصل إلى غابة صغيرة كانت تلمح من رفع فرسخ . وبين الفينة والفينة كان سنشو ينفث أنات عميقة ، وحين كان يسأله مولاه عن السبب في هذه الشكايات المريرة كان يجيب بأنه من شوكة الظهر حتى القفا كان يشعر بألم يفقده الإحساس . فقال دون كيخوته : «لا شك في أن السبب في هذا الألم راجع إلى أن الخازوق الذي ضربوك به كان قاسيا وواسعا ، ومر على كل أكتافك ، ولهذا تؤلمك ، ولو مرت على مواضع أخرى من بدنك لآلمتك أيضا .»

فقال سنشو : الحق يا مولاي أنك تزيل بهذا شكا كبيرا ، وتشرحه لي بعبارات في غاية الوضوح . يا الله! هل كان السبب في ألمي خفيا إلى حد أن أحتاج أن تقول إنني أتألم حيث أصابتني العصا ؟ لو كنت أحس بألم في كعبي ، لكان من الحزر أن تقول لي السبب ، لكن لا حاجة بالمرء أن يكون ساحرا عظيما ليقول أني أتألم لأنني ضربت . والحق يا سيدي ومولاي أن ألم الغير لا يمسنا أبدا ، وكل يوم أكتشف شيئا فشيئا ضآلة ما علي أن أنتظره من صحبتك : لأنك إذا كنت قد تركتني في هذه المرة أضرب بالعصا ضربا مبرحا ، فمرة أخرى ومئات المرات سنعود إلى التطويحات وسائر اللطائف : هذه المرة اقتصر الأمر على أكتافي ، وفي مرة أخرى سيكون الدور على عيني . والأفضل لي ـ لكنني لست إلا همجيا ، ولن أفعل شيئا مفيدا طوال حياتي ـ أقول إن الأفضل لي أن أرجع إلى بيتي ، بالقرب من زوجتي وأولادي ، لأربيهم وأطعمهم بما يتفضل الله علي به من الرزق ، بدلا من متابعة سيادتك في طرقات ودروب ليست بالطرق السليمة ، أشرب شربا سيئاً وآكل أكلا أسوأ . إذا أراد المرء النوم ؟ آه ، اختر يا أخي السائس سبع أقدام من الأرض ، وإذا شئت أكثر من ذلك فخذ سبعا أخرى ، ثم تمدد كما تشاء على راحتك . آه! بودي أن أرى أول من اخترع الفروسية الجوالة يحترق ويتحول إلى رماد ، أو على الأقل أول من وافق على أن يكون سائسا لأولئك المغفلين الكبار الذين كانوا فرسانا جوالة في العصر الماضي! ولا أقول شيئا عن الفرسان الجوالة في هذا العصر ، إني أحترمهم ، لأنك واحد منهم ، وأعترف بأنك تعرف أكثر مما يعرف الشيطان ، في كل ما يمكن قوله والتفكير فيه .

فقال دون كيخوته : وأعترف أيضا يا سنشو أنك بينما تتكلم بغير هدى خبط عشواء ، دون أن يمنعك من ذلك أحد ، لا تشعر بأي ألم تكلم إذن يا ولدي ، ما حلا لك الكلام ، وقل كل ما يأتي على لسانك ، بشرط ألا تحس بألم فإني سأحتمل الملال الذي تحدثه وقاحاتك . وإذا كنت تريد العودة إلى زوجتك وأولادك إلى هذا الحد ، فلا قدر الله أن أريد

منعك من هذا! إن معك نقودي ، فاحسب كم من الزمن مر منذ بدء خرجتنا الثالثة ، وانظر ماذا يمكنك ويجب أن تكسبه في أشهر ، وادفع أجرتك لنفسك بنفسك .

فقال سنشو : مولاي ، حين كنت أخدم توماس[1] كرسكو ، والد حامل البكالوريا سمسون ، الذي تعرفه جيدا ، كان يعطيني دوقتين في الشهر ، إلى جانب الطعام ، لكن معك لا أعرف ماذا يمكن أن أكسب ، وإن كنت أعلم أن سائس الفارس الجوال يشقى أكثر من خادم حراث : فمهما يكن شغل وتعب هذا فإنه على الأقل حين يأتي الليل يتعشى وينام في سريره ، وهو ما لم أفعله أنا منذ أن خدمتك ، اللهم إلا المرة القصيرة التي أقمناها عند دون دييجو دي ميرانده ، والأكل الشهي الذي أكلته برغوة قزانات كمتشو ، وما شربته وأكلته ونمته عند باسيل ؛ وما عدا ذلك فقد نمت على الأرض الحصباء ، والتحفت السماء ، وتعرضت لقاسي الأنواء ، بقطعة جبن وكسر خبز عجفاء ، وشربت من ماء الجداول والنافورات التي مررنا بها أثناء الطريق .

فقال دون كيخوته : أقر بأن كل ما قلته الآن صحيح : كم يتراءى لك أن أعطيك أكثر من توماس كرسكو ؟

فقال سنشو : يتراءى لي أنه بريالين زيادة أكون موفى الأجرة : هذا فيما يتعلق بأجرة عملي ، أما فيما يتعلق بتعويضي عن الوعد الذي وعدتني به من إعطائي حكم جزيرة ، فيبدو لي من العدل أن تضيف ستة ريالات ، مما يجعل الجملة كلها ثلاثين ريالا .

فقال دون كيخوته : حسن جدا ، والآن فقد مر على بدء خرجتنا هذه خمسة وعشرون يوما ، فاحسب جيدا ماذا تستحق عنها ، تبعا للأجرة التي حددتها أنت بنفسك ، وادفع لنفسك بنفسك كما قلت لك .

فقال سنشو يا للّه! يا مولاي ، كم تخطئ في الحساب! إن الوعد بالجزيرة ينبغي أن يحسب ابتداء من اليوم الذي وعدت فيه إلى الآن .

ـ وكم من الوقت منذ أن وعدتك ؟

ـ إذا لم أكن مخطئا في الحساب فقد مر عشرون سنة إلا ثلاثة أيام ، تحت العجز والزيادة .

فضرب دون كيخوته على جبهته وأنشأ في الضحك من كل قلبه وقال : عشرون سنة! مع أننا لم نقض شهرين في كل رحلاتنا في سيرا مورينا وغيرها ، ثم تدعي يا سنشو أنني وعدتك

---

(١) رأينا في الفصل الثاني من هذا القسم الثاني من دون كيخوته أن ثربانتس يسميه بارتلمي ، لاتوماس ، لكننا رأينا من قبل أمثلة على هذا السهو من جانب ثربانتس .

بالجزيرة منذ عشرين سنة ؟ إني أرى جيدا أنك تريد استيفاء كل ما معك من أموالي في مرتباتك ؛ فإن كانت هذه هي رغبتك ، فكن راضيا ، فإني أعطيك إياها ، لكن قل لي ، يا مفسد قواعد ولوائح الفروسية الجوالة فيما يتعلق بالسواس ، وليبارك الله فيها ؛ وإني أفضل أن أكون فقيرا وبغير نقود على أن أحتفظ بسائس شرير مثلك . أين رأيت أو قد قرأت أن سائسا التحق بخدمة فارس ، بشرط أن يدفع له مشاهرة أجر خدماته ؟ أدخل ، يا قاطع طريق ؛ انفذ ، يا صعلوك ، غص في البحر المحيط لتواريخ الفروسية ، وإذا وجدت لي سائسا واحدا قال أو فكر فيما قلت ، فإني أوافق على أن تسمر في جبهتي بالمسمار ، وأن تعطيني أربع ضربات قوية . إذهب ، واستعد حطام حمارك ، وعد إلى بيتك ؛ ولا أريد منك أن تخطو بعد الآن خطوة معي . أيها الخبز المجحود ، أيتها الوعودة التي أسيء استثمارها! تتركني حين كنت مهتما بأن أوفر لك الاستقرار وأرقى بك إلى أعلى فتنال اقطاعا على الرغم من زوجتك ؛ تتركني حين كنت قد قررت قرارا راسخا قاطعا ايجابيا أن أجعلك حاكما لأحسن جزيرة في الدنيا! لقد صدقت حين قلت أن العسل لم يخلق لفم الحمار ؛ وحمارا كنت أنت ، وحمار أنت الآن وحمارا ستكون حتى آخر عمرك ، لأني أعتقد أنك ستموت قبل أن تدرك أنك لست إلا دابة . »

وبينما كا دون كيخوته ينهال هكذا بالشتائم والإهانات على سنشو المسكين ، كان هذا يحدق فيه ؛ وبعد قليل قال لمولاه ، والدموع في عينيه وبصوت مرتجف : « نعم يا سيدي . أنت على حق ، وأعترف أنه لا ينقصني لأكون حمارا كاملا غير الذيل ؛ فإن تفضلت بوضعه في ، فسأرى أنه في محله ، وأخدمك كالحمار طوال عمري . أرجوك أن تصفح عني ، وترحم شبابي . إنني أعرف القليل من الأمور ؛ وإذا كنت أتكلم كثيرا فإن هذا ضعفا أكثر منه خبثا ؛ لكن من يذنب ويكفر يكل أمره إلى الله . » ـ فقال دون كيخوته : « لقد دهشت لأنك لم تمزج بكلامك بعض الأمثلة . بودي أن أصفح عنك ، لكن بشرط أن تصلح نفسك ، ولا تظهر أبدا بمظهر النفعي المستغل . تشجع فقط ، واعتمد على وعودي التي وإن تأخر ثمرها فلن يصير مستحيلا . » ـ فقال سنشو : « سأفعل ذلك إذا استطعت ، وإن كنت محطما خامدا . »

وفي هذه اللحظة دخلوا الغابة . فتمدد دون كيخوته عند قدم شجرة دردار ، وسنشو عند قدم شجرة زان لأن هذه الأشجار ، كسائر الشجر ، لها أقدام وليس لها أيد . وكان الليل مؤلما لسنشو ، لأن الصفاء جعل كدماته محسوسة أكثر . أما دون كيخوته فإنه أمضاه في تأملاته المعتادة . ثم أغمضا جفونهما . وفي الفجر استأنفا طريقهما إلى شواطئ الابرو ، حيث جرى لهما ما سنقرؤه في الفصل التالي .

الفصل التاسع والعشرون

في المغامرة الشهيرة للسفينة المسحورة

سارا طوال يومين ، وبعدهما شاهدا أخيرا شواطئ الابرو . فخفف فيض أمواهه وصفاءها وهي تخصب في مجراها الهادئ الشواطئ الباسمة ـ تقول خفف هذا كله الهموم المستمرة التي جثمت على صدر دون كيخوته ، وحمل إلى روحه أفكارا غرامية ؛ فتذكر خصوصا المنظر الذي شاهده في كهف مونتسينوس ، وكان في أعماق قلبه يرى دائما أنه حقيقة ، وإن كان نسناس المعلم بطرس قال إن جزءا من هذا المنظر (أو الرؤية) كاذب ، وعلى الرغم من أن سنشو استمر ينظر إليه على أنه أسطورة . ولما كانا يسيران على طول النهر شاهدا سفينة صغيرة ، بغير مجاذيف ولا أجهزة مربوطة إلى جذع شجرة . فتلفت دون كيخوته في كل ناحية ، ولما لم ير أحدا ، نزل بسرعة عن فرسه ، وأمر سنشو أن ينزل هو الآخر ، وأن يربط الركوبتين في شجرة صفصاف أو حور كانت قائمة هناك . فسأله سنشو عن السبب في هذا العمل ، فأجابه : « إعلم يا سنشو أن هذه السفينة التي تراها تنتظرني ، ولا يمكن أن يكون الأمر بخلاف هذا ، وتدعوني إلى الدخول فيها وركوبها لنجدة فارس ، أو أي شخص مهم ، لا بد أنه واقع في خطر جسيم . ذلك هو العرف في كتب الفروسية ، والسحرة اعتادوا عمل هذا : فحينما يصير الفارس في مأزق شديد بحيث لا يمكن إنقاذه منه إلا بفارس آخر ، وإن كان هذا الأخير بعيدا عنه بمسافة ثلاثة آلاف فرسخ على الأقل ، فإنهم يرفعونه على سحابة أو يرسلون إليه سفينة ، وفي غمضة عين ينقلونه ، إما بالبحر أو في الهواء ، إلى حيث يحتاج إلى نجدته . وهكذا يا سنشو أكرر لك أن هذه السفينة موضوعة هناك لسبب كهذا ؛ وهذا مؤكد تأكد أن الوقت نهار الان . وقبل أن يوافي المساء أربط روثينانته والحمار معا ؛ ولنبحر على بركة الله ، والله يرشدنا ؛ ولو أراد كل الرهبان الحفاة أن يمنعوني ، فلن أتراجع عن الإبحار » .

فقال سنشو : «مولاي! أنت تريد إذن في كل خطوة أن ننساق وراء أوهامك التي يمكن أن تسمى أعمالا جنونية ؟ أما عن نفسي فإني لا أملك إلا طاعتك وأن أحني رأسي ، لأن المثل يقول : إفعل ما يأمرك به سيدك ، وتعال لتجلس معه على المائدة . لكن إبراء لضميري يجب علي أن أنبهك إلى أن هذه السفينة لا يبدو لي أنها من أملاك السحرة ، بل هي لصياد في هذا النهر ، إذ يصاد فيه أحسن شابل (صابوغة) في الدنيا .

وربط الدابتين وهو يقول هذا الكلام ، تاركا إياهما ، لشديد أسفه ، إلى حماية ورعاية السحرة . فقال له دون كيخوته لا تحزن ، فإن من يرشدنا في هذه الأماكن النائية يقدر على رعايتهما . فقال سنشو : «مولاي ، أنا لا أفهم كلمة (النائية) هذه ، ولم أسمع أحدا يقولها طول حياتي .»

فقال دون كيخوته : «نائية ، أي بعيدة ، ولكن لا عجب في أنك لا تفهمها ، فأنت لست ملزما بمعرفة اللاتينية ، مثل بعض الناس الذين يعتقدون أنهم يعرفونها ولا يدركون .» فقال سنشو : «والآن ، وقد ربطت الدابتان ، فماذا بقي علينا أن نفعله ؟» فقال دون كيخوته : «رسم علامة الصليب ، ثم رفع المرساة ، أي أن نبحر ونقطع الحبل الذي يربط السفينة» .

وفي الحال وثب في السفينة ، وتبعه سنشو ، وقطع الحبل . وبدأت السفينة تبتعد عن الشاطئ . ولما رأى سنشو أنه بعد بمقدار مترين في وسط الماء ، أخذ يرتجف ، وهو يخشى أن يهلك : لكن لا شيء كان أكثر تأثيرا في نفسه من سماعه حماره ينهق ، ورؤية روثينانته يبذل جهوداً ليفك قيده فقال له دون كيخوتة : «مولاي ، ان الحمار يئن من غيابنا ، بلغته ، وروثينانته يبذل كل ما يستطيع للانفكاك : والعدو في أثرنا . أي صديقينا العزيزين إبقيا في سلام ، والجنون الذي يبعدنا عنكما سيعيدنا حين يتنبه . ثم أنشأ في البكاء بمرارة» ، فقال له دون كيخوته غاضبا : «وماذا تعتقد أيها المخلوق الجبان ؟ لماذا تبكي ، يا شجاعة الزبدة ؟ من يطاردك ، ويلاحقك ، يا شجاعة الفأر المنزلي ؟ ماذا ينقصك أيها المحتاج ، وسط الفيض ؟ لو سمعك إنسان لظنك تصعد عاري القدمين جبال ريفيا ، بينما أنت تجلس على هذه الألواح كأنك أرشيدوق ، مسترخيا ، مسلما أمرك إلى مجرى هذا النهر العذب الذي سيجمعنا ، في لحظات قليلة ، إلى لجة البحر : لأننا قطعنا سبعمائة وثمانية فرسخ . ولو كان معي اسطرلاب ، أستطيع أن أقيس به ارتفاع القطب ، لقلت لك بالدقة كم قطعنا من مسافة : فإما أنني لا أفهم شيئا ، أو نحن قد اجتزنا فعلا خط الاستواء الذي يقوم على مسافة متساوية من كلا القطبين ، أو على الأقل سنجتازه بعد قليل» .

فسأله سنشو : وإذا تجاوزنا هذا الخط الذي تتكلم عنه ، كم من المسافة نكون قد قطعنا ؟

فقال دون كيخوته : كثيرا ، لأننا نكون قد قطعنا النصف من الثلثمائة وستين درجة التي تكون محيط الكرة الأرضية والماء ، تبعا لحساب بطليموس ، أعظم جغرافي فلكي ، إذا وصلنا إلى هذا الخط[1] .

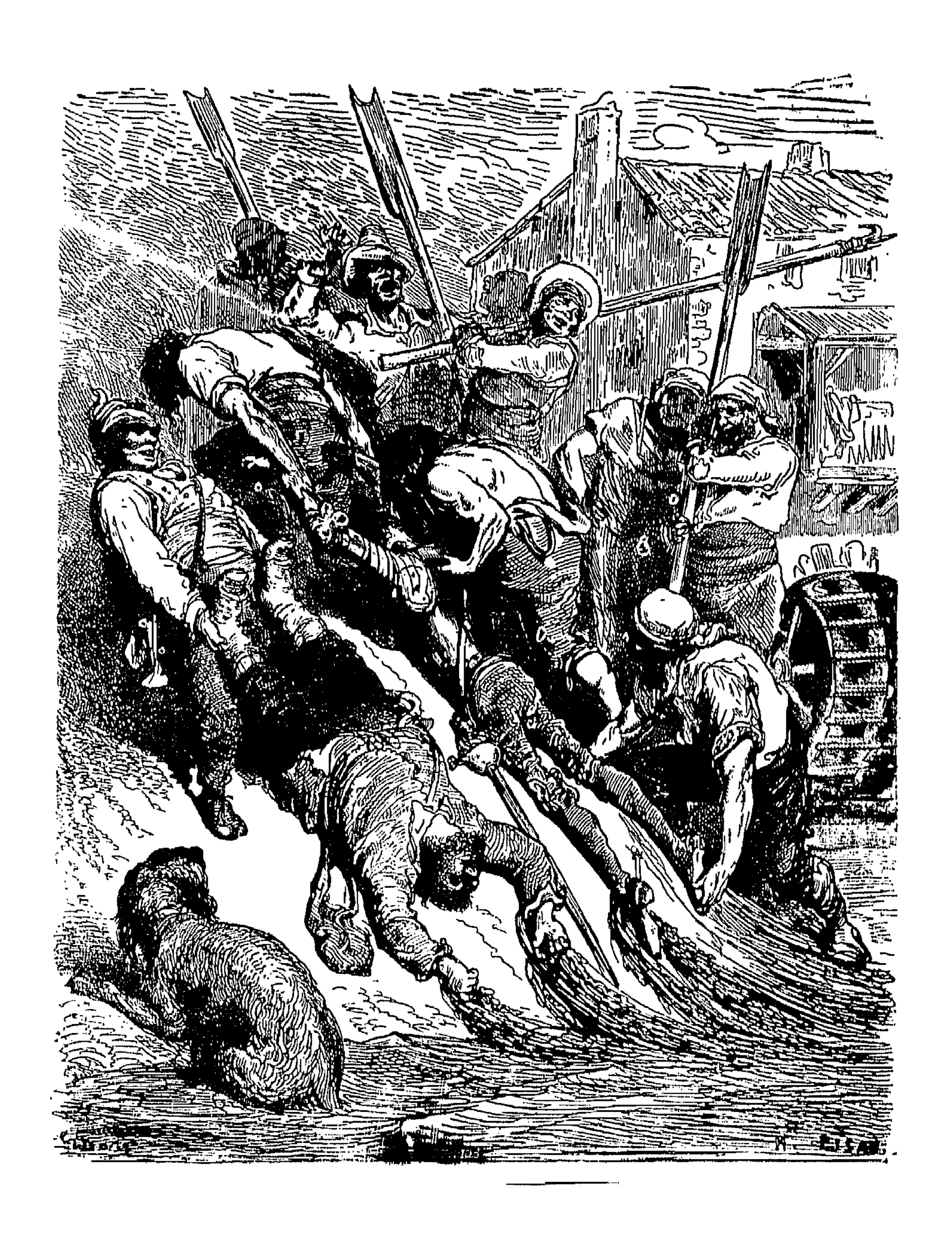
فقال سنشو : مولاي ، أنت تستشهد بشخص لطيف : أحدب ، أبرص ، مع إضافة « ميوس » أو ما لست أدري » . فأخذ دون كيخوته في الضحك من تفسير سنشو لحساب بطليموس الجغرافي الفلكي . فقال له دون كيخوته : « اسمع . من الطرق التي يستخدمها الأسبان ، واولئك يبحرون من قادس إلى الهند الشرقية للتأكد من أنهم تجاوزوا الخط الذي كلمتك عنه هو أن يُفلّوا أجسامهم ، لأنهم إذا تجاوزوه . فإن كل القمل الذي فيهم يموت ، ولا توجد قملة واحدة في السفن ، ولو وجدت لدفع ثمنها بالذهب ففتش في جسمك جيدا : فإن وجدت فيه شيئا من الأحياء ، فلن يكون ثم أي شك ، وإلا فسيكون هذا دليلا على أننا تجاوزنا ذلك الخط »

فقال سنشو : أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقول ، ومع ذلك فسأقوم بالتجربة التي أشرت بها علي ، وإن كنت لا أشعر بضرورة إلى هذا ، لأني أرى بعيني رأسي ، أننا لم نبتعد عن الشاطئ أكثر من خمسة أذرع ، ولم نبعد عن المكان الذي تركنا فيه روثينانته والحمار بأكثر من ذراعين ، وعبثا أتطلع ، وأنا أؤكد لك أننا لا نتقدم إلا بخطوات النمل .

فقال دون كيخوته : قم يا سنشو بالتجربة التي دللتك عليها ، ولا تشغل نفسك بشيء آخر ؛ فأنت لا تعرف خطوط التعامد ، وخطوط الطول ، وفلك البروج ، وخط الزوال ، والقطبين ، والانقلابين والاستواء ، والكواكب ، والبروج ، والنقط ، والقياسات التي منها تتألف الكرة السماوية والكرة الأرضية ، ولو عرفت كل هذه الأشياء ، أو جزءا منها فقط ، فسترى بوضوح كم قطعنا من خطوط الطول ، واجتزنا من بروج ، وما تركنا خلفنا من مجموعات نجمية ، كما سنترك وراءنا بعد ذلك . وأقول لك مرة أخرى : فتش في جسمك : وأنا متأكد أنك أنظف من ورقة بيضاء . » وأخيرا تحسس سنشو نفسه ، ثم رفع رأسه وتطلع في مولاه وقال له : « إما أن التجربة زائفة ، أو نحن لا نزال بعيدين عما تقول . » ـ فقال

---

(١) الواقع أن ١٨٠ درجة تصل من قطب إلى قطب ، لا من القطب إلى خط الاستواء . وعدد الدرجات ما بين ابرو وخط الاستواء ٤٠ درجة . ونهر الابرو يصب في البحر الابيض المتوسط ولكن ماذا يهم دون كيخوته من كل هذه الوقائع العلمية! المهم هو أن يصل إلى خط الاستواء بأية طريقة!



دون كيخوته وسنشو ينقذان من الغرق عند الطاحونة في مغامرة السفينة المسحورة

دون كيخوته : « كيف!! هل وجدت حشرة ؟ » ـ فأجاب سنشو : «لا حشرة واحدة ، بل حشرات عديدة .» وفي نفس هز أصابعه ، وغسل يديه في النهر .

وكانت السفينة تسير بهدوء في مجرى الماء ، دون أن يحركها أي عقل سماوي ، ولا أي ساحر ، ولا شي غير التيار الرقيق الهادئ . وفي هذه اللحظة لمحا طاحونة ماء كبيرة قائمة في وسط النهر . ولم يكد دون كيخوته يلمحها حتى صاح : «أنظر يا صاحبي ، أخيرا عثرنا على المدينة ، والقصر والحصن الذي فيه يوجد ذلك الفارس المضطهد ، وتلك الملكة ، وولية العهد هاتيك ، وتلك الأميرة البائسة ، التي دعيت أنا لنجدتهم» .

فقال سنشو : «عن شيطان أية مدينة أو قصر أو حصن تتكلم إذن يا مولاي ؟ ألا ترى أن هذه طاحونة ماء لطحن القمح ؟ » ـ فقال دون كيخوته : «اخرس يا سنشو! ما يبدو لك أنه طاحونة ليس طاحونة : ألم أقل لك أن السحرة يغيرون في طبائع الأشياء كما يريدون ؟ لا أنهم يحولونها فعلا ، ولكن في الظاهر فقط ، كما يدل على ذلك تحويل دلثنيا ، ملاذ امالي الوحيد .» ثم بدأت السفينة ، وقد صارت وسط التيار ، تسرع المسير .

وشاهدهما الطحانون وأدركوا أنها على وشك أن تدخل بين عجلات الطاحونة ، فهرعوا بعصي طويلة لوقف السفينة . ولما كانوا جميعا معفرين بالدقيق ، وملابسهم كلها بيضاء ، فقد كانت أشكالهم غريبة . وصاحوا بكل قوة : « إلى أين أنتما ذاهبان أيها الشيطانان ؟ هل أنتما يائسان تريدان الانتحار ؟ أتريدان أن تمزقكما هذه العجلات إربا إربا ؟ » ـ فقال دون كيخوته : « ألم أقل لك يا سنشو أننا وصلنا في اللحظة التي يجب علي فيها أن أظهر قوة ساعداي ؟ أنظر إلى هؤلاء الأوغاد السفلة الذين جاءوا لمهاجمتي ، وكل هذه الأشباح التي تريد أن تقاوم شجاعتي ، وهذه الأشكال القبيحة الكريهة التي تعبس فينا . انتظروني يا أوغاد! » وفي الحال وقف ، وتمدد بطوله وأخذ يهدد الطحانين . وصاح فيهم : « يا غوغاء يا ملاعين يا أشرار! أطلقوا فورا سراح الشخص ، أيا كانت صفته ، الذي تمسكون به أسيرا في قلعتكم ، في هذا السجن المظلم : لأنني أنا دون كيخوته دلا منتشا ، الملقب بفارس الأسود ، الذي قضيت له العناية الإلهية أن ينفذ هذه المغامرة» . وما قال هذه الكلمات حتى استل سيفه ، وراح يسايف في الهواء ضد الطحانين ؛ وهؤلاء دون أن يلقوا بالا لكلماته الجنونية حاولوا أن يمنعوا السفينة ، بعصيهم ، من الدخول بين العجلات . وكان سنشو راكعا يدعو السماء بتقوى أن تنجيه من هذا الخطر العظيم ، وهذا ما استطاع اجتهاد واحتيال الطحانين فعله ، فغرزوا عصيهم في السفينة واستطاعوا تحويل اتجاهها ، ولكن ذلك لم يتم بمهارة كافية ، ولهذا وتحت تأثير الصدمة سقط دون كيخوته وسنشو في الماء . ولحسن

حظ الأول كان يعرف السباحة مثل البط ، وإن كان ثقل سلاحه جعله يغوص مرتين في الماء ، ولولا نجدة الطحانين الذين نزلوا في الماء لإنقاذهما كليهما ، لكانت هذه المواضع طروادة جديدة بالنسبة إليهما .

وضعوهما على البر ، وهما في بلل وجوع قاتل . ورفع سنشو طرفه ويديه إلى السماء ، وجثا على ركبتيه ، داعيا اللّه دعاء طويلا حارا ، ليكون في المستقبل بمأمن من الأعمال الجنونية التي يقوم بها مولاه . والصيادون الذين كانوا أصحاب السفينة لما رأوهاتحطمت بعجلة الطاحونة أخذوا يجردون سنشو ، وطلبوا من دون كيخوته أن يدفع التعويض . لكن هذا لم يتأثر وكأنه لم يحدث شيء ، فأجابهم بأنه سيدفع التعويض عن طيب خاطر ، بشرط أن يطلقوا في الحال سراح الشخص أو الأشخاص الذين يعتقلونهم أسرى في قصرهم » . فسأله أحد الطحانين : عن أي شخص وأي قصر تتحدث أيها الرجل المجنون ؟ لعلك تريد أن تخطف الذي يجيئون لطحن غلالهم في الطاحونة ؟ » .

فقال دون كيخوته بين أسنانه : كفى! وإنه لمن الوعظ في البرية أن يريد المرء أن يدفع هؤلاء السوقة إلى فعل فاضل . في هذه المغامرة لا بد قد التقى ساحران قويان : أحدهما حطم ما أراد الآخر فعله ؛ أحدهما بعث إلي بالسفينة ، والآخر رمى بي بين عجلات الطاحونة . اللّه يصلح الأمور! كل ما في هذا العالم مؤلف من آلات وعناصر متضادة : ولا أملك فعل شيء في ذلك» . ثم رفع صوته ونظر ناحية الطاحونة وقال : « يا أصحابي ، أيا من أنتم ، يا من أنتم محبوسون في هذا السجن ، اصفحوا عني إذا كنت لا أستطيع ، لشقائي وشقائكم ، أن أخلصكم ؛ إن هذه المغامرة لا بد أنها مخصصة لفارس آخر » . ولما قال هذه الكلمات دعا الصيادين ، واتفق معهم على مبلغ التعويض عن الأضرار التي لحقت بالسفينة ، وقدره خمسمائة ريال ، فدفعها سنشو رغم أنفه . وقال : « برحلتين بحريتين مثل هذه ، سنغوص حتى قاع الماء ، نحن ونقودنا » .

ولم يكف الطحانون والصيادون عن التعجب من هذين الشكلين ، المختلفين عن سائر الناس ؛ ولما لم يفهموا شيئا من كل الأسئلة التي وجهها اليهم دون كيخوته ، اعتقدوا أن هذين الرجلين مجنونان ، وعادوا : البعض إلى طاحونتهم ، والبعض الآخر إلى شباكهم . وذهب دون كيخوته وسنشو لاسترداد دابتيهما ، اللتين هما أقل منهما درجة في الحيوانية .

وهكذا انتهت مغامرة السفينة المسحورة .

الفصل الثلاثون

فيما جرى لدون كيخوته مع صيادة جميلة

عاد السيد والسائس إلى دابتيهما حزينين مكسوفي البال ، خصوصا سنشو ، الذي لا يفكر إلا في النقود ، فإذا اضطر إلى إعطائها كان ذلك كما لو كانت حدقتاه تنتزعان من عينيه . ودون أن ينطقا بكلمة ركبا ، وابتعدا عن النهر الشهير . كان دون كيخوته غارقا في خواطره الغرامية ، وسنشو في مشروعاته للثراء ، الذي بدا له يزداد بعدا عن التحقيق ؛ لأنه ، وإن كان ساذجا ، فقد أدرك جيدا أن كل أعمال مولاه هي أعمال جنونية ؛ وبحث في رأسه عن الوسائل لتركه ذات يوم ، دون أن يناقشه في حساب أو يودعه ، ثم يعود إلى بيته ؛ لكن القدر قدر غير ذلك الذي قرره وصمم عليه .

وفي اليوم التالي عند مغيب الشمس ، لمح دون كيخوته وهو خارج من الغابة مرجا أخضر عند نهايته أبصر عدة أشخاص ؛ ولما اقترب منهم عرف أنهم صيادون بالبزاة ؛ فاقترب أكثر ، وميز في الجماعة سيدة جميلة ، راكبة على فرس زينة أو مهرة بيضاء كانت عدتها خضراء وقربوس سرجها من الفضة ؛ وكانت ترتدي ثوبا أخضر ، فيه من الذوق بقدر ما فيه من الفخامة ؛ وعلى قبضة يدها بازي ، مما جعل دون كيخوته يحكم أنها من طبقة عالية ، وأنها سيدة سائر الصيادين ، وكانت كذلك فعلا . فنادى سنشو وقال له : « أترى هذه السيدة الجميلة ذات البازي وفرس زينة ، أجر وقل لها إن فارس الأسود يقدم تحياته لجمالها الرائع ، وإذا سمحت عظمتها فسأذهب لتقبيل يديها وخدمتها في كل ما يطلبه سموها ، بقدر ما تسمح قواي . واحتط كل الاحتياط فيما ستقول لها يا سنشو ، ولا يخطرن ببالك أن تحشو كلامك بالأمثال » .

فقال سنشو : لقد وجدت الحاشي ؛ ولي أنا يجب أن يقال هذا الكلام ؛ ليست هذه أول مرة في حياتي أقوم بالسفارة لدى سيدات قويات عاليات المقام .

فقال دون كيخوته : إن لم يكن تلك السفارة التي قمت بها لدى السيدة دلثنيا فإني لا أعرف أنك قمت بسفارات أخرى ، أو هذا على الأقل مدى علمي .

فقال سنشو : هذا صحيح يا مولاي ، ولكن الدافع الواثق لا يخشى أن يعطي رهونا ، وفي البيت الجيد الزاد ، العشاء يكون حاضرا بسرعة ؛ أقصد أن أقول أنه لا حاجة إلى تلقيني دروسا وتنبيهات ، لأني أعرف كل شيء وأعرف القليل عن كل شيء .

فقال دون كيخوته : أعتقد هذا يا سنشو : إذهب إذن على بركة الله ، والله يهديك .

فمضى سنشو ، مسرعا في خطو حماره ، ووصل بعد قليل إلى المكان الذي كانت فيه الصيادة الجميلة . وهناك نزل عن حماره ، وثنى ركبتيه ، وقال لها : « سيدتي الجميلة! هذا الفارس الذي ترينه هنا ، والملقب بفارس الأسود ، هو مولاي ، وأنا سائسه ، الذي يسمى في بيته باسم سنشو پنثا . وفارس الأسود هذا ، الذي كان يسمى منذ مدة وجيزة باسم الفارس الحزين الطلعة ، بعثني إليك لأقول لعظمتك أنه يود أن تأذني له ، إذا شئت ووافقت ، أن يحقق رجاءه وهو ليس شيئا آخر ـ كما يقول هو وأعتقد أنا ـ غير أن يخدم بازيتك العالية وجمالك المنقطع النظير . فإن أذنت سيادتك له في هذا ، فإنك تصنعين صنيعا يفيدك ، ومولاي يناله منه حظ عظيم ورضا كبير » .

فأجابت السيدة : « نعم أيها السائس الصالح ، لقد قمت برسالتك بكل الشكليات التي تقتضيها مثل هذه السفارة . إنهض : فليس من العدل أن يظل راكعا سائس فارس عظيم مثل الفارس الحزين الطلعة ، الذي نعرفه معرفة جيدة ؛ إنهض يا عزيزي : وقل لسيدك إنه إذا شاء الحضور إلى بيت استمتاع لنا هنا قريب ، فإنه سيستقبل مني ومن الدوق زوجي خير استقبال » .

فنهض سنشو ، وكله إعجاب بجمال السيدة ورقتها وأدبها ؛ لكن أكثر ما أدهشه هو أنها تعرف مولاه ، الفارس الحزين الطلعة ، الذي لم تسمه فارس الأسود ، لأن هذا الاسم كان حديثا جدا . وقالت الدوقة التي لم يعرف اسمها[1] أبدا : « يا أخي السائس! أليس سيدك هو الذي طبع تاريخه تحت عنوان « البارع النبيل دون كيخوته دلا منتشا » ؟ أليست سيدة أفكاره تدعى دلثنيا دل توبوسو ؟ فقال سنشو : « نعم هو يا سيدتي ، والسائس المذكور ، أو يجب أن يكون مذكورا ، في هذا التاريخ ، والمسمى سنشو پنثا ، هو أنا

---

(١) يرى Pellicer أن هذا الدوق ليس متخيلا ، كما قد يعتقد ، وإنما قصد ثربانتس أن يشير إلى دون كارلوس دي بورخا ، ودونيا ماريه دي ارغون ، دوقي بلاد هرموسا . وكان قصر أو بيت استمتاعهما هذا يسمى « الطريق الحسن » Buenavia وكان موقعه بالقرب من فلابدرولا . وسيده الدوق خوان دي ارغون ، ابن عم الملك فرنندو الكاثوليكي .

بعيني . اللهم إلا أن يكونوا حولوني إلى مربية ، أقصد في الكتاب .» ـ فقالت الدوقة : «هذا يسرني كثيرا . إذهب إذن يا أخ پنثا ، وقل لسيدك على الرحب والسعة في ضياعنا ، وأنه لاشيء يسرني أكثر من حضوره عندنا » .

وبهذا الجواب الجميل عاد سنشو فرحا مسرورا إلى سيده ؛ وروى له كل ما قالته السيدة العظيمة ، مثنيا ثناء عاليا جدا ، بلغته الريفية ، على جمالها ولطفها وأدبها . فتمكن دون كيخوته على السرج ، وثبت قدميه في الركاب ، وأصلح حافة خوذته ، وهمز جانبي روثينانته ، وبانطلاقة تقدم لتقبيل يدي الدوقة ، التي كانت قد دعت في الحال زوجها الدوق ، وأبلغته السفارة . وكان كلاهما قد قرأ القسم الأول من تاريخ دون كيخوته ؛ وعرفا إذن جنونه ، وتحرقا شوقا لمعرفته شخصيا ، وانتظراه بلهفة ؛ واتفقا على أن يماشيا هواه ، ويوفقا على كل ما يقول ، ويعاملاه بوصفه فارسا جوالا ، طوال المدة التي يقضيها بينهما ، مع كل المراسم الواردة في كتب الفروسية الجوالة التي قرآها وكانا مولعين بها .

وظهر دون كيخوته في هذه اللحظة ، وحافة خوذته عالية ، ولما تهيأ للنزول من فرسه أراد سنشو أن يمسك بالركاب له ؛ لكنه كان سيء الحظ حتى أنه لما وثب من فوق حماره اشتبكت رجله في حبل البرذعة ، دون أن يستطيع التخلص ، حتى ظل معلقا ، وصدره وفمه يلمسان التراب . ودون كيخوته ، الذي لم يتعود أبدا على النزول من فرسه بدون أن يمسك أحد بركابه ، ظن أن سنشو يقوم بهذه المهمة ؛ فلما نزل أخذ معه السرج الذي لم يكن محكم الرباط ، حتى إنه سقط هو والسرج على الأرض ، والخجل الشديد يعلوه ، وهو يصب آلاف اللعنات هلى سنشو المسكين الذي ظل دائما معلقا . فأمر الدوق في الحال صياديه أن يذهبوا لإنهاض السيد والسائس . وأراد دون كيخوته ، وهو محطم من السقطة ، أن يجثو أمام سيادتيهما ، لكنهما رفضا . ونزل الدوق من فرسه ، وجاء واحتضن دون كيخوته ، قائلا له : « إني مستاء جدا ، يا سيدي الفارس الحزين الطلعة ، من الحادث الذي وقع لك في أول مرة تضع قدمك على ضياعي ؛ لكن إهمال السياس يسبب غالبا حوادث مؤسفة جدا » .

فقال دون كيخوته : إن الفضل الذي تغمرني به في هذه اللحظة ، أيها الأمير الشجاع ، يمنعني من استشعار أي ألم ؛ ولو كنت قد ألقي بي في أعماق الهاوية فإن مجد رؤيتك ينتشلني منها . وسائسي ، لعنه اللّه ، يستطيع أن يحل لسانه ليقول كلمات خبيثة خيرا من أن يستطيع ربط سرج كما ينبغي . وعلى كل حال فأيا ما كانت حالي ، على الأرض أو واقفا ، على قدمي أو فرسي ، فسأكون دائماً في خدمتك وخدمة السيدة الدوقة ، قرينتك الفاضلة ، سيدة الجمال ، والأميرة العالية للأدب الجم .

فقال الدوق : مهلا يا سيد كيخوته : حيث تكون السيدة دونيا دلثنيا ، لا يمكن الثناء على جمال آخر غير جمالها .

وسنشو ، وقد تخلص من البرذعة ، وصار بالقرب منهما ، تكلم قبل مولاه ، فقال : «لا يمكنني إنكار أن السيدة دلثنيا دل توبوسو جميلة جدا ؛ لكن الأرنب يظهر حيث لا يتوقع ؛ وقد سمعت أن ما يسمى الطبيعة هي مثل فخار يصنع أواني من الطين : فمن يصنع آنية جميلة يمكنه أن يصنع اثنتين وثلاثا ومائة ؛ وعلى هذا أقول أن السيدة الدوقة لا تقل أبدا عن مولاتي ، السيدة دلثنيا دل توبوسو .

وتلفت دون كيخوته ناحية الدوقة وقال : «سيدتي! ينبغي لسيادتك أن تعتقدي أنه لم يوجد في العالم سائس لفارس جوال ثرثار ومضحك مثل سائسي هذا ؛ وتستطيعين الحكم على هذا بسهولة إذا أذنت سموك بأن أضع خدماتي بين يديك لمدة بضعة أيام .» فقالت الدوقة : «إذا كان سنشو الطيب مضحكا ، فهذا يزيد من تقديري له ؛ وهو دليل على أنه مليح النادرة ؛ لأن اللطف والنكات الجيدة ، كما تعرف يا سيد دون كيخوته ، لا يوجد أبدا في الثقيل الروح البليد ؛ وأكرر وأقول ما دام سنشو الطيب مضحكا صاحب نوادر ، فإني أرى أنه ظريف .» ـ فأضاف دون كيخوته : «وخصوصا ثرثار جدا» . ـ فقال الدوق : «هذا حسن ، لأن كثيرا من النكات لا يمكن أن تقال في قليل من الكلمات ، لكن حتى لا نتهم ، نحن أيضا ، بأننا نضيع الوقت في الكلام ؛ تعال أيها الفارس الحزين الطلعة العظيم...» ـ فقاطعه سنشو قائلا : «ليقل سموك : فارس الأسود ، من فضلك ، لم يعد ثم حزين الطلعة ، بل فارس الأسود» . ـ فاستأنف الدوق كلامه قائلا : «تعال إذن ، أي فارس الأسود إلى قصري القريب من هنا ؛ وسنستقبلك هناك الاستقبال اللائق بشخص ممتاز مثلك ، وهو الاستقبال الذي تستقبل به ، الدوقة وأنا ، كل الفرسان الجوالة الذين يقدمون لزيارتنا» .

وأصلح سنشو سرج روثينانته وصعد عليه دون كيخوته ، وركب الدوق فرسا جميلا : وبينهما كانت الدوقة ، واتخذوا سبيلهم إلى القصر وشاءت الدوقة أن يسير سنشو بجوارهم ، لأنها كانت تلتذ كثيرا بما يبدر عنه . ولم يتأخر سنشو ، بل دخل بينهم ، وكان الرابع في الحديث ، مما التذ له الدوق والدوقة ، وقد رحبا بأن يستضيفا في قصرهما مثل هذا الفارس الجوال مثل هذا السائس .

الفصل الحادي والثلاثون

وفيه كثير من الأمور المهمة

كان فرح سنشو عظيما وقد حسب أنه كان يحظى برضا الدوقة ، لأنه أمل في أن يجد في قصرها ما وجده عند دون دييجو وفي بيت باسيل ؛ ذلك أنه كان يحب الطعام الجيد قبل كل شيء ، وفي كل مرة تسنح الفرص ؛ له للتمتع بالأكل كان يهتبلها ويتشبث بها . ويروي التاريخ أنه قبل وصولهم إلى بيت الاستمتاع ، استبق الدوق ليخبر الخدم كلهم بالطريقة التي ينبغي أن يستقبل بها دون كيخوته . فلما ظهر هذا مع الدوقة لدى باب القصر ، خرج خادمان أو قواصان يلبسان ملابس «طويلة من الساتان القرمزي ، رفعاه ، دون أن يشعر ، بين ذراعيهما ، وقالا له : «فليذهب عظمتك لمساعدة السيدة الدوقة على النزول .» فهرع دون كيخوته ليفعل هذا ؛ وقام بينهما معركة على الأدب ؛ وأخيرا انتصرت الدوقة ، ولم ترد أن تنزل إلا بين ذراعي الدوق ، قائلة إنها لا ترى نفسها جديرة بأن تعطي لمثل هذا الفارس العظيم هذا العبء غير المفيد . فكان الدوق إذن هو الذي تلقاها . ولما دخل بهوا فسيحا تقدمت آنستان جميلتان ، وألقتا على كتفي دون كيخوته معطفا كبيرا من الاكرلات الدقيق . وفي اللحظة نفسها ، امتلأت كل الدهاليز بالخدم والحشم الذين صاحوا : «مرحبا بزبدة وزهرة الفرسان الجوالة .» وفي الوقت نفسه رشوا على دون كيخوته من الماء المعطر هو والدوق والدوقة . ولاحظ دون كيخوته كل هذا الاحتفاء والمراسم وكان هذا حقا هو أول يوم في حياته يعتقد فعلا أنه فارس جوال حقيقي ، لا خيالي ، وقد رأى نفسه يعامل بالطريقة نفسها التي قرأها في كتب الفروسية أن الفرسان الجوالة كانوا يعاملون بها .

وترك سنشو حماره ، وتعلق بالدوقة ودخل القصر ؛ لكنه شعر في الحال بتأنيب الضمير من جراء تركه حماره وحده . فاقترب من دونيا محترمة ، جاءت مع وصيفات أخرى لاستقبال الدوقة ، وقال لها بصوت هامس : «يا سيدة جونثالث ، أو كما تسمى عصمتك...» فقالت :

« اسمي دونيا رودريجث دي جريخلبا ؛ ماذا تريد مني يا أخ ؟ » ـ فأجاب سنشو : « أود أن تذهب عصمتك إلى باب القصر ، وهناك ستجدين حمارا هو حماري ؛ وأرجوك أن ترسليه أو تقتاديه بنفسك إلى الاسطبل ؛ أن هذا الحمار الصغير المسكين يخاف ، ولم يتعود أن يكون وحده » . ـ فقالت الدونيا : « الحق أنه لو كان السيد عاقلا مثل الخادم ، فقد أفلحنا . إذهب إلى الشيطان ، يا أخ ، أنت ومن أتى بك إلى هنا . تكفل أنت بحمارك ، واعلم أن الدونيات (الوصيفات) في هذا القصر لم يتعودن اقتياد الحمير إلى الاسطبل » . ـ فأجاب سنشو : « إنه حينما عاد لانصلو من بريتاني ، عنيت به السيدات ، واهتمت الوصيفات بشأن فرسه ؛ وأنا لا أوافق على أن أبادل بحماري فرس السيد لانصلو . » ـ فقالت الدونيا : « يا أخ! إذا كنت مازحا فاحتفظ بمزاحك لمن يجده مسليا ، ويدفع لك الثمن ، أما مني أنا فلن تنال غير تينة . » فقال سنشو : « ناضجة على الأقل ، ما دامت تفوق بدرجة سنوات عصمتك . » ـ فصاحت الدونيا غاضبة : « يا ابن القحبة! إذا كنت عجوزا فلا حساب لي إلا مع الله على ذلك ، لا معك أنت أيها الجلف ، العتل ، آكل الثوم » . وكانت ترمي بهذه الشتائم بلهجة عالية حتى أن الدوقة سمعتها فرجعت إليها ، فلما رأتها هائجة ، وعيناها تكاد تبرزان من الرأس ، سألتها ما الخبر . فأجابت : « إن هذا المغفل ، يريد مني ، بكل قوة ، أن أذهب لوضع حماره في الاسطبل ، حماره الذي يقف على باب القصر ؛ ويذكر لي ، كقدوة سيدات ضمرن من يدعى لانصلو ، ووصيفات عنين بفرسه ، وفوق هذا كله قال إنني عجوز » . ـ فقالت الدوقة : « هذه أفظع إهانة يمكن أن توجه إلى امرأة . أسمع يا صاحبي سنشو ، أنبهك إلى أن دونيا رودريجث شابة جدا ، وتلبس هذه القبعة اتباعا للعرف ولتتناسب مع مركزها ، لا بسبب سني عمرها » . ـ فقال سنشو : لعن الله ما تبقى في عمري من سنين لو كنت قلت هذا بقصد اهانتها! أن حبي الشديد لحماري هو الذي جعلني أتوجه إليها بالرجاء ؛ واعتقدت أنني لا أستطيع أن اكله الى سيدة اكثر احسانا من السيدة رودريجث » . وحضر دون كيخوته هذا النزاع ، فقال : « يا سنشو ، هذا هو مكان استعمال مثل هذه العبارات ؟ » ـ فأجاب سنشو : « مولاي! كل إنسان يطلب ما يحتاج إليه أينما وجد ؛ وهنا تذكرت حماري ، وهنا أتكلم عنه . وإذا تذكرته في الاسطبل ، تكلمت عنه في الاسطبل » . ـ فقال الدوق : « سنشو على حق ولا ينبغي لومه ؛ لكن ليطمئن ، فإن حماره سيعامل بكل ما يريد ، وسيعنى به عناية المرء بنفسه » .

فأشاعت هذه العبارات السرور في الجميع ، فيما عدا دون كيخوته ، الذي طلب إليه أن يدخل قاعة مغطاة الجدران بالبروكار المزخرف بالذهب ؛ ونزعت ست آنسات سلاحه ،

ووقفن في خدمته ، وكلهن فهمهن الدوق ما ينبغي أن يفعلنه حتى يعتقد دون كيخوته أنه يعامل معاملة الفرسان الجوالة ؛ فبقي اذن بدون سلاح ، لابسا سراويله المحبكة ، وصدريته التي من الشاموا ، طويلا نحيلا ، جافا ، شاحبا ، وفكاه متقاربان ، يكاد يقبل نفسه ؛ وكان منظره من شأنه أن يميت الفتيات من الضحك لولا أن الدوق أوصاهن صراحة بالامتناع من أي ضحك ؛ وأردن خلع ملابسه ليضعوا قميصا ، لكنه رفض بعناد ، قائلا إن الحياء يليق بالفرسان الجوالة مثل الشجاعة ؛ ورجاهن أن يعطينه إلى سنشو ، الذي دخل معه في غرفة كان فيها سرير وثير جدا ، وهناك خلع ملابسه ولبس القميص . فلما رأى نفسه وحيدا مع سنشو قال له : «قل لي يا مغفل يا أحمق من قديم الأزل ؛ هل ترى من اللائق أن تسب امرأة محترمة مثل الدونيا ؟ أكانت تلك هي اللحظة المناسبة كي تتذكر حمارك ؛ وهل أصحاب هذا البيت قوم يتركون الدواب تئن وتتألم ، وهم الذين يستقبلون ضيوفهم بكل هذا الترحاب الفخم ؛ بحق الله يا سنشو ، لا تكشف عن خرقتك فيرى الناس أنك وغد ، جلف ، رديء المعدن . تذكر أيها الخاطئ الشقي ، أن السادة يناولون المزيد من الاحترام بقدر ما يكون خدمهم شرفاء أصلاء ، وأن من أكبر مزايا الأمراء على سائر الناس أن يكون لهم خدم حسنو المنبت طيبون مثلهم . ألا تدرك ، أيها الشقي ، ويا لشقائي بك ، أنهم إذا أدركوا أنك لست إلا وغدا كبيرا ، ومهرجا ثقيلا ، فسينظرون إلي على أنني مزيف ، وفارس مستعار ؛ لا ، لا ، يا عزيزي سنشو ، لا بد لك أن تتجنب هذه المخاطر : إن من يتعثر كمهرج وثرثار ، يسقط على الأرض من أول صدمة ، ولا يكون إلا مجرد مهرج بائس . أمسك لسانك وزن كلماتك مرتين قبل أن تدعها تخرج من فمك . وأنبهك إلى أننا وصلنا برعاية الله وقوة ساعداي» . فوعد سنشو بأن يخيط فمه ويعض لسانه كما أوصاه مولاه ، قبل أن تبدر منه كلمة طائشة ، وأضاف أنه ينبغي له ألا يخشى منه ، ولن يقول شيئا يمكن أن يكشف هويتهما .

ولبس دون كيخوته ، وأخذ حمالته وسيفه ، ووضع على كتفيه معطف الاكرلات ، وعلى رأسه قبعة من الساتان الأخضر أعطتها له الآنسات . وبهذا اللباس ذهب إلى القاعة الكبرى ، فوجد الآنسات مصطفات على صفين ، ومعهن قوارير الماء المعطر ، فصبته على يديه بكثير من الاحترام والمراسم . ثم جاء اثنا عشر خادما يسبقهم رئيس الخدم ليأخذوه إلى غرفة الطعام ، حيث كان الدوق والدوقة في انتظاره . ووضعه الخدم وسطهم ، واقتادوه بحفاوة بالغة إلى قاعة أخرى نصبت فيها مائدة أنيقة ، عليها أربعة أغطية (أدوات الأكل) فقط . وجاء الدوق والدوقة لاستقباله لدى الباب وكان بصحبتهما رجل دين وقور ، من اولئك

الذين يحكمون بيوت الأمراء ، وهم ، لأنهم لم يولدوا أمراء ، لا يمكنهم أن يعلموا الواجبات لمن هم أمراء ؛ نعم من أولئك الذين يريدون أن تقاس عظمة العظماء بحقارة عقولهم ؛ من أولئك الذين وهم يريدون أن يعملوا من يحكمونهم الاعتدال يظهرونهم بائسين مساكين ؛ هكذا لا بد كان الرجل الكهنوتي[1] الذي جاء مع الدوق لاستقبال دون كيخوته . وبعد آلاف التحيات ، جلسوا إلى المائدة ؛ وأراد الدوق أن يجلس دون كيخوته في مكان الشرف ، وعلى الرغم من تمنعات الفارس فقد اضطر للتسليم ، وجلس الكهنوتي في مواجهته والدوق والدوقة على الجانبين . وكان سنشو حاضرا ، ولم يتوقف عن الاعجاب بما عومل به مولاه من حفاوة بالغة ، ولما رأى إلحاح الدوق على دون كيخوته ليجلس في مكان الشرف ، أخذ يقول : «لو أذن سياداتكم رويت لكم حكاية وقعت في قريتنا تتعلق بالأولوية» . ولم يكد يلفظ هذه العبارة حتى خشي دون كيخوته من الخطر ، مقتنعا بأن سنشو سيقول حماقة من حماقاته ، وفطن هذا لشعور مولاه فقال : «لا تخش أبدا يا مولاي ، أن أبصق أو أقول شيئا غير مناسب ، إنني لم أنس النصائح التي أسديتها إلي منذ قليل عن الكلام الكثير أو القليل ، الحسن أو الرديء» فقال دون كيخوته : «إني لا أذكر يا سنشو ، قل ما تشاء ولكن أوجز» فقال سنشو : «إن ما أريد أن أقوله صحيح إلى حد أن سيدي دون كيخوته الحاضر هنا لن يدعني أكذب» . ـ فقال دون كيخوته : «اكذب كما تشاء يا سنشو ، فلن أمنعك منه ؛ لكن احتط لما ستقول» . ـ فقال سنشو : «لقد أخذت احتياطي ، لأن من يقرع الناقوس مكشوف كما سترون» . ـ فقال دون كيخوته : «الحق أن على عظمتكم أن تطردوا هذا المجنون ، الذي سيتفوه بآلاف الحماقات» . ـ فقالت الدوقة : «وحياة الدوق لن يبعد عني سنشو لحظة . إني أحبه جدا لأنه مسل جدا» . ـ فقال سنشو : «أعطت السماء قداستك كثيرا من الأيام المسلية ، لحسن ظنك بي ، وإن كنت لا أستحق ذلك . ولكن هاهي ذي الحكاية التي أردت حكايتها . في قريتنا دعا نبيل ذات يوم... وكان هذا النبيل غنيا جدا ممتازا ، لأنه ينحدر من آل ألموس في مدينة الكمبو ، وتزوج دونيا منثيا دي كنيونس ، بنت دون ألونثو دي مارانيون ، فارس من طريقة شنت يعقوب ، غرق في جزيرة هر دوره ، وبسببه كان هذا النزاع الكبير في قريتنا ، الذي اشترك فيه ، بحسب ما قيل لي ، سيدي دون كيخوته ، وفيه جرح توماسيو الخسيس ، ابن بلبسترو البيطار . أليس هذا كله صحيحا يا مولاي ؟ قل بحياتك حتى لا يعتقد هؤلاء السادة أنني ثرثار

(١) يرى نبريته أن هذا الهجوم موجه إلى الراهب الذي كان يغشي مجالس دون بيخار ، وعارض في أن يقبل الدوق اهداء ثربانتس القسم الأول من «دون كيخوته» إليه .

وكذاب » . ـ فقال الكهنوتي : « حتى الآن أعتقد أنك ثرثارا أكثر منك كذابا ، لكني لا أعرف بماذا أحكم عليك بحسب ما ستقول بعد » . وقال دون كيخوته : « إنك تذكر من الشهود والدلائل ما يجعلني لا أستطيع أن أوافق على أنك تقول الحقيقة . استر ، واختصر حكايتك ، لأني أرى أنك لو سرت على هذا المنوال لما فرغت قبل يومين » . فقالت الدوقة : « لا يختصرن شيئا ، من فضلك ، إذا كان يريد إرضائي ، دعه إذن يحكيها كما يعرفها ، وحتى لو لم يفرغ منها في ستة أيام ، فستكون من أمتع ما سمعت في حياتي » . ـ فتابع سنشو قائلا : « أقول إذن ، يا أصحاب السعادة أن هذا النبيل ، الذي أعرفه كما أعرف يدي لأنه لا يوجد بين بيته وبيتي مسافة مدى رمية منجنيق ، دعا يوماً حراثا فقيرا لكنه أمين » . ـ فقال رجل الدين : « عد عن هذا أخ ، وإلا فعلى هذا النحو ستقتاد حكايتك إلى آخر الدنيا » . فأجاب سنشو : « إلى نصفها على أكثر تقدير ، إن شاء الله ، هذا الحراث المسكين لما وصل إلى بيت النبيل الذي دعاه ، رحمه الله ، لأنه مات ، ويقال إن نهايته كانت نهاية ملاك : ولم أحضر ساعة الوفاة ، لأني كنت قد ذهبت لحصاد القمح في تمبليكا » . ـ فقال رجل الدين : « وحياتك يا ولدي الا عدت من تمبليكا ، وبدون أن تدفن نبيلك هذا تسير في جنازته ، أتم حكايتك » . ـ فاستمر سنشو : « ولما كان الضيفان إذن على وشك الجلوس إلى المائدة... ويبدو لي أني أراهما الان أحسن من أي وقت... » وتلذذ الدوق والدوقة كثيرا من عدم صبر رجل الدين الطيب ، لكن دون كيخوته كان يستهلك نفسه غيظا . واستأنف سنشو : « أقول إذن أنه لما كان كلاهما ، كما قلت ، على وشك الجلوس إلى المائدة ، أراد الحراث أن يجلس النبيل في مكان الشرف قطعا بينما أصر هذا على أن يجلس فيه الحراث ، قائلا له أنت صاحب البيت لكن الحراث ، وهو رجل مؤدب حسن التربية لم يوافق على ذلك ، إلى أن قام النبيل وقد عيل صبره ، فوضع يده على كتفيه وأجلسه بالقوة قائلا : « إجلس إذن ، أيها الثقيل الكبير ، ألا تعلم أنني في أي مكان جلست فسأكون دائما في موضع الشرف ؟ » هذه حكايتي ، وأنا أعتقد حقا أنها هنا في محلها تماما » .

فتغير لون دون كيخوته تغيرا شديدا ، وكأن لون الشيب صبغ بشرته النحاسية . وامتنعا الدوق والدوقة ، وقد أدركا خبث سنشو ، من الضحك حتى لا يزيدا من غضب الفارس ، وتغير الحديث ومنع سنشو من متابعة حماقاته . ـ سألت الدوقة دون كيخوته عن أنباء دلثنيا ، وهل لم يبعث إليها بهدية مؤلفة من مردة أو قطاع طريق ، لأنه لا بد قهر الكثير منهم . فأجاب دون كيخوته : « سيدتي! بلاياي كانت لها بداية ، ولكني لا أظن أن لها نهاية . ولا شك في أنني انتصرت على مردة وقطاع طرق ومجرمين وقد بعثت بهم إليها ،

لكن أنى لهم أن يجدوها بينما هي مسحورة ، تحولت إلى أقبح فلاحة يمكن تخيلها ؟ » . ـ فقال سنشو : « إني لا أعرف لكنها بدت لي أنا أجمل مخلوقة في الدنيا ، على الأقل أكثرهن خفة ونشاطا ، لأنها فيما يتصل بالقفز ، تتفوق على أعظم راقص بالحبل ، والله يا سيدتي الدوقة إنها تقفز على الحمارة مثل القطة » . ـ فقال الدوق لسنشو : « هل رأيتها مسحورة ؟ » . ـ فأجاب سنشو . : « وأي شيطان إن لم يكن أنا الذي اخترع حكاية انسحارها ؟ إنها مسحورة مثل أبي » ولما سمع رجل الدين أنهم يتكلمون عن المردة والمجرمين ، والانسحارات حزر أن هذا لا بد أن يكون دون كيخوته دلا منتشا ذلك الذي طالما قرأ الدوق تاريخه ؛ وقد لامه كثيرا على ذلك ، قائلا إنه من الجنون قراءة كل هذه الحماقات الجنونية ، وأدرك صحة حزره فقال للدوق غاضبا : « يا سيدي! إن الله سيحاسبك ذات يوم عن حماقات هذا الأبله ، هذا الدون كيخوته ، هذا الدون مغفل أو أيا كان اسمه ، لا ينبغي أن يكون من الجنون بقدر ما يود سعادتك أن يكون ، وذلك بتمكينه من فرص تنمية حماقاته » . ثم توجه بالكلام إلى دون كيخوته قائلا : « وأنت يا روح الكوز ، من ذا الذي دس في رأسك أنك فارس جوال ، وأنك هزمت مردة وحاربت قطاع طرق ؟ إمض بسلام ، هكذا ينبغي أن يقال لك : عد إلى بيتك ، رب أولادك ، لو كان عندك أولاد ، واهتم بمالك ، وكف عن التجوال في الدنيا ، تساير وفد الريح ، مثيرا الضحك في نفوس كل من يعرفونك أو لا يعرفونك . أين إذن وجدت أنه وجد ولا يزال يوجد فرسان جوالة ؟ وفي أي مكان في المنتشا أو في أسبانيا توجد مردة وقطاع طرق ، ودلثنيات مسحورة ، وكل الترهات التي تروى عنك ؟ » .

وكان دون كيخوته يستمع في صمت إلى كلام هذا الرجل الوقور . ولما رآه أتم كلامه ، نهض ، دون احترام للدوق ولا للدوقة ، وعينه تتقد غيظا ، وبصوت منفعل ، قال... لكن رده يحتاج إلى فصل خاص .

الفصل الثاني والثلاثون

في رد دون كيخوته على لائمه، وحوادث أخرى جادة ولذيذة

نهض دون كيخوته إذن وهو يرتعد غضبا ورد بصوت متغير :

ـ إن المكان الذي أجدني فيه ، وحضور أصحاب البيت ، والاحترام الذي أكنه دائما للأشخاص الذين من مهنتك تمنع غضبتي العادلة : كل إنسان يعرف ، أن أصحاب مهنتك ليس لهم سلاح غير سلاح المرأة ، ألا وهو اللسان . وسأخوض معك إذن ، بالسلاح نفسه : في معركة ، معك أنت الذي كنت أنتظر منه أن يسدي نصائح مفيدة لا توبيخات مهينة . والتوبيخات التقية الحسنة النية تقتضي مناسبات أخرى وتتطلب عناية من نوع آخر : لأن توبيخي علنا بكل هذه الحدة ، هو خروج على حدود المحبة المسيحية التي تعامل دائما برفق ، لا بشدة وقسوة . وإلا فقل لي هل من الإحسان ، دون أن تعرف الخطيئة التي يتهم بها المرء ، أن تدعو هذا الخاطئ مجنونا ، فاقد العقل ؟ أي جنون لاحظته علي ، يسمح لك بإدانتي ، وإهانتي ، وأمري بالعودة إلى بيتي لأديره ، وأهتم بزوجتي وأولادي ، وأنت لا تعرف هل أنا متزوج ، هل عندي أسرة ؟ هل يكفي المرء إذن أن يتدخل خبط عشواء في بيت الغير ليتحكم في أربابه ، ويعيش فترة في نطاق خانقاه ضيقة ، دون أن يكون قد رأى في حياته إلى أبعد من مسافة عشرين أو ثلاثين فرسخا من البلد ، ليتدخل في إعطاء قوانين للفروسية ويحكم على الفرسان الجوالة ؟ هل هي مغامرة لا فائدة فيها وزمن يضيع هباء أن يتجول المرء في العالم تاركا الملذات ، غير ساع إلا إلى المشاق التي يرتفع بها أهل الخير إلى مرتبة الخلود ؟ إذا كان الأماثل ، والعريقو الأنساب ، والكرماء والأكابر قد وضعوني مرتبة المجانين ، لحسبت هذه إهانة لا تمحى ، لكن أن يقول هذا عني متحذلقون لم يسلكوا أبدا مسالك الفروسية ، فهذا أمر لا أحفل به بل أجعله دبر أذني وتحت قدمي ولا يساوي فلسا واحدا : فارس أنا ، وفارسا سأموت لما يريد الله العلي القدير . البعض

يسلكون بيداء الطموح المستكبر والبعض الآخر يتخذون سبيل التملق الوضيع الحقير ، وهؤلاد الأخيرون يتقنعون بقناع الرياء الخادع ، واولئك الأولون يسلكون الصراط المستقيم للدين الحق . أما عن نفسي ، مهتديا بنجمي فإني أسير في الطريق الضيق للفروسية الجوالة ، التي تعلمني كيف أحتقر المال لا الشرف ، لقد أصلحت مظالم ، وانتقمت من إهانات وعاقبت وقاحات ، وقهرت مردة وأخضعت أشباحا ،أنا عاشق ، هذا صحيح ، لأنه يجب على كل فارس أن يكون عاشقا ؛ لكني لست من اولئك العشاق الفاسدين ؛ فأنا أحب حبا أفلاطونيا عفيفا ، وكل مقاصدي تتوجه إلى غاية حسنة ، هي فعل الخير للجميع ، وعدم إيذاء أحد ، فإن كان من يدين بهذه المبادئ ويمارسها عمليا ، ولا ينحرف عنها ، يستحق أن يدعى مجنونا ، فإني أضع الأمر بين يدي سعادتيكما أي سيدي الدوق وسيدتي الدوقة .

فقال سنشو : أحسنت ، أحسنت جدا ، أستحلفك بالله لا تضف كلمة إلى دفاعك : فلا مزيد عليه لقائل ولا لمنكر ، ولا عليك إلا أن تثابر وما دام هذا السيد قال : إنه لا يوجد ولم يوجد أبدا فرسان جوالة ، فليس بعجب ألا يعرف ما يريد أن يقول .

فقال رجل الدين : يا أخ ألا تكون ذلك السنشو پنثا الذي يتحدث عنه ، والذي وعدك مولاك بجزيرة ؟

فأجاب سنشو : نعم ، أنا هو وحقا إني أستحقها كغيري . ضع نفسك مع الأخيار تصبح خيرا . وأنا من هؤلاء . وقل لي مع من ترعى لا مع من تولد ، من يستند إلى شجرة حسنة ينعم بظل حسن . وأنا أستند إلى سيد حسن ، وأرافقه منذ وقت طويل ، وينبغي أن أصير صورة أخرى منه ، إذا أذن الله . يحيا هو! يحيا أنا! إنه لن يخلو من امبراطورية يحكمها ؟ ولا أنا من جزر أحكمها . ـ فقال الدوق : « لا ، يا صاحبي سنشو ، فتكريما للسيد دون كيخوته أنا أمنحك ، منذ الآن حكومة جزيرة أملكها وليست بضئيلة القيمة » . ـ فقال دون كيخوته : سنشو ، إذهب وأجث أمام سعادة الدوق ، وقبل قدميه شكرا له على ما منحك من فضل ونعمة » .

وهرع سنشو لتنفيذ هذا الأمر . ولما رأى رجل الدين هذا الموقف قام من عند المائدة ، غاضبا ، وقال للدوق : « بحق الزي الذي أرتديه أقرر أن سعادتك مجنون مثل هذين الخاطئين التعسين . وكيف لا يكونان كذلك وهما يريان العقلاء يكرسون حماقاتهم ؟ لتبقى سعادتك معهما : أما أنا ، فطالما بقيا هنا ، سأبقى في بيتي ، وسأبرئ ذمتي من تثريب ما لا أملك له دفعا » . ولما أتم هذه الكلمات ترك المائدة وخرج ، ورغم دعوة الدوق له بالبقاء ، وإن لم يلح عليه كثيرا ، لأنه لم يملك نفسه من الضحك على غضبته غير المناسبة .

ثم استعاد الدوق جده ، وقال لدون كيخوته : «سيادتك ، أيها السيد فارس الأسود ، قد رددت ردا مفحما بحيث لا يمكن أن يلتمس في كلامك شيء يبدو إهانة ، وحقا ليس فيه شيء من ذلك . فكما تعرف خيرا مني شتائم رجال لا تهين ، شأنها شأن شتائم النساء» .

فقال دون كيخوته : هذا صحيح ، والسبب في هذا أن من لا يمكن أن يهان لا يمكن أن يهين : والنساء ، والأطفال ، ورجال الدين لما كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الإهانات ، فإنه ينتج عن هذا أنهم لا يمكن أن تنالهم إهانة بالمعنى الدقيق ، وأنت تعرف أن هناك فارقا بين السب والإهانة ، وهو أن الإهانة تصدر عمن يملك فعلها ويفعلها ، ويؤيدها أما السب فيمكن أن يصدر عن أي إنسان كائنا من كان ، بدون إهانة . وهاك مثالا : رجل في الشارع لا يخطر بباله شيء ، ثم يفاجأ بعشرة رجال مسلحين يضربونه بالعصى ، فيمسك سيفه ويقوم بواجبه ، لكن التفوق العددي يمنعه من الانتقام . هذا الرجل سب ، ولكنه لم يتلق إهانة . ومثلا آخر . رجل يمشي ، ثم يأتي خلفه رجل آخر ، ويضربه بالعصا ويهرب . فيطارده الأول ولا يستطيع اللحاق به . هذا تلقى سبا لا إهانة لأن الإهانة ينبغي تأييدها وسندها . ولو أن من ضرب بالعصا وإن كان من الخلف ، أمسك بسيفه وواجه عدوه ، فإن المضروب يكون قد تلقى سبا وإهانة معا . سبا لأنه ضرب غدرا وإهانة لأن الآخر أيد بثبات ما ارتكبه من غير أن يحني كتفيه . وهكذا ، فإنه تبعا لقوانين المبارزة الملعنة ، ربما كنت قد سببت ، ولكنني لم أتلقّ إهانة لأن الأطفال والنساء لا يشعرون أبدا بالسب ، إذا كانوا لا يستطيعون الفرار وليس لديهم أي سبب للإنتظار . والأمر كذلك فيما يتعلق بالأشخاص المكرسين لديننا المقدس . فهذه الطبقات الثلاث من الأشخاص ليس لديها أسلحة هجومية ولا دفاعية ، ومع أنهم ملزمون طبعا بالدفاع عن أنفسهم فإنهم ليسوا ملزمين بسبب أحد . وهكذا ، فعلى الرغم من قول أنني ربما سببت فإني أقرر الآن أنني لم أسب ، لأن من لا يقدر على تلقي إهانة لا يمكن أن يفعلها . ولهذا فإنه ينبغي علي ألا أتذكر ، وأن أنسى كل ما قاله هذا المغفل . لكني كنت أود أن ينتظر قليلا ، حتى أنتشله من الخطأ الذي تردى فيه حين ظن أنه لا يوجد ولم يوجد فرسان جوالة . ولو أن أماديس ، أو أحد أبناء أسرته العديدة ، سمع كلامه ، لما خرج سالما .

فقال سنشو : وأنا أقسم ، أنا ، أنهم كانوا سيضربونه بالسيف ضربة تفلق هامته كالرمانة أو الشمامة الناضجة . لقد كانوا قوما لا يحتملون مثل هذه النغزات! وبحق علامة الصليب ، أؤكد أنه لو كان رينو دي مونتلبان سمع أقوال هذا الطرق الصغير من رجل ، لكان

قد أغلق فمه بحيث لا يتكلم لمدة ثلا ث سنوات ، عليه فقط أن يلقاهم ، وسيرى كيف يفلت من بين أيديهم » .

واختنقت الدوقة من الضحك وهي تسمع سنشو يتكلم ؛ وكان في نظرها أكثر جنونا وإضحاكا من سيده ، وفي ذلك العهد كان الكثيرون على هذا الرأي .

وأخيرا هدأ دون كيخوته وانتهى الطعام . ورفع المفرش ودخلت أربع أوانس إحداهن تحمل حوضا من الفضة ، والثانية تحمل إبريقا من نفس المعدن ، والثالثة تحمل فوطتين في غاية الرقة ، والرابعة كان ذراعاها عاريتين حتى المرفق ، وتحمل في يدها البيضاوين (لأنهما كانا بيضاوين دون شك) كرة من الصابون النابوليتاني . والتي كانت تحمل الحوض وضعته تحت ذقن دون كيخوته ، الذي مد رقبته دون أن يقول شيئا ، مدهوشا من هذا الاحتفاء والمراسم ، لكنه اعتقد أنه في هذا البلد اعتاد الناس أن يغسلوا اللحية بدلا من الأيدي وفي الحال أخذ ماء الإبريق يؤدي دوره ، والتي كانت تحمل الصابون أخذت تنظف بالصابون ليس فقط اللحية ، بل وكل وجه الفارس المطيع الذي اضطر إلى إغماض عينيه لتجنب الرغوة البيضاء التي غمر بها . والدوق والدوقة ، اللذان لم يعرفا شيئا عن هذا الأمر انتظرا بصبر نهاية هذا المغسل الغريب . وبعد أن وضع على وجهه سمك قدم من الرغوة ، تظاهرت الآنسة التي كانت تضع الصابون على دون كيخوته أن الماء نفذ ، وأرسلت الآنسة حاملة الإبريق لإحضار ماء ، ورجت السيد دون كيخوته أن يتفضل بالانتظار . فبقي هذا بأغرب وجه يمكن تصوره وعيناه مغلقتان ، وفمه مملوء بالصابون ، وهو يمد رقبته بطول ذراع ولونها أسود كثيرا . وحاول الحاضرون وكان عددهم كبيرا ، أن يكتموا الضحك فلم يفلحوا . والأوانس اللواتي دبرن هذه المزحة كن يغضضن من أبصارهن ، دون أن يتجاسرن على النظر إلى سيدتهن وسيدهن اللذين توزعهما الغضب والرغبة في الضحك ، فلم يعرفا هل ينبغي عليهما أن يعاقبا وقاحتهن ، أو يكافئاهن على المتعة التي جلبتها . وأخيرا عادت الآنسة حاملة الإبريق ، وفرغ من غسل دون كيخوته ثم مسحت لحيته بعناية ، وأرادت الأوانس الأربع أن ينسحبن وهن يحيينه تحية عميقة ، لكن الدوق ـ حتى لا يفطن دون كيخوته للمزحة ـ أمرهن بأن يغسلن له لحيته هو الاخر موصيا خصوصا بألا ينفد الماء . ففهمت الفتيات الماكرات اللطيفات ، غرض سيدهن . فقدمن إليه الحوض مثلما فعلن مع دون كيخوته ، وغسلنه ، ووضعن على وجهه الصابون ، ثم جففنه وانسحبن وهن ينحنين إنحناءة عميقة . وقد قال بعد ذلك أنه لو لم يطعنه ويغسلنه كما فعلن مع دون كيخوته ، لدفع كل ظن مزاح ، لعاقب وقاحتهن .

وتأمل سنشو كل هذه المراسم ، وقال بصوت هامس :« الله يحفظني أيكون العرف هنا أيضا يقضي بتصبين لحية السواس مثل لحية الفرسان ؟ إني إلى هذا لفي أشد الحاجة ، وحتى لو أعطوني موسى لأسدوا إلي خدمة جلى » .

فسألته الدوقة : بماذا تتمتم بين أسنانك يا سنشو ؟ فقال سنشو : أقول يا سيدتي ، إنه في بلاطات السادة الآخرين سمعت أنه حين ترفع المائدة تغسل الأيدي لا اللحية . لكن من يعش طويلا يرَ كثيرا ، وإن كان يقال أيضا أن الذي تطول حياته يطول عذابه ، لكن مثل هذا الغسل لذة وليس عذابا .

فقالت : لا تتعذب يا عزيزي سنشو ، فسأجعل أوانسي يغسلنك ، بل وينظفنك إذا احتاج الأمر .

فأجاب سنشو : يكفيني الان غسل ذقني ومرة أخرى الله يرى ما أحتاج إليه .

فقالت الدوقة : يا رئيس الخدم ، إفعل حرفيا ما قاله هذا الرجل الطيب سنشو .

وأجاب رئيس الخدم بأن سنشو سيلقى ما يرضاه وذهب ليأكل ومعه السائس . وبقي الدوق مع دون كيخوته ، يتحدثون مختلف الأحاديث لكنها تدور كلها حول مهنة السلاح أو الفروسية .

رجت الدوقة دون كيخوته أن يرسم ويصف لها جمال وصفات دلثنيا لأن ذاكرته قوية ، وأضافت قائلة : « لأنها بحسب ما ذاع عنها أجمل مخلوقة في إقليم المنتشا ، بل وفي العالم كله . ولدى هذا السؤال تنهد دون كيخوته تنهيدة كبيرة وقال : «سيدتي ، لو كان في وسعي أن أنتزع قلبي ، وأن أعرضه أمام عينيك ، هنا فوق هذه المنضدة ، وفي صحن لأعفيت لساني من مؤونة وصف ما لا يكاد يتصور ، لأنك سترينها مرسومة على الطبيعة في هذا القلب العاشق ، ولكن محاولة أن أرسم لك ، قسمة بقسمة ، وأن أصف نقطة فنقطة ، جمال دلثنيا المنقطعة النظير ـ مهمة فوق قواي ، وعمل خليق بأن يشغل فرشاوات فرهسيوس ، وتيمنثوس أو أفلس[1] ، وأزميل لوسينوس [2] ، لرسم مفاتنها على التيل ، وفي المرمر وعلى البرنز ، ولا بد من كل الفصاحة الششرونية والديموسثينيسية » . فقالت الدوقة : «الديموسثينيسية ؟ ما هذه الكلمة ؟ لم أسمعها في

---

(١) هؤلاء الثلاثة رسامون يونانيون . وأولهما عاش حوالي سنة ٤٢٠ ق .م ، ومن بين رسومه المشهورة لوحة رمزية تمثل شعب أثينا ، وملياجر واطلنط . والثاني كان معاصرا ومنافسا للأول ، واشتهرت له لوحة « قوقلوف النائم » ، و «تضحية ايفجنيا » . والثالث ازدهر حوالي سنة ٣٣٢ وعاش في بلاط الاسكندر المقدوني .

(٢) نحات يوناني ، ازدهر حوالي سنة ٣٥٠ ق مم ، ومن أشهر قطعه ـ وقد ضاعت كلها ـ تمثال لسقراط ، وآخر لهرقل ، وثالث «للصدفة» . وقد نسب فنكلمن إليه تمثال اللاووكون الشهير .

حياتي» فأجاب دون كيخوته : «الديموسثينيسية مثل أن تقول : المنسوبة الى ديموثينيس ، كما أن الفصاحة الشيشرونية هي المنسوبة الى شيشرون وهما كانا أعظم خطيبين عرفا في التاريخ» . فقال الدوق : «نعم لا شك أين كان عقلك حتى تسألي هذا السؤال ؟ على أن السيد دون كيخوته يهبنا فضلا عظيماً لو رسم لنا دلثنياه ، ولو مجرد تخطيط ، وأنا واثق أنها ستثير حسد أجمل النساء» .

فقال دون كيخوته : « كان بودي أن أجيبكما إلى ما تطلبانه لو لم يكن خيالي لا يزال يهتز من البلية التي أصابتها ، بحيث ينبغي علي بالأحرى أن أرثي لها لا أن أصفها وأرسمها . وسيعلم سعادتكما أنني كنت ذاهبا في الأيام الماضية لأقبل يديها وأسألها أن تبارك علي وأودعها وأنا خارج هذه الخرجة الثالثة ، ولكني وجدتها غير ما توقعتها : لقد سحرت وحولت من أميرة إلى فلاحة ، من جميلة إلى قبيحة ، من ملاك إلى شيطان من رقيقة إلى ملعونة ، من مهذبة إلى جلفة ، من متواضعة إلى وقحة من نور إلى ظلمة ، والخلاصة من دلثنيا دل توبوسو إلى فلاحة من سياجو[1]» .

فصاح الدوق : يا إلهي! من ذا الذي تجاسر على ارتكاب هذه الجريمة النكراء ؟ ومن ذا الذي استطاع أن يحرمها من هذا الجمال الذي سحر العالم أجمع ، ومن هذا اللطف الذي أسر كل القلوب ، ومن تلك الأمانة التي جعلتها موضوع احترام بالغ ؟

فأجاب دون كيخوته : ومن عسى أن يكون غير واحد من أولئك السحرة الخبثاء الذين يضطهدونني ؟ ذلك الجنس اللعين ، الذي خلق لتحطيم وتشويه كل الفعال العظيمة التي يقوم بها أهل الخير ابتغاء إيضاح وحماية جرائم الأشرار ـ هذا الجنس اللعين اضطهدني ، ولا يزال يضطهدني وسيضطهدونني إلى أن يلقى في هوة النسيان أعمالي الفروسية النبيلة العظيمة ، وهو يضربني في أشد المواضع حساسية ، لأن انتزاع سيدة فارس جوال منه ، معناه انتزاع عينيه اللذين يبصر بهما ، والشمس التي يستضيء بها ، والغذاء الذي يعيش منه : ولقد قلت مرارا ، وأعود فأكرر ، إن الفارس الجوال بدون سيدته هو كالشجرة بغير أوراق والبناء بغير اسمنت ، والظل بغير الجسم الذي يحدثه .

فقالت الدوقة : لا شك في هذا ، ومع ذلك فإذا كان للمرء أن يصدق تاريخ السيد دون كيخوته ، الذي نشر منذ قليل وأعجب به الناس جميعا فينبغي أن نستنتج ، إن صحت

---

(١) سياجو : منطقة بين سموره وثيودار ودريجو ، ويسكنها قوم غلاظ جفاة لهم لغة وزي خاصان .

ذاكرتي ، إنك لم تر أبدا السيدة دلثنيا ، وأنها ليست شخصية حقيقية ، بل كائن خيالي خلقته في خيالك ، ورسمته بكل المفاتن الممكنة .

فأجاب دون كيخوته : في هذه المسألة كلام كثير ؛ والله وحده يعلم هل توجد دلثنيا أو لا توجد أية دلثنيا ، هل هي حقيقية أو خيالية ؛ فهذا ليس من الأمور التي ينبغي التعمق فيها تماما ؛ ولست أنا الذي خلقت سيدتي ؛ إني أتصورها مزودة بكل الصفات التي يمكن أن تتميز بها على سائر النساء : جميلة بغير عيب ، محترمة بغير كبرياء ، حساسة ولكنها شريفة ، محبوبة لأدبها الجم ، حسنة التنشئة ، رفيعة الأصل ، لأن الجمال يضفي نورا أقوى على النسوة اللواتي انحدرن من دم عظيم المقام منه على أولئك اللواتي من أصل وضيع .

فقال الدوق : أنت على حق ، من غير شك ؛ ولكنك تأذن لي ، مع ذلك ، أن ألاحظ ، بحسب تاريخ أعمالك الجليلة الذي قرأته ، أنه يمكن استنتاج أنه توجد من غير شك دلثنيا في توبوسو أو في غيرها من البلاد ، وأنها جميلة كما تصورها ، ولكن فيما يتعلق بالمولد والأصل فإنها لا تقترب أبدا من أوريانه ، وألستراخاه ، ومدسمه[1] ونساء أخريات من المرتبة نفسها ، تحفل بها الكتب التي تعرفها .

فقال دون كيخوته : عن هذا أجيب فأقول أن دلثنيا بنت أفعالها ، وأن الفضائل تهب النبالة ، وأنه ينبغي أن نقدر المتواضع الأصل لكنه فاضل أكثر من الرفيع المرتبة لكنه شرير ؛ ودلثنيا تجمع صفات يمكن أن تجعلها سيدة على مملكة كبيرة ، وفضل المرأة الجميلة المتحلية بالفضائل يفعل الكثير من المعجزات الكبيرة ، ومن حيث[2] الإمكان ، إن لم يكن من حيث الشكل ، يمكن فضلها أن يكون مبدءا لعظيم المال .

فقالت الدوقة : حقا يا سيد دون كيخوته ، أنت تسلك في كل شيء باحتياط ولباقة وبقدمين من الرصاص ، وكما يقال : والمسبار في يدك ؛ ومن الآن فصاعدا سأعتقد اعتقادا راسخا ، وسأبذل جهدي لأقنع كل رجالي ، بل والدوق سيدي ؛ إذا اقتضى الأمر بأنه توجد دلثنيا دل توبوسو ، وأنها حية فعلا ، وأنها جميلة ، من أصل كريم وتستحق أن يخدمها فارس مثل السيد دون كيخوته ، وهو أعظم شرف يمكن أن يطمح إليه إنسان . ومع ذلك فلا أستطيع أن أمنع نفسي من بعض الظنة والحنق على سنشو پنثا ؛ فإن التاريخ الذي ذكرته يروي أنه حين أرسلت سنشو إلى دلثنيا يحمل إليها رسالتك ، وجدها

---

(١) سيدات في روايات الفروسية .

(٢) محاكاة للغة الاسكلائيين « فلاسفة العصور الوسطى المسيحية » . ويقصد أنه وإن كانت دلثنيا لا تملك « شكل » أو « صورة » فضائل وصفات عظيمة ، فإن عندها « الإمكان » « بالقوة » لأن تصبح ذات فضائل وصفات عظيمة .

تغربل زكيبة من القمح ، وأن هذا القمح كان أسود ، مما يجعلني أشك في نبالة عنصرها .

فأجاب دون كيخوته : سيدتي! عظمتك تعلم حق العلم أن كل ما يصيبني يخرج عن الطابع المعتاد لمغامرات سائر الفرسان الجوالة ؛ وهذا الفارق ناشئ إما عن قدر لا يدرك كنهه ، أو خبث ساحر غيور ، ومن المحقق أنه بين أشهر الفرسان ، البعض عندهم القدرة على ألا يمكن سحرهم والبعض الآخر لحمهم قد بحيث لا يمكن النفوذ فيه ولهذا لا يمكن أن يخرجوا ، مثل أورلندو الشهير ، أحد أكفاء فرنسا الإثني عشر الذي يروى عنه أنه لا يمكن أن يجرح إلا في باطن قدمه اليسرى ، وفقط بدبوس ضخم ؛ ولهذا فإنه حين قتله برنردو دل كربيو في رونصفال ، كان قد أدرك أنه لا يستطيع جرحه بسلاح ، فرفعه بين يديه وخنقه ، متذكرا كيف قتل هرقل أنتيوس هذا المارد الشرس الذي قيل إنه ابن الأرض . وأستنتج أنا من كل هذا أني في وسعي الحصول على بعض هذه الفضائل ، لا ميزة أن أكون غير قابل لأن أجرح ، لأني لاحظت مرارا عديدة أن لحمي رقيق وليس غير قابل للنفوذ فيه ، ولا ميزة ألا أنسحر ، لأني رأيت نفسي موضوعا في قفص ، وهو أمر لولا الانسحار ما كانت كل قوى العالم قادرة على فعله أعني حبسي في قفص ، لكني تخلصت منه ، وهو ما يجعلني أعتقد أنه ليس علي أن أخاف بعد الآن من السحرة ، وهؤلاء حين يرون أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ضدي ، فإنهم ينتقمون من أعز ما لدي ، ويسعون لهلاكي بالإساءة إلى دلثنيا التي من أجلها وحدها أحيا . وأعتقد إذن أنه حين ذهب سانشو يحمل رسالتي إلى دلثنيا حولها السحرة إلى فلاحة ، مشغولة بأعمال حقيرة مثل غربلة القمح ، لكني قلت من قبل أن هذا الحب ليس قمحا ولا شعيرا ، بل حبات من اللآلئ الشرقية . والدليل على هذه الحقيقة أنني حين ذهبت مؤخرا الى توبوسو لم أستطع مطلقا العثور على قصر دلثنيا . وفي الغداة شاهدها سانشو بشكلها الطبيعي أعني أجمل امرأة في الدنيا ، بينما بدت لي ، أنا فلاحة قبيحة ، غليظة وقحة اللسان ، مع أنها الحكمة عينها . ولما كنت غير مسحور ولا يمكن أن يسحرني أحد بعد ، كما قلت منذ قليل ، فهي إذن المسحورة ، والمهانة والمتحولة ، والمتغيرة والمتبدلة مرات ومرات . وفي شخصها انتقم أعدائي ومن أجلها سأعيش في بكاء دائم حتى أراها قد عادت إلى حالتها الأولى ؛ ولهذا ينبغي ألا يهتم المرء بما يقوله سنشو من أنه رآها تنخل وتغربل ؛ لأنه إذا كان السحرة قد غيروها علي أنا ، فلا عجب في أن يغيروها عليه هو أيضا . إن دلثنيا من أصل حسن ، ونبيلة ، وتنحدر من أسرة نبيلة في توبوسو ، حيث يوجد أسر عريقة كثيرة ، أبناؤها من أهل الخير ؛ وهي لا شك تشارك في مزاياها ، لأن مكان مولدها

سيصبح مشهورا إلى الأبد في القرون المقبلة ، كما كانت طروادة بفضل هيلانه الجميلة ، ووطننا أسبانيا بفضل «القحبة»[1] ، ولأسباب أوجه . ومن ناحية أخرى أود أن ألفت انتباهكم يا أصحاب السيادة إلى أن سنشو من أضحك السواس الذين خدموا فارسا جوالا ؛ وعنده أحيانا من السذاجات اللطيفة التي لا يدري المرء معها هل هي لطافة أو سذاجة ؛ وفيه خبث يجعل المرء يعتقد أنه شرير ، وسذاجة تجعل المرء يعده أبله مغفلا ؛ إنه يشك في كل شيء ، ويعتقد كل شيء ؛ وحين أحسب أنه تعثر في حماقة ما ، أجده بعد ذلك يتخلص منها وبحكمة ترفعه إلى السحاب ؛ والخلاصة أنني لن أستبدل به سائسا آخر ، ولا في مقابل مدينة بأكملها . ولكني مع ذلك في ريب أود أن أعرف هل من الحكمة منحه حكم جزيرة كما تريد يا صاحب العظمة ، وإن كنت قد لاحظت فيه بعض الاستعداد للحكم والادارة ، مما يجعلني أظن أنه إذا أرهف عقله قليلا أمكنه القيام بالحكم ، مثل ملك فيما يتعلق بضرائب الملح ؛ ثم إن التجربة برهنت لنا على أنه لا يجب الكثير من المهارة ، ولا الكثير من التعليم من أجل الحكم ؛ فإنا نشاهد بالمئات من لا يكادون يعرفون القراءة ، ويحكمون مثل النسور . المهم هو أن تكون مقاصدهم حسنة ، لأنهم لن يعدموا أبدا أناسا يبينون لهم ما عليهم أن يفعلوه ، كما يقع للحكام النبلاء غير المتعلمين ، الذي يحكمون في القضايا مع قاض . أما أنا فأنصحه خصوصا بألا يرتكب أية مظالم ، مع محافظته على حقوقه ؛ وسأضيف ، حين يئين الأوان ، بعض النصائح الأخرى لفائدة سنشو وتمام سعادة جزيرته .

وهكذا جرى الحديث بين الدوق والدوقة ودون كيخوته ، حين سمعوا صيحات وضجة هائلة في القصر . وفي اللحظة نفسها دخل سنشو القاعة ، في فزع شديد ، وفي رقبته خرقة على شكل مبصقة ، ويتلوه كثير من الخدم ومساعديهم ؛ وكان أحدهم يحمل علبة مملوءة بالماء الذي يستدل من قذارته ولونه أنه استخدم في غسل الأواني ؛ ولاحق سنشو ، وهو يريد أن يضع لحيته في هذا الماء ، بينما حاول شخص آخر أن يغسل وجهه . فقالت الدوقة : «ما هذا ؟ ماذا تفعلون ، وماذا تريدون من هذا الرجل الطيب ؟ ألا تتذكرون أنه قد عين حاكما ؟» ـ فقال من تظاهر بمهنة الحلاق : «سيدتي ، إنه لا يريد أن نغسله ، كما هو العرف ، وكما غسلنا الدوق ومولاه (دون كيخوته)» . ـ فأجاب سنشو غاضبا : «إني أود أن أغسل ، ولكن بماء أنظف ، وبأيد أنظف ، وفوط أكثر بياضا : إنه ليس بين مولاي وبيني

(١) فلورنده ، ابنة الكونت يوليان .

من الفارق ما يجعل مولاي يغسل بماء الملاك[1] ، وأغسل أنا بغسالة الشيطان . إن العادات الجارية في قصور الأمراء حسنة طالما كانت لا تسبب متاعب ، لكن عادة الغسل التي تمارس هنا أسوأ من رياضة الضاربين أنفسهم بالسياط ؛ إن لحيتي نظيفة ، ولا تحتاج إلى هذا الانعاش الذي من هذا النوع : ولهذا فإن أول شخص يقترب مني ليغسل أو يلمس شعرة من رأسي ، أقصد من لحيتي ، سأضربه ـ مع احترام الجماعة ـ لكمة يبقى أثرها على اليافوخ! مثل هذا الغسل والمراسم إنما قصد بها إلى السخرية من الناس لا الاحتفاء بهم » .

واختنقت الدوقة من الضحك وهي تشاهد غضبة سنشو وتسمع كلامه ؛ لكن دون كيخوته لم يجد مسليا أبدا أن يراه لابسا هذه الخرقة القذرة ، ويطارده مساعدو الخدم ؛ ولهذا انحنى أمام الدوق والدوقة انحناءة عميقة ، وكأنه يستأذنهما في الكلام ، وقال لهؤلاء الرعاع ، بصوت متزن : « ما هذا يا سادة يا مهذبون ، اتركوا ذلك الفتى ، وعودوا من حيث أتيتم ؛ إن سائسي نظيف مثل أي إنسان ، ولا يحتاج إلى تنظيفاتكم . اتبعوا نصيحتي ، صدقوني ؛ فلا هو ولا أنا نحب هذا المزاح » . فقطع سنشو عليه الكلام قائلا : « فليقتربوا ، وليحاولوا أن يلمسوني ، وأنا أتحمل هذا كما أن الآن وقت ليل[2] . وليأتوا بمشط أذا أرادوا ، وليمشطوا لحيتي : فإن وجدوا فيها أية قذارة ، فإني أوافق على قصها » . ـ فقالت الدوقة ، دون أن تتوقف عن الضحك : « سنشو على حق فيما يقول ، وسيكون له الحق دائما ؛ إنه نظيف ، وكما يقول ، لا حاجة به إلى أن يغسل ؛ فإذا كان عرفنا لا يسره ، فهو حر في رفضه ؛ أما أنتم ، يا وزراء النظافة ، فأنتم مهملون ، فاسدو الرأي لأنكم قدمتم لمثل هذه الشخصية أحواضا من الخشب وخرقا لتجفيف الأواني ؛ ولا بد أنكم قليلو الأدب ، أشرار ؛ إنكم لا تستطيعون ردع أنفسكم عن إظهار الكراهية التي تحملونها لساسة الفرسان الجوالة » .

وظن مساعدو الخدم ورئيس الخدم الذي كان يتبعهم أن الدوقة غاضبة فعلا ؛ فنزعوا الخرقة عن سنشو ، وانسحبوا في خجل . ولما رأى سنشو أنه تخلص مما بدا له خطرا كبيرا ، جثا على قدميه أمام الدوقة وقال لها : « من السيدات العظيمات ينبغي أن نتوقع الخدمات الجليلة ؛ والخدمة التي أسديتها إلي يا صاحبة العظمة لا تكافأ إلا بالرغبة الشديدة في أن أسلح جوالا ، لاستخدام كل أيام حياتي في خدمة سيدة عظيمة مثلك . إنني حراث واسمي سنشو پنثا ، ومتزوج ، وعندي أولاد ، وأخدم سائسا : فإن كان شيء من هذه

(١) ماء معطر يسمى بهذا الاسم .

(٢) أي لن أتحمل هذا أبدا ، إذا الوقت كان ظهرا .

الأشياء يمكن أن يكون مفيدا لعظمتك ، فسأكون طوع أمرك » . ـ فقالت الدوقة : « من هذا يرى جيدا أنك تعلمت الأدب في نفس مدرسة الأب الرفيع ، أي أنك تلقيت دروس السيد دون كيخوته ، الذي هو زهرة المراسم ، وزبدة التحيات والمجاملات . ما أشرف السيد والخادم ، أحدهما بوصلة الفروسية الجوالة ، والاخر نجم السواس المخلصين ، انهض يا عزيزي سنشو ؛ إني ، اعترافا بأدبك ، سأحث الدوق زوجي على تسليمك بأسرع ما يمكن الحكم الذي وعدك به » .

وهنا انتهت المحادثة . وذهب دون كيخوته لينام القيلولة ، ودعت الدوقة سنشو إذا لم يكن عنده رغبة ملحة في النوم ، أن يأتي لقضاء فترة ما بعد الظهر في قاعة عليلة الهواء معها ومع وصيفاتها . فأجاب سنشو بأنه وإن كان من عاداته أن ينام القيلولة لمدة أربع أو خمس ساعات في الصيف فإنه تقديرا لفضلها سيحاول ألا ينام ، ويطيع أوامرها ، وقد كان . والدوق هو الآخر أصدر أوامر جديدة كي يعامل دون كيخوته معاملة الفارس الجوال ، دون أي انحراف عن الأعراف المسجلة في الكتب فيما يتعلق بالفرسان الجوالة في القرون الماضية .

الفصل الثالث والثلاثون

في المحادثة الشائقة التي جرت بين الدوقة ووصيفاتها وبين سنشو پنثا، وهي خليقة بأن تقرأ وتسجل

ويروي التاريخ أن سنشو لم ينم القيلولة ذلك اليوم ، وتنفيذاً لوعده مضى إلى الدوقة التي كانت تستمتع بكلامه استمتاعا بالغا ؛ وأجلسته على كرسي واطئ بجوارها ، وإن كان قد رفض هو أن يجلس ، كما يقضي الأدب الرفيع ؛ لكنها قالت له أنه يستطيع أن يجلس بوصفه حاكما ، وأن يتكلم بوصفه سائسا ، قائلة إنه بهاتين الصفتين يستحق أريكة[1] السيد القمبيطور ، روى دياث . فانحنى سنشو ، وأطاع وجلس . وأحاطت به وصيفات الدوقة وآنساتها ، وهن ينتظرن في صمت بالغ ماذا سيقول ؟ لكن الدوقة هي التي كانت أول من تكلم ، فقالت لسنشو : «الآن ونحن وحدنا ولا يسمعنا أجنبي ، أود أن يوضح لي السيد الحاكم بعض الشكوك التي تولدت في نفسي وأنا أقرأ تاريخ العظيم دون كيخوته . وأول هذه الشكوك هو : ما دام سنشو الطيب لم ير دلثنيا أبدا ، أقصد السيدة دلثنيا دل توبوسو ، ولم يسلمها أبدا رسالة السيد دون كيخوته ، الذي بقي في مجاهداته في سيرا مورينا (جبل الشارات) ، فكيف تجاسر على تزييف رد ، والقول بأنه رآها تغربل القمح ، وهو يعلم تماما أن هذا كذب يسيء إلى سمعة المنقطعة النظير دلثنيا ، وغير لائق بأمانة سائس أمين ؟ » ولدى سماع سنشو لهذه الكلمات ، نهض سنشو ، وخطا بضع خطوات ، وحنى جسمه ، واصبعه على شفتيه ، وتجول في القاعة ، ورفع المفارش ، ثم عاد بعد ذلك وجلس وقال : «الآن يا سيدتي ، وقد تأكدت أنه لا يسمعنا أحد في الخارج ، أجيبك إلى ما سألتني عنه ، وعن كل ما تريدين معرفته» . وأقول لك أولا أنني أعتقد أن السيد دون كيخوته مجنون تام الجنون ، وإن كان في بعض الأحيان يقول ـ في رأيي ورأي من يسمعونه

---

(١) أريكة escano ، كانت هذه الأريكة من العاج ، وقد غنمها السيد القمبيطور أثناء استيلائه على بلنسيه ، وأهداها إلى الفونسو ، ملك قشتاله ، وكانت الأريكة لحفيد على المأمون ، ملك بلنسيه ، بحسب أخبار السيد ، وهي في الغالب أخبار خرافية .

ـ أمورا عاقلة مرتبة لا يستطيع الشيطان نفسه أن يقول أحسن منها حقا وبغير شك ؛ وأنا أعده مجنونا ، واستقر هذا في ذهني حتى أني أجعله يعتقد أمورا لا قدم لها ولا رأس ، مثل الجواب عن رسالته تلك ، لكن ما لم يستطع التاريخ المكتوب أن يقوله ، هو أنني جعلته منذ ستة أو ثمانية أيام يعتقد أن السيدة دلثنيا مسحورة ، وهذا صحيح مثل أني أجري في هذه اللحظة على جبال أبذة » .

فسألته الدوقة أن يقص عليها حكاية هذا الانسحار ، أو هذا التزييف والتمويه ؛ فروى الأمور كما وقعت ، مما أمتع السامعين كثيرا . فقالت الدوقة : « إن ما قاله الطيب سنشو ولد في نفسي شكا جديدا ، وإني أسمع في أذني صوتا يقول : ما دام دون كيخوته مجنونا ، ممرورا ، متوهما ؛ وما دام سنشو پنثا ، سائسه ، يقر بأنه هكذا ، ومع ذلك هو يخدمه ، ويتبعه ، ويعتمد على وعوده الزائفة ، فإن ينتج عن هذا من غير شك أن سنشو أكثر جنونا ، وحماقة من سيده ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، يا سيدتي الدوقة ، فهل يليق بكم أن تعطوا لسنشو هذا جزرا ليحكمها ؟ إذا كان هو نفسه لا يستطيع أن يسير أمور نفسه ، فكيف يحكم الآخرين ويسوي أمورهم ؟ . » ـ فأجاب سنشو : « واللّه يا سيدتي هذا الشك في محله تماما ، وأنا أعترف لك صراحة بأنك تقولين الحق : لو كنت أنا عاقلا لكان علي أن أترك سيدي منذ وقت طويل ؛ لكن هذا قدري وشقائي ، ولا أملك منع نفسي من متابعته : نحن من المكان نفسه ، وأكلت من خبزه ، وأنا أحبه ؛ وهو ليس جاحدا ، وقد أعطاني أولاد حميره ، وفوق هذا كله أنا رجل أعترف بالجميل ، مخلص ؛ ولهذا لا يمكن أن يفصل بيننا إلا الموت . فإن رأيت سموك أنه من غير المناسب إعطائي الحكم الموعود به ، فإن اللّه خلقني في حال أدنى ؛ وعسى أن يكون في عدم الحصول عليه راحة لضميري . وعلى الرغم من أنني لست إلا دابة ، فأنا أعرف المثل الذي يقول : لشقاء النملة أعطيت أجنحة . وربما صعد سنشو السائس إلى السماء أسرع من سنشو الحاكم . يصنع هنا خبز جيد مثل خبز فرنسا ، وفي الليل كل القطط رمادية . بائس من لم يتغد في الساعة الثانية بعد الظهر . لا توجد معدة أكبر بشبر من أخرى ؛ وكما يقال : إن من الممكن أن تملأ بالقش أو بالفول . طيور البرية يمونها اللّه ، وأربع أذرع من جوخ قونقة تدفئ أكثر من أربع أذرع من الجوخ الدقيق المصنوع في اشقوبية . حين نترك الدنيا يكون الطريق ضيقا بالنسبة إلى الأمير كما هو بالنسبة إلى الأجير . جثمان البابا لا يشغل من الأرض أكبر مما يشغله جثمان خادم الكنيسة ، وإن كان أحدهما أعظم من الآخر . حين ندخل اللحد نرتب الأمور فيما بيننا أو ترتب لنا الأمور بأقل سوء ممكن ، وليلة سعيدة . وأكرر لسيادتك أنك إذا لم تريدي اعطائي

هذه الجزيرة لأني مجنون ، فسأكون عاقلا بألا أهتم بها . سمعت أن وراء الصليب الشيطان ، وأنه ليس كل ما يلمع ذهبا ، وأنه أخذ من بين الثيران والمحاريث الفلاح «ومبه» لتنصيبه ملكا على أسبانيا ، وأخذ رودريج (لذريق) من بين الثراء والترف واللذات لالقائه إلى الأفاعي تأكله ، إذا صح ما تقوله الأغاني القديمة ، ولم تكن هذه كاذبة .» ـ فصاحت دونيا رودريجث الوصيفة وكانت حاضرة : «كيف ، كاذبة ؟ إن أغنية تقول إن الملك لذريق سجن حيا في قبر مليء بالخنافس والأفاعي والسحالي ، وبعد يومين سمع يقول بصوت نائح :

تلتهم الجسد وترعى
من حيث خطئت كثيرا

ولهذا فإن هذا السيد له الحق في أن يفضل أن يكون حراثا على أن يكون ملكا ، إذا كان هؤلاء سيأكلهم الدود » .

ولم تتمالك الدوقة من الضحك من سذاجة الوصيفة ، وسرت أيما سرور بحجج سنشو وأمثاله الحكيمة . وقالت له : «أنت لا تجهل أن الفارس إذا وعد بشيء فإنه يسارع إلى تنفيذ وعده ، حتى لو كلفه ذلك حياته . والدوق ، زوجي وسيدي ، فارس ، وإن لم يكن جوالا ؛ وهكذا سينفذ وعده بمنحك الجزيرة ، على الرغم من حسد الناس وخبثهم . فتشجع إذن : ففي الساعة التي يكون الأمر فيها أبعد ما يكون عن فكرك ، سترى نفسك جالسا على عرش جزيرتك ، ودولتك ، وستتولى الحكم ، اللهم إلا إذا استبدل به ما هو أهم . وكل ما أوصيك ، هو أن تهتم خصوصا بطريقة سياسة رعيتك ، لأني أنبهك أنهم جميعا مخلصون أخيار طيبون .» ـ فقال سنشو : «أما عن حسن الادارة والحكم ، فلا ضرورة لتوصيتي به ، لأني محسن بطبعي ، وأعطف على الفقراء ، ومن يعجن ويخبز لا أنتزع منه خبزه . وبحياتي! لن يوقعني أحد في الباطل : فأنا كلب عتيق وأسمع الصفارة ، وأعرف كيف أتأثر عند اللزوم . ولا أسمح بإمرار الغيوم أمام عيوني ، لأني أعرف أين يوجعني الحذاء . وأقول هذا حتى يكون مفهوما أن الأخيار سيجدون عندي حسن اللقاء والترحيب ، ولكن الأشرار لن يضعوا قدما ولن يدخلوا . ويبدو لي أنا أنه فيما يتصل بالحكم المهم هو البداية : ويجوز أن يحدث أنه بعد خمسة عشر يوما أعرف مهنة الحكم خيرا من مهنة الحرث التي نشئت فيها» ـ فقالت الدوقة : «أنت على حق يا سنشو : فالإنسان لا يولد تام التعليم ، والأساقفة يصنعون من الناس ، لا من الحجارة . لكن لنعد إلى انسحار السيدة دلثنيا . إني متأكد وأرى أنه مما لا نزاع فيه أن الفكرة التي خطرت ببالك من خداع مولاك ، بجعله يعتقد أن الفلاحة



الدوقة وسنشو

هي دلثنيا ، وإنه إذا لم يتعرفها فالسبب في أنها مسحورة ، أقول إني أعتقد واثقة أن هذه الفكرة قد أوحى بها إليك مكر واحد من السحرة الذي يلاحقون ويضطهدون السيد دون كيخوته ؛ لأني أعلم تمام العلم ومن مصدر وثيق أن تلك الفلاحة التي قفزت على الحمار كانت فعلا وحقا دلثنيا دل توبوسو نفسها ؛ بحيث أنه بينما اعتقد سنشو أنه خدع سيده ، فالواقع أنه هو الذي انخدع . وينبغي عليك ألا تشك في هذا مثلما أنه لا ينبغي لك أن تشك في الأمور التي لم تشهدها بعد ؛ ومن الخير أن نعرف أن بيننا نحن سحرة يحبوننا ويخبروننا بأمانة عن كل ما يجري في الدنيا ، دون أن يخدعونا ولا أن يوقعوا ذلك في أوهامنا نعم يا سنشو ، صدقني ، إن الفلاحة التي كانت نشيطة جدا في القفز على حمارتها هي دلثنيا ، التي هي مسحورة انسحار أمها التي ولدتها . وحين نكون أبعد ما تكون عن التفكير منها ، سنراها بشكلها الحقيقي ، وتقر أنت بالخطأ الذي وقعت فيه» .

فقال سنشو : كل هذا جائز ، ومنذ الآن لن أجد صعوبة في تصديق ما يقول مولاي أنه رآه في كهف مونتسينوس ، إذ أدعى أنه قابل السيدة دلثنيا بالزي نفسه الذي نسبته اليها حين جعلتها أنا مسحورة على هواء ، بينما الأمر بالعكس كما تقولين ؛ لأنه لا يمكن أن نفترض أن عقلا ثخينا مثل عقلي قد تخيل في وقت قصير مثل هذا الخداع الرقيق ، ومن ناحية أخرى لا أستطيع أن أصدق أن سيدي من الجنون بحيث يصدق أمورا غير معقولة حقا ، استنادا إلى حجة واهية مثلي أنا . ومع ذلك فإني لا أريد منك يا سيدتي أن تحسبيني لهذا السبب سيء النية ؛ فإن خلقا مثلي لا يمكن أن يكون من الذكاء بحيث ينفذ إلى أفكار ومكائد السحرة الخبثاء ، ولقد تخيلت هذه الحيلة للتهرب من مضايقات مولاي ، لا بقصد إهانته ؛ فإن كانت قد انقلبت عن وجهها ، فاللّه موجود ، وهو يقرأ ويعلم ما في القلوب .

فقالت الدوقة : أنت على حق ، لكن قل لي ، ما كهف مونتسينوس هذا الذي تتكلم عنه ؟ إني شغوف لمعرفة هذه المغامرة .

هنالك روى لها سنشو بالتفصيل كل ما قرأناه من قبل عن هذا الموضوع . فقالت الدوقة بعد سماعها لهذه الحكاية : «أظن أنه يجب أن نستنتج من هذه المغامرة أنه ما دام دون كيخوته العظيم يقول إنه شاهد الفلاحة نفسها التي لقيها سنشو ، وهو خارج من توبوسو ، أنها هي دلثنيا بعينها ؛ فالسحرة هنا أناس لطاف ومتطلعون» .

فقال سنشو : على كل حال إذا كانت السيدة دلثنيا مسحورة فتبا لها ؛ فإني لا أريد أن أشغل نفسي بنزاع مع أعداء مولاي وعددهم لا بد كبير وهم أشرار . إن التي رأيتها أنا كانت فلاحة لقد حسبتها وحكمت عليها بأنها فلاحة ؛ فإن كانت هي دلثنيا ، فإني لا

أستطيع شيئا في هذا الأمر ، ولا ينبغي أن يطلب مني حساب عنه . وإلا لتعلقوا بي وقالوا في كل لحظة : سنشو قال هذا ، سنشو فعل هذا ، سنشو يدور ، سنشو يلف ، كما لو كان سنشو أي واحد من عرض الطريق ، ولي نفس ذلك السنشو پنثا الذي يتحدث عنه الناس في أنحاء العالم ، بحسب ما قال لي سمسون كرسكو ، وهو ليس أقل من حامل البكالوريا من شملنقة . ومثل هؤلاء الناس لا يمكن أن يكذبوا : اللّهم إلا من حيث يلذ لهم أو يلائمهم أن يكذبوا وهكذا لا يستطيع أحد أن يتعلق بي ، ويمسك بمخنقي ، وأنا رجل حسن الصيت ، وقد سمعت مولاي يقول إن حسن الصيت أفضل من الحزام المذهب . فليضعون إذن في حكومة جيدة وسترون العجائب ومن استطاع أن يكون سائسا جيدا ، يستطيع أن يكون سياسياً جيداً .

فأجابت الدوقة : كل ما قاله سنشو الطيب كلمات كاتونية ، أو على الأقل مستمدة من أحشاء ميخائيل فرينو[1] ، «الذي مات في زهرة عمره» : وعلى حد تعبيره : تحت معطف رديء غالبا ما يرى شارب جيد» .

فقال سنشو : سيدتي ، إني لم أشرب عن خبث أبدا ؛ عن عطش ، ربما ، لأني لست منافقا : إني أشرب حين أرغب ، وأحيانا حين لا أرغب ، إذا ما قدم لي خمر ، حتى لا أظهر بمظهر المتكبر القليل الأدب ، لأنه إذا تعلق الأمر بالمشاربة مع صديق ، فلا بد أن يكون قلب المرء قد من المرمر ليرفض الاستجابة إليه لكني إذا لبست سراويل «تبانا» فإني لا أوسخه . ثم أن سواس الفرسان الجوالة يشربون الماء غالبا أكثر مما يشربون النبيذ ، لأنهم دائما في الغابات والأحراش والمروج ، وعلى الجبال ، والصخور ، ولا يجدون قطرة واحدة من النبيذ حتى لو كلفهم ذلك إنسان عينهم .

فقالت الدوقة : وأنا أعتقد هذا . لكن إذهب الآن واسترح : وسنستأنف الحديث في ساعة أخرى . وسنصدر الأوامر كي تذهب وشيكا إلى حكومتك .

مرة أخرى قبل سنشو يدي الدوقة ، ورجاها أن تعمل على أن يعامل الرمادي معاملة حسنة قائلا إنه إنسان عينه . فقالت وما هذا الرمادي ؟ . ـ فقال سنشو : «حماري الذي لا أود أن أسميه بهذا الاسم ، ولهذا أطلقت عليه اسم «الرمادي» . وحين دخلت هذا القصر رجوت السيدة الوصيفة هذه أن تهتم به : فغضبت ، كما لو كنت قلت عنها أنها عجوزة أو دميمة ، ومع ذلك فإن الوصيفات وجدن بالأحرى من أجل العناية بالركائب أولى من التحكم

---

(١) ميخائيل فرينو (١٤٦٨ ـ ١٤٨٧) مؤلف كتاب باللاتينية عنوانه : «أقوال في آداب الصبيان» . . سرقسطة سنة ١٥٢٥ . والجملة التالية «الذي مات.. » هي استهلال رثائه الذي ألفه بوليثيانو ، وقد وردت باللاتينية . وقد توفي في سن التاسعة عشرة من عمره .

في الصالون ، يا للّه كم كن سيقضين وقتا سينا مع نبيل من قريتي .» ـ فقالت دونيا رودريجث : «لا بد أنه شرير وغد ، لأنه لو كان رجلا مهذبا حسن التربية لرفعهم فوق دارة القمر .» ـ فقالت الدوقة : «كفى ، اسكتي يا دونيا رودريجث ، وليطمئن سنشو ، فإني سأتولى رعاية حماره : وما دام هو حليته ، فسأرعاه كأنسان عيني .» ـ فقال سنشو : يكفي يا سيدتي أن يكون في الاسطبل : فلا أنا ولا هو جدير في أية لحظة بأن يعنى به كأنسان عيني عظمتك ، ولا أقبل هذا بأي حال من الأحوال : وعلى الرغم من أن مولاي يقول أنه في مسائل الأدب والمجاملات الأحسن أن يتجاوز المرء الحدود خيرا من البقاء في المؤخرة ، فإنه مع الحمير ينبغي السلوك والفرجار في اليد وبحساب . » ـ فقالت الدوقة : يا سنشو ستأخذ حمارك معك في حكومتك : وهنالك تستطيع أن تمتعه كما تشاء ، وتعفيه من العمل .» ـ فقال سنشو : «لا تظني أنك تمزحين يا سيدتي ، فقد رأيت أكثر من حمارين في الحكومات : وعلى هذا فإن أخذ حماري إلى هناك لن يكون شيئا جديداً» .

وأثارت كلمات سنشو ضحك الدوقة مرة أخرى . وأرسلته ـ ليستريح ، وراحت هي تقص على الدوق كل ما حدث . واتفقا على وسائل تدبير مزحة لطيفة مع دون كيخوته ، تتفق مع أسلوب الفروسية الجوالة ، وأفلحوا في هذا بمهارة فائقة ، حتى أن هذه المغامرات هي أجمل ما يحتوي عليه هذا التاريخ العظيم .

الفصل الرابع والثلاثون

حيث يروى كيف اكتشفت وسيلة لرفع السحر عن المنقطعة النظير دلثينا دل توبوسو، وهي احدي المغامرات الأكبر شهرة في هذا الكتاب

استمتع الدوق والدوقة استمتاعا شديدا بمحادثة كيخوته ومحادثة سنشو . ولما كانا قد قررا وصمما على أن يدبرا مزاحة مع ضيفيهما يبدو عليها أنها مغامرة فإن كهف مونتسينوس أعطاهما فكرة تدبير مزاحة من النوع نفسه . لكن ما أعجب الدوقة فوق كل شيء هو سذاجة سنشو ، الذي صار يظن أن انسحار دلثنيا أمر حقيقي واقعي ، مع أنه هو مخترعه . وبعد ستة أيام وبعد أن لقنوا رجالهما الأدوار المختلفة التي عليهم أن يقوموا بها ، اقتادوا الفارس (دون كيخوته) إلى حفلة صيد عظيمة ، مع جهاز جيد يليق برأس متوج وأعطي دون كيخوته وسنشو ملابس صيد ذات لون أخضر رقيق ؛ لكن دون كيخوته رفض حلته ، لأنه رأى أن عليه أن يعود إلى مهنة السلاح الشاقة ، فلم يكن يستطيع أن يحمل ملابس معه . أما سنشو فقد قبل راضيا ما قدم اليه ، مع نية بيعه في أول فرصة .

ولما جاء اليوم المحدد للحفلة ، تسلح دون كيخوته ، ولبس سنشو حلته الجميلة ، وركب حماره ، وإن كانوا قد قدموا إليه فرسا ، وبهذا الزي والاستعداد اختلط مع جماعة الصيادين . وبدت الدوقة لابسة فاخر الثياب ؛ وسارع دون كيخوته كفارس مهذب ، إلى الامساك بعنان فرسها المطهم ، وإن كان الدوق أراد أن يعارض في هذا . وأخيرا وصلوا إلى غابة قائمة بين جبلين عاليين ؛ ووزعت الجماعة ، واتخذ كل مكانه ، وأخذ يترصد ، وبدأ الصيد ، بضوضاء شديدة وتصفيقات عالية حتى لم يكن في الوسع التفاهم بين بعضهم وبعض ، بسبب ضجة الأبواق ونباح الكلاب ونزلت الدوقة عن فرسها ، وتسلحت بحربة حادة جدا ، ووقفت في موضع تعرف أن الخنازير البرية تمر منه ؛ واقتدى دون كيخوته والدوق بها ، ووقفا على جانبيها ، ووقف سنشو خلفهم ، دون أن ينزل عن حماره إذ لم يجرؤ على مفارقته خوفا من الإصابة بسوء ولم يكادوا يصطفون صفوفا مع كثير من رجالهم ،

حتى شاهدوا قادما إليهم خنزيرا متوحشا ، كان يعضعض بأسنانه ويلقي من فمه بالرغوة ؛ وكانت تطارده الكلاب وتتلوها جماعة الصيادين . وفي الحال لبس دون كيخوته ترسه ، واستل سيفه ، وتهيأ لاستقباله ، وفعل الدوق الشيء نفسه بحريته ؛ لكن الدوقة كانت تريد أن تسبقهما لولا أن منعها زوجها . وسنشو وحده لما رأى هذا الحيوان الرهيب قفز من فوق حماره ، وأخذ في الجري قدر المستطاع وحاول تسلق سنديانة ، لكنه لم يفلح في هذا إذ لم يبلغ نصف الشجرة وهو يريد الوصول الى القمة حتى انكسر غصن تحته ، فسقط وتعلق بغصن وظل على مسافة بضع أقدام من الأرض دون أن يستطيع الوصول اليها . وفي هذا الوضع وقد أحس بأن الكسوة الخضراء الجميلة تتمزق ، وخاف أن يصيبه الوحش إذا مر ، فأخذ يصيح صيحات عالية طالبا النجدة حتى أن الذين سمعوه ظنوا أنه بين فكي حيوان مفترس . وأخيرا وقع الحيوان ذو الأنياب الحادة تحت ضربات الصيادين . فهرع دون كيخوته حينئذ إلى صرخات سنشو ، وقد تبينها بسهولة ، فوجده معلقا في غصن ، ورأسه إلى أسفل ، وإلى جواره حماره الذي لم يتركه في محنته . ولهذا فإن سيدي حامد يلاحظ عند هذا الموضوع ، أنه لم يشاهد سنشو بدون حماره أبدا ، ولا الحمار بدون سنشو ، لأن صداقتهما عظيمة وإيمان كليهما بالآخر عميق . فأنزله دون كيخوته ، ولما رأى نفسه حرا وعلى الأرض فحص حزينا تمزقات حلته ؛ مما أدمى قلبه ، لأنه كان يعتقد أنه بهذه الحلة يملك ضيعة .

وفي تلك الأثناء رفع جسم الخنزير البري المتوحش ، وغطى بإكليل الجبل وأغصان الاس ، وحمل على بغل ، ثم نقل في احتفال ، ووضع تحت خيام نصبت في وسط الغابة ؛ وهناك كانت المائدة قد وضعت ، وقدم الطعام بوفرة وفخامة جديرتين بسخاء رب الضيافة .

وقال سنشو وهو يري الدوقة حلته الممزقة : « لو كان صيدا للأرانب أو الطيور الصغيرة ، لما كانت حلتي على هذه الحال . ولا أدري أية لذة يمكن أن توجد في مطاردة حيوان يمكنه أن ينتزع الحياة بضربة من أسنانه وأذكر أني سمعت أغنية قديمة تقول : « التهمتك الدببة مثل فافيلا الشهير! » ـ فقال دو كيخوته : « لقد كان هذا أحد ملوك القوط ، وقد التهمه دب أثناء الصيد » ـ فقال سنشو : « وهذا ما أقوله : إني لا أريد أن يعرض الملوك والأمراء أنفسهم عن طيب خاطر ، لمثل هذه المخاطر ، من أجل لذة ليست لذة ، لأنها عبارة عن قتل حيوان مسكين لم يرتكب أي ذنب » ـ فقال الدوق : « أنت مخطئ يا عزيزي سنشو : إن ممارسة صيد الحيوان الكبير ضرورية ، وتناسب الملوك والأمراء أكثر من غيرها ؛ إن الصيد صورة من صور الحرب : ففيه مكايدها ، وخداعها ، وكمائنها ،

للانتصار على العدو بدون خطر ؛ وفيه يعاني المرء من قسوة البرد ، وحمارة القيظ ؛ وينفي النوم والراحة ؛ ويكتسب الجسم بواسطته قوة جديدة ، والأعضاء خفة ومرونة أكثر ؛ والخلاصة أنه تمرين يمكن ممارسته بغير الاضرار بأحد ، ويسر الكثيرين . وأفضل ما فيه أنه ليس لكل الناس ، مثل سائر أنواع الصيد ، فيما عدا صيد الطيور ذوات الطيران العالي ، وهو أيضا مخصص للملوك وكبار النبلاء ؛ وعلى هذا فعليك يا سنشو أن تغير رأيك ، وحين تصبح حاكما إذهب إلى الصيد ، وسترى أنك ستستمتع وتستفيد به» .

فأجاب سنشو : لا! إن الحاكم الصالح رجله مكسورة ويبقى في بيته ؛ إذ سيكون عجيبا حقا أن يتعب الذين لهم أعمال معه في البحث عنه ، بينما يكون هو في الغابات يستمتع . هنالك يفسد الحكم . والحق يا سيدي أن الصيد والملاهي صفة بالأحرى للكسالى لا للحكام . والتسلية الوحيدة التي سأسمح لنفسي بها هي تسيير المواكب في الأعياد الأربعة الكبرى في العام ، واللعب بالكرة في أيام الآحاد والأعياد . أما كل تلك الألوان من الصيد فلا تناسب حالتي ، ولا تتفق مع ضميري .

فقال الدوق : نرجو الله أن يكون الأمر كذلك ، لأن بين القول والعمل مسافة طويلة .

فأجاب سنشو : طويلة إلى أبعد حد تشاء ؛ والدافع المليء لا يرفض أن يعطى ضمانات (رهونات) ؛ من يكن الله في عونه يفلح أكثر ممن يصحو مبكرا ، البطن تجعل الأقدام تمشي ، وليست الأقدام هي التي تجعل البطن تمشي ، أقصد أنه إذا ساعدني الله ، وإذا فعلت ما علي بقصد حسن ، فسأحكم خيرا من النسر . ليضعوا الاصبع في فمي وسيرون هل أعض أو لا .

فقال دون كيخوته : لعنك الله وكل القديسين ؛ متى يأتي اليوم الذي فيه ، كما قلت لك مرارا ، تقول كلاما معقولا مرتبا بغير أمثال ؛ لتتركوا سيادتكم هذا المجنون ، وإلا لأزعجكم بآلاف الأمثال التي يلقيها دون مناسبة ، والله يرعى صحتي إذا كنت أريد سماعها .

فقالت الدوقة : إن أمثال سنشو ، وإن كانت أكثر عددا من أمثال الكومندادور[1] اليوناني ، فإنها ليست أقل قيمة من أجل ايجاز العبارة ؛ أما أنا فإني مسرورة بها أكثر من تلك التي هي أجمل قيلا وأكثر مناسبة .

---

(١) كان هذا لقبا أطلق على فرنندو نونيث قزمان . وكان يلقب بلقب البنثيانو ، لأنه ولد في بلد الوليد واسمها عند الرومان « «بنثيا» . وكان من فرسان طريقة شنت يعقوب ، وصار أستاذا لليونانية واللاتينية والخطابة في جامعة شلمنقة ، مما جعلهم يطلقون عليه لقب الكومندادور اليوناني . وقد اهتم خصوصا بجمع عدد كبير جدا من الامثال الاسبانية ، بقصد نشرها مع شرحها ، لكن حال بينه وبين ذلك موته في سنة ١٥٥٢ ، وظهرت هذه المجموعة فيما بعد .

وخرجت الجماعة ، وهم يخوضون في هذا الحديث ، من الخيمة من أجل تفقد الشباك التي نصبوها . وانحدر النهار وأقبل الليل ولم يكن صافيا ساجيا كما كان يرجى ، إذ كان الوقت في منتصف الصيف ؛ وشيء من الوضوح ـ الغامض انتشر في الجو وساعد كثيرا على الاستعدادات التي أمر بها الدوق . وفجأة ، وبعد الأصيل بقليل ، بدت الغابة من زوايا الأفق الأربع مشتعلة ؛ وسمع من كل ناحية ضوضاء ، الأبواق وسائر أدوات الحرب ، وكأنها جماعات كبيرة من الفرسان تمر في الغابة ؛ وسطوع النار ، وضجة الالات الحربية تعمي وتصم كل جماعة الصيادين . وبعد قليل سمعت تكبيرات ، على طريقة المغاربة حين يدخلون المعركة . والأبواق والطبول والصفارات رنت في وقت واحد ، بقوة واستمرار لا بد أن يتأثر به المرء وإلا كان لا يحس . فاضطرب الدوق ، وأرتج على الدوقة ، ودهش دون كيخوته ، وارتعدت فرائص سنشو خوفا ، والذين كانوا يعرفون الحقيقة هم أيضا ذعروا . لقد فرض الخوف الصمت عليهم ؛ وفي تلك اللحظة شوهد ساعي بريد متدثرا في زي عفريت ، وهو ينفخ في بوق ضخم ، ذي صوت أصحل رهيب فقال له الدوق : « صه يا أيها الساعي! من أنت ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ ومن هم المحاربون الذين يريدون أن يخترقوا هذه الغابة ؟ » .

فأجاب ساعي البريد بصوت مروع سريع : إنني أبحث عن دون كيخوته دلا منتشا ؛ والذين يتبعونني جماعة من السحرة يحضرون المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، محمولة على عربة نصر ؛ لقد أتت مسحورة ، مع الشجاع الفرنسي مونتسينوس ، لتخبر دون كيخوته عن الطريقة التي ينبغي بواسطتها رفع السحر عن هذه الأميرة (دلثنيا) .

فقال الدوق : إذا كنت أنت الشيطان ، كما تقول ، وكما يدل عليه وجهك وشكلك ، لكنت قد تعرفت الفارس دون كيخوته دلا منتشا ، لأنه أمامك .

فقال الشيطان (ساعي البريد) : بحق الله وضميري إني لم أشاهده ؛ إن في رأسي كثيرا من المشاغل ، لدرجة أنني نسيت الأمر الرئيسي الذي من أجله قدمت .

فقال سنشو : لا شك في أن هذا الشيطان رجل طيب تقي مسيحي ، لأنه يحلف بالله وبضميره . وأنا أعتقد الآن أنه في الجحيم نفسه يمكن أن يوجد ناس طيبون .

ودون أن ينزل الشيطان عن ركوبته مضى ووقف أمام دون كيخوته وقال له « إليك يا فارس الأسود (أرانيك الله بين مخالبها) أرسلني الشجاع البائس مونتسينوس لأطلب إليك أن تنتظره في هذا المكان ، لأنه يقتاد معه تلك التي تدعى دلثنيا دل توبوسو ؛ ويريد أن يجعلك تعرف وسائل رفع السحر عنها . أما عن نفسي ، فلأنني لم آت من أجل أمر آخر ،

فإني لن أتوقف طويلا . ولتبق العفاريت التي من نوعي معك ، والملائكة الطيبون مع هؤلاء السادة » . ولما قال هذه الكلمات ، صاح في نفيره ، وأدار ظهره ، ومضى دون أن ينتظر الجواب .

وصارت دهشة الجميع بالغة ، خصوصا دون كيخوته وسنشو . ولم يفهم سنشو أنه على الرغم من الحقيقة فإن هؤلاء يعتقدون أن دلثنيا مسحورة ؛ ولم يستطع دون كيخوته أن يقرر على وجه اليقين هل ما رآه في كهف مونتسينوس حق أو لا . ولما كان مستغرقا في تأملاته ، سأله الدوق هل قرر الانتظار . فقال دون كيخوته : ولم لا ؟ سأنتظر هنا بقدم ثابتة كل الجحيم . ـ وقال سنشو : «وأنا إذا رأيت عفريتا آخر ، وسمعت بوقا آخر ، فإني سأنتظر هنا كما أني هنا في الفلاندر[1]» .

وطوال هذا الوقت ، صار الليل مظلما ، وشوهد في الغابات أضواء تجري شبيهة بتلك الأنفاس الجافة المنبعثة من الأرض وترتفع في الهواء وتظهر نجوما مذنبة . ثم سمعت بعد ذلك ضجة مروعة ، شبيهة بالضجة التي تحدثها العجلات الضخمة لعربات تجرها الثيران ، التي تجعل صراخها الحاد المستمر الذئاب والدببة تهرب . وتلت هذه العاصفة أخرى أشد هولاً وبدا أنه في أركان الغابة الأربعة ، كان ثم أربع معارك . وهنا كان يمزق السمع فرقعات مدفعية هائلة ؛ وهناك انطلقت آلاف البنادق ؛ وفي موضع ثالث سمعت صيحات المقاتلين ، وفي الموضع الرابع تكبيرات المغاربة . وأخيرا الأبواق ، وقرون الصيد ، والترومبيتات ، والكليرونات والطبول والمدفعية والبنادق ، وفوق كل شيء ضجة العربات الهائلة ، كل هذه أحدثت ضجة هائلة ، احتاج معها دون كيخوته إلى كل شجاعة لتحملها ؛ لكن سنشو لم يستطع مقاومة الخوف . فسقط مغشيا عليه عند قدمي الدوقة ، فأمرت بإحضار ماء ليرش على وجهه . فعاد إلى وعيه في اللحظة التي ظهرت فيها إحدى العربات ذات الضجيج ؛ وكان يقود العربة أربعة ثيران ضخمة ، كلها مغطاة بالقماش الأسود ، ويحمل في كل قرن شعلة كبيرة مشتعلة . وعلى العربة نصب عرش جلس عليه شيخ وقور ، ذو لحية أبيض من الثلج ، طويلة بحيث تجاوزت الحزام ؛ وكان يلبس عباءة طويلة من البوكاسان الأسود . وكانت الأضواء التي تضيء العربة تكشف عن كل ما فيها ؛ وكان يقودها عفريتان يلبسان من نفس البوكاسان ، وكانا قبيحين ، مخيفين ذوي وجهين مفزعين ، حتى أن سنشو أغمض عينيه كي لا يراهما . ولما وصلت العربة إلى أمام الجماعة ، وقف الشيخ العجوز وقال : «أنا الحكيم

---

(١) أي لن أنتظر أبدا .

لير جندي » . وتابعت العربة طريقها . وتقدمت عربة أخرى بالطريقة نفسها ، وعليها شيخ عجوز آخر ، أوقف العربة وقال بجلال مثل الأول : « أنا الحكيم القيف ، الصديق الكبير لاورجنده المتجاهلة » ، وتابع طريقه . وظهرت عربة ثالثة شوهد عليها ، لا شيخ مثل العربتين الأخريين ، بل رجل قوي البنية كريه الطلعة ؛ ولما توقف قال بصوت أصحل شيطاني : « أنا الساحر أرخلاوس ، العدو اللدود لأماديس الغالي وكل جنسه » ؛ ثم مر هو أيضا . وسارت العربات الثلاث بضع خطوات ثم توقفت ؛ وهنالك توقفت ضجة عجلاتها غير المحتملة ، وسمع صوت موسيقى عذبة منسجمة أطربت سنشو ، وبدت له فألا حسنا ؛ ولهذا قال للدوقة ، التي لم يبتعد عنها لحظة : « سيدتي ، حيث توجد موسيقى ، لا يمكن أن توجد أمور سيئة » . فأجابت الدوقة : « ولا حيث يوجد النور والوضوح » . ـ فقال سنشو : « النار تعطي النور ، والحرائق تعطي الوضوح ، كما ترى فيما حولنا . ولكن الموسيقى هي دائماً علامة على الأعياد والاحتفالات والمتع » . فقال دون كيخوته ، وكان يصغي إليهما : « إنه على حق » . وقوله كان صوابا ، كما سترى في الفصل التالي .

الفصل الخامس والثلاثون

حيث يتابع ذكر وسيلة رفع السحر عن دلثينا
وأحداث أخرى رائعة

وعلى صوت هذه الموسيقى العذبة ، شاهدوا عربة تتقدم ، من ذلك النوع الذي يسمى عربة النصر ، وتجرها ستة بغال رمادية يكسوها قماش أبيض . وعلى كل بغل ركب تواب يلبس البياض ، ويحمل في يده شعلة كبيرة ، وكانت العربة أكبر بمرتين أو ثلاثا من العربات الأخرى ، وكانت على الجوانب وعلى العربة اثنا عشر توابا أبيض من الثلج ، يحملون شعلات مشتعلة . وأشاع هذا المنظر الخوف والدهشة معا . وفي وسط العربة على منصة مرتفعة كانت حورية مغطاة بشاش فضي ، يلمع فيه رقائق الذهب ، مما أضفى عليها هنداما إن لم يكن غنيا فهو لامع . وكان على وجهها نقاب من الشاش خفيف شفاف ، لا يحجب القسمات الدقيقة لفتاة جميلة سنها بين الثامنة عشرة والعشرين . وبالقرب منها شخص يلبس رداء طويلا ويغطي رأسه بنقاب أسود .

ولما صارت العربة قبالة الدوق ودون كيخوته ، توقفت نغمات الشبابات ، وموسيقى الهاربات والأعواد ، التي كانت تعزف على العربة . ووقف الشخص الطويل الرداء ، وفتح ملابسه ، وأنزل قناعه ، وكشف عن وجه الموت ، الهزيل المخيف حتى أن دون كيخوته خاف ، وسنشو ارتعد ، وبدا الخوف على وجهي الدوق والدوقة . وأخذ «الموت» الحي يتكلم بصوت بطيء ، متناوم ، وقال :

« أنا مرلان ، الذي تقول عنه الحكايات إن أباه الشيطان (وهذا كذب بث الزمان التصديق به ؟) وإنه أمير السحر ، وسلطان وخزانة علم زرادشت ، ومنافس القرون والعصور ، التي تدعي إغراق أعمال الفرسان الجوالة الشجعان ، الذي أحمل لهم دائما ولا أزال ودا كبيرا .

«ولئن كان مزاج السحرة والمجوس والكهان دائما قاسيا شديدا حادا ، فإن مزاجي رقيق ، لطيف ، عاشق ، مولع بفعل الخير للجميع .

«وفي كهوف المصير[1] المظلمة ، التي انشغلت فيها نفسي بتكوين الأخلاق والأشكال السحرية ، جاءني الصوت النائح ، صوت الجميلة المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو .

«وعرفت انسحارها ، ومحنتها ، وتحولها من سيدة مهذبة إلى قروية جلفة ؛ وتأثرت عطفا وشفقة ، ثم أغلقت على روحي في تجويف هذا الهيكل الفظيع ، بعد أن تصفحت مائة ألف كتاب في علمي الشيطاني العابث ، وأتيت لأقدم العلاج المناسب لهذا الداء العضال ، وهذا الألم الشديد .

«وأنت ، يا شرف ومجد كل الذين يلبسون قمصان الصلب والماس ، أي نور ، ومصباح ، ودليل وبوصلة أولئك الذين تركوا النوم الثقيل والريشة المتبطلة ، ووافقوا على اتخاذ مهنة الأسلحة الثقيلة الدامية ، وهي مهنة شاقة ؛

«لك أقول ، أيها البطل الذي يقصر عن حقه طويل الثناء ، الشجاع الألمعي معا ، أي دون كيخوته ، مجد المنتشا ، وكوكب أسبانيا ، إنه من أجل رد المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو إلى حالتها الأولى ، لا بد أن يضرب سنشو ـ سائسك ـ نفسه ثلاثة آلاف وثلثمائة ضربة بالسوط على ردفيه الكبيرين ، وهما عاريان في الهواء ، بحيث يتألم ألما شديدا وتبقى آثار الضربات عليهما . هذا ما قرره كل الذين أسهموا في صنع محنتها ؛ ومن أجل هذا جئت إلى هنا ، يا سادة» .

فصاح سنشو : آه! سأضرب نفسي لا ثلاثة آلاف ، بل ثلاث ضربات بالسوط ، مثل ثلاث ضربات بالسكين . وإلى الشيطان طريقة رفع السحر! وما من شأن ردفي بالانسحارات ؟ يا لله! إذا كان السيد مرلان لم يجد وسيلة أخرى لرفع السحر عن السيدة دلثنيا دل توبوسو ، فإنها يمكنها أن تبقى مسحورة حتى القبر .

فصاح دون كيخوته : وأنا سأمسك بك ، أيها الدون الجلف المحشو بالثوم وأربطك في شجرة ، عاريا كما ولدتك أمك ، وأضربك ، لا ثلاثة آلاف وثلثمائة ، بل ستة آلاف وستمائة ضربة بالسوط ، وبإحكام شديد بحيث لا تستطيع التخلص منها بثلاثة آلاف وثلثمائة هزة من وسطك ، ولا ترد علي بكلمة واحدة ، وإلا انتزعت روحك» .

فلما سمع مرلان هذا ، قال : كلا ، ينبغي ألا يتم الأمر هكذا ؛ بل لا بد أن تكون ضربات السوط التي يتلقاها سنشو تعطى له بمحض إرادته ، لا بالقوة ، وفي اللحظات التي يلذ له أن يختارها ، لأنه لم يحدد له وقت معين . ومع ذلك فإنه إذا أراد أن يتخلص

---

(1) في الأصل : «دتيه» لقب إله العالم السفلي بلوتون .

من نصف هذا العدد ، فإنه يستطيع ذلك بشرط أن يكون ضاربه يدا أجنبية ، حتى لو كانت ثقيلة...

فقال سنشو : لا أجنبية ، ولا ثقيلة ، ولا خفيفة ، ولا أية يد ستمسني . وهل أنا ، مثلا ، الذي ولدت السيدة دلثنيا دل توبوسو ، حتى تدفع أردافي ثمن الخطيئة التي ارتكبتها عيناها الجميلتان ؟ هذا حسن بالنسبة إلى مولاي ، إذ هو جزء منها ، ما دام يدعوها في كل خطوة : حياتي ، نفسي ، روحي ، سندي . إنه يمكنه ويجب عليه أن يضرب نفسه بالسوط من أجلها ، ويقوم بكل الاجراءات الضرورية لرفع السحر عنها ؛ أما أن أجلد أنا ؟ فهذا ما أرفد[١] » .

ولم يكد سنشو يفرغ من هذه الكلمات حتى نهضت الحورية الفضية التي كانت واقفة إلى جوار روح مرلان ووقفت ، ونحت نقابها الخفيف ، وكشفت عن وجه بدا للجميع مفرط الجمال جدا ؛ ثم ، بحركة رجولية وصوت قوي قليل الأنوثة ، وجهت الكلام مباشرة إلى سنشو پنثا قائلة :

ـ أيها السائس الشقي ، يا قلب الدجاجة ، وروح البرنز ، وأحشاء الحصى والحجارة ، إذا أمرت ، أيها اللص الوقح ، أن تلقي بنفسك من برج عال وإلى أسفل ؛ وإذا طلب منك ، يا عدو الجنس البشري ، أن تأكل عشرات من العلاجم ، وضعفها من السحالي ، وثلاثة أضعافها من الأفاعي ؛ وإذا أقنعت بأن تقتل زوجتك وأولادك بحد صفيحة[٢] فظيعة ، فلن يكون من المدهش أن تظهر السخط وتقطب الجبين . أما أن تصرخ بسبب ثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة ، بينما لا يوجد تلميذ من اخوان المذهب ، أيا من كان سيئا ، لا يتلقى مثلها شهريا ، هذا في الحق شيء يدعو إلى الدهشة ، والحيرة ، ويذهل الأحشاد المسكينة لكل الذين يسمعون مثل هذا الجواب ، بل وكل اولئك الذين سيعرفون ذلك على مجرى الزمان . أيها الحيوان الشقي الغليظ ، ألق عينيك ، عيني البغل الهياب ، على حدقة عيني ، اللامعتين كالنجوم الساطعة ، وستراهما تبكيان قطرة فقطرة ، نهرا فنهرا ، تخط أخاديد ، وطرقا ودروبا . خلال الحقول الجميلة في خدي . أنظر ، أيها المرائي الشرير ، أيها الوحش السيئ النية ، أنظر زهرة سنواتي التي لم تبلغ العشرين ، لأن عمري تسع عشرة سنة لا عشرين ؛ أقول أنظر زهرة سنوات تستهلك تحت اللحاء الخشن لفلاحة ؛ لأنني إذا كنت في

(١) في النص الأصلي كلمة لاتينية Abernuncio محرفة عن الكلمة Abrenuntio اللاتينية التي يستعملها الخاطئ ، تبعا لطقوس الكنيسة الكاثوليكية ، حين يرفض الشيطان وأعماله وما يزينه .

(٢) الصفيحة : السيف العريض .

هذه اللحظة أبدو بشكل آخر ، فهذا فضل عظيم من السيد مرلان ، الحاضر هنا ، الذي أراد أن يجعلك ترق لجمالي ، لأن دموع الجميلة المحزونة تحول الصخور إلى قطن ، والنمور إلى نعاج . اضرب إذن هذا اللحم السميك ، أيها الدابة العنيدة ، وأخرج من هذا الكسل الجبان الذي يجعلك لا تصلح إلا للأكل والأكل باستمرار . أعد إلي رقة بشرتي ، وحلاوة طبعي ، وجمال وجهي . وإذا لم أستطع ترقيق قلبك ، وردك إلى الشعور المعقول ، فدع نفسك ترق لهذا الفارس المسكين الواقف إلى جوارك ، مولاك ، التي روحه في وسط الحلقوم ، وعلى عشرة أصابع من الشفتين ، ولا تنتظر غير جوابك ، بالموافقة أو الرفض ، لتنال الحياة أو يصيبها الموت» .

وعند هذه الكلمات تلفت دون كيخوته إلى الدوق وقال : «بحق اللّه ، لقد قالت دلثنيا الحقيقة : إن روحي محشورة في وسط حلقومي منذ بندقة البندقية» فقالت الدوقة : «ماذا تقول في هذا إذن يا سنشو ؟» ـ فقال سنشو : «ما أجيب به يا سيدتي عن ضربات السوط هو : أرفد» . ـ فقال الدوق : «قل إذن أرفض» . فقال سنشو : «عفوك يا مولاي ورضاك ، دعني : لست في وضع يسمح لي بمراعاة هذه التدقيقات وقشر الكلمات . هذه الجلدات التي يجب أن أضربها أو أضرب نفسي بها ، تعكر فكري بحيث لا أعرف ماذا أقول ولا ما أعمل . وبودي أن أعرف من الذي علم السيدة دلثنيا أن تستحث الناس بهذه الطريقة : إنها تطلب مني أن أمزق جلدي بالسوط ، ولتحثني على هذا تدعوني بروح الطين ، والدابة غير المكبوحة ، وسلسلة متواصلة أخرى من الشتائم التي لا يمكن الشيطان نفسه أن يحتملها . هل لحمي من البرنز ؟ ماذا يهمني أنا أن تكون السيدة دلثنيا مسحورة أو لا! بدلا من أن تقدم إلي قُمُصاً وتيلا ومناديل وأحذية «وإن كنت لا ألبس حذاء» لا تقدم إلا شتائم . أليس عليها أن تعرف المثل الذي يقول إن الحمار المحمل بالذهب يصعد إلى الجبل أسهل ؟ وأن الهدايا تفتت الصخر وإن عصفورا في اليد خير من عشرة في الغد ؟ ثم السيد مولاي ، بدلا من أن يتملقني ويلاطفني من أجل أن أصنع لنفسي صوفا أو قطنا محلوجا ، يريد أن يربطني عاريا بشجرة ، ويضاعف جرعة الجلدات . هؤلاء السادة المحسنون هل يحسبون أن الذي يريدون جلده ليس فقط سائسا ، بل وأيضا حاكم ؟ ليتعلموا إذن ، على نفقاتهم ، كيف يطلبون ، وكيف يتوسلون ، وأن يكونوا مؤدبين : كل الأزمنة لا تتشابه ، والناس ليسوا جميعا حسني المزاج ، هم لا يزالون يرونني محزونا بسبب حلتي الخضراء الممزقة المسكينة ، ومع ذلك يأتون ليتكلموا عن جلدي ، وهو ما أوده بقدر رغبتي في أن أصبح رئيس قبيلة» . ـ فقال الدوق : «الحق يا عزيزي سنشو ، إذ أردت ألا تهاود ، فمن

المستحيل أن تحصل على الحكم» : إذ سيكون أمرا عجيبا أن أرسل إلى رعيتي في الجزيرة حاكما قاسيا ، أحشاؤه من الصخر ، لا يتأثر بدموع الأواني المحزونات ، ولا دعوات السحرة الحكماء الأقوياء المحترمين . والخلاصة ا سنشو أنه إما أن تجلد نفسك ، أو يجلدك شخص آخر ، أو لن تكون حاكما» ـ فأجاب سنشو : «مولاي! ألا يمكن إعطائي مهلة يومين حتى أتروى في الأمر ؟» ـ فقال مرلان : «لا ، لا بد أن تتخذ قرارك في هذه اللحظة ، وفي هذا المكان ، فإما أن ترجع دلثنيا إلى كهف مونتسينوس وتستعيد شكل فلاحة ، أو وهي في الحالة التي تراها عليها الآن تنتقل إلى عليين في انتظار نهاية انسحارها» . ـ فقالت الدوقة : «هيا يا سنشو أيها الرجل الطيب ، تشجع ، وكن عارفا بالجميل عن الخبز الذي أكلته مع السيد دون كيخوته ، الذي ينبغي علينا جميعا أن نساعده ونخدمه نظرا لصفاته الجليلة وفروسيته العالية . أحتقر هذه الجلدات ، وهذه المخاوف الصبيانية التي يبثها الشيطان في نفسك ؛ إن القلب الطيب يعرف كيف ينتصر على سوء البخت» .

وعلى كل هذه الحجج لم يرد سنشو إلا بكلمات مضطربة لا منطق فيها . ثم قال : «لكن قل لي ، يا سيد مرلان ، حينما جاء ساعي البريد الشيطان قال لمولاي أن ينتظر السيد مونتسينوس ، لأنه سيأتي ليعرفه كيف يمكن رفع السحر عن السيدة الدونيا دلثنيا دل توبوسو ، وحتى الآن لم نر مونتسينوس ولا شخصا يشبهه .» ـ فأجاب مرلان : «يا عزيزي سنشو ، هذا الشيطان أحمق مرتبك جدا ؛ وأنا الذي أرسلته إلى مولاك ، لا مونتسينوس ، لأن هذا لم يخرج من كهفه ، منتظرا دائما رفع السحر عنه ، ولا بد من الفراغ من هذا . فإن كان عليه نقود لك ، أو لك شأن معه ، أتيت به وسلمته إليك في أي مكان تريد ؛ أما الآن فالأمر يتعلق فقط بجلدك وصدقني أن جلدك سيكون ذا فائدة كبيرة لروحك وبدنك ؛ لروحك ، بسبب فعل الخير الذي ستفعله ، ولبدنك لأني أرى أنك دموي المزاج ، ولابأس من سحب شيء من دمك» . ـ فقال سنشو : «في العالم كثير من الأطباء ؛ والآن السحرة يشتغلون بالطب ؛ وما دام كل الناس يريدون ذلك ، وإن كنت لست أبدا من هذا الرأي ، فإني أوافق على أن أجلد نفسي ثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة بالسوط ، بشرط أن يحدث ذلك حين أشاء دون أن يفرض علي وقت ولا يوم معين ؛ وسأعمل على الخروج من هذه المشكلة السيئة بأسرع وقت ممكن ، حتى يستمتع العالم بجمال السيدة الدونيا دلثنيا دل توبوسو ، وهي في الواقع أجمل مما كنت أعتقد وأضع شرطا آخر وهو أنني لن أضطر إلى جلد نفسي حتى أدمى ، وإذا طارت بعض الجلدات في الهواء فستحسب ؛ وأن تخبروني إذا زاد العدد

أو قل » . ـ فقال مرلان : « لا خوف عليك من أن تضرب نفسك عددا أكبر ، لأنه في اللحظة التي فيها تتم الضربة الثلثمائة وثلاثة آلاف ، سيرفع السحر فورا عن السيدة دلثنيا ، وتأتي لتشكر لسنشو الطيب ، ولمكافأته عن هذه الخدمة الجليلة . وهكذا أكرر القول فأقول لا تخف من الزيادة ولا من النقصان . والسماء لا تسمح بأن أخدع أحدا ، ولا بشعرة » . ـ فقال سنشو : « فوضت أمري إلى الله ، أوافق على هذه المحنة ، وأقبل العذاب ، بالشروط المعروفة » .

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات ، حتى استأنف الموسيقي العزف ، والبنادق الاطلاق ، وارتمى دون كيخوته على رقبة سنشو يقبله آلاف القبلات على جبينه وخديه . وعبر الدوق والدوقة وكل الحاضرين عن امتنانهم لسنشو . وتحركت العربة ، وسارت ، وانحنت دلثنيا برأسها للدوق ، وبتحية كبيرة لسنشو .

وفي تلك الأثناء كان الفجر الباسم الوردي قد بدأ في البزوغ ؛ ورفعت أزهار الحقول رؤوسها المائلة ، وبدت كأنها تلقت حياة جديدة ؛ وهمس السائل البلوري في الجداول خلال الحصى الأبيض والرمادي ، وأسرع لتغذية الأنهار التي كانت تنتظره . واستردت الأرض شبابها ، وسجو السماء ، وصفاء الجو ، وسطوع النور كل هذا كان مبشرا بأن اليوم الذي أعلنه مثل هذا الفجر الجميل سيكون ساجياً هادئاً . وعاد الدوق والدوقة إلى القصر ، راضيين عن صيدهما ، ومسرورين لاتمام المغامرة العظيمة من أجل رفع السحر عن دلثنيا ؛ وهما يفكران في تسليات جديدة ، تلذهما كل اللذة .

الفصل السادس والثلاثون

وفيه تروى مغامرة غريبة لم يسمع بمثلها وقعت للوصيفة المكروية، واسمها الكونتيسة تيفالدى والرسالة التي كتبها سنشو پنثا إلى زوجته تريزة پنثا

كان عند الدوق ناظر على القصر مليح النادرة ، بارع الحيل ، لعب دور مرلان : وكان هو الذي أدار كل جهاز الاحتفال ، وألف الأشعار ، وأسند دور دلثنيا إلى فتى وصيف . وبأمر من مولاه ، دبر هذا الناظر مغامرة أخرى ، لا تقل غرابة وتسلية .

وفي يوم آخر سألت الدوقة سنشو هل بدأ تعذيبه من أجل رفع السحر عن دلثنيا : فأجاب بنعم ، وأنه في الليلة الأخيرة ضرب نفسه خمس مرات . فقالت الدوقة « بماذا ؟ » ـ فأجاب : « بيدي! » فقالت الدوقة : « هذه صفعات وليست جلدات ؛ وأنا أشك كثيرا في أن يرضى الحكيم مرلان عن هذه الرخاوة : لا بد أن تجلد بجلدة من الشوك أو ذات عقد ، وأن توجعك ، لأنك تدرك جيدا أن خلاص سيدة عظيمة مثل دلثنيا يجب ألا يتم بهذا الثمن البخس » .

فقال سنشو : لتعطني سيادتك درة مناسبة وأنا أستعملها ، بشرط ألا أتألم منها كثيرا ؛ لأني وإن كنت ريفيا ، فإن لحمي أقرب إلى القطن منه إلى اليراع ، وليس من المعقول أن أمزق لحمي من أجل غيري .

فقالت الدوقة : حسنا ؛ سأعطيك غدا درة توافق رقة بشرتك ، وكأنها أختها .

فقال سنشو : سيدتي ، ينبغي أن أخبر سموك ، يا سيدة روحي ، أني كتبت إلى زوجتي ، تريزة پنثا ، لأخبرها بكل ما جرى لي منذ أن فارقتها . والرسالة في عبي ، ولا ينقصها إلا العنوان ، وبودي أن تتفضلي بحكمتك فتقرأيها ، لأني أعتقد أنها جديرة بحاكم ، أي متفقة مع الطريقة التي ينبغي على الحكام أن يكتبوا بها .

فسألته الدوقة : ومن الذي أملاها ؟

فأجاب : ومن عسى أن يكون غيري أنا الخاطئ المسكين ؟

فقالت : وأنت الذي كتبتها ؟

فقال سنشو : لم يقتصر دوري على مجرد الفكرة ، لأني لا أقرأ ولا أكتب : وأعرف فقط التوقيع بإسمي .

فقالت الدوقة : ننظر ما في هذه الرسالة ، وأنا واثقة أني سأجد فيها ما يدل على مقدرتك العقلية .

فأخرج سنشو الرسالة من عبه كانت مفتوحة ، وقدمها إلى الدوقة ، فقرأت ما يلي :

رسالة سنشو پنثا إلى زوجته تريزة پنثا

«لو ضربت ضربات جيدة بالسوط ، لكنت فارسا جيدا ؛ وإذا حصلت على حكومة جيدة ، فهذا يكلفني ضربات جيدة بالسوط ، وأنت لا تفهمين هذا الآن ، يا عزيزتي تريزه ، ولكنك ستفهمينه فيما بعد . وسأقول لك أني قدرت أن تذهبي في عربة ؛ وهذا هو ما يجب أن يشغلنا الآن ؛ وكل طريقة أخرى لا تناسب غير القطط... أنت زوجة حاكم ، فانظري هل يمكن أن يدوس على قدميك أحد . وأبعث إليك بكسوة خضراء للصيد ، أعطتنيها السيدة الدوقة ؛ ففصليها بحيث تصبح بلوزة وتنورة لبنتنا . ومولاي دون كيخوته ، بحسب ما سمعت في هذا البلد ، مجنون حكيم ، ومعتوه لطيف ، وأنا لا أقل عنه في شيء من هذا . وكنا في كهف مونتسينوس ، واختارني الحكيم مرلان لرفع السحر عن دلثنيا دل توبوسو ، التي تسمى باسم آخر هو الدونثا لورنثو ؛ وبثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة إلا خمسا ، أضرب نفسي بها ، سيرفع السحر عنها ، مثل الأم التي وضعتها في الدنيا . لا تقولي شيئا من هذا لأحد ، لأنك لو عرضت الأمر على حكم الغير ، لقال البعض هذا أبيض ، وقال البعض الآخر هذا أسود . وفي خلال أيام قليلة سأرحل لحكومتي ، حيث أذهب بغرض جمع الكثير من المال ، لأنه قيل لي أن كل الحكام الجدد عندهم النية نفسها . وسأجس نبض الإقليم ، وأخبرك هل ينبغي عليك أن تأتي أولا . الحمار في صحة جيدة ويتضرع اليك . والسيدة الدوقة تقبل يديك ألف مرة ، لا شيء يساوي أكثر ، ويكلف أقل من المجاملات والأدب والتحيات ، كما قال سيدي . ولم يشأ الله حتى الآن أن أعثر على حقيبة أخرى فيها مائة اسكودو أخرى ، مثل المرة الأولى ، ومع ذلك لا تحزني يا عزيزتي تريزه : فإن من يدق ناقوس الخطر هو في أمان ، والحكومة تعطيني كل شيء . لكن ثم أمرا يزعجني : إذ يقال إنه إذا مسها المرء مرة ، أكل أصابعه حتى الكوع ؛ فإذا كان الأمر هكذا ، فإنه لن يكلفني قليلا ؛ لكن المبتورين

والذين بيد واحدة يقيمون كاهنيتهم على الصدقات التي تعطى لهم : وعلى هذا ، فعلى نحو أو آخر فينبغي عليك أن تكوني سعيدة وغنية . حفظك الله يا عزيزتي تريزه ، وحفظني أيضا لخدمتك .

« تحرر في هذا القصر في ١٢ يوليو سنة ١٦١٤ »

زوجك ، الحاكم

سنشو پثنا

ولما فرغت الدوقة من قراءة هذه الرسالة ، قالت لسنشو : « إن الحاكم الطيب قد ضل في أمرين : فهو يقول ، أو يجعل الناس تفهم أن الحكومة أعطيت له بسبب الضربات التي سيضرب نفسه بها ؛ ولكنه يعلم ، ولا يستطيع أن ينكر ، أنه حين وعده الدوق زوجي بالحكم ، لم يكن ثم كلام أبدا عن الجلد . وثانيا السيد الحاكم جشع جدا ؛ ولا أود أن يكون جشعا هكذا : فإن الجشع يقطع الكيس ، والحاكم البخيل لا يقيم العدل » . فأجابها سنشو : « لم أقله بهذا الغرض ، وإذا بدا لك أن الرسالة ليست كما ينبغي ، فما علي إلا أن أمزقها وأعمل غيرها ؛ لكن يجوز أن تكون هذه أسوأ ، إذا كان الأمر موكولا إلي وحدي » . ـ فقالت الدوقة : « لا ، لا ؛ إنها حسنة هكذا ، وأود أن يراها الدوق » . وفي الواقع أرت الدوق هذه الرسالة : وضحك كلاهما منها كثيرا .

ثم تناولوا الطعام ، وبعد أن رفعت المائدة ، غب حديث ممتع مع سنشو ، سمع صوت حزين لصفارة ، مصوبا بصوت أصحل ناشز لطبل : فأدهش هذا الانسجام العسكري الحزين ـ الجميع ، خصوصا دون كيخوته ، فلم يستطع أن يبقى في مكانه على كرسيه . أما عن سنشو فلا شيء يمكن أن يقال غير أن الخوف ألجأه إلى ملجأه المعتاد ، وهو جوار تنورة الدوقة . والحق أن الأصوات التي سمعت كانت حزينة جدا ، ومؤثرة . وبينما كان الكل يصغون في صمت ، شوهد يدخل في الحديقة رجلان يلبسان السواد ، يجران رداءهما على الأرض : وكانا يقرعان طبولا ضخمة ، مغطاة بالسواد ؛ وإلى جوارهما سار العازف بالصفارة ، لابسا السواد مثلهما . وخلف هؤلاء الرجال الثلاثة قدم شخص ماردي القامة ، غريب اللباس ، يلبس ثوبا أسود كبيرا ، كان ذيله طويلا جدا ؛ وكان يلبس حمالة سوداء ، علق فيها صفيحة (سيف) هائلة كان غمادها أسود أيضاً ، وكان وجه مغطى بنقاب أسود شفاف جدا ، من خلاله ترى لحيته الطويلة الأكثر بياضا من الثلج ؛ وكان يسير بجد على ايقاع الطبول : وكانت قامته المديدة ، وترجحه في السير ، وملابسه السود ، وكل شخصه من شأنها أن تثير الدهشة ، بل والخوف في نفوس من ينظرون إليه . واقترب من الدوق ، الذي انتظره مع الاخرين ، وجاء ليجثو على قدميه

أمامه : لكن الدوق أمره بالنهوض : فوقف هذا المخيف الفظيع ، ورفع النقاب الذي كان يغطي وجهه ، وأبدى عن أفظع لحية ، وأطول ، وأوفر ، وأشد اللحى بياضا شاهدها إنسان . وسحب بعد ذلك من أعماق صدره الواسع صوتا جادا رنانا ، وثبت العيون في الدوق ، وقال له : « أيها السيد العظيم الرفيع ، اسمي تريفالدين[1] ذو اللحية البيضاء ؛ وأنا سائس الكونتيسة تريفالدي ، الملقبة بالسيدة المكروبة ،وقد بعثتني رسولا إلى عظمتك ، لألتمس من كرمك الإذن برواية مصائبها لكم ، وهي من أفظع وأغرب ما يمكن أن تتخيله النفس المحزونة ، لكنها تريد خصوصا أن تعرف هل عندك في قصرك بالصدفة الفارس الباسل الذي لا يقهر أبدا دون كيخوته دلا منتشا ، الذي جاءت من أجله للبحث عنه ماشية على قدميها دون أن تتذوق طعاما ، من مملكة قندية حتى بلادكم ، وهو أمر يمكن أن يعد معجزة ومن أثر السحر . وهي على باب حصنكم أو بيت استمتاعكم ، ولا تنتظر لتدخل غير رغبتكم . هذه رسالتي » . ثم صمت ، وداعب لحيته من أعلى إلى أسفل بيديه ، وانتظر في هدوء جواب الدوق .

فقال الدوق : « أيها السائس الطيب تريفالدين الأبيض اللحية ، مضى وقت طويل منذ أن عرفنا بلايا السيدة الكونتيسة تريفالدي ، التي ألزمها السحرة بأن تسمى « الدونيا دولوريدا » (المكروبة) : وتستطيع أن تقول لها ، أيها السائس المدهش ، إننا نرحب بها ، وأنه في هذه اللحظة يوجد معنا الباسل الفارس دون كيخوته دلا منتشا ، وخلقه الكريم يعدها من غير شك بالمساعدة والحماية ؛ فأكد لها إذن ، أنه إذا كانت توصيتي ضرورية لها ، فإنها تستطيع أن تعتمد عليها ، لأن صفتي فارسا تلزمني بحمايتها ، ومعاونتها ونجدة كل نوع من النساء ، وخصوصا الأرامل المحزونات ، المهجورات ، ولا بد أن سيادتها منهن » . ولدى سماع هذه الكلمات حنا تريفالدين ركبته ، وأشار إلى الصفارة والطبل بالعزف ، وعاد بالمشية نفسها ، وعلى الصوت نفسه كما جاء ، تاركا الجميع مدهوشين من منظره .

وتلفت الدوق إلى دون كيخوته وقال له : « أخيرًا ، أيها الفارس الشهير لا يمكن ظلمات الخبث والجهل أن تعكر أو تحجب نور الشجاعة والبسالة . لم تكد تمضي ستة أيام على وجود سيادتك في قصري ، وها هم أولاء يفدون عليك من أقاصي البلاد ، لا في عربات ، ولا على هجن ، بل على الأقدام صائمين : إنهم المحزونون والمكروبون ، قد جاءوا ، وملؤهم الثقة بقوة ساعدك ، ليسألوك العلاج لآلامهم ، وقد جذبتهم شهرة أعمالك العظيمة التي غطت سطح الأرض .

---

(١) أوحى الى ثربانتس بهذا الاسم اسم « تروفالدين » في « أورلندو الغاضب » لاريوستو ، والاسم الايطالي معناه : « المازح الخادع » .

فقال دون كيخوته : سيدي الدوق ، كان بودي أن يكون معنا الآن رجل الدين الذي أبدى الكثير من السخط وسوء الظن بالفرسان الجوالة : ويستطيع أن يحكم ، بعينه ، هل هؤلاء الفرسان ضروريون للعالم ؛ وسيلمس بأصابعه أن أولئك الذين في حزن عميق ، ممن لا أمل لهم ولا عزاء ، وفي أكبر المصائب والمحن غير المتوقعة ، لا يذهبون ليطلبوا النجدة من رجال الدين ،وخازني كنائس القرية ، ولا من السيد الذي لا يغامر أبدا بالخروج من منزله ، ولا من البطانة الكسول الذي يكتفي بالسعي وراء النوادر ليقصها بعد ذلك ، بدلا من أن يفعل أفعالا رائعة ، يرويها الاخرون ويسجلونها في سجلات التاريخ . ومواساة المحزونين ومساعدة البائسين ، وسند الأوانس ، وحصن الأرامل ـ لا توجد خيرا منها عند الفارس الجوال ؛ ولهذا أشكر للسماء ، وأرى فائدة الهموم والمتاعب التي تتحمل في هذه المهنة الشريفة . فلتأت إذن هذه السيدة ؛ ولتطلب ما تريد ، وسأحصل لها عليه بقوة ساعدي وجريه تصميمي .

الفصل السابع والثلاثون

تلاوة المغامرة الشهيرة التي قامت بها الوصيفة المكروبة

اغتبط الدوق والدوقة اغتباطا شديدا لما شاهدا دون كيخوته مستعدا بنفسه للتجاوب مع ما دبراه . ولكن سنشو قال معلقا على ما قاله مولاه : «لا يرضيني أبدا أن تأتي السيدة الدونيا لتضع العراقيل في حكومتي . لقد سمعت فعلا من صيدلي في طليطلة ، كان يتكلم مثل الحسون ، إنه حيث يتدخل النساء لا يمكن أن يحدث شيء طيب . كان الله في عوني ، كم شقي هذا الصيدلي بسببهن! أما أنا عن نفسي فإني أعلم أن كل النسوة متعبات سفيهات ، مهما تكن منزلتهن . فما بالك بهؤلاء المكروبات ، ولهذه الكونتيسة تريفالداس[1] أو تريكولاس ، لأنه في بلدنا «فلدا» وكولا بمعنى واحد .

فقال دون كيخوته : أسكت ، يا عزيزي سنشو ، ما دامت هذه السيدة قد قدمت من بعيد للبحث عني ، فإنها لا يمكن أن تكون من ذلك النوع الذي سجله صيدليك هذا في دفتره ، خصوصا وهي كونتيسة ، وإذا خدمت الكونتيسات كوصيفات ، فلا يكون ذلك إلا للملكات أو الامبراطورات . إن هؤلاء الوصيفات سيدات عظيمات ، يخدمهن في بيوتهن وصيفات أخريات .

فقالت دونيا رودريجث بهذه المناسبة وكانت حاضرة : سيدتي الدوقة تخدمها وصيفات يمكنهن أن يكن كونتيسات ، لو شاء الحظ ، لكن القوانين تسير كما يشاء الملوك . وعلى كل حال فلا يتكلمن أحد بسوء عن الوصيفات ، خصوصا عن أولئك اللواتي هن متقدمات في السن وآنسات ؛ لأني ، وإن لم أكن هذا الآن ، فإني أفهم تماما ميزة الدونيا الآنسة على الأرملة . فمن يرد أن يجزنا ، يبقّ المقص في يده .

---

(١) Tres Faldas = طيات . Tres colas = ذيول ، Falda = طية (الثوب) . Cola = ذيل .

فقال سنشو : ومع ذلك فتم الكثير مما ينبغي جزه من على الوصيفات تبعا لما يقوله هذا الصيدلي ، بحيث يكون من الأفضل عدم تحريك الأرز وإن كان لاصقا .

فردت عليه دونيا رودريجث قائلة : دائما كان السواس أعداءنا . لأنهم عفاريت وجنيات غرف الانتظار ، ويروننا في كل خطوة ، فإن اللحظات التي لا يستخدمونها في الصلاة ، وهي كثيرة جدا ، يقضونها في نتف ريشنا ونقدنا ، ونبش عظامنا ، ودفن سمعتنا ، لكني أبعث بهم إلى الليمان . وعلى رغم أنوفهم ورغم أنف الحسد ، فسنوجد دائما في البيوتات الكبيرة وإن كنا نموت فيها جوعا ، ونغطي بشرتنا بطبقة سوداء ، بشرتنا الرقيقة أو غير الرقيقة ، كما تغطى كومة الزبل بسجادة ، في يوم الموكب . ولو أذن لي ، وكان عندي الوقت ، أثبت ليس فقط للأشخاص الموجودين هنا ، بل ولكل الناس ، أنه لا توجد فضيلة تخلو منها الوصيفة .

فقالت الدوقة : أعتقد أن الدونيا الطيبة رودريجث على حق تماما ، لكن من الأخلق أن تنتظر مناسبة أخرى للدفاع عن نفسها وعن سائر الوصيفات ، لتحطيم الفكرة السيئة التي عبر عنها ذلك الصيدلي الشرير ولانتزاع الفكرة التي لدى العظيم سنشو ـ من قلبه .

فقال سنشو : منذ أن تصاعدت أبخرة الحكم في رأسي تركبني دوارات السائس ، ولا يهمني أية وصيفة .

ولا شك في أن الحديث كان سيجري على هذا النحو وبهذه اللهجة لولا أن الصفارة والطبول دقت من جديد ، معلنة عن وصول الدونيا المكروبة . وسألت الدوقة زوجها أليس من المناسب أن يتقدم للقائها ، لأنها كونتيسة وامرأة مهمة . فقال سنشو دون أن ينتظر جواب الدوق : « بصفتها دونيا (وصيفة) ينبغي ألا تخطو خطوة . » ـ فقال دون كيخوته : « وما شأنك أنت في هذا » . فقال سنشو : « من ؟ سيدي إني أتدخل لأني أستطيع أن أتدخل ، بوصفي سائسا تعلم قواعد الآداب في مدرسة أكثر الفرسان أدبا ، وفي هذا الموضوع سمعتك تقول أن المرء يخسر بورقة أكثر كما بورقة أقل . ومن يجد السمع يكفه القليل من الكلام . » ـ فقال الدوق : « سنشو على حق . ولهذا سنرى هيئة الكونتيسة ، ونسدي إليها ما هو واجب » .

وهنا يختم المؤلف هذا الفصل القصير ويبدأ فصلا جديدا يحتوي على تلاوة هذه المغامرة ، وهي من أجدر المغامرات بالذكر في هذا التاريخ كله .

الفصل الثامن والثلاثون

وفيه تروى مصائب الوصيفة المكروبة

وبعد الموسيقيين ذوي الأنغام الحزينة شوهد يدخل في الحديقة اثنتا عشرة وصيفة على صفين ، يلبسن فساتين واسعة من العهن المصقول ، وعليهن نقب من الموصلي الأبيض ، طويلة بحيث لا يكشفن عن حافة الفساتين . وخلفهن أقبلت الكونتيسة تريفالدي يأخذ بيدها سائسها تريفالدين الأبيض اللحية ، وكانت تلبس ثوبا من القماش البابيت الرقيق الأسود غير المجهز ، الذي لو مشط لكشف وبره عن حبوب كبيرة مثل الحمص ؛ وكان ذيل الفستان ذا أطراف ثلاثة يحملها ثلاثة غلمان يلبسون السواد ، ويشكلون شكلا لطيفا بالزوايا الثلاث الحادة للأطراف الثلاثة . مما أوحى إلى الحاضرين بأن اسمها (تريفالدي) جاء من «ترس فلداس» (ثلاث طيات) ، مما يجعل المرء يقول أنها الكونتيسة ذات الذيول الثلاثة . ولهذا فإن ابن الأيل يقول إن هذه هي الحقيقة ؛ وأن اسمها الحقيقي هو (لوبونا) ، لأنه يوجد في كونتيها كثير من اللوبوات Lobos أي الذئاب ، ولو وجدت ثعالب بدلا من الذئاب لسميت الكونتيسة ثرونا (من Zorras = ثعالب) ، لأن العرف جرى في بلادها بأن يتخذ النبلاء أسماء الأشياء الموجودة بكثرة في أقاليمهم . ولكن هذه الكونتيسة ، بسبب جده ذيلها تركت اسم (لوبونا) واتخذت اسم تريفالدي .

وسارت الوصيفات الاثنتا عشرة والكونتيسة بخطى المواكب ووجوههن عليها نقب سود لم تكن شفافة ، مثل نقاب تريفالدين ، بل محكمة بحيث لا يمكن رؤية شيء من خلالها . ولما دخلت المجموعة كلها وقف الدوق وزوجته ودون كيخوته والباقون وابتعدت الوصيفات ، وأخلين المكان ، (للمكروبة) التي تقدمت دون أن تغادر يد سائسها ؛ هنالك خطا الدوق والباقون بضع خطوات للقائها ، وجثت (المكروبة) على ركبتها وبصوت خفيض مبحوح قالت : «أتوسل إلى عظمتكم ألا تقوموا بكل هذه التحيات لخادمكم ، أقصد

لخادمتكم فإني محزونة إلى حد أني لا أستطيع الإجابة عما يقتضيه الأدب لأن بلاياي الغريبة التي لم يسمع بمثلها قد سلبتني ملكة التمييز . ولست أدري ماذا جرى لها ، لكنها لا بد نائية ، لأني كلما بحثت عنها بعدت عني .» ـ فأجاب الدوق : «لا بد ، يا سيدتي الكونتيسة ، أن يكون مسلوب التمييز أيضا ذلك الذي يراك ولا يكتشف فورا مزاياك : فأنت بغير حاجة إلى مزيد من الرؤية ، تستحقين كل زبدة الأدب وزهرة أرق التحيات» . وفي الوقت نفسه أمسك بيدها واقتادها إلى كرسي ، بالقرب من الدوقة ، التي رحبت بها كل الترحيب . وسكت دون كيخوته ، وكان سنشو يتحرق شوقا لرؤية وجه تريفالدي أو وجه إحدى وصيفاتها ، لكنه لم يتمكن من ذلك ، إلا لما أن كشفوا عن وجوههن بإرادتهن . والتزم الكل الصمت ، وهو يتشوف ليرى من سيقطعه . وكانت (المكروبة) هي التي تكلمت هكذا :

ـ أنا واثقة ، أيها السيد العظيم جدا ، وأيتها السيدة الجميلة جدا ، وأنتم جميعا أيها الحاضرون العقلاء جدا ، إن كربي العظيم جدا سيجد في قلوبكم الكريمة جدا قبولا حسنا عاطفا حساسا ، لأن شقوتي من شأنها أن ترقق المرمر ، وتطري الماس ، وتلين حديد القلوب الشديدة القسوة ، ولكن قبل أن أبلغها أسماعكم ، أود أن أعرف هل يوجد ، في هذا الاجتماع أو الجماعة أو الصحبة ، الطاهر جدا الفارس دون كيخوته دلا منتشا جدا ، وسانسه جدا پنثا» .

فقال سنشو ، قبل أن يرد أحد : «الپنثا هنا ، وكذلك دون كيخوته جدا هو نفسه ؛ وتستطيعين إذن ، أيتها الوصيفة جدا المكروبة جدا ، أن تحكي لنا ما ترغبين به جدا ، ونحن مستعدون جدا ومتهينون جدا لنكون خادمين لك جدا .

هنالك نهض دون كيخوته واقترب من المكروبة وقال لها : إذا كانت مصائبك ، أيتها السيدة المحزونة ، يمكن أن تنال مواساة ما من قوة وبسالة فارس جوال ، فإني أقدم لك قوتي وبسالتي وإن كانتا ضعيفتين وقليلتي القيمة فسيستخدمان في تحقيق ما تطلبين . أنا دون كيخوته دلا منتشا ، ومهنتي هي إغاثة كل المحتاجين والملهوفين ، وعلى هذا فلست في حاجة يا سيدتي إلى الالحاح في الرجاء ، واستهلاك نفسك في المقدمات ، فبغير لف ولا دوران ولا تلعثم ، خبرينا عن متاعبك . ومن يصغون إليك سيعرفون كيف يواسونك إذا لم يستطيعوا تقديم العلاج .»

ولدى سماع هذه الكلمات أرادت (المكروبة) أن تلقي بنفسها عند ركبتي دون كيخوته ، وألقت بنفسها فعلاً ، وسعت لمعانقة ركبته وقالت : «إني أجثو عند قدميك ، أيها

الفارس الظافر الذي لا يقهر ، بوصفك أنت أسس وأعمدة الفروسية الجوالة ؛ وينبغي أن أقبل آثار خطواتك التي يتوقف عليها علاج مصائبي ، أيها الفارس الباسل! الذي تفوق أعماله الحقيقية الروايات الخرافية التي وصلتنا عن أماديس وإسبلنديان وبليانس » . ثم تلفتت ناحية سنشو وأمسكت بيديه ، وقالت له : « وأنت! يا أشد السواس إخلاصا في خدمة فارس جوال في العصور الحاضرة أو الماضية أنت يا من طيبتك أعظم من لحية تريفالدين ، سائسي الحاضر هنا ، إنك تستطيع أن تفخر وتزهى بأنك في خدمة العظيم دون كيخوته ، لأنك في شخصه وحده تخدم كل جماعة الفرسان الذين حملوا السلاح منذ ميلاد العالم . أستحلفك ، بما تدين به بطيبتك المخلصة جدا ، أن تتشفع لي عند مولاك ، حتى يتنازل ويحمي هذه الكونتيسة البائسة جدا المهانة جدا . » ـ فقال سنشو : «أما أن طيبتي يا سيدتي كبيرة بقدر لحية سائسك ، فهذا أمر لا يهمني كثيرا ، أما أن تكون لروحي لحية وشوارب حين أذهب إلى العالم الآخر ، فهذا ما أتأثر له كثيرا ، لأنه فيما يتعلق باللحى في هذه الدنيا فإني لا أقيم لها أي وزن . لكن بدون هذه التملقات والاستعطافات سأرجو مولاي الذي يحبني كثيرا ، خصوصا في هذه اللحظة التي يحتاج فيها إلي من أجل مسألة معينة ، سأرجوه أن يهتم بك ويغيثك في كل ما يستطيع ، كوني على سجيتك إذن ، واروي لنا مصائبك ونحن جميعا نصغي إليك» .

وضحك الدوق والدوقة ضحكا تشهاقا من كل هذه الأقاويل ، لأنهما اللذان اخترعا ورتبا هذه المغامرة المزعومة ، ولم يكفا عن الإعجاب بمهارة وقريحة تريفالدي التي جلست ثم قالت :

« في مملكة قندية الشهيرة ، الواقعة في بحر الجنوب وترابوبان الكبير ، على مسافة فرسخين من رأس كومورين ، تحكم المملكة السيدة مجونثيا ، أرملة الملك أرخبيل . ومنهما ولدت وريثه العرش أنطونيو ماسيا ، التي وكلت إلي لأني كنت أقدم وأبرز سيدات أمها ، ونمت هذه الأميرة الصغيرة تحت رعايتي ، حتى بلغت الرابعة عشرة . وكانت منقطعة النظير في الجمال عاقلة بقدر ما كانت جميلة ، وأجمل النساء طرا ، ولا تزال كذلك إذا لم يقطع القدر الغيور والباركات[1] القاسيات خيط عمرها! وهن لم يقطعن ولم تسمح السماء بأن يصاب الجنس البشري بهذه المصيبة ألا وهي أن يقطع قبل نضجه هذا العنقود الذي من أجمل عنب الدنيا . وعشق هذا الجمال ، الذي يعجز لساني الكليل عن وصفه ، ما لا نهاية

(١) البارك : ربة المصير . والباركات ثلاث : كلوتو ، لاكسيس ، وأتروبوس . وهن يهيمن على حياة الإنسان ، ويغزلن خيطها . والأولى تمسك المغزل ، والثانية تغزل ، والثالثة تقطع خيط الحياة .

له من الأمراء ، الأجانب وأبناء الوطن ، ومن بينهم فارس بسيط كان يقيم في البلاط ، تجرأ على أن يرفع أفكاره إلى سماء الكمال هذه فاستغل لطفها ورقتها ومواهبها ومفاتنها وسهولة أو سعادة روحها ، وعلي أن أقول لك أنه كان يحسن العزف على القيثار إلى حد أنه كان ينطقها ، وكان شاعرا ، وراقصا ، ويحسن عمل الأقفاص ، وكان في وسعه أن يكسب عيشه من هذه الصنعة ، إذ ألجأته الحاجة إلى ذلك . وكل هذه المزايا كانت كفيلة لهز جبل ، وبالأحرى قلب فتاة . ومع ذلك فإن لطفه وحسن طلعته ، وكفاءته ومواهبه كانت كلها ستنهار أمام حصن تلميذتي الصغيرة هذه ، لو لم يحاول هذا اللص الوقح أن يكسبني أولا . هذا الصعلوك ، هذا المتشرد الفاسد الطوية ، نصب مدفعيته ، ورسم خطة لجعلي أسلم له مفاتيح القلعة التي كنت أنا حارسة عليها غير أمينة . فلاطفني ، وتملقني وأسرني بلطفه واجتذب احساني بتفاهات أعطانيها ، لكن أكثر ما أثر في هو بعض المثاني التي سمعته ينشدها ذات ليلة كنت فيها أطل من النافذة المطلة على الحارة التي كان فيها . وهذه إحدى المقطوعات ، لو صدقت ذاكرتي :

من عدوتي العذبة
يتولد داء يجرح النفس
وزيادة في العذاب
تريد مني أن أحس
به ولا أفصح عنه[1]

بدت لي المقطوعة عقدا من اللؤلؤ ، وصوتها من المبرت[2] ، ومنذ ذلك الحين ومنذ أن شاهدت البؤس الذي أوقعني فيه هذا الشعر وشبهه أرى أن من الواجب ، كما نصح أفلاطون أن ينفى الشعراء من الممالك المنظمة ، وعلى الأقل الشعراء الشهوانيون ، لأنهم ينظمون قصائد لا مثل شكاة مركيز منتوا ، التي تسر النساء وتبكي الأطفال ، بل قصائد مرهفة تنفذ في الروح كالأشواك الرقيقة دون أن تؤلم الأبدان ، وتحرق النفوس مثل الصواعق ، دون أن تمس الثياب . ومرة أخرى أنشد :

تعال أيها الموت خفيا
بحيث لا أشعر بقدومك

(١) يرى بيثر أن هذه المقطوعة مترجمة من مقطوعة لسيرافينو أوكولانو ، الشاعر الإيطالي .
(٢) الكلمة الأسبانية Almibar عربيتها هي التي أثبتناها ومعناها السكر المعقود .

لئلا تردني لذة الموت إلى الحياة[١]

وأستطيع أن أورد مقطوعات أخرى من النوع نفسه تسحر حين تنشد ، وتخلب اللب حين تقرأ ، وخصوصا لون من الشعر شائع الاستعمال في قندية ، ويسمى سجديا : فالسجديات تلذ النفس وتثير الضحك وتهز البدن ، وهي بمثابة زنبق لكل العواطف . أقول إذن يا سادة ، أن من الواجب نفي هؤلاء الشعراء إلى جزر العظايا[٢] ، وإن لم يكن الذنب ذنبهم بل ذنب الحمقى الذين يقرأونهم ، والبله الذين يصدقونهم ، لأني لو كنت وصيفة صالحة كما ينبغي ، لما تأثرت باختراعاتهم العتيقة ولم أصدق كلامهم حين يقولون : أحيا ميتا ، واحترق في الثلج ، وارتعد في النار وآمل في غير أمل ، وأرحل وأبقى » . ثم يعدونك بعنقاء البلاد العربية وتاج أريان ، وأفراس الشمس ولآلئ بحر الجنوب ، وذهب التبر[٣] وبلسم بنكايا ، ثم يطلقون العنان لريشتهم ،إذ لا يكلفهم شيئا أن يعدوا بما لم يفكروا فيه أبدا . لكن إلى أين أضل أنا الشقية البائسة ؟ وما جنوني بالاستمتاع برسم عيوب الآخرين ، وأنا بسبيل أن أعرب عن عيوبي أنا ؟ نعم أنا بائسة ، لأنه ليس الشعر ولا الموسيقى هما اللذان جذباني بل طيشي وسذاجتي . فتح جهلي الكبير وقلة تمييزي الطريق وشقا السبيل إلى دون كلافيجو ، وهذا هو اسم الفارس ، وبواسطتي سمح له مرة ومرات ، بدعوى أنه زوج شرعي حقيقي بالدخول في مخدع أنطونوماسيا ، وقد خدعتها أنا لا هو ، لأنني وإن كنت كثيرة الذنوب ، فإني لم أكن لأسمح أبدا بأن يمس كعب حذائها إن لم يكن زوجها ، كلا ، كلا وألف مرة كلا ، إن الزواج سيكون دائما في مقدمة كل الأمور التي من نوع ما أنا مشغولة به . وأكبر خطأ ارتكبته في هذه المسألة هو عدم التكافؤ بين الطرفين ، لأن دون كلافيجو لم يكن غير مجرد فارس ، وأنطونوماسيا كما قلت كانت وريثة عرش مملكة كبيرة . وهذا التدبير ظل مستورا وقتا طويلا ، بفضل الاحتياطات التي اتخذتها ، إلى أن بعث الخوف في نفسي انتفاخ في بطن أنطونوماسيا ، قد يكشف عما وقع فتشاورنا ، وكانت نتيجة مشاوراتنا هو أن يطلب كلافيجو الزواج من أنطونوماسيا علنا ،

---

(١) هذه المقطوعة أصلها للكومندادور اسكريبا ، مع تغيير بسيط .

(٢) جزر غير مسكونة ، ربما كانت من ممتلكات البرتغال في الهند ، كان ينفى فيها المجرمون العتات والعظايا : السحالي .

(٣) في النص De tibar el oro ويرى كوباروبياس أن المقصود هو نهر التبر ، ولكن البعض يرون أن المقصود بـ Tibar هو الكلمة العربية : التبر ، أي الذهب التبر . غير أن التبر في العربية يدل على الذهب غير المضروب .

استنادا على وعد بالزواج قطعته على نفسها وريشة العرش ، وصنعته أنا بمهارة وقوة بحيث لا تستطيع كل قوة شمشون الجبار أن تنقضه . وبدئت الاجراءات ، وقرأ الكاهن الوعد ، وتلقى اعتراف السيدة فاعترفت بكل شيء بغير صعوبة ، وهنالك اقتادها إلى بيت محضر شريف في القصر .

فصاح سنشو : ماذا! هل في مملكة قندية محضرون في البلاط وشعراء سجديات ؟ يا لله! أعتقد أن العالم كله واحد . لكن أسرعي يا سيدتي تريفالدي ، فقد تأخر الوقت ، وأموت شغفا لمعرفة تتمة هذه الحكاية الطويلة .

فقالت الكونتيسة : وهذا ما أنا فاعلته .

الفصل التاسع والثلاثون

حيث تتابع الكونتيسة تيفالدي تاريخها العجيب الجدير بالذكر

اغتبطت الدوقة بكل كلمة كان يقولها سنشو بقدر ما تضايق منها دون كيخوته ، فأسكت سانسه ، وتابعت « المكروبة » قصتها هكذا .

« وبعد كثير من الاستجابات التي أخضع لها الكاهن وريثة العرش ، وقد شاهد أنها تصر على كلامها ، دون أن تعدل في أو تعدل عن تصريحها الأول ، أصدر قرارا لصالح كلافيجو ، فقرر أن وريثة العرش زوجة شرعية له . فتضايقت الملكة مجونثيا ، أم أنطونوماسيا من هذا الزواج حتى إنه بعد ثلاثة أيام كان علينا أن ندفنها » .

فقال سنشو : لقد ماتت إذن ؟

فأجابت تريفالدين : طبعا ، لأنه في قندية لا يدفن إلا الأموات .

فقال سنشو : سيدي البائس ، كثيرا ما دفن شخص أصيب بغيبوبة على اعتقاد أنه مات . ولهذا يبدو لي أنه كان من الأفضل للملكة مجونثيا أن تصاب بغيبوبة بدلا من أن تموت ، لأنه بالحياة يعالج الكثير من الأمور ، وغلطة وريثة العرش لم تكن كبيرة بحيث ينبغي لها كل هذا الاغتمام . ولو كانت تزوجت غلاما أو خادما في بيتها ، كما فعلت الكثيرات كما سمعت ، لكان الداء بغير دواء ، لكن الاقتران بفارس نبيل حسن التربية ، كما وصف لنا ، الواقع أنه ولو أن هذه حماقة فإنها لم تكن من الفظاعة بقدر ما ظن ، لأنه ، تبعا لمبادئ مولاي الحاضر هنا ، وهو لا يدعني أكذب ، كما إنه من الناس المثقفين يصنع أساقفة ، فكذلك من الفرسان خصوصا إذا كانوا جوالة ، يمكن عمل ملوك وأباطرة .

فقال دون كيخوته : أنت على صواب يا سنشو ، لأنه على قيد أصبعين من الحظ يمكن الفارس الجوال أن يصير أعظم سيد في العالم . لكن استمري أيتها السيدة المكروبة ، إذ يبد لي أنه بقي عليك أن تروي الجانب المر في هذه الحكاية العذبة حتى الآن .

فقالت الكونتيسة : أوه ، نعم ، بقي الجانب المر ، المر إلى حد أنه لو قورن بالحنظل لكان هذا حلوا والدفلى لذيذة . ماتت إذن الملكة ولم تصب بغيبوبة ، فدفناها ، لكنا لم نكد نواريها التراب ونودعها الوداع الأخير ، حتى (من الذي يسمع هذا ويتوقف عن البكاء ؟) ظهر فجأة على قبر الملكة المارد ملبرونو ، ابن عمها لحا ، وهو يركب فرسا من الخشب ، وهذا الساحر القاسي ، سحر على القبر نفسه كلافيجو وأنطونوماسيا عقابا لوقاحة الأول وجنون الثانية . فتحولت الأميرة إلى قردة من البرنز ، وتحول زوجها إلى تمساح مخيف من معدن مجهول . وهذان الشكلان يفصلهما نوع من القاعدة ، نقش عليها باللغة السريانية نقش ترجم إلى لغة قندية ، ثم إلى الأسبانية ، هو : «هذان العاشقان الطائشان لن يستردا حالتهما الأولى إلا إذا جاء الباسل المنتشاوي لمنازلتي في مبارزة فردية . إن المصائر احتفظت لبسالته وحدها بنهاية هذه المغامرة التي لم يسمع بمثلها .» وبعد ذلك استل الساحر من غمده صفيحة هائلة ، وأمسكني من شعري ، وبدا عليه أنه يريد أن يحتز رأسي . فتملكني الفزع ، وتعلق لساني بلهاتي ، وحسبت أن هذه لحظتي الأخيرة ، ولكني تغلبت على نفسي ، وبصوت متهدج نائح قلت له أشياء مؤثرة جعلته يوقف تنفيذ قراره القاسي ، وأخيرا أتى بكل وصيفات القصر ، وهن هؤلاء الماثلات أمامكم هنا ، وبعد أن بالغ في خطيئتنا وأنحى باللائمة على الأخلاق الفاسدة ، وأحوال الوصيفات ، وحيلهن ومكائدهن وألقى عليهن جميعا مسئولية الإثم الذي كنت وحدي مسئولة عنه ، قال لنا إنه لا يريد أن يعاقبنا بالموت ، ولكنه يعاقبنا بعقوبة أبطأ تعطينا موتا مدنيا متواصلا ، وفي اللحظة نفسها ، شعرنا بمسام وجوهنا تفتح وبدا لنا أننا في كل مكان نشك بسنان الإبر ، فرفعنا الأيدي إلى أوجهنا ووجدنا ما سترون» .

وفي اللحظة نفسها نزعت المكروبة وسائر الوصيفات النقب التي تغطي وجوههن ، وكشفن للحاضرين عن لحى كبيرة حمراء ، وسوداء ، وبيضاء مختلطة ، أدهشت - فيما يبدو - الدوق والدوقة ، وذهل منها دون كيخوته وسنشو وكل الحاضرين ، واستمرت المكروبة تقول : «وبهذه الطريقة عاقبنا هذا الخائن ، هذا الشرير ملمبرونو ، مغطيا وجوهنا الرقيقة المريضة بهذا الوبر القاسي الحاد . وكنا نفضل أن يقطع رؤوسنا بصفيحته الرهيبة ، على أن يسود روعة جمالنا بهذا الزغب الذي يغطي الوجه؛ لأننا إذا روينا في الأمر يا سادة (وبودي لو جعلت من عيني نافرتين ، ولكن مصائبي والبحار التي اخترقناها قد أنضبتها وجعلتها جافة كالقفار) ، ففي أي مكان ، قولوا لي ، يمكن أن تسير سيدة

ذات لحية ؟ وأي والد ، أو والدة يمكن أن يشفق عليه ؟ ومن ذا الذي ينجدها ؟ إذا كانت البشرة النضرة المصقولة ، والوجه الذي أنهكته مئات المساحيق يصعب عليهما أن يسرا ، فما بالكم بوجه يغطيه غابة ؟ أيتها الوصيفات ، أي صواحبي! لقد ولدنا في برج نحس! »

ولما أتمت هذه الكلمات تظاهرت بالإغماء .

الفصل الأربعون

في الأمور المتعلقة بهذه المغامرة وبهذا التاريخ الخالد الذكر

الحق أن الذين سيقرأون هذا التاريخ ينبغي عليهم أن يشكروا لسيدي حامد ، مؤلفه الأصلي ، لعنايته بإيراد كل التفاصيل ، دون أن ينسى أي شيء ، وبوضوح بارز : إنه يرسم أفكار الممثلين ، ويكشف عن مشروعاتهم ، ويجيب على ما لا يذكر صراحة ، ويوضح الشكوك ، ويحل المشاكل ، وبالجملة ، يكشف في كل موضع عن عناية بالغة . أيها المؤلف الشهير! أي دون كيخوته السعيد! أي دلثنيا الذائعة الصيت! أي سنشو پنثا المحبوب! ألا ليت كل واحد منكم ، وأنتم جميعا ، تعيشون طوال قرون متوالية إمتاعا لبني الإنسان .

والتاريخ يروي أن سنشو حين شاهد «المكروبة» مغمى عليها ، صاح :

ـ وديني وإيماني ، أحلف بحياة كل الپنثاوات أسلافي ، أني لم أسمع ، ولم أر ، وأن مولاي لم يرَ ولم يتخيل أبدا مغامرة شبيهة لهذه . فليأخذك ألف شيطان أيها الساحر المارد الملعون ملمبرينو! أليس عندك عقاب آخر غير أن تعطي لحى لهؤلاء الخاطئات المسكينات ؟ أما كان الأفضل أن تشق أنوفهن إلى شقين ، حتى لو اضطررن إلى الكلام بأنوفهن بدلا من أن تجعلهن ذوات وبر هكذا ، وأنا أراهن أنه ليس معهن الوسيلة لدفع أجرة من يحلق لحاهن!

فأجابت إحدى الوصيفات الاثنتي عشرة : لقد قلت الحق ، يا سيدي ، فليس معنا مال لجز لحانا ، ولهذا تخيلت البعض منا هذا العلاج : وهو أن نضع على وجوهنا لبخة فيها قطران ، ثم ننتزعها بعد ذلك بقوة ، فنجد بعد ذلك ذقوننا محلوقة وناعمة مثل قاع مونة من الحجر : لأنه ، على الرغم من أنه توجد في قندية ، سيدات يذهبن من بيت إلى بيت لمشط النسوة ، وتلميع حواجبهن ، وبذل العناية المتعلقة بتجميل النساء ، فإننا معشر وصيفات

السيدة ، لم نرد أن نسمح بدخولهن علينا ، لأن غالبيتهن يعملن قوادات ، وإذا لم يأت السيد دون كيخوته لنجدتنا ، فسنحمل لحانا حتى القبر .

فقال دون كيخوته : أفضل أن تنتف لحيتي في بلاد المسلمين على ألا أخلصكن من لحاكن .

وفي هذه اللحظة أفاقت الكونتيسة تريفالدي من إغمائها ، وقالت له : «إن رنين وعدك ، أيها الفارس الباسل ، وصل إلى أذني وسط إغمائي ، وهذا ما جعلني أفيق وأسترد وعيي . لهذا أستحلفك من جديد ، أيها الفارس اللامع ، الجوال ، الذي لا يقهر ، أن تنفذ في الحال وعدك العظيم اللطيف» . فأجاب دون كيخوته : «إنه لا يتوقف على عدم تنفيذه ، أنظري يا سيدتي ما ينبغي فعله ، وشجاعتي مستعدة لخدمتك» .

فقالت المكروبة : من المؤكد أن المسافة من هنا حتى مملكة قندية ، إذا كان السفر برا ، مقدارها خمسة آلاف فرسخ ، إلا فرسخين تقريبا ، زيادة أو نقصانا ، لكن إذا سافرنا جوا ، في خط مستقيم ، فإن المسافة تصبح ثلاثة آلاف ومائتين وسبع فراسخ فقط . وأنت تعلم أن ملمبرونو قال لي إنه إذا كان من حسن حظي أن أجد الفارس الذي يحررني ، فإنه سيرسل إلي ركوبة أفضل وأقل سوءا من فرس بالأجرة ، لأنه هو الفرس نفسه من الخشب الذي عليه حمل الباسل بطرس ماجلونه الجميلة : وهو يتحرك بواسطة مفتاح في وجهه يستخدم للكبح ، ويطير في الهواء بسرعة هائلة حتى ليخيل إلى المرء أن كل العفاريت تحمله . وتبعا للنقول القديمة فإن هذا الذي صنعه الحكيم مرلان ، وأعاره إلى صديقه بطرس ، الذي استخدمه في الأسفار الكبيرة ، ومن أجل اختطاف ماجلونه الجميلة ، كما سبق أن قلت ، وقد حملها في الهواء ، تاركا في ذهول كل أولئك الذين كانوا ينظرون إليها وهم على الأرض ، لكن مرلان كان لا يعير هذا الفرس الثمين إلا لأولئك الذين يحبهم أو يدفعون له أجرة أكبر ، ومنذ بطرس البروفنصالي حتى الآن لم يعرف أن أحدا استخدمه . وقد استولى عليه ملمبرونو بحيلة منه : وهو في حوزته ، ويستخدمه في أسفاره المختلفة في أركان العالم الأربعة . فهو هذا الصباح في فرنسا ، وغدا في بوتوسي . وأعجب ما هناك أن هذا الفرس لا يأكل ولا ينام ، ولا يستهلك نعاله الحديدية ، وهو يسير رهوا في الهواء ، بغير أجنحة ، وسيره لطيف حتى أن من يركبه يمكنه أن يمسك في يديه فنجانا مملوءا بالماء دون أن يسقط منه قطرة ، وهذا هو السبب في أن ماجلونة الجميلة كانت تحب ركوبه .

فقال سنشو : إذا كانت المسألة مسألة السير بهدوء ، فإن حماري ، ولو أنه لا يطير في الهواء ، ينافس على الأرض كل ركائب العالم .

فضحك الجميع ، واستمرت المكروبة في كلامها قائلة : « هذا الفرس إذا كان في نية ملمبرونو أن يضع حدا لمصائبنا ، سيكون هنا في موعد غايته نصف ساعة بعد زوال النهار ، لأنه قال لي أن العلامة التي أتعرف بها أني وجدت الفارس المطلوب هو أن أرى الفرس » .

فقال سنشو : وكم يستطيع الفرس حمله من أشخاص ؟

فأجابت المكروبة : اثنين ، واحدا على السرج والآخر في الخلف ، وفي العادة يكون الفارس وسائسه ، إذا لم يكن ثم آنسة للاختطاف .

ـ وما اسمه ؟

ـ اسمه بيجاس ، مثل فرس بليروفون ، لابوسيفال ، كما هو اسم فرس الاسكندر ، ولا بريادور ، مثل اسم فرس أورلندو الغاضب ، ولا بايار ، مثل فرس رينو دي مونتوبان ، ولا فرونتان ، مثل فرس روجيه ، ولا بوتس أوبيرتوا ، مثل أفراس الشمس ، ولا أورليا ، مثل الفرس الذي ركبه ابائس رودريج (لذريق) آخر ملوك القوط ، حين فقد التاج والحياة .

فقاطع سنشو قائلا : أراهن أنه ما دام لم يعط اسم أي واحد من هذه الأفراس المشهورة ، أنه ليس اسمه روثينانته ، اسم فرس مولاي ، وهو اسم حافل بالصفات أعظم من كل الأسماء التي ذكرتها .

فأجابت الكونتيسة ذات اللحية : لقد قلت الحق ، ومع ذلك فاسمه يليق به تماما ، لأن اسمه هو « اللحام الخفيف » بسبب المفتاح الذي في جبهته ، وخفة سيره : وهكذا فإن اسمه ملائم تماما مثل روثينانته .

فقال سنشو : هذا الاسم لا يضايقني ، لكنني أود أن أعرف بأي كابح أو عنان يوجه .

فأجابت الكونتيسة تريفالدي : لقد قلت لك : : بواسطة المفتاح ، فإذا أدير من ناحية أو أخرى ، وجهه الفارس كما يشاء ، أما إلى أعلى الهواء ، أو على سطح الأرض ، أو بينهما وهو ما ينبغي فعله في كل أمر حسن .

فقال سنشو : أود أن أراه ، لكن أن أركب عليه ، سواء على السرج أو على المؤخرة ، فهذا مثل البحث عن الكمثرى تحت شجرة الدردار : إني بمشقة أمسك بنفسي على حماري ، وعلى برذعة أنعم من الحرير ، وتريد مني أن أركب على مؤخرة فرس من الخشب ، بغير خشية ولا شجاعة! لا ، والله! لا أريد أن ألمحن نفسي من أجل إزالة اللحى من أي إنسان : وليحلق كل إنسان كما يريد ، أما عن نفسي ، فلا أشعر بأية رغبة في مصاحبة مولاي في هذه الرحلة ، ثم إنه فيما يتعلق بجر هذه اللحى ، فلا فائدة في ، كما هي الحال بالنسبة إلى رفع السحر عن السيدة دلثنيا .

فقالت تريفالدي : بل أنت مهم ، وضروري لنا حتى أنه بدونك لا نستطيع شيئا .

فقال سنشو : وهذه مصيبة أخرى! ما شأن السواس في مغامرات أسيادهم ؟ هل ينالهم منها شرف ؟ وهل علينا نحن أن نتحمل عناء العمل ؟ يا لموت حياتي! لو أن المؤرخين على الأقل قالوا : هذا الفارس قد أنجز هذه المغامرة أو تلك بمعونة سائسه ، ولولاه لكان من المستحيل إنجازها لكنهم يكتفون بأن يكتبوا : «دون باراليبومينون ذو النجوم الثلاثة أتم مغامرة العفاريت الستة» ، دون ذكر شخص سائسه ، الذي كان حاضرا في كل شيء ، وكأنه لم يوجد أبدا . وأكرر لكم القول يا سادة فأقول إن مولاي يستطيع أن يذهب وحده ، والله يوفقه ؛ أما أنا فسأبقى في صحبة السيدة الدوقة ، ويجوز أنه حين يعود السيد دون كيخوته سيجد مسألة السيدة دلثنيا قد انتهى ثلاثة أرباعها ، لأنه في أوقات فراغي نويت على أن أضرب نفسي ضربات لا يبقى علي بعدها أي شعر .

فقالت الدوقة :ومع هذا يا سنشو الطيب ، لا بد أن تصحب مولاك ، إذا كان في حاجة إليك ، وكل أهل الخير يرجون منك أن تفعل هذا ؛ وليس من اللائق ، بسبب خوف لا محل له ، أن تترك وجوه هؤلاء السيدات يسكنها هذا الوبر .

فقال سنشو : هذه مصيبة أخرى ، هكذا أقول ، لو أن هذا الإحسان يتم لصالح آنسة مترهبة ، أو بنت من بنات الرهبنة ، لتحمل الإنسان هذا العناء ، لكن أن يتعذب من أجل إزالة اللحية عن وصيفات ، فتلك ثالثة الأثافي! إني أفضل أن أراهن جميعا ذوات لحى ، من أكبرهن حتى أصغرهن ، ومن أكثرهن غنجا حتى أشدهن لباقة .

فقالت الدوقة : أنت لا تحب الدونيات يا عزيزي سنشو ، وتتمسك كثيرا برأي صيدلي طليطلة ، وأنت في هذا على خطأ ؛ إن عندي وصيفات هن نماذج ، والدليل على هذا هو الدونيا رودريجث الحاضرة هنا ، ولا أذكر المزيد .

فقالت السيدة رودريجث : أتمي يا صاحبة السعادة ، والله يعلم الحقيقة ، أننا معشر الوصيفات ، طيبات كن أو رديئات ، بغير لحى أو بلحى ، قد ولدتنا أمهاتنا كسائر النساء ، وما دام الله خلقنا في الدنيا ، فإنه يعرف السبب . وإني أكل أمري إلى رحمته ، لا إلى لحية أي إنسان .

فقال دون كيخوته : كفى يا سيدة رودريجث ، وعلى السيدة تيفالدي وصواحبها أن يتشجعن ، وآمل أن ترحمهن السماء في محنتهن ، أو يفعل سنشو ما آمره به . وليأت « اللحام » فقط ، ولأنازل ملمبرونو ؛ ولن يستطيع أي موسى أن يحلق لحاكم أسرع من إطاحتي برأس هذا المارد من فوق كتفيه . إن الله يمهل الأشرار ، ولكن ذلك لا يدوم طويلا .

فصاحت المكروبة : آه! رعتك نجوم المناطق السماوية بعيون مشفقة يا صاحب العظمة ، أيها الفارس المغوار ، ولتعطك من الشجاعة بقدر ما تعطيك من السعادة ، والقوة ، حتى تكون دائما حصنا ودرعا للجنس المهان المحقر ، جنس الوضيعات ، اللواتي يكرههن الصيادلة ، ويسبهن السواس ، ويحتال عليهن الغلمان!ألا لعنة الله على الحمقاء التي كانت في زهرة عمرها أول من فضلت أن تكون وضيعة على أن تكون راهبة! ما أشقانا! لو انحدرنا في خط مباشر ، من ذكر إلى ذكر ، من هيكتور الطروادي ، لما تنازلت سيداتنا وشرفتنا بالخطاب باحترام ، حتى لو كان ذلك يجعلهن ملكات . أيها المارد ملمبرونو! على الرغم من أنك ساحر فأنت أمين على وعودك : إبعث إلينا «باللحام» المعدوم النظير ، حتى تنتهي محنتنا ، لو جاء القيظ ، وبقيت لحانا ، فما أشقانا!

ونطقت المكروبة بهذه الكلمات بتأثر وانفعال جعل الجميع يبكون ، وخصوصا سنشو ، الذي قرر في نفسه أن يصحب مولاه إلى آخر العالم لو توقف عليه سقوط الشعر عن هذه الوجوه المحترمة .

الفصل الحادي والأربعون

وصول «اللحام» ونهاية هذه الحكاية الطويلة

وأخيرا دخل الليل ، ومعه اللحظة التي لا بد أن يقدم فيها الفرس الشهير المسمى «اللحام» ، الذي بدأ تأخره يشيع القلق في نفس دون كيخوته : لأنه حين لم يره يظهر ، لم يدر لعل هذه المغامرة تتعلق بفارس آخر غيره ، أو أن ملمبرونو تردد في منازلته . لكن فجأة شوهد يدخل في الحديقة أربعة متوحشون ، كلهم مغطون باللبلاب ، ويحملون على أكتافهم فرسا كبيرا من الخشب ، وضعوه على الأرض ، وقال أحدهم : «فليركب الفارس الذي يأنس في نفسه الشجاعة! » فقال سنشو : «إذن ليس إياي ، لأني ليس عندي أية شجاعة ، ولست فارسا » . فاستمر المتوحش قائلا : «وليركب السائس إذا وجد ، في المؤخرة ، وليثق بالمغوار ملمبرونو ، لأنه ليس له أن يخشى أي كمين ، ولا أي شيء آخر غير سيف الخصم . وما عليه إلا أن يدير المفتاح الموجود في عنق الفرس ، وهو يقودهما في الهواء إلى المكان الذي فيه ملمبرونو ، ولكن نظرا إلى أن الارتفاع الهائل الذي سيكونان فيه قد يسبب لهما دوارا ، فمن المستحسن ربط عينيهما . فإذا صهل الفرس ، فهذه علامة على نهاية رحلتهما » . وبعد هذا الكلام ، ترك المتوحشون الفرس هنا ، وعادوا .

ولما أبصرت «المكروبة» الفرس قالت لدون كيخوته : «أيها الفارس المغوار! لقد أنجز ملمبرونو وعده : فهذا هو الفرس ، ونحن نشعر بلحانا تنمو ، وبحق كل شعرة فيها نستحلفك أن تحلقنا أو تجزنا : ولا ينبغي من أجل هذا إلا أن تركب على الفرس أنت وسائسك ، وتبدأ رحلتك الجديدة بداية موفقة » .

فقال دون كيخوته : سأفعل ، يا كونتيسة تريفالدي ، عن طيب خاطر وشجاعة كبيرة ، وسأركب بغير سرج ولا مهماز ، حتى لا أتأخر ، لأني متلهف على رؤيتك بغير لحية أنت وصواحبك كلهن .

وقال سنشو : أما أنا فلن أفعل هذا ، لا عن رضى ولا عن كراهية ، بأي حال من الأحوال ، وإذا لم يتم هذا الجز دون الركوب في مؤخرة الفرس ، فإن مولاي يستطيع العثور على سائس آخر غيري يصحبه ، أو تجد هؤلاء السيدات وسيلة أخرى لصقل وجوههن : أنا لست ساحرا حتى أطير هكذا في الهواء . وماذا عسى أن يقول رعيتي في الجزيرة إذا عرفوا أن حاكمهم يتجول في الفضاءات الخيالية ؟ ثم إنه ما دام ثم ثلاثة آلاف فرسخ وكذا فرسخ من هنا حتى قندية ، فلو أن الفرس تعب أو المارد غضب ، أمضينا ست سنوات في العودة ، ولن يكون هناك جزيرة ولا جُزَيِّرة تعرفني . ثم إن المثل الشائع يقول إن الخطر في التأخر ، وأننا إذا أعطينا البقرة فينبغي أن نمسك بالحبل . ولا تنزعج لحى هؤلاء السيدات إن القديس بطرس مبسوط في روما ، إني مبسوط في هذا القصر ، وفيه أعامل معاملة طيبة ، وربه يؤملني في نعمة أن أكون حاكما .

فقال الدوق : يا عزيزي سنشو ، إن الجزيرة التي وعدتك بها ليست متحركة ولا هرابة : إن لها في أحشاء الأرض جذورا عميقة لا تستطيع أكبر الجهود أن تزعزعها من مكانها . ومن ناحية أخرى ، أنت لا تجهل أنه لا يوجد أي منصب ذي أهمية لا يشترى ببعض القيود المتفاوتة في الشدة وما أطلبه منك من أجل الحكم ، هي أن تصحب مولاك دون كيخوته ، لتعطي البداية والنهاية لهذه المغامرة الخالدة الذكر . اصعد إذن على الفرس « اللحام » ، وعد بكل السرعة المنتظرة منك . وإذا شاء الحظ العاثر أن تعود سيرا على الأقدام كحاج ، يذهب من بيت إلى بيت ، ومن نزل إلى نزل ، فمهما تكن المدة التي تستغرقها في العودة فستجد دائما جزيرتك كما تركتها ، ورعيتك مستعدين دائما لاستقبالك حاكما . وقراري لا يتزعزع ، وشكك فيه يا سنشو سيكون إهانة بارزة لرغبتي الشديدة في إسداء المعروف إليك .

فقال سنشو : لا تزد على هذا يا سيدي : أنا لست إلا سائسا مسكينا ، ولا أملك الرد على كل هذا التلطف . فليركب إذن مولاي ، وليربطوا على عيني ، ولأتكل على اللّه ، وليقولوا لي هل حين أكون هناك فوق ، أستطيع أن أدعو اللّه وملائكته .

فقال تريفالدي : طبعا ، تستطيع أن تدعو من تشاء : وملمبرونو ، وإن كان ساحرا ، فإنه مسيحي ، وهو يقوم بعمليات سحره بكل فطنة وتمييز ، دون أن يجلب على نفسه الملامة .

فقال سنشو : ليكن إذن ، وليكن اللّه في عوني ، والثالوث المقدس في جنبتا .

فقال دون كيخوته : الحق أنه منذ المغامرة الخالدة الذكر المتعلقة بطواحين الكبس ،

لم أشاهد سنشو مرتاعا مثله الآن ، ولو كنت مثل غيري أتأثر ، لطمأنت جبانته شجاعتي . لكن اسمع يا سنشو ، بعد إذن الجماعة أريد أن أقول لك كلمتين .

واقتاد سائسه إلى تحت أشجار الحديقة ، وأمسك بيده وقال : «أنت ترى ، يا أخي سنشو ، السفرة الطويلة التي سنقوم بها ؟ اللّه يعلم متى نعود منها ، وأي فراغ تتركه لنا الأمور : ولهذا أود منك أن تنسحب لحظة إلى غرفتك ، وكأنك تبحث عن شيء ضروري للرحلة ، وفي زمن قليل تضرب نفسك خمسمائة أو ستمائة ضربة ، تطرحها من الثلاثة آلاف وثلثمائة التي تعهدت بها ، وتدخلها في حسابك ، لأن بدء الشيء نصف اتمامه» . فقال سنشو : «واللّه يا سيدي لا بد أنك مجنون ، إنك تشبه من يقال عنه : أنت تراني في مصيبة ، وأنت تطلب مني ابنتي! علي الآن أن أركب الفرس عاريا ، وأنت تريد مني مع ذلك أن أمزق أردافي بضربات السوط الآن ، الحق أنك فقدت عقلك . هيا بنا نحلق هؤلاء السيدات : وعند العودة أعدك بأن أبذل جهدي لإنجاز وعدي والتزامي ، بحيث ترضى ، أما الان ، فلا تتحدث عن هذا الأمر» . فقال دون كيخوته : «هذا الوعد يواسيني يا سنشو يا طيب ، وأنا واثق أنك ستفي به ، لأنك وإن كنت ساذجا بعض السذاجة ، فأنت مخلص وصادق» . فقال سنشو : «أنا أسمر ، ولست أخضر ، ولكن حتى لو كنت متعدد الألوان ، فسأفي بوعدي» .

وعادا إلى حيث الفرس«اللحام» . ولما اقتربا منه قال دون كيخوته : «هيا بنا يا سنشو ، اعصب عينيك ، واركب . إن من يبعث إلينا من مثل هذه البلاد البعيدة ، لا يقصد التغرير بنا : وأي مجد يناله من خداع من يثقون به ؟ وإذا لم تسر الأمور كما نأملُ ، فإن مجد القيام بمثل هذه المغامرة بمأمن من كل نقد . فأجاب سنشو : «هيا بنا يا مولاي إن على قلبي دموع هؤلاء السيدات ولحاهن ، ولن آكل لقمة مفيدة حتى أراهن في حالتهن الأولى . لكن اركب أنت أولا ، لأني ما دمت سأركب في المؤخرة فمن الواضح أن من يركب على السرج ينبغي عليه أن يركب قبل الآخر» . فأجاب دون كيخوته : «أنت على حق» ، واستل من جيبه منديلا ، وطلب من المكروبة أن تعصب عينيه ، لكنه رفع الرباط بعد قليل وهو يقول : إذا صدقت ذاكرتي ، فإني قرأت في فرجيليوس ما يقوله عن بلاديوم طروادة : وكان فرسا من الخشب قدمه اليونان إلى الآلهة بلاس ، ويحتوي في داخله على فرسان مسلحين ، قاموا بعد ذلك بتهديم المدينة : فمن الخير إذن أن نرى ما في باطن الفرس «اللحام» . فقالت المكروبة : «لا داعي لهذا ، وأنا زعيمة أن ملمبرونو ليس خائنا ولا شريرا : فلتركب سيادتك دون خوف ولا وجل ، وأنا مسؤولة عن أي أذى يصيبك» .

ففكر دون كيخوته أنه لو ألح لكان في ذلك اتهام لشجاعته ؛ ولهذا وبدون أي اعتراض ركب على الفرس «اللحام» ، ووضع يده على المفتاح ، فدار بسهولة . ولما لم يكن له ركاب ، فقد كان ساقاه يتدليان ، وكان يشبه شكلا مرسوما في أبسطة الفلاندر ، يمثل انتصارا رومانيا . ثم أخذ سنشو يركب ، ولكن ببطء وعن كره ؛ ورتب أمره على المؤخرة بقدر ما استطاع ، ولما وجدها قاسية ، سأل الدوق ألا يستطيع الحصول على مخدة أو حشية ، ولو من منصة الدوقة أو من سرير أحد الغلمان ، لأن مؤخرة الفرس تشبه المرمر لا الخشب ، كما قال . فقالت الكونتيسة تريفالدي إن الفرس اللحام لا يتحمل أي زينة أو عدة عليه ؛ وإذا شاء سنشو فله أن يركب مثل النساء حتى لا يشعر بقساوة المقعد . ففعل سنشو ذلك ، وتركهم يعصبون عينيه ، وودع الجماعة ؛ لكنه كشف العصابة بعد لحظة ، وتطلع في كل الحاضرين ، والدموع في عينيه واستحلف كل واحد بأن يقول له دعوة «أبانا» و«سلام لك...» حتى يساعدهم الله إذا وجدوا في مثل هذه الرهبة . فقال دون كيخوته : «أيها الجبان! هل أنت على المشنقة أو في نهاية حياتك ، لتطلب هذه الدعوات؟ ألست جالسا ، أيها المخلوق الجبان ، في الموضع نفسه الذي كانت تجلس فيه ماجلونه الجميلة ، ومنه نزلت لا لتدفن بل لترتقي عرش فرنسا ، إذا صدق المؤرخون ؛ وأنا الذي أركب معك ، ألا تستطيع أن أقارن نفسي بالمغوار بطرس ، لأني أشغل المكان نفسه الذي كان يشغله؟ غط عينيك إذن ، غطها ، أيها الحيوان العديم الشجاعة ، ولا تخرجن من فمك مثل هذه الكلمات الجبانة ، على الأقل في حضوري» . فقال سنشو : «أعصب عيني إذن ؛ وما داموا لا يريدون أن أكل أمري إلى الله ، ولا أن يفوض أمري إليه ، فإني أخشى تماما أن نجد هناك كوكبة من الشياطين تقتادنا إلى برلبيو[1]» . وعصبوا عيونه ، ولما استقر دون كيخوته في السرج ، أدار المفتاح ؛ وفي الحال صاحت كل الوصيفات والحاضرون : «الله يرشدك ، أيها الفارس المغوار! الله يرشدك ، الله معك ، أيها السائس الجسور! إنكما تشقان الهواء أسرع من السهم ، وتثيرون إعجاب من ينظرون إليكما من أسفل . أثبت تماما ، أي سنشو الباسل ؛ أنت تتحرك فقط ، حذار أن تقع ، إن سقوطك سيكون أشد فظاعة من سقوط المتهور الشاب الذي أراد أن يسوق مركبة الشمس» . وكان سنشو يسمع هذا الكلام ، وقال وهو يحتضن مولاه بشدة : «مولاي! لا أعرف لماذا يقول هؤلاء الناس أننا نصعد عاليا : إن صوتهم يصل إلينا وكأنهم

(١) قرية بالقرب من ثيودريال ، كان يعدم فيها قطاع الطرق الذين تحكم عليهم محكمة طليطلة بالاعدام .

يتكلمون في اذاننا» . فقال دون كيخوته : «لا تستند إلى هذا ، يا سنشو ، لأنه لما كانت هذه الطريقة في السير خارجة عن الطرق المعتادة ، فإنك سترقى آلاف الفراسخ ، وستسمع دائما الصوت . لكن لا تحتضني بشدة هكذا ، وإلا أوقعتني . والحق أني لا أعرف ما الذي يجعلك تضطرب وتخاف ، وإني لأقسم أني لم أركب في حياتي فرسا وديعا كهذا . لكأنه لا يتحرك من مكانه . أبعد المخاوف عنك إذن ، يا عزيزي : الأمور تجري كما ينبغي لها أن تجري ؛ إن الريح في مؤخرتنا . فقال سنشو : «هذا حق لأنه من هذه الناحية أشعر بريح شديدة وكأن آلاف المنافيخ مصوبة نحونا» . وهو لم يخطئ في هذا ، لأنهم أحدثوا ريحا كبيرة بواسطة منافيخ كبيرة ؛ والدوق والدوقة وناظر البيت قد رتبوا اللعبة بإحكام ، بحيث لم ينقص شيء لجعلها كاملة . ولما أحس دون كيخوته هو الآخر بالريح ، قال : «لا شك في أننا وصلنا إلى منطقة الهواء الثانية ، حيث يتكون البرد ، والثلج ، والبروق ، والرعود ؛ أما أشعة الشمس فتكون في المنطقة الثالثة ، وإذا استمررنا في الصعود هكذا ، وصلنا بسرعة إلى منطقة النار ، لأني لا أعرف كيف أضبط هذا المفتاح حتى لا نصل إلى حيث نحترق» . وفي هذه اللحظة ، وبعونة مشاقات[١] مشتعلة ومواد قابلة للاحتراق وسهلة الاطفاء ، وضعت على طرف يراعات طويلة ، بدأوا يبثون الحرارة في وجوههم . فلما أحس سنشو بالحرارة ، قال : «لأمت إذا لم نكن الآن في منطقة النار ، أو بالقرب منها ، إن نصف لحيتي قد شوي . وعندي رغبة في أن أرفع العصابة لأشاهد أين نحن» . فقال دون كيخوته : «حذار من هذا ، وتذكر القصة الحقيقة التي وقعت لحامل الليسانس تورليا[٢] ، الذي حملته الشياطين في الهواء ، ممتطيا عصا ، وعيناه مغمضتان . وفي مدى اثنتي عشر ساعة أصبح في روما ، واستراح في برج كانوفا ، وهو شارع في روما ، وشاهد كل الضجة والهجوم وموت بوربون ، وفي الصباح عاد الى مدريد ، حيث قدم تقريرا عن كل ما شاهده . وتورليا هذا روي عنه أيضا أنه بينما كان يجتاز الهواء ، أمره الشيطان بفتح عينيه ، ففتحهما ووجد نفسه ، كما خيل إليه قريبا جدا من جسم القمر ، بحيث كان يستطيع أن يمسك به بيديه ، لكنه لم يجرؤ على النظر إلى الأرض ، خوفا من أن يصاب بدوار . ولهذا إذن يا سنشو ، ينبغي ألا ترفع العصابة عن

---

(١) ذبالات .

(٢) حكمت محاكم التفتيش على الدكتور يوخنيو تورليا بالإعدام بتهمة أنه ساحر في سنة ١٥٣١ . وقد كان في الواقع رجلا مجنونا زعم أن في خدمته عفريتا اسمه زقيال ، وكان يكلمه برطانة نصفها ايطالية والنصف الآخر اسبانية ، ويدعي أنه تحمله بجسمه في الهواء .

أعيننا ، ومن التزم باقتيادنا سيقدم تقريرا عنا ، وربما نحن نقوم بهذه التوجيهات في الهواء نسبقط دفعة واحدة على مملكة هندية ، كما يفعل البازي حين ينقض على البلشون من أجل أن يأخذه من أعلى ، مهما حاول أن يرتفع . وعلى الرغم من أننا لم يمض علينا في الظاهر غير نصف ساعة منذ أن تركنا البستان ، فصدقني أننا لا بد قطعنا مسافة عظيمة من الطريق» . فأجاب سنتو : «واللّه لا أدري أين نحن ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنه إذا كانت السيدة مجيانس أو ماجلونه قد رضيت عن هذه المؤخرة ، فلا بد أن جلدها ليس رقيقا» .

وكل هذا الحوار بين الشجاعين سمعه الدوق والدوقة ومن كانوا في الحديقة وملأهم سرورا . وأخيرا ، لإعطاء نهاية جيدة لهذه المغامرة الغريبة المتقنة الصنع ، أشعلت النار في ذيل الفرس «اللحام» بواسطة المشاقات ؛ وفي اللحظة نفسها ، لما كان الفرس مليئا بالصواريخ والمفرقعات ، انفجر في الهواء بضجة مروعة ، ملقيا دون كيخوته وسنشو على الأرض وكلاهما شائط .

وقبل ذلك بلحظات كانت كوكبة الوصيفات ذوات اللحى قد تركت الحديقة مع الكونتيسة تريفالدي وكل حاشيتها ، والذين بقوا في الحديقة صاروا كالمغمى عليهم متمددين على الأرض . ونهض دون كيخوته وسنشو وهما في حالة سيئة ، وتلفتا في كل ناحية ، ودهشوا كل الدهشة لما وجدا نفسيهما في الحديقة نفسها التي بدءا منها ، ووجدا الكثير من الناس ممددين على الأرض بغير حراك . وزادت دهشتهم حينما شاهدا عند نهاية الحديقة ، رمحا مغروزا في الأرض علق به برشمان ، بحبلين من الحرير الأخضر ، والبرشمان مصقول أبيض وعليه قد كتب بحروف كبيرة من الذهب :

«الفارس المغوار دون كيخوته دلا منتشا قد أتم وأنجز مغامرة الكونتيسة تريفالدي ، الملقبة بلقب الوصيفة المكروبة وحاشيتها ، لأنه حولها فقط ؛ وملمبرونو يعد نفسه راضيا كل الرضا . وذقون الوصيفات حلقت وصارت ملساء ، والملك ، دون كلافيجو والملكة أنطونوماسيا عادا إلى حالتهما الأولى . وحين يتم الجلد السائسي ، تفلت الحمامة البيضاء من المخالب المطعونة للحواء التي تضطهدها ، وتصبح بين ذراعي ذكر الحمام العزيز . وبهذا أمر الحكيم مرلان الساحر الأول بين كل السحرة» .

ولم يكد دون كيخوته يفك رموز البرشمان حتى فهم في الحال أن المقصود هو ارتفاع السحر عن دلثنيا . فشكر للسماء قيامه بهذه المهمة العظيمة بأقل التكاليف ، ولأن النعومة قد عادت إلى وجوه الوصيفات الموقرات اللواتي ذهبن ، ثم اقترب من المكان الذي كان فيه

الدوق والدوقة لا يزالان في حذر . فحرك بيده الدوق وقال له : «هيا يا سيدي الكريم تشجع ، ليس في الأمر شيء ، انتهت المغامرة ، دون خطر على النفس والجسم ، كما يدل على ذلك البطاقة المكتوبة المعلقة هناك» . وشيئا فشيئا عاد الدوق إلى وعيه ، كإنسان يخرج من نوم ثقيل . وفعلت الدوقة الشيء نفسه وكذلك كل الذين كانوا ممدين في الحديقة ، وعليهم أثارات الدهشة والإعجاب بحيث كان يخيل الى المرء أنه وقع لهم حقا ما تظاهروا به من أجل التسلية والضحك . وقرأ الدوق البطاقة ، وعيناه نصف مغمتضين ، ثم فتح ذراعيه وذهب ليعانق دون كيخوته ، وهو يقول إنه أحسن فارس عرفته العصور . وفتش سنشو عن «المكروبة» ، ليرى وجهها بدون لحية ، وهل هي جميلة وذقنها مصقولة كما يؤذن بذلك سماحة وجهها . لكن قيل له إنه في اللحظة التي نزل فيها الفرس الخشبي محترقا من أعلى الهواء ، وسقط على الأرض مفرقعا ، اختفت كوكبة الوصيفات هن والكونتيسة تريفالدي ، وأنهن حلقت لحاهن دون أن يبقى أي أثر للشعر .

وسألت الدوقة سنشو كيف حاله بعد هذه الرحلة الطويلة ، وماذا جرى له فيها فقال : «أنا ، يا سيدتي ، شعرت بأننا نطير ، حسب ما يقوله مولاي ، في منطقة النار ، وأردت أن أفتح عيني لحظة ، لكن مولاي ، الذي استأذنته في رفع العصابة ، لم يوافق . هنالك وأنا رجل متشوق يدغدغني الميل إلى معرفة ما يراد منعي من معرفته ، بكل هدوء ودون أن يراني أحد نحيت قطعة صغيرة من الرباط ، بجانب الأنف ، تطلعت منها إلى ناحية الأرض ، وبدا لي أنها كلها ليست أكبر من حبة خردل ، وأن الناس الذين يمشون عليها ليسوا أكبر من حبات البندق ، فاحكمي تبعا لهذا على مقدار ارتفاعنا في تلك اللحظة» .

فقاطعته الدوقة قائلة : لكن حذار يا عزيزي سنشو مما تقول . يظهر أنك لم تر الأرض ، بل الناس الذين يمشون عليها ؛ لأنه إذا كانت الأرض قد بدت لك كحبة خردل ، وكل رجل كبندقة ، فمن الواضح من هذا أن الرجل الواحد يكفي لتغطية الأرض كلها .

فأجاب سنشو : هذا صحيح ومع ذلك فإني أبصرتها من زاوية صغيرة وشاهدتها كلها .

فقالت الدوقة : لاحظ أنه من زاوية صغيرة لا يمكن رؤية مجموع الشيء الذي ينظر إليه .

فقال سنشو : أنا لا أفهم شيئا في هذه التدقيقات . كل ما أعرفه هو أن سيادتك لا بد أن تفهم ، أنه ما دمنا نطير بالسحر ، فبالسحر أيضا استطعت أن أرى الأرض كلها وكل الناس ، بأية طريقة شاهدتهم بها ، فإن كنت لا تصدقين هذا ، فإنك لن تصدقي أيضا أنني حين كشفت عن عيني من ناحية الحواجب شاهدت نفسي بالقرب من السماء بحيث لم يكن

بينها وبيني غير شبر ونصف ، وأستطيع أن أقسم لك ، يا سيدتي ، أن السماء كبيرة بشكل فظيع . وحدث أننا كنا نطير من الناحية التي فيها السبع عنزات[1] ، ولما كنت في صغري معازا في بلدي فإني أحلف بالله وبروحي أنني حين رأيتها شعرت برغبة شديدة في الحديث معها لحظة ، ولو لم أحقق هذه الرغبة لمت منها . فاقتربت منها إذن! وماذا فعلت! دون أن أقول لأحد ، ولا لمولاي ، نزلت ببساطة عن الفرس الخشبي «اللحام» وأخذت أتحدث مع الماعز ، وهي في الحقيقة رقيقة مثل المنثور ، حلوة مثل الأزهار ، لمدة ثلاثة أرباع الساعة على الأقل ، وفي أثناء هذه المدة لم يتحرك الفرس من موضعه .

فسأل الدوق : لكن حينما كان سنشو الطيب يتحادث مع الماعز ، ماذا كان يفعل دون كيخوته ؟

فأجاب دون كيخوته : لما كانت هذه الأمور قد وقعت خارج العادة ، وخارج النظام الطبيعي للأمور ، فليس بعجيب أن يقول سنشو ما يقول أما أنا فإني أستطيع أن أقول إنني لم أكشف عيني لا من أعلى ولا من أسفل ، ولم أر السماء ولا الأرض ولا البحر ولا الصحارى الرملية . صحيح أنني أحسست بأني كنت أمر في منطقة الهواء ، بل وأني لمست منطقة النار ، أما أن نكون قد واصلنا السير إلى أبعد من ذلك فذلك ما لا أعتقده . والواقع أنه لما كانت منطقة النار بين السماء والقمر وآخر طبقات الهواء ، فإننا لم نكن نستطيع الوصول إلى السماء التي توجد فيها العنزات السبع التي تكلم عنها سنشو دون أن نحترق ، فما دمنا لم نحترق فإما أن سنشو يكذب ، أو سنشو يحلم .

فقال سنشو : أنا لا أحلم ولا أكذب وإلا فاسألوني عن علامات هذه العنزات ، وسترون إذا كنت أقول الحقيقة أم لا .

فسألته الدوقة : طيب ، ما شكلها يا سنشو ؟

فقال سنشو : هكذا : إثنتان خضراوان ، واثنتان حمراوان ، واثنتان زرقاوان ، والأخيرة متعددة الألوان .

فقال الدوق : هذا جنس جديد من الماعز ، وفي هذه المنطقة من أرضنا لا ترى مثل هذه الألوان .

فقال سنشو : هذا واضح! تصور الفارق بين عنزات السماء وعنزات الأرض .

فقال الدوق : قل لي يا سنشو ، هل رأيت بين هذه العنزات كبشا ؟

---

(١) اسم يطلقه الفلاحون الاسبان على الثريا (وهي مؤلفة من سبعة نجوم) .

فقال سنشو : لا يا سيدي ، لكني سمعت أنه لا حيوان بقرون يجتاز قرون [1] القمر .

ولم يشأ الدوق والدوقة أن يسألا سنشو المزيد من أنباء رحلته ، لأنه بدا لهما أنه بسبيل التجوال خلال السماوات السبع ، وإنبائهما بأخبار كل ماجرى ، دون أن يتحرك من الحديقة . وهكذا انتهت مغامرة الوصيفة (المكروبة) ، التي أثارت الكثير من الضحك ، ليس فقط طوال المدة التي جرت فيها ، بل وأيضا طوال حياتهما كلها ، وزودت سنشو بزاد من الحكايات لمدة قرون . واقترب دون كيخوته من سائسه وهمس في أذنه قائلا : «سنشو ، ما دمت تريد أن يصدقوا ما شاهدته في السماء ، فأنا أريد بدوري أن تصدق ما شاهدته أنا في كهف مونتسينوس ، ولا أزيد على هذا» .

---

(١) يتلاعب الدوق وسنشو بالكلمة Cabrpn التي تدل في الوقت نفسه على الكبش وعلى أقرن (= ذو قرون) .

الفصل الثاني والأربعون

في النصائح التي أسدها دون كيخوته إلى سنشو پنثا قبل أن يذهب هذا لحكم جزيرته، وأمور أخرى معتبرة جداً

وكانت النهاية الشائقة السعيدة لمغامرة «المكروبة» مما بعث الرضا في نفس الدوق والدوقة حتى انهما قررا الاستمرار في هذه الممازحات وقد شاهدا أي شخص مناسب وقع بين أيديهما يحسب هذه الممازحات جدا لا هزلا . فوضعا الخطة وأصدرا الأوامر لرجالهما وأتباعهما فيما يتعلق بالتصرف مع سنشو في حكم الجزيرة الموعودة ، في اليوم التالي لطيران الفرس الخشبي ثم طلب الدوق من سنشو أن يتزين ويتهيأ للذهاب لحكم الجزيرة ، قائلا أن رعيته في الجزيرة ينتظرونه انتظار الغيث في شهر أيار .

فجثا سنشو حتى الأرض وقال له : منذ أن نزلت إلى الأرض ، ومنذ أن تأملت ، من أعاليها اللامتناهية ، الأرض ورأيتها صغيرة جدا شعرت بهدوء الرغبة العارمة التي تعتلج في صدري حبا في الحكم . فأين العظمة في حكم حبة خردل ؟ وأية مهابة ، وسلطات في حكم ستة من الناس الذين لا يزيد حجمهم عن البندق ؟ إذ بدا لي أنه لم يوجد أكثر من هذا العدد على ظهر الأرض . فإذا شاء سيادتك أن تمنحني قسما صغيرا جدا من السماء ، ولو نصف فرسخ ، فإني أفضله على أكبر جزيرة في العالم .

فأجابه الدوق : تنبه يا عزيزي سنشو إلى أنني لا أملك أن أعطي إنسانا أي جزء من السماء ، ولا أكبر من سعة الأظفور لأنه للّه وحده الحق في منح مثل هذه المنح والنعم . وما أستطيع أن أعطيكه ، أعطيكه ، جزيرة كاملة ، مستديرة متناسبة ، خصبة جدا ووفيرة الغلة ، فيها يستطيع إذا أحسنت السلوك ، أن تكتسب ثروات الأرض وثروات السماء معا .

فأجاب سنشو : هذا حسن ، فلتأت هذه الجزيرة ، وسأعمل على أن أكون ذلك الحاكم الذي يغدو توا إلى السماء على الرغم من فساد المحكومين . وليس هذا بسبب طموحي إلى الخروج من كوخي ولا للترقي إلى أعلى عليين ، ولكن لأنني أريد محاولة تذوق طعم الحكم .

فقال الدوق : إذا طعمت منه مرة يا سنشو ، التهمت أصابعك بعدها ، لأنه أمر جميل أن تأمر وتطاع . ومن المؤكد أنه حين يصبح سيدك امبراطورا ـ وهو سيكون امبراطورا من غير شك ، إذا حكمنا على مجريات الأمور بالنسبة إليه ؛ فلن يكون من السهل خلعه ، وسترى أنه سيتأسف في أعماق نفسه على كل الزمن الذي مضى ولم يكن فيه امبراطورا .

فقال سنشو : سيدي ، أنا أتخيل أنه حسن أن يحكم الإنسان ولو كان على قطيع من الغنم .

فقال الدوق : ليقبروني معك يا سنشو إذا لم تكن عالما بكل شيء وآمل أن تصير حاكما صالحا بقدر ما يؤذن به حسن تمييزك . لكن لنقف عند هذا ، وتنبه إلى أنك ذاهب غدا صباحا لتولي الحكم في الجزيرة . في هذا المساء ستزود بالكسوة اللازمة التي ينبغي عليك ارتداؤها ، وكل الأشياء الضرورية لسفرك .

فقال سنشو : ليلبسوني ما يشاؤون ، فمهما لبست فإني سأكون دائما سنشو پنثا .

فقال الدوق : هذا حق ، ومع ذلك فإن الملابس ينبغي أن تتلاءم مع المهنة التي يمارسها الإنسان ، أو المنصب الذي يشغله . وليس من اللائق أن يلبس القاضي الزي العسكري ، ولا الرجل العسكري زي رجل الدين . وأنت يا سنشو ستلبس نصف عالم ، ونصف قائد ، لأنه في الجزيرة التي أعطيك إياها ، السلاح ضروري مثل الآداب ، والآداب مثل السلاح .

فقال سنشو : في الآداب لا أعرف شيئا ، لأني لا أعرف حتى ألف باء . ولكن يكفيني أن أعرف عن ظهر قلب (المسيح)[1] من أجل أن أكون حاكما صالحا ممتازا . أما السلاح فإني أمارس منه ما يعطى لي إلى أن أسقط ، وأصبح تحت رحمة الله .

فقال الذوق : بمثل هذه الذاكرة الفذة لا يمكن سنشو أن يخطئ في شيء .

وفي تلك الأثناء وصل دون كيخوته . ولما علم بما جرى ، وعرف ضرورة التعجيل في سفر سنشو إلى جزيرته ، استأذن الدوق وأخذ بسنشو من يده ، واقتاده إلى غرفته ، ابتغاء أن يسدي إليه نصائح تتعلق بالكيفية التي ينبغي عليه بها أن يشغل وظيفته . ولما بلغا الغرفة ، أغلقها على نفسيهما ، وأجلس سنشو بالإكراه تقريبا ، وقال له بصوت هادئ متزن :

---

(١) المسيح Christus ؛ علامة التصليب التي تسبق (ألف باء) في كتب المطالعة للمبتدئين في المدارس الأولية . ثم أطلقت بوجه عام على كتاب (ألف باء) . ولكن سنشو يطبق هذه الفكرة ببراعة على المثل الذي يقول أنه للحكم حكما صالحا أحرى بك أن تجعل الله حاضرا من أن تعرف معلومات كثيرة . وبعبارة أخرى ؛ مراعاة الله أهم في الحكم من كثرة العلم .

« أحمد الله على جزيل نعمه ، يا عزيزي سنشو ، لأن الحظ قد واتاك وأخذ بيدك قبل أن أصادف حظا سعيدا ، وأنا الذي كنت أظن أني سأجد في النعم التي سيمنحني الحظ إياها ، ما أدفع به أجر خدماتك ، لا أزال أرى نفسي في مستهل طريقي ، وأنت ، قبل الأوان ، وضد قانون كل تقدير معقول ، قد تحققت أمانيك . بعض الناس يوزعون الهدايا والمكرمات ، ويصلون ، ويستيقظون ويترجون ، ويصرون ، ولا ينالون ما يطلبون . ثم يأتي شخص آخر ، ودون أن يعرف كيف ولماذا ، يحظى بالمنصب الذي ألح في تلمسه الكثيرون . وفي الظفر بالمناصب ينبغي أن يقال أن المسألة مسألة حظ أو عدم حظ . وأنت ، ولست في نظري غير حمار كبير ، دون أن تصحو في الصباح ولا تسهر الليالي ، ودون أن تقوم بأي مجهود ، وفقط لأن الفروسية الجوالة مستك بأنفاسها ، ها أنت تصبح حاكم جزيرة لا أكثر ولا أقل . أقول لك هذا يا سنشو حتى لا تعزو إلى كفايتك النعمة التي أسبغت عليك بل تشكر أولا السماء التي دبرت الأمور بإحسان ، ثم تشكر العظمة التي تنطوي عليها في ذاتها حماية فارس جوال . والآن وقد صار قلبك مهيئا لاعتقاد ما قلته لك ، فكن يا ولدي ، متنبها إلى كاتون[1] الجديد هذا الذي يريد أن يسدي إليك النصح ، ويريد أن يكون بوصلتك ومرشدك للوصول إلى بر الأمان على هذا البحر العاصف الذي تريد أن تقذف بنفسك فيه ، لأن المناصب العليا ليست غير هاوية عميقة سحيقة ، مغطاة بالظلام وحافلة بالعقبات .

« أولاً يا ولدي اتق الله ، لأن في تقواه الحكمة ، وإذا صرت حكيما لم تضل أبدا » .

« ثانيا ، أنظر دائما فيمن أنت ، وابذل كل الجهود الممكنة لتعرف نفسك وتلك أشق معرفة يمكن تحصيلها . فإن عرفتها فإنك لن تنتفخ مثل الضفدعة التي أرادت أن تسوي نفسها بالثور[2] . وفي هذه الحالة إذا جعلك الغرور تنفش زمكاك كالطاووس ، فإن ثم اعتبارا أجعله بديلا من التطلع في قبح رجليك[3] وهو أن تتذكر أنك كنت ترعى الخنازير في قريتك » . فقاطعه سنشو قائلا : « لا أستطيع أن أنكر هذا ، لكن ذلك كان حين كنت صبيا صغيرا . وبعد ذلك ، ولما صرت شابا ، رعيت الإوز ، لا الخنازير لكنني أظن أن هذا لا شأن له بما نحن فيه ، لأنه ليس جميع الحكام من أصلاب الملوك » . ـ فأجاب دون كيخوته :

---

(١) ثربانتس يقصد هنا ديونسيوس كاتون ، الذي كان كتابه ، Disticha de moribus ad filiam كتابا كلاسيكيا في جامعات أسبانيا .

(٢) إشارة إلى إحدى خرافات إيسوفوس ١ ، ٢٤ .

(٣) إشارة إلى الطاووس إذ يقال أنه يطوي زمكاه (ريش ذيله) إذ نظر في رجليه ، لأنهما قبيحتان فيطمئن حين يراهما من غروره . وقد قال الأخ لويس دي غرناطة مستعملا التشبيه والمجاز نفسيهما : « أنظر أقبح ما فيك ، تطوي حالا زمكي غرورك » .

«هذا صحيح ، ولهذا فإن الذين ليسوا من أصل نبيل ينبغي عليهم أن يقرنوا بجلال المهنة التي يمارسونها رقة ولطفا ، يمنعهم إذا أحسنت الفطنة توجيههم من عضات النميمة وسوء القالة ، ولا يوجد منصب بمنجاة منهما » . ثم تابع النصائح قائلا :

«افتخر يا سنشو بوضاعة أصلك ، ولا تخجل من القول بأنك تنحدر من أسرة حرّاث . فإذا رأوك لا تخجل من ذلك فلن يتخذ منها أحد ذريعة لتعييرك ، وتفاخر بأنك فاضل متواضع بدلا من أنك خاطئ متكبر . وما أكثر الذين ولدوا من أصل وضيع ثم ارتفعوا إلى أعلى مراتب الدين أو السلطان ، وأستطيع أن أذكر لك من الأمثلة ما يتعبك» .

«وتنبه يا سنشو إلى أنك إذا اتخذت الفضيلة دليلك ، وتفاخرت بفعل الخير ، فينبغي عليك أن تحسد أولئك الذين كان أسلافهم أمراء وأعيانا عظاما ، لأن الدم يورث والفضيلة تكتسب ، والفضيلة تساوي بنفسها وحدها ما لا يمكن الدم أن يساويه» .

«وما دام الأمر هكذا فإنه إذا جاء لزيارتك أحد من أقاربك ، فلا تطرده ولا تهنه ، بل بالعكس عليك بحسن استقباله وملاطفته والاحتفاء به . بهذه الطريقة تؤدي واجباتك نحو السماء ، هي لا تحب أن يحتقر إنسان ما خلقته ، وواجباتك نحو الطبيعة» .

«وإذا أخذت زوجتك معك (ولا يليق بمن في الحكم أن يبقوا زمنا طويلا بغير زوجاتهم) ، فاعتنِ بتلقينها ، وتنحيفها ، وإخراجها من جلافتها الطبيعية ، لأن كل ما يمكن الحاكم الفطن أن يكتسبه يضيع هدرا بواسطة الزوجة الحمقاء الجافية الأخلاق .

«وإذا تصادف وصرت أرملَ ، وهو أمر يجوز أن يقع لك ، وإذا مكنك منصبك من العثور على زوجة ثانية من أصل أفضل ، فلا تأخذها على الأقل من أجل أن تكون لك طعما ويراعا للصيد ، أو ممن يتظاهرن برفض ما يتحرقن شوقا للحصول عليه ، لأني أقول لك : في الحق أن كل ما تأخذه زوجة القاضي يقع على حساب الزوج ، في يوم الحساب ، وبعد موته يدفع أربعة أضعاف ثمن الخطايا التي لم يرتكبها أثناء حياته .

«ولا تحكم الهوى في نفسك : فهذا من شأن الجهلة ، الذين يتصورون أنفسهم أذكياء دون سائر الناس» .

«وليكن لدموع الفقير تأثير في نفسك أكثر ، لا عدالة أكبر ، من شكاوى الغني» .

«واعمل على الكشف عن الحقيقة ، من خلال وعود الغنى وهداياه ، كما من خلال زفرات الفقير ومضايقته» .

«وحين يمكن ويجب الاصغاء للعدالة ، فلا تلق بكل شدة القانون على المذنب ، لأن سمعة القاضي القاسي ليست أفضل من سمعة القاضي العاطف» .

«وإذا تركت أحيانا درة العدالة تلين ، فلا يكون هذا تحت تأثير الهدايا ، بل تأثير الرحمة» .

«وإذا قدر لك أن تحكم في قضية أحد أعدائك ، فانس إهانته ، ولا تعتبر إلا حقيقة الوقائع» .

«ولا يعمينك الهوى في أمور الغير : فإن أخطاءك إما أن تصبح بغير علاج ، أو لا يكون لها علاج إلا على حساب مالك وشرفك» .

«وإذا طلبت منك الانصاف امرأة جميلة ، فأغمض عينك عن دموعها ، وأذنك عن نواحها : وافحص طلبها بنزاهة ودقة ، حتى لا يغرق عقلك في دموعها ، وتخنق زفراتها فضيلتك» .

«ومن ترد عقابه ، لا ترهقه بالشتائم : فيكفي عذابه ، دون أن تضيف إليه كلمات السباب» .

«وفي الذنب الذي يقع تحت طائلة حكمك ، أنظر دائما بؤس الإنسان ، وأنه معرض لانحرافات الطبيعة الفاسدة . وفي كل ما تستطيع ، كن رحيما وارحمن ، دون أن تجرح العدالة : لأنه على الرغم من أن صفات الله كلها متساوية ، فإن رحمته تلمع بسطوع أعذب من عدالته» .

«فإن أتبعت يا سنشو هذه النصائح ، طالت أيامك ، وقرن بالخلد مجدك ، وتطهرت متعك ، وحظيت بسعادة لا توصف ، وتزوج أولادك كما تريد ، وهم وذريتهم يظفرون بالألقاب المشرفة ، وتعيش في سلامة ، محبوبا ، مبجلا من كل الناس ، وشيخوختك تكون هادئة عذبة ، وتبلغ نهاية العمر بغير تأنيب مفيد ، فتغلق عينيك أيدي أحفادك الناعمة الرقيقة .

«والنصائح التي أوردتها تتعلق بكمال النفس . فاسمع الآن نصائح تتعلق بتزيين البدن» .

الفصل الثالث والأربعون

تلاوة نصائح دون كيخوته لسنشو پنثا

من ذا الذي يسمع أقوال دون كيخوته هذا ولا يظنه امرءا حكيما مزودا بعقل كبير ؟ والواقع أنه لم يكن يخرف ، كما رأينا مرارا في هذا التاريخ الكبير ، إلا حين يتعلق الأمر بالفروسية ؛ وفيما عدا ذلك كان يكشف عن عقل سليم ، وفكر نير ؛ حتى أن أفعاله كانت في كل لحظة تكذب أقواله ، وأقواله تكذب أفعاله . وفي تلاوة النصائح التي أسداها إلى سنشو كشف عن استقامة في الحكم ووفرة في العقل . وكان سنشو يصغي إليه بانتباه بالغ ، محاولا أن يحتفظ في ذاكرته بهذه النصائح الغالية ، التي أمل من ورائها أن يصل إلى مرفأ الأمان في إدارة حكومته الشاقة .

وتابع دون كيخوته نصائحه هكذا :

«وفيما يتصل بحكم شخصك وبيتك فإن أول ما أوصيك به يا سنشو ، أن تكون نظيفا وتقص أظافرك ، ولا تدعها تنمو مثل بعض الجهلة الذين يعتقدون أن طول الأظافر يزيد في جمال الكف ؛ وهذه لوثة كريهة خسيسة ، كما لو كانت هذه الزيادة القبيحة التي يرفضون بترها تشبه بالأحرى مخالب طائر صيد لا أظافر إنسان .

«لا تظهر أمام الناس بثوب مهلهل ؛ فإن هذا الإهمال يكشف عن جبن صاحبه وضعفه ؛ اللهم إلا إذا كان يستر مكيدة كبيرة ، كما ظن بيوليوس قيصر .

وافحص جيدا قيمة منصبك . فإن كان يكفيك لإعطاء زي رسمي لرجالك ، فأعطه محتشما مفيدا ، لا لماعا وثيرا ؛ وقسمه بين خدمك والفقراء ؛ أقصد أنه إذا كان عندك ما يكفي لكسوة ستة غلمان ، فلا تكسِ غير ثلاثة فقراء ، وبهذا تكون لك غلمان في السماء على الأرض . وهذه الطريقة الجديدة في إعطاء الأزياء ليست معروفة لمن ينصرفون إلى الفخفخة الزائفة .

«ولا تأكل ثوما ولا بصلا ؛ فإن رائحتهما الكريهة تدل على وضاعة أصلك . إمش بوقار ، وتكلم باتزان ، لكن بحيث لا يظهر عليك أنك تصغي إلى نفسك ، لأن كل تصنع فاسد .

« كل قليلا ، وتعش أقل ؛ فصحة كل الجسم تتوقف على المعدة وحدها » .

« إشرب باعتدال ؛ فإن السكر لا يعرف كيف يحفظ السر ولا أن ينفذ العهد » .

«ولا تمضغ بشدقيك معا ، وحذار أن تتجشأ أمام الناس» .

فقال سنشو : مولاي ، أنا لا أفهم معنى (أتجشأ) .

فقال دون كيخوته : «تجشأ» أي «تكرع» وهي من أخس كلمات لغتنا ، وإن كانت قوية التعبير ، ولهذا فإن الذين يتباهون بحسن التعبير اقتربوا من اللاتينية وقالوا Eruter بدلا من .Regoldar وإذا لم يفهم أحد هذه الكلمات فلابأس عليه ؛ والاستعمال والزمان يدخلها شيئا فشيئا ، وهنالك تصبح مفهومة ؛ وهذا هو ما يسمونه إغناء اللغة ، وللاستعمال والعامة تأثير كبيرعليها .

فقال سنشو : «الواقع يا مولاي أن هذه النصيحة الأخيرة هي من تلك التي سأعمل بها خصوصا ؛ لأن عندي عادة سيئة هي التكرع في أحيان كثيرة» .

ـ «ثم يا سنشو ـ هكذا استمر دون كيخوته في إسداء نصائحه ـ ينبغي ألا تخلط بكلامك هذا الحشو الهائل من الأمثال التي تلقيها كل يوم ؛ لأنه وإن كانت الأمثال جملا قصارا ، فإنك أحيانا تشدها من شعورها بحيث تتبدى هوسا أكثر منها أمثالا .

فقال سنشو : «هذا أمر لا يستطيع أن يعالجه إلا الله وحده ؛ لأني أعرف من الأمثال أكثر مما في كتاب ؛ وحين أتكلم تأتي إلى فمي بغزارة بحيث تتنازع أيها يخرج منه أولا ، ولساني يمسك بأول مثل يلقاه ، سواء كان مناسبا أو غير مناسب ؛ ولكني سأعنى منذ الآن فصاعدا بألا أتفوه إلا بالأمثال التي تتفق وكرامة منصبي ؛ في بيت الثري العشاء حاضر في الحال ؛ من يعط أوراق الكوتشينة لا يفنطها ؛ من يدق ناقوس الخطر في أمان منه ؛ الإعطاء والامتلاك يستبدان بالأذهان» .

فقال دون كيخوته : هيا يا سنشو استمر ، أسلك ، واحشٍ ، وراكم الأمثال ، فلا أحد يمنعك ؛ أمي تعاقبني ، وأنا أضرب الحذاء . في الوقت الذي أطلب فيه منك أن تقضي على أمثالك ، تصب منها كالمطر مما ينتسب إلى موضوعنا إنتساب جبال أبذة إليه . ألم أقل لك إن المثل الذي في غير محله يضايق ؟ وتكديسها خبط عشواء يجعل الكلام مهلهلا سمجا تافها .

«حين تركب الفرس ، لا تنحن على قربوس السرج ، ولا ترفع رجليك ، ولا تبعدها عن بطن الدابة ، ولا تنطلق مثلما تفعل على حمارك : إن الطر ق المختلفة لركوب الفرس تميز بين الخيال وبين غلام الاسطبل .

«اعتدل في نومك : فإن من لا يستيقظ مع الشمس لا يستمتع بجمال النهار . وتذكر يا سنشو أن الاجتهاد أبو الحظ السعيد ، وأن الكسل ، عدوه ، لا يبلغ أبدا الغاية التي ينشدها .

«واسمع نصيحة أخيرة ، وإن لم تنفع في كمال البدن ، فإنها تستحق أن تغرزها في ذاكرتك ، لأني أعتقد أنها لن تكون أقل فائدة لك من سائر النصائح . لا تتناقش أبدا في الأسر ، على الأقل فيما يتعلق بالمقارنة بينها ، إذ لا بد أن يكون بعض الأسر أفضل من بعض ؛ إذ ستجعل عدوا لك من حططته ، دون أن تلقى من الغير أي جزاء » .

« ينبغي أن يتكون لباسك من سراويل محكمة ، وصديرية طويلة ، ومعطف أطول . أما التبانات[1] فأرى أنها لا تليق بالفارس ولا بالحاكم » .

« تلك ، يا عزيزي سنشو ، هي كل ما عندي من نصائح لك الآن . ووفقا للوقت والظروف سأسدي لك أخرى ، بشرط أن توافيني بأنباء أمورك وأحوال حكومتك » .

فقال سنشو : مولاي! إني أدرك تماما أن كل ما تفضلت علي به هو لصالحي ؛ لكن فيماذا تفيدني نصائحك إذا لم أتذكر واحدة منها ؟ أما فيما يتصل بزواجي ثانية وبعدم ترك أظافري تطول ، فهذا سأتذكره . لكن فيما يتعلق بكل هذه الترهات والالتواءات والتدقيقات ، فإني لن أفكر فيها أكثر من تفكيري في ثلوج العام الماضي .ولهذا فمن الضروري أن تعطيني إياها مكتوبة ، فإني وإن لم أعرف الكتابة ولا القراءة ، فإني سأعطيها لمتلقي اعترافاتي ، وسيزودني بها عند الحاجة .

فقال دون كيخوته : يا لي من خاطئ! إنه لعار ألا يعرف الحاكم الكتابة والقراءة! أنت لا تعرف يا سنشو أنه حين يشاهد رجل أعسر ، أو لا يعرف القراءة ، فإنه سيتنتج من هذا أنه إما من أسرة بائسة من أحط الطبقات ، أو أنه فاسد الطبع رديء النحيزة بحيث لم يستطع العلم الصحيح والعرف الحسن أن ينفذا في عقله . إن هذا عيب فيك كبير ، يا عزيزي ، وأود منك على الأقل أن تعرف كيف توقع باسمك .

فقال سنشو : هذا أعرفه ؛ لأني حين كنت خادما في كنيسة قريتنا ، تعلمت عمل

---

(١) التبان Greguescos ؛ سروال من الخصر إلى الركبة .

حروف مثل تلك التي توضع على الحزم وكان يقال إن هذا يكون اسمي ؛ لكني سأصنع خيرا من هذا إذ سأقول إن يدي اليمنى مشلولة ، ويوقع غيري نيابة عني : لكل داء دواء يستطب به إلا الموت . إني حين أمسك بالعصا والقيادة ، سأفعل ما أريد ، خيرا من العمدة ، لأن الحاكم أكبر من العمدة . اقتربوا يرحب بكم . وإلا فليحتقروني وليسيئوا القول في : هؤلاء يأتون للحصول على الصوف فيعودون مجزوزين ؛ لأنه حين يريد الله أن يصيب أحدا بخير ، فإنه يظهر في بيته . حماقات الغني يعدها الناس حكمة ؛ وأنا ، بما أني سأصبح غنيا ، لأني سأكون حاكما ، وسخيا جدا ، كما أود أن أكونه ، فإن أحدا لن يتعقب أغلاطي . كن عسلا يأكلك الذباب . قيمتك حسب ما تملك ، هكذا كان يقول أحد أجدادي . من رجل غني لن تستطيع الانتقام أبدا...

فصاح دون كيخوته : أوه! لعنة الله عليك! ستون ألف شيطان يأخذونك أنت وأمثالك! مضت ساعة وأنت تنظمها وراء بعضها وكل واحد منها يعذبني . وأؤكد لك أن أمثالك ستؤدي بك يوما إلى المشنقة : وستكون سببا في أن تطلب رعيتك طردك من الحكم ، أو ستقوم الفتن ضدك . قل لي أيها الجاهل ، من أين تأخذها ، هذه الأمثال ؟ وكيف تطبقها ؟ حين أريد أن أورد مثلا مناسبا ، أتصبب عرقا من الجهد والتعب ، كما لو كنت أحفر الأرض .

فقال سنشو : يا مولاي ، وافقني علي أنك تغضب لأمور تافهة جدا . أي شيطان يلومني على أن أستغل مالي : وأنا لا أملك درهم ، وكل ثروتي هي أمثالي ، وفي هذه اللحظة تبادر إلى فمي أربعة أمثال جاءت في محلها ، أو كالكمثرى في السلة : لكني لن أقولها ، لأن سنشو يسمى « الفم المسدود » .

فقال دون كيخوته : لا ، سنشو هذا ليس إياك ؛ لأنك لا تفعل غير الكلام والتنازع بحق وبغير حق خبط عشواء ؛ ومع ذلك فإني أريد أن أعرف ما هي هذه الأمثال الأربعة الملائمة جدا فيما تقول ؛ فإني عبثا أحاول أن أفتش في رأسي ، وهو ليس غبيا فلا أجد شيئا منها .

فقال سنشو : وأي أمثال أجمل من هذه : لا تضع إصبعك أبدا بين ضرسين طاحنين ؛ لا جواب على من يقول « أخرج من بيتي » ومن يقول « ماذا تريد من زوجتي » ؛ إذا اصطدم الابريق بالحجر أو الحجر بالإبريق فالويل للإبريق! كل هذه أمثال مناسبة جدا للمقام . ومعناها : لا يتهجمن أحد على الحاكم أو من بيده الأمر ، لأنه سيخرج من هذا محطما مثل من يضع الإصبع بين ضرسين طاحنين ، وحتى لو لم يكونا طاحنين فماذا يهم ، ما داما سنين

وما يقوله الحاكم لا معقب عليه ، ولا من يقول : أخرج من بيتي ، أو ماذا تريد من زوجتي ؟ أما مثل الابريق فالأعمى يرى انطباقه . ولا بد لمن يرى القذاة في عين جاره أن يرى الجذع المعترض في عينه ، حتى لا يقال عنه الموت : خائف من المشنوق . وأنت تعرف جيدا يا مولاي أن المجنون يعرف عن بيته أكثر مما يعرف الحكيم عن بيت غيره .

فقال دون كيخوته : لا يا سنشو ، المجنون لا يعرف شيئا عن بيته ولا عن بيت غيره : لأنه على أساس جنونه لا يمكن أن يبني بيت حكمة . لكن لنكف عن الاسترسال في هذا ، يا صاحبي : إذا أسأت الحكم ، فالذنب ذنبك أنت ، والعار يقع علي أنا ؛ لكني أواسي نفسي فأقول إنني فعلت ما يجب علي ، لأني نصحتك بكل صراحة وحكمة ممكنتين : ولهذا فأنا خالص من وعدي والتزامي . أرشدك الله يا سنشو ؛ وهداك إلى حسن الحكم ، وأزال عني قلقي من أن تنزل من أعلى إلى أسفل مع جزيرتك ، وهو قلق كنت أستطيع تجنبه لو أني كشفت للدوق عن حقيقتك ، وقلت له إن كرشك الكبيرليس إلا زكيبة مملوءة بالأمثال والخبائث .

فقال سنشو : مولاي ، إذا كنت تعتقد أني لا أصلح للحكم فإني أتخلى عنه فورا : إني أفضل أقل ذرة في روحي على كل بدني . وسنشو يعيش عيشة طيبة بالخبز والبصل عيشته حاكما يأكل الحجل والديوك . وعلى كل حال فإننا نتساوى جميعا حينما ننام ، الكبار والصغار ، الفقراء والأغنياء ، وإذا فتشت جيدا يا مولاي لوجدت أنك أنت الذي دفعتني إلى أن أكون حاكما ؛ لأني لا أعرف كيف أحكم جزرا ولا أفضل في هذا حدأة . فإذا كنت تظن أنني إذا صرت حاكما فسيأخذني الشيطان بالضرورة ، فإني أفضل أن أذهب إلى السماء بوصفي سنشو الرجل البسيط ، لا إلى الجحيم بوصفي حاكما .

فقال دون كيخوته : الحق يا سنشو أنك بهذه الكلمات الأخيرة التي نطقت بها ، أحكم عليك أنك جدير بأن تحكم ألف جزيرة : فأنت طيب الطباع ، وبدونه لا فائدة في العلم . ففوض أمرك إلى الله ، واجتهد في ألا تخطئ في نيتك الأولى : أقصد أن تكون دائما ثابتا مصمما على الوصول إلى العدل والحق في كل الأمور التي تعن لك ؛ فالسماء تساعد دائما المقاصد الحسنة . ولنذهب لتناول الطعام ، لأني أظن أن الدوق والدوقة بانتظارنا .

الفصل الرابع والأربعون

كيف تولى سنشو الحكم؟
مغامرة غريبة وقعت لدون كيخوته في القصر

زعموا أنه لما رأى سيدي حامد ، في الأصل لهذا التاريخ ، أن مترجمه لم يترجم هذا الفصل كما وضعه ، تضايق من نفسه لأنه ألف حكاية جافة محدودة كهذه ؛ لأنه يعتقد أنه ملزم بأن يتكلم باستمرار عن دون كيخوته ، دون أن يجرؤ على الاستطراد ، أو ذكر حادث عارض أكثر تشويقاً وامتاعاً ؛ وهو يقول ان تصويب العقل على شيء واحد باستمرار ، والكتابة عن موضوع واحد ، وعدم القدرة الا على جعل عدد قليل من الأشخاص يتكلمون ، هو عمل لا يحتمل ولا يمكن أن ينال منه المؤلف مجدا ولا كسبا ؛ ولتلافي هذا العيب أولج في القسم الأول من الكتاب بعض الأقاصيص ، مثل أقصوصة «المستطلع الفاسد الرأي» و «الأسير» وكلتاهما مفصولتين عن التاريخ ، بينما سائر ما يرويه قد وقع فعلاً لدون كيخوته ، ولا يمكن أن يغفل ذكره . ومع ذلك فهو لا يستبعد من فكره أن معظم القراء ، وهم سيغرقون في الاهتمام بالأعمال الرائعة التي يقوم بها دون كيخوته ، لا يعلقون أهمية على هذه الأقاصيص ، ولا يلقون كثير انتباه اليها ، أو لا يقرأونها الا بسرعة وكرهاً ، دون أي انتباه الى ما في هذه القطع من متعة وتسلية تتجليان أكثر حينما تطبع على حدة ، مفصولة عن حماقات دون كيخوته وسذاجات سنشو ؛ ولهذا لم يشأ أن يولج في هذا القسم الثاني أية أقصوصة منفصلة ، بل فقط بعض التفاصيل المستمدة من صلب هذا التاريخ ، وبكثير من الاعتدال ، ودون أن يستخدم من الالفاظ أكثر مما ينبغي لروايتها . ثم انه حصر نفسه بدقة في حدود تاريخه (قصته) ، وان كان يكشف عن كثير من العبقرية في معالجة أي موضوع آخر ، ويرجو القارىء الا يحتقر عمله ، بل وأن يتلقاه بالترحاب والقبول ، من أجل ما لم يشأ أن يقول أكثر مما هو من أجل ما قال [1] .

---

(١) هذه الأحداث والاقاصيص الاستطرادية كانت من الأمور التي أخذت على القسم الأول من دون كيخوته ؛ «المستطلع الفاسد =

ولما فرغ دون كيخوته من طعامه أعطى سنشو في المساء نفسه النصائح التي أسداها إلى سنشو مكتوبة ، وكلفه بأن يجد قارئا يقرؤها له ، لكن سنشو لم يكد يحصل على هذا الدفتر الذي قيد فيه مولاه النصائح حتى وقع منه ، ووصل إلى الدوق والدوقة يعد قليل ، فلم يدريا ماذا يعجبان به أكثر : حكمة دون كيخوته أو حماقته وجنونه . ولمتابعة المزحة التي بدآها ، بعثا في اليوم نفسه ، بسنشو مصحوبا بموكب كبير إلى القرية التي ستكون بالنسبة إليه جزيرة[1] . واقتاده إليها أحد نظار قصر الدوق ، وهو رجل مازح وعاقل معا ، لأنه بدون حكمة لا توجد متعة حقيقية . وهو الذي قام بدور الكونتيسة تريفالدي ، بكل النجاح الذي شاهدناه : وعقله وتعليمات الدوق كانت مرشده في هذه المزحة الجديدة . ولما رآه سنشو خيل إليه أنه يرى الكونتيسة تريفالدي بشخصها : حتى أنه تلفت إلى مولاه وقال له : « إما أن يأخذني الشيطان مهما كنت عادلا ومؤمنا ، أو توافقني على أن وجه هذا الناظر هو وجه المكروبة » . فتطلع فيه دون كيخوته بانتباه وقال : « يا سنشو ، لا ينبغي أن يأخذك الشيطان لا عادلا ولا مؤمنا : ولا أدري ماذا تقصد بقولك أن وجه المكروبة هو وجه هذا الرجل ، لأن الناظر لا يمكن أن يكون المكروبة ؛ فهذا أمر ينطوي على تناقض شديد . ثم إنه ليس الوقت الآن وقت تحقيق هذا الأمر : وإلا أدخلنا هذا في تيه لا نتبين الطريق فيه . صدقني يا صاحبي ، أننا في حاجة إلى أن نتوجه بأحر الدعاء إلى الله ليخلصنا كلينا من السحرة . » ـ فقال سنشو : « هذا ليس مزاحا يا مولاي ، لقد سمعته يتكلم : ويخيل إلي أنه صوت المكروبة يطن في أذني . سأسكت الآن ؛ لكني لن أكف عن تصيد أية علامة أخرى تحطم أو تؤيد شبهاتي . » ـ فقال دون كيخوته : « هذا حسن جدا ؛ أخبرني بكل ما ستكشف ، وما سيقع لك في حكومتك هذه » .

ورحل سنشو ، أخيرا ، مصحوبا بكثير من الناس ؛ وكان يلبس زي أهل العلم ، وعليه معطف واسع من الوبر الأشقر المتماوج ، وقبعة عالية من نفس القماش ، ويركب بغلا . ووراءه سار ، بأمر من الدوق ، حماره وعليه عدة فاخرة . وكان سنشو يتلفت خلفه دائما ليراه ، وكانت هذه لذة لا تعادلها في نظره امبراطورية ألمانيا . ولما ودع الدوق والدوقة

= الرأي » ، « الأسير » ، « غراميات كردنيو » . ولهذا حاول المؤلف أن يتجنب هذه الاستطرادات والقصص العارضة في هذا القسم الثاني حتى تتوافر فيه الوحدة والاحكام والترابط .

(١) يرى بيثير أن الجزيرة التي سماها ثربانتس باسم جزيرة « برتريا » Barataria هي قرية قلعة الأوبرو Alcalaa de ebro الواقعة على نهر الابرو . وكانت تدخل في ممتلكات دوقات فلا هرموسا . ومن المحتمل أن يكون اسم Baratarin مؤلفا من كلمة Barato أي خدعة ، لأن العملية كلها خدعة وحيلة للسخرية والضحك . وسنجد أن المؤلف نفسه يشرحها على أساس أنها ربما كانت من الصفة Barato أي رخيص ، لرخص السعر الذي دفعه سنشو للحصول على حكومتها .

قبل أيديهما ، وتلقى من مولاه البركة وقلبه حزين تائب ، فمنحه البركة والدموع في عينيه . دع ، يا عزيز القارئ ، دع سنشو الطيب يمضي بسلام وهو سعيد . واستعد للضحك المتواصل ، حين تعرف سلوكه في منصبه الجديد ؛ وتنظر فيما جرى لمولاه في الليلة نفسها . فإن لم تضحك من ذلك ، فعلى الأقل ستفتر شفتاك : إن أعمال دون كيخوته العظيمة لا بد أن تتلقى بالإعجاب أو الضحك .

ويروي التاريخ أنه لم يكد سنشو يرحل ، حتى أحس دون كيخوته بالوحدة ؛ ولو كان في استطاعته إلغاء القرار لألغاه . ولاحظت الدوقة اكتئابه ، وسألته عن السبب ، وقالت إن كان السبب هو غياب سنشو فإن في قصرها سواسا ، ووصائف وأوانس لخدمته وإشباع كل رغباته . فأجاب دون كيخوته : «صحيح يا سيدتي إني أشعر بفراغ بسبب غياب سنشو ؛ لكن هذا ليس السبب الرئيسي في أحزاني . أما العروض الكريمة التي تفضلت بها فإني أقبل منها فقط الارادة الخيرة والنية الحسنة التي أملتها ، ولكني أرجوك أن تسمحي لي بأن أتولى أنا وحدي خدمة نفسي في غرفتي .» ـ فقالت الدوقة : «الحق أن الأمر لن يكون هكذا . بل سأعطيك أربع أوانس لخدمتك جميلات كالأزهار .» ـ فقال : «بالنسبة لي ، يا سيدتي لن يكن إلا أشواكا يلدغن قلبي في أعماقه : ولهذا لن يدخلن في غرفتي ، لا هن ولا ما يشابههن ، كما أني لا أطير الآن[1] . فإذا تفضلت عظمتك بإسداء عطف لا أستحقه ، فدعيني أخدم نفسي بنفسي ، والأبواب محكمة الإغلاق ؛ ولا بد لي أن أبني جدارا بين رغباتي وبين أمانتي ، وعدم إضاعة فضيلتي بإفراط سخاء سموك . ولاخلاصة يا سيدتي أنني أفضل أن أنام بكل ملابسي على أن أوافق على أن يخلع لي أحد ملابسي» .

فقالت الدوقة : لا تزد علي هذا يا سيد دون كيخوته ؛ وسأصدر الأوامر كيلا يدخل غرفتك ولا ذبابة ، وبالأحرى لا تدخل آنسة . إني لست امرأة تريد أن تكشف عوار السيد دون كيخوته ، لأني أعتقد ، بحسب ما أستطيع أن أحكم ، أن الأمانة هي أعز فضائلك . فلتلبس وتخلع ملابسك وحدك كما تشاء ، وحين تريد ، فلا أحد سيضع العراقيل ؛ وستجد في غرفتك كل الأواني الضرورية لمن يريد أن ينام وأبوابه مغلقة ، حتى لا تضطرك أية حاجة ضرورية إلى فتحها . ولتحيي السيدة دلثنيا دل توبوسو آلاف القرون! وليتردد اسمها على سطح البسيطة كلها ، لأنها تستحق أن يحبها فارس أمين مغوار مثلك! ولتلهم السماء الرحيمة سنشو پنثا ، حاكمنا ، أن يتم بسرعة العقوبة ، حتى يستطيع العالم أن يتمتع بجمال هذه السيدة الرائعة الجمال!

---

(١) هذه العبارات وأمثالها آثرنا أن نترجمها حرفيا ، وهي تدل دائما على النفي القاطع .

فأجاب دون كيخوته : سموك يا سيدتي تتكلمين من قلبك : وعن فم سيدة جليلة مثلك لا يمكن أن يصدر شيء سيء . ودلثنيا ستكتسب مجدا وشرفا أكبر في الدنيا لأنك امتدحتها ، أعظم مما تناله من أفصح الألسنة .

فقالت الدوقة : لنترك هذا يا مولاي ؛ الساعة ساعة العشاء ، وأظن أن الدوق ينتظرنا . فتعال إذن نتعشى ونستريح ، لأن الرحلة التي قمت بها بالأمس إلى قندية كانت طويلة ولا بد أنها أتعبتك .

فقال دون كيخوته : لا أشعر بتعب من جرائها ، بل وأتجاسر على أن أقسم لك أنني لم أركب في حياتي دابة ألطف وأحسن سيرا من « اللحام » . ولست أدري ماذا حمل ملمبرونو على التخلص من ركوبة رشيقة لطيفة مثل هذه ، خصوصا وأن يحرقها هكذا .

فأجابت الدوقة : بقدر ما أستطيع أن أتصور ، فإنه ندم على الأذى الذي أصاب به الكونتيسة تريفالدي وصواحبها ، والأفعال الشريرة التي ارتكبها بوصفه ساحرا : ولكي يضع حدا لها ، أراد أن يحطم آلاف شروره ، وخصوصا « اللحام » الذي لم يكن يجعله يهدأ ، حاملا إياه من بلد إلى بلد ؛ ولكن رماد هذه الآلة ودعوة المبارزة التي أرسلها ملمبرونو غنية باقية تخلد ذكرى مجد وبسالة العظيم دون كيخوته دلا منتشا .

وعاد الفارس إلى شكر الدوقة ، وبعد العشاء أوى إلى غرفته ، دون أن يقبل أن يتبعه أحد ، لأنه كان يخشى أن تسنح له فرصة فقدان الإخلاص نحو دلثنيا ، مستحضرا في ذهنه باستمرار فضيلة أماديس ، زهرة الفرسان الجوالة ومرآتها . وأغلق على نفسه الباب بضلفتيه ، وخلع ملابسه على ضوء شمعتين ؛ لكنه وهو يخلع جواربه (ويا لها من محنة لم يسمع بمثلها بالنسبة إلى مثل هذا الشخص ، أحس بانطلاق) لا زفرات وقحة تجرح الاداب ، بل أربع وعشرين غرزة من أحد جواربه حتى صار مثل الشماسي . فتضايق من هذا كل الضيق ، وكان على استعداد أن يدفع أوقية من الفضة ثمنا لغرزة ابرة بالحرير الأخضر ، لأن جواربه كانت بهذا اللون .

وفي هذا الموضع يصيح ابن الأيل : « إيه أيها الفقر! إيه أيها الفقر! لست أدري لماذا يسميك شاعر قرطبة[1] الكبير باسم : « الهدية المقدسة التي لا يقدر ثمنها كله » . ويستمر قائلا : إني وإن كنت مسلما فإني قد عرفت ، من اتصالاتي بالنصارى ، أنهم يقولون أن القداسة في المحبة ، والتواضع ، والايمان ، والطاعة والفقر ، ورغم هذا فإني أقول إن الذي

---

(١) هو خوان دي مينا ولد في قرطبة ، وتوفي سنة ١٤٥٦ ، والشعر مذكور في كتابه « التيه » .

يعرف كيف يقنع بالفقر يدين للّه بالشكر العظيم ، بشرط أن يكون الفقر من ذلك النوع الذي أشار إليه كبار القديسين (الأولياء) حين قالوا : أمتلك كل شيء كما لو كنت لاتمتلكه ، وهم يسمون هذا فقر الروح ؛ لكنك أنت ، أيها النوع الثاني من الفقر ، وهو الذي أتكلم عنه الان ، لماذا تأتي لتتعلق بالنبلاء والعريقي الأصل أحرى من غيرهم! ولماذا تلزمهم بأن يخفوا ، برقع ، ثقوب أحذيتهم ؟ ولماذا تلجئهم إلى أن تصبح أزرار صدرياتهم بعضها من الحرير ، والبعض الثاني من الوبر ، والبعض الثالث من الزجاج ؟ ولماذا بنيقاتهم الصفراء المهلهلة مغلقة وليست مشدودة كما ينبغي أن تكون (مما يدل ـ ولنقل هذا عابرين ـ على عدم استعمال النشا والياقات المفتوحة) ؟ ما أبأس الرجل الكريم العنصر الذي يضطر ، صونا لشرفه ، إلى أن يأكل الكفاف في داخل بيته ، ثم يفتح أساريره في الشارع ، وفي يده مسواك ، مع أنه لم يأكل شيئا يلجئه إلى استخدام المسواك لتنظيف أسنانه ؟! نعم شقي ألف مرة من هو مشغول باستمرار بصون شرفه ، ولهذا يحسب أن الناس يتطلعون من مسافة فرسخ في أحذيته المرقعة وقبعته القذرة ، ومعطفه المهلهل ، ومعدته التي تصرخ من الجوع! » .

كل هذه الخواطر مرت في رأس دون كيخوته وهو ينظر إلى جواربه المخروقة ؛ لكنه تعزى عن ذلك بأن سنشو ترك له أحذية من الشمواه فقرر أن يلبسها غدا . ثم نام مفكرا حزينا ، بسبب غياب سشو وبسبب جواربه المخروقة ، التي كان يود لو رتقها ولو بحرير من لون آخر ، ولو أن هذا أبلغ دليل على الفقر عند نبيل . وأطفأ الأنوار ؛ لكن الحر كان شديدا ، ولم يستطع النوم ؛ فنهض ، وفتح النافذة حتى نصفها ، وكانت تطل على الحديقة الجميلة ، فسمع كلاما تحت تقاطعها ؛ فأخذ في الانصات باهتمام ، وارتفع صوت المتكلمين ، فاستطاع أن يسمع ما يقولون .

قال صوت : «لا ترغميني على الغناء يا امونثيا ؛ فأنت تعلمين أنه منذ اللحظة التي دخل فيها هذا الغريب في هذا القصر ، ومنذ أن أبصرته عيناي ، فإني أعرف البكاء خيرا من الغناء ؛ ومن ناحية أخرى أنت لا تجهلين أن سيدتنا خفيفة النوم ، ولا أريد ، ولا بذهب الدنيا ، أن تعلم أننا في هذا المكان ؛ لكن لو كانت تنام من غير أن تستيقظ ، فماذا يفيدني الغناء ، إذا كان أينيوس الحديد هذا ينام ، وقد جاء إلى هنا لإغرائي ؟ »

فأجاب صوت آخر : لا تخافي شيئا يا عزيزتي ألتسيدورا ، فلا شك أن الدوقة نائمة ، وجميع من في هذا البيت ، ما عدا سيد قلبك ، ويقظة روحك ، لأنـي سمعته يفتح النافذة من قليل ، وهذا يدل على أنه لا يزال يقظان . غني ، أيتها المسكينة ، بلحن هادئ عذب ، على صوت الهارب ؛ وإذا سمعتنا الدوقة اعتذرنا بشدة الحر .

فقالت التسيدورا : ليس هذا ما يمنعني يا امرنثيا ، لكني لا أود أن ينم غنائي عن حال قلبي ، حتى لا يظن أولئك الذين لا يعرفون قوة الحب إنني فتاة طائشة ، قليلة الحياء ؛ ومع ذلك فليكن ما يكون : فالخجل على الوجه أهون من الجرح في القلب . »

وفي الوقت نفسه بدأت بصنع تقسيمات على الهارب برقة بالغة ، أشاعت النشوة في نفس دون كيخوته وكان يصغي إليها . وفي هذه اللحظة مرت بذاكرته آلاف المغامرات المشابهة ، التي كان فيها نوافذ ، وحدائق ، وموسيقى ، واعترافات غرامية ، وإغماءات ، وأمور أخرى قرأها في كتب الفروسية الحافلة بالتهاويل العاطفية ؛ وفي الحال تخيل أن إحدى أوانس الدوقة مغرمة به ، وأن الشرف يقضي عليها بكتمان السر في هذه المسألة ؛ وخشي من أن يقهر ، فحاول أن يقاوم وفوض أمره إلى سيدته دلثنيا ، ولكنه أراد مع ذلك أن يسمع هذه الموسيقى . ولكي يلمح إلى أنه في النافذة ، تظاهر بالعطس ؛ وهذا ما سر الفتاتين ، لأنهما لم تكونا تريدان غير هذا ، وهو أن يسمعهما دون كيخوته . وسوت التسيدورا هاربها من جديد ، وأخذت تغني هكذا :

« أنت يا من ترقد في سريرك ، بين فرش من التيل الهولندي ، نائما متمددا ، من المساء حتى الصباح ؛

« يا أعظم فارس مغوار أنجبه اقليم المنتشا ، أطهر وأبرك من كل ذهب البلاد العربية الابريز ،

« أصغ إلى فتاة حزينة تحب دون تبادل ، وتستشعر ، على ضوء شمسك ، أن روحها تحترق .

« أنت تنشد المغامرات ، وتتسبب في مصائب الآخرين ، وتصيب بالجراح ، وترفض العلاج للشفاء منها .

« قل لي ، أيها الشاب الشجاع (خلصك الله من كل الشرور) هل ولدت في ليبيا أو على جبال خاك .

« هل أرضعتك الأفاعي ؟ أو كانت مرضعاتك من الغابات القاسية والجبال المتوحشة ؟

« إن في وسع دلثنياك النضرة المنتفخة ، أن تتفاخربأنها أخضعت نمرا ودابة متوحشة .

« ومن أجل هذا فقط سيذيع صيتها من « هنارس » حتى « خرما » ، ومن التاجه إلى المنثنارس ، ومن بسورجه حتى أرلنثا .

« بودي لو بادلتها ، في مقابل ثوب من أجمل ثيابي ، مزين بهداب من الذهب .

« أوه! بودي لو رأيت نفسي بين ذراعيك أو على الأقل بالقرب من سريرك ، أحك رأسك لتنظيفه .

« إني أطلب الكثير ، ولا أستحق كل هذه النعمة ؛ وأود فقط أن أدغدغ قدميك ؛ ففي هذا مقنع لفتاة متواضعة .

« كم كوفيات[1] أعطيك ، وكم أحذية من الفضة ، وكم سراويل من ديباج دمشق ، ومعاطف من نسيج هولندة!

« كم من لآلئ جميلة ، كبيرة مثل العفص[2] لا مثيل لها ، وفريدة في نوعها!

« لا ينظر أبدا من العلياء صخرتك التاربية[3] إلى الحريق الذي يستهلكني ، أي نيرون المنتشاوي ، ولا تحضأه بقساوتك وصدودك!

« إني شابة ، وعذراء رقيقة ؛ وعمري لا يتجاوز الخامسة عشرة ، لأني في الرابعة عشرة وثلاثة أشهر ؛ وأقسم على هذا بالله وبحياتي .

« ولست حدباء ولا عرجاء ؛ ولا ينقصني عضو من الأعضاء وشعري كالزنابق يجرر ذيوله على الأرض عند قدمي .

« وفمي كمنقار النسر ، وأنفي فيه فطسة ؛ لكن أسناني من الزبرجد ، وهي تجعل جمالي جديرا بالسماء .

« وصوتي ، إذا أصغيت إليه ، يعد أعذب الأصوات ؛ وقامتي فوق المتوسطة بقليل .

« هذا اللطف ، وهذه المفاتن ، وما أملكه منها بعد ، غنائم محفوظة لجعبتك ؛ وأنا وصيفة ، واسمي التسيدورا . »

وهكذا ختمت التسييدورا الشاكية النائحة . فقال دون كيخوته لنفسه ، وهو يزفر زفرة عميقة : « أما من بد أن أكون فارسا شيقا بحيث لا تنظر إلي فتاة دون أن تصبح عاشقة مولهة بي! وماذا فعلت المنقطعة النظير دلثنيا للآلهة ، حتى لا تتركها تستمتع في سلام بإخلاصي الذي لا مثيل له ؟ أيتها الملكات ، وأيتها الامبراطورات ، لماذا تضطهدنها ؟ أيتها الفتيات في سن الرابعة عشرة إلى الخامسة عشر ، لماذا تلاحقنها ؟ دعن هذه السيئة الحظ تنتصر ؛ لتفخرن ظافرة بالمصير الذي هيأه لها الحب بأن أسلم إليها قلبي ، وأخضع لها روحي . أنظري ، أيتها الجماعة العاشقة ، إني من أجل دلثنيا وحدها من الشمع والعجين ، ولكن بالنسبة إلى الباقيات أنا من الصخر القاسي ، من أجلها أنا من عسل ، ولكن أنا مرٌّ

---

(١) في الأصل الاسباني الكلمة العربية « كوفية » Cofias أي قبعة ، ولكنها كانت تستعمل للدلالة على غطاء الرأس للمرأة فقط .

(٢) العفص : حمل شجرة البلوط .

(٣) هي الصخرة التي كان يلقى من حالقها بالمجرمين في روما ، وكانت جزءا من تل الكابتبول ، ومن فوق صخرة تربيا تطلع نيرون إلى روما وهي تحترق ، لما أمر بإحراقها لبناء مدينة جديدة مكانها .

كالحنظل ؛ في نظري دلثنيا وحدها هي الجميلة ، الحكيمة ، الشريفة ، اللطيفة ، العريقة الأصيلة ، وباقي النسوة قبيحات ، كئيبات ، مجنونات ومن أصل حقير . والطبيعة خلقتني في هذا العالم من أجل أن أكون لها ، لا لغيرها ولتبك التسيدورا ، أو تتغن ، ولتقنط السيدة التي من أجلها أسيئت معاملتي في قصر المغربي المسحور ؛ إني أريد أن أكون وفيا لدلثنيا ، حيا أو ميتا ، طاهرا ؛ ومن أجلها ينبغي أن أظل أمينا جديرا ، على الرغم من كل حيل العام السحرية » .

وعند هذه الكلمات الأخيرة أغلق النافذة فجأة بشدة ، وألقى بنفسه في السرير ، حزينا معكر المزاج ، وكأنه وقع له حادث أليم . فلندعه الآن في سريره ، لأن العظيم سنشو پنثا يدعونا ، وها هو يبدأ في حكومته الشهيرة .

الفصل الخامس والأربعون

كيف استولى العظيم سنشو پنشا على حكم جزيرته، وكيف بدأ حكمها

أنت! يا من تكتشف نصف الكرة الآخر باستمرار ، يا عين السماء ، ومصباح العالم والمؤلف الرقيق لاهتزاز الأباريق ، هنا فيبوس ، وهناك تمبريوس ، من ناحية طيبة ، ومن الأخرى ربة الشعر ، ومخترعة الموسيقى ، يا من تشرفين دائما ولا تغيبين أبدا ، إليك أتوجه ، أيتها الشمس! بمعونتك يلد الانسان! إليك أتوجه لإغاثتي وإضاءة ظلام روحي ، حتى أستطيع أن أروي بالتفصيل كل أعمال حكمه المجيد ، وبغيرك ، أيتها الشمس ، أنا ضعيف ، مضطرب ، منهوك .

وأقول إذن أن سنشو وصل بكل حاشيته إلى قرية عدد سكانها حوالي ألف نسمة ، وكانت من أغنى القرى التي يملكها الدوق ؛ وأفهموه أنها تسمى جزيرة « برتريا » ، أما لأن المكان يسمى فعلا برتريا ، أو لرخص[1] السعر الذي حصل به على حكومته . وعند أبواب القرية ، وكانت محاطة بالأسوار ، تجمع الشعب للقائه ؛ ودقت الأجراس ، وعبر الجميع عن سرورهم البالغ ، واقتيد في احتفال مهيب إلى الكنيسة الرئيسية ، لتقديم الشكر والحمد لله . وأجريت بعد ذلك عدة مراسم مضحكة لتسليمه مفاتيح المدينة ، وأقر تعيينه حاكما مدى الحياة لجزيرة برتريا . وكانت قامة الحاكم الجديد الغليظة القصيرة ، ولحيته الكثة وزيه الغريب مثار الدهشة في نفوس من لم يكونوا على علم بالأمر ، وحتى أولئك الذين كانوا يعرفون المزحة ، وما أكبر عددهم ، وبعد أن خرجوا من الكنيسة . اقتادوه إلى قاعة

(١) وحينئذ تكون من الصفة Barato = رخيص ، أو من الاسم Barato = غش ، احتيال ، وحينئذ ينبغي أن يترجم الأصل هكذا ؛ أو للغش الذي تم به إعطاؤه الحكم .

ويظن بعض النقاد أن المقصود هو قلعة الابرو Alcala de Ebro ، وهو ناحية يكاد يحيط بها نهر الابرو من كل نواحيها بما يجعل منها جزيرة أو شبه جزيرة .

العدالة ، حيث أجلسوه ، وقال له الناظر الذي أرسله الدوق معه بأن العرف القديم جرى بأن الحاكم الجديد ، وهو يتولى حكم الجزيرة ، يجيب عن بعض الأسئلة الصعبة بعض الشيء التي تعرض عليه ، امتحانا لعقله ، حتى يعرف الشعب هل يغتبط أو يحزن للاختيار الجديد للحاكم .

وبينما كان الناظر يتكلم ، كان سنشو يتأمل حروفا كبيرة مكتوبة على حائط القاعة ، في مواجهة كرسيه ، ولما كان لا يعرف القراءة ، فقد سأل ما معناها . فقيل له : سيدي ، هذا النقش يسجل اليوم الذي توليت أنت فيه حكم الجزيرة . وهو يقول : «في يوم كذا ، من شهر كذا ، من عام كذا تولى حكم هذه الجزيرة السيد الدون سنشو پنثا ، أطال الله ملكه!» ـ فقال سنشو : ومن ذا الذي يسمى الدون سنشو پنثا ؟ فأجابوا : «إنه سيادتك ، لأنه لم يدخل هذه الجزيرة پنثا آخر غير الجالس على هذا الكرسي» . ـ فقال سنشو : «إذن أنبهك يا أخي ، أني لا أحمل لقب «دون» ولم يحمله أي فرد من أفراد أسرتي : واسمي هو فقط سنشو پنثا ، وسنشو هو أيضا اسم أبي ، وهو اسم جدي ، وكلهم كانوا يسمون پنثا ، دون إضاف لقب «دون» ولا «دونيا» . وإني أفترض أنه لا بد يوجد في هذه الجزيرة «دونات» بقدر عدد الأحجار ، لكن صبرا دعني أحتفظ بالحكم أربعة أيام ، وأنا أشتت كل هؤلاء «الدونات» الذين يطنون طنين الذباب . وليقترح الناظر سؤاله ، وسأجيب عنه بقدر ما أستطيع ، سواء حزن الشعب أو لم يحزن .

وفي اللحظة نفسها دخل القاعة رجلان ، أحدهما بزي فلاح ، والآخر بزي خياط ، لأنه كان يحمل في يده مقصا . وقال الخياط : «سيدي الحاكم! لقد أتينا إليك هذا الرجل وأنا ، وقد دخل دكاني بالأمس ، لأني مع احترام الجماعة ، خياط أقسم اليمين ، وقدم إلي قطعة قماش ، وسألني هل تكفي لصنع قبعة . ففحصت قطعة القماش ، وأجبته بالإيجاب . هنالك تخيل ، كما أظن ، أنني أريد أن أسرق منه بعض قماشه ، إما لأنه يميل إلى الخبث ، أو بسبب الفكرة السيئة التي لدى الناس عن الخياطين ، فسألني هل لا أستطيع أن أصنع منها قبعتين فحزرت قصده ، وأجبت بالإيجاب . واستمر هو في قصده السيء ، وزاد في عدد القبعات ، حتى وصلنا إلى عدد خمسة ، والآن وقد تم صنعها وقدمتها له فإنه ليس فقط يرفض أن يدفع لي ثمن الخياطة ، بل يريد مني أن أدفع ثمنها أو أرد إليه قماشه .

فسأل سنشو الفلاح : هل هذا صحيح كله يا أخ ؟

فأجاب هذا نعم ، لكني أرجو من سيادتك أن يروك الخمس قبعات .

فقال الخياط : «بكل ارتياح» . وفي الوقت نفسه وضع يده تحت معطفه ، وأخرجها

وفيها خمس قبعات صغيرة وضعها على أطراف أصابعه ، وقال : «ها هي ذي ، كما طلبها مني هذا الرجل : وأحلف بروحي وضميري أنه لم يبق عندي مقدار أصبع من قماشه ، وأنا أحتكم إلى الخبراء» .

فأخذ الجميع الحاضرين في الضحك من هذا النزاع الجديد في نوعه ، من هذه القبعات الصغيرة . ففكر سنشو لحظة ثم قال : «يبدو لي أن هذه القضية يمكن الفصل فيها بعدالة وسرعة : ولهذا فأنا آمر الخياط أن يضيع عليه تفصيله والفلاح يضيع عليه قماشه ، وأن تصادر القبعات لصالح المسجونين . ولا كلام في هذا الموضوع بعد ذلك .»

ونفذ هذا الحكم ، الذي أثار فرحة الحاضرين . ثم ظهر بعد ذلك عجوزان أحدهما يتوكأ على عصا غليظة ، وقال الاخر لسنشو : «سيدي ، لقد أقرضت هذا الرجل عشرة اسكودوات ذهبية لمساعدته ، بشرط أن يردها إلي حينما أطلبها منه . ومضت عدة أيام دون أن أطلبها منه ، حتى لا أضعه في حرج شديد ، لكني لما رأيت أنه لا يفكر في ردها إلي ، طالبة مراراً بالدفع : لكنه ليس فقط يرفض الدفع ، بل وينكر الدين ، ويقول إنني لم أقرضه أبداً عشرة اسكودوات ، أو إذا كنت أقرضته فقد ردها إليّ ، وليس عندي شهود على القرض ، ولا على الرد لأنه لم يتم : فأرجو من سيادتك أن تطلب إليه أن يحلف : فإن حلف بأنه ردها إلي ، عفوت عنه أمام اللّه .

فقال سنشو : بماذا ترد على هذا ، أيها العجوز الطيب ذو العصا ؟فأجاب هذا : أقر يا سيدي بأنه أقرضني العشرة اسكودوات ، وما دام يحيلني إلى حلف اليمين ، فإني أرجوك أن تخفض مخصرتك ، وسأحلف بأني رددتها إليه فعلا وحقا .

فخفض سنشو مخصرته التي كان يمسك بها بوصفه يفصل في الدعاوى ، وأعطى العجوز الثاني للآخر عصاه التي كانت تضايقه ، ثم بسط كفه على صليب المخصرة وأقسم بأنه رد إلى العجوز الآخر العشرة اسكودوات التي أقرضه إياها ، وردها فعلا وحقا ، وأنه إنما طلبها منه من جديد لأنه لا يتذكر أنه ردها إليه .هنالك سأل سنشو الدائن عن اعتراضه على هذا القسم ، فقال هذا إن المدين لا بد أنه قال الحقيقة ، لأنه يقر بأنه رجل صالح وطيب ، ولا بد أنه قد نسي أنه ردها إليه ، ومنذ الآن لن يطالب الآخر بالدين . فاسترد المدين عصا ، وحيا القاضي ، وأخذ في الانسحاب .

ولما رأى سنشو تسليم الطالب وذهاب الآخر ، خفض رأسه ، ورفع يده إلى جبهته ، وأخذ يفكر لحظة ، ثم رفع رأسه ، وأمر بإرجاع العجوز ذي العصا . ولما عاد قال له سنشو : « أيها الرجل ، هات عصاك» . فقال العجوز : «تفضل .» فأخذها سنشو وأعطاها إلى



سنشو في منصة الحكم في جزيرة برتريا

العجوز الآخر وقال له : «خذ هذه وامض بحمد الله : لقد دفع دينك .» ـ فقال سنشو : «تمام ، تمام ، أو أنا أكبر أحمق في العالم ، سترون فورا هل عندي عقل لحكم مملكة بأكملها ، فلتكسر هذه العصا أمام الناس جميعا .»

وكسرت العصا ، وفي وسطها وجدوا العشرة اسكودوات الذهبية . فامتلأ الحاضرون اعجابا ، وشبهوا سنشو بالملك العظيم سليمان . وسألوه ماذا حمله على أن يظن أن في العصا عشرة اسكودوات ، فأجاب سنشو أنه حين رأى العجوز يعطي عصاه للآخر قبل أن يحلف أنه رد المبلغ ثم رآه يستردها بعد ذلك ، حزر بأن المال في العصا ، وأضاف أن هذا المثل ينبغي أن يبين أن الله يهدي من يكلفون بالحكم إلى الصواب في أحكامهم ، وإن كانوا بسطاء ، وأنه سمع حكاية شبيهة بهذا من قسيس قريته[1] ، وأن ذاكرته لا نظير لها ، وإن كان ينسى كثيرا من الأمور التي يريد تذكرها . ثم انسحب العجوزان ، وأحدهما قد دفع له دينه ، والآخر خجلان ، وأعجب الكل بحكم الحاكم ، ومن كلف بتسجيل أفعاله وأقواله لم يدر هل ينبغي عليه أن يعده مجنونا أو عاقلا :

ولما رحل العجوزان ، دخلت القاعدة امرأة ، وهي تمسك بخناق رجل بزي راع غنم وهي تصيح : العدالة! العدالة! يا سيدي الحاكم ، هذا الرجل الشرير قابلني في وسط الحقول ، اعتدى علي بالإكراه ، ودنسني كأني خرقة بالية . ما أشقاني! لقد سلبني ما حافظت عليه طوال ثلاث وعشرين سنة ، وما دافعت عنه ضد المسلمين والمسيحيين والأجانب وأبناء الوطن : لقد كنت أشد مراسا من شجرة الفلين ، وحافظت على نفسي كاملة مثل السمندر في النار ، والصوف بين الشوك ، والآن جاء هذا القزم ليدنسني بيديه الكريهتين .

فقال سنشو بين أسنانه : «هذا هو ما علينا أن نتحقق منه : هل يد هذا الفتى الرشيق قذرة أولا » . ثم تلفت ناحية الرجل : « ما قولك في كلام هذه المرأة ؟ » فقال الرجل خجلا مضطربا : «سيدي ، أنا راعي خنازير مسكين : وفي هذا الصباح جئت إلى هذه القرية لأبيع ـ ولا مؤاخذة ـ أربعة خنازير ، بسعر أقل من سعرها الحقيقي بسبب المكوس ومكائد التجار وعدت إلى قريتي ، وفي الطريق قابلت هذه الثرثارة ، وأغراني الشيطان الذي يتدخل في كل شيء : والخلاصة أنني دفعت أجرتها مجزيةولكنها مع ذلك لم تكن راضية : فارتمت علي ، وجرتني إلى هنا ، كما ترى : وقالت أنني فسقت بها كرها ؛ وهي تكذب أقسم على ذلك . تلك هي الحقيقة كلها .»

(١) الواقع أن هذه الحكاية مأخوذة من «الأسطورة الذهبية» ليعقوب الفوراجيني ، في الباب الخاص بحياة القديس نقولا دي باري .

سأله سنشو : «هل معك نقود ؟» .

فقال الراعي : معي عشرون دوقة في كيس من الجلد .

فقال سنشو : أعطها للشاكية .

فأعطاها المسكين وهو يرتعش ؛ وأخذتها منه المرأة وهي تحيي الحاضرين بآلاف التحيات ، وتدعو الله أن يديم صحة الحاكم ، الذي يشفق على اليتيمات والمحتاجات ؛ ومضت وهي تمسك بالكيس بيديها ، وهي تنظر جيدا هل يحتوي على نقود حقا .

ولم تكد ترحل حتى قال سنشو للرجل الذي كان يبكي وقلبه وراء كيسه : «أيها الرجل ، إجر وراء هذه المرأة ، وخذ منها كيسك ، وعد إلى هنا معها .» ولم يسلك الرجل مسلك المغفل ولا الأطرش ؛ بل انطلق كالسهم امتثالا لقرار الحاكم . وبقي الحاضرون مشدوهين ، في انتظار نهاية هذه المسألة .

وبعد لحظات ، عاد الرجل والمرأة ، وكل منهما يمسك بخناق الآخر أشد من أول مرة : وكانت المرأة تشمر ثوبها ، والكيس في صدرها ، والرجل يبذل جهودا في غير طائل لاسترداده ، بينما كانت هي تقاوم بشدة ، وتصيح : «العدالة! عدالة الله والناس! أنظر يا سيادة الحاكم ، أنظر وقاحة هذا الشرير : علنا ، وفي وسط الطريق ، انقض علي لاسترداد الكيس الذي أعطتيه لي سيادتك .» ـ فسألها سنشو : « وهل انتزعه منك ؟ » ـ فأجابت : «انتزعه ؟ أحرى من هذا أن ينتزع حياتي ؛ إن الكيس في أيد قوية ؛ ولا بد من قطط أخرى غير هذا الوغد المسكين ليخدش وجهي ؛ والكماشات ، والمطارق ، والقدائم ، والمقصات ، ومخالب الأسد لن تستطيع انتزاع الكيس مني ، بل أفضل أن أمزق إربا إربا .» فقال الرجل : «عندها حق ، وأنا أعترف بهزيمتي ، وأقر بأن قواي غير كافية لاسترداده» ـ فقال سنشو : «أيتها المرأة الأمينة الباسلة ، أرني هذا الكيس» . فأرته إياه ، وأخذه سنشو ورده إلى الرجل ، ثم تلفت إلى من ادعت انتهاك عرضها وقال : «يا أختاه ، لو كنت في الدفاع عن شرفك بذلت نصف ما بذلته من شجاعة فقط في الدفاع عن هذا الكيس ، لما استطاعت قوة هرقل أن تتغلب عليك . اذهبي في رعاية الله ، أو بالأحرى في رعاية الشيطان ، ولا تظهري بعد الآن في هذه الجزيرة ، ولا على بعد ستة فراسخ حولها ، وإلا جلدت مائتي سوط . أخرجي من هنا ، أيتها اللصة الوقحة» .

فخرجت المرأة خفيضة الرأس ، متضايقة ، مسربلة بالعار . وقال سنشو لراعي الخنازير : «عد إلى بلدك مع نقودك ، أيها الرجل ؛ وإذا أردت ألا تضيعها مرة أخرى ، فلا

تسل نفسك بعد الان باللعب مع أية امرأة .» فشكر له الرجل أجزل الشكر ، ثم مضى لسبيله[1] .

وكل هذه التفاصيل أرسلت إلى الدوق وكان ينتظرها بصبر نافد . ولنترك سنشو الآن هناك ، ولنعد إلى مولاه الذي كان لا يزال مضطربا من أغاني التسيدورا .

(1) هذه الحكاية مأخوذة من كتاب « شمال البلاد » تأليف فرنشكو دي أشونة .

الفصل السادس والأربعون

مغامرة غريبة للأجراس والقطط، وقعت لدون كيخوته أثناء غرامياته مع التسيدورا المولهة

تركنا العظيم دون كيخوته مدفونا في الخواطر التي ولدتها في عقله أغاني التسيدورا العاشقة . وحركته هذه الخواطر ، كما تفعل البراغيث ، وانضافت إلى الذكرى الحزينة لجواربه الممزقة فمنعته من النوم بل ومن إغماض عينيه . لكن لما كان الزمان أخف الأشياء ، ولا حاجز يعوقه ، فإن دون كيخوته ركض على الساعات ركضا ، وسرعان ما بلغ النهار . فترك الريش الكسول ، ولبس صدرية من الشموا ، وحذاء السفر ليخفي خروق جواربه ؛ ولبس معطف الاكرلات ، وغطى رأسه بقبعة من القطيفة الخضراء ، المزودة بزينة من الفضة ؛ وحزم حمالته ، وفيها سيفه البتار ، وأمسك بمسبحة كبيرة اعتاد حملها . وبهذا الهندام ذهب إلى القاعة حيث كان ينتظره الدوق والدوقة لابسين ؛ وكان عليه من أجل الوصول إلى القاعة أن يجتاز رواقا وقفت فيه التسيدورا وصاحبتها عن قصد وترتيب . فلما شاهدتاه ، تظاهرت ألتسيدورا بالإغماء ، فتلقتها صاحبتها بين ذراعيها ، وأسرعت لحل أربطتها . واقترب دون كيخوته ، وقال : «أنا أعلم تماما من أين جاء هذا الحادث» . فقالت الصديقة : «لست أدري ، لأني أعلم أن التسيدورا أحسن الأوانس صحة ؛ ومنذ عرفتها لم أسمعها تزفر زفرة . ألا لعنة الله على كل الفرسان الجوالة في العالم ، إن كانوا جميعا جاحدين! إمض يا سيدي ، لأنك طالما بقيت هنا ، فإن هذه البنت المسكينة لن تفيق .» - فأجاب الفارس : «آنستي ، أرجوك أن تعملي على أن يوضع في هذا المساء عود في غرفتي ؛ وسأعمل كل ما في وسعي لمواساة هذه المحزونة المسكينة : لأنه ، في بداية الغراميات ، من الأسهل علاج الأمر بآراء سريعة» . ولما قال هذه الكلمات ابتعد حتى لا يقال عنه أنه ممن يمرون في هذه القاعة . ولم يكد يمضي ، حتى قالت التسيدورا ، وقد كفت عن التظاهر بالإغماء ، لصاحبتها إنه لا بد من تزويد دون كيخوته بعود ، لأنه يريد

من غير شك أن يعزف ، وهو أمر لن يكون رديئا منه . وفي الحال ذهبتا لإنباء الدوقة بما جرى ، وبما طلبه دون كيخوته . فاغتبطت الدوقة أيما اغتباط ، واتفقت مع الدوق ليعبثوا به بمزحة ماكرة غير خبيثة ، فانتظرا الليل بصبر نافد ، فجاء سريعا كما أسرع النهار في البزوغ . وأزجى الوقت في أحاديث لطيفة مع دون كيخوته . وأرسلت الدوقة إلى تريزه پنثا أحد غلمانها ، وهو الذي لعب دور دلثنيا ، وأمرته أن يسلم إليها رسالة سنشو ، وحزمة من الملابس المهلهلة تركها لها . وأوصته بأن يلاحظ بدقة كل ما يراه ، ليروي الأحوال بدقة .

ثم جاءت الساعة الحادية عشرة مساء . ولما دخل دون كيخوته غرفته وجد فيها قيثارة «جيتار» : فسواه وعدله ، وفتح النافذة ، وسمع حركة في الحديقة : فبدأ تقسيمات ، وسعل وتنحنح ، وبصق ، وبصوت مترنح ، ولكنه صحيح ، أنشد الرومانثة التالية ، التي نظمها في اليوم نفسه :

إنما الحب خطر ... لفتاة عاطلة
إنه يغزو الكسول ... مشعلا أقوى لهيب
وإذا تغدو الجميلة ... في انشغال وعمل
عبثا يأتي الغرام ... ليولى دون مدخل
وإذا اشتاقت فتاة ... لارتباط بالزواج
فعليها أن تحلى ... بتزايين العفاف
لا يقيم الفارس الجوا ... ل وزنا للعوب
لا ولا يحتاز شيئا ... من فضيلات النساء
ومن الحب صنوف ... تشتري بالمال نقدا
فاذا أورق صوح ... وإذا أشرق غاب
وكذا حب الصدف ... إن أتى ولى ، انصرف
لحظة تكفي لبدئه ... لحظة تكفي لدفنه
إن خطا فوق خط ... لا يرى منه أثر
وكذا القلب الأمين ... لا يثنى في الغرام
إن دلثنيا بقلبي ... نقشها باق عميق
ذكرها في العقل أقوى ... من جبال من حديد
خير ما في الحب إخلا ... ص وصدق وثبات
وبغير الصدق في الحـ ... ـب ، على الحب العفاء

ولم يكد دون كيخوته يفرغ من إنشاد رومانثته وكان الدوق والدوقة يصغيان اليها هما والتسيدورا وكل أهل القصر باهتمام ، حتى أنزل من رواق يطل من أعلى على نافذة الفارس حبل علقت فيه أكثر من مائة جرس صغير ، وفي الوقت نفسه قلبت زكيبة مملوءة بالقطط ، في ذيولها هي الأخرى أجراس صغيرة . وكانت الضجة التي أحدثتها الأجراس الصغيرة والقطط هائلة جدا حتى أن الدوق والدوقة ، وإن كانا هما اللذان اخترعا هذه المزحة ، قد فزعا منها بعض الفزع ، واستولى الفزع على دون كيخوته . ولسوء الحظ دخل قطان أو ثلاثة في غرفته من خلال القضبان وعدت هنا وهناك فزعة كأنها كوكبة من العفاريت . وفي محاولتها الهرب أطفأت الأنوار المشتعلة ، ولكن حبل الأجراس لم يكف عن القرع ، محدثا ضجة مروعة . وأهل القصر الذين لم يعرفوا السر في هذه المزحة بقوا في حيرة . واستل دون كيخوته سيفه ، وراح يسدد الطعنات من خلال القضبان ، وهو يصيح بكل قوة : « أخرجوا من هنا ، أيها السحرة! أخرجوا يا أوغاد ، أنا دون كيخوته دلا منتشا ، وضدي ستتحطم كل أحابيلكم » . وطارد القطط التي دخلت الغرفة ، فاستطاعت أن تهرب من النافذة ، فيما عدا قطا واحدا ، لما رأى نفسه وقد احتوشه دون كيخوته عن قرب قفز في وجهه ، وأنشب أظافره في أنفه ، وكذلك أسنانه ، وجعله يصرخ صرخات هائلة . وعلى هذه الصرخات هرع الدوق والدوقة ، وهما على علم بما وقع ، وفتحا الباب بمفتاح صالح لفتح الأبواب كلها ، فوجداه في صراع مع القط ، يحاول عبثا أن ينتزعه من وجهه : وكانت المشاعل تضيء هذه المعركة غير المتكافئة . واقترب الدوق لنجدة دون كيخوته ، الذي لم يكف عن الصياح قائلا : « لا تنتزعوه ؛ دعوني ؛ دعوني أنازله جسما لجسم ، هذا الجني ، هذا الساحر ؛ وسأعرفه من هو دون كيخوته دلا منتشا » . ولكن القط لم يحفل بهذه التهديدات ، ولم يكف عن الدمدمة . وأخيرا انتزعه الدوق ، وألقى به من النافذة . وبقي دون كيخوته مخدوش الوجه ، ممزق الأنف ، غاضبا لأنهم لم يتركوه ينهي وحده المعركة مع هذا الساحر الوغد . وأتوا بزيت أبرثيو[1] ، ووضعت التسيدورا بيدها البيضاء المرهم على كل وجهه ، وقالت له بصوت حنون : « كل هذه المصائب ، أيها الفارس العنيد ، هي عقاب لك على قساوتك وعنادك . وأرجو الله أن ينسى سنشو ، سائسك ، أن يجلد نفسه ، حتى لا تخرج المعشوقة جدا دلثنيا من حالة الانحسار التي هي فيها ، ولا تنعم أنت بعناقها ، وقبلها ، على الأقل طول حياتي ، لأني أعبدك » . وعلى كل هذا لم يرد دون كيخوته بكلمة واحدة ،

(١) زيت لعلاج الجروح ، اخترعه في القرن السادس عشر ابرثيودي ثوبيا ، وكان غالي الثمن جدا لأن مركباته كانت غالية .

مقتصرا على إطلاق زفرة عميقة . ثم رقد في السرير ، وشكر للدوق أجزل الشكر ، لا لأنه شعر بخوف من هذه المجموعة من القطط السحرة الأوغاد ، بل اعترافا منه بالجميل الذي أسداه نحوه بنجدته إياه . وتركه الدوق ليستريح ، ومضى ساخطا على هذه المزحة التي لم يكن يظن أنها ستكلف دون كيخوته هذا الثمن الفادح .

ذلك أن هذا اضطر إلى التزام الفراش لمدة خمسة أيام ، حدثت له أثناءها مغامرة أشد إمتاعا من الأولى ، لكن المؤرخ يؤجل روايتها إلى فرصة أخرى ، ليعود إلى سنشو پنثا ، الذي كان راضيا كل الرضا عن حكومته وفي الوقت نفسه مشغولا بها كل الانشغال .

الفصل السابع والأربعون

كيف تصرف سنشو في إدارة حكومته

ويروي التاريخ أنه حين رفعت الجلسة ، اقتيد سنشو إلى قصر فاخر ، نصب في القاعة الكبرى منه مائدة حافلة كموائد الملوك . ولدى دخوله نفخ في الأبواق ، وجاءه أربعة غلمان ليغسل يديه ، فغسلهما بكل وقار . وتوقفت الموسيقى ، وجلس سنشو عند الطرف النهائي من المائدة ، حيث لم يكن يوجد غير كرسي واحد وأدوات لشخص واحد! ووقف إلى جانبه شخص عرف فيما بعد أنه طبيب ، وكان يمسك في يده بعصا من ريش الحوت . ورفع نقاب أبيض ثمين كان يغطي الفاكهة وعددا وافرا من ألوان الطعام ، باركها كاهن ، بينما قدم غلام الفوطة لسنشو . ووضع رئيس الطهاة أمامه طبقا من الفاكهة ؛ ولكن سنشو لم يكد يمسه بيده ، حتى مس الرجل ذو العصا الطبق وفي الحال رفع . ثم أتى رئيس الطهاة بطبق آخر ؛ قبل أن يستطيع سنشو أن يذوق منه كانت العصا تؤدي وظيفتها ، وأسرع غلام برفع الطبق بسرعة كما في المرة الأولى . ودهش سنشو ، وتطلع في الجميع ، وسأل هل جرت العادة في الجزيرة باختلاس الأطباق من على المائدة ، كما يفعل المشعوذ بالجوز . فقال الرجل ذو العصا : «سيدي! ينبغي عليك أن تأكل مثلما يأكل الحكام في سائر الجزر التي فيها حكام . إني طبيب ، تدفع الدولة مرتبي ، للاعتناء بالحاكم : إن صحته ينبغي أن تكون عندي أغلى من صحتي أنا ، وأدرس ليل نهار تركيب مزاجه ، حتى أكون أقدر على علاجه حين يمرض . وأهم واجباتي أن أحضر وجبات طعامه ، وألا أدعه يأكل إلا ما يناسبه ، مستبعدا كل ما لا يوافق صحته ؛ ولهذا أمرت برفع طبق الفاكهة ، لأن هذا المأكول رطب جدا ؛ أما الطبق الآخر فكان على العكس حارا جدا ، فيه الكثير من التوابل ، التي تثير العطش ؛ ومن يشرب كثيرا يحطم ويستهلك الرطب الأصلي ، الذي يكون أصل الحياة» .

فقال سنشو : لكن ، هذا الحجل المحمر ، المعد خير إعداد ، لا يمكن أن يضر بي أي إضرار .

فأجاب الطبيب : سيدي ، لن تأكل منه طالما كنت حيا .

- ولماذا ، من فضلك ؟

- لأن شيخنا بقراط ، بوصلة الطب ، يقول في أحد فصوله : كل امتلاء مضر ، وأسؤه الامتلاء من الحجل[١] .

- إذا كان الأمر هكذا يا سيدي الدكتور ، فانظر بين الأطباق الموجودة على المائدة أيها يوافقني وأستطيع أن أتناول منه ، ودعني آكل ، دون أن تمسها بعصاك ، لأني بحق الحاكم (أطال اللّه عمري) أموت من الجوع ؛ ومنعي من الطعام هو انتزاع الحياة مني ، ولا مؤاخذة لا المحافظة عليها .

- سيادتك على حق ، ولهذا أنت لن تأكل من هذه الأرانب المحشوة ، لأنها طعام عسير على الهضم ، وهذا اللحم العجالي ، يمكن الإذن بأكله ، إذا لم يكن محمرا أو بالدقية ، لكن مطبوخا على هذه الطريقة ، لا يجوز أن تأكل منه .

فقال سنشو : أوه! هذا الصحن الذي أمامي ، أعتقد أنه الطورلي[٢] ، ومن بين الأشياء التي يتألف منها لا يخلو الأمر من شيء يسرني ويوافقني .

فقال الطبيب : مستبعد! بعيد عنا مثل هذا الخاطر الرديء : ليس ثم في الدنيا ما هو أكثر ضررا بالصحة من الطورلي ، وينبغي ترك هذا المقسس ، ونظار المعاهد ، وأعراس الفلاحين ، إنه ليس طعام حاكم أبدا ، إذ الحاكم ينبغي عليه ألا يأكل إلا الأطعمة الدقيقة غير المختلطة . والسبب في هذا أنه في جميع الأحوال الأدوية المفردة أفضل من الأدوية المركبة ، وفي الأولى لا يمكن الغلط ، لأن الثانية تتغير بحسب كمية الأشياء التي تتألف منها ؛ ولهذا فإنه للمحافظة على صحة سيادة الحاكم بل وتقويتها ، فإنه سيأكل الآن مائة ماسورة حلويات ، وبعض شرائح دقيقة من السفرجل ، لتقوية المعدة وتيسير الهضم .

ولما سمع سنشو هذا ارتد إلى ساند كرسيه ، وتطلع بدقة في الطبيب وقال له بصوت جاد : «ما اسمك ؟ وأين درست ؟» .

---

(١) لم يرد في أصل فصول بقراط : الحجل Berdicis بل Banis أي الخبز ، ولكن ثربانتس غيره لتتم النكتة . وقد وردت الجملة في الأصل باللاتينية .

(٢) طبق متعدد المواد ويتألف من لحم بقري وديوك ودجاج ، وأكارع خنزير وثوم ، وبصل ، وسجق ، الخ .

فأجاب الطبيب : سيدي الحاكم ، اسمي الدكتور بدرو رثيودي أجويرو من مواليد قرية تدعى ترتيافويرا ، بين كركويل والمدوردل كمبو ، عن يمين ، وحصلت على درجة الدكتوراه في الطب من جامعة أشونه .

فقال سنشو وقد استبد به الغضب : إذن يا سيدي الدكتور بدرو رثيودي مالي أجويروا[1] ، من مواليد ترتيافويرا ، وهي قرية على اليمين بين كركويل والمدوردل كمبو ومتخرج في أشونة ، أخرج من هنا حالا ، وإلا فقسما بالشمس ، سأمسك بعصا ، وأبدأ بك ، ولا أدع أي طبيب في الجزيرة ، بين أولئك على الأقل الذي هم ليسوا إلا جهلة ، لأنه ، فيما يتعلق بالأطباء الحكماء ، المتعلمين ، الفطنين ، أضعهم على رأسي ، وأحترمهم كأناس إلهيين . وأكرر قولي : امش يا بدرو رثيو ، وإلا أمسكت بهذا الكرسي وشققت مخك . وليتهموني بعد ذلك ، وسأقول تبريرا لهذا أنني أسديت خدمة جليلة بقتل طبيب شرير ، جلادا للمواطنين . فليعطوني أكلا لآكل ، وإلا فليأخذوا الحكومة ، فكل منصب لا يكفل الطعام لصاحبه لا يساوي فولتين » .

بقي الطبيب حائرا مرتبكا من غضبة الحاكم الشديدة ، وأراد الخروج من القاعة ، وإذا بصوت النفير يسمع في الطريق . فتطلع رئيس الطهاة من النافذة وقال إنه رسول من قبل الدوق ، ولا شك أنه يحمل رسالة سريعة مهمة . وظهر الرسول والعرق يتصبب منه ، والذعر يتملكه ، ثم أخرج رسالة من عبه ، وقدمها إلى سنشو ، فأعطاها إلى ناظر القصر ، وأمره بقراءة ما فيها من عنوان قد كان هكذا :

إلى دون سنشو پنشا ، حاكم جزيرة برتريا ، ويسلم إلى يده شخصيا أو إلى سكرتيره . »

فقال سنشو : « وأين سكرتيري ؟ » .

فقال أحد الحاضرين : أنا ، أنا أعرف الكتابة والقراءة ، وبشكونسي .

فقال سنشو : بهذه الصفة الأخيرة يمكن أن تكون سكرتير الامبراطور نفسه .

افتح هذه الرسالة وانظر ما فيها .

فأطاع السكرتير ، وقرأ الرسالة ، ثم قال إنه لا يستطيع أن يفضي بمضمونها إلا في السر ، فأشار سنشو إلى الحاضرين بالخروج ، ولم يبق إلا على ناظر القصر ورئيس الطهاة . فقرأ السكرتير الرسالة وهذا نصها :

---

(١) = المنحوس .

«علمت ، أيها السيد دون سنشو پنثا ، أن بعض أعداء جزيرتك وأعدائي يفكرون في الهجوم الشديد عليكم في أثناء الليل ، لكني لا أعرف على وجه التحديد متى يتم ذلك ، ولهذا يجب أخذ الحيطة ، حتى لا تفاجأوا . وأعرف أيضا ، بواسطة جواسيس موثوق بهم ، أنه دخل مدينتكم أربعة أشخاص متخفون ، بقصد انتزاع حياتكم ، لأنهم يخشون ذكاءكم . فخذ حذرك إذن ، وراقب من يقتربون منك ، وخصوصا لا تأكل شيئا مما يقدم إليك ، ولن أتخلى عن نجدتكم ، إذا كنتم في خطر . وفي هذه المسألة كلها ، تصرف بالفطنة المعتادة فيك . ووداعا .

«من هذا المكان ، في ١٦ أغسطس ، في الساعة الرابعة صباحا .

صديقك : الدوق»

فدهش سنشو والباقون . وتلفت إلى ناظر القصر وقال : «ما علينا عمله الان ، وفورا ، هو أن نلقي في السجن بالدكتور رثيو ؛ لأنه إذا كان ثم إنسان لديه نية قتلي فهو هو ، من غير شك ، قتلي بموت بطيء ، قاس هو بالجوع» . ـ فقال رئيس الطهاة : «يبدو لي أنه يحسن بسيادتك ألا تأكل شيئا مما على المائدة لأن هذه الأطعمة وردها رجال دين ، وكما يقول المثل : وراء الطبيب يقف الشيطان» . ـ فأجاب سنشو : «أنا لا أقول لا ، لكن أعطني فقط قطعة كبيرة من الخبز وأربعة أرطال من العنب : إذ لا يمكن أن يكون في داخلها سم ، ولا أستطيع التخلي عن الطعام .

وإذا كنا نريد أن نكون مستعدين لهذه المعارك التي يهددوننا بها ، فلا بد أن نكون مليئي البطون : فالبطن تعطي الشجاعة ، ولكن الشجاعة لا تعطي بطنا أبدا . وأنت ، أيها السكرتير ، أكتب ردا على مولاي الدوق وقل إننا سنعمل ما يأمر به ، دون إخلال بأي شيء . وابعث بتقبيل يد السيدة الدوقة ، وقل لها إنني أرجوها ألا تنسى أن ترسل رسالتي وحزمتي إلى زوجتي تريزة پنثا : وسيكون هذا منة عظيمة تمنحها لمن يريد استخدام كل قواه في خدمتها . وبالمناسبة أولج قبلة يد للسيد دون كيخوته : حتى يعرف أنني لست جاحدا لنعمته علي . وأنت ، بوصفك سكرتيرا صالحا ، وبشكونسيا صالحا ، تستطيع أن تضيف إلى هذا كل ما تريد وما تراه مناسبا ولائقا . ارفعوا هذه المفارش ، واتوني بالطعام . وسترون بعد هذا أنني سأعرف كيف أتخلص من كل الجواسيس ، والسفاحين ، والسحرة الذين تطأ أقدامهم جزيرتي» .

وفي هذه اللحظة دخل غلام ، قائلا إن ثم حراثا يريد الكلام مع سيادته في موضوع

مهم جدا . فقال سنشو : «أمر غريب! هل هؤلاء الناس من فساد الرأي بحيث لا يعرفون أنه في مثل هذه الأوقات لا ينبغي المجيء للكلام في المسائل والمشاكل ؟ ألسنا من عظم ولحم ، معشر الحكام والقضاة ؟ أقل ما ينبغي هو أن يتركوا لنا وقتا للراحة . هل يظنوننا من المرمر ؟ والله وحق ضميري! لو استمرت هذه الحكومة ، وهو ما لا أعتقده ، فسأوقف عند حده كثيرا من أصحاب المشاكل . قل لهذا الرجل يدخل ؛ لكن قبل هذا تأكدوا أنه ليس جاسوسا ولا سفاحا .

فقال الغلام :آه ، لا يا سيدي ، إنه رجل بسيط : إنه رجل طيب مثل الخبز الطيب .

فأضاف الناظر : لا داعي للخوف : ألسنا جميعا هنا ؟

فقال سنشو : يا حضرة الناظر ، هل من الممكن ، الان والدكتور بدرودثيو ليس هنا ، أن آكل شينا جوهريا ، ولو خبزا وبصلة ؟

فقال رئيس الطهاة : في هذا المساء ، عند العشاء ، ستعوض سيادتك الغداء ؛ وستكون راضيا ، أعدك بذلك .

فقال سنشو : سمع الله منك .

وفي هذهاللحظة دخل الحراث ، وهو رجل حسن السيماء ، يستدل على بساطته من ربع فرسخ . وكان أول كلمة قالها هي : «من فيكم السيد الحاكم ؟» ـ فقال السكرتير : «ومن عسى أن يكون غير هذا الذي تراه جالسا على هذا الكرسي ؟» ـ فقال الحراث : «إني أركع أمامه» . وجثا ، وطلب يد سنشو ليقبلها . فرفض سنشو وطلب منه النهوض ، وأن يعرض طلبه . فقال الفلاح وهو ينهض : «سيدي! أنا حراث ، من قرية ميجيل تره ، على فرسخين من ثيودا ريال» ـ فقال سنشو : «آه! وهذا رجل آخر من ترتيافويرا ؛ قل ما تريد أن تقوله يا أخ ؛ أنا أعرف جيدا قرية ميجيل تره ، إنها قريبة جدا من قريتي» . ـ فتابع الفلاح قائلا : «سيدي ، بحق رحمة الله ، أنا رجل متزوج في هدوء ، وأمام الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرومانية ؛ ولي ولدان يتعلمان ، الأصغر يتعلم للحصول على درجة البكالوريا ، والآخر للحصول على الليسانس ؛ وأنا أرمل ، لأن زوجتي ماتت ، أو بتعبير أدق قتلها أحد الأطباء الجهلة ، وذلك بإعطائها حقنة مسهلة بينما كانت حاملاً ؛ ولو أذن الله لجنينها أن يتم ويولد ، وكان ولدا ، لجعلته يتعلم للحصول على الدكتوراه ، حتى لا يحسد أخويه : حامل البكالوريا وحامل الليسانس» . ـ فقال سنشو : «أي أنه لو لم تمت زوجتك ، أو لم تقتل ، لما كنت أرمل ؟» ـ فأجاب الحراث : «لا طبعا» . ـ فقال سنشو : «لقد تقدمنا ؛ استمر ، يا أخ ؛ إن الوقت وقت نوم ، لا وقت نظر في المسائل» . ـ فقال

الفلاح : «أقول إذن ، يا سيدي . إن ولدي ، الذي يتعلم للحصول على البكالوريا ، عشق في قريتنا فتاة تدعى كلارا برلرينا ، بنت أندريه برلرينو ، وهو فلاح غني جدا . وهذا الاسم «برلرينو» ليس لقب أسرة ، ولكنهم لقبوا به لأنهم «مشلولون» أبناء عن أب ؛ ولتغير اسمهم بعض الشيء لقبوا بلقب : «برلرينوس» ومع ذلك ، ولأقول الحق ، إن الفتاة التي أتكلم عنها هي في الحقيقة لؤلؤة شرقية : إذا نظر إليها من ناحية اليمين ، تشبه زهرة الحقول ؛ لكن لو نظر إليها من ناحية اليسار ، تكون أقل جمالا ، لأنه ينقصها عين ، أطاح بها الجدري ؛ وعلى الرغم من كثرة المنقر في وجهها ، فإن الذين يحبونها يقولون إن النقر في وجهها هي بمثابة حفر تدفن فيها نفوس عشاقها ؛ وهي نظيفة إلى درجة أنها من أجل ألا تدنس وجهها ، تحمل منخريها مشمرين حتى ليبدو كأنهما يهربان من الفم ؛ وما يزيدها جمالا هو أن هذا الفم كبير ، ومشقوق شقا كبيرا ، ولولا أنه ينقصه من عشر إلى اثنتي عشرة سنة لأمكن عده نموذج الكمال . ولن أحدثك عن شفتيها ، فإنهما نحيلتان دقيقتان حتى أنه لو أمكن ادارتهما على مكب لعمل منهما كبة غزل ، ولونهما مختلف عن لون الشفاه العادية ، إنهما يختلط فيها الأخضر والأزرق والبنفسجي ، وهذه معجزة حقا . ومغفرة يا سيدي إذا كنت أصف بالتفصيل كمالات تلك التي ستكون كنتي ، لكني أحبها ، ولا أظن أنني أخطئ في هذا .

فقال سنشو : ارسم كل ما تريد ، فإن كل هذه الرسوم تسرني ، ولو كنت تناولت عشائي ، لما كان ثم أنسب لي من الصورة التي رسمتها .

فأجاب الحراث : إنها في خدمتك ، لكن سيأتي الوقت الذي سنكون فيه ما لسنا نحن إياه . فإذا كنت أستطيع أن أرسم لك يا سيدي ، لطافتها وأناقة قوامها ، لامتلأت إعجابا ، لكني لا أستطيع ذلك ، لأنها مقوسة وركبتاها تمسان ذقنها ، ومع ذلك فمن السهل أن نرى أنها إذا كانت تستطيع النهوض والوقوف ، فإنها تمس سقف البيت ، وكانت ستعطي يدها لابني المتقدم للبكالوريا ، لو كان في وسعها ، ولكن يدها ملتوية ومنعقدة . ومع ذلك فإن أظافرها واسعة ومجوفة وهذا دليل على سلامة تكوينها الجسماني .

فقال سنشو : يكفي هذا يا أخَ . لقد رسمتها من رأسها حتى قدميها فقل الان ماذا تريد ، بغير لف ولا دوران ولا التواء ، ولا زيادة ولا نقصان .

فقال الفلاح : أود يا سيدي أن تتفضل علي بالكتابة لصالح ابني – إلى والد الانسة ، لحثه على إتمام هذا الزواج ، لأن الطرفين متكافئين ليس فقط في المال ، بل وأيضا في المواهب الطبيعية . إذ علي أن أصرح لك بأن ابني يتملكه الجن ، ولا يمر يوم لا يعذبه

الشيطان الخبيث ثلاث أو أربع مرات ، ثم إنه ، فضلا عن ذلك ، وقع في النار ، حتى إن جلد وجهه أصبح مثل البرشمان ، وعيناه دامعتان غمضاوان وهذا لا يمنع من كونه رقيقا كالملك ، ولولا أنه يضرب نفسه ويلكم جسمه ، لعد رجلا سعيدا .

فقال سنشو : هل تطلب شيئا آخر ؟

فأجاب الفلاح : نعم يا سيدي ، عندي شيء آخر ، لكني لا أجرؤ على التصريح به . ومع ذلك ، وليحصل ما يحصل ، لأنه على قلبي ، وعلي أن أتخفف منه . أود من سيادتك أن تعطيني ثلثمائة أو ستمائة دوقة لتساعد في مهر طالب البكالوريا ، أي من أجل مساعدته في تأثيث بيته ، إذ لا بد على كل حال أن يستطيع الزوجان العيش دون أن يكونا عرضة لأهواء أبويهما .

فقال سنشو : هل هذا هو كل شيء ؟ لا تدع الحياء والانقداع يمنعانك من القول .

فقال الفلاح : نعم يا سيدي .

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات ، حتى نهض سنشو ، وأمسك بالكرسي الذي كان جالسا عليه ، وقال : «أقسم بالله ، يا جلف ، يا فاسد الرأي ، يا مغفل ، إذا لم تخرج من هنا وتغرب عن وجهي ، لكسرت رأسك بهذا الكرسي . يا متشرد ، يا صعلوك ، يا رسام الشيطان ، اتصل بك الوقاحة إلى حد أن تأتي لتطلب مني ستمائة دوقة ؟ ومن أين تريدني أن آخذها ، كي أعطيك إياها ؟ قل ، يا أحمق ، يا معتوه ، ماذا يهمني من مجيل تره وكل جنس برلرينوس ؟ إمش قلت لك ، وإلا أقسم لك بحق الدوق مولاي ، فعلت بك ما قلت لك . أنت لست من مواليد مجيل تره . بل أنت جني خبيث بعثت به الجحيم لإغوائي ، لم يمض علي في الحكم غير يوم ونصف ، وتجرؤ على أن تطلب مني ستمائة دوقة ؟

فأشار ناظر القصر على الفلاح بالخروج ، فامتثل خفيض الرأس ، وهو يظهر أنه يخشى أن ينفذ الحاكم تهديداته ، لأنه كان يعرف أداء دوره بإتقان .

لكن لندع الآن سنشو غاضبا وليعد الهدوء إلى الجماعة ، ولنعد نحن إلى دون كيخوته ، الذي تركناه ووجهه مغطى بالمراهم لعلاج جراحه التي استمرت أكثر من ثمانية أيام ، وفي أثناء هذه المدة وقعت له مغامرة رواها سيدي حامد بالدقة المعهودة فيه في أدق تفاصيل هذا التاريخ .

الفصل الثامن والأربعون

فيما وقع لدون كيخوته مع دونيا رود ريجث، وصيفة الدوقة ووقائع أخرى جديرة بخلود الذكر

كان دون كيخوته إذن حزينا كئيبا ، ورأسه مربوط ، ووجهه مخدوش لا من يد الله ، بل بمخلب قط ، وهي بلايا تنفصل عن مهنة الفروسية الجوالة . وقضى ستة أيام لم يخرج فيها ، وذات ليلة وهو نائم يحلم بمطاردات التسيدورا ، سمع من يفتح باب غرفته بمفتاح ، فتصور أنها لا بد أن تكون الخادمة العاشقة ، وقد أتت لتهجم على إخلاصه وتجعله يخون العهد الذي قطعه على نفسه بالوفاء لسيدته دلثنيا . فصاح بصوت عال مسموع : «لا ، لا! إن أجمل امرأة في الدنيا لا يمكن أن تجعلني أنسى ما أدين به لمن أعبدها ، والتي نقشت صورتها في قلبي . يا سيدة أفكاري ، سواء تحولت إلى فلاحة جلفة ، أو إلى حورية في التاج الذهبي ، تنسجين قماشا بخيوط الذهب والحرير أو يأسرك مونتسنوس أو مرلان وفي أي مكان كنت ، فأنت دائما لي أيتها المعبودة ، دائما ، وفي كل مكان سأكون لك» .

ولما قال هذا الكلام فتح الباب ، فنهض واقفا على سريره متدثرا من أعلى إلى أسفل بملاءة من الساتان الأصفر ، وعلى رأسه قبعة كبيرة ، ووجهه مربوط ، وشارباه ملفوفان بورق ، وبدا في هذا المظهر أغرب شبح يمكن أن يرى . وكانت عيناه مسلطتين على الباب ، وخيل إليه أن التسيدورا الحساسة الرقيقة هي التي ستدخل ، ولكنه رأى بدلا من ذلك وصيفة وقورا تلبس قلنسوة بيضاء ذات تثنيات طويلة تغطيها من الرأس حتى القدمين ، وتحمل في يدها اليسرى شمعة مضيئة ، ويدها اليمنى كانت تحجب عينها حتى لا يبهرها الضوء ، وتلبس نظارة كبيرة ، وتمشي بهدوء وتتقم بخطى محسوبة . فتطلع فيها دون كيخوته من مكانه العالي وتفحصها بإمعان ، ولما رأى صمتها وهندامها ، اعتقد أنها ساحرة تريد أن تؤثر بسحرها فيه ، فأخذ في رسم علامات الصليب مرارا عدة ، واقترب الشبح ، ولما صار في وسط الغرفة ، رفعت طرفها وشاهدت بأية لهفة وحماسة كان دون كيخوته

يرسم علامة الصليب . وإذا كان قد تبدى خائفا من منظرها ، فهي الأخرى لم تكن أقل خوفا من شكله الغريب ، الطويل الأصفر ، المغطى بالقماش والمراهم . فقالت : «بحق يسوع! ماذا أرى ؟ » وفي الوقت نفسه سقطت الشمعة من يديها وانطفأت . وأرادت الوصول إلى الباب ، لكنها ارتبكت في تنورتها وملاءتها وسقطت على الأرض بقسوة ، وفزع دون كيخوته وقال : «أستحلفك ، أيها الشبح أو أيا من كنت ، أن تخبرني من أنت ، وماذا تريد مني : فإن كنت روحا في عذاب فقل لي أعمل ما في وسعي لمواساتك ، إني مسيحي كاثوليكي ، مستعد دائما لعمل الخير لجميع الناس ، وهذا هو ما جعلني انخرط في نظام الفروسية الجوالة ، التي يمتد واجبها إلى حد الصلاة من أجل الأرواح في المطهر» . فلما سمعت السيدة من يستحلفها حكمت بناء على خوفها ـ على خوف دون كيخوته وأجابته بصوت خفيض : «سيدي دون كيخوته ، إن كنت أنت إياه ، إنني لست شبحا ولا رؤية ، ولا روحا في المطهر ، كما تظن ، بل أنا السيدة رودريجث ، وصيفة شرف السيدة الدوقة ، جئت لأسألك النجدة في مأساة من تلك المآسي التي تقدر أنت على علاجها» . ـ فقال دون كيخوته : «قولي لي ، يا سيدة رودريجث هل أتيت لايصال رسالة غرام ؟ فإن كان الأمر كذلك ، فإني أنبهك إن قلبي مغلق دون كل النساء ، اللهم إلا المنقطعة النظير دلثنيا ، وإذا لم يتعلق الأمر بالحب ، فتستطيعين أن تشعلي الشمعة من جديد ، وتعودي ، وسنتحدث بعد ذلك ما طاب لك من الحديث» .

فأجابت : من ؟ أنا ، يا سيدي ، رسولة غرام ؟ أنت لا تعرفني إذن : لست بعد في سن متقدمة أتسلى فيها بمثل هذه الترهات . والحمد لله ، فصحتي جيدة ، ولي كل أسناني ، فيما عدا بعض الأسنان التي انتزعتها النزلات وهي شائعة في إقليم أرغون هنا ، لكن انتظرني قليلا ، سأذهب لاشعال الشمعة ، وأعود حالا لأروي لك أحزاني ، بوصفك تستطيع علاج كل الأدواء .

ودون أن تنتظر جوابه خرجت ، وتركت دون كيخوته مشغولا بهذه المغامرة الجديدة ، وكانت آلاف الخواطر المشتتة تعكر ذهنه . وبدا له أن أخطر ما يعرض له وأدعاها إلى اللائمة ، هي أن يتعرض مريدا مختارا لخطر خيانة عهده لدلثنيا . وقال في نفسه : «من يدري! لعل الشيطان وهو ماكر وخبيث ، أن يكون قد قصد إلى أن يحقق ـ عن طريق وصيفة ـ ما لم يستطع الوصول إليه عن طريق الامبراطورات والملكات والدوقات والمركيزات ، والكونتيسات ؟! لقد سمعت من قوم حكماء أن الشيطان إذا لم يستطع امتلاكك بطريقة ، فإنه يتخذ طريقة أخرى . ومن يدري ، فلعل هذه الوحدة ، وهذه الفرصة ، وهذا الصمت أن

تثير كلها رغباتي الراقدة وتجعلني أسقط في نهاية عمري ، أنا الذي لم أكب أبدا ؟ في مثل هذه الحالة الفرار أفضل من انتظار المعركة . لكن ماذا أقول ؟ إني لست في تمام عقلي ما دمت أفكر في هذه الحماقات . ماذا! هل وصيفة بقلنسوة بيضاء ونظارة ضخمة على أنفها ، يمكن أن تثير أية فكرة شهوانية في قلب لا يحسن ؟ هل توجد في العالم وصيفة ليست وقحة ، خبيثة الدخلة ، كذابة ؟ ألا سحقا لكل جنس الوصيفات ، إنهن لا فائدة فيهن للذات الحياة! أوه! كم كانت على حق تلك السيدة التي يقال عنها أنها وضعت ، على طرفي منصتها ، تمثالين لوصيفتين بمنظاريهما ومنواليهما ، وهما تشتغلان . وكان هذان التمثالان يزينان القاعة كما لو كانتا وصيفتين حقيقيتين » . وتحقيقا لهذا القرار نهض من سريره ليغلق الباب ، ويمنع السيدة رودريجث من الدخول ، لكنه وجدها لدى الباب ، والشمعة في يدها . ولما رأت دون كيخوته عن قرب ، وهو مغطى بالملاءة ، ويلبس طاقية وعليه أربطة ، انتابها الخوف من جديد ، وتراجعت خطوتين ، وقالت له : « هل أنا في أمان يا سيدي ؟ ليس من الأمانة أن تخرج من سريرك » . ــ فقال : « وأنا أسألك السؤال نفسه : هل أنا في أمان منك ولن أكره على فعل شيء ؟

ـ من ، من فضلك ، الذي سيكرهك ؟

ـ أنت يا سيدتي : إني لست من المرمر ، ولا من البرونز ، إن الساعة الآن ليست العاشرة صباحا ، بل منتصف الليل ، بل بعد هذا فيما يخيل إلي ، وهذه الغرفة في أمان وأحسن إغلاقا من الكهف الذي فيه تمتع اينيوس الخائن الجسور بالجميلة البائسة ديدون . على كل حال أعطيني يدك يا سيدتي ، إن أكبر أمان عندي هو فضيلتي ، والاحترام الذي يثيره هذه القلنسوة البيضاء .

ثم أخذ يدها وقبلها ، وأدخلها في الغرفة .

وعند هذا الموضع يفتح سيدي حامد قوسا ، ويقول إنه على استعداد لأن يقدم أحد خير ثوبيه ليستمتع بلذة رؤية هذين الشخصين يمشيان من الباب إلى السرير ، وهما متشابكا الأيدي .

ونام دون كيخوته ولم يظهر من جسمه غير وجهه ، وجلست السيدة رودريجث على كرسي ، على مبعدة من السرير ، دون أن ترفع نظارتها ولا تتخلى عن شمعتها . وبعد وقفة قصيرة ، قطع الفارس الصمت وقال :

ـ سيدتي ، تستطيعين الآن أن تفتحي لي قلبك ، وترفعي الوزر الذي أنقض ظهري . وأذناي العفيفتان سترعيانك كل انتباه ، وساعدي سيمنحك النجدة التي تمليها الرحمة للبائسين .

فأجابت السيدة رودريجث : « إني واثقة من هذا يا مولاي ، وما كان لي أن أتوقع من أدبك ولطف طلعتك غير رد رحيم . ولتعلم إذن يا سيدي أنك وإن كنت تراني هنا في هذه الأماكن في قلب مملكة أرغون ، بزي وصيفة عرضة للاحتقار والاضطهاد ، فإني ولدت في أشتورية[1] أوبييدو من أسرة من أعرق أسر الإقليم ، لكن سوء الحظ ، وسوء نظام أهلي ، مما جعلهم يفتقرون بعد قليل ، دون أن يعلموا لماذا وكيف ، أفضيا بي إلى بلاط مدريد ، حيث اشتغلت عند سيدة كبيرة ، درءا لبلايا أعظم في وظيفة آنسة غرفة . لأنه فيما يتعلق بأمور الخياطة والغسيل لم أجد قرينة لي . وتركني أهلي في شغلي ، وعادوا إلى بلدهم ، ثم ماتوا بعد قليل ، وراحوا من غير شك إلى الجنة ، لأنهم كانوا صالحين . فصرت إذن يتيمة ، ليس لي ما أقتات به غير مرتب تافه ، ولا آمال عندي غير المتاعب التي لا حصر لها والتي على خدم القصور أن يعانوها . وفي الوقت نفسه ، وبغير تمكين مني ، عشقني سائس في القصر الذي كنت أعمل فيه . وكان رجلاً ناضج السن ، ذا لحية ، حسن الطلعة ، نبيلا كأنه ملك ، لأنه كان من سكان الجبل . ولم نستطع كتمان غرامنا ، فوصل إلى مسامع سيدتي فرأت منعا للقيل والقال أن يعقد قراننا أمام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة . ومن هذا الزواج أنجبنا بنتا ، مما زاد في شقائي ، لا لأنني مت أثناء الولادة ، بل تمت الولادة في ميعادها بسلام ولكن لأنني فقدت بعد ذلك بزمان قصير ـ زوجي الذي مات من خوف ستدهش أنت نفسك إذا ذكرته لك» . وهنا أخذت السيدة رودريجث في البكاء بمرارة . واستمرت تقول : «أعذرني يا سيدي ، لكن في كل مرة أتذكر هذا الحادث الأليم تمتلئ عيناي بالعبرات . يا إلهي! كم كان جميل الطلعة قوي البنية حين كان يحمل سيدته خلفه على بغل قوي أسود مثل الكهرمان الأسود! لأنه في ذلك الوقت لم تكن سيدات البلاط تستخدم العربات ولا الكراسي مثل اليوم ، بل كن يركبن خلف سواسهن ولا أملك منع نفسي من رواية هذا التاريخ الحزين ، حتى أعرفك بغيرة واهتمام زوجي العزيز . وعند مدخل شارع سنتياجو في مدريد ، وهو شارع ضيق قليلا ، قابل قاضيا في البلاط ، كان يسير ومعه محضران . وإكراما له ، أدار زوجي عنان البغل ، وأراد أن يصحبه . فقالت له سيدته بصوت خفيض : « ماذا تعمل أيها الشقي ؟ ألا ترى أن هذا ليس في طريقي ؟ فتوقف القاضي تأدبا ،

---

(١) اشتورية : اقليم في اسبانيا ، عاصمته أوبييدو ، يحد شمالا بالبحر ، وجنوبا بمملكة ليون ، وشرقا بقشتالة القديمة ، وغربا بجليقية . وكانوا يميزون قديما بين اشتورية أوبييدو واشتورية سنتيانا ، نسبة إلى عاصمة كل جزء من الاقليمين . والى اشتوريه ، وهي منطقة جبلية ، لجأ القوط في سنة ٧١٢ وسنة ٧١٣ بعد أن طردهم العرب من سائر اسبانيا ، وملك عليهم بيلاخيو سنة٧١٨ . وقد انتصر على العرب في سنة ٧١٩ في معركة كافادونجا (أو كوبا دونجا ، وهي مدينة على مسافة ٤٨ كم جنوب شرقي أوبييدو) .

وقال للسائس : «تابع طريقك يا صاحبي . بل علي أنا أن أصحب دونيا كسلدا (وكان هذا اسم سيدتي) . ومع ذلك أصر زوجي ، والطاقية في يده ، على أن يتبع القاضي : فلما رأت ذلك سيدته ، استلت دبوسا كبيرا أو بالأحرى مسلة وغرزتها في أحشاء زوجي الذي راح يصرخ وسقط على الأرض معها . وهرع خادمان لانهاضهما ، وكذلك فعل القاضي والمحضران . وشاع الخبر بين سكان باب وادي الحجارة . وعادت السيدة سائرة على قدميها ، وذهب زوجي إلى حلاق وهو يصيح أنه خرقت أحشاؤه من جنب إلى جنب . وكان أدب زوجي معروفا للناس حتى كانت الأطفال تعدو خلفه في الشوارع . ولهذا السبب ولأنه كان قصير النظر ، طردته سيدته . فحزن لهذا حزنا بالغا ، مات بسببه فيما أعتقد . وبقيت أنا أرملة ، مهجورة ، على عاتقي بنت كان جمالها ينمو مثل زبد البحر . وأخيرا لما كنت مشهورة بأنني أجيد الشغل ، فإن السيدة الدوقة (صاحبة القصر الذي فيه دون كيخوته) وكانت قد تزوجت حديثا بسيدي الدوق ، أرادت أن تأخذني معها إلى مملكة أرغون مع بنتي ، التي صارت مع الزمن أجمل فتاة في الدنيا . إنها تغني مثل القطاة (القلندرية) ، وترقص مثل الفكرة ، وتقفز مثل الضائعة ، وتقرأ وتكتب مثل الأستاذ في المدرسة ، وتحسب مثل البخيل . ولا أقول لك شيئا عن نظافتها . فالماء الجاري ليس أصفى منها . وإذا صحت ذاكرتي ، فلا بد أن سنها الآن ست عشرة سنة ، وخمسة أشهر وثلاثة أيام ، مع الزيادة أو النقصان . وفي وقت قصير استولت على قلب ابن فلاح غني جدا ، له غير بعيد عن هذا القصر ، أرض يستأجرها من الدوق . ولست أدري كيف حدث ما حدث ، المهم أنه بدعوى الزواج اعتدى عليها ، وهو الآن لا يريد الزواج منها والوفاء بالعهد . وسيدي يعرف ذلك ، لأني شكوت إليه عدة مرات : وطالبت بإلزام الفتى بالزواج من بنتي . ولكنه لم يعر هذا غير أذن صماء : ولا يسمع لما أقول . والسبب في هذا أنه يقرض الدوق مالا ، ويضمنه في كثير من الأحوال . ولهذا لا يريد الدوق أن يسخطه أو يضايقه . ولهذا أود منك يا سيدي العزيز أن تتكفل بتصحيح هذا الظلم ، إما باللين والرجاء ، أو بالقوة ، والناس يقولون عنك أنك ولدت من أجل الانتصاف من الإهانات ، وتصحيح المظالم ، وإغاثة البائسين . وضع في اعتبارك شباب ابنتي وكونها يتيمة ، ولطاقتها وكل الصفات الحميدة التي حدثتك عنها . والله وبحق ضميري ، لا يوجد بين كل أوانس سيدتي آنسة واحدة جديرة بأن تخلع لها حذاءها ، ولا حتى تلك التي تدعى التسيدورا ويظن أنها أجملهن . فإنها لو قورنت بابنتي لما قارنتها ولا بفرسخين . وأنت لا تجهل يا سيدي أنه ليس كل ما يلمع ذهبا . فالتسيدورا هذه ادعاءاتها أكثر من حقيقة جمالها ، وخفتها أكبر من حشمتها ، أضف إلى هذا أنها

ليست صحيحة الجسم تماما ، ونفسها شديد حتى أنه ليس من الممكن المكوث إلى جوارها . والسيدة الدوقة... أوه ، صه! لنسكت ، فإن للجدران آذانا كما يقولون » .

فصاح دون كيخوته : وحياتي ، ماذا بسيدتي الدوقة ؟

فقالت الوصيفة : ما دمت أقسمت ، فلا أملك إلا أن أجيب . سيدي! أنت ترى جمال السيدة الدوقة ، هذا اللون اللامع مثل سيف مصقول حديثا ، وهذان الخدان من العاج والأحمر القاني ، وهاتان العينان التي تبدو إحداهما كالشمس والأخرى كالقمر ، وهذا السيد النبيل الذي يبدو كأنه يترفع عن وطء الأرض ، وهذه النضرة الرائعة التي يبدو أنها تنشر الصحة من حولها في كل مكان : أعلم أنها تدين بكل هذه الصفات أولا لله ، ثم لنافورتين في ساقها ، منهما تخرج الاخلاط الفاسدة التي يقول الأطباء إنها مملوءة بها .

فصاح دون كيخوته : يا لمريم المقدسة ، أمن الممكن أن يكون للسيدة الدوقة هذه المجاري ؟ لن أصدق هذا حتى لو قاله لي رهبان حفاة . لكن ما دامت السيدة رودريجث تؤكد هذا ، فلا بد أن يكون هذا صحيحا ، لكن مثل هذه النافورات في جسم جميل لا يمكن أن ينبع منها غير العنبر ، لا الأخلاط الفاسدة . وأنا بدأت أعتقد أن هذه الافرازات هي شيء صحي جدا .

ولم يكد يفرغ من هذه الكلمات حتى فتح الباب بضربة شديدة ، فوثبت السيدة رودريجث ، ووقعت منها الشمعة وانطفأت ، وصارت الغرفة مظلمة سوداء مثل الفرن . وشعرت الوصيفة المسكينة بمن يمسك رقبتها بجمع يديه ، وبشدة حتى أنها لم تستطع الصراخ ، بينما رفع شخص آخر تنورتها دون أن ينطق بكلمة ، وضربها بسوط ، فيما يبدو ضربات شديدة كانت تثير الشفقة . وعلى الرغم من حنان دون كيخوته فإنه لم يتحرك من سريره ، لأنه لم يدر ما هذا . ولم يقل كلمة ، بل قبع ساكتا وهو يخشى أن يمتد الضرب إليه هو . ولم يخطئ في ظنه ، فإن الجلادين الصامتين بعد أن أوجعوا السيدة رودريجث ضربا ، دون أن تجرؤ على الصياح ، انقضا على دون كيخوته ، وانتزعا المفارش والأغطية وضرباه بشدة حتى إنه أخذ يدافع عن نفسه باللكمات . وكل هذا قد تم في صمت رائع . واستمرت المعركة نصف ساعة ، ثم انسحب الشبحان . فأنزلت السيدة رودريجث تنورتها ، وراحت تنوح ثم خرجت دون أن تنطق بكلمة لدون كيخوته ، الذي بقي وحده مرتبكا مفكرا محطما ، يريد أن يعرف من ذلك الساحر النغل الذي نكل به هذا التنكيل . لكن هذا سيتضح في أوانه . فلندع دون كيخوته هناك ، ولنعد إلى سنشو الذي يدعونا . هكذا يقتضي نظام القص والرواية .

الفصل التاسع والأربعون

فيما وقع لسنشو پنثا وهو يقوم بجولة تفتيشية في جزيرته

تركنا الحاكم الكبير متضايقا غاضبا ضد هذا الفلاح ، المصور من نوع جديد ، والمازح الثقيل الذي لقنه ناظر القصر دوره ، وهذا لقنه الدوق ، فجاء يسخر من سنشو پنثا . ولكن هذا ، وان كان غليظا بسيطا ساذجا ، فقد صمد للموقف ، وقال للحاضرين وللدكتور رثيو ، الذي دخل القاعة مع رسول الدوق : «الآن أقر بأن القضاة والحكام ينبغي أن يكونوا من البرونز لمقاومة أصحاب المطالب ، الذين يأتون في كل ساعة ويطلبون أن يسمع لطلباتهم ونحل مشاكلهم ، دون أن يفكروا إلا في أمورهم الخاصة ، مهما كلف الأمر ، فإذا لم يرضهم الحاكم المسكين ، إما لأنه لا يستطيع ، أو لأن القوت ليس وقت سماع الدعاوي فإنهم يتبرمون ، ويلعنون وينخرون عظامه ، ويقشرون جلد كل أسرته . أيها الشاكي الجاهل ، أيها المطالب الثقيل لا تتعجل هكذا . انتظر القوت المخصص للنظر في الدعاوي ، ولا تأت أبدا في ساعة الطعام أو النوم . فإن القضاة من لحم وعظم ، وهم مضطرون إلى أن يعطوا الطبيعة ما تطلبه ، فيما عداي أنا ، الذي لا أستطيع أن أطعم نفسي ، بفضل الدكتور بدرو رثيو ترتيافورا ، الحاضر هنا ، ويريد أن أموت جوعا ، ويزعم أن الموت هكذا هو الحياة ، وليعيش هو هكذا ، هو ،وكل من على شاكلته! أقصد الأطباء الأردياء ، لأن الأطباء الجيدين يستحقون المكافأة وأكاليل الغار» .

وكل الذين عرفوا سنشوپنثا أعجبوا به وهو يتكلم بهذه العبارات الجيدة ، ولم يدروا إلى ماذا يعزون هذا ، اللهم إلا أن المناصب والوظائف المهمة توقظ العقول أو تجعلها ثقيلة .

وأخيرا وعد الدكتور بدرو رثيو أجويرودي ترتيافورا ـ وعد سنشو بأن يسمح له بالعشاء هذا المساء ، على الرغم من كل فصول بقراط . فاغتبط سنشو لهذا ، وانتظر ،

بصبر نافد ، الليل وساعة العشاء ، لأنه بدا له أن الزمان ساكن . وأخيرا جاءت الساعة المنشودة ، فقدموا له كفتة من لحم البقر بالبصل ، وزوجا من الأكارع العجالي الكبيرة التي تكاد تعد أكارع ثور ، فالتهمها بشهية شديدة كما لو كان ما قدم له هو دراريج ميلانو وتدراج روما وعجول سورنتو وحجل مورون أو إوز لباخوس . وكان يأكل ويقول للدكتور : « أنت ترى أنه ليس من الضروري تقديم أطعمة فاخرة ولحوم لذيذة لي : فإنها لا تناسب معدتي ، وهي معتادة على لحم الماعز واللحم البقري ، والشحم ، والمملحات ، واللفت ، والبصل فإن أعطيت أطعمة أخرى ، تلقتها ساخطة ، وأحيانا تلفظها . وخير ما يفعله رئيس الطهاة هو أن يعطيني طورلي : وكلما كانت متعددة الأنواع ، كانت أشهى عندي ، ويستطيع أن يضع فيها كل ما يشاء ، ما دام يمكن أكله : وسأقدر له مجهوده وأكافئه عليه ذات يوم . وليس لأحد هنا أن يسخر مني : فإما أن نكون ، أو لا نكون ، فلنعش جميعا ، ولنأكل بسلام وفي صحبة طيبة . إن الله يبعث الضوء (النهار) لجميع الناس ، وسأحكم هذه الجزيرة بالاستقامة دون الإضراربأحد . وليفتح كل امرئ عينيه وينظر أمامه ، لأني أحذركم أن الشيطان منطلق ، ولو أعطيت الفرصة لشاهدتم عجائب . كن عسلا يأكلك الذباب .

فقال رئيس الطهاة : حقا ، يا سيدي الحاكم ، أنت على صواب في كل ما قلته! وباسم جميع سكان الجزيرة أضمن لك أن يخدموك جميعا بدقة وحب وإحسان : والرقة التي أبديتها في الساعات الأولى من حكومتك لم تمكنهم من أن يعملوا أو يفكروا في شيء يتنافى مع واجباتهم نحوك .

فقال سنشو : وأنا أعتقد هذا بسهولة : ولو فعلوا أو فكروا غير هذا لكانوا حمقى مغفلين . ومع ذلك أكرر وأقول احتموا بي وبحماري : هذه هي النقطة المهمة . وحين يئين الأوان نقوم بجولة تفتيشية : وفي عزمي أن أنظف الجزيرة من كل أنواع القاذورات ، مثل المتشردين والمتبلطين ، والمتسولين . وأنت تعلمون ، يا أصحابي ، أن المتعطلين والمتشردين هم في الدولة كالزنابير التي تأكل العسل الذي ينتجه النحل المجد . وأريد حماية الحراثين ، وضمان كل الحقوق للنبلاء ، ومكافأةالأفاضل ، وخصوصا احترام الدين ورجاله . فما رأيكم في هذا يا أصحابي ؟ هل أنا على حق أو لا ؟

فأجاب ناظر القصر : سيدي ، إني معجب برؤية رجل غير متعلم مثلك (لأني أرى تماما أن ليس عندك أي علم) يقول مثل هذه الأشياء الحسنة ، الحافلة بالأمثال ، وبالتعلم ، وهي بعيدة عن كل ما توقعه من عقلك كل أولئك الذين أرسلوا بنا هنا . كل يوم نرى في العالم أمورا جديدة : الممازحات تتحول إلى حقائق ، والساخرون يصبحون موضوعا للسخرية » .

ولما جاء الليل ، تعشى سنشو ، بعد إذن الدكتور رثيو ، ثم خرج ليقوم بجولة تفتيشية ، مصحوبا بناظر القصر ، والسكرتير ، ورئيس الطهاة ، والمؤرخ المكلف بتسجيل أفعاله وأعماله ، وبعدهم الموثقون والمحضرون وكان عددهم كبيرا حتى كانوا يألفون نصف كوكبة . ومشى سنشو في وسطه ، معه عصاه ، وهي علامة السلطة ، ولم يكادوا يجتازون بضعة شوارع حتى سمعوا قعقعة سيوف ؛ فهرعوا ، وشاهدوا رجلين يتعاركان ، فلما رأوا العدالة قادمة توقفا ، وقال أحدهم : «باسم الله والملك هل يجوز السماح بالسرقة في هذه القرية ونهب المارة في وسط الطرقات» ؟

فقال سنشو : إهدأ أيها الرجل الطيب ، وارو لي سبب تضاربكما ؛ فأنا الحاكم عليكم .

فقال الخصم الأول : سأذكره باختصار يا سيدي . ستعلم أن هذا الرجل المهذب قد كسب ، في بيت قمار قريب من هنا ، أكثر من ألف ريال ، والله يعلم كيف كسب : لقد كنت حاضرا ، وحكمت لصالحه في أكثر من دور مشكوك فيه ، ضد شهادة ضميري . ولكنه مضى مع مكسبه ، ولما كنت آمل في أن يعطيني ولو بضعة اسكودوات ، كما هي العادة مع الناس الذين من أسرة هنا ، والذين يقومون بالفصل في الأدوار وتهدئة المنازعات ، فإنه وضع النقود في جيبه ومشى . فاتبعته ، واستحلفته بالكلمات الطيبة العذبة ، أن يعطيني ثمانية ريالات ؛ وهو يعرف تماما أنني رجل شريف ، وليس عندي منصب ولا ريع مرتب ، لأن أهلي لم يتركوا لي شيئا ولم يعلموني ، لكن هذا اللص ، الأكبرلصوصية من كاكوس[1] ، وأشد غشا من أندراديا[2] ، لم يرد أن يعطيني غير أربعة ريالات . فانظر ، يا سيدي الحاكم ، أي قلة حياء وانعدام ضميرا لكنني أقسم بأنه لو لم تجيء سيادتك لكنت قد أرغمته على رد مكاسبه ، وعلمته كيف يسلك معي .

فقال سنشو للرجل الآخر : ما تقول في هذا ؟

فأجاب : إن ما قاله صحيح ، يا سيدي ، وأنا لم أرد أن أعطيه غير أربعة ريالات ، لأنني أعطيه نقودا في كثير من الأحيان ؛ ومن ينتفعون هكذا من القمار ينبغي أن يكونوا قنوعين ويقبلوا عن طيب خاطر ما يقدم إليهم ، دون مفاصلة مع الرابحين ، إلا إذا كانوا يعلمون

---

(١) كاكوس ف : مارد هائل ، نصف إنسان ونصف ساتور ، ابن فلكان (اله الرعد) وكان يبصق دوامات من اللهب والدخان . ويسكن في كهف بجبل أفنتان ، بالقرب من الموضع الذي بنيت فيه روما فيما بعد ، وذات يوم سرق من هرقل بعض العجول ، فقام هرقل ودفع مدخل الكهف بقوته الجبارة على الرغم من أن المدخل كان مسدودا بصخور هائلة ، ثم خنقه . وهذه المعركة أوحت إلى فرجيل بقطعة رائعة في «الاينياذة» (الكتاب السابع) .

(٢) أندراديا : لا بد أنه نصاب مشهور في زمان ثربانتس أو قبله بقليل . ولكن رودريجث مارين يقول : ربما كان أندرادا Andrada المذكور في إحدى الرومنثات الجرمانية التي الفها كرستوبال دي تشابس ، من اشبيلية ، ونشرها خوان هيدلجو في سنة ١٦٠٩ .

أنهم غشاشون ، وكسبهم غير مشروع . وأكبر دليل على أنني رجل طيب ، ولست لصا ، كما يدعي هذا الرجل ، وهو أنني لم أرد أن أعطيه شيئا ؛ ذلك أن الغشاشين هم دائما تحت رحمة المشاهدين الذين يعرفونهم .

فقال ناظر القصر : هذا حق : فانظر يا سيدي الحاكم ماذا تريد أن تفعل بهذين الرجلين ؟

فقال سنشو : ما أريد أن أفعل ؟ أنت أيها الرابح ، بوجه حق أو بغير وجه حق ، أعط لخصمك في الحال مائة ريال ، وأعط أيضا ثلاثين ريالا للمسجونين . وأنت يا رجل الخير ، يا من لا منصب لك ولا ريع مرتبا ، وتتجول بالليل في هذه الجزيرة ، خذ المائة ريال وارحل ، غدا لا أريد أن أراك في البلد ، ولا ترجع إليها قبل عشر سنوات ، وإلا كانت عقوبتك الاعدام ، وسأعلقك أنا بنفسي في المشنقة ، أو على الأقل سيعلقك الجلاد بأمري . ولا يردن أحدكما ، وإلا صفعته على أذنيه .

ونفذ هذا الحكم . فأعطى الواحد ، وأخذ الآخر ، وخرج هذا من الجزيرة ، وعاد الأول إلى بيته ، وصاح سنشو : إما أن تعوزني السلطة ، أو أغلق بيوت القمار هذه ، فإنها تبدو لي مضجرة جدا .

فقال أحد الموثقين : لا أعتقد أن من الممكن إغلاق بيوت القمار ، لأنها يمتلكها شخص كبير ، يخسر الكثير جدا على مدار العام أكثر مما يربح بالأوراق (الكوتشينة) . لكن سيادتك تستطيع أن تمارس سلطتك في أوكار أقل أهمية ، ولكنها أشد خطرا من أن الولع بالقمار قد صار عاما مع الأسف الشديد ، فالأفضل أن يتم القمار في البيوت الكبيرة لا في بيوت بعض الموظفين الصغار ، حيث تسلخ جلود الناس وهم أحياء ، ثم يطردون في وسط الليل .

فقال سنشو : أيها الموثق ، أنا أعرف أن هناك الكثير مما يقال في هذا الموضوع .

وفي هذه اللحظة ظهر رام يقود شابا . فقال الرامي : «سيدي الحاكم ، لقد التقينا بهذا الشاب وكان قادما علينا ، لكنه حين شاهد العدالة ، فر هاربا ، وأخذ يعدو مثل الأيل الأسمر ، مما جعلنا نشتبه في أنه مجرم : فطاردته ، ولولا أنه وقع وهو يجري لما استطعت اللحاق به» .

فقال سنشو : لماذا كنت تعدو يا فتى ؟

ـ لتجنب مضايقات العدالة .

ـ ماذا تعمل ؟

ـ نساج .

ـ في ماذا ؟

ـ في حديد الرماح ، مع عدم المؤاخذة .

ـ آه ، أنت تسخر ، وتريد أن تمزح ، حسن جدا . وإلى أين كنت ذاهبا الآن ؟

ـ كنت ذاهبا لاستنشاق الهواء .

ـ وأين يستنشق الهواء في هذه الجزيرة ؟

ـ حيث يهب .

ـ أحسنت الجواب ، يا فتى ؛ أنت حكيم ، لكن اسمع : افترض أنني الهواء ، وأني أهب في المؤخرة ، وإني أدفعك إلى السجن . يا حراس ، اقبضوا عليه ، ولينم هذه الليلة بدون استنشاق الهواء .

فقال الفتى : والله إنك تجعلني أنام في السجن كما تجعلني ملكا .

ـ ولماذا لا أجعلك تنام في السجن ؟ أليس عندي سلطة للأمر بالقبض عليك أو الإفراج عنك ، كما أشاء ؟

ـ وحتى لو كانت عندك سلطة أكبر ، فلن تستطيع أن تجعلني أنام في السجن .

ـ لا أستطيع ؟ إذن اقتادوه فورا ، وسيرى أنه يخطئ في هذا الظن . وإذا شاء القاضي أن يتكرم عليه ويسمح له بوضع قدمه خارج السجن ، فإني أحكم عليه مقدما بغرامة قدرها ألفان من الدوقات .

ـ كل هذا ليس إلا مزاحا ، والواقع أنه لا توجد قوة إنسانية تستطيع أن تجعلني أنام في السجن .

ـ قل لي ، أيها الجني ، هل عندك روح تأتي لتخليصك وفتح القضبان التي سيلقى بك خلفها ؟

فقال الفتى : سيدي ، اسمع : لأفترض أنك بعثت بي إلى السجن ، وأن فيه قضبانا وأقفالا عديدة ، ووضعوني في زنزانة خاصة ، ومنع القاضي من الإفراج عني وإلا عوقب عقابا صارما جدا ، ومع ذلك فإنني إذا لم أرد أن أنام ، وبقيت طوال الليل ساهرا مفتوح العينين ، فهل عندك القدرة على جعلي أنام على الرغم مني ؟

فقا السكرتير : لا ، طبعا ، هذا الفتى على حق .

وقال سنشو : إذن لا يمكن أن يرغمك على النوم إلا إرادتك ، بينما إرادتي لا تستطيع ذلك!

فقال الفتى : لا ، طبعا .

فقال سنشو : إذن ، إذهب في رعاية الله ونم في بيتك ، ولا أريد أن أمنعك من النوم ؛ لكني أنصحك ألا تسخر أبدا من العدالة ، إذ قد يتصادف أن تلاقي من يصفعك بسخريتك على أنفك . فامتثل الفتى ، واستمر سنشو في جولته .

وبعد بضع خطوات قابلوا راميين يقتادان رجلا ، وقال أحدهما : « مولاي ، هذا الشخص الذي تراه ، والذي يبدو أنه رجل ، ليس كذلك : بل هو امرأة ، وامرأة جميلة ، بزي رجل » . فقاربوا مصباحين أو ثلاثة ، فشاهدوا على النور وجه فتاة في السادسة عشرة من عمرها : وكان شعرها محصورا في شبيكة من الذهب والحرير الأخضر ، وكانت جميلة كألف لؤلؤة . وفحصت من أعلى إلى أسفل : فكانت تلبس جوارب من الحرير الأحمر القاني ، مع أربطة للساق من التافتاه الأبيض ، محاطة بذهب وجوهر ، وكانت سراويلها من البروكار الذهبي على أساس أخضر وكانت الغلالة من القماش نفسه ، وتحتها صدرية من التيل الرقيق الأبيض والذهبي ، وكان حذاؤها أبيض ويشبه أحذية الرجال ، وبدلا من السيف كانت تحمل مشملا (سيفا قصيرا) غنيا ، وكان في كل أناملها خواتم ثمينة : وبدت جميلة في نظر الجميع ، لكن لم يتعرفها أحد . وعجب سكان الناحية منها وكذلك من كانوا على علم بالمزاحات التي يضحك بها على سنشو ، لأنهم لم يطلعوا على حقيقة المقابلة ، وكانوا نافدي الصبر يريدون أن يروا نهايتها . ودهش سنشو من جمال الفتاة ، وسألها من تكون وإلى أين هي ذاهبة ، ولماذا خرجت بهذا الزي . فأجابت وعيناها مسلطتان على الأرض ، والخجل يضرجها بالحمرة : « لا أستطيع يا سيدي أن أكشف أمام الناس سرا ينبغي كتمانه ، وأستطيع فقط أن أؤكد لسيادتك إني لست سارقة ولا امرأة فاسقة ، بل فتاة بائسة ، ألجأتها الغيرة إلى تجاوز حدود الحياء » وعند هذه الكلمات قال ناظر القصر لسنشو : « سيدي أطلب إلى الناس أن ينصرفوا ، حتى تستطيع هذه الفتاة أن تتكلم بحرية » . فانصرف الجميع جانبا ، ولم يبق إلا ناظر القصر ، ورئيس الطهاة والسكرتير . هنالك استأنفت الفتاة الجميلة الكلام قائلة : « سادتي ، إني بنت بدرو بيرث مثوركا ، ملتزم ضرائب الصوف في هذه القرية ، الذي بنت بدور بيرث مثوركا » . فقاطعها ناظر القصر قائلا : « ما تقولينه غير مقبول : فأنا أعرف جيدا بدرو بيرث ، وليس له ولد ولا بنت ، ثم إنك تقولين إنك ابنته ، وبعد ذلك تقولين إنه كثيرا ما يأتي عند أبيك » .

فقال سنشو : أنا لاحظت هذا التناقض .

فقالت الفتاة : يا سادتي أنا الان في حالة ارتباك إلى حد أني لا أدري ماذا أقول ؛ الحقيقة إنني ابنة دييجو دلا يانا ، ولا بد أنكم جميعا تعرفونه .

فقال ناظر القصر : ولا هذا أيضا ، فأنا أعرف دييجو دلا يانا ، إنه نبيل وافر الثراء ، وعنده ولد وبنت ، لكن منذ أن صار أرمل لا يستطيع أحد أن يتباهى بأنه شاهد وجه ابنته : لقد أخفاها عن الشمس نفسها ، وفضلا عن ذلك فقد اشتهرت بأنها في غاية الجمال .

فقالت : « إنك تراها حقا أمامك الآن ، وتستطيع أن تحكم هل هذه الشهرة كاذبة » . ثم أخذت في البكاء المر . ولما رأى السكرتير هذه الدموع قال لرئيس الطهاة : « لا بد أنه وقع لهذه الآنسة المسكينة حادث مهم جدا ، لأنها من أصل عريق ومع ذلك تجري في الشارع بالليل في هذا الزي » . ـ فأجاب الآخر : « لا شك أبدا في هذا ، ودموعها نفسها دليل على ذلك» . فواسها سنشو قدر المستطاع ، ودعاها إلى الإفضاء له بسر أحزانها ، دون خوف ، واعدا بمساعدتها بكل قلبه وبكل الطرق الممكنة .

فقالت أخيرا : « سادتي ، هذه هي الحكاية : منذ عشر سنوات وأبي يحبسني في البيت ، وذلك منذ وفاة أمي . والقداس يحتفل به في البيت في مصلى فاخر ، وطوال هذه المدة لم أر غير الشمس في النهار ، والقمر والنجوم في الليل : حتى إني لا أعرف ما هي الشوارع والميادين ، والمعابد ولا الناس ، اللهم إلا أبي وأخي وبدرو بيرث الذي كثيرا ما يأتي إلى بيتنا ؛ وهذا هو ما دعاني إلى أن أقول عنه إنه أبي ، حتى لا أذكر اسم أبي ؛ وهذا الحبس وهذا المنع من الخروج ، حتى للذهاب إلى الكنيسة ، يعذبني منذ وقت طويل : وكنت أود أن أرى الدنيا ، أو على الأقل القرية التي ولدت فيها ، ولم يبدُ لي أن هذه الرغبة تتنافى مع الحشمة وما ينبغي على الفتاة الطيبة الأعراق . وحين كنت أسمعهم يتكلمون عن مصارعة الثيران ، والكوميديات ، وسائر الملاهي ، كنت أرجو أخي ، وهو يصغرني بعام ، أن يفسر لي بقدر ما يستطيع ، مما كان يلهب رغبتي في مشاهدتها . والخلاصة ، واختصارا لقصة مصائبي ، رجوت وتوسلت إلى أخي (وليتني لم أفعل!) ـ وهنا استأنفت دموعها . ـ فقال لها ناظر القصر : « سيدتي ، تابعي حديثك بلا خوف ، إنك تثيرين تشوقنا » . فقالت : « لم يبق إلا القليل لأقوله ، وإن كان علي أن أبكي على الكثير ، لأن الرغبات السيئة لا تجر معها غير المتاعب » . وأثر جمال هذه الفتاة في قلب ناظر القصر ، ورفع فانوسه من جديد ليتطلع فيها : فبدا له دموعها كأنها لآلئ شرقية ، أو ندى الحقول ، وود لو كان شقاؤها أقل مما ينبئ عنه تنهدها . وتضايق سنشو من تقطعها المستمر في الكلام ، وقال لها إن الوقت متأخر ، وهو لم يتم بعد جولته . فقالت ، بعد كثير من الزفرات :

ـ مصيبتي ليست شيئا آخر غير أنني استحلفت أخي أن يعيرني أحد أثوابه ، وأن يأخذني معه ليلا في القرية ، بينما أبي نائم . ومن شدة الحاحي عليه وافق أخيرا ، وأعارني

هذا الثوب ، وأخذ أحد أثوابي ، وكان يناسبه تماما ، لأنه أمرد ، ويمكن أن يعد فتاة جميلة جدا ، وخرجنا هذه الليلة ، منذ ساعة ، وتجولنا في كل القرية بارشاد أحد الخدم . لكن حين فكرنا في العودة إلى البيت شاهدنا عددا كبيرا من الناس ؛ فقال أخي لا بد أن هذه هي الدورية ، وحثني على الجري حتى لا يتعرف من أنا . وسبقني ، وحاولت اللحاق به ، لكن بعد بضع خطوات ، ترنحت وسقطت على الأرض ، فقبض علي واقتادوني أمامكم ، لتظنوا أنني فتاة وقحة .

فقال سنشو : ولم يحدث لك أي شيء آخر ، وهذه الغيرة التي تحدثت عنها أولا ليست السبب في خروجك ؟

فقالت : لا ، يا سيدي ، لم يكن لي رغبة غير أن أرى المعالم ، أو بالأحرى شوارع قريتي .

وفي هذه اللحظة اقتاد الرماة أخاها ، وكانوا قد قبضوا عليه حين فر ، فأيد رواية أخته . وكان يلبس تنورة ثمينة ، وخمارا (مانتيا) من الداما الأزرق ، المزود بالذهب ، وكان رأسه عاريا ، لا يزينه غير شعره الذي بدا كحلقات من الذهب . فانتحى به سنشو والآخرون جانبا ، واستجوبوه ؛ فكانت أجوبته هي أجوبة أخته نفسها ، لكنها كانت أقل احتجازا ، وأحدث هذا التوافق في الأجوبة ، سرورا كبيرا في نفس ناظر القصر .

وأخيرا قال سنشو : «صديقي ، أنتما مبتدئان ؛ هل كان من الضروري تذارف كل هذه الدموع ونفث كل هذه التنهيدات ، وإبداء كل هذا الارتباك ، من أجل حكاية مثل هذا العبث الصبياني ؟ ألم يكن في وسعكما أن تقولا نحن فلان وفلانة ، وقد خرجنا من بيت أبينا لمجرد حب الاستطلاع وليس بأي قصد آخر ، إذن لكانت الحكاية انتهت ، ووفرتما كل هذه الزفرات .

فقالت الفتاة ؛ أنت على حق يا سيدي ، لكن ارتباكي كان شديدا ، حتى لم أستطع حسن التصرف ، كما تعرف .

فقال الحاكم : «لم يضع شيء ، لنستمر في طريقنا ، ولنسلمكما لبيت أبيكما . وكان يجوز أن يحدث لكما ما هو أسوأ . وفي المستقبل لا تكونا طفلين هكذا ، ولا مشتاقين هكذا لرؤية العالم . إن البنت الشريفة تكسر رجلها في البيت ، أما إذا دارت ، فإن المرأة والدجاجة تضيع ، ومن ترغب رغبة شديدة في المشاهدة ترغب رغبة شديدة في أن يشاهدها الناس : ولا أزيد على هذا» .

فشكر الفتى لسنشو لاصطحابهما إلى البيت ، ولم يكن البيت بعيدا . ووصلا ، وشد

الفتى جرسا صغيرا ، فظهرت خادمة ، ودخلا ، تاركين الناس في اعجاب شديد بجمالهما ولطافتهما ، واستطلاعهما ، الذي نسب إلى شبابهما .

وناظر القصر ، وقد تأثر تأثرا بالغا ، فكر في أن يطلب البنت من أبيها زوجة له ، مقتنعا بأنه لن يرفض ، لأنه من رجال الدوق . وفكر سنشو في مشروع تزويج الفتى بابنته سنتشيكا . ثم أجل المسألة إلى وقت آخر ، مقتنعا بأن ابنة الحاكم لا يمكن أن يرفضها أحد . والخلاصة أن جولة هذه الليلة انتهت ، وانتهت بعد ذلك بيومين حكومة سنشو[1] مما قضى على مشروعاته ، كما سنرى بعد حين .

(١) في نهاية الفصل ٥٢ يرد أن حكومة سنشو استمرت عشرة أيام ، لكنها لا بد أن تزيد على ذلك ، إذا حسبنا زمن الأحداث التي وقعت لدون كيخوته في نفس مدة هذه الحكومة ، إذ استغرقت ١٤ يوما ، ولهذا يقول كليمنثين أن كل شيء في غاية الاضطراب فيما يتعلق بالمدة التي بقيتها حكومة سنشو .

الفصل الخمسون

حيث يبين من كانوا السحرة الذين جلدوا السيدة رودريجث وضربوا دون كيخوته، وكيف استقبل الغلام حامل الرسالة الى تريزة بنا زوجة سنشو بنثا

يخبرنا سيدي حامد ، وهو فاحص دقيق عن تفاصيل هذا التاريخ الصادق ، أنه في اللحظة التي خرجت فيها السيدة رودريجث من غرفتها قاصدة دون كيخوته ، أدركت ذلك وصيفة أخرى تنام معها ، ولما كانت كل الوصيفات متشوقات إلى أن يعرفن ويرين ويسمعن فقد تبعتها باحتياط بالغ حتى أن الطيبة رودريجث لم تفطن لها . فلما رأتها تدخل في غرفة دون كيخوته ، ذهبت ـ عملا بالعادة الموجودة في طباع كل الوصيفات وهن كلهن مخبرات ـ بسرعة لاخبار الدوقة ؛ فأنبأت هذه الدوق ، واستأذنته في الذهاب ، مع التسيدورا ، لترى ماذا تريد السيدة رودريجث من دون كيخوته . ووافق الدوق . فخرجت السيدتان ، ومشتا مسترقتين الخطى كالذئاب إلى أن بلغتا باب غرفة الفارس ؛ ووقفتا بالقرب بحيث سمعتا عن سر نافورتيها[1] ، لم تستطع الاحتمال وكذلك التسيدورا فاستبد بهما الغضب والرغبة في الانتقام ، ودخلتا فجأة الغرفة ، وضربتا دون كيخوته والوصيفة كما رأينا . لأنه لا شيء يهين المرأة ويثيرها إلى الانتقام أكثر من الإساءة إلى جمالها ، وإلى الفكرة الحسنة التي لديها عن نفسها . ثم روت الدوقة للدوق ما حدث ، فاغتبط أيما اغتباط . وأرادت الدوقة أن تطيل اللذة التي وجدتها في التمويه على دون كيخوته ، فأرسلت إلى تريزة پنثا الغلام الذي كان قد لعب دور دلثنيا في منظر رفع السحر ، تريزة التي أنست المشاغل الكبرى سنشو إياها ، وحمل الغلام رسالة الزوج ، ورسالة من الدوقة ، وعقدا جميلا من المرجان .

ويقول المؤرخ إن هذا الغلام كان ذكيا بارعا لا يسعى إلا إلى إمتاع أسياده . فلما

---

(١) في النص الاسباني يتلاعب المؤلف بكلمة «نافورتيها» ، والترجمة الحرفية هي : «ولما سمعت الدوقة أن السيدة رودريجث قد ألقت في الشارع بأرنخويث نوافيرها...» . وأرنخويث هي المقر الملكي الذي كان فيه قصر الملك تحيط به الحدائق الغناء المملوءة بالنافورات الرائعة ، مثل قصر فرساي .

وصل إلى القرية ، شاهد عند مدخلها عددا كبيرا من النساء يغسلن الملابس في جدول ماء ، فاقترب منهن ، وسأل إحداهن هل يوجد في هذه القرية فارس يدعى دون كيخوته دلا منتشا . وعند هذا السؤال نهضت فتاة كانت تغسل ، وقالت : « سيدي! تريزة هذه هي أمي ، وسنشو أبي ، والفارس الذي تتكلم عنه هو مولانا » . ـ فقال الغلام : « ما دام الأمر هكذا ، فدليني ، من فضلك ، على أمك . فإني أتيت لها برسالة وهدية من زوجها » . ـ فقالت الفتاة : « سيكون هذا مصدر سرور بالغ لها » وكانت سنها قرابة الرابعة عشرة . وتركت لإحدى صواحبها الثوب الذي كانت تغسله ، وقبل أن تأخذ الفسحة الكافية من الوقت لتلبس حذاءها وقبعتها ، وثبت أمام الفرس ، وقالت للغلام : « تعال يا سيدي ، إن بيتنا عند مدخل القرية ، وأمي في انشغال شديد لأنها لم تتلق أنباء من السيد والدي » . ـ فقال الغلام : « لقد أتيتها بأنباء سارة ، تجعلها تحمد الله . » واقتادت سنتشيكا الغلام ، وهي تثب ، وتقفز ، وتعدو ، ولما بلغت باب بيتها صاحت : « تعالي ، تعالي ، يا أمي ها هو سيد يحمل رسالة وأشياء أخرى من أبي العزيز! » وعند سماع هذه الصيحات خرجت تريزة من البيت ، وهي تحمل حزمة من المشاقة[١] تغزلها ، وكانت تلبس فستانا رمادياً قصيراً حتى ليبدو وكأنه قطع من قدام ، وكورسيه من النوع نفسه وصدرة . ولم تكن عجوزة جدا ، وإن بدا عليها أنها تجاوزت الأربعين ، لكنها كانت قوية ، عصبية ممتلئة . فقالت : « ماذا يا بنيتي ؟ من هذا السيد ؟ » ـ فأجاب الغلام : « خادمك يا سيدة دونيا تريزة پنثا » . وفي الحال نزل عن فرسه وجثا أمامها بخضوع وقال لها « اسمحي لي يا سيدتي ، أن أقبل الزوجة الشرعية للسيد دون سنشو پنثا ، حاكم جزيرة برتريا » . ـ فقالت « آه ، يا سيدي ، ماذا تريد أن تفعل ؟ أنا لست امرأة في البلاط ، بل فلاحة مسكينة ، ابنة عامل باليومية ، وزوجة سائس جوال لا زوجة حاكم » . ـ فأجاب الغلام : « سيدتي اسمحي لي أنت حقا الزوجة الكفء لحاكم كفء جدا ، والدليل على ما أقوله ، هو هذه الرسالة وهذه الهدية . وفي الوقت نفسه ، وضع في رقبتها عقد المرجان الذي كان طرفاه من الذهب ، وقدم إليها رسالة زوجها ، ثم رسالة من الدوقة . فارتبكت تريزة كل الارتباك ، وكذلك بنتها ، وهذه صاحت قائلة : « أموت ، إذا لم يكن ذلك من عند مولاي دون كيخوته ، ولا بد أنه أعطى أبي الحكومة أو الكونتيسة التي طالما وعده بها مرارا وتكرارا » فأجاب الغلام : « نعم ، هذا صحيح ، فإنه تكريما للسيد دون كيخوته عين أبوك حاكما على جزيرة برتريا ، كما سترين من هذه

(١) المشاقة (بضم الميم) : ما سقط من الشعر (بفتح العين) أو الكتان أو الحرير عند المشط ، أو ما طار ، أو ما خلص . وقيل : المشاقة ما يبقى من الكتان بعد المشق ، وهو أن يجذب في ممشقه ـ وهي شيء كالمشط ـ حتى يخلص خالصه .

الرسالة» . «أوه ، من فضلك يا سيدي الفاضل أن تقرأها لي ـ هكذا قالت تريزة ـ لأني أعرف كيف أغزل ، لكني لا أعرف القراءة» . ـ فقالت سنتشيكا : «ولا أنا أيضا ، لكن انتظر ، سأبحث عن واحد يقرؤها ، إما القسيس أو حامل البكالووريا سمسون كرسكو . وسيأتيان عن طيب خاطر ليعرفا أنباء عن أبي» . ـ فقال الغلام : «لا حاجة إلى البحث عن أحد لأني إذا كنت لا أعرف الغزل ، فأنا أعرف القراءة» وقرأ الرسالة ، من أولها إلى آخرها ، رسالة سنشو ، التي أوردناها من قبل ، ثم رسالة الدوقة ، وهذا نصها :

«عزيزتي تريزة! إن الصفات الحميدة التي يتحلى بها زوجك سنشو وما يتميز به من جودة الرأي ، قد حملتني على أن أطلب له من زوجي الدوق أن يمنحه حكومة إحدى الجزر التي يملكها . وقد علمت أنه يحكمها كالنسر ، وهذا أمر يبعث في نفسي بالغ الرضا ، وكذلك في نفس الدوق . وإني لأشكر للسماء أني لم أخطئ في هذا الاختيار ، إذ عليك أن تعلمي أن من الصعب العثور على حاكم صالح ، والله يعطيني من الخير بقدر ما يحسن سنشو الحكم في جزيرته . وأرسل إليك يا صديقتي العزيزة ، عقدا من المرجان طرفاه من الذهب . وكنت أود لو كان من اللآلئ الشرقية ، ولكن المثل يقول إن الذي يعطيك عظمة لا يريد موتك[1] . وسيأتي وقت يعرف كل منا الآخر ويزوره . الله يعلم متى وأحيي ابنتك سنتشيكا . وخبريها بالنيابة عني أني أريد أن أزوجها زواجا عظيما في الوقت الذي تكون هي فيه أبعد ما تكون عن التفكير في ذلك وقد قيل لي إن في نواحيكم ثمار بلوط حلوة . فابعثي إلي بعشرين منها وسأقدرها ، لأنها منك أنت . اكتبي إلي بإسهاب ، وحدثيني عن نفسك وحالتك ، وإذا احتجت إلى شيء فما عليك إلا أن تطلبي ، تنالي ، حفظك الله!

من قصري......

صديقتك التي تحبك كثيرا

الدوقة

فصاحت تريزة : «آه! يا لها من سيدة طيبة ممتازة لطيفة! بودي أن أدفن مع مثيلاتها ، لا مع نبيلات قريتنا اللواتي يحسبن ، لأنهن نبيلات ، أن الريح لا تجرؤ على أن تمسهن ، ويذهبن إلى الكنيسة بأبهة وكأنهن ملكات ، ويعتقدن أنهن يتدنسن إذا تطلعن إلى فلاحة ؛ وها هي ذي هذه السيدة الطيبة ، وهي فوق هذا دوقة ، تدعوني بلقب عزيزتي ، وتعاملني

---

(١) أي أن الهدايا الصغيرة عربون الصداقة .

كما لو كنت مساوية لها : جعلني الله أراها رفيعة المقام عالية المكانة مثل أعلى برج في إقليم المنتشا! أما عن ثمار البلوط يا سيدي العزيز ، فسأبعث إليها بكيلة من أجود الأنواع ؛ لكن يا سنتشيكا اهتمي الآن بالاحتفاء بهذا السيد ؛ واهتمي بفرسه ، واذهبي لاحضار بيض من الزريبة ، وشريحة من الجامبون ، ولنعامله كأمير ؛ إن حسن طلعته والأنباء السارة التي أتانا بها تجعله يستحق كل هذا . وفي تلك الأثناء أذهب أنا لقص هذه الأخبار السارة على الجيران ، والقسيس ، والأسطى نقولا الحلاق ، وكلهم أصدقاء أعزاء لأبيك» .

فأجابت سنتشيكا : نعم ، يا أمي ؛ لكنك ستعطيني نصف هذا العقد ؛ فأنا لا أعتقد أن السيدة الدوقة من السوء بحيث ترسله لك وحدك .

فأجابت : هو لك كله يا بنتي ؛ لكن دعيني ألبسه بضعة أيام ، إنه يسرني حقا .

فقال الغلام : وستزدادين سرورا حين تشاهدين ما عندي في حامل المعطف ؛ إنه ثوب من الجوخ الرقيق جدا لم يلبسه الحاكم غير يوم واحد ، وهو يرسله إلى ابنته .

فقالت سنتشيكا : أطال الله في عمره ألف عام ، هو ومن أحضره!

وخرجت تريزة من البيت وفي عنقها العقد ، وفي يدها الرسائل ، وهي تضرب عليها بأصابعها كما لو كانت طبلة . ولقيت القسيس وسمسون ، وأخذت تقفز ، وقالت لهما : «الآن لم يعد لي أقارب فقراء حقا ؛ ونحن الآن في الحكم . فلتأت أكبر متغامزة في القرية ولتقترب مني ، وأنا أريها من هي» .

فقالا لها : ما هذا يا تريزة ؟ أي حماقة تروينها لنا ؟ ما هذه الأوراق ؟

فقالت : ليس هناك أية حماقة غير أن هذه رسالة من الدوقة ورسالة من الحاكم ؛ وأن العقد الذي في رقبتي من فاخر المرجان ، وفيه حبات كبيرة من خالص الذهب ، وإنني حاكمة .

فقالا : كان الله في العون يا تريزه ، نحن لا نفهمك ولا نعلم ما تقصدين .

فقالت : «ستخبركم هذه» ـ وأعطتهما الرسالتين . فأخذا في قراءتهما ، ثم تلفت كل منهما للآخر ، وهو لا يدري ماذا يقول . فسأل حامل البكالوريا تريزة من أتاها بهاتين الرسالتين . فقالت : «تعالوا إلى البيت ، وسترون الرسول ؛ إنه شاب جميل كالنهار ، وقد أتاني بأشياء أخرى» . وأخذ القسيس العقد ، وقلبه ، وأعاد تقليبه ؛ ولما رأى المرجان من نوع ممتاز قال : «بحق الزي الذي أرتديه ، لا أدري ماذا أقول ولا ما أرى في هاتين الرسالتين وهذه الهدايا : من ناحية أنا أرى وألمس هذا المرجان الممتاز فعلا ؛ ومن ناحية أخرى أقرأ أن دوقة تطلب عشرين من ثمار البلوط» . ـ فقال كرسكو" «سلم بكل هذا إذا

استطعت ؛ لكن لنذهب لنرى حامل هذه الرسائل ، فربما فسر لنا هذه الصعوبات» . فتبعا تريزة ، ووجدا الغلام يغربل شوفانا لفرسه ، وسنتشيكا مشغولة بتقطيع شرائح الجامبون لعمل عجة بيض للغلام . ودهشا من حسن طلعة هذا الغلام وزيه ، وحياه بأدب ، وسأله كرسكو عن أخبار دون كيخوته وسنشو ، وأضاف أنهما منذ أن قرآ الرسالتين لما يستطيعان أن يفهما ما هو المقصود بحكومة سنشو هذه ، خصوصا وجزر البحر الأبيض المتوسط كلها تقريبا ملك صاحب الجلالة» .

فأجاب الغلام : «من المؤكد أن السيد سنشو حاكم حقا وفعلا ؛ أما أن تكون جزيرة ، أو لا ، ما هو حاكم عليه فلا أقول لكما شيئا عن هذا ؛ يكفي أن أقرر أنه من ناحية يسكنها إكثر من ألفي نسمة .أما عن ثمار البلوط ، فهذا أمر لا ينبغي أن يثير دهشتكم : فإن السيدة الدوقة من اللطف والرقة بحيث لا تترفع عن الإرسال في طلب ثمار بلوط من فلاحة ، ولقد شاهدتها مرارا تستعير مشطا من إحدى جاراتها . وعليكم أن تعلموا أن سيدات أرغون ، وإن كن من سلالة شرف فإنهن لسن متكبرات مترفعات مثل سيدات قشتالة : بل يعاملن الناس بأدب جم» . وفي هذه اللحظة ظهرت سنتشيكا وفي ميدعتها بيض كثير ، وسألت الغلام . هل أبوها يلبس سروايل واسعة منذ أن صار حاكما . فقال الغلام : «لم أنتبه لهذا ؛ ولكن لا بد أن الأمر هكذا» . ـ فقالت : «يا إلهي! كم أود أن أراه! منذ أن ولدت دعوت السماء أن تحقق لي هذا السرور .» ـ فقال الغلام : «ستظفرين به ؛ بحق الله لو دامت الحكومة شهرين فستراه وعلى وجهه نقاب» . فأدرك القسيس والحلاق أن الغلام يمزح ؛ لكن جمال العقد وحلة الصيد اللذين أرتهما لهما تريزة حيرهما . وضحكا أكثر حين قالت تريزة : «سيدي القسيس ، ألا تعرف أحدا ذاهبا إلى مدريد أو طليطلة ؟ أريد أن أكلفه بأن يشتري لي تنورة خضراء حسب أحدث الأزياء ومن أجود التفصيلات : لأني في الحق أريد أن أشرف حكومة زوجي ، قدر المستطاع ؛ وإذا غضبت أشتري عربة وأذهب إلى البلاط : فإن زوجة الحاكم يمكن أن تتخذ هذه المواقف» . ـ فقالت سنتشيكا : «أوه يا ماما ، الله يجعل هذا اليوم قبل غدا! وحينما يقول الذين يرونني في العربة مع أمي : «آه ، انظروا فلانة ، انها بنت آكل ثوم ، وها هي ذي تعطي نفسها أهمية وسمت البابة!» لكن ليذهبوا في الطين ، ما دمت أنا أركب عربة ، ولا تمس قدماي الأرض . لعنة الله على ألسنة السوء! ليضحك الناس كما يشاؤون ، ما دامت أقدامي دافئة وأنا مستريحة . ألست على حق يا أمي ؟ . ـ فقالت تريزه : «نعم يا بنيتي وسنشو الطيب تنبأ لي بكل هذه الحظوظ السعيدة ، وبأعظم منها ، حتى تريني كونتيسة . إن الأمور بدأت تسيّر عجلتها ؛ وكثيرا ما

سمعت أباك يقول ، وهو كما تعلمين ، أبو الأمثال : إذا أعطوك البقرة ، اجر وراء الحبل . إذا أعطوك حكومة ، خذها ؛ أو كونتيسة ، فاقبض عليها ، وإذا أهداك أحد شيئا ، فاقبله ؛ وإلا فنم وأغلق بابك دون الحظ السعيد الذي طرقه» . ـ فقالت سنتشيكا : «وماذا يهمني إذا قالوا ، حين يرونني فخورا فياشة ، لقد رأينا الكلب عاريا والآن يحتقر صاحبه» . ـ وقال القسيس : «الحق أن كل أسرة پنثا جاءت إلى الدنيا ومع كل من أفرادها كيس من الأمثال في جسمه ؛ لم أر منهم أحدا لا يلقي الأمثال في كل ساعة وفي كل مناسبة» . ـ فقال الغلام : «هذا صحيح ، إن السيد الحاكم يذكر أمثالا في كل لحظة ؛ ومع أنها لا تأتي دائما مناسبة ، فإن سيدي الدوق وسيدتي الدوقة يسران منها كثيرا» . ـ فقال كرسكو : «لكن يا سيدي هل كل ما تقوله عن حكومة سنشو صحيح ؟ وهل توجد دوقة في العالم تكتب لزوجة سنشو وترسل إليها هدايا ؟ نحن لا نستطيع أن نصدق هذا ، على الرغم من أننا قرأنا الرسالتين ولمسنا الهدايا ، ونحن نعتقد أن هذه مغامرة من تلك المغامرات التي يعتقد مواطننا دون كيخوته أنها تحدث بالسحر ؛ ونحن نريد أن نلمسك ، ونجسك لنرى هل أنت رسول حقيقي من لحم وعظم ، أو شبح خيالي» . ـ فقال الغلام : «كل ما أستطيع أن أقوله لكما ، هو أني رسول حقا وفعلا ، وأن السيد سنشو حاكم فعلا ، وأن الدوق والدوقة ، سيدي منحاه الحكم ، وهو يتصرف في حكومته ، حسب ما سمعت ، بحكمة عجيبة ؛ فإن كان في هذا كله سحر ، فالأمر موكول إليكم ، فبحق أبوي ولا يزالان يعيشان وأنا أحبهما جدا ؛ لا أعرف شيئا آخر» . ـ فقال حامل البكالوريا : «هذا جائز ، ولكن أوغسطين يشك» . ـ فقال الغلام : «ليشك من شاء ، ولكن الحقيقة هي كما قلتها : والحقيقة تطفو كالزيت على الماء . وعلى كل حال صدقوا الأعمال ، لا الأقوال ؛ وليأت أحدكما معي ، وسيرى بعينه ما ترفض أذناه أن تصدقه» . ـ فقالت سنتشيكا : «أنا التي سأسافر معك ؛ خذني على خلف فرسك يا سيدي ؛ إني مشتاقة جدا إلى رؤية أبي» . ـ فقال الغلام : «إن بنات الحاكم لا يمكن أن يسافرن هكذا وحدهن في الطرقات العامة ، دون أن تصحبهن المحفات والعربات وعدد كبير من الناس» . ـ فقالت سنتشيكا : «لكن يستوي عندي أن أذهب على حمار أو في عربة ؛ لقد وجدت سيدتك الصغيرة الصالحة!» ـ فقالت تريزة : «اسكتي ، يا بنت يا صغيرة ، أنت لا تعرفين ماذا تقولين . هذا السيد على حق ؛ والناس على حسب أزمانهم . حينما كان أبوك هو سنشو ، كنت أنت سنتشيكا ؛ والان وقد صار حاكما ، فقد صرت أنت على الأقل آنسة . » ـ فقال الغلام : «إن السيدة تريزة تقول أكثر مما في فكرها ؛ لكن هاتوا لي طعاما ، ولنسرع ، لأني أريد العودة في هذا اليوم بعد

الظهر» . فقال القسيس : «شرف عندي أنا ولو أنك لن تصيب الكثير ؛ إن السيدة تريزة عندها إرادة خيرة أكثر مما عندها الوسائل لاستضافة ضيف مثلك» . فتمنع الغلام طويلا ، ثم وافق بعد لأي ، واغتبط القسيس من قبوله للدعوة حتى يحدثه عن دون كيخوته ومغامراته . وتطوع حامل البكالوريا أن يكتب لتريزة الرسائل التي تريدها ، لكنها رفضت لأنها تعرف أنه مازح ماكر ؛ وفضلت أن تدفع مبلغا من المال إلي راهب يعرف الكتابة ، ليتولى ذلك ، فأملت عليه رسالتين هي بنفسها ، إحداهما للدوقة والأخرى لزوجها ، والرسالتان ليستا أسوأ ما يقرأ في هذا التاريخ (القصة) العظيم ، كما سنرى بعد حين .

الفصل الحادي والخمسون

في تقدم حكومة سنشو وحوادث اخرى ليست أقل أهمية

وبزغ النهار التالي لليلة التي قام فيها سنشو بجولته . وأمضى رئيس الطهاة هذه الليلة دون أن ينام ، لأن جمال الفتاة المتخفية قد استولى على أفكاره . ومن ناحية كان ناظر القصر مشغولا بالكتابة إلى الدوق عن أعمال سنشو الذي كانت أقواله وأفعاله مزيجا عجيبا من الحكمة والسذاجة . ونهض الحاكم من نومه ؛ وبأمر من الدكتور بدرو رثيو أحضروا له إفطارا مؤلفا من قليل من المربى وأربع جرعات من الماء العذب ؛ ولكنه كان يفضل قطعة من الخبز وعنقودا من العنب ؛ لكنه لما اضطر إلى الخضوع ؛ قنع بذلك ، مع شديد أسفه وبالرغم من ملاحقات معدته . وجعله رثيو يعتقد أن الأطعمة الفاخرة ، إذا تنوولت بكمية قليلة ، فإنها تهيج الأرواح وتوقظها ، وأن هذا هو الطعام الأنسب من غيره للأشخاص المكلفين بوظائف مهمة خطيرةيحتاجون فيها إلى قوة الروح أكثر من حاجتهم إلى قوة البدن . وبواسطة هذه السفسطات الجميلة كان سنشو يتضور جوعا ، حتى إنه كان في قلبه يكره الحكومة ومن منحه إياها . وفي هذه الحال الأسيفة أخذ يدير شئون الحكم والقضاء . وكان أول من حضر للقضاء والخصومة أجنبي قال له في وسط الجلسة : « تفضل يا سيدي بإيلائي كل انتباهك ، لأن القضية التي أعرضها عليك مهمة وصعبة . إن نهرا كبيرا يجري في بلد ما ، ويفصل بين أملاك مالك واحد . وعلى هذا النهر جسر في نهايته مشنقة وقاعة محكمة ، فيها يجلس عادة أربعة قضاة لمراعاة تنفيذ القانون الذي وضعه مالك الناحية والنهر والجسر . وهذا القانون يقرر : « كل من يمر على هذا الجسر عليه أن يقسم ويصرح إلى أي مكان يذهب وما غرضه ؛ فإن قال الحقيقة ، سمح له بالمرور ؛ وإذا كذب ، علق فورا في هذه المشنقة[1] » . ومنذ وضع

(١) هذه الحجة من الألغاز التي اقترحها سكستوس امبريكوس في كتابه « الأوصاف المؤثرة » .

هذا القانون الشديد حضر إلى الجسر كثير من الناس ؛ وتبين أن تصريحاتهم صحيحة ، فتركهم القضاة يمرون ؛ ولكن في آخر مرة جاء شخص وصرح بأنه يريد أن يشنق نفسه على المشنقة الموضوعة علي الجسر ، وليس له أي غرض آخر . فاحتار القضاة أشد الاحتيار ، وقالوا : لو تركنا هذا الشخص يمر فسينتج عن هذا أنه قد كذب ، وتبعا لذلك فطبقا للقانون ينبغي أن يشنق ؛ وإذا أمرنا بشنقه ، فإنه سيكون قد قال الحق ، وطبقاللقانون له أن يمر . وقد جئت لأسألك يا سيدي ماذا ينبغي على هؤلاء القضاة أن يفعلوه ، لأنهم لا يعرفون ماذا يقررون . ولما كانوا قد سمعوا تمجيدا لحكمتك وحسن تمييزك وفطانتك ، فقد بعثوا بي إليك لأرجوك أن تساعدهم بنصائحك في هذه المسألة العسيرة الحل » .

فقال سنشو : « استسمح هؤلاء السادة القضاة أن يعذروني ؛ فأنا رجل أمتاز بالبلادة لا بالفطانة ؛ ومع ذلك فأعد ذكر مسألتك ، حتى أعيها تماما ؛ ولربما وصلت إلى المطلوب . » ـ فكرر الرجل ما قاله . فقال سنشو : « يبدو لي أن كلمتين تكفيان لايضاح المسألة . هذا الشخص يقسم بأنه ذاهب ليشنق نفسه على المشنقة ؛ فإن علق عليها ، فسيكون قد قال الحقيقة ، وسيكون موته ظلما ؛ وإذا لم يشنق ، فسيكون قد كذب ، ويستحق الإعدام . » ـ فقال الرسول : « نعم ، هذه هي القضية ؛ القضية واضحة تماما » . ـ فاستمر سنشو يقول : « إذن فليسمح بالمرور للجزء من هذا الرجل الذي قال الحقيقة ، ويشنق الجزء الذي كذب ؛ وبهذه الطريقة ينفذ القانون حرفيا . » ـ فقال الرسول : « لكن يا سيدي الحاكم لا بد إذن من إمكان شطر جسمه إلى شطرين : أحدهما كاذب والآخر صادق ؛ ولو قطع جسمه إلى جزئين ، فلا بد أن يموت ، وفي هذه الحالة لن يراعى القانون في أية نقطة من نقاطه ، بينما ينبغي مراعاة القانون . » ـ فقال سنشو : « هذا ما أنتظرته منك أيها الرجل . فإما أني أبله ، أو الرجل ذو المشنقة عنده أسباب للموت بقدر ما عنده من أسباب للحياة ؛ والحقيقة تنجيه ، بينما الكذب يدينه . ولما كان الأمر هكذا ، فقل للذين أرسلوك إلى أنه ما دامت أسباب الإدانة والبراءة متكافئة ومن الوزن نفسه ، فليتركوا الرجل يمر بحرية ، لأن المرء يمدح أكثر إذا فعل الخير منه إذا فعل الشر . ولو كنت أعرف التوقيع ، لوقعت على ما أقوله لك . على أنني لم أسترشد بنفسي فيما قررت ؛ بل تذكرت قاعدة ذكرها لي ناس منهم مولاي دون كيخوته ، في الليلة التي سبقت رحلتي إلى هذه الجزيرة ؛ فقد قال لي إنه حين تكون العدالة موضع شك ، فعلى أن أنحاز إلى صف الرحمة والرأفة . وقد أذن الله لي أن أتذكر هذا الرأي المناسب جدا في هذا المقام » .

فقال ناظر القصر : هذا صحيح ؛ وإني أقر بأن ليكرجس نفسه ، وهو الذي سن

الشرائع لأهل اسبرطة ، ما كان يستطيع أن يصدر حكما أحسن من الحكم الذي أصدره العظيم سنشو پنثا . ولترفع جلسة الصباح . وسأصدر أمرا بأن يقدم إلى السيد الحاكم الطعام الذي يهواه .

فقال سنشو : هذا كل ما أطلبه ؛ ولتسر السفينة باسم اللّه مجراها : أعطوني طعاما ، ولتنهمر القضايا والشكوك على ومن حولي كالمطر ، فسأقدر على ايضاحها .

ونفذ ناظر القصر وعده ، إذ عز على ضميره أن يدع حاكما حكيما كهذا يموت جوعا ؛ ثم إنه فكر في أن ينفذ في هذه الليلة نفسها آخر مزحة أمر بتدبيرها لسنشو .

ولما تغدى غداء عظيما وافرا ، رغم نصائح الدكتور ترتيافويرا ، دخل ، حين رفع المائدة ، ساع يحمل رسالة من دون كيخوته إلى الحاكم ، فأمر سنشو السكرتير بأن يقرأها ، وإذا لم يجد فيها شيئا تستحق الكتمان ، فليقرأها بصوت عال . وأطاع السكرتير وقال بعد ذلك : « ما في رسالة السيد دون كيخوته إلى سعادتك يمكن أن يقرأ بصوت عال ، لأن مضمونها يستحق أن يكتب بحروف من ذهب ؛ وها هي ذي :

رسالة دون كيخوته دلا منتشا إلى سنشو پنثا
حاكم جزيرة برتريا

« عزيزي سنشو

« في الوقت الذي كنت أخاف أن أتلقى فيه أخبارا عن حماقتك أو إهمالك لا يصلني إلا أنباء حكمتك ؛ وهو ما أحمد اللّه عليه ، وهو الذي يستطيع أن يرقى بالفقراء من الحضيض ، ويصنع من المغفلين قوما عاقلين . ولقد قيل لي إنك تحكم بجلال الإنسان ، ولكنك تنزل إلى مرتبة الحيوان بتواضعك الشديد . وأنبهك ، يا ولدي ، أنه لكي يحتفظ بمهابة منصب ، يحتاج الأمر مرارا إلى المضي ضد تواضع القلب ؛ واللياقة تقتضي من أولئك المكلفين بوظائف مهمة أن يمتثلوا لمهابة وظائفهم ، لا للدور الضئيل الذي عودتهم عليه خساسة أصولهم . فكن دائما حسن الملبس ؛ فإن الوتد المتقن الصنع لا يشبه الوتد . ولست أقصد من ذلك أن تغطي نفسك بالجواهر والحلي والثياب الفاخرة ، ولا وأنت القاضي ترتدي زي الجندي ؛ ولكني أريد منك أن تلبس الثياب التي تتناسب مع مكانتك ، وأن تكون دائما نظيفا معتنيا بنفسك .

« ولكي تنال محبة الشعوب التي تحكمها ، عليك بأمرين رئيسيين . الأول أن تكون لطيفا مع كل الناس ، كما قلت لك من قبل ؛ والثاني أن تعمل على أن تكون مواد التموين

دائما موفورة ؛ لأنه لا شيء يضايق المسكين أكثر من المجاعة والجوع والنقص . ولا تصدر قرارات كثيرة ، أو على الأقل راعِ أن تكون جيدة ، وخصوصا أن تراعي ، لأن القوانين التي لا تراعى هي كأن لم توجد ؛ وتدل على أن الأمير الذي كانت عنده الحكمة والسلطة لإصدارها ، قد أعوزته الشجاعة لحمل الناس على مراعاتها وتنفيذها ؛ والقوانين التي تردع ولا تستعمل ، هي مثل الجذع الذي جعل ملكا على الضفادع ؛ فقد أخافها أولا ، ومع مرور الزمن احتقروه وقفزوا عليه .

« كن حاميا للفضائل ، وبلاء على الرذائل . ولا تكن دائما قاسيا ، ولا دائما متساهلا ، لكن اتخذ بين ذلك سبيلا ؛ فالحكمةُ في هذا . فتش السجون ، والمجازر والأسواق العامة ؛ فوجود الحاكم في هذه الأماكن أمر في غاية الأهمية . وواس المسجونين الذين ينتظرون الحكم السريع ؛ وكن رهبة للجزارين وكل تجار السوق الذي يبيعون بموازين زائفة .

« وحتى لو كنت كذلك ،وهو ما لا أعتقده ، فلا تظهر بمظهر الجشع ، ولا الشره ، ولا المتهالك على النساء ؛ لأنه لو عرفت رعيتك هذا الضعف فيك ، لنصبوا لك الحبائل في هذه الناحية وتسببوا في ضياعك .

زن وأعد وزن النصائح التي كتبها لك قبل أن ترحل لتولي الحكم ؛ فإن اتبعتهاساعدتك وخففت عنك المشقات والصعوبات التي تعترض الحكام في كل خطوة .

« أكتب إلى رؤسائك مرتين أنك تعترف بالجميل ؛ إن الجحود ابن الكبرياء ، ومن أفظع الخطايا التي يمكن ارتكابها ؛ ومن يقدر النعمة حق قدرها ، يدل على أنه سيشكر نعمة اللّه الذي يسبغ كل يوم عليه آلاف النعم .

« إن السيدة الدوقة قد بعثت إلى زوجتك تريزة برسول ومعه حلتك وهدية أخرى ؛ ونحن في انتظار الرد في كل لحظة .

« ولقد تعذبت بعض العذاب من آثار خدوش حدثت في أنفي ؛ لكنها ذهبت ؛ وإذا كان هناك سحرة يضطهدونني ، فثم آخرون يدافعون عني .

« لاحظ جيدا هل ناظر القصر الموجود معك له نسبة إلى الكونتيسة تريفالدي ، كما توجست أنت ، وأخبرني عن كل ما يقع لك ، لأن المسافة التي تفصل بيننا ليست كبيرة ، خصوصا وقد قررت أن أترك هذه الحياة المتبطلة بعد قليل ، فأنا لم أولد لهذا . وقد وقعت لي مغامرة أليمة ستفقدني ، فيما أظن ، رضا السادة الذين أعيش عندهم ؛ لكن في نهاية الأمر هذا لا يهمني كثيرا ؛ فأنا أشد حرصا على مهنتي مني على إرضاء أشخاصهم ؛

افلاطون صديق ، ولكن الحق أصدق منه . وأورد لك هذه العبارة بنصها اللاتيني ، لأني أظن أنك تعلمت اللاتينية منذ أن أصبحت حاكما . حفظك الله من كل سوء!

صديقك
« دون كيخوته دلا منتشا »

استمع سنشو إلى قراءة هذه الرسالة باهتمام كبير ، وكل الذين سمعوها وجدوها حكيمة جدا . ونهض من المائدة ، ونادى سكرتيره ، واختلى به ليجيب فورا على رسالة دون كيخوته : فأمره بأن يكتب ما سيمليه ، دون أن ينقص أو يضيف شيئا . وهذه هي الرسالة :

رسالة سنشو پنثا إلى دون كيخوته دلا منتشا

« إن ما يقتضيه منصبي من شغل قد جعلني لا أجد الفراغ لحك رأسي ولا لقرض أظافري : ولهذا نمت كما شاء الله . أقول لك هذا ، يا مولاي العزيز ، حتى لا تغضب مني لأني لم أخبرك حتى الآن بحال حكومتي ، التي فيها أحتمل من الجوع بقدر ما احتملت أثناء تجوالنا في الغابات والقفار .

« ولقد كتب إلي الدوق ، سيدي ، منذ أيام ، ليخبرني أنه دخل الجزيرة بعض الجواسيس بقصد اغتيالي . وحتى الآن لم أكتشف وجود أحد ، اللهم إلا طبيب مستخدم في هذه الجزيرة من أجل إهلاك كل من يولونهم من الحكام : ويدعى بدور رثيو ، ومن مواليد ترتيافويرا . فانظر أي شخص هذا ، وهل ليس عندي الحق في أن أخشى الموت على يديه . وهذا الدكتور يقول هو نفسه إنه لا يشفي الأمراض حين تصيب الأشخاص ، ولكنه يقي منها ويمنعها من المجيء : وأدويته هي الحمية ، ثم الحمية ، إلى أن لا يكون على الناس غير الجلد على العظام ، كما لو لم يكن النحول مرضا أشد خطرا من الحمى . والخلاصة أنه يقتلني بالجوع ويميتني بالحنق والغيظ : وأنا الذي اعتقدت أنني جئت إلى هذه الحكومة الجميلة من أجل أن آكل الساخن ، وأشرب البارد العذب ، وأتقلب على ريش النعام والملايات الهولندية ، هكذا أتقشف كالراهب ، ولما كان هذا على غير إرادتي ، فإني أعتقد أن الشيطان سيطوح بي .

« وحتى الآن لم أفرض أية ضريبة ، ولم أتقاض أي مكسب ، ولست أدري من أين حدث هذا ؛ لأنهم قالوا لي هنا إن الحكام الذين يأتون إلى هذه الجزيرة يقبضون مبالغ كبيرة من المال ، قبل بدء عملهم في مناصبهم يتقاضونها من الأهالي الذين يعطونها له أو يقرضونهم إياها ، وإن هذه هي عادة كل الحكام » .

«وفي أثناء جولة تفتيشية في الليل لقيت فتاة جميلة تلبس زي الرجال ، وأخاها وهو يلبس زي امرأة ؛ وقد صار رئيس طهاتي عاشقاً للفتاة ، وفكر في ذهنه أن يتزوجها ، كما يقول ، وعلينا أن نتحدث مع أبيهما اليوم ، وهو نبيل ورع ، اسمه دييجو دي لايانا » .

«وقد زرت الأسواق كما نصحتني ؛ ووجدت بائعة تبيع البندق الجديد ، واكتشفت أنها تخلطه بندق قديم فارغ متعفن ؛ وقد صادرت البضاعة كلها لصالح أبناء المذهب ، وسيعرفون جيدا كيف يميزون بينها ، وحكمت عليها بعدم الدخول في السوق لمدة خمسة عشرةيوما ؛ وقالوا لي أنني أحسنت صنعا » .

«ويؤكدون هنا أن أسوأ الناس في هذا الاقليم هم البائعون بالتجزئة ، إنهم جميعا وقحاء لا روح لهم ولا شرف . وأنا أعتقد هذا خصوصا أني لاحظت الشيء نفسه في أماكن أخرى» .

«وقد شرفني كثيراً أن تكتب السيدة الدوقة إلى زوجتي وترسل إليها ، وسأعمل على التعبير عن امتناني لها في الوقت والمكان المناسبين . وأرجوا منك أن تقبل يديها باسمي ، وأن تؤكد لها أن نعمتها لم تقع في كيس مثقوب ، كما ستعرف ذلك من أعمالي . وأود ألا يكون بينك وبين أسيادي نزاع مؤسف ،لأنك إذا تنازعت معهم فمن المؤكد أن مغبة ذلك ستقع علي . ثم أنه ليس من الخير أنك وأنت الذي تأمرني بعرفان الجميل ، تقصر في ذلك نحو أولئك الذين أحسنوا استقبالك ومعاملتك والاحتفاء بك وتوفير النعيم لك في قصرهم » .

«ولا أفهم ماذا تعني بالخدوش في وجهك ، ومع ذلك فأنا أتصور أنها لا بد أن تكون نتيجة مكيدة من المكائد التي اعتاد السحرة الخبثاء أن يضعوها لك ؛ وسأعرف ذلك حين نلتقي . وبودي أن أرسل إليك شيئا ، لكني لا أدري ماذا ، اللّهم إلا بعض أنابيب حقن مرتبة على كاسات ، تصنع هنا وهي جميلة جدا . وإذا استمرت الحكومة ، فسأبحث عن شيء آخر جدير بأن يهدى إليك . وإذا كتبت إلى زوجتي تريزة فأرجوا أن تدفع أجرة البريد وترسله إلي . وعندي رغبة شديدة في الحصول على أنباء عن بيتي ، وزوجتي وأولادي . حفظك اللّه يا مولاي من مكائد السحرة الأشرار ، وهيأني لإدارة شؤون حكومتي في سلام ، وهو أمر أشك فيه كثيرا ، وإني أعتقد أنني سأهلك فيها ، بفضل الدكتور بدور رثيو » .

خادم سيادتكم

سنشو پنثا ، الحاكم

وأغلق السكرتير الرسالة وسلمها إلى الساعي . ثم إن العابثين بسنشو قررا أن يضعا حدا لحكومته . أما هو فقد أمضى الليلة في وضع أوامر للشرطة . ومنع تجار التجزئة في المأكولات من الوجود في الجزيرة ، لكنه سمح باستيراد النبيذ من أي مكان ، بشرط أن يحدد المكان الوارد منه ، حتى تحدد الأسعار وفقا للنوع ،وأن يعاقب بالإعدام كل من يقدم بيانات غير صحيحة في هذا أو من يضع ماء على النبيذ . ونزل أسعار كل أنواع الأحذية ، وخصوصا النعال ، لأنها بدت له غالية جدا . وحدد أجور الخدم وكانت مطالبهم لا تنتهي عند حد . وفرض عقوبات شديدة على من يغنون أغاني خليعة فاضحة في النهار أو في الليل ، ومنع العميان من إنشاد المعجزات الشاكية ، إلا إذا أثبتوا صحتها بشهادة صادقة ، لأنه بدا له أن معظم المعجزات التي ينشدها هؤلاء زائفة وكاذبة ، وتسيء إلى المعجزات الصادقة . وأنشأ وظيفة محضر للفقراء ، لا لمطاردتهم ، بل للتحقق من أنهم فقراء فعلا ، لأنه كثيرا ما يرى متسولون لصوص وسكيرون ، ذوو جروح أو عاهات مزعومة ومصطنعة . وأخيرا وضع قرارات حكيمة ومفيدة حتى أنها لا تزال سارية المفعول حتى الآن في تلك الناحية ، وتسمى (نظم الحاكم العظيم سنشو پنثا) .

الفصل الثاني والخمسون

وفيه تروى المغامرة الثانية للمكروبة الثانية
واسمها دونيا رودريجث

يروي سيدي حامد أن دون كيخوته ، لما رأى أنه شفي من خدوشه ، وجد أن الحياة المتبطلة التي يعيشها في قصر الدوق ليست جديرة أبدا بنظام الفروسية الذي يدين به ويمتهنه .فقرر إذن أن يودع أصحاب القصر ، ويرحل إلى سرقسطة وقد اقترب ميعاد الاحتفال بأعيادها ، وهو يأمل في الظفر بالعدة التي كانت تعطى جائزة للمنتصر الفائز . وذات يوم كان يجلس لتناول الطعام مع الدوق ، فتهيأ ليقدم إليه رغبته في الرحيل ، حين دخل فجأة في القاعة امرأتان مجللتان بالسواد من الرأس إلى القدمين : وتقدمت إحداهما إلى ناحية دون كيخوته ، وارتمت على قدميه وراحت تقبلهما ، وهي تتنهد تنهدات حزينة أليمة ، رقت لها قلوب جميع الحاضرين ، وعلى الرغم من أن الدوق ظن أن هذه مزحة جديدة دبرت لدون كيخوته ، فإن حزن هذه السيدة بدا عميقا وصادقا ، وزفراتها وعبراتها طبيعية إلى درجة أنه لم يدر ما في الأمر . فأنهض دون كيخوته السيدة ، وهو متأثر متألم ، واستحلفها أن ترفع نقابهاالذي يغطيها . وأطاعت ، وظهر ما لم يظنه أحد أبدا ، وهو أن هذه السيدة هي دونيا رودريجث ، وصيفة الدوقة . وكانت تصحبها بنتها ، وقد غرر بها ابن ذلك الفلاح الغني الذي تحثنا عنه . فأدهش هذا المنظر كل الحاضرين ، وخصوصا صاحبا القصر ، لأنهما وإن حسبا الوصيفة ساذجة بسيطة ميالة إلى اعتقاد أي شيء ، فإنهما لم يظنا أبدا أنها قادرة على مثل هذه الأعمال الجنونية . .وتلفتت دونيا رودريجث إلى سيديها ، وسألتهما الإذن في أن تتقدم بالتماس إلى دون كيخوته لأنها في حاجة إلى معونته للخروج من المأزق الذي وضعتها فيه وقاحة قروي شرير . فقال لها الدوق : «تكلمي مع السيد دون كيخوته فيما تشائين» ـ فقالت لدون كيخوته : «أيها الفارس المغوار ، لقد أخبرتك منذ مدة بالإهانة التي أصاب بها ابنتي العزيزة فلاح شرير . ها أنذا أقدم إليك هذه اليائسة . وقد

وعدتني بحمايتها وتصحيح الظلم الذي وقع لها . وقد علمت أنك تتهيأ لمغادرة هذا القصر ، سعيا وراء المغامرات ، وفقك اللّه في سعيك . لكن قبل أن ترحل أتيت لأرجوك أن تتحدى ذلك الجلف ، وأن تنذره بأن ينفذ الوعد الذي قطعه على نفسه لابنتي ، قبل أن يغرر بها . لأن التفكير في الحصول على العدالة من سيدي الدوق ، هو كالرغبة في جني الكمثرى من شجرة الدردار ، وأنت تعلم السبب في ذلك كما أخبرتك . واللّه يباركك ويتم نعمته عليك ، ولا يتخلى عنا » .

فأجاب دون كيخوته على هذا الالتماس بجد وكبرياء : « أيتها الوصيفة الطيبة ، هدئي من عبراتك ، أو بالأحرى أرقئيها ، وضعي حدا لزفراتك وإني آخذ على عاتقي أن أنتصف لابنتك ، وقد كان الأحرى بها من غير شك ألا تصدق بسهولة دعاوي العشاق ، لأن معظمهم متأهبون لبذل الوعود ، متلكئون في تنفيذها . وبعد إذن سيدي الدوق سأذهب فورا للبحث عن هذا الشاب الفاسد ، وأتحداه وأقتله إذا رفض تنفيذ ما وعد به . إن النقطة الأساسية في مهنتي هي العفو عن المتواضعين وعقاب المستكبرين ، أي إغاثة الملهوفين وعقاب الظالمين . »

فقال الدوق : لا داعي أن تتحمل مشقة الذهاب للبحث عن هذا الفلاح الذي تشكو منه هذه الوصيفة الطيبة ، ولست في حاجة إلى استئذاني وموافقتي من أجل تحديه . فأنا أعده متحد ، وأتكفل بإبلاغه هذا التحدي ، وجعله يقبله ، ويحضر في هذا القصر . وسأهيئ لكل منكما الحلبة المأمونة للمبارزة ، مع توفير كل الظروف المطلوبة في مثل هذا الموقف ، وسأحكم بينكما ، كما ينبغي أن يفعل كل الأمراء الذين يوفرون الحلبة للذين يتبارزون في أملاكهم . » ـ فقال دون كيخوته : « بهذا التوكيد ، وبإذن عظمتك ، أعلن هذه المرة أنني أضع جانبا نبالتي ، وأتنازل إلى حقارة الفاعل للإهانة ، وأجعل نفسي كفاءه ، وأمنحه شرف مبارزتي . ولما كان غائبا ، فإني أتحداه هنا رسميا ، وأقرر أنه أخطأ في التغرير بهذه البريئة المسكينة التي كانت عذراء ولكنها بخطيئته لم تعد بعد عذراء . وأقول أن عليه أن يفي بالوعد الذي قطعه لها بأن يكون زوجا شرعيا لها ، أو يستعد للهلاك . » ولما أتم هذه الكلمات ، انتزع قفازه وألقى به في وسط القاعة ، فأخذه الدوق وقال أنه يقبل التحدي بالنيابة عن تابعه (الفلاح) . وحدد ستة أيام لقيام المبارزة ، وأن تكون الحلبة في ميدان القصر ، وبالأسلحة المعتادة للفرسان : الرمح ، والترس البيضاوي ، والعدة المختبرة كل أصناف القطع ، بلا غش ولا تدليس ولا أي سحر[1] ، وكلها ستخضع لتفتيش وفحص حكام

(١) أي بدون حمائل وتمائم وطلسمات وما إليها .

الحلبة . ثم قال له :« لكن قبل كل شيء ، لا بد أن تضع هذه الوصيفة الطيبة وبنتها الطائشة حقهما رسميا بين يدي السيد دون كيخوته ، وإلا لا يمكن إجراء أي شيء ، ويعد التحدي باطلا . » ـ فقالت الوصيفة : « إني أضع حقي بين يديه وأوكله إليه . » ـ وقالت البنت : « وأنا أيضا » ، وكانت تبكي ويعلوها حمرة الخجل .

ولما تم هذا الاتفاق ، وأفكر الدوق فيما ينبغي في هذه المسألة ، انسحبت السيدتان . وأمرت الدوقة ، بأنه منذ الان ، لن تعاملا بوصفهما خادمتين بل سيدتين مغامرتين ، جاءتا لطلب الانتصاف للزوج . فأعطيتا مسكنا خاصا على حده ، وعوملتا كغريبتين ، مما أثار دهشة سائر الخدم ، وهم كانوا يجهلون إلى أي غاية ستنقضي حماقة وطيش دونيا رودريجث وبنتها الطائشة .

وفي هذه اللحظة ، واتماما للاحتفال المسلي وإنهاء للملهاة ، دخل القاعة الغلام الذي عاد من عند تريزة پنثا ؛ وقد قدم ومعه رسائل وهدايا وأثار وصوله متعة بالغة عند الدوق والدوقة ، وهما متلهفان لمعرفة ما جرى له في رحلته . ولما سألاه عن ذلك أجاب بأنه لا يستطيع ، بقليل من الكلمات ، ولا أمام كل الناس أن يقدم تقريرا عما يسألان عنه ؛ وأنه يمكن الان السيدين أن يقرآ الرسائل التي يحملها ، وقد أعطاها للدوقة . وكانت إحدى الرسائل تحمل العنوان التالي : « إلى السيدة الدوقة فلانة ، لست أدري من أين » ؛ والثانية تحمل العنوان التالي : « إلى زوجي سنشو پنثا ، حاكم جزيرة برتريا ؛ مد الله في عمره أكثر مني » ، وبلغت اللهفة بالدوقة مبلغها ، فكانت على أحر من الجمر . ففضت الرسالة الخاصة بها ، ووجدت أن من الممكن قراءتها علنا ، فقرأتها بصوت عال ، وهذا نصها :

رسالة تريزة پنثا إلى الدوقة

« سيدتي ، إن الرسالة التي تفضلت عظمتك بإنهائها إلي بعثت في نفسي من اللذة بقدر ما كنت أتحرق شوقا إليها : وعقد المرجان حسن جدا ، وحلة صيد زوجي لا تقل عنه جمالا . وكل القرية في حبور لأن سيادتك عينت زوجي سنشو حاكما ؛ وإن كان هناك من لا يصدقون ذلك ، ومنهم القسيس ، والأسطى نقولا الحلاق ، وسمسون كرسكو حامل البكالوريا ؛ لكن هذا لا يهمني ما دام الأمر صحيحا ، وليقل من شاء ما شاء ، وإن كنت أعترف لك بأنه لولا عقد المرجان وحلة الصيد لما كنت صدقت أنا الأخرى ؛ لأن كل أهالي الناحية يعدون زوجي دابة ؛ ولا يستطيعون أن يتصوروا أن من كان يرعى الماعز يمكن أن يصبح راعيا للناس . والله يحفظه ، ويهديه لما فيه الخير ، كما يحتاج إليه أولاده . أما عن

نفسي ، يا سيدة روحي ، فقد قررت أن أترك بيتي ، وأن أذهب إلى البلاط ، تحملني عربة ، حتى أثير غضب الحاسدين ، وما أكثرهم هنا . وأتوسل إلى سعادتك أن تبلغي زوجي أن يرسل إلي نقودا ، نقودا كثيرة ؛ لأن النفقات كثيرة في البلاط . فالخبز هناك يساوي ريالا ، ورطل اللحم يساوي ثلاثين مرابطيا ، بأمر من القاضي . أما إذا كان سنشو لا يريد مني الذهاب إلى هناك ، فليخبرني بذلك فورا ، لأن أرجلي تحترق شوقا للذهاب . وأصدقاؤنا وجيراننا يقولون لي إننا إذا ذهبنا إلى البلاط ، بنتي وأنا ، في احتفال فاخر ، فإن زوجي سيتعرف بي ، لا أنا الذي سأعرف به ؛ لأن كل إنسان سيسأل : من السيدات اللواتي في العربة ؟ وسيجيب أحد خدمي : هذه زوجة سنشو پنثا ، حاكم جزيرة برتريا . وبهذه الطريقة سيكون سنشو معروفا ، وسيحتفون بي في روما وفي كل مكان . وإني في غاية الضيق من أنهم لم يقتطفوا ثمار بلوط هذا العام في قريتنا . لكني أرسل إلى سيادتك نصف كيلة منها ، انتقيتها أنا بنفسي واحدة واحدة في الجبل . ولم أجد خيرا منها ؛ وكنت أود لو كانت كبيرة مثل بيض النعام .

« ولا تنسين فخامتك أن تكتبي إلي . وسأبادر بالرد عليك وانبائك بأخبار صحتي ، وبكل ما يجري ها هنا . وأدعو الله أن يحفظ عظمتك ، وألا تنسيني . بنتي سنتشكا وابني يقبلان يدي سيادتك .

« من تود أن ترى سيادتك أكثر من أن تكتب إليك »

خادمتك

« تريزة پنثا »

أحدثت هذه الرسالة سرورا عظيما في نفوس الجميع ، وخصوصا الدوقة . وطلبت الدوقة من دون كيخوته ألا يمكنه أن يفتح الرسالة الموجهة إلى الحاكم ، قائلة إنها لا بد رسالة ممتازة . فقال دون كيخوته إنه سيفتحها إرضاءً لها . وهكذا فعل ، وقرأ ما يلي :

رسالة تريزة پنثا إلى سنشو پنثا زوجها

« تلقيت رسالتك ، أي سنشو روحي ، وأقسم لك ، بإماني الكاثوليكي ، بأني أوشكت أن أجن من الفرح . إني حين علمت ، يا أخي ، أنك أصبحت حاكما ، كدت أموت من السرور ؛ لأنك تعلم أن السرور المفاجئ يقتل كما يقتل الألم الكبير . وسنتشيكا ابنتك بللت تنورتها دون أن تشعر ، لأنها طارت من الفرحة . وأمامي الآن الحلة التي أرسلتها

إلي ، وعقد المرجان في عنقي ، وحملت الرسالة بين يدي ، وكان الرسول حاضرا ، ومع هذا كله ؛ فإني كنت أحسب أن كل ما كنت ألمسه هو ليس إلا حلما . من كان يظن أن راعي الماعز سيصير حاكما على جزر ؟ لقد أصابت أمي حين قالت : من يعش طويلا ير ، أقول هذا لأني إذا عشت بعد ، فإني آمل في أن أرى ما هو أعظم . وآمل أن أراك مستأجرا أو ملتزم ضرائب . فهذه وظائف تلقي إلى الشيطان بمن يسيئون استخدامها ، ولكنها تهيء للمرء أن يمسك في يديه بالمال باستمرار . وستخبرك السيدة الدوقة برغبتي في الذهاب إلى البلاط . فانظر ، يا عزيزي ، هل هذا يرضيك . وسأشرفك ، لأني سأذهب في عربة .

«والقسيس والحلاق وحامل البكالوريا وخازن الكنيسة لا يصدقون أنك حاكم . ويقولون إن هذه أوهام وألوان من السحر ، كما هو الشأن في كل ما يحدث لمولاك دون كيخوته ؛ وسمسون يقول إنه يريد أن يذهب إليك ليخرج من رأسك فكرة الحكم ، ومن رأس دون كيخوته جنون المغامرات . وأنا أسخر من كلامه ، وأتطلع في عقدي ، وأفكر في حلة الصيد التي سأفصلها لبنيتنا ، وأرسل إلى السيدة الدوقة بثمار من بلوط ، وكان بودي أن تكون من ذهب . أرسل إليّ بعض عقود من اللؤلؤ ، ان كانت مستعملة في جزيرتك . أما عن الأخبار هنا فإن السيدة برويكا زوجت بنتها إلى نقاش شرير ، جاء واستقر في القرية وقد كلفه المجلس البلدي برسم شعار الملك على باب دار البلدية . وطالب بمقدم قدره دوقتان ، فأعطيتا له ، واشتغل ثمانية أيام ، في نهايتهالم يكن قد أنجز شيئا ؛ وقال إنه لم يكن مستعدا لرسم مثل هذه التفاهات ، وأعاد المبلغ . ومع ذلك فقد تزوج كما لو كان عاملا جيدا . والحق أنه ترك الفرشاة ، واتخذ الفأس ، وهو يذهب إلى الحقول مثل رجل شريف . وابن بدرو لوبو قد دخل في نظام الاكليروس ويريد أن يصبح قسيساً . وقد عرفت هذا منجيا ، حفيدة منجو سلفاتو ، فأقامت الدعوة ضده ، قائلة أنها وعدها بالزواج . وألسنة السوء تقول انها حبلى منه ، لكنه ينكر ذلك كل الانكار . لم يثمر الزيتون هذا العام ، وليس في القرية كلها قطرة واحدة من الخل . مرت من هنا فرقة من الجنود أخذت معها ثلاث بنات من هنا . ولا أسميهن ، اذ يمكن ان يرجعن ، وبالرغم من هروبهن يمكن ان يجدن من يتزوجهن . سنتشيكا تغزل شبكة دنتلة ، وتكسب كل يوم ثمانية مرابطيات صافية ، وتدخرها في حصالة لتساعد في نفقات تزويجها ، ولكن وقد اصبحت الان ابنة حاكم ، فانك ستعطيها بائنتها بغير حاجة منها الى أن تشتغل . النافورة التي في الميدان جفت . وسقطت الصاعقة على العمود . وهكذا الامر في سائرها .

«اني في انتظار ردك على هذه الرسالة ، وعلى طلبي الذهاب الى البلاط . وأسأل الله أن يمد في عمرك أكثر مني ، أو على الأقل بقدره ، لاني لا أريد أن أتركك في هذه الدنيا من غيري .

زوجتك
«تريزه پنثا»

وقرئت هاتان الرسالتان ، وأعيدت قراءتهما ، وأطريتا ، واحتفل بهما ، وضحك الكل منهما كثيراً ، واتماماً للفرحة جاء الرسول الذي يحمل رد سنشو على دون كيخوته . فقرئ علناً هو الآخر ، فجعل الناس يتشككون في سذاجة الحاكم . وانسحبت الدوقة مع الغلام الرسول ، ليروي لها كل ما رآه في قرية سنشو ، فرواه ولم يهمل أي تفصيل ، وقدم اليها ثمار البلوط وجبناً ، أكدت تريزه أنه أحسن جداً من جبن ترنتشون ، وتلقتها الدوقة بلذة كبيرة ، لكن لنتركها الآن في هذه اللحظة ، لنروي كيف انتهت حكومة العظيم سنشو ، زهرة ومرآة كل حكام الجزر .

الفصل الثالث والخمسون

النهاية الأليمة لحكومة سنشو بنثا

من الخطأ الفاحش الظن أن كل الأمور ينبغي أن تظل في هذه الحياة على حالها . بل الأمر بالعكس ، كل شيء يدور : فالربيع يتلوه الصيف ، وهذا يتلوه الخريف ، والخريف يتلوه الشتاء ، وبعده يعود الربيع من جديد . وهكذا يدور الزمان على نفسه باستمرار ، كعجلة متحركة ابداً . والحياة الإنسانية هي وحدها التي تجري الى نهايتها ، أخف وأسرع من الزمان نفسه ، دون أمل في التجدد ، اللهم الا في الحياة الآخرة التي لا حد لها ولا نهاية . هكذا تكلم سيدي حامد ، هذا الفيلسوف المسلم . وهو يريد أن يذكرنا بعدم استقرار هذه الحياة وخفتها ، وبأن الحياة الآخرة هي الحيوات وهي الخالدة أبدا ، وقد أقر بها الكثيرون دون معونة الإيمان ، مسترشدين بنور العقل وحده . ولكنه يريد خصوصا أن يوجه انتباهناإلى السرعة التي بها انتهت ، وتحطمت واحترقت ، واختفت كالظل ـ حكومة سنشو .

في الليلة السابعة من حكمه كان نائما في سريره ، شبعان لا من الخبز والخمر ، بل من إصدار الأحكام ، والقرارات ، والقوانين ، واللوائح . وبدأ النوم ، رغم الجوع ، يغمض جفنيه ، وإذا به يسمع ضجة نواقيس وأصوات مروعة ، وكأن الجزيرة كلها غارت وغاصت : فنهض قاعدا ، وأرعى سمعه ليحاول أن يحزر سبب هذه الضجة ، لكن عبثا ، ولكن ضجة الأبواق والطبول ، التي اختلطت بالصيحات وبصوت النواقيس زادت من خوفه . فقام ، ولبس النعل بسبب رطوبة الأرضية ، ودون أن يلبس عباءة الغرفة ولا أي ثياب أخرى ، فتح باب غرفته ، في اللحظة التي رأى قادما في الدهليز قرابة عشرين شخصا معهم المشاعل ، والسيوف مشهرة ، وهم يصرخون بصوت يصم الآذان : «إلى السلاح! إلى السلاح! يا سيدي الحاكم ، لقد دخل الجزيرة جمع من الأعداء ، ضعنا ، إن لم تنجدنا بسالتك

وفطنتك» . واقتربت الجماعة في اضطراب من المكان الذي وقف فيه سنشو حائرا لا يحرك ساكنا ، وقال أحدهم : «لتتسلح سيادتك بسرعة إذا أردت ألا تهلك ، وتهلك معك كل الجزيرة» . ـ فأجاب : «وما الفائدة في أن أتسلح ؟ هل أنا أعرف ما السلاح وما النجدة ؟ الأولى بكم أن تتوجهوا إلى مولاي دون كيخوته : وبضربتين من كفه يشتت الأعداء ويجعلكم في أمان . أما أنا ، الخاطئ المسكين ، فإني لا أفهم في هذا شيئا .» ـ فقال آخر : «آه ، يا سيدي الحاكم ، أي جبن! تسلح ، وسنأتي إليك بالأسلحة الدفاعية والهجومية . أخرج إلى الميدان ، وكن مرشدنا وقائدنا ،فهذا من حقك ، ما دمت حاكمنا» . فقال سنشو :«حسن ، سلحوني!» وفي الحال وضعوا على قميصه ترسين كبيرين ، واحد من أمام ، والآخر من خلف ، يخرج منهما الذراعان من تجويفين فيهما ، وربط هذان الترسان بحبال ، بحيث انحصر بينهما مستقيما كأنه مغزل ، دون أن يستطيع ثني ركبتيه ولا أن يسير خطوة ، وزود برمح يستند إليه . ولما هيئ هكذا طلب إليه أن يمشي ، وأن يقود رجاله ، ويحثهم ، فهو بوصلتهم ، ومشعلهم ونجمهم ، وستسير الأمور بعد ذلك سيرا حسنا . فقال : وكيف تريدون مني أن أمشي ، أنا المسكين ؟ إني لا أستطيع ثني ركبتي ، وأنا محصور بين هذين اللوحين اللذين خيطا على لحمي . إن ما تستطيعون عمله هو أن تأخذوني بين أذرعتكم ، وأن تضعوني ، بالعرض أو على قدمي ، في أي وضع كان ، أحافظ عليه بواسطة هذا الرمح .» ـ فقال أحد رجال الفرقة : سر ، سر ، سيدي الحاكم ، إنه الخوف لا اللوحان هو الذي يمنعك من المشي ، ولنسرع ، فقد تأخرنا ، والعدو يتزايد عدده ، والضجة تنمو ، والخطر يصبح داهما» .

فتأثر الحاكم المسكين من هذه التنبيهات وأراد أن يخطو خطوة ، ولكنه سقط على الأرض بتمامه ، واعتقد أنه تمزق إربا إربا . وبقي مثل سلحفاة محصورة في ذبلها ، وجامبون بين معجنتين ، أو سفينة جنحت في الرمل وساخت ، لم تبعث سقطته أي شفقة في نفوس هؤلاء الساخرين . وأطفأوا مشاعلهم ، وضاعفوا صرخات الحرب ، ومروا من فوق جسم سنشو المسكين ، وهم يضربون على ترسيه بضربات شديدة ، حتى أنه لولا أنه أدخل رأسه ، لكان قد أصابه عذاب شديد . والبعض عثروا بجسمه ، والبعض الآخر تجندلوا : وركب عليه أحدهم ، وراح وكأنه فوق برج ، يصدر الأوامر ويصيح : «تعالوا هنا أنتم ، هناك يتكاثر الأعداء ، احرسوا هذه الطاقة ، أغلقوا هذا الباب ، حطموا هذه السلالم ، أحضروا قدور النار ، والقطران ، والصمغ ، وغلايات الزيت المغلي ، وأغلقوا الشوارع بالحشايا» . ثم ذكر بسرعة كل المعدات ، وآلات الحرب التي تستخدم للدفاع عن مدينة محاصرة ،

وسنشو المسكين ، الممزق ، المطحون ، كان يسمع هذا كله ويقول في نفـ
فليهلك الله هذه القرية ، ولأمت ، أو أنقذ من هذا العذاب الأليم! » واستجاب
لدعائه . ففي اللحظة التي بلغ فيها اليأس به أشده سمع من يصرخ : «النصر! هز
تعال يا سيدي الحاكم ، قم ، وتعال استمتع بالانتصار ، وشارك في الغنائم التي
العدو بقوة ساعدك الذي لا يقهر! » ـ فقال بصوت نائح : «أنهضوني إذن » .
وأوقفوه على قدميه . فقال : «العدو الذي أنا هزمته أريد أن تسمروه على ج
الغنائم فلا شأن لي بها . لكن إن كان هنا إنسان يهتم بأمري ، فأرجوه أن يناولني
النبيذ ، وأن يساعدني على تجفيف نفسي ، لأني مبتل وكلي ماء » . فجففو
النبيذ ، ورفعوا عنه ترسيه ، وأرقدوه على السرير ، فأصيب بإغماء ، من ف
واضطرابه ، وخوفه ، وندم الساخرون منه على أنهم دفعوا المزاح إلى هذا الـ
استرد وعيه بعد قليل ، مما طمأن نفسه . وسأل عن الساعة ، فقيل له أن الفجر
البزوغ . هنالك دون أن يقول كلمة أخذ يلبس ملابسه : ونظر الجميع إليه في صـ
يتلهفون لمعرفة ماذا سيفعل ، ولماذا هو متعجل هكذا . وأخيرا وبعد تعب ومشـ
من ارتداء ثيابه ، وكان مرهقا جدا ، ومضى فورا إلى الاسطبل ، يتبعه كل الـ
وهناك عانق حماره ، وقبله على جبهته قبلة السلام ، وقال له والدموع في عيني
هنا ، يا صاحبي ، يا رفيقي ، يا سند أعمالي وشقواتي . حينما كنا معا لم يكن
اهتمام إلا العناية بعدتك ، وتغذية جسمك . وكانت ساعاتي وأيامي وسنواتي هادئـ
لكن منذ أن تركتك ، وأرعيت سمعي إلى صوت الطموح والكبرياء ، دخلت نفـ
البلايا ، وآلاف المشاغل وآلاف أنواع القلق » . وفي الوقت نفسه الذي كان فيه يـ
الكلمات كان يربط البرذعة على حماره ، دون أن ينطق أحد بكلمة . ولما شدت
ركب عليها ، بمشقة غير قليلة ، ثم تلفت إلى ناظر القصر ، والسكرتير ، ورئيس
والدكتور بدرو رثيو ، وكل الحاضرين ، وقال لهم : «افسحوا لي الطريق ، ـ
واتركوني أرجع إلى حريتي السابقة . واسمحوا لي أن أبحث عن حياتي الماضـ
تبعثني من الموت الحاضر . إني لم أولد لأكون حاكما ، للدفاع عن الجزر والـ
الأعداء الذين يقدمون لمهاجمتنا . ولكني أحسن الحرث ، وتقليب الأرض
الزرجون[1] خيرا من اصدار القوانين ، والدفاع عن الأقاليم والممالك . إن القديس ـ

(١) فروع الكرم .



سنشو لما وقع في الحفرة هو وحماره حين كان عائداً من حكم جزيرة برتريا

روما ؛ وأقصد أن على كل إنسان أن يبحث عن المهنة التي خلق لها . إن محفرا في اليد أنسب لي من صولجان الحكم . وأفضل أن أتغذى من حساء الحراث ، على أن أكون تحت رحمة طبيب وقح يجعلني أموت من الجوع . وأفضل أن أنام في ظل شجرة سنديان في الصيف ، وأن أغطي نفسي كما أشاء بدفية ذات وبر في الشتاء ، على أن أخضع نفسي لمقتضيات الحكم ، وأنام بين ملاءات هولندة ، أو ألبس فرو السمور . كان الله معكم ، قولوا لسيدي الدوق أنني ولدت عاريا ، وأجد نفسي من جديد عاريا ، وصرت لا علي ولا لي ، أقصد أن أقول أنني دخلت الحكم وليس معي مليم ، وأخرج منه وليس معي مليم ، على عكس سائر حكام الجزر . فدعوني أمضي لشأني ، وسأضع مراهم ، لأني أعتقد أن كل ضلوعي رضت ، بفضل الأعداء الذين تجولوا طوال الليل على جسمي . » - فقال الدكتور رثيو : « لا ، يا سيدي الحاكم ، لن يحدث هذا ، سأعطي لسعادتك شرابا ضد السقطات والوطآت ، يرد إليك صحتك بسرعة ، أما عن الغذاء فإني أعدك بالتعويض وأن أسمح لك بأن تأكل كل ما تريد بوفرة . » - فأجاب سنشو : « لقد جئت متأخرا جدا ، سأبقى هنا كما سأصبح تركيا . إني لا ألدغ مرتين ، وهذه الحكومة أو أي شيء آخر قد يعرض علي ، ولو بين طبقين ، أقبله كما أطير إلى السماء بدون أجنحة . إنني من آل پنثا ، وكانوا جميعا عنيدين ؛ فإذا قالوا مرة : لا ، فهي لا إلى الأبد ، على رغم أنف جميع العالم . وإني أترك في هذه الزريبة أجنحة النملة التي رفعتني في الهواء ليأكلني السنونو وسائر الحيوان ؛ لنكن متشبثين بالأرض ؛ إذا لم تزين قدمي أحذية مضربة بالقرطبي ، فإني على الأقل لن أعدم نعالا من الحبال . كل نعجة وشبيهتها ولا نمدن الأرجل إلى أبعد من طول الملاءة . لقد صار الوقت متأخرا ، فدعوني أمر .

فقال ناظر القصر : سيدي الحاكم ، إننا نتركك تذهب ، وإن كان يعز علينا كثيرا أن نفقدك ؛ لأن حسن تمييزك ونزاهتك يجعلاننا نأسف على تركك إيانا . لكن عليك أن تعرف أن كل حاكم ، قبل أن يترك المنصب الذي يشغله ، ملزم بتقدم حساب عنه . فقدم حسابك ، واذهب بعد هذا في سلام .

فقال سنشو : لا يملك إنسان أن يطالبني بحساب ، إلا ذلك الذي سيتحمله الدوق نفسه . فأنا ذاهب إليه ، وسأقدم الحساب إليه ، خصوصا وقد خرجت من هنا عاريا تماما ، وهذا دليل قاطع على أني حكمت مثل الملاك .

فقال الدكتور رثيو : والله إن العظيم سنشو على حق ، ومن رأيي أن ندعه يرحل ، لأن الدوق سيغتبط كثيرا لرؤيته .

وكان الباقون جميعا على الرأي نفسه ، فتركوه يرحل ، وعرضوا عليه أن يرافقوه ، وكل التسهيلات التي ربما يحتاج إليها في السفر . فأجاب سنشو بأنه لا يريد غير القليل من الشوفان لحماره ، ونصف قطعة جبن مع رغيف خبز له ؛ ولما كان الطريق قصيرا ، فليس في حاجة إلى مزيد من الزاد . وعانقه الجميع ، وبادلهم العناق وهو يبكي . ثم رحل ، تاركا إياهم في دهشة بالغة من حكمته وسرعة قراره .

الفصل الرابع والخمسون

ويبحث في أمور تتعلق بهذا التاريخ، ولا تتعلق بغيره

قرر الدوق والدوقة أن التحدي الذي وجهه دون كيخوته إلى تابعه سينفذ . لكن لما كان الحراث الشاب قد هرب إلى الفلاندر تجنبا لأن تكون دونيا رودريجث حماته ، فقد قررا أن يحل محله خادم جسقوني أطلقوا عليه اسم توسيلوس ، لقناه كل ما عليه أن يفعله . وبعد يومين قال الدوق لدون كيخوته ، أنه عند انقضاء مهلة الأربعة أيام الباقية التالية ، سيأتي خصمه إلى الحلبة ، مسلحا فارسا ، ليقرر أن الانسة كذبت ، قسما بحق نصف لحيته ، بل ولحيته كلها ، حين ادعت أنه وعدها بالزواج . فاغتبط دون كيخوته كل الاغتباط لهذه الأنباء ، ومنى نفسه بالقيام بالأعاجيب في هذه المنازلة ، سعيدا لأنه وجد الفرصة ليبرهن لسادة القصر على مدى قوة ساعده . فانتظر إذن ، بصبر نافد ولهفة بالغة ، انقضاء هذه الأيام الأربعة ، حتى بدت له أربعة قرون . وسندعها تمر كما ندع أمورا أخرى كثيرة تمر ، ونعود إلى سنشو الذي عاد راكبا على حماره ، نصف راض ، ونصف حزين ، ليجد مولاه ، الذي كانت تسره صحبته أكثر من حكم كل جزر العالم .

ولم يبتعد كثيرا عن الجزيرة ، أو بالأحرى عن مكان حكومته ، لأنه لم يستعلم أبدا هل هي جزيرة حقا ، أو مدينة ، أو قرية ، حين أبصر على الطريق ستة حجاج قادمين بعصيهم ، وهم من أولئك الغرباء الذين يسيرون في الطرقات يطلبون الصدقات وهم ينشدون . فلما اقتربوا منه أحاطوا به ، ورفعوا أصواتهم معا ، وأخذوا ينشدون بلغتهم ، حتى أنه لم يفهم شيئا مما قالوا ، اللهم إلا كلمة « صدقة » التي كانوا يكررونها باستمرار ، مما جعله يفهم أنهم يطلبون صدقة ، ولما كان رجلا محسنا جدا ، كما يلاحظ سيدي حامد ، فإنه أعطاهم جبنه وخبزه ، وأفهمهم بالاشارات أنه ليس لديه شيء آخر يقدمه اليهم . فتقبلوا هذا

الاحسان عن طيب خاطر ، لكنهم كانوا يكررون دائما كلمة[1] Guelte فأجابهم سنشو : « أنا لا أفهم ماذا تقصدون ، يا ناس يا طيبون » . هنالك أبرز أحدهم كيس نقود وأراه له ، مما جعله يفهم أنهم يريدون نقودا . فوضع سنشو إبهامه على عقدة حلقه ، وفرد باقي اصابعه ، ليفهمهم أنه ليس معه مال ، ونخس حماره ، وأراد أن يسبقهم . فركض أحد هؤلاء البوهيميين وراءه ، وكان ينظر إليه باهتمام ، وارتمى على عنقه ، وقال له بلغة اسبانية صحيحة : « يا للّه! من ذا أرى ؟ أمن الممكن أن أمسك بين ذراعي صديقي العزيز ، وجاري الطيب سنشو پنثا ؟ نعم ، لا شك في ذلك ، إنه هو ، لأني لست سكران ولا أحلم . » فدهش سنشو من سماع اسمه وتفرس في الحاج بكل عينيه ، دون أن ينطق بكلمة ، لكن عبثا كان يتفرس فيه ، فإنه لم يتبين من هو . ولما شاهد الآخر ارتباكه ، قال له : « كيف يا سنشو ؟ ألا تتعرف جارك ريكوته ، المورسكي تاجر الخردوات في قريتك ؟ » فتفرس فيه سنشو مرة أخرى ، وبدأ يتعرفه ، ثم تعرفه أخيرا ودون أن ينزل عن حماره ، مد إليه ذراعه وقال له : « ومن ذا الذي يمكنه أن يتعرفك بهذا الزي العجيب ؟ ومن الذي جعلك بوهيميا متشردا ، وكيف تجرؤ على الرجوع إلى اسبانيا ، ولو عرفوا من أنت لأصلوك شديد العذاب ؟ » ـ فقال المورسكي : « إني متأكد أنه لن يعرفني أحد في هذا الزي . لكن لنبتعد عن الطريق ، ولنذهب إلى غابة الحور هذه ، حيث يأكل أصحابي ويستريحون . وستتغدى معهم ، إنهم أولاد طيبون ، وسيكون عندي من الفراغ ما يكفي لأن أقص عليك كل ما وقع منذ أن غادرت قريتي ، تنفيذا للقرار الملكي بنفي أبناء أمتي ، وإلا نالهم عقاب شديد » .

فتبعه سنشو ، وأخبر ريكوته رفاقه بمن لقيه ، ودخل الجميع الغابة ولما بعدوا عن الطريق العام ، ألقوا بعصيهم وأرديتهم ، واستراحوا . وكانوا جميعا من الشباب ، فيما عدا ريكوته الذي كان متقدما في السن وكان مع كل واحد منهم خرج حافل بكل ما يثير شهية الشراب . وجلسوا على الأرض ، وجعلوا من العشب الأخضر مفرشا ، ومدوا الخبز والملح والسكاكين والجوز ، وقطع الجبن ، وبقايا جامبون لا يزال فيها ما يمكن أكله . وكان معهم أيضا طعام مسود اللون ، يسمى « كبيال »[2] ، مصنوع من بيض السمك ، ويهيج الشهية تماما ، وزيتون وإن كان جافا وبدون ماء مملح فإنه كان مع ذلك لذيذا . ولكن أكثر ما شرف هذه الوجبة الريفية هو ست زجاجات من النبيذ ، لأنه كان مع كل واحد منهم زجاجة ، حتى ريكوته الذي كان مغربيا (مسلما) فصار ألمانيا ، وكانت زجاجته تساوي الخمس

(١) تحريف في الكلمة الألمانية Geld = نقود .

(٢) نوع من البطارخ المصنوع من بيض سمك الاسترجون والزيت .

الأخرى نظرا لكبر حجمها . فأكلوا طويلا وبشهية شديدة ، متذوقين كل قطعة تناولوها من كل شيء على طرف السكين . ورفعوا جميعا أذرعتهم وزجاجاتهم في الهواء ، وحنوا رؤوسهم ونظروا إلى السماء ، وشربوا طويلا ، وهم يتمتعون بما يشربون . وتطلع سنشو في كل شيء ، ولم يحزن من شيء ، بل بالعكس ، عملا بالمثل الذي يعرفه جيدا : «حين تكون في روما ، اعمل كما ترى الناس يعملون» ، استعار زجاجة ريكوته وأخذ يشرب بلذة كالآخرين . وأربع مرات متواليات عانقوا الزجاجات ؛ لكن في الخامسة كانت فارغة ، مما أنهى مسراتهم . وبين الحين والحين كان أحد هؤلاء الرجال يمسك بيد سنشو ، ويقول له في اسبانيا وألمانيا : «نحن صاحبان .» - فيجيب : «نحن صاحبان جيدان» ، ثم يأخذ في الضحك لمدة ساعة ، دون أن يتذكر شيئا يتعلق بحكومته ، إذ في العادة حين يأكل الإنسان ويشرب ، فإن الهموم لا تؤثر فيه . ولما انتهى الطعام ، أنامهم النبيذ ، وصار المكان الذي استخدموه مائدة ومفرشا - صار سريرهم . ولم ينم ريكوته ولا سنشو وحدهما لأنهما أكلا أكثر مما شربا . فانتحيا ناحية ، وجلسا عند جذع شجرة زان وتركا الحجاج في شخيرهم ، وتحدثا باللغة الاسبانية .

قال ريكوته لسنشو : «أنت تذكر جيدا ، يا عزيزي ، كيف نشر المرسوم الملكي الخاص بطرد أهل أمتي[1] الذعر بيننا . أما أنا فقد بدا لي أنه حتى قبل المدة المقررة لنا للخروج من أسبانيا ، كان هذا العقاب يقع على أولادي وعلي أنا . فاعتقدت إذن أنه ما دمت مضطرا إلى ترك مسكني واتخاذ مسكن آخر ، كان من الحكمة أن أرحل وحدي دون أسرتي ، وأن أبحث عن ملجأ مناسب أسكنها فيه ، دون أن أتعجل في هذا الموضوع كما تعجل غيري ، لأني كنت أرى ، وكان شيوخنا من الرأي نفسه ، أن هذه المنشورات ليست مجرد تهديدات زائفة ، كما اعتقد الكثيرون ، بل قوانين حقيقية ، لا بد ن تنفيذها في وقت معلوم . ولم أكن على جهل بالتدابير السرية والمؤامرات التي كان يدبرها أهل أمتي ، وقد وصلوا إلى حد من التطرف جعل الملك يتخذ هذا الموقف الصارم بنوع من الإلهام الإلهي ، لا لأننا جميعا كنا مشتركين في التمرد والعصيان بل كان بعضنا مسيحيين حقا وبإخلاص ، لكن عدد هؤلاء الأخيرين كان من القلة بحيث لم يكن في وسعهم أن يعارضوا مشروعات الآخرين . ثم أنه من عدم الفطنة أن يغذي المرء في داره الأفعى والإبقاء على الأعداء داخل

(١) المرسومان الملكيان الرئيسيان المتعلقان بطرد المسلمين من اسبانيا ، صدر أولهما في ٩ديسمبر سنة ١٦٠٩ متعلقاً بممالك غرناطة ، ومرسيه ، والأندلس ، وناحية هورناتشوس وصدر الثاني في ١٠ يوليو سنة ١٦١٠ متعلقاً بقشتالة بقسميها ، الجديدة والقديمة ، واسترمدررا والمنتشا .

البلاد . والخلاصة أننا عوقبنا بالنفي جزاءً وفاقاً ، وهي عقوبة بدت للبعض سارة خفيفة ، لكنها بدت لنا نحن أقسى عقوبة . وفي كل موضع نكون فيه ، نتحسر على اسبانيا ؛ ففيها ولدنا وهي وطننا الطبيعي . ولا نجد في أي مكان الاستقبال الذي يقتضيه شقاؤنا . وكنا نأمل في أن نتلقى بأذرع مفتوحة في المغرب ، وكل أفريقيا ، ولكننا لقينا هناك خصوصا أسوأ معاملة . إننا لم نعرف الخير إلا بعد أن فقدناه . ثم أن رغبتنا في العودة إلى هذه البلاد كانت من القوة بحيث أن أولئك الذين يعرفون مثلي لغة البلاد ، وهذه حال العدد الأكبر ، يتركون هناك زوجاتهم وأولادهم ويعيدون إلى هنا ، ذلك بسبب حبهم الشديد للأندلس . والآن أعرف بالتجربة صدق ما يقال من أنه لا شيء أجمل من حب الوطن .

تركت إذن ، كما قلت لك ، قريتي ، وذهبت إلى فرنسا ، ولئن كنت نعمت فيها بحسن اللقاء ، فقد أردت أن أرى بلادا أخرى . فارتحلت إلى إيطاليا ، ثم ألمانيا ، حيث وجدت أن من الممكن أن أعيش بحرية أكبر ، لأن الأهالي هناك ليسوا متعنتين ؛ فكل إنسان يتصرف كما يريد ، والعدد الأكبر يعيش في حرية ضمير كاملة . فأقمت في قرية قريبة من أوجسبورج ، ثم التحقت بهؤلاء الحجاج ، الذين اعتادوا أن يسافروا كل سنة إلى أسبانيا لزيارة الأماكن المقدسة ، التي يعدونها كهندهم[1] الكبرى ، ومصدر ربح مؤكد ، وهم يذهبون في كل مكان ولا يخرجون من قرية إلا وهم شبعون ، ومعهم ريال من الفضة على الأقل . حتى إذا انتهت الرحلة ، يكونون قد حصلوا أكثر من مائة إسكودو يحولونها إلى ذهب ويخفونها في تجويف عصيهم أو في ثنايا ملابسهم . وبهذه الوسيلة يخرجون ذهبهم من المملكة ، رغم تفتيش حرس الموانئ والثغور والحدود الذين يفتشونهم ، ثم يعودون إلى بلادهم . وعندي الآن ، يا سنشو ، نية الذهاب لاستخراج كنز كنت أخفيته ، وهذا أمر أستطيع أن أفعله بغير حرج ولا خوف ، لأنه في البرية . ثم أكتب بعد ذلك ، أو أذهب بنفسي من بلنسيه إلى الجزائر ، حيث تركت زوجي فرنشكا وبنتي ريكوتا ، لإيصالهم إلى ميناء في فرنسا ، ومن هناك إلى ألمانيا ، حيث ننتظر ما يريد الله أن يفعله بنا ، وكلتاهما مسيحية كاثوليكية ، ولو أني لست مثلهما في هذا فإن في قلبي من النصرانية أكثر مما فيه من الإسلام ، وإني أدعو الله أن يفتح بصري ، ويهديني إلى الصواب . وما لا أستطيع تصوره هو أن زوجتي وبنتي فضلتا الذهاب إلى المغرب على الذهاب إلى فرنسا ، حيث كان في وسعهما أن تعيشا مسيحيتين .

---

(١) أي مثل الهند (الغربية = أمريكا) كمصدر للثروة .

فقال سنشو : اسمع يا ريكوته ، هذا المسلك لا بد أنه ليس من تلقاء نفسيهما ، بل خوان تيوبيو ، أخو زوجتك ، هو الذي أخذهما ؛ ولما كان مسلما حقا ، فإنه لم يفكر إلا فيما يناسبه هو . لكني أريد أن أقول لك شيئا آخر : إني أعتقد أنك ستذهب عبثا للبحث عما دفنته ، لأننا عرفنا أنه نزع من زوجتك وأخيها كثير من الذهب واللآلئ التي حملوها للتفتيش والتسجيل .

فأجاب ريكوته : يجوز ، لكني متأكد أنهما لم يمسسا كنزي ، لأني لم أخبر أحدا بمكانه ، خوفا من وقوع أي سوء ، وهكذا يا سنشو إذا أردت أن تأتي معي وتساعدني في استخراجه ، فسأعطيك مائتي إسكودو تستعين بها في معاشك ، لأني أعرف تماما أنك لست غنيا .

فأجاب سنشو : بودي أن أفعل هذا ، ولكني لست شرها ، وإلا لما تركت في هذا الصباح وظيفة كنت أستطيع عن طريقها أن أغطي جدران بيتي بالذهب ، وقبل مضي ستة أشهر آكل في آنية من الفضة . وبهذا السبب ، ولأني أتصور أيضا أن من الخيانة لملكي أن أساعد أعداءه فإني لن آتي معك حتى لو عرضت علي أربعمائة إسكودو .

فقال ريكوته : وأية وظيفة تلك التي تركتها ؟

ـ تركت وظيفة حاكم على جزيرة ، لا نظير لها في كل الناحية .

ـ وأين توجد هذه الجزيرة ؟

ـ على مسافة فرسخين من هنا ، وتسمى جزيرة برتريا .

ـ أسكت يا سنشو ، إن الجزر في البحر ، ولا توجد جزيرة في اليابسة .

ـ كيف لا يوجد ؟ أقول لك أنني رحلت عنها في هذا الصباح ، وبالأمس كنت أحكمها كما أشاء . وبالرغم من ذلك فقد تركتها لأنه ظهر لي أن منصب الحاكم محفوف بالكثير من الأخطار .

ـ وماذا كسبت من هذه الحكومة ؟

ـ كسبت أنني تعلمت أن أعرف أنني لا أصلح لتولي شئون الحكم إلا على قطيع من الدواب ، وأن الثروة التي يكتسبها المرء في هذه المناصب تتم على حساب الراحة ، والنوم ، بل والحياة ، لأن الإنسان فيها يأكل قليلا ، خصوصا إذا وجد أطباء يسهرون على صحته .

ـ إني لا أفهمك يا صاحبي! إن كل ما تقوله يبدو لي مجنونا . أي شيطان يمكن أن يعطيك جزرا لتحكمها ؟ هل افتقر العالم ممن هم أكفأ منك للحكم ؟ أسكت يا سنشو ، عد

إلى صوابك ، وانظر هل تريد أن تأتي معي ، كما قلت لك ، لتساعدني على استخراج الكنز ، وهو كنز هائل ، بحيث يمكن أن يسمى كنزا حقا ، وسأعطيك ما يعينك على المعاش .

فقال سنشو : أكرر وأقول إنني لا أريد ، واقنع بتوكيدي لك أنني لن أبلغ عنك . وتابع سبيلك ، والحظ معك ، ودعني أسلك سبيلي . إن ما يكسب حلالا غالبا جدا ما يضيع ، ولكن المال المكسوب بالحرام يضيع ويضيع معه صاحبه .

فقال ريكوته : لن أحدثك في هذا بعد الان ، لكن خبرني هل كنت في قريتنا حينما رحلت زوجتي وابنتي ، وأخو زوجتي ؟

ـ نعم كنت موجودا ، وأستطيع أن أقول لك أن ابنتك كانت جميلة جدا حتى أن كل الناس خرجوا إلى الشارع لرؤيتها ، وكانوا يقولون جميعا أنها أجمل مخلوقة في العالم . وقد رحلت وهي تذرف العبرات ، وعانقت صديقاتها ومعارفها ، ورجتهن أن يدعن لها اللّه والعذراء . وكانت متأثرة ، إلى درجة أنها أثارت الدموع في عيني ، أنا الذي لا أبكي كثيرا ورغب الكثير منا في إخفائها أو اختطافها على الطريق ، لكن الخوف من مخالفة أمر الملك روعهم . وكان أشدهم حماسة السيد بدرو جريجوريو هذا الوارث الشاب الغني الذي تعرفه ، وكان مولها بحبها ، ولم يشاهد بعد ذلك في القرية منذ رحيلها . وقد ظننا كلنا أنه جرى في أثرها لاختطافها لكننا لم نعرف شيئا عنه حتى الآن .

فأجاب ريكوته : لقد كنت على علم دائما بأن هذا الفتى يحب ابنتي لكن لما كنت واثقا من فضيلتها ، فإني لم أقلق . ولقد سمعت يا سنشو أن المسلمين لا يتزوجون أبدا أو نادرا جدا ، من النصارى ، وابنتي ، التي أعدها نصرانية أكثر منها عاشقة ، أظن أنها لن تحفل بملاحقات هذا الفتى .

فقال سنشو : سمع اللّه منك ، لأن هذا لا يتفق مع أي منهما . لكن دعني أرحل يا صديقي ريكوته ، فإني أريد أن أصل في هذا المساء إلى الموضع الذي فيه مولاي دون كيخوته .

فقال ريكوته : في رعاية اللّه يا أخ سنشو ، هؤلاء هم رفاقي يستيقظون وقد حان الوقت لمتابعة سيرنا .

وتعانقا ، وركب سنشو حماره ، وأمسك ريكوته بعصاه ، وانفصلا .

الفصل الخامس والخمسون

فيما وقع لسنشو في الطريق وأمور أخرى شائقة

تسبب لقاء سنشو بريكوته في عدم وصوله إلى قصر الدوق في ذلك اليوم . فقد فاجأه الليل على نصف فرسخ تقريبا من ذلك القصر ، وكان الظلام حالكا كثيفا ، لكن لما كان ذلك في وقت الصيف ، فإنه لم يهتم بهذا كثيرا ، وانحرف عن الطريق انتظارا لبزوغ النهار . ولكن يا له من احتياط شؤم! لقد شاء سوء حظه أن يسقط في حفرة عميقة هو وحماره وهو يبحث عن مكان ملائم للراحة ، حفرة في وسط أنقاض عتيقة . ولم يجد من الوقت غير اللحظة التي فيها أسلم أمره إلى الله من أعماق قلبه وقد ظن أنه سقط في أعماق الهاوية . لكن على مسافة ثماني عشر قدما تقريبا لقي القاع ، وهو راكب دائما على حماره دون أن يصاب بأي أذى فتحسس كل جسمه ، وملك نفسه ليرى هل جرح في أي موضع ، ولما تيقن أنه سليم معافى ، لم يكف عن حمد الله على هذه النعمة غير المنتظرة لأنه تخيل أنه مزق ألف مزق . ثم تحسس جدران هذه الحفرة ، ليرى هل يمكن الخروج منها بيديه وقدميه دون مساعدة أحد ، لكنه وجدها ملساء بغير بروزات مما أحزنه كثيرا ، خصوصا حين سمع حماره يشكو بلغته الخاصة . وكان لشكواه ما يبررها لأنه أصيب من جراء السقطة فصاح سنشو :

آه! كم من أحداث غير منتظرة تعترض في كل خطوة من يعيشون في هذا العالم الحقير! من كان يظن أن من كان بالأمس يجلس متربعا على عرش حكومة جزيرة ، محاطا بالخدم والحشم والأتباع الذين تحت إمرته ، سيجد نفسه اليوم مدفوعا في حفرة عميقة ، بغير معين من الخدم والأتباع ؟ هنا حماري وأنا سنموت جوعا بعد قليل ، إن لم نمت قبل ذلك ، وهو من الرضات ، وأنا من القلق والملال . ويا ليته كان لي حظ مولاي دون كيخوته ، حين نزل في كهف مونتسينوس ذلك المسحور ،فوجد رجالا استضافوه ، خيرا مما لو كان في بيته ، إذ وجد المائدة منصوبة والسرير مفروشا ، وشاهد مناظر جميلة رائعة ، أما أنا في

هذا الجحر فإني لن أرى غير العلاجم والأفاعي . ما أشقاني إلى أين اقتادني جنوني وخيالاتي الحمقاء ؟ حين يعثرون علي سيخرجون من هنا عظامي جافة ، نظيفة ، هي وعظام حماري ، وهذا سيعرف الناس بأمرنا ، على الأقل أولئك الذين يعلمون أن سنشو پنثا لم يفارق حماره أبدا ولم يهجر حماره . ما أشقاني! هذه بلية أخرى! ولماذا لم يشأ الحظ القاسي أن يمكننا من أن نموت في وطننا ، بين أهلنا ؟ لو كانت مصيبتنا بغير علاج ، فقد كنا نستطيع على الأقل أن نجد ناسا يغمضون عيوننا ، ويبكون علينا . إيه أيها الصديق العزيز ، أيها الرفيق المخلص ، أي جزاء رديء أقدمه لك عن خدماتك الطيبة! إغفر لي ، وادع الحظ ، بكل قواك ، ليستنقذنا من هذا الجحر الحقير الذي نجد أنفسنا فيه! وإني أعدك أن أعقد على جبهتك إكليل غار ، يجعلك شبيها بشاعر نال الجائزة ، وأن أعطيك علفة مزدوجة .

وهكذا كان سنشو يتشكى ، وكان حماره يصغي إليه دون أن يجيب بكلمة واحدة ، لشدة فزع هذا المسكين وبؤسه . وبعد أن قضى الليلة كلها في مثل هذه الشكايات ، بزغ النهار ، وتبين سنشو أن من المستحيل عليه كل الاستحالة أن يخرج من الجحر الذي وجد فيه ، بغير معونة أحد . فاستأنف النواح ، والصراخ مناديا بالنجدة ، لكنه كان يصرخ في البرية ، لأنه لم يكن في كل النواحي من يستطيع أن يسمعه ، هنالك اعتقد أنه بغير أمل وكان حماره راقدا ، ورأسه معلق . وأفلح سنشو في جعله يقف على أقدامه ، وإن كان الحمار قد وجد مشقة كبيرة في الوقوف . واستخرج من الخرج ، الذي لم يضيعه أبدا أثناء السقطة ، قطعة من الخبز ، قدمها إلى رفيق محنته «الحمار» وهو يقول له وكأنه يمكنه أن يسمعه : «مع الخبز يبدو أن الآلام تخف» . فأكلها الحمار راضيا . وفي هذه اللحظة اكتشف سنشو في أحد جوانب الحفرة نقرة كبيرة يمكن أن يدخل فيها الإنسان ، ويمر منها وهو منحن ، فدخلها وهو يحبو ، ووجد تقعيرا واسعا فسيحا ، مكنه من تمييز شعاع شمس يمر من خلايا ما يمكن أن يسمى سقفا . ثم عاد إلى الحفرة ، وأخذ حجرا ، وبعد وقت قصير وسع الخرق ليمر منه حماره ، ثم أخذ من خطامه ، واقتاده في هذا الخندق ، وهو يرجو دائما أن يجد مخرجا . وقال : «يا إلهي القدير! كم كانت هذه المغامرة ، التي تبدو لي كئيبة ، ستبدو لذيذة لمولاي دون كيخوته! إنه لن يعدم أن يحسب هذه الأنفاق حدائق غناء وقصور جليانة[1] . وعند نهاية هذا النفق كان يستوقع أن يعثر

---

(١) يشرحها كوباردبيوس فيقول : «إنه بناء قديم جداً يقوم عند مصب نهر تاجه ، بالقرب من طليطلة ، في المنطقة التي تسمى بستان الملك . أما جليانه Galiana فكانت أميرة مسلمة... ومن هنا جاء المثل : ينشر قصور جليانه» . ويقول الدكتور فرنشتسكودي بيزا في وصفه لطليطلة (سنة ١٦٠٥) ان هذا القصر كان يقوم في بستان الملك . والواقع أنه كان قصراً ريفياً للترويح . كانت تأوي إليه الأميرة جليانه .

على مرج أخضر ، أما أنا المسكين الذي لا أملك مثل هذه التخيلات الجميلة ، فإني أعتقد أنه عند كل خطوة ستنفتح عند أقدامي حفرة أخرى أعمق من الأولى ، تبتلعني نهائيا ، لأنه كما يقول المثل «الشرّ يكون هينا إذا جاء وحده .» هكذا كان سنشو يفكر ، وبدا له أنه سار أكثر من نصف فرسخ من الطريق حين أبصر نورا غامضا ، بدا له أنه نور النهار ، مما جعله يؤمل في الخروج من هذه الهاوية والعودة إلى طريق الحياة .

ويتركه سيدي حامد هاهنا ، ليعود إلى دون كيخوته الذي كان ينتظر بلهفة وسرور ، يوم المبارزة مع المغرر ببنت دونيا رودريجث ، وكان يؤمل أن يستطيع بقوة ساعده أن يكشف الظلم عنها .

وحدث أنه في عشية يوم المبارزة خرج في الصباح لاختبار قوة نفسه ، وأطلق العنان لفرسه روثينانته ، ووقعت أقدامه على فتحة كبيرة ، ولولا أن دون كيخوته شد العنان بقوة ، لسقط كلاهما في الحفرة . فدهش مما رأى ، واقترب دون أن ينزل عن فرسه وفحص الحفرة ، وخيل إليه أنه يسمع صرخات عالية تخرج منها . فأصغى بانتباه ، وتبين هذه الكلمات : «وا أسفاه! ألا يوجد أي رجل طيب هناك في أعلى يسمعني ، أو أي فارس محسن يشفق على خاطئ مسكين مقبور حيا ، وحاكم بائس لم يستطع أن يحكم ؟» وخيل إلى دون كيخوته أن هذا صوت سنشو ، مما أدهشه كثيرا . فرفع صوته بأقصى ما يستطيع ، وأخذ يصيح : « من هناك في أسفل ؟ من ذا الذي ينوح ؟» ـ فأجاب : «ومن عسى أن يكون غير سنشو التعيس ، الحاكم ، لسوء حظه ، على جزيرة برتريا ؛ وكان قبل ذلك سائسا للفارس دون كيخوته دلا منتشا ؟» وعند هذه الكلمات ازدادت دهشة دون كيخوته ، وخيل إليه أن سنشو مات ، وأن روحه في عذاب ، وأنها هي التي تتكلم . وبناء على هذه الفكرة : «أستحلفك بكل قسم مسموح ، لمسيحي كاثوليكي ، أن تقول لي من أنت : إن كنت روحا في عذاب ، فقل لي ماذا تريد أن أفعل من أجلك . إن مهنتي هي إغاثة الملهوفين والباكين في هذا العالم ، وبالأحرى سأفعل ذلك بالنسبة إلى الملهوفين والبائسين في العالم الآخر ممن لا يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم .» ـ فأجابه الصوت : «أنت إذن السيد دون كيخوته دي لا منتشا ، لأني أعرفك من صوتك» ـ فقال دون كيخوته : «نعم ، إني هو ، ومهنتي أن أهب لنجدة الأحياء والأموات في محنتهم ، ولهذا فإنك إذا كنت سائسي سنشو پنثا ، بشرط ألا يكون الشياطين قد أخذوك ، وأن تكون بلطف من اللّه ورحمته في المطهر ، فإن كنيستنا أمنا المقدسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عندها الصلوات الكفيلة بتخفيف آلامك ، وسأتشفع لديها بكل ما أملك من أجلك ، قل لي إذن من أنت .» ـ فقال الصوت : «أحلف يا

سيدي دون كيخوته ، بميلاد من تشاء ، أنني سانسك سنشو پنثا ، وأنني لم أمت أبدا في عمري . لقد تركت الحكم هناك لأسباب سأفضي بها إليك في فرصة أخرى . وفي هذه الليلة وقعت في هذه الحفرة ، أنا وحماري ، وها هو ذا ليكذبني إن كنت من الكاذبين . » وفي هذه اللحظة ، وكأنه فهم ما قاله سنشو ، أخذ الحمار في النهيق بصوت تردد في جوانب الكهف . فصاح سنشو : « شاهد لا ترد له الشهادة . » ـ فقال دون كيخوته : « إني أتبين هذه الصيحة ، وأتعرف صوتك أيضا ، يا عزيزي سنشو : إنتظرني ، سأعود إلى قصر الدوق ، وهو غير بعيد ، وآتي ببعض الناس لاستخلاصك من هذه الحفرة ، التي لاشك في أن من أوقعك فيها هو خطاياك . » ـ فقال سنشو : « إذهب بسرعة وعد بسرعة ، لأني لا أستطيع احتمال أن أرى نفسي مقبورا حيا ، وفضلا عن ذلك فإنني أموت من الخوف » .

فذهب دون كيخوته إلى القصر ، وروى لمضيفه حادث سنشو ، فدهش الدوق والدوقة كل الدهشة ، وإن كانا قد فهما أنه لا بد وقع في بئر سرداب موجود منذ الأزل لكنهما لم يستطيعا أن يفهما لماذا . لقد ترك سنشو الحكم دون أن يخبروه بعودته . وأخيرا نقلوا إلى المكان حبالا ، وبقوة السواعد أمكن أولا إخراج الحمار ، وبعد ذلك سنشو ، من حفرة الظلمات هذه ، وكان طالب شاب حاضرا فقال : « اللّه يخرج كل الحكام الأردياء من حكوماتهم مثل المذنب التعس وهو يخرج أعماق الهاوية ، يموت من الجوع ، شاحبا ، وبدون أي فلس ، كما أعتقد . » ـ فأجاب سنشو : يا أخي السليط اللسان ، طوال الثمانية أو العشرة أيام التي توليت فيها الحكم الموكول إلى ، لم أستطع أن أشبع مرة واحدة من الخبز ، الأطباء اضطهدوني ، والأعداء رضوا عظامي ، ولم يكن عندي وقت لفرض ضرائب ولا لجبايتها . وهكذا فإني أستحق أبدا أن أخرج منها على هذا النحو . لكن العبد في التفكير والرب في التدبير . واللّه يعرف الأصلح والأوفق لكل إنسان . ولا بد من أخذ الزمان على علاته ، ولا أحد يستطيع أن يقول : أيتها النافورة ، لن أشرب من مائك . حيث يعتقد الإنسان أنه يوجد شحم لا يوجد فقط أوتاد .

فقال دون كيخوته : لا تغب يا سنشو ولا تنزعج مما تسمع الناس يقولونه ، وإلا لما فزعت منهم . ما دام ضميرك صافيا ، فليقولوا ما يشاؤون . ومحاولة ربط لسان النميمة كمحاولة وضع أبواب للحقول والبراري . وإذا اغتنى الحاكم من حكومته ، قيل إنه لص ، وإذا خرج منها فقيرا ، قيل إنه مبذر أو مجنون .

فقال سنشو : آه صحيح ، يمكنهم أن يقولوا عني هنا إنني مجنون ، لا سارق .

وهما في هذا الحديث إذ بلغنا القصر ، وسط حشد من الأطفال وسائر الناس . فوجدا في

البهو الدوق والدوقة ينتظران . وبدأ سنشو بأن اقتاد حماره إلى الزريبة ، لأنه قال إن حماره أمضى ليلة سيئة ، وبعد ذلك ذهب إلى سيديه ، وجثا على ركبتيه أمامهما ، وقال : « سيدي ، بأمر منكما ، ودون استحقاق مني ، ذهبت لتولي حكم جزيرتكم برتريا . دخلتها عاريا ، وخرجت منها عاريا ، ولم أكسب منها ولم أخسر . وثم شهود ليقولوا هل أحسنت في الحكم أو أسأت . أصدرت أحكاما ، وكنت أتضور جوعا باستمرار ، بناء على رغبة الدكتور بدرو رثيو ، من مواليد ترتيافويرا ، والطبيب الجزيري للحكام . وهاجمنا الأعداء إبان الليل ، وطاردونا بشدة ، وأهل الجزيرة يقولون إنهم خرجوا من المعركة ظافرين بقوة ساعدي : هداهم الله لقول الحق . ثم إني طول هذه المدة استطعت تقدير الأعباء والالتزامات التي يفرضها منصب الحاكم ، فوجدت أنها ثقيلة جدا على كتفي ، إنها ليست أحمالا يقوى عليها صلبي ، ولا سهاما لحقيبتي ، ولهذا ، ولكيلا تسقط الحكومة معي ، أردت تركها : وبالأمس صباحا ، خرجت من الجزيرة وتركتها بالشوارع نفسها ، والبيوت نفسها والسقوف نفسها التي كانت لها من قبل . لم أقترض شيئا من أحد ، ولم أكسب شيئا . وكان في نيتي إصدار بعض القرارات المفيدة ، ولكني لم أصدر[1] شيئا . خوفا من عدم مراعاتها ، إذ يستوي عندئذ أن تصدر أو أن لا تصدر . وقد تركت ، كما قلت لكم ، الجزيرة بغير رفيق إلا حماري ، وسقطت هذه الليلة في حفرة ، وسرت مسافة طويلة تحت الأرض ، وفي هذا الصباح شاهدت نور النهار ، لكن لو لم تقد السماء إلى سيدي دون كيخوته ، لبقيت في هذه الحفرة حتى نهاية العالم . وهكذا يا سادة ، ها هو حاكمكم سنشو ، الذي تعلم ، خلال الأيام العشرة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم ، أن يعد حكومات العالم باطلا ولا شيء . وبهذا الشعور ، أقبل أقدام سيادتكما ، ومثل الأطفال الذين يقولون وهم يلعبون : اقفز أنت وأعطني أنت ، فإني أقفز من الحكم وأعود إلى خدمة مولاي دون كيخوته ، الذي معه سآكل على الأقل خبزا حتى أشبع : فإن تعبت فما دمت شبعان ، فلن يهمني إن كان الطعام فاصوليا أو فجلا » .

وهكذا انتهى من خطبته . وكان دون كيخوته يخشى دائما أن تبدر عنه آلاف الكلمات النابية ، ولما رأى أنه أجز في كلامه ، حمد السماء على ذلك . وعانق الدوق سنشو ، وقال له إنه غاضب لأن سنشو ترك الحكومة بسرعة ، لكني سيعمل على أن يعطيه منصبا آخر أقل أعباء وأكثر مكسبا . عانقته الدوقة أيضا ، وأوصت بحسن معاملته ، وبذل الرعاية له ، لأنه بدا في حال زرية .

---

(١) هذا يخالف ما ورد قبل ذلك .

الفصل السادس والخمسون

في المعركة الرهيبة التي لم يسمع بمثلها والتي وقعت بين دون كيخوته دلامنتشا والخادم توسيلوس بشأن بنت الدونيا رودريجث

لم يندم الدوق والدوقة على المزحة التي دبراها لسنشو بمنحه الحكم في الجزيرة ، خصوصا وقد جاء ناظر القصر في اليوم نفسه ، وروى بالتفصيل كل ما قاله وما فعله سنشو ، خصوصا حكاية الهجوم على الجزيرة وفزع الحاكم ، مما ألهاهما كثيرا . ويروي التاريخ بعد ذلك أنه قد حان يوم المبارزة ؛ وكان الدوق قد لقن خادمه توسيلوس الوسائل التي ينبغي عليه أن يستخدمها للانتصار على دون كيخوته دون جرحه ولا قتله ، وأمر بإزالة سنان الرماح ، قائلا للفارس إن المشاعر المسيحية التي يدين بها لا تسمح بتعريض المقاتلين ، وعليه ، دون أن يدفع الأمور إلى شدتها ، أن يقنع بأنه تركت له الحرية في المنازلة ، لأنه بالسماح بهذا قد خالف مراسم المجمع[1] المقدس ، الذي يمنع مثل هذه التحديات . فأجاب دون كيخوته قائلا إن الدوق هو صاحب الأمر والنهي ، وله أن يأمر بما يشاء ، وسيمثل لإرادته في كل شيء .

وأمر الدوق بنصب منصة في ميدان القصر للحكام ، ولأصحاب الدعوى وهما الأم والبنت . وتجمعت جمهرة غفيرة من القرى المجاورة وقد جذبتهم جدة المشهد الذي لم يعرف له التاريخ مثيلا . وكان أول من تجول في الساحة هو مدير المراسم ، فقد فتش الميدان والحاجز ، ليرى هل يوجد بعض القش ، أو الكمين الذي يمكن أن يسقط فيه أحد .

---

(١) الاشارة إلى مجمع ترنتو (مدينة في التيرول على بعد ١٦٣كم جنوبي اسنبروك) الذي عقد بين سنة ١٥٤٥و ١٥٦٣ ، وهو المجمع المسكوني التاسع عشر ، وقد اجتمع بناء على طلب البروتستنت ، ولكنهم لم يعترفوا مقدما بسلطته ، وتوقفت اجتماعاته مرارا إما بسبب معارضة شارلكان أو البابا وفي هذا المجمع حددت العقيدة الكاثوليكية ، وأعلن تكفير المنشقين (البروتستنت) وأصدر عدة قرارات تأديبية ، منها ما ورد في الفصل ١٩ من الجلسة ٢٥ خاصا بالمبارزة الفردية إذ يعلن « حرمان الاباطرة والملوك والدوقات والأمراء... والحكام الزمنيين الذين يسمحون بأماكن للمبارزة الفردية بين المسيحيين في أراضيهم » .

ثم ظهرت الوصيفة وبنتها ، يغشيهما غلالة طويلة حتى العينين ؛ وجلستا على الكراسي المخصصة لهما ، والأسى باد على وجهيهما ؛ وكان دون كيخوته عند الحاجز ، وبعد ذلك بقليل ، وعلى صوت الأبواق ، دخل الحلبة الخادم العظيم توسيلوس راكبا على جواد قوي ، وحافة الخوذية مرخيةويلبس أسلحة قوية لامعة ؛ وكان الفرس رماديا كابيا ، ويدا أنه من فريزلند ، وأقدامه فيها وبر طويل كث . وكان الدوق قد لقن بطلنا المغوار الطريقة التي يسلكها مع دون كيخوته .

وأمره خصوصا بتجنب أول صدام مع الفارس ، حتى يجنبه موتا محققا .

فقام توسيلوس بجولة في الميدان ، ثم اقترب من السيدتين ، وتطلع خصوصا في تلك التي كانت تدعي المطالبة بالزواج منها ، وسألهما هل توافقان على أن يتولى الفارس الدفاع عنهما . فأجابتا بنعم ، وأنهما توافقان على كل ما يفعله . وكان الدوق والدوقة في مقصورة بنيت فوق الحاجز ، أمامهما اصطف جمهور المتفرجين المتلهفين لمعرفة نتيجة المعركة وكانت شروطها هي أنه إذا انتصر دون كيخوته ، فإن خصمه يكون ملزما بالزواج من بنت السيدة رودريجث ، أما إذا انهزم ، فإن المدافع (دون كيخوته) سيتحلل من وعده ، دون أن يلزم بالوفاء بأي شيء . وقام مدير المراسم بتوزيع الشمس بينهما بالتساوي ، وعين لكل واحد منهما المكان الذي عليه أن يحتله . ودقت الطبول ونفخ في الأبواق ، واهتزت الأرض تحت أقدام الخيول ، واحتبست أنفاس المتفرجين ، منتظرين إعلان من الفائز . وتوكل دون كيخوته على اللّه وعلى سيدته دلثنيا ، وانتظر إعطاء إشارة البدء . لكن خادمنا كان يفكر تفكيرا آخر . فإنه حين تقدم ليتطلع فيمن تبدو خصيمته ، بدت له أجمل امرأة شاهدها في حياته ؛ والفتى الأعمى الذي يسمي الحب لم يشأ أن يضيع فرصة الاستيلاء على نفس خادم ، وأن يزيد في غنائمه ، فاقترب الحب منه ، برقة ، دون أن يراه أحد ، ورماه في الجانب الأيسر بسهم حاد ، طوله ذراعان ، ونفذ في صميم قلبه من جانب إلى جانب . وهذا أمر سهل على «الحب» ، لأنه غير منظور ، ويدخل في كل مكان ، ويخرج منه ، دون أن يطالبه أحد بالحساب عن أفعاله . فلما أعطيت إشارة البدء ، كان خادمنا في نشوة ، يفكر مثل دون كيخوته الذي ركض بالسرعة التي أمكنت روثينانته ، وانقض نحو خصمه . ولما رآه سنشو يركض صاح «هداك اللّه يا زهرة الفرسان الجوالة وزبدتهم ، حقق اللّه لك النصر ، لأن الحق في جانبك» . ولما شاهد توسيلوس أن دون كيخوته مقبل عليه ، لم يتحرك خطوة واحدة ، بل نادى رئيس الحكام وقال له : «أليست المعركة من أجل أن أتزوج هذه الآنسة أو لا أتزوجها» ؟ ـ فأجاب الآخر «نعم»! ـ فقال الخادم : «إن ضميري

يؤنبني ، وسأنوء به لو أنني استمررت . ولهذا أعلن أنني مهزوم ، وأطلب الزواج فورا من هذه الآنسة » . فارتبك رئيس الحكام من اقتراح توسيلوس هذا ـ كل الارتباك ، ولما كان أحد المشتركين في هذه المزحة فإنه لم يستطع أن يجيب بكلمة . وتوقف دون كيخوته في وسط الحلبة ، ورأى أن خصمه لا يريد القتال .

ولم يستطع الدوق أن يفهم لماذا لا يريد المتحاربان القتال ، ولكن رئيس الحكام ذهب لابلاغه نوايا توسيلوس ، مما جعله يتضايق كثيراً . وفي هذه الأثناء ، اقترب توسيلوس من دونيا رودريجث ، وقال لها : «سيدة ، إني أود بإخلاص أن أتزوج ابنتك ، ولا أريد أن أشتري بالمعارك والكدمات ما أستطيع الحصول عليه بالسلام ودون خطر الموت» . ولما سمع دون كيخوته هذا الكلام قال : «ما دام الأمر هكذا ، فإني خرجت من تعهدي الذي بذلته لك ، فليتزوجا بالرفاء والبنين ، والله يوفقهما ، وبطرس يبارك عليهما » .

ونزل الدوق إلى الميدان واقترب من توسيلوس وقال له : «هل صحيح أيها الفارس أنك تقر بهزيمتك ، وأنك مدفوعا بتأنيب ضميرك تريد الزواج من هذه الآنسة ؟» ـ فأجاب :«نعم ، يا سيدي!» . ـ فقال سنشو : «إنه أصاب جدا : أعط القط ما أردت إعطائه إلى الفأر ، تنشأ لك المتاعب» .

وأخذ توسيلوس يحل خوذته ، وسأل المساعدة في خلعها بسرعة ، لأنه شعر بأنه على وشك الإغماء ، لأنه لم يعتد الانحباس طويلا في هذا الحبس الضيق : فرفعت خوذته ، وكشف عن وجهه خادما .

فلما شاهدته السيدة رودريجث وبنتها صاحت : «هذا غش ، لقد أحلوا توسيلوس ، خادم سيدي الدوق ، مكان الزوج الحقيقي : إني أطالب بعدالة الله والملك ، بسبب كل هذا الخداع أو الاحتيال » .

فقال لهما دون كيخوته : «لا تغضبا يا سيدتي ، لا خداع ولا غش ، وإن كان ثم شيء من هذا فإنه ليس من عمل الدوق ، بل من عمل السحرة الأشرار الذين يطاردونني : لقد حسدوني على المجد الذي نلته بانتصاري ، فحولوا شكل زوجك إلى الإنسان الذي تقولين إنه خادم الدوق ، اتبعي نصحي ، وعلى الرغم من خبث أعدائي ، تزوجي من هذا الرجل ، وهو من غير شك الرجل الذي تريدينه» . فلما سمع الدوق هذا الكلام لم يملك نفسه من الضحك ، وزال غضبه وقال : «إن الأمور التي تحدث للسيد دون كيخوته عجيبة جدا حتى إني محمول على الاعتقاد أن هذا الرجل ليس خادمي : وعلى كل حال ، فلنجأ إلى الحكم : ونؤجل الزواج خمسة عشر يوما ، وفي أثناء هذه المدة لنحبس هذا الذي أدهشنا ، وربما

استعاد شكله الأول في هذه الفترة ؛ لأن حقد السحرة على السيد دون كيخوته لا يمكن أن يستمر طويلا ، خصوصا إذا شاهدوا أن مكائدهم وتحويلاتهم لا تفيدهم » . - فقال سنشو : « آه يا مولاي! إن هؤلاء الأوغاد تعودوا أن يحولوا كل الأشياء المتعلقة بمولاي دون كيخوته : لقد هزم في الأيام الماضية فارسا يدعى فارس المرايا ، فحوله السحرة إلى شكل حامل البكالوريا سمسون كرسكو ، المولود في قريتنا ، وصديقنا الكبير ؛ والسيدة دلثنيا دل توبوسو لقد حولوها إلى فلاحة دميمة ، وهكذا أعتقد أن هذا الخادم سيظل خادما طول حياته وسيموت خادما » وهنا قالت بنت السيدة رودريجث : «ليكن من يكون ، فما دام يريد الزواج بي ، فإني موافقة ، وأفضل أن أكون زوجة شرعية لخادم على أن أكون الخليلة المغرر بها لفارس ، ومن غرر بي هو الآخر ليس فارسا » . وأخيرا تقرر حبس توسيلوس إلى أن يتبين الأمر في تحوله . وهتف الكل بانتصار دون كيخوته ، لكن الكثيرين أسفوا من أعماق قلوبهم على أن هذه المعركة التي طالما انتظروها بصبر نافد لم تقع ، وأن البطلين لم يمزق كل منهما الآخر . وهكذا الأطفال لا ينبسطون حينما لا يشنق المجرم الذي ينتظرونه ، لأنه صدر عفو عنه . وعاد كل امرئ إلى بيته ، ودخل الدوق والدوقة ودون كيخوته القصر ، وحبس توسيلوس ، ورضيت السيدة رودريجث وبنتها لأن الأمر انتهى إلى الزواج ، على نحو أو آخر . ولم يكن الخادم العاشق أقل منهما اغتباطا .

الفصل السابع والخمسون

كيف ودع دون كيخوته الدوقة، وما وقع له من الوقحة الخبيثة التسيدورا، خادمة الدوقة

كان دون كيخوته يلوم نفسه في قلبه على البطالة التي استسلم لها في قصر الدوق : واعتقد أنه مذنب بالبقاء وقتا طويلا غارقا في الحفلات والملذات التي أفاضها سادة القصر عليه ، بوصفه فارسا جوالا ؛ وبدا له أنه سيكون ملزما بتقديم الحساب عن ذلك الكسل أمام الله . ولهذا طلب رسميا من الدوق أن يأذن في الرحيل . فأذن له ، وهو يعبر له عن أسفه ، وسلمت الدوقة إلى سنشو رسالة زوجته . فأخذ يبكي وهو يقول : «من كان يظن أن الآمال العظيمة التي بعثتها في نفس تريزة المسكينة أخبار حكومتي ، لن تؤدي إلا إلى العودة إلى البحث عن المغامرات مع مولاي دون كيخوته ؟ ومع ذلك فإني راض لأنها كشفت عن نفسها بإرسالها ثمار بلوط إلى السيدة الدوقة : ولو كانت لم ترسلها ، لاتهمتها بالجحود . ومن ناحية أخرى ، فإن ما يواسيني هو أنه لا يمكن تسمية هذه الهدية رشوة ، لأني كنت فعلا حاكما حينما أرسلتها ؛ وأقل الهدايا تدل علي العرفان والإقرار بالجميل . عاريا دخلت هذه الحكومة ، وعاريا خرجت منها ، وهذا قول أستطيع أن أردده باستمرار ، وأنا مستريح الضمير ، وهذا ليس بالقليل : عاريا ولدت ، وعاريا أجد نفسي ، لم أربح شيئا ولم أخسر شيئاً » .

هكذا كان سنشو يكلم نفسه يوم الرحيل . ودع دون كيخوته الدوق في العشية ، وفي الغداة الباكرة ظهر في ميدان القصر مدججا بالسلاح . وكانت المقاصير مملوءة بالناس لمشاهدته وهو يرحل ، وجاء الدوق بنفسه .

وكان سنشو على حماره ، ومعه خرجه وحقيبته ؛ وبدا عليه الفرح ، لأن ناظر قصر الدوق ، الذي لعب دور الكونتيسة تريفالدي ، أعطاه كيسا فيه مائة اسكودو من الذهب ، للانفاق منها في أثناء السفر ، وكان دون كيخوته يجهل هذا . وبينما تدافع الكل حواليهما ، رفعت التسيدورا الوقحة الخبيثة صوتها ، وبصوت نائح قالت :

« أصغ ، أيها الفارس القاسي ، وأمسك بعنان فرسك ، ولا تدفع جوانب دابتك الجامحة .

« أنت تعلم ، أيها الغدار ، أنك لا تهرب من حية متوحشة ، بل من خروفة ليست نعجة بعد ، فهيهات أن تكونها .

« لقد غررت ، أيها الوحش الرهيب ، بأجمل فتاة شاهدتها ديانا (القمر) على سفوح الجبال وفينوس في الغابات .

« أي بيرينو القاسي ، أي اينيوس الهارب ، ليصحبك برأبا[1] ، ويحدث ما يحدث .

« إنك تحمل ، ويا له من اختطاف فاجر ، بين مخالبك حشايا عاشقة رقيقة متواضعة .

« إنك تحمل ثلاث قبعات وربطات سيقان تساوي أصفى المرمر انصقالا ، وبياضا ، وعروقاً زرقاً .

« إنك تحمل ألفي زهرة ، لهيبها يمكن أن يحرق ألفي طروادة ، لو وجدت ألفان منها .

« أي بيينو القاسي ، أي اينيوس الهارب ليصحبك برأبا ويحدث ما حدث .

« ولتكن أحشاء سائسك سنشو صلبة لا تشعر ، ولا تخرجن دلثنيا من انسحارها .

« ولتحمل البائسة وزر غلطتها ، لأنه في وطني العادلون يدفعون أحيانا ثمن جرائم الخاطئين .

« ولتتحول أجمل مغامراتك إلى مصائب ، ولذاتك إلى أحلام ، وإخلاصك إلى نسيان .

« أي بيرينو القاسي ، أي اينيوس الهارب ، ليصحبك برأبا ويحدث ما يحدث .

« وليعدوك غادرا ، من أشبيلية إلى مرشانة ، ومن غرناطة إلى لوشه ، ومن لندن إلى انجلتره .

« وإذا لعبت بالورق ، فلتهرب منك الملوك ولا تر أبدا الآس ولا السبعة .

« وإذا قطعت الأبواق ، فليخرج منك الدم ، ولتبق الجذور في فمك إذا حلفت أسنانك .

« أي بيرينو القاسي ، أي اينيوس الهارب ، ليصحبك برأبا ، وليحدث ما يحدث » .

وبينما كانت التسيدورا النائحة تتشكى على هذا النحو ، كان دون كيخوته يتأملها

---

(١) برأبا : رجل من اليهود « كان قد ألقي في السجن لاجل فتنة حدثت في المدينة » (إنجيل لوقا ، الفصل ٢٣ ، الجملة ١٩) وقد طالب اليهود من بيلاطس أن يعفو عنه ، وأن يصلب المسيح . ورغم تكرار بيلاطس أن المسيح بري، ، اضطر أن يستجيب لطلب اليهود ، وأن يفرج عن برأبا ، ويأمر بصلب المسيح .

وأصبح برأبا يستخدم في اللغات الأوربية للدلالة على شخص كريه متوحش الطلعة شرير .

دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم تلفت إلى سائسه وقال : «يا صاحبي! أستحلفك ، بحياة أجدادك ، أن تعترف لي هل أخذت القبعات الثلاث وربطات السيقان التي تطالب بها هذه الآنسة العاشقة» ؟ فقال سنشو : «نعم ، القبعات ها هي ذي ، أما ربطات السيقان فلا[1]» .

ودهشت الدوقة من وقاحة التسيدورا : لأنها ، وإن كانت تعرف أنها تحب المزاح والعبث ، فإنها لم تستبح مثل هذه الحريات ، ثم إنها لم تخبر مقدما بهذه المزحة الجديدة . لكن الدوق ، وقد سرته هذه اللعبة ، أراد أن يمضي في العملية ، فقال لدون كيخوته بلهجة جادة : «سيدي الفارس ، يبدو لي غريبا ، بعد حسن اللقاء الذي نعمت به في هذا القصر ، أن تجرؤ على أخذ ثلاث قبعات على الأقل ، وربطات سيقان أيضا من إحدى السيدات ، وهذه فعلة غير جديرة برجل شريف ، خصوصا شخص له سمعتك اللامعة . أعد ربطات الساق فورا ، وإلا تحديتك أنا ، لمبارزة عنيفة ، دون أن أخشى أن يحول السحرة الأشرار وجهي ، كما فعلوا مع خادمي توسيلوس الذي تقدم لمبارزتك»... فأجاب دون كيخوته : «لا قدر الله ، أن أسحب السيف على شخصك العظيم جدا ، الذي منحني كل هذه الأفضال وعاملني معاملة حسنة . سأعيد القبعات ، لأن سنشو يقول إنها معه ، أما ربطات السيقان فهذا مستحيل ، لأنها ليست معه ولا معي ، فلتفتش هذه الآنسة حقائبه ، وهي ستجدها قطعا . سيدي الدوق! إنني لست لصا أبدا ، ولم أكن كذلك أبدا ، ولا أفكر أبدا أن أكونه طالما كان الله يعينني ، إن هذه الآنسة تتكلم كفتاة والهة ، وهي نفسها تصرح بذلك ، ولا أستطيع أن أفعل لها شيئا ، ولست مضطرا أبدا إلى طلب المغفرة منها ، ولا من سعادتك ، وأرجوك أن تحسن الظن بي ، وأن تأذن لي مرة أخرى في الرحيل ، لأتابع طريقي» .

فقالت الدوقة : وفقك الله إلى سواء السبيل ، ونرجو أن نتلقى دائما أنباء سارة عن مغامراتك . امض ، يا سيد دون كيخوته ، في رعاية الله ، لأن بقاءك هنا لن يفعل أكثر من أن يزيد في وجدان هؤلاء الأوانس اللواتي يتأملنك . أما هذه ـ وأشارت إلى التسيدورا ـ فإني سأعاقبها عقابا لن تضل بعده لا في نظراتها ولا في كلماتها .

فقالت الخادمة الآثمة : لا أرجو منك غير أمنية واحدة يا مولاي ، هي أن تعفو عني لاتهامك : لأن أربطة السيقان معي على سيقاني ، إني مثل من يبحث عن حماره وهو راكبه .

---

(١) في النص حرفيا : «أما ربطات السيقان فأمرها مثل الذهاب في روابي أبذة» ـ وهذا تعبير عمن يضل في كلامه ويأتي بأقوال غير معقولة أو كاذبة أو مستحيلة .

فصاح سنشو : ألم أقل لكم ؟ وهل يمكن أن أتهم بإخفاء أشياء مسروقة ، أنا الذي كنت أقدر على فعل الكثير من هذا لما أن كنت حاكما ؟

فانحنى دون كيخوته ، وحيا الدوق بلطف ، وكذلك الدوقة وسائر الحاضرين ، ثم أدار عنان روثينانته ، وخرج من القصر ، يتبعه سنشو راكبا على حماره ، واتخذ طريق سرقسطة .

الفصل الثامن والخمسون

كيف انهمرت المغامرات على دون كيخوته بحيث لم تترك له فراغاً

لما أصبح دون كيخوته في العراء ، وتخلص من مضايقات التسيدورا أحس بأنه استرد نفسه ، وشعر بتجدد قواه وحماسته ، وقال لسنشو ، وقد تلفت إليه :

ـ يا صاحبي ، إن أثمن ما منحته السماء للإنسان من نعم هو الحرية لا ريب في ذلك ؛ وكل الكنوز التي تنطوي عليها الأرض أو التي دفنت في البحار لا يمكن أن تساويها . ومن أجلها ، ومن أجل الشرف ينبغي أن نخاطر بالحياة . وضد الحرية ، وهو العبودية الخانعة ، هي أكبر الشرور . لقد شهدت ما كان في ذلك القصر من رخاء وثراء ووفرة ، والحفلات الفاخرة التي كانت تقام ؛ لكنني أحسست ، في وسط هذه الأطايب من الطعام الفاخر ، ومن الشراب المنعش الممتاز ، أنني خاضع لقلق الجوع ، لأني لم أنعم بكل هذه النعم بالحرية نفسها التي كانت ستكون لي لو أن كل هذه الألطاف كانت ملكي . والعرفان بالجميل عن النعم التي تلقيناها رباط يقيدنا ويمنعنا من أن نكون أحرارا . ما أسعد من منحته السماء كسرة من الخبز ، دون أن يضطر إلى الاعتراف لأحد بجميل عليه غير الله تعالى .

فقال سنشو : ومع هذا كله ، أليس من الملائم أن نكون عارفين بشيء من الجميل بسبب المائتي اسكودو من الذهب التي أعطاني إياها ناظر القصر في كيس ، وأحملها على قلبي ، كبلسم ممتاز ضد كل الأحداث التي قد تعرض لنا ؟ إننا لن نصادف دائما قصورا ترحب بنا ؛ بل يجوز أن نمر بفنادق نعامل فيها أسوأ معاملة .

وأثناء هذا الحديث كان المولى والسائس يسيران . وبعد قرابة فرسخ أبصرا اثنى عشر شخصا تقريبا ، بزي الفلاحين ، يأكلون على العشب ، وهم جالسون على أرديتهم . وأمامهم مدت مفارش بيض كبيرة بدا أنها تغطي شيئا . فاقترب دون كيخوته منهم ، وحياهم بأدب ، وسألهم عما تحت هذه المفارش . فأجاب أحدهم : «سيدي ، هذه صور بارزة من

أجل تشييد مذبح مزين في قريتنا : وقد غطيناها حتى لا تتسخ ، ونحملها على أكتافنا خوفا من أن تنكسر » . فقال دون كيخوته : « أن سمحتم ، فإني أود أن أراها : هذه الصور التي تغطى بكل هذه العناية لا بد أنها جميلة » فقال أحد هؤلاء الرجال« جميلة ، كيف ؟ تستطيع أن تحكم عليها من ثمنها . ليس من بينها واحدة لم تكلف خمسين دوقية ، لكن حتى تحكم بعينيك ، هأنذا أريك إياها » . ووقف وكشف عن الصورة الأولى ، وكانت تمثل القديس جورج (مار جرجس) راكبا فرسا ، وهو يطأ الشيطان على هيئة ثعبان ، ويشقه برمحه ، مع التعبير عن الغضبة المألوفة في صوره . وكانت هذه الصورة رائعة اللمعان . فقال دون كيخوته : « هذا المحارب كان من أشجع الفرسان الجوالة في الجيش السماوي ، والمدافع عن الفتيات وكان يسمى القديس جورج (مار جرجس) ، فلننتقل إلى الثانية » . وكانت صورة القديس مرتينوس (مارتان) ، راكبا فرسا هو الآخر ، وهو يعطي نصف ردائه لأحد الفقراء . فقال دون كيخوته : « هذا الفارس كان من بين النصارى ، وأعتقد أنه كان محسنا أكثر منه شجاعا ، كما تستطيع أن تحكم يا سنشو وأنت تراه يقتسم رداءه مع أحد الفقراء : كان ذلك في الشتاء من غير شك ، وإلا لكان قد أعطاه الرداء كله » . فأجاب سنشو : « أشك في ذلك ، ولا بد أنه سيتذكر المثل الذي يقول : لتعطي وتمسك لا بد من مخ جيد » . فتبسم دون كيخوته وأمر برفع المفرش الثالث ، وكان يغطي ولي أسبانيا راكبا فرسا ، والسيف مسلول ، والدماء تسيل عليه ، وهو يدوس على المغاربة . فقال دون كيخوته : « إن هذا الفارس كان أحد المدافعين عن الصليب ، وكان اسمه القديس يعقوب متمورس ، وكان من أشجع جيش السماء » . وتحت المفرش التالي كان القديس بولس وقد انقلب عن فرسه ، مع كل التفاصيل المتعلقة بتحوله إلى المسيحية : وكان مرسوما بإتقان ، حتى ليقال إن يسوع المسيح كان يكلمه وهو يجيب عنه . فقال دون كيخوته : « لقد كان هذا من ألد أعداء كنيسة الله ، ثم صار بعد ذلك من أشد المدافعين عنها حماسة وغيرة ، كان فارسا جوالا في حياته ، وقديسا راسخا في موته ، وعاملا لا يكل في كروم الرب ، عالم الوثنيين ، مدرسته السماء ، وأستاذه ومعلمه هو يسوع المسيح نفسه » .

وانتهت الصور . وأعاد دون كيخوته تغطيتها ، وقال للفلاحين : « إني مبسوط جدا لمشاهدة هذه الصور ، يا إخواني ، لأن هؤلاء القديسين كانوا يمارسون المهنة نفسها التي أمارسها ، وهي مهنة السلاح ، وكل الفارق بينهم وبيني هو أنهم كانوا قديسين ، وقاتلوا وفقا للشرائع الإلهية بينما أنا خاطئ وأقاتل على طريقة بني آدم . لقد غزوا السماء بفضل قوة سواعدهم : لأن السماء هي الأخرى تحتمل العنف ، أما أنا فلست أدري ماذا غزوت حتى

الآن ، بفضل أعمالي . لكن لو كانت دلثنيا دل توبوسو قد تخلصت من العذاب الذي تعانيه ، لانصلح حالي ، وتقوت روحي ، واستطعت أن أسلك سبيلا أفضل من ذلك الذي سلكته حتى الآن » . فقال سنشو : « سمع الله منك ، وأخرس الخطيئة! » .

فنظر الفلاحون إلى دون كيخوته باندهاش ، متعجبين من شكله ، ومن أقواله أكثر من شكله ، إذ لم يفهموا نصفها . وفرغوا من طعامهم واحتملوا صورهم ، وودعوا الفارس ، وتابعوا طريقهم . أما سنشو فبقي حائرا ، وكأنه لم يعرف مولاه أبدا ، إذ أدهشه علمه العميق ، إذ بدا له أنه لا يوجد في العالم تاريخ ولا مغامرة لا يعرفها دون كيخوته ولم ترسخ في ذاكرته . وقال له : « آه يا مولاي! إذا كان ما وقع لنا الآن يمكن أن يسمى مغامرة ، فالحق أنها من أمتع وأعذب ما لاقيناه أثناء رحلاتنا ، لقد خرجنا منها بغير خوف ولا ضربات عصي ، ولم نمسك شيئا ، ولم تمس أجسامنا الأرض مساً ، ولم نشعر بأي جوع . الحمد لله الذي أراني بعيني كل هذه الأمور! » فقال دون كيخوته : « أنت على حق يا سنشو ، وأنت تعلم جيدا أن الأزمنة ليست كلها من نوع واحد ، وأن الأيام تتوالى ولكنها لا تتشابه . وما يسميه العام باسم الفأل ، والطيرة ، وهو أمر لا يقوم على النظام الطبيعي للأشياء ، لا ينبغي أن يعده العاقل الحكيم إلا صدفة سعيدة وحسن اتفاق . وأحد هؤلاء الكهان المزعومين خرج يوما في وقت مبكر من بيته ، فلقي راهبا من طريقة القديس فرنشسكو الطوباوي ، فأدار كتفيه وعاد إلى بيته ، وكأنه لقي تنينا . ورجل آخر قلب الملاحة في مائدته ، فاكتأب لهذا جدا : وكأن الطبيعة ملزمة بأن تنبهنا إلى مصائبنا المقبلة ، وكأن مثل هذه الأحداث القليلة الأهمية يمكن أن تعد نذرا . والرجل الحكيم التقي ينبغي عليه ألا يبحث أبدا للنفوذ في أسرار السماء . جاء شبيون إلى أفريقيا ، وسقط حين أراد أن ينزل عن ركوبته ، فعد جنوده هذا الحدث نذير شؤم ، لكنه مد ذراعيه كأنه يريد أن يعانق الأرض وقال : « إيه يا أفريقيا! لن تفلتي من قبضتي ، فإني ممسك بك بين ذراعي . وهكذا يا سنشو ، التفاؤنا بهذه الصور يعدنا بحظ سعيد جدا » . فأجاب سنشو : « وأنا أعتقد مثلك يا مولاي ، ولكني أريد منك أن تخبرني لماذا ـ حين يريد الأسبان أن يخوضوا معركة ، ويدعون القديس يعقوب متموريس ـ فإنهم يصيحون : شنت يعقوب وأغلق اسبانيا[1]! هل أسبانيا مفتوحة بحيث تحتاج إلى أن تغلق ؟ أو ما المقصود بهذه العبارة ؟ » . فقال دون كيخوته : « كم أنت ساذج يا سنشو! ألا تعلم أن الله قد جعل ولي اسبانيا

---

(١) معنى هذه العبارة هو : يا قديس يعقوب أغلق أسبانيا دون الأعداء ، إجعلها حصينة لا ينفذ فيها عدو .
ولكن دون كيخوته لا يجيب عن سؤال سنشو عن القسم الأخير من العبارة : « وأغلق اسبانيا » .

وشفيعها وحاميها هو شنت يعقوب متمورس ، ذلك الفارس الكبير ذو الصليب القرمزي ، خصوصا في الحروب الطاحنة التي خضناها ضد المسلمين . نحن نناديه ، ونهيب به ، وندعوه بوصفه حامينا ، في كل المعارك التي نخوضها ، وقد شوهد مرارا والسيف في يده يهاجم وينقض ويشتت جيوش المسلمين . وأستطيع أن أذكر لك كثيرا من الأمثلة التي أوردها أصدق تواريخنا » .

فغيّر سنشو مجرى الحديث ، وقال لمولاه : « الحق لا أني أستطيع أن أنسى وقاحة التسيدورا هذه ، خادمة الدوقة : لا بد أن ما يسمونه « الحب » قد جرحها جرحا بالغا . إن هذا العفريت ، وإن كان أعمى ، فإنه يتخذ من القلوب أهدافا ، ولا يخطئ واحدا منها مهما كان صغيرا ، وينفذ فيه بسهامه . ولقد سمعت أن هذه السهام تنثلم إذا اصطدمت بالحكمة والعفة عند الفتيات ، لكنها بالنسبة إلى التسيدورا كأنها تشحذ وتزداد حدة .

فقال دون كيخوته : يا صاحبي إن الحب لا يعتدل أبدا في أفعاله ولا في أقواله . إنه كالموت ، يصيب قصور الملوك الشامخة وسقوف الرعاة الواطئة ، وحين يستولي الحب على قلب استيلاء تاما فإن أول شيء يفعله هو أن يطرد منه الخوف والحياء ؛ ولهذا فإن التسيدورا قد كشفت عن حبها بغير حياء ، مما أثار في نفسي من الارتباك أكثر مما أثار من الرحمة .

فصاح سنشو : يا لها من قسوة بالغة ، ويا له من جحود لم يسمع بمثله! أكان عن نفسي فإني كنت سأعلن استسلامي ، وخضوعي لأول كلمة حب أسمعها من هذه المرأة . يا لقلبك الذي من المرمر! يا لأحشائك التي من البرونز! يا لنفسك التي من طين! لكني أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أفهم ماذا عسى أن يكون قد أعجب هذه الفتاة فيك وسحرها هكذا ، وأي أناقة ، وأية قوة ، وأي لطف ، وأي طلعة وضيئة لديك حتى تجعلها عاشقة لك ؟ الحق ، الحق ، أنني تأملتك مرارا عديدة ، من أعلى شعرك حتى أخمص قدميك ، فلم أجد فيك شيئا لا يثير الرعب أكثر من أن يثير الإغراء . ولما كان من العادة أن يقال إن الجمال هو أكثر الأمور إغراء واجتذابا ، فإني لا أفهم كيف تولهت الفتاة غراما بك .

فأجاب دون كيخوته : يا صاحبي! ألا تعلم أن الجمال جمالان : جمال الروح وجمال الجسم ؟ وجمال الروح يظهر في التقدير ، والأمانة ، والسلوك الحسن ، والكرم ، وجودة التربية ، وكل هذه الصفات يمكن أن توجد في رجل دميم ، فإذا كانت المرأة أكثر إحساسا بهذا الجمال ، جمال الروح ، منها بجمال الجسم ، فإن الحب يشتعل عندها أسرع وبعنف

أشد . وأنا أعلم يا سنشو أنني لست جميلا ، لكني على كل حال لست ممسوخا ، ويكفي الرجل الفاضل ألا يكون مسخا من أجل أن ترغب فيه النساء ، إذا كانت فيه صفات القلب التي حدثتك عنها .

ودخلا ، وهما يتحدثان هكذا ، في غابة تحف بالطريق ، ودون أن يتنبه اشتبك دون كيخوته في شباك خضراء ممدودة بين الأشجار . ودون أن يدري ماذا عسى هذه الشباك أن تكون ، قال لسنشو : « هذه الشباك هي من غير شك من أغرب المغامرات التي وقعت لنا . ولأمت ، إن لم يكن السحرة الذين يطاردونني قد فكروا في اصطيادي في هذه الحبائل ، لمنعي من متابعة طريقي ، انتقاما من قسوتي على التسيدورا هذه ، لكني أحذرهم أنه حتى لو كانت هذه الشباك من الماس ، وأقوى ألف مرة من تلك التي نصبها إله الحدادين الغيور (فولكان) للمريخ وفينوس ، فإني سأحطمها بسهولة كما لو كانت من اليراع البحري أو من خيوط القطن » ..وفعلا أخذ يشق طريقه ويقطع كل شيء حين شاهد راعيتين فاتنتين تخرجان من بين الأشجار ، أو في القليل سيدتين تلبسان زي راعيتين ، اللهم إلا أن صديريتيهما كانتا من الديباج (البروكار) الناضر ، وتنورتيهما من التافتاه الموشاة بالذهب . وكانت شعورهما تتماوج على كتفيهما ، وتنافس أشعة الشمس في لألائها ؛ وعلى رأسيهما إكليلان من الغار الأخضر النضر والدلاق الأحمر ؛ وبدا أن سن كلتيهما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة . فلما شاهدهما سنشو فتح عينيه واسعتين ، وبقي دون كيخوته حائرا ، وأوقفت الشمس أفراسهما ليعجبا بهما طويلا . وكان الأربعة في صمت رائع . وقطعت الصمت إحداهما وقالت لدون كيخوته : « قف ، ولا تقطع الشباك التي نصبناها لمتعتنا ، لا لإيذائك ، وكما أنك تستطيع أن تسألنا لماذا هذه الطعوم ، ومن نحن ، فإني أستطيع أن أجيب عليك بكلمات قليلة :

« في قرية ، تبعد فرسخين عن هنا ، يسكن كثير من النبلاء والأغنياء وكثيرمنهم فكروا في المجيء هم وأصدقاؤهم وأهلوهم وجيرانهم ونساؤهم وأولادهم ـ للاستمتاع والنزهة في هذا المكان ، وهو من أحسن منازه الاقليم ، وتكوين نوع من أركاديا جديدة فتلبس الأوانس ملابس الراعيات ، والشباب ملابس الرعاة . ودرسنا نشيدين رعويين ؛ أحدهما لجرثيلاسو الشهير ، والثاني هو الذي ألفه باللغة البرتغالية كمؤنس الممتاز ، لكننا لم نمثلهما بعد . وكان أمس هو أول يوم جئنا للاقامة هنا . وأمرنا بنصب خيام تحت هذه الأغصان المتشابكة ، على شاطئ جدول صاف يروي هذه المروج . وفي الليلة الماضية نصبنا هذه الشباك لاصطياد الطيور الصغيرة الواثقة التي تلاحقها وتحتوشها أصواتنا المتوالية . فإن

شئت أن تكون ضيفا علينا فعلى الرحب والسعة ، وستعامل خير معاملة ، لأنه في هذه اللحظة الحزن والملال لا يسكنان ها هنا .

فأجاب دون كيخوته : صحيح ، يا سيدتي الجميلة ، إن أكتيون لم يكن أكثر دهشة حين تراءت له ديانا في الحمام فجأة ، مني حين لقيت في هذا المكان فتاة جميلة مثلك . وإني أثني ثناء جما على فكرة استمتاعكم هكذا ، وأشكر لك عرضك الكريم . وإذا كنت أستطيع أن أخدمك ، فاعتمدي على حماستي وخضوعي وطاعتي ، لأن مهنتي هي أن أكون لطيفا ومحسنا قبل جميع الناس ، خصوصا قبل الناس ذوي المكانة مثلك ولو كانت هذه الشباك التي تشغل مكانا صغيرا ـ تغطي كل سطح الأرض لذهبت لشق طريق لي في العوالم الأخرى أفضل من أن أقطعها . وحتى تصدقي كلامي ، اعلمي أنني دون كيخوته دلا منتشا ، الذي ربما وصل اسمه إلى مسامعك .

فقالت الراعية الأخرى : أوه يا عزيزتي ، ما أعظم سعادتنا! إعلمي أن هذا السيد الذي يكلمنا هو أشجع وأعشق وأرق فارس في العالم ، إذا صدقنا تاريخ أعماله العظيمة ووقائعه المشهورة ، وهو مطبوع وقد قرأته . وإني أراهن أن هذا الرجل الساذج الذي يتبعه هو سنشو پنثا سائسه ، وأمتع شخص يمكن العثور عليه .

فقال سنشو : أنت على حق يا سيدتي ، فأنا السائس المازح الذي تتكلمين عنه ، وهذا السيد ، مولاي ، هو دون كيخوته دلا منتشا الذي يتحدث عنه التاريخ .

فقالت الأخرى : آه! لا بد أن نستحلفه أن يبقى معنا هنا فترة . وأنا متأكدة أن أهلنا سيجدون متعة بالغة في مشاهدته . ولقد سمعت ، منك المديح والثناء الجم على أدبه وشجاعته ، وقيل لي خصوصا إنه أوفى وأثبت عاشق ، وأن سيدته تدعى دلثنيا دل توبوسو ، التي منحتها أسبانيا كلها لقب ملكة الجمال .

فقال دون كيخوته : لقد نالته عن جدارة واستحقاق ، وجمالك وحده يا سيدتي ، هو الذي يمكن أن يلقي ظلا من الشك على هذا . ولكن لا تكلفوا أنفسكن مؤونة لا فائدة منها . فإن الواجبات الدقيقة لمهنتي لا تسمح لي بالراحة في أي مكان .

وفي هذه اللحظة وصل أخو إحدى الراعيتين ، لابسا زي راع ، ولكن بوفرة وسراوة . وقالتا له إن الفارس الذي يراه أمامه هو المغوار دون كيخوته دلا منتشا ومعه سائسه سنشو پنثا ، وهو يعرفهما جيدا لأنه قرأ تاريخهما . فدعا الراعي الكريم دون كيخوته إلى المجيء إلى خيامهم فلم يستطع هذا أن يرفض . وفي الوقت نفسه تمت المطاردة بصيحات قوية فامتلأ الشباك بالطيور ، التي انخدعت بألوانها فسقطت في الخطر الذي ظنت أنها تجنبته .

فهرع أكثر من ثلاثين شخصا ، وكلهم يرتدون أزياء الرعاة والراعيات على أنحاء مختلفة . وعرفوا في الحال أن هذا هو دون كيخوته وسانسه سنشو ، ففرحوا فرحا عظيما ، لأنهم عرفوا قصته . وتحت الخيام وجدت الموائد منصوبة والطعام عليها بنظافة وأناقة . وأعطي دون كيخوته مكان الشرف . وكانت كل العيون مسلطة عليه ، كلهم أعجبوا بشخصه . ولما فرغوا من الطعام ، رفع دون كيخوته صوته بلهجة جادة ، وخطب في الجماعة هذه الخطبة :

« بين مختلف الذنوب التي يرتكبها البشر ، بعض الناس ، يا سادة ، يرون أن الكبرياء هو أعظمها . أما أنا فأرى أنه نكران الجميل ، وإني أستند في هذا إلى ما يقال عادة من أن النار مأهولة بالجاحدين . ومنذ أن بلغت سن الرشد ، بذلت كل جهودي من أجل تجنب هذه الخطيئة . وإذا لم أستطع أن أرد على الجميل بمثله ، فإني أستعيض عن ذلك بحسن النية وإرادة الخير على الأقل ؛ فإن لم تجزئ ، نشرت ذكر النعم التي لقيتها ، لأن إذاعتها تنطوي على الاعتراف بها والرغبة في الرد عليها إن أمكن . ومن يتلق أدنى ممن يعطي[1] . ولهذا كان اللّه فوق الجميع لأنه هو المعطي بالمعنى الكامل ، وعطايا الناس لا تداني عطاياه . وهكذا فإن الاعتراف بالجميل يعوض بعض الشيء عن عجز الوسائل ، وأما عن نفسي فإني لما كنت لا أستطيع أن أعوضكم ، العوض المكافئ ، عن حسن استقبالكم لي ، فأنا لم أحصر نفسي بين الحدود الضيقة لملكاتي الضيقة ، وأقدم إليكم ما أستطيع وما أملك . وهو أنه طوال يومين كاملين سأقف وسط الطريق العام الذي يؤدي إلى سرقسطة ، وأقرر ضد كل قادم أن السيدات الحاضرات هنا اللابسات ملابس الراعيات ، هن أجمل سيدات الدنيا وأكثرهن أدبا ، باستثناء المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو وحدها سيدة أفكاري الوحيدة ، ولا يتضايقن أحد من عباراتي » .

فصاح سنشو ، وكان قد أصغى إليه بانتباه : « هل من الممكن أن يوجد أشخاص في العالم يقررون ، ويحلفون أن مولاي مجنون ؟ أخبروني أي سادتي الرعاة ، هل يوجد قسيس قرية ، مهما يكن علمه وحكمته يستطيع أن يتكلم مثله ؛ وهل يوجد فارس جوال ، مهما تكن بسالته ، يعرض عليكم ما يعرضه مولاي عليكم ؟ » .

فاستشاط دون كيخوته غضبا ، وتلفت ناحية سنشو وقال له : « هل من الممكن يا سنشو أن يوجد أشخاص في العالم يقولون إنك لست أحمق خبيثا ؟ من كلفك بالتدخل في شئوني ، والتحقيق في هل أنا عاقل أو مجنون ؟ اخرس ، ولا ترد علي ؛ واذهب لشد السرج

---

(١) مثل الحديث النبوي المشهور « اليد العليا خير من اليد السفلى .

على روثينانته إن لم يكن مسرجا ، حتى أمضي لتنفيذ العرض الذي عرضته منذ قليل . ولما كان الحق في جانبي ، فإنك تستطيع أن تعهد مهزومين مقدماً أولئك الذين يريدون أن يناقضوني في هذا » .

ونهض واقفا مهتاجا ، وترك الحاضرين مشدوهين ، لا يدرون هل يعدونه عاقلا أو مجنونا . واستحلفوه ألا يشق على نفسه هكذا ، وأضافوا أنهم واثقون من سلامة طويته ، وأنهم ليسوا في حاجة إلى شواهد جديدة على بسالته ، بعد تلك التي قرأوها في تاريخ أعماله المجيدة . وعلى الرغم من توسلاتهم ، فقد أصر على تنفيذ عزمه ، ووثب على روثينانته ، ولبس ترسه البيضاوي ، وأشرع رمحه ، ووقف في وسط الطريق العام ، ولم يكن بعيدا عن المروج . وتبعه سنشو على حماره ، وكذلك سائر جماعة الرعاة ، وهم متلهفون لمعرفة مصير تحديه المتعاظم المتكبر الذي لم يسمع بمثله . وضرب فارس الأسود الهواء بهذه الكلمات الرائعة :

ـ أنتم جميعا ، أيها المسافرون والفرسان والسواس ، والخيالة ، والمشاة ، يا من تمرون أو عليكم أن تمروا من هذا الطريق في خلال يومين اعلموا أن دون كيخوته دلا منتشا ، الفارس الجوال ، واقف ها هنا ليقرر للجميع وضد الجميع ، أن كل جمال وأدب في العالم لا بد أن يتضاءل أمام جمال وأدب هؤلاء الحوريات الساكنات هذه الخمائل والمروج ، باستثناء دلثنيا دلا توبوسو وحدها ، سيدة روحي . ومن يرد أن يقرر العكس ، فليقترب ، فإني هنا في انتظاره .» ـ وكرر دون كيخوته التحدي نفسه مرتين ، ومرتين ردد الصدى وحده صوته وأجاب عليه . ..

لكن يشاء الحظ ، الذي يواتي مقاصده ، أن يأتي على الطريق عدد كبير من الناس الراكبين الخيل ، وكانت كثرتهم مسلحين بالرماح . وكانوا يسيرون في جماعة وبسرعة . ولما شاهدهم الرعاة أداروا أكتافهم وابتعدوا خوفا من أن ينالهم شر إذا بقوا . لكن دون كيخوته بقي وحده ثابتا على قربوس فرسه بشجاعة جريئة ، وتحصن سنشو بمؤخرة روثينانته واقترب الرجال ذوو الرماح ، وصاح من كان في مقدمتهم ـ صاح في دون كيخوته : «ابتعد إذن عن الطريق ، يا رجل الشيطان ، وإلا مزقتك هذه الثيران اربا اربا .» ـ فأجابه دون كيخوته : «ماذا تقصد ، أيها الوغد ؟ لا توجد ثيران تخيفني ، حتى لو كانت أفظع الثيران التي يغذيها نهر خرما على شطآنه . واعترفوا جميعا ، أيها اللصوص قطاع الطرق ، أن ما أعلنته صحيح ، وإلا فتهيأوا للقتال .» ولم يكن عند راعي البقر الوقت الكافي للرد ، ولا عند دون كيخوته للانحراف حتى لو أراد . وكل قطيع الثيران السائقة والغاضبة ،

ورعاة الثيران وسائر من معهم الذين كانوا يقتادون الثيران للمصارعةفي المدينة ، هؤلاء جميعا مروا على جسم دون كيخوته وروينانته والحمار وسنشو معه ، وتركوهم مجندلين على الأرض . كان سنشو مطحونا ، ودون كيخوته مذهولا ، والحمار مرضوضا ، وروثينانته في أسوأ حال ، وأخيرا نهض الأربعة . وكان دون كيخوته يعرج ويترنح ذات اليمين وذات الشمال ، وأراد الركض وراء رعاة الثيران ، وصاح فيهم «انتظروا يا أوغاد ، إن فارسا واحدا يتحداكم إنه ليس من أولئك الذين يقولون للعدو الهارب اصنع جسرا من الفضة .» ولكن رعاة الثيران لم يتوقفوا ، ولم يحفلوا بتهديداته إلا احتالهم بغيوم العام الماضي . فجلس دون كيخوته في وسط الطريق ، محطما مطحونا ، غاضبا ، منتظرا سنشو وروثينانته والحمار . وركب كل منهما على دابة ، ودون أن يتلفتا إلى الخلف لتوديع رعاة أركاديا المزعومين ، تابعا طريقهما ، مسربلين بالعار غير راضيين .

الفصل التاسع والخمسون

اللقاء العجيب، الذي يمكن أن يعد مغامرة وقعت لدون كيخوته

وجاءت في أوانها نافورة صافية وجداها في خميلة خضراء ليشربا منها وينظفا التراب الذي ألقاه عليهما الثيران . فجلسا بالقرب منها ، وأطلقا الحرية للحمار وروثينانته . ولجأ سنشو إلى الزاد الذي في خرجه ، واستخلص منه ما اعتاد أكله مع الخبز . ومسح فمه ؛ وغسل دون كيخوته وجهه ؛ وهذا الانتعاش جدد نشاط نفسيهما المتعبتين . ولم يأكل دون كيخوته ، لأنه كان حزينا ؛ ولم يجرؤ سنشو ، أمانة منه ، أن يمس ما كان أمامه منتظرا أن يبدأ مولاه . لكنه لما رآه مستغرقا في أفكاره لا يفكر أبدا في طعام ، خلع حياءه ، وبدأ يلتهم في أحشائه الخبز والجبن اللذين كانا معه . فقال له مولاه : « كل يا سنشو ، واسند حياة أعز عليك مما هي علي ، ودعني أمت من أحزاني وغمومي . لقد ولدت لأعيش وأنا أموت ، وأنت لتموت وأنت تأكل ، ولأبرهن على صدق ما أقوله لك ، تأمل مولاك مطبوعا في التواريخ ، شهيدا في السلاح ، مصقولا في أفعاله ، يحترمه الأمراء ، ويهواه الأوانس ، وحين كنت لا أتوقع غير الجوائز والتيجان والانتصارات ، رأيتني في هذا الصباح أداس بالأقدام ، وأحطم وأطحن بواسطة حيوانات خسيسة . وهذه الفكرة تجمد أسناني ، وتشل فكي وتغل يدي وتنتزع مني كل شهية للطعام ، حتى إني قررت أن أترك نفسي أموت جوعا ، وهو أقسى أنواع الموت» .

فقال سنشو ، وهو لا يكف عن المضغ : أنت إذن لا توافق على المثل الذي يقول : لتمت مرتا بشرط أن تكون شبعى . أما أنا فلا أريد أن أموت مثلك ، بل أريد أن أفعل مثل الاسكافي ، الذي يجر الجلد بأسنانه حتى يأتي به إلى حيث يريد . وأنا سأجر حياتي وأنا آكل حتى تصل إلى النهاية التي قدرها لها الله . صدقني يا مولاي ، أنه لا يوجد جنون أكبر من اليأس الذي أنت فيه . كل قليلا ، ثم نم على الحشايا الخضر التي يمثلها هذا العشب النضير . وسترى حين تستيقظ أن مزاجك سيعتدل .

فوافق دون كيخوته ، مقتنعا بأن حجج سنشو صدرت عن حكيم لا عن مجنون . ثم قال له : «يا عزيزي سنشو ، إذا أردت أن تصنع من أجلي ما أقوله لك ، فإنك ستخفف آلامي ومتاعبي . وهو أنه بينما أنام أنا ، تبتعد أنت قليلا ، وتعرّض أردافك للهواء ، وتضرب نفسك بلجام روثينانته ، ثلثمائة أو أربعمائة ضربة خصما من حساب الثلاثة آلاف ضربة وكسر التي يجب عليك أن تضرب نفسك بها من أجل رفع السحر عن دلثنيا . أليس مما يثير الشجن أن تظل هذه الفتاة المسكينة مسحورة كل هذا الوقت الطويل بسبب إهمالك ؟! .

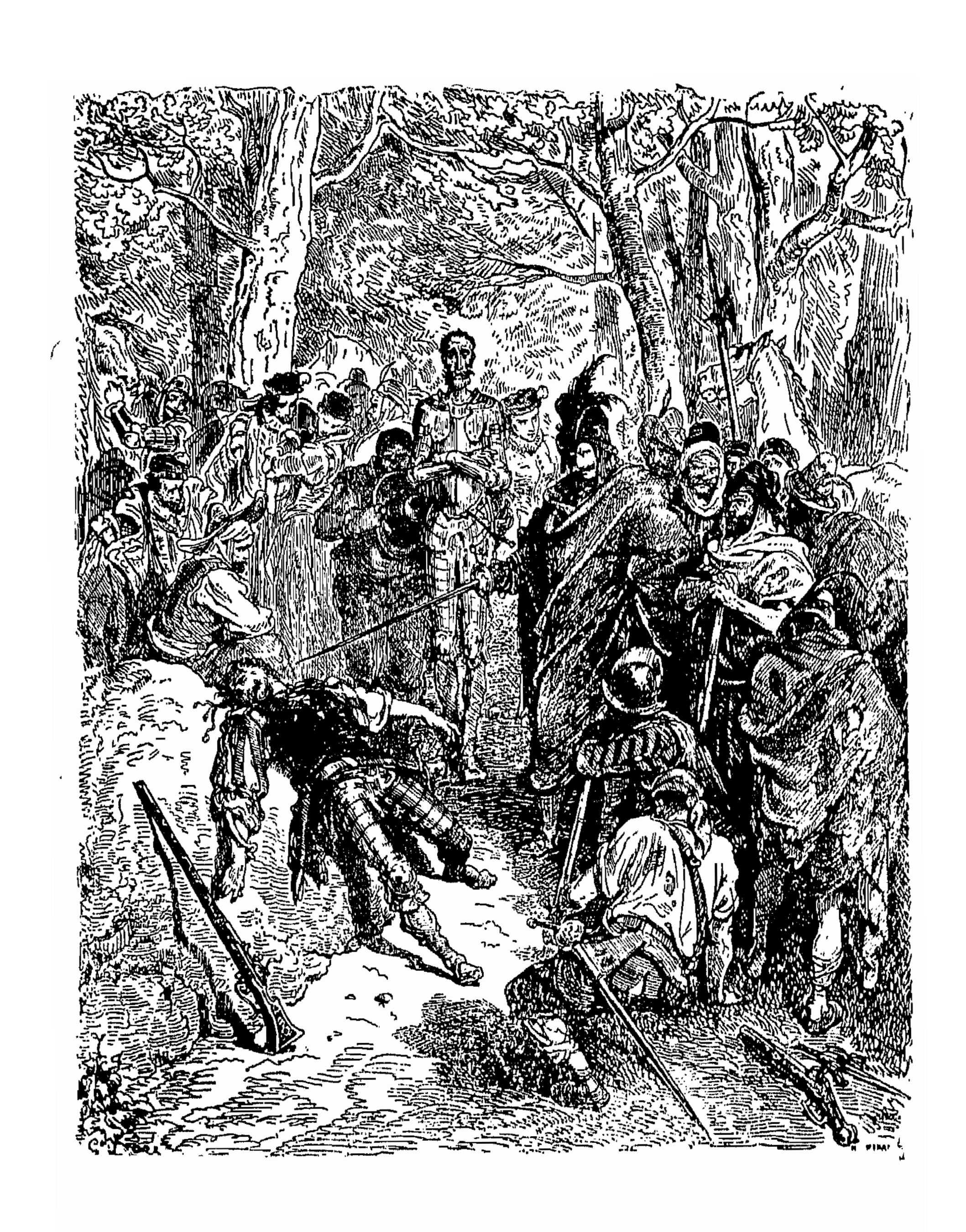
فأجاب سنشو : «هذه مسألة فيها نظر كثير ، يا مولاي ، لننم الآن قليلا والله بعد هذا يصنع الباقي . وإني أعترف لك بأنه من القسوة أن تجلد شخصا وأنت ساكن الإحساس ، خصوصا إذا نزلت الضربات على جسم قليل الشبع سيئ الغذاء . فلتصبر السيدة دلثنيا . وفي الوقت الذي يكون الأمربعيدا جدا عن فكرها ، ستراني والضربات تنهمر علي كالأمطار حتى الموت يكون المرء في قيد الحياة . أقصد أنني أريد بإخلاص أن أنفذ ما وعدت به» . فشكر له دون كيخوته ، وأكل قليلا ، وأكل سنشو كثيرا ثم ناما ، تاركين صاحبيهما ورفيقيهما الدائمين ، روثينانته والحمار يرعيان بحرية في هذه المروج المخضوضرة .

ثم أفاقا بعد حين ، وركبا دابتيهما وتابعا طريقهما ، وأسرعا للوصول إلى فندق يبعد قرابة فرسخ . وأسميته فندقا لأن دون كيخوته نفسه سماه كذلك وهو الذي اعتاد أن يسمي كل الفنادق قصورا . ووصلا أخيرا ، وسألا صاحب الفندق هل يستطيعان المبيت . فأجاب : «بكل ارتياح وراحة وستعاملان كما في أفخر فنادق سرقسطة» . فنزلا عن دابتيهما ، ووضع سنشو حقيبته في غرفة أعطاه صاحب الفندق مفتاحها ، ثم اقتاد الدابتين إلى الاسطبل ، وضمرهما ، ثم عاد ليرى هل مولاه في حاجة إلى شيء ، وهو راض لأن مولاه لم يظن الفندق قصرا . فوجده جالسا على دكة من الحجر . وجاءت ساعة العشاء ، فصعدا إلى غرفتهما . وسأل سنشو صاحب الفندق عما لديه من طعام . فأجاب : كل ما تريد ، فأنت هنا حيث تجد ما تشتهي . اطلب ما تريد : كل طيور السماء ، وأسماك البحر ، والحيوانات البرية توجد في بيتي هذا .

فقال سنشو : لسنا في حاجة إلى كل هذه الأشياء ، بل يكفينا زوج من الفروج المحمر ، إن مولاي رقيق المعدة ، يأكل قليلا ، وأنا لست شرها .

فقال صاحب الفندق : ليس عندي فروج لأن الحدأة أهلكتها كلها .

ـ إذن آتنا بدجاجة ، ولكن رقيقة اللحم .



روك يفلق رأس أحد أفراد عصابته

ـ دجاجة ، يا أخي لقد أرسلت خمسين دجاجة بالأمس لبيعها في السوق ، لكن فيما عدا هذا ، أطلب ما تريد .

ـ على الأقل لن تعدم لحم العجل أو الماعز ؟

ـ ليس عندي منه الآن ، لأنه انتهى ، وفي الأسبوع القادم سيكون عندي منه .

ـ يا للّه! أراهن أن كل هذا الاستعراض للزاد سيختصر إلى الشحم والبيض .

ـ أحسنت الادراك ، يا ضيفنا ، لقد قلت لك إنني ليس عندي فروج ولا دجاج ، وها أنت تطلب مني بيضا . فلندع الدجاج جانبا ، واطلب أطايب أخرى .

ـ بحق اللّه لننته من هذا الموضوع ، وخبرني بكل بساطة ماذا عندك ؟ .

ـ سيدي الضيف! ما عندي حقا وفعلا هو أكارع بقرة يمكن أن تعدها أكارع عجلة أو إذا فضلت هي أكارع عجلة ويمكن أن تعدها كوارع بقرة ، وقد طبخت مع بازلاء وبصل وشحم خنزير ، ومن مجرد رؤيتها تشتهي أكلها .

ـ احجزها لي ، ولا يمسها أحد ، وسأدفع فيها أكثر من غيري ، ولا شيء أشهى عندي منها ، ولا يهمني إن كانت من عجلة أو بقرة .

ـ لن يمسها أحد يا سيدي ، لأن سائر النزلاء عندي من ذوي المكانة ، وعند كل منهم طباخه ، ورئيس الطهاة وموظفوه .

ـ أما عن المكانة فلا مكانة أرفع من مكانة مولاي . لكن مهنته لا تسمح له بأن يكون له خادم غرفة ولا رئيس طهاة ، فنحن نبيت في وسط البراري ، وهناك نأكل الزعرور أو ثمار البلوط .

تلك كانت المناقشة التي جرت بين صاحب الفندق وسنشو الذي لم يرد الاستمرار فيها ، ولا أن يجيب على سؤال الآخر الذي سأله عن مهنة مولاه . وكانت الساعة ساعة العشاء ، وحمل صاحب الفندق إلى غرفة دون كيخوته الأكارع كما وجدها ، وأخذ الفارس في تناول طعامه .

لكن دون كيخوته سمع في الغرفة المجاورة ، التي لا يفصلها عن غرفته غير حاجز رفيع ، من يقول : « بحياتك يا دون خيرونيمو ، لتقرأ إذن فصلا آخر من القسم الثاني من دون كيخوته دلا منتشا » .

ولم يكد دون كيخوته يسمع من ينطق باسمه ، حتى نهض وأرعى سمعه وانتباهه لما يقال عنه . نسمع دون خيرونيمو هذا يقول : « لماذا تريد ، يا سيدي دون خوان ، أن تقرأ هذه الترهات ؟ كل من قرأ القسم الأول من تاريخ دون كيخوته دلا منتشا لا يمكن أن يجد

أية متعة في قراءة هذا القسم الثاني» . فقال دون خوان : «ومع ذلك فنحن نحسن صنعا بقراءته ، لا يوجد كتاب رديء لا يحتوي على بعض الخير . إن أكثر ما ينفرني في هذا الكتاب ، هوأن يصور دون كيخوته وقد برئ من حبه لدلثنيا دل توبوسو[١]» .

فلما سمع هذا دون كيخوته ، صاح غاضبا محنقا : «من يزعم أن دون كيخوته دلا منتشا قد نسي أو يمكن أن ينسى دلثنيا دل توبوسو أخبره ، بسلاح متكافئ ، أنه كاذب وبعيد من قول الحق ، لأن دلثنيا دل توبوسو لا يمكن أن تنسى ، ولا دون كيخوته قادر على النسيان . إن شعاره هو الثبات ، وأمنيته هي أن يظل مخلصا ، دون أن يتحمل أي إكراه» .

فسأل من في الغرفة الأخرى : «من يرد علينا ؟» .

فأجاب سنشو :ومن عسى أن يكون ، غير دون كيخوته دلا منتشا بشخصه ، وهو مستعد أن يدافع عما يقول ، وأيضا عن كل ما سيقول ؟ لأن الذي يدفع جيدا لا يندم على إعطاء رهون . ولم يكد سنشو يتم كلامه ، حتى فتح سيدان مهذبان ، تدل على ذلك ملامحهما ـ باب الغرفة ، وأمسك أحدهما بخناق دون كيخوته وقال له : «مظهرك لا يمكن أن يكذب اسمك ، واسمك لا يمكن أن يكذب مظهرك . نعم يا سيدي ، أنت دون كيخوته دلا منتشا الحقيقي ، على الرغم من ذلك الذي أراد أن يسلبك اسمك ويعدم أعمالك المجيدة ، كما حاول ذلك مؤلف هذا الكتاب الذي أضعه بين يديك» . وقدم إليه كتابا يحمله صاحبه . فأخذه دون كيخوته ، وأخذ يتصفحه دون أن يجيب بكلمة ، وبعد لحظات أعاده إليه قائلا : «في القليل الذي قرأته وجدت عند هذا المؤلف ثلاثة أمور جديرة باللوم : الأول بضع كلمات[٢] قرأتها في الاستهلال ، والثاني أن لغته بلهجة أرغون ، إذ تعوز الأدوات النحوية أحيانا ، والثالث ، وهو يدل خصوصا على جهل المؤلف ، هو أنه يخطئ ويبتعد عن الحقيقة في الجزء الرئيسي من التاريخ ، حين يقول إن زوجة سنشو پنثا ، سانسي ، تسمى ماريه جوتيرث ، مع أن اسمها هو تريزه پنثا ، ومن يخطئ في نقطة أساسية جدا مثل هذه يخشى منه أن يكون قد أخطأ في سائر التاريخ» .

فقال سنشو : «عجيب أمر هذا المؤرخ ، إن عليه أن يكون على علم بأمورنا ، ما دام يسمي تريزه پنثا ، زوجتي ، باسم ماريه جوتيرث . استعد كتابك ، يا سيدي ، وانظر قليلا هل أنا موجود فيه ، وهل غيروا اسمي أنا أيضا» . ـ فقال دون خيرونيمو : « بحسب ما

---

(١) الاشارة هنا طبعا إلى القسم الثاني الذي نشر باسم مستعار هو حامل الليسانس الونسو فرنندو دي أبيانيدا .

(٢) يرى كليمنثين أنه ربما كان المقصود هو الكلمات التي تطعن على ثربانتس بأنه عجوز ، أقطع (بيد واحدة) ، حسود .

قلت يا صديقي ، لا بد أنك سنشو پنثا ، سائس السيد دون كيخوته ؟ » ـ فقال سنشو : « نعم ، أنا سنشو ، وأنا فخور بذلك » .

ـ فاستمر الرجل المهذب يقول : « إذن ، هذا المؤلف الحديث لا يعاملك بالاحترام الذي يتراءى على شخصك . إنه يصورك شرها ، أبله ، غير مسلٍ أبدا ، وبالجملة مختلفا تماما عن سنشو الآخر الذي نجده في القسم الأول من تاريخ مولاك » .

فأجاب سنشو : « غفرالله له! كان الأولى به أن يتركني في زاويتي ، دون أن يتذكرني ، لأن الثقيل الوزن لا يمكن أن يرقص كما ينبغي ، والقديس بطرس لا يرتاح إلا في روما » . ودعا الرجلان المهذبان دون كيخوته إلى الانتقال إلى غرفتهما ليتعشى معهما ،لأنهما يعلمان تماما أنه لا يوجد في هذا الفندق شيء يليق بمقامه . ووافق دون كيخوته على دعوتهما ، وهو اللطيف المهذب دائما وتعشى معهما . وظل سنشو سيد الطاجن ، فجلس في طرف المائدة ، وجلس صاحب الفندق إلى جواره ، لأنه لم يكن أقل اشتهاء لأكارع البقر .

وأثناء العشاء ، طلب دون خوان من دون كيخوته أن يخبره بما عنده من أنباء السيدة دلثنيا دل توبوسو ، هل تزوجت ، هل ولدت أو حملت ، أو حافظت على عفافها وراحت تتذكر أفكار دون كيخوته الغرامية . فأجاب دون كيخوته : « إن دلثنيا لا تزال بكرا لم يمسسها أحد ، وقلبي ثابت على حبها أبدا ، وليس بيننا تراسل كالعادة ، وقد تحول جمالها إلى قبح فلاحة حقيرة » . ثم روى لهما بالتفصيل انسحار دلثنيا ، ومغامرته في كهف مونتسينوس ، والوصفة التي أعطاها إياه مرلان الحكيم من أجل رفع السحر عن سيدته ، وهذه الوصفة هي جَلْد سنشو . فسر السيدان سرورا بالغا من روايته وهو يرويها بنفسه ، للحوادث الغريبة في تاريخ حياته . ودهشوا من أعماله الجنونية بقدر ما دهشوا من أناقته في التعبير عن قصة حياته . ولهذا كانوا أحيانا يعدونه فكها عاقلا ، وأحيانا أخرى يرونه يستسلم للتهاويل ، ولم يدريا في أي موضع يضعانه بين الحكمة والجنون .

وأتم سنشو عشاءه ، وترك صاحب الفندق ، وانتقل إلى غرفة مولاه ، وقال وهو يدخلها : « ليشنقوني ، يا سادة ، إذا كان مؤلف هذا الكتاب الذي معكم يريد أن نبقى معا وقتا طويلا . ولكني أود منه ، على الأقل ، ما دام يدعوني شرها ، كما تقولون ، أن يمتنع من تسميتي بالسكير » . ـ فقال دون خيرونيمو : « نعم ، هكذا يسميك ، لكني لا أتذكر تماما كيف ، وإن كنت أعلم أن الأقوال التي يعزوها إليك غير مناسبة وكاذبة أيضا ، بحسب ما أقرأ في سيماء سنشو الطيب الذي أراه أمامي » . ـ فقال سنشو : « صدّقاني يا سيديّ ،

إن سنشو ودون كيخوته في هذا التاريخ غير ذينك اللذين في التاريخ الذي وضعه سيدي حامد بن الأيل ؛ فهذان هما كلانا ؛ مولاي شجاع ،فطن ، عاشق ، وأنا بسيط ، مسل ، ولست شرها ولا سكيرا » . ـ فقال دون خوان : « أعتقد هذا ، ويجب إصدار أمر ـ إن كان هذا ممكنا ـ يقضي بألا يتجرأ على وصف مغامرات العظيم دون كيخوته غير سيدي حامد ، مؤلفه الأول ، تماما كما أمر الاسكندر بألا يتجرأ أحد على رسم صورته غير الرسام ابلس » .

ـ فقال دون كيخوته : « أما صورتي فليرسمها من شاء ، لكن لا يسيئن أحد إلي ، لأن صبري ينفد إذا حملوه بالاهانات » . ـ فأجاب دون جوان : « أية إهانة يمكن أن توجه إلى السيد دون كيخوته ، لا يستطيع أن ينتصف منها بسهولة ؟ اللهم إلا إذا اتقاها بترس الصبر ، وهو ترس واسع شديد ، كما أتخيل » .

وفي هذه الأحاديث وأمثالها ، أمضوا شطرا كبيرا من الليل ، وعلى الرغم من أن دون خوان وصديقه حثا دون كيخوته على قراءة المزيد من الكتاب ، ليرى ما فيه ، فإنه لم يوافق ، وأجاب بأنه يعد أنه قرأه كله ، ويقرر أنه حقير من أوله إلى آخره ، ولا يريد لو عرف مؤلفه أنه وضع بين يديه ، أن يعطيه سرورا لاعتقاده أن دون كيخوته قرأه . وقال إن الفكر ينبغي أن ينصرف عن الأمور الفاجرة[1] المضحكة ، فما بالك بالعيون ؟ وسألاه إلى أين يريد السير فقال إنه ذاهب إلى سرقسطة ، ليشهد الاحتفالات المسماة باسم « مباريات العدة » ، والتي تقام كل عام في هذه المدينة . فقال دون خوان إن هذا التاريخ الجديد يروي كيف أن دون كيخوته ، أو من سماه بهذا الإسم ، قد شهد في هذه المدينة نفسها ، مباراة خاتم ، ليس فيها أي اختراع ، وفقيرة في الأسلوب ، وبائسة في وصف الشارات ، ولكنهاعلى العكس غنية بالترهات .

فأجاب دون كيخوته : « في هذه الحالة ، لن أضع قدمي في سرقسطة وسأذيع على الملأ كذب هذا المؤرخ الجديد ، مما سيقنع الناس بأنني لست دون كيخوته الذي تحدث عنه » .

فأجاب دون خيرنيمو : « أنت على حق ، ثم إنه توجد مباريات أخرى في برشلونة ، فيها يستطيع السيد دون كيخوته أن يكشف عن بسالته » . ـ فقال دون كيخوته : « هذا ما أظن أني فاعله! ولتسمحا لي يا سيدي أن أغدو للرقاد الآن ، إذ أزفت ساعة النوم ، ولتتفضلا بحسباني من بين أكبر أصدقائكما وخدامكما » .

---

(١) هذه المواضع الفاجرة والمضحكة توجد خصوصا في الفصول ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩ من كتاب أبيانيدا .

وقال سنشو : «وأنا أيضا ، ربما كنت لكما مفيدا في شيء» .

وهنالك غدا كل من دون كيخوته وسنشو إلى غرفته ، تاركين دون خوان ودون خيرنيمو مشدوهين من الكيفية التي أمتزج بها في عقل فارسنا التميز والجنون ، واقتنعا أن هذان هما دون كيخوته وسنشو بنشا الحقيقيان ، لا ذينك اللذين وصفهما كاتبهما الأرغوني ، واستيقظ دون كيخوته مبكراً جدا ، وقرع حاجز الغرفة الأخرى ، مودعا ودفع سنشو أجرة المبيت بسخاء ، ونصح صاحب الفندق بألا يسرف في المستقبل في تمجيد ما في فندقه من زاد ، أو يزوده بطعام أفضل .

الفصل الستون

فيما وقع لدون كيخوته وهو في الطريق الى برشلونه

كان الصباح منعشا ويعلن عن نضرة اليوم ، حين ترك دون كيخوته الفندق ، بعد أن استعلم جيدا عن الطريق المؤدي مباشرة إلى برشلونة ، دون أن يمر بسرقسطة ، لأنه كان يود من صميم قلبه أن يكذب هذا المؤرخ الذي أهانه كل هذه الإهانات . وحدث أنه طوال ستة أيام كاملة لم يقع له شيء يستحق أن يذكر كتابة . وبعد هذه الأيام الستة وقد انحرف عن الطريق الرئيسي ، فاجأه الليل في أجمة كثيفة من الزان أو الفلين لأنه في هذه النقطة ، لم يدقق سيدي حامد تدقيقه المعتاد في كل الأمور . ونزل المولى والسائس عن ركوبتهما ، وسنشو ، وكان قد أكل وجباته الأربع في ذلك اليوم ، رتب أمره عند جذع شجرة ، ودخل في النوم مباشرة ، لكن دون كيخوته ، الذي أسهرته أفكاره أكثر من جوعه لم يغمض له جفن . بل بالعكس ، تجول خياله في كل مكان . فكان مرة يظن نفسه في كهف مونتسينوس .

ومرة أخرى يشاهد دلثنيا وهي تقفز على حمارها وقد تحولت إلى فلاحة ؛ ومرة ثالثة يسمع كلمات الحكيم مرلان وهي تطن في أذنيه وهو يذكره بالشروط التي ينبغي تنفيذها والاهتمام من أجل رفع السحر عن دلثنيا . وقنط بسبب تراخي سائسه سنشو وعدم إحسانه ، لأنه بحسب ما يعتقد لم يضرب نفسه غير خمس جلدات ، وهو مقدار تافه وضئيل جدا بالنسبة إلى ما بقي عليه . وأحدثت هذه التأملات ألما وحنقا شديدا في نفسه حتى قال : « إذا كان الاسكندر الأكبر قد حل العقدة الغوردية وهو يقول : القطع مثل الحل ، ومع ذلك كان سيدا على آسيا كلها ، فلن يحدث غير هذا لو أنني من أجل رفع السحر عن دلثنيا ، جلدت بنفسي سنشو على الرغم منه وما دام العلاج هو أن يجلد سنشو ثلاثة آلاف جلدة وكسرا ، فماذا يهم لو جلد هو نفسه بنفسه أو جلده غيره ؟ المهم هو أن يضرب ، بأية يد كان الضرب » .

وبناء على هذه الفكرة اقترب من سنشو ، بعد أن أخذ أولا عنان روثينانته ، وسواه بحيث يستطيع أن يضرب به وأخذ يحل تكته ، لأن الرأي الشائع هو أن صاحبنا (سنشو) لم يكن يلبس غير رباط من أمام للإمساك بسراويله . ولكنه لم يكد يبدأ العمل حتى أفاق سنشو وهويقول : « من هناك ؟ ومن يلمسني ويحل سراويلي ؟ » ـ فقال دون كيخوته : « إنه أنا ، وقد جئت لجلدك ، يا سنشو ، وتدفع قسما من الدين الذي عليك . إن دلثنيا تهلك ؛ وأنت تعيش دون أن تهتم بشيء ؛ وأنا أموت يأسا ؛ وإذن حل سراويلك بإرادتك ، لأن إرادتي هي أن أضربك في هذا الخلاء ألفي ضربة على الأقل » .

فصاح سنشو : « أما أنا فلا ؛ لتهدأ سيادتك ؛ وإلا فبحق الله إلا أحدثت ضجة يسمعها الصم . إن ضربات السوط التي وافقت عليها ينبغي أن تعطى بإرادتي أنا ، لا بالقوة . والآن ليس عندي رغبة في أن أجلد ؛ ويكفي أن أعدك بأن أجلد نفسي وأطرد الذباب حين أرغب في ذلك » .

فقال دون كيخوته : « إني لا أستطيع أن أكل إلى تلطفك هذا الأمر ، لأن قلبك قاس ، ولحمك طري ، وإن كنت وغدا » . وكان وهو يتكلم هذا الكلام يصر على أن ينتزع تكته . فلما رأى هذا سنشو وقف ، وانقض على مولاه ، وأمسك به ، وأخذ يديه بيديه ، بحيث لم يمكنه من الحركة ولا التنفس . فصاح فيه دون كيخوته بصوت مختنق : « كيف تتمرد ، أيها الخائن على مولاك وسيدك الطبيعي ؟ أنت تهجم على من يعطيك الخبز! » ـ فقال سنشو : إني لا أنصب ملكا ولا أعزل[1] ، ولكني أساعد نفسي بنفسي ، وأنا سيد نفسي .لتعدني سيادتك بأن تسكت ، ولا محل لجلدي الآن ؛ حينئذ أخلي عنك وأتركك وشأنك ؛ وإلا فسأقتلك هنا ، أيها الخائن ، يا عدو سنتشا[2] » .

فوعده دون كيخوته بما طلبه منه . وأقسم بحياة هذه الأفكار ، أنه لن يمس شعرة من صدره ، ويدع له ولرغبته مهمة جلد نفسه حين يرى ذلك مناسبا .

فنهض سنشو من عليه ، وابتعد مسافة عنه ؛ ولكن لما كان مستندا إلى شجرةأخرى ، فقد أحس بشيء يمس رأسه ؛ فرفع يديه ، ومس رجلي إنسان منتعل . فخاف ، وعدا ليلتجئ إلى شجرة أخرى حدث له فيها الشيء نفسه . هنالك نادى دون كيخوته لنجدته .

---

(١) إشارة إلى العبارة التي قالها ديجساكلان في النزاع بين دون بدرو القاسي وأخيه دون أنريك « لا أنصب ملكا ولا أعزل ، بل أساعد مولاي » .

(٢) هنا يطبق سنشو على مولاه العبارات التي قالتها السيدة زوجة النغل لدون رودريجث دي لارا . الذي أهلك أخوتها بالخيانة والغدر . كما تروي ذلك رومانثة اسبانية متعلقة بأولاد لارا .

فركض دون كيخوته ، وسأله ماذا حدث له ، وماذا يخيفه . فأجابه سنشو بأن كل هذه الأشجار مملوءة بأرجل وسيقان ناس . فتحسسها دون كيخوته ، وفهم في الحال ماذا عسى أن تكون ، وقال لسنشو : «ليس في هذا ما يخيفك ؛ لأن هذه السيقان والأقدام التي تمسها ولا تراها هي من غير شك أقدام بعض اللصوص وقطاع الطرق المشنوقين في هذه الأشجار ؛ لأن العدالة اعتادت أن تشنقهم ، حين تأخذهم ، ها هنا بالعشرين والثلاثين . وهذا يدل على أننا لا بد بالقرب من برشلونة» . وهذا صحيح ، وكما قرر تماما . وعند شروق الشمس ، رفعا أبصارهما وشاهدا العناقيد التي حملت بها الأشجار ؛ وقد كانت أجسام قطاع الطرق .

وكان النهار قد طلع ، وإذا كان الموتى أخافوهما ، فإنهما ازدادا خوفا حين شاهدوا حوالي أربعين من قطاع الطرق الأحياء ، سرعان ما تحلقوا حولهما ، آمرين إياهما بلغة قطالونية أن يسكنا ، وألا يتحركا إلى أن يصل القائد (زعيم العصابة) . وكان دون كيخوته على قدميه ، وفرسه بغير لجام ، ورمحه مستند إلى شجرة ، والخلاصة أنه كان بدون أي دفاع . فكان عليه إذن أن يقاطع بين ذراعيه ويحني رأسه ، وأن يحتفظ بنفسه لمناسبة أفضل . وعدا قطاع الطرق لتفتيش الحمار ، ولم يتركوا شيئا مما يحمله دون أن يأخذوه ، سواء ما كان في الخرج ، وما كان في الحقيبة . ومن حسن الحظ أن سنشو كان قد وضع النقود التي أعطاه إياه ناظر الدوق وما حمله من قريته ـ وضع هذا كله في حزام حول بطنه . لكن هؤلاء الناس الشهوم كانوا سيفتشونه لولا أن زعيمهم جاء في هذه اللحظة . وكان رجلا في سن الرابعة والثلاثين تقريبا ، قويا ، طويل القامة ، أسمر البشرة ، يلبس درعا من الزرد ، ويحمل في منطقته أربعة مسدسات كبيرة الحجم .

ولما شاهد أن سواسه ، كما يسمى الذين يخدمون في مثل هذه العصابات ، على وشك أن يسلبوا سنشو پنثا ما عليه ، طلب منهم ألا يفعلوا شيئا ؛ فامتثلوا لأمره ، مما أنقذ بطن سنشو . ودهش من رؤية رمح مستند إلى شجرة ، وترس بيضاوي على الأرض ، ودون كيخوته مسلحا بأبأس وجه يمكن أن يصنعه الحزن نفسه . فاقترب منه ، وقال له : «لا تحزن هكذا ، يا رجل ، إنك لم تقع بين أيدي أوزيريس متوحش ، بل بين أيدي روك جينارت ، وهي أميل إلى الرحمة منها إلى القسوة .

فأجاب دون كيخوته : «حزني لا ينشأ عن كوني وقعت في قبضة يدك ، أي روك المغوار ، الذي طبقت شهرته الآفاق ، وذاعت في العالم كله ، بل عن إهمالي الذي جعل جنودك يفاجئونني بغير لجام في فرسي ، بينما أنا ملزم ، بحسب قواعد نظام الفروسية الجوالة ، التي أمتهنها مهنتي ، أن أعيش دائما في انتباه ، وأن أكون دائما ديدبان نفسي .



سنشو يجلد نفسه بالسوط ، ودون كيخوته يعد

وعلي أن أخبرك ، أي جينارت العظيم ، أنهم لو وجدوني على فرسي ومعي رمحي وترسي البيضاوي ، لما استطاعوا التغلب علي بسهولة ، لأني أنا دون كيخوته دلا منتشا ، الذي ملأت الدنيا ضجة أفعاله المجيدة » .

ففهم روك جينارت فورا أن مرض دون كيخوته أقرب إلى الجنون منه إلى الشجاعة ؛ ولئن كان قد سمع أحيانا باسمه ، فإنه لم يصدق أبدا صحة تاريخه ، ولم يقدر على الاقتناع بأن مثل هذا الخيال يمكن أن يستولي على قلب إنسان . ولهذا كان سرورا بالغا له أن يلقاه ، وليمس عن قرب ما سمع به من بعيد . وقال له : «أيها الفارس المغوار ، لا تقنط ، ولا تحسبن سوء الحظ هو الذي أتى بك إلى هنا . فربما على العكس ، في هذه اللقاءات الشائكة ، يجد حظك الضال سبيله المستقيمة هنا ، لأن السماء اعتادت أن تقيل عثرة العاثرين وتغني الفقراء بطرق غريبة ، وانحرافات لم يسمع بمثلها ، لا يستطيع البشر التنبؤ بها » .

وكان دون كيخوته على وشك أن يشكر له ، حين سمعوا خلفهم ضجة عظيمة ، كضجة كوكب من الخيل . ومع ذلك لم يكن ثم غير فرس واحد يركبه ، مطلقا العنان ، شاب في سن العشرين ويلبس صديرية من الداما الخضراء ، المزينة بهداب من الذهب ، ويلبس سراويل واسعة ، وقبعة مشمرة على الطريقة الڤالونية ، وأحذية محكمة مدهونة ، وسيفه وصفيحته (سيف عريض قصير) والمهمازان كلها مموهة بالذهب ، وفي يده بندقية ، وفي منطقته مسدسان . فتلفت روك ناحية الضجة ، ورأى هذا الشخص الأنيق الذي قال لما اقترب منه : «لقد كنت أبحث عنك ، أي روك المغوار ، لأجد فيك ، إن لم يكن دواء ، فعلى الأقل مهدئا لمصائبي . وحتى لا أجعلك في لهفة مدة أطول ، لأني أتبين جداأنك لم تتعرفني ، فإني أريد أن أخبرك من أنا . أنا كلوديا خيرونيما ، بنت سيمون فورتي ، صديقك الحميم ، والخصم اللدود لكوكل تورياس ، وهو خصمك أنت أيضا ، لأنه يخدم في صفوف أعدائي : . وأنت تعلم أن توريا هذا له ولد يدعى دون بيثنته توري‍اس ، أو على الأقل كان يدعى بهذا الاسم منذ ساعتين . واختصارا لرواية مصائبي ، أقول لك بإيجاز أن هذا الشاب رآني ، وغازلني ، وأصغيت إليه ، وهمت حبا له ، لأنه لا توجد امرأة ، مهما تكن حكيمة ، ومنعزلة ، لا تجد الوسيلة لاشباع رغائبها الجامحة . وأخيرا وعدني بالزواج ، وأعطيته كلمتي ، دون أن تمضي الأمور إلى أبعد من هذا . وبالأمس ، جاء من يقول لي إنه نسي ما قاله لي وإنه عازم على الزواج بأخرى هذا الصباح . هذا النبأ جعلني أضطرب ، وفقدت صبري . ولما لم يكن أبي في البيت ، فقد لبست هذا الزي ، وعدوت في آثار دون بيثنته ،

وقابلته على مسافة فرسخ من هنا ، ودون أن أتوقف عند اللوم ، ودون أن أسمع منه ، أطلقت عليه النار من هذه البندقية وهذين المسدسين ؛ وأعتقد أنني أودعت في جسمه أكثر من رصاصتين ، وفتحت مخارج خرج منها شرفي مع دمه . وتركته بين أيدي خدمه ، الذين لم يجرؤا على الدفاع عنه ، وأسرعت إليك لأستنجدك لتساعدني على الانتقال إلى فرنسا ، حيث لي أقارب أريد أن ألتجيء عندهم ، وفي الوقت نفسه لكي أستحلفك أن تدافع عن أبي ، وتنقذه من انتقام أهل دون بيثنته » .

فأعجب روك من حسن طلعة ، وشجاعة ، ومغامرة كلوديا الجميلة ، وقال لها : « تعالي يا آنستي ، لنرى أولا هل خصمك مات ، وسنرى بعد ذلك ما بقي علينا أن نفعله » . وكان دون كيخوته قد استمع إلى رواية كلوديا وجواب جينارت بانتباه ، فقال : « لا حاجة إلى أن يشغل أحد نفسه بالدفاع عن هذه السيدة ، فإني آخذها تحت حمايتي ؛ أعطوني فرسي وسلاحي ، وانتظروني هنا ، وأنا ذاهب إلى هذا الفارس ، وسواء أكان حيا أم ميتا ، فإني سأقدر على إرغامه على تنفيذ ما وعد به هذا الجمال الفاتن » . ـ وأضاف سنشو : « لا يشكن أحد في هذا ، فإن مولاي موفق في أمور الزواج ، إذ لم يمض وقت طويل على إرغامه شابا رفض أن ينفذ وعده ، وبدون خبث السحرة ، أعدائنا ، الذين حولوا هذا الشاب إلى خادم ، لما كانت الآنسة التي أتحدث عنها عذراء في هذه الساعة » . وكان روك مهتما بأمور كلوديا أكثر من اهتمامه بأقوال المولى والسائس ، فقال لرجاله أن يردوا إلى سنشو كل ما أخذوه منه ، وأمرهم أن ينسحبوا إلى المكان الذي أمضوا فيه الليل . وفي الحال ركض هو وكلوديا ، بحثا عن دون بيثنته ، حيا أو ميتا ، وتلفتا في كل ناحية فأبصرا على رابية بعض الناس ، فظنا أنهما سيجدانه بينهم . وكان هو فعلا الذي حمله خدمه لتضميد جراحه أو لدفنه . فحثا الخطى للحاق بهم ، ولم يكن هذا صعبا ، لأنهم يسيرون ببطء ، هؤلاء الناس . فوجدا دون بيثنته بين أذرع رجاله . وبصوت ضعيف طلب منهم أن يتركوه يموت في هذا المكان ، لأن آلام جراحه لا تمكنه من السير . ونزل روك وكلوديا عن فرسيهما . ولما شاهد الخدم روك ، فزعوا ، واضطربت كلوديا لما شاهدت دون بيثنته . واقتربت يقتسمها الغضب والرحمة ، وأمسكت يده وقالت له : « لو كنت نفذت ما تعهدت به لما كنت فيما أنت فيه الآن » .

ففتح الجريح المسكين عينيه بصعوبة وقال لها ؛ بعد أن تعرفها : « إني أتبين جيدا ، أيتها المرأة المغرر بك ، أنك أنت التي قتلتني . وهذه عقوبة لا تستحقها أماني التي لم تشأ ولم تقدر لا هي ولا أعمالي أن تصيبك بالإهانة » . ـ فصاحت كلوديا : « ألم تكن عازما على

الزواج من ليونورا ، بنت بربسترو الغني ، هذا الصباح ؟ » . ـ فأجاب بيثنته : «لم يخطر ببالي ، وإنه سوء حظي هو الذي أبلغك هذه الأنباء الكاذبة ، حتى تقتليني في نزوة من غيرتك ؛ وعلى كل حال فإن تلقي الموت من يديك هو مصير جميل عذب ، ولأبرهن لك على ذلك ، صافحيني ، وإذا شئت ، اقبليني زوجا لك . وإن أعز أماني هي أن تنالي ترضية عن الإهانة التي تزعمين أنني أصبتك بها » .

فصافحته كلوديا ، ولكن قلبها ضاق إلى حد أنها غشي عليها ووقعت على صدر حبيبها الدامي ، الذي اشتد عليه الوجع كل الاشتداد . ووقف روك حائرا لا يدري ما يفعل . وهرع الخدم للبحث عن ماء يضعونه على وجه الحبيبين ؛ وعادت كلوديا إلى وعيها ، أما بيثنته فلم يعد ، لأنه لفظ النفس الأخير . ولدى هذا المنظر راحت تملأ الهواء بصراخها ، وتشد شعورها ، وتمزق وجهها بيديها ، وتوجه إلى السماء شكايات مرة ، تشهد بالحزن الشديدفي نفس لا يواسيها شيء . وصاحت تناجي نفسها : «أيتها المرأة القاسية الطائشة! بأية سهولة انسقت لتنفيذ خطتك المروعة! أيتها الغيرة اللعينة ، إلى أية غاية يائسة تقودين من يستسلمون لك في قلوبهم! إيه أيها الزوج العزيز ، أية مقادير رهيبة قادتك من فراش الزواج إلى القبر! » وكانت شكاياتها مؤثرة جدا إلى حد أن انتزعت الدموع من عيني روك ، وهو الذي لم يعتد البكاء . وبكى الخدم أيضا ، وكانت كلوديا يغمى عليها في كل لحظة ، والخلاصة أن هذا المكان بدا أنه المقام الخاص للحزن والشقاء . وروك جينارت أمر الخدم بحمل جثمان بيثنته إلى بيت أبيه ، وكان قريبا ، ثم دفنه بعد ذلك . وقالت له كلوديا أنها صممت على الاعتزال في دير ، رئيسته هي خالتها (أو عمتها) ، لتقضي فيه بقية أيام عمرها بصحبة زوج أقدس وأخلد . وأثنى روك على عزمها هذا ، وعرض عليها أن يرافقها ، ووعدها بالدفاع عن أبيها ضد أقارب دون بيثنته وضد الناس جميعا . ولكن كلوديا رفضت أن يصحبها روك ، وعاد روك إلى عصابته . هكذا كانت نهاية غراميات كلوديا خيرونيما . لكن هل نُدهش لهذا ، إذا كان عنف الغيرة الذي لا يقاوم هو الذي نسج خيوط هذه الحكاية المحزنة ؟ .

ولما عاد روك جينارت إلى سواسه وجد دون كيخوته راكبا فرسه وسطهم ، وهو يعظهم ليقلعا عن حياتهم وسلوكهم هذا ، هذا السلوك الخطر على الروح وعلى الجسم معا . لكن لما كان من الجسقونيين ، وهم قوم غلاظ معربدون ، فإن موعظته لم تحدث أثرا يذكر . وسأل روك سنشو هل ردت إليه أشياؤه ، التي أخذوها منه ، فأجاب بنعم ، لكنه ينقصه ثلاث طاقيات للنوم تساوي ثلاث مدن . فقال أحد رجال روك : «ماذا تقول ، ثلاث مدن ، إنها

معي ولا تساوي ثلاثة ريالات» . ـ فقال دون كيخوته : «أنت على حق ، لكن سانسي يقدرها هذا التقدير نظرا إلى الشخص الذي أعطاها» . فردها روك إليه ، ثم نظم عصابته صفوفا ، وأمر بإحضار كل الأثواب والحلي والنقود التي نهبوها منذ آخر تقسيم . وأحصاها ، وقدر بالمال ما لا يمكن تقسيمه ، ووزع الجميع على عصابته بحكمة ومساواة ، فلم يتجاوز بمثقال ذرة قواعد العدالة التوزيعية . ولما تم له هذا ، ودفع لكل نصيبه ، راضيا ، قال روك لدون كيخوته : «إذا لم أراع الدقة مع هؤلاء ، فسيكون من المستحيل العيش معهم» . ـ فقال سنشو :«بحسب ما أرى فإن العدالة أمر حسن جدا حتى أن من الواجب اتباعها حتى مع اللصوص» . فسمعه أحد أفراد العصابة ، فطرحه على خده ببندقيته ، وكان سيكسر له رأسه من غير شك ، لو لم يمنعه جينارت . فارتعد سنشو خوفا ووعد نفسه بألا يفتح فمه طالما كان مع هؤلاء الناس .

وفي هذه اللحظة وصل بعض الذين وضعوا حراسا على الطرق ، ليراقبوا ويبلغوا زعيم العصابة بما يجري . وقال أحدهم : «سيدي ، لقد لمحنا على طريق برشلونة مجموعة من الناس» . ـ فقال جينارت : «هل هم ممن يبحثون عنا ، أو ممن نبحث نحن عنهم ؟» ـ فأجاب : «هم ممن نبحث نحن عنهم» . ـ قال جينارت : «إذن أخرجوا جميعا ، واعملوا على الاتيان بهم جميعا بدون استثناء» .

وبقي وحده مع دون كيخوته وسنشو ، وقال للفارس : «إن طريقتنا في العيش لا بد قد بدت لك جديدة جدا ، إن هذه مغامرات من نوع جديد عليك لكنها ليست أقل خطرا من مغامراتك . ولا أدهش من كونها تبدو لك غريبة ، لأني أقر بأنه ليس ثم حياة أشد قلقا واضطرابا من حياتنا . والانتقام يقدر على أن يبث الانتقام في أشد النفوس هدوءا وسكونا ، ولقد كنت ذا طبع خير متعاطف ، بيد أني أكرر فأقول إن الرغبة في الانتقام من إهانة لحقت بي قد قضت على ميولي الخيرة ، حتى أني أستمر في هذه الحال ، وإن كنت أتبصر كل نتائجها . وكما أن الهاوية تدعو الهاوية ، والخطيئة تدعو الخطيئة ، فقد توالت سلاسل الانتقام ، حتى أنني قمت بالانتقام ليس فقط من الإهانات التي لحقت بي ، بل وأيضا من سائرها . ومع ذلك فالشكر والحمد لله ، وإن كنت ضالا في تيه هذه الاضطرابات ، ولكني لا أفقد الأمل في الخروج منه وبلوغ مرفأ أهدأ» .

ودهش دون كيخوته من سماع روك يتكلم على هذا النحو ، لأنه كان مقتنعا تماما بأن الذين يمتهنون مهنة نهب السابلة وقطع الطريق والقتل والسرقة لا يمكن أن يكون لديهم فكرة حسنة واحدة .

وقال لقاطع الطريق : «سيدي روك ، إنه بداية الصحة هي معرفة المرض ، والموافقة على استعمال الأدوية التي يشير إليها الطبيب . وسيادتك مريض ، وتعرف مرضك ، والسماء ، وبعبارة أصح : الله طبيبنا جميعا ، سيقدم إليك الأدوية الناجعة التي ستشفيك شيئا فشيئا ، لا مرة واحدة ، ولا بمعجزة ، خصوصا والخطاة العقلاء الفطنون أقرب إلى إصلاح أنفسهم من الجهلة والحمقى ؛ وما دمت تكشف عن كل هذه الإرادة الطيبة ، فتشجع وأمل في علاج ضميرك . وإذا شئت أن تختصر الطريق ، وتدخل بسهولة في طريق الصحة والنجاة ، فتعال معي ، وسأعلمك مهنة الفارس الجوال ، وهي معرضة لكثير من الأعمال والمشقات ، حتى إنك لو لم تتخذها إلا من أجل التوبة ، فكن واثقا أنك ستمضي قدما إلى السماء» . فأخذ روك يضحك من نصيحة دون كيخوته ، وغير مجرى الكلام بأن روى له مصير كلوديا خيرونيما الحزين . فتأثر سنشو خصوصا أيما تأثر ، لأن جمال الفتاة ولطفها وملاحتهامست شغاف قلبه .

وفي هذه اللحظة عاد سواس جينارت ، واقتادوا معهم خياليين ، وحاجين راجلين ، وعربة مملوءة بالنساء ، وستة خدم يصحبهن على فرس أو على الأقدام ، وسائسي الخيالين . وأحاطت العصابة بالمسافرين ، والتزم الظافرون والمهزومون الصمت التام ، في انتظار ما يقرره رئيس العصابة . فسأل روك جينارت الخيالين عن هويتهما وماذا يحملان من نقود . فقال أحدهما : «نحن نقيبان في المشاة الاسبانية ؛ وفرقتنا في نابلي ، وسنبحر على أربع جاليرات موجودة في برشلونة ، مع المرور بصقلية . ومعنا مائتي أو ثلثمائة اسكودو ، بها نظن أننا غنيان ، لأن مهنة الجندي لا تمكّن من جمع مال كبير» . وبعد ذلك سأل روك الحاجين ، فأجابا أنهما سيركبان السفينة إلى روما ، ومعهما معا حوالي ستين ريالا . كذلك سئل أصحاب العربة فأجاب أحد الخدم الراكبين أفراسا أن في العربة سيدة ، دونيا جيومار دي كنيونس ، زوجة الوصي على نائب الملك في نابلي ، وحفيدته ، وآنسة قهرمانة ووصيفة ، يصحبهن ستة من الخدم ، ومعهم جميعا ستمائة اسكودو ، فقال جينارت : إذن معنا هنا تسعمائة اسكودو ، وستون ريالا . وجنودي ستون تقريبا ، فانظروا نصيب كل واحد ، لأنني لست ماهرا في الحساب» .

ولدى سماع هذه الكلمات صاح كل اللصوص : «يحيا روك جينارت ، يعيش ، يعيش ، على الرغم من كل الأشرار الذين أقسموا على إهلاكه» . فلما رأى النقيبان ، والوصية ، والحاجان أن أموالهم صودرت ، اكتأبوا واغتموا غما شديدا . فتركهم روك معلقين فترة ، لم يشأ أن يطيلها ، فقال ، متلفتا إلى النقيبين : «سيدي النقيبين! أرجوكما أن تتفضلا

بإقراضي ستين اسكودو ، وأنت يا سيدتي الوصية تكرمي بإقراضي ثمانين ، لارضاء الجماعة التي تصحبني ، لأن القسيس يتعيش مما ينشد . وبعد ذلك تستطيعون أن تتابعوا طريقكم في كل حرية وأمان ، بواسطة جواز أمان أعطيكم إياه ،حتى إذا قابلتم جماعة أخرى من رجالي لم يصيبوكم بأي أذى ، لأنه ليس من نيتي أن أضطهد الجنود ولا النساء ، خصوصا ذوات المكانة » . فشكر له النقيبان شكرا بالغا أدبه وكرمه ؛ وأرادت السيدة جيومار النزول من العربة لتقبيل أقدام وأيدي روك العظيم ، لكنه أبى ؛ وعلى العكس ، سألها الصفح عن الاضطراب والحيرة اللذين سببهما لها ، مضطرا بحكم مهنته الشريرة . وأعطته الوصيفة الثمانين اسكودو ؛ وكان النقيبان قد أعطيا الستين اسكودو ، وقدم الحاجان كيسهما الفقير : لكن روك طلب إليهما الهدوء ، ثم تلفت الى رجاله وقال : « هذا المبلغ يخص كلا منكم منه اسكودان ؛ فلنعط منها عشرة لهذين الحاجين ، والعشرة الأخرى لهذا السائس الطيب[1] ، حتى يذكر هذه المغامرة بالخير » . وفي الوقت نفسه أخذ قلما ، لأنه كان يحمل قلما باستمرار ، ثم كتب جواز أمان موجها إلى رؤساء رجاله ، وأعطاه للمسافرين ، وأطلق سراحهم ، وهم معجبون كل الإعجاب بنبالته وحسن طلعته وكرمه ، ويعدونه كأنه الاسكندر الأكبر لا رئيس عصابة من قطاع الطريق .

وإذا بأحد رجال عصابة جينارت يستبيح لنفسه أن يقول باللغة الجسقونية : « إن قائدنا خلق ليكون راهبا لا قاطع طريق ؛ إذا كان يريد أن يظهر كرمه ، فليكن ذلك من ماله الخاص لا من مالنا نحن » . ورغم أنه قال ذلك بصوت خفيض فإن روك سمعه ، وفي الحال استل سيفه ، وشج رأسه إلى نصفين قائلا : « هكذا أعاقب الوقحاء والمتهورين » . وبقي الآخرون في ذهول ولم يجرؤوا على التنفس ، لأن جينارت كان قادرا على إثارة الرعب في نفوسهم .ثم انتحى جانبا ، وكتب لأحد أصدقائه المقيمين في برشلونة رسالة يخبره فيها أن عنده دون كيخوته دلا منتشا ، ذلك الفارس الشهير الذي تروى عنه الأعاجيب ، وأكثر الناس علما وإضحاكا في آن معا ؛ وأنه ، بعد أربعة أيام ، أي في يوم عيد[2] ذبح القديس يوحنا المعمدان ، سيأتي به إلى وسط شاطئ المدينة ، مدججا بكامل سلاحه ، راكبا فرسه

---

(١) يقصد سنشو پنثا .

(٢) عيد قطع رأس يوحنا المعمدان هو ٢٩ أغسطس . ولكن الاحتفالات التي سيرد ذكرها وكلها سرور وبشر تدل على أن المقصود هو عيد ميلاده ، ويقع في ٢٤ يونيو . ولكن هذا يصطدم بصعوبة ، إذ أن الرسالة التي كتبها سنشو من قصر الدوق بتاريخ ٢٠ يوليو سنة ١٦١٤ فلا بد أن يقع العيد بعد ذلك ، أي في ٢٩ أغسطس كما ورد في النص . ولكن هذه الاضطرابات في التواريخ كثيرة في قصة دون كيخوته .

روثينانته ؛ ومعه سائسه سنشو پنثا راكبا حماره . وطلب من صديقه أن يبلغ هذا الخبر إلى آل نيرو[1] ، أصدقاؤهما ، ليستمتعوا به ، ولكنه يود أن يحرم من هذه اللذة آل كاديل أعداؤهما . لكنه أقر بأن هذا الأمر مستحيل ، لأن حكمة وجنون دون كيخوته ، مضافين إلى مزاح سنشو ، لن تعدم أن تضحك الناس جميعا دون استثناء . ولما ختم الرسالةأعطاها لأحد جنوده ، الذي اتخذ زي فلاح ، ودخل برشلونة ، وأوصلها إلى المرسل إليه .

---

(١) كانت برشلونة في عهد ثربانتس مقسمة بين آل كاديل وآل نيرو . وكان بدورو روكا جينردا ، لا روك جينارت كما حرف اسمه فيما بعد ، من أنصار آل نيرو . واضطر إلى الهرب ، فصار رئيس عصابة من قطاع الطرق ، وكانت أخلاقه تماما كما وصفها ثربانتس .

الفصل الحادي والستون

فيما وقع لدون كيخوته وهو يدخل برشلونه
وأمور أخرى تمتاز بالصدق أكثر من المعقولية

أمضى دون كيخوته ثلاثة أيام وثلاث ليال عند روك ، ولو بقي عنده ثلثمائة سنة لما عدم أن يرى أمورا مدهشة . كانوا ينامون في مكان ، ويأكلون في مكان آخر ، ويهربون دون أن يدروا لماذا ، ويتوقفون من غير داع ، وينامون وهم واقفون ، ويقطعون نومهم ليغيروا مخابئهم ، ويضعون الحراس في كل مكان ، والجواسيس ، وينفخون في ذبالات بنادقهم ، وإن كان معهم القليل لأنه كان معهم جميعا مسدسات . وأمضى روك الليالي مفصولا عن رجاله دون أن يعرفوا مكانه ، لأن نائب الملك في برشلونة أعلن عن مكافأة كبيرة لمن يقبض عليه ؛ ولم يجرؤ على الثقة بأحد ، وكان يخشى حتى من جنوده أن يقتلوه أو يسلموه إلى العدالة . ويا لها من حياة حزينة بائسة! وأخيرا سلك روك ، ودون كيخوته ، وسنشو پنثا منعرجات مخبئة ، ووصلوا إلى ساحل برشلونة في عشية عيد حز رأس يوحنا ، في الليل . وعانق روك دون كيخوته وسنشو ، وأعطى هذه العشرة اسكودو التي وعده بها ، وتبادلا آلاف التحيات ، وانفصلوا ، وبقي دون كيخوته على فرسه في انتظار بزوغ النهار . وبعد قليل خرج الفجر الأبيض من أبواب المشرق ، ونشر حياة جديدة على النبات والأزهار ، وفي الوقت نفسه سمعت ضجة مختلطة مؤلفة من أصوات مزامير ، وطبول ، وشخاشيخ ، وسعاة يخرجون من المدينة . وأخلى الفجر مكانه للشمس ، فظهرت في الأفق ، أكبر من الترس ، وبدأت تعلو شيئا فشيئا ، وكان دون كيخوته وسنشو يتطلعان في كل مكان ، فأبصرا البحر ولم يكونا قد شاهداه قبل ذلك . فبدا لهم واسعا هائلا ، أكبر من برك رويديرا ، التي زاروها في إقليم المنتشا . وشاهدوا الجاليرات وهي على الساحل ، وكانت أشرعتها مطوية فشوهدت عليها الشعلات والأعلام وكانت السفن تسبح على هوى الريح وتمسح وجه الماء والأمواج . وكانت نغمات الأبواق والبوريات والمزامير ترن في كل النواحي ، وتملأ الهواء بأصوات شجية . وبدأت تتحرك وتترنح على الأمواج الهادئة .



دون كيخوته وسنشو يدخلان برشلونه في موكب

وخرج عدد لانهاية له من الخيالة ـ خرجوا من المدينة وهم يرتدون ملابس بشارات متعددة غنية ، وهم يركبون خيولا جميلة ، ويحاكون بحركاتهم مناورات الجاليرات ، وكانت هذه تطلق طلقات تجيب عليها قلعة المدينة بالضجيج نفسه . وبدا البحر فرحا ، والأرض ينعشها السرور ، وكان الجو صافيا ساجيا ، وإن عكره أحيانا دخان المدافع ؛ وفي كل مكان ساد الابتهاج الصريح . وفي هذه اللحظة هرع الخيالة المتعددو الشارات ، وهم يصيحون ويهللون ويكبرون ، إلى المكان الذي وقف فيه دون كيخوته مدهوشا ؛ وصاح أحدهم ، وهو الذي بلغه روك من قبل : « مرحبا ، في مدينتنا ، بمرآة ، ومصباح ، ونجم وبوصلة وسند الفروسية الجوالة ؛ مرحبا بالمغوار دون كيخوته ، لا ذلك الزائف ، المنتحل ، الذي نشر علينا تاريخه الكاذب ، بل دون كيخوته الحقيقي ، الشرعي ، الأمير الذي روى سيدي حامد بن الأيل ، زهرة المؤرخين ، تاريخ مغامراته وأفعاله » .

فلم يجب دون كيخوته بكلمة ، على أنهم لم يتركوا له فرصة للإجابة بل أحاط به الخيالة وقد توالوا جماعات ، وأخذوا في المناورة من حوله . فقال لسنشو ، وقد تلفت إليه : « لقد تعرفونا ؛ وإني أراهن أنهم قرأوا تاريخنا ، وذلك التاريخ الذي طبعه الأرغوني منذ قليل » . واقترب الفارس الذي كلمه من قبل وقال له :

« سيدي دون كيخوته ، أستحلفك أن تأتي معنا ؛ فنحن جميعا خادموك ، وأصدقاء حميمون لروك جينارت . » ـ فأجابه فارسنا : « إذا كان الأدب يولد الأدب ، فإن أدبك يا سيدي الخيال ، إبن أو قريب حميم لأدب العظيم روك . فلنذهب إلى حيث تشاء ، فليس لي إرادة غير إرادتك ، خصوصا إذا كنت تريد استخدامها لخدمتك . » فأجابه الخيال بعبارات مصقولة كهذه ، وأحاطت به الجماعة كلها ، واتخذوا طريق المدينة على صوت المزامير والصنجات .

وعند أبواب المدينة ، أرادت الروح الشريرة ، التي عنها يصدر كل الشر ، والأطفال وهم أشد خبثا ، أرادوا أن يدبروا مزحة لدون كيخوته . فاندس اثنان منهم بين الخيالة ، رفعا ذيل روثينانته والحمار ودسوا فيها حزمة من الشوك فشعر الحيوانان المسكينان فورا بهذا النخاسات فيهما من نوع جديد ، وكلما ضغطا على ذيلهما زاد ألمهما ، حتى أنهما بعد قمصات عديدة سقطا على الأرض هما ومن عليهما . وغضب دون كيخوته وأخذ ينسل الشوك من روثينانته ؛ وفعل سنشو الشيء نفسه بالنسبة إلى الحمار . وأريد معاقبة الأطفال على وقاحتهم ، لكن لم يتيسر ذلك ، لأنهم اختبأوا دائما في الجمهور . وركب دون كيخوته وسنشو دابتيهما ، والموكب والموسيقى نفسيهما ، وصلا إلى بيت مضيفيهما ، وكان بيتا واسعا جميلا ، إذ كان يملكه فارس غني . فلنتركهما هناك الآن ، لأن ابن الأيل يريد ذلك .

الفصل الثاني والستون

مغامرة الرأس المسحور وترهات أخرى
لابد من روايتها

كان دون أنطونيو مورينو (وهذا هو اسم مضيف دون كيخوته) فارسا غنيا عاقلا ، محبا للمسرات ، لكنه كان لطيفا وأمينا . وإراد أن يستمتع بجنون دون كيخوته ، دون أن يضايقه ، لأن المزحات التي تؤذي لا يمكن أن تعد مزحات ، ولا قيمة لتسلية من شأنها أن تضر بالغير . وكان أول شيء فعله هو أن يخلع السلاح من دون كيخوته ، وأن يعرضه بصديريته الهزيلة الضيقة المصنوعة من جلد الشمواه التي وصفناها من قبل ، على شرفة تطل على أحد الشوارع الرئيسية في المدينة ، وعلى مرأى من عدد لا يحصى من الناس ، والأطفال الذين أخذوا يتطلعون فيه كأنه قرد ، بينما الذين كانوا يلبسون الثياب ذوات الشارات يحومون حوله ، وكأنهم ما لبسوها إلا من أجله هو ، لا من أجل الاحتفال بالعيد . أما سنشو فقد كان في غاية من السرور ، إذ اعتقد ، دون أن يعرف كيف ، أنه عثر على زفاف آخر من نوع زفاف (عرس) كمتشو ، وبيت آخر من نوع بيت دون دييجو دي ميرنده ، أو قصر الدوق . وفي هذا اليوم تغدى مع دون أنطونيو بعض أصدقائه ، واحتفلوا جميعا بدون كيخوته أيما احتفال ، وعاملوه كفارس جوال ، مما بعث في نفسه رضا لا مزيد عليه وكانت نكات سنشو تسر الجميع ، وخصوصا خدم البيت . بينما كانوا على المائدة ، قال دون أنطونيولسنشو : « علمنا يا صاحبي ، أنك تحب كثيرا اللحم الأبيض المبرد والسنبوسك[1] ، وما لا تستطيع أكله تضعه في عبك إلى اليوم التالي . » ـ فأجاب سنشو : « لقد خدعوك يا سيدي ، فأنا رجل نظيف أكثر مني شرهاً ، وسيدي دون كيخوته ، الحاضر هنا ، يعرف جيدا أننا لا نأكل طوال ثمانية أيام غير قبضة يد من ثمار البلوط أو الجوز .

(١) ورد في الفصل ١٢ من دون كيخوته تأليف ابيانيدا أن دون كرلوس قدم الى سنشو ٢٤ قطعة من الكفتة وست لفات من اللحم الأبيض ، فلما لم يستطع أن يأكل هذا كله دفعة واحدة وضع الباقي في عبه ، للإفطار في اليوم التالي .

صحيح أنني إذا شاء حسن حظي أن أحصل على حجلة فإني أجري بالحبل ، أقصد أنني آكل ما أعطى ، وآخذ الزمان على علاته . لكن من يرد أن يقول إنني شره ، وإنني لست نظيفا فليتأكد أنه يخدع نفسه ـ وكنت أريد أن أفيض في هذا المعنى ، لولا احترامي للحى الشريفة الجالسة إلى هذه المائدة . » ـ فقال دون كيخوته : « من المؤكد أن العفة والنظافة اللتين يتصف بهما سنشو وهو يأكل جديرتان بالنقش على ألواح من البرونز ، ليخلد ذكرهما على طول القرون . صحيح أنه حين يجوع يعتقد أنه شره ، لأنه يبتلع لقما كبيرة ويمضغ بالفكين ؛ لكن النظافة تصحبه دائما ، ولما كان حاكما تعلم كيف يأكل بلطف ، حتى أنه يأكل حبات العنب والرمان بشوكة . » ـ فقال دون أنطونيو : « كيف ، هل كان سنشو حاكما ؟ » ـ فأجاب سنشو : « نعم ، حاكما على جزيرة تسمى برتريا ، توليت الحكم فيها عشرة أيام ممتعة ، خلالها فقدت الراحة والنوم ، وتعلمت ازدراء كل الحكام . ولما رجعت من هذه الجزيرة وقعت في حفرة ، اعتقدت فيها أنني مت ، ولم أخرج منها إلا بمعجزة . » وهنالك أخذ دون كيخوته يروي بالتفصيل تاريخ حكم سنشو ، مما سر السامعين .

ولما انتهى الطعام ، أخذ دون أنطونيو بيد دون كيخوته ، واقتاده إلى غرفة أخرى ، لم يكن فيها من زينة غير منضدة بدت أنها من اليشب ، محمولة على قاعدة من الحجر نفسه ، وعليها رأس ، على هيئة التماثيل النصفية الرومانية ، بدا أنه من البرونز . فاجتاز دون أنطونيو هذه الغرفة مع دون كيخوته ، واستدار حول المنضدة عدة مرات ، ثم قال له :

« سيدي ، الآن وأنا واثق أنه لا يسمعنا أحد ، والباب مغلق ، فإني أريد أن أخبرك بمغامرة من أندر المغامرات ، أو شيء جديد كل الجدة ، بشرط أن تكتم هذا السر في أعمق أعماق نفسك .

فأجاب دون كيخوته : أقسم لك على ذلك ، ولزيادة الأمان ، سأضع عليه حجرا . واعلم يا سيدي الدون إنطونيو (وكان قد عرف اسمه) إنك تكلم رجلا له عينان ليرى ، وليس له لسان ليتكلم . وهكذا تستطيع أن تفتح قلبك لي بكل أمان ، وأحسب سرك مدفونا في أعماق هاوية الصمت .

فقال دون أنطونيو : بعد هذا الوعد ، أريد أن أقول لك وأعرض عليك أشياء ستملؤك إعجابا ، وسأخفف الألم الذي استشعره من كوني لا أجد أحدا أستطيع أن أفضي إليه » .

وانتظر دون كيخوته بصبر نافد ، ولم يدر إلى أي شيء ستنتهي كل هذه المقدمات . فأمسك أنطونيو حينئذ بيده ، وجعله يلمس رأس البرونز ، والمنضدة ، ورجل المنضدة ، وقال له : « هذا الرأس الذي تراه قد صنعه ساحر من أكبر السحرة في العالم ، وهو من

بولندة ، فيما أعتقد ، وتلميذ اسكونيو[1] الشهير الذي يروى عنه العجائب . وهذا الساحر أقام عندي ، ودفعت له ألف اسكودو ثمنا لهذا الرأس ، الذي يستطيع أن يرد على كل الأسئلة التي توجه إليه . لقد رصد النجوم ، واتجاهات الرياح ورسم الأخلاق ، ورقم النقط الأوفاقية ، والخلاصة أنه استطاع أن يضفي على عمله كما لا تستطيع أن تتأمله غدا ، لأنه في يوم الجمعة صامت ، ولا نستطيع أن نستخرج منه شيئاً اليوم . وهكذا تستطيع منذ الآن حتى الغد أن تفكر في الأسئلة التي تريد أن توجهها إليه ؛ وأنا أعرف بالتجربة أنه يقول الحق دائما » .

وعجب دون كيخوته من الصفات التي نسبها دون أنطونيو إلى هذا الرأس ، ولم يكن يصدق ذلك . لكنه ، ولم يبق إلا وقت قصير لإجراء التجربة ، فإنه اكتفى بالشكر له لأنه كشف له عن هذا السر العظيم . وخرجا من الغرفة ، وأغلق دون أنطونيو الباب بالمفتاح ، ثم عادا إلى القاعة التي كان فيها سائر الخيالة . وفي هذه الأثناء كان سنشو قد روى لهم مختلف مغامرات مولاه .

وفي هذا المساء اقتادوا دون كيخوته ليجوس خلال المدينة ، بغير سلاح ؛ ووضعوا على كتفه معطفا من الوبر الأشقر ، قادرا على جعل العرق يتصبب ، في مثل هذا الحر القائظ ، من الثلج نفسه ؛ وطلب من الخدم أن يشغلوا سنشو بحيث لا يخرج من البيت . وكان دون كيخوته راكبا لاعلى روثيناتته ، بل على بغل ضخم بطيء الخطى . وخاطوا على المعطف ، دون أن يلمح هو ذلك ، برشمانا كتب عليه بحروف كبيرة : «هذا هو دون كيخوته دلا منتشا » حتى أن دون كيخوته دهش من أن كل الناس عرفوه ونادوا باسمه ، فقال لدون أنطونيو ، وكان يسير إلى جواره : «لا بد من الإقرار أن الفروسية الجوالة لها مزايا عظيمة ، لأن من يمتهنها مهنة له يعرف ويشتهر أمره في جميع الأمم أنظر يا سيدي ، حتى الأطفال أنفسهم يعرفونني مع أنهم لم يروني أبدا » فأجاب دون أنطوينو : «أنت على حق يا سيدي ؛ فكما أن النار لا يمكن أن تستر ولا أن تحبس ، فكذلك الفضيلة لا يمكن أن تظل وقتا طويلا مجهولة ، والفضيلة التي تتحصن في مهنة السلاح ، تلمع وتسمو فوق سائر الفضائل» .

---

(١) ولد في بارما ، وعاش في الفلاندر في عصر اسكندر فارينزي ، واشتغل بالرياضيات وعلم النجوم ، مما جعل الناس يعدونه ساحرا . ويروى من نوادره أنه كان يلذ له مرارا أن يدعو أصدقاءه ؛ فإذا جاءوا لم يجدوا شيئا في المطبخ ، ولا نار ولا أي شيء يؤكل . حتى إذا جلسوا إلى المائدة امتلأت بأفخر الأطعمة ، التي أتت بالسحر . وكان يقول لهم : هذا الطبق جاء من ملك فرنسا ، وهذا الصحن من مطبخ ملك اسبانيا ، وهكذا .

وبينما كان دون كيخوته يسير هكذا ، فخورا بنفسه ، مر قشتالي قرأ البطاقة ، وأخذ يقول : « إلى الشيطان فليذهب دون كيخوته دلا منتشا! كيف يتأتى لك أن تكون باقيا في قيد الحياة بعد ضربات العصي التي انهالت عليك ؟ أنت مجنون ، ولو كنت وحدك المجنون لهان الخطب لكن جنونك معد ، ولديك القدرة للاصابة بالجنون كل من يتصلون بك ولا أريد دليلا على ذلك غير الذين يصحبونك . فاذهب أيها المجنون ، وعد إلى بيتك ، واهتم بأموالك ، وزوجتك ، وأولادك ، ودع كل هذه الترهات التي تخلط عليك عقلك وتعكر ذهنك » .

فقال دون أنطونيو يا أخ ، سر في طريقك ، ولا تسد النصائح إلى من لم يطلبوها منك ؛ إن السيد دون كيخوته دلا منتشا في تمام عقله ، ونحن الذين في صحبته لسنا مجانين . وينبغي على المرء أن يوقر الفضيلة أينما وجدها ؛ إمضِ لحال سبيلك منحوسا ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك .

فأجاب القشتالي : والله أنت على حق ؛ إن إسداء النصح إلى هذا الغر هو كالتصادم مع الشوكة . وعلى الرغم من هذا ، فإنها لخسارة حقا أن حسن العقل ، الذي يكشف عنه في كل شيء ، يزول حين يتعلق الأمر بالفروسية الجوالة . وليلحقني النحس ، الذي تتكلم عنه ، أنا وكل ذريتي ، إذا أسديت نصائح لشخص ما حتى لو سألني النصح ، وذلك طول حياتي ولو عشت عمر نوح (متوشالح) » .

وهنالك ابتعد ، واستمر الآخرون في طريقهم . ولكن جمهور الناس والصبيان الذين كانوا يقرأون البطاقة ازداد زيادة هائلة حتى اضطر دون أنطونيو إلى انتزاع البطاقة ، بحجة أخرى .

ثم جاء الليل ، وعادوا إلى البيت ، حيث تجمعت جماعة كبيرة من السيدات ، لأن زوجة دون أنطونيو ، وكانت من أبرز سيدات المدينة ، جميلة ، عاقلة مرحة ، قد دعت الكثيرات من صديقاتها لتكريم ضيفها ، والتسلية ، في الوقت نفسه ، بأعماله الجنونية التي لم يسمع بمثلها . وكان العشاء فاخرا ، وبدأ الرقص في العاشرة ليلا ، ومن بين السيدات كانت اثنتان ذواتا مزاج يحب المزاح الشديد ، وإن كانت شريفتين ، وقد تعودتا المزاح غير المؤدي إلى نتائج أخرى . فاستولتا على دون كيخوته وجعلتاه يرقص رقصا شديدا ، حتى لم يعد في وسع المسكين الاستمرار ، وكان من المضحك جدا أن يرى هذا الوجه الهزيل النحيل المتوتر وهذه البشرة السمراء ، وهذا الثوب الضيق ، وهذه المشية الثقيلة التي لا رشاقة فيها . وكانت كل منهما تنافس الأخرى في إغرائه وملاطفته ، وبدا هو أنه

يزدريهما ويترفع عنهما . ولما تضايق من ملاحقتهما صاح : «أغربوا عني أيها الخصوم[١] ؛ دعيني في سلام ، أيتها الأفكار الخائبة ؛ لقد أسأتم المجيء بهذه الرغبات ، أيتها السيدات ؛ إن من استولت على أفكاري المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، لا تسمح أن يتغلب علي أفكار غير أفكارها .» وفي الوقت نفسه جلس وسط القاعة ، وهو محطم من هذه التمرينات العنيفة .

وأمر دون أنطونيو بحمله إلى سريره ، وكان أول من تقدم لمساعدته هو سنشو ، فقال هذا له : يا للّه! يا مولاي! هل رقصت إذن ؟ وهل تظن أن كل الشجعان يحسنون الرقص ؟ وأن كل الفرسان الجوالة هم مهرجون ؟ إن ظننت هذا ، أخطأت كل الخطأ ؛ إن منهم من يفضل أن يهاجم ماردا على أن يثب وثبة كاملة . ولو كان الأمر أمر وثب ، بضرب الردفين بالحذاء ، فإني أستطيع أن أحل محلك ، لأني أقوم بذلك مثل الشاهين ، لكن الرقص على الأرض هذا أمر لا أحسنه .» فضحك كل أصحاب الرقص من كلام سنشو . وحمل هو سيده إلى غرفته ، وأرقده على الفراش ، وغطاه بغطاء ثقيل ، حتى يجعله يعرق الرطوبة التي تلقاها من الرقص .

وفي اليوم التالي ، أراد دون أنطونيو أن يجرب الرأس المسحور فراح إلى الغرفة التي فيها الرأس ، ومعه دون كيخوته وسنشو ، وصديقان ، والسيدتان اللتان أرهقتا دون كيخوته ، وكانت قد نامتا في البيت مع زوجة دون أنطونيو . وأخبر الجميع بخواص هذا الرأس ، وأوصاهم بكتمان السر ، وقال إن هذا هو أو ل يوم مناسب لإجراء التجربة ، وأنه باستثناء الصديقين الحاضرين هنا ، فإن أحدا لا يعرف سر هذا السحر ، ولو لم يخبرا لاندهشا كالباقين ، لأن العملية متقنة .

وكان أول من سأل الرأس هو دون أنطونيو نفسه ، الذي قال له بصوت خفيض ، لكن مسموع : «قل لي أيها الرأس ، بما فيك من موهبة خاصة ، في أي شيء أفكر أنا الآن ؟» . فأجاب الرأس : «أنا لا أعرف قراءة الأفكار» ، قال الرأس هذه العبارة دون أن يحرك شفته وبصوت واضح متميز ، سمعه الجميع . فبقي الكل حيارى ، وهم ينظرون في الغرفة هل حول المنضدة شخص يجيب بالنيابة عن الرأس .

فسأله أنطونيو بعد ذلك : «كم عددنا هنا» فأجاب الرأس : «أنت وزوجتك ، وصديقان ، وصديقتان لزوجتك ، وفارس شهير يدعى دون كيخوته دلا منتشا ، وسائسه

(١) قالها باللاتينية ، وهي جملة تستخدمها الكنيسة في طرد الشر ، وانتقلت الى اللغة المعتادة .

سنشو پنثا .» فاندهشوا جميعا مرة أخرى وشعر بعضهم بأن شعره يقف . فقال أنطونيو وهو يبتعد : «أيها الرأس العاقل ، المتكلم ، المجيب ، الرائع ، هل يكفيني لأحكم على أن من صنعك لم يغشني . ليقترب شخص آخر وليسأله ما يريد » .

ولما كانت النسوة قليلات الصبر مستطلعات ، فإن إحدى صديقتيّ صاحبة البيت هي التي سألت الرأس فقالت : «قل لي ، أيها الرأس ، ماذا ينبغي أن أفعل لأكون جميلة دائما ؟ » فأجاب الرأس : «أن تكوني دائما مخلصة شريفة» . فقالت : «هذا يكفي وحسبي هذا » . واقتربت الصديقة الأخرى وسألت : «أريد أن أعرف هل يحبني زوجي ؟ » ـ فأجاب الرأس : «لاحظي سلوكه معك تعرفي» . فانسحبت هذه السيدة وقالت : «الواقع أن الأفعال تتكلم بنفسها ، وسؤالي لم يكن له فائدة» .

وسأل أحد صديقيّ أنطونيو : «من أنا؟ » ـ فقال الرأس : «أنت تعرف» . ـ «ليس هذا قصدي ، هل تعرفني ؟ » ـ «نعم ، أنت دون بدرو نورث» ـ «كفى! هذا الجواب يدلني على أنك تعرف كل شيء » .

وسأله الصديق الاخر : «قل لي ، أيها الرأس ، ماذا يرغب أكبر أولادي ؟ » . ـ «لقد سبق أن قلت إنني لاأقرأ الأفكار ، ورغم ذلك فإني أحذرك أن ابنك يفكر في دفنك» . فقال الصديق : «أنت على حق ، وأنا أرى في عينيه ، وألمسه باصبعي ، ولا أريد أن أعرف المزيد » . وقالت زوجة دون أنطونيو : «لست أدري ماذا أسألك عنه ، أريد فقط أن أعرف هل أستمتع طويلا برفقة زوجي » ـ فقال الرأس : «نعم ، لأن عفته وصحته تعدانه بعمر طويل ، والعمر في العادة يخترمه الاسراف والافراط» .

واقترب دون كيخوته بدوره وقال : «قل لي ، أنت يا من تحسن الجواب هكذا ، هل كان حلما أو حقيقة ما شاهدته في كهف مونتيسينوس ؟ وهل سنشو سيجلد نفسه حقا الجلدات المطلوبة ، وهل سيرفع السحر عن دلثنيا ؟ » ـ فأجاب الرأس : «أما عن كهف مونتشينوس فثم الكثير الذي يمكن قوله في هذا الموضوع ؛ وأما سانسك سنشو فسيجلد نفسه فعلا ، ودلثنيا سيرفع السحرعنها » . ـ فقال دون كيخوته : «لا أريد أن أعرف المزيد ، بشرط أن يرفع السحر عن دلثنيا ، وأنا متأكد أن كل المغامرات المقبلة ستنجح» .

وكان سنشو آخر السائلين فقال : «قل لي ، أيها الرأس ، هل سأحصل على حكومة أخرى ؟ وهل سأخرج من مهنة سائس الهزيلة ؟ وهل سأرى زوجتي وأولادي ؟ » ـ فقال الرأس : «ستكون حاكما في بيتك ؛ وإذا عدت إليه ، فسترى زوجتك وأولادك ، وحين تكف

عن الخدمة ستكف عن كونك سائسا » . ـ فقال سنشو : « والله لقد أحسن الجواب ، وأنا قدرته من قبل ، والنبي بيروجرويو[1] ما كان يمكن أن يقول أحسن من هذا » .

فقال دن كيخوته : « أيها المغفل ، أي سنشو ، ماذا كنت تريد من الرأس أن يجيب عليك ؟ ألا يكفي أن تتناسب الأجوبة مع الأسئلة ؟ » .

فقال سنشو : « لا شك في هذا يا مولاي ، ولكني كنت أود أن يقول المزيد » .

وهكذا انتهت الأسئلة والأجوبة ، ولم تنته دهشة الحاضرين ، الذين لم يكفوا عن الإعجاب بالرأس المسحور ، ما عدا صديقي دون أنطونيو ، لأنهما كانا يعرفان الحيلة .

وقد أراد سيدي حامد أن يعرفنا هذه الحيلة ها هنا ، حتى لا يترك القارئ معلقا يظن أن الرأس يحوي سرا خارقا . وهو يقول إذن إن دون أنطونيو أمر بصنع هذا الرأس على غرار رأس آخر صنعه نحات ، وذلك من أجل لذة دون أنطونيوولمفاجأة الجهلة . لقد كانت المنضدة من الخشب المدهون على اليشب ، والرجل التي تحملها كانت من المادة نفسها ، مع أربعة مخالب نسر تخرج منها لزيادة تثبيتها . والرأس ، الذي بدا شبيها برأس امبراطور روماني ، وبدا أنه من البرونز ، كان أجوف فارغ الداخل تماما ، وكذلك داخل المنضدة ، وكان معشقا فيها بطريقة بارعة بحيث لا يرى أي لحام ؛ وكانت رجل المنضدة جوفاء هي الأخرى ، وتتجاوب مع فتحة مصنوعة في سقف الغرفة السفلى . وثم أنبوبة من الصفيح تمتد من فم وأذن الرأس ، وتخترق المنضدة ، والرجل ، والسقف ، دون أن ترى ؛ وفي الغرفة السفلى يوجد من سيتولى الرد على الأسئلة . فكان يضع فمه في الأنبوبة (الماسورة) التي كانت مثل الماسورة تردد الصوت من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، بألفاظ واضحة متميزة ، وبهذه الطريقة كان من المستحيل معرفة الحيلة . وكان يقوم بالجواب عن الأسئلة ابن أخي دون أنطونيو ، وهو فتى ذكي ؛ تعرف من عمه من الذين سيدخلون معه الغرفة ، فكان من السهل عليه أن يرد على السؤال الأول . أما الأسئلة الأخرى فقد رد عليها بالحذر وعلى نحو مناسب ، كما رأينا ، بفضل ذكائه . ويروي سيدي حامد أن عرض هذه الأعجوبة استمر من عشرة إلى اثني عشر يوما ، لكن لما انتشر الشائعة في المدينة أن عنده رأسا مسحورا يجيب عن كل الأسئلة ، خشي أن تبلغ الإشاعة مسامع رجال التفتيش ، ففضل أن يخبرهم هو بنفسه . فنصحوه بأن يحطم هذه الآلة ، حتى لا يثير البلبلة في نفوس الجهلة والدهماء . لكن في رأي دون كيخوته وسنشو بقي الرأس دائما مسحورا ، يجيب عن الأسئلة بما فيه الكفاية .

---

(١) Pero Grullo هوما يقابل في الفرنسية M. de la Palisse فيقال : هذه حقيقة من حقائق بيروجرويو (والفرنسيون يقولون : من حقائق لاباليس) : أي معروفة لجميع الناس ، بديهية .

ولكن أعيان المدينة ، من أجل إرضاء دون أنطونيو والاحتفال بدون كيخوته وتحقيق الفرصة لإظهار أعماله الجنونية ، قرروا أن يقيموا مسابقة خواتم بعد ستة أيام ، لكن هذا لم يتم لأسباب سنذكرها بعد قليل .

ورغب دون كيخوته في أن يتجول في المدينة على قدميه ، خوفاً من أنه إذا ركب فرسه ، فإن الأطفال سيجرون وراءه . فخرج مع سنشو وخادمين أعطاهما له دون أنطونيو . ومر بشارع فوجد مكتوبا على أحد البيوت فيه ما يلي : «هنا تطبع كتب» . فأحدثت هذه المصادفة لذة بالغة في نفسه لأنه لم يشاهد مطبعة في حياته ، ولم يعلم كيف يتم الطبع .

فدخل ومن معه ، وشاهد كيف تصف الحروف في ناحية ، ثم يصحح المجموع في ناحية أخرى ، وتطبع الملازم بعد التصحيح ، وبالجملة كل ما يمكن أن يرى في مطبعة كبيرة . واقترب من صندوق ، وسأل الجماع ماذا يعمل ، فشرح له العامل ذلك ؛ واستمر وسأل السؤال نفسه عاملا آخر ، فقال مشيرا إلى رجل حسن الطلعة وقور «هذا الرجل المهذب الموجود أمامك قد ترجم كتابا تسكانيا (إيطاليا) إلى اللغة القشتالية (الاسبانية) ، وأنا أجمع حروفه لطبعه بعد ذلك» ـ فقال دون كيخوته : «وما عنوان هذا الكتاب ؟» ـ فأجاب المترجم بنفسه : «الترهة» . ـ «وبماذا ترجمت هذه الكلمة إلى اللغة القشتالية ؟» ـ «كلمة مثل Los Juguetes (= الألاعيب ، اللعب) ؛ وعلى الرغم من العنوان المتواضع الذي يحمله هذا الكتاب ، فإنه يتضمن أشياء حسنة وجادة» . ـ فقال دون كيخوته : «أنا أعرف قليلا من اللغة التوسكانية (الإيطالية) ، وأشعر بلذة كبيرة في إنشاد بعض أشعار أريوستو . لكن اعذرني عن هذه الأسئلة ، فإن حب الاستطلاع هو الذي يمليها علي ، لا الرغبة في امتحانك ؛ لا شك في أنك مررت عدة مرات في النص بكلمة Pignata ؟ ـ كثيرا» . ـ «وكيف تترجمها ؟» ـ «كما ينبغي ، أي بكلمة Olla (= قدر)» ـ فقال دون كيخوته «أوه ، كم أنت متضلع في اللغة التوسكانية! وأنا أراهن أنك تترجم Piace بـ Placa (يسر) ، و Pui بـ Mas (أكثر من) ، و Su بـ Arriba (فوق ، على) ، و Mas بـ Abajo (= تحت ، أسفل) . » ـ فقال المترجم : «طبعا ، فهذه هي الكلمات المقابلة .» ـ فقال دون كيخوته : «إني أتجرأ على القسم بأن سيادتك غير معروف بين الناس ، وهم أعداء باستمرار للعقول اللامعة والأعمال الجيدة . كم من مواهب مدفونة في المجتمع! وكم عقول مغمورة! وكم فضائل مزدراة! ومع هذا كله ، فيبدو لي أن الترجمة من لغة إلى أخرى ، حين لا تكون من اليونانية أو اللاتينية ، وهما ملكتا اللغات ،

تشبه من ينظر في سجاجيد الفلاندر من ظهرها ، لأنه وإن كان لا يزال من الممكن تمييز الصور والأشكال ، فإنها مملوءة بالخيوط التي تتشابك فيها ، ولا يمكن أن ترى بتمام بهائها . والاشتغال بالترجمة من لغة سهلة لا يدل على مزيد من الذكاء ولا الأسلوب أكثر من النسخ من ورقة على ورقة أخرى ما هو مكتوب فيها[1] . ولست أقصد بهذا أن مهنة المترجم ليست جديرة بالتقدير ، لأن الإنسان يمكن أن يشتغل بأمور أسوأ ذات عائدة أقل . ولكني أضع خارج هذه الفئة مترجمين شهيرين هما : الدكتور كريستوبال دي فيجروا في «الراعي فيدو»[2] ، ودون خوان دي خوريجي في «أمنتا»[3] . فكلاهما قد أثار الشك في أيها الترجمة وأيها الأصل . لكن قل لي ، يا سيدي ، هل تطبع هذا الكتاب على حسابك ، أو بعته لأحد الناشرين ؟ » ـ فقال المترجم : «إني أطبعه على حسابي ، وأقدر أن أربح منه ألف دوقية ، على الأقل ، في الطبعة الأولى ، التي ستكون من ألفي نسخة ، سعرالنسخة ستة ريالات ، وستباع بسرعة مذهلة» .

فقال دون كيخوته : كم أنت بعيد عن الواقع! أنت لا تعرف إذن مداخل الناشرين ومخارجهم ، والمراسلات التي تجري بينهم ؟ وأنا أتوقع لك حين ترى نفسك محملا بألفي نسخة ، أنها ستبهظ كاهلك فلا تستطيع أن تتحرك ، خصوصا إذا لم يكن الكتاب لاذعا .

فقال المترجم : لماذا! هل تريد مني إذن أن أتنازل عن حقوقي لصاحب مكتبة ، يعطيني ثلاثة مرابطيات ، ويعتقد أنه أحسن مكافأتي ؟ إني لا أطبع من أجل الشهرة ، لأني معروف لدرجة كافية ؛ بل أسعى إلى الربح ، وبدون الربح لا تساوي الشهرة عندي فلسا واحدا .

فقال دون كيخوته : أنجح الله سعيك .

وانتقل إلى عنبر آخر رأى فيه تصحيح تجارب كتاب عنوانه «أنوار الروح»[4] . فلما رآه قال : «هذه هي الكتب التي ينبغي طبعها ، مهما يكن من نوعها الكثير ، لأن الخاطئين كثيرون ، ولا بد من نور كثير لإضاءة نفوس كل هؤلاء العمي» . ثم انتقل إلى مكان آخر ، فرآهم يصححون كتابا آخر عنوانه : «القسم الثاني من البارع النبيل دون كيخوته دلا

---

(١) هنا ينقد ثربانتس طريقة المترجمين في عصره ، وقد كانوا يعتمدون على نقل الكلام حرفيا كلمة مقابل كلمة دون فهم المعنى الأصلي أو روحه .

(٢) نشرت هذه الترجمة في بلنسية سنة ١٦٠٩ ، والمترجم أصله من مدينة بلد الوليد .

(٣) نشرت في إشبيلية ، وقد ولد فيها المترجم ، وكان شاعرا ورساما أيضا .

(٤) «أنوار الروح المسيحية ضد العمي والجهل» تأليف الأخ فليب دي منيسس ، شلمنقه ، سنة ١٥٥٦ . المؤلف من ترجاله ، ومن أتباع طريقة القديس دومينيك ، وكان أستاذا في القلعة .

منتشا » تأليف فلان ، من توردسياس . فقال دون كيخوته : « لقد عرفت هذا الكتاب من قبل ، وأنا أقسم بشرفي وضميري أنني كنت أعتقد أنهم أحرقوا هذا الكتاب وأحالوه إلى رماد ، إنه كتاب سيئ . لكن عيد القديس مرتان سيمر عليه كما يمر على كل خنزير . إن التواريخ المتخيلة تكون أحسن وأمتع كلما اقتربت من الحقيقة ، والتواريخ الحقيقية تكون أكمل كلما كانت أكثر انطباقا على الواقع » . ولما قال هذه الكلمات خرج من المطبعة غاضبا . وفي اليوم نفسه قرر دون أنطونيو أن يصطحبه لرؤية الجاليرات التي كانت على الشاطئ ، مما سر له سنشو كل السرور ، لأنه لم يرها من قبل . فأخطر دون أنطونيو قائد الجاليرات بأنه سيأتي هذا المساء ومعه ضيفه ، الشهير دون كيخوته دلا منتشا الذي يعرفه بالشهرة ، هو وجيرانه . وسترى في الفصل التالي ما سيحدث .

الفصل الثالث والستون

في النتيجة السيئة التي كانت لزيارة سنشو پنثا للجاليرات، والمغامرة الجديدة للمورسكية الجميلة

حار دون كيخوته في تفسير جواب الرأس المسحور دون أن يهتدي إلى الرأي الصحيح . ولم يتمسك إلا بما وعد به من رفع السحر عن دلثنيا ؛ وكان يغدو ويروح فرحا في داخل نفسه ، وهو يؤمل أن يرى بعد قليل تحقق أمانيه . أما سنشو ، وإن كان قد كره الحكم ، فإنه كان سيسر لو أنه تولى مقاليد الحكم وصار يأمر ويطاع مرة أخرى ، لأن للحكم سحره وإغراؤه ، حتى لو لم يكن غير ألعوبة . وفي مساء هذا اليوم نفسه ذهب دون أنطونيو وصديقاه ودون كيخوته وسنشو إلى الجاليرات . وكان القائد قد بلغ مقدما بمجيء هذين الأخيرين ؛ ولهذا فإنه لم تكد الجماعة تأتي إلى الميناء ، حتى أرخت الجاليرات كل خيامها وأطلقت صفاراتها . وألقى بالقارب في الماء ؛ وكان مفروشا بأبسطة فاخرة ومربعات من القطيفة القرمزية . ولم يكد دون كيخوته يضع قدمه في داخل الزورق حتى سمع مدفع القائد ومدافع سائر الجاليرات ، وحياه كل البحارة ، كما هي العادة حين يأتي شخص ممتاز ؛ وعلت الهتافات به . وعانق القائد وهو من أعيان بلنسية ، دون كيخوته ، وأعطاه يده ، وهو يقول : « إن هذا اليوم ينبغي يا سيدي أن يخلد ذكره على حجر أبيض ، بوصفه يوما من أجمل أيام حياتي ، إذ شاء حسن الحظ أن أرى الشهير دون كيخوته دلا منتشا ، الذي يحوي في داخله هو وحده خلاصة الفروسية » . ورد عليه دون كيخوته بتحية لاتقل لطفا وقد رأى نفسه يعامل كأمير . وتقدموا إلى المؤخرة وكانت مزوقة كل التزويق ، وجلسوا على المقاعد . وصعد رئيس الملاحين على الجسر الأوسط ، وأعطى الإشارة ليخلع كل المحكوم عليهم ملابسهم ، وتم هذا في الحال . ودهش سنشو من مشاهدة هذا العدد الكبير من العراة ، وخصوصا وهو يراهم يمدون الشراع بكل هذه السرعة ، حتى لتكاد الشياطين نفسها أن تشارك في العملية ؛ لكن هذا لم يكن شيئا إذا ما قورن بما سيحصل له .

كان جالسا على عامود الكوثل بالقرب من المجذفين الأولين ناحية اليمين ، وقد لقنا ماذا يفعلان ، فأمسكا به ، ورفعاه ؛ وكان كل الطاقم مستعدا لبدء الإشارة . وأمر المجذف الأول سنشو إلى جاره وهذا إلى جاره ، وهكذا جرى من يد إلى يد ، ومن مقعد إلى مقعد ، ودار في الجاليرة كلها واستقر على المؤخرة في الموضع الذي أمسك به عنده أولا ، وتم هذا كله بسرعة هائلة أذهلته ، حتى ظن أن الجن والعفاريت هم الذين حملوه هكذا وتبادلوه . وصار محطما تماما ، يتصبب العرق منه قطرات غليظة ، وهو لا يفهم ما وقع له .

فسأل دون كيخوته ، حين رأى سنشو يطير هكذا ، سأل القائد هل هذا هو المرسم الذي يجرى للذين يزورون الجاليرات لأول مرة ؛ وأضاف : إذا كان الأمر كذلك ، فإنه لما كان لا يريد أن يصبح بحارا ، فإنه لا يريد القيام بمثل هذا التمرين! وقال : « أقسم بالله لو تجرأ أحد ووضع يده علي ليرقصني هكذا ، فإني سأنترع روحه من بدنه » . ولما قال هذه العبارة نهض واقفا وأمسك سيفه . وفي الوقت نفسه أرخيت الشرع ، وأنزلت القرية بصوت هائل ، فاعتقد سنشو أن السماء انفصلت عن مفصلاتها ، وسقطت على رأسه ؛ فارتاع ، وخفض رأسه وأخفاه بين ساقيه . ولم يكن وحده الذي ارتاع ، بل ارتاع أيضا دون كيخوته ، وشحب لونه وشد كتفيه . ثم رفعت القرية بضجة شديدة ، وتم كل هذا دون أن ينطق الطاقم بكلمة . وأشار رئيس الملاحين برفع المرساة ، ووثب في الوقت نفسه على الجسر الأوسط وأخذ يضرب أكتاف المحكوم عليهم بواسطة سوط ، وفي الحال دخلوا البحر .

ولما أبصر سنشو كل هذه السيقان تتحرك ، لأنه ظن المجاذيف سيقانا ، قال في نفسه : « هذه أشياء مصابة بالسحر فعلا ، وليست الأشياء التي يتباها بها مولاي . لكن ماذا فعل هؤلاء المساكين ليضربوا بالسياط هكذا ؟ وأني لرجل واحد ، يصفر هكذا ، أن يكون له من الجرأة ما يجلد به كل هؤلاء الناس ؟ لا شك أن هنا الجحيم ، أو المطهر على الأقل » .
ولا حظ دون كيخوته شدة اهتمام سنشو بكل ما يراه ، فقال له : « يا صاحبي ، ما أسهل أن تتعرى مثل هؤلاء ، وتنحرف في صف المجذفين وتصنع بهذا رفع السحر عن دلثنيا! انك لن تحس بعذاب هؤلاء الأشقياء ، وربما حسب لك الحكيم مرلان كل جلدة بعشر ، لأن اليد التي أعطتها جيدة » .

وأراد القائد أن يسأل عن هذه الجلدات ورفع السحر عن دلثنيا ؛ لكن المرشد قاطعه يقول له أنه من برج مونتجوتيش لوحظ قدوم باخرة من الغرب . فوثب على الجسر الأوسط وصاح : « هيا يا أولادي ، هذه سفينة قرصان من الجزائر رصدها الديدبان ، فاعملوا على الا تهرب منا » . واقتربت الجاليرات الثلاث الأخرى من جاليرة القيادة لتستعلم عما ينبغي

عمله . فأمر القائد بأن تتقدم اثنتان منها الى عرض البحر ، أما هو فيساحل ، مع الجاليرة الأخرى ، حتى لا تهرب السفينة . وأخذ المجذفون يجذفون بشدة حتى بدا كما لو كانت الجاليرات تطير ؛ ولمحت الجاليرتان اللتان تقدمتا في عرض البحر بعد ميلين سفينة فيها أربعة عشر أو خمسة عشر من المجاذيف ؛ ولما شاهدت سفينة القرصان الجاليرات ، أخذت في الهروب ، وهي تؤمل في النجاة نظرا إلى خفتها ؛ لكن خاب ظنها ، لأن جاليرة القائد كانت من أخف المراكب ، وهنالك رأى العدو أنه لن يفر من حتفه ، ولهذا أمر رئيس القرصان بالكف عن التجديف ابتغاء عدم إثارة قائد الجاليرات ؛ لكن القدر دبر غير ذلك . لقد كانت جاليرة القائد قريبة جدا حتى أن رجال سفينة القرصان كانوا يسمعون دعوتهم إلى التسليم ؛ وقام تركيان مخموران ، فأطلقا الرصاص من اسكوبتهما على جنديين اسبانيين على الافريز فقتلاهما . ولما رأى قائد الجاليرة ذلك أقسم أن هذا سيكلف العدو حياته .

فهاجم سفينة القرصان ، ولكنها فرت تحت المجاذيف ، غير أن الجاليرة قطعت عليها الطريق . ورأى العدو أنه هالك فرأوا أن يفروا بينما الجاليرة تلف ، واشتد تجذيف السفينة ، لكن اجتهادهم لم ينجهم من العقاب عن جسارتهم . فبلغهم القائد على مسافة نصف ميل ، وألقى بالمجاذيف عليهم ، وأسرهم جميعا أحياء .

وتجمعت الجاليرات الأربع وعادت بغنيمتها إلى الساحل ، وكان يعج بعدد كبير من المشاهدين ، الذين جاءوا ليروا سفينة القراصنة . وألقي القائد مراسيه ، ولما علم أن نائب الملك[1] على الشاطئ ، أرسل إليه الزورق ، وأمر في الوقت نفسه بالاتيان بالقرية وشنق رئيس القراصنة فيه ، وسائر الأتراك وكان عددهم قرابة ستة وثلاثين وكلهم رماة مهرة نشطون . وسأل القائد عن رئيس سفينة العدو . فقال أحد الأسرى بالاسبانية ويبدو أنه مرتد أسباني ، إنه هذا الشاب الذي أمامك ، وأشار إلى فتى من أجمل ما يرى من الفتيان ، عمره حوالي عشرين سنة ، فناداه القائد وقال له : « خبرني أيها الفاسد الرأي ، ماذا حملك على قتل جنديين من جنودي ، حين رأيت أنك لن تستطيع الفرار ؟ هل هذا هو الاحترام الواجب للقادة ، وهلا تعرف أن التهور ليس من الشجاعة في شيء ؟ إن الامال المشكوك فيها يمكن أن تجعلنا جمهورين ، لا متهورين » .

وكان الرئيس على وشك أن يجيب ، لكن لم يكن عنده متسع من الوقت ، لأن نائب

---

(١) وهو دون فرنشسكو هورتادو دي مندوثا ، مركيز المخزن ، ومحارب شجاع .

الملك كان قد نزل الجاليرة ومعه رجاله وبعض أشخاص أخر . وسأل القائد : «هل ظفرت بغنيمة عظيمة ؟» ـ فقال القائد : «ولماذا ؟» ـ «لأنهم ، ضد كل عرف وقانون حرب ، قتلوا اثنين من خيرة جنودي ، وقد أقسمت أن أشنقهم جميعا ، خصوصا هذا الفتى الذي هو رئيس سفينة القراصنة .» هكذا قال ، وأشار إلى هذا الفتى الموثق اليدين ، والحبل في عنقه ، ولا ينتظر إلا الموت .

فألقى نائب الملك نظرة عليه ، ورآه جميلا شديد الأسر متواضعا ، ففكر في إنقاذه ، لأن جمال الفتى بمثابة خطاب توصية به . فقال للفتى : «يا رئيس ، هل أنت تركي العنصر ، مسلم أو مرتد ؟» ـ فأجاب الفتى باللغة الاسبانية : «لا هذا ، ولا ذاك» . ـ «فمن أنت إذن ؟» ـ «أنا امرأة ونصرانية» . ـ «امرأة نصرانية بهذا الزي ، وفي هذه المصادمة ؟ هذا أمر عجيب عسير التصديق» . ـ فقال الفتى : «يا سادتي ، أجّلوا قرار إعدامي لوقت قصير ، ولن يخسر انتقامكم شيئا ، وسأقص عليكم قصة حياتي» .

أي قلب من البرونز لا يرق لهذه الكلمات ، أو على الأقل لا يوافق على سماع قصة هذه المخلوقة البائسة ؟ ولكن القائد كان مهتاجا غاضبا فقال لها : تستطيعين أن تقصي ما تشائين ، لكن لا تؤملي في الصفح عن جريمتك .

فقالت : «سادتي! إني بنت لأبوين مغربيين ، من تلك الأمة التي كان حظها من البؤس أكثر من حظها من الفطانة ، والسماء منذ مدة تصب عليها بحارا من المصائب . وأتى بي اثنان من أعمامي إلى بلاد البربر (المغرب) ، دون أن يفيدني شيئا أن أقول بأنني نصرانية ، وأنا بالفعل كذلك ، ولست من أولئك اللواتي يتظاهرن بذلك ، بل أنا في صميم قلبي كاثوليكية . والذين كلفوا بطردنا البائس أصموا آذانهم عن هذه الحقيقة ، ورفض عماي تصديق ذلك ، مقتنعين بأن هذا كذب من جانبي ابتغاء البقاء في أرض ميلادي ، حتى إنني اضطررت رغما عني إلى الذهاب معهما وكان أبي وأمي نصرانيين ، وعاقلين فطنين . ورضعت لبان الإيمان الكاثوليكي وربيت تربية حسنة ، ولم يكن ثم مظهر يدل على أنني مغربية (مسلمة) . ونما جمالي ، إن كان لي جمال ، في ظل هذه الفضائل ، لأني أعدهما كذلك ، وعلى الرغم من كوني عشت عيشة منعزلة ، بيد أن فارسا شابا أبصرني ، اسمه دون جسبار جريجوريو[1] ، الابن الأكبر لرجل من الأفاضل ، وكان يعيش بالقرب منا . وسيطول بنا الكلام لو أني رويت لكم كيف رآني ، وكيف كنا نتكلم معا ، وكيف هام حبا

(١) «دون جريجوريو» هذا يسمى «دون جسبار» في أحد الفصول السابقة . ووريكوته في نهاية الفصل الرابع والخمسين ، سماه «دون بدرو» . واسمه في الفصل الخامس والستين «دون جريجوريو» .

بي ، كما أحببته أنا . والحبل المهلك الذي يهددني لا يعطيني مهلة من الوقت . ولهذا يكفيني أن أقول أن دون جريجوريو أراد أن يصحبنا في المنفى . فاختلط بالمغاربة وكان يعرف لغتهم جيدا ، وفي أثناء الرحلة صادق عمي اللذين يصحبانني ، لأن أبي ، وهو رجل متبصر حكيم ، حين عرف قرار نفينا ، ارتحل ليجد لنا في البلاد الأجنبية ملجأ . وقد دفن في مكان ، لا يعرفه غيري ، كثيرا من الآلئ والأحجار الكريمة الغالية الثمن ، وقطع نقود ، وأمرني بألا أمسها إذا اضطررت إلى الرحيل قبل عودته . فأطعت أمره ، وكما قلت لكم ، انتقلنا إلى العدوة مع عمي وسائر أقاربي . وكان المكان الذي استقررنا فيه هو الجزائر ، وكان ذلك جحيما لنا . لقدسمع الداي عن جمالي ثم عن ثروتي . فأمر بإحضاري للمثول بين يديه ، وسألني من أي مكان في أسبانيا أنا ، وأي كنز أتيت به . فذكرت له البلد الذي ولدت فيه ، وقلت له أن الكنز قد دفنته ، ولكني سيسهل علي العثور عليه بشرط أن أذهب أنا للبحث عنه . وكان كلامي هذا بقصد إثارة جشعه وطمعه ، وإغماض عينيه عن جمالي . وفي هذه اللحظة أخبروه بأنه جاء معي شاب من أجمل الشباب . فحزرت في الحال أنهم يقصدون دون جريجوريو ، وكان جماله غير عادي ، واضطربت وأنا أفكر في الخطر الذي يتهدد هذا الشاب ، لأن الأتراك الهمج يولعون بالشاب الجميل أكثر من ولوعهم بأجمل فتاة في الدنيا . فأمر الداي بإحضاره ، وسألني هل ما يقال عنه صحيح . فأجبت : نعم ، هو جميل ، ما في ذلك ريب ، ـ وكأن السماء ألهمتني ـ ، ولكنه ليس فتى ، بل فتاة مثلي وأرجوك أن تأذن لي بالذهاب لإعطائها ملابسها لكي تبدو أمامك بخجل أقل وروعة أكثر . فوافق على ذلك ، وقال أنه في اليوم التالي سنفكر في كيفية عودتي إلى اسبانيا للبحث عن كنزي . فذهبت للبحث عن جسبار ، ونبهته إلى الخطر المحدق به إذا ظهر أنه شاب ، فألبسته ثياب سيدة مغربية ، وفي المساء قدمته إلى الملك ، فأعجب بجماله لما رآه ، وقرر الاحتفاظ به ليهديه إلى السلطان الأعظم . ولتجنب خطر وإغراء وضعه بين النساء في الحريم ، أرسله إلى إحدى السيدات أرسله إلى الكبار ليحرس ويخدم حتى الرحيل . وأترك لأولئك الذين يعرفون عذاب الغياب أن يحكموا على الألم الذي أحدثه الفراق . وأمر الداي بإعادتي إلى اسبانيا في هذه السفينة ، بصحبة التركيين اللذين قتلا جندييكم ، وهذا المرتد الاسباني الذي ترونه ، قد جاء أيضا معي . وأنا أعرف أنه مسيحي مؤمن في قلبه وأنه يفضل البقاء في أسبانيا على العودة إلى بلاد المغرب : أما المجدفون فهم مغاربة وأتراك مهمتهم أن يجدفوا فقط . أما التركيان ، وكانا وقحين جشعين ، فإنهما لم يحترما الأمر الصادر إليهما بإنزالي أنا وهذا المرتد على أول شاطئ أسباني نصادفه ، وبملابس النصارى التي كانت

معنا ، بل أرادا أولا أن يتجولا على هذا الشاطئ ليحاولا الاستيلاء على غنائم ، وهما يخشيان أن نكشف عن السفينة بحادث عرضي ، مما يمكن الجاليرات الأسبانية من الاستيلاء عليها ، وهذا ما حدث فعلا . فاقتربنا من الساحل هذه الليلة ونحن لا ندري الخطر الذي ينتظرنا ، ولكنكم اكتشفتمونا ، والخلاصة أن دون جريجوريو ، وهو يلبس ملابس امرأة ، بقي عند امرأة في وسط أخطار من كل نوع ، وأما أنا فإني هنا موثقة اليدين ، لا أنتظر غير نهاية حياة صارت كريهة عندي . تلك ، يا سادة ، هي قصتي الحزينة . والفضل الوحيد الذي أطلبه منكم هو أن تتركوني أموت مسيحية ، فأنا لست مذنبة ، ولا مسئولة على الغلطة التي ارتكبها أبناء قومي » .

وسكتت ، وأثرت دموعها في كل السامعين . ورق قلب نائب الملك ، فاقترب منها ، وحل وثاق يديها . وطوال الوقت الذي كانت تتكلم فيه ، كان حاج عجوز ، دخل الجاليرة مع نائب الملك ، يتطلع بنظراته فيها . ولم تكد تفرغ من كلامها حتى سقط عند قدميها ، وقبلهما وعانقهما ، وقال لها ، بين آلاف الزفرات : « أي آنة فليكس Ana Felix ، بنتي الشقية ، أنا أبوك ريكوته ، وقد كنت على وشك السفر للبحث عنك ؛ لأنك روحي ، ولا أستطيع أن أعيش بدونك » .

وعند هذه الكلمات فتح سنشو عينيه ، ورفع رأسه ، الذي أرغمته النزهة على الجاليرة أن يخفضه ، وحدق في الحاج ، وتعرف فيه نفس رويكوته الذي لقيه حين خرج من الجزيرة ، وابنته البائسة ، التي ظلت تعانق أبيها منذ أن فك القيد من يديها ، مازجة دموعها بدموعه . وقال ريكوته مخاطبا القائد ونائب الملك : « نعم يا سادة ، هذه البائسة هي ابنتي ، الجديرة بالرثاء لما أصابها من بلواء . إن اسمها آنة فليكس ، واسم أسرتها ريكوته ؛ وثراؤها يعدل جمالها . وقد خرجت من بلدي للبحث عن ملجأ في الخارج . ولما وجدت ملاذا في ألمانيا ، عدت إلى وطني بزي الحاج ، وبصحبة بعض الألمان ، للعثور على ابنتي واستخراج كثير من الثروة التي خبأتها . غير أني لم أجد ابنتي ، بل وجدت كنزي ، الذي أحمله معي ، وفي هذه اللحظة ، بالمصادفة العجيبة التي تشهدونها ، أرى من جديد هذه البنت البائسة ، هذا الكنز الآخرالذي يجعلني أكثر ثراء ، فإن استطاعت دموعها ودموعي والدليل على براءتنا أن تستدر عطفكم ، فافتحوا باب الرحمة ، وأشفقوا على أولئك الذين لم يقصدوا أبدا إلى إهانتكم ، ولم يشتركوا في أية تدابير قام بها أبناء قومهم الذين نفيتوهم عن عدل . » ـ فقال سنشو : « نعم ، أنا أعرف ريكوته ، وأعرف أن آنه فليكس ، الحاضرة هنا الآن ، هي ابنته ؛ أما عن رحلاته وغدواته ، ونواياه الحسنة أو السيئة ، فهذا أمر لا شأن لي به » .

ودهش جميع الحاضرين من هذه المصادفات العجيبة ؛ ورق قلب القائد ، فقال للفتاة : «لقد انتصرت دموعك ، أي آنه فليكس الجميلة ، لن أتمسك بقسمي ؛ كوني سعيدة وانعمي بالأيام التي تهبك السماء ، وأولئك فقط الذين بلغت بهم الوقاحة أن ارتكبوا هذه الخطيئة هم وحدهم الذين سيعاقبون . » وفي الوقت نفسه أمر بشنق التركيين اللذين قتلا الجنديين الأسبانيين ، شنقهما في الدقل ، لكن نائب الملك طلب العفو عنهما ، قائلا إن فعلهما يدل على الجنون أكثر مما يدل على التهور . فوافق القائد ، لأن الرغبة في الانتقام اختفت بزوال الغضب . ثم اهتموا بالتفكير في الوسائل التي يمكن بها إنقاذ دون جريجوريو من الأخطار الموجد فيها . وعرض ريكوته تقديم ألفي دوقية ثمن لآلئ وأحجار كريمة يحملها ، من أجل بذلها في هذا الغرض . وكانت أحسن الأفكار فكرة المرتد ، التي تحدثنا عنها وهي أنه عرض أن يعود إلى الجزائر في مركب صغير ذي ستة صفوف من المجاديف ، بحارته نصارى . وهو وحده الذي كان يعرف أين وكيف يمكن النزول ، وكان يعرف البيت الذي يقيم فيه دون جريجوريو ، ووجد القائد ونائب الملك صعوبة في الثقة بالمرتد أول الأمر ، وأن يضع بين يديه مجدفين نصارى ، لكن آنه فليكس أكدت أن من الممكن الثقة به ، وتعهد ريكوته بدفع فدية النصارى لو أخذوا أسارى . ثم عاد نائب الملك إلى الشاطئ ، يتبعه دون أنطونيو مورينو ، الذي اقتاد معه الموريسكية وأباها . وأوصاه نائب الملك برعايتهما ، وقدر لهما كل ما يتعلق به ، لأن جمال آنه فليكس ألهمه الاهتمام بها والإحسان .

الفصل الرابع والستون

في أسوأ مغامرة وقعت لدون كيخوته

يروي التاريخ أن زوجة دون أنطونيو مورينو لقيت آنة فليكس بسرور بالغ ، وبذلت لها كل تكريم وحفاوة ، معجبة بحكمتها وجمالها ؛ وجاء كل أشراف المدينة لزيارتها والإئتناس بها . أما دون كيخوته ، فإنه قال لدون أنطونيو أن الرأي الذي أخذوا به ، من أجل تحرير دون جريجوريو ، لا يسره أبدا ، لأنه ينطوي على خطر أكثر مما ينطوي على أمل في النجاح ، وأن الأفضل هو أن يقاد هو نفسه إلى بلاد البربر بسلاحه وفرسه ، وسيبذل سعيه من أجل تخليص زوجته ميلسندره . فقال سنشو : «خذ حذرك ؛ لقد كان ذلك على البر لما اختطف دون جايفيروس زوجته ؛ لكن ها هنا ، حين تخلص دون جريجوريو ، فكيف تعود به إلى أسبانيا ، ما دام البحر بيننا وبين المكان الذي هو فيه ؟» ـ فأجاب دون كيخوته : «لكل داء دواء ، إلا الموت ؛ سنترك مركبنا عند الشاطئ ، ونستطيع أن نبحر فيه رغم أنف الجميع .» ـ فقال سنشو : «أنت تسهل الأمرجدا ، لكن بين القول والفعل مسافة طويلة ؛ أنا من رأيي أن نثق بالمرتد ، وهو يبدو لي رجلا طيبا حسن الخلق .» هنالك قال دون أنطونيو أنه إذا لم ينجح المرتد في خطته ، فسيلجأ إلى دون كيخوته .

وبعد يومين سافر المرتد ، مصحوبا بفتية شجعان ، في مركب خفيف ذي ستة مجاديف في كل صف ، وبعد يومين من ذلك اتخذت الجاليرات طريقها إلى المشرق ؛ ورجا القائد من نائب الملك أن يخبره بنتيجة مغامرات آنه فليكس وتخليص جريجوريو .

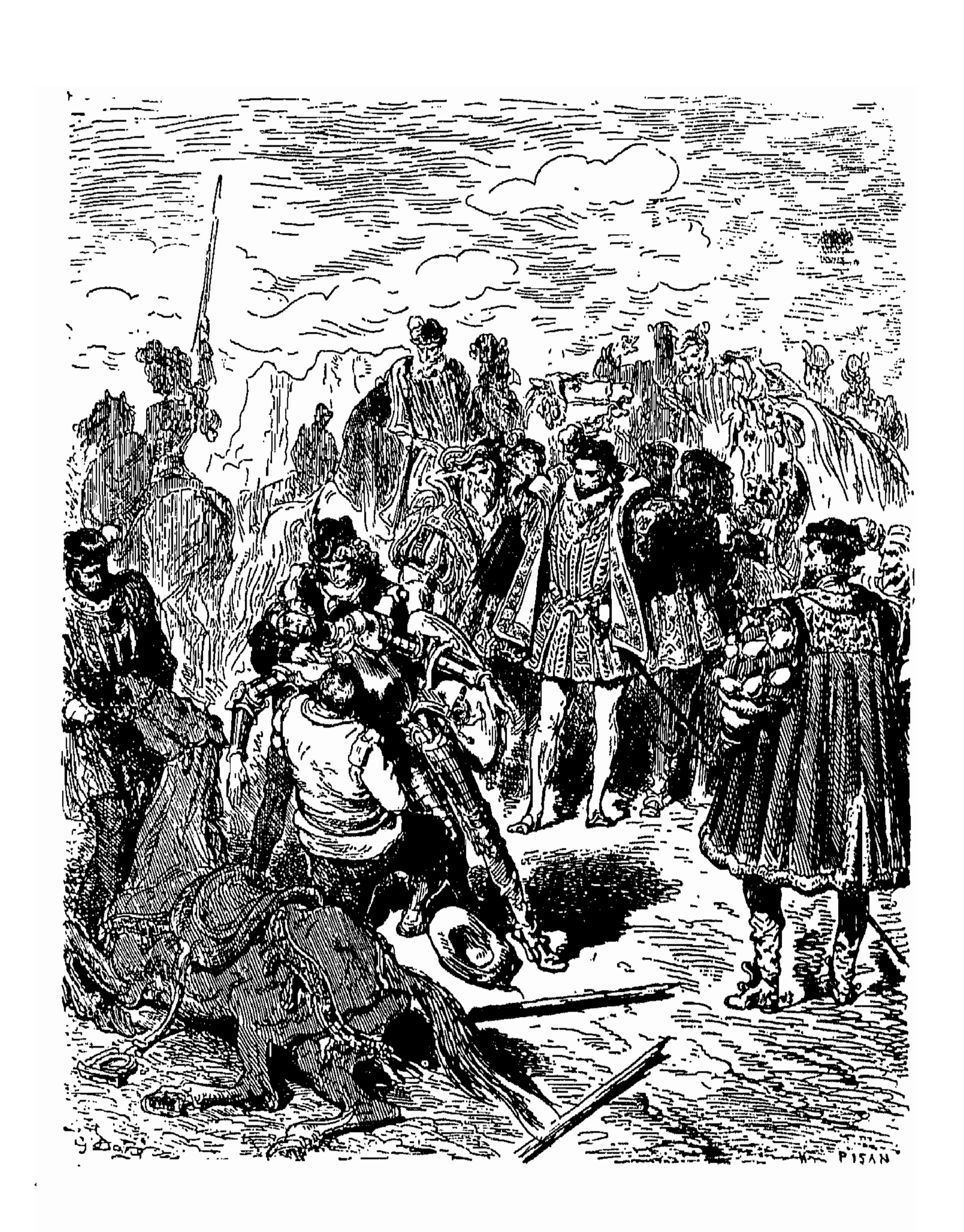
وذات صباح كان دون كيخوته يتريض على الشاطئ ، مدججا بالسلاح من قدمه إلى رأسه (إلا أنه ، كما كان يقول مرارا ، السلاح زينتي والكفاح راحتي ولهذا لم ير أبدا بغير سلاحه) ، ورأى فارسا مدججا بالسلاح مثله مقبلا عليه ، ويحمل على ترسه رسما لقمر باهر . ولما اقترب هذا الفارس صاح : «أي دون كيخوته دلا منتشا المغوار ، أيها الفارس

الشهير الذي لا يفيه الثناء حقه ، أنا فارس القمر الأبيض ، التي ربما بلغت مسامعك أخبار أعمالي المجيدة ؛ وقد أتيت لامتحان قوة ساعدك ومنازلتك ، لأرغمك على الاقرار بأن سيدتي ، أيا من كانت ، أجمل من دلثنيا دل توبوسو صاحبتك . فإن أقررت بذلك عن رضا ، أفلت من الموت ووفرت علي مشقة إصابتك به ؛ أما إذا شئت القتال ، فهذه هي شروطي : إذا انتصرت أنا ، فإني لا أطلب منك غير أن تلقي سلاحك ، وتتوقف عن الجري وراء المغامرات ، وأن تعتزل في بيتك طوال عام ، حيث تعيش في سلام وراحة دون أن تمسك بسيف كما يقضي عليك بذلك المحافظة على مالك ونجاة روحك . وإن انهزمت أنا ، فإن حياتي بين يديك ، بين يديك ، وأسلحتي ، وفرسي ملك لك ، ومجد أعمالي العظيمة ينسب إليك . فانظر ما تختار ، وأجبني في الحال ، إذ لا وقت عندي للانتهاء من هذه المسألة غير اليوم » .

فدهش دون كيخوته من صلف فارس القمر الأبيض وموضوع تحديه ، وأجاب بلهجة جادة قاسية : « أي فارس القمر الأبيض التي لم تصل إلى مسامعي أخبار أعماله ، سأجعلك تقسم بأنك لم تر أبدا دلثنيا الشهيرة ؛ لأنك لو كنت رأيتها ، لما كنت طلبت هذا الطلب ؛ وستدرك غلطك ، وأنه لا جمال يعدل جمالها . ولهذا لا أقول إنك كذبت ، بل أقول إنك على خطأ ؛ وأنا أقبل تحديك بالشروط التي اقترحتها ، ولا استثني منها إلا مجد أعمالك التي تريد أن تنسبها إلي ، لأني لا أعرف ما هي مغامراتك هذه ، وأكتفي بمغامراتي أنا كما هي . وأوافق على أن يتم القتال في الحال ، حتى تسوى هذه المسألة في اليوم الذي اخترته . فأفسح لنفسك كما تشاء ، وسأفعل المثل ، والله يعين من يشاء » .

وقد شوهد من المدينة فارس القمر الأبيض وعرف نائب الملك أنه في نقاش مع دون كيخوته ، واعتقد أن هذه لا بد أن تكون مغامرة جديدة دبرها دون أنطونيو ، أو أحد أعيان المدينة ، وتقدم إلى الشاطئ ، يتبعه دون أنطونيو ، وعدد كبير من أصدقائه ، في اللحظة التي أدار فيها دون كيخوته عنان روثينانته لاتخاذ المسافة المناسبة . ولما رأى أن الفارسين تأهبا للانقضاض كل منهما على الآخر ، حال بينهما ، وسألهما عن السبب في هذا القتال المفاجئ . فأجابه فارس القمر الأبيض أن الأمر يتعلق بتفضيل في الجمال ، وبإيجاز قص عليه ما قال لدون كيخوته ، وكيف أن شروط التحدي قد قبلها الطرفان .

واقترب نائب الملك من دون أنطونيو ، وسأله بصوت خفيض هل يعرف المتحدي ، وهل هذه لعبة جديدة يراد تدبيرها لدون كيخوته ؟ فأجاب دون أنطونيو بأنه لا يعرفه ، ولا يدري هل هذه مزاحة أو لا . فربك هذا الجواب نائب الملك ، ولم يدر هل يأذن بالقتال أو



دون كيخوته بعد أن صرعه فارس القمر

لا . ولما لم يستطع الاقتناع بأن هذه ليست مزاحة ، تراجع قائلا : « سيدي الفارسان ، ما دام ليس هنا علاج غير الاعتراف أو الموت ؛ وما دام السيد دون كيخوته لا يقبل التروي ، وسيادتك يا صاحب القمر الأبيض ، لا تريد أن تتراجع ، فهيا إلى الأمام ، في رعاية اللّه واهجما » .

فشكر البطلان بأدب جم لنائب الملك إذنه لهما بالقتال ؛ وتوكل دون كيخوته بكل قلبه على اللّه وعلى سيدته دلثنيا ، كما كانت عادته حين يبدأ في خوض المعارك ، واستدار ليتخذ مسافة ، لأنه رأى خصمه يفعل الشيء نفسه ، ثم ، وبدون إشارة ، وبدون آلة حربية تعطى إشارة البدء ، أطلق كل منهما العنان لفرسه . لكن لما كان فرس الفارس المجهول (ذو القمر الأبيض) أسرع من روثينانته ، فإنه أخذ وحده ثلثي الميدان ، وانقض على دون كيخوته باندفاع شديد جدا ، دون أن يستخدم رمحه ، بل رفعه عن قصد ، حتى أن روثينانته وصاحبه تجندلا على الأرض بقسوة في أسوأ حال . هنالك اقترب الفارس المجهول من دون كيخوته ، ووضع سن رمحه في حافة خوذته ، وقال له : « أنت مهزوم ، أيها الفارس ، ستموت إن لم تقر بما طلبته منك » .

ودون كيخوته ، دائخا ، محطما من سقطته ، ليست لديه القوة لرفع حافة خوذته ، أجاب بصوت ضعيف متكسر كأنه يخرج من قبر : « دلثنيا دل توبوسو هي أجمل النساء ، وأنا أشقى الفرسان . وشقائي لا يحملني على خيانة الحقيقة ؛ إدفع رمحك ، أيها الفارس ، وانتزع مني حياتي ، ما دمت قد سلبتني الشرف . »

فأجاب فارس القمر الأبيض : كلا ، لن أفعل . ليظل جمال السيدة دلثنيا ، ومجدك ، سالمين ، ويكفيني أن يعتزل العظيم دون كيخوته في بيته طوال عام ، أو طوال المدة التي أفرضها عليه ، كما اتفقنا قبل المعركة .

وسمع نائب الملك ودون أنطونيو وكثيرون هذه العبارات ؛ وسمعوا قول دون كيخوته أنه ما دام لا يطلب منه شيء يضر بدلثنيا فإنه سينفذ كل ما يطلب منه بدقة الفارس الصادق الأمين . وبناء على هذا التوكيد ، أدار الفارس المجهول لجامه ، وحيا برأسه نائب الملك ، ودخل المدينة راكضا ركضا قصيرا . وفي الحال طلب نائب الملك من دون أنطونيو أن يتبعه ، ليعرف بأي ثمن من هذا الفارس .

وأنهض دون كيخوته ، وكشف عن وجهه ، فوجد شاحبا يتصبب عرقا وكان روثينانته مطحونا بحيث لم يستطع الحراك . وسنشو بقي حزينا مفكرا ، لا يدري ماذا يقول وماذا يفعل . وبدت له هذه المغامرة حلما ، وآلة صنعها السحر . وشاهد مولاه مهزوما ، مرغما

على البقاء طوال عام بغير سلاح . وبدا له مجد أعماله مظلما ، وآمال وعوده الجديدة زالت كالدخان الذي تبدده الريح . وخشي أن يكون روثينانته قد جرح وتكسرت أضلاع سيده . وأخيرا حمل دون كيخوته على كرسي ذي ذراعين ، أرسله نائب الملك ، الذي أسرع بدخول المدينة ، لأنه كان متلهفاً لمعرفة من فارس القمر الأبيض هذا الذي سام دون كيخوته العذاب والإهانات .

الفصل الخامس والستون

في التعريف بفارس القمر الأبيض، وتخليص دون جريجوريو، وحوادث أخرى

تتبع دون أنطونيو مورينو آثار فارس القمر الأبيض الذي كان يلاحقه الأطفال حتى باب البيت الذي أوى إليه . ودخل دون أنطونيو البيت معه ، وهو متشوق لمعرفة من هو . فوجده في قاعة واطئة ، وسائسه يخلع له سلاحه . فلما شاهد أنه يلاحق على هذا النحو قال لدون أنطونيو : « إني أرى جيدا أنك متلهف لمعرفة من أنا . ولن أكتم الأمر عنك ، وبينما خادمي يخلع عني سلاحي ، سأرضى استطلاعك . اعلم أن اسمي سمسون كرسكو ؛ وأنا حاصل على البكالوريا ، ومن قرية دون كيخوته نفسها ، التي تثير أحواله الجنونية الرحمة في نفوس كل من يعرفونه . وأنا من أولئك الذين تأثروا لها أيما تأثر ؛ ولما كنت أعتقد أن الراحة وحدها هي التي يمكن أن ترد إليه عقله ، فقد بحثت عن الوسائل لاعادته إلى بيته ، وإقراره فيه . ومنذ ثلاثة أشهر تقريبا ، قمت بجولة كفارس جوال ، وأطلقت على نفسي إسم فارس المرايا ، بقصد منازلته وقهره دون الاضرار به . وقد وضعت شرطا للقتال أن يكون المهزوم تحت رحمة الظافر ، ولما كنت أظن أنني سأنتصر عليه بسهولة ، فقد أردت منه أن يعود إلى بيته ولا يخرج منه لمدة عام ، مؤملا أن يشفى في خلال هذه الفترة . لكن شاء القدر شيئا آخر ، لأنه هو الذي انتصر علي ، وأنزلني عن قربوس فرسي ؛ وهكذا تبدد مشروعي . وعدت خجلان محطما من السقطة ، وكانت شديدة . لكني لم أيأس ، وأقسمت أن أعود وأنتصر عليه ، وهو ما فعلته اليوم . ولما كنت أعلم دقته في مراعاة قواعد الفروسية ، فإني لا شك أبدا في أنه سينفذ ما تعهد به . هذا يا سيدي ، بغير أدنى تحفظ ، ما أردت أن تعرفه ؛ وأرجوك ألا تكشف عن هويتي ، وألا تقول لدون كيخوته من أنا ، حتى لا تضيع جهودي ونواياي الحسنة سدى ، وأن يستطيع هذا الرجل المسكين أن يسترد صوابه وعقله ، وان عقله ممتاز حين لا تعكره تهاويل الفروسية الجوالة » .

فأجاب دون أنطونيو : «آه! يا سيدي! سامحك اللّه على ذنبك في حق الناس جميعا برغبتك في أن ترد عاقلا أمتع المجانين . ألست ترى أن كل الفائدة التي يمكن استخلاصها من حكمة دون كيخوته لا تساوي أبدا المتعة التي يمكن أن توفرها أحواله الجنونية ؟ أما أنا فأتخيل أن كل قريحة السيد حامل البكالوريا لن تستطيع أبدا أن ترد إلى العقل رجلا مجنونا كل الجنون ، ولولا المحبة المسيحية ، لتمنيت ألا يشفى أبدا ، أنه بشفائه نفقد ليس فقط تهاويله ، بل وأيضا حماقات سنشو ، التي تكفي إحداها لتسلية الكآبة عينها . ومع ذلك فأنا سأسكت ، ولن أقول كلمة لأحد ، لأرى هل أنا على خطأ في رأيي حين أعتقد أن اهتمام السيد كرسكو لن تكون له نتيجة» . فأجاب هذا بأن المسألة تبدو له سائرة في طريقها الحسن ، ويرجو منها النجاح والتوفيق . وبعد أن عرض دون أنطونيو عليه استعداده للقيام بأية خدمة ، ودعه كرسكو . وربط سلاحه على بغل ، وركب الفرس الذي استخدمه في النزال ، وخرج من المدينة في اليوم نفسه ، وعاد إلى قريته دون أن يقع له شيء يستحق الذكر .

وأنبأ دون أنطونيو نائب الملك بما أخبره كرسكو . ولكن نائب الملك لم يسر بهذا أبدا ، لأنه بانسحاب دون كيخوته سيذهب كل استمتاع يؤمل من أحواله الجنونية .

وبقي فارس الأسود المسكين (دون كيخوته) ستة أيام في فرشاه ، حزينا ، مهموما ، محطم الأعصاب ، سيئ المزاج ، مشغولا دائما بهزيمته وحاول سنشو أن يواسيه ، ومن بعض كلامه له قال : «سيدي ، ارفع رأسك ، وافرح ما استطعت ، وأحمد اللّه على أنك على الرغم من جندلتك على الأرض فإنه لم يكسر لك ضلع . ألا تعلم أنه حيث يعطى المرء يتلقى ، وحيث يوجد كعب فلا يوجد شحم بالضرورة ؟ لا تحفل بالطبيب ، ما دمت لست في حاجة إليه لشفاء هذا المرض . ولنعد إلى قريتنا ، ولا نبحثن عن المغامرات في أراض مجهولة . ولو قمنا بالحساب الدقيق لتبين أني أنا الخاسرأكثر ، وإن كنت أنت نلت المعاملة الأسوأ .لقد تركت مع الحكومة الرغبة في أن أكون حاكما ، لا في أن أكون كونتا ، وهو ما لن يتحقق أبدا إذا تخليت عن وسائل الوصول إلى عرش الملك ، بتركك مهنة الفروسية .»

فقال له دون كيخوته : «اسكت ، يا سنشو ، أنت ترى أن اعتزالي لن يستمر إلا سنة واحدة . وبعد هذه المدة سأستأنف أعمالي المشرفة ، ولن تعوزني مملكة لغزوها ، ولا كونتيسة لأهبك إياها» .

فقال سنشو : «سمع اللّه منك ، وتخرس الخطيئة! لقد سمعت دائما أن الأمل الحسن أفضل من الامتلاك الرديء» .

وفي هذه اللحظة دخل دون أنطونيو وهو يطير فرحا ، وقال : «أنباء طيبة يا سيد دون

كيخوته ، لقد وصل المرتد دون جريجوريو إلى الميناء ؟ لماذا أقول الميناء ؟ إنهم عند نائب الملك وسيحضرون هنا في الحال » . ـ فقال دون كيخوته وهو يبتسم بصعوبة : « هذا أمر يسرني جدا ، لكنني أعترف بأنني كنت أود أن تتخذ الأمور وجهة أخرى إذ سيكون في وسعي حينئذ الانتقال إلى العدوة ، وبقوة ذراعي أحرر ليس فقط دن جريجوريو ، بل وأيضا كل المسيحيين الأسرى . لكن ماذا أقول أنا البائس! ألست مهزوما مهانا محكوما علي بعدم حمل السلاح طوال عام كامل ؟ أي وعد أستطيع أو أعد وبأي شيء أفتخر إذا كان علي أن أستخدم المغزل لا السيف ؟ » .

وقال سنشو : « سيدي ، دع عنك كل هذه الشكايات . تحيا الدجاجة وإن كان في لسانها جلدة . يوم لك ويوم عليك . في كل المصادمات والمعارك لا يمكن الوثوق بشيء ، لكن من يسقط اليوم يمكن أن ينهض غدا ، اللهم إلا إذا كان يفضل ملازمة الفراش ، أي يقنط بحيث لا يستطيع أن يكتسسب قوى جديدة لمعركة جديدة . انهض إذن لاستقبال دون جريجوريو ، لأن الناس يظهرون ، ولا بد أنه وصل فعلاً » .

وكان سنشو قد قال حقا ، لأنه بعد أن روى المرتد ودون جريجوريو لنائب الملك نجاح الحملة تلهف الفتى على رؤية آنه فليكس فجاء إلى بيت دون أنطونيو . وفي أثناء اجتياز البحر غير ملابس النساء بثوب بحار ، وفي هذا الثوب الزري كان أيضا جديرا بالحب والخدمة والتقدير ، لأنه كان ذا جمال مفرط مدهش ، ويدا أن سنه بين السابعة عشرة والثامنة عشرة . وهرع ريكوته وابنته لملاقاته ، وبكى الأب فرحا ، أما آنه فكانت رزينة . ولم يتعانق العاشقان ، لأن العشق المفرط يطرد الحركات المنطلقة : ولم يتكلما إلا بالصمت ، وكانت عيونهما الترجمان الوحيد لسرورهما وعواطفهما الشريفة . وأعجب الكل بهذا الزوج الجميل . وروى المرتد الوسيلة التي استعان بها على تخليص دون جريجوريو : وروى هذا بإيجاز ما مر به من أخطار في بيت الحريم ، وأبدى عن حكمة لا تنتظر أبدا ممن في مثل سنه ، ثم دفع ريكوته للملاحين والمرتد مبلغا كبيرا . وعاد هذا إلى حضن الكنيسة ، وصار سليما تائبا بعد أن كان شريرا .

وبعد هذا بيومين ، فكر دون أنطونيو ونائب الملك في الوسيلة للحصول على إذن لبقاء آنه فليكس وأبيها في أسبانيا ، إذ وجدا في ذلك عملاكريما ، نظرا إلى تقوى البنت واستقامة الأب . وكانت لدون أنطونيو مسائل في البلاط ، فتطوع للمفاوضة في الحصول على هذا الإذن ، وألمح إلى أنه بالهداية والشفاعات يمكن حل كثير من المسائل الصعبة . فقال ريكوته وكان حاضرا : « لا ، لا أمل من وراء المال ولا الشفاعات : فلا قيمة لها في نظر برنرديـنودي

بلاسكو ، كونت سيلثار ، الذي كلفه الملك بالإشراف على طردنا من أسبانيا . وعلى الرغم من أنه جمع الرحمة والعدالة ، فإنه وقد رأى جسم أمتنا كله مصاب بالغنغرينة ، فإنه يفضل استعمال الحجامة التي تحرق على المرهم الذي يخفف . ولهذا فإنه بفطنة وحكمة واجتهاد ، ومستعينا بالمهابة التي يثيرها ، أخذ على عاتقه القوي تنفيذ هذه العملية الكبيرة ، دون أن تستطيع حيلنا ومكائدنا ، ومناوراتنا وخططنا ، ومجهوداتناوكل اجتهادنا أن ينيم عينيه الساهرتين المفتوحتين دائما حتي لا يبقى هنا أحد منا ، ولا يختبأ مثل النبات المختبئ ، الذي مع الزمن يمكن أن يتكاثر وينتج ثمارا سامة في أسبانيا التي تخلصت اليوم من كل خوف من ناحيتنا . إنه قرار هائل من فليب الثاني العظيم وفطنة بالغة أن وكل إلى بلاسكو العاقل مهمة تنفيذه[1] .

فقال دون أنطونيو : «على كل حال سأبذل كل ما في وسعي ، وليكن ما يكون بعد ذلك . وسيأتي معي دون جريجوريو لمواساة أهله ، وهم لا بد محزونون على غيابه . وأما فليكس فستبقى في بيتي مع زوجتي أو في دير ، وأنا أعلم أن نائب الملك سيسره جدا أن يبقى ريكوته عنده حتى تنتهي مسألته» .

وفعلا وافق نائب الملك ، لكن دون جريجوريو رفض في البدء أن يترك آنه فليكس . فلما بينوا له أن عليه أن يزور أهله ، ويعود بعد ذلك إلى حبيبته ، وافق . وأقامت آنه فليكس عند زوجة دون أنطونيو ، بينما أقام ريكوته عند نائب الملك .

وجاء يوم سفر دون أنطونيو ، ثم رحيل دون كيخوته وسنشوبعد ذلك بيومين ، لأن السقطة لم تمكن الفارس (دون كخوته) من السفر قبل ذلك . وكان ثم كثير من التنهدات ، والزفرات ، والعبرات المسفوحة لما افترق المحبان . وعرض ريكوته ألف اسكودو على دون جريجوريو ، ولكن هذا رفض ، واقترض من دون أنطونيو ما يحتاج إليه . وهكذا اتخذ كل وجهته ، دون كيخوته أعزل من السلاح ، وسنشو ماشيا على قدميه ، لأن الحمار حمل السلاح .

---

(١) يعلق ديلونيه المترجم الفرنسي على هذا الكلام فيقول : «من الغريب أن يوضع هذا الثناء المبالغ فيه على لسان المغربي . وأنه لشاهد بائس على عبودية الفكر في هذا العصر المتوحش» .

وشهد شاهد من أهلها ، فضلا عن التعصب البشع الذي يبديه ثربانتس في كل ما يتصل بهذه الناحية ، وكان الأولى به أن يدافع عن هؤلاء الأبرياء الذين أجلوا عن ديارهم ـ نعم ، ديارهم رغم أنف فيليب الثاني ، الأجنبي العنصر ، إذ هو من آل هبسبورج النمساويين ، وحفيد المجنونة حنه ، بنت ايزابلا ، فهو طارئ مغتصب ، أجنبي عن أسبانيا ، بينما أولئك المسلمون استقروا في اسبانيا ثمانية قرون بل تسعة ، إذ بقوا حتى صدور هذا القرار الإجرامي القاضي بطرد من بقي من المسلمين ، وقد أصدره خلفه فيليب الثالث ، ابنه ، في سنة ١٦٠٩ فهاجر المورسكيون (وهم المتنصرة الذين بقوا في اسبانيا) .

ولكن ثربانتس انساق وراء عمي بني جنسه فكان في هذا الأمر أعمى وأضل سبيلا .

الفصل السادس والستون

فيما سيراه من يقرؤه، أو يسمعه من يصغي لقراءته

ولدى خروج دون كيخوته من برشلونه ، تلفت ليرى مكان هزيمته وصاح : « هنا كانت[1] طروادة ؛ هنا سلبني سوء الحظ ، لا الجبن ، كل المجد الذي اكتسبته ؛ هنا الآلهة الطائشة كشفت لي عن عدم إخلاصها ، وهنا فقدت كل أعمالي قيمتها ، وسقط شرفي صريعا لن ينعشه من صرعته شيء » .

فقال سنشو : سيدي إن القلب الكريم ينبغي أن يعرف كيف يحتمل البلايا كما يفرح بالسعادة . وأنا أحكم بحسب ما حدث لي : فلو كنت سعيدا ، فرحا حين كنت حاكما ، فإني ، وقد أصبحت سائسا ماشيا على قدمي ، لست حزينا . وقد سمعت أن البخت عربيد ، هوائي ، وأعمى خصوصا ، فهو لا يرى ما يفعل ، ولا يدري من يخفض ومن يرفع .

فأجابه دون كيخوته : أنت فيلسوف يا سنشو ، وتتكلم بحكمة بالغة ، ولست أدري من علمك هذا كله . أما أنا فأقول لك انه لا توجد في العالم بخت ولا حوادث ، حسنة أو رديئة ، تأتي مصادفة ، بل كل شيء يأتي بعناية السماء وتدبيرها ، ومن هنا جاء قول[2] من يقول إن كل امرئ صانع بخته . وأنا كنت صانع بختي وحظي ، لكن لا بما ينبغي من فطنة ، وادعاءاتي قد أضاعتني ، لأن علي أن أعتقد أن ضعف روثينانته لا يمكن أن يقاوم ضخامة ركوبة فارس القمر الأبيض . لقد خاطرت ، وفعلت ما استطعت ، وجندلت على الأرض ، وإذا كنت قد أضعت الشرف ، فإني على الأقل لم أضع شجاعة التمسك بالعهد . وحينما كنت فارسا جوّالا ، جسورا ، مغوارا ، شهد ساعدي وشهدت أعمالي على بسالتي ، والان ، أيها

---

(١) هذه الجملة معناها : « هنا انتهى مجدي » . وأصلها في «الإنياذة» ٢ ١٠١ .

(٢) هو أبيوس كلوديوس الأعمى ، كما ورد في رسالة : « في الجمهورية ، إلى قيصر » (١ ١١ ٢) . وتنسب خطأ الى سالوستيوس .

السائس البسيط الماشي ، سأبرهن على أمانتي بالتمسك بكلمتي . فلنمض إذن يا سنشو ، ولنقض في بلدنا سنة المحنة ، وفي هذه العزلة نستمد قوة جديدة ، لنعود إلى مهنة السلاح ، التي لن أنساها أبدا » .

فقال سنشو : سيدي ، ان السير على الأقدام ليس مريحا أبدا ، ولا يحث على قطع مسافات طويلة . فلنترك هذه الأسلحة معلقة على شجرة مكان مشنوق ، وحينئذ أركب حماري ، وسنسير كما نريد أما ان تعتقد أننا سنقطع شوطا طويلا وأنا أسير على قدمي ، فهذا اعتقاد في المستحيل .

فأجاب دون كيخوته : أنت على حق يا سنشو ، فلنعلق هذه الأسلحة كأنها شعار ، ولننقش على الأشجار النقش الذي كان يحمله شعار أسلحة أورلندو (رولدان) :

لا يحركها

من لا يقدر على منازلة أورلندو

فقال سنشو : كل هذا يبدو لي لآلىء منضودة ، ولولا اننا في حاجة إليه للسير في الطريق ، لكان من رأيي أن نعلق روثينانته أيضا على شجرة فقال دون كيخوته اذن لا روثينانته ولا سلاح ، لا أريد أبدا تعليقها ، حتى لا يقال : عن الخدمة الطيبة مكافأة سيئة .

فقال سنشو : أحسنت ، لأنه في رأي الحكماء ، البرذعة ليست السبب في أخطاء الحمار ، وما دمت أنت يا مولاي السبب في كل البلاء ، فعليك أن تعاقب نفسك بنفسك ، لا أن تلقي الهم على طيبة روثينانته ، وعلى الأسلحة الدامية المحطمة ، وعلى رقة قدمي ، وبرغبتك في جعلهما يمشيان أكثر مما تستطيعان » .

ومضت سحابة النهار وهم في هذا الحديث ، ومرت أربعة أيام أخرى دون أن يصادفوا أية عقبة . وفي اليوم الخامس ، عند مدخل قرية ، وجدوا على باب منزل كثيرا من الناس يفرحون ، لأنه كان يوم عيد . فلما اقتربا ، قال حراث بصوت عال : «أحد هؤلاء السيدين ، وهما لا يعرفان الطرفين ، سيقول لنا ماذا ينبغي أن نفعل برهاننا .» ـ فأجاب دون كيخوته : « نعم ، سأقول بكل انصاف ، بشرط أن أفهم ما هي المسألة .» ـ فقال الفلاح :« يا سيدي الكريم ، هذه هي المسألة : ان رجلا من أهل القرية ، بدين يزن احدى عشرة ربعة ، تحدى في السباق فلاحا آخر لا يزن أكثر من خمس ربعات . وكان الرهان على الجريماية خطوة . وسألنا المتحدي كيف يريد أن يتعادل الوزن ، فأجاب بأن من يزن خمس ربعات يجب عليه أن يحمل على ظهره ست ربعات من الحديد وبهذه الطريقة يتعادل الوزن » .

فقال سنشو ، قبل أن يفتح دون كيخوته فمه : لا ، علي أنا الفصل في هذه المسألة وتبديد شكوككم ، لأني كنت حاكما وقاضيا .

فقال دون كيخوته : حسن ، يا صديقي سنشو ، خصوصا وأنا لا أستطيع أن أعطي فتاتاً لقط ، بسبب اضطراب عقلي .

فقال سنشو للفلاحين الذين أحاطوا به فاغرين أفواههم منتظرين حكمه : «بعد هذا الإذن أقول لكم يا إخواني أن ما يطالب به الرجل السمين ليس عدلا ولا ظل من الانصاف فيه . وإذا صدق ما يقال من أن من حق من يتحدى أن يختار السلاح ، فينبغي ألا تختار بحيث نثقل عليه ونمنعه من الانتصار . وهكذا فإن رأيي هو أن المتحدي يقطع من نفسه ، أو يشذبها أو يسويها ، كما يشاء ، باستقطاع ست ربعات من لحمه ، وبهذه الطريقة سيكون وزنه خمس ربعات مثل خصمه ، وبذلك يستطيعان أن يتسابقا في العدو معا دون انتهاك للعدالة» .

فقال فلاح يسمع : «أحلف بالله أن هذا السيد تكلم مثل ولي ، وحكم مثل كاهن قانوني ، لكن من المؤكد أن الرجل السمين لن يقبل أن يقطع درهما من لحمه ، وبالأحرى لن يرضى باستقطاع ست ربعات» .

وقال فلاح آخر : «أفضل شيء هو ألا يتسابق هذان الرجلان في العدو ، لأن النحيل لن يستطيع احتمال ثقل الحديد ، والسمين لن يرضى باستقطاع شيء من لحمه : ولهذا لنضع نصف الرهان في النبيذ ، ولنأخذ معنا هذين السيدين إلى الحانة التي يباع فيها نبيذ جيد ، وأنا المسؤول» .

فقال دون كيخوته : أشكركم يا سادة ، فإني لا أستطيع التوقف لحظة واحدة ، إن أفكارا حزينة ، وأحداثا أليمة تجعلني أبدو غير مهذب ، وترغمني على السير بأسرع مما أود .

ولما قال هذه الكلمات نخس روثينانته بالمهماز ، ومضى لسبيله ، تاركا كل هؤلاء الفلاحين مشدوهين من غرابة شكله ، وحكمة من حسبوا أنه خادمه (سنشو) . وقال أحدهم : «إذا كان الخادم حكيما ، فما بالك بالسيد ؟ أراهن أنهما ذاهبان للدراسة في شلمنقة ، وفي دورة يد يصبحان قاضيين (عمدتين) في البلاط . إذ لا ينبغي إلا أن يتكلم الإنسان جيدا ، ويكون له بخت ووساطة ، ودون أن يشعر الإنسان يكون صولجان المنصب في يده أو تاج الأسقف على رأسه» .

وأمضى السيد والخادم ليلتهما وسط الحقول وتحت النجوم الجميلة . وفي الغداة تابعا

طريقهما ، فشاهدا قادما نحوهما رجلا ماشيا على رجليه ، ويحمل في رقبته خرجين ، وفي يده مزراق كأنه رسول يمشي على قدميه . ولما اقترب هذا الرجل من دون كيخوته أسرع الخطى ، وعدا ليعانق فخده الأيمن ، لأنه لم يستطع الوصول إلى أعلى من هذا ، وقال بلهجة السرور :

« إيه يا مولاي دون كيخوته دلا منتشا ، أي سرور سيشعره مولاي الدوق حين يعلم أنك رجعت إلى قصره ، حتى لا يزال مع السيدة الدوقة! » .

فأجاب دون كيخوته : أنا لا أعرف يا أخي ، ولا أستطيع أن أعرف من أنت ، إلا إذا أخبرتني .

فقال الرسول : سيدي ، أنا توسيلوس ، خادم مولاي الدوق ، وأنا الذي رفضت منازلتك ، بشأن زواج بنت دونيا رودريجث .

فصاح دون كيخوته : يا الله! هل من الممكن أن تكون أنت ذلك الشخص الذي حوله السحرة أعدائي ، إلى الخادم الذي ذكرت اسمه ، من أجل انتزاع شرف القتال مني ؟

فقال الرسول : اسكت ، يا مولاي الطيب ، لم يكن هناك سحر ولا تحول . لقد كنت أنا توسيلوس خادم الدوق ، قبل أن أدخل الحلبة كما كنت كذلك بعد أن خرجت منها . لقد أردت أن أتزوج منها دون قتال ، لأن البنت أعجبتني ، لكن خدعت في آمالي ، لأنك لم تكد ترحل من القصر حتى انهال علي الدوق ضربا لأنني لم أنفذ الأوامر التي أعطانيها قبل دخول الحلبة . والفتاة دخلت الرهبنة وعادت دونيا رودريجث إلى قشتالة . أما أنا فإني ذاهب إلى برشلونة حاملا رسائل من مولاي إلى نائب الملك هناك . ومعي دن مليء بالخمرة المعتقة ، فإن شئت منها جرعة ، وإن كانت ساخنة بعض السخونة ، مع قطعة جبن من ترونتشون ، فثم ما يثير العطش إن كان نائما » .

فقال سنشو : أوافق على عرضك بغير تكليف . فليسقنا توسيلوس الطيب ، على الرغم من كل سحرة الهند .

فقال دون كيخوته : سنشو! أنت أكبر شره في الدنيا وأكبر جاهل على ظهر الأرض ، لأنك لا تدرك أن هذا الرسول مسحور ، وأنه توسيلوس مزيف : ابق معه ، ما دمت تريد ذلك ، وعب من الخمر ماشئت ، أما أنا فسأسير الهويني ، حتى يلذ لك أن تأتي .

فأخذ توسيلوس في الضحك ، وأتى بدنه واستخرج الجبن والخبز من الخرج ، وجلس هو وسنشو على العشب النضير . وهناك في سلام وصداق ، هاجما وأجهزاعلى الزاد بشجاع وشهية هائلتين حتى أنهما لعقا حزمة الرسائل لأن فيها رائحة الجبن : وكان توسيلوس يقول

لسنشو وهو يأكل : «أعتقد يا صديقي أن سيدك لا بد أنه مجنون إلى حد ما» .

فأجاب سنشو : كيف : لابد ؟ انه فعلا كذلك ولا يدين[1] بشيء لأحد . بل يدفع كل ما عليه خصوصا إذا كان ذلك بنقود الجنون . ومن ذا الذي يعرف هذا خيرا مني ؟ إني أقول هذا له صراحة ، لكن ما الفائدة ؟ خصوصا الآن وقد ضاع لأنه هزمه فارس القمر الأبيض» .

فأراد توسيلوس من سنشو أن يروي له هذه المغامرة ، فقال سنشو إنه من سوء الأمانة أن يجعل مولاه ينتظر ، وسيرويها له في فرصة أخرى إذا التقيا . ثم نهضا ، ونفضا ثوبيهما ، ونظفا لحيتيهما ، وركب سنشو حماره ، وودع توسيلوس ، وجرى ليلحق بمولاه ، وكان هذا ينتظره تحت ظل شجرة .

---

(١) هنا تلاعب على اللفظ Debe بمعنى : لا بد ، يجب ، وبمعنى يدين ، عليه دين . ولم نستطع إيراد هذه التورية في العربية فتصرفنا في العبارة .

الفصل السابع والستون

في قرار دون كيخوته أن يصير راعياً، وأن يحيا حياة الرعاة أثناء سنة اعتزاله الاجباري وحوادث أخرى سارة

لئن كان دون كيخوته ، قبل هزيمته ، مسرحا لحشد من الأفكار التي اضطربت في ذهنه ، فلا بد أن نعتقد أنها زادت في تعذيبه منذ الحادث الأليم . فتحت تلك الشجرة التي تركناه يستفيء بظلها ، ثارت الخواطر المروعة في نفسه ، وظلت تلدغه كأنها خلية نحل . بعض هذه الأفكار كان يتعلق برفع السحر عن دلثنيا ، والبعض الآخر يتعلق بالحياة التي ينبغي عليه أن يتخذها أثناء زمان التوبة المفرضة عليه . وجاء سنشو في تلك اللحظة ، وأثنى على سخاء توسيلوس . فقال لدون كيخوته : «هل من الممكن أن تتخيل أنه خادم حقا ؟ يبدو لي أنك نسيت دلثنيا وقد تحولت إلى فلاحة وفارس المرايا الذي اتخذ شكل حامل البكالوريا كرسكو ، وكلها من أعمال السحرة الذين يضطهدونني . لكن قل لي ، هل سألت توسيلوس المزعوم هذا ماذا فعل الله بالتسيدورا ؟ هل بكت على فراقي ، أو جرت ذيل النسيان على أفكارها الغرامية ؟ » .

فأجاب سنشو : مؤكد ، لقد كان لدي متسع من الوقت لنتحدث في الترهات! يا لله! يا مولاي ، هل أنت في مقام السؤال عن أفكار الغير ، خصوصاً الأفكار الغرامية ؟

فقال دون كيخوته : اسمع يا صاحبي! ثم فرق كبير بين الأعمال التي يأمر الحب بها ، وتلك التي يمليها عرفان الجميل . وألتسيدورا كانت تهواني ، وقد أعطتني القبعات الثلاث التي تعرفها أنت ، وبكت عند رحيلي ، ولعنتني ، وصبت الشتائم والإهانات ، وشكت بصوت عال دون أن يردعها الحياء ، وكل هذه علامات على أنها تعبدني ، لأن غضب العشاق ينفث لعنات . وماكان لي أن أزودها بالأمل ، ولا عندي كنزأقدمه إليهم لأن كل آمالي معقودة بدلثنيا ، وكنوز الفرسان ، مثل كنوز الجن ، ظاهرية زائفة . فلا أملك إعطاءها غير الذكرى التي أحتفظ بها لها ، طبعا مع عدم الإضرار أو الإساءة إلى دلثنيا ، التي تسيء أنت

إليها إساءة بالغة بتراخيك وتأجيلك لجلد نفسك وعقاب لحمك الذي أود أن أرى الذئاب تأكله ، لأنك تفضل أن تحافظ عليه للدود ، على أن تجعله يستخدم في التخفيف عن هذه المرأة المسكينة» .

فأجاب سنشو : مولاي! إذا أردت مني قول الحق فإني أقرر لك أنني لا أستطيع أن أقتنع بأن جلدات أردافي لها أي شأن مع سحرات المسحورين . إن هذا كمن يقول: في رأسك ألم ، إذن حك ركبتيك . وعلى الأقل أستطيع أن أقسم أنك لم تجد ، في كل تواريخ الفروسية الجوالة التي أقرتها أنه تم رفع السحر بضربات الجلدة أبدا . وعلى كل حال فسأضرب نفسي حين أريد ، ويتسع لي الوقت ، ويلذ لي الفعل .

فقال دون كيخوته : فليشأ الله ذلك ، وليلهمك تنفيذ ما التزمت به قبل سيدتي ، التي هي أيضا سيدتك ، لأنك تابعي .

واستمرا في السير وهما في حديث متصل ، حتى بلغا المكان الذي قلبهما فيه الثيران وداست عليهما . تعرف دون كيخوته الموضع وقال : «هذا هو المرج الذي التقينا فيه ، منذ مدة ، بالراعيات الرفيعات والرعاة الظرفاء الذين أرادوا محاكاة وتجديد الحياة الرعوية التي كانت في إقليم أركاديا ، وهو مشروع جديد حكيم . فإن أعجبك هذا المشروع يا سنشو ، فمن رأيي أن نصير رعاة طوال مدة توبتي . وسأشتري بعض النعاج ، وكل الأشياء الضرورية لمعيشة الرعاة ؛ وسأطلق على نفسي اسم الراعي كيخوتيث ، وأطلق عليك اسم الراعي بنثينو . ونتجول في الجبال ، والأحراش ، والمروج ؛ نغني هنا ، ونتنهد هناك ، ونرتوي من ماء الينابيع البلوري ، وعلى شاطئ الجداول الصافية ، والأنهار الرائقة . هناك ، يجود السنديان المحسن بثماره العذبة الرقيقة على كل الناس ؛ والفلين القاسي المتعرج يزودنا بالمقاعد المريحة ؛ والصفصاف يلقي ظلا ظليلا ؛ وتنتشي الحواس من شذى الورد العاطر ؛ وبساط المروج السندسي يعرض على العيون المسحورة سجادة حافلة بأجمل الألوان ؛ والأنفاس البليلة ينعشها النسيم العليل ؛ وظلام الليل تخففه إنعكاسات القمر الفضية ، ولمعان النجوم الثاقبة . وستكون متعتنا الأناشيد الرعوية ؛ وحتى الزفرات ستنفعل فينا فعل السحر ؛ وأبولون يملي علينا القصيد ، «والحب» يشعل خيالنا ، ونصبح محمودي الشهرة ، ليس فقط بين المعاصرين ، بل وأيضا في القرون المقبلة .

فصاح سنشو : يا لله! هذا لون من الحياة يرضيني كل الرضا ، وكأنه خلق لي . ولا بد أن الأسطى نقولا وسمسون كرسكو لم يفكرا فيه أبدا ، ولا شك أنهم سيغتبطون جدا

بأن يصبحوا رعاة معنا . والله يشاء أيضا أن يجعل القسيس معنا ، لأنه رجل فكه الأخلاق يحب المرح » .

فقال دون كيخوته : أنت على حق يا سنشو ؛ لو صار حامل البكالوريا سمسون راعيا ، كما لا أشك في ذلك ، فإنه يمكن أن يسمى سمسونينو ، أو كرسكون ، ويسمى الحلاق نقولا : نقولوسو ، كما أن بوسكان القديم سمي غوروسر . أما عن القسيس فلست أدري أي اسم يمكن أن نطلقه عليه ، اللهم إلا أن نلعب باسم منصبه فندعوه : الراعي كوريمبرو . أما الراعيات اللواتي سنكون عشاقا لهن ، فسنجد لهن أسماء بسهولة ، وكما أن اسم سيدتي يناسب راعية كما يناسب أميرة ، فلست في حاجة إلى البحث عن اسم . أما أنت يا سنشو فستعطي لحبيبتك الاسم الذي تريده أنت .

فقال سنشو : لا أظن أني سأعطيها اسما آخر غير تريزونا ، الذي يتناسب تماما مع بدانتها واسمها الحقيقي لأن اسمها هو تريزه . وحين أتغنى بها في أشعاري ، فإن رغباتي الطاهرة ستبرهن جيدا على أنني لن أذهب لاستجداء خبزها في بيت الآخرين . أما القسيس فمن المستحسن ألا تكون له راعية ، لأنه لا بد أن يعطي القدوة الحسنة ؛ أما حامل البكالوريا ، فليفعل ما يشاء .

فقال دون كيخوته : بحق الله! أي حياة سنحياها! وكم سنعزف نغمات من الشبابات ومزامير القرب السموريات ، والطبول والزمارات والربابات . ولو كان معنا أيضا بوقات ، فلن تعوزنا أية آلة موسيقية رعوية .

فقال سنشو : وما هي « البوقات » ؟ إني لم أسمع بها أبدا ولم أرها .

فأجاب دون كيخوته : البوقات صفائح من الصفر محنية مثل قاعدة الشمعدان ، تضرب بعضها ببعض في الهواء ، وتؤلف صوتا ، إن لم يكن منسجما ولا لذيذا جدا ، فانه لا يضايق ، ويتفق تماما مع ريفية مزمار القربة والطبلة . وهذا الاسم Albogues اسم عربي ، شأنه شأن كل الألفاظ التي تبدأ في اللغة الاسبانية بالحرفين[١] Al مثل[٢] :

---

(١) هذه ليست قاعدة صحيحة ، بل يوجد مئات من الكلمات الاسبانية التي تبدأ بالحرفين AL وليست عربية الأصل ـ فضلا عن أن معظم الكلمات العربية الأصل تتغير معانيها تغيرا شديدا جدا حين تنتقل إلى الاسبانية .

(٢) الكلمات العربية المقابلة لها هي على التوالي :

المخدة ـ ؟ ـ الحمرة (= السجادة لأن لونها في الغالب كان أحمر) ـ الوزير (= بمعنى المُحضر ، رجل الشرطة المكلف بتنفيذ الأوامر)... ـ الخزامى ـ المخزن ـ الكنز .

أما الكلمة التي وضعنا مكانها علامة استفهام وهي Almorzar فهي ليست عربية ، بل لاتينية الأصل من Admorsus من الفعل Ad-mordere .

وما Almohaza, Almorzar, Alhombra, Alguaeil, Alhucema, Almacen, Alcancia شابهها ، وعددها أكثر قليلا ؛ وليس في لغتنا الاسبانية غير ثلاث كلمات عربية تنتهي بالحرف[1] i هي : borcegui, zaquizami, maravedi ، أما الكلمتان[2] Alfaqui, Alheli فالبداية Al والنهاية بحرف I يدلان على أنهما عربيتان .

إن «البوقات» هي التي ذكرتني بما قلته الآن . أما عن مهنة الراعي فسأقوم بها قياما حسنا خصوصا وأنا شاعر إلى حد ما ، وسمسون كرسكو شاعر إلى أعلى درجة . أما القسيس فلا أقول عنه شيئا ؛ غير أني أعتقد أن فيه قليلا من النفحة الشعرية مثل الأسطى نقولا ؛ لأن كل الحلاقين القيثارة (الجيتار) يؤلفون أغاني . وسأتغنى بعذاب الفراق ؛ وأنت ستغنى بالإخلاص في الحب ؛ والراعي كرسكون سيشكو ما يشاء ؛ وهكذا يسير كل شيء سيرا رائعا » .

فقال سنشو : « آه! يا سيدي ، إني قليل البخت إلى حد أني أخشى من الخشب سأضع حين أصبح راعيا! كم من فتة وقشدة ، وأكاليل ، وألاعيب رعوية إن لم تكن حكيمة فهي ستجعلني أعد بارعا! وستحضر لي بنتي سنتشيكا الطعام في الزريبة . ومع ذلك فينبغي الاحتياط . فبعض الرعاة خبثاء وليسوا بسطاء ، ولا أريد أن تأتي بوبرها وتعود مجزوزة... والحب والشهوات الدنيئة تتدخل في الحقول كما في المدينة ، في أكواخ الرعاة كما في قصور الملوك . لكن ارفع السبب ، تنته الخطيئة . إذا لم تر العين شيئا لم يضل القلب . القفز للهرب خير من وساطة أصحاب النفوذ » .

فقال دون كيخوته : « يا عزيزي سنشو ، كفى أمثالا ، أرجوك ، لأن واحدا مما قلته يكفي لشرح فكرتك . ولكم نصحتك أن تقتصد في الأمثال ، لكن صوتي ضاع هباء « كصوت صارخ في البرية » و« أمي تضربني ، فأضرب بغلي » .

فقال سنشو : « سيدي! يقول التنور للقدر : « امش من هنا ، يا أبا عين سوداء » ـ وأنت تفعل الشيء نفسه : تلومني على التفوه بالأمثال وها أنت ذا تسلكها اثنين اثنين » .

فأجاب دون كيخوته : يا صاحبي! إنني حين أضرب أمثالا ، فإنها تأتي في محلها ، كالخاتم في الإصبع ، أما أنت فتجرها من شعورها وتجرجرها . وإذا صحت ذاكرتي ، إني قلت لك إن الأمثال جمل قصيرة مستمدة من التجربة ومن ملاحظات الحكماء الأوائل .

---

(١) مقابلاتها العربية هل هي على التوالي : بوشركي ـ سقف السماء ـ مرابطي وفي قاموس الأكاديمية الاسبانية أن Borcegui من اللغة الفلمنكية Brosckin ومعناها في الاسبانية حذاء يصل إلى أعلى الركبة مفتوح من أمام ويمسك برباط أو خيط .

(٢) يقابلهما في العربية هما : الفقيه ـ الخيري (وهو المنثور الأصفر ، نوع من الزهر) .

والمثل الذي لا يأتي مناسبا هو تخريف وليس مثلا . لكن لندع هذا ، فالليل أقبل ، ولنبتعد قليلا عن الطريق الرئيسي ، ولنختر مكانا ملائما نمضي فيه الليل . اللّه يعلم ما يخبئ لنا في الغد .

وجلسا ، وتعشيا في وقت متأخر عشاء ردينا ، مما تضايق له سنشو الذي راح يلعن قناعة الفرسان الجوالة ، وسط الأحراش والجبال ، ويأسى على وفرة الطعام في القصور ، وفي بيت دون دييجو ميرنده ، وعرس الغني كمنتشو ، وقصر دون أنطونيو مورينو . لكن لما تأمل أن من المستحيل أن يكون ثم نهار باستمرار أو ليل باستمرار ، فإنه أمضى هذه الليلة في النوم بينما أمضاها مولاه في السهر .

الفصل الثامن والستون

مغامرة الخنازير

ادلهم الليل وإن كان القمر في السماء ، لكنه كان في موضع لا يرى منه ، لأن السيدة ديانا (القمر) كثيرا ما تذهب لزيارة النواحي المقابلة وتدع في الظلام جبالنا وأوديتنا .
وأطاع دون كيخوته الطبيعة بأن نام نومة أولى ؛ لكنه لم يستمر في النوم ، بعكس سنشو الذي كان لا ينام إلا نومة واحدة متصلة من المساء حتى الصباح ، مما يدل على سلامة صحته وعلى قلة الهموم التي تشغله . أما هموم دون كيخوته فكانت تعذبه حتى انه لم يتمالك من أن يوقظ سنشو قائلا : «يا صاحبي ، اني معجب بصحتك ؛ الممتازة . كأنك من المرمر أو البرونز ، لا حركة فيهماولا عاطفة . أنت تنام وأنا ساهر ، وأنت تغني وأنا أبكي ؛ وأنا منهوك القوة ، بينما الإفراط في الطعام يجعلك ثقيلا كسولا . ومن شأن الخادم الأمين أن يشارك في آلام سيده ، ويشاطره الانفعالات . تأمل سكون هذا الليل والوحدة التي نحن فيها . ألا يدعوك سكون الهواء إلى أن تمزج نومك ببعض السهاد ؟ انهض ، أستحلفك ، وانت ناحيته ، وعن طيب خاطر وشجاعة ، أجلد نفسك ثلثمائة أو أربعمائة جلدة ، من حساب رفع السحر عن دلثنيا . ولا تضطرني ، أرجوك ، إلى العراك معك مثل ذلك اليوم ، فيداك غليظتان . وحين تفرغ من جلد نفسك ، سنقضي بقية الليل في الغناء ، أنا أتغنى بالفراق ، وأنت بالثبات في الحب ، مبتدئين هكذا التمرينات الرعوية التي سنأخذ فيها في مزرعتنا» .

فأجاب سنشو : سيدي! إني لست راهبا يستيقظ في وسط الليل ليجلد نفسه بالسياط ، وآلام الجلدات لا تبدو لي فاتحة سارة للغناء . دعني أنم ، من فضلك ، ولا تعذبني من أجل جلد نفسي ، وإلا أقسمت ألا أمس شعرة من ثوبي .

فصاح دون كيخوته : أيتها الروح القاسية! أيها السائس الذي لا يرحم! أيها الخبز

المُساء الاستخدام ، أيتها المكافآت التي أعطيت في غير محلها ، تلك التي تلقيتها وتلك التي أردت أنا أن أعطيك إياها ، بفضلي أنا أصبحت حاكما ، وبفضلي أنا عليك أن تؤمل في أن تصير كونتا أو شيئا مثل هذا ، ولن يتأخر هذا عن سنة توبتي واعتزالي ، لأنه « بعد الظلام آمل في النور[١] » .

فقال سنشو : أنا لا أفهم هذه اللغة[٢] ، وكل ما أعرفه هو أنه حين أنام فإني لا أخاف ، ولا أرجو ، ولا طموح عندي ولاهموم . ألا بورك مخترع النوم ألف مرة! إنه المعطف الذي يغطي كل الأفكار الإنسانية والطعام الذي يهدئ غائلة الجوع ، والشراب الذي يروي من الظمأ والنار التي تدفئ الصقيع ، والبرد الذي يخفف من حمّارة القيظ ، والنقد العالمي لكل ما يشترى ويباع والميزان الدقيق الذي به يزن الراعي والملك الجاهل والعالم . وليس في النوم شيء رديء غير كونه يشبه الموت ، فيما سمعت ؛ لأنه ليس ثمّ فارق كبير بين النائم والميت .

فقال دون كيخوته : « سنشو ، الحق أني لم أسمعك أبدا تتكلم بمثل هذه الأناقة ، مما يدل على صحة المثل الذي تكرره أنت باستمرار وهو : لا مع من تولد ، بل مع من ترعى » .

فقال سنشو : يا لله! يا مولاي! لست أنا الذي أطلق الأمثال ؛ بل هي تخرج من فمك اثنين اثنين . صحيح أن أمثالك أفضل من أمثالي لأنها مناسبة للمقام ، بينما أنا ألقي بها خبط عشواء ، ولكنها على كل حال أمثال .

وفي هذه اللحظة سمعا ضجة خرساء مختلطة تملأ جنبات الوادي . فدهش دون كيخوته ونهض فورا ، ووضع يده على سيفه ، وارتعدت فرائص سنشو فتكور تحت حماره ، جاعلا من برذعته متراسا وكذلك من أسلحة مولاه . وازدادت الضجة وعلت ، وأوقعت الفزع في رجلينا الخائفين ، أو على الأقل في أحدهما ، لأن الآخر معروف بالجسارة . وكان مصدر هذه الضجة أكثر من ستمائة خنزير يقتادها رجال إلى السوق أثناء الليل ، وكانت صيحاتها وقباعها تحدث ضجة بالغة ، أصمت مسامع دون كيخوته وسنشو دون أن يتبينا ماذا عسى هذه الضجة أن تكون . واقتربت الجماعة الصاخبة باستمرار ، ودون احترام للسيد والسائس مرت على جسميهما بسرعة شديدة ، حتى أن هذه الحيوانات النجسة قلبت دون كيخوته ،

---

(١) كانت هذه الجملة شعار خوان دلاكوستا ، أول ناشر لدون كيخوته ، وصديق ثربانتس ، وكانت باللاتينية حول رسم كركي (طائر) . وهي في الأصل مأخوذة من سفر « أيوب » في الكتاب المقدس .

(٢) أي اللاتينية .

روثينانته ، والحمار وسنشو ، والمتراس الذي كونه ، وجعلت كل شيء مقلوبا في اضطراب .

تبين سنشو أخيرا أنها خنازير ، فنهض قدر المستطاع ، وطلب من سيده سيفه ليذبح ستة على الأقل من هذه الحيوانات القليلة الأدب . فأجابه دون كيخوته : « دعها يا صاحبي ، فإن هذه الاهانة عقاب على خطيئتي وجزاء عادل من السماء ، فالفارس الجوال الذي ينهزم ينبغي أن تأكله الكلاب ، وتلسعه الزنابير ، وتطأه الخنازير » .

فقال سنشو : ويبدو أنه عقاب من السماء أيضا إذا سواس الفرسان الجوالة المهزومين لسعهم الذباب ، وأكلهم القمل ، وعذبهم الجوع . وإذا كنا نحن السواس أبناء من نخدمهم ، أو على الأقل أقاربهم القريبين ، فلن يكون غريبا أن نحمل نحن عقوبة ذنوبهم حتى الجيل الثالث . لكن ما شأن آل پنثا في الأمور التي تخص آل كيخوته ؟ لنجلس ، ولننم البقية القليلة الباقية من الليل . وغدا صباحا سيطلع النهار وسيكون الله في العون » .

فأجاب دون كيخوته : نم أنت ، إن شئت ، أنت يا من خلقت من أجل النوم ، أما أنا الذي خلقت للسهر ، فإني سأطلق العنان لأفكاري ، وأنفس عنها بمدريجال نظمته في هذه الليلة .

فقال سنشو : فيما أعتقد أرى أن الهموم التي تمكن من نظم الشعر لا يمكن أن تكون هموما كبيرة ، فأطلق القوافي كما تشاء ، أما أنا فسأنام ملء جفوني كما أستطيع .

وفي الحال اتخذ مكانا واسعا يكفيه للنوم ، وتمدد وراح يغط في النوم دون أن يمنعه منه ديون ، ولا رهون ، ولا هموم . أما دون كيخوته فقد جلس على جذع فيقس أو سنديان (وسيدي حامد لا يميز أي شجرة كانت) ، ومزج الأصوات بالزفرات ، وراح ينشد :

أيها الحب ، أيها الحب ، حين أفكر
فيما تصيبني به من عذاب رهيب
لا أفكر إلا في الموت
لأتخلص من هذا العذاب
لكن في النقطة التي عندها أخطو
الخطوة التي ستخلصني من عذاب الحياة
تأتي لذة مفرطة تخلب نفسي
فتسلبني من الموت
وهكذا لا أستطيع الحياة ولا الموت

وأشعر في كل لحظة بقلق قاتل
وليس عند القدر ما يقدم إليّ
غير حياة وموت كليهما رهيب

وكان يصحب كل بيت بما لا نهاية له من الزفرات والعبرات ، وقد كان قلبه متضايقا من هزيمته ، وغياب دلثنيا . ثم طلع النهار ، وضربت أشعة الشمس عيني سنشو فهب من نومه ، وتمطى وتمدد ، وحرك أعضاءه الكسول . هنالك شاهد الأضرار التي أحدثتها الخنازير في حقائبه وراح يلعن عن طيب خاطر هذا القطيع النجس .

ثم استأنفا السير ، وفي المساء رأيا عشرة رجال يركبون الخيل وأربعة أو خمسة مشاة قادمين عليهم . فدهش دون كيخوته ، وخاف سنشو ، لأن هذه الجماعة كانت مسلحة بالرماح والتروس ، ومدججة بالسلاح للحرب .

فقال دون كيخوته لسنشو : «آه ، يا صديقي! لو أذن لي أن أستخدم سلاحي ولم يقيد العهد ساعدي! إذن لما كانت كل هذه الجماعة التي تزحف نحونا تحتاج مني لأكثر من إفطار . لكن يجوز أن تكون غير ما نخشاه .» وفي هذه اللحظة اقتربت الجماعة الخيالة وأحاطت بدون كيخوته ، ووضعت سنان الرماح في ظهره وصدره ، وهددته بالقتل إذا قاوم . ووضع أحد المشاة إصبعه على فمه إشارة بالسكوت ، وأمسك بلجام روثينانته ، وانحرف به عن الطريق ، كما فعل الباقون الشيء نفسه بالنسبة إلى حمار سنشو ، وكل هذا دون أن ينطق أحد بكلمة .

وحاول دون كيخوته أن يفتح فمه مرتين أو ثلاثة ليسأل عما يريدون أن يفعلوا به ، وإلى أين يقتادونه ، لكنه ما يكاد يحرك شفته حتى يهدده الآخرون بسنان رماحهم . واستعملوا الطريقة نفسه مع سنشو : انفتح فمه ، عاجلوه بنخسة هو وحماره ، وكأنه أراد الكلام هو الآخر . ولما دخل الليل أسرعوا في السير ، وزاد خوف الأسيرين (دون كيخوته وسنشو) خصوصا حين قيل لهما : «سأوا يا سكان الكهوف[1] ، اخرسوا يا همج تألموا ، يا أكلة لحوم البشر ، كفوا عن الشكاية أيها الأشقوزيون ، لا تفتحوا أعينكم ، أيها السفاحون أشباه بوليفيموس أيها الليوث آكلة اللحوم» ، وتحيات أخرى من النوع نفسه كانت تعذب اسماعهما . وقال سنشو في نفسه : «نحن ، وهمج ، وخرق ، وجراء ،

(١) في النص Troglodltas ويشرحها كوباروبيا بقوله « إنهم شعب يعيش في الحبشة ، عند الخليج العربي ، وهم همج جدا ، ويعيشون على لحم الثعابين ، ويسكنون الكهوف » .

ونؤمر : بسرعة سر! كل هذه الالقاب لا تسرني ولا تبشر بأي خير . إن الشقاء يريد الإطاحة بنا مثل ضربات العصي بالكلاب ، والله يجعل الأمر ينتهي عند ضربات بالعصي نختم بها هذه الحياة الحافلة بالعذاب . » وكان دون كيخوته مندهشا هو الآخر من هذه الشتائم التي انهالت عليهما ، ولا تبشر بأي خير لهما ، وتوقع من ورائها الشر الكثير . وبعد ساعة من السير ، وصلوا في الليل إلى قصر تبين لدون كيخوته أنه قصر الدوق ، الذي أقام عنده . فصاح : «يا إلهي! ما هذا ؟ أليس هذا هو المكان الذي رحبوا بي فيه أجمل ترحيب وعاملوني خير معاملة ؟ لكن بالنسبة إلى المهزومين ينقلب الخير إلى شر ، والشر إلى ما هو أسوأ من الشر . » ودخلوا في الفناء الرئيسي للقصر ، والمنظر الذي تجلى للأسيرين زاد من دهشتهما وفزعهما ، كما سنرى في الفصل التالي .

الفصل التاسع والستون

في أغرب مغامرة وقعت لدون كيخوته
طوال هذا التاريخ العظيم كله

نزل الخيّالة عن أفراسهم ، وبالاتفاق مع المشاة حملوا دون كيخوته وسنشو إلى البهو ، وكان يشتعل في نواحيه أكثرمن مائة شعلة ، وفي الأروقة خمسمائة مصباح ، بددت ظلمة الليل ، وأشاعت في كل مكان نورا ساطعا . وفي وسط الفناء ، على علو مصطبتين من الأرض ، أقيم قبر يعلوه قطيفة سوداء ، وعلى درجاته شموع بيض ، تشتعل في أكثر من مائة شمعدان من الفضة . وعلى القبر شوهد جسم فتاة ، جميلة جمالا أضفى على الموت سحرا . وكان رأسها مسنودا على وسادة من البروكار ، وعليه تاج من الأزهار العطرة . وكانت ذراعاها متقاطعتين على صدرها ، وتحمل سعفا ، رمزا للنصر . وفي أحد جوانب الفناء ارتفع مسرح مزود بكرسيين جلس عليهما شخصان ، على رأسيهما التاج ، وفي يديهما الصولجان ، مما يؤذن بأنهما ملكان حقيقيان أو متخيلان . وإلى جانب المسرح ، الذي يصعد إليه بدرجات ، كان ثم كراسي أخرى أجلس عليها دون كيخوته وسنشو . وتم كل هذا في صمت وبالإشارات ، وأشير على الأسيرين بعدم الكلام ، وما كانا في حاجة إلى ذلك لأن الدهشة عقدت لسانيهما . وصعد على المسرح شخصان كبيران ، معهما حاشية عديدة ، أدرك دون كيخوته فورا أنهما الدوق والدوقة ، مضيفيه السابقين وجلسا على كرسيين فاخرين جدا ، بالقرب من كرسي الملكين . مما زاد في دهشة الأسيرين خصوصا حين تعرف دون كيخوته أن الجسم الممدد هو جسم الجميلة التسيدورا . ولما ظهر الدوق والدوقة ، وقف دون كيخوته وسنشو وانحنيا انحناءة عميقة ، فأجابا بهزة رأس خفيفة . وفي هذه اللحظة جاء ضابط اقترب من سنشو ، وألبسه رداء من البوكاسان الأسود ، المزين بالمشاعل ، وخلع طاقيته ، ووضع على رأسه قبعة محدودبة مثل تلك التي يلبسها التوابون في الديوان المقدس ، وهمس في أذنه قائلا أنه لو فتح فمه لوضعوا فيه خنجرا أو قتلوه . فتأمل

سنشو نفسه من أعلى إلى أسفل ، ورأى نفسه مغطى بالشعلات ، لكن لما كانت غير محترقة فإنه لم يهتم بها . ورفع قبعته ، ولما رآها مغطاة بالعفاريت ، قال ، وهو يعيد وضعها على رأسه : « من حسن الحظ أنها لا تشتعل ولا تحملني بعيدا . » وتأمله دون كيخوته أيضا ، وعلى الرغم من قلقه فإنه لم يتمالك نفسه من الضحك من غرابة وجهه .

وفي هذه اللحظة سمع يخرج من تحت القبر صوت عذب لطيف من شبابات ، وإن لم يخالطه أي صوت إنساني (لأن هذا المكان بدا أنه ملاذ الصمت) فإنه كان رقيقا ممتعا أكثر . وفي الحال شوهد فتى جميل بالقرب من الوسادة التي ارتاح عليها الجسم . وكان يلبس زيا رومانيا ، ويمسك بهارب ، وأنشد بمصاحبة ، وبصوت عذب رنان ، الشعر التالي :

بينما التسيدورا العاشقة الحزينة
ترقد في هذا النعش
وبينما نحن لا نزال نشاهد
صواحبها ينحن ويتنهدن في حداد
أريد ، كأني أورفيوس آخر ،
أن أتغنى في شعري بمناقبها .
ولأذيعها في العالم ،
وأملأ بشهرتها الأسماع ،
فإني لا أزعم فقط
أنني سأنشرها أثناء حياتي ،
بل أريد ، بعد الوفاة ،
أن تنشرها روحي ، وقد تحررت من بدنها .
ليعلم الكل بلاياها
وتبكي الدنيا عليها .
وحتى في المقام المظلم
يسفح يلوثون وبلاطه الدموع[1]

فقال أحد الملكين : حسبك أيها المنشد الإلهي . إن هذا تعلق باللانهاية أن تريد تمجيد موت ومناقب التسيدورا ، التي لم تمت في فم الشهرة ، وكما يظن العامة الجهلاء ، بل لا تزال

---

(١) هذه القطعة هي الثمانية الثانية من الرعوية الثالثة لجرثيلاسو ، وفيها استلهام لخرافة أرستيو في رعوية فرجيل الرابعة .

تعيش ، وستعيش بيننا ، بفضل العقاب الذي سيفرضه على نفسه سنشو پنثا الحاضر هنا . ولهذا ، أي رومانتو ، القاضي معي في المقامات المظلمة لبلوتون ، أنت يا من تعرف كل ما قررته المقادير الثابتة من أجل بعث هذه الآنسة ، صرح فورا ، حتى لا يتأجل الخير الذي ننتظره » .

هكذا تكلم مينوس . وفي الحال وقف رمانتو وقال : « هيا ، أي ضابط هذا المنزل ،الأعلون والأسفلون ، الكبار والصغار تعالوا واضربوا وجه سنشو أربعمائة صفعة ، وأقرصوه اثنتي عشرة قرصة ، وشكّوه ست شكات بالإبر في ذراعيه وبطنه . وعلى هذا المرسم يتوقف نجاة التسيدورا . » وعندما سمع سنشو هذه الكلمات قطع الصمت صائحا : « أقسم بالله أنني سأسمح بلطم وجهي وتحطيم ذراعي بقدر ما أود أن أكون مغربيا . ما شأن ضربي ببعث هذه الفتاة ؟ عادت ريمة إلى عادتها القديمة . تسحر دلثنيا ، وعلي أنا أن أجلد نفسي لرفع السحر عنها . والتسيدورا تموت من الداء الذي أصابها الله به ، ولكي تبعث علي أنا أن يصفع وجهي أربعا وعشرين صفعة ، وأن يخرق جسمي بشكات الإبر ، وذراعي أيضا . على غيري هذا ، فأنا كلب عتيق لا أحتمل المساخر . » فقال رومانتو : « ستموت ، اهدأ أيها النمر ، تواضع ، أيها المتكبر النمرود[1] تعذب واسكت ، لأنه لا يطلب منك المستحيل ، ولا تسع لاكتناه أسرارنا ستصفع وتشك ، وتقرص ، وستنوح . هيا ، أيها الضباط ، نفذوا أوامري وإلا فوحق شرفي لعلمتكم واجبكم » .

وعند هذه الكلمات شوهد موكب من ست وصيفات ، تحمل أربع منهن نظارات ، وأيديهن مرفوعة في الهواء ، ورسوغهن مكشوفة بطول أربعة أصابع لتظهر طويلة ، كما هو البدع السائد اليوم . ولم يكد سنشو يبصرهن حتى أخذ يخور كالثور ويقول : « من الممكن أن أسمح للناس جميعا بقرصي ، أما أن أسمح لوصيفات بأن تمسسنني فهذا لن يكون أبدا ، من فضلك . اخدشوا وجهي ، كما فعلوا مع مولاي في هذا القصر ، وانخسوا بدني بخناجر حادة ، وضعوا ذراعي بين كماشتين مشتعلتين ، فسأتحمل هذا كله من أجل إمتاع هؤلاء السادة ، أما أن تمسسني وصيفات ، فلن أوافق على هذا أبدا ، حتى لو اختطفني الشيطان » .

فقال دون كيخوته وهو يقطع الصمت : « اصبر ، يا ولدي ، أرض هؤلاء السادة ، واحمد الله كثيرا على أنه وضع فيك هذه القوة والميزة ، وهي أنك بتعذيبك نفسك ترفع السحر عن المسحورين ، وتبعث الموتى وفي تلك الأثناء كانت الوصيفات قد أحطن بسنشو ، وهدأ أخيرا ، وجلس ، وقدم وجهه إلى الأولى فصفعته صفعة شديدة ، ثم حيته

(١) نمرود بن حام ، أول من تجبر على الأرض ، كما ورد في سفر « التكوين » الفصل العاشر ، الجملة ٨ .

تحية عميقة . فقال سنشو : «قللوا في التحية وزيدوا في الرقة ، فوالله ان في أيديكم رائحة الخل .» وهكذا قامت الوصيفات الأخريات بقرصه وصفعه ، لكن لما لم يستطع احتمال شكات الإبر ، وقف منفعلا غاضبا وأمسك بمشعل محترق بالقرب منه ، وانقض على الوصيفات ومساندیهن وهو يصيح : ابتعدن ، يا وريثات الشيطان ، إني لست من البرونز حتى لا أحس بهذا العذاب الشديد العجيب» .

وفي هذه اللحظة تقلبت التسيدورا على جنبها ، لأنها لا شك قد ملت من طول موتها ، فلما رآها المشاهدون صاحوا : «التسيدورا في قيد الحياة» . وطلب رومانتو من سنشو أن يهدأ ، لأن المعجزة تحققت . ولما رأى دون كيخوته التسيدورا تتحرك ، هرع وجثا على ركبتيه أمام سنشو وقال له : هذه هي اللحظة المناسبة ، يا ولد أحشائي ، لا سائسي هذه هي اللحظة المناسبةالتي يجب عليك فيها أن تجلد نفسك من أجل رفع السحر عن دلثنيا ، فالآن القوة التي عندك في تمام نشاطها ، وتؤذن بنتيجة سعيدة .» ـ فأجاب سنشو : «سيدي! هذا يسمى وضع المر على المر ، لا العسل على الفطائر . فبعد أن قرصوني وصفعوني وشكوني ها أنت ذا تريد مني أن أجلد نفسي ؟ لماذا إذن لا تضع حبلا كبيرا في عنقي وتلقي بي في البئر ؟ إنني لن أحفل إذا كان علي ، من أجل شفاء أمراض الغير ، أن أكون بقرة العرس . دعني في هدوء ، أستحلفك بالله ، وإلا ضربت بكل شيء عرض الحائط » .

وكانت التسيدورا قد جلست على قبرها ، وصاحبت النايات والمزامير الهتافات التي تقول : «تحيا التسيدورا! لقد بعثت!» ووقف الدوق والملكان ، والقضاة ، ودون كيخوته وسنشو لاستقبالها ، ومساعدتها على النزول من قبرها . وبوجه شاحب حيت الدوق ، والدوقة ، وتطلعت في دون كيخوته عن عرض ، وقال له : «عفا الله عنك ، أيها الفارس العديم الإحساس ، إذ بسبب قساوتك أقمت أنا في العالم الآخر ألف سنة على الأقل ، أما أنت . يا أرحم سائس في الدنيا ، فإني أشكر لك الحياة التي استرددتها . وإني أهبك ، أي سنشو العزيز ، ستة من قمصاني لتصنع منها غيرها . وإن لم تكن كلها جيدة ، فهي على الأقل نظيفة .» فقبل سنشو يديها ، وقبعته في يده ، وركبتاه على الأرض . وأمر الدوق بخلع ردائه وقبعته المحدودبة ، لكن سنشو طلب أن يعطوهما له ، ذكرى لأغرب مغامرة .

فقالت الدوقة : «أنا موافقة ، وسنشو يعلم جيدا أنني صديقته .» ثم أمر الدوق بعد ذلك بإخلاء البهو ، وانسحاب الجميع ، واقتياد دون كيخوته وسنشو إلى الجناح المخصص لهما .

الفصل السبعون

وهو يتلو الفصل التاسع والستين ويبحث في أمور مهمة لفهم هذا التاريخ

قضى سنشو ليلته على سرير في غرفة دون كيخوته ، مما لم يسره أبدا ، لأنه كان متأكدا أن مولاه لن يترك له فرصة للنوم بما سينهال به عليه من أسئلة ، وهو لم يكن مستعد المزاج للمناقشة ، لأن الآلام التي عاناها عقدت لسانه ، حتى أنه كان يفضل أن ينام وحده في كوخ حقير على أن ينام مع دون كيخوته في غرفة فاخرة . وكان لمخاوفه ما يبررها حقا ، لأنه لم يكد يرقد على سريره ، حتى قال له دون كيخوته : « ما رأيك يا سنشو في أحداث هذه الليلة ؟ ما أكبر قوة التعالي في الحب ؟ لقد رأت عيناك التسيدورا ميتة ، لا بسهام حادة ، أو بالسيف ، أو بأي سلاح فتاك ، ولا بفعل السموم المدمرة ، بل بفعل احتقاري وتعالي عليها وما أبديته دائما من قسوة نحوها » .

فأجاب سنشو : فلتمت متى وكيف شاءت ، وتتركني في سلام ، أنا الذي لم أعشقها ، ولم أزدرها أبدا طول حياتي . ولم أفهم بعد ، كما قلت من قبل ، ما هي الصلة بين حياة التسيدورا ، هذه الفتاة اللعوب العابثة ، وبين عذاب سنشو پنثا . الآن أقر بوضوح وتمييز أنه يوجد سحرة في العالم ، نجاني الله منهم ، لأني لا أستطيع بنفسي أن أخلص منهم . ومع هذا ، يا سيدي ، أرجوك أن تتركني أنام ، ولا تسألني بعد الآن إذا أردت مني أن أقذف بنفسي من النافذة » .

فقال دون كيخوته : نم يا صديقي سنشو ، إذا مكنتك القرصات والشكات من النوم .

فقال سنشو : سيدي! إني لم أعرف ألما يساوي إهانة الصفعات ، خصوصا إذا صدرت عن نسوة عجوزات ، والعياذ بالله . لكن لما كان النوم فيه نسيان كل الآلام ، فإني أستحلفك مرة أخرى أن تتركني أنام .

فقال دون كيخوته : ليكن ، والله معك .

ونام كلاهما . واستغل سيدي حامد ، مؤلف هذا التاريخ العظيم ، نومهما ليروي كيف رتب الدوق الأمور وصنع المغامرة التي أتينا على وصفها . إن حامل البكالوريا كرسكو ، وهو لم ينس أن دون كيخوته هزمه وهو باسم فارس المرايا ، وقلبت هزيمته كل مشروعاته رأسا على عقب ، فإنه قرر أن يعاود الهجوم ، مؤملا في النجاح هذه المرة . فاستعلم من الغلام ، الذي حمل الرسالة إلى تريزه سنشو ، عن موقع القصر الذي كان يقيم فيه دون كيخوته ، وحصل على أسلحة جديدة ، وفرس ، وأمر برسم قمر أبيض على ترسه . وحمل بغل حقائبه ، وقاده فلاح غير تومية ثثيال ، سائسه الأول ، خوفا من أن يتعرف عليه دون كيخوته ، الذي كان يريد آنذاك أن يذهب إلى مباريات سرقسطة . كذلك أخبره الدوق عن كل الألاعيب التي دبروها لدون كيخوته ، واختراعهم لفكرة رفع السحر عن دلثنيا بواسطة جلد سنشو على أردافه ، وأن الانسحار المزعوم كان من اختراع سنشو نفسه ، الذي جعل مولاه يعتقد أن دلثنيا تحولت إلى فلاحة ، وأن الدوقة أقنعت سنشو بأنه هو الغالط وأن دلثنيا مسحورة فعلا . لم يملك كرسكو نفسه من الضحك على مكر وسذاجة سنشو ، وجنون دون كيخوته البالغ . ودعاه الدوق إلى العودة إلى قصره ، هازما أو مهزوما إذا أدرك دون كيخوته ، فوعده حامل الاجازة ، واستأنف طريقه لكنه لم يجد الفارس في سرقسطة ، فاستمر في سيره ، وجرى له ما قرأته . ثم عاد ومر بقصر الدوق ، وأخبره نتيجة معركته مع دون كيخوته ، بوصفه فارسا أمينا مخلصا ، سيعود تنفيذا للعهد الذي قطعه على نفسه بالاعتزال سنة في بيته ، في أثنائها يمكن أن يشفى من جنونه ، وأن هذه هي الغاية التي من أجلها تخفى كل هذه الألوان من التخفي ، لأنه من الحزن جدا أن نبيلا مثقفا جدا مثل دون كيخوته يصير مجنونا . وبعد ذلك ودع حامل البكالوريا الدوق ، وعاد إلى قريته في انتظار دون كيخوته القادم في أثره .

وهذه الأفكار أوحت إلى الدوق بفكرة تدبير ألعوبة جديدة ، لأنه كان مسرورا جدا بالتسلي بدون كيخوته وسنشو . فأمر كل رجاله باحتلال كل الطرق المحيطة بقصره ، وتلك التي ظن أن الفارس لا بد سيمر منها . وتلقى عدد كبير من الخدم ، راكبين الخيل ومترجلين ، أمرا بالقبض عليه واحضاره طوعا أو كرها . وأخيرا وجدوه ، فأخبروا الدوق ولما علم بقدومه أمر بإشعال كل مصابيح الفناء ، ووضع التسيدورا على القبر ، بكل الجهاز الذي وصفناه لك ، وتم كل شيء بإتقان بحيث لم يكن من الممكن التمييز بين الظاهر والواقع . بل يذهب سيدي حامد إلى أبعد من هذا فيقول إن الساخرين لم يكونوا أقل جنونا ممن سخر منهم وأنه ليس من جودة الرأي الاهتمام بتعذيب مجنونين : أحدهما كان ينام ملء جفنيه ، والآخر كان مطمورا بين خواطره .

وفاجأهما النهار ، واستعدا للنهوض ، لأن دون كيخوته ، ظافرا أو مهزوما ، كان لا يحب أبدا كسل الفراش .

والتسيدورا التي اعتقد دون كيخوته جازما أنها بعثت من الموت ـ لبست ـ من أجل إرضاء سيدتها ـ التاج الذي كان عليها وهي على القبر ، ولبست غلالة من التافتاه الأبيض المنقوش بالأزهار الذهبية وأرسلت شعرها ، واستندت إلى عصا من الأبنوس ، ودخلت غرفة دون كيخوته الذي لم يكد يراها حتى ارتبك ، فدس نفسه في السرير ، واختفى في الأغطية والملاءات ، دون أن ينطق بكلمة ، أو يبذل أية تحية . فجلست التسيدورا على كرسي بالقرب من المخدة ، وأطلقت زفرة حارة ، ثم قالت بصوت ضعيف ناعم : «حين تدوس السيدات ذوات المكانة والبنات المتواضعات الشرف بأقدامهن ، وتسمحن لألسنتهن بالافصاح عن أسرار قلوبهن ، فإنهن يكن في مأزق حرج جدا . وأنا إحدى هؤلاء البائسات يا سيدي دون كيخوته ، مضطهدة ، مقهورة ، مدلهة بالغرام ، لكني شريفة وإن آلامي ـ من شدة كتمانها والصمت الذي فرضته على نفسي ـ من شأنها أن تجعل روحي تفر وأفقد الحياة . ومنذ يومين تسببت قسوتك في موتي ، أيها الفارس العنيد الذي لا يلين ، الصلب أكثر من المرمر بالنسبة إلى شكاياتي[1] ، أو على الأقل الذين رأوني حكموا علي بأنني مت ، ولولا أن «الحب» ، وقد تأثر لبلاياي قد وضع الشفاء في استشهاد وعذاب هذا السائس الطيب ، لما كنت غادرت العالم الآخر وأتيت إلى هذا العالم» .

فقال سنشو : كان في استطاعة «الحب» أن يضع الشفاء أيضا في عذاب حماري ، وكنت شكرت له ذلك . لكن قولي لي يا سيدتي (والسماء توفقك إلى عاشق أكثر حساسية من مولاي) ماذا رأيت في العالم الآخر ؟ وماذا في الجحيم الذي لا بد لمن يموتوا قانطين أن يتخذوا السبيل إليه ؟ » .

فأجابت التسيدورا : الحق أنني لم يظهر أني لم أمت تمام الموت ، لأني لم أدخل الجحيم ، ولو كنت دخلته لما كنت أستطيع الخروج منه كما أشاء . أني لم أصل إلا إلى الباب ، حيث رأيت عشرة من الشياطين يلعبون الكرة وعليهم شارات وصديريات ذوات دلايات من دنتلة الفلاندر ، وأكمام من القماش نفسه ، على بعد أربعة أصابع من الرسغ لاظهار اليد أطول . وكانت معهم مرزبات من نار ، وما أدهشني أكثر ، هو أنهم بدلا من أن يستخدموا كرات ، كانوا يستخدمون كتبا ، بدت مملوءة من الهواء والوبر ، وهو أمر جديد

---

(١) هذه الجملة من قصيدة لجرثلاسو دلا بيجا .

عجيب . لكن أشد ما أدهشني هو أنه بينما اللاعبون عندنا الذين يكسبون ويفوزون يغتبطون ، والذين يخسرون يسخطون ، وهو أمر يبدو لي طبيعيا ، هم هناك جميعا يصرخون ويسبون ويلعنون . » ـ فقال سنشو : «هذا ليس بعجيب ، فإن الشياطين سواء أكانوا يلعبون أم لا ، وسواء كسبوا أو خسروا ، لا يمكن أن يكونوا راضين أبدا » .

فأجابت التسيدورا : لا بد أن الأمر هكذا ؛ لكن ثم شيء آخر بدا لي عجيبا ، وهو أنه من أول وثبة لا تصلح الكرة ؛ ولهذا كانوا في كل ضربة يغيرون الكتب ، القديمة أو الجديدة ، على هواهم . وأحد هذه الكتب ـ وكان حسن التجليد ـ أصيب بضربة أخرجت أحشاءه وشتت أوراقه . فقال أحد الشياطين لاخر : «أنظر ما هذا الكتاب! » فقال الأخير : «القسم الثاني من تاريخ دون كيخوته دلا منتشا ، وهو ليس من تأليف سيدي حامد ، مؤلفه الأول ، بل من تأليف أرغوني يدعي أنه من مواليد توردسياس . » ـ فقال الأول : «اطرده من هنا ، وألق به في هاوية الجحيم حتى لا أراه . » ـ فقال الأخر : «هل هذا الكتاب سيء إلى هذا الحد ؟ » ـ فقال الأول : «سيئ جدا بحيث لا أستطيع أن أجعله أسوأ من ذلك . » واستمر الشياطين في لعبهم ، ويضربون كتبا أخرى ، ولما سمعت اسم دون كيخوته الذي أعزه كثيرا انتقشت هذه الرؤيا في ذاكرتي .

فقال دون كيخوته : «نعم لا شك في ذلك ، لا بد أن هذه الرؤيا ، لأني أنا وحدي الذي أحمل هذا الاسم في العالم ، وهذا التاريخ يجري متنقلا من يد إلى يد ، ولا يتوقف أبدا في أية يد ، لأن كل إنسان يركله بقدمه .ولم أتضايق من القذف بي في ظلمات الهاوية ، أو إلى نور السموات لأني لست أبدا ذلك الذي يتحدث عنه هذا التاريخ . ولو كان جيدا أمينا صادقا لعاش أجيالا وأجيالا ، لكن إذا كان ردينا ، فإن الطريق بين ميلاده ودفنه ليس طويلا » .

وكانت التسيدورا بسبيل الاستمرار في شكاياتها الغرامية ، حين قال لها دون كيخوته : «لقد أنبأتك مرات عديدة ، يا سيدتي ، أنه يؤلمني جدا أنك اخترتني موضوعا لأفكارك ، لأني لا أستطيع أن أقدم إليك غير عرفان بالجميل عقيم . لقد ولدت من أجل دلثنيا دل توبوسو ؛ والقدر ، إن وجد ، قد كرسني لها ؛ والاعتقاد أن جميلة أخرى يمكن أن تغتصب المكانة التي لها في نفسي هو من باب الرجاء في المستحيل . وما أقوله يجب أن يكفي لإزالة الغشاوة عن عينيك وإدخالك في حدود الشرف ؛ لأنه لا أحد ملزم بالمستحيل» .

ولدى سماع هذه تظاهرت التسيدورا بالغضب ، وقالت : «الله حي! يا دون بكلاه ، ياروح الأسمنت ، ونواة البلح ، يا من هو أعند وأقسى من الشرير الذي يترجى حين يصوب

إلى الهدف ؛ لو ارتميت عليك لاقتلعت عينيك . هل تعتقد ، أيها الدون المهزوم ، الدون المضروب بالعصى ، أنني تركت نفسي أموت من أجلك ؟ إعلم إذن أن كل ما شاهدته هذه الليلة لم يكن إلا تمثيلا . لست أنا المرأة التي تحمل ، من أجل هذا البعير ، أقل ألم في إصبعي ، وبالأحرى أنا أدع نفسي أموت» .

فقال سنشو : وأنا أعتقد هذا ؛ إن كل موتات العشاق ما هي إلا هزل في هزل ؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا ذلك ، أما أن يفعلوه فليصدق هذا يوداس[1]!

وفي هذه اللحظة دخل الشاعر الموسيقار الذي تغنى بالقصيدة على شرف التسيدورا . وحيا دون كيخوته تحية عميقة وقال له : «سيدي الفارس ، أرجوك أن تتنازل وتعدني من بين خدامك المخلصين كل الاخلاص ؛ منذ وقت طويل وأنا معجب بك ، من أجل شهرتك ومن أجل أعمالك الحربية المجيدة» .

فأجاب دون كيخوته : سيدي! تفضل فخبرني من أنت ، حتى يتناسب أدبي مع فضلك .

فأجاب الشاب : أنا الموسيقار المادح في الليلة الماضية .

فقال دون كيخوته : أعترف بأنك أجدت الغناء ؛ لكن يبدو لي أن الكلمات ليست منتقاة جيدا . فما الصلة بين أشعار جرثيلاسو وبين الموت المزعوم لهذه الآنسة ؟

فأجاب الموسيقار : أوه! لا تعجب من هذا أبدا ، ولكنها العادة بين شعراء الشباب في هذا القرن جرت أن يكتب كل بحسب ما يفهم ، وينهب ما يعجبه ، سواء جاء في محله أو لا ؛ وبهذه الوسيلة تعزى كل الحماقات التي تنشدونها أو يكتبونها إلى الرخص الشعرية» .

وكان دون كيخوته على وشك أن يجيب ، ولكن منعه من ذلك مجيء الدوق والدوقة لزيارته . ودارت بينهم محادثة طويلة عذبة ، في أثنائها قال سنشو الكثير من النكت والملح الماكرة واللذيذة ، حتى أعجب الدوق بخفة روحه وسذاجته معا . وطلب دون كيخوته من الدوق أن يأذن له بالرحيل في اليوم نفسه ، ملاحظا أن الفرسان المهزومين مثله ينبغي عليهم بالأحرى أن يقيموا في الاسطبلات لا في قصور الملوك . ووافق صاحبا القصر عن طيب خاطر ، وسألاه هل هو راض عن التسيدورا .

فأجاب دون كيخوته : «سيدتي! داء هذه الآنسة مرده كله إلى البطالة . والعلاج هو في أن تشتغل في عمل شريف ومتواصل ، لقد قالت لي أنهم في الجحيم يلبسون الدنتلة ؛ ولا

---

(١) أي ليصدقه من شاء . ويقول كليمنثين أن هذه الجملة ترجمة ساخرة لعبارة هورس («هجائيات» ١ ٦، ١٠٠) Credat Iudaeus Apella (صدق أبلا اليهودي) .

شك في أنها تعرف صنع الدنتلة ؛ وإذا اشتغلت في الغزل بالمغزل ، لم يرسم عقلها باستمرار صورة من تعشق . هذه نصيحتي ، ورأيي ، وأعتقد أنه مطابق للحق» .

فقال سنشو : وهذا رأيي أيضا ، لأني لم أر في حياتي عاملة في شغل الدنتلة قد ماتت من الحب . والآنسات المشغولات يفكرن في الانتهاء من شغلهن أكثر من التفكير في الحب ، وأنا نفسي ، حين أفلح الأرض لا أفكر أبدا في جوهرتي ، أقصد تريزتي ، وهي أعز عندي من حدقة عيني .

فقالت الدوقة : أنت على حق ؛ وأنا أريد من الآن فصاعدا أن تشتغل التسيدورا في أشغال البياضات ، وهي بارعة فيها .

فقالت ألتسيدورا : لا جدوى ، يا سيدتي ، في استعمال هذا الدواء ؛ فإن ذكرى القسوة التي أبداها نحوي هذا الصعلوك الجوال ستكفي لا نتزاع صورته من قلبي ، بغير حيلة أخرى . واستسمح عظمتك في الأذن لي بالانسحاب ، حتى لا أرى بعد أمام عيني ليس فقط الفارس الحزين الطلعة ، بل وسيماه الكريهة المنفرة .

فقال الدوق : هذا يشبه المثل الذي يقول :

من يصب عليك الشتائم

قريب من العفو عنك

وتظاهرت التسيدورا بأنها تمسح دموعها ، وحيّت سيديها وخرجت .

فقال سنشو : أيتها الفتاة المسكينة ، اذهبي إلى الشيطان ، لأنك توجهت إلى روح من اليراع ، وقلب من الزان . لو كنت اخترتني ، لوجدت ديكا يغني بطريقة أخرى .

وانتهت المناقشة ، ولبس دون كيخوته ثيابه ، وتغدى مع الدوق ، وارتحل في المساء .

الفصل الحادي والسبعون

فيما وقع لدون كيخوته وسائسه سنشو
وهما في الطريق الى قريتهما

ارتحل دون كيخوته وهو بين التفكير والسرور . كانت هزيمته سببا في حزنه ، وكان مصدر سروره قوة سنشو السرية على بعث التسيدورا ، وإن لم يكن مقتنعا تماما بأنها كانت قد ماتت فعلا . أما سنشو فلم يكن مسرورا أبدا ، لأن التسيدورا لم تعطه القمصان التي وعدته بها . وعذبه هذا الخاطر فقال لمولاه : «الحق إنني أبأس طبيب في العالم ؛ فمن الأطباء من يطالبون بالأجر ، مع أنهم قتلوا المريض الذي يعالجونه ، وكل علاجهم يقتصر على كتابة بطاقة صغيرة فيها بعض الأدوية التي لا يصنعونها هم ، بل الصيدلي ، وهو الآخر لا بد من دفع أجرة ؛ أما أنا ، الذي كلفني علاج الغير وشفاؤهم : دما ، وصفعات ، وقرصات ، وشكات ، وجلدات ، فهذا كله لا يعود علي بفلس واحد . ولكني أقسم بالله لو وقع مريض آخر بين يدي فلابد أن يدفع الثمن غاليا قبل أن أعالجه . إن الراهب يعيش من إنشاده ، ولا أعتقد أن السماء وهبتني القدرة التي عندي من أجل إعطائها للغير مجانا وبغير مقابل» .

فأجاب دون كيخوته : «أنت على حق يا سنشو ؛ وقد أساءت التسيدورا جدا ، بعدم إعطائك القمصان التي وعدتك بها . لأنه على الرغم من أن القوة التي عندك قد وهبت لك مجانا وبغير مقابل ، ولم تكلفك أية دراسة ، فإن عذاب شخصك فوق كل دراسة . أما عن نفسي فإني أستطيع أن أقول لك أنك لو كنت أردت مني أن أدفع لك الضربات اللازمة لرفع السحر عن دلثنيا ، لكنت قد حصلت فعلا على الثمن . ولست أدري هل الأجرة تمنع من الشفاء ، ولا أريد أن أضع العراقيل . وعلى كل حال فلن نخسر شيئا إذا جربنا ؛ انظر يا سنشو ماذا تطلب ؛ واجلد نفسك بسرعة ، وادفع لنفسك أجرتك بيديك ، لأن النقود معك» .

ففتح هذا العرض عيني سنشو وأذنيه بطول شبر ، ووافق في قلبه على جلد نفسه عن طيب خاطر ، وقال لسيده : «الآن يا سيدي أشعر بأنني مستعد لإرضائك ، لأني أجد في

ذلك مكسبا لي . إن حبي لزوجتي وأولادي يجعلني أظهر بمظهر الرجل النفعي ؛ انظر ماذا تريد أن تعطيني عن كل جلدة » .

فأجاب دون كيخوته : «لو كان علي أن أدفع بما يناسب عظمة الخدمة التي ستسديها لما كانت كنوز البندقية ومناجم بوتوسوي كافية للوفاء بالثمن . انظر أنت ما معك لي ، وحدد أنت بنفسك الثمن لكل ضربة » .

فأجاب سنشو : «على ثلاثة آلاف وثلثمائة ضربة وكسور ؛ وقد ضربت نفسي خمسا ، لكني لا أحسبها ، لأنها ضمن الزيادة . فلنأخذ في النظر في الثلاثة آلاف وثلثمائة . إذا كانت كل ضربة بربع ريال (ولن أخفض أي شيء مهما كان) فهذا يساوي ثلاثة آلاف وثلثمائة ربع ريال . الثلاثة آلاف تساوي ألف وخمسمائة نصف ريال ، أو سبعمائة وخمسين ريالا ؛ والثلثمائة تساوي مائة وخمسين نصف ريال ، أي خمسة وسبعين ريالا ، فإذا أضفت هذه إلى السبعمائة وخمسين كان المجموع الكلي ثمامائة وخمسة وعشرين ريالا . وسأخصم هذا المبلغ مما معي لك من نقود ، وأعود إلى بيتي غنيا راضيا وإن كنت جلدت جلدا عظيما . لا تصطاد القراميط... ولا أقول أكثر من هذا » .

فأجاب دون كيخوته : بوركت ألف مرة ، أي سنشو المحبوب . كم ستكون دلثنيا وأنا مدينين لك طوال عمرك ، إذا استعادت حالتهاالأولى ، ومن المستحيل ألا تستعيدها ؛ شقاؤها سيصبح سعادة ، وهزيمتي تصير انتصارا . انظر يا سنشو حين تريد أن تبدأ سأعطيك مائة ريال، إذا نفذت ذلك حالا .

فقال سنشو : متى ؟ هذه الليلة وبدون إبطاء . اعمل على أن نبيت في العراء ، تحت النجوم الجميلة ، وأنا أفتح لحمي .

وجاء الليل الذي انتظره دون كيخوته بصبر نافد . وبدا أن أبولون قد كسر عجلات عربته ، وأن النهار كان أطول من المعتاد ، كما يحدث للمحبين ، الذين يتلهفون على تحقيق أمانيهم .

ثم دخلا تحت الظلال البليلة لبعض الأشجار البعيدة بعض البعد عن الطريق . وخلع سنشو عن الركوبتين ما عليهما ، ثم جلسا على العشب الرقيق ، وتعشيا مما كان في خرج سنشو . ثم صنع سنشو من حظام حماره مقرعة ، ودخل في الأيكة على مبعدة عشرين خطوة . فلما رآه دون كيخوته ذاهبا عاري الكتفين قاصدا أن يقوم بهذه العملية ، عملية الضرب ، قال له : «يا صاحبي حذار أن تمزق نفسك إربا إربا ، ولتكن الضربة بعد الضربة بمدة ، ولا تتسرع في العملية ، ولا تذهبن أنفاسك في وسط الطريق ، أقصد أنه ينبغي عليك

ألا تضرب نفسك بشدة حتى لا تفقد حياتك قبل بلوغ الهدف المقصود . لكن ، حتى لا تخطئ في العدد فتضرب نفسك أكثر أو أقل ، فإنني سأقف في ناحية هنا ، وأعد على مسبحتي الضربات التي تسددها إلى جسمك . كانت السماء في عونك ، كما تستحق سلامة طريقك» .

فقال سنشو : « إن الدافع الجيد لا يخشى أن يعطي رهونا . سأضرب نفسي بحيث لا أنتزع حياتي ، ولكن تحس بالضرب أكتافي ، وفي هذا يقوم جوهر المعجزة من غير شك » .

وتعرى من خصره حتى قدميه ، وأمسك بالسير ، وبدأ يضرب نفسه بينما دون كيخوته يعد . وبعد ست أو ثماني ضربات ، بدأ سنشو يشعر بأن العملية شاقة ، والثمن زهيد ، فقال لمولاه إن ثم سوء استغلال ، وأن كل ضربة كما أعطاها لنفسه ، تساوي نصف ريال ، لا ربع ريال .

فأجابه دون كيخوته : استمر يا عزيزي سنشو ، لا تقلق فسأضاعف الثمن .

فقال سنشو : إذن فلتنهمر الضربات!

لكن هذا الماكر كف تسديد الضربات إلى كتفيه ، وأخذ يسددها إلى الأشجار ، معقبا إياها بين الحين والحين بزفرات بحيث يود أن الضرب يوجعه وتسيل روحه . ولكن دون كيخوته ، وهو بطبعه رجل حساس ، خاف أن يموت سنشو ، فلا يتحقق انتظاره ، بسبب عدم احتياط سنشو . فقال لسنشو : «باسم اللّه ، توقف الآن . إن هذا الدواء يبدو لي قاسيا : عليك بالاستراحة : إن سمورة لم يستول عليها في ساعة . لقد ضربت نفسك أكثر من ألف ضربة ، إذا صح حسابي ، وهذا يكفي . إن المثل المبتذل يقول إن الحمار يتحمل الحمل ، لا ما زاد على الحمل» .

فأجاب سنشو : لا يا مولاي ، لا أريد أن يقال عني : الأجرة مدفوعة ، والذراع مكسورة . ابتعد قليلا ، وسأضرب نفسي ألف ضربة أخرى ، وفي شوطين ، ستنهى الشغلة ، ويكون لي باق أيضا .

فقال دن كيخوته : ما دمت بهذا الاستعداد الجيد ، فسأبتعد ، أعانتك السماء وجازتك خير الجزاء .

وعاد سنشو إلى عمله بحماسة شديدة حتى أنه نزع لحاء عدد كبير من الأشجار لأن شعوره وهو يضرب نفسه كان قاسيا ، ثم أخيرا رفع عقيرته وضرب الأيكة بضربة هائلة وقال : «هنا سيموت سمسون وكل الذين معه» .

فهرع دون كيخوته عندسماع هذه العبارة ، ولدى سماع ضربة السوط الهائلة هذه ،

وأمسك بالمقرعة وقال لسنشو : « يا صديقي ، إن السماء لا تسمح بأن تفقد أنت الحياة الضرورية لزوجتك وأولادك تفقدها من أجلي أنا . فلتنتهز دلثنيا فرصة أخرى ، وسأقتصر على حدود أمل مقبل قريب ، وانتظر حتى تسترد قوتك من جديد لإنهاء هذه المسألة بما يرضي الجميع » .

فقال سنشو : « ما دامت سيادتك تريد هذا ، فليكن ، لكني أرجوك ، أن تلقي على كتفي بمعطفك . فأنا أتصبب عرقا ، وأخشى من البرد ، والتوابون المحدثون معرضون لذلك » .

فخلع دون كيخوته معطفه ، وغطى به سنشو ، ونام هذا نومة واحدة متصلة حتى مطلع الشمس . وأفاقا ، واستأنفا السير إلى قرية تبعد بثلاثة فراسخ .

وتوقفا في فندق ، ورضي دون كيخوته أن يتعرف أنه فندق ، وليس قصرا محاطا بالخنادق ، والأبراج ، والمسالف ، والجسور القابلة للرفع ، لأنه منذ هزيمته أخذ يتكلم عن الأمور بعقل ، كما سنرى بعد قليل .

وأدخل في قاعة سفلية ، غطيت جدرانها « بالسرج »[1] الملون ، كما هو المعتاد في الفنادق . وفي احدى هذه القطع رسم اختطاف هيلانة في اللحظة التي انتزعها ضيفا الجسور من منيلاوس[2] ، وكان رسما رديئا جدا . وعلى قطعة أخرى شوهد تاريخ اينيوس وديدونه ، وكانت هذه على برج عال ، تلوح بشال كبير لتنادي على عاشقها الخائن ، الذي فر في البحر على سفينة صغيرة أو فرقاطة . ،ولاحظ أن هيلانة تركت نفسهاتختطف عن طيب خاطر وهي تبسم لمختطفها ، بينما كانت ديدونه الجميلة تذرف أحر العبرات . وتأمل دون كيخوته هذه السجاجيد الجدرانية وقال : « هاتان الامرأتان كانت بائستين لأنهما لم تولدا في هذا القرن . ، أو لأني أنا لو أولد في زمانهما . لأني لو كنت قابلت هذين الرجلين لكنت كلمتهما بحيث لا تحرق طروادة ، ولا تحطم قرطاجة . ولو قتلت باريس وحده ، لكنت قد صرفت كل هذه الشرور » .

فقال سنشو : « أراهن أنه لم يمضِ وقت طويل حتى يرسم تاريخ أعمالنا في كل حانة ، وفندق ودكان حلاق ، لكني أود أن ترسم بيد أفضل من التي رسمت هذه اللوحات » .

---

(١) = Sargn قماش من الحرير عليه رسوم ترين به جدران الغرف والقاعات .

وفي النص : « قاعة سفلية ، تقوم مقام الغدامسيات فيها قطع من السرج... » والغدامسيات نسبة إلى واحة غدامس في طرابلس الغرب (ليبيا) وهي جلود مصقولة ومزينة بالرسوم . كانت تستخدم في تغطية جدران الغرف .

(٢) أي حين اختطفها باريس من زوجها منيلاوس .

فقال دون كيخوته : أنت على حق يا سنشو : لأن هذا الرسام يشبه أوربينخا ، رسام أبذه ، الذي كان إذا سئل ماذا يرسم يجيب : « ما سيخرج من فرشاتي » ، وإذا تصادف ورسم ديكا ، فإنه يكتب تحته : « هذا ديك » حتى لا يظن أحد أنه ثعلب . ولا بد أن الرسام أو الكاتب (وكلاهما واحد) الذي نشر تاريخ دون كيخوته الجديد هو من هذا النوع ، لأنه رسم أو كتب حيثما اتفق ، أو فعل مثل شاعر اسمه موليون كان في الأعوام الماضية في البلاط . وكان يجيب فورا عن كل ما يسأل عنه . فسئل ذات يوم ما معنى Deum de Deo فأجاب de donde diere لكن لندع هذا ، وقل لي يا سنشو هل لديك رغبة في شوط آخر هذه الليلة ؟ وهل تريد أن يكون ذلك في العراء أو تحت سقف ؟ » .

فأجاب سنشو : والله بالنسبة إلى الضربات التي أظن أني سأضرب بها نفسي فإنه يستوي أن يكون ذلك في البيت أو في الحقول . لكني أفضل أن يتم ذلك تحت أشجار ، إذ يبدو لي أنها تصحبني وتساعدني مساعدة ممتازة في عملي .

فقال دون كيخوته : لا يا سنشو ، الأفضل أن تترك نفسك لتسترد قوتك ، وتحتفظ بإرادتك الطيبة إلى حين نصل إلى بيوتنا ، وسيكون ذلك ، فيما أعتقد ، بعد غد .

فقال سنشو : كما تشاء يا مولاي ، لكني أفضل أن أطرق الحديد وهو ساخن ، وأن أطحن حين يدار الحجر . والخطر دائما أو غالبا في التأخير . لا بد أن تضرب بمطرقة الخشب ، وأنت تدعو الله . واحد في يدك خير من اثنين في غدك . عصفور في اليد خير من الرخم الذي يطير » .

فقال دون كيخوته : بحق الله ألا أوقفت سيل هذه الأمثال ، يا سنشو ، يبدو كما لو كنت ستعود إلى : « هكذا كان »[١] . تكلم بوضوح ، ونصاعة ، بغير مجاز ، كما قلت لك من قبل : وسترى أن رغيفا يعود عليك بمائة .

فأجاب سنشو : مولاي ، لا أدري أي نحس يلاحقني ، لكني لا أستطيع أن أسوق حجة بدون مثل ، ولا مثلا يبدو لي حجة ، لكني سأصلح نفسي إذا استطعت .

وهكذا انتهت محادثتهما .

---

(١) أي ستعود « إلى ما كان من قبل » أي إلى عادتك القديمة ، وتمامها « هكذا كان في البدء » ، وهي مأخوذة من جملة في صلاة : « المجد للآب » .

الفصل الثاني والسبعون

كيف وصل دون كيخوته وسنشو الى قريتهما

أمضى دون كيخوته وسنشو نهارهما كله في الفندق ، انتظارا لليل ، أحدهما لاتمام الجلد في العراء ، والثاني ليرى النتيجة ، التي أودع فيها كل آماله . وفي تلك الأثناء وصل إلى الفندق مسافر يركب فرسا ، يتبعه ثلاثة أو أربعة خدم ، وقال له أحدهم : «مولاي دون ألبرو طرفيه ، تستطيع أن تتوقف هاهنا ، للقيلولة ، فالفندق يبدو نظيفا طريا» . وعند سماع هذه الكلمات قال دون كيخوته لسنشو : «يا صاحبي ، عندما تصفحت كتاب القسم الثاني من تاريخي ، أعتقد أنني رأيت اسم طرفيه هذا» . ـ فقال سنشو : «يجوز ، لنتركه ينزل ، وبعد ذلك نكلمه» . فنزل الراكب عن فرسه ، وأدخلته صاحبة الفندق في قاعة واطئة ، إلى جانب قاعة دون كيخوته ، وجدرانها عليها سرج عليه رسوم . وتخفف من ملابسه ، وجاء ليستنشق الهواء على باب النزل ، وكان واسعا ، وعنده كان دون كيخوته يتريض . فقال له : «سيدي ، هل أستطيع أن أسألك إلى أين أنت ذاهب ؟» ـ فأجاب دون كيخوته : «يا سيدي الفاضل ، أنا ذاهب إلى قرية قريبة من هنا ، هي مسقط رأسي ، وأنت ، يا سيدي ؟» .

فقال المسافر : «أنا ذاهب إلى غرناطة ، بلدي» .

ـ إنها بلد جميل ، لكن من فضلك قل لي ما اسمك ، إذ يهمني أن أعرفه أكثر مما تظن .

ـ اسمي دون البرو طرفيه .

ـ أنت لا شك ذلك الطرفيه الذي يتحدث عنه القسم الثاني من تاريخ دون كيخوته دلا منتشا ، الذي نشره حديثا مؤلف جديد ؟

ـ نعم هو أنا ، وهذا الدون كيخوته ، بطل هذا التاريخ ، هو صديقي العزيز وأنا الذي

جررته من بلده ، وحملته على المجيء إلى المباريات التي تقام في سرقسطة وقد حضرتها . والحق أنني أسديت إليه خدمة جليلة ، لأني منعت الجلاد من حك كتفيه بشدة بسبب تهوره المفرط[١] .

ـ وهل يبدو لك يا سيدي أنني أشبه ذلك الدون كيخوته الذي تتكلم أنت عنه ؟

ـ لا ، أبدا ، بأي حال من الأحوال .

ـ وهل كان معه سائس يدعى سنشو پنثا ؟

ـ نعم ، حقا ، لقد قيل إن هذا السائس فكه جدا ، لكنني لم أسمع منه أبدا شيئا حسنا .

فقال سنشو : وأنا أعتقد هذا تماما ، لأنه ليس في مقدور كل انسان أن يكون فكها ، وأنا أراهن أن هذا السنشو ، الذي تتحدث عنه سيادتك ، لا بد أن يكون صعلوكا ، أو لصا ، أو أحمق . أما أنا فأنا سنشو الحقيقي الذي يقول من المُلح أكثر مما في المطر من قطرات ماء . وما عليك إلا أن تجرب ، اتبعني طوال عام ، تر أن المُلح تصدر عنه كالفيض الزاخر حتى أني أحيانا ، وبدون أن أدري ما أقول ، أضحك كل الذين يصغون إلي . أما دون كيخوته دلا منتشا الحقيقي ، الشهير ، المغوار ، الحكيم ، العاشق ، رافع المظالم ، الوصي على القصر واليتامى ، سند الأرامل ، محطم قلوب الأوانس ، الذي لا تسيطر على أفكاره سيدة غير المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، فهو السيد الذي تراه أمامك ، وهو سيدي ، وغير سنشو ، وغير دون كيخوته هذين الماثلين أمامك أحلام وأوهام » .

فأجاب دون ألبرو : «بحق روحي أنا أصدقك ، لأنه بأربع كلمات قلتها كشفت عن لطف وظرف لم يكشف عنهما سنشو الآخر في كل الأحاديث التي سمعته يقولها . لقد كانت عليه سيماء النهم الشره ، لا سيماء المتحدث الجميل اللفظ ، المجنون لا الفكه . وأنا عن نفسي أعتقد أن السحرة الذين يلاحقون الطيب دون كيخوته يطاردونني أيضا ، لأنهم جعلوني أعرف دون كيخوته الرديء ، وعلى ذلك فلا أستطيع أن أتكلم عنه ، لكن أجرؤ على القسم بأني تركت هذا الأخير في بيت المندوب الطليطلي ، ليعالج من الجنون ، والآن لقيت دون كيخوته آخر ، مختلفا تمام الاختلاف عن ذاك » .

فقال دون كيخوته : لست أدري هل أنا خير ، ولكني أعرف على الأقل أنني لست دون كيخوته ذلك الرديء ، والدليل على هذا ، يا سيد دون البرو ، أنني لم أذهب في حياتي كلها

---

(١) راجع الفصول ٨١ ، ٢٩ ، ٢٦ ، من «دون كيخوته» تأليف أبيانيدا .

إلى سرقسطة . ولما علمت أن هذا الرديء قد ظهر على أبواب تلك المدينة ، فإني لم أر دخولها ، حتى أكذب ذلك المحتال النصاب المزور . فتابعت طريقي حتى برشلونة ، مقام الأدب ، ومأوى الغرباء ، ومستشفى الفقراء ، ووطن الشجعان البواسل وملاذ المظلومين ، والمركز المشترك لكل الصداقات المخلصة ، والخلاصة أن هذه المدينة في أجمل بقعة في العالم . ولئن لم تكن الأحداث التي وقعت لي هناك سارة ، فإن لذة رؤيتها جعلتني أتحملها . وأخيرا ، يا سيدي طرفيه ، أنا كيخوته الذي ذاع صيته في العالم ، لا ذلك البائس الذي أراد اغتصاب اسمي والتشرف بأفكاري . إني أسألك فضلا لا تستطيع أن تأباه علي بوصفي فارسا ، وهو أن توقع لي ، عند قاضي الناحية ، على إقرار تقر فيه أنك لم ترني طول حياتك قبل الآن ، وإني لست ذلك الدون كيخوته الذي يتحدث عنه ذلك الكتاب الجديد ، ولا سنشو سانسي هو ذلك السنشو الذي تعرفه» .

فأجاب دون ألبرو : «سأفعل هذا حبا وكرامة ، لأنه من الأمور الجديرة بالإعجاب أن يرى المرء في وقت واحد دون كيخوتيين وسنشوين ، متطابقين في الاسم ، مختلفين في الأفعال . وأنا أشك فيما رأته عيناي ، وأرى أن الأحداث التي وقعت لي خيالية وهمية» .

فقال سنشو : «أراهن ، يا سيدي أنك مسحور مثل السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وأرجو الله ألا يتعلق رفع السحر عنك إلا بثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة ، مثل تلك التي علي أن أجلد نفسي بها من أجلها ، وسأضرب نفسي بها عن طيب خاطر ، وبدون فوائد » .

فقال دون ألبرو : لا أعرف ماذا تقصد بهذه الجلدات .

فأجاب سنشو : هذه حكاية شرحها يطول ، وسأخبرك بها إن سرنا في الطريق نفسه .

وجاءت ساعة العشاء فتعشى الفارسان معا . ولما كانا على المائدة ، دخل قاضي الناحية الفندق ومعه الموثق . فطلب منه دون كيخوته أن يسجل الاقرار الذي طلبه من السيد دون البرو طرفيه ، الحاضر هنا ، وينص على أن هذا السيد لم ير دون كيخوته قبل الآن ، وأنه ليس دون كيخوته المذكور في كتاب أبيانيدا الذي من مواليد توردسياس . فقام القاضي بالتوثيق القانوني ، واستوفى الاقرار كل القواعد الشكلية ، واغتبط دون كيخوته وسنشو لهذا كل الاغتباط ، وكأن المسألة مهمة كل الأهمية ، وكأنه لم يكن يكفي كلامهما وأعمالهما لتمييزهما تمييزا دقيقا .

وتبادل الفارسان التحيات الحارة المتواصلة ، وكشف بطل المنتشا عن حكمة وعقل أتما رفع الغشاوة عن عيني دون البرو الذي عد من السحر أن يكون قد شاهد دون كيخوتين مختلفين عن بعضهما البعض كل الاختلاف .

وأظلم الليل ، فارتحلا من الفندق ، وافترقا بعد نصف فرسخ ، واتخذ كل منهما طريقه . وكان دون كيخوته ذكر لدون البرو نبأ هزيمته ، وانسحار دلثنيا ، والوسيلة لرفعه ؛ وكانت موضوعات جديدة عليه أثارت إعجابه . وتعانق الفارسان وافترقا .

وأمضى دون كيخوته ليلته تحت الأشجار ، ليهيء لسنشو الوسيلة لمواصلة جلده . وأخذ هذا ينفذ العملية مثلما فعل في الليلة السابقة ، أي على حساب لحاء الأشجار ؛ أما كتفاه فقد صانهما إلى حد أنه ما كان ليبعد عنهما ذبابة لو حطت عليهما . ودون كيخوته ، المخدوع دائما ، لم يغفل أية ضربة من حسابه ، ووجد أنه في هاتين الليلتين مجتمعتين تمت ثلاثة آلاف وتسع وعشرون جلدة . وفي هذا اليوم بدا أن الشمس قد بزغت قبل أوانها المعتاد ، لتكون شاهدا على تضحية سنشو . فأخذ المسافران في الرحيل ، وتحدثا في الخطأ الذي وجدا عليه دون البرو ، وفي الفكرة البارعة التي خطرت ببالهما بجعله يوقع إقرارا صحيحا موثقا مستوفى .

وتابعا المسير طوال النهار دون أن يقع لهما أمر خليق بالذكر . وفي الليل أتم سنشو مهمته ، مما اغتبط له دون كيخوته أيما اغتباط ، وصار ينتظر النهار بصبر نافد ليرى هل سيلقى في الطريق سيدته دلثنيا وقد رفع السحر عنها . ولهذا فإنه لم يطلع النهار حتى كان يتفرس في كل النسوة المارات ليرى لعلها أن تكون إياها ، نظرا لثقته الشديدة بوعد مرلان ، ووصل مليئا بالأماني والرجاء ، إلى قمة رابية منها تشاهد قريته . وعند هذا المنظر جثا سنشو على ركبتيه وصاح :

ـ افتح عيونك ، أيها الوطن الذي طال اشتياقنا إليه ، لترى عودة ابنك سنشو ، لا غنيا ، بل مجلودا خير جلد . وافتح ذراعيك ، واستقبل ابنك دون كيخوته ، الذي وإن عاد مهزوما بواسطة ساعد غريب ، فهو على الأقل قد انتصر على نفسه ، وهذا بحسب ما قال ـ أعظم انتصار يمكن الظفر به . معي مال ؛ لأني إذا كنت قد تلقيت جلدات عظيمة ، فإني عوضت عنها خير تعويض .

فقال دون كيخوته : دعك من هذه الترهات ياسنشو ؛ ولندخل قريتنا باحترام ، ولنطلق فيها لخيالنا العنان ، ونشتغل بالحياة الرعوية التي ينبغي علينا أن نسلكها .

ولما قال هذه الكلمات نزل السفح واقترب من مكان مولده .

الفصل الثالث والسبعون

النذر التي تجلت لدون كيخوته عند دخول قريته
وحوادث أخرى ترفع من شأن هذا التاريخ العظيم

يروي سيدي حامد أنه لدى مدخل القرية لقي دون كيخوته طفلين يتعاركان ، وأحدهما يقول للآخر : «لا تعذب نفسك كثيرا هكذا يا بريكيو ، فإنك لن تراها في حياتك» . فصاح دون كيخوته : «هل سمعت يا سنشو ما يقوله هذا الطفل : لن تراها في حياتك .» ـ فقال سنشو : «وماذا يهم فيما يقوله هذا الطفل ؟» ـ فقال دون كيخوته : «كيف ، ماذا يهم ؟ ألا ترى أن هذه العبارة تنطبق على آمالي ، وأن معنى ذلك أنني لن أرى دلثنيا في حياتي ؟» .

وكان سنشو على وشك أن يجيب حين جاء أرنب بري ، يطارده الصيادون والكلاب السلوقية ، فلطى عند حوافر الحمار . فأمسك به سنشو وقدمه إلى دون كيخوته وكان لا يكف عن ترديد هذه العبارة : «نذير شؤم ، نذير شؤم : أرنب بري يهرب ، والكلاب تطارده ، ودلثنيا لا تظهر» .

فقال سنشو : «الحق أنك رجل غريب . لنفترض أن هذا الأرنب البري هو دلثنيا ، وأن الكلاب التي تطارده هي السحرة الأوغاد الذين حولوها إلى فلاحة ؛ فهربت ، وأمسكت بها ، وهأنذا أضعها تحت سلطانك ، وها أنت ذا تمسك بها بين ذراعيك ، تلاطفها وتربت عليه ، فأي نذير شؤم في هذا ؟ وأي نذير سوء يمكن أن يستخلص منه ؟» .

وفي هذه اللحظة اقترب الطفلان المتنازعان ليشاهدا الأرنب البري ؛ فسألهما سنشو فيم يتنازعان . فأجاب أحدهما أن النزاع يدور حول قفص صراصير أخذه من الآخر ولا يريد أن يرده إليه . فأخرج سنشو من جيبه قطعة صغيرة من العملة النقدية وأعطاها للطفل الصغير ، وأخذ منه القفص ،وأعطاه لدون كيخوته وهو يقول : «ها هي ذي النذر قد تحطمت ، وهي لا شأن لها بمغامرتنا كما لا شأن لثلوج الماضي ، وإلا فأنا مغفل . وإن صدقت ذاكرتي ، فإني

أذكر أن قسيسنا قال إن الأتقياء العقلاء لا يتوقفون عند هذه الترهات . وأنت نفسك قلت لي منذ أيام أن الأتقياء الذين يستشيرون النذر هم حمقى . ولا نتوقفن هنا أكثر من هذا ، ولندخل قريتنا » .

وجاء الصيادون ، وطلبوا الأرنب ، فأعطي لهم . وعند مداخل القرية وجد دون كيخوته في مرج القسيس وكرسكو يصليان . وخليق بالذكر أن سنشو ألقى على الأسلحة التي يحملها الحمار الرداء من البوكاسين[1] المزوق بالشعلات الذي ألبسوه إياه في القصر ليلة بعث التسيدورا ، وان الحمار كان يحمل على رأسه القلنسوة المحدودبة التي رسمت فيها العفاريت ، مما كان أغرب زينة وضعت على حمار . ولم يكد حامل البكالوريا والقسيس يتعرفان صاحبينا العائدين حتى هرعا مفتوحي الذراعين . وعانقهما دون كيخوته بحرارة . والأطفال ، وعيونهم حادة مثل عيون لنقوس ، شاهدوا في الحال قلنسوة الحمار فتداعوا وقالوا : تعالى ، تعالوا ، انظروا إلى حمار سنشو وهو أفخر من منجو[2] ، وفرس دون كيخوته وهو أعجف وأشد نحولا مما كان قبل أن يرحل» .

ثم دخل القرية كل هذا الموكب ، وتوجه إلى بيت دون كيخوته ، فوجدوا لدى الباب بنت أخته والخادمة ، وقد علمتا بنبأ وصولهما . كذلك عرفت تريزه پنثا بالخبر ، فهرعت ، نصف لابسة ، وشعرها أشعث ، وتمسك بيدها بنتها سنتشيكا . ولما لم تر سنشو بزي الحاكم قالت : ماذا يا عزيزي! لقد أتيت ماشيا على قدميك ويبدو عليك التعب والإعياء! عليك سيماء السكران لا السلطان! » .

فقال سنشو : اخرسي يا تريزه ، اخرسي ؛ كثيرا ما يحدث أنه حيث يوجد كعوب يوجد شحم . لنذهب إلى بيتنا ، وستعرفين العجائب . معي مال ، وهذا هو الأهم ، مال كسبته من اجتهادي ، ودون أن أؤذي أحدا .

فقالت تريزه : أتيت بنقود ، أي سنشو الطيب ، على الرحب والسعة ؛ لا يهم كيف كسبتها ، فأنت لم تأت ببدع جديد .

وعانقت سنتشيكا أباها ، وسألته هل أتاها بهدية ، وقالت له أنها كانت تنتظره كندى

---

(١) نوع من القماش من القطن يستخدم بطانة .

(٢) منجو ربولجو ، اسم مستعار لمؤلف بعض الأغاني الساخرة ضد حكم هنريكو الرابع (١٤٥٤ ـ ١٤٧٤) . وقد نظمت فيه أغان شعبية من بينها هذه :

آه! يا منجو ربولجو ، آه ، آه!
ماذا صنعت بصدريتك من الجوخ الأزرق ؟
ألا تلبسها في أيام الآحاد ؟ .



دون كيخوته يعود مهزوماً الى قريته

شهر أيار (مايو) . وجرته من جانب ، وسحبت الحمار وراءها ، وتريزه من الجانب الآخر ، ومضى الثلاثة إلى بيتهم ، تاركين دون كيخوته بين أيدي بنت أخته وخادمته ، وبصحبة حامل البكالوريا والقسيس .

ولم يكد دون كيخوته يدخل بيته حتى انتحى بصاحبيه ، وروى لهما بايجاز خبر هزيمته ، والتزامه بالبقاء في بيته طوال عام كامل ، ونيته في الوفاء بهذا العهد حرفيا ، دون أن يحيد عنه قيد أنملة ، كما هو واجب كل فارس جوال مخلص . ثم أبلغهما مشروعه في أن يصير راعيا أثناء ذلك العام ، وأن يعيش في وحدة الحقول ، حيث يستطيع أن يطلق العنان بكل حرية لأفكاره الغرامية وهو يمارس مهنة الراعي الفاضلة . ورجاهما ، إذا لم تحتجزهما أمور أهم ، أن يكونا في صحبته ، وقال إنه سيتكفل بشراء قطيع يكفي كي يطلق عليهم اسم الرعاة . وأضاف أن المهم قد تم ، وذلك أنه وجد أسماء تليق بهم تماما . فسأله القسيس : « وما هذه الأسماء ؟ » ـ فأجاب : « أنا سأدعى الراعي كيختيث ؛ وحامل البكالوريا سيدعى كرسكون ؛ وأنت يا سيدي القسيس ستدعى كوريمبرو ؛ وسنشو سيدعى بنثينو » .

ويعلم اللّه كم دهش حامل البكالوريا والقسيس من الجنون الجديد الذي أصاب دون كيخوته . ومع ذلك ، وحتى لا يعود مرة أخرى إلى فروسياته ، وعلى أمل أن يشفى خلال عام ، تظاهرا بالموافقة على مشروعه وأنه مشروع حكيم معقول ، ووعداه بأن يكونا معه . وقال كرسكو : «أنا ، كما يعرف الناس جميعا ، شاعر ممتاز . وفي كل ساعة أنظم قصائد رعوية ، وشعرا غزليا ، أو كما يأتيني ؛ وسنتحادث في الخلوات التي سنذهب إليها . لكن يا سادتي ، المهم هو أن يختار كل واحد الراعية التي يود أن يتغنى بها في أشعاره ، وألا ندع شجرة ، مهما كانت صلبة ، دون أن ننقش عليها أسماءنا ، كما جرى العرف بذلك بين الرعاة العاشقين » .

فقال دون كيخوته : « هذا مدهش ؛ أما عن نفسي فلست بحاجة إلى البحث عن اسم راعية خيالية ، لأن عندي المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، مجد هذه الشواطئ ، وزينة هذه المروج ، وسند الجمال ، وزهرة اللطف ، وأجدر الناس بالمديح والإطراء البالغ » .

فقال القسيس : أنت على حق ؛ أما نحن فسنبحث عن راعيات أقل كمالا ، تناسبنا .

فقال كرسكو : وإذا لم نجد ، فلنستعر الأسماء التي نجدها في الكتب وبها امتلأ العالم : فيليس ، أمريليس ، ديانا ، فلوريدا ، غلاطيه ، بليسارده ؛ وما دامت تباع في السوق ، ففي وسعنا أن نشتري منها ونتخذها لنا ، فإذا كانت سيدتي ، أو بالأحرى راعيتي ، تسمى أنه ، فسأتغنى بها تحت اسم : أنرده ، وإذا كان اسمها فرنشسكا ، فسأطلق عليها

اسم فرنثينا ؛ وإن كان اسمها لوثيا ، سميتها لوثنده ؛ وكل هذا يجري من المنبع . وإذا دخل سنشو في جماعتنا أطلق على زوجته تريزه پنثا اسم ترزنيا » .

فتضاحك دون كيخوته من هذه الأسماء . وأثنى القسيس عليه كثيرا لهذا القرار المخلص ، ووعده مرة أخرى بمرافقته طوال المدة التي تسمح له بها واجبات عمله . وهنالك تركه الصاحبان ، وأوصياه بالاهتمام بصحته ، وبحسن التغذية .

ويشاء الحظ أن تسمع بنت الأخت والخادمة هذا الحديث ؛ فلم يكد الرجلان يذهبان حتى دخلتا على دون كيخوته ، وقالت له بنت أخته : « ما هذا يا خالي ؟ لقد حسبنا أنك عدت على نية البقاء معنا وسلوك حياة هادئة شريفة ؛ والآن تريد أن تلقي بنفسك في أتاويه جديدة ، وتصبح

راعيا ، يا من أتيت ،

راعيا ، هل أنت ذاهب ؟[1]

الحق أن القصيل[2] جاس لا يمكن أن يصنع منه أنابيب القصب .

وقالت الخادمة : وأنى لك أن تتحمل حمّارة القيظ في الصيف وصبّارة القر في الشتاء ، وعواء الذئاب في تلك البراري! إن مهنة الراعي للرجال الأشداء الأصلاب الذين نشأوا فيها منذ الصغر . شر بشر ، الأفضل أن تكون فارسا جوالا من أن تكون راعيا . صدقني يا سيدي ، واتبع نصيحتي ، التي أسديها إليك لا وأنا سكرى ، بل وأنا صائمة ، وسني الخمسون . ابق في بيتك ، واهتم بتثمير مالك ، واعترف بخطاياك ، وأحسن إلى الفقراء ؛ وإن حدث لك سوء فعلي وزره » .

فقال دون كيخوته : اسكتي يا بنتي ، أنا أعرف ماذا أصنع . أرقداني فإني أشعر بوعكة ؛ وتأكدا أنه سواء كنت فارسا جوالا أو راعيا ، فسأوفر لكما ما تحتاجان إليه ؛ وسترون ذلك بالنتائج » .

فوضعته بنت الأخت والخادمة في سريره ، وكانتا فتاتين طيبتين ، وعاملتاه خير معاملة في وسعهما بذلها .

---

(١) إشارة إلى أغنية من أغاني عيد الميلاد ، أوردها كليمنثن ، وتقول : « أيها الراعي الصغير ، يا من أنت قادم (من حيث تقيم حبيبتي) ، قل ، أية أخبار هناك ؟ »

(٢) الكلمة العربية موجودة في الأصل الاسباني Alcncel ، والقصيل هو الشعير يجز أخضر لعلف الدواب ، سمي به لسرعة اقتصاله من رخاصته ، والفقهاء تسمى الزرع قبل إدراكه قصيلا .

الفصل الرابع والسبعون

مرض دون كيخوته، ووصيته، ووفاته

كل من عليها فان ، ينحل شيئا فشيئا ، من الميلاد حتى النهاية الأخيرة وهكذا الشأن في الحياة الإنسانية . وحياة دون كيخوته لم تظفر من السماء بميزة الامتداد في مجراها ، فبلغت أجلها حين لم يكن ذلك في خاطر أحد . ولست أدري هل هو الحزن بسبب هزيمته ، أو ارادة السماء هي التي اقتضت ذلك ؛ لقد أصابته الحمى ، فألزمته الفراش ستة أيام . وكان القسيس ، وحامل البكالوريا ، والحلاق يعودونه مرارا ، وسنشو ، السائس الطيب ، لم يفارق مخدة فراشه . وكان أصحابه هؤلاء مقتنعين بأن مرضه ناشئ عن ذكرى هزيمته وعن اغتمامه لعدم رفع السحر عن دلثنيا ، ولهذا اهتموا بالترويح عنه وتسليته وصرف الهموم عن خاطره . وحثه كرسكو على أن يتشجع ، وينهض ليبدأوا الحياة الرعوية . وقال له انه قد نظم فعلا قصيدة رعوية لا تقل شأوا عن رعويات سنازارو[1] ، وأنه اشترى من ماله الخاص كلبين عظيمين لحراسة قطيعه ، أحدهما اسمه برثينو[2] والآخر اسمه بطرون ، وقد اشتراهما من راع من قنطنار .

لكن لم يفلح شيء في تسرية الأحزان عن دون كيخوته . ودعي طبيب ، فجسّ نبضه ، ولم يرض عنه . وقال ان على المريض أن يعنى بنجاة روحه ، لأن حياته في خطر شديد . فتلقى دون كيخوته هذا النبأ بهدوء ، وهو ما لم تستطعه بنت الأخت ولا الخادمة

---

(١) شاعر ايطالي ولد في نابلي سنة ١٥٢٠ ، وكان في رعاية الأمراء الأرغونين . وبعد سقوط فردريجو الأرغوني ، وضم مملكة نابلي الى أسبانية بقى مخلصا لذكراهم ، بالرغم من محاولات غنصالبة القرطبي ، قائد فرتندو الكاثوليكي ، لجذبه الى صفه . وله أشعار باللغة اللاتينية ، كبيرة القيمة ، (منها : في ولادة العذراء ، ثلاث قصائد ، حور ورثاء على موت المسيح ، خمس رعويات بحرية) ، وقصائد بالايطالية (أركاديا ، سنة ١٥٠٤ ، سوناتات ، وأغاني ، سنة ١٥٢٠) . وقد أطلق عليه اسم فرجيل النصرانية .

(٢) اسم يطلق على الكلب أو الثور ذي اللون الأبيض والأسمر (أو الرمادي) وأحيانا على ذي اللون المحمر .

ولا سنشو فأخذوا في البكاء ، معتقدين أنه مات فعلا . فقال الطبيب : «هذه الدموع ، وهذا الحزن ، ستجهز عليه» . فطلب منهم دون كيخوته أن يتركوه وحده ، لأنه يريد أن ينام قليلا .

فنام نومة متصلة طوال ست ساعات ، وخشيت السيدتان ألا يفيق أبدا . ولكنه فتح عينيه ، وصاح بصوت قوي : «تبارك الله العلي القدير على من أنعم علي به! ان رحمته واسعة لا تحد : وخطايا الناس لا تضعفها ولا تطفئها» . وأصغت بنت الأخت في صمت الى كلام خالها ، وقد بدا موفور العقل أكثر من المعتاد . فقالت له : «ماذا تقصد يا خالي العزيز . وعن أية خطايا ، وأية رحمة تتكلم ؟» .

فقال دون كيخوته : «عن الرحمة التي وهبني الله منذ قليل ، ولم تمنعها خطاياي وذنوبي . ان تمييزي الآن حر سليم ، دون أية سحابة من ذلك الجهل الذي نشرته على قراءتي المستديمة الخطرة لكتب الفروسية الكريهة هذه ؛ والآن أقر بما فيها من أكاذيب وأقوال جنونية . ولست آسف إلا على شيء واحد ، هو أن زوال الغشاوة عني قد أتى متأخرا بحيث لن أستطيع تعويض الزمن الضائع ، بقراءة كتب أخرى تلقى النور في عقلي . إني أشعر باقتراب أجلي ، يا بنت أختي العزيزة ، وبودي أن أموت دون أن أحمل معي الى القبر لقب «مجنون» ، وإن كنت كذلك طوال حياتي . نادى ، أي بنت أختي العزيزة ، أصدقائي : القسيس ، وحامل البكالوريا ، والأسطى نقولا الحلاق : إني أريد أن أعترف ، وأن أملي وصيتي» . ولم تحتج بنت الأخت إلى السعي لإحضارهم ، لأن ثلاثتهم جاءوا .

ولم يكد دون كيخوته يلمحهم حتى صاح :

- «هنئوني يا أصدقائي ، على أني لم أعد بعد دون كيخوته دلا منتشا ، بل ألونسو كيخانو الملقب بالطيب . وأعلن أنني عدو أماديس الغالي وكل بني جلدته . وكل الأقاصيص الخاصة بالفروسية الجوالة بغيضة عندي ؛ وأعترف بجنوني وبالخطر الذي أوقعتني فيه هذه القراءة المدمرة . لكن برحمة الله أصبحت عاقلا على حسابي ، وصرت أكرهها» .

ولما سمع الأصدقاء الثلاثة هذا الكلام اعتقدوا أنه أصيب بجنون جديد . فقال له سمسون كرسكو : «الآن وقد علمنا أن السحر رفع عن دلثنيا ، نراك تتكلم هكذا ؟ نحن على ثبات أن نصير رعاة ، وأن نعيش ، ونحن نغني ، عيشة الأمراء ، وتريد أن تصبح راهبا ؟ اسكت ، وثب إلى رشدك ، ودعك من هذا الكلام» .

فأجاب دون كيخوته : «يا أصحابي! إن ما تسبب حتى الآن في ضياعي ، سيتحول



دون كيخوته على فراش الموت

الآن ، بعون السماء ، إلى مصلحتي ، بواسطة موتي . إني أشعر بالحياة تفر مني ، فلندع هذه المداعبات ؛ إني في حاجة إلى من يتلقى مني الاعتراف ، وإلى موثق لإملاء وصيتي . في الموقف الذي أنا فيه ، ينبغي على المرء ألا يسخر من روحه . وهكذا ، أرجوكم أن يذهب أحد لاحضار موثق ، بينما يتلقى القسيس اعترافي » .

فتطلع كل الحاضرين بعضهم في بعض ، مدهوشين من سلامة عقله ، وإن كانوا لا يكادون يصدقون ؛ وما بدا لهم علامة مؤكدة على وفاته هو السرعة التي بها صار عاقلا . ثم إنه أضاف إلى كلامه الأول كلاما آخر كثيرا كلاما يبين عن عقل وتقوى ، حتى لم يبق ثمّ شك في شفاء عقله . وطلب القسيس من الجميع أن يخرجوا ، وبقي معه ليتلقى منه الاعتراف . وخرج حامل الاجازة ليبحث عن موثق ، وأتى به بعد قليل مع سنشو پنثا . ولما علم سنشو المسكين من كرسكو سوء حال مولاه ووجد السيدتين تبكيان ، بدأ يتنهد ويسفح العبرات . ولما انتهى الاعتراف خرج القسيس وهو يقول : « إنه يموت فعلا ، ألونسو كيخانو هذا الرجل الطيب ، وهو في تمام عقله ؛ وقد حان الوقت ليملي وصيته » . وأطلقت هذه العبارات السدود عن زفرات المرأتين وسنشو ، وراحوا يسفحون الدمع الهتون ؛ لأنه ، كما رأينا ، طالما كان دون كيخوته هو ألونسو كيخانو الطيب ، فقط ، وطالما كان دون كيخوته دلا منتشا ، فقد كان دائما رقيق المزاج حلو المعشر ، جميل الشمائل . ولهذا أحبه أهل بيته ، وأحبه كل أهالي قريته .

ودخل الموثق يتبعه الجميع ؛ وأملى دون كيخوته الاستهلال وكل الصيغ المسيحية المستعملة ، ثم أمر بما يلي :

« وكذلك ، كل النقود التي لي وهي في يد سنشو پنثا ، الذي كنت في جنوني أسميه سانسي ، لما كانت توجد بيننا بعض حسابات الداخل والخارج ، فإني أطلب ألا يطالب بأي حساب ، بأية دعوى كائنة ما كانت ، وحين يدفع له كل ما أدين به له ، فالباقي ، وهو قليل ، يصبح ملكا له ، والله يوفقه . ولما كنت في أثناء جنوني ، قد هيأت له الحصول على حكم جزيرة ، فإني أود ، الآن وقد صرت عاقلا ، لو كان في وسعي أن أعطيه مملكة ، لأن إخلاصه وأمانته يستحقان ذلك » .

ثم تلفت إلى ناحية سنشو وقال له : « اغفر لي ، يا صديقي ، الفرص التي هيأتها لك لتبدو مجنونا مثلي ، بجعلك تقع في الخطأ الذي كنت أنا واقعا فيه ، وهو الاعتقاد أنه يوجد في العالم فرسان جوالة » .

فصاح سنشو وهو يبكي : « آه ، يا سيدي! لا تدع نفسك تموت ، بل اتبع نصيحتي ،

وهي أن تعيش سنوات طوالا . إن أكبر جنون يمكن أن يرتكبه الإنسان هو أن يدع الإنسان نفسه يموت دون أن يقتله أحد ، ودون أن يجهز عليه شيء غير الحزن . لا تدع اليأس يتسرب ويستولي على قلبك . انهض وقم ، ولنذهب إلى الحقول ، مرتدين أزياء الرعاة كما اتفقنا . فلربما وجدنا خلف إحدى الخمائل السيدة دلثنيا وقد رفع السحر عنها ، ولن يبقى ثم شيء ينبغي فعله . وإذا كان الغم من هزيمتك هو الذي يجعلك تموت ، فسأتحمل أنا الوزر على كاهلي ، بأن أؤكد أنك لم تنهزم إلا لأنني أسأت شد السرج على روثينانته . على أنك قد شاهدت في كتب الفروسية أنه أمر معتاد أن يرى فارس قد صرعه فارس آخر ، وأن المهزوم اليوم ، سيكون غدا الظافر » .

فقال كرسكو : « سنشو على حق ، ويروي الأمر على حقيقته كما وقع » .

فقال دون كيخوته : « سيدي ، لا تتعجلن . لقد كنت مجنونا ، والآن صرت عاقلا . لقد كنت دون كيخوته دلا منتشا ، وأنا الآن ، كما قلت لكم ، ألونسو كيخانو الطيب . ولعل توبتي وصدق مشاعري أن يستردا احترامكم السابق لي ، وليستمر الموثق .

« وكذلك أوصي بأن تكون وريثتي الوحيدة الشاملة لكل أملاكي هي أنطونينا كيخانا ، بنت أختي ، الحاضرة هنا . وبعد خصم مبلغ الوصايا التي قمت بها من أملاكي ، فأول دفع يتم هو دفع ما علي لخادمتي ، وأن يعطي لها ، بالاضافة إلى هذا ، عشرون دوقية لشراء ثوب . وأوصى بأن يكون الوصيان[١] هما السيد القسيس وحامل البكالوريا سمسون كرسكو الحاضران هنا .

« وكذلك ، في الحالة التي تريد فيها المذكورة أنطونينا كيخانا ، بنت أختي ، أن تتزوج ، فإني أوصي بأن يكون زواجها من رجل يعرف عنه ، بعد العلم الدقيق ، أنه لم يقرأ أبدا كتب الفروسية ؛ وإذا تبين أنه قرأها وأصرت بنت أختي على الزواج منه ، فإني أقرر أن تحرم من كل الميراث الذي تركته لها ، وأن يتولى منفذا الوصية صرفه في أوجه البر حسبما يريان .

« وكذلك ، أرجو من منفذي الوصية المذكورين ، إذا تصادف وعرفا من هو مؤلف القسم الثاني من تاريخ دون كيخوته دلا منتشا ، أن يستميحاه العذر باسمي ، بغاية الأدب ، من أجل أني ، دون أن أدري ، هيأت له الفرصة لكتابة كل هذه الترهات الجنونية . وإني أحمل معي التأنيب على هذه الغلطة غير الإرادية » .

(١) في النص الاسباني هذه الكلمة العربية .

ولما انتهت الوصية ، أصيب بنوبة ، وتمدد في فراشه . فأسعفوه ، وطوال الأيام الثلاثة التالية التي بقي إبانها في قيد الحياة ، كان يصاب بنوبات إغماء باستمرار . وكان البيت كله في حالة طوارئ ؛ لكن هذا لم يمنع بنت الأخت من الأكل ، ولا الخادمة من الشرب ، ولا سنشو من الاغتباط ، لأن الميراث يخفف الآلام التي يستشعرها الإنسان من موت المرحوم .

وأخيرا جاء آخر يوم في حياة دون كيخوته ؛ فتلقى المراسم الدينية ، بعد أن لعن كتب الفروسية ألف لعنة . وقال الموثق ، وقد حضر وفاته ، إنه لم يقرأ في أي كتاب من كتب الفروسية أن فارسا جوالا مات في فراشه ، بهذا الهدوء وهذه التقوى اللذين أبداهما دون كيخوته ، الذي لفظ النفس الأخير وسط الزفرات والعبرات التي أطلقها الحاضرين . وطلب القسيس من الموثق أن يعطيه شهادة بأن ألونسو كيخانو ، الملقب بالطيب ، والمعروف عامة باسم دون كيخوته دلا منتشا ، قد فارق الحياة ومات ميتة طبيعية ؛ وهذه الشهادة سيستفيد منها ضد كل مؤلف آخر ، غير سيدي حامد بن الأيل ، يدعي زورا بعثه ومتابعة تاريخ أعماله حتى اللانهاية .

تلك هي نهاية البارع النبيل المنتشاوي ، الذي لم يشأ سيدي حامد أن يدلنا على بلده بالدقة ، حتى تتنافس كل مدن وقرى اقليم المنتشا وتتنازع شرف مولده ، مثلما فعلت قديما مدن اليونان في تنازعها على مولد هوميروس . لنسحب ذيول الصمت على نواح سنشو وبنت الأخت والخادمة . ونغفل أيضا المراثي التي قيلت في رثائه وعلى شرفه . لكن هذه ، مع ذلك ، مرثية سمسون كرسكو :

«هنا يرقد النبيل الباسل
الذي بلغ الغايات بشجاعته
ولوحظ أن الموت لم يستطع
أن يقهر حياته بالهلاك
تحدى الدنيا بأسرها
وكان مثار الخوف والرهبة
في العالم في ظروف مواتية
حتى أن ما أمن له السعادة
هو أنه مات عاقلا بعد أن كان مجنونا »

وسيدي حامد ، صاحب العقل الراجح ، يوجه هذه الكلمات إلى قلمه :

« أي قلمي الصغير ، جيد البري كنت أو رديئه ، ابق معلقا في هذا المسمار بهذا السلك من النحاس . وستبقى قرونا طويلة إذا لم ينتزعك مؤرخون لصوص ليدنسوك . لكن قبل أن يمسوك ، تستطيع أن تقول لهم بأعلى صوتك[١] :

« كفّوا ، كفّوا ، يا أوغاد

ألا لا يمسسني أحد ؛

لأن هذه المهمة ، بأمر الملك الطيب ،

مخصصة لي وحدي » .

« نعم ، من أجلي أنا ولد دون كيخوته ، وأنا ولدت من أجله . لقد عرف كيف يفعل ، وأنا عرفت كيف أكتب . وكلانا واحد ، على الرغم من ذلك الكويتب الداعي أنه من توردسياس ، الذي تطاول ، بقلم غليظ سيء البري ، على أعمال فارسي المغوار وأراد وصفها . وما هذا بالحمل الذي ينهض به كتفاه ، ولا بالموضوع الذي يقوى عليه عقله الكليل البارد . وقل له ، إن رأيته ، أن يدع عظام دون كيخوته المتعفنة ترقد في سلام ، ولا يحاول ، ضد قرارات الموت ، أن يعرضه على قشتالة القديمة[٢] ، وأن يخرجه من قبره ، حيث يرقد حقا وفعلا بطوله ، عاجزا عن القيام بأية خرجة جديدة ويوم ثالث[٣] .

« وللاستهزاء بكل قصص الفرسان الجوالة حسبنا هذان اليومان[٤] ، اللذان حظيا برضا كل الذين قرأوهما ، وحتى في البلاد الأجنبية . وأنت بهذا تؤدي واجباتك في مهنتك

---

(١) يبدو أن هذه المقطوعة قد صنعت على غرار مقطوعة لخينث بيرث دي هيتا تقول : « هذه المهمة ، يا سيدي ، ادخرت لي ، إن سيدتي الملكة هي التي أمرتني بها » .

(٢) إشارة إلى ما كتبه أبيانيدا في نهاية القسم الثاني من دون كيخوته الذي ألفه ، حين يقول (ورقة ٢٨٢) إن دون كيخوته ، بعد خروجه من بيت المندوب ، الذي حبس فيه مدة بسبب جنونه ، « عاد إلى حالته القديمة واشترى فرسا آخر ، وارتحل الى قشتالة القديمة ، فجرت له فيها مغامرات رائعة لم يسمع بمثلها ، وكان سائسه فتاة وجدها عند قلعة لودوني تلبس زي رجل... فأخذها هذا الفارس الطيب ، دون أن يعلم أنها امرأة ، إلى أن ولدت وهما في وسط الطريق .... فذهب ، بغير سائس ، إلى شلمنقة ، وآبله ، وبلد الوليد ، وتلقب بلقب فارس الأعمال ؛ وهذه لن تقدم قلما أفضل من هذا لتمجيدها » .

(٣) من هذا يتبين أن ثربانتس عد الخرجتين الأولى والثانية الواردتين في القسم الأول خرجة واحدة .

(٤) أي هذان القسمان اللذان يتألف منهما دون كيخوته . والواقع أن دون كيخوته قام بثلاث خرجات لا باثنتين : الأولى منها وحده ، والاثنتان الأخريان بصحبة سنشو ، وهو نفسه يقرر في بداية القسم الثاني من هذا الكتاب ما يلي : « يروي سيدي حامد بن الأيل ، في القسم الثاني من هذه القصة ، الذي يتضمن الخرجة الثالثة لدون كيخوته... »

فكيف وقع ثربانتس في هذا الإهمال الواضح ؟ يرى رودريجث مرين أن ثربانتس سها في لحظة سهو فخلط بين خرجات بطله وخرجاته هو ، أعني القسمين الاثنين اللذين كتبهما . غير أننا لاحظنا كثيرا من شواهد سهو ثربانتس في ثنايا الكتاب .

الشريفة التقية ، بإسدائك النصائح السديدة لأولئك الذين يضمرون له الأذى والإساءة : أما أنا فسأكون راضيا لأني لم أقصد إلى غاية ولم يكن لي من رغبة غير أن أبث في رفاقي الفزع الحق من الأكاذيب والترهات الجنونية التي تحفل بها كتب الفروسية ، وهي منذ ظهور دون كيخوته الحقيقي الذي من تأليفي تترنح قيمتها في نظر الرأي العام ، ولا شك في أنها ستسقط إلى الأبد . والسلام! » .

نهاية

القسم الثاني من

دون كيخوته دلا منتشا

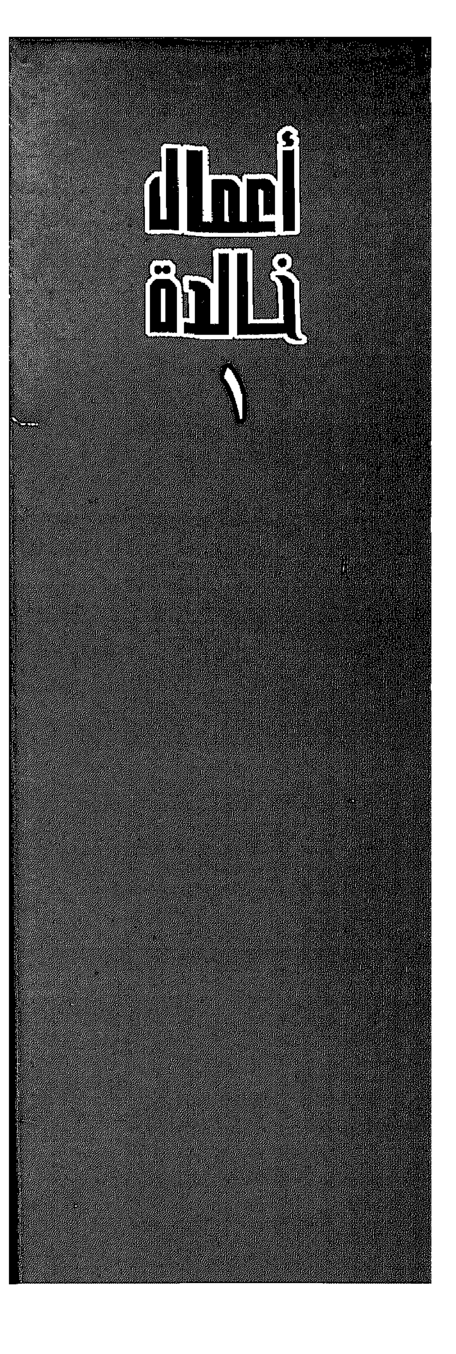
وبه

تم الكتاب

فهرس الكتاب

تتمة القسم الأول

القسم الثاني 169


أعمال
خالدة
١

ثربانتس

أعمال خالدة

دون كيخوته تجسُّد للمثال، وللقيم المجردة؛ إنه الجانب المثالي من الوجود، الذي يصرعه الجانب الواقعي، ويظل الصراع بين كلا الجانبي متصلاً، لا يفتُّ في عضده انتصار الواقع على المثال باستمرار. ومن هنا كان هذا الديالكتيك الحي الذي يمثل طرفيه كل من الفارس دون كيخوته وحامل السلاح سنشو پنثا. ولهذا كانت قصة «دون كيخوته» هي قصة الوجود نفسه بقطبيه المتنافرين المتصارعين المتنازعين، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك الوجود؛ وكانت شخصية دون كيخوته من النماذج الانسانية العليا، الى جانب پروميثيوس، وفاوست، وهاملت، ودون جوان. إن دون كيخوته يمثل روح الانسان، أما رفيقه سنشو پنثا فيمثل بدن الإنسان، هذا الرفيق الأصيل للروح.

ISBN => 2-84305-096-0
EAN => 9782843050961